الهيئة العامة للآثار والمتاحف
General Organization of Antiquities and Museums

إستطلاعات صحفية لمجلة

العربي
AL-ARABI

عن اليمن

١٩٥٨ - ٢٠١٣



العربي

نى الاولى ١٣٧٨
ديسمبر
ون الاول) ١٩٥٨



ي هذا العدد
ـدية

وجوائز
١٢٠٠
جنيها سنويا

تمر العراق
احلى تمور العالم
(انظر صفحة ٣٣)

الثمن

ـصر	٨ قروش
ـسودان	٨ قروش
ـكويت	٥ر١ روبية
ـخليج	٥ر١ روبية
ـليمن	٥ر٢ شلن
ـلعراق	١٠٠ فلس
ـلاردن	٨٠ فلسا
ـوريا	١٠٠ قرش
ـان	١٠ قرش
ـسعوديه	٥ر١ ريال
ـيبيا	١٠ قروش
ـونس	١٥٠ فرنكا
ـلمغرب	١٥٠ فرنكا

شيطان ، فى صورة نبات ، أوقع الانسان اليمنى فى فتنته ، وزاحم الاغذية البريئة فى معدته .. وجرى مجرى ابليس فى دمه .. وولج ولوج اللص الى خزائنه .. يطارده صباحا فى رؤوس الجبال .. ويؤرقه ليلا فى متاهات الخيال .. متنقلا به بين السرور والحزن ، وبين العقل والجنون !!

شيطان فى صورة

يفنى الانسان اليمنى نصف عمره ، فى صور ملونة مفتعلة ، تستهلك فيها رجولة الرجال ، وعزائم الابطال ، بتأثير « القات » .. تلك الشجرة الملعونة التى تعمل عمل الطاغية المستبد ، يتحكم فى حياة الشعب ومصيره ومصالحه !

واذا كان الفرويديون يقولون أن الطاقة الجنسية هى التفسير الحق لكل سلوك انسانى ، والماركسيون يقولون ان الاقتصاد هو السر الكامن وراء التاريخ والحضارات ، فاننا نحن اليمانيين نستطيع ان نقول ان شجرة «القات» هى الحاكم والمتحكم فى حياة الشعب العربى فى اليمن ، المتحكم حتى فى الاقتصاد ، وفى الطاقة والدوافع الجنسية .

القات والبن !

يقال ان القات وفد الى اليمن من بلاد الحبشة وتروى فى اكتشافه أقاصيص تشبه ما يروى فى اكتشاف البن .

وقد وضع أحد الكتاب الامريكيين كتابا ذكر فيه قصة شجرة البن وانتقالها من جزيرة العرب الى تركيا فأوروبا وامريكا ، وكاد أن يجعل منها شجرة

اقترح السيد صلاح البيطار احد وزراء الجمهورية العربية المتحدة على اتحاد الدول العربية تحريم زراعة القات فى اليمن واستغلال الساحات التى يزرع فيها بزراعة البن بدلا منه .. وفى المقال الحاضر يصف الكاتب مضار هذه الشجرة الملعونة وأثرها فى حياة شعبه الشعب اليمنى الشقيق ..





شجرة !!

العبقرية الخالدة . فهو يعزو الى سحر القهوة كثيرا من روائع الادب العالمي من شكسبير حتى العصور المتأخرة ، اما شجرة القات فانها آثرت العزلة ولم تستطع أن تكون شجرة للعبقرية بل حلت بها اللعنة ، اذ أصبحت مسئولة او كالمسئولة عن مصير شعب بأسره !

ممنوع شرب الماء

ولا يطيب للمولعين بمضغ القات ان يمضغوه الا اذا الهبوا احشاءهم بالظما وهم يفعلون ذلك بشتى الوسائل ويخضعون حياتهم اليومية لهذه الحاجة الكبرى . يعيشون فى حمية من الصباح حتى بعد الظهر فيتحامون اكل الفواكه وشرب الماء والسوائل وجميع الأغذية التى قد تخفف من الشعور بالعطش فيحرمون أنفسهم جانبا كبيرا من الاغذية النافعة . وهم فى الوقت نفسه يتناولون فى وجبة الصباح والغذاء ما يثير حاجتهم الى الماء بقطع النظر عن قيمته الغذائية وملاءمته للحالة الصحية لأي فرد « كالبسباس » والفلافل وسائر الحريفات. كما انهم لابد ان يسيروا سيرا عنيفا الى مسافات بعيدة أو يصعدوا الى الجبال أو يقلبوا بطونهم وظهورهم عارية فى صخور الحمامات الساخنة .

كل ذلك او بعض ذلك لابد منه لاثارة العطش ومضاعفة اللذة والنشوة عند الساعات السحرية لمضغ القات .

هل هو مخدر ؟

وهناك فكرة شائعة عن القات انه مخدر ، وقد يقول بهذه الفكرة بعض الأطباء ولكن هذا الراى لا يزال فى حاجة الى سند علمى .

وليس من السهل على الشخص الجديد على مضغ القات ان يحس بنشوته عند اول يوم لمضغه ــ فلا بد من التكرار حتى يتولد الاعتياد عليه ومن ثم يحس بأثره السحرى .

وليس صحيحا ان القات يورث الكسل بل ان مضغه يخلق نشاطا مقرونا بالارتياح الشديد وارتفاع مستوى الاحاسيس والعواطف المختلفة ، ومن الممكن لجميع المشتغلين باى عمل يدوى أو فكرى او ادارى ان يمارسوا عملهم مع مضغ القات او بعده بنشاط



بشائر المحصول الجديد : ان الفرحة بظهور بشائر محصول القات الجديد لا يعادلها فرحة فى اليمن . وها هو أحدهم يعرض هذه البشائر



نشوة .. وطرب ! : تبدأ جلسات القات من بعد الظهر ، حيث يبدأ الليل بكل مظاهره ، فتخلو الشوارع والاسواق من الناس ، ويجتمع كل فوج

اكثر ، ولكنهم تعودوا أن يجعلوا من ساعات القات عطلة يومية أبدية تستمر من بعد تناول الغداء حتى المساء لا يقضونها عادة الا فى جلسات عاطلة فارغة للمنادمة المجردة من كل هدف .وهذا هو اكبر خطر يأتى به القات . فهو يلتهم نصف عمر الشعب بدون عمل ولا انتاج ولا تفكير ولا شعور بمسئوليات الحياة .

ونشوة القات تستمر عدة ساعات لا يعقبها ــ عكس ما يقال ــ فتور أو ارتخاء جسمانى ، بل تعقبها عندكثير من الناس حالة نفسية مكتئبة ، وغالبا مايقضى ماضغ القات ساعات طويلة من الأرق والقلق والهواجس والأوهام .

القات أولا .. !

ولا يهتم الفرد اليمنى بغذائه ولا بكسائه ولا بأى حاجة من حاجات حياته كما يهتم بالقات ، يسعى للحصول عليه منذ الصباح . وقد يشغله هذا السعى عن توفير الغذاء لنفسه ولأسرته كلها وليس من النادر أن يستهلك الانغماس فى مضغ القات ثروات العائلات الغنية .

المتنزهات والمسارح فى المنازل

ولعل أعجب شيء يقال فى هذا الشأن أن شجرة القات تملى ارادتها على طراز الابنية فى المدن والقرى،وتكيف العمارات السكنية حسب مقتضيات النشوة السحرية أثناء مضغ القات .

ان غرفة مضغ القات هى السينما وهى المتنزهات وهى المسارح وهى ميادين الرياضة وهى مقهى الندامى وهى منتدى الأدباء واللاعبين وهى قاعة المحاضرات ومكتبة المطالعات .

انها حظ اليمنيين من كل وسائل التسلية التى تتمتع بها شعوب الارض.لذلك فان الذى يفكر فى بناء عمارته يجعل نصب عينيه اختيار الصورة التى تبنى بها هذه الغرفة ، ويطلق عليها اسم «المفرج» أي مكان الفرجة . وهذا المفرج يجب أن يرتفع فوق عدة أدوار حتى يستطيع أن يطل على فضاء فسيح يسميه اليمنيون « السفح » ، ويجب أن



من الاصدقاء يتعاطون القات ، ويستعينون بالموسيقى والطرب على مضاعفة نشوتهم ! ! كما ترى فى الصورة التى فوق هذا الكلام .



« المفرج » خير قاعات الدار : و « المفرج » هى الغرفة التى يجلس فيها رب الدار واصدقاؤه يتعاطون القات ، يحلقون فى عالم النشوة والخيال !

تكون قاعدة النوافذ قريبة من مستوى أرض الغرفة ليتمكن الجالس بالارض من أن يتمتع بمنظر الفضاء فتسبح به نشوة القات وتطير به كل مطار .

وهناك طراز آخر للمفرج وهو أن يكون فى الدور الأرضى ولكنه يعتاض من مناظر الفضاء الواسع ببركة ماء أمام باب المفرج تتخللها نافورات عديدة يندفع منها الماء عاليا أثناء جلسات القات وتحيط بها أشجار الحديقة المنزلية وازاهيرها .

ويجب أن يكون باب المفرج واسعا جدا بحيث يلغى ركنا كاملا من أركان الغرفة ويحولها الى جدار زجاجى شفاف .ولكن هذا الطراز من المفارج ليس منتشرا بين عامة الشعب وفى مدنه المختلفة بل لا يكاد يوجد الا فى صنعاء وضواحيها .

القات فى الانتخابات !

أما أثر القات فى السياسة فنستطيع ان نذكر له مثلا واحدا كافيا . ففى عدن صدر قانون يحرم مضغ القات فاضطر المولعون به فى المدينة الى أن يهرولوا كل يوم الى منطقة خارجها يقال لها « دار سعد » ، وهناك يجلس المهاجرون الى القات جلساتهم النشوى بعيدا جدا عن مقر اعمالهم وسكنهم ونشاطهم !

وقد ضاق الجمهور فى عدن بهذا القانون الذى شردهم ، واضطرت الادارة الانجليزية ان تستقدم بعثة من بريطانيا لدراسة موضوع القات تمهيدا لالغاء قانون منعه ، وقامت حركة تستغل رغبة الجماهير الى القات ، وقام البعض بترشيح انفسهم فى الانتخابات على أساس أنهم يتبنون المطالبة بعودة القات الى عدن والغاء قانون تحريمه !

ولكن هذا القانون اذا كان من الممكن أن تلغيه ارادة الجماهير فان هناك القوانين السماوية التى لا سلطان للناس عليها . فاين يكون المهرب اذا حال القانون السماوى دون المتعة الكاملة بساعات القات وهو الذى يحول دون اى نشاط حتى النشاط الخفيف الذى يقتضيه أداء الصلاة ؟!

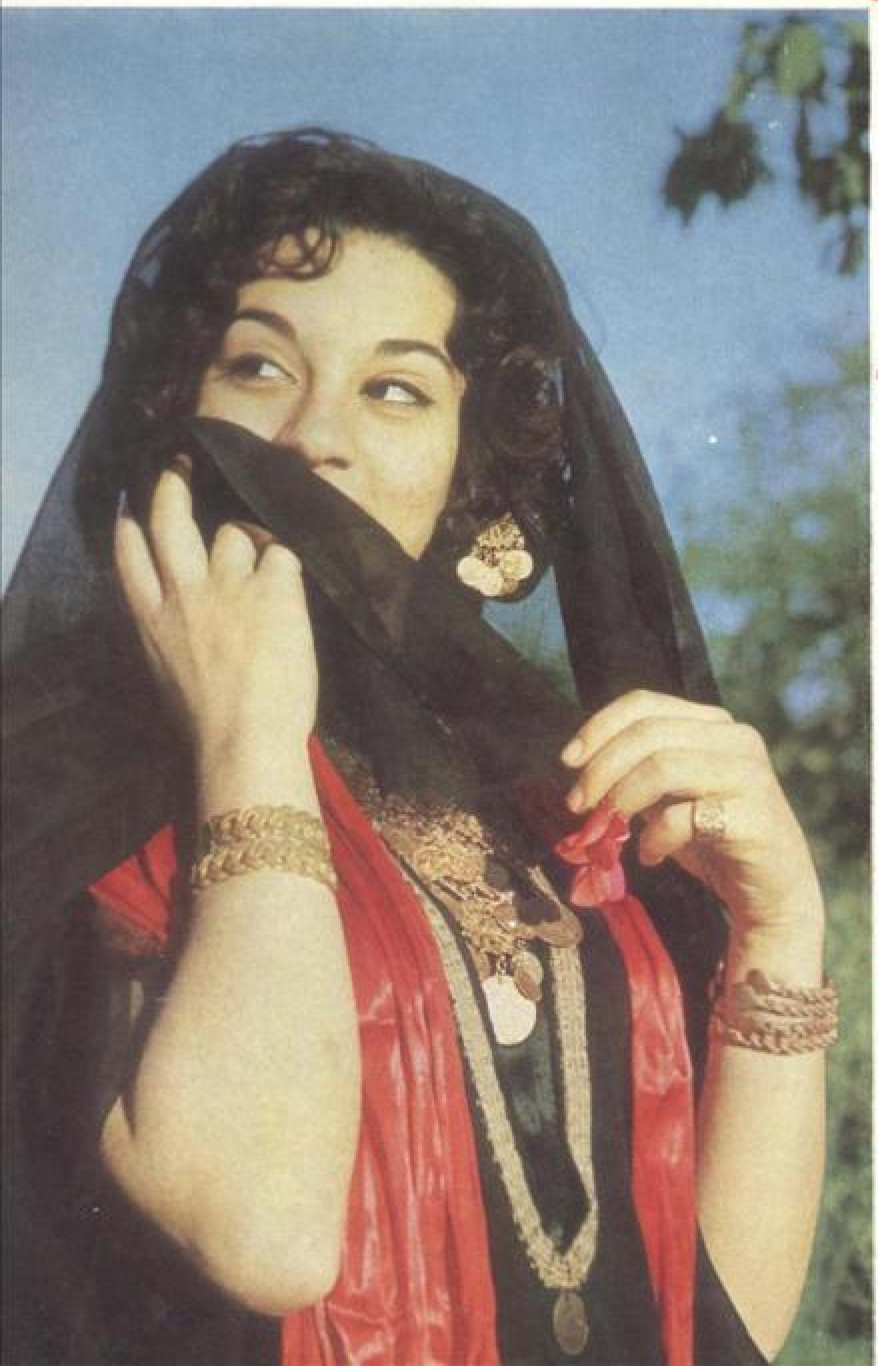
وقد وجد اليمنيون مآربهم فى المذهب الزيدى الذى يسود المناطق الجبلية العليا والذى يجيز بعض أئمته الجمع بين صلاتى الظهر والعصر فيقدمونهما قبل جلسة القات ، والمغرب والعشاء فيؤخرونهما الى اى ساعة يشاءون !

وهكذا يتحايل اليمنيون على قانون السماء كما تحايلوا على قانون الارض اذعانا لسلطان الشجرة الشيطانية العاتية !!

محمد محمود الزبيرى

العربي

العدد ٥٨
ربيع الثاني ١٣٨٣
سبتمبر
(ايلول) ١٩٦٣



مع هذا العدد
هدية
+
العربي الصغير

جوائز
١٢٠٠
دينار سنويا

عربية من الحضر
ن ثياب أهل الريف

الثمن

الكويت	١١٠	فلوس
الخليج العربي	٢	روبية
السعودية	٢	ريال
اليمن	٣ر٥	شلن
العراق	١٢٠	فلسا
لبنان	١٠٠	قرش
الأردن	١٠٠	فلس
سورية	١٠٠	قرش
ج.ع.م.	١٠	قروش
السودان	١٠	قروش
ليبيا	١٥	قرشا
تونس	٢٠٠	فرنك
الجزائر	٢٠٠	فرنك

اعرف وطنك أيها العربي

■ تنقلك «العربي» في هذا العدد الى مدينة طال الاشتياق لرؤيتها .. مدينة كانت تعيش منعزلة .. مدينة طالما تمنى المرء أن يراها على حقيقتها .. لقد طارت بعثة «العربي» خصيصا الى طرف الجزيرة لتنقل لك هذا الاستطلاع الوافي عن :

صنعاء

جوهرة مدن اليمن تفتح نوافذها وأبوابها للنسائم





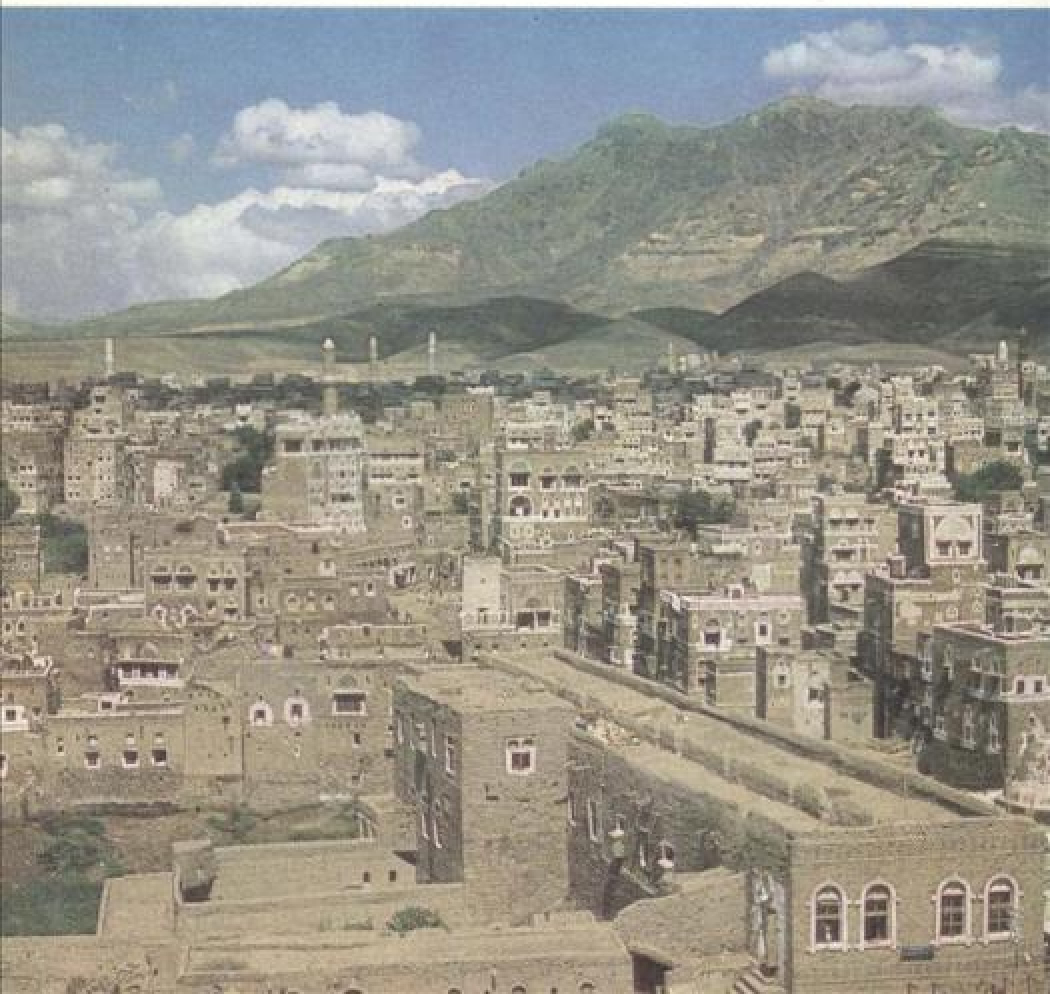
قام بهذا الاستطلاع

سليم زبال

وصوره

« أوسكار »

القرن العشرين



■ **حول اقداح البن اليمنى الشهى ، قلت لمضيفى ، وهو مسؤول يمنى كبير :**

ـ ما رأيكم فى ما نشرته بعض الصحف الأجنبية من أن « اليمن تتقدم بخطوات مذهلة .. نحو القرن الثالث عشر » .. وأن اليمنيين لا بد لهم من مائة عام ليلحقوا بالركب الحضارى

ولم يتركنى مُضيفى الكبير أكمل سؤالى بل اندفع يقول فى هدوء :

ـ هذا كلام ينطوى على كثير من المبالغة ، بل من التشهير والتشنيع .. فالشعب اليمني شعب وارث حضارة قديمة ، والحضارة قد تمر بهـا فترات ركود ، لكن بذورها لا يمكن أن تموت .. ان الشعب اليمنى ، خلال الخمسة عشر عاما الاخيرة ، قام بأربع ثورات متوالية كانت آخرها أقرب ما تكون الى المعجزات ..

« صحيح أنه لا بد من عمل دائب وكفاح مستميت كى نستطيع أن نقف على قدمينا ، ولكنا على أى حال ، قد آلينا على أنفسنا الا يَغمُض لنا جفن او يهدأ لنا بال ، الا اذا حققنا ما نريد ، ولحقنا بالركب الحضارى واستعدنا ما كان لنا فى قديم الزمان من أمجاد ..

قلت لمحدثى :

ـ اذا نحن حاولنا ترتيب المشاكل التى تواجه اليمن الآن حسب أهميتها ، فما هى المشاكل التى تحتل المكان الأول ؟

قـال :

ـ أول المشاكل الأزمة المالية الخانقة التى نعانيها .

« ومشكلتنا الثانية هى عدم وجود جهاز ادارى حكومى منظم » .

« ولن أحدثك عن بقية المشاكل فسوف تشهدها وتلمسها بنفسك فى كل شارع .. وكل منزل .. بل وتحت كل حجر فى اليمن .. » .

عجلة الزمان تتوقف ؟!

ان المشاكل والمتاعب ليست جديدة على اليمن فهو يعيش فيها منذ منتصف القرن الخامس الميلادى ، عندما حدثت فجوة فى سد مأرب العظيم فتصدعت اركانه ، وفاضت مياهه ، فاغرقت البساتين والقرى فخرج الناس فى كثرة عظيمة ليتفرقوا فى كل مكان ، حتى ضرب المثل بتفرقهم: « تفرقوا أيدى سبأ » ، أى تفرقوا .

فمن هذا المثلث القابع فى الجنوب الغربى من الجزيرة العربية انطلقت أفواج وأمواج من سلالات العرب القدامى ، اتجهوا فى هجرات جماعية صوب الشام .. والحيرة .. وعسير .. وعمان .. وشرق افريقيا .. والهند وجزرها ..

ومع خروج هذه السلالات توقفت عجلة الزمن فى اليمن ، وتوقف معها العقل اليمنى عن العمل مدة خمسة عشر قرنا كاملة .. ! تعرضت خلالها البلاد لغزو مدمر من الأحباش « الذين عاثوا فى البلاد فسادا وخرابا ، فاذلوا أهلها ودكوا حصونها ، وهدموا مبانيها ، ولم يبقوا فيها على شىء .. » .

ثم جاء البطل اليمنى سيف بن ذى يزن على رأس جيش من الفرس ، فخلص البلاد من الأحباش ليخلفهم الفرس من بعد وفاته ، حتى جاء الاسلام فاعتنقوه ، وتوجهت وفودهم الى النبى (ص) . الذى قال فيهم :

« أتاكم أهل اليمن ، هم ألين قلوبا ، وأرق أفئدة ، الايمان يمان ، والحكمة يمانية (١) .

ودارت عجلة السنين وتعاقب على اليمن صنوف من الحكم قاسية مشهورة معروفة ، وانتهت بجلاء الأتراك بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٨ .

مسكينة صنعاء ..

وفى عام ١٩٤٨ اغتيل الامام يحيى فى العاصمة صنعاء ، فأباح ابنه الامام أحمد المدينة للقبائل « الذين دهموا صنعاء وأخذوا فى السلب وانتهاك الحرمات ، وقتلوا من قاومهم ، ولم يستمعوا الى أوامر رؤسائهم فاخذوا أموال التجار ، وخربوا الأسواق ونهبوا المتاجر ، وفعلوا ما لم يسبق مثله فى التاريخ ، وعادوا الى بلادهم مثقلين بالمال الحرام .. » (٢)

---

(١) رواه البخارى والترمذى عن أبى هريرة(٢) عن « المقتطف من تاريخ اليمن » للقاضى عبد الله الجراف وقد أمر بطبعه الامام أحمـد بن يحيى حميد الدين .



خريطة تقريبية لليمن : فالخريطة الرسمية ما زالت تحت الاعداد .. وأغلب الخرائط الموجودة حاليا ـ حتى التى تم طبعها أخيرا ـ كلها ناقصة ومختلفة بعضها عن بعض . ويعمد المواطن الى تعديلها ، فى كل مناسبة ، بقلمه الرصاص ! وفوق هذا الكلام ، يرى القارىء ـ على الخريطة التقريبية ـ الطريقين الوحيدين فى اليمن : أحدهما يوصل من الحديدة الى صنعاء .. والثانى ـ الذى يجرى فيه العمل حاليا ـ يبدأ من ميناء مخا ، ويمر بتعز حتى صنعاء ، وقد انتهى العمل فى الجزء الممتد من مخا حتى مدينة اب .. أما بقية المدن فهى ليست معزولة فقط عن العالم ، بل معزولة أيضا عن صنعاء، وتعز والحديدة : المدن الثلاث الرئيسية فى اليمن . ولا يمكن الوصول الى هذه المدن التالية ، الا على ظهور الدواب ، أو سيارات اللاندروفر ، أو الطائرات الحربية ... وتبلغ مساحة اليمن ٧٥ الف ميل مربع .. وعدد سكانها كان ٤ ٨٠٠ ٠٠٠ نسمة تقريبا عام ١٩٥٧ ولكنهم يقدرونهم اليوم بأقل من ثلاثة ملايين نسمة .. !





لم تنم صنعاء ليلة ١٣ ابريل ١٩٦٣ لقد خـــرج أهلهـــا الى ميدان التحرير ليشهدوا أول صواريخ تنطلق في سماء صنعاء ابتهاجا باعلان أول دستور مؤقت لليمن . وفي صبيحة نفس اليوم ظهرت في الميدان لأول مرة ، وحدات من قوات الجيش اليمني ، ومعها أفراد الحرس الوطني (الصورة السفلى) .. فاستقبلها الشعب أروع استقبال ..





يقرب عدد سكان صنعاء من ٦٠ الف نسمة .. ويبلغ عدد سكان اليمن كلها نحو ثلاثة ملايين نسمة ، بينما كان عددهم منذ بضعة قرون ١٥ مليونا أو يزيد !! فأين ذهب هذا العدد ولماذا نقص !؟. ان تهدم السدود ، وخاصة سد مأرب ، دفع بالملايين الى الهجرة لخارج البلاد ، فتفرقوا فى مختلف الأقطار ، وما زالت هجرتهم مستمرة منذ ١٥ قرنا ، حتى تكونت أقليات يمنية كبيرة على طول الساحل الشرقى لافريقيا الممتد من السودان الى الحبشة ، الى الصومال ، وزنجبار ، وتنجانيقا ومدغشقر ، فضلا عن العدد الكبير من اليمنيين المقيمين فى البلاد العربية ، وانجلترا وامريكا .. ان اصلاح السدود وتنفيذ المشاريع الكبرى ، كفيل باعادة هؤلاء المهاجرين الى ديارهم ، ليساهموا فى نهضة اليمن الحديثة وانطلاقته لمسايرة ركب الحضارة .

مسمار من صنعاء : بركه !

وهكذا تمتلىء كتب التاريخ القديم والحديث باخبار حصار وخراب ودمار صنعاء ..

فما هى صنعاء .. ؟

وما الذى جنته هذه المدينةحتى تستحل،هكذا، استحلالا بين الفينة والأخرى .. ؟

انها أم مدن اليمن ، تقع وسط سلسلة من الجبال العالية الداكنة الخضراء ..

والعرب منذ القدم مغرمون بها ، مشتاقـون اليها ، حتى قال شاعرهم :

لا بدَّ من صنْعَا وانْ طال السَّفَرْ
وان تحنّى كلّ عَـوْدٍ ودَبَرْ

وصنعاء تقع وسط الجمهورية اليمنية تماما ، فهى كالمركز بالنسبة للدائرة ..

وموقعها هذا الممتاز جعلها مركزا للسلطان .. وفى نفس الوقت مركزا للثورات والانقلابات حتى اصبحت ضحية لمركزها الاستراتيجى !

فما تكادتقوم فتنة ضد الامام ، حتى يسارع هذا ، او خليفته ، بتقديم « صنعاء » كهدية مستباحة لرجال القبائل ، الذين يُهرَعون كالموج فى أعداد هائلة تقرب من ٧٠ الف رجل مسلح ، فيحاصرون المدينة ويدخلونها ويقضون علىالفتنة، وبعدها تبدا عملية نهب كل شىء فى المدينة .. حتى الأبواب والشبابيك ينزعونها من جدرانها ويحملونها الى قراهم..ان رجال القبائل يعتقدون بل يؤمنون ، بأن كل ما يمكن ان يؤخذ منصنعاء حتى ولو كان مسمارا صغيرا ، فهو بمثابة تعويذة او « بَرَكة » بالنسبة اليهم !!

انه الحقد على المدينة التى منها تخرج الأوامر، واليها تجبَى الضرائب ..

ولكن الحال الآن قد تغير تغيرا كبيرا ..

لقد فتح الشعب اليمنى عينيه وعرف طريقه ، واستيقظت صنعاء من غيبوبتها الطويلة وفتحت ابوابها الثمانية على مصراعيها تستقبل نسمات رياح القرن العشرين ..



أول نزلاء فى أول فندق

ومع غروب الشمس مررنا من تحت بوابـة « خزَيمة » فى طريقنا الى « دار الضيافة » .. المكان الوحيد الذى قالوا انه يمكننا النوم فيه .. وصعدنا الى الطابق الاول ، وفتحوا لنا بابا يؤدى الى غرفة كبيرة بها سبعة اسرة ينام على خمسة منها بعض ابناء البلده والسريران الباقيان كانا لنا ، لم يكن فى الغرفة قِمَطر او حتى مجرد مائدة صغيرة ، واعتذرنا من عدم استطاعتنا المكوث هناك بحجة كثرة الادوات التى معنا ، وأعربنا عن حاجتنا الى غرفة خاصة ، فاعتذر المدير ،

قلنا : نذهب الى الفندق ..

قال : سلامتكما ! . الفندق لم تفتح أبوابه بعدُ .

قلنا : غير معقول .. نرجوكم اوجدوا لنـا حلا ..

قال احدهم : انا اعرف صاحب الفندق .. وقد يقبل أن تنزلوا عنده قبل موعد الافتتـاح الرسمى للفندق ..

واخيرا توصلنا الى الاتفاق مع صاحب فندق صنعاء على النزول عنده ، مع أنه لم يكن قد افتتح بعد ، فكانت بعثة العربى اول نزلاء فى أول فنادق صنعاء ..

سيارة الأجرة .. وسام بن نوح !

واستيقظنا فى الصباح لتناول طعام الافطـار : لبن زبادى ـ بيض مسلوق ـ فول مدمّس مطبوخ مع عصير الطماطم والشطه !

وعند باب الفندق وقفنا بانتظار مرور سيارة أجرة .. والتف الناس حولنا يتطلعون الينا ، شأننا فى ذلك شأن كل غريب يزور اى جزء من اليمن . وتقدم احدهم الينا قائلا :

ـ هل يمكننى مساعدتكم ؟

قلنا : شكرا .. نحن بانتظار سيارة أجرة ..

ـ فرد متعجبا : سيارة أجرة !!! ؟ سلامتكما . فليس عندنا سيارات أجرة تسير فى صنعاء .. لانه لا يوجد فى المدينة شارع واحد مُعبّد او مسفلت .. اليس من المخجل ان يكون هذا حال أقدم مدينة فى العالم .. ؟



عرف الشعب طريقه : الحرس الوطنى أثناء استعراض عيد الدستور (الصورة اليمنى) .. شبابا وشيبا كلهم ساروا فى الطابور أمام الوف المواطنين .. كان منظرهم غريبا .. حتى الأحذية كانت تنقص بعضهم فساروا حفاة الاقدام .. ولكن هذا لم ينقص من الروح الجديدة التى تمتل فى صدر كل فتى ورجل فى اليمن ..





هنا صنعاء : كانت اذاعة صنعاء أغرب اذاعة في العالم ، فيوما كانت تذيع الاغاني ، فتصلها احتجاجات من العلماء ، فتمنع الاغاني ، ويحتج الجمهور فتعاد الاغاني !! وهكذا يوما تمنع ويوما يسمح بها ! وكانت المواضيع الاخرى،التي تذاع، تدور كلها حول أهل البيت ، وانهم أفضل الناس .. أما الآن فقد تطورت الاذاعة ، واصبحت تذيع لمدة ١٦ ساعة في اليوم – بدلا من ٣ ساعات – واصبح لها ثلاث محطات على الموجات القصيرة . وقد عثر على محطة منها مقفلة مهملة داخل صناديقها في قصر الامام أحمد ، فتم تركيبها – كما ترى فوق هذا الكلام – بواسطة المهندس اليمني علي الأبيض ، المدير الهندسي لاذاعة صنعاء والمهندس عادل الشافعي رئيس البعثة العربية الهندسية لاذاعة صنعاء ..



الى اليمين : السيارات والرافعات تمهد الارض وتسويها ، لتشق أول طريق معبد في تاريخ صنعاء ..



هؤلاء ابناء صنعاء ، طلبة الكلية الحربية الجديدة .. ان
هـؤلاء الشبان ، وكلهم ايمان وعزيمة ومضاء ، هم نواة
جيش اليمن الحديث ، وحماة البلاد فى مستقبل الأيام

وهنا أحسسنا بأننا قد حصلنا على خبر ، أهم من سيارة الأجرة ، فقلنا لمحدثنا متسائلين :
ـ تقول : ان مدينتكم أقدم مدينة فى العالم ..؟
قال :
ـ نعم .. أنظر الى أعلى .
واشار بيده الى قمة جبل، وتابع حديثه يقول: هل ترى هذا الجبل الذى يشرف علينا ؟ .. انه جبل نقم ، وهذا الذى تراه على قمته هو منزل سام بن نوح عليه السلام ، بانى هذه المدينة التى يبلغ عمرها خمسة آلاف عام !!
قلنا : مهلا مهلا .. فان قراء العربى لن يهضموا كلامك هذا بسهولة ..
قال : تعالوا معى أقدمْ لكم الدليل ..

مدينة ناطحات السحاب

وسرنا فى طرق اختلطت فيها مياه الأمطار مع الأتربة ، فكوّنت مستنقعات من الوحل يصعب اجتيازها ، الا بالخوض فيها مع رفع أطراف الملابس .. وبعد مسيرة ليست باليسيرة وصلنا الى صنعاء القديمة ذات المبانى الساحرة الجميلة، المرتفعة الى ستة طوابق ، وقد ترتفع نادرا الى سبعة .. ان عبقرية أبناء اليمن تتجلى فى اسلوب وفن البناء الذى لا يشبهه اى اسلوب أو فن آخر فى العالم.. فالطابقان الأولان مبنيان بالبازلت او حجر «الحَبَش» كما يسمونه ، ويجلبونه من سفح جبل نقُم .. اما الطوابق الباقية فمبنية بالآجر ..

وصنعاء هى أول من ابدع ناطحات السحاب ، ففى الوقت الذى كانت فيه مبانى جزيرة منهاتن بنيويورك ، لا تعدو كونها أكواخا للهنود الحمر ، كانت صنعاء تفتخر وتزهو بقصر غمدان ، ذاك الذى كان يرتفع عشرين طابقا فى سماء العاصمة .

ويميل أهل صنعاء الى زخرفة عماراتهم بالجَص الأبيض من الخارج ، فعند بدء كل طابق جديد يرسمون بهذا الجص أشكالا هندسية متصلة يسمونها « الحِزَام » للفصل بين كل طابق والآخر .. كما يستعملون نفس الجص لرسم زخارف واشكال مختلفة حول النوافذ (أنظر الصورة ص ٨٤) .

ويختلف زجاج هذه النوافذ عن اي زجاج فى العالم ، فهم يستعملون المرمر ، ويطلق عليه أهل صنعاء لفظة « الجَمَرى » ، أى « القَمَرى » ـ اذ أنهم يقلبون القاف جيما فيقولون مثلا جبل نَجُم بدلا من جبل نَقُم ـ ويستخرج هذا المرمر من جبال «القِرّاس» القريبة من صنعاء . ويقال ان سبب تسميته « بالقمَرى » يرجع الى ان ضوء القمر عندما ينعكس على هذا الرخام ينساب الى داخل الغرفة ، فيضيئها .. وكذلك عندما تتسلط عليه أشعة الشمس القوية فانه يخففها..

وقد قل استعمال هذا الرخام حاليا واصبح الناس يستعملون الزجاج الملون والزجاج العادى بدلا منه .

٤ أشخاص فى ٦ طوابق !

كان هذا منزل صديقنا ، ولم يكن « منزل سام بن نوح » .

كنا واقفين نتأمل جمال هندسة منزل صديقنا ، الذى دخل ليحضر لنا الدليل على ان سام هو بانى صنعاء ، وسمعنا صوته من الخارج يطلب من حريم المنزل الاختفاء فى الغرف ، لأن « غرباء » سيصعدون ..

وبدأنا الصعود .. الطابق الاول : به ماعز وبقرة وكومة برسيم .. وتابعنا الصعود فوق درجات السلالم التى كان ارتفاع كل درجة منها يزيد عن ٤٠ سنتيمترا .. وصاحب المنزل يردد عند كل درجة كلمة : الله .. الله .. الله ليساعده على « تسلق » هذه الدرجات «الهائلة» المنهكة ! وعلى تنبيه نساء المنزل .

كان الطابق الثاني خاويا .. والثالث مهملا ، اللهم الا من بعض الأثاث المبعثر، فسألنا صديقنا، واسمه طاهر :

ـ كم عدد الذين يقيمون فى هذا المنزل ؟
قال : نحن اربعة .. أنا وزوجتي وأولادى
قلنا مندهشين : أربعة أشخاص يعيشون فى ستة طوابق !!
قال : ... وهكذا حال أغلب منازل صنعاء .. كل أسرة لها منزلها الخاص .

وظللنا نصعد حتى وصلنا الطابق السادس وقد أخذ منا التعب كل مأخذ ...

« القات » وهندسة المباني

ودخلنا غرفة جدرانها كلها من الزجاج .. وارضها مفروشة بالسجاد ، وعند اركانها صُفّت الوسائد والمساند الملونة ..



المجلس الأعلى لشيوخ القبائل

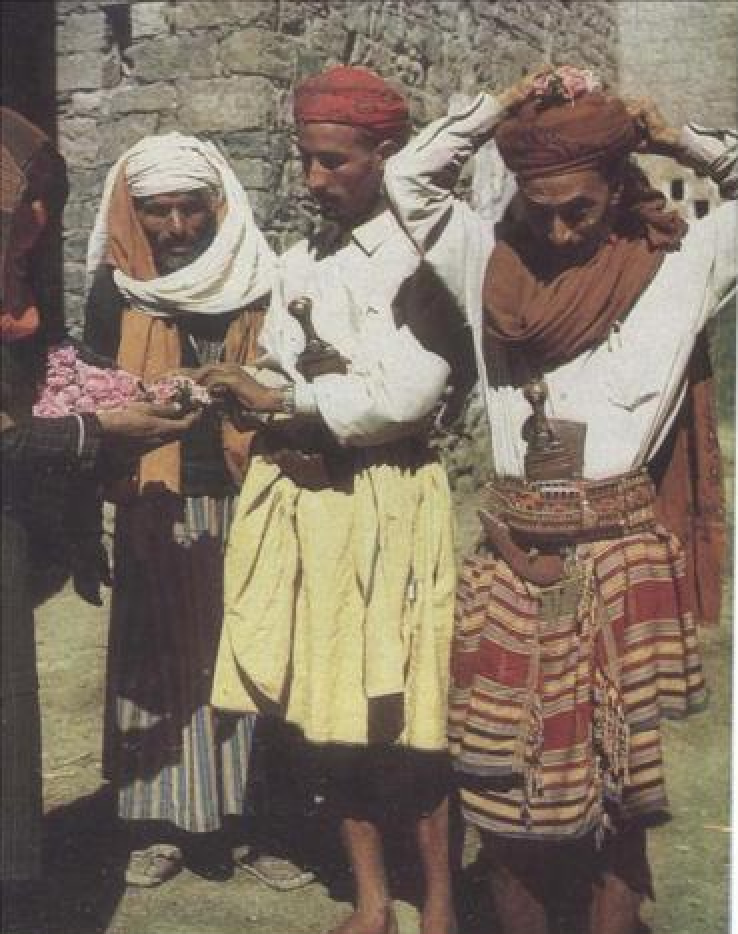


فى الطابق الخامس ، من القصر الجمهورى ، وفى غرفة فسيحة تتسع لمائة شخص ، ازدحم ١٥٠ من شيوخ القبائل مع أتباعهم ، وكل منهم متمنطق بحزامه المعبأ بالطلقات ، وبخنجره المعقوف ، المسمى « الجنبية » كانت ملابسهم متباينة الالوان . جلسوا جميعا يستمعون الى رئيس جمهوريتهم وهو يقول : اننا نعيد الى ذاكرتنا اليوم ، ما كانت عليه اليمن منذ ٣ آلاف سنة ، عندما كانت تتمتع بأول مجلس للشيوخ فى العالم ـ اشارة الى ما جاء فى القرآن عن بلقيس ومجلسها حيث قالت : « يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ـ واليوم يعود المجلس الى الوجود بعد طول هذا الغياب . . ان مجلسكم ـ المجلس الأعلى لشيوخ القبائل ـ هو السلطة العليا التى ستحكم اليمن . . انها مهمة كبيرة جدا تتطلب منكم التعاون لتخلقوا نظاما يخلصنا من الجوع والخراب والافلاس المنتشر فى بلادنا ، وتعلنوها حربا على الفقر والبؤس ، لنوفر السعادة لأبناء هذا الشعب ، ولنعيد للبلاد اسمها القديم : « اليمن السعيدة » و « اليمن الخضراء » . . ان المطلوب هو أن تبنى النفوس والأفكار قبل بناء المبانى . . اننا سنعمل سويا لخير هذا الشعب . . » . وبعدها وقف عشرات الخطباء كل منهم يلقى الشعر ارتجالا ، وبأسلوب خطابى رائع . . جعل بعض الذين شهدوا الاجتماع من مندوبى الصحف يقولون ان عدد سكان اليمن ليس ثلاثة ملايين نسمة ، بل ثلاثة ملايين شاعر وأديب ! وترى فى الصورة اليمنى أحد الخطباء من رؤساء القبائل يقول مفتخرا :

انى من القـــوم الذين جيادهم　　　　طلعت على كسرى بريح صرصر







الى اليسار : الربيع على الرؤوس : تتفتح الزهور وتكثر ، في حدائق صنعاء مع مطلع الربيع ، وفي الطريق تقف بائعة الورد تبيع مجموعة منها ، ويسمونها "مشقر" ، للمواطنين ، الذين يزينون بها عمائمهم .. او مشداتهم .. او «دسمال» كما يسمونها هناك !!

الى اليمين والى اسفل: اعجب ما في صنعاء هو الوان ملابس أهلها ، التي لا تجد لها مثيلا الا في شمال العراق ، ولكنها هنا تتميز بتعدد الالوان : احمر واصفر واخضر وأزرق ، مع كبر العمائم وارتفاعها ، وطول الاكمام واتساعها ، « والجاكتة » الحديثة التي يضعها الكثيرون فوق الجلباب درءا لبرودة الجو .





باب الحرية : وكان يدعى سابقا « باب اليمن » ، أهم أبواب سور صنعاء لأن الحركة التجارية كلها مركزة حوله ، فمعاصر زيت السمسم تقع خلفه مباشرة . ومدخل سوق صنعاء يبدأ من عنده ، وتأتيه كل يوم قوافل الجمال محملة بالتبن والحطب . وما زال الكثيرون يعتقدون بأن تحت هذا الباب « دفاين عظيمة وأموالا جسيمة ! » بالرغم من أن « فيضى بك » الوالى التركى » ، قد هدمه عام ١٣١٣ هـ بحثا عن هذه الكنوز ، ولكنه لم يعثر على شيء منها

وجلسنا في ركن من الأركان ، وتطلعنا من النوافذ فشاهدنا صنعاء تربض هادئة تحت جبل نقم ..

ويطلقون على هذه الغرفة عدة أسماء أشهرها « المفْرَج » وبعضهم يسميها «المنظر» ، وتشتمل على نافذة كبيرة تسمى « الجَرْف » .

وهذا « المفرق » مخصص لمضغ القات (١) بعد الظهر و « تخزينه » ! فمن هذا جاء الاهتمام الزائد به .. وهذا يُرينا كيف تدخل « القات » في طريقة تصميم وهندسة المباني بصنعاء .

ففي أعلى كل ناطحة سحاب غرفة" زجاجية مثل هذه .. (أنظر الصورة صفحة ٦٩) **يستعملونها أيضا للاستقبالات والأفراح . انها ، في الواقع ، الغرفة الوحيدة التى يمكن ان يدخلها زائر غريب الى منزل يمنى ، لآن بقية الغرف غير مؤثثة ! .**

قبـل الطوفان

وحول اقداح البن اليمنى ، وهي بحجم أقداح الشاى العادية .. بدأ صديقنا طاهر يقرأ فصولا من كتاب « صـفة الجزيرة » للهمداني الذى

السايلة : أو المجرى الذى تنساب فيه المياه لمدة .. والجسر الظاهر في الصورة يسمونه عقد السايلة،



---

(١) أنظر مقال الأستاذ محمد محمود الزبيرى في العدد الأول من « العربى » عن : القات .



سور من الطين والاحجار : كانت صنعاء ، دائما ، محاطة بسور يحميها من الغزوات .. وكان كل حاكم يقوى السور ويزيد فى بنائه . وازدادت المساكن ، وانتشرت فى كل مكان ، حتى أصبح السور القديم اثرا يقف وسط شوارع المدينة ! لقد كان ارتفاعه ١٠ امتار وبه ١١٠ ابراج للمراقبة ، و١٢ بابا ، أما اليوم فقد جرفت السيول أجزاء كثيرة منه . وأكلت أجزاء اخرى ، حتى اصبح ارتفاعه فى بعض الاماكن لا يتعدى المتر الواحد .

يعتبرونه مؤرخهم الاول ، ويعدون كتبه بمثابة دائرة معارف وقواميس بالنسبة لليمنيين .

بدأ طاهر يقرأ قول الهمدانى :

« .. وصنعاء اقدم مدن الارض لان سام بن نوح هو الذى اسسها .. »

واخذ يقرأ من الكتاب شعرا يصف بناء صنعاء.

وهنا قال طاهر : من هذا ترون ان صنعاء لم يبنها سام ، بل أعاد بناءها فهى كانت موجودة قبل الطوفان بألفى عام !!

فهذا هو الدليل الذى جئنا ليطلعنا عليه ..

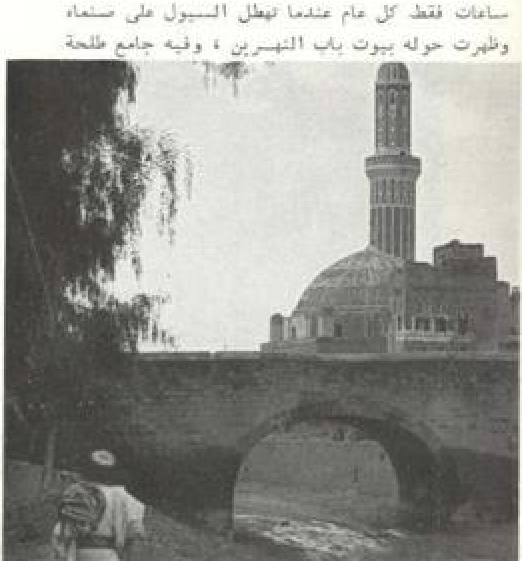
ولم أجد ما أرد به على طاهر سوى جملة « ياقوت الحموى » التقليدية التى يرددها عندما يجد نفسه قد أسرف فى الخيال : « والله أعلم »؟!

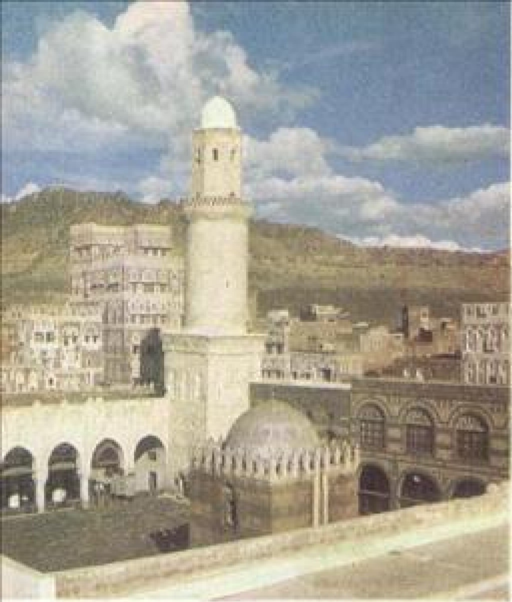
كم عدد أبواب صنعاء ؟

وصنعاء كان اسمها القديم « آزال » ، وموقعها من أبدع المواقع فهى تقع على سهل متبسط يرتفع ٨١٦٠ قدما عن سطح البحر . ومع مرور الايام أضيفت لها قرى جديدة ، امتد لها السور القديم

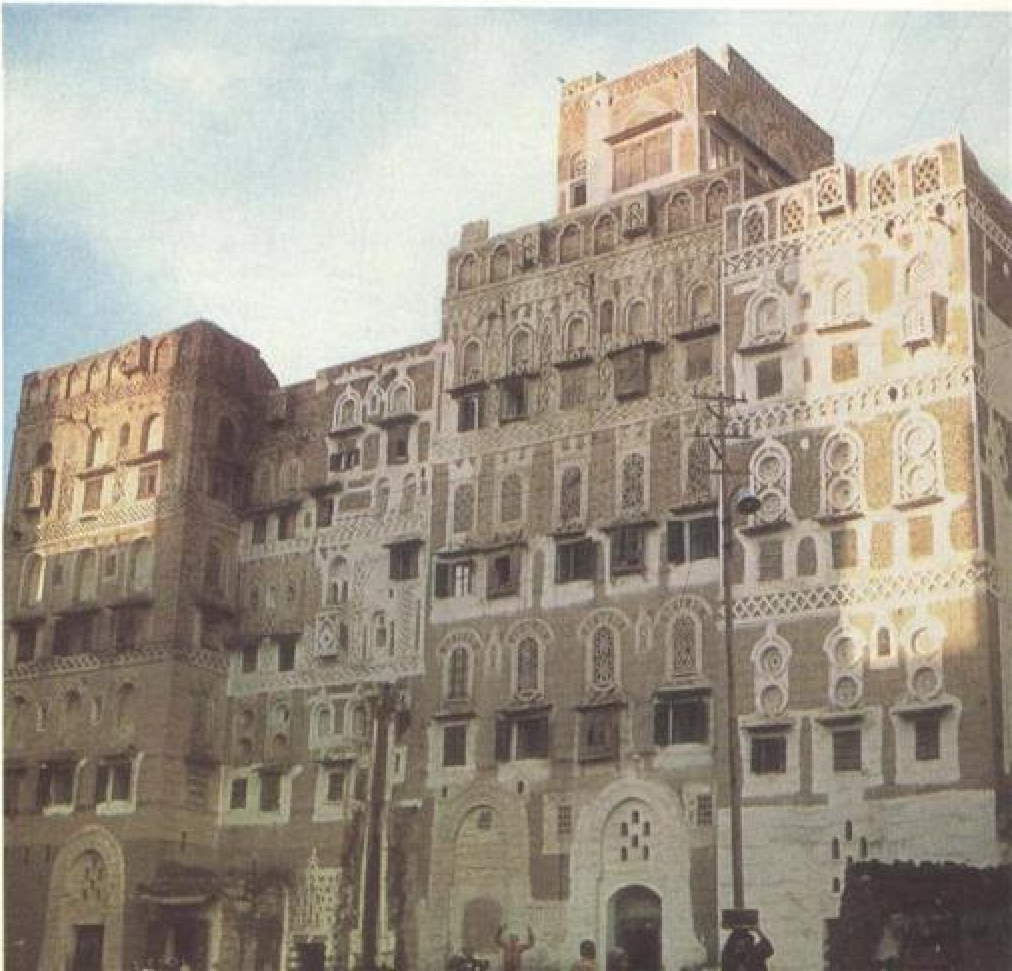
واختلف المؤرخون فى عدد أبواب سورها فبعضهم قال : عشرة .. وآخر : تسعة .. وثالث : ثمانية .. ويرجع هذا الاختلاف ـ فى اعتقادنا ـ الى « الاضافات » التى كانت تضاف الى صنعاء .

ساعات فقط كل عام عندما تهطل السيول على صنعاء وظهرت حوله بيوت باب النهرين ، وفيه جامع طلحة

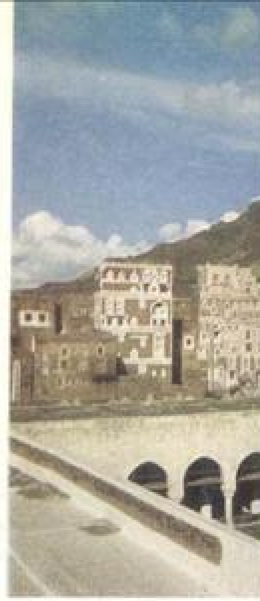




جامع صنعاء الكبير : اول مسجد عمر باليمن سنة ٦ من الهجرة عمّره «وبر بن يحنس» الأنصارى ، صاحب رسول الله (ص) ، ثم أضيفت له اضافات كثيرة خلال السنين المتعاقبة . ويحوى هذا الجامع احجارا وبوابات اثرية ، قيل انها من أبواب قصر غمدان العظيم ، ومن الآثار الحميرية القديمة . ويقوم بناء الجامع على ١٨٣ عمودا ، وبه اثنا عشر بابا ، ومكتبة كبيرة عامرة بالكتب والمخطوطات القديمة النفيسة النادرة عن : الفقه وأصوله والعقائد وعلوم الكلام ، والتفسير وعلوم القرآن ، وكتب الحديث والتاريخ ، والأدب ، والنحو ، واللغة ..وكتب أخرى نادرة فى فنون متفرقة مختلفة ، ينتفع بها الطلاب والعلماء .. ومما يذكر أن صحن الجامع مبنى على غرار الحرم المكى ، كما ترى فى الصورة اليسرى ..







الى اليسار : تزخر صنعاء بالمساجد الكثيرة المتقاربة، ذات الزخارف الجميلة ، التي لايشابهها زخرف في أي بلد عربي آخر ، كما ترى في نقوش هذه المئذنة التابعة لمسجد المدرسة . وكان يقوم محلها في السابق مسجد صغير ، قيل انه من عمارة سعد بن ابي وقاص ، صاحب رسول الله (ص) .

الى اليمين: السؤال الذي يدور على السنة الصنعانيين هو : هل نهدم هذه المنازل .. ام نبقيها ؟ .. انها – في الواقع – لاتصلح لحياة القرن العشرين ، ولكن طابعها الجميل الفريد الأثري يجب المحافظة عليه كرمز للطرز الهندسية القديمة التي كان الأبناء يتوارثون فنها من الآباء .. واشهر العائلات التي برعت وذاع صيتها في هذا الفن هي بيوت قصعي، والسماني والحيمي

فالقرى التي كانت تقوم بجوارها كان السور القديم يمتد اليها ليحوطها حتى اننا نجد اليوم بابا من الابواب القديمة ، وقد أصبح موقعه وسط ميدان المدينة الرئيسي : انه « باب السبّاح » الذى انقطع السور القديم من حوله ، فاصبح يحتل مركز الصدارة فى «ميدان التحرير»!!

فيضى بك يهدم السور والابواب بحثا عن الكنوز !!!!

وامتدت يد التبديل الى شكل الابواب فجدّد بعضها ، كما ابدلت الأسماء القديمة بأسماء حديثة : فباب اليمن اصبح باب الحرية ، (انظر الصورة ص ٨٢) وباب خُزَيْمة أصبح باب الشهيد على عبد المغنى ..

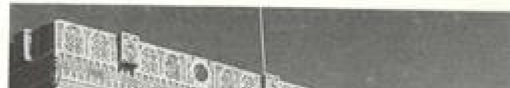
وخلف كل باب تكمن اسطورة ، أطرفها انه يوجد فى باب « المصرع » طِلَسْما يمنع الافاعى من عض اهل صنعاء !

اما قصص « الكنوز والدفائن العظيمة والاموال الجسيمة الموجودة فى السراديب تحت السور » فمتعددة ومتداوَلة .. مما جعل الوالي التركي أحمد فيضي يأمر بتخريب باب « شعوب » ، وباب « اليمن » وباب « السبّاح » فى عام ١٨٩٥م بحثا عن هذه الكنوز ، لكنه لم يجد سوى الواح من الرصاص مكتوبا عليها طلاسم باللغة الحميرية وضعها الاولون !

الركاب والبضائع معا

وصنعاء كانت دائما معزولة عن العالم ، وذلك الىعام ١٩٥٨ عندما قدمت الصين الشعبية قرضا شق الصينيون به اول طريق معبد فى اليمن، يربط بين صنعاء والحديدة ، وهو طريق جبلي ممتاز طوله ٢٢٦ كيلومترا ..

ويجرى حاليا العمل بنشاط زائد فى شق طريق



السيارة العربة !!: انها وسيلة المواصلات العامة الوحيدة فى صنعاء .. وهذه «الحافلة» تنطلق من ميدان التحرير مخترقة الطرق الموحلة حتى دار الاذاعة !! ويدفع الراكب « بوقشة » مقابل ركوبه داخل هذه السيارة التى نزع موتورها واستعيض عنه بحصانين..!

«نوبة مأمور الضبط» : برج من الطين ، ويسمونه « نوبة » ، وقد بنيت فوقه غرفة من الحجر يسكن فيها أهل البرج . ويكثر هذا النوع من الابراج فى صنعاء ، وأشهرها « نوبة مأمور الضبط» التى يقف فى أعلاها جندي حاملا نفيره ، ينفخ فيه كلما مرت شخصية كبيرة من تحت البرج!



بين صنعاء والحديدة . ولكنه لن يتم قبل عامين من الزمن ، وتقوم به النقطة الرابعة الامريكية ..

وما زال مطار صنعاء المدني على حالته البدائية: لا يستقبل سوى الطائرات الصغيرة للخطوط الداخلية ... اما الطائرات الحربية الكبيرة فلها مطار كبير صنع حديثا جدا خصيصا بها .

ويتم اقلاع الطائرات في المطار المدني على هذه الصورة الطريفة :

عند حلول موعد قيام الطائرة يقف مساعد الطيار عند باب الطائرة يدعو الركاب للتفضل بالدخول .. ويصعد الركاب السبعة الى الطائرة، وتبدأ بعدها المناقشة بين قائد الطائرة وممثل الشركة الذى يريد أن يشحن ٨٠٠ كيلو جرام بضاعة لقلة عدد الركاب .. ويقتنع الطيار ، ويبدأ الحمالون بوضع البضائع في مؤخرة الطائرة .. فيحتج قائدها لان الثقل اصبح كله في المؤخرة .. فيعاود الحمالون نقل البضائع ويضعونها على الكراسي الفارغة الى جانب الركاب ، فتجد نفسك مسافرا وبجانبك لفات كبيرة : بعضها يحوى قاتا .. أو « بنا » او ما شابه !!!

وتملك شركة الطيران اليمنية أربع طائرات من طراز داكوتا ، تنقل الركاب بين مدن اليمن الثلاث الرئيسية : صنعاء ـ تعز ـ الحديدة ، في مدة ٤٥ دقيقة تقريبا بين كل مدينة واخرى ..

واول طائرة هبطت في مطار صنعاء جاءت من الحديدة عام ١٩٢٥ وقد قطعت المسافة ، التى كانت تقطعها البغال في مدة خمسة ايام ، في مدة ٤٥ دقيقة فقط ، وعندئذ هذه معجزة في ذلك الوقت الذى كان فيه المسافر يكتب وصيته قبل سفره لان الطريق لم يكن مامونا !!

عيد دائم

واغرب ما في اليمن هو قلة عدد السكان في مدنها .. فصنعاء لا يزيد عدد سكانها عن ٦٠ الفا .. وتعز عن ٣٠ الفا .. والحديدة عن ٣٠ الفا



من هنا تشرب صنعاء : فتحة في الارض ، يهبط اليها المواطن ، ومعه صفيحة ليملأها بالماء الذى يمر تحت صنعاء على هيئة نهير يسمونه «الفيل الاسود» . ويعبأ الماء في برميل قديم يجره حصان هزيل الى المنازل ، ومن هناك ينقله أصحابه الى غرفهم بالصفائح

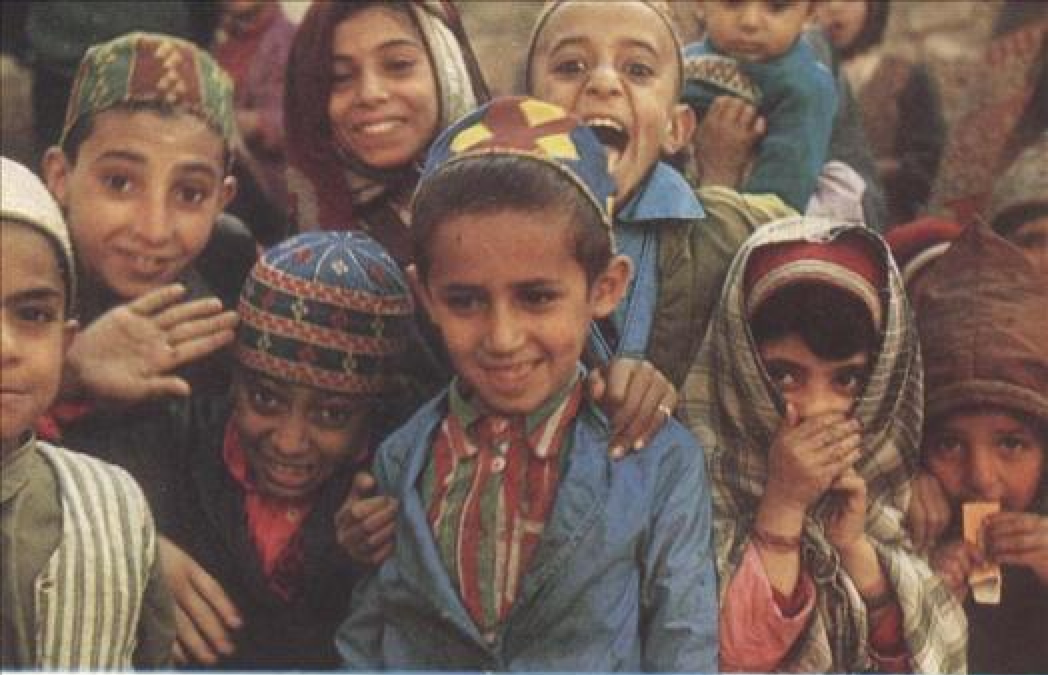
مجار في الهواء الطلق ! انظر جيدا الى الصورة .. ترى ، الى اليسار ، خطين طويلين انهما مجارى المياه القذرة التي تنساب على الحائط في طريقها الى بئر صغير بأسفل المنزل!! ان الانابيب فاحشة الثمن في صنعاء !





الستارة والمقموق : تلبس المرأة الصنعانية « الستارة » ، أو الشال الكبير الوارد من كشمير ، فوق ملابسها العادية المكونة من سروال طويل ، فوقه « زنّة » اى ثوب طويل بأكمام طويلة ، وغالبا ما يكون اسود ، وعلى وجهها « المقموق » اى البرقع الاسود .. فالمرأة محجبة ، حتى في منزلها ، لمن لا يجوز لهشرعا النظر اليها ، ولو كان من أقارب زوجها !





يشتهر أطفال صنعاء بالمرح والشقاوة .. وفي المساء يتجمعون في الشوارع والطرقات يلعبون ويشاكسون كل من يمر في الطريق . ..

الى اليمين : ملائكة الرحمة اليمنيات يعالجن أطفال صنعاء الذين يعانون نقصا هائلا في الفيتامينات الضرورية للحياة ...

الى اسفل : ام تحمل طفلها المريض داخل المستشفى ، وقد جعلت فوق رأسها « طرحة » وعلى وجهها « مَصَرّة » من القماش الملون .





.. اما باقي السكان « الذين انخفض عددهم من خمسة ملايين الى ثلاثة ملايين » كما قال لنا رئيس الجمهورية، فيسكنون قمم الجبال ويزرعون الوديان!

وفي النهار تزدحم شوارع واسواق صنعاء بالوافدين اليها من الضواحي ، فتصبح المدينة وكأنها في عيد مستمر .. الالوان الزاهية التي تبهر العيون تشهدها في كل مكان : ازرق ، واصفر ، واحمر ، واخضر ، واسود ، وابيض ، الى آخر ما يخطر على بالك من الوان(انظر الصورة ص ٨١)



متى يكف الرجل عن محاربة المراة ؟ : السيدة مالكة الشامي ، رئيسة الممرضات اليمنيات والمتحدثة باسم المراة اليمنية قالت لنا : «لقد حاولنا في العهد الماضي انشاء جمعية نسائية ، ولكنها أغلقت بعد أيام من افتتاحها .. كما منعونا منعا باتا من مزاولة اي نشاط سوى التمريض .. وهذا لم يسمحوا لنا به الا للضرورة ولشدة الحاجة الى الفتاة اليمنية لتتفاهم مع أبناء بلدتها ..وأملنا كبير في ان يسمحوا لنا بفتح هذا النادي مرة ثانية .. اما امنيتنا فهي ان يكف الرجال عن محاربتنا . فالرجل في اليمن هو المسئول الاول عن تخلف المراة اليمنية في جميع الميادين،ويشترك معه العادات والتقاليد التي نعيش فيها » .

الامطار .. والثلوج .. والسيول

اما نوع قماش الملابس فيخضع لمناخ المنطقة المتقلب ، فعندما كنا في صنعاء في نهاية شهر ابريل (نيسان) الماضي ، كانت الامطار تتوقف في الصباح لتبدا في الهطول ابتداء من الساعة الثالثة مساء ، وكأنها على موعد يومي !!

وهذه الامطار هي مقدمة الامطار العارمة التي تسقط في يوليو واغسطس واحيانا في سبتمبر ، وكثيرا ما تاخذ شكل سيول مخربة تهدم مئات المنازل وتغرق الكثير من الناس، وتخرب البساتين.. اما الثلج فلا يهطل الا نادرا ، وكذلك الصواعق ، التي « نزلت واحدة منها في مطلع هذا القرن على رأس منارة قبة المهدى عباس فقتلت خمسة اشخاص وصرعت اثنين آخرين ..»

والعجيب في صنعاء ان ابناء الحديدة يمرضون عندما يصعدون اليها ، بينما يمرض ابناء صنعاء عندما ينزلون الى الحديدة ! وذلك لاختلاف الطقس والمناخ ، فصنعاء : هواء وبرد .. والحديدة : حر ورطوبة !

المراة تشترك في الثورة

وهذا الاختلاف في المناخ سبب اختلافا كبيرا في التفكير والملابس بين مختلف مناطق اليمن حتى ان المراة اليمنية تختلف عن شقيقاتها في المدن الأخرى ، فهي هنا ـ رغم العادات والتقاليد القاسية المفروضة عليها ـ تعمل جاهدة للتحرر والتخلص منها ولا تترك مناسبة دون ان تستغلها .

وقد كانت ثورة سبتمبر ١٩٦٢ فرصة ذهبية للمراة التي اشتركت في القتال لاول مرة .. فقد نزلت زوجات الضباط الثائرين الى ساحة المعركة، ووقفن يساعدن أزواجهن في فتح صناديق الذخيرة، واخراج قنابل الدبابات ، وصنع البن والشاي وتقديمها للجنود الجالسين خلف مدافعهم في الدبابات ، غير آبهات بالرصاص أو القنابل التي كانت تتطاير فوق رؤوسهن ..

ملائكة الرحمة منبوذات !

ولكن رغم هذا الجهاد، فما زالت المراة اليمنية عاجزة عن الحصول على اي اعتراف من الرجال بوجودها ، ولكن المراة تعرف دائما كيف تقلب الهزيمة الى نصر ..

وقد دخلت المراة معركتها الاولى عام ١٩٦٠ ،



مطلوب أطباء ومستشفيات : رغم المساعدات التى تقدمها مؤسسة الصحة العالمية ، فما زالت اليمن فى أشد الحاجة للأطباء والمستشفيات .. ويقوم بالعلاج حاليا فى المستشفيات، أطباء روس وفرنسيون وايطاليون .. وأكثر الامراض انتشارا هي : الدوسنطاريا ،والطفيليات كالدود المختلف ، والسعال الديكى للأطفال ، والانيميا مع نقص زائد فى الفيتامينات .. وترى هنا بعض الشباب اليمنى يقوم باجراء التحاليل تحت المجاهر فى مبنى الصحة العالمية ..

وكانت البوادر كلها تدل على أن خسارتها أكيدة ، ولكن بدأت تلوح فى الأفق بشائر النجاح والفوز...

وتبدأ الأقصوصة عندما أعلن فرع المركز الصحي العالمي فى صنعاء عن حاجته الى آنسات وسيدات لتدريبهن للعمل كممرضات .

وما كاد الخبر يذاع حتى تقدمت بعض السيدات .. تخرجت اول دفعة منهن عام ١٩٦٠ وبدأ العمل فى مستشفى صنعاء .. وفى نفس الوقت بدأ العمل لتحطيمهن فشنت عليهن حملة قاسية ، وعوملن معاملة سيئة من مجتمعهن الذى كان يعتبرهن منبوذات ، لا يحادثهن أحد .. ولا يزورهن أحد .. واذا سرن فى الطريق اسمعن قارس الكلام والتعليقات ..

ورغم هذه المعاملة الشاذة صبرت المرأة الصنعائية وحافظت على مكسبها الصغير حتى اصبح عدد ملائكة الرحمة الآن ٢٠ ملاكا مختفيات تحت قناع أبيض كثيف لا يرفعنه حتى وهن قائمات فى العمل بالمستوصفات . (أنظر الصورة ص ٨٦) .

الطبخ أفضل من الجَمال !

أما الزواج فلا تمارس المرأة الصنعائية فيه اي حق ، سواء حق القبول .. او حق الرفض.. ويفرض عليها قبول الزوج ولو كان عمره ٨٠ سنة وعمرها ١٤ سنة ! فوالدها وأهلها هم الذين يختارون لها العريس المناسب ..

وليس حال الرجال ، فى هذا الموضوع ، بأحسن من حال النساء ، فالرجل يتزوج الفتاة التى تختارها له أسرته ، ولا يراها أو يحادثها الا يوم العرس !

وسألت شابا صنعانيا : ماذا يكون حالك اذا لم تكن زوجتك جميلة ؟

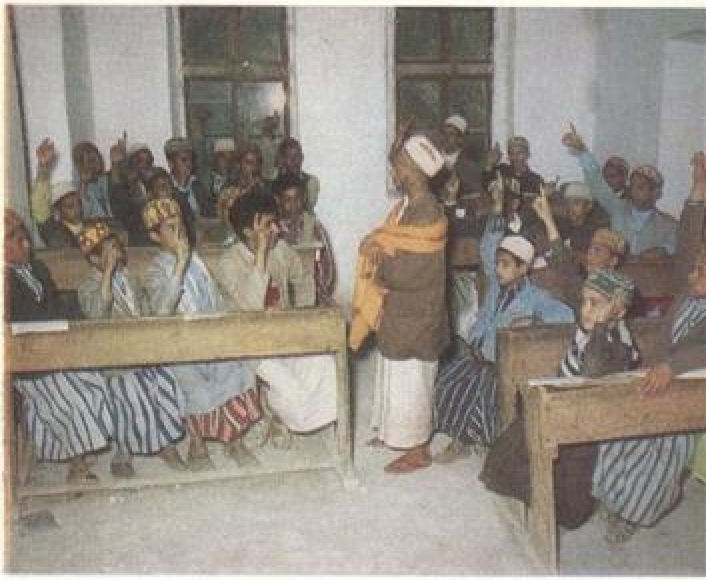
فأجاب : « أنا لا يهمني جمالها ، انما المهم عندى أن تجيد الطبخ وتنظم المنزل !! »

حق النار !!!

وتقاليد الزواج ما زالت تسير على النمط القديم الذى يُرهق كاهل العروسين وأهليهما .. فالحفلات والمآدب تمتد حتى اليوم العشرين من بعد اعلان الزواج عند القادرين !

يبدأها العريس ــ المتوسط الحال ــ فيقدم لعروسه ١٥٠ ريالا (كل ٣ ريالات = جنيها استرلينيا) مهرا لشراء حُلي للعروسة ، ويتبعها





« **ربّوا أولادكم فانهم خلقوا لزمن غير زمنكم** » : هذه الحكمة المنسوبة لعلى عليه السلام مكتوبة على مدخل المدرسة الثانوية بصنعاء التى قفز عدد طلابها من ١٠٠ الى ٢٠٠ طالب بعد الثورة .. ومع هذا فلم يتغير شيء فى هذه المدرسة الثانوية : الاساتذة غير مؤهلين يدرّسون ما يريدون .. وكما يريدون .. !! لا يوجد منهج مقرر .. لانه لا يوجد كتب أو حتى كراسات







صورتان لمدرسة المعلمين التى تشرف عليها اليونسكو : واحدة فوق هذا الكلام ، والأخرى الى يمينه .. والصورتان تبينان حالة هذه المدرسة التى لم يدخلها أى تعديل أو تحسين منذ تأسيسها من اربعين عاما !! أما قصة اليونسكو معها فتتلخص فى ان هذه الهيئة الدولية أرادت أن تظهر أمام العالم بأنها تهتم بنشر العلم حتى فى اليمن ، فدفعت مبلغ الفى دولار ، هى مرتب خبيرها الذى ارسلته الى هناك ، ولكنه لم يستطع عمل أى شىء فى المدرسة .. لأن كل شىء ناقص فيها : من مقاعد للطلبة .. وكتب .. وكراسات .. ووسائل ايضاح .. وسبورات .. واساتذة ، وملابس .. وغيرها .. والتعليم فى هذه المدرسة داخلى عجيب ، ففى المساء يخرج الطلبة مقاعد الدراسة من الحجرات ويفرشون مكانها البطاطين على الارض ، ثم يبدأون فى المذاكرة والكتابة .. قبل أن يناموا كل عشرين فى غرفة (الصورة اليمنى) .. وهم لا يبدلون ثيابهم التى عليهم ، لأنها هى كل ما يملكون : ينامون بها فى الليل ، ويتعلمون بها فى النهار !! وعندما تتسخ يغسلونها وينتظرونها حتى تجف !! وفى هذا الجو « **المستحيل** » يعيش أساتذة المستقبل .. ان وزارة المعارف اليمنية تعيش اليوم ، هى الاخرى ، فى دوامة هائلة ، تجعلها لا تدرى من أين يكون الاصلاح .. وفى حديث مع الأستاذ الكبير **محمد محمود الزبيرى** وزير المعارف السابق قال لنا : « نرجوكم انقلوا للعالم العربى صورة صحيحة عن واقع مدارسنا الاليم .. انه وضع كله فوضى ورثناه مع ما ورثناه .. ولكن أملنا كبير فى ان نستطيع تحويل الكتاتيب الى مدارس .. اننا نمر حاليا بفترة انتقال ونحن فى أشد الحاجة الى المعونات التى نأمل أن تصلنا فى اقرب وقت ، حتى نستطيع أن نبنى اليمن من جديد ونعيد لها حضارتها القديمة التليدة .. » .

بـ ١٥٠ ريالا اخرى « حق النار » ، أي انها تذهب طعمة للنيران التي توقد لطهي المأكولات التي تقدم في المآدب ، ثم يشتري بمائة ريال كسوة لعروسه ، كما يشتري والد العروس لابنته كسوة سنة كاملة ..

وتبدأ سلسلة الاحتفالات بثلاث مآدب يقيمها أهل العروس .. الاولى : « يوم الحمّام » والثانية « يوم النقش » والثالثة « يوم الحلقة » أي يوم الدخلة ..

وبعد « الدخلة » يبدأ دور العريس في المآدب فيدعو في منزله ضعف عدد المدعوين الذين كانوا عند زوجته بالامس .. وفي اليوم الثالث يذهب للسلام على حماته وتسمى « عمّة » وفي اليوم السابع يدعو الزوج اهل زوجته جميعا لتمضية يوم كامل يأكلون فيه ويشربون في منزله .. ولا تخرج المرأة من منزلها الا في اليوم العشرين من بعد زواجها ، لتحضر مأدبة الغداء التي يقيمها أهلها ويدعون فيها ضعف عدد الذين حضروا في حفل اليوم السابع !!

وهكذا هي عادات وتقاليد ، مازالت متأصلة .. ولكن مصيرها قطعا الى الزوال .

مدارس بدون مدرسين !

والتعليم في صنعاء متخلف تماما .. ليس فقط عن التعليم في العالم ، بل عن التعليم في بقية مدن اليمن !!! نظرا للظروف الدقيقة التي كانت تمر بها العاصمة ..

فاغلب المدارس بدائية او كتاتيب لتعليم القرآن واللغة والفقه .. اما الحساب والجغرافيا فقد تعلمهما الجيل الماضي في العصر التركي ، وبعدها توقف تعليم هذين العلمين !!

وأعجب مدارس صنعاء هي « معهد تعليم الزراعة » وفيه ٢٥ طالبا داخليا يأكلون ويشربون وينامون .. ولكن لا يدرسون .. فالمعلم غير موجود !!

معلمو الضرورة !

وسمعنا عن دار المعلمين التي يبلغ عمرها ٤٠ عاما وتساهم اليونسكو في الانفاق عليها فقلنا : ان هذه لا بد ان تكون رائعة ، واتجهنا لتوّنا الى المدرسة وقد كانت بانتظارنا هناك مفاجأة ...

ان كل شيء ناقص في هذه المدرسة .. الكتب والكرّاسات حتى السبورات السوداء أصبحت بيضاء !!

ان اليمن في حاجة الى ١٢ الف معلم بينما الموجود حاليا في معهد المعلمين لا يتجاوز ٢٠٠ طالب .. أي ان هناك عجزا في المدرسين يقرب من ١١٨٠٠ مدرس ! والبلاد لا تستطيع الانتظار اربع سنوات ليتخرج المعلم ، ففكرت هيئة المدرسة وأعلنت عن « برنامج الطوارىء » وينحصر في « تكثيف الدراسة » لتخريج « معلمي الضرورة » بعد سنتين بدلا من اربع سنوات !

اما الطالب اللامع فستختصر مدة تعليمه الى سنة واحدة بدلا من السنتين !!

لقد زار « بانش » ، مساعد سكرتير الامم المتحدة ، المدرسة ورأى حال الطلبة الجالسين على الارض يسعلون ، فاوصى بزيادة المساعدة .. والامل كبير في ان تتقدم هيئة اليونسكو وتعمل على رفع شأن هذا المعهد .. أو تعمل ، على الاقل ، على رفع اسم اليونسكو نفسه .. (انظر الصور صفحة ٩٤ ـ ٩٥) .

أين كتاب « أنين اليمن »

وصنعاء لا يوجد فيها مطبعة ، وبالتالي لا توجد بها صحف . انما تأتيها الثلاث صحف التي تصدر في تعز متأخرة عن موعدها فتذهب فائدتها ..

وكانت هناك جريدة خطية واحدة تكتب باليد ويصدرها ابناء أسرة المطاع ، باسم « أنين اليمن » كانت تنتقد نظام حكم الامام يحيى انتقادا لاذعا ، فاجتمع مجلس الوزراء وقال لهم الامام : « ان فكرة اصدار ـ أنين اليمن ـ هي فكرة متمرّدة ويجب غلقها في الحال » .

وافهمت بطانة الامام الامام يحيى ان هذه الجريدة منقولة عن كتاب اسمه « أنين اليمن » ، كله مسبّة في الامام يحيى ، وتشويه لسيرته ، فامر الامام بحبس أولاد « المطاع » وكان يقول لهم :

ـ أين كتاب « أنين اليمن » ؟ .. ومتى الفتوه .. ؟ ومَن من الاشرار المبغضين لآل محمد اشترك معكم .. ؟ .. أصدقونا نطلق سراحكم .. »

ولما لم يكن هناك كتاب بهذا الاسم ، فقد ظل ابناء المطاع في السجن مدة خمس سنوات . اشار

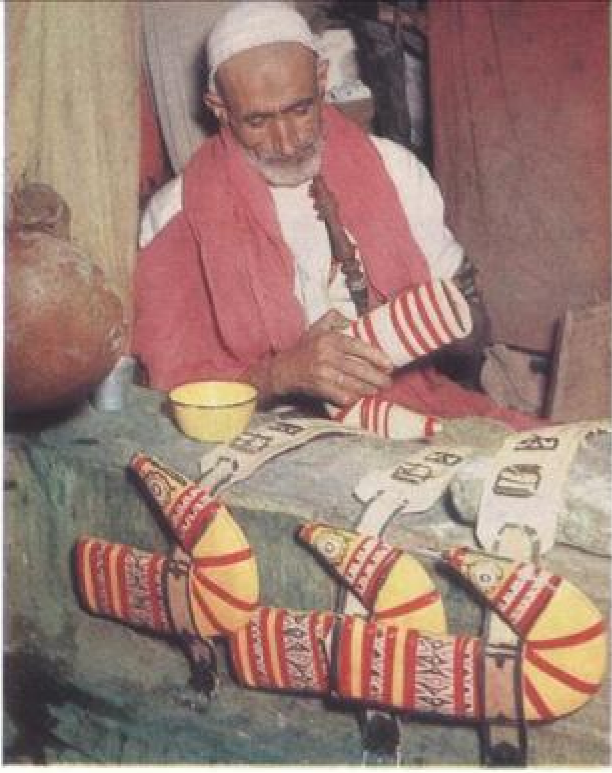


أين ذهبت الطالبات ؟! : أحد فصول مدرسة الفوز الابتدائية للبنات ، ويبدو الاستاذ على الشهارى – مدير المدرسة – يدرس أشعارا لطفلة يمنية ، وقفت أمامه مغطاة تماما بغطاء اسود .. أما بقية الطالبات فقد رجانا الاستاذ عدم تصويرهن لسبب أقتنعنا به تماما : فقد كان عدد الطالبات ٧٠٠ ، وفى الاحتفال بعيد الأم ، جاء أحدهم والتقط بعض الصور فهبط العدد فى اليوم التالى الى ٥٥٠ طالبة ، ورفض أهل الباقيات اعادة بناتهم الى المدرسة، بحجة أنها مدرسة فاسدة ! .. **وتابع الاستاذ كلامه بقوله** : « فاذا التقطتم لهن صورا اليوم ، فان عددهن سينخفض غدا الى ٤٠٠ تلميذة .. فهل يرضيكم هذا ؟ أنا مستعد أن أتصور اذا أردتم .. » وفعلا التقطنا هذه الصورة للاستاذ على الشهارى الرجل الذى يتفانى فى عمله والذى تقع على عاتقه مهمة تعليم كل شيء لفتيات الجيل الجديد فى اليمن ، حتى شغل الابرة .. أما عن تعليم الطبخ فهو لا يجد الوقت ليطبخ .. لنفسه !

خلالها الامام انه وجد معهما كتابا اختصروا فيه القرآن ! فقامت المظاهرات تطالب باخراج « الكفرة » الذين بدلوا القرآن وتنادى بقطع رقابهم !

كل شيء من عدن

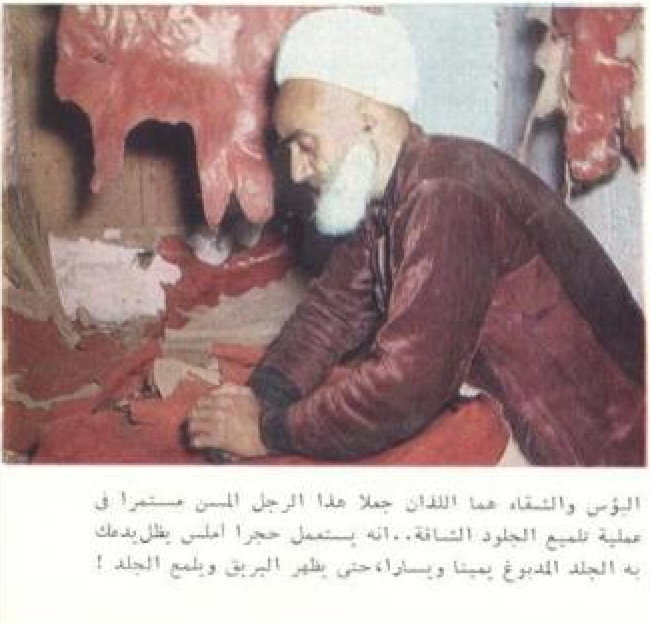
ويجرى العمل حاليا فى القاهرة لانشاء مطبعة جديدة فى صنعاء لاصدار الصحف والجرائد .. وحتى يتم تكوين المطبعة فان الاذاعة هى الوسيلة الوحيدة التى يتصل بها المسئولون بالشعب .. وقد اعفت الحكومة التجار من دفع الضريبة على الراديو، والترانسستور، الذى أصبح كل صنعائى يحمله فى يده أينما ذهب .. وهما يصلان للبلاد – مثلهما فى ذلك مثل جميع



كانت اليمن فى أيام دولة الحميريين القديمة بستانا يانعا منتجا .. وكانت السدود تحجز المياه لتروى الأراضى الخصبة .. أما اليوم فقد تهدمت السدود وأصبحت الارض بوراء، والمناطق الزراعية أصبح محصولها ضعيفا هزيلا، كما ترى فى الصورة السفلى ، وقد ظهرت المداعة أو النارجيلة فى فم البائع ..

تطور فى جيوب الخناجر : لقد دخلها النايلون الاحمر والاخضر والاصفر ، واصبح الواحد منها يباع بريال ونصف ، اى نصف جنيه استرليني ..





البؤس والشقاء هما اللذان جعلا هذا الرجل المسن مستمرا فى عملية تلميع الجلود الشاقة..انه يستعمل حجرا أملس يظل يدعك به الجلد المدبوغ يمينا ويسارا،حتى يظهر البريق ويلمع الجلد !

الصناعة بمعناها الواسع المفهوم غير موجودة في صنعاء ، والموجود منها صغير محدود لتلبية حاجيات الاهالي .. وفي مقدمة هذه الصناعات ، صناعة انصال الخناجر من الصلب المحلي ذات المقابض المصنوعة من الخشب أو العظم ، وغالبا ما يضاف الى المقبض قطعة ذهبية قديمة لتجميله . ويتراوح سعر الخنجر الواحد بين الجنيه والخمسين جنيها .. والصناعة الاخرى الرائجة هي زخرفة الحلي الفضية ، ولها قسم خاص في سوق الملح ، يصنعون فيه أجمل الحلي وادقها ، ويتهافت رجال القبائل على اقتنائها لزوجاتهم .. والفضة المستعملة في صناعة هذه الحلي تأتيهم من اذابة عملتهم وهي ريال الملكة تريزا الفضي !! ويلاحظ في الصورتين السفليين انتفاخا ظاهرا في وجنات الصناع .. وهذا معناه أن « القات » مخزون داخل الفم ... !





الواردات الى اليمن ـ عن طريق عدن ، التي يقبل تجارها على العملة اليمنية اقبالا شديدا لانها من الفضة الخالصة وهذا يجعل قيمتها الحقيقية أكثر من قيمتها الرسمية .

دُقّة محرفة !!

والى جانب هذه العملة الفضية وتسمى : ريال الملكة ماريا تريزا ، ظهرت أثناء الاحتلال التركي للبلاد ، النقود العثمانية المجيدية ، ونصف المجيدية ..

اما النقـود اليمنية الخالصة ، التي كانت متداولة أيام الملوك الرسوليين ، فكانت من الذهب الخالص ، عليها حروف مسندة حميرية . وكانت بالدينار ـ الذي يساوي من ٥ الى ٦ ريالات ـ وتطور هـذا الدينار مع الايام فابدلت الحروف المسندة الحميرية بحروف لاتينية ، وظل رسم البدوي بالعمامة والرمح اليمني ظاهرا عليه ..

وقد اختفى هذا الدينار الذهبي من الأسواق ، واذا وُجد منه واحد فتتخاطفه النساء والرجال ويحتفظون به مفتخرين ، ويقولون عن الشخص الذي عنده هذا الدينار الذهبي :

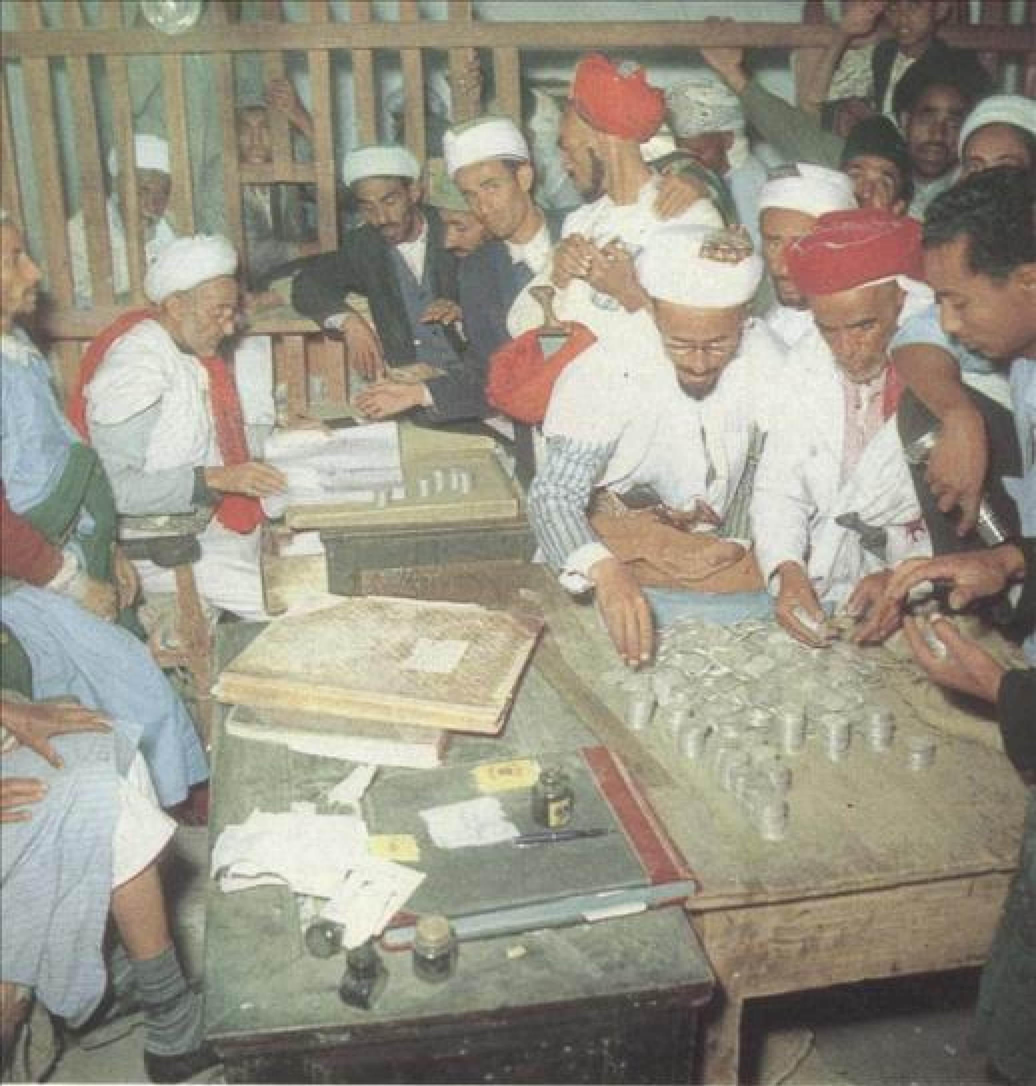
« عند فلان دُقّة" محرفة .. » .

قدح ونصف قدح من الحبوب يعطى الموظف مع مرتبه

وصدر اخيرا قانون الغى جباية الزكاة قسرا ، وتركها امانة في ضمير كل يمني يؤديها من تلقاء نفسه متى استحقت عليه .. وكانت في الماضي تجبى بالقوة من المواطنين حتى وصلت حصيلتها

اغرب عملة في العالم : لا توجد عملة ورقية (بنكنوت) في اليمن ، بل كلها نقود فضية أو نحاسية . والفئة الكبيرة من هذه العملة هي ريال الملكة تريزا . وكل ثلاثة ريالات منها تساوي جنيها استرلينيا ، وينقسم الريال الى ٤٠ بقشة . وهذه البقشات توجد على شكل قطع نحاسية وفضية صغيرة الحجم ذات فئات مختلفة ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ١٠ ـ ٢٠ بقشة .. وقصة هذا الريال قديمة تعود الى ١٥٠ عاما ، فقد دخل الى اليمن مع أول بعثة فرنساوية نمساوية جاءت الى ميناء مخا .. كان الريال في ذلك الوقت ، عملة دولية رسمية ، اطلق عليها اليمنيون في السابق لفظ : « ريال الحجر الفرنسي » . ومع الزمن انقرضت هذه العملة من النمسا .. ومع هذا ظلت متداولة في اليمن ، التي كانت تسكها في ايطاليا .. واخذت هذه العملة طابعا تجاريا فأصبحت الدولة التي تريد شراء أي شيء من اليمن ، تطبع ريالات فضية عليها صورة ماري تريزا ، تدفعها لتجار اليمن وتأخذ مقابلها قطنا أو بنا .. وقيمة هذا الريال في ارتفاع مستمر ، تبعا لسعر الفضة العالمي ، لهذا يعمد الكثيرون الى تهريبه الى الخارج، فتجده منتشرا في جميع البلاد المحيطة باليمن ، وخاصة الحبشة وشرق افريقيا ، حيث يستعملونه هناك كحلية لزينة النساء ..





صورة لداخل « الخزنة العامة » ، حيث يقوم مُطهر السراجي ، أمين الخزنة ، ـ الأول من اليسار ـ بصرف النقود للجماهير ، طبقا لأوامر الصرف التي تأتيه من مختلف الوزارات . يعاونه في ذلك كاتب الخزنة ، الجالس الى يمينه . وهما يقومان بصرف مبالغ تتراوح بين المائة والمائتي ألف ريال يوميا .



الى اليسار : مضى على الشيخ محمد حمود البيلي ثلاثون عاما وهو جالس تحت هذه المكنة التي عمرها ٤٤ عاما ، يديرها شابان ، ليصنع البقشات الصغيرة من العملة اليمنية . وينتج منها يوميا ١٥٠٠ بقشة .. بينما هناك آلة حديثة لسك النقود ، بجوار هذه الغرفة ، تستطيع أن تسك ٣٦ ألف قطعة في الساعة ، لكنها لا تعمل لعدم وجود من يجيد ادارتها

الى ٢٠ مليون ريال فى احدى السنين . وكان كل ما يجمع من الزكاة ، فى صورة اموال وحبوب وبن وغير ذلك ، كان يحفظ فى خزائن ومستودعات بيت المال ولا ينفق منها الا بامر الامام .

وفى أول كل شهر كانت ـ وما زالت ـ مرتبات الموظفين تدفع بطريقة غريبة .. فالموظف الذى يتقاضى ٢٥ ريالا شهريا ، يقبض منها ٢٠ ريالا نقدا ومعها قدح ونصف قدح من الحب ! وهذا القدح والنصف يعادل الخمسة ريالات الناقصة !!! وظاهر الامر ان هذا انما يكون لتصريف ما جمع باسم الزكاة من حبوب .

كريستيان ديور .. والقات !

وتكثر مختلف أنواع الحبوب والمأكولات والبضائع فى سوق صنعاء، ويسمونه سوق الملح .. وهو فى الواقع مجموعة اسواق متصلة بأزقة وحوار مكشوفة تحت الشمس .

ويجلس البائع داخل متجره ، وامامه (المداعة) ـ أو الارجيلة او الشيشة كما تسمى فى مختلف البلاد ! ـ وفى ركن من فمه يخزّن « القات » وبين كل لحظة وأخرى يرشف جرعة ماء من كاس بجانبه يبلعها ومعها عصارة القات .. ويجلس الزبون قبالة البائع على كرسى خشبى صغير وتبدأ المساومة بينهما ، وتمتد وتتشعب حتى يشترك فيها المارة والتجار المجاورون فى بعض الاحيان ، لتنتهى على البيع بالسعر المناسب للطرفين .. (أنظر الصور صفحة ٩٨ ـ ٩٩) .

وفى سوق الملح يمكنك أن تجد كل شيء .. من منتجات « كريستيان ديور » وعطوره ، وكرافتات « جاك فات » ، الى اكوام العدس والشعير والفول وحزم القات والكراث !!

وأسواق صنعاء عامرة كثيرة الجلبة ، خاصة بعد أن انضم اليها الترانزستور الذى اصبح شائعا فى اليمن كما ذكرنا،فيسير اليمنى فىالشارع حاملا اياه وهو رافع صوته الى اقصى حد ليسمع الجميع الأغانى الوطنية التىتذيعها اذاعة صنعاء.

ووسط اكوام البصل والذرة والعدس والعنب المجفف ، يجرى الأطفال خلف الكلاب يحاولون امساكها وهى تهرب مذعورة منهم ، اذ يعمد اطفال صنعاء الى قطع اذان الكلاب الصغيرة ، لتصبح قوية فى كبرها !! وقد رأينا آذانها مقطعة على كبر.

ماء يكفي ألف سنة

واغلب المأكولات والحبوب تأتى الى صنعاء من

هذه هى بقايا قصر غُمْدان العظيم

هذه هي بقايا قصر غمْدان العظيم ، « أحد البيوت السبعة ، بناه الضحاك باسم الزهرة » كان مكونا من عشرين طابقا ، وسقفه الأعلى من المرمر الشفاف ، الذى تظهر عليه صورة الطير عندما يطير فوقه .. وارتفاعه بارتفاع جبل نقم، الذى يشرف على صنعاء ، وقد حجّت اليه الأمم من مختلف الأصقاع ، وكان مكتوبا على بابه : « أسلِم غمدان ، فان هادمك مقتول » وجاء عثمان فهدمه !! .. ? ويقول الشاعر فى وصف القصر :

ما زال سام يرود الأرض مطلبا
لطيب خير بقاع الارض يبنيها
حتى تبوأ غمدان وشيدها
عشرين سقفا يناغى النجم عاليها
فان تكن جنة الفردوس عالية
فوق السماء فغمدان يحاذيها





الآجر على ظهور الجمال : لم تفقد قوافل الجمال عملها ، او اهميتها فى اليمن ، فما زالت الجمال تتسلق الطرق الجبلية وتهبطها ، حاملة الصناديق والحطب من ضواحى صنعاء الى داخلها، ونرى هنا قافلة صغيرة منها ، تحمل الآجر ، وهو الطابوق المصنوع من خلط الطين مع « الدبخة » أى روث البهائم ، ثم يشوى فى النار ، ويستخدم لخفته فى بناء الطوابق العليا للمنازل المرتفعة .

الاماكن البعيدة .. اما السهل الجبلى الذى تقع عليه صنعاء والصالح للزراعة فلم يُستغل بعد .. وتوجد حاليا بعثة زراعية عربية جاءت لدراسة اليمن من الناحية الزاعية ..

وفى جلسة حول « قدح البن » التقليدى مع رئيس البعثة المهندس الزراعى محمد حسن حسنى قلنا له : هل أرض صنعاء صالحة للزراعة؟

قال : ان ارض صنعاء وضواحيها خصبة جدا حتى انها تصلح للزراعة بدون أى سماد ..

ـ ما الذى تقوم بعمله البعثة حاليا ؟

ـ اننا نهتم بتنفيذ مشروع رى سهل جهران بالقرب من صنعاء ..

ان هذا السهل يحوى مليونى فدان صالحة للزراعة ، والمطلوب هو سحب الماء من تحت الارض بالمضخات لرى هذه المساحة الهائلة .

ـ ومن أدراكم ان الماء متوفر ؟

ـ كنت هنا فى اليمن عام ١٩٥٦ مبعوثا من هيئة الزراعة الدولية التابعة للأمم المتحدة . وكان المستر جوكنز الجيولوجى البلجيكى يبحث عن المياه الجوفية ، وفعلا عثر تحت سهل جهران على مستودع ماء يكفى المنطقة مددا مديدة ، وهو على عمق يتراوح بين ٣ و٦ امتار .. ولا يحتاج اخراج هذا الماء الا الى تركيب المضخات لسحبه .

ـ وهل ستزرعون مساحة المليونى فدان كلها ؟

ـ قال الخبير الزراعى العربى : لا .. لقد تقدمنا بطلب للأمم المتحدة حتى تبدأ المشروع بزرع ٢٥٠ الف فدان تجربة اولى .. وقد وافقت الامم المتحدة وسترسل الخبراء لبدء التنفيذ ..



الى اليسار : جامع الروضة من الجوامع الجميلة الصنع ، عمّره احمد بن الامام القاسم عام ١٠٥٠ هـ . واوقف عليه أوقافا كثيرة وبضاء بالكهرباء ، وفيه امـام من السنة هـو الشيخ يحيى الكبسي ويعتبر من مراجع القراءات السبع

الى اليمين : ترتفع «تربيعات» العنب عادة ، على قوائـم خشبية ، او على جـذوع اشجار يابسة . اما في الروضة فيستعملون قطعة صخر رفيعة طويلة يقطعونها من جبال تقم لرفع أغصان العنب وثماره عليها .. انظر جـيدا الى الصورة ، ترهـا واضحة ..



الى اليسار : هذه هي الروضة التي يمكن أن يأتيها سنويا الاف المصطافين من جميع أنحاء اليمن ، لو زادت العناية بها ، واصلح الطريق المؤدى اليها .. انها تقع على بعد سبعة كيلومترات فقط من صنعاء ، وتشتهر ببساتين فواكهها ، واعنابها الشهية ، التي تشمل ٢٨ نوعا ، تحمل اسماء مختلفة ، فالأبيض مثلا ينقسم الى : القوارير ، والرازقي ، والاشراف ، والقرطي ، والعرّقي ، والجوفي ، والقزاقز ، والاطراف ، وبيض الحمام ، وسيبان ، وأصابع زينب .. والعنب الاسود ينقسم الى : الحاتمي ، القهمي ، دبيبي ، مبذّرم ، العيون ، الحسيني ، العذاري ، والاخير منها أحلاها وهو بدون بذور .. اما العنب الاحمر فينقسم الى الزيتون ، وعاصمي .. وتدور حول حدائق الروضة وبساتينها ، طرائف وحكايات كثيرة .. من اطرفها تعليلهم للسبب الذى من أجله غارت مياه الآبار ، وانعدمت الأمطار ، وماتت أشجار العنب عام ١٢٥١ هـ . فقد قالوا ان السبب يرجع الى الكفر بالنعم ، فقد أصدر حاكم الروضة امره الى عماله برش أرض الروضة بماء الورد ، احتفالا بمقدم الوزير المنصور على .. فكان ما كان .. واسم الروضة الكامل هو « روضة احمد » نسبة للسلطان احمد حاتم الذى حكم في القرن السابع .. اما عدد سكانها فيقرب من السبعة آلاف يتضاعفون في الصيف والخريف ..




وناصل ان نستطيع البدء فى الزراعة مع مطلع عام ١٩٦٤ . وتبلغ تكاليف هذا المشروع من ٣ الى ٦ ملايين دولار .

قلت : هل توجد حاليا مضخات ماء حول صنعاء ؟

قال: يوجد فى صنعاء وحولها ١١٠ آبار تسحب منها المياه بواسطة الدواب وخاصة الجمال ، ويروى كل بئر منها ٢٠ فدانا وبهذا تصبح مساحة الأرض المروية حاليا حوالى الفى فدان فقط ، اغلبها مزروع بالبرسيم للاغنام والماعز ..

ـ وهل يمكن زراعة غلات اخرى ؟

ـ نعم .. يمكن زراعة القمح ، والشمندر السكرى، والفاصوليا، والبازلاء ، والفول وغيرها ، وهذا ما سوف نسعى لتحقيقه فى سهل جهران .

من أين تشرب صنعاء ؟

ان صنعاء ، كما قلنا ، مدينة تقع على سهل جبلى مرتفع ، ومع هذا يمر من تحتهما نهران يسمونهما : « الفيل الأسود » ، « وغيل اللاف » وقد حفروا فتحات متعددة فى شوارع المدينة ينزلون اليهما لملء الأوانى بماء الغيلين .. (أنظر الصورة صفحة ٨٧) كما ان هنالك آبارا بدائية تخرج الماء من الارض بواسطة الدواب .

ومع مطلع كل فجر تخرج نساء صنعاء الى الطرقات،حاملات الصفائح على رؤوسهن،ومتجهات الى احواض ملأى بالماء الذى يأتيها من الآبار .

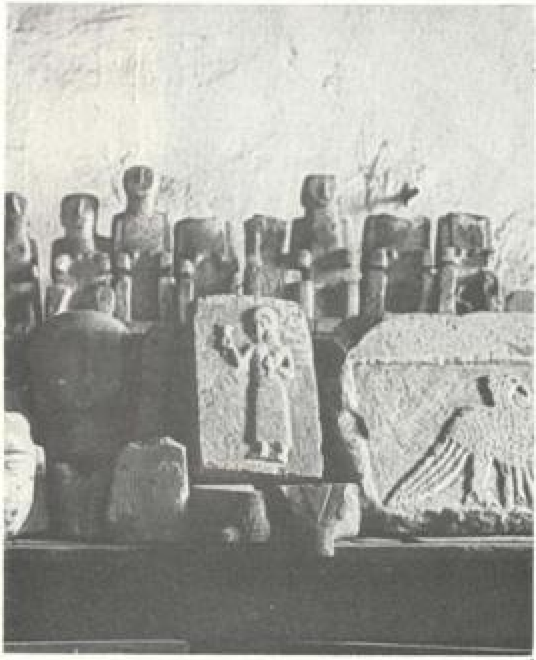
وبعد ان تنقله المرأة بالصفائح نفسه فى منزلها داخل اوان فخارية كبيرة مطلية بالاسمنت من الخارج يأخذ منها اهل البيت حاجتهم بواسطة « كوز » من الصفيح .. وتجرى حاليا محاولات فى الفنادق الجديدة لوضع مستودعات ماء على الأسطح حتى ينساب الماء بالمواسير الى الغرف ومختلف المرافق ..

قلة صنعاء اسمها : الكُعدة !

وعلى ذكر المنزل فان المرأة الصنعانية ما زالت تطهى طعامها على الحطب ، اما الغاز فلم يدخل الى صنعاء بعد .. بينما بدأ « وابور الجاز » يغزو بعض المنازل !!

اما قلة صنعاء فتسمى « الكعدة » وهى من الفخار، ولونها أحمر .. ويوضع الماء فيها وتعرض لتيار الهواء فى الصيف لمدة نصف ساعة يصبح الماء بعدها باردا شهيا ..

آثار اليمن وحضارته



حضارة اليمن لا تضارعها حضارة ..وتاريخها لا يعادله تاريخ .. وآثارها تنافس أجمل الآثار واقدمها .. ولكن اين هذه الآثار .. ؟ الجواب تجده فى غرفة مُعتمة خَربة ، يرتكز سقفها على عمود خشب هزيل ، بالطابق الارضى من دار الضيافة بصنعاء .. فعلى ارضها ، وفوق مائدة خشبية « أثرية » تناثرت بعض القطع القديمة لآثار حميرية وسبئية .. ولكن كل هذه الآثار ما هى الا بمثابة حبة رمل من صحراء واسعة. فالآثار الهامة ما زال اغلبها يرقد بهدوء فى مكانه القديم الذى وضعها فيه الأولون منذ الاف السنين ..

ان آثار اليمن لم تتأثر كثيرا بسرقات البعثات العلمية الالمانية والفرنسية والايطالية ، ولا بما سرقه الموظفون الاتراك،او بما نقله العربان من الواح وآثار الى اسواق عدن لبيعها هناك الى تجار الآثار .. ان الاكتشافات المحدودة ، التى قامت بها البعثات العلمية الاجنبية التى استطاعت دخول

ملك للعرب ..



اليمن ، تحدثنا عن عظمة غابرة لبلد تمكن أبناؤه أن يبوؤه مكانا عاليا بين حضارات العالم القديم .. وفي حديث مع الاستاذ ناصر العنسي المسئول عن الآثار ـ قال لنا : « حرام ... أن نترك هذه الآثار الهائلة .. انها ليست ملك لنا ، انها ملك العرب أجمعين .. فحضارة اليمن هي حضارة العرب القديمة ، اذ يجب الا ننسى ، بأنه من اليمن قد خرجت الموجات العربية الأولى نحو مختلف الأقطار .. والكشف عن الآثار المطمورة سيكشف ، حتما ، النقاب عن حلقات هامة مجهولة من تاريخ العرب القديم ، ونحن نأمل في الاستعانة بخبرة اخواننا العرب ، لتكوين لجنة تستطيع أن تحدد ما هي أنجع الوسائل للكشف والتنقيب واستغلال هذه الثروة الهائلة .. اننا نتركها للعرب .. فهي ملك لهم .. » **.. والعربي لا يسعها الا أن تقدم هذا الكلام ، وتطرحه امام المسئولين عن الآثار في البلاد العربية ..**

بسبب الطاعون جاء الماء للمساجد !

وكان المواطنون قديما يتطهرون أولا في بيوتهم ، ثم يحضرون لاداء الصلاة في المساجد ، لقلة الماء.

ولما وقع الطاعون سنة ٩٣٢ هـ . ومات فيه عدد هائل من اهل صنعاء ، أيام دولة « الامام المتوكل على الله شرف الدين يحيى » ، وجدت اموال كثيرة متروكة لا وارث لها .. فاشار الامام بان تكون في صالح مساجد صنعاء .. وامر بحفر الآبار وعمارة البرك والمطاهير في مساجدها ، التي يبلغ عددها اكثر من ١٢٠ مسجدا ، اشهرها جامع صنعاء الكبير (أنظر الصورة صفحة ٨٤) .

جنة « بئر العزب » ...

وتكثر في شمال صنعاء الحدائق والبساتين ، وفيها منطقة « بئر العزب » ، التي يقول فيها الشاعر :

وبقُرْبي آزال(١) جَنَّةٌ
انها تسترقُّ القلبَ طَرَبْ
طلقَ الهمُّ بها ساكنُهـا
فلهذا سُمِّيت بئرَ العزَبْ

(أنظر الصورة صفحة ١٠٨) .

.. وجنة « الروضة »

اما جنة صنعاء الحقيقية فهي « الروضة » وتقع على مسافة سبعة كيلومترات من العاصمة تقطعها السيارة في ساعة ونصف لعدم وجود طريق معبد .. (أنظر الصورة صفحة ١٠٤) .

وهذه الروضة هي التي جاء ذكرها عندما وصفوا جنات الأرض الثلاث فقالوا :

ـ غُوطة دمشق ، وشِعْب بَوّان في فارس ، وروضة صنعاء !!

واغلب أهالي صنعاء يملكون منازل في الروضة، يأتونها في الخريف والصيف ، في موسم العنب ، والبرقوق ، والسفرجل ، والتفاح ، والرمان ، والجوز ، والبرتقال ، والليمون ، التي تنمو كلها بنجاح باهر في البساتين هناك . ويمكثون ثلاثة اشهر يأكلون خلالها الفاكهة الشهية ويشربون الماء الصافي المستخرج من الآبار ومن غيل مصطفى، وهو نبع في الوادي ..

والذي لا يملك منزلا في الروضة ، يستاجر

(١) آزال : اسم صنعاء القديم

العربي

العدد ٩٠
جماد آخر ١٣٨٣
نوفمبر
(تشرين ثاني) ١٩٦٣



مع هذا العدد
هدية
+
العربي الصغير

جوائز
١٢٠٠
دينار سنويا

عربية تقول :
ليت للزهور عمر النسور

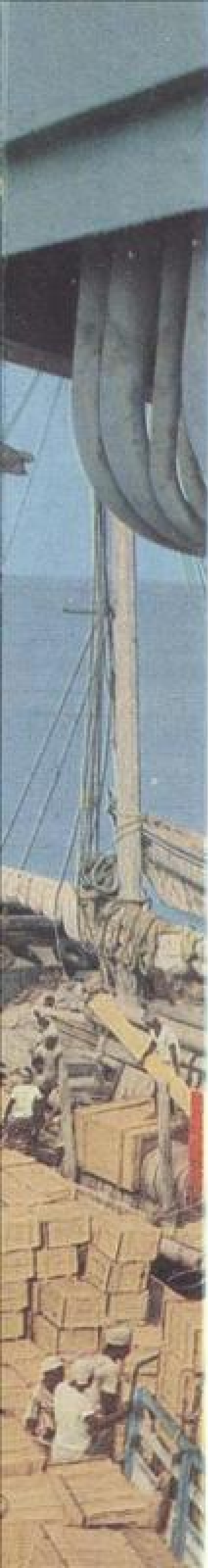
الثمن

الكويت	١١٠	فلوس
الخليج العربي ٢		روبية
السعودية	٢	ريال
اليمن	٣ر٥	شلن
العراق	١٢٠	فلسا
لبنان	١٠٠	قرش
الأردن	١٠٠	فلس
سورية	١٠٠	قرش
ج٠ع٠م٠	١٠	قروش
السودان	١٠	قروش
ليبيا	١٥	قرشا
تونس	٢٠٠	فرنك
الجزائر	٢٠٠	فرنك



اين شهادة المنشا ؟.. يتشابه سوق الحديدة مع أغلب الأسواق القديمة فى البلاد العربية ، ولكنه يختلف عنها بنوع بضائعه ، التى تأتيه كلها من طريق عدن ولكن أغلبها مجهول الصنع اذ لا توجد عليه أى كتابة .

الى اليسار : صورة رائعة لميناء الحديدة الذى قام الخبراء الروس ببنائه من عام ١٩٥٨ حتى ١٩٦٠ وبلغت تكاليفه اربعة ملايين جنيه ، ويتسع لرسو ثلاث سفن حمولة ١٠ آلاف طن ، ومنه تصدر اليمن البن والجلود والزبيب ، وتستورد الاقمشة والسكر والارز والبترول .



اعرف وطنك أيها العربى

الحُدَيِّدَة

أولى مدن تِهَامَة

وبوابة اليمن على البحر الأحمر

قام بهذا الاستطلاع : سليم زبال وصوره « أوسكار »





تقع الحديدة فى منتصف الساحل اليمنى على البحر الأحمر ، وهى ميناء اليمن الاول بعد ان أفل نجم « مخا » التى كانت تنافس عدن فى أهميتها ..وقد ظهرت الحديدة علـى الخريطة ، والطريـق الوحيد الموصل بينهـا وبين صنعاء وهو أحد الطريقين الوحيدين المهدين فى اليمن ..



الحى الارستقراطى فى الحديدة بمنازله الكبيرةالتى لا ترتفع الى أكثر من ثلاثة طوابق ! ..

■ فى مكان نـاءٍ قصيٍّ ، مـن وطننا العربى الكبير ، بدأت الارض تتحرك بفعل مارد قبع فى بطنها دهرا طويلا ، فبدأ يصحو ويستعد للظهور فوق رمال الصحراء الرطبة المهملة التى يعيش تحتهـا ..

فلقد كشفت الحفريات انه مارد النفط الذى سبقه بالصحو اخوان له فى سائرة الجزيـرة العربية . لقد وجدت دلائل مشجعة ، ومبشرة بقرب اندفاع السائل الاسود من محبسه حـول ميناء الحديدة باليمن .

وبالرغم من هذه الدلائل المشجعة ، فان أعمال الحفر تسير ببطء وتراخ ظاهرين .. بينما عصر النفط ، الذى نعيش فيه ، يوشك أن يخلى مكانه لعصر الذرة القادم ..

ان الأمل كبير فى أن يستطيع مارد النفط ، فى اليمن ، أن يتخلص من قيوده بسرعة ، ليساعد أهل هذا البلد على السير قدما فى طريقهم الطويل للحاق بركب المدنيـة والتقـدم والازدهار الذى فاتهم ..

كرنفال الـوان !

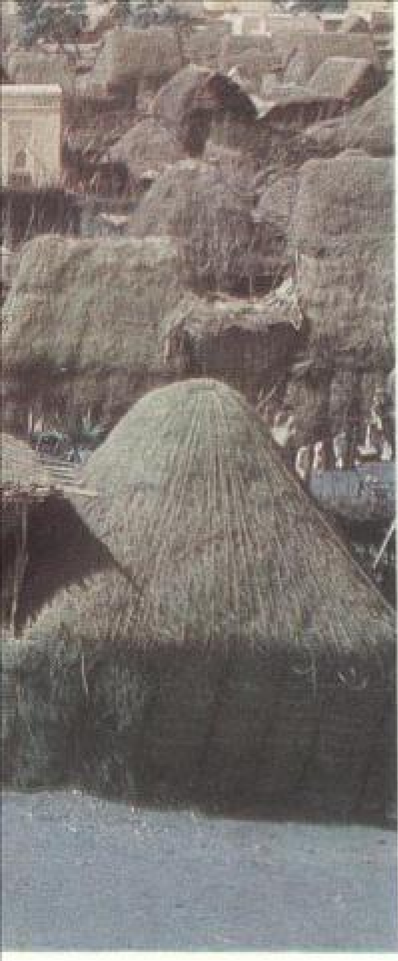
لقد طارت بعثة العربى الى منطقة البترول فى اليمن ، لتنقل لك هذا الاستطلاع عن المدينة التى سوف تسلط عليها الاضواء فى المستقبل القريب .

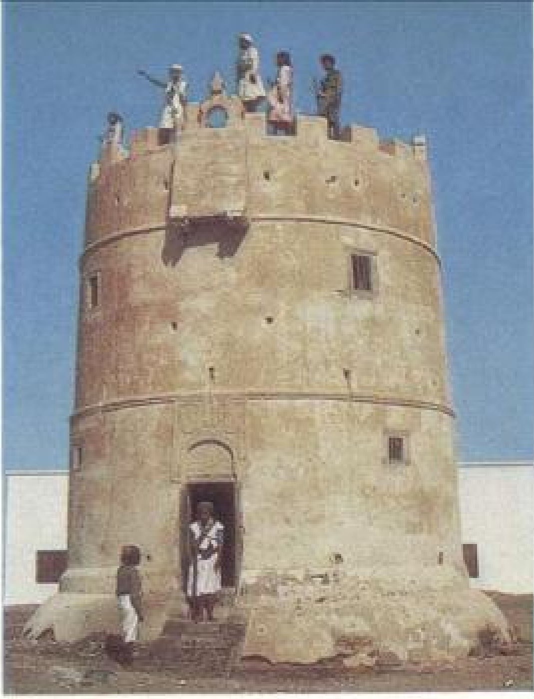
انها الباب الكبير الذى تطل منه اليمـن الخضراء ، على المياه الزرقاء ، لذلك البحـر الاحمر الملآن باسماك القرش البيضاء وكلاب البحر المفترسة السوداء !

ركــود ..

انها الحديدة : الميناء والمدينة التى يمر أهلها بصراع نفسى ، عنيف .. لقد بدأ نجم الحديدة فى الافول منذ أن خسر العرب الطرق البحرية ، بعد ان عرف الرومان سر الرياح الموسمية ، فانهار المهد الذهبى للقسم الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية .. وتوقفت المـراكب العربية المثلثـة الاشرعـة ، التى كانت تحمـل الحرير والعنبر والعاج ، والذهب والقرفة والزنجبيل والفلفل والزعفران ، توقفت هذه المراكب ولم تعد تشاهد فى ميناء الحديدة الذى كان يعج بها .

وتبع ركودَ الميناء ، ركودٌ فى المدينة فلم تعد تحـوى أى عنصر من عناصر الجمال ، سـواء المعمارى ، أو الحضرى أو حتى الانسانى !





قوة الاستمرار هي السبب ! : تحيط بالحديدة ابراج تركية حجرية قديمة ، يسمونها « النوبة » اقامها الاتراك للدفاع عن المدينة .. وما زالت هذه النوبات قائمة حتى الآن . ويبلغ عددها خمس « نوبات » اتخذها رجال الشرطة مأوى لهم ينامون فيها ، وفي الصباح يصعدون الى سطحها لالقاء نظرة على المدينة الساكنة الممتدة امامهم .. انهم يفعلون هذا بحكم قوة الاستمرار،اذ ليس هناك ما يستدعي المشاهدة!





قشاش مكيف ! : هذه العشش الظاهرة في الصورة ، هل يمكنا ان نقول انها مباني الحديدة ؟ .. ان الواقع المؤسف يؤكد ذلك .. فالجزء الاكبر من الحديدة مبني بهذه الطريقة .. حقيقة ان الهواء يتسرب من بين الجدران فيلطف الجو داخل العشة ، ولكن ذكرى الحرائق المتوالية التي تلتهم مئات العشش ، وتشرد عشرات الاسر ، دفعت بالمسئولين الى اصدار اوامرهم بمنع اقامة اى عشة او «قشاش» كما يسمونها ، جديدة في المدينة .. اما الصورة اليمنى التي تبدو في اولها فهي مقدمة مساكن الخبراء الروس المكيفة ، والمطلة على شاطىء الحديدة الذي تحيط به مساكن مبنية بالاحجار ؛ فهذه الحياة حديثة لا يتنعم بها سوى قلة من ابناء البلد



فمنازلها عشش يرفعونها على أغصان الأشجار .. والحجرى منها أثرى يرجع الى العهد العثمانى!

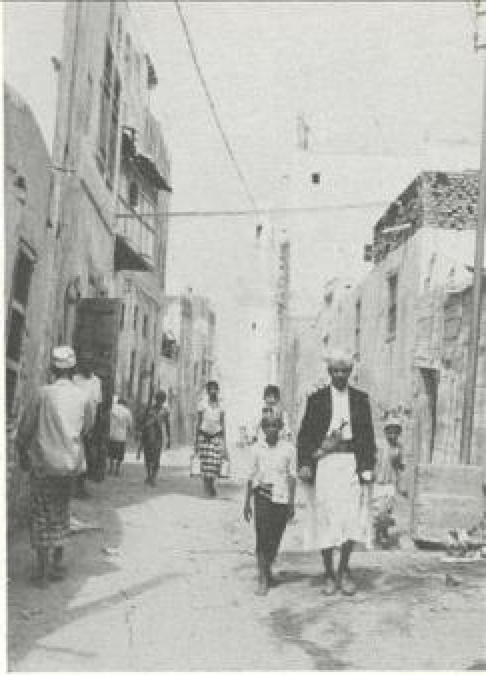
هنا جدب .. وهناك زرع !

ان الحديدة هى توأم بورسودان - اذا صح التشبيه - فالرطوبة التى تصل الى مائة درجة ، تجدها فى كلا الميناءين ، ولكن أهل بورسودان حولوا مدينتهم الى بستان هائل من المسطحات والأشجار الخضراء ، لامتصاص الرطوبة الزائدة ، بينما تفتقر الحديدة الى كل ما هو نبات ، اذ ليس فيها شجرة واحدة او حتى مسطح أخضر واحـد ..

أكبر مدن تهامة

وقبل الدخول فى وصف الحديدة الحديثة ، لا بد من كلمة موجزة عن جغرافية اليمن ، لنستكمل الاطار العام للصورة .

تطل اليمن على البحر الأحمر بساحل بحرى طويل .. طوله نحو ٨٠٠ كيلومتر ، يمتد الى داخل البلاد مسافة تتراوح بين ٥٠ أو ٦٠ كيلومتر ،



شارع فى الحديدة .... !

★

منظر عام لمبانى حارة الترك ، واغلب مبانيها متلاصقة مبنية بالاحجار .. ويلاحظ عدم وجود اى نوع من الرقابة أو التخطيط فى طريقة البناء .. كل فرد يبنى حسبما يريد وكيفما يريد .





اجتماع هام بين وزير الأشغال اليمنى ، ورئيس مجلس بلدى الحديدة ، وبعض المسؤولين فى المدينة ، لمراجعة الخرائط التفصيلية الخاصة بمدينة الحديدة الجديدة ..

ثم يصطدم بسلسلة جبال السَّراة العالية .

ان هذا الشريط الساحلى المستطيل ، هو ما يسمى بصحراء تهامة او بمنطقة تهامة .. وتمتد حدوده من باب المندب وعدن جنوبا ، الى حدود السعودية شمالا ..

واشهر مدنه كانت مَخَا ، الميناء الذى كان ينافس عدن فى اهميتها لكميات البن الكبيرة التى كانت تصدر منه .. ولكن هذا الميناء الهام ، بدا نجمه فى الافول بعد ان سدت الرمال مدخله .. ومشاريع احياء هذا الميناء كثيرة ، وخاصة بعد ان تم ربطه بطريق مُعبّد مع تعز ، ولكن حتى تتم عملية اعادته للحياة ، فان الحديدة تحتل اليوم مركز المدينة الأولى من تهامة .. والميناء الأول فى اليمن .

أوقفوا هذا التصميم

والحديدة – كما ذكرنا – ميناء ، ومدينة ، منفصلة احداهما عن الأخرى بأرض فضاء طولها ثلاثة كيلومترات ، ومجموع مساحتها نحو نصف مليون متر مربع ..

وعلى هذه المساحة ستقوم مدينة الحديدة الحديثة .. وبكل اسف لن تكون مدينة حديثة ، بل مجموعة مساكن شعبية متشابهة ، مكونة من طابق واحد ، وضع تصميمها مهندسون روس منذ مدة طويلة ..

ان هذا التصميم ، الذى وضع فى ظروف تختلف تماما عن الظروف التى تمر بها اليمن اليوم ، لا يتناسب مع المستقبل اللامع الذى ينتظر هذا

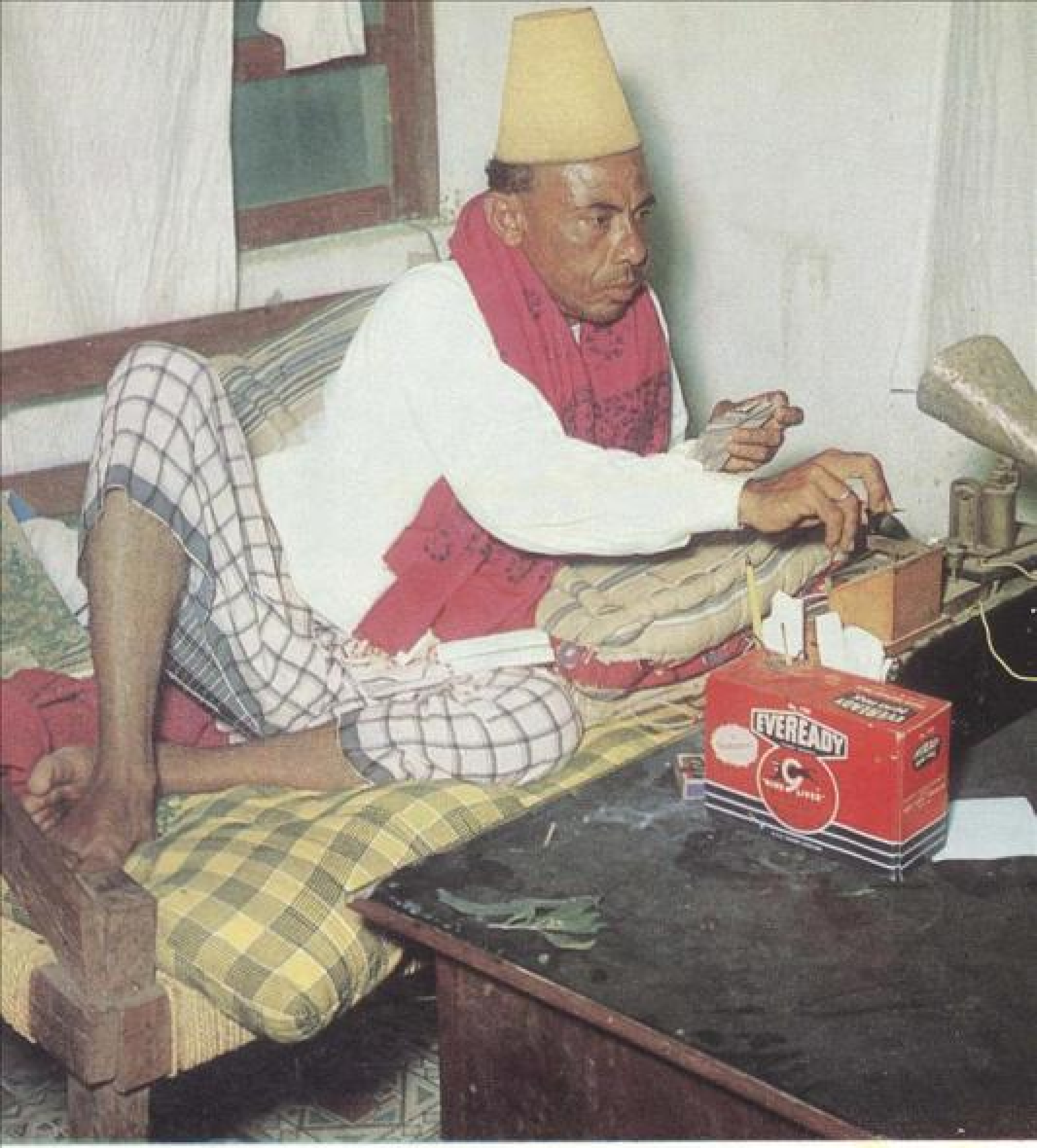




اول صحفي يمني : تنقسم اليمن الى سبعة الوية ، يتولى تصريف امور كل منها « امير لواء » معين من قبل الحكومة . وفي وسط الصورة العليا يبدو امير لواء الحديدة ، السيد محمد احمد المطاوع ، يستند الى الوسائد الملونة ويدخن « التمباك » من «المداعة» التي يبلغ طول قصبتها نحو ثلاثة امتار ونصف ! السيد المطاع هو اول صحفي في اليمن اذ كان يُصدر مجلة خطية اسمها **أنين اليمن** سبق أن تحدثنا منها في استطلاع صنعاء

استراحة تحت جناح الطائرة : في مطار الحديدة الرملي وقف بعض الركاب يستظلون تحت جناح الطائرة حتى يحين موعد اقلاعها ولا تتحمل أرض المطار سوى الطائرات من ذوات المحركين التي تأتيها يوميا من تعز وصنعاء ، وتتصل الحديدة باسمرة بواسطة خط جوي منتظم ، تعمل عليه الطائرات مرتين في الاسبوع : الثلاثاء والاحد .. اما المطار الحربي فيستطيع استقبال أكبر الطائرات واحدثها ، اذ يبلغ طول مدرجه ثلاثة كيلومترات





هذا الحديدة ..! : هل تعرف ما هو طائر الهوا ؟ .. انه البرق اللاسلكي .. وترتبط مدن اليمن الرئيسية بخط برقي داخلي،ممدود من العهد العثماني،وما زال يعمل حتى الآن بالبطارية الجافة !! وكثيرا ما ينقطع هذا الخط ، بسبب الامطار التي تسقط الاخشاب حاملة الاسلاك ، فتنعزل المدن عن بعضها !! وفي الصورة العليا عامل لاسلكي الحديدة في جلسته التقليدية امام جهازه الاثري القديم . ويلاحظ على المائدة بقايا أوراق أغصان القات و « **الترموس** » الذي يشرب منه الماء البارد أثناء « تخزينه » للقات .. أما غطاء الرأس ، الذي يرتديه ، فيسمونه « الكوفي » .. وهو « طربوش » مصنوع من الخيزران الدقيق جدا في قرى شمال اليمن ، ويعتبر هذا « الكوفي » غطاء الرأس الرسمي في الحديدة .. وهو على أنواع عديدة ، يصل ثمن النوع الفاخر منها الى نحو ١٠ جنيهات استرلينية ! .. ان صورة هذا الجهاز سوف تزول قريبا جدا بعد أن تقرر اقامة خط هاتفي مباشر بين صنعاء والحديدة ..



الكويت فى اليمن : كانت الكويت فى طليعة الدول العربية التى أعربت عن استعدادها لتقديم المعونة الى الجمهورية العربية اليمنية لتدعيم نهضتها الحاضرة ، فسارعت بايفاد وفد من رجالاتها للبحث مع المسؤولين اليمنيين فى المساعدات التى تقدمها الكويت لشقيقتها ، وكان يرأس هذا الوفد السيد بدر الخالد البدر الذى تراه فى الصورة يتحدث الى امير لواء الحديدة فى دار الضيافة ، والى يمينه السيد عبداللطيف يوسف الحمد مدير الصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية يتحدث الى السيد محمد أحمد السياغى نائب وزير الشؤون القبلية اليمنى ، وفى أقصى اليمين ظهر السيد عبد الله مفرج مندوب وزارة المعارف الكويتية يتحدث الى قائد حامية الحديدة ، وذلك فى أولى زيارات الوفد الكويتى لليمن ..

الميناء الكبير .. فمن غير المعقول أن تكون المنازل الشعبية الصفراء هى واجهة مدينة حديثة .. ان المطلوب هو اعادة النظر فى هذا التصميم حتى تكون المدينة الجديدة مدينة نموذجية بمنازلها العالية ، وفنادقها ومرافقها العامة ..

ان اقامة مدينة حديثة مثل هذه سينسى الناس المدينة القبيحة الحالية ، التى اختلطت فيها الهندسات التركية بالهندية باليمنية ، فأعطت نتاجا تعافه النفس وتمجه العين .. فالمنازل الحجرية الموجودة أصبحت فى حالة يُرثى لها ، ومشربياتها الخشبية الخضراء ضاع لونها بفعل الشمس وتساقطت أخشابها بفعل الاهمال .. لا احد يعتني بطلائها او اصلاحها ، فأصبحت شبه مهجورة ، مع أنها مسكونة !!



اطول مآذن الحديدة : تتميز مآذن المساجد فى الحديدة بقصرها .. فالناس كانوا يعتقدون بأن الارض الرملية لا تتحمل المآذن المرتفعة .. وتختلف هندسة كل مئذنة باختلاف العصور التى مرت على البلاد .. وهذه المئذنة تابعة لجامع جميشيه .. ولا يدرى امام الجامع تاريخ البناء أو حتى من الذى قام ببناء هذا الجامع !

سمار .. وسواد

ويقرب عدد سكان الحديدة من ٣٥ الف نسمة ، اختلطوا بزنوج افريقيا ، والنازحين الى المنطقة ، فكونوا أجناسا مختلفة ، لونها أسمر يميل للسواد ، بعكس سكان الجبال السمر الذين يميلون للبياض .

اما المرأة فى الحديدة فهى ثقيل على الرجل ، لأنها تشتهى كل شىء . من ملبوسات ، وقات ، وتمباك ، ولكنها لا تعمل كثيرا مثل شقيقتها اليمنية التى تسكن الجبال .

كيف تقضي المرأة يومها ؟

ولا أثر للحجاب على وجوه الريفيات النازحات الى المدينة للعمل فى مصانع تنظيف البن أو حلج القطن ، بعكس بنات الحديدة اللواتى يرتدين الحجاب الأسود الثقيل ، ويمكثن طول النهار فى المنزل يطبخن الأرز مع السمك والخضراوات مع اللحوم .

اما بعد الظهر فتعمل المرأة على تجميل نفسها قبل أن تقوم بعمل « الدورة » أى زيارة منزل احدى صديقاتها ، حاملة معها حزمة القات التقليدية ، ولفة التمباك داخل منديل أو منشفة، وتظل عند صديقاتها الى ما قبل الغروب بقليل ، تمضغ القات .. وتدخن التمباك .. وتستمع الى الراديو ، قبل أن تعود الى المنزل لتبدأ فى اعداد القهوة المسلوقة بالقشر والزنجبيل والسكر لتشربها مع زوجها ..

اما العشاء فلا يزيد على قطعة « كيك » أو بسكويت ، لان مضغ القات يفقد ماضغه الشهية!

حتى لا يخطفهن أحد !

وطريقة الزواج فى الحديدة عجيبة ، فالرجل يتزوج بطفلة قاصرة تبلغ ١٢ او ١٣ سنة على الأكثر ، ولكنه لا يقربها بل يظل ينتظرها حتى سن البلوغ ، وهو ١٥ سنة !!

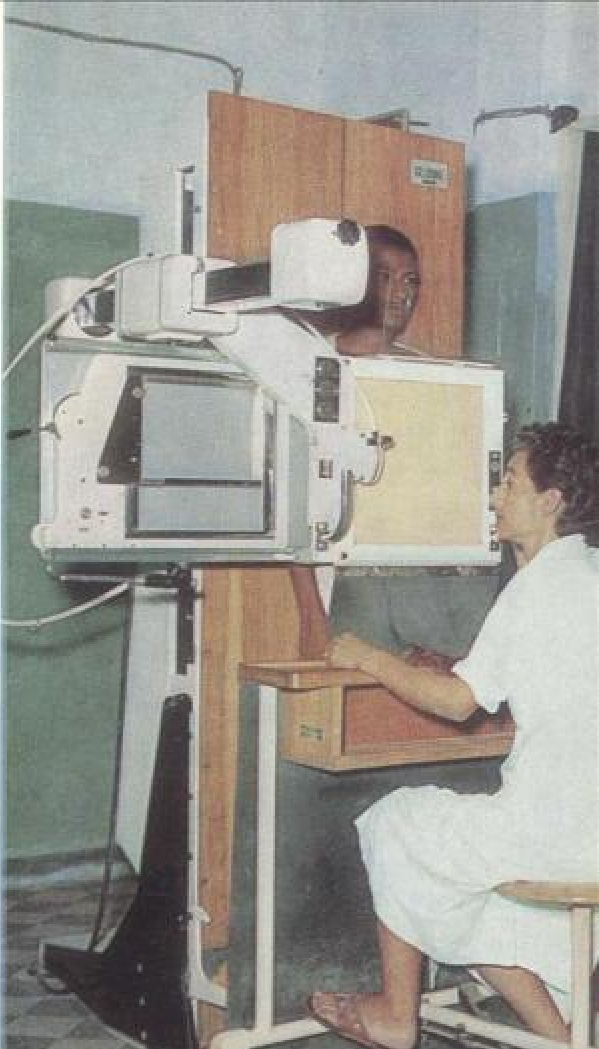
والسر فى ذلك يكمن فى قلة عدد البنات ، لهذا



صناعة المحارم من الصناعات اليدوية الرائجة .. انهم يستوردون القماش الخام من الهند ، ويصبغونه فى الحديدة بالالوان التى يشتهونها .. فمثلا سيدات الجبال يقبلن على شراء المحارم الملونة..بينما سيدات تهامة يفضلن اللون الأبيض .. وثمن «المحرمة» الواحد ٣٥ بقشة اى ٢٥ قرشا .. **وفى الصورة العليا** صاحب المصبغة يطبع اللون الذهبى الأخير على المحرمة . وبعدها ينقلها مساعدوه الى الشارع ، يعرضونها للشمس حتى تجف ! **(الصورة اليسرى)** .

الى أسفل: يهرع أهل الحديدة الى شاطىء البحر يغطسون انفسهم فى مائه حتى الرقبة، هربا من الرطوبة والحر ..





لم يمت أحد موتا طبيعيا ! : جاء الاطباء الاوروبيون الى اليمن بموجب معاهدات الصداقة والتعاون بين الامام ودول أوربا .. ومما لا شك فيه انهم قاموا بعمل يشكرون عليه ، رغم قلتهم ، وقلة الامكانيات ، وكثرة المرضى !. واكثر الامراض انتشارا فى الحديدة : السل .. وفى المدينة مستشفى عام واحد ، يضم ٥٠٠ سرير ، به ١٠ أطباء روس ، وطبيبة ايطالية واحدة هى : ليندا نافا المتخصصة فى الاشعة .. وقد قال لنا أحد كبار المسئولين : يمكنك ان تذكر انه لا يوجد شخص يمنى واحد مات موتا طبيعيا .. انما كلهم ماتوا بفعل الامراض والاوبئة !







يعمد الرجال الى اخذ الفتيات وحجزهن منذ سن الثانية عشرة « حتى لا يخطفهن احد » !

وتعمد الأمهات ، في فترة الانتظار هذه ، الى تعليم فتياتهن أصول الطهي وشؤون المنزل ، وطريقة عمل الطاقية« بالكروشيه » ، وعمل لباس لقصبة « المداعة » ـ النارجيلة ـ الطويلة .. وتعمد الأمهات الى تعليم بناتهن لانهن تعلمن ان المرأة عندما تتزوج ، تشترى ذهبها وملابسها من انتاج عملها . فالزوج ـ المتوسط الحال ـ لايعطي زوجته سوى ٤ او ٥ بقشات (٤٠ الى ٥٠ فلسا او مليما) ـ كمصروف يومي خاص لها !



يشرب أهل الحـديدة من آبار في شرقى المدينة ، ماؤها مالح تمجه النفس وتعافه .. تنقله الجمال والحمير داخل براميل خشبية الى باب البيت ، ثم يعبئه العمال في صفائح وينقلونه الى زلع من الفخار داخل المنزل فيستعمله الاهالى للشرب والغسل دون أى تصفية أو تعقيم !! أما البيت الذى ظهرت « مشربياته » فهو بيت الضيافة : المكان الوحيد الذى يمكنك أن تنزل فيه بالحديدة اذ لا توجد فيها فنادق حتى الآن .

عشش فوق المنازل

واغلب أهل الحديدة فقـراء يعيشون تحت « القشاش » اى العشش ، التى يتم بناء الواحدة منها في خلال يومين ، بعد أن تجلب لها اغصان الاشجار من القرى المجاورة على ظهور الجمال ، ويقوم صناع متخصصون ببنائها ..

وتتميز هذه العشش بأنها تسمح للهواء بان يتخللها وتجعل الجو باردا في داخلها ..

وكثيرا ما يعمد أصحاب المنازل الحجرية ، الى بناء « قشاش » على أسطح منازلهم ينامون فيها بالليل ، هربا من حر الغرف الحجرية ..

حـارات ..

والحديدة القديمة ـ مثلها في ذلك مثل المدن العربية القديمة ـ تنقسم الى حارات ، أهمها : حارة اليمن ، وحارة الشام ، وباب النصر ، وحارة الترك ، وحارة الهنود ، وحارة المشرع ، وحارة الحدك،وحارة الشمارية،وحارة الأخدام..

واللهجة العامية في الحديدة وتهامة صـعبة ، لانها مثل أهلها ، خليط من اللغات الافريقيـة واللغات القديمة والعربية ولكن الى جانب هذه اللهجة العامية فان الأهالى ، جميعا يجيدون العربية ويفهمونها ..

هل هى « المرسى الحديث » ؟

لا أحد يعرف لماذا سميت الحديدة بهذا الاسم .. واذا سألتهم أجابوك : « الأسماء لا تعلل »!

حتى اسم بانيها لم يتعرض له احد من المؤرخين، ولكن الدكتور حسن سليمان يقول في كتابه عن تاريخ اليمن : « قد تكون بلدة المرسى الحديث ، التى مر بها ابن بطوطة ، هى الحديدة الحالية..»



طريقة أخرى لنقل الماء الى المنازل .. ويسمون حامل الماء « وَرّاد » وهو يأخذ الماء من مستودع كبير تأتيه المياه من بئر ارتوازية محفورة ومكتوب على بابه :

أيها الظامئون للماء هيا ... ها هو الماء فاستقوه طريًا
قد تفضل به الامام عليكم ... فردوه لتشربوه هنيًا

ضرب المدينة ..

ان موقع الحديدة الستراتيجى قرب عنق البحر الاحمر جعلها تتعرض لحروب عالمية : حامية، وباردة .. واول هذه الحروب ، التى تذكرها كتب التاريخ ، هى نزول جيش السلطان الغورى المكون من الشركس والاكراد والآسيويين الآخرين فى الحديدة عام ١٥١٥م لفتح اليمن فنُهبت المدينة وخُرّبت عن آخرها ..

وكان الاحتلال العثمانى سببا فى أن دك الايطاليون المدينة بقنابل أساطيلهم أثناء حربهم مع العثمانيين.

ثم جاء الانجليز وقصفوا المدينة بقنابل أساطيلهم لأنهم رأوا فى نشاط العثمانيين بالمنطقة خطرا عليهم، سيما وانهم كانوا فى حالة حرب مع الاتراك بين ١٩١٤ و ١٩١٨ .

وبعد القصف نزلت القوات البريطانية واحتلت المدينة ، وكان فى نيتها أن توطد أقدامها ولكنها لم تلبث أن جلت منها وتركتها للسيد محمد على الادريسى .. وهكذا أصبحت الحديدة جزءا من امارة الأدارسة فى تهامة ..

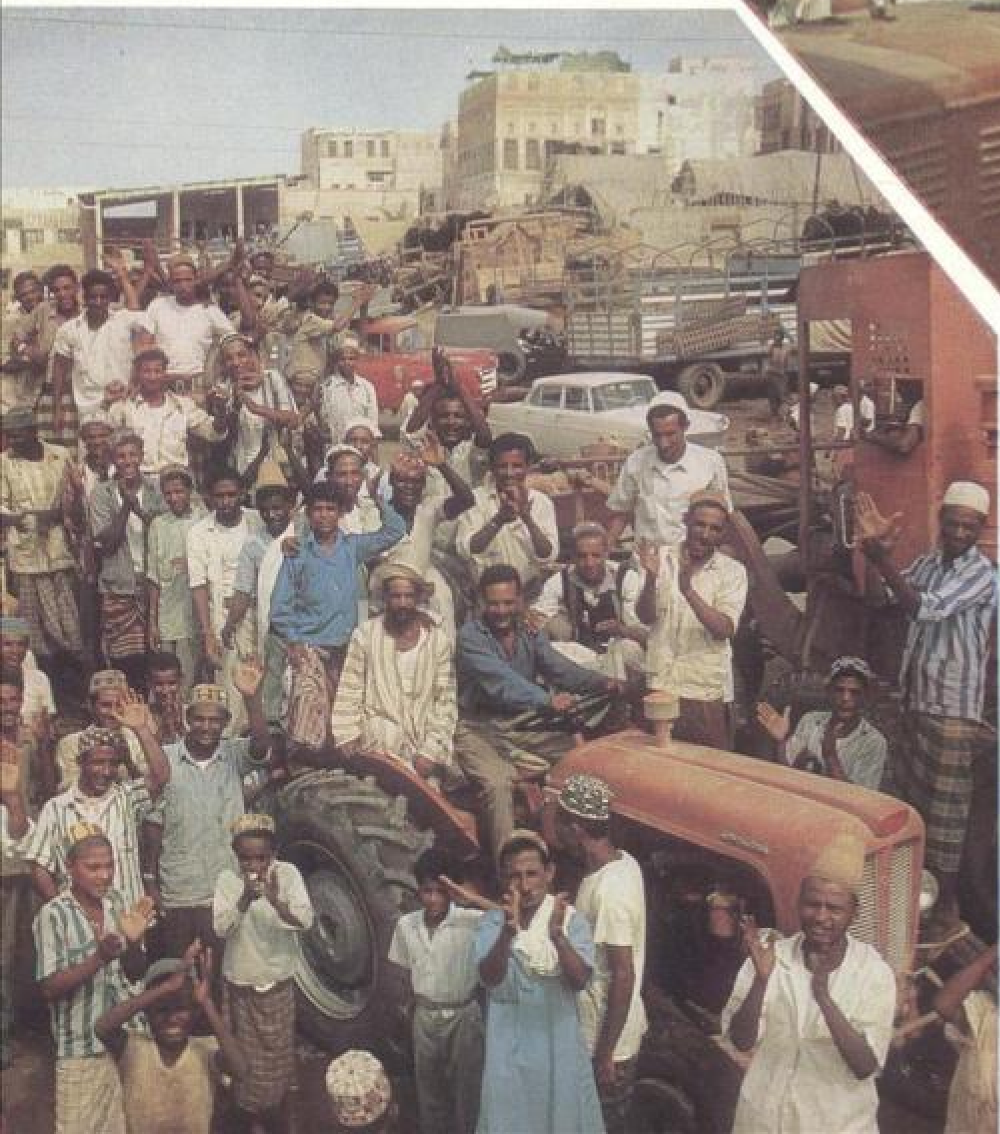


الى أسفل : من ملابسهم تعرفهم : تعيش حول الحديدة ، فى منطقة تهامة ، قبائل عديدة مختلفة ، يقصد رجالها الى الحديدة لشراء حاجياتهم ، كل قبيلة بزيها الخاص ، **وفى الصورة السفلى** خمسة رجال ، جنديان وسميان ـ الى اليسار ـ أحدهما من قبائل آنس .. أما الثلاثة الآخرون ، فأحدهم من الحديدة ، والآخران من قرية المنصورية ..



١٢ ابريل ١٩٦٣ يوم مشهود فى تاريخ الحديدة ، فقد بدأت فى هذا اليوم أول عملية لرصف وتعبيد الشوارع فى المدينة فجاء وزير الاشغال فى حكومة اليمن من صنعاء خصيصا ليشرف على هذه العملية بنفسه ، ووقف وسط الاهالى يشهد آلات شركة النيل الضخمة وهى تحول الارض الرملية الى أرض صلبة **ــ الصورة اليمنى ــ** وعبر أهالى الحديدة عن فرحتهم بهذا الحدث فى تاريخ مدينتهم بالهتاف والتصفيق حتى انهم احاطوا بسائقها **ــ الصورة السفلى ــ** مهللين فرحين .. وقد استمر العمل ليل نهار فى هذه العملية السريعة ، التى استغرقت أسبوعا ، تم خلاله رصف ١٥ ألف متر مسطح بالاسفلت . وهكذا حققت الثورة فى اسبوع ، ما لم يستطع غيرها ان يحققه فى أجيال وأجيال .





وحاول الامام يحيى ضم منطقة تهامه اليـــه ، ولكن الادارسة استغاثوا بالملك عبد العزيز آل سعود ، الذى أغاثهم ، وأرسل ابنه فيصل فاحتل الحديدة عام ١٣٥٣ هـ ، ولكنه تركها فى نفس العام ، بعد توقيع معاهدة للصلح بين السعودية واليمن ، آخذا معه عددا كبيرا من الادارسة الى السعودية ..

موسولينى .. وأمجاد الرومان .. والحديدة

وفى عام ١٣٤٣ هـ دخلت الحديدة تحت حكم الامام يحيى .. وفى نفس الوقت دخلت فى حلبة الحرب الباردة ..

كان موسولينى يحلم ببعث مجد روما القديم، وكان البحر الاحمر من أهدافه ، ونجح رسله عام ١٩٢٦ فى حمل الامام على توقيع أول معاهدة فى تاريخه للتجارة وتبادل الفنيين والاطبـــاء الايطاليين ..



تحية اعجاب وتقدير لرسلها « العربى » الى الأساتذة الذين يتفانون فى بذل المجهود للنهوض بالجيل الجديد من أبناء اليمن .. رغم انعدام الامكانيات الحديثة فى المدارس ..

صراع ..

وسبّب هذا النشاط الايطالى فى المنطقة صراعا بين الدول الكبرى .. فعمدت فرنسا الى ارسال بعثة تعرض مد خط للسكة الحديد من الحديدة الى صنعاء بشروط مغرية .. ولكن عرضها هذا لم يوافق عليه ، فعاد رسلها بخفى حنين ..

ودخلت روسيا الى الحلبة فعقدت المعاهدة « الودادية والصداقية والتجارية » فى نوفمبر ١٩٢٨ .. وجاءت الصين الشيوعية متأخرة ـ عام ١٩٥٨ ـ ولكنها استطاعت أن تعقد معاهدة صداقة تدفع بموجبها لليمن قرضا بمبلغ ٧٠ مليون فرنك سويسرى بدون فائدة ، يسدد خلال ١٠ سنوات ، على أن يصرف فى مشروع مد طريق من الحديدة لصنعاء مارا بتعز يكون طوله ٥٠٠ ك.م ، وانشاء مصانع للنسيج وللاسماك والسكر والزجاج ..

ولكن بنود هذه المعاهدة تبدلت .. والطريق الطويل الذى كان مزمعا انشاؤه، اختصر للنصف، وأصبح طريقا مباشرا من الحديدة الى صنعاء ، طوله ٢٢٦ كم .. أما المصانع فلم ينشأ منها سوى مصنع للنسيج وهو متوقف عن العمل لنقص فى أدواته !!

الروس فى كل مكان

وشهد عام ١٩٥٨ ظهور أكبر تبدل فى تاريخ الحديدة .. ففى هذا العام بدأ ميناء الحديدة الجديد يظهر الى الوجود.. بعد أن تكفلت روسيا به ، حتى انه كلفها أربعة ملايين جنيه ..

وبعد انتهائه أنشأت لها سفارة فى تعز ، وأصبحت الحديدة مركزا لرجالها ، الذين أنشأوا لأنفسهم مستعمرة صغيرة بيضاء على طول البحر الأحمر .. وفى المساء ترى هؤلاء الخبراء الروس مع زوجاتهم يجوبون أسواق الحديدة ، العامرة بأحدث البضائع والكماليات ، يتحدثون بالعربية والروسية ، ولا عجب ، فقد اختيروا من الروس الذين يجيدون العربية والذين يدينون بالاسلام !



هجوم ناعم : سافرت ناظرة مدرسة البنات لتضع مولودها الجديد ، فأقفلت المدرسة أبوابها انتظارا لعودة الناظرة .. ولكن حب العلم الفطرى دفع ببعض التلميذات للتسلل الى مدرسة الروضة للبنين والجلوس على شباك الفصل ومتابعة الدروس التى تلقى على تلامذتها ..ويلاحظ القارىء أن الفصول لا تفصلها فواصل أو ابواب مما يجعل أصوات الأطفال تتلاحم مع بعضها !!

ومع غروب الشمس يتجه بعض أهالى الحديدة، الى حلقات لدراسة اللغة الروسية ، حتى أصبح الكثيرون من اليمنيين يجيدون هذه اللغة ويتحدثون بها .. والى جانب هذا تغدق روسيا المنح الدراسية على تلامذة اليمن الذين يوفدون الى روسيا للتعلم هناك على نفقة الحكومة الروسية..

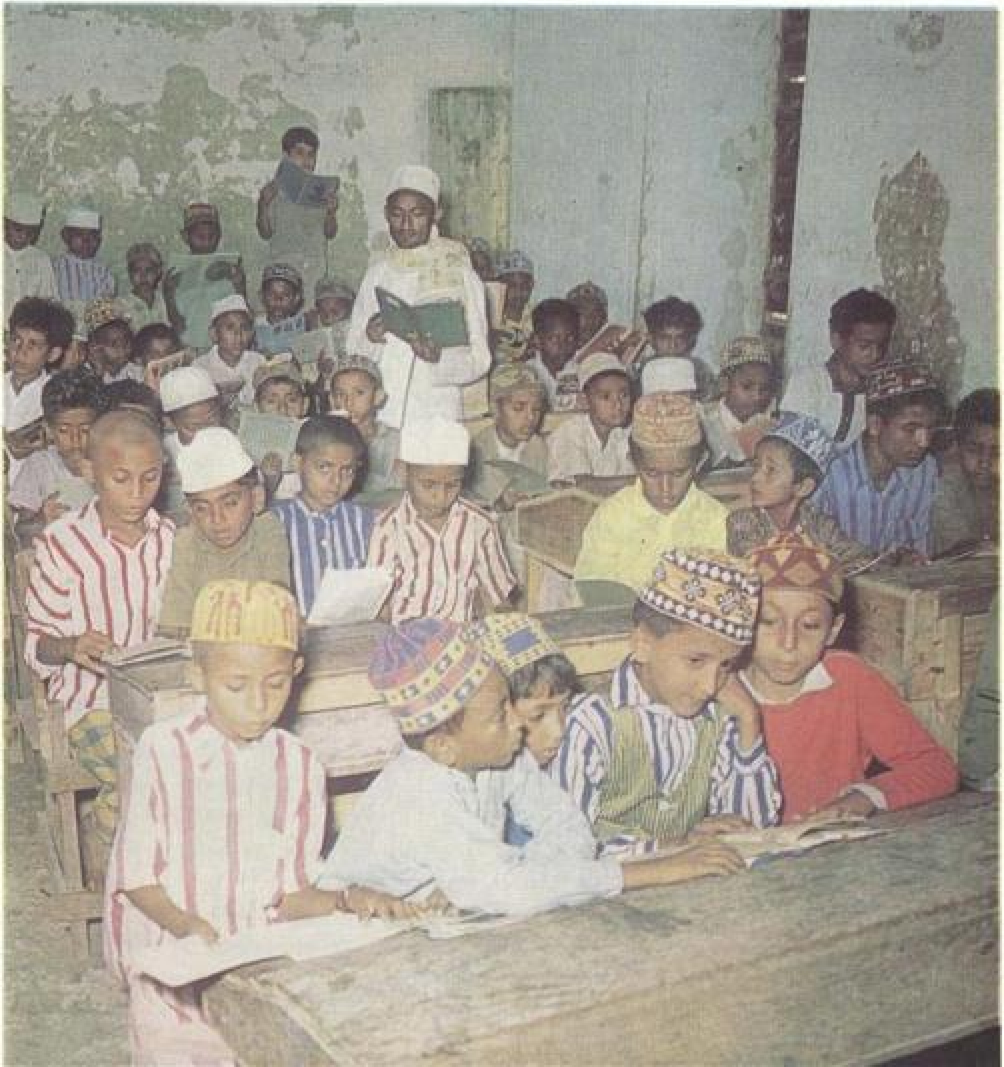
لماذا .. ؟

ان هذا التغلغل الروسى ، الذى تكاد تلمسه فى الحديدة ، يدفع البعض الى التساؤل : كيف امكن التفاهم بين دولة تقوم وتحكم باسم الدين الاسلامى ، وبين دولة ملحدة تكفر بالاديان ؟

والرد يكمن فى العلاقات اليمنية البريطانية السيئة بسبب الاحتلال البريطانى لعدن ، التى يعتبرها اليمنيون جزءا لا يتجزأ من بلادهم .

لهذا رأت اليمن أن فى اتصالها مع روسيا موازنة للانجليز ، فعقدت المعاهدة معها ..







لا يوجد مستحيل : كانوا ٢٠٠ طالب ... ثم قفز عددهم الى ٧٠٠ طالب مرة واحدة ! ان الفصول كانت تضيق بالثلثمائة فكيف الحال بسبعمائة ؟! ولكن ناظر المدرسة لم يرفض طالبا واحدا .. أجلس كل خمسة على مكتب واحد .. وأعطى كل اثنين كتابا واحدا يتناوبان القراءة فيه!! وعمد الى ساحة المدرسة فوضع في أركانها السبورات وجعلها فصولا وساحة في نفس الوقت ... ان الذكاء الفطرى عند هؤلاء البراعم يدفع بأساتذتهم الى مضاعفة الجهود رغم أن كل شيء يبدو مستحيلا





مولد الفجر : هل يمكنك أن تقرأ ما خطه الاستاذ على السبورة في الصورة العليا ؟ انه من المستحيل فالسبورة السوداء أصبحت بيضاء بفعل الزمان ورطوبة المكان .. واصلاحها يتطلب ارسالها الى عدن لعدم وجود صناع في المدينة ! وفي الصورة السفلى يبدو الطلبة ، يحررون العدد الاول من مجلة الحائط تحت اشراف أستاذهم . ويمكنك اذا نظرت الى الصورة أن تلمس مدى حب الاستطلاع ، واقبال الطلبة على هذه الطريقة الحديثة في التعليم ، التي لم يكونوا يعرفونها أو يمارسونها .. وكان المقال الرئيسي في مجلة الحائط بعنوان : الجيل الصاعد ..

اما روسيا فقد عقدت المعاهدة مع اليمن لانها كانت تريد ايقاظها حتى تستطيع ضـرب النفوذ البريطانى فى عدن ومحميات الجنوب .

مطلوب سدود ..

ان الحديث عن الزراعة فى منطقة الحـديدة حديث ذو شجون ، فحرام أن تظل هذه الارض الطيبة مهملة جافة ، بينما تندفع بجوارها سيول المياه العذبة الى البحر الأحمر ، دون أن يوقفها



تزخر مياه الحديدة بمختلف أنواع الأسماك ، وخاصة هذا النوع الذى يسمونه « أرتك » وهو خاص بالطبقة الفقيرة ، اذ تقطع السمكة الى أجزاء يباع كل جزء منها بنحو ٤ بقشات ، اى ٤٠ فلسا أو مليما .. والاكلة الشعبية هناك هى السمك مع الارز .. ومما يذكر أن الصياد يدفع خمس أو ثمن السمكة كضريبة وزكاة لبيت المال ، ويوجد مثمن خاص يقدر ثمن كل ما يصيده الانسان من البحر سواء أكان اللؤلؤ أو المرجان أو الاسماك .. اما الضريبة التى تؤخذ من المزارع فتصل الى العشر .

أو يستغلها أحد .. لقد تقدم الامريكان والالمان بمشاريع لاقامة سدود فى المنطقة وهى مشاريع ما زالت تغط « تحت البحث » .

والى جانب مياه السيول تكمن المياه الجوفية هادئة على أعماق تتراوح بين ٤ و١٢٠ مترا من سطح الارض ، ولا تحتاج الا الى مضخات لسحبها وارواء الأرض التى يكاد يقتلها الظمأ ، والماء من تحتها مدفون !

ان الفلاح اليمنى يستغل الوديان فقط فى منطقة تهامه ، فيزرع فيها القطن بنجاح كبير رغم جهله بطرق الزراعة الحديثة، ويحاول أن يقيم السدود الترابية فى محاولة يائسة لوقف السيول التى ما تلبث أن تكتسح مجهوده فى دقائق ..

كوارث بالجملة ..

وينضم الجراد ، والنمل الابيض الى الكوارث التى تصيب الفلاح اليمنى. فيغزو الجراد الوديان المزروعة ، ثلاث مرات فى السنة ، فيأكل كل ورقة خضراء ..

ويكمل النمل الابيض ما تركه الجراد ، فيأكل جذوع الأشجار والاخشاب !!

ووسط هذه الكوارث يقف الفلاح اليمنى حائرا بين تخريب السيول . ونَهَم الجراد .. وكارثة النمل الأبيض .. !

مزرعة نموذجية

وقد أرسلت القاهرة بعثة زراعية تعمل حاليا على انشاء مزرعة نموذجية مساحتها ٥٠ فدانا لكى تستطيع ان تحدد أنسب المواعيد الصالحة لزراعة مختلف المحاصيل ، مع تجربة انتاج محاصيل جديدة .. وستكون هذه المزرعة النموذجية مركزا علميا لتدريب طلبة المدارس الزراعية وارشاد مزارعى منطقة تهامة ..

والأمل كبير فى أن تنجح هذه المزرعة لغرس



يزرع التمباك فى منطقة تهامة ويباع بكثرة فهم يدخنونه مع مضغهم اليومى للقات ..
وهذا هو سوق التمباك .. وثمن الرطل منه١٢ بقشة ، اى ١٢٠ فلسا او مليما ..

الاشجار والمسطحات الخضراء فى مدينة الحديدة الخالية من كل شجرة .

ليست هي الخاتمة ..

وينوى بنك اليمن الوطنى ، انشاء صوامع لتخزين الغلال والقطن ، كما سيعمل على اقراض المزارعين لتشجيعهم على زيادة محاصيلهم والافادة من احسن الأسعار فى الأسواق ، وسيعمل أيضا على انشاء الشركات الصناعية بتوفير الآلات اللازمة لها وتزويدها بالمواد الاولية ومساعدتها على تصريف منتجاتها ..

ادعوا الله معنا ان يسدد خطاهم ويحقق لهم الآمال ..

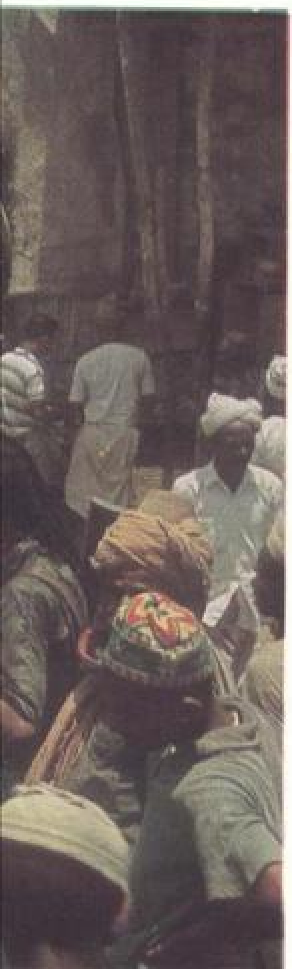
ليست هذه خاتمة المقال ..

فالخاتمة يجب ان تكون كالبداية ..

والبداية كانت عن النفط فى اليمن .. وما ادراك ما هو النفط فى اليمن ؟!



الى أسفل : سوق **القات والحوت** : وفيه يباع القات ،والسمك، ومختلف أنواع الخضروات ، وخاصة الحلبة ، التى تعتبر الأكلة المفضلة لسكان الحديدة، وهم يتفننون فى طبخها مع اللحوم والشطة والطماطم .. ويبدو فى مقدمة الصورة ، باعة القات يبيعونه للاهالى ،وتبدأ عملية البيع هذه من الظهر حتى الساعة الثالثة مساء ..



عصير الشعير .. وجاجارين ! : تتميز الحديدة عن صنعاء وتعز ، بوجود المقاهى التى تقدم المرطبات والمياه الغازية .. ويتفنن أصحاب هذه المقاهى فى زخرفتها ، فيعلقون فى سقفها قطعا من الكرتون مغطاة بالقماش ، متصلا بعضها ببعض بحبل يشده أحد العمال ، فتتحرك قطع الكرتون ، وتلطف الجو بدلا من المروحة ! .. أما حائط المقهى ، فمغطى بصور لا حصر لها لزعماء العرب ، وجاجارين ، وتيتوف ، وفاتن حمامة ، وفتيات الكوكا كولا ، والجرين سبوت ، وفريد الاطرش ، ومارلون براندو ، وماجدة .. وداخل اطارات زجاجية حكم وأحاديث .. وفى الجانب الايمن من المقهى ثلاث ثلاجات تدار بالبترول ، فالتيار الكهربائى مقطوع فى النهار عن المدينة .. والشراب المفضل هناك هو عصير الشعير ،والكوب منه ببقشين اى قرشين، أما المرطبات الغازية فغالية ، اذ يبلغ ثمن الزجاجة المصنوعة محليا ٥ قروش، بينما يصل ثمن المصنوعة فى عدن الى ١٠ قروش للزجاجة الواحدة !



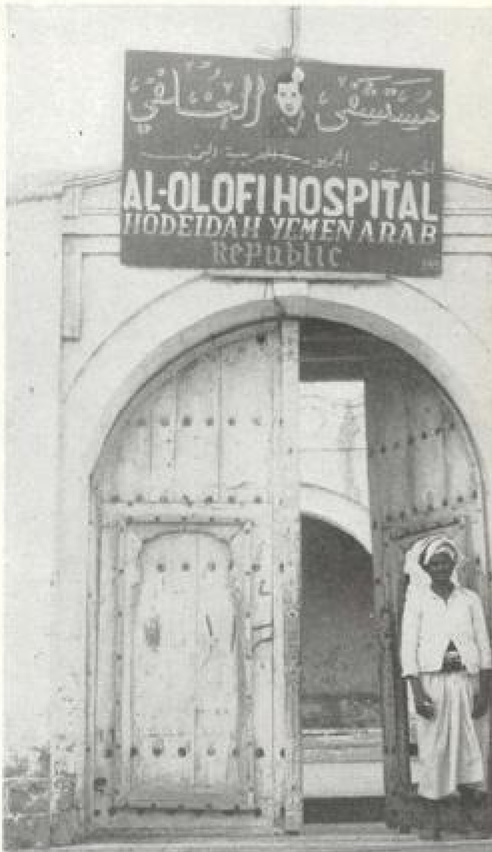
الى اليسار : محطة الدراجات : تماما مثل محطة التاكسي أو الحافلات !! فمن هنا يمكنك ان تركب أمام قائد الدراجة لينقلك من منطقة الى اخرى. مقابل قرش أو قرشين .. وبعد اصلاح الطرق اصبح في الحديدة ستسيارات للاجرة تعمل بدون عداد أو رقابة ، فيستغل أصحابها الركاب أشنع استغلال ، ويطالبون بأجور خيالية ، وخاصة اذا كانوا غرباء عن البلد !!



آثار النفط موجودة .. فمتى يظهر ؟

لقد كثرت الاشاعات والأقاويل المحرفة حول هذا الموضوع ، ولكن اليكم قصة النفط فى اليمن على حقيقتها ..

تعود أطراف القصة الى بداية عام ١٩٥٤ عندما حصلت شركة « ديلمان » الالمانية على امتياز التنقيب عن النفط فى المنطقة المحيطة بالحديدة .. وكان هناك شرط ينص على انه « فى حالة ما لم تعثر الشركة على النفط فى خلال ٥ سنوات يعتبر الاتفاق لاغيا .. » . وبدأت الشركة فى العمل ولكن الخلافات اشتدت بينهم وبين المسئولين اليمنيين ، فالغى العقد وتوقفت الشركة عن العمل بعد سنة ونصف فقط ..



مدخل مستشفى العلفى ، وكان اسمه فى السابق مستشفى الناصر ..

وبعدها جاءت شركة« ميكام » الاميركية ،فاخذت امتياز التنقيب عن النفط فى منطقة تهامة والبحر الممتد امامها لمسافة ١٢ ميلا ..

لقد جاءت هذه الشركة بشكل غريب سريع ، فقد طلب المسئولون اليمنيون منها ان تبدأ العمل فورا بعد ثلاثة اشهر من توقيع الاتفاقية ! كان هذا تعجيزا ، ولكن الشركة حتى لا تخسر اتفاقيتها سارعت وبدأت العمل قبل مهلة الثلاثة الأشهر المحددة ..

خمسة آبار ..

وقد أتمت الشركة حتى الآن حفر خمس آبار :

ـ بئر فى منطقة الزيدية نزلوا بها الى عمق ٩٨٩٠ قدما ..

ـ بئرين فى منطقة الصليف (المشهورة بالملح) نزلوا الى عمق ٧ آلاف قدم .

ـ بئرين فى منطقة الحديدة : واحدة الى عمق ٥٧ قدم فصادفتهم صعوبات طبيعية تكوينية .. فحفروا البئر الثانية الى عمق ٩ آلاف قدم ..

وبعدها غطت الشركة فوهة الآبار بالاسمنت ونقلت معداتها من الحديدة .. وكان هذا العمل مصادفا لقيام ثورة اليمن .. فقال الناس « ان الشركة أوقفت أعمالها » .. وتناقلت الصحف هذه الاشاعات ..

وتوجهنا الى مقر الشركة فى الحديدة فسألناهم عن صحة هذه الأخبار فقالوا :

* ليس صحيحا بالمرة اننا اوقفنا العمل .. حقيقة اننا سددنا فوهات الآبار بالاسمنت ، لكن هذا اجراء وقائى حسب الأنظمة العالمية ، ويمكننا ان نعيد فتح البئر فى خلال ثلاث ساعات فقط !!

* اطلعت حكومة الثورة اليمنية على اتفاقيتنا القديمة فوافقت على نصوصها كما هى .. ومازلنا ندفع سنويا مبلغ ١٢ الف دولار مقابل الرسوم الحرية .

* من نتائج حفرنا للآبار الخمس اتضح لنا توفر آثار وجود النفط فى المنطقة .. والنتائج مشجعة .. لكن الكمية والمكان لم يتضحا حتى



أين السور ؟! كانت الحديدة محاطة بسور شيد عام ١٢١٥ هـ . وكانت له خمسة أبواب وعدة أبراج .. وقد اندثر كل أثر لهذا السور القديم .. ولم يبق سوى اسم أحد الابواب يطلق على سوق باب المشرف .. وقد عثرنا على بقايا هذا السور الذى عملت فيه يد التبديل عملها، فاستغلت البرجين بعد أن أزالت البوابة التى بينهما وشيدت منزلا أوصل بين البرجين وفتحت نوافذ جديدة وطلى البناء كله باللونين الابيض والأخضر ، وارتفعت فى الوسط لافتة تحمل اسم : وزارة الشئون البلدية والقروية .

الآن .. وقد عمدنا بعد اخذ المعلومات الفنيــة والجيولوجية الى فكرة المسح بالطرق الفزيائية الأرضية ، وهى تتطلب اخصائيين ننتظر وصولهم خلال الشهرين القادمين ، لأنهم يعملون حاليا فى مناطق اخرى من العالم ..

* اما قصة نقلنا لأدوات الحفر ، فوجودها هنا لم يعد ذا موضوع ، لان المسح الجديد يحتاج الى معدات الكترونية اخرى، فضلا عن ان الرطوبة قد جعلت اغلب الأدوات شبه مستهلكة بسبب الصدأ الذى علاها ..

لقد نقلنا ادواتنا لأننا انتهينا من المرحلة الثانية.

ونحن الآن نعمل فى المرحلة الثالثة ..

فى انتظار كلمة الخبراء

ان اهل الحديدة ينتظرون بفارغ صبر نتيجة هذا المسح الجديد .. لان الكلمة الفاصلة التى سينطق بها الخبراء ، هى التى سوف تنقلهم من حياة الزراعة الى حياة الصناعة .. صناعة النفط.

ان الحديدة مدينة صغيرة .. ولكنها مليئــة بالآمال .. ■■

سليم زبـال



الحوك تحت العشش : اذا تجولت بين العشيش المنتشر في الحديدة ، طرقت سمعك اصوات رتيبة تخرج من داخل العشة، فاذا استطعت الدخول وجدت رجلا يقوم بنسج القماش، مستعملا يديه فقط .. انها صناعة شعبية منتشرة في الحديدة يطلقون عليها اسم الحَوْك . ويقوم هذا الرجل العجوز الظاهر في الصورة الى اليمين بصنع ٩ ياردات من القماش يوميا ، يبيع الياردة منها بنصف ريال يمني ..



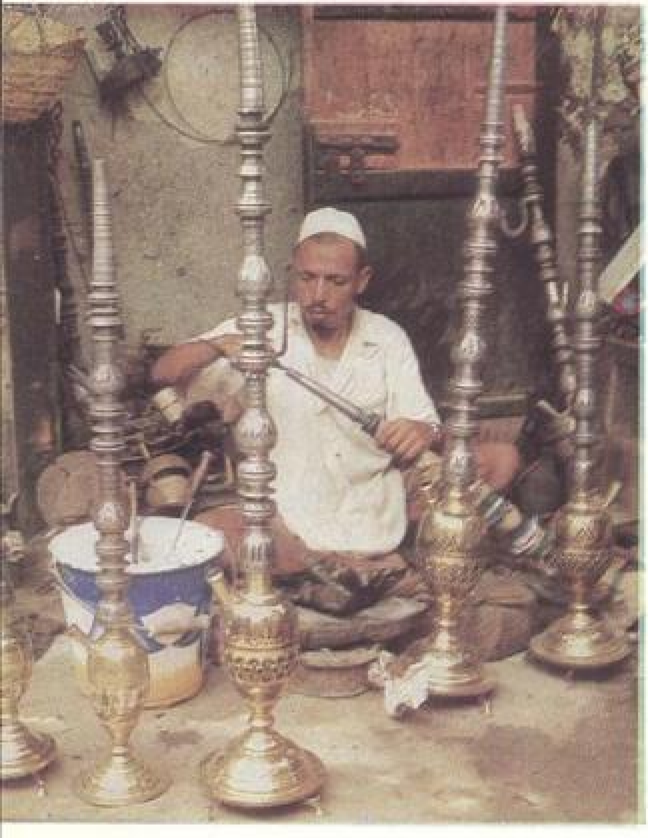
القات يقتل البن ! : خسرت اليمن شهرتها كمصدر عالمي للبن .. فقد عمد الاهالي الى قطع اشجار البن المتيبدة ليزرعوا مكانها اشجار القات .. ان الربح الذي يجنيه المزارع من القات يوازي نحو عشرة اضعاف ربحه من البن ! فلماذا يزرع البن ؟ هذا هو منطقه .. وفوق ذلك يتخلص من الضرائب التي يجب عليه دفعها عند تصدير البن .. وتزرع شجرة البن في الجبال .. وعندما ينضج الحب يقطف ويرسل الى الحديدة حيث تقوم الفتيات بفرز الحصى قبل تصدير البن خاما الى الخارج.



متى يفتح المصنع ابوابه ؟ : تحيط بالحديدة وديان خصبة ، يزرع اصحابها **القطن** الذى ينمو بنجاح باهر . وتنقل البالات من القرى على ظهور الجمال الى المصنعين الموجودين فى الحديدة للحلج ، ويحوى كل منهما ٢٥ ماكنة تقوم الفتيات الريفيات بادارتها . وقد أقيم مصنع كبير جديد عند مدخل الحديدة ، ولكنه لم يفتح ابوابه حتى الآن ، رغم شدة الحاجة اليه .. فالمصنعان الموجودان يعملان ٢٤ ساعة فى اليوم لمواجهة الضغط الكبير عليهما !



الى اليسار : بين هياكل «المداعة» الطويلة المزخرفة ، جلس هذا الصانع يصلح ما تلف منها ، وهم يستوردونها من الهند، بسعر يقرب من ١٠ جنيهات استرلينية للواحدة !



العربي

العدد ٦٨
صفر ١٣٨٤
يوليو
(تموز) ١٩٦٤



عربيات من عدن

جوائز ١٢٠٠

الكويت
الخليج العربي
السعودية

اعرف وطنك أيها العربي

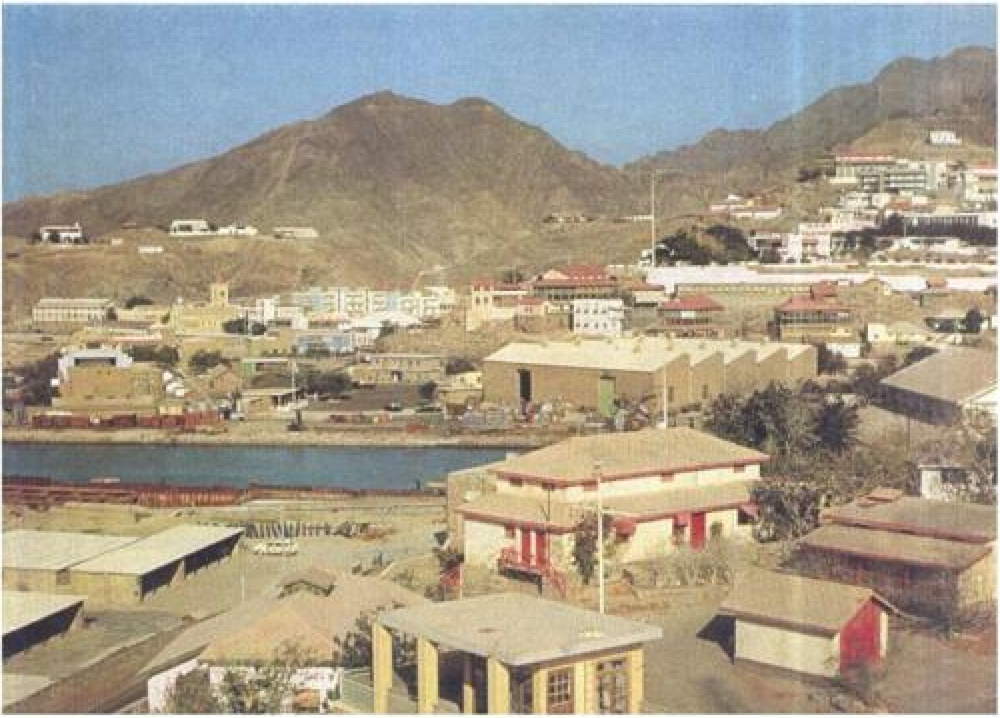
عدن

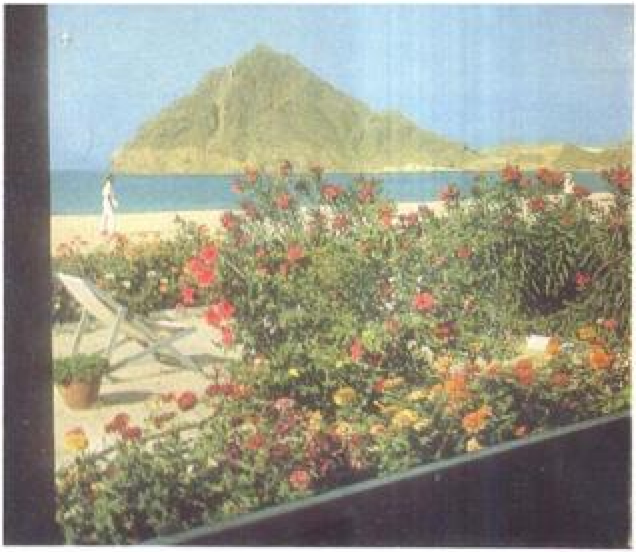
مدينة مبنية فى فوهة بركان

تقع على الطريق الرئيسى للعالم

تدخل ميناءها ٧٠٠٠ سفينة فى العام ، ويسيطر

كل ٣٠ دقيقة تدخل سفينة مرفأ عدن الستراتيجى الهام ، الذى يستطيع ان يستقبل على أرصفته





قام بهـذا الاستطلاع

سليم زبال

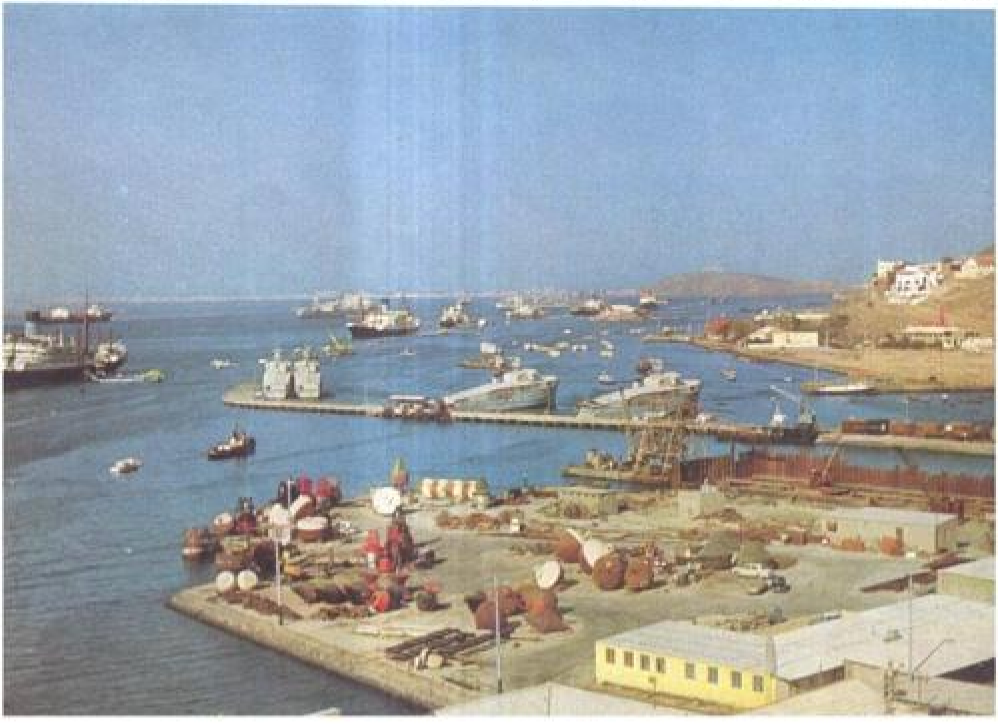
وصـوره

«اوسكار»

صخرة عدن : تنافس جبل طارق وسنغافورة بأهمية موقعها ، اذ تقف كالحارس وسط الطريق الدولي للمواصلات، الذي يربط أوربا بالشرق.

تجارها على التجارة من الحبشة حتى الهند

رابطه ٣٤ سفينة مرة واحدة .. اما مجموع السفن التي تدخل الميناء كل عام فقد بلغ في العام الماضي نحو ٧٠٠٠ سفينة



■ التواهي.. كريتر .. خور مكسّر.. المعلّى .. البُريقة .. فقم ..
هل سمعت بهذه الأسماء من قبل..؟

ان في ردك يكمن مقدار عدم الماما بأجزاء وطننا الكبير .. فهذه الأسماء ما هي الا أسماء مدن وقرى تقع في بقعة عزيزة من هذا الوطن الكبير .. انها عدن ..

ومعرفة القارىء بهذا الجزء الغالي ، لا تتعدى نطاق الاطار السياسي ، غير الطبيعي ، الذي تعيشه عدن حاليا .

أما حياة الناس ... وعاداتهم ... وتقاليدهم .. وحضاراتهم .. وتاريخهم .. فهذه لا شك مجهولات عن الكثير .

الى هذه المنطقة الحساسة طارت بعثة « العربي » ، لتتابع تقديم سلسلة استطلاعاتها عن مدن الوطن العربي الكبير ، في محاولة لسد النقص في مكتبتنا العربية ..

متناقضات

عدن بلد غريب عجيب يجمع بين المتناقضات والمتنافرات ..

فمتاجره تفتح في أي ساعة من الليل أو النهار، ما دامت هناك باخرة جديدة في الميناء !!

واهله يجففون مياه البحر ليقيموا عليه مدنهم بعد أن ضاقت بهم اليابسة على الأرض !!

وفي عدن أجمل الشوارع والعمارات ، ولكن تستقل بها أقبح الأزقة والأكواخ .. !!

وفيها أحدث ما وجد من الكماليات والضروريات .. ومع هذا لا يزال اهلها يؤمنون بأن وليهم ـ العَيْدروس ـ قد طيّر حجرا من أعلى الجبل ليسد ثقبا في سفينة جانحة ، فأنقذها من الغرق!!

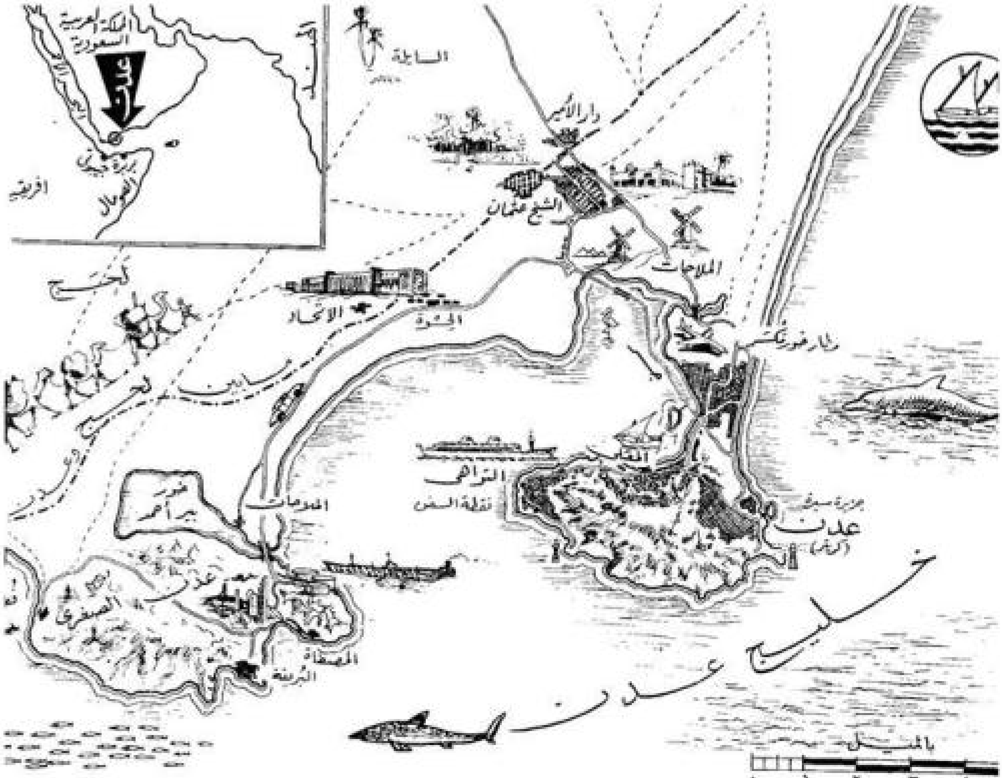
والأوروبيون في عدن يتسابقون باليخوت ، ويمارسون رياضات الجولف والتنس والسباحة والصيد ، بينما يكتفي المواطنون بلعب الكرة ومضغ « القات » مساء كل يوم !!

صراع مرير في أرض البراكين

انهم يقولون ان سفينة نوح بنيت هنا .. وان



هكذا انتهى الصراع العنيف بين البركان والمحيط ، فأصبح للجبال حدودها ولمياه المحيط شواطئها التي تنتشر عليها حمامات السباحة ، ولكن سمك القرش المفترس ، ويسمونه اللخم ، يجعل من الضروري وضع شباك حديدية لمنع اقترابه من المستحمين .. ان جميع الجاليات قد أقامت بلاجات خاصة لها على طول الشاطىء، أما أهل البلد العرب فترجو أن يتبرع موسروهم بتكاليف بناء مثل هذا النادي ليسبح فيه الشباب بدلا من سباحتهم الخطرة داخل الصهاريج .



يعتقد الكثيرون أن عدن تقع عند مدخل البحر الاحمر على باب المندب ، وهذا اعتقاد خاطىء اذ تقع عدن على بعد ١٠٠ ميل شرقى هذه البوابة الهامة .. ومساحة عدن لا تتعدى ٧٥ ميلا مربعا ، وهى عبارة عن راسين بركانيين يطبقان على خليج صغير عرضه سبعة اميال . وفى « الراس » الشرقى تقع مدينة عدن القديمة أو كريتر ، وكذلك مدينتا التواهى والمعلا .. وتقوم خور مكسر بمهمة ربط هذا الراس بالارض الام حيث تقع مدينتا الشيخ عثمان ، والاتحاد ، وقرية الحسوة .. وفى الراس البركانى الثانى أى عدن الصغرى ، تقع مصافى النفط الكبيرة وقرى البريقة وبير فقم .

قبر هابيل موجود فوق جبال شمسان .. وان بلقيس ملكة سبا اقلعت من عدن مع جواريها الحسان وهداياها الثمينة لمقابلة سليمان الحكيم ..

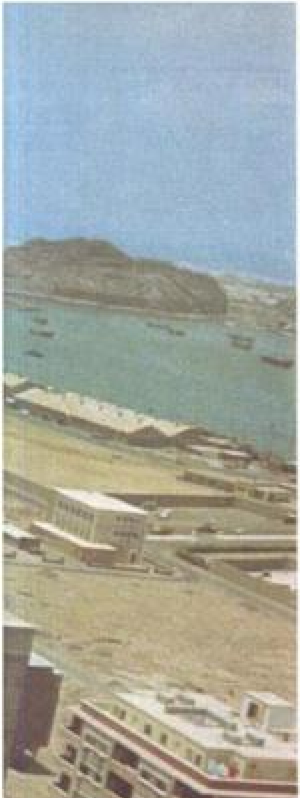
ان تاريخ عدن قديم قدم الدهر .. فهى أرض البراكين التى شهدت منذ ملايين السنين صراعا وحشيا مريرا بين عناصر الطبيعة المتبدلة الثائرة فى ذلك الحين ..

كانت سلسلة جبال السراة تسير متصلة هادئة من الشام عبر الجزيرة العربية ، ولكنها ما كادت تصل الى شواطىء المحيط الهندى ، فى منطقة عدن ، حتى تحولت الى براكين ثائرة هادرة ، تقذف الحمم الى كل جهة ، وكأنها تسعى يائسة لارهاب مياه المحيط الهادئة .

ويستمر الصراع عنيفا قاسيا عدة أجيال .. وتأتى النهاية واضحة ، فقد تغلبت المياه الباردة على النيران الحارقة .. وهدأت البراكين الثائرة ، وخمدت حممها اللاهبة ..

فى فوهة البركان ..

ويستغل الانسان نتيجة هذا الصراع ، فيتجه

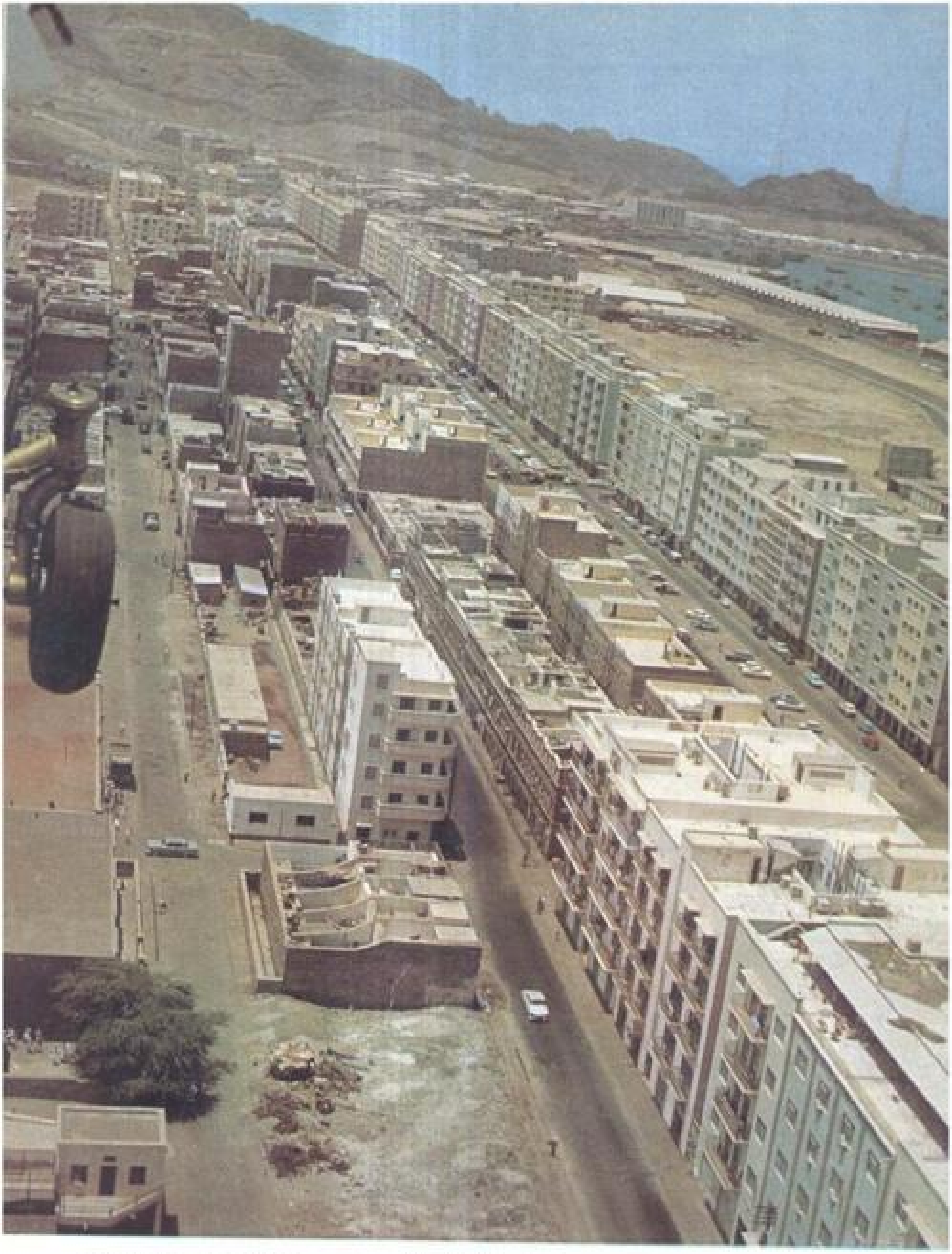




السياحة في عدن : ٤٠٠ ألف سائح يدخلون عدن سنويا ليقضوا فيها ٦ ساعات أو أقل ، ريثما تنتهي سفينتهم من أخذ تموينها من زيت الوقود ، والمأكولات والماء .. ان هؤلاء « السياح المؤقتين » يدفع الواحد منهم ٣١/٢ شلن ليدخل البلاد دون ابراز هوية أو جواز سفر . وما يكاد ينزل الشاطىء ، حتى يتجه للمتاجر فيشتري المسجلات والكاميرات والترانستور وغيرها .. وينتهز التجار فرصة ضيق وقت السائح فيضاعفون أسعار بضائعهم ! .. ويقدر ما يصرفه هؤلاء السواح سنويا بنحو ٢ مليون جنيه استرليني ، وتعمل مصلحة السياحة العدنية على تنمية هذه السياحة . لأن عدن والمحميات المحيطة بها تشكل مراكز سياحة من الدرجة الأولى ، لأنها مناطق مجهولة مقفلة .



اجمل شوارع عدن ، سرقوا أرضه من البحر ! :



كثيرون سيندهشون عندما يرون صورة هذه العمارات الكبيرة .. وستزداد دهشتهم عندما يعرفون انها — كلها — ملك للعرب القادمين من اليمن وحضرموت . انها مدينة المُعلّى الحديثة التي بدأ البناء فيها عام ١٩٥٠ وقد أقيمت العمارات (التي الى اليمين) على ارض مسروقة من البحر ! ان طول هذا الشارع الانيق يزيد على خمسة أميال ترتفع على جانبيه نحو ١٠٠ عمارة تضم ٢٥٠٠ شقة لا يقل ايجار الواحدة منها عن ٥٠ جنيها استرلينيا في الشهر .. وتقيم فيها عائلات الضباط والجنود البريطانيين . ويربط شارع المُعلّى هذا بين مدينتي التواهي ، وعدن القديمة (كريتر) . ومما يذكر أن العمل قد أوشك على الانتهاء من بناء مدينة جديدة لعائلات الضباط والجنود في منطقة بير فقم ، تكلفت ١٣ مليونا من الجنيهات .

الى فوّهة أكبر هذه البراكين الخامدة ، فيبني فيها لنفسه مدينة : عدن الخالدة .

لقد جاء مولد هذه المدينة في منطقة محصورة داخل صخور بركان عال ، وكان متنفسها الوحيد من ناحية البحر، أما من ناحية البر فكان السبيل الوحيد هو تسلق الصخور المرتفعة الى ١٧٧٥ قدما ..

« نبوخذ نصّر » و « أبرهة » في عدن

ولم يستمر هذا الحصار الطبيعي طويلا ، فقد عمد الانسان الى الجبل البركاني فشق في وسطه ممرا تسلكه الدواب ، والجمال ، والعربات .. التي كان نغمها هادئا خفيفا ..

ولكن ما كادت تمر فترة بسيطة ، حتى تغير صوت النغم الجميل الرتيب ، الى نغم صاخب سريع لقرقعة السلاح ، وجعجعة الجنود ، ووقع حوافر الخيل لجيوش جاءت غازية طامعة ..

جاء نبُوخذ نصّر البابلي فغزاها عندما غزا الحجاز عام ٥٧٤ ق.م.

وتبعه الرومان ، فجاءوها قبل الميلاد ب ٢٤ عاما طامعين في تحويلها الى قاعدة لخطوط تجارتهم ..

ثم جاءها جيش حبشي كبير يتقدمه « ابرهة الأشرم » قبل الاسلام بتسعين عاما ، ولكن البطل اليمني سيف بن ذي يزن عاد ومعه جنود كسرى أنو شروان فحارب الأحباش وأخرجهم من عدن واليمن ..

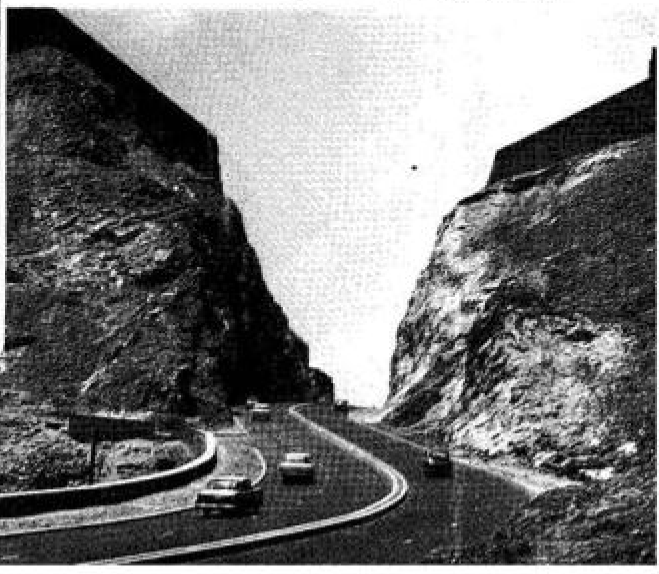
غموض ... وبلبلة

.. وبعد هذه الحقبة يقف المؤرخ تائها حائرا ، فالغموض يكتنف تاريخ المنطقة، والمعلومات شحيحة،

طريق الحياة ! : يقول الهمداني المؤرخ : « كانت عدن محصورة بين الجبال ليس لها طريق الى البر ، فقطع في الجبل باب لسلوك الدواب والجمال والمحامل والجفلات » ..

وفوق هذا الممر بنى الأقدمون جسرا سمي بجسر العقبة ، وكان الممر ضيقا ، بالكاد يسمح بالمرور لسيارة في اتجاه واحد .. وتطورت عدن وتقدمت وزاد عدد السيارات بالآلاف .. وفكروا في توسيع الممر وحاولوا الحفاظ على الكوبري الأثري . ولكن في ١٨ ابريل ١٩٦٢ اتخذ قرار بهدم الكوبري خوفا من سقوطه .. وهكذا تم توسيع الطريق الضيق وتحويله السير باتجاهين . ويقدرون عدد السيارات التي تجتازه يوميا بـ ١٢ الف سيارة ..







٧ مليون طن من النفط تكررها هذه المصافي سنويا: عندما ضاعت مصافي النفط بعبادان في عام ١٩٥١ من يد بريطانيا ، بعد تأميم « مصدق » لحقول النفط الايرانية ، اتجه البحث عن مكان لاقامة مصفاة جديدة ، فوقع الاختيار على منطقة عدن الصغرى ، كانت منطقة صحراوية تحوى أكواخا لبعض صيادى الاسماك . وبدأ ١٥ الف عامل يعملون تحت ظروف طبيعية قاسية .. وبعد ٢١ شهرا انتهى العمل من انشاء احدث مصفاة مجهزة بالالات الالكترنية ، تكلفت ٤٥ مليون جنيه استرليني واستعمل في بنائها ١١٠ الف طن من الحديد والصلب و٣٠ الف طن من الاسمنت ، كما القى في الماء ٦ مليون قدم مكعب من الصخور والرمال لاقامة حاجز لميناء النفط . وفي ٢٧ ابريل عام ١٩٥٤ افتتحت الملكة اليزابيث هذه المصافي ، التى صممت لتكرير ٥ مليون طن من البترول الخام في العام ، ولكن زيادة الطلب جعلها ترفع انتاجها الى ٧ مليون طن سنويا .

والقليل الموجود منها يناقض بعضه بعضا ، مما يبلل الخواطر والأذهان ..

وتمر البلاد بفترة حروب متتالية تمزقها الى دُويلات صغيرة متنافسة .. ويبدأ الغموض ينزاح بظهور اسم بنى مَعْن عام ٤١٢ هـ . وبعدهم يأتى الصليحيون (٤٣٩ ــ ٤٥٩ هـ) وهى سلالة حكمت اليمن تحت سيادة الخلفاء الفاطميين في مصر ، ويعقبهم توران شاه الايوبى ، الذى أرسله شقيقه صلاح الدين الايوبى عام ٥٦٩ هـ . على راس ثلاثة آلاف مقاتل .. وتدين عدن بالولاء للخلفاء العباسيين ..

وما تكاد البلاد تستريح قليلا حتى يأتيها البرتغاليون على مرتين ، عام ١٥١٣ وعام ١٥١٦ ، محاولين الاستيلاء عليها دون جدوى ، فيكتفون بسلب السفن وتدميرها في الميناء .

مكر وغدر

وتستمر قرقعة السلاح تسمع على الشاطىء وعلى رؤوس الجبال ، حتى يأتى السلطان التركى الماكر سليم الاول ، فيشرع في بناء اسطول كبير في السويس ، بمعاونة صناع البندقية ، ويتوجه الأسطول ، وعلى ظهره ٥٦٠٠ بحار ، فيصل عدن في ٣ أغسطس ١٥٣٨ فيعطى الأمان لحاكمها «عمر ابن داود» ، ويصدق المسكين وعد الأتراك فيصعد



أربع صور من عدن الصغرى حيث مصافى البترول : الصورة الاولى لجهاز التقطير الذى يقوم يوميا بتقطير ٣٠٠ الف برميل من النفط الخام .. والى اسفل صورة من داخل مستشفى المصافى لبعض الأطفال المرضى من ابناء العاملين فى المصفاة وتسهر عليهم ممرضتان واحدة بريطانية ، والاخرى هندية ، لعدم وجود ممرضات عدنيات .. والى اليسار صورتان متناقضتان : العليا لمدينة البريقة الجميلة الملآنة بالورد حيث يقيم موظفو شركة المصافى .. والصورة السفلى لقرية بريقم ، باكراخها وعششها الكئيبة التى يسكنها الصيادون !!







لظهر سفينتهم، وفي الحال يقطعون رقبته ويستولون على البلاد ..

ويتابع الأسطول التركي سيره لاحتلال الهند فيفشل ..

ويثار اهل عدن لمقتل حاكمهم فيثورون على حامية الأتراك ويتغلبون عليها ، ويسلمون المدينة طوعا واختيارا للبرتغاليين ..

ويعود الأتراك ثانية فيطردون البرتغاليين ... حتى يأتي عام ١٦٣٠ فيهجم اليمنيون على الأتراك ويعيدون عدن الى اليمن ..

وفي عام ١٧٢٨ يتمرد شيخ العبادلة في لحج على امام اليمن ويستقل بعدن ..

ويعلل بعض المؤرخين كثرة سفك الدماء هذه بسبب مقارنة عدن لبرج الكوكب زحل .. الذي يعني الحروب دائما !!

عدن ثمنها ٢٠ ألف جنيه !!

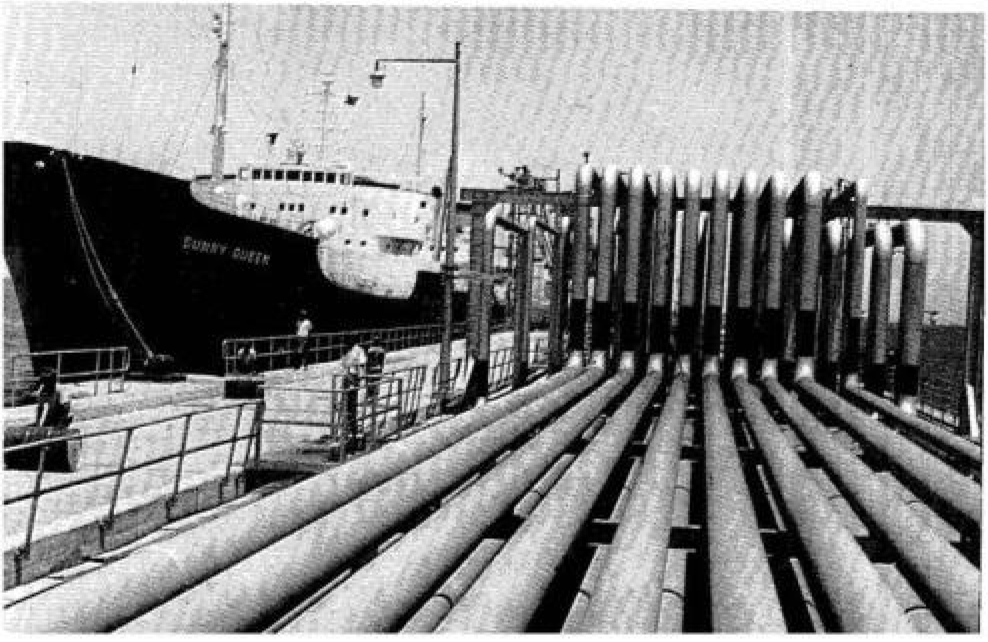
وفي عام ١٨٣٧ غرقت السفينة التجارية « دريادولت » عند شواطىء عدن ، وكانت تحمل بضائع قيمتها ٢٠ الفا من الجنيهات .. ولم يترك قطاع الطرق الفرصة تفوتهم ، فاتجهوا لمكان السفينة الغارقة يحمل كل منهم ما أمكنه من بضائعها ..

واحتجت بريطانيا لدى سلطان لحج ، وقالت :

ان ابن سلطان لحج كان على رأس السارقين لبضائع السفينة التي كانت تحمل العلم البريطاني .

وانكر السلطان علمه بالحادث ورفض الاحتجاج ..

ميناء عدن هو أكبر موانىء العالم فيما يختص بتموين السفن بالبترول :
تمر ناقلات النفط بعدن ، وتقف على رصيف شركة المصافي حيث تقوم بمهمة مزدوجة ، اذ تفرغ حمولتها من النفط الخام، الذي حملته في سفرها من حقول الخليج العربي وفي نفس الوقت تحصل على حصتها من النفط المكرر لتتابع رحلتها ، ويتسع رصيف شركة المصافي لرسو ٤ حاملات نفط مرة واحدة ، حمولة كل منها ٤٠ الف طن وترى هنا احداها بجانب الرصيف المزود بالانابيب





لميناء عدن ادارة خاصة تتولى ادارته .. انهادولة داخل دولة .. فهى تتحمل مسئولية ٧٠٠٠ سفينة تدخل الميناء سنويا .. وقديما كان ميناءعدن يمون السفن بالفحم ، وكانت العمليـــة تستغرق بين يومين وثلاثة . وعندما استعيض عن الفحم بالبترول بلغ عدد السفن التى أخذت نفطا من عدن ٩٨ سفينة فى عام ١٩٢٠ زودت ب ٤٥ الف طن من البترول . اما اليوم فقد قفز عدد السفن فى عام ١٩٦٣ الى ٥٦٠٠ سفينة تتزود ب٣٥٠٠٠٠٠ طن من البترول !! وفى ميناء عدن ٨ محطات لتوزيع البترول على السفن بمعدل ١٥٠٠ طن فى الساعة .. هذا غير ميناء المصاق الذى يغذى ٤ سفن أخرى

فارسلت بريطانيا سفينة حربية ، بها ٣٠٠ جندى مسلح ، تطلب دفع التعويض ، ورفض السلطان دفع أى شىء .. فتحول طلب التعويض الى طلب بتنازل السلطان عن الحكم .. ولكنه لم يحفل ..

وفى ١٩ يناير عـــام ١٨٣٩ بـــدأ قصـــف عدن بنيران حامية ، ودافع الأهالى عن مدينتهم بعنف ، ولكنهم لم يصمدوا طويلا ..

وهكذا احتلت بريطانيا عدن بحجة تحصيل ٢٠ الف جنيه قيمة بضائع السفينة الجانحة ...

وكانت عدن أول مستعمرة يتم احتلالها فى عهد الملكة فيكتوريا .

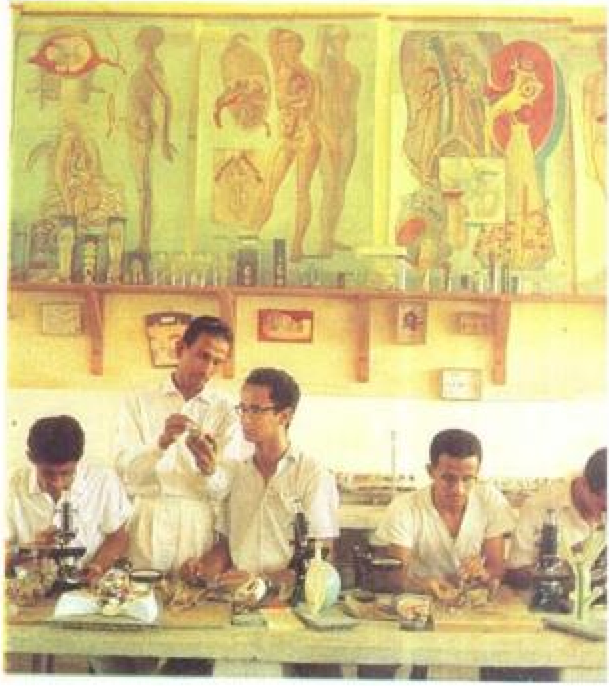
وظلت عدن تحكم بواسطة شركة الهند الشرقية حتى عام ١٩٢٣ ثم تحولت الى حكومة الهند .. وفى عام ١٩٣٧ أصبحت عدن مستعمرة من مستعمرات التاج البريطانى يحكمها حاكم بريطانى ..

من الهند واليمن والصومال

كان عدد سكان عدن وقت الاحتلال البريطانى



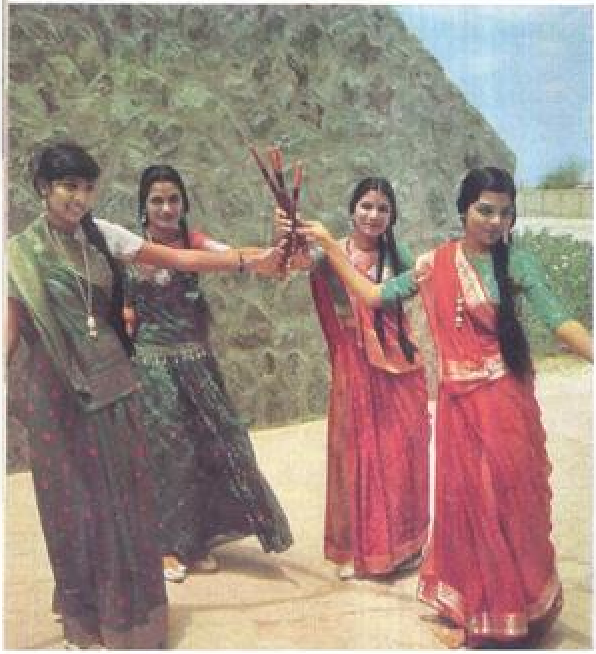
مدارس البنين في عدن : ١٢ مدرسة ابتدائية و ٥ متوسطة ، وثانويتان ، ومعهد فني ، وكلية البيومي ، وجميعها يضم ٨٤٨٤ طالبا .. هكذا تقول الاحصاءات الرسمية .. والأرقام صحيحة .. ولكن مستوى التعليم والمعلمين هو الذي يعترض عليه ، فالمدرسون من دول الكومنولث وانجلترا ، وعدد قليل جدا بدأ يأتي من البلاد العربية ، ان المشكلة الاساسية تكمن في مستوى هؤلاء المدرسين وبالذات المتخصصين في اللغة العربية .. وقد أرسلت وزارة المعارف على نفقتها ٧٥ طالبا لتكملة علومهم في الخارج ، كما قامت الاحزاب والبلدية وشركة المصافي وادارة الميناء بارسال ٢٠٠٠ طالب للتخصص في الخارج على نفقتها .. والتعليم الابتدائي والمتوسط مجاني ، أما الثانوي فيدفع عنه الطالب ستة جنيهات في السنة .. والى أسفل بعض طلبة كلية البيومي يدرسون « علم الحياة » .. ان اجتهاد الطلبة وذكاءهم المتوقد يغطي كثيرا على انخفاض مستوى الاساتذة ..





الى اليسار : ليس في عدن رياض للأطفال اذ تبدأ الدراسة من سن السابعة للبنين والبنات .. ويبلغ عدد مدارس البنات ١٤ مدرسة : منها ٨ ابتدائية ، و ٣ متوسطة ، وكلية ثانوية ، مجموع طالباتها ٤٣٠٧ طالبة .. والصور اليسرى الثلاث ، التقطت في كلية البنات .. والعليا منها التقطت للطالبات اثناء حصة التدريب على الخياطة .. والصورتان السفليان للطالبات الاولى وهن يتدربن على رقصة « الدبكة » اللبنانية بمعاونة مدرسة لبنانية ، والثانية لبعض الطالبات يتدربن على الرقص الهندي .. ومما يذكر أن عدد طالبات الكلية ٣٢٦ طالبة ، مقسمات الى ١٢ « ناديا » ، يختص كل نادٍ بهواية من الهوايات .. ومن بينها هواية الرقص ..







١٢٩٧ نسمة وكانت المدينة الحالية قرية صغيرة بها ٩٠ منزلا حجريا ، واغلب سكانها يمتهنون حرفة الصيد .. ولكن سرعان ما بدات أهميتها تتزايد بسبب موقعها الحساس وسط الطريق البحرى الدولى الموصل من أوروبا للهند .

وبدأ البناء الحديث فى عدن بطيئا متثاقلا .. فالمواد الاولية اللازمة معدومة .. والعمال نادرون .. وهنا اتجهت انظار الحاكمين الى الهند ، فجلبوا من بومباى التجارين والحدادين والبنائين .. واتجهوا الى اليمن فأتوا بالخبازين من بلدة مُخا .. واتجهوا صوب الصومال فجلبوا منها العمال والخدم والخادمات ..

وكان الهدف الرئيسى هو بناء الثكنات لاقامة الجنود ، ذوى المعاطف الحمراء التابعين لشركة الهند الشرقية ..

حياتها التجارة

ولكن المسئولين بداوا يدركون أن عدن مركز للتجارة ، وليست مدينة للاقامة .. فقليل من موانىء العالم يشتهر بسوء المناخ مثل عدن : من مايو لسبتمبر حر زائد ورطوبة هائلة .. ومن اكتوبر لابريل جو معتدل .

كان الناس يهجرون المدينة خلال موسم الصيف هربا من شدة الحر والرطوبة ، فيفرغ الميناء من السفن ، وتتوقف قوافل الجمال عن المسير .

وأحس البريطانيون بأن عدن حياتها التجارة ، ولكن الموانىء المحيطة بها تخنقها بمنافستها القوية لها ..

ففى الشمال ميناء مخا اليمنى الكبير .. والى الغرب ميناء جيبوتى .. والى الجنوب الغربى بربره وزيلع فى الصومال .

البن يغرق عدن !

ولم يستمر هذا التفوق طويلا اذ ما كاد عام ١٨٤٨ يحل حتى بدا الميزان التجارى يميل لصالح عدن .. فالحروب فى اليمن دفعت بقوافل الجمال من طريق مخا الى طريق عدن، حاملة معها محصول البن الثمين الذى اغرق أسواق عدن .

ويقدرون عدد تلك الجمال بنحو ٢٥ الف جمل، يحمل كل منها ٥١٢ رطلا من البن ، أى أن مقدار البن الذى كانت تصدره اليمن ، كان ١٣ مليون رطل تقريبا .

وكان هذا المحصول ينقل من مخا الى امريكا على ظهر سفن أمريكية . وبعد أن تحوّل طريق قوافل الجمال الى عدن ، أحجمت هذه السفن

هواية القواقع : تعمد ادارة كلية البنات فى منطقة خور مكسر الى تنمية الهوايات والمواهب بين الطالبات ، فهناك هواية جمع القواقع من البحر ، وهواية ترتيب وجمع طوابع البريد







الشيدر والمرأة : المرأة المدنية فى بيتها كأى امرأة فى العالم المتحضر ، ترتدى الملابس الحديثة وتتزين بزينة المرأة الحديثة . ولكنها ما تكادتخرج من عتبة منزلها حتى يستحيل عليك تمييزها أو معرفتها، فالعباءة السوداء تغطيها كلها.. ولكن فتاة اليوم طرحت العباءة ، ويسمونها « شيدر » وخرجت سافرة .. ويتدرج السفور فى عدن على عدة مراحل تمثلها هذه الصورة أحسن تمثيل .. فالأولى من اليمين طرحت الحجاب والشيدرجانبا .. والثانية ارتدت البالطو وعصبت شعرها برباط حريرى .. والثالثة وضعت البالطو وغطت وجهها .. والرابعة وضعت الشيدر واسفرت عن وجهها .. والخامسة وضعت الشيدر وجعلت على وجهها منديلا شفافا ..

عن نقل البن منها ، بسبب ارتفاع الرسوم الجمركية فيها ، فتكدس البن فى أسواق عدن بكميات هائلة!

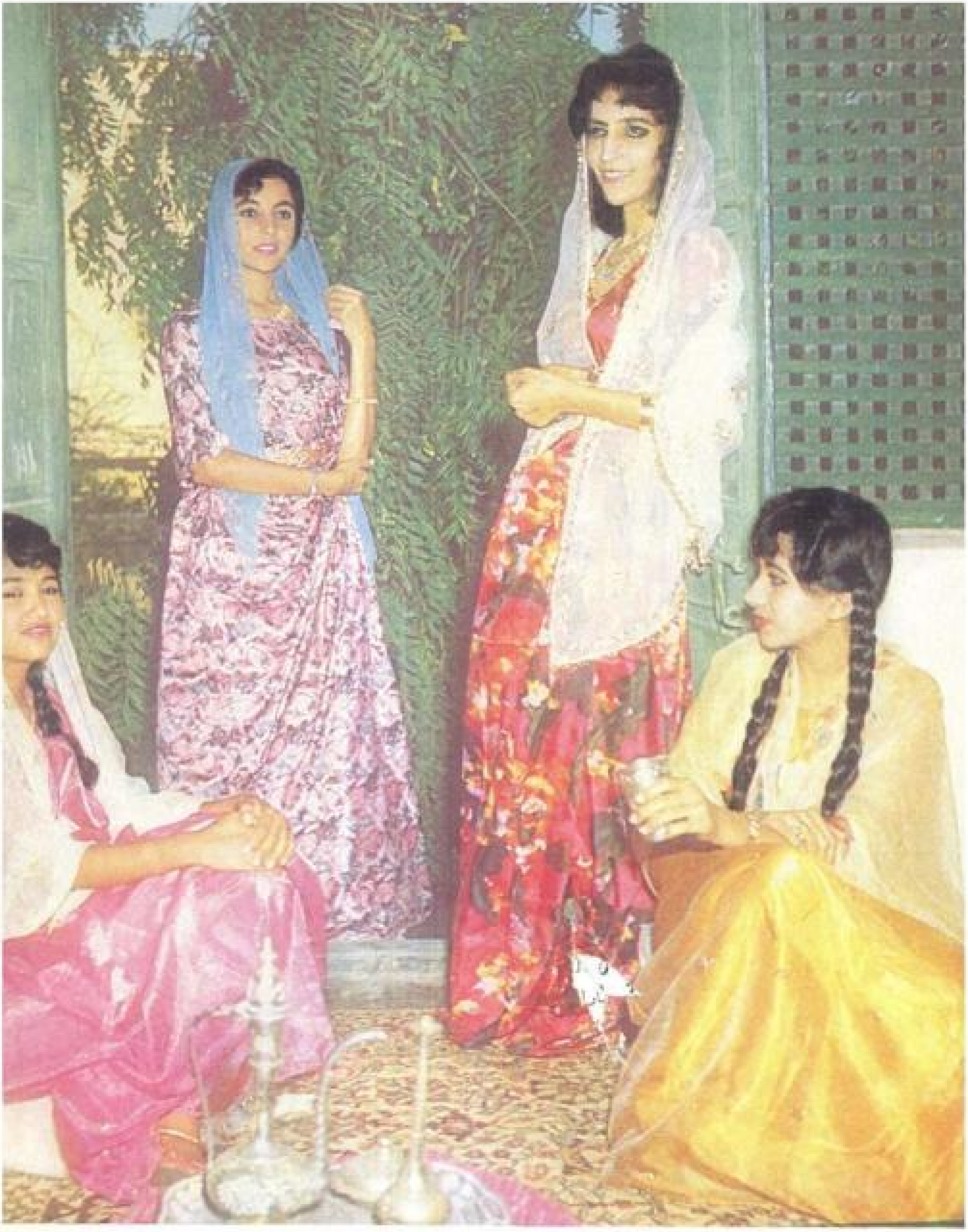
وكان هذا من الأسباب الرئيسية التى دفعت الى اعلان ميناء عدن ميناء حرا عام ١٨٥٠ .

وكانت هذه الخطوة نقطة تحول كبيرة فى تاريخ عدن ، اذ بدات مختلف السفن تقصدها لتفرغ فيها بضائعها ، وتحمل بضائع المنطقة مكانها ، وتتزود بنفس الوقت بكميات الفحم اللازمة لها .



مطلوب ..٢٤٠ دينار لانقاذ المرأة العدنية ! : تعانى المرأة العدنية الامرين لعدم وجود ناد تقضى فيه وقتها .. وفى الانتظار تجتمع السيدات فى منازلهن ، فيلعبن لعبتهن المفضلة « الكيرم » أو البلياردو اليابانى .. لقد بدأت جمعية المرأة العدنية فى بناء ناد لها دفعت فيه حتى الآن ١٣٢ الف شلن ، ولكن العمل توقف بسبب عدم وجود ٦٨ الف شلن أخرى .. وقد ارسلت الجمعية خطابات الى جميع رؤساء الدول العربية تطلب منهم مساعدتها فى تكملة المبلغ .





واسلاماه فى عدن ! : رغم تأخر تعليم الفتيات ، فانهن استطعن ان يلحقن بالطلبة ، وان يتفوقن عليهم فى بعض الأحيان ، وخاصة فى ميدان التمثيل .. وترى الى اليمين مشهدا من مسرحية « واسلاماه » تؤديه طالبات كلية البنات بعدن بلغة عربية صحيحة .. ويلاحظ ان بعض الطالبات قد ارتدين ملابس رجال البادية .. فالاختلاط ممنوع .

ازياء للقات ! : كان الفراغ الهائل الذى تعيش فيه المرأة المدنية ، من أهم أسباب اندفاعها لمحاكاة ومنافسة الرجل فى مضغ وتخزين القات ، حتى أصبحت نسبة السيدات اللواتى يمضغن القات تقرب من ٣٠٪ من عددهن ! وتتطلب جلسة القات الجلوس على الارض ، بهذا الزى الفضفاض الجميل ، الذى ييسر اتساعه الجلوس والوقوف بسهولة .. وترتديه هنا اربع من فتيات المدارس ..



ازمة المساكن : تعانى عدن أزمة سكن مستعصية فعدد السكان يزداد بسرعة عجيبة ، وهذه مجموعة من المنازل الشعبية أقيمت لتحل جزءا من المشكلة ويقطنها العمال وصغار الموظفين بايجار شهرى زهيد يتراوح بين ٢٥ و ٤٠ شلنا أى جنيهين على الاكثر ، بينما يصل ايجار الشقة فى شارع المعلّى الى نحو ١٢٠٠ شلن فى الشهر !



اغنام من الصومال : لا توجد زراعة فى عدن لعدم وجود مياه ، وبالتالى لا توجد تربية مواشى، انما تستورد البلاد حاجتها من الأغنام من الصومال وبعض المحميات المجاورة ، حيث تعرض للبيع فى أسواق مدينة الشيخ عثمان بسعر يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ شلنا أى ٥ و ٧ جنيهات استرلينة للراس . والأغنام كلها من الكباش ، أما النعاج فتأتى بطريق التهريب ويرتفع ثمنها الى ٢٥٠ شلنا للواحدة .. وتأتى الجمال من الامارات المجاورة وتباع بسعر يتراوح بين ٤٠٠ والف شلن للواحد

سقوط المنافسين ..

ومع السفن القادمة جاء عشرات الالوف من التجار وخاصة من الهند فتمركزوا فى عدن .. وفى عام ١٨٧٠ بدا التلغراف اللاسلكى يعمل لاول مرة فى عدن ، فاصبح بامكان تجارها الاتصال مباشرة بتجار أوروبا .. ولم تكن الموانىء المنافسة تملك مثل هذا الجهاز .. فبدا نجمها فى الافول واحدة تلو الاخرى .. مثلا هبط عدد سكانها من ٢٠ الفا الى ١٢٠٠ وتبعتها جيبوتى .. وبربره .. وزيلع.

وغرقت اسواق عدن بمنتجات افريقيا : من الصمغ والجلود وسن الفيل .. الى جانب قهوة اليمن ..

سفينة كل ٣٠ دقيقة

وتضاعفت أهمية عدن بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ اذ غدت وسط « الطريق الرئيسى للعالم » فاصبحت جميع السفن المارة من القناة تقف فى عدن لتتزود بالوقود .. حتى بلغ عددها فى العام الماضى ٧٠٠٠ سفينة .

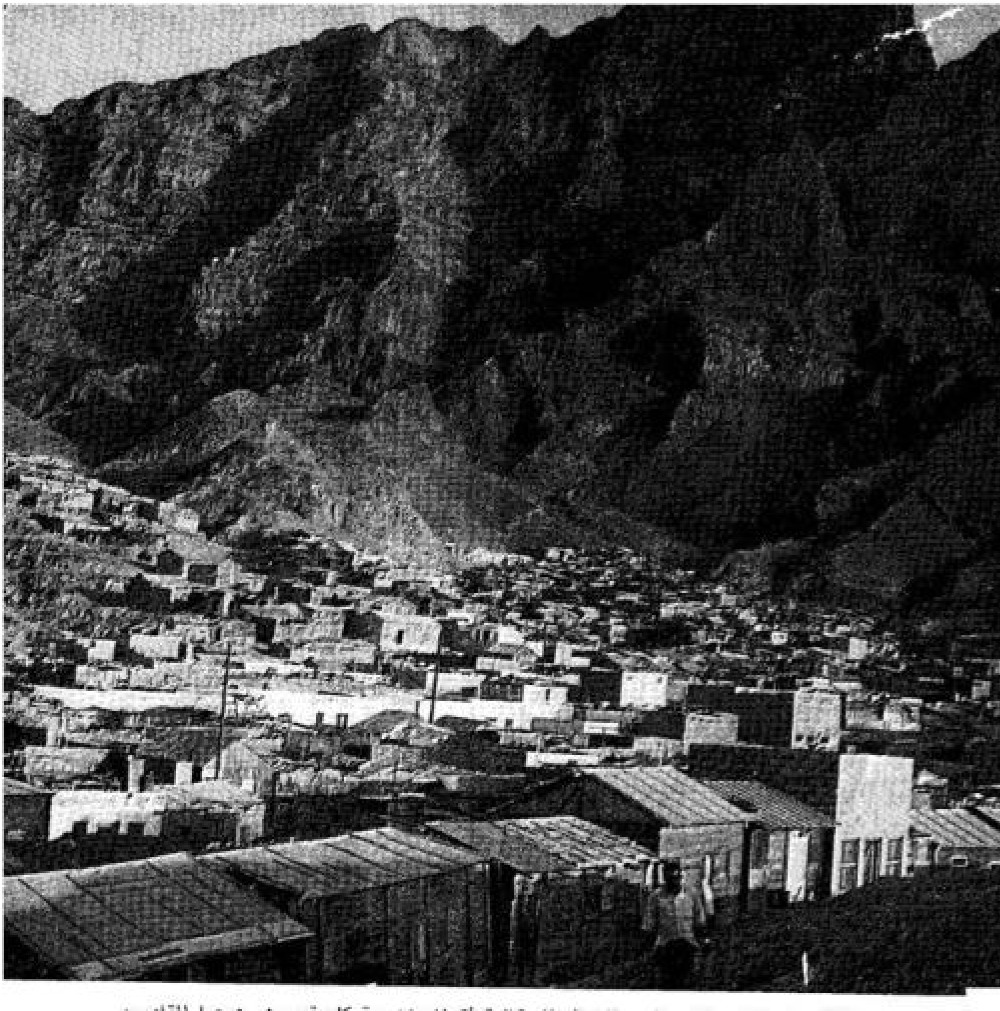
وقد اصيبت عدن بكارثة كبرى كادت تخنقها فى عام ١٩٥٦ – ١٩٥٧ عندما اقفلت قناة السويس فى وجه الملاحة اثناء الاعتداء الثلاثى .

مناطق نفوذ

وكلمة التجارة فى عدن لا تعنى البيع والشراء فى المحلات فقط .. بل تتجاوزها الى خارج عدن، حيث يمتد نفوذ تجارها من موزمبيق فى جنوب افريقيا ، حتى السويس شمالا .. ومن وسط الحبشة غربا ، حتى سواحل الهند وايران شرقا .. ان تجار عدن اذكياء ، اقوياء لهم ممثلون فى مختلف تلك البلاد ، يشترون لهم مختلف المنتجات المحلية ليعيدوا تصديرها الى امريكا وانجلترا واوروبا والهند ، فيربحوا العملات الصعبة يشترون بها ما يريدون .

« ... ممثلنا فى عدن ... »

ويسيطر تجار عدن،من ممثلى الشركات الكبرى



تناقض : تنتشر عند سفوح الجبال البركانية أكواخ خشبية كئيبة يعيش تحتها القادمون الى عدن من مختلف البلاد والامارات المحيطة بها .. وعلى بعد أمتار قليلة من هذه الاكواخ، ترتفع العمارات فى شارع المعلى الأنيق .. انه التناقض الذى تلحظه بوضوح فى عدن

ـ واغلبهم من الاجانب ـ على هذه المنطقة الواسعة بيد قوية تخنق كل تاجر يحاول أن يتنفس عن غير طريقهم ..

وبمعنى آخر ، اذا اراد تاجر فى اليمن أو الصومال ، او الحبشة ، أن يشترى بضاعة من شركة كبيرة فان الرد يأتيه : اتصل بوكيلنا فى عدن ، لأنه ممثلنا فى المنطقة كلها . وتذهب البضاعة مباشرة من أوروبا لليمن مثلا .. ولكن بسعر مرتفع عن سعر عدن .. لان الوكيل فى عدن يقبض عمولته مباشرة من الشركة التى تضيفها الى سعر البيع للتاجر اليمنى ..

٨٠٠٠ يهودى يصبحون ٨٠٠

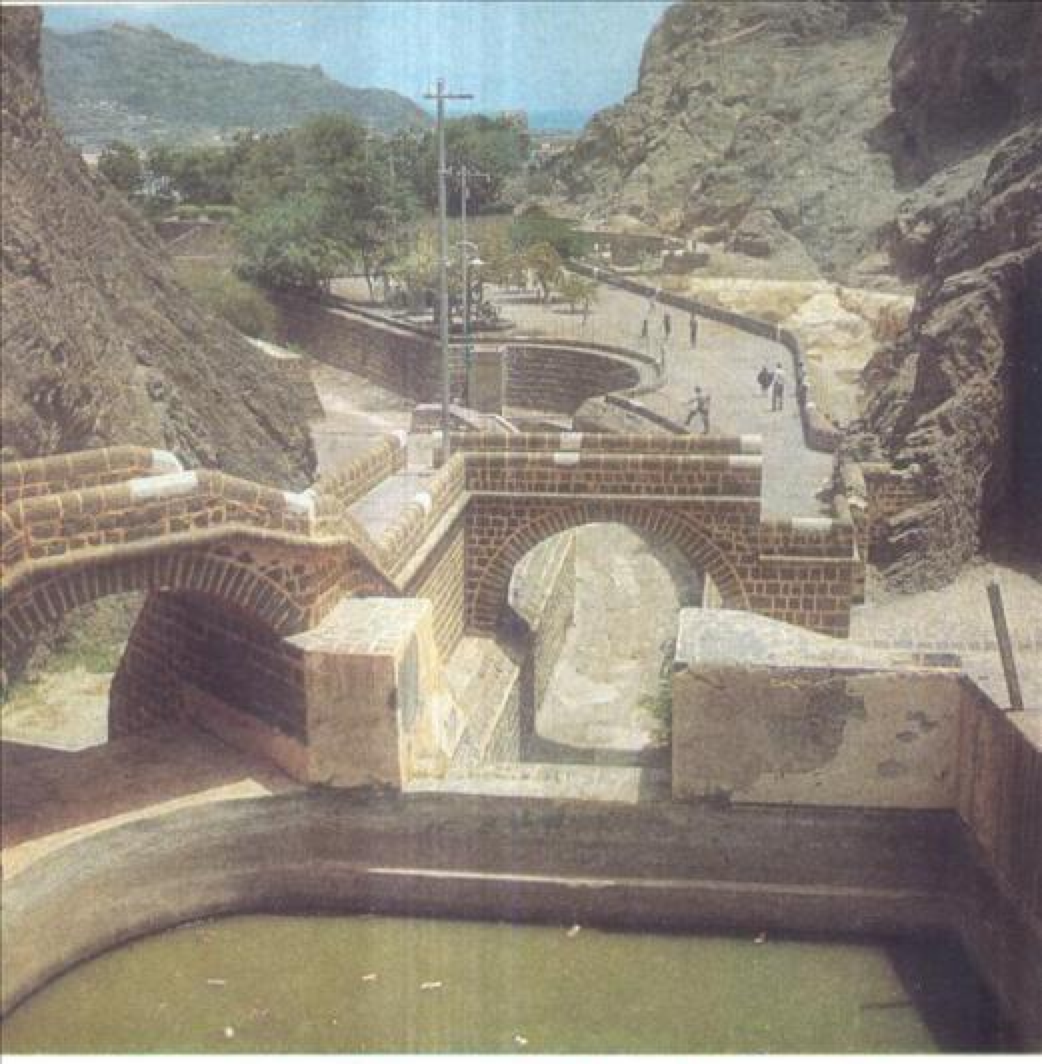
والى جانب هؤلاء الوكلاء الأجانب ، برز عدد من التجار العرب من حضرموت واليمن وعدن .. فضلا عن فئة التجار العرب الصغار الذين عملوا



ابناء ردفان لا يخافون الاسود او النمور : يقولون لك في عدن : عندنا أصغر حديقة حيوانات في العالم .. ويسكتون .. ولكن وجب عليهم أن يكملوا الحديث بقولهم : « .. وفيها اعظم مروض وحوش في العالم ، يدخل على الأسود والنمور بغير سلاح ، ولا حتى عصاة ، فتسكن له وتخاف منه وهو الاعزل .. » ان اسمه حسين قاسم القطيبي ، ويقيم في حديقة الحيوان في الشيخ عثمان .. ولكنه جاءها من بلده الأصلي الذي هو جبل ردفان في محمية الضالع .. !

هنا بني فلك نوح : هذا ما يؤكده لك كل عدني .. اما اليوم فلم يعد احد يبني او يصنع المراكب الكبيرة بل يكتفون بصنع الصغير منها . ان السفن العربية التقليدية لها ميناؤها الخاص في منطقة «معلى دكه» الذي ترسو فيه سنويا ١٤٠٠ سفينة تأتي حاملة ٢٧٠٠٠ طن من البضائع تفرغها هنا لتحمل مكانها ٩١ الف طن من البضائع توزعها على موانىء الساحل العربي والافريقي . وفي شهري ديسمبر ويناير ، تأتي من دول الخليج العربي السفن الكبيرة محملة بالتمور والسجاد ..





صهاريج عدن : أروع آثار العــرب فى الهندسة ..

تجلت عبقرية العرب الجنوبيين فى اقامة السدود لحجز مياه الأمطار .. فسد مأرب يعتبر من معجزات العالم ، ومن بعده تأتى صهاريج عدن القديمة ، التى تعتبر من أروع الأعمال الهندسية ، وهى مبنية فى وادى الطويلة (طوله ٧٥٠ مترا) قرب مدينة عدن ، وكانت السيول تندفع خلاله فتصيب المدينة بالأضرار، ولكن عندما بنيت هذه الصهاريج أصبحت مياه الأمطار تسقط عليها فتمتلىء بها الصهاريج الاثنا عشر ، التى تتسع لعشرة ملايين جالون من الماء ، ولكنها نادرا ما تمتلىء بالماء ، فالأمطار فى عدن شحيحة للغاية أما بناة هذه الصهاريج فمن المؤسف أنه لا يوجد أثر يشير اليهم ولو من بعيد ، البعض يقول انهم بنو حمير فى القرن الاول الميلادى ، والبعض يصل بها الى ١٥٠٠ عام قبل المسيح .. وكانت هذه الصهاريج منسية مهملة مغطاة بالركام والأوساخ ، وبطريق الصدفة اكتشفها الكابتن بليفير Playfair عام ١٨٥٤ فأزيلت القاذورات وهدمت بعض الصهاريج القديمة ، ورممت الجدران ، حتى أصبحت تستوعب اليوم ٢٠ مليون جالون .. ولكنها لم تعد تستعمل كخزان بل أصبحت أثرا يزوره أبناء البلد والسياح . ويحلو لبعض الشباب القفز الى مياه هذه الصهاريج للاستحمام ، ولكنهم كثيرا ما يصابون باصابات قاتلة ، اذ ترتطم رؤوسهم بجدران الصهاريج أو تعلق أرجلهم بالطين المترسب فى قاعها فيصعب عليهم الخلاص فيغرقون ..

فى السابق فى السعودية وامريكا وفرنسا ثم جاءوا برأسمالهم الصغير للعمل فى عدن ..

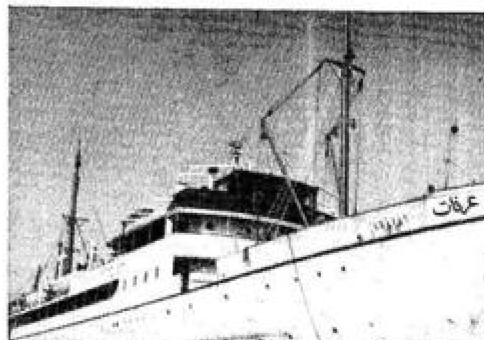
ومن العجيب أن « خلو الرجل » يكلف اكثر من ثمن البضاعة التى فى المحل . وكلما اقترب المتجر من البحر كلما زاد بدل « الخلو » حتى وصل الى ٦٥٠ الف شلن دفعها اخيرا تاجر عربى لتاجر اسرائيلى غادر البلاد .

ومما يذكر أن عدد اليهود كان ٨٠٠٠ شخص عام ١٩٤٦ أصبحوا اليوم اقل من ٨٠٠ يقيم اغلبهم فى منطقة التواهى حيث يعملون فى التجارة.

خور مكسّر يربط عدن باليابسة

وهنا نتوقف قليلا لنتحدث عن عدن ومدنها .. نعم مدنها .. فعدن ليست مدينة واحدة .. كانت كذا منذ ١٣٠ عاما ، اما اليوم فاصبحت تضم المعلى بمبانيها الأنيقة الشاهقة .. والتواهى بفنادقها الكثيرة وشواطئها الجميلة العديدة .. وبين المدينتين بنى الصوماليون والنازحون من الامارات المجاورة اكواخا لهم فى سفح جبل شمسان .. اما عدن القديمة فقد تضاعف حجمها وامتدت فى كل اتجاه ..

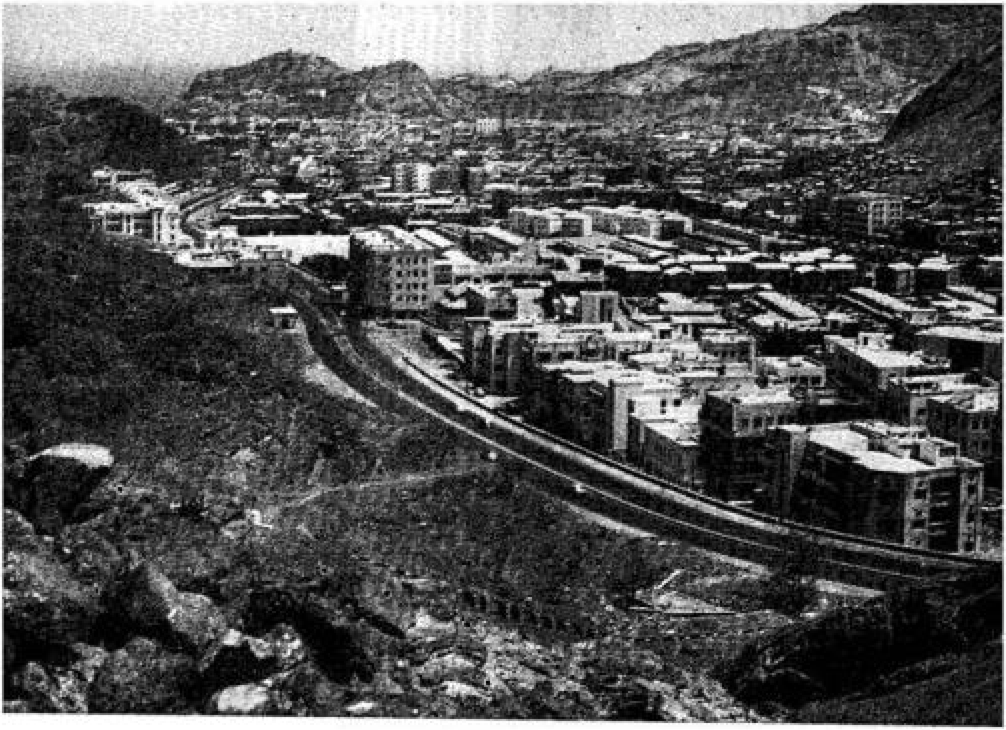
ان جميع هذه المدن تقع فى دائرة قطرها لايتجاوز الخمسة الاميال ، هى فى نفس الوقت شبه جزيرة يربطها باليابسة عنق زجاجة يسمونه «خور مكسّر» وهو ارض رملية ، بدأ البناء الحديث يغطيها ، وفيها مطار عدن المدنى والحربى ومعسكرات الجيش البريطانى ، وطواحين الهواء التى كانت تجذب



اصلاح وترميم : لا يقوم ميناء عدن باستقبال السفن فقط ، بل يعمد الى ترميمها كما ترى هنا أثناء العمل فى اصلاح قاع السفينة « عرفات » السعودية التى تعمل على نقل الحجاج من المكلا الى جدة .. ان حمولتها ٢٠٠٠ طن وقد دفعت نحو ١١٥ الف شلن ثمنا لاصلاح قاعها فى مدة أسبوع . وتعتبر « عرفات » أكبر سفينة يمكن ان تتسع لها الورشة البحرية ..



غموض ! : يجهل أبناء عدن تاريخ بلادهم ، مع انها بلاد ذات ماض قديم ، كما يقول هذا الحجر ، الذى وجد قرب مدينة عدن ، وهو لقطعة من حمم البركان بداخلها عظام انسان مات منذ ٢٠ ألف عام ! ان الغموض يحيط بكثير من جوانب تاريخ هذه البلاد ، وآثار متحف عدن لا تعدو أن تكون أحجارا عادية ، اذا قيست بقطع آثار عدن الموجودة فى متحف لندن ..



مدينة فى فوهة بركان :
انها عدن القديمة ، او كريتر ، Crater وهى الترجمة الانجليزية للفظ « فوهة البركان » .. ان الحياة لم تكن تتعدى هذه المدينة القديمة التى ظلت تنمو دون أى تخطيط أو تهذيب ، فأصبحت وكأنها مجموعة قرى مختلط بعضها ببعض ، طرقها ضيقة تعج بالسيارات والدواب والمترجلين .. انها المسكن الوطنى لمعظم السكان ، وفيها أغلب المتاجر التى تجذب السياح ..

ماء المحيط الى احواض واسعة يترك فيها الماء معرضا لاشعة الشمس حتى يجف ، فيؤخذ ملحه المتبقى ويباع فى الأسواق ..

٧ ملايين طن من النفط سنويا

وما يكاد المرء يعبر عنق الزجاجة هذا حتى يجد نفسه فى ارض واسعة فى شمالها مدينة « الشيخ عثمان » التى لم يتغير طابعها العربى .. وفى العربى ، الذى انضمت اليه عدن عام ١٩٦٣ .. وبعد « مدينة الاتحاد » تقع عدن الصغرى ، بمصافى الزيت الكبيرة التى اقيمت فيها ، والتى تكرر سبعة ملايين طن من البترول كل عام .
غربها مدينة «الاتحاد» وهى عاصمة اتحاد الجنوب

١٠٠ سيارة فى الميل الواحد !

من هذه المدن تتكون مستعمرة عدن ، التى تبلغ مساحتها كلها ٨٠ ميلا مربعا ، تربطها طرق للسيارات معبدة يمكنك ان تقطعها كلها فى ساعتين لولا مصاعب المرور .. وما أدراك ما المرور وما مشاكله فى عدن ..

ان ١٥ الف سيارة تسير على طرق طولها ١٥٠ ميلا ، اى ان كل ميل عليه ١٠٠ سيارة وهى نسبة كثيفة جدا تتسبب فى وقوع الفى حادث تصادم سنويا ! هذا فضلا عن الازدحام الزائد وخاصة فى أسواق عدن القديمة ..

ان شق طرق جديدة يحتاج الى ردم البحر ، وقد اتبعت هذه الطريقة فى مد طريق خور مكثر

القات : أهم مشك





يأكلونه ويلعنونه ! انهم لا يستطيعون منه خلاصا ، انهم يمضغون ويخزنون فى افواههم القات الحبشي المفتخر المسمى بالهَرَرى .. تنفق عدن يوميا ١٠٠ الف شلن ، أى خمسة الآف جنيه استرليني ، ثمنا لشراء القات ، الذى يرد من الحبشة على متن طائرتين خاصتين كل صباح !. فاذا تأخرتا او تأخرت احداهما عن موعدها ، تضاعف سعر القات. وسوقه تبدأ ظهر كل يوم . انهم يبيعون أغصان هذه الشجرة الملعونة داخل ربطة تسمى « مَقَاَرة » وزنها نصف كيلو وسعرها الرسمى ١٠١/٢ شلن ، ولكنها تباع ب ٢١ شلنا فى السوق السوداء .

ومعظم اهل عدن ينفقون على القات اكثر مما ينفقون على منازلهم . واذا عرفت ان ٣٠٪ من السيدات يمضغن القات كذلك عالك الامر . وتبدأ جلسة القات فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وتمتد حتى التاسعة مساء فى بعض الاحيان ، يجلس خلالها المدمن على الارض ويختار الاعواد الرطبة يمضغها ثم يخزنها فى فمه ، ويشرب معها الكوكا كولا والماء المثلج . لقد منعت السلطات استيراد القات من الحبشة عام ١٩٥٢ فكان الاهالى يركبون السيارات ويقطعون ٢٠ ميلا للذهاب الى « دار سعد » قرب حدود لحج لمضغ القات هناك؛ لان لحج لم تمنع القات القادم اليها من اليمن .

ان مشكلة القات لن تحل الا باتفاق بين البلاد التى تتعاطاه كلها .. لقد درست الأمم المتحدة هذه المشكلة من جميع نواحيها ، ولكنها لم تنشر نتائج دراساتها حتى الآن .

وفوق هذا الكلام يظهر احد باعة القات يبيع بضاعته للجمهور المتلهف على شرائها . وفى الصورة اليسرى يبدو بعض المواطنين فى أحد « المبارز » وهى كلمة تطلق على مجالس القات ..

نتماعية يواجهها أهل عدن ، دون أن يجدوا لها حلا ..!



ـ عدن القديمة ، وكذلك فى الطريق الموصل من المعلى الى عدن الصغرى .

ظلموهم ..

وسائقو سيارات الأجرة فى عدن يتمتعون بسمعة دولية سيئة ! حتى الحكومة تحذر السواح منهم فتقول : « معظم الذين يزورون عدن قد عانوا من بلطجة سائقى سيارات الأجرة المزودة بعدادات لا تستعمل الا نادرا .. وعليك الاتفاق مع السائق على الأجرة قبل ركوب السيارة ، ولا تدفع اكثر من شلن للميل الأول ثم نصف شلن لكل ميل » .

وهاج سائقو هذه السيارات عندما واجهناهم بذلك . وقالوا : ـ ظلمونا واتهمونا زورا ... ان عددنا لا يتجاوز ٢٠٠ سيارة أجرة رسمية .. ولكن الى جوارنا تعمل ٣٠٠٠ سيارة خاصة ينافسنا أصحابها دون أن يكون لديهم تصريح بالعمل .. وهذه السيارات هى التى تشوه سمعتنا .. وقد حاولنا كثيرا أن تمنعها من العمل لكن القانون يحميها اذ لا يمكن معاقبة صاحبها الا اذا ضبط وهو يقبض نقودا من الراكب .. وهذا لا يتم لحرص هؤلاء السائقين على استلام النقود من الركاب وسط الطريق .. » .

سكة حديد حربية

وفى عام ١٩١٥ كانت عدن مرتبطة بسكة حديد حربية مع قرية الخدّاد فى شمال لحج وقد مد هذا الخط ، لأن الأتراك كانوا يهاجمون الانجليز



قريبا تشاهد هذه الوجوه فى بلاد العروبة الأخرى :

يقبل الشباب العدنى على لعبة كرة القدم بحماس زائد ، يلعبها فى كل ميدان يجده شاغرا . وقد انتظمت هذه اللعبة تحت ادارة الاتحاد الرياضى العدنى الذى أصبح يشمل ٥١ ناديا ، تضم ١٤ فريقا من الدرجة الأولى و ١١ فريقا من الدرجة الثانية .. وقد بدأت هذه الفرق تستعد للسفر الى الخارج لتنقل فنها الى باقى الدول العربية .. وترى هنا أعضاء فريقى المعلى ، والشيخ عثمان بعد مباراة حامية فاز فيها الأول .. والى جانب كرة القدم بدأت لعبة « الهوكى » فى الانتشار ..

فى عــدن مـن اليمـن ، حتـى وصـلوا فى هجومهم الى احتلال لحج فتمركزوا فيهـا واجتاحوا فى احدى هجماتهم مدينة الشيخ عثمان .. ولم يخرجوا منهـا الا بخروجهم من المنطقة كلها ، طبقا لمعاهدة الصلح ..

وظلت هذه السكة الحديد تعمل حتى توقفت نهائيا عام ١٩٣٢ .

وفى عام ١٩٦٢ فتح طريق معبد يربط بين عدن ولحج طوله ـ من مدينة الشيخ عثمان ـ حتى لحج ٢٢ ميلا .

مخازن الخضر فى الامارات المجاورة

واصبح باستطاعة سكان عدن الذهاب الى لحج لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وسط مزارعها الخضراء، فعدن مدينة ليس فيها ماء ، ولا بساتين ، انما تشرب من مياه لحج التى تأتيها بالانابيب ..

اما الخضراوات فتأتيها فى الليل عبر هـذا الطريق المعبد، على شاحنات كبيرة فتفرغ حمولتها فى سوق المنتجات الزراعية قرب مطار عدن ..

ويتهافت التجار على هذه السوق فيشتـرون سنويا ١٥ الف طن من القرنبيط والكرنب والجزر والطماطم والخس والخوخ والمشمش والبرقـوق والعنب .. وكلها من المزروعات التى تنمو بنجاح كبير فى لحج ومكيرس ـ قرب حدود اليمن ـ وارض الظاهر بالسلطنة العوذلية ..

وتزداد الحركة فى السوق عندما يصل متعهدو تموين السفن فيشترون الخضراوات والفواكـه بكميات كبيرة ضخمة ..

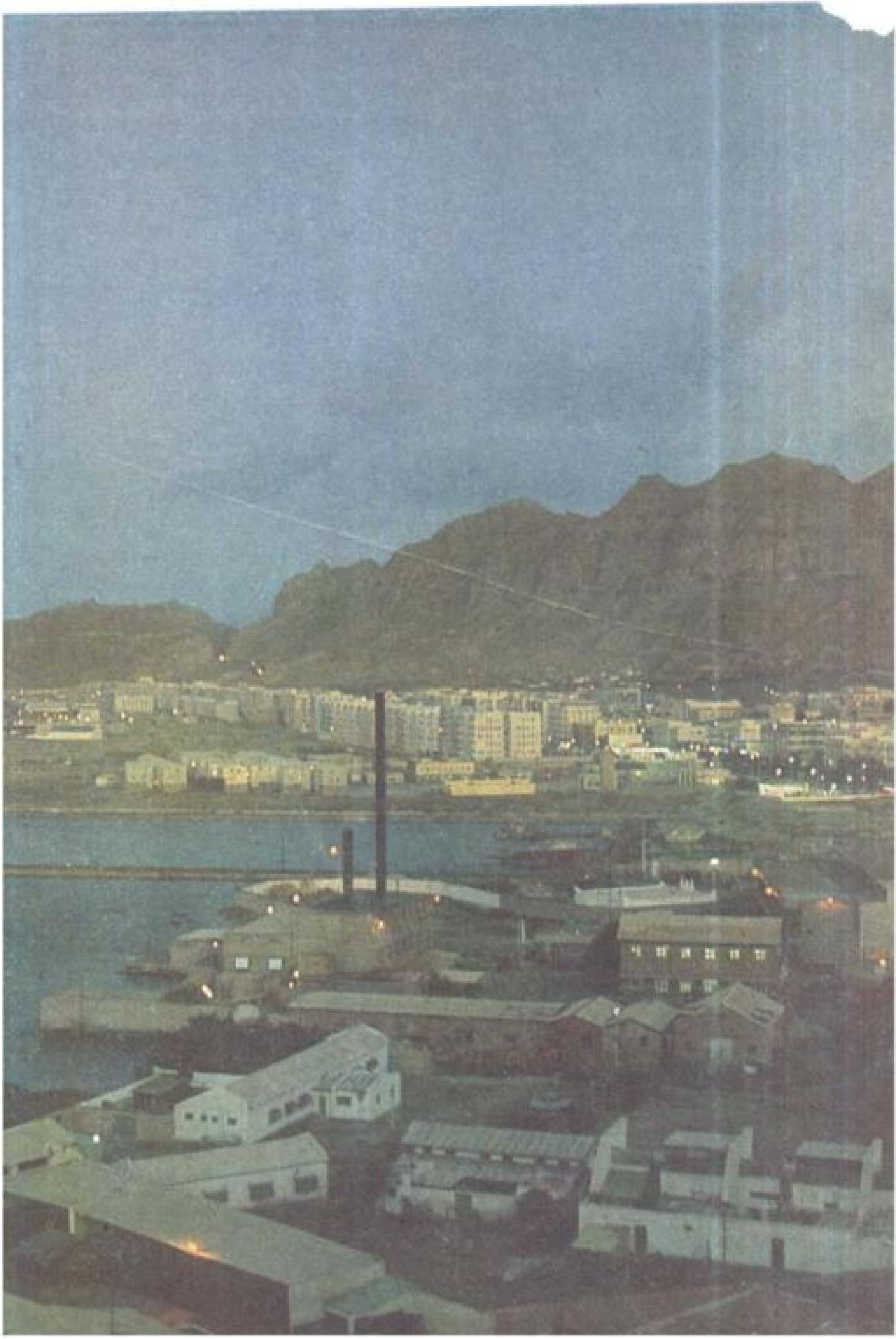
كيف تطبخ «الذُرْبيان» ؟

ولكن ابن البلد فى عدن لا يميـل كثيرا الى الخضراوات ، بل يفضل عليها أكلته الشعبية «الذُرْبيان» ، ولكنـه لا يأكلهـا ـ عـادة ـ الا فى المناسبات والافراح والمآتم لانها أكلة معقدة



حيث يوجد طين توجد صناعة الفخار ، ولكن الطين فى عدن يحتوى على كمية كبيرة من الاملاح، ومع ذلك فهم يصنعون منه الجرار والقلل باليد ، وعلى مراحل حتى لا تتكسر الجرة ... واول من أدخل صناعة الفخار الى عدن هم بعض أهالى مدينة مخا اليمنية . ويصل انتاج العامل فى اليوم الى نحو ٢٠ جرة متوسطة يتناول عن كل منها نصف شلن من المتعهد الذى يتولى بيعها .

يحتاج طبخها الى يوم كامل تقريبا .. ! وتبدا عملية طبخ الذربيان بخلط اللحـم بالبهارات والتوابل واللبن الزبادى ، ويترك الخليط فى حلة مقفلة لمدة ساعتين حتى يختمر .. وبعدها توضع فوق الخليط قشرة بصلة كبيرة عليها قليل من السلى ، فى وسطها جمرة موقدة ويغطى الكل لمدة نصف ساعة .. تفتح بعدها الحلة ، لاضافة الارز والبطاطس والزعفران مع الحب الهال أو الحبهان والقرفة والكمون ، وتقفل الحلة وتوضع وسط فحم موقد حولها وفوقها لمدة ٤ سـاعات حتى



اين تقضى السهرة فى عدن ؟ : أبداخل غرفتك فى الفندق ؟ ام فى السفينة التى أتيت عليها ؟! .. فليس فى المدينة غير ناد ليلي واحد هو أشبه بالمقهى منه بالنادى ... حقيقة أن هناك ١٣ دارا للسينما ، تتسع لـ ١٢ ألف متفرج ، لكن الصخب والضجيج واصوات الباعة الجائلين يجعل هذه الدور كالأسواق العامة .. والليل فى عدن مظلم كئيب ، بينما يمكن أن يتحول الى شعلة من النور ، تعكس صورة ضاحكة للجبال الحزينة المرتفعة فى كل مكان ، لأن محطة كهرباء عدن ، التى تموّن لحج كذلك ، يمكنها أن تضاعف قوتها ، فهى لا تأخذ سوى ١٥ ألف طن من غاز الاحتراق من شركة المصافى ، فى حين يتم حرق كمية هائلة من هذا الغاز فى الهواء لعدم الحاجة اليه !!



سر توقف طواحين الهواء ؟ : كانت هذه الطواحين تدور فتسحب ماء البحر المالح من القنوات الخاصة ، الى أحواض فسيحة كبيرة ، وتحت أشعة الشمس وحرارة الجو يتبخر الماء ، ويبقى طبقة كثيفة من الملح تغطى الأرض وكأنها الثلوج البيضاء . وقد وصل انتاج عدن من الملح فى عام ١٩٤٦ الى ٥٠٠ ألف طن ، كانت تصدر كلها الى الهند واليابان ... وبعد عام واحد من هذا التاريخ توقفت الهند عن الاستيراد وتبعتها اليابان .. واتجه كل من البلدين الى ميناء صليف باليمن ليستورد الملح من هناك بأسعار أدنى من أسعار عدن . فالملح فى اليمن موجود على شكل جبال طبيعية هائلة . فضلا عن أن كلا من الهند واليابان قد أنشأ العديد من الملاحات فى بلاده . وهكذا أغلقت الأسواق فى وجه الملح العدنى فتوقفت طواحين الهواء عن الدوران، وتوقفت معها الصناعة الوحيدة التى كانت تشتهر بها عدن .

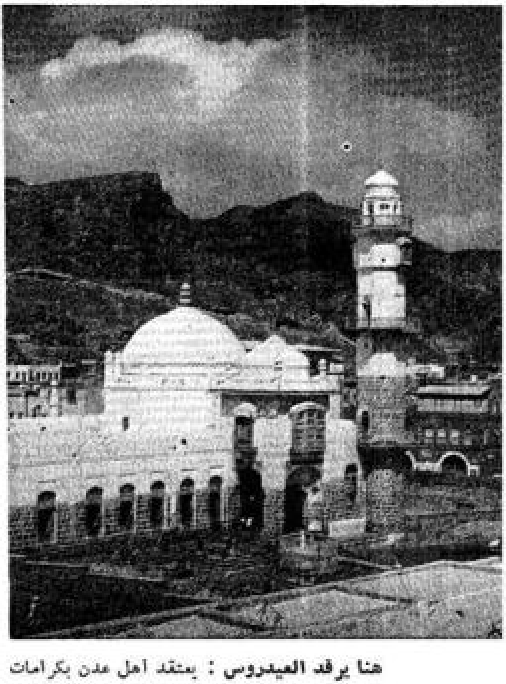


تنضج . نسينا زهرة الليمون التى لا بد من اضافتها للحم !!

يقظة بعد سبات عميق

كانت المرأة العدنية تقضى يومها فى طبخ هذه الأكلة ، أما اليوم فقد تركتها لطهاة مختصين يقومون بطبخها نيابة عنها .. لأنها بعد استيقاظها من السبات العميق الذى كانت تغط فيه عبر الأجيال ، وجدت نفسها مشغولة جدا ..

وكانت خطوتها الأولى تكوين جمعية تسعى لحل مشاكلها المتراكمة ، وفى مقدمتها الجهل المطبق



هنا يرقد العيدروس : يعتقد أهل عدن بكرامات أوليائهم اعتقادا راسخا ، وخاصة بكرامات « شمس العلماء الحبيب النسيب السيد أبى بكر بن عبد الله العيدروس » حامى عدن ووليها .. الذى ما زال أحفاده يعيشون فى قرية الحسوة وبعد كل زفاف ، يركب العروسان السيارة ويطوفان بالمسجد للتبرك قبل الذهاب لبيت العريس

الذى كانت تعيش فيه أغلب النساء بسبب عدم وجود مدارس للبنات فى القديم ..

هجوم ناعم ..

وكانت فكرة بناء ناد هى أول قرار اتخذته جمعية المرأة العدنية ، اذ سيتاح لها استعمال بناء النادى كروضة للاطفال فى الصباح ، وناد للسيدات فى المساء ..

ولكن من أين المال ؟ والمرأة العدنية مكبلة بتقاليد وعادات شديدة ؟

ولكنها ضربت عرض الحائط بهذه العادات واتجهت السيدات ، يقرعن الأبواب ، فقصدن التجار فى متاجرهم ، واقتحمن مبارز القات ، المحرمة عليهن، وطلبن من الرجال مساعدتهن لفتح اول ناد لهن ..

ولم يخيب الرجال ظن النساء فتبرعوا بمبلغ ١٣٢ الف شلن كانت نواة طيبة للبدء فى اقامة مبنى النادى الكبير .. وارتفع البناء عاليا .. ولم يستمر الحلم الجميل طويلا اذ توقف البناء ، فالمقاول يطالب بـ ٦٨ الف شلن آخرى لانهاء المبنى !

لم يجب أحد ...

واسقط فى يد المرأة ، وعقدت الاجتماعات الطويلة حضرها فى مرة من المرات ٥١٧ امرأة عدنية ، كن يدرسن ويناقشن وضعهن .. واقترحن اقامة حفلة كبرى تجمع اثناءها التبرعات ..ولكن بلدية عدن امتنعت عن اعارتهن قاعتها الكبرى .

واتجهت السيدات المكافحات الى رؤساء وملوك العرب فكتبن الى كل منهم خطابا مؤثرا يطلبن فيه العون والمدد .

واصبح الناس يتهربون منهن ..

كل هذا بسبب ٢٤٠٠ جنيه استرلينى !!

ان المرأة العدنية تقف اليوم مكتوفة الايدى



فتوى من الأزهر تنقذ مسجد النور : مدينة الشيخ عثمان ، هى أول واحة تقع على بعد ١٠ أميال من عدن فى الطريق الى اليمن ، وطابعها العربى القديم ما زال كما هو لم يتبدل .. وسميت بـ « الشيخ عثمان » نسبة لولي يقع قبره فيها .. وترى هنا مسجد النور ، أكبر مساجد « الشيخ عثمان » ، الذى أقيم فى جدرانه ٦٠ متجرا اعترض رجال الدين فى عدن على بنائها للأجرة فى جدار الجامع ، وطلبوا رأى لجنة الفتوى بالأزهر ، فجاء الرد بأن ذلك جائز شرعا .. وهكذا بنيت هذه المتاجر ، التى أصبحت تدر على المسجد ربما يقرب من ٦٠٠٠ شلن شهريا ..

امام ٦٨ الف شلن .. ان هذا المبلغ سيعمل على رفع مستواها وييسر لها تعلم القراءة والكتابة والخياطة والتطريز .. كما سيعمل على فتح أول روضة يتعلم فيها أطفال عدن !!

٩٠ ألف مواطن قدموا من الشمال

ان عدد سكان عدن اليوم ٢٥٠ ألف نسمة تقريبا ، منهم ٢٠٠ ألف عربى والباقون اوروبيون وهنود ومن أبناء افريقيا الشرقية ..

ونسبة النساء الى الرجال متساوية تقريبا بين المقيمين فى عدن ، ما عدا بين العرب القادمين من شمال البلاد والامارات المجاورة ، اذ تنخفض نسبة النساء بينهم الى ١٠٪ فقط .

ويقدرون عدد الذين قدموا من الشمال بنحو ٩٠ ألف مواطن ، ينقسمون الى طبقتين : التجار ، وهؤلاء اندمجوا مع أهل البلاد ، وكون بعضهم ثروات طائلة .. والعمال ، وهؤلاء قليلو الاندماج وهم يأتون الى عدن تاركين عائلاتهم فى قراهم ، ويعيشون عيشة بسيطة صعبة ، فكثيرون منهم لا يقيمون فى منازل أو حتى فى عشش ، بل يضعون فى الليل أسرتهم الخفيفة على الأرصفة وفى الميادين والساحات القريبة من الميناء ، وحتى فى سفوح الجبال فينامون عليها فى الهواء الطلق .. !

من هو ((كركيم شو)) ؟

وتجذب عدن اليها خليطا عجيبا من الناس



الاغنية الهندية كادت أن تقتل الأغنية العدنية : يطرب أبناء عدن بالأغاني ويولعون بتسمع الأخبار .. حتى انك تستطيع سماع أغنية بأكملها وانت متنقل فى الاسواق ، لأن الراديو موجود ومفتوح فى كل متجر ! وتقوم اذاعة عدن ببث اذاعتها مدة ١١ ساعة فى اليوم على موجتين قصيرة ومتوسطة .. والبرنامج العربى منفصل تماما عن البرنامج الانجليزي . ان ميزانية الاذاعة ـ سبعة آلاف جنيه ـ لا تسمح كثيرا بتنويع البرامج ولكن الشباب العدنى يقبل بشدة على العمل دون النظر للمادة . وقد استطاع بعض المغنين الشباب ، أن يخرجوا من حصار الأغانى الهندية ، الذى كاد أن يقتل فنهم الشعبى ، فلمعوا وابرزوا الاغنية العدنية ، وأصبحوا من المغنين المحبوبين فى عدن والامارات المجاورة .. وفى مقدمتهم الفنان الشعبي ذو الصوت الحنون محمد مرشد ناجي (صورته فوق هذا الكلام) ، والفنان المجدد ، ملك العود ، أحمد بن أحمد قاسم ..

يأتونها يوميا على اقدامهم ، وعلى ظهور الجمال ، وسيارات اللاندروفر ، وعلى السفن العربية القديمة .. انهم لا يؤمنون بالحدود الفاصلة ، لأنهم يعتبرون المنطقة كلها وحدة واحدة ، وبلدا واحدا .

والى جانب هؤلاء المواطنين تهطل على عدن هجرة أخرى تتعارض ومصالح شعب هذا البلد ، انهم يأتون الى عدن بالطائرات والسفن الكبيرة ، وسرعان ما يمنحون كافة الحقوق والاحتكارات والمراكز الحساسة .. فينافسون ابن عدن فى رزقه وعمله ومستقبله ..

واليك نموذجا لما تنشره صحف عدن من اعلانات غريبة .. فقد قرأنا فى احداها تحت عنوان : « تجنس » ما يلى :

« هذا اعلان للجمهور بان « كوكيم شو » تقدم بطلب التجنس وكل من له اعتراض ، عليه أن يكتب رسالة بامضائه يضمنها كافة الاعتراضات .. » .

واول اعتراض يمكن أن يوجه لهذا الاعلان يكمن فى اسم صاحبه : « كوكيم شو » .. ترى من أى مكان يمكن أن يكون ؟ من الهند أو السند أو انجلترا أو الصومال ؟ ان هذا كله غير مهم لأن قانون الجنسية عرّف العدنى بهذا التعبير « اللطيف » :

« العدنى هو كل من ولد فى عدن ، وقطع صلته ببلده الأصيل ، وعليه ان يفهم ويتكلم العربية !! » .

هل فهمت ... ؟!!

أموال السائح هى الهدف

.. وتستيقظ عدن مبكرة احيانا ، ومتأخرة احيانا أخرى ، طبقا لحركة السفن فى الميناء التى تقرر مواعيد فتح واغلاق المتاجر المتشابهة فى بضائعها ومعروضاتها .

وليس لتجار عدن من هدف سوى أموال السائح ،

وخاصة الذى لا يمكث سوى ساعات معدودة ، فهذا ترفع له الاثمان حسب ما يتراءى للتاجر الذى ليس عليه اى رقيب او حسيب .

وليس صحيحا ان الأسعار فى عدن دونها فى سائر البلاد العربية .. فقد وجدنا فيها أن السجاير والعطور وكثيرا من الكماليات تباع بأسعار أغلى بكثير من الاسعار المتداولة فى الكويت وبيروت مثلا .. ولكن مما لا شك فيه أن أسعار أدوات التصوير والسينما والساعات تقل كثيرا عن مثيلاتها فى كل الدول العربية .. والاوروبية كذلك .. والسبب الرئيسى هو عدم وجود ضريبة جمركية عليها ، بعكس السجاير والعطور والخمور ..



ماما عديلة : أحب سيدات عدن الى قلوب الأطفال ، فهى تقدم لهم برنامجهم الاسبوعى المفضل .. ومما يذكر ان عدد المطربات فى اذاعة عدن كن ثلاثة لم تبق واحدة منهن .. والسبب ان اثنتين تزوجتا .. أما الثالثة فبدأت بالغناء ، وهى صغيرة ، وعندما بلغت سن الـ ١٤ « تحجبت » اى وضعت الحجاب على وجهها وامتنعت عن الغناء ! وهكذا انعدمت أصوات المطربات من اذاعة عدن ، ولم تبق سوى المذيعات ، وفى مقدمتهن ماما عديلة .. ومن المنتظر ان يبدأ فى اكتوبر القادم البث من محطة التلفزيون الجديدة .

حفلة فى الحافلة !!

وفى ميدان الهلال بمدينة التواهى ، أى عدن الحديثة ، تقف الحافلات لتنقل الركاب بنصف شلن الى عدن القديمة ..

وتمر الحافلة وسط المقابر العديدة التى تحتل أجمل المناطق .. ثم تعرج على البيوت الشعبية الملونة فى منطقة الروضة ، ان اغلب سكانها من الصوماليين ..

وتتابع الحافلة سيرها وسط شارع المعلى الأنيق فيزداد عدد الركاب ويقفون على السلالم .. ان الملابس هنا تشعرك وكأنك فى حديقة للملاهى ، فالفوطة المزركشة بالالوان ، والخطوط المربعة تغطى الساقين والوسط ، وفوقها قميص من النيلون .. وعلى الراس عمامة حمراء أو صفراء او خضراء ، يتفنن كل رجل فى طريقة لفها ، بعضهم يتركها ضخمة كبيرة ، وبعضهم يجعلها صغيرة لطيفة .. ويكتفى البعض بطاقية عادية مصنوعة بأيدى سيدات المنزل وعليها رسوم أعلام وكتابات متناثرة . انها نفس الملابس المنتشرة فى اليمن نقلوها معهم الى عدن ..

وفى شارع المعلى تصعد الفتيات الصوماليات اللواتى يعملن عند العائلات الأجنبية ، ان بشرتهن السوداء وصفر أجسامهن وألوان ملابسهن الزاهية يجعلهن محط انظار ركاب الحافلة ..

وتقف الحافلة فى المحطة ويصفر السائق فتقع احدى السيدات على الارض فيبدأ ركاب الحافلة فى الكلام والصراخ مرة واحدة ، كل منهم يلقى باللوم على السائق والكمسارى .. وتتعطل السيارة وتقف السيدة .. ولا يظهر عليها أنها اصيبت باذى ، فيصفر الكمسارى وتنطلق الحافلة التى لا بد أنها اشتقت اسمها من هذا الخلق المتباين الذى تحفل به !!

آسف ...

ان الحديث عن عدن شيق وكثير .. ولكن عدد الصفحات لا يتسع له ويجد القارىء تحت الصور شرحا وافيا لكثير من النقاط التى لم يرد ذكرها .

غيوم ... وسياسات

ولا يمكن أن يتم الحديث عن عدن ويكمل الا

بالحديث عن الغيوم السياسية التى تغطى سماء البلاد ..

ان التيارات السياسيةفى عدن كثيرة ومتشعبة، تلعب فيها الدسائس والرشاوى دورا كبيرا هاما ، حتى ليصعب على الغريب القادم الى البلاد أن يميز او يفرق بين الوطنيين وادعياء الوطنية .

وتلعب الأحزاب السياسية دورا هاما وخطيرا فى عدن ، وحزب الشعب الاشتراكى هو اقوى هذه الأحزاب واكثرها تنظيما .. ورئيســه عبد الله الاصنج ، وقد قال لنا : ان حزبنا يطالب بجلاء القوات البريطانية ، واستقلال البلاد .. ولكن هذا ليس هدفنا النهائى ، بل نعتبره « هدفا مرحليا » يقودنا لتحقيق الوحدة الطبيعية مع اليمـن .

« وهذه الوحدة متروك أمرها للشعب ،الذى عليه أن يقرر ان كان يريدها أم لا . وذلك فى استفتاء شعبى بعد الجلاء والاستقلال .. » .

والحزب الثانى فى عدن هو حزب رابطة أبنـاء الجنوب ، وهو اقدم احزاب عدن اذ تالف عـام ١٩٥٠ ولكن قادته يعيشون خارج عدن منـذ عام ١٩٥٦ .

وقد توصل قادة هذا الحزب أخيرا الى الاتفاق مع قادة حزب الشعب الاشتراكى على هــدف موحد وهو أن يتركا للشعب العدنى حرية تقرير مصيره بعد الجلاء ونيل الاستقلال ..

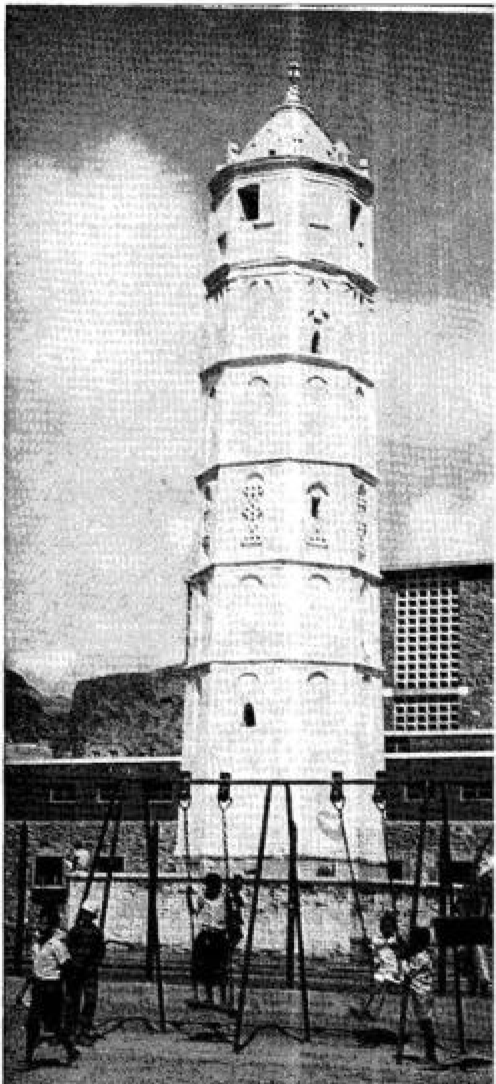
زواج المتعة

اما الأحزاب الاخرى فهى حزب الاتحاد الوطنى، وحزب المؤتمر الشعبى ، والأول هو الذى بارك ما يسمونه هناك « زواج المتعة » الذى تم فى أوائل عام ١٩٦٣ ، بين امارات اتحاد الجنوب العـربى الثلاث عشرة وبين عدن ..

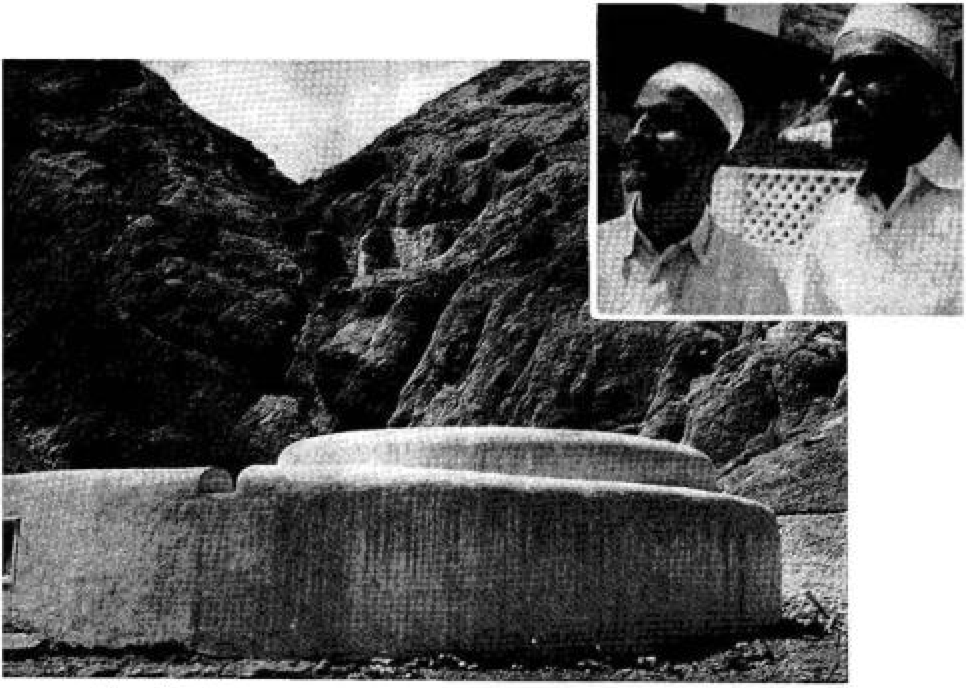
ان عدن قبل « زواجها » هذا كانت أمّا لثلاث مجموعات من الجزر ، هى : كمران .. وبريم .. وكوريا موريا .. ولكنها بعد زواجها نزعت منها بناتها الثلاث وأصبحن تحت السيطرة البريطانية المباشرة .

منطق ومفهوم القرن العشرين

وغنى عن البيان التأكيد بأن هذا الاستطلاع لا يعنى بأى حال أنه ليست لنا مآخذ على الحـالة



المنارة : هي كل ما تبقى من جامع قديم اندثر، ولا يُعرف بالضبط اسم مشيده ، البعض يقول الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز منذ ١٢٧٠ سنة، والبعض يقول انها واحدة من أميرات ملوك بني رسول تدعى أم الملوك منذ ٦٠٠ سنة .. بينمـا يؤكد العامة من افراد الشعب بأن تحتها كنـزا ثمينا !.. وتحت ظل هذه المنارة الاثرية أقيمت ساحة كبيرة يلعب فيها الأطفال .



اول صورة تنشر لابراج الصمت ! يعيش فى عدن مجموعة من الفارسيين Parsees من أتباع زرادشت Zoroaster الذى ظهر فى ايران قبل الف عام من ميلاد المسيح . فأصبحت تعاليمه هى الدين الرسمى لايران . وعندما جاء الاسلام الى ايران عام ٦٣٦م . هرب أتباع زرادشت الى بومباى بالهند .. ومع موجات الهنود التى هاجرت من بومباى جاء عدد كبير من الفارسيين ومعهم عاداتهم وتقاليدهم الغريبة الي عدن .. انهم يعيشون فى سفح جبل شمسان ، فى منطقة مغلقة محظور على الاجانب دخولها .. ففيها معبدهم الذى يحوى « ابراج الصمت » ، وهذه الابراج ارتفاعها ١٢ مترا وموضوع على قوعتها أسياخ من الحديد توضع فوقها جثة الميت وتترك معرضة للشمس فتأتى الطيور والغربان تنهشها .. فجثة الميت لا تحرق ولا تدفن فى التراب .. وفى راس السنة الفارسية يقوم الفارسيون مبكرين من فراشهم فيغتسلون ويتطهرون وبعد صلاتهم يلبسون ملابس جديدة ويذهبون الى معبدهم للسجود للنار المقدسة الموقدة دائما بالمعبد ، تلك التى يعبدونها .

المتدهورة فى المنطقة لاننا نؤمن بان الطوفان قادم .. وان كل من سيقف فى طريقه سيبتلعه .. ان بريطانيا سترحل عن عدن كارهة أم راضية .. ومهما حاولت ان تطيل بقاءها فان النصر الاخير للشعب العربى ..

ان العالم بأسره يطالبها بهذا الجلاء :

فى الامم المتحدة .. فى مجلس العموم البريطانى .. على صفحات الجرائد والمجلات العالمية والبريطانية .. الرأى العام العالمى كله يستنكر عدم اتاحة الفرصة للشعب العربى فى الجنوب المحتل كى يعبر عن حقيقة امانيه فى الحرية .. والاستقلال .. والوحدة ..

ان الغد سيشهد تحولا جذريا فى هذا الجنوب المحتل .

ان هذا ليس بحلم .. بل ايمان نابع من مفهوم ومنطق القرن العشرين الذى نعيش فيه ، والذى يتادى ابناؤه جميعا ـ بما فيهم عقلاء الانجليز انفسهم ـ بتصفية الاستعمار وقواعده من العالم ..

وعدن قاعدة استعمارية ..

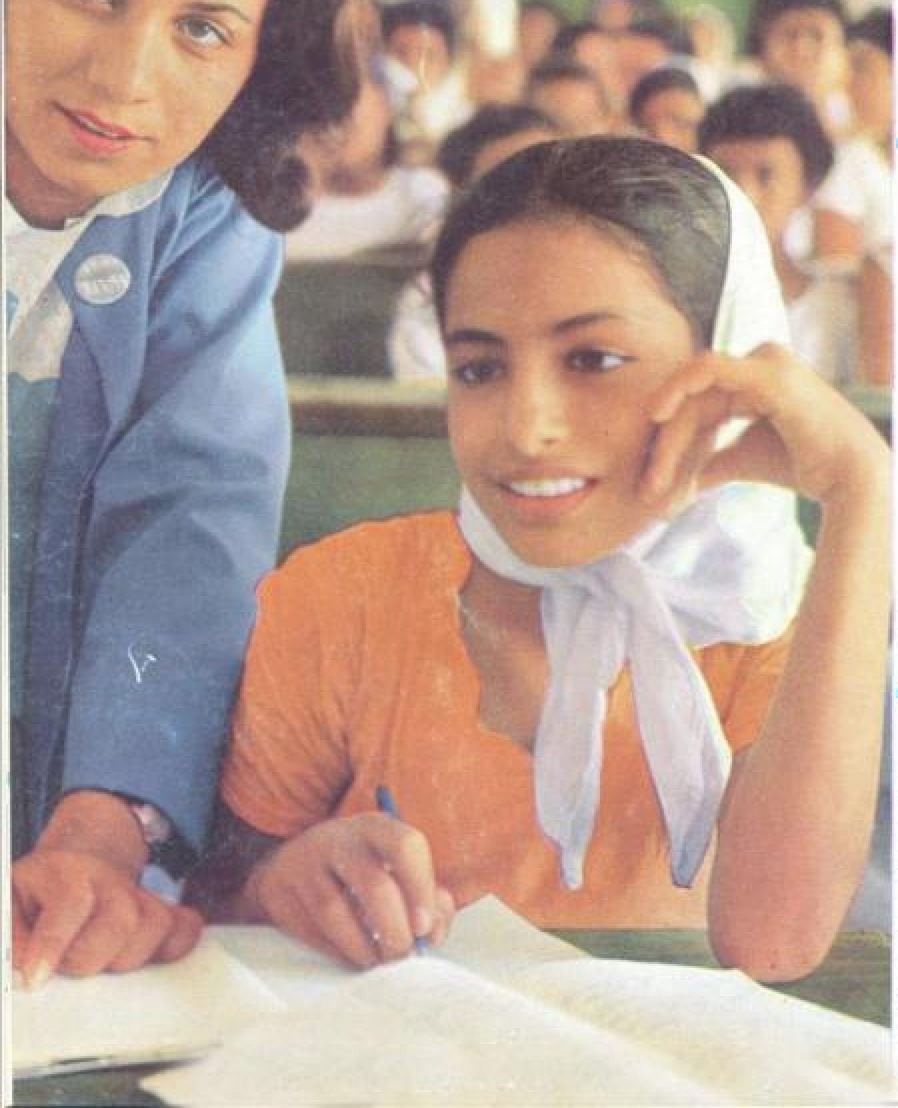
اذن لا بد من تصفيتها .. وفى أسرع وقت .

■■

سليم زبال

العربي

العدد ٧٩
صفر ١٣٨٥
يونيو
(حزيران) ١٩٦٥



اطلب

العربي الصغير

مع هذا العدد

كنز

١٢٠٠

دينار سنويا

عربيات من حضرموت
يقبلن على العلم

الثمن

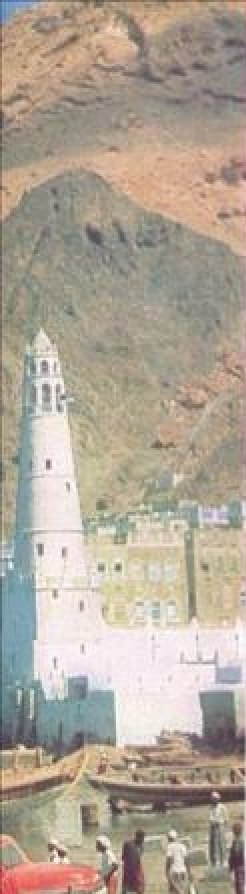
	١١٠	فلوس
الخليج العربي	٢	روبية
السعودية	٢	ريال
اليمن	٥ر٣	شلن
العراق	١٢٠	فلسا
لبنان	١٠٠	قرش
الأردن	١٠٠	فلس
سورية	١٠٠	قرش
ج.ع.م.	١٠	قروش
السودان	١٠	قروش
ليبيا	١٥	قرشا
تونس	٢٠٠	مليم
الجزائر	٢٠٠	مليم

اعرف وطنك أيها العربي

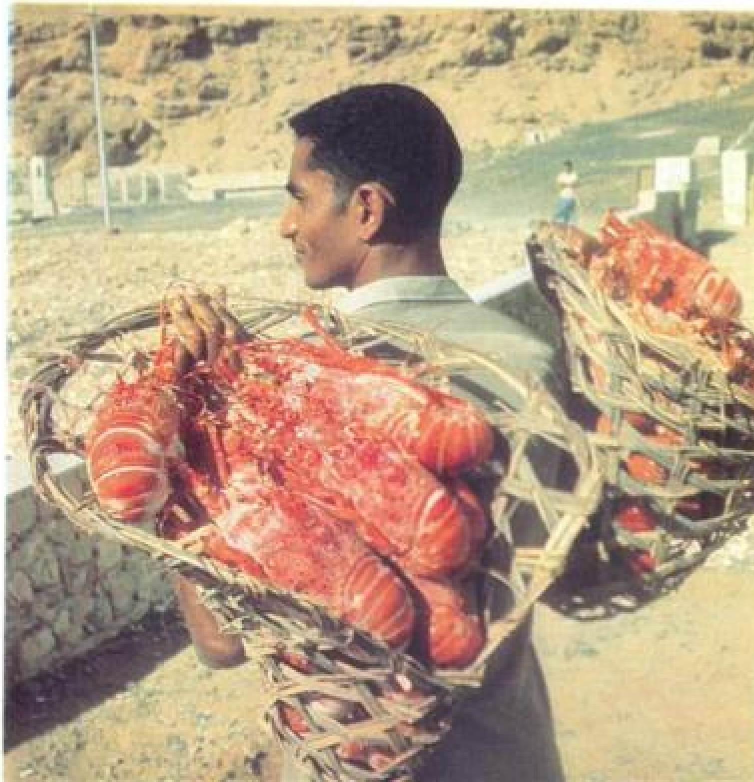
المُكَلاَّ

عاصِمة حضرموت
ومفتاح جنوب الجزيرة العَربيّة

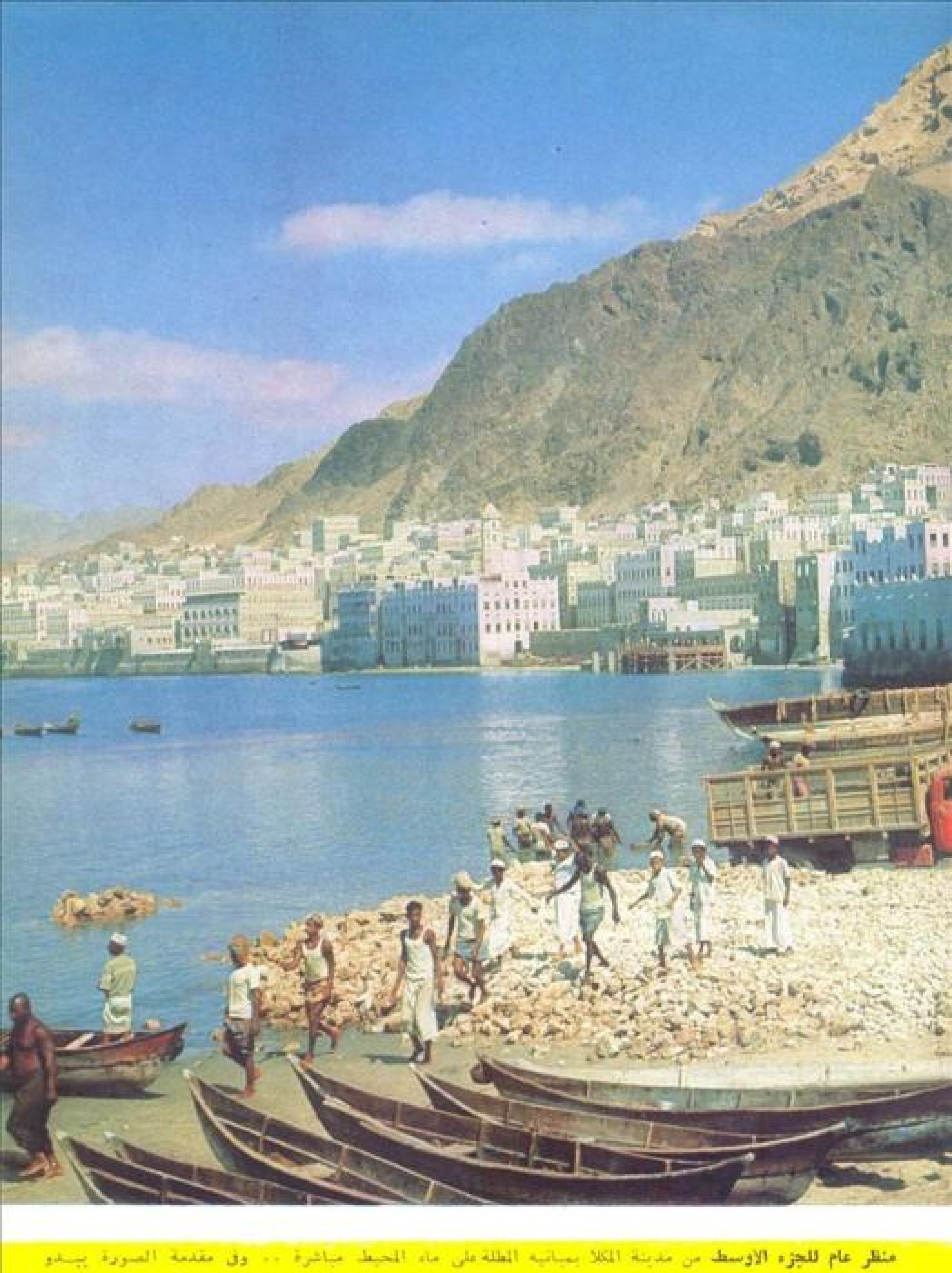
قام بهذا الاستطلاع **سليم زبال** وصوره **« أوسكار »**



■ فى هذا العدد تقدم « العربى » لقرائها استطلاعا يعتبر الاول من نوعه ، عن جزء عزيز من أجزاء الوطن العربى ، قد لا يعرف معظم العرب عنه شيئا اكثر من اسمه ، وقد يجهلون فى أى ظلمة من ظلمات الماضى السحيق يعيش ! انه استطلاع عن : المكلا ، عاصمة حضرموت .



الى اليمن : تزخر مياه المكلا باكثر من ٣٠٠ نوع من الاسماك ، والشروخ Lobster واحد منها . وهو يصاد ويباع حيا لطبخه وتثليجه قبل تصديره .



منظر عام للجزء الاوسط من مدينة المكلا بمبانيه المطلة على ماء المحيط مباشرة .. وفى مقدمة الصورة يبدو العمال وهم يقومون بردم الجزء الضحل من الماء ، لتعميق مرسى الميناء الذى يأتى فى المرتبة الثانية بعد ميناء عدن ، رغم أن السفن الكبيرة لا تقترب منه وانما ترسو على بعد نصف ميل من أرصفته ، فتقصدها السفن الصغيرة لتنقل منها حمولتها .. ان انقاذ الميناء والمكلا يحتاجان الى مد رصيف طوله ميل واحد داخل البحر ، والرسوم الهندسية لهذا المشروع مهيأة ولكن الخبراء الذين يجب أن يحكموا بصلاحيتها طالبوا بمبلغ ٢٥٠ ألف جنيه استرلينى ، وهذا المبلغ يقارب ثلث ميزانية السلطنة ؛ لهذا وضع المشروع على الرف حتى يتم تدبير المال !!

هل تعرف ما هي حضرموت ؟ وفى أى مكان من الوطن العربى تقع ؟

سيجيبك الجغرافيون بأنها الارض الواقعة فى الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد العرب «ولكنهم يختلفون فى تعيين حدودها ، حتى ليمدها بعضهم من عدن غربا حتى عمان شرقا ، ومن المحيط الهندى جنوبا حتى رمال الربع الخالى شمالا . بحيث تشمل بلاد المهرة ، وامارة الواحدى .

اما ابناء حضرموت نفسها فيقولون انها أرض الاحقاف .. أرض قبيلتى « ثمود » و « وعاد » الذين طغوا وبغوا وتكبروا وتجبروا ، وأكثروا فى الارض الفساد ، وأبوا أن يستجيبوا للدعوة الى الله . « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » على نحو ما جاء فى القرآن الكريم .

ويتابع ابن حضرموت حديثه فيقول : لكأنى بلعنة الله على عاد وثمود قد امتدت الى جيلنا رغم مضى آلاف السنين . فنحن نعيش اليوم على هضبة جبلية جرداء ، ليس لها مثيل فى الفقر



ظلت الحضارة العربية الجنوبية حية قوية حتى افلتت الطرق التجارية من يد العرب فذبلت تلك الحضارة وقضى عليها . واليوم تقبع بعض آثار دول معين وسبأ وحِميَر وقتبان داخل أكياس قماشية مقفلة فى انتظار اعداد متحف المكلا ، وتكملة التنقيب عن الآثار المطمورة تحت الارض

والقحط ، ولا تصلح للحياة فى معظم أجزائها .. حتى أن بعضنا أصبح يعتقد ــ لفرط ما عاش فى ضنك ــ أنه اذا امتد البناء وزاد العمران فان هذا سيجر حتما الخراب والدمار ! مرة ثانية !.. واسم بلادنا نفسه مشتق من حضَرَ الموت ! » .

ويبدو أن هذا الاعتقاد وذلك التشاؤم كانا من أهم الاسباب التى دفعت بالحضارمة الى الهجرة جماعات من بلادهم قاصدين الشرق الاقصى وسواحل افريقيا .. حتى أصبحت حضرموت شبه خاوية من ابنائها العاملين .. ويقدرون عدد هؤلاء المهاجرين بنحو ١٢٠ الف حضرمى تركوا البلاد على ممر السنين ..

حروب المائة عام

ولا شك انه مما أورث حضرموت هذا الفقر والقحط ، والتعاسة ، تلك الحروب التىاستمرت بين قبائل حضرموت قرنا من الزمان ، والتى انتهت باضعاف البلاد ، والقضاء على كل ازدهار . ومن جرائها تقسمت حضرموت الى قسمين ، لكل منهما سلطانه ، وقوانينه ، وانظمته ، وجنوده ، وحدوده التى لا تظهر الا وبجوارها جامعو الضرائب والجمارك !

الكثيرية ... والقعيطية

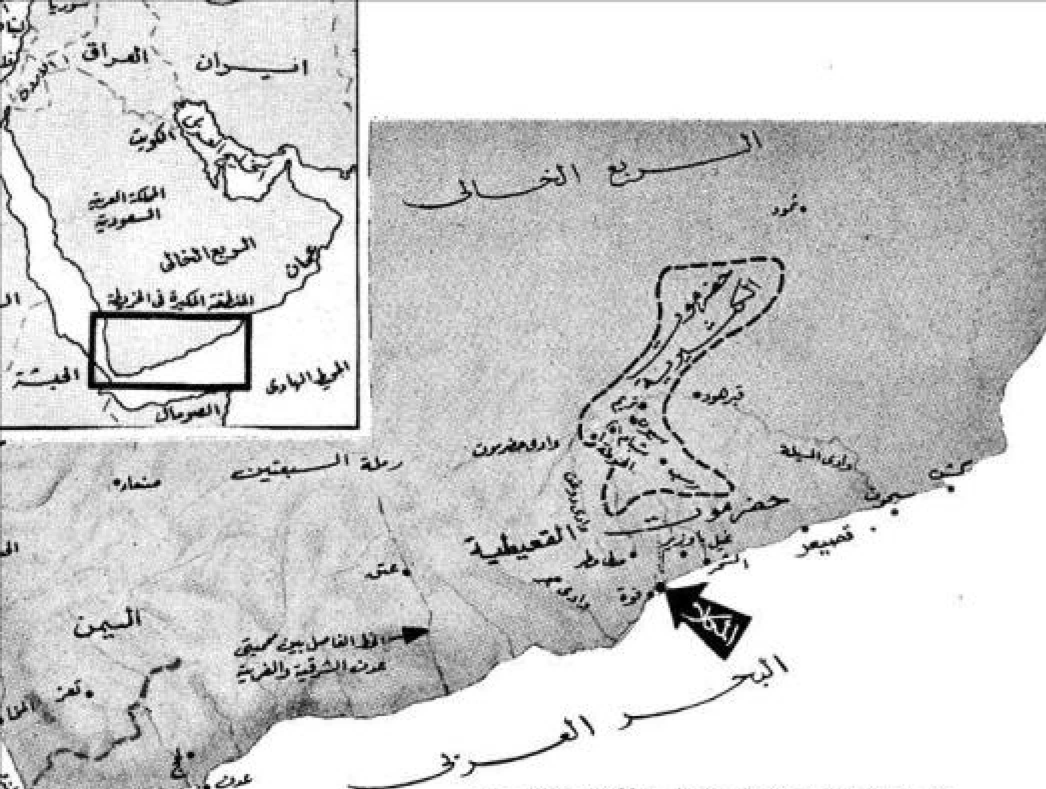
والقسمان هما : «سلطنة حضرموت الكثيرية»، نسبة الى قبائل آل كثير ، وهى الجزء الداخلى الشمالى من حضرموت ، وعاصمتها سيون وسنقدمها فى استطلاع آخر قريب ..

اما الجزء الجنوبى الممتد على طول الساحل فسلطنة حضرموت القُعَيطية ، نسبة الى الثرى الحضرمى ، عمر بن عوض القعيطى ، الذى كان هاجر الى حيدر آباد بالهند . ثم استغاثت به قبائل يافع بحضرموت فنصرها ، وأمدها بالمال والجنود حتى انتصروا فى الحروب عام ١٢٧٥هـ . (١٨٥٨م) . واعترافا بجميله جعلوه سلطانا عليهم ، وجعلوا الحكم من بعده لذريته ، ونسبوا سلطنتهم اليه . والمكلا ، التى نقدمها اليوم ، هى عاصمة حضرموت القعيطية .

المكلا

انها مدينة ذات وجهين ..

القادم اليها من البحر يبهره جمالها ، ويقف



اول خريطة لحضرموت المقسمة الى سلطنتين : كان جنوب الجزيرة العربية منطقة واحدة بلا حدود أو حواجز حتى جاء الاحتلال البريطاني منذ ١٢٦ عاما ، فاستولى على عدن وجعلها نقطة انطلاق للتوغل في المنطقة وتقسيمها ، بحيث اصبحت تضم أكثر من عشرين امارة أو سلطنة .. وكان نصيب حضرموت تقسيمها الى سلطنتين : القعيطية والكثيرية التى هى اشبه بالجيب داخل السلطنة القعيطية (انظر الخريطة) .. ان الوحدة الوطنية بين مختلف الاجزاء هى السبيل للظفر بالمكاسب العظيمة التى يصبو اليها شعب هذه المنطقة .

ماخوذا امام روعة ماذنها ومبانيها البيضاء ،التى ترتفع طوابقها الخمسة على حافة مياه بحر العرب الزرقاء ، الذى هو جزء من مياه المحيط الهندى ..

ولكن هذا القادم ما يكاد يدخل المدينة حتى يصدمه واقعها الأليم ! فشوارعها يغطيها التراب، وليس فيها شارع واحد معبد ! وأزقتها تنافس أزقة عدن ولحج ، فهى شبيهة بالزرائب لكثرة ما تحويه من دجاج وأغنام وماعز ، تأكل كل ما يصادفها حتى فضلات الورق والقماش !!

والى جانب هذا يحتل الاموات أجمل بقعة فى المدينة ، فيضيقون الحياة على الأحياء !

وتتشابه المكلا مع « الحديدة » فى اليمن فى خلوها من الحدائق والأشجار والورود والأزهار..

مدينة بدأت بضريح !

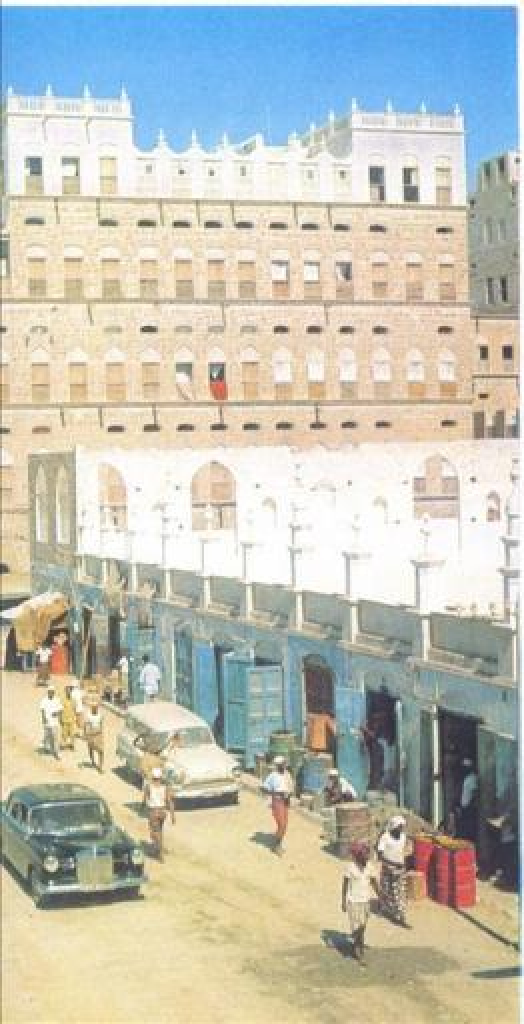
والمكلا ليست بالمدينة القديمة ، وأنت لا تجد بين الرحالة والمؤرخين القدامى من يذكرها أو يشير اليها .. فقد بدات اول ما بدات قرية للصيادين يقصدونها فى مواسم معينة فى كل عام، ثم جاءها رجل صالح يدعى الشيخ يعقوب بن يوسف عام ٥٥٣هـ. (١١٥٨م). فعاش فيها الى آن مات ودفن فى ضريحه المعروف باسمه الى اليوم . ومن مختلف البلاد بدا تقاطر الناس لزيارة هذا الضريح ، والتبرك به ، ودفن الموتى بجواره .. والى جانب القبور اقاموا الأكواخ ، ثم المبانى وظلت المبانى تتكاثر حتى كونت حيا يعرف اليوم باسم «البلاد» وهو أول حى ظهر فى المكلا.. وكثر نزوح أهل المدن المجاورة الى المكلا فجاء



(٢) ↑



(١) ↑



١ ـ علم حضرموت القعيطية بألوانه الثلاثة : الأزرق والاصفر والاحمر ، وابراجه البيضاء المسماة بالكوت ، ويوجد منها ٥ ابراج قديمة فوق قمة الجبل المحيط بالمدينة

٢ ـ القوارب الصغيرة فقط هي التي تستطيع أن ترسو بمحاذاة الشاطىء ، ان هذه القوارب هي التي تحمل البضائع من السفن الكبيرة ، فيما عدا الممنوعات وهي الأسلحة والمسكرات ، والمخدرات بما فيها القات !

٣ ـ السلطان عوض بن صالح القعيطي ، ثالث سلاطين حضرموت القعيطية ، بملابسه الرسمية .. لقد اعتلى كرسي السلطنة بعد وفاة والده في ٢٨ مايو ١٩٥٦ . وقد بدأ حكم آل القعيطي لحضرموت منذ عام ١٢٧٥هـ (١٨٥٨م)

٤ ـ ٢٥ ألف دينار : هي قيمة المبلغ الذي فشلت الحكومة والبلدية والمستشارية في تدبيره لتعبيد هذا الطريق الرئيسي في المكلا ، الذي يمتد موازيا لساحل البحر . انه قلب المدينة الذي هربت منه الجمال أمام زحف السيارات الحديثة التي ادخلها المهاجرون الحضارمة العائدون الى بلادهم ، وقد وصل عددها الى ٢٥٠٠ سيارة

٥ ـ تنقسم القوات المسلحة القعيطية الى جيش نظامي ، وشرطة مسلحة ، وجيش للبادية يبدو في الصورة بعض جنوده اثناء تدريبهم .. ومما يذكر أن بعض ضباط هذه القوات تخرجوا من كليات عمّان والقاهرة .

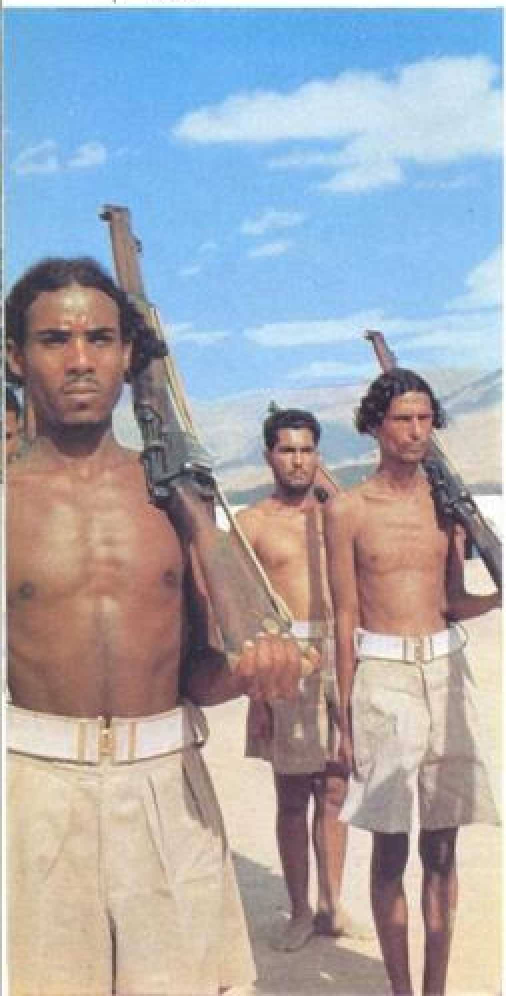




← (٣)

↓ (٤)

↓ (٥)





آل جدياني من منطقة يافع عام ٩٨٠هـ. (١٥٧٢م). طلبا للرزق فاصبحوا قضاة وحكاما للمكلا .. ثم جاء النقيب سالم الكسادى ، فاقام فيها وبنى الحصن الكبير المعروف باسمه .

وازدهرت المكلا وامتدت وغصت بالتجار ورجال الاعمال حتى نافست جارتها « الشحر »، الميناء القديم ، وقضت عليه .

واتحد « الكسادى » مع عمر القعيطي ، وقد سبق ذكره ، وخاضوا غمار الحروب جنبا الى جنب ضد آل الكثيرى . ولكن عام ١٨٧٣ م دب الخلاف بين الكسادى والقعيطى بسبب دين للقعيطى قيمته ١٠٠٠ الف ريال ، فاضطر الكسادى للتنازل عن نصف المكلا مقابل هذا الدين ..

ولكن الخلاف والمعارك ظلت محتدمة بينهما ، واشتكى القعيطى لحكومة عدن فارسلت بارجة حربية نقلت الكسادى مع اسرته ، بعد أن هددته بقصف المكلا .. ومن عدن انتقل الى زنجبار فى عام ١٨٧٧م ليعيش فيها . ومن يومها والمكلا تحت الحكم القعيطى .

معاهدة الحماية مع بريطانيا

وفى عام ١٨٨٨م عقدت معاهدة الحماية مع بريطانيا .

وبعد خمسين عاما أدرك البريطانيون أن شروط المعاهدة لم تعد تتفق وروح العصر ، فأبرموا معاهدة ثانية فى عام ١٩٣٧م عينوا بموجبها مستشارا بريطانيا هو صاحب الراى الأعلى فى جميع الامور ما عدا المسائل المتعلقة بالدين وعادات البلاد ..

بين الأمل الحلو .. والواقع المر

ونترك التاريخ القديم لنفسح المجال للحديث عن المكلا بعد ٩٠٠ سنة من بنائها ، أى عنها اليوم فى أواسط عام ١٩٦٥ .

ان المكلا تمر بأصعب وأدق فترة فى تاريخها .. انها فترة انتقال ، يتصارع فيها الماضى والحاضر وتتشابك فيها الآمال والوعى والاندفاع، بمرارة الواقع من تأخر ، وتردد ، وتكبات ترج البلاد رجا دون ان تجد ما يوقفها ..

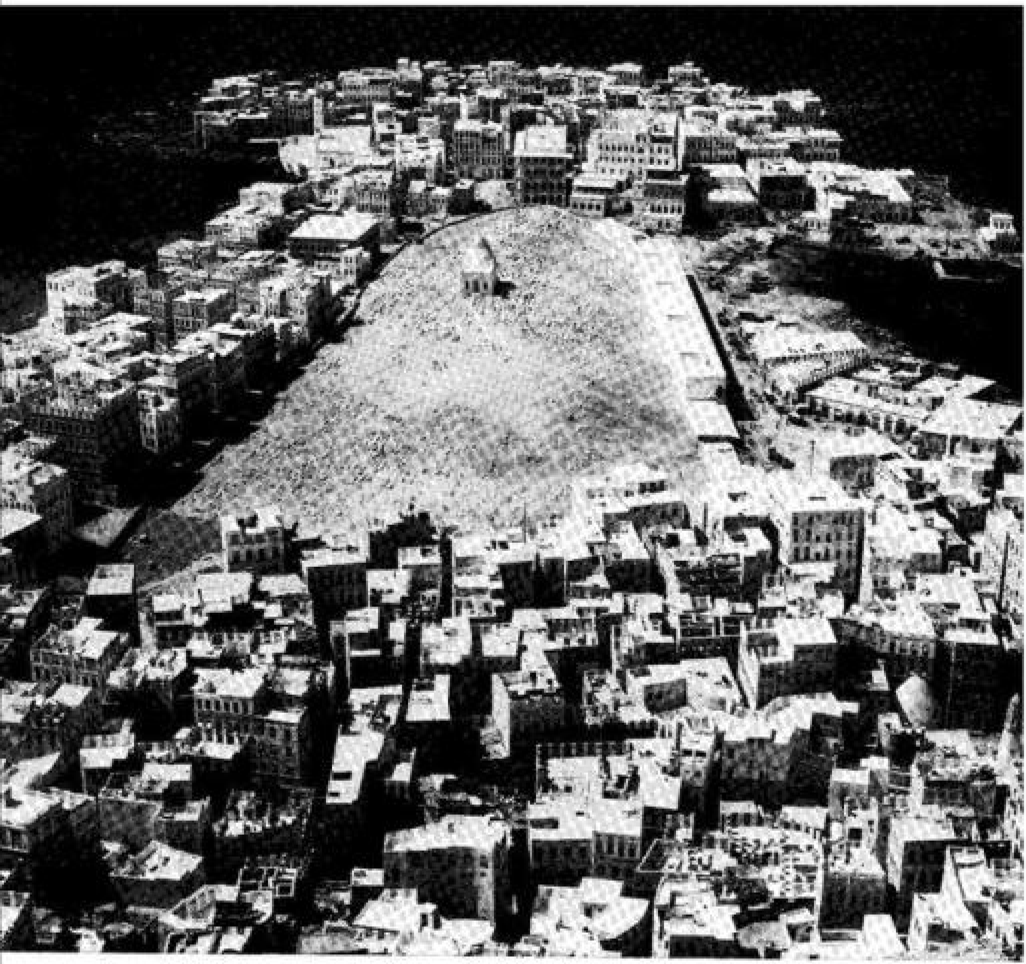
حديث النفط

ان المكلا ، ومعها حضرموت كلها ، تعيش على الأمل ... الأمل فى اكتشاف آبار للنفط فى البلاد .. فهناك ، فى منطقة ، تبعد نحو ٣٠٠ ميل شمال المكلا ، اختلطت آثار القوافل وحداء الجمال باصوات الحفارات الضخمة وهى تثقب الأرض الصخرية بحثا عن الذهب الأسود .

ان كثرة الحديث عن النفط جعلت الناس يخرجون عن اتزانهم ، فيتحدثون عن النفط وكانه انبثق فعلا ! ولكن سرعان ما تصطدم الأمانى بالواقع ، وهو عدم العثور على قطرة نفط واحدة حتى الآن . ويهمس بعضهم الى بعض : انها السياسة اللعينة تتلاعب وتفرض علينا هذا التلكؤ والتاخير فى الكشف عن السائل الثمين ، الذى اكد لنا بعض الخبراء انه موجود وانه من اجود انواع البترول فى العالم .



تجمع المكفوفون واتحدوا فى جمعية خاصة بهم تضم ٢٨ عضوا يدفع القادم منهم شلنا فى الشهر ، كرسم اشتراك .. ان واحدا منهم قد تعلم فى مدرسة المكفوفين بعدن ، وهو الذى يقوم بتدريب اخوانه بألواح وأوراق صنع بعضها بنفسه .. انهم ليسوا فى حاجة الى مدرس ، بقدر حاجتهم الى الادوات الكتابية الخاصة بالمكفوفين ..



المدينة القديمة،او « البلاد » .. انها لسان من الارض يمتد من طرف المكلا الشرقى الى داخل المحيط ، وتبدو فيه المقبرة العامة ، وضريح الشيخ يعقوب بن يوسف الذى بنيت حوله المدينة عند بدء ظهورها .. ان سكرتارية الحكومة،وادارة الجمارك،والمحاكم الشرعية،والاندية الرياضية كلها تلتف حول المقبرة!!

ان الحدود بين السلطنتين القعيطية والكثيرية لم تكن مرسومة فى يوم ما ، كانت البلاد كلها وحدة واحدة .. ولكن احتمال وجود الذهب الأسود جعل رسم الحدود امرا ضروريا.. ومن هنا نشب الخلاف بين الطرفين على بعض الأجزاء ، اذ أن فكرة التنازل عن بضعة كيلومترات فى هذه المناطق النائية التى لم يكن يسلكها أحد ، تعنى فى وقتنا الحالى التنازل عن ثروة أى ثروة !

وحلا للخلاف أصبحت المناطق المتنازع عليها مناطق محايدة ، تقسم ثرواتها : الثلثان للسلطنة القعيطية والثلث للسلطنة الكثيرية .

قصة عمرها ثلاثون عاما !

تبدأ قصة النفط فى حضرموت منذ نحو ٣٠ عاما ، عندما قامت شركة .P.C.L اي Petrolium Concession Limited للبترول باجراء عمليات مسح جوى وجيولوجى فى المناطق الشمالية للبلاد .. وبعد مضى ٢٥ عاما كاملة اختلفت الشركة مع حكومتى حضرموت اللتين سحبتا منها الامتياز، ومنحتاه فى عام ١٩٦١ لشركة « بان اميريكان » للبترول .

وجلسنا الى المسئولين فى الشركة نستوضحهم



مع شروق الشمس تبدأ الحركة تدب فى سوق البرسيم الذى يقام بجوار بوابة المكلا .. ويقبل الناس على شراء البرسيم لاطعام ماشيتهم من ماعز وضأن يربونها فى منازلهم ، لتمدهم بحاجتهم من اللبن صباح كل يوم .. وفى هذا السوق يجلب الباعة أصنافا أخرى مع البرسيم ، مثل الطماطم والباذنجان والباباى ، وهو نوع من الفاكهة يشبه المانجو . والى جانب المزروعات والفواكه المحلية يستورد المدينة البرتقال من قبرص ، وتباع الواحدة منه بأربعين فلسا ، كما يستورد التفاح الاسترالى والإيطالى وتباع الواحدة منهما بثلاثين فلسا .. أما المانجو فتباع الحبة منه بـ ٢٥ فلسا .

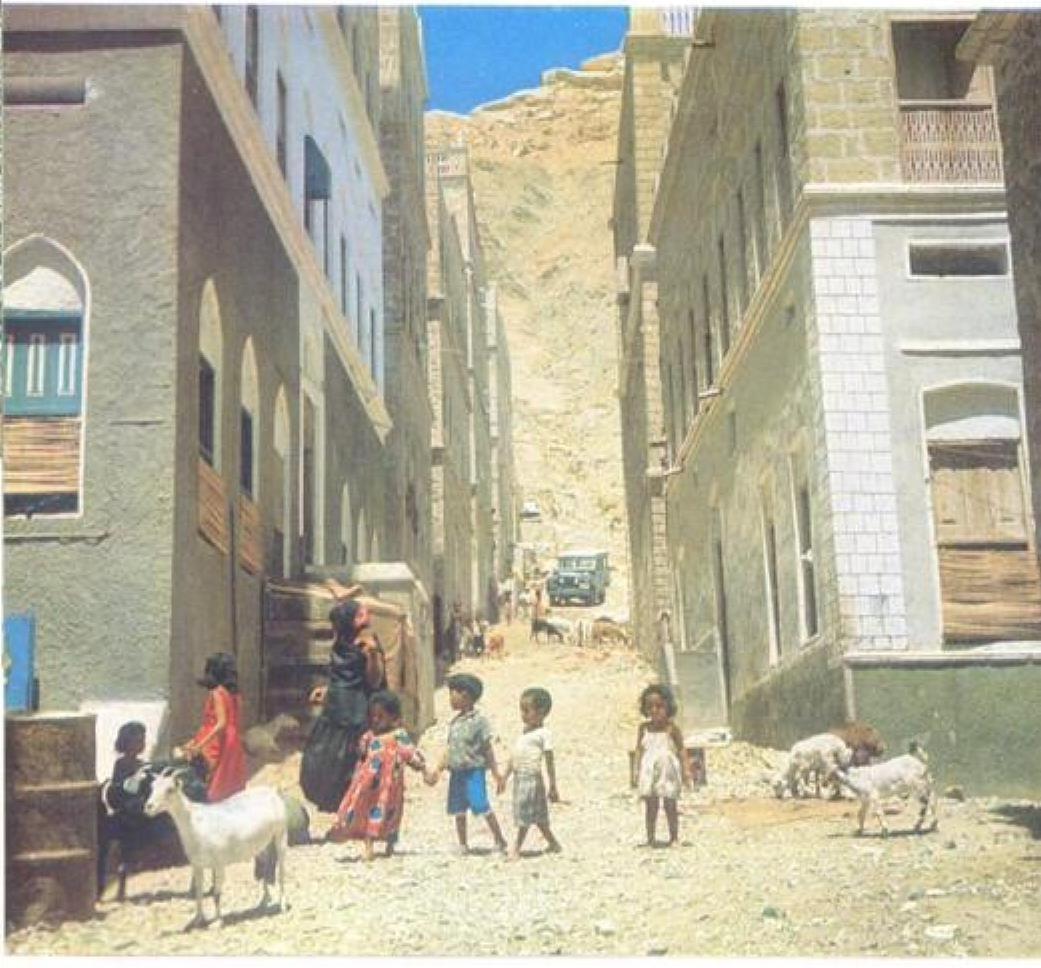


الشرج : أول ضاحية تبنى خارج المكلا .. وفى موسم السيول يتقطع الطريق المؤدى اليها ، فيضطر الناس لركوب القوارب الصغيرة للعبور فوق الماء . وهناك مشروع لبناء جسر فى هذه المنطقة يكلف ١٥ الف جنيه، ولكن نقص المال أوقف المشروع ! والى جانب منطقة الشرج ظهرت ضاحية «الديس»



الى اليسار : يعتبر الحضارمة من امهر الناس في فن البناء والصورة البسري تبين اصالة فنهم وعلمهم في هذا « الكوت » ـ الحصن صغير ـ المبنى على هذه الصخرة المجوفة القائمة عند مدخل المكلا .

الى اسفل : الصورة الخلفية للمكلا تميزات جلية ومرة ـ اطلقوا عليها خطأ اسم طرق ـ لا يستطيع تسلقها سوى الماعز وسيارة اللاندروفر ! ومن الطريف أن البلدية حاولت منع الماعز من التسكع في الطريق الرئيسي ، ولكن الاهالي ثاروا في وجه هذا القرار ، وأيدتهم الصحف المحلية فتغلبوا على البلدية وعادت الماعز تختال في الشارع الرئيسي ، رغم انف رجال البلدية !!!



مَحْضَرة : أو المجلس الذى يجتمع
مع بعض الحلوى والمكسرات .. أما الـ
سوق سوداء تباع فيها زجاجة الكحـ





فرح فى الهواء الطلق : يجلس العريس فوق منصة عالية تقام خصيصا فى الميدان الكبير ، والى جانبه فرقة الموسيقى .. وأمامه صينية فضية بجوارها الاهل والاصدقاء فيضع كل منهم ما يتبرع به للعريس ، ويقول له : « سَلَف" يا مِعَرِس » اى بمثابة دين لمساعدته فى دفع تكاليف الزواج ، وعليه أن يرده عند فرح المعطى

اسباب تأخر ظهور النفط حتى الآن ، فقالوا :

« ان البحث عن النفط عملية معقدة متعبة ، وخاصة فى بلاد مثل حضرموت ، حيث لا يوجد ميناء كبير ، أو حتى طريق معبد واحد يؤدى الى مناطق الحفر الجبلية التى تبعد أكثر من ٣٠٠ ميل عن المكلا ..

« ان نقل أدوات تزن الواحدة منها ١٠٠ طن ليس بالعملية السهلة فى ظروف كهذه ، وقد جربنا ذلك فى البداية ، فنقلنا آلة حفر تزن مائة طن من المكلا الى الداخل ، فكانت النتيجة كارثة! وصلت الآلة الى مكان الحفر وهي مفككة مكسرة لشدة وعورة الطريق ..

« لهذا عمدنا الى نقل معداتنا عن طريق ساحل عمان فى الشمال ، ثم نزلنا بها جنوبا لتسير بمحاذاة رمال الربع الخالى الرهيب ، حتى توصلها فى النهاية الى أماكن الحفر المتباعدة بين الجبال .

« انها عملية طويلة ومرهقة للغاية ، نقوم بها لاننا شركة تجارية تتلهف للعثور على النفط تلهف ابناء البلد انفسهم ، ولكن متاعب الطرق والموانىء والنقل هى السبب .. ولا تنسوا اننا ما زلنا فى البئر الاستكشافية الثانية فقط .. وان ثلاث سنوات ليست بالفترة الطويلة فى عمليات البحث عن النفط .. ولكن حاجة الناس جعلت الثلاث السنوات تبدو وكأنها ثلاثون سنة » .

موارد الميزانية ... ومصارفها

والى ان تظهر الثروة النفطية تعمد الحكومة الى الضرائب تفرضها على جميع الواردات بنسبة ١٠٠ ٪ على المواد الكحولية ، و ٢٠٪ على الكماليات و ١٥٪ على الضروريات ، حتى تغطى مصاريفها، وتسند ارقام ميزانيتها المتواضعة التى لا تزيد على ٨٥٠ الف جنيه استرلينى ، ولكنهم تفخيما للرقم يحولونه الى شلنات فيقولون : الميزانية ١٧ مليون شلن !

والشلن المذكور هنا هو شلن شرق أفريقيا الذى ظل العملة الرسميةفى المكلا وحضرموت حتى مطلع شهر أبريل (نيسان) ١٩٦٥ ، ثم استبدل بالدينار والفلس ، وهما عملة الجنوب العربى

لى لشرب أقداح الشاى من «السماور»
ات قمحرمان» ولكن هذا لا يمنع قيام
ية بدينار والخارجية بخمسة





محطة الجمال : ما زالت الجمال تنقل البضائع الى حضرموت الداخل ، رغم انتشار سيارات اللاندروفر .. وتراها هنا فى محطتها بـ « الشرق » خارج باب المكلا ، فى انتظار عودة أصحابها الذين دخلوا المدينة لجلب الأرز والسمن والسكر والبن لنقلها الى مدن الداخل التى تبعد بعضها ٣٠٠ ميل وأكثر !!

الجديدة المدعمة بالاسترلينى ، والقابلة للتحويل اليه ..

واعتمادا على هذه الميزانية العرجاء يتحتم على الحكومة أن تواجه مطالب الشعب : فتشق الطرق وتقدم الخدمات الطبية ، والتعليمية ، والاجتماعية ... الخ .

فقد عرف الوعى طريقه الى حضرموت، وتفتحت الأذهان الى المطالبة بحياة أفضل تليق بانسان القرن العشرين .. ولكن جمود ارقام الميزانية جَمّد معه جميع مشروعات التنظيم والاصلاح وجعل وعودها كلها وعودا عرقوبية ..

أول وزارة من أبناء البلد

والمسئول عن صرف هذه الميزانية هى حكومة السلطنة القعيطية التى يراسها – لأول مرة – وزير من أبناء حضرموت هو احمد محمد العطاس الذى تقلد منصبه منذ عشرة اشهر فقط مع مجموعة من الوزراء من أبناء بلده ، بعد ان كانت المناصب الوزارية فى السابق مسندة الى نفر من غير أبناء البلاد . فمثلا كان الوزير الأول هنديا ، يدعى جهان خان ، وكان وزير الداخلية زنجباريا .. ووزير المالية باكستانيا ، ومدير المعارف سودانيا ..

ان مسئولية الحكم تقع اليوم على الوزير الأول ، لأن السلطان اصبح فى وضع يمكن أن يقال عنه انه يملكُ ولا يَحكم ، فمجلس الدولة باعضائه الـ ١٧ المعينين ، ومجلس السلطان باعضائه الخمسة المختارين من أعضاء مجلس الدولة ، هم المسئولون عن التشريع والقوانين وتسيير الأمور فى انحاء السلطنة ...

وخلف كل هؤلاء يقوم المستشار البريطانى الموجود طبقا لاتفاقية عام ١٩٣٧ وان كانوا يقولون ان « الوعد الأكيد » بمنح الاستقلال لحضرموت قبل عام ١٩٦٨ يجعل مهمته شبه منتهية .. هذا اذا صدقت الوعود ، وحسنت النيات !

حديث صريح !

وفى جلسة مع الوزير الأول احمد محمد

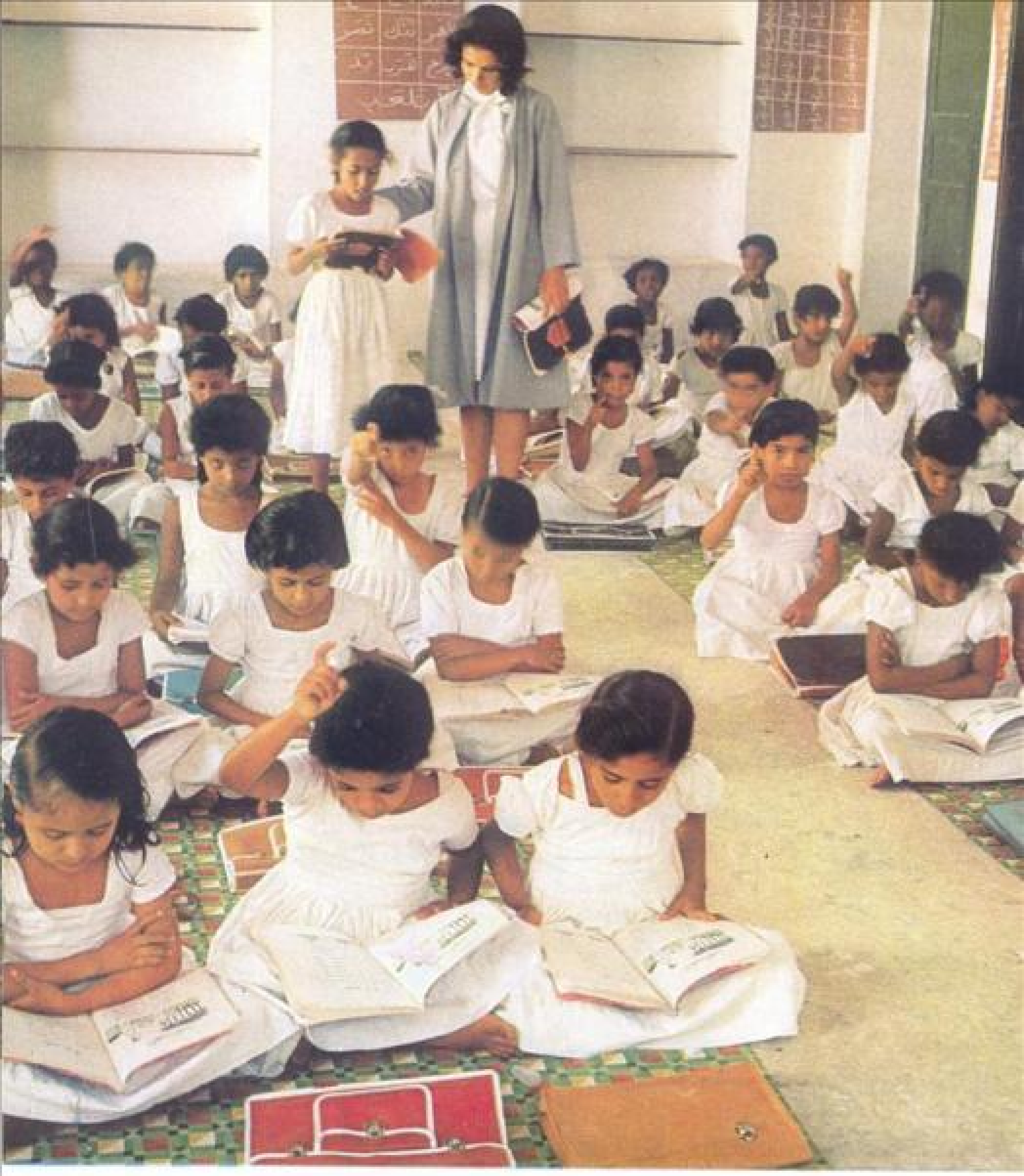




ساعدوهم لنقلهم من الجهل والظلام الى العلم والنور

المدن في حضرموت جيوب صغيرة متفرقة وسط البادية الواسعة .. وكان أبناء هذه البادية يعيشون متفردين متعزلين ، حتى فتحت أول مدرسة لتعليم ابنائهم في المكلا، وترى هنا السيد فرج احمد عبد الغفار ناظر هذه المدرسة يستلم في الصورة الاولى اثنين من أبناء البادية من والدهما الذي جاء بهما على ظهر الجمل من مسافة تبعد ٢٠٠ ميل عن المدرسة .. وما يكاد الطفل يدخل بوابة المدرسة حتى يقص شعره .. ويخلع ثيابه .. ويأخذ حماما .. ويلبس ثيابا جديدة نظيفة .. ونظام المدرسة داخلي مجاني ، أي أن التلميذ يأكل ويشرب ويتعلم وينام مجانا ، مما يكلف السلطنة ٥٠ جنيها استرلينيا سنويا لكل تلميذ ، ويظل التلميذ في المدرسة ٤ سنوات يحصل بعدها على شهادة الابتدائية .. ونسبة النجاح في هذه المدرسة ١٠٠٪ وعدد تلاميذها ٢٤٠ تلميذا ، وهناك ٢٦٠ غيرهم يقفون على الابواب يريدون التعلم ولكن نقص الامكانيات يحول دون تعليمهم .. ويعاني أغلب تلامذة هذه المدرسة من الانيميا أي فقر الدم، كما أن النقص في العلاج والعناية الطبية يسببان الكثير من المتاعب للمسئولين .





اهمل تعليم الفتاة في حضرموت اهمالا تاما ، ولم يأخذ شكله الحديث المنظم الا منذ ٦ سنوات فقط .. ومع ذلك ما زال يعاني نقصا هائلا وخاصة من ناحية المدرسات المؤهلات .. وفي العام الماضي فقط اتفقت نظارة المعارف مع مدرستين مؤهلتين من الاردن للعمل في مدارس المكلا ، تبدو احداهن فوق هذا الكلام ، وهي الآنسة صفاء علاء الدين ، وسط التلميذات اللواتي جلسن على الارض ، لعدم وجود اعتمادات لشراء مكاتب لهن .. ان هذا الفصل يقع في اجمل المباني ، اما بقية المدارس الابتدائية فمبانيها في حالة يرثى لها ، وخاصة مدرسة البنات الشرقية فهي ظلام في ظلام لا يدخلها النور ، ومجاريها المكشوفة تنفث رائحتها الكريهة ، فتكمل جو الظلام !! اما الصورة التي الى اليمين فهي لاحدى المدرسات من بنات حضرموت المتفانيات لتعليم شقيقاتهن واخراجهن من مجاهل الظلمات .. انها اول مرة تلتقط فيها صورة للفتاة الحضرمية المتطلعة نحو غد افضل .

العطاس سألناه ان يحدثنا عن الآمال والآلام وواقع حال البلاد فقال بصراحة عجيبة :

« ستشهدون خلال تجوالكم فى المكلا نهضة عمرانية ، وحركة تجارية يقوم بهما أفراد من الأثرياء والعائدين ... ولكن لا تغرنكم المظاهر ، فالمكلا ما هى الا صورة مضللة لواقع حضرموت الممتدة على الساحل والى الداخل حيث ينقصنا كل شيء ! فالخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية شبه معدومة .. ودخل الفرد ينخفض الى أدنى حد فى العالم !

« والى جانب هذا تحيط بنا الكوارث والنكبات من كل صوب .. فنكبة الحضارمة فى المهاجر وعودتهم الى بلادهم ، قلبت جميع الموازين فى البلاد ...

« فالسفن تحمل الينا الألوف من المهاجرين الحضارمة العائدين بعد أن صودرت ممتلكاتهم وأموالهم وأراضيهم ، فى كل من اندونيسيا ، وجوا ، وكينيا ، وتنجانيقا ، وزنجبار .. حتى الصومال بدأت فيها حركة لسحب التراخيص من تجار التجزئة واغلبهم من الحضارمة ..

« ولكننا نحمد الله على ان الحضرمى لا يستكين فبعد ان يجلس قليلا فى بلده ، تجده يعمد ثانية الى الهجرة والترحال .. حتى اصبحت اهم صادراتنا هى الجنس البشرى .. نصدره على السفن والطائرات من موانىء المكلا ، بمعدل سنوى يبلغ عشرة الاف حضرمى ، كانت وجهتهم فى الماضى نحو الشرق الأقصى وسواحل افريقيا .. اما اليوم فانهم يتجهون الى بلاد اخوانهم العرب فى السعودية والخليج العربى وغيرهما ..

حتى المحصول الرئيسي اغلقت فى وجهه الأسواق

ويتابع الوزير الأول حديثه فيقول :

« اما نكبتنا الثانية فتتمثل فى التمباك محصولنا الزراعى الرئيسى ، الذى كان تصديره كله متجها الى الجمهورية العربية المتحدة واليمن ... ومنذ ثلاث سنوات بدأت الكمية المصدرة منه تنخفض حتى هبطت الى الحضيض بسبب قيود الاستيراد الجديدة فى البلدين الشقيقين ، وكانت هذه ضربة قاسية للمزارع الذى كسدت تجارته ، وبارت بضاعته بسبب اغلاق الأسواق فى وجهه .

ويستطرد الوزير الأول فى حديثه فيقول :

« ثم ان زيادة الوعى ، دون اى زيادة فى الدخل ، تضعنا امام اصعب المشاكل ، فمتطلبات الحياة العصرية المرجوة ، وتوفير مختلف الخدمات للشعب ، كل هذا يحتاج الى اموال طائلة لا نملكها .. فمثلا عندنا طرقات طولها أكثر من ألف ميل ما تكاد الأمطار والسيول تهطل حتى تذهب بنصفها! لأنها طرق تحتاج الى تعبيد ورصف ..

صناعة النورا أو الجير : تبدأ بقطع الأحجار من من الجبل ووضعها داخل الأفران لمدة ١٠ أيام قبل استعمالها .. ومن الغريب أن النورا لا تستعمل فى طلاء المساكن فقط انما تؤكل مع التنبول ، وهى ورقة شجر خضراء كبيرة جاءت من الهند ، يضعون عليها أصنافا غريبة مُرّة ومالحة مثل : الفلفل والنورا والكات والهيل ثم يأكلونها ، مما يصيب الاسنان واللثة بالتهابات





مئذنة جامع الروضة الدائرية البيضاء المرتفعة عند شاطىء البحر وكأنها ترحب بالقادمين الحاملين لأشيرة الدخول ! اما بقية مآذن المساجد فارتفاع مباني المكلا يحجب اغلبها

« ان أهم ما ينقصنا هو الدراسات اللازمة للاستفادة من ثرواتنا ، وهذا ما نحاوله حاليا ، فقد بدأنا بمشروع لحصر كمية سمك السردين الموجود في مياهنا بكثرة ... وهناك مشروع للزراعة في شيبام تقوم به شركة أهلية .. » .

وينتقل الحديث الى البترول فيقول الوزير :

« يهمني أن أقول لك ان ما يشيعه البعض من اننا نرفض الوحدة والاتحاد مع بعض جاراتنا بسبب احتمال ظهور البترول في بلادنا ، ما هو الا محض كذب واختلاق .. فنحن طلاب وحدة،وحدة يؤخذ فيها رأينا ، ولا تفرض علينا ، أما هذه النظرة الانانية الضيقة نحو البترول فلم تكن أبدا من صفات أبناء حضرموت الكرماء ، ان الخير ـ اذا اتانا ـ فسوف يفيض ليشمل كل اخواننا وجيراننا ... » .

أندية الشباب

وخرجنا من عند الوزير الأول وشمس الأصيل تتوارى خلف صخور الجبال العالية التي تحيط بالمكلا .. ان الحركة في المكلا تهدأ بعد الغروب .. فالمدينة ذات الثلاثين الف نسمة تنام مبكرة ، فيتجه التاجر الى منزله ، ويتجه الشباب الى انديتهم الرياضية الثمانية ليلعبوا « الكوتشينة » ، وتنس الطاولة ، والكيرم (البلياردو الياباني) ، ويتمرنوا في النوادي على رفع الأثقال ، ولكن في داخل الغرف الضيقة ، ان المبنى صغير ... والزحام شديد ، والامكانيات غير متوفرة .. أما الاشتراك في النادي فشلن واحد شهريا ، يدفعه العضو القادر !!

وفي هذه الأندية شهدنا شبابا متوثبا .. عنده استعداد هائل لتطوير نفسه ، ومجتمعه وعاداته ، وتفكيره .. انما تنقصه المادة ، والمجال ، والقيادة الموجهة لطاقاته ..

السنما في المكلا

وجاءوا الينا بأحد الشباب فبدأ يسمعنا تقليدا لحوار من فلم سنمائي ، وظننا انه سيتوقف بعد القاء قطعة من الحوار ، ولكنه استمر في تقليد أصوات الرجال والنساء والأطفال .. وحتى الأغاني اسمعنا اياها !! وذهلنا من هذه الذاكرة القوية التي استوعبت حوار فلم بأكمله مع



ما زالت صناعة السفن العربية تقوم على نفس الادوات القديمة : القوس ، والمخرطة والبلطة والمسامير الحديدية .. ويأتيها الخشب من الهند .. ويستغرق عمل السفينة المتوسطة ثلاثة أشهر ، وتبلغ تكاليفها ٢٥٠ دينارا ، وتستعمل لصيد الاسماك ، ويتم صنعها في منطقة « خلف » .

الى اسفل : صياغة الفضة مهنة رائجة ، ويحصل الصائغ على هذا المعدن من اذابته لريال الملكة تريزا والروبية الهندية ، فيحولهما ببراعة الى مصوغات

الى اسفل : عملية تصنيع الجلود ، بتحويلها الى احذية ونعال واحزمة يوضع فيها الرصاص، وكمر يحفظ فيه المال...







أنعم الله على حضرموت بثروة سمكية هائلة ، ولكن هل تصدق أن هذا السردين ـ الظاهر في الصورة ـ والذى يصاد قرب الشاطىء بكميات هائلة ، يترك على الرمال معرضا للشمس حتى يجف ، وبعدها يستعمل كسماد لشجرة النخيل ، أو غذاء للجمال والأغنام !!

الى اليسار : الثروات الدفينة تحت جبال حضرموت كثيرة ومتنوعة تبدأ باليورانيوم وتنتهي بالبترول . وتجرى عملية التنقيب عن البترول في منطقة ثمود بالشمال وكانت نتيجة حفر البئر الأولى مخيبة للآمال . والى اليسار جهاز الحفر يعمل في حفر البئر الثانية .. ان الآمال كلها معقودة على هذه البئر .





المكلا مدينة صغيرة مزدحمة بالسكان لم يستطع أحد أن يحصى عددهم بالضبط وفى عام ١٩٦١ حاولوا القيام بعملية احصاء فيها ، ولكن اشاعة سرت بأن وراء الاحصاء ستأتي « ضريبة رأس » على كل مواطن، ففشل الاحصاء .. واكتفى المسئولون بعملية تقدير وصلت بالعدد الى ٢٥ الف نسمة فى ذلك الوقت

اغانيه .. وفى نفس الوقت اندهش المجتمعون من دهشتنا وقالوا : هذا شيء عادي هنا .. فالشباب شغوف بالسنما شغفا زائدا !

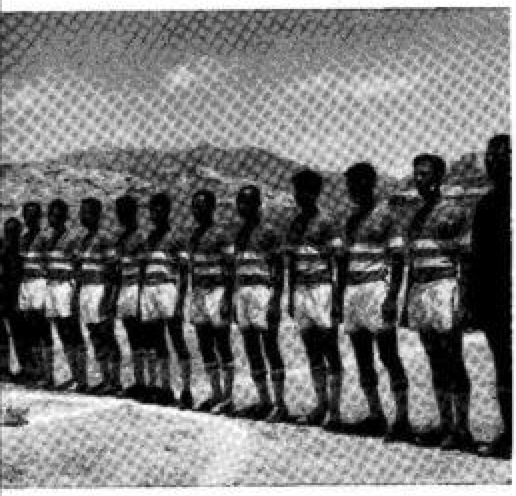
قلنا : لا بد ان عندكم الكثير من دور السنما؟..

فنظر بعضهم الى بعض وأجابوا : عندنا ساحة قصر السلطان يجلس فيها المتفرجون على الأرض لمشاهدة العرض السنمائي ! أما دور السنما فلا وجود لها فى المكلا .. والسماح بعرض الأفلام يحتاج الى أيام وأيام .. ولا تعطى تراخيص عرض الأفلام الا للحفلات الخيرية لصالح الأندية والجمعيات .. وهذه تقوم ببيع التراخيص لأحد صاحبى جهازى العرض الموجودين فى المكلا .. فيقوم بعرضه فى ساحة القصر .. ولا يستمر العرض حسب الاقبال ، انما تحدد المدة من قِبَل هيئة المراقبة التى تراقب الفلم ، وتقطع منه ما تشاء حسب مزاج أعضائها الكثيرين المكونين من ممثلين عن القضاء ورجال الدين والمعارف والشرطة والسكرتارية .

وأمام مجلس الدولة القعيطي عشرات الطلبات لفتح دور للسنما ، ولكنها كلها مؤجلة بحجة ان الناس فقراء ... وعندهم ان مشاهدة السنما تتطلب مالا .. والحصول على هذا المال يدفع بالشباب الى السرقة .. والسرقة تؤدى لارتكاب الجرائم .. وارتكاب الجرائم يضعضع المجتمع وينسفه !!

وهكذا يكون ليل المكلا موحشا كئيبا مملا فى الأيام العادية .. ولكن الحال ينقلب أيام رمضان حيث يتحول الليل الى نهار وتبدأ الحياة من بعد العاشرة مساء ، ويصبح النوم حراما !!

كرة القدم هى اللعبة الرياضية المفضلة ، وفى المكلا ، ٨ فرق رياضية تتبارى مع بعضها ومع الفرق القادمة من الشحر ، وعدن .





هذا هو الجيل الجديد من أبناء المكلا .. انهم الشباب الذين تعتمد عليهم البلاد لانقاذها مما هو مسيطر على عقلية الجيل القديم من خزعبلات ، اصبحت كأنها قواعد وقوانين ، لا يستطيع احد أن يحيد عنها .. فمثلا ارتداء الملابس الكشفية ، بدلا من الفوطة ، قوبل ارتداؤها بموجة اعتراض كبيرة !!

مجتمع توقف .. يتهيأ للوثوب

ومجتمع المكلا مجتمــــع غريب .. فهو ليس بالمجتمع المتأخر .. وهو ـ قطعا ـ ليس بالمجتمع المتقــدم ... وفي نفس الوقت ليس بالمجتمع الوسط .. انه مجتمع متوقف عن الحياة لفترة من الزمن !! متوقف استعدادا لقفزة يخرج بها من الجمود والسلبية ، الى الايجابية والتفاؤل في سبيل مجتمع افضل ..

ان الضحكات الخافتة النادرة في هذا المجتمع المقفل تخفي وراءها صراعا فكريا صامتــا بين الشيوخ والشباب الذين يعيش كل منهم في واد : الشيوخ يعتقدون بأن الشباب متطرفون مندفعون .. والشباب المثقف الذي تعلم في بعثات في الخارج حائر .. يريــد تطبيق ما شهده وتعلمه ولكنه لا يستطيع ، فأمامه عراقيل وعقبات متمثلة في التقاليد والعادات .

وتشترك الصحيفتان المحليتان في وصف ونقد هذا المجتمع فتقول جريدة « الرأى العــام » :
« في مجتمعنا تحس بمرارة الحياة وسوء الحالة وضنك العيش ، فلا تحرر ولا انطلاق ، ولا تقدم ولا التقاء ، وانمــا قيود مفروضة على كواهلنا ، وعوامل شتى تذكي رواسب الماضي وتزيد تفاقم أخطارها ، وموانع مصطنعة تحول دون التقائنا حول بعضنا » .

وتكتب جريدة « الطليعة » عن الفراغ العجيب في هــذا المجتمع حيث يهاجر الرجال ويتركون النساء وحيدات في المنازل . وتمضي الجريــدة تحكي خبرا : « .. وردت منه رسالة تقول بأنه سيعود . وغمرت الفرحة القلوب الثلاثة المتشوقة .. المتلهفة .. المترقبة لعودته : أمه العجوز ..



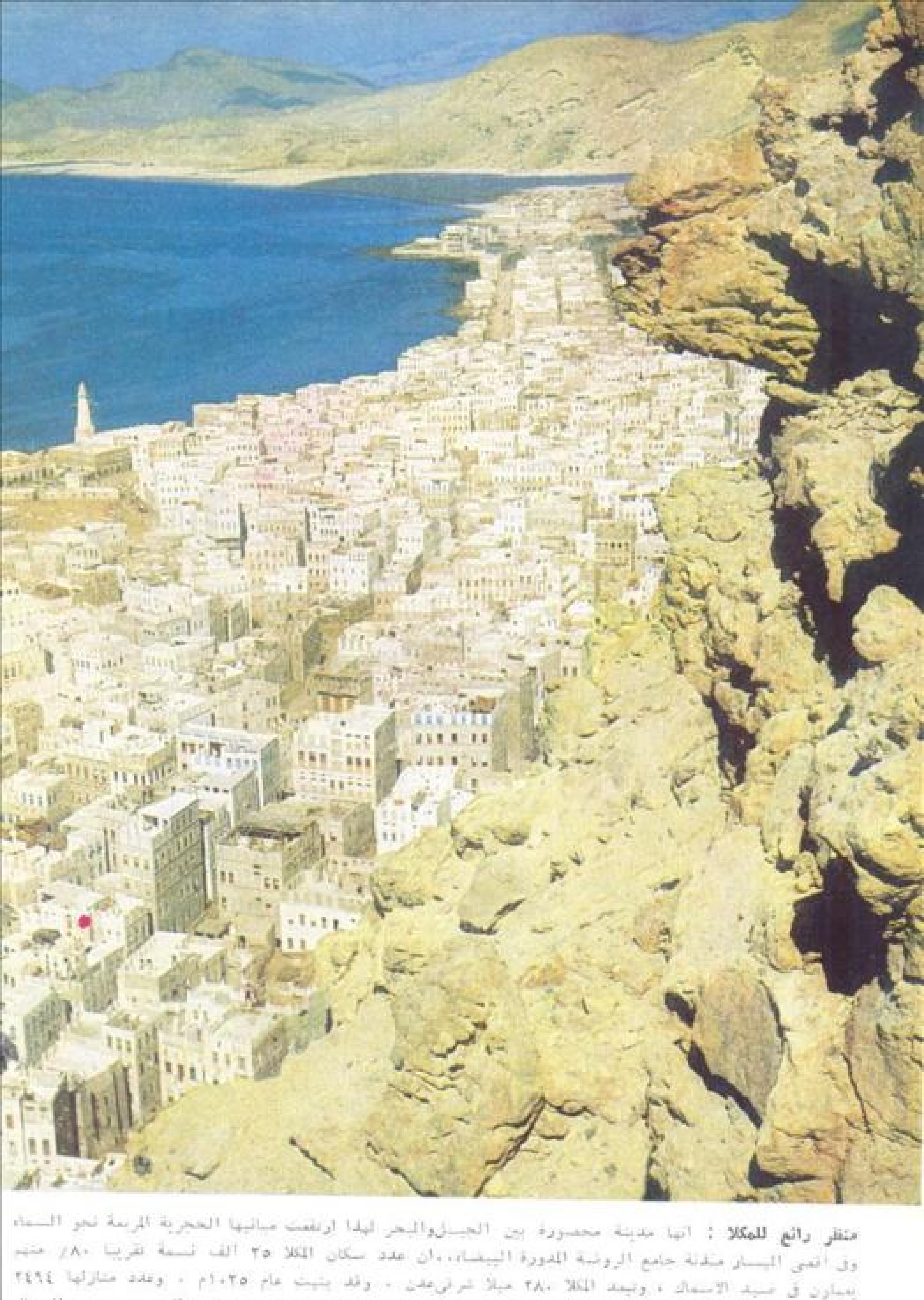
« جارة المكلا » او جبل المكلا .. ان امتداد العاصمة في المستقبل ، سوف يتجه الى قمة هذا الجبل المسطحة ، حيث الهواء عليل ولطيف ورائع



منذ القدم وأهل حضرموت يهاجرون من بلادهم .. الى أن بدأت النكبات تحل عليهم في مهاجرهم : فصودرت أموالهم في اندونيسيا ، وقطعت رقاب الكثير منهم في زنجبار ، فبدأوا يعودون الى بلادهم .. وترى في وسط الصورة العليا سالمين بن رماع وهو واحد من الذين هاجروا منذ ٣٤ عاما الى اندونيسيا، وعندما بدأت المتاعب هناك حمل متاعه ومتاع أسرته، وركب السفينة مع ٤٠٠ حضرمي آخر وعادوا الى المكلا



ما زالت العادات العربية سائدة في مختلف نواحي الحياة .. حتى التوقيت الزمني يتبع الساعة العربية فالساعة ١٢ هي دائما موعد غروب الشمس في المكلا .. ولكن احتكاك الاهالي في المهاجر وعودتهم منها ادخل التوقيت الافرنجي والكثير من الالفاظ والعادات الغربية .. حتى الطعام أصبح يطهى على الطريقة الهندية ، وتستعمل فيه التوابل الحارة مع المرق المسمى « صالنة » والشطة المسماة «بسباس» .. ورغم فقر البلاد الا ان الكرم العربي منتشر، فالموائد تمد بطول الغرفة ، ويدعى اليها القاصي والداني



منظر رائع للمكلا : انها مدينة محصورة بين الجبل والبحر لهذا ارتفعت مبانيها الحجرية المربعة نحو السماء وفي أقصى اليسار مئذنة جامع الروضة المدورة البيضاء..ان عدد سكان المكلا ٣٥ الف نسمة تقريبا ٨٠٪ منهم يعملون في صيد الاسماك ، وتبعد المكلا ٢٨٠ ميلا شرقي عدن . وقد بنيت عام ١٠٣٥م . وعدد منازلها ٢٤٩٤ منزلا.وميزانية السلطنة ٨٥٠ الف دينار،وهي تستورد ماقيمته ٢٠٠ الف دينار سنويا ، ولا تصدر سوى التمباك والسمك الجاف وعسل النحل ومجموع قيمة الصادرات يعادل ٥٪ من قيمة الواردات .



الطليعة والرأى العام : الصحيفتان الأسبوعيتان فى المكلا ، الأولى صدرت عام ١٩٥٩ والثانية عام ١٩٦٢ . وتفتقر المكلا الى معمل للزنكوغراف ،لهذا يرسلون الصور الى عدن لعمل كليشيهات ،فتصل بعد خمسة أيام .. وترى هنا الاستاذ أحمد عوض باوزير رئيس تحرير « الطليعة » يشرف مع زملائه على طبع الجريدة فى مطبعتهم الخاصة . وهى تطبع ٢٠٠٠ نسخة يوزع أغلبها على المهاجرين فى الخارج . انها صحافة حية تعتمد على النقد .

الى أسفل : تقع مزرعة الدواجن الوحيدة فى فوة قرب المكلا .. وفيها اجريت التجارب على ستة انواع من الدجاج لاختيار السلالة المناسبة لمناخ البلاد ، فنجح نوع « تور تبر » فقط .. وتنتج المزرعة حاليا ٦ آلاف بيضة فى الشهر الواحد ، بينما تستهلك حضرموت كلها نحو ١٢ مليون بيضة فى السنة تستوردها من الخارج ، ويجرى العمل لتوسيع هذه المزرعة وتكبيرها ..



واخته الجميلة التى أقسمت بمحض ارادتها ألا تتزوج حتى يعود ، وقد أوفت بوعدها ، ولم تحنث بقسمها .. والقلب الثالث زوجته التى انتظرته أكثر من ثلاث عشرة سنة وهو بعيد عنها فى المهجر !!! لقد سافر بحثا عن لقمة العيش وكان فى كل شهر يرسل لهم قدرا من المال يعينهم على تحمل أعباء الحياة .. ومضى زمن طويل .. ثلاث عشرة سنة مضت من عمرهم كانوا يعدون الايام ، والاشهر ، والسنوات ، ويتساءلون فى لهفة «متى سيعود .. متى ؟!! حتى جاءهم الجواب المفرح .. » .

عودة المهاجرين تحدث أزمة

ان عودة المهاجرين من بلاد المهجر باعداد كبيرة ادخلت الى مجتمع المكلا دما جديدا .

فالمهاجر القادم مع أسرته من بلد متحضر لم يقبل أن تضع زوجته « العَقَدَة » (الحجاب) الاسود على وجهها « والشَقّة » (الملاءة) السوداء فوق ملابسها .. بل سار فى الطريق مع زوجته وبناته السافرات .. وشاهد بعض المتزمتين هذا « الفجور » فثارت ثورتهم وأصروا على ضرورة « تعليب » النساء داخل الكفن الأسود الثقيل .. مع سيرهن بمفردهن ، اذ غير مسموح للسيدة أن تسير فى الطريق بصحبة رجل ، حتى ولو كان زوجها ! انما عليها أن تسير أمامه أو خلفه دون أن تحادثه !! والوقت الوحيد المسموح لها فيه بالسير مع زوجها هو فى شهر رمضان والاعياد .

وأحست المرأة بالاحراج الذى تسببه لزوجها العائد من المهجر ، فاعتكفت داخل منزلها لا تفارقه .. ولكن الرجل لم يقبل أن تسجن زوجته فى قفص حجرى فبدأ يفكر .. ويفكر .. وقد تركناه ، وما زال يفكر !!

أول الغيث قطر !

ولكن هذا لا يعنى أنه لم يحدث تقدما فى هذا المجتمع بل على العكس .. ولكنه ، تقدم تدريجى بطىء ..

فمثلا فى عيد الأم الماضى ، انهار التقليد العجيب الذى يمنع ظهور الفتاة البكر أمام السيدة

المتزوجة ـ حتى لو كان عمر هذه البكر ٦٠ سنة والسيدةالمتزوجة ٢٠ سنة!!ـ فقد استعدت ناظرة المدرسة المتوسطة للبنات لاقامة حفل تمثيلى بمناسبة عيد الأم ، ودعت اليه أمهات الطالبات ، وقبل يوم الاحتفال فوجئت الناظرة بالفتيات يعتذرن عن الحضور بسبب عدم امكانهن الظهور امام سيدات غريبات متزوجات !! وأسقط فى يد الناظرة ، فهرعت الى ناظر المعارف تطلب حلا للمازق ، وفى الحال تقرر سؤال أولياء أمور الطالبات عن رايهم فى ظهور بناتهم فى الحفل امام السيدات المتزوجات . وجاء رد الأهالى رائعا ومشجعا ، ونجح الحفل .. وفى اليوم التالى نشرت الصحف شكرا وتقديرا من أمهات الطالبات للناظرة سارة النشاشيبى التى ازاحت هذا التقليد القديم ..

ان التطور اخذ يدق ابواب الفتاة الحضرمية ليوقظها من سباتها حتى تعى دورها الصحيح فى هذه الحياة ..

وقد بدا التبدل واضحا فى مظهرها الخارجي ، اذ بدأت تقص ضفائر شعرها الطويل لتصففه على الطريقة الحديثة .. و«الشقة» السوداء نزعتها لترتدى المعطف مكانها .. وزيها دخلت اليه الموضة الحديثة بعد أن كان كالشوال ، دون خياطة أو تطريز !

وما زال أهل المكلا يتحدثون الى اليوم عن المظاهرات الكبرى التى قامت فى المكلا فى أوائل يناير ١٩٦٤ وسارت فيها فتيات المدرسة المتوسطة وهن يهتفن بالشعارات من خلف قناعهن الأسود .

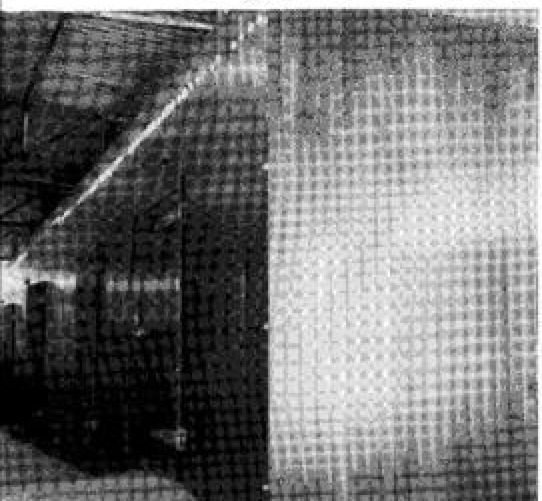
البنطلون ... بدل الفوطة !

ان هذا التطور لم يقتصر على ثياب الفتيات بل امتد الى ثياب الشباب الذين لم يكن أحد منهم يجسر أن يسير بدون الطاقية القطنية على رأسه ، و « الصارون » ملتفا حول نصف جسمه الادنى ، انه قطعة قماش يستوردونه من الهند ، واليابان .. أما الحريرى الغالى فيأتى من جاوا باندونيسيا ، ويسمونه « البالى » .

كانت هذه مقاييس الأناقة عند الرجل: الطاقية .. والصارون .. والبالى .. ومع عودة



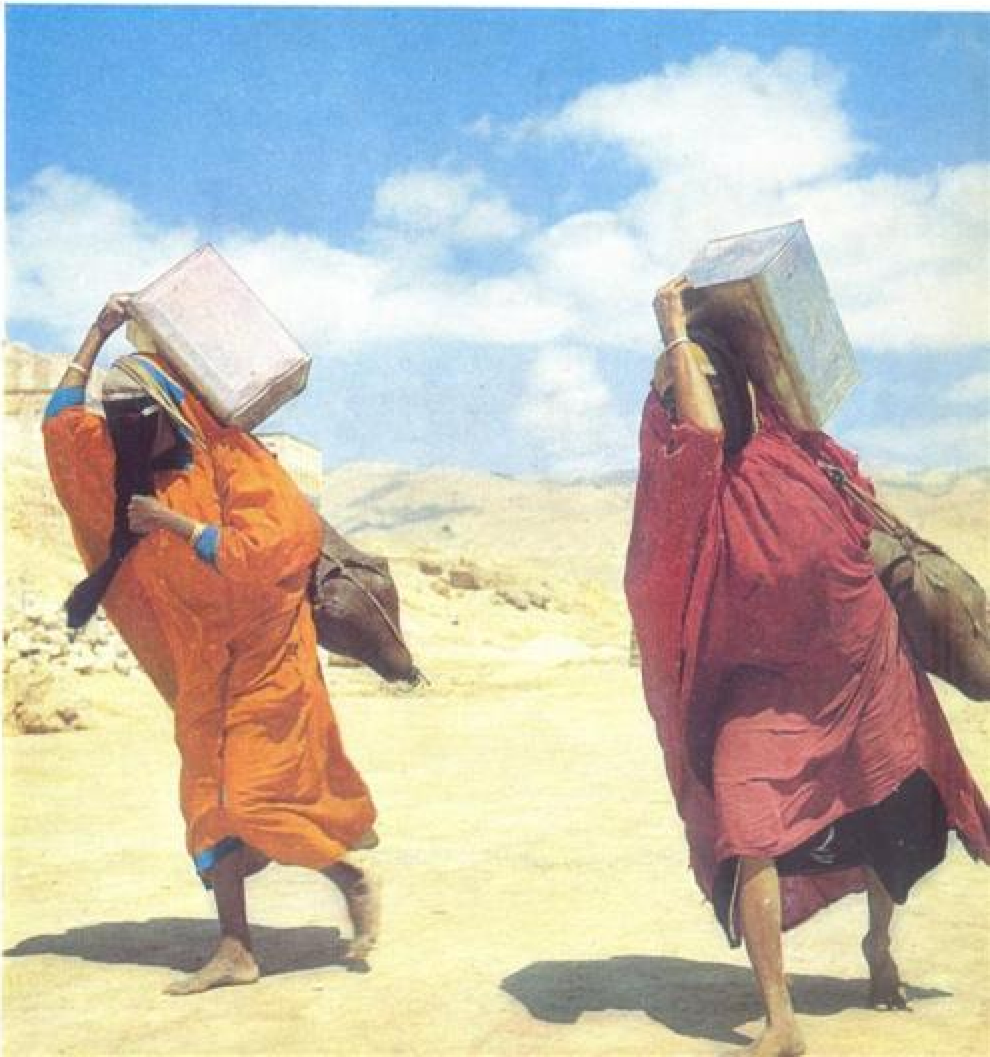
اول مصنع أهلى لتعبئة التونة فى الجنوب ، بدأ يعمل منذ ١٥ عاما فجلب الأخصائيين الايطاليين الذين دربوا الأهالى على تعليب سمك التونة ، والشروخ ، وغيرهما .. ويطالب أصحاب المصنع حكومتهم بحمايتهم من منافسة المعلبات اليابانية التى تغزو الأسواق ، ولكن اعتماد الميزانية على ايراد الضرائب يجعل تحقيق طلب الحماية صعبا!!

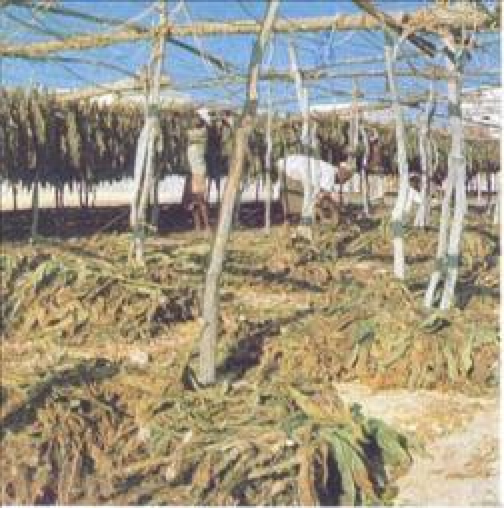


الى أسفل : خمس ثلاجات ضخمة يتسع كل منها لستين طنا من الأسماك ، مضى عليها عام بدون استعمال .. كان الهدف من بنائها تخزين أسماك التونة والروبيان (الجنبرى) والشروخ ، ولحم السلحفاة لتثليجه قبل تصديره ، ولكن صعوبات عديدة ، منها صعوبة الحصول على هذه الانواع من الأسماك حية ، أوقف المشروع مؤقتا ..

الى اليسار : ثلاث صور توضح طريقة زرع وتجفيف شجرة التمباك التي يسمونها « شجرة الشيطان » لصعوبة زراعتها ، وكلفتها الباهظة .. وتغرس بذور التمباك في الشتاء ، وتظل في الأرض ثلاثة أشهر يستمد خلالها « الوَزِيف » أي السمك الصغير المجفف ، « وبالرَّبَش » أي سماد الطيور ، ثم تقص أوراق الشجرة ، وتعلق لمدة ١٠ أيام في مكان يسمى « بالعَرِّشة » – الصورة الثانية – تحت أشعة الشمس ، وبعدها ينقل الورق ويعلق في « البايكة » وهي مستودع كبير مقفل ، يظل فيه ورق التمباك حوالي ٢٠ يوما ، يجمع بعدها وينقى من الأوراق الضعيفة ويحزم استعدادا لتصديره . ان اغلاق الاسواق في وجه هذا المحصول جعل سعر الشوال (٣١/٢ أقة) يهبط من ٢٤ جنيها الى ٢١ جنيها .

الى اسفل : حاملات الماء الى المنازل . ان الواحدة منهن تحمل على ظهرها « تنكة » و « قِرْبة » من جلد الماعز لتوصله الى المنازل .. نظير اجر شهري قدره ١/٢ ٧ شلن .. ان نقص المياه في المكلا جعلهم يوزعونه بالبطاقات بمعدل ١/٢ تنكة (١/٢ صفيحة) يوميا لكل فرد يأخذه مجانا ، واذا اراد المزيد دفع شلنا ثمنا للصفيحة . ويرد الماء للمكلا بالانابيب من ينابيع تبعد ٣٥ ميلا عن المدينة لتتجمع في خمسة خزانات تسع ٦٠ الف جالون ماء . ويجري العمل الآن لجلب الماء من ابار العيس التي يمكنها أن تمد المدينة العطشى بمليون جالون يوميا ولكن نقص المال عطل تنفيذ المشروع .







المهاجرين بدأت الطاقية فى الاختفاء ، وسار الناس حاسرى الرأس .. وطار الصارون والبالى ليحل البنطلون مكانهما !!

نهضة تعليمية تهدد بانفجار

ان جزءا كبيرا من هذا التطور مرده الى الاقبال الهائل على التعليم .. اقبال قلب المقاييس ، وجعل النهضة التعليمية نفسها مهددة بالانفجار والغرق ..

ويندفع الوزير الشاب محمد عبد القادر بافقيه المسئول عن التعليم فى حديثه معنا فيقول :

« ان الأهالي فى الماضى كانوا يترددون كثيرا فى ارسال أبنائهم وبناتهم للمدارس .. اما اليوم فلم يعد أحد يقبل بأن يبقى ابنه أو بنته جاهلة .. حتى البدو فى الصحراء الذين لم يفكروا يوما فى التعليم ، فتحنا لأبنائهم مدرسة ابتدائية داخلية تتسع لخمسين طالبا ، فجاءوا على ظهور جمالهم متعبين منهكين من مناطق تبعد ٤٠٠ ميل ومعهم أبناؤهم طالبين تعليمهم والحاقهم بالمدرسة، واستمرت قوافل الجمال تفد حتى وصل عدد المقيدين الى ٥٠٠ طالب مع أن امكانياتنا تقف عند ٥٠ طالبا فاضطررنا للاعلان عن استغنائنا عن الطلبة الزائدين .. وهنا كادت تحدث معارك حقيقية مع رجال القبائل بسبب عجزنا عن تعليم أبنائهم .. مما اضطرنا لقبول ٢٥٠ طالبا حشرناهم حشرا فى المدرسة الوحيدة التى كانت مهيأة لخمسين طالبا !!

« ان تعليم أبناء البادية مشكلة دقيقة حساسة ، ومدرسة واحدة لا تكفى ابدا لهم ، وانما يلزمنا فتح ٤ مدارس بدوية داخلية ... وهذه العملية تحتاج الى ٢٥ الف جنيه استرلينى لبناء هذه المدارس وتعليم جميع أبناء البادية فيها . »

الميزانية لا تكفى

«ان ميزانية المعارف ١٧٧ ألف جنيه استرلينى تدفع الحكومة منها ١٤٠ الفا والباقى تدفع منه الجمعية الخيرية ٧ آلاف جنيه ، والحكومة البريطانية ٢٩ ألفا .

« واعتمادا على هذه الميزانية نقوم بتعليم ما يزيد عن ١١ الف تلميذ وتلميذة ، نشترى لهم الكتب ووسائل الايضاح ، ونتكفل بمصاريف الطلبة والطالبات الداخلية من مأكل ومشرب ونوم وندفع أجور ٣٠٠ مدرس ومدرسة ، ونقوم



يقول السيد عيسى مسلم ، مدير ادارة الهجرة والجوازات بالمكلا: «ان العوامل السياسية فى أندونيسياء واحتلال الهند لحيدراباد ، والثورة المسلحة فى زنجبار كل هذا أدى الى عودة المهاجرين الحضارمة لبلادهم ، بمعدل ٩ آلاف مهاجر سنويا ، وفى نفس الوقت يترك البلاد ٩ آلاف آخرين متجهين صوب البلاد العربية ، التى نرجوها أن تعفيهم من تأشيرات الدخول لأنهم فى حاجة الى رعاية اخوتهم العرب».

بترميم المباني المستأجرة كمدارس ، مع انهــا لا تصلح لهذا الغرض .

كارثة على الأبواب

ويهدأ الوزير الشاب قليلا ، ثم يقــول بحسرة :

« ان الكارثة تنتظرنا فى مطلع العام الدراسى القادم بسرعة .. ففى هذا العام منتظر أن يتخرج ٢٢٠ طالبا من المرحلة المتوسطة لينتقلوا الى المرحلة الثانوية ، التى تمثلها فى هذه البلاد مدرســة واحدة ، هى مدرسة المكلا الثانوية ، وكل الذى تستطيع أن تستوعبه من الطلبة الجدد ٦٠ طالبا فقط !!

« وفى نفس الوقت ينتقل ٢٠٢٢ طالبا مــن الابتدائى للمتوسط .. وهذا معناه فتح ٢٥ فصلا جديدا لهم ، فى حين اننا لن نستطيع أن نفتح سوى ثلاثة فصول فقط !!

٤ طالبات أصبحن ثلاثة آلاف ..

ويتابع الوزير حديثه : —

« ونفس المشكلة نجدها فى تعليم الفتاة ... التى بدأ تعليمهـا بأربع طالبــات سـنة ١٩٤٠ اصبحن اليوم ثلاثة الاف طالبة ، وهو رقــم ليس بالكبير نسبة للبلاد العربية الأخرى ، ولكنه بالنسبة لنا رقم نفتخر به ونعتز لان تعليم البنات خضع لقوى اجتماعية واقتصادية قاسية حالت دون انطلاقه ، ان عندنا ثلاث مدارس ابتدائية ومدرسة متوسطة ، ولا توجد عندنا مدرســة ثانوية لتتلقى خريجات المتوسطة اللواتى سيتخرجن لاول مرة هذا العام وعددهن ١٠ طالبات ..

بقيــة مدن حضرموت

قامت بعثة العربى خــلال وجودها فى حضرموت ، بعمــل عدة استطلاعات لمختلف مــدن حضرموت ، وسوف نوالي نشر هذه الاستطلاعات فى الأعــداد القادمــة ، مبتدئين بسيئون عاصــمة السلطنة الكثيرية فى عدد أغسطس القادم .



تجمع هذه الصورة بعض الأساتذة الذين جاءوا من القاهرة والخرطوم والسعودية والاردن لتدريس أبناء المكلا .. وأكثر ما يضايق هؤلاء الأساتذة هو نقص الكتب والأدوات ، فيضطر الاستاذ الى تلقين مواد الكتاب على التلامذة ، وعمل وسائل الايضاح بيديه .. ان حضرموت فى حاجة الى أضعاف هذا العدد من الأساتذة .. ولكن السلطات البريطانية تقف دون تحقيق ذلك . فقد حدث ان جيء الى حضرموت بنحو ٢٠ من المدرسين من مصر فمنعوا من دخول البلاد .

الى اليسار : بدأ التعليم الثانوى الرسمى للبنين منذ ثلاث سنوات فقط ، وكان فى السابق يعتمد على البعثات الخارجية .. وثانوية المكلا هى الثانوية الوحيدة فى حضرموت وفيها يتلقى ١٣١ طالبا من ابناء « القعيطية » و «الكثيرية» تعليمهم . وفى العام القادم سوف تتخرج أول دفعة من هذه المدرسة الثانوية .



الشيخ الفنان : ٤٤ طالبا يتلقون تعليمهم فى المصنع الصغير لتخريج معلمي التعليم الابتدائي .. وترى الاستاذ احمد عبد القادر اللاحي يعطي درسا لبعض الطلبة فى كيفية خلق اشياء جميلة من لا شيء سوى الورق والطين !

الى اليسار : كانت زوجات المدرسين السودانيين أول من قمن بتدريس البنات فى المدرسة المتوسطة بالمكلا .. ثم انضمت اليهن ثلاث مدرسات أردنيات .. وتراهن هنا كلهن تتوسطهن الآنسة سارة النشاشيبي مديرة المدرسة المتوسطة، التى بمثابرتها ونشاطها وبمعونة زميلاتها ارتفع مستوى التعليم للفتاة.

الى اسفل : « أرى الوقوف بمطبخي شرفا يزيد مكانتى » . هذه الجملة مكتوبة على باب غرفة التدبير المنزلى بالمدرسة المتوسطة ، حيث قامت هذه الصبية الحضرمية بصنع قطعة الحلوى التى تحملها .



الى اليسار : مكرونة.. بودنغ .. تيولة .. مقلوبة .. لحم بعجين (صفيحة) .. سمك بالأرز .. انها بعض انواع الأطعمة التى تعودت بنات المكلا على طبخها فى مطبخ المدرسة المتوسطة .. انه انقلاب جديد فى دنيا مطبخ المكلا ، الذى ما زال يعتمد اعتمادا كليا على انواع المأكولات الهندية والاندونيسية ..







اما خريجات الابتدائي الى المتوسط فلا يوجد مكان لـ ٢٠٠ طالبة منهن ..

ويستطرد الوزير الشاب فيقول :

« هذه لمحة خاطفة عن بعض مشاكلنا التعليمية التى نحن على بينة منها .. فنحن نعرف أن أغلب المبانى ليست بمستوى المدارس ، وأن الفصول مكتظة بالطلبة .. وأن الكثير من المدرسين غير مؤهلين .. وأن الأدوات والكتب المدرسية ناقصة .. وأن وسائل الايضاح معدومة .. وأن سوء التغذية منتشر بين الطلبة ..وأن رياض الأطفال غير موجودة ..

« نعلم كل هذا جيدا ، ولكن كل هذا لن يوقف تجاوبنا مع الشعب الذى يطالب بتعليم أبنائه .. اننا اذا لزم الأمر سنفتح مدرسة فى كل مكان يمكن أن يستظل تحته الطلبة : فى المنازل الخاصة .. تحت الشجرة .. وحتى فى المساجد والأندية .. اننا لن نحرم أى طالب من شعاع العلم .. حتى تتداركنا رحمة الله .. ورحمة اخوتنا العرب الذين نقول لهم :

« انقذونا

انقذونا بالكتب ..

انقذونا بالمنح الدراسية لأبنائنا وبناتنا ...

انقذونا ببناء المبانى لمدارسنا ..

انقذونا بالفعل لا بالقول .. » .

اننا اذا ترجمنا كلام الوزير الى لغة الأرقام لأدركنا أن ١١٥٢ طالبا و ٣١٠ طالبة لن يجدوا لهم مقاعد فى السنة الدراسية القادمة !

ماضي مجيد ، وحاضر مريض !

ان أهل المكلا فى صراعهم من أجل الانطلاق والتحرر من عقدة الخوف والتردد ، لم يعودوا يأبهون كثيرا بتاريخهم او بنسبهم الى سبأ او حمير او قحطان بن هود حفيد سام بن نوح ! ، لأنه اذا نبشنا لهم كنوز تاريخهم ، وفتحنا لهم صناديق ماضيهم وأخرجنا لهم كل ما فيها من حضارات وفنون وبطولات ، ولم نفتح لهم باب العلم وسبيل الرزق ، فان تاريخهم يكون باطلا ، وماضيهم وهما .

ان الناس فى المكلا اصبحوا يفضلون الف مرة سماع اسباب فشل تجربة المجلس البلدى المنتخب على معرفة أسباب ضياع آثارهم وتحفهم التى لم تعد تهمهم كثيرا .

ان هذا المجلس البلدى المنتخب لم ينجح فى تعبيد طريق واحد، ولم ينجح فى اقامة جسر ليصل المدينة بالشرق وقت السيول والامطار .. ولم ينجح فى التغلب على ازمة الماء التى تكاد تخنق المدينة .. حتى آبار الماء القديمة جفت كلها .. ولم ينجح فى زرع شجرة واحدة بالمكلا رغم مضى ٣ سنوات على انتخابه ..

حتى فندق واحد لا يوجد فى المكلا .. ويقترح البعض اقامة هذا الفندق فى السفينة الكبيرة . التى دفعتها رياح المنسون الى صخور المكلا فلم تعد تستطيع منها هربا رغم مضى ثلاث سنوات على جنوحها ..

مدينة صغيرة مليئة بالآمال الكبار

وتقف مشكلة تحقيق الوحدة الحضرمية ، بين القطاعين القعيطى والكثيرى ، موقفا غريبا ، فالمفاوضات حولها تدور سنويا منذ خمسة أعوام دون اى نتيجة . بالرغم من أنها مطلب شعبى وخطوة أولى نحو تحقيق وحدة الجنوب فى انتظار الوحدة الكبرى .

ان المسئوليات الجسام آخذة فى التكاثر على أكتاف المسئولين فى المكلا .. ومطارها خير صورة تعطى الدليل على هذا ، ففى الماضى كانت تأتيه طائرة واحدة أسبوعيا .. أما اليوم فتأتيه طائرة كل يوم !!

ان المكلا ، تلك المدينة الصغيرة المليئة بالآمال ، تستحق اهتماما أكبر من جانب الدول العربية ، ان شعبها يئن من الفقر والتأخر والتشريد ، أما المرض فابن المكلا أصبحت عنده مناعة ضد الأمراض ، لأنه منذ خلق وهو فى مرض !

ان سلبية موقف الدول العربية،واكتفاءها باعطاء بعض المنح الدراسية الهزيلة الضئيلة لبعض طلبة حضرموت ليس بالحل المطلوب .. لأن حضرموت فى حاجة الى نجدة طبية وفنية واقتصادية وثقافية!

ومن يدرى فقد يتدفق الذهب الاسود من الشمال .. ولكن حتى هذا التدفق لن يحل المشاكل التى تتطلب يدا خبيرة فى هذه المرحلة الانتقالية التى تمر بها المدينة البيضاء القابعة على مياه المحيط الزرقاء . ■■

سليم زبال



الأم ...
وتوزيع الحب بين أولادها بالتساوي

■ ان كثيرا من العقد التى تتربى فى الأطفال ، يبدأ تكونها فى البيت . وقد يبدأها الأب ، وقد تبدأها الأم او الاخوة والأخوات .. او حتى الجيران .

وكلٌ يبدأها وهو لا يدرى انه يبدأ شرا . بذرة يبذرها فى النفس ، نفس الطفل الناشىء ، لا تتنبت ، ثم تخرج من التربة ، ثم تترعرع ، بالثمر الحلو حينا ، وبالحنظل المر احيانا ، الا بعد سنوات طويلة .

ولنضرب لذلك مثلا : العقدة او العقد التى تسببها الأمهات ، والوالدة الأم خاصة ، بسبب سوء توزيع حبها وعطفها على اولادها .

ان من الأسباب التى تزرع الفرقة فى الاسرة ، لا سيما الناشئة، ان تصطفى الأم بعض اولادها او بناتها دون بعض . وليس معنى هذا اننا نفرض على الأم ان تحب اطفالها جميعا قدرا سواء . اننا بهذا نطلب المحال . ان الحب والبغض لا يصنع فى القلب صناعة ، او على الاقل لا يصنعه صاحب القلب . والقلوب متقلبة ، وهي ذات اهواء . وليس من عتب على الأم ان تميل الى طفل اكثر مما تميل الى طفل . ولكن العتب فى ان تظهر للطفل حبا فوق الذى تظهره لاخته او لأخيه . انهم كلهم فى حكم الأمومة سواء .

ان القسط من الحب التى تزيده الأم لطفل من اطفالها يضر هذا الطفل ، عندما ينشأ .

وان القسط من الحب الذى تنقصه الأم من طفل من اطفالها يضر هذا الطفل ، عندما ينشأ كذلك .

اما الطفل الأول ، المفضّل ، المعزّز . الذى يأخذ نصيب الأسد من الحب والعناية والرعاية طفلا ، ينشأ صبيا ، ثم شابا، ثم رجلا،وهو قد تعود ان يكون دائما الآخذ لا المعطي . وعزّزته امه ودلّلته فنشأ وعنده التعزيز والتدليل عادة . والحياة لا تنفع ، وهي اخذٌ ولا اعطاء . وتكبر سن الطفل ، حتى اذا بلغ العشرين والثلاثين ، لم تفده اعداد السنين . انه

لا يزال طفلا . كبر حجمه حقا ، وصار له حجم الرجل ، ومظهر الرجل ، ولكن طابع نفسه لم يتغير . انه طابع الطفل ! ولا يكون من ذلك غير الفشل. انه الرجل الذي يسمونه « ابن أمه » .

وحتى لو أن طفلا كهذا استطاع ان يتخلص من هذا المستقبل الذي ينتظره « الرجل الطفل المدلل » ، وتنبه للحياة، ووعى حقائقها ، فانه لا شك سوف يعود بالذكر فباللوم الى امه ، تلك التى لم تنصف ، فكادت أن تفعل به ما تفعل ، وفعلت باخوته الآخرين ، الذين نقصتهم او نقصتهن حبا ، ما فعلت .

★★★

ولنعد الى الحديث الى هؤلاء الآخرين الذين أو اللاتي نقصتهم امهاتهم او امهاتهن حبا .

ان الطفل يولد وهو غريب عن هذه الدنيا . وهي كثيرا ما تخيفه ، وهو فى هذا الحال يحتاج الى الحامي ، والى من يذهب عنه الخوف،ويزيد ثقته بنفسه. وخيرُ ما يزيد الطفل ثقة بنفسه حب الأم ، واظهار الشفقة له فى هذا العجز ، واظهارُ التشجيع .

ان الآباء والأمهات الذين يرمون ابناءهم او بناتهم بالعجز والخيبة ، لا سيما عند الغضب ، يجرمون . او هم يظهرون لهم كراهة ، او نقصا فى الحب يؤَوّل عندهم بانهنقصفىكفاية او قدر .

ان الرجل النامي يحس بمصاعب الحياة . ولكنه من بعد نمو ، ينسى مصاعب الطفولة التى هي من مصاعب الحياة .

الطفل يعاني مصاعب الحياة فىطعامه، وعندما يحبو . ثم يمشي . كلها تجارب، يتعلمها بمشقة . وكذا وهو صبي فى المدرسة ، ومن بعد ذلك . مسالكالحياة جميعا ليست سهلة السلوك وهي صعبة على الصبية والأطفال صعوبة مسالك الحياة ، فى طلب الرزق ، من بعد ذلك على الرجال والنساء .

ان الطفل الذى تنقصه أمه من حبها، يفقد الثقة بنفسه بمقدار ما تنقصه الام من حب . وفقد الثقة صفة تلصق بالنفس على السنين ، وينشأ الطفل عليها وعنده عقدة : انه ليس فى مراتب الانسانية فى المرتبة الاولى التى تؤهله للحب كاملا . وينشأ وهو يتقبل دائما الموضع الثانى من بين مواضع الحياة ، لانه اعتقد انه ليس ممن يحتل المراكز الأولى . لو كان حقيقا بها ، لكان احقّ بها عند أمه .

★★★

وقد يثور الطفل ، وقد كبر وتنشأ ، على تلك العقدة ، عقدة استضعاف النفس ، ويحاول أن يثبت انه جدير بالموضع الاول ، والمركز الاول ، فيمزّق

رأى

● **السيد رئيس التحرير**

هل قرأتم ما كتبه الاستاذ علي امين عن المرأة : انه يقول :

« تكسب المرأة قلب زوجها ، بان تكون وسادة من ريش النعام اذا شعر بالتعب ، وعقلا يفكر له اذا تعب عقله ، وفراملا اذا اندفع ، وقوة دافعة اذا اصيب بالخمول والكسل ... وان تقوم بكل هذه الاعمال ، بخفة وبساطة وتواضع ، وان تنسب اليه ، كل الانتصارات التى هي السبب فيها .. وتقتسم معه ، مسئولية كل الهزائم التى كان هو السبب فيها .

فى المرأة

وتوفق المرأة بين عملها والبيت ، بان تعد تنظيم البيت على أسس سليمة حديثة ، وتتبع انظمة الكفاية التى توفر الوقت ، وتوفر العرق . وفى رايي ان وقت المرأة يتسع للعمل وللبيت ، وبعد ذلك ، يترك ساعات طويلة من الفراغ ، فيجب ان تستغله لتزيد من جمالها ورشاقتها وجمال عقلها » .

فكيف ترون فيما كتب الاستاذ : انتصار هو للمرأة ، ام سخرية بالرجال ؟!

نوال ٠س

نفسه فى سبيل هذا الاثبات تمزيقا . بل يثور ليثبت انه الاول وأن كل من حوله فى المواضع الثانية .

وهو بالعقدتين يشقى، عقدة الانصياع والتخاذل الاولى ، والرضا بما قسم الله له ، أو بما استقر فى نفسه انها قسمة الله ، وعقدة التعالي، انه خيرٌ من سواه .

والسبب ؟ الأم .

ومتى ؟ فى البيت الأول .

★★★

أيتها الأمهات . كنّ حذرات ، وكن حصيفات .

ان الله لم يكد يخلق انسانا الا وبه شيء يُحمَد . فاستخرجي من أولادك ذلك الشيء الحسن، واذكريه واحمديه، وشجعيه ، وصبّي على طفلك ، كل طفل ، بعض حبك ، ومعه رشاش من ماء الورد .

ولا تقيمي مقارنة قط بين أولادك ، من حيث الذكاء ، ومن حيث القدرة ، ومن حيث الجمال ، ومن حيث البطء والسرعة . انك بذلك تنفثين السم ولا تدرينه .

وقسّطي الحب بين أولادك ، وبناتك، اقساطا سواء . ■■

كعكة العرس

الى التى تسال عن كعكة العرس ، مـاكان من أمرها ؟ نقول :

ان كعكة العرس هي اليوم، كعكة كبيرة،مكسوّة بطبقة من السكر المحلول وقد تجمد ، داخلها محوّج ، وظاهرها مزوق.

وهي لم تكن كذلك فى قديم الزمان .

وهي نشأت فى القديم من التقليد الذىجعل شركة العريس والعروس فى طعام واحد ، رمزا للوحدة ، ومع الوحدةالغبطة والهناءة .

ومن ذلك ان قدماء الاغريق كانوايصنعون الكعكة من طحين السمسم بعد خلطه بعسل النحل . ثم يفرق الكعك علىالضيوف .

وفى روما القديمة كان من مراسم الزواجالاولى صنع فطيرة من القمح ، يهبها العروسان الى الآلهة،ثم ياكلون منها معا .

وتوارثت أوروبا الغربية هذه الكعكةيصنعونها من عجين غير خمير ، فهي اشبه بالبسكوت . ثم لما تطور الزمن ، وتطورفن الطهي زادت الكعكة حجما ، وزادت محتوى ، وتعقدت صناعة ، وتفننوا فيهازواقا . وهي اليوم مرسم من مراسم العرس قائم دائم .

وتبدأ العروس بقطع الكعكة بالسكين ،يعينها فى ذلك عريسها ، وذلك فى الحفل الذى يقوم من بعد عقد الزيجة ، وتوزععلى الحاضرين والحاضرات . وللغائبات قطع صغيرة منها ، ترسل اليهم تحيةوذكرى .

شخصيات سيكولوجية

سيجموند فرويد



بقلم : الدكتور فاخر عاقل

الاستاذ بالجامعة الاردنية

ابتدع للنفس مراتب كثيرة واسماء للخبرة النفسية جديدة : منها الشعور ، وتحت الشعور ، واللاشعور ، و"الأنا" ، و"الهي" ، ورد كل الحوافز الى الجنس واسماه اللبيدو ...

■ ما من شخص أثار في علم النفس من الضجيج والعجيج قدر ما أثاره فرويد الطبيب النمساوي الذي بدأ حياته الطبية مختصا بعلم الفيزيولوجيا (علم وظائف الاعضاء) وانهاها بوصفه أبا للتحليل النفسي Psychoanalysis وصاحب مدرسة فيه .

على انه من غير الممكن ان تفهم فرويد وعمله اذا لم تلم ببعض الحقائق الاساسية :

وأولها : أن مؤرخي علم النفس الحديث متفقون على أن علم النفس الحديث على صلة وثيقة بعلم الفيزيولوجيا الحديث . والحق ان علم النفس الحديث ولد على يدي العالم الالماني (فنت Wundt) في مختبر بلايبزغ Leipzig الذي أسسه عام ١٨٧٩ .

وقل الشيء نفسه عن فرويد وهو طبيب مختص بعلم الفيزيولوجيا . وبافلوف Pavlov وهو عالم الفيزيولوجيا الروسي . وآدلر adler وهو طبيب نمساوي ، وغيرهم كثير .

وثانيهما : أن فرويد حلقة في سلسلة من الاطباء الذين اهتموا بالأمراض النفسية والجسدية (وكانت تسمى عصبية) واشهرهم (شاركو charcot) الافرنسي وتلميذه (جانيه Janet) الافرنسي ايضا . وقد تتلمذ فرويد على اولهما ثم انتقل من من مدرسته الى مدرسة (نانسي Nancy) في فرنسا ايضا . وكلا المدرستين كانت تستعمل التنويم (المغناطيسي) علاجا للأمراض العصبية النفسية . على أن المهم في هذا الصدد كون الجو العلمي مهيئا لهذه الدراسات مما مهد لظهور فرويد .

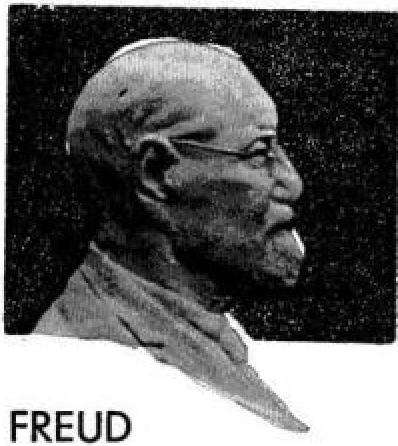
وثالثها : أن فرويد عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ، وشهد النهضة الصناعية الجبارة التى اجتاحت اوروبا ، وتعقد الحياة الاجتماعية في المجتمعات الاوروبية ، وتشابك العلاقات الانسانية بين أفراد هذه المجتمعات .

ورابعها : ان فرويد يهودى ، وانه كان ليهوديته دخل كبير في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته . ذلك بانه كان ينتمي الى اقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة التي أقل ما ينسب اليها حب المال والانغلاق والتعصب والتوحيد بين القومية والدين والمطامع الاقتصادية والحنين الى الماضي والعمل على بناء وطن قومي من نوع محدد ، وكان ذلك ضمن اطار معين .

شيء من التاريخ
مولد فرويد ونشأته وتتلمذه

ولد فرويد عام ١٨٥٦ في ما يسمى اليوم





SIGMUND FREUD

بتشكوسلوفاكيا ، ولكنه عاش فى فيينا منذ طفولته الباكرة . وحين ذهب الى الجامعة درس الطب واختص بالفيزيولوجيا ست سنوات كاملة ، ثم قرر ان يعيش من ممارسة الطب ، فانتقل عام ١٨٨١ من المختبر (المعمل) الفيزيولوجي الى المستشفى حيث تابع دراسة الجملة العصبية واختص بتشريحها وأمراضها .

على أن الاهتمام بالامراض العصبية فى فيينا كان ضئيلا فى ذلك الحين على خلاف ما كان يجرى فى باريس وقد كان يعمل فيها شاركو الذى طبقت شهرته الافاق . فشد فرويد الرحال اليه عام ١٨٨٥ ، وتتلمذ عليه عاما بكامله ، وكان بالغ الاعجاب باستعمال شاركو للتنويم طريقة لمعالجة الهستيريا . ولقد كانت دهشته عظيمة حين سمع شاركو يؤكد انه فى كل حالة من حالات الامراض العصبية لابد من وجود اضطراب فى الحياة الجنسية للمريض ، اضطراب موجود « دوما ، دوما شريطة أن نتعمق فى الامر تعمقا كافيا » . ولقد كان فرويد يقول لنفسه متعجبا : اذا كان ما يقوله شاركو صحيحا فلم لا يستفيد من هذه الحقيقة فى نظريته وعلاجه ؟؟ ولقد قبع هذا التساؤل فى ذهن فرويد الى ان آتى أكله بعد حين .

وعام ١٨٨٦ عاد فرويد الى فيينا واخذ يعمل بجد فى دراسة الحالات العصبية عامة والهستيريا خاصة مستعملا التنويم طريقة رئيسية فى المعالجة لكنه لم يلبث ان وقف امام عقبة كأداء الا وهي استحالة تنويم بعض المرضى ! وحتى فى حالة تنويم المريض فان العلاج لم يكن مفيدا دوما .

ولذلك قرر العودة الى فرنسا مرة اخرى لاسيما وقد تسامع بمدرسة (نانسي) التي تدعى امكان تنويم كل شخص ونجاح علاجه . بيد أن أمله خاب حين قال له اطباء هذه المدرسة ان نجاحهم مع فقراء المرضى اعظم بكثير من نجاحهم مع الذين يتعالجون على حسابهم الخاص ، لانهم اما اذكياء، او متحذلقون لدرجة يصعب معها عليهم الافادة التامة من العلاج ، وحينئذ عاد فرويد الى فيينا وعاد الى ممارسة التنويم فى العلاج وكان نجاحه معتدلا وان لم يكن تاما .

فرويد والطبيب النمساوى بروير

وهنا يتدخل فى الامر رجل قد لا نغالي اذا قلنا بان فرويد أفاد منه أكثر من افادته من الاطباء الفرنسيين ونعني به الطبيب النمساوى (جوزف بروير Josef Breuer) صديق فرويد وزميله فى العمل الفيزيولوجي والدراسات العصبية . وقد صدف ان كان بروير هذا يحاول وضع طريقة علاج جديدة أوحتها اليه واحدة من مريضاته المصابات بالهستيريا .

لقد كان بروير ـ شانه فى ذلك شان فرويد ـ يستعمل التنويم للعلاج . فقالت له مريضته هذه انه لو سمح لها اثناء تنويمها أن تتحدث عن متاعبها العاطفية فانها تتحسن ، وانها حين تكون تحت التنويم تستطيع أن تتذكر حوادث كانت منسية ، حوادث على صلة بحياتها العاطفية ، كلما تحدثت عنها الى الطبيب شعرت بنوع من الراحة وخفت أعراضها المرضية . وحينئذ اخذ بروير برأى

المريضة واستعمل طريق التحدث هذه مع المريضة فشعرت بتحسن سمح لها بالعودة الى حياتها السوية . وبعدئذ صارح فرويد بامر هذه المريضة واخذا كلاهما يستعملان طريقة التحدث هذه مع المرضى الاخرين فنجحا بعض النجاح، ونشرا ابحاثا عن طريقتهما الجديدة سنة ١٨٩٢ و ١٨٩٥ . وهكذا بدات الطريقة الجديدة مزيجا من التنويم والتحدث .

ازمة تثيرها طريقة التحليل النفسي ، بين الطبيب ومرضاه

وبعد هذه البداية الطيبة بقليل ، ولسبب لم يعلن عنه في حينه ، غضب بروير على الطريقة الجديدة وتركها لفرويد وحده . اما سبب غضب بروير واشمئزازه فقد عرف فيما بعد ، ويتلخص في ان واحدة من مريضاته التي عالجها وقتا طويلا وشارفت على الشفاء اعلنت له انها لا تستطيع تركه لانها احبته حبا شديدا ، الامر الذى اخاف بروير صاحب الضمير المسلكي الحي وجعله يعلن انها طريقة خطرة يجب الا يستعملها طبيب . ولم يمض وقت طويل حتى وقع فرويد في نفس المشكلة، لكنه لم ينزعج من الامر ، بل خلص منه بعد دراسة عميقة الى القول بأن هؤلاء النسوة لا يعشقنه لذاته بل انهن يتخذنه بديلا عن موضوع حبهن الاول ، وانه اذا داوم على معالجتهن متخذا موقفا حياديا قد يستفيد من هذا الحب في شفائهن نهائيا . وقد برهنت الوقائع فيما بعد على صحة رايه .

طريقة ((الترابط الحرّ))

وبعد ان خلا الميدان لفرويد ترك طريقة التنويم وحسن طريقة التحدث وان كان قد احتفظ من طريقة التنويم بالاضطجاع والاسترخاء ومطالبة المريض اثناء ذلك بالتحدث عن متاعبه واسبابها والافصاح عن كل ما يرد على خاطره ، وهي الطريقة التى سماها طريقة الترابط (او التداعي) الحر Free Association ، بالرغم من ان التداعي المطلوب من المريض ليس حرا تماما ، بل مقيدا ببعض الضوابط ، ولا سيما مطالبة المريض بان يقصر حديثه على متاعبه فقط . والمقصود بحرية التداعي هو رفع الرقابة عن الذكريات والافكار التى ترد الى خاطر المريض . وهكذا استبدل فرويد التنويم بالاسترخاء والتداعي الحر. وبالرغم من ان هذه الطريقة الجديدة ابطا من من القديمة فانها نجحت مع عدد من المرضى اكبر وهى في رايه ادعى للتنفيس عن المريض .

الاحلام تكشف عن العقل الباطن

وأيا ما كان فان بطء هذه الطريقة حمل فرويد على البحث عما يوصله الى العقل الباطن (اللاشعور) مباشرة وانتهى بعد التفكير والتجريب الى الاعتقاد بان احلام المريض كفيلة بالاعلان عن لا شعوره . وقد شرح فرويد نظريته عن الاحلام واختباراته فيها في كتابه المشهور (تفسير الاحلام) الذى نشر بالالمانية ولاول مرة ١٩٠٠ . ومنذئذ اعتبر فرويد واحدا من أفذاذ علم النفس. وفي ١٩٠١ اتبعه بكتابه (علم النفس المرضي للحياة اليومية) حيث درس هفوات اللسان والذاكرة واظهر كيف يمكن استخدامها دلائل على مركبات نفسية لا شعورية . ومن ثم تتالت كتبه .

ومهما يكن من امر التحليل النفسي فانه اعتبارا من عام ١٩٠٠ لم يصبح طريقة لمعالجة الامراض العصبية فحسب ، بل صار بالاضافة الى ذلك مدرسة سيكولوجية صريحة .

نظرية فرويد

انصافا لفرويد يجب أن نعترف له بأنه لا يزعم أن نظريته شاملة للحياة النفسية بكاملها . لكنها ، وباعترافه ، تستهدف تعليل الامراض العصبية وعلاجها ولذلك فدعوى فرويد الاساسية هي أن العصاب (١) ينشأ عن أمور جنسية طفولية مكبوتة . ومع ذلك

---

(١) العصاب هو المرض العصبي باللغة الدارجة . اما باللغة السيكولوجية فهو ترجمة كلمة Neuroses (انظر مقالتنا في العربي العدد ٢٧ فبراير ١٩٦١ ـ الجنون فنون) .

فان الامور الجنسية الطفولية المكبوتة ليست وقفا على الذين اصيبوا بعصاب فى وقت ما من حياتهم ولكنها موجودة عند كل انسان وتشكل عاملا هاما فى حياته .

ولكي نتعرف على نظرية فرويد لا بد من التعرف على افتراضاتها الاساسية وهي القواعد التى يبني فرويد عليها فرضياته ونظرياته .

كل سلوك له دافع

ان واحدا من اهم افتراضاته هو قوله بأن كل سلوك مدفوع اى له دافع ، وهكذا فالشلل الهستيرى مثلا ، وهو شلل غير حقيقي ، بدليل ان المريض اذا نوم وامر ان يستجيب لوخز الدبوس استجاب بالفعل ، قد يكون تعبيرا عن عجز المريض ازاء مشكلة من مشاكل حياته اليومية . وقل الشيء نفسه عن الشاب الذى ينسى معطفه فى بيت فيه صبية حسناء . ان هذا النسيان فى راى فرويد مدفوع برغبة الشاب فى الرجوع الى البيت . والامر عينه صحيح عن ربة البيت التى تقول « مع السلامة » لضيفتها وهي تستقبلها بدلا من « اهلا وسهلا » ، انها بذلك مدفوعة بضيقها من هذه الزيارة ورغبتها فى التخلص منها بأسرع ما يمكن . وهكذا اذن تكون الرغبات هي دوافع السلوك فى نظر فرويد .

اسباب السلوك توجد فى الماضى ، قريبه والبعيد

والافتراض الاساسى الآخر عند فرويد هو قوله بأن اسباب السلوك (اى الرغبات) يجب البحث عنها فى الماضي ، وان زلات اللسان والسلوك مثلا ، وكذلك الاحلام ، لا ترضي رغبة حاضرة ولكن ماضية ، وان اصل العصاب موجود فى الماضي . وهو لايقنع بالماضي القريب بل يرجع الى سني الطفولة الاولى .

الرغبات القديمة جنسية طفولية

والافتراض الثالث الاساسي عند فرويد هو كون هذه الرغبات القديمة جنسية ، وهو يستند فى هذا القول الى ملاحظته ان معظم المرضى الذين راجعوه كانت توجد عندهم هذه الرغبات الجنسية التى يعود اصلها الى الطفولة .

الرغبات القديمة مكبوتة ، تنتظر فرصة انطلاق

والافتراض الرابع والاخير هو اعتقاده ان هذه الرغبات الجنسية الطفولية التي تدفع السلوك وتؤثر فيه مكبوتة فى نفس المريض تنتظر فرصة للتعبير عن ذاتها ، وهي تتخذ حينا طريق الحلم وآخر طريق زلة اللسان وثالثا طريق المزاح الخ الخ . . لتدلل على وجودها .

وهكذا تكون الاعمدة الثلاثة لسيكولوجية فرويد هي (١) الرغبات الجنسية (٢) الطفولية (٣) المكبوتة .

مفهوم الجنس عند فرويد

ثم ان فرويد يعطي الجنس مفهوما محدودا وواسعا فى الوقت نفسه على حد تعبيره دون ان يرى فى ذلك تناقضا . انه يرى ان مص الطفل اصبعه نوع من السرور الجنسي ، وكذلك عضه للاشياء ووضعه اياها فى فمه ، ورغبته فى ان يرشّ ، وحركات رجليه المنتظمة ، وكذلك تغوطه وتبوله الخ ... واذا ما ارتفع فرويد الى مستوى اعلى شمل السرور الجنسي كل سلوك انفعالي بما فى ذلك الصداقة وحب الفنون . وفرويد يرفض ان يقال عنه انه يستعمل كلمة جنس مرادفا لكلمة حب ، ويحتج على كل محاولة تنزع عن (الليبدو Libido) (١) صفة الجنس وهو يلح على ان كل انفعال جنسي اصلا .

---

(١) الليبدو : كلمة يطلقها فرويد على الرغبة الجنسية أو الطاقة الجنسية أو الجوع الجنسي.

ولعل اهم ما اهدى فرويد لعلم النفس نظريته عن اللاشعور (العقل الباطن) ، انه يجعل للحياة النفسية قطبين هما الشعور واللاشعور (بينهما تحت الشعور او قبل الشعور) وهو يرى ان (الأنا (١) The Ego) شعورية بالاصل ، وهي التى تكبت الرغبات غير المقبولة بالنسبة اليها ، وهى بكبتها هذا قد تتصرف لا شعوريا ، فهى اذن شعورية ولا شعورية فى آن معا . أما (الهِىّ (٢) The Id) فلا شعورية . والأنا على اتصال بالمحيط ولكنها نجمت عن (الهى) وتبقى ممزوجة بها فى الأعماق . والهِىّ تشتمل على القوى الدافعة الغريزية لوجود الفرد بما فى ذلك غريزة الحياة وغريزة الموت .

ويعتقد فرويد أن الأنا تحاول أن تتوسط بين العالم الخارجي والهِىّ لتجعل الهى تتمشى مع مطالب العالم ، وان كانت تحاول بواسطة الفاعلية العضلية ان تجعل العالم يتمشى مع رغبات الهى . كما أن الهى تجهد بصورة عمياء فى سبيل تحقيق رغباتها ولذائذها . لكن الأنا التى تعمل الهى بواسطتها تكون قد تعلمت الخضوع فتكبح جماحها وتكبت رغباتها .

وتعتقد ماساة الأنا والهِىّ بامر ثالث هو (الأنا السامية Super-Ego) أو (الأنا المثالية Ego - Ideal) وهى ــ بصورة عامة ــ ما نسميه بالضمير الاخلاقى . ولهذه الأنا السامية زواجر وأوامر ونواه تفرضها على الأنا ، وهى فى رأى فرويد ماخوذة عن واقع الحياة بل صادرة عن العالم الداخلى .

ومن هذا النزاع بين الأنا والهِىّ والأنا السامية تنشا العقد او المركبات النفسية من مثل عقدة أوديب وسواها .

قدر وتقويم

لا شك فى أن فرويد عالم فذ غاص على النفس البشرية واستشف اعماقها ووضع اصبعه على مكان المرض والانحراف فيها . ولا شك فى أن الرجل قد اهدى علم النفس الحديث مفاهيم قيمة وطرائق مفيدة من مثل مفهوم اللاشعور وطريقة التداعى الحر والعقد النفسية وتفسير الاحلام وغيرها من الامور التى ساعدت فى فهم الشخصية الانسانية .

ولا شك بعد هذا فى أن فرويد كان ابعد الناس عن اللاأخلاقية ودليل ذلك ما اشار اليه من حقيقة (التصعيد) (٣) Sublimation) واستعماله طريقة فى التغلب على الكثير من دوافع النفس ونزواتها .

ثم ان فرويد عمل فى المختبر والمستشفى والعيادة مدة طويلة ، فاذا اضفنا هذه الخبرة الفنية الى ذكاء وقاد ونباهة اصيلة ونزوع الى البحث العلمى امكننا ان نقدر فرويد حق قدره .

لكننا بالرغم من ذلك كله ميالون الى الاعتقاد بان خلقه ليس تماما خلق العلماء . انه اشبه بمتنبىء منه بعالم ، وهو من غير شك مخترع للفرضيات اكثر منه مجربا لها . وأغلب الظن انه اتبع نصيحة حكيمة لأستاذه شاركو تقول بوجوب الانغماس فى الحقائق ، ولا سيما المعقدة المركبة ، املا ببزوغ النور ، فاذا بزغ النور ، وكثيرا ما بزغ لفرويد ، فانه يبزغ قويا أكيدا بمقدار يفوق الفرضية التى وضعها برسم الاختبار .

وهكذا فانت حين تقرأ فرويد تدهشك كثرة الفرضيات ، حتى لتجد فى صفحة واحدة من صفحات كتبه ما يكفى لاشغال المجربين سنة أو تزيد ، ثم اذا انتقلت الى الصفحة التالية وجدت القدر نفسه من الفرضيات والحبل على الجرار . ان فرويد يتمتع بنفس خصبة ولا شك وخيال وقاد ولكنه كثيرا ما بالغ واخطا ، شانه فى ذلك شان كل متنبىء . ■■

فاخر عاقل

(١) الأنا : هى الذات أو الشخصية . (٢) الهِىّ : هى مستودع الدوافع الغريزية .

(٣) التصعيد هو طريقة فى الارتفاع بالدوافع الجنسية وتنقيتها من الشوائب عن طريق الفن والأدب والرياضة وسواها .

العربي

العدد ٨١
ربيع الثاني ١٣٨٥
اغسطس
(آب) ١٩٦٥



اطلب

العربي الصغير

مع هذا العدد

جوائز

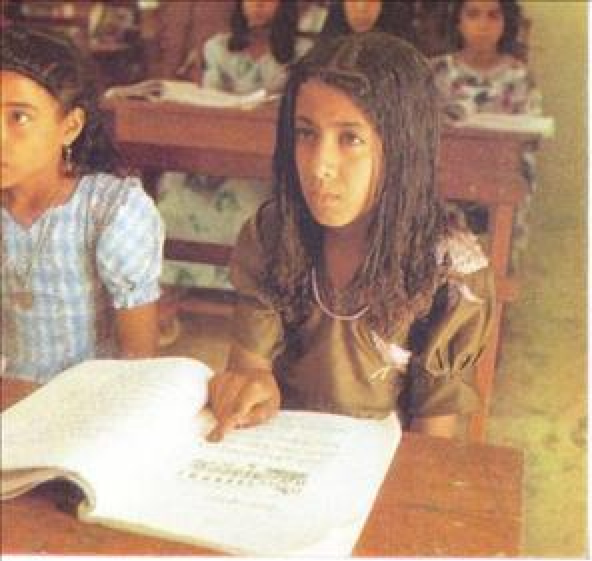
١٢٠٠

دينار سنويا

ــة يذهبن الحزن
ـرة والماء والوجه الحسن
الثلاثة افتقدت هنا ؟

الثمن

يت	١١٠	فلوس
يج العربي	٢	روبية
عودية	٢	ريال
ـن	٥ر٣	شلن
راق	١٢٠	فلسا
ان	١٠٠	قرش
ن	١٠٠	فلس
ية	١٠٠	قرش
ع٠م٠	١٠	قروش
ودان	١٠	قروش
يا	١٥	قرشا
	٢٠٠	مليم



الى اليسار : درس فى المطالعة لصبية من سيئون ، لاحظ الحناء على أصابعها ، وكذلك طريقة تصفيف شعرها المسدل ضفائر رفيعة ، مثلها فى ذلك مثل فتيات شاهدناهن فى أواسط افريقيا ، وفى واحة سيوه ... لقد جاءت هذه التسريحة الى سيئون مع عادات اخرى جلبتها هجرات اهل البلاد الى مختلف الاقطار .

اعرف وطنك أيها العربي

قام بهذا الاستطلاع **سليم زبال**
وصوره **((أوسكار))**

سيئون

الباب الجنوبي للربع الخالي تدقه يد التطور ..

لاول مرة تصل بعثة صحفية عربية الى سيئون ، عاصمة سلطنة حضرموت الكثيرية ، لتنقل عنها استطلاعا واقعيا وافيا ..

وكانت هذه البعثة هي بعثة مجلتك ((العربي)) ذهبت الى هناك لتؤدى رسالتها فى تعريف الشعوب العربية .

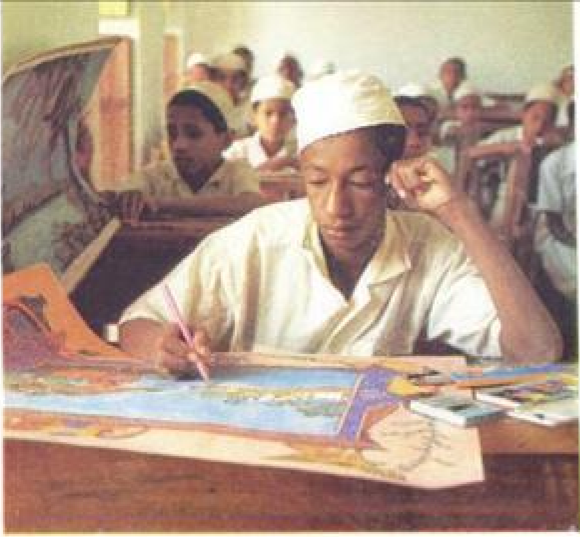
اننا ننقل اليك فى هذا العدد أوفى استطلاع عن البلد العربي الذى لم يكد يسمع به العرب !!

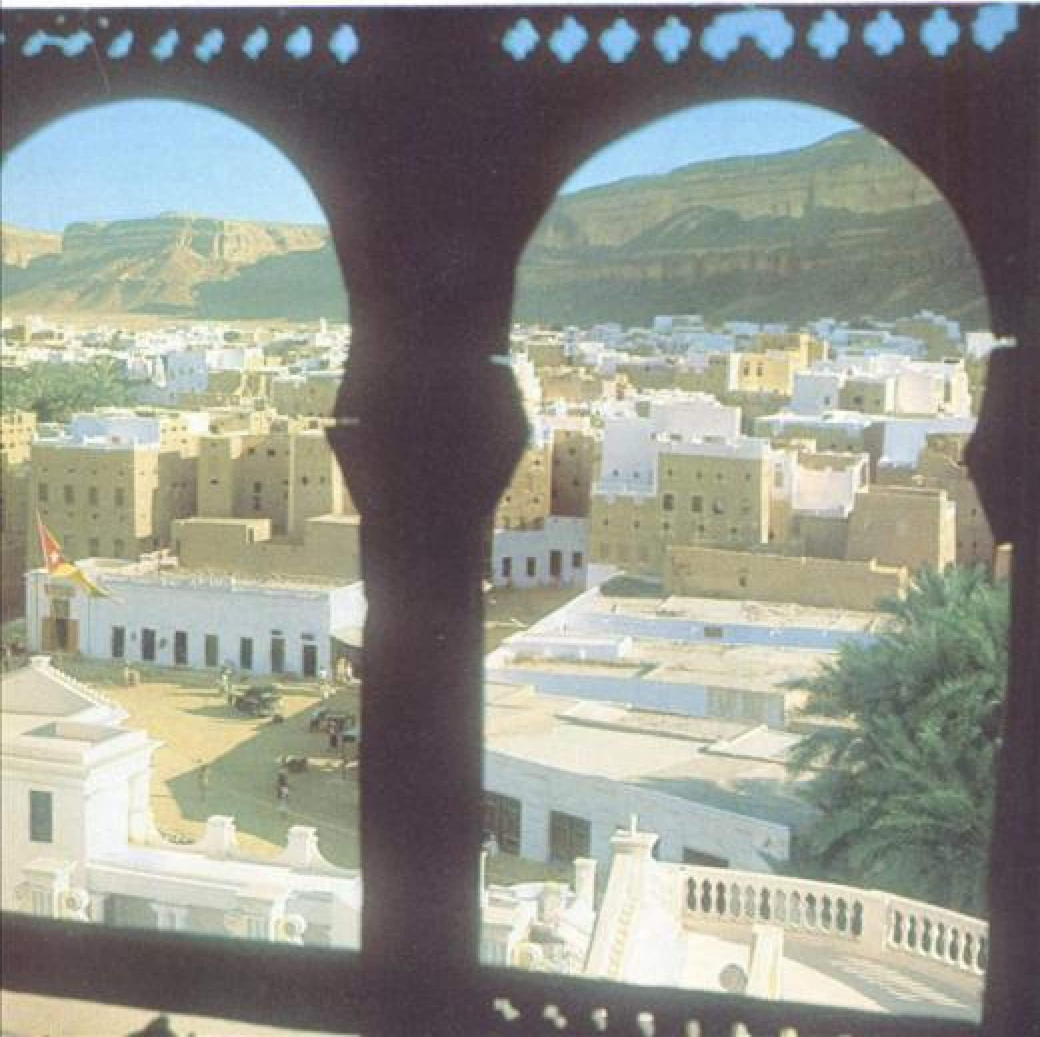


الى اليمين : ثلاجة سيئون ! : انها من جلد الماعز ، يوضع فيها الماء وتعلق بحبل متدل من سقف الغرفة امام النافذة المفتوحة التي يأتي منها الهواء ، فيبرد الجلد ويجعل الماء

الى اليمين : تفتح عالل على التعليم .. و
فقر البلاد وضيق الامكانيات يقفان كالسد
تعليم جميع ابناء سلطنة حضرموت الكثيرية
ليبدأ عمد الاهالي الى فتح المدارس الاهل
لتعليم ابنائهم بالمجان .. سابقين بذلك
الحكومة ، ومتفوقين عليها من الناحية العد
.. اما مستوى التعليم عامة فهو دون المتوس

الى اسفل : هذه هي سيئون عاص
حضرموت الكثيرية ، انها مدينة حديثة
البنيان ، يقدر عدد سكانها بنحو
الف نسمة ، والوصول اليها عن طريق عدن
المكلا بالطائرات الصغيرة .. اما الطريق ال
الموصل بينها وبين المكلا ، فشاق وصعب





تقع سَيُئون ـ عاصمة السلطنة الكَثيرية ، وكبرى مدن وادي حضرموت ـ في وادي حضرموت كالواحة الكبيرة المجهولة وسط الصحراء ، لا يقصدها الا الرحالة والمغامرون ، او السياسيون الذين يهدفون لغاية ... اما الفرد العادي فذهابه الى سَيُئون لن يعود عليه بشيء ، اللهم الا رحلة شاقة مجهدة لمدينة مُغلقة بعيدة عن مراكز التجمع العربية ، تعيش منكمشة داخل قوقعتها ، وكأنها تحاول ان تحجب عن العالم طريقة عيشها الرتيبة الغريبة التي تنقلب فيها الأوضاع ، وتتغير فيها المقاييس ، وتختلف القيم والمعايير ، لتغرق في حضارة مُعقدة التركيب ، توارثها الناس جيلا بعد جيل .

كيف نحكم على المدينة ؟

ان سَيُئون ليست المدينة العربية المتقدمة بالمقاييس الحضارية القائمة اليوم . ولكنها حققت منذ سنوات تقدما نسبيا كبيرا ملحوظا يغفر لاهلها سباتها الطويل الذى عاشت فيه قرونا ..

جيب في الصحراء

تقع سَيُئون في الجنوب العربي ، داخل اراضي حضرموت الكَثيرية ، تلك السلطنة التي تنزوى كالجيب الصغير وسط رمال وجبال السلطنة القُعيطية ، لا يربطها بالساحل اى رابط ...

لم يكن هذا حال الأمور في القديم ، ولكن الحروب والمعارك والسياسة قلبت اوضاع المنطقة وجمدتها عند الحدود العجيبة الحالية ، التي جعلت خارطة الجنوب العربي تبدو وكأنها ثوب مرقع لفرط ما يحويه من سلطنات وامارات ...

وزاد الطين بلة ، رائحة البترول المزعومة التي بدات تفوح كذبا في انوف اهل حضرموت ، مما ادى الى تمسك كل سلطنة بحدودها حرصا على امتيازاتها الخاصة ...

ولكن الالحاح الشعبى المستمر بضرورة ازالة هذه الحدود ، يدفع المسئولين في السلطنتين الحضرميتين الى مائدة المفاوضات ، التي تنتهي دائما بالتعثر والفشل في ايجاد اى حل مشترك لازالة هذه الحدود ...

ضريبة مزدوجة !

ونتيجة لهذا الفشل ينوء ابناء سَيُئون تحت وطاة الغلاء في مدينتهم .. فالضرائب على وارداتهم تُجبى مرتين : مرة في الموانيء القُعَيطية ،

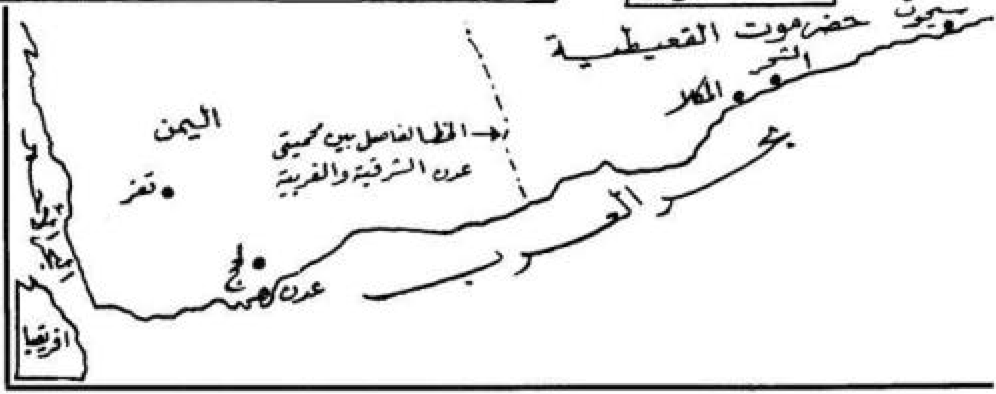


الى اليمين : هذا هو وادى حضرموت .. كان في يوم ما نهرا متدفقا لم جفت مياهه فظهرت صخوره الغنية بالمعادن والتى يقدرها بعض المستشرقين بخمسين نوعا .. منها الذهب الذى **يعتقد** بوجوده حول سيون



أول خريطة مفصلة لبين السلطنة الكثيرية وأهم مدنها ، وموقع سيون فى وسطها





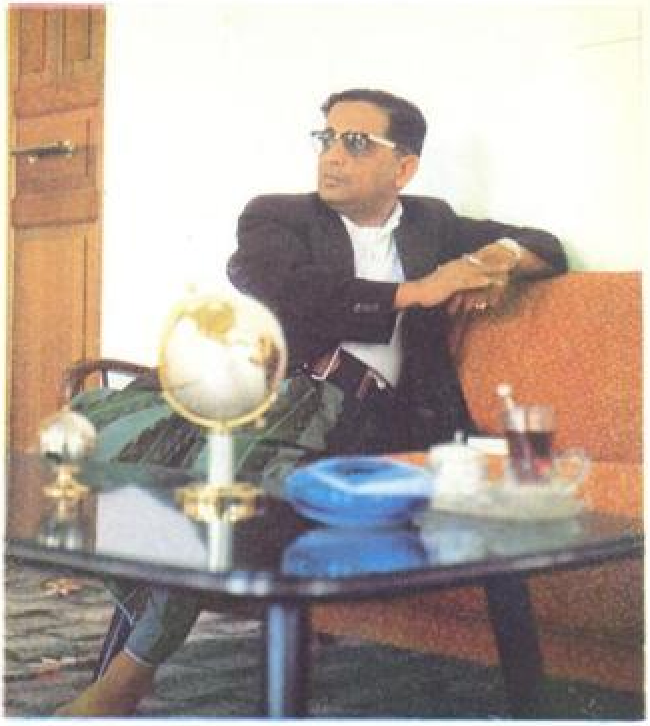
ومرة فى المطارات الكثيرية ، فضلا عن رسوم الطرق ، ورسوم الاعشار ، ورسوم النقل ، ورسوم الخيرية !!

فمثلا تأخذ الحكومة القعيطية ٢٠٪ ضريبة على البضائع الكمالية التي ترد لتجار الكثيرية عن طريق المكلا ، وبعدها تنقل هذه البضائع على السيارات او على ظهور الجمال مسافة ٢٠٠ ميل حتى تصل الى مشارف سيون ، حيث تفرض عليها السلطات الكثيرية ضريبة جديدة تبلغ ١٥٪ على الكماليات و ٦٠٪ على السجائر و ٥٪ على المواد الغذائية !! وضج الناس .. وسعى المسئولون فى سيون مرارا لايقاف هذه الضريبة المزدوجة ، ولكن الحكومة القعيطية تعتذر باستحالة الغائها ، لانها من الموارد الرئيسية فى ميزانيتها الهزيلة .. وكذلك الحال بالنسبة للكثيرية ، لا يمكنها ان تلغي الضريبة الثانية خوفا من انهيار ميزانيتها التي تبلغ ٢ مليون شلن ، اى ١٠٠ الف دينار سنويا !

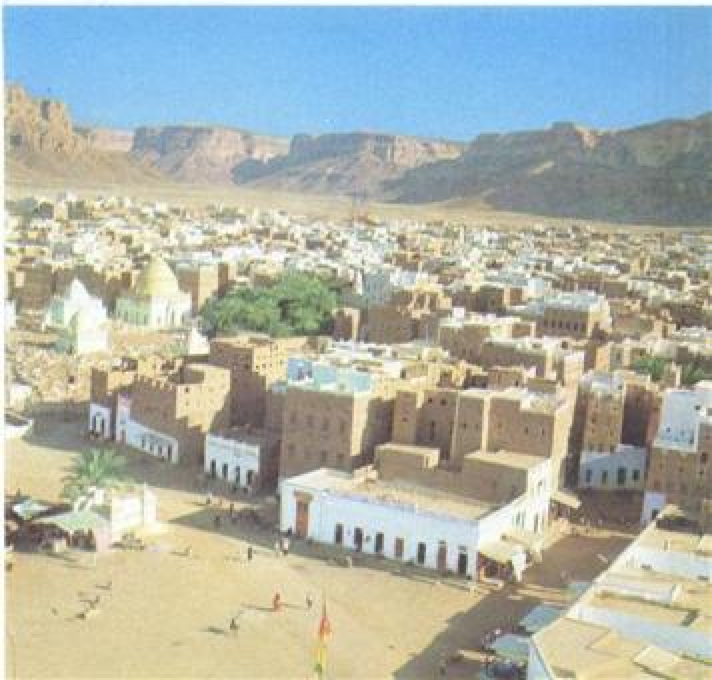
الاتجاه الى الجـو !

ولم يقتنع تجار سيون بهذه الاعذار ، فعمدوا الى جلب حاجياتهم من المواد الخفيفة مباشرة من عدن عن طريق الجو دون المرور على ميناء المكلا تخلصا من دفع الضرائب ...

ورغم مصاريف الطائرة الباهظة فان تكاليف



السلطان حسين بن علي الكثيري ، سلطان السلطنة الكثيرية ، التي تأسست عام ٧٨١هـ ، انه على بينة بكل كبيرة وصغيرة تحدث في بلده ، وهو الذي يترأس المجلس الاستشاري لسن القوانين والتشريعات في البلد.





الى اليمين : منظر آخر لمدينة سيئون ، انها مدينة ترتفع مبانيها اعتباطا دون اي تخطيط او تنظيم حول قبور الموتى وقباب الاضرحة ،



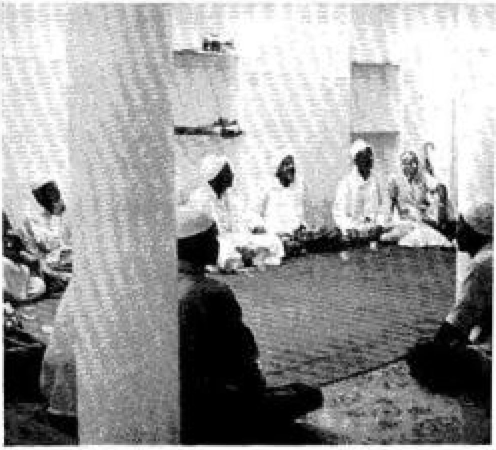
اجمل ما في سيئون هو قصر سلطانها ، انه تحفة في فن البناء العربي القديم وسط الصحراء ، لقد بني منذ
قرن ونصف قرن في عهد السلطان حسين بن علي منصور الكثيري ... وكأنه بجدرانه البيضاء المغمورة دائما بأشعة
الشمس ، يذكرنا بالقصر الخيالي الذي اقامه جني المصباح السحري في قصة علاء الدين الشهيرة ! ...

الواردات عن طريق الجو ارخص من تكاليفها عن طريق المكلا بالبحر والبر ...

وقد تسبب هذا الاجراء فى انتعاش مفاجيء بمطار سيون المسمى مطار « القرَّف » انه مطار صغير ، لا يزيد طول مَدْرجه الرملي عن ١٤٠٠ يارده ، كان يستقبل ثلاث طائرات اسبوعيا ، اما اليوم فيستقبل يوميا طائرة واحدة على الأقل من طراز الداكوتا الصغيرة ، التي ما تكاد عجلاتها تلامس الارض حتى يهرع اليها رجال الجمارك ، فيأخذون نصيبهم من الضرائب على بضاعتها .. ويتجه اليها الاهالي على سيارات اللاند روفر Land Rover وظهور الحمير ، فيستظلون تحت اجنحتها ، وهم يشهدون القادمين والمسافرين ... انها الوسيلة الوحيدة لاحتكاكهم بالعالم الخارجي ..

سفينة الصحراء واللاندروفر

اما المواد الثقيلة فتخضع لقوانين عجيبة عند نقلها عبر الطريق الشاق الطويل الذى فتحه ابو بكر الكاف الثرى الحضرمي عام ١٩٢٦ بين المكلا وسيون ..



تغص منازل أهل العلم والفضل فى سيون ليلا بالوافدين ، مثل منزل الشيخ عبد القادر أحمد السقاف فى جلسات يسمونها « الروحة » يتحدثون فيها فى مختلف الشئون .. بينما يذهب الشباب الى الاندية الرياضية .. أما السينما فممنوعة فى سيون الا فى الاعياد !

كانت الجمال هي الوسيلة الوحيدة المسيطرة على حركة النقل بين الداخل والساحل ... وبعد شق الطريق بدأت الشاحنات وسيارات اللاند روفر تزاحم « سفينة الصحراء » فى سيرها ، واحتدم الخلاف بين السائقين والبدو من اصحاب الجمال التي يقرب عددها من ٣٠ الف جمل تقريبا ، وانحازت الحكومة القعيطية الى البدو ففرضت على تجار سيون ضرورة تحميل ٢٠ جملا مقابل كل سيارة تحمل البضائع ، حتى لا يتضرر البدو من اصحاب الجمال !

وضج الناس مرة ثانية فى سيون فالجمل يحمل ٤٠٠ رطل بينما السيارة تحمل ٢٠ الف رطل ! والنقل بالجمل يكلف ضعف سعره بالسيارة ، التي تقطع الطريق فى ١٢ ساعة بينما يقطعها الجمل فى ٨ ايام !!

انها مشكلة مرت بها اغلب بلاد العالم ، انها فترة الانتقال من استعمال الحيوان الى استعمال الآليات ...

استيقاظ مفاجيء

ان مراحل التطور والتغيير والتبديل ترج جبال وادى حضرموت رجا .. وسيون هي المسرح الذى يشهد فصول هذا الصراع الكبير ...

لقد استيقظ ابناء هذا الوادى فجأة من سباتهم ، ليجدوا أنفسهم مضعضعين .. فقراء .. متاخرين ... مبعثرين .. ولكن الحماس لا ينقصهم ، فشمروا عن سواعدهم يريدون اللحاق بالركب المتطور غير عابئين بالمتاعب والمشاكل ونقص المادة الكبير ..

النهر الذى جف

ووادى حضرموت هو اهم اودية حضرموت ، ولكنه ليس واديا بالمعنى المفهوم ، وانما هو مجرى لنهر ضخم كانت تغذيه انهر صغيرة تتجه كلها الى الشرق ، وتقوم على ضفافه المدن والقرى ... ودارت عجلة الزمان فجف ماء النهر ، وانتقل الناس بمبانيهم الى اسفل الوادى بحثا عن الماء .. فأصبحت المدن وكأنها واحات ، واحدة وراء الاخرى فى منطقة لا يزيد طولها عن ٦٠ كيلومترا ، تمثل الجزء المزدهر من هذا الوادى ، الذى يمتد مسافة ١٥٠ ميلا من الشمال ، لينتهي عند مدينة سَيْحوت على ساحل المحيط الهندى ...



مجلس السكرتارية : وهو أشبه بمجلس الوزراء برآسه السكرتير حسين بن صالح الكثيري ويضم مديرا لكل من هذه الادارات : المالية ، الجمارك ، الهجرة ، البريد واللاسلكي ، المعارف ، الشرطة المسلحة والمدنية .. وجميع الاعضاء من أبناء حضرموت الكثيرية .. ومما يذكر ان حضرموت مرتبطة مع بريطانيا بمعاهدتين الاولى معاهدة الحماية وتتولى بموجبها بريطانيا حماية السلطنة من الاعتداء الخارجي ، وبمقتضاها لا يجوز للسلطنة أن تقوم بأي اتصال خارجي أو معاهدة الا بواسطة بريطانيا .. والمعاهدة الثانية هى « المستشارية » وتقضى بأن تقبل السلطنة « نصيحة » المستشار فى جميع الامور ، ما عدا ما يختص بالدين والتقاليد .. ومعروف ان نصيحة المستشار البريطاني أمر مطاع .

ويتراوح عرض الوادي من ٢٠ ميلا الى اربعة اميال .

غناء .. وحشرجة !

كان صدى الحياة الوحيد الذى يتردد بين جنبات هذا الوادي هو نغمات غناء رتيب حزين، ينبعث من افواه الفلاحين والعبيد والخدم ، وهم يسحبون الحبال الطويلة لجذب الماء من الآبار ، لارواء المنازل والمزارع والحقول ..

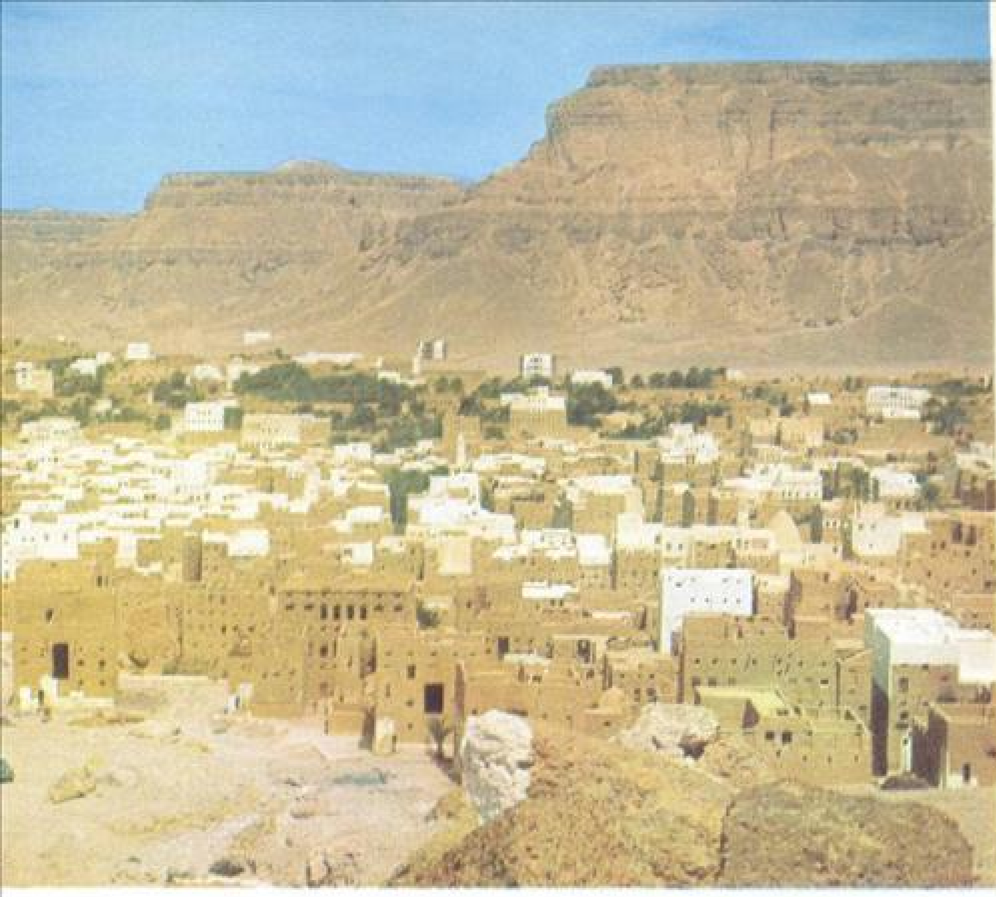
وظلت هذه الانغام الحزينة تتردد اصداؤها حتى كان عام ١٩٤٢ ففيها قل الماء .. فجف الزرع ... وتوقف الغناء ... وارتفعت اصوات غريبة كئيبة .. انها حشرجة الموت تجود بها ارواح الآلاف من الناس ، وهم فى صراع يائس مع المجاعة القاسية التى لازمتهم مدة عامين كاملين .. اهلكت خلالهما الزرع والحرث والنسل ، والانسان والحيوان .. كان الناس يتساقطون فى شوارع سيون من الجوع والألم ، بالرغم من اكياس الطعام التي كانت تلقيها اليهم الطائرات من الجو ..

٣٠٠ جالون بدلا من ثلاثة جالونات

وبعد انقضاء اربعة اعوام على انتهاء المجاعة ، صحا الناس على هدير مكنات الديزل وهي تعمل لاخراج الماء من الاعماق .. وارتاب الناس بادىء الامر فى هذه الآلة ، ونعتوها بمختلف الأوصاف ، واحجموا عنها ، ولكنهم سرعان ما الفوها وافتنوها .... واصبح فى الوادى منها اليوم ١٢٠٠ مكنة ، الواحدة منها تسحب الماء بمعدل ٣٠٠ جالون فى الدقيقة الواحدة ، فى حين ان الانسان كان يكد ويشقى ليستخرج ٣ جالونات فقط فى الدقيقة !!

وهكذا تضاعفت الرقعة المزروعة ثلاثة اضعاف مساحتها فى عام ١٩٤٩ .

ويعتمد اهل سيون على الزراعة اعتمادا كليا

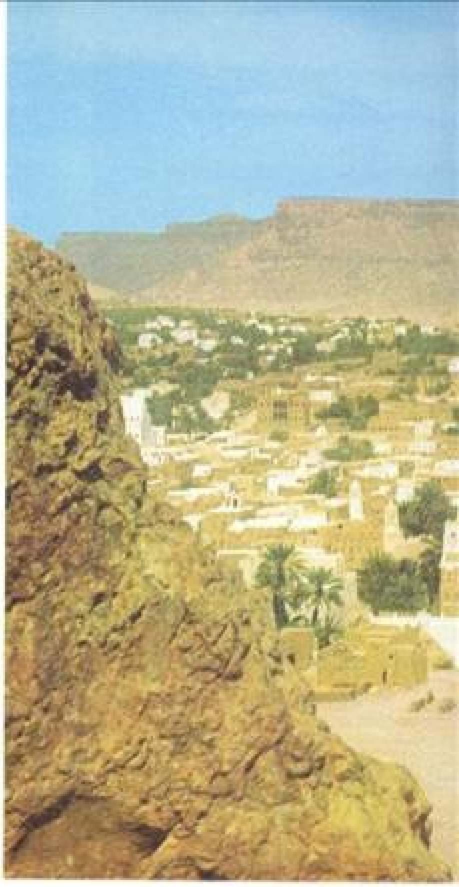


تقبع سَيْئُون هادئة في وادي حضرموت بين الجبال الصماء التي ترتفع الى علو الف قدم ، وبالرغم من وجود هذه الجبال الصخرية ، فمباني المدينة مشيدة بالطين وجذوع النخيل ، لان تقطيع الاحجار من الجبال يتطلب نفقات باهظة يعجز عنها الاهلون .. وتمتد حركة البناء في المدينة طوليا ، حتى اطلقوا عليها اسم « سيئون الطويلة » .



الى اليمين : كانت سَيْئُون في نشأتها بمثابة حصن لسكانها ، فجاء تصميم منازلها متسما بالطابع الحربي الدفاعي اكثر من اتسامه بالطابع الهندسي الجميل ! فالطابق الارضي من المنازل جدرانه صماء خالية من الفتحات ، والنوافذ لا تظهر الا ابتداء من الطابق الثاني ، اما الطابق الثالث فيتصل ، بجسر صغير ، مع المبنى المجاور ، ويستعمله اهل المنزل للهرب في حالة اقتحام منزلهم من الاعداء ... كان هذا في الماضي ، اما اليوم ، فالهدوء والسلام يسودان المدينة التي ما زالت تحوي الكثير من هذه المباني .





الى اليسار : تفتخر سيئون بمنارة مسجد الرياض الذى بناه السيد على الحبشي عام ١٢٥٩ هـ ... وهي منارة مرتفعة مبنية بالطين وجذوع النخيل ، ومطلية بالنورة البيضاء ، وقد تم بناؤها عام ١٣١٦ هـ على يد المعلم عوض بن عفيف واخوانه ، المحفورة اسماؤهم عند قاعدة المئذنة ، مع ابيات من الشعر على نحو ما كان سائدا فى ذلك الزمان ، مطلعها :

هـذي المنارة ما رأينا مثلهـا
هيهات ان شكلا يحاكي شكلها !



دهشنا عندما وجدنا عددا كبيرا من أبناء سيون تميل ملامحهم الى ملامح أهل آسيا .. انهم ابناء الحضارمة المهاجرين الذين تزوجوا الاندونيسيات.



هل تصدق ان هذه المنازل العالية ان هندسة البناء العربية القديمة بدات تنافسها باستعمال الاسمنت

في حياتهم ، فتجدهم يزرعون الحبوب وخاصة القمح بكثرة خوفا من شبح المجاعة التي مرت بهم .. وهذا يؤدي بالتالي الى اضعاف اقتصاديات البلاد .. فالقمح الاسترالي ممكن استيراده بسعر اقل من نصف سعر القمح المزروع محليا .. ولكن الزراعة هنا تقوم على اساس سد حاجة الافواه الى الطعام دون التفكير في تخطيط او تقدير لحالة البلاد الاقتصادية .

٣ أنواع من التمر

وتحيط بسيون نحو ٢ مليون نخلة تعطي تمرا حلوا لذيذا ، يقسمونه الى ثلاثة انواع : المدريني والمجراف والحمْرة ، يعتمد عليه اهل المدينة والبدو في وجباتهم اليومية ، فيخزنونه داخل ازيار كبيرة يتسع كل منها لنحو ٤٠٠ رطل ، يأخذون منها حاجتهم اليومية ..

والأراضي المحيطة بسيون من اخصب الاراضي التي تنجح فيها زراعة الحبوب والخضروات ، وخاصة البصل والثوم والطماطم ...

نكبة بعد رخاء

ولكن اعتماد اقتصاد البلاد على هذه المنتوجات غير الاقتصادية ، جعل السكان يتابعون هجراتهم الى الخارج .. تلك الهجرة التي بدأت بعد ان تحولت طرق قوافل البخور والتوابل من البر الى البحر ، فقضت على ازدهار الوادي ، ووصلت بسكانه حدا جعلهم يهجرونه الى سنغافورة ، واندونيسيا ، حتى وصل عدد مهاجريهم الى ٧٠٠٠٠ نسمة ، اختلطت دماؤهم بدماء اندونيسية وصينية وملاوية .

ولم ينس المهاجر الحضرمي بلده ، فكان يرسل الأموال والمساعدات لأهله ، وقال لنا السلطان حسين بن علي الكثيري : « ان مدينة سيون شيدها مال المهاجرين الى اندونيسيا » ... وفجأة توقف كل شيء ... وانقلبت الاوضاع ، فاصبح اهل سيون يرسلون الأموال لاقاربهم في اندونيسيا بعد ان صودرت اموالهم هناك ، وفرضت القيود عليهم ، فلم يعد يسمح لهم الا بثمن تذكرة الطائرة لعودتهم الى بلادهم ...



مبنية من الطين وجذوع النخيل فقط!! تختلف عن الهندسة الحديثة التى والحديد فى البناء الحديث ..



هذه هي مدرسة عمال القرن التى بنوها بمجهودهم وبأموالهم لتعليم ابنائهم وبناتهم .. وقد عمدوا أخيرا الى فتح متجر تعاونى تخصص ٣٠٪ من أرباحه لهذه المدرسة ..

الهمزة الحائرة !

والى جانب مشكلة عودة المهاجرين الى سيون بمعدل ٣٠٠ نسمة شهريا تقريبا ، تولدت مشكلة هجرة اخرى من البادية والريف ، ملات شوارع سيون بخليط عجيب من الناس ، اتوا بجمالهم واغنامهم للبيع والشراء داخل المدينة المرتفعة ٢٢٤٠ مترا عن سطح البحر ، والتى يبلغ عدد سكانها ١٢ الف نسمة ..

واختلف اهل سيون فى كتابة اسم مدينتهم فمرة : سيوون ، ومرة سيؤن ، واخرى سيون .. ولكنهم اتفقوا على ان اسم المدينة مقتبس من اسم سيدة كانت تسكن فى قصر هناك ثم تحرف اسمها الى سيئون ..

تاريخ آل كثير

وعمر سيون غير معروف بالضبط ، ولكنهم يقولون انها من عمر الدولة الكثيرية ، اى ٨٠٠ سنة .

وروى لنا المؤرخ الحضرمي الاستاذ سعيد عوض باوزير ، قصة تولى آل كثير للحكم فقال :

« فى عام ٦١٤ هـ ، غزا حضرموت عمر بن مهدى اليمنى بقوة كبيرة باسم الأيوبيين ، حكام اليمن فى ذلك الوقت ، واكثر من القتل والذبح ، حتى عاشت البلاد فى حالة فوضى وعدم استقرار ، فانتهز سلطان ظفار سالم بن ادريس الحبّوظي الفرصة واحتل مدن وادى حضرموت وساحلها ، ثم عاد الى بلاده فى ظفار واناب عنه آل كثير فى حكم المناطق التي احتلها فى حضرموت ... وحدث ان قتل الحبوظي فانتهز آل كثير الفرصة ، فاعلنوا استقلالهم بالحكم فى المناطق والقرى التي تحت نفوذهم ، وكانت هذه المناطق نواة السلطنة الكثيرية ، التي اصبحت سلطة رسمية معترفا بها فى عهد الامير علي بن عمر بن جعفر الكثيرى عام ٩٢٢ هـ . وهو اول من نصب سلطانا على حضرموت من آل كثير . ومن نسل هذا السلطان جميع سلاطين آل كثير الذين حكموا منذ ذلك التاريخ » ...

غزل فى غير محله !

وكانت سيون المركز المفضل لهؤلاء السلاطين

الى اليمين : بتصريح خاص سمح لنا بتصوير بعض فتيات المدرسة الابتدائية اللواتي قاربن سن الثانية عشرة .. ان العام الدراسي القادم لن يشهد هؤلاء الفتيات الثلاث لانهن سوف يتحجبن ، اى يصبحن معزولات من العالم داخل جدران .. منزلهن ! انها التقاليد البالية المتوارثة التي يسعى الشباب جاهدا للقضاء عليها !

الى اليسار : المدرسة الوحيدة الكاملة في سيئون هي المدرسة المتوسطة . وتضم ١٧٦ تلميذا ، و ٧ مدرسين ثلاثة منهم من ابناء البلد ، وثلاثة من السودان ، وواحد من السعودية ... ومبنى المدرسة كان قصرا لاسرة الكاف . وترى هنا الطلبة حول حوض السباحة في المبنى يذاكرون دروسهم قبل دخول الامتحان .

الى اسفل اليسار : درس عملي في حديقة المدرسة الابتدائية .. ان الزراعة هي الاساس الذي ترتكز عليه حياة السكان في سيئون ..

الى اسفل : احد المحلات التجارية في المدينة ، انه يحوي تشكيلة من كل صنف : حلويات عطور ، المشط ، علب طماطم ، خردوات ، لبان ، قطع غيار ... الخ .











واتباعهم ، فجاءت مبانيها صورة مجسمة لواقع حال البلاد ، التي كانت نهبا للحروب القبائلية والفتن والقتل والنهب .

ان هذه المباني التي يتغزل الاجانب فى جمالها ، لا تفي باى احتياجات صحية ، لأنها ليست سوى حصون حربية لا تصلح لحياة هذا العصر بتاتا !! فالشكل الخارجي يخفى غرفا لا يكاد يدخلها نور الشمس او الهواء الا من فتحات كانت تستعمل لاطلاق النار !! ودرجات سلالم المنازل مرتفعة عالية ترهق الاقدام وتقطع الانفاس !

ولحسن الحظ ان المعايير التي روعيت فى بناء المنازل القديمة بدأت تنزاح بعض الشيء امام الخرسانة المسلحة التي بدات تأخذ مكان الطين المقوى بتبن القمح ، وجذوع النخيل !!

حق الاحترام

وما زال اهل سيون يعيشون، داخل منازلهم مثلما كان يعيش اجدادهم : للكبير على الصغير حق الاحترام ، وحق الطاعة ، وحق السيادة .. انه صاحب الزعامة ، سواء كان متعلما او جاهلا وسواء كانهذا الكبير ابا او غير اب . يفرضكلمته على اهل البيت ، ولو ادى ذلك الى شقائهم .. اما المشاركة فى الرأى ، والصراحة ، فمعدومان تماما ... وتبدأ المرأة من سن الثانية عشرة فى ملازمة منزلها لا تبرحه او تتركه الا لتذهب عند بعض قريباتها .. والفتاة العازبة غير مسموح لها بالظهور امام المرأة المتزوجة !

سجينات التقاليد

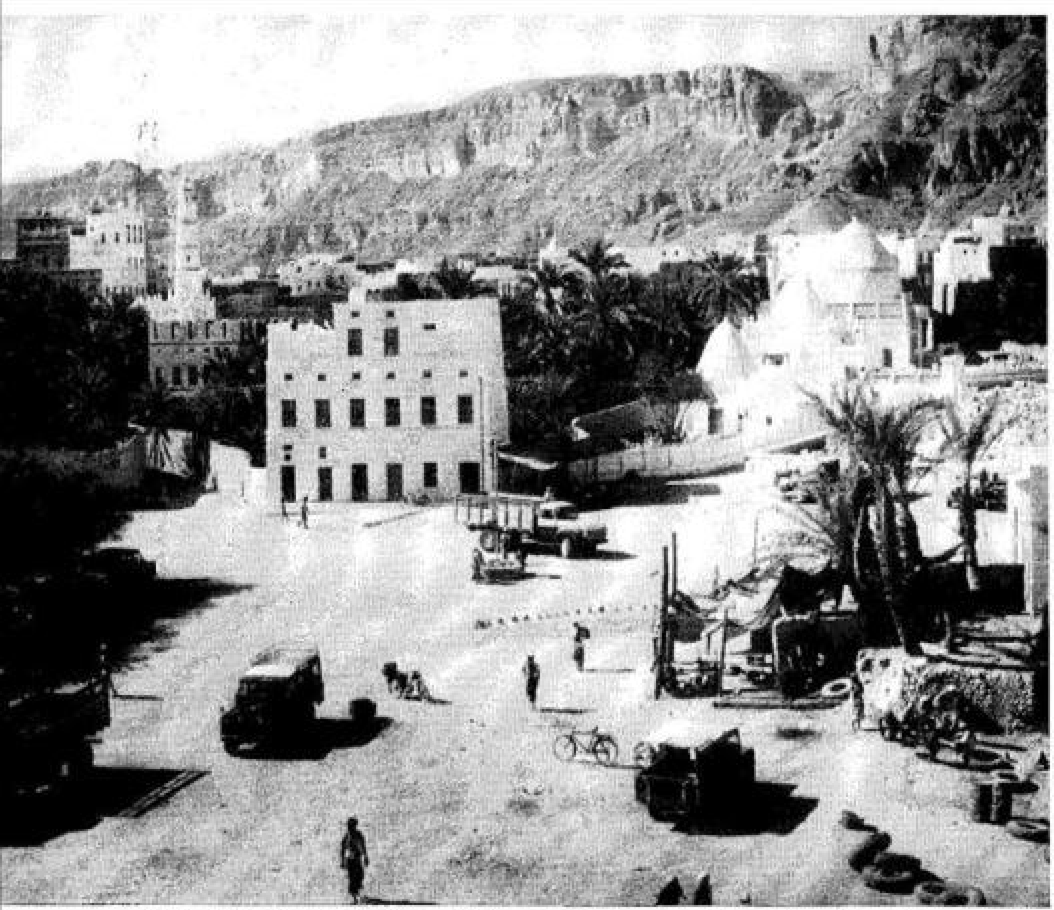
وتتجه النساء فى الامسيات الى المتاجر ، فيروحن عن انفسهن بالتنقل من متجر الى آخر لمشاهدة ما تحويه من الوان الحرائر والاقطان والثرثرة فيما بينهن ، دون ان تكون لديهن ادنى نية للشراء .. انها فرصتهن الوحيدة للاحتكاك مع العالم ، والخروج من حبسهن الطوعي الذى تفرضه التقاليد والعادات !

والمرأة السيونية شقية فى حياتها ، وفية لزوجها ، فهى تعمل الى جانبه اذا كان فلاحا فى



تسير نساء سيون عند الاصيل الى المتاجر بخمرهن السوداء وكأنهن مخلوقات جئن من عالم آخر ! ويقول الاستاذ الشاطرى المؤرخ الحضرمى « ان القائد معن بن زائدة جاء الى حضرموت عام ١٤٠ هـ على رأس جيش عباسى بلغ عدده ٤٠ ألف جندى . فاستباح البلاد وقتل منها ١٥ الف نسمة . واصدر اوامره بأن تلبس النساء السواد ، وبشاع بأنه أمرهن بجعل ذيول لثيابهن السوداء تزحف خلفهن على الارض. ولا تزال الاذيال موجودة الى اليوم. وهي التى قال فيها عمر بن أبي ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول



أحد الميادين الرئيسية فى سيون ، وفيه تبدو مئذنة جامع الرياض ، وقباب الاضرحة ، وجزء من المقبرة .. يلاحظ النخيل الذى ينمو فى مختلف أرجاء المدينة ..

الحقل .. وتنتظره فى المنزل اذا كان مهاجرا ، ولكن فى هذه الايام ، اصبح الزوج يتغيب عن زوجته عشرات السنين فى المهجر ، فتشيب الزوجة ، ويشب اولاده ، وهو لا يعرفهم ، وهم لا يعرفونه .. وهذا خطأ اجتماعي كبير يأباه الشرع ، وترفضه الانسانية !

أبو العلاء هو السبب !

ويصر بعض الرجال فى سيون على ضرورة قصر تعليم الفتاة على القراءة دون الكتابة !! وسحبها من المدرسة متى بلغت سن الثانية عشرة . واندهشنا من هذا القول ، ورحنا نسألهم عن السبب ، فقالوا لنا : اننا نطالب بهذا منعا للفتنة ، ولا ب. انكم سمعتم قول ابي العلاء المعرى :

علموهن حرفة الغزل والنسج
وخلوا قراءة وكتابة

المدرسات العربيات ممنوعات

ويحاول وزير المعارف الشاب علي محمد السقاف القضاء على هذه النظرة الضيقة فى هذا العصر المتفتح ، ولكن مساعيه تصطدم بعقبات شتى . وخاصة فيما يتعلق باحضار بالمدرسات العربيات اللواتي يصر البعض على ضرورة ارتدائهن للخمار الاسود الذى يغطيهن من رأسهن الى اخمص اقدامهن ...

ويحتج الوزير ... وتتسع حلقة المناقشات فى فضل السفور على الحجاب ، او الحجاب على السفور !!





يفتقر تعليم البنات في سئيون الى جميع اسس التعليم ، من نقص في المكاتب والكتب ، والمدرسات ، وحتى التلميذات ! اذ ما تكاد الفتاة تبلغ سن ١٢ سنة حتى تنسحب من المدرسة لتحتجب داخل منزلها !





وتركنا سيون ، والمناقشات محتدمة ، وان تكن قد وصلت الى اتفاق على احضار المدرسات العربيات على ان يرتدين زيا محتشما مثلهن مثل المدرسات اللواتي يعملن في المكلا ..

عــزلة ثقافيـة

وليس تعليم الفتاة هو المتردي في هذه المدينة فقط ، بل التعليم عموما . فمنذ القرن الثاني عشر الهجرى اخذت العقول تتحجر على معلومات متناقلة محدودة ، تلقن للطلبة تلقينا آليا خاليا من الروح والحياة .

وما كاد القرن الرابع عشر الهجرى يطل ، حتى كانت حضرموت من اقصاها الى اقصاها تستسلم لموجة طاغية من الجهالة عمت الحواضر والبوادي ...

ورغم بوادر النهضة العربية بعد الحرب العالمية الأولى ، الا ان حضرموت ظلت بعيدة عن التأثر بها ، وكانت الافكار الرجعية تسود لتعزلها عزلة ثقافية ، فحرمت اكثرية السكان من بصيص العلم ، لينحصر في طبقة او عائلات معروفة من السادة أو المشايخ ...

وفي منتصف القرن الرابع عشر الهجرى غمر الوعي الأهالي ففتحوا المدارس الأهلية رغم فقرهم المدقع ، ولكنها كانت مدارس بلا موارد مالية ولا وسائل تعليمية ، ولا خبرة فنية .

شــك وريبـة

وفي عام ١٩٣٨ تحطمت اسوار العزلة الفكرية التي كان يعيش فيها الحضارم ، فظهرت الافكار العصرية الحديثة ، واخذ الناس يتحدثون عن الوطنية والعروبة والتحرر السياسي والتقدم الاجتماعي ..

وظهرت في سيون مجلة « زهرة الشباب » ، شهرية مكتوبة بخط اليد لعدم توفر المطابع !

وفي عام ١٩٤٤ حاولوا فتح مدرسة وسطى في سيون ، ولكن وجود نخبة من ذوى العقليات المتصلة ، التى تنظر الى هذا النوع من التعليم نظرة ملؤها الشك والريبة ، حاربوا هذه الفكرة، فنقل مقر المدرسة الى « غيل باوزير » بأراضي السلطنة القعيطية حيث فتحت أول مدرسة وسطى في حضرموت ..

ولكنه بعد مرور ١٣ سنة ، اقتنع الناس في سيون بفكرة انشاء مدرسة وسطى فافتتحوها عام ١٩٥٧ .

وظل التعليم الأهلي متقدما على التعليم الحكومي فترة طويلة ، واشترك المهاجرون الحضارم في اندونيسيا وسنغافورة في هذه النهضة فأسسوا في عام ١٩٢٠ مدرسة النهضة العلمية ، وهي أقدم مدرسة في سيون ، ومنها تخرج كل الرجال القائمين بمرافق البلاد .

ســاعدوا عمال ســيون

واحس العمال بأن قطار التعليم سوف يفوت على ابنائهم ، فقاموا بعمل جماعي على الارض التى منحتهم اياها الدولة تحت جبل الفلتس ... كان كل شيء ينقصهم، ما عدا العزيمة ، وبهذه العزيمة استطاعوا أن يشيدوا مدرسة حديثة نظيفة .

لقد اتحد ٥٠٠ عامل واتفقوا على أن يعمل كل منهم في أوقات فراغة في بناء مبنى المدرسة ، حتى تم البناء بالصورة الجميلة التى هي عليه الآن .. وكانت تنقصهم الكتب ، فأرسلوا استغاثة الى الدول العربية ، لا يدري أحد هل وصلت او لم تصل . ولكنها لا شك وصلت الكويت ، فقد أرسلت لهم خمسة آلاف كتاب ..

لقد اصبح عدد الطلبة من أبناء العمال في هذه المدرسة ٢٠٦ طلاب ... وأخيرا أضافوا لها مدرسة للبنات تضم ٥٥ فتاة . ونقص الاساتذة كان



مستشفى سيون : فتح منذ عام فقط يسع ٤٤ مريضا ، والعلاج به مجاني ، وبه طبيب حضرمي وآخر هندى ، توجد به غرفة للاشعة ليس بها جهاز للاشعة !! أهم الامراض : السل ، والانيميا

ملحوظا ، الى جانب نقص المادة ... ويقوم حاليا وفد من عمال لجنة مدرسة القرن الاهلية العمالية بجولة فى الاقطار العربية لجمع التبرعات لصالح المدرسة .

نسبة التعليم ١٪

واخيرا ... وفى عام ١٩٤٨ لحقت الحكومة بالمدارس الاهلية ، ففتحت أول مدرسة ابتدائية ، بفصل واحد ، ومدرس واحد ، يساعده ناظر المعارف نفسه ! وكانت ميزانية التعليم ٢٧٥ دينارا .. أما اليوم فقد وصلت ميزانية المعارف الى ١٠ آلاف دينار ، وبلغ عدد مدارسها : ٨ مدارس ابتدائية ومتوسطة للبنين ومدرسة ابتدائية للبنات .. يعمل فيها ٣٢ مدرسا و ٤ مدرسات ، ويبلغ عدد تلامذتها ١٢٦٠ طالبا وطالبة . أى نسبة التعليم ١٪ اذا قصرنا الارقام على سكان سيون فقط !!

بين القديم والجديد

ان الوعى الذى أدخله هذا التعليم البسيط الى سيون خلق تناقضا اجتماعيا هائلا فى البلاد ، فالشباب ، بحكم حماسهم لكل جديد ، اصبحوا يحتقرون كل ما هو قديم ... وانصار القديم ينساقون ، بحكم تعصبهم لقديمهم ، الى انكار فائدة كل ما هو جديد ، سواء كان هذا الجديد نافعا او ضارا ! وهم بحربهم هذه ، يعتقدون أن بامكانهم ايقاف عجلة التاريخ !

والى جانب هذا يواجه مجتمع سيون اكثر من معضلة ، فهو ما زال يبحث عن كيانه وسط مشاكل الطفولة ، ومشاكل المراهقة ، ومشاكل الحرمان ، ومشاكل المراة ، ومشاكل الشيوخ ، ومشاكل البداوة ، والتشرد ، وأوقات الفراغ ، والرياضة . والاندية ... وغير ذلك مما لا يمكن حصره فى هذا الاستطلاع .. انها كلها مشاكل لم يفكر أحد بعد فى ايجاد حل لها رغم اهميتها وخطورتها ..

وقبل أن ننتهي ، لا بد من التساؤل : وماذا بعد ذلك ؟

كلمة هادئة ..

لم تبق سوى كلمة هادئة نقولها لبريطانيا ، التى مضى عليها ١٢٥ سنة فى المنطقة ، نقول لها : كنا نامل أن نرى مصنعا واحدا .. أو بئرا ارتوازيا كبيرا واحدا .. أو طريقا معبدا صالحا .. أو تخطيطا للحاضر أو للمستقبل سواء كان اقتصاديا أو زراعيا أو تعليميا .. كنا نطمع فى ايجاد حل لمشكلة الغربة المزدوجة التى تثقل كاهل الناس . كنا نطمع فى أن نرى عناية بنكبة الحضارمة فى مهاجرهم ، خاصة وان بريطانيا هي المسئولة عن علاقات حضرموت الخارجية بموجب معاهدتي الحماية والاستشارية اللتين تعطيانها حق التصرف فى جميع الامور ، ما عدا الدينية والتقليدية .. كنا نطمع فى أن نرى العناية الصحية متقدمة . أما المستشفى الذى أقيم منذ سنة فقد جاء متأخرا عن موعده ١٢٤ عاما !

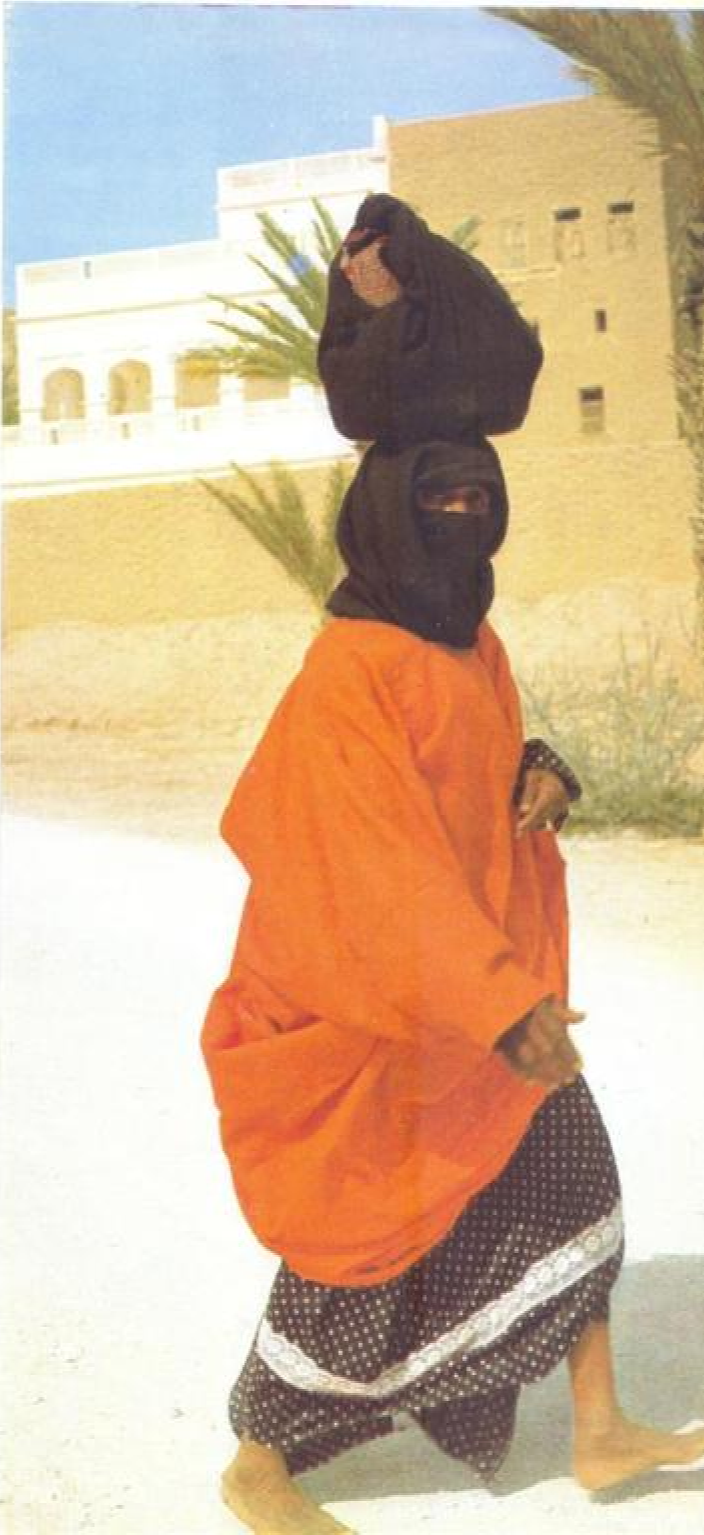
ان الفشل فى تحقيق كل هذا يحتم على بريطانيا أن تجلو عن البلاد ... ومن الافضل لها أن تخرج سريعا .. لان لهب الثورة سوف يعم كل بقعة فيها مستعمر بريطاني ...

لقد وعدت بريطانيا باعطاء المنطقة استقلالها قبل عام ١٩٦٨ . فمتى تعطيه ؟!

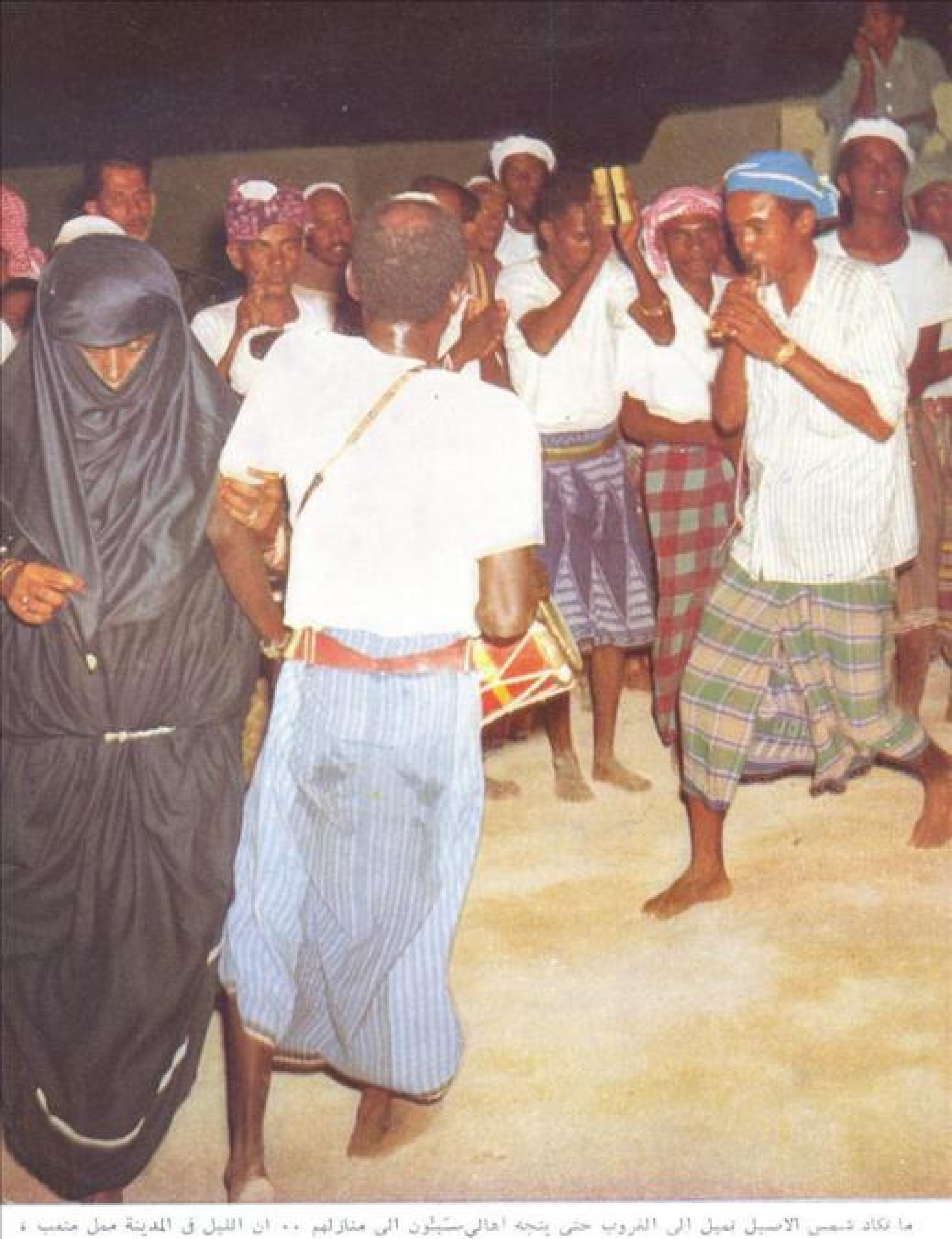


تبين هذه الصورة التغير الكبير الذى طرأ على الزراعة ، فمكان البئر الارتوازى القديم ، وضعت مكنة الديزل لسحب الماء بمعدل ٣٠٠ جالون فى الدقيقة بدلا من ثلاثة جالونات .





المرأة في سيئون مثل المرأة في
اي مكان آخر ، فرغم القيود
القاسية التي تخضع لها ،
تجدها تعتني بمظهرها الخارجي
وتتفنن في ملبسها البسيط ،
مضيفة له الدانتيلا والالوان
الزاهية ، كما ترى في الصورة



ما تكاد شمس الاصيل تميل الى الغروب حتى يتجه اهالي سيئون الى منازلهم .. ان الليل في المدينة ممل متعب ، فهي خالية حتى من دار للسينما التي حرموا اقامتها في المدينة ... ولكن في الاعياد والافراح يزاول الاهالي رقصاتهم الشعبية ، التي تشبه رقصات السمباوالتشاتشا ، وانما على نغمات المزمار ، وقرع الطبل ، وتصفيق الحاضرين ، الذين يلتفون على شكل دائرة تندفع الراقصة الى وسطها وتبدأ الرقص بمفردها ، ثم يتقدم اليها احد الرجال ، فتمسكه من ساعده وتدور به .. ويزداد التصفيق ، ويعلو نغم المزمار العجيب ، وتسرع دقات الطبال ، وتلتهب ايدي المصفقين ، ويتناوب الرجال الرقص مع الراقصة حتى مطلع الفجر ، فيتعب الرجال ، ويتساقطون اعياء ، والراقصة صامدة لا تمل ، بل تعيرهم بقولها : هيا الى الرقص يا رجال !

من كانت له اذنان فليسمع !

واخيرا لا بد من كلمة نصرخ بها في اذن الحضارمة المهاجرين الاثرياء ، ولتسمعها الحكومات العربية : ان حضرموت ما تزال بكـرا بالنسبة لثرواتها المدفونة .. والنفط أمره في علم الغيب .. والبلاد تئن من فرط التأخر الذي تعيش فيه .. وانقاذها لا يتم الا بمدها بالخبراء وبالأموال التي تشكل العائق الاكبر في سبيل تنفيذ مجموعة من المشاريع التي تعود بالخير العميم على البلاد .

فهناك مشروع لاصلاح السدود الحالية لاستقلال كل قطرة من مياه الامطار الشحيحة ، وهـذا المشروع يحتاج الى نصف مليون دينار ...

والمشروع الثاني هو حفـر ١٠٠ بئر ارتوازي كبير تهبط ماسورتها الى أعماق ٢٠٠ الى ٢٥٠ قدما ، لتساعد الآبار الحالية التي تهبط ٧٠ قدما تحت الارض . وتكاليف هذا المشروع ٥٠٠ دينار لكل بئر مع مضخاته ... وهذا المشروع يضاعف مساحة المنطقة المروية ..



الطريق الوحيد المعبد في سيون هو المؤدي من المطار الى المدينة وطوله ١٥ ميلا ، وقامت بتعبيده شركة النفط التي تقوم بالحفر في ثمود .. ويجرى الآن تعبيد بعض الطرق في سـيون باستعمال الزلط (الصلبوخ) الكبير المجلوب من الجبال ..

وكانت سيون تصدر المنسوجات القطنية والحريرية الى اليمن ، وتستبدل البن بها ، أما اليوم فقد توقفت هذه الصناعة رغم توفر المواد والأيدي العاملة .. ان تأسيس محلج ومغزل ، لعمل مناسج محلية ومنزلية يحتاج الى ١٠٠ الف دينـار ...

وهناك مشروع لمصنع تعبئة التمور ، وتكاليفه ١٠ آلاف دينار .

ومشروع لفتح محطة للتجارب الحيوانية والزراعية ، تكاليفها ١٠٠ الف دينار ..

اما المشروع الذي يمكن أن يوطد الاستقرار الاقتصادي والزراعي ، ويسهل على الناس حياتهم فهو تعبيد الطريق الموصل من سيون الى المكلا ، وتكاليفه تقرب من المليون دينار ..

والى جانب هذا كله يمكن اقامة مصانع صغيرة لتعليب الطماطم ... ومصانع لتجفيف البصل والثوم اللذين ينموان بكميات هائلة ..

٨٠٠ ألف دينار تنقذ التعليم

اما عن مساعدات التعليم ، فتطلب البلاد أولا تزويد المعارف باخصائيين ليضعوا حـدا لفوضى البرامج والكتب التي تمارسها المدارس الاهلية دون تخطيط أو دراسة ..

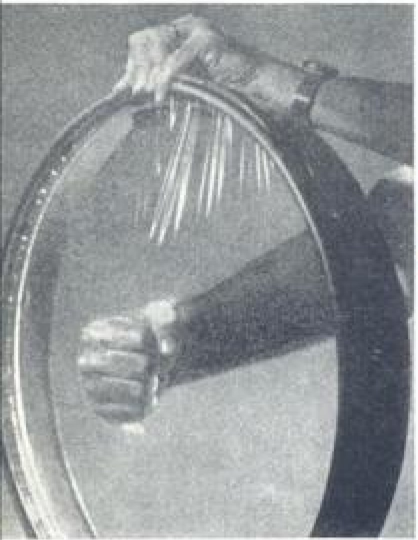
والحاجة ملحة الى بناء عشر مدارس حكومية في عشر قرى ... وتحويل عشر مدارس أهلية الى مدارس حكومية تتولى الدولة كل تكاليفها .. وفتح ثلاثة فصول وسطى .. وبناء ثانوية ، ومدرستين ابتدائيتين للبنات .. ومعهد لتدريب المعلمين ... وفتح عشرة فصول لمحو الأمية ، وتعليم الكبار في المساء .. وتوفير الكتب والمقررات المدرسية .. وفتح مختبر للتدريس العملي للعلوم .. وجلب ٢١ مدرسا جديدا ... ومدرستين .. واكمال تأثيث المدارس كلها ..

ان جميع هذه الطلبات من بناء وطلب مدرسين تحتاج الى ٨٠٠ الف دينار لتحقيقها كلها !

انـنا هنا نتقدم بالحقائق .. ونسلط الاضـواء على النقص ونقترح بعض الحلول .. عسى ان يجد أبناء سيون من يعينهم على النهوض من وضعهم الحالي الى وضع أفضل ، في سبيل مستقبل باسم ان شاء الله .

سليم زبـال

أنباء الطب والعلم والاختراع



حذار من «التتراسيكلين»

لا تعطه للحامل

● ان التترا سيكلين Tetra - cycline عقار معروف يعطى لمقاومة العدوى داخل الجسم، عند التهاب الكلى . واليوم يحذر الاطباء ، والبحاث ومصانع الصيدلة من اعطائه للأم الحامل ، ذلك انه يتضمن خطرا عليها ، وعلى ما حملت . وقد يذهب خطره عليها الى حد الموت ، والى الطفل ، الى حد التشوه عند الولادة .

نوع من اللدين جديد

● انه رقيق ، فسمكه نحو ربع من جزء من الف من الميلمتر .

وانه شديد ، تدل عليه الصورة ، وقد لكم الرجل ورقة منه ، مشدودة على اطار ، بقوة ، فلم تتمزق .

اما اسمه فالسرلين Surlyn .

واما صانعوه فالشركة العالمية الشهيرة دوبونت Dupont .

عجلة القيادة فى الغد

● انها عجلة السيارة عجلة قيادتها .

ان تلك الدائرة الجامدة التي يمسك بها قائد السيارة او قائدتها ، بيديه ، فيحول بها السيارة يمينا ، ويحولها يسارا ، تسبب له خطرا عظيما عند التصادم . ان هذه العجلة ، عندما تقف السيارة بغتة ، وجسمه متحرك غصبا الى امام ، جديرة بأن تدخل الى صدره ، فتحطمه تحطيما .

واذن فقد خطر للمصممين السيارات : لِمَ الدائرة كاملة ؟

يكفي قبضتان واحدة لليمنى ، والثانية لليسرى ، كما ترى فى الصورة .



يحاول العلماء كشف أعماق الفضاء ، فهل بدأوا بكشف

● تنبه العلماء منذ عدة سنوات ، الى شيء من التناقض عظيم فى سلوك الامم مسالك العلم ، وبحوث العلم . فبينا هم يبذلون الجهود الجبارة ، وينفقون الاموال الطائلة ، وهدفهم البلوغ الى القمر ، او كشف عن طبيعة المريخ ، وسائر الاجرام التى تبعد عنا ملايين الاميال ، نراهم غفلوا ازمانا طويلة عما هو اقرب من الكواكب ، وايسر هدفا من اجرام السماء ، تلك البحار والمحيطات ، بالذى فيها من احياء ، اختلفت اجناسا ، وكثرت سكانا ، وما احتوته من ركائز دلت البشائر الاولى على انها فوق ركائز الارض كثرة وقيمة .

وبتنبه العلماء الى ذلك ، اتجهوا ، من سنوات ليست بالطويلة ، الى البحار والمحيطات يجعلون منها لأبحاثهم هدفا .

وكانت العقدة فى الوصول الى تلك الاعماق .

وكانت العقدة فى العمل فى تلك الاعماق وليس بها هواء .

ولكن حمل الرجال هواءهم ، الى الفضاء ، فلم لا يحملونه الى اعماق الماء ؟

وكانوا قد داروا بسفنهم ، على سطح الماء ، يدلون من فوق سطوحها بدلائهم فى الماء ، فترفع لهم مادة البحث التى يطلبون . وكشفوا بذلك من البحار الكثير . وكشفوا عن اعماقها وعن املاحها ، ودرجات حراراتها ، عن احيائها ، وحتى عن قيعانها . وكان من اشهر تلك السفن ، السفينة تشالنجر Challenger وبعثتها العلمية البحرية الشهيرة فى النصف الثانى من القرن الماضي .

وتلت هذه السفينة سفن اخرى .

ولكن كانت هذه السفن السطحية للكشف عن المحيطات من « بعيد » ، كما كان الكشف عن اجرام السماء بالتلسكوبات « من بعيد » .

ثم كان صعود الانسان الى السماء .

ثم كان نزول الانسان الىاعماق الماء .

وقد جئنا فى « العربي » على ذكر اوعية تهبط من الماء الى أعماق محدودة، كان اكثر هدفها تحقيق الهبوط ، واليوم نذكر آخر ما صممه المصممون مما ينزل به العلماء الى الاعماق .

وهى خطوة الى امام كبيرة فى سبيل البحث لها ما وراءها .

انها سفينة غائصة تغوص تحت الماء .

كم يعيشون فى المدن ، وكم فى الريف

● فى المدن يتركز السكان .

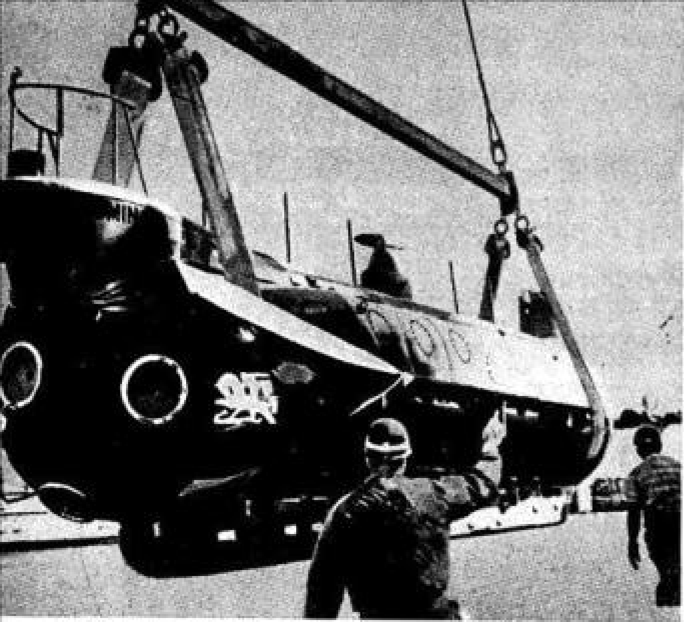
وفى الريف واشباهه ينتشر السكان ويتوزعون .

والمصنع الواحد فى المدينة قد يضم مئات من الناس .

وقل من الريف ما يضم العشرة من الحقول العشرة من الناس .

وتقوم هيئة الأمم المتحدة ، فيما تقوم به من احصاءات نافعة ، فيتبين لها ان ٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس تعيش فى المدن ، اى ان ربع سكان الأرض يعيشون فى المدن .

ويقول الاحصاء ان امريكا الشمالية ، واوروبا ، واستراليا ، وما حولها من جزائر ، وكذا روسيا ، اكثر عيشا في المدن بمقدار الضعف ، من سائر بلاد الدنيا .



أعماق الماء

الى اليسار : هذه السفينة هى آخر ما صممه المصممون للنزول الى اعماق الماء

طولها ٥ر١٥ مترا ، وعرضها ٥ر٢٤٥ مترا ، وتزيح من الماء ٥ر٧٣ طنا .

وتحمل طنين من الاجهزة العلمية .

وتبقى تحت الماء ، فى المرة الواحدة ، ٣٦ ساعة . وقد تطال الى ضعفها .

وفى اوسطها ، وفى اعلاها ، مروحة تدور بالكهرباء ، فتحرك السفينة افقيا ، وبها ، فى مؤخرتها مروحتان تدوران بالكهرباء ، فتحرك السفينة راسيا ، وبها ، فى مقدمتها ، يدان ، ميكانيكيتان يلتقط العلماء بهما من اشياء البحر ما يشاؤون .

وهي تحمل من بها الى عمق ٤٥٠٠ متر تحت الماء ، ولها مجال تعمل فيه ، دائرة نصف قطرها ٢٢٠ كيلو متر .

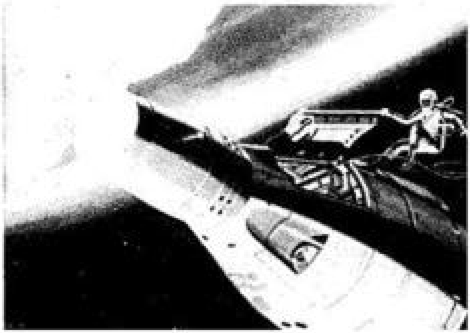
وهي تسير بسرعة ٤ اميال بحرية فى الساعة .

ومن الطريف ، والخطير فى آن ، انها مصنوعة من الالمنيوم ، مضافا اليه نسب بسيطة من الزنك والمغنسيوم ، ومقادير تافهة من النحاس والمنجنيز والكروم . وهذه الاشابة كان فيها سر النجاح . فهى تجمع بين الخفة ، فلا تثقل الغائصة عند الرفع فى الماء ، والمتانة التى تقاوم هذه الضغوط الهائلة ، ضغوط الماء ، عند هذه الاعماق .

٣١ محاولة اخرى قبل الوصول بالرجال الى القمر

● يقول ناطق من ادارة الشئون الهوائية والفضاء فى الولايات المتحدة انه يلزم ، قبل الصعود بالرجال الى القمر ، من ٣١ تجربة تطلقها الى السماء ، تمهد السبيل للوصول بالرجال الى سطح القمر سالمين ، والعودة بهم .

■■



القدرة العقلية ، والمستوى المنخفض من هذه القدرة ، حسب ما يوضحه الرسم البيانى التالى :



وسنقصر حديثنا فى هذا المقال عن المتخلفين عقليا .

سبق ان ذكرنا انه فى اى مجتمع يوجد حوالى ٣٪ من عدد افراده من المتخلفين عقليا ، وهذا يعنى انه يوجد مثلا حوالى ٣/٤ مليون متخلف عقليا فى مجتمع يبلغ عدد سكانه ٢٥ مليون نسمة ، وهذا العدد الكبير من المتخلفين عقليا امر يتطلب المزيد من العناية والاهتمام .

من ذلك بكثير . ويمكن تلخيص دوافع رعاية المتخلفين عقليا الى ما يلى :

أولا : الدافع الانسانى :

فالله كرم بنى آدم وميزهم بالعقل على سائر مخلوقاته ، فما أحرانا ان تقدم يد العون لمن حرم من نعمة تمام هذا العقل ، وما أحرى المجتمع ان يقدم لهذه الفئة غير المحظوظة من المتخلفين عقليا كافة أنواع الرعاية والعناية . وكيف تتباطأ الدول المتقدمة فى رعاية المتخلفين عقليا والعناية بهم وهى تولى الحيوانات الأليفة وغيرها رعايتها وتمنحها العطف ، أليس أحق أن يحظى ببعض هذه الرعاية وهذا العطف التعساء من بنى الانسان ممن ابتلوا بالتخلف العقلى .

ثانيا : تخفيف العبء عن كاهل الاسرة :

فالأسرة التى ابتليت بالتخلف العقلى فى أحد ابنائها تواجه الكثير من المشكلات والمصاعب نتيجة لوجود هذا الطفل بينها . فالطفل المتخلف عقليا غالبا ما يكون مصدرا للمتاعب والاضطراب فى

كَمْ تعرِفُ عَنْهُم ؟

بقلم : الدكتور علي أحمد علي
بتخطيط التعليم العالى – القاهرة

وقد وجه معظم الاهتمام لضعاف العقول من الأطفال وخاصة الذين هم فى سن المرحلة الابتدائية . وقد شجع على الاهتمام بهم ظهور اختبارات الذكاء التى أمكن بواسطتها اكتشاف حالات التخلف العقلى ، تلك التى بالرغم من استخدامها على نطاق واسع ، لم تصل بعد الى المستوى الذى يمكن الاعتماد عليها بمفردها فى عملية اكتشاف المتخلفين عقليا دون اللجوء الى بعض الأساليب الأخرى كأسلوب الملاحظة وغيرها .

دوافع العناية بالمتخلفين عقليا

بدأ اهتمام الدول بالأطفال المتخلفين عقليا فى الخمسين من السنين الاخيرة ، وان كان هذا لا يمنع من وجود محاولات متفرقة لرعايتهم ترجع الى ازمنة ابعد

الأسرة ، ذلك لأن هذا الطفل فى حاجة دائمة الى الرعاية الدائمة والملاحظة المستمرة من جانب الوالدين . وتزيد الصعاب والمتاعب اذا كان كل من الزوج والزوجة يعمل . والواقع ان وجود الطفل المتخلف عقليا بين اخوة له من ذوى الذكاء العادى كثيرا ما يوقع الآباء فى حيرة من أمرهم فيما يتصل بالأسلوب الذى يتبعونه فى تربية أبنائهم . فمثلا قد يضطر الآباء الى عقاب طفلهم العادى اذا اقدم على فعل مرذول يستحق عليه العقوبة ، فى حين يعفون عن طفلهم المتخلف عقليا من العقوبة اذا اقدم على نفس العمل . وقد يثير هذا التصرف حفيظة اخوته وخاصة اذا كانوا فى سن الطفولة لانهم يرون أبويهم يعاملان اخاهم المتخلف عقليا معاملة خاصة . يصعب عليهم بسبب صغر سنهم ادراك السبب او معرفة دوافع التمييز والتفرقة فى المعاملة .

وكثيرا ما يتصرف الطفل المتخلف عقليا فى المنزل بطريقة تدل على منتهى عدم المسئولية ،

العربي

العدد ٨٤
٨ رجب ١٣٨٥
نوفمبر
تشرين الثاني) ١٩٦٥



اطلب

ربى الصغير

مع هذا العدد

جوائز

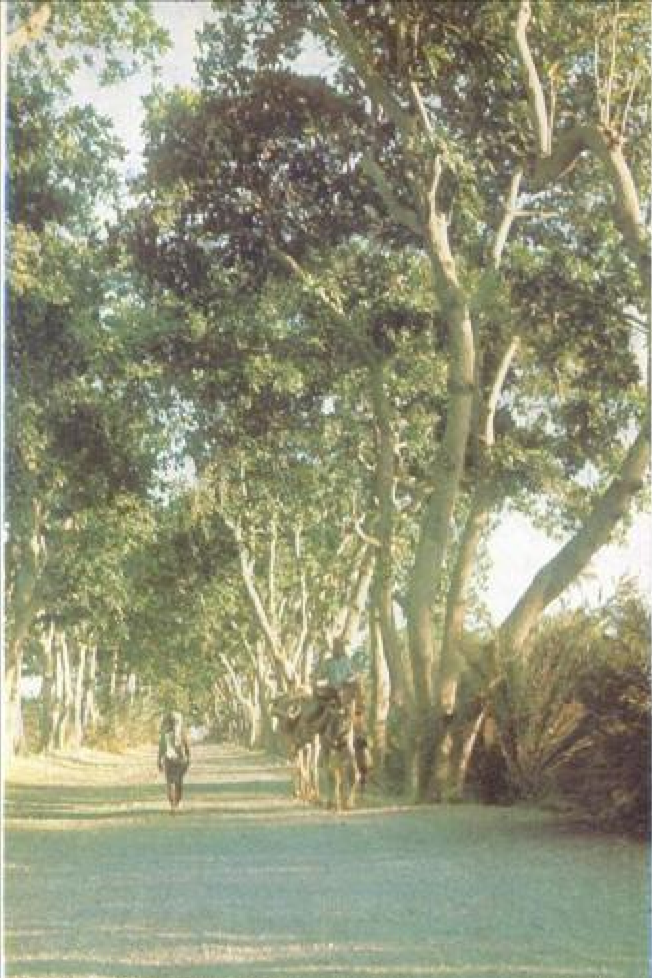
١٢٠٠

دينار سنويا

ية من لحج
سلح بالتعلم
نتصر على التقاليد

الثمن

ويت	١١٠	فلوس
لج العربي	٢	روبية
ية	٢	ريال
من	٣٫٥	شلن
راق	١٢٠	فلسا
نان	١٠٠	قرش
دن	١٠٠	فلس
ورية	١٠٠	قرش
ع.م.	١٠	قروش
سودان	١٠	قروش
يا	١٥	قرشا
س	٢٠٠	مليم
	٢٠٠	مليم



أعرف وطنك أيها العربي

لحج

ملتقى واحات الجنوب العربي



الى اليمين : يتميز اللباس الوطني اللحجي بألوانه الزاهية الجميلة .. والصورة اليمنى تمثل الطف شخصية في لحج ، انه عبده على السوبجي « الفيلسوف » الذي لا يترك بندقيته ولا يتوقف عن الحديث !

■ **لحج .. اسم تردد على مسامع القراء في السنوات الاخيرة من خلال الاحداث ، فأصبح مألوفا لدى الكثيرين ممن لم يسمعوا به من قبل ، أو سمعوا به دون أن يعرفوا عن مسماه شيئا .**

واليوم تقدم «العربي» لاول مرة استطلاعا مصورا بالالوان عن « لحج » هذه .. انه الاستطلاع الثالث الذى قامت به بعثتنا في جنوب الجزيرة العربية .



جزء من الطريق الموصل بين لحج وتعز باليمن … ويلاحظ انه لم يرصف بعد ، بعكس الطريق الموصل من لحج الى عدن …

قام بهذا الاستطلاع

سليم زبال

وصوره

« أوسكار »



يطبق في مدارس لحج جزء من المنهاج الدراسي السوداني … ونرى هنا احدى المدرستين السودانيتين في لحج ، تدرب احدى الفتيات على أعمال الابرة



القطن … أصبح المحصول الرئيسي في لحج . وتقدر كمية الانتاج السنوي منه بنحو خمسة ملايين رطل انجليزي … وهذا احد ابناء لحج يجمع الذهب الأبيض من فوق شجيراته ..

ولحج هي احدى سلطنات الجنوب العربي الخمس والعشرين ... ولكنها - طبقا للعرف السياسي - لم يعد لها كيانها المستقل ... لقد ذاب هذا الكيان عام ١٩٥٩ عندما انضمت الى ما يسمى باتحاد الجنوب لتصبح أكبر ولاية من ولاياته الاربع عشرة .

وسلطنة لحج ، أو سلطنة العبادل كما تسمى ، تقع في الشمال الغربي من عدن .. وعاصمتها « الحوطة » ، ويسمونها لحج أيضا .

واهميتها تكمن في موقعها الاستراتيجي الهام على الطريق الرئيسي الموصل بين عدن واليمن .. وقد جرّ عليها هذا الموقع الخراب والدمار في الحرب العالمية الاولى ... اذ كان الأتراك ، حلفاء الالمان في تلك الحرب ، يحتلون اليمن ، فأخذوا على عاتقهم مهمة مهاجمة الانجليز المتمركزين في عدن ، وكتبوا لسلطان لحج ، أحمد بن علي ، يطلبون منه مساعدتهم لطرد الانجليز ، فرفض السلطان .

وفي عام ١٩١٥ انطلقت القوات التركية من قاعدتها في تعز باليمن ، وكانت مؤلفة من ٢٧٠٠ جندي مزودين بالمدافع الرشاشة المحملة على ظهور البغال والحمير .. فتصدى لهم سلطان لحج على أمل وصول مدد بريطاني ، ولكن هذا المدد ضل طريقه وسط كثبان رمال الصحراء ، ولم يصل منه الى لحج سوى شرذمة صغيرة تقدم اليها سلطان لحج ، ولكنه لم يقابلها أبدا ، اذ حسبته من طلائع العدو التركي ففتحت عليه نيران أسلحتها وأردته قتيلا !!

واستولى الأتراك على مدينة الحوطة - لحج - « فقتلوا عددا كبيرا من أهلها ، وانتهبوا أموالها وكل ما فيها » ... واتجهوا صوب عدن فاحتلوا بلدة « الشيخ عثمان » ، وظلوا يتقدمون حتى مشارف عدن ، ولكنهم لم يدخلوها وانما عسكروا عند مشارفها ..

ولم يجلُ الأتراك عن لحج الا عام ١٩١٨ بعد أن خسروا الحرب مع حلفائهم الالمان ..

دلتا لحج

وأرض لحج منبسطة قرب عدن ، ولكنها تأخذ في الارتفاع كلما اتجهنا شمالا صوب اليمن، لتتحول الى جبال مرتفعة تفصل بين اليمن ولحج .. وفي شهري أغسطس وسبتمبر من كل عام ، تتساقط الامطار غزيرة على هذه الجبال فتندفع على هيئة سيول في مجرى واحد كبير يعرف بوادي تُبَنْ ... وتستمر هذه السيول في اندفاعها حتى رأس الوادي حيث تنقسم الى فرعين : الوادي الكبير ، والوادي الصغير ..

وبين هذين الفرعين تكونت دلتا لحج من أرض غرينية خصبة ..

الماء .. الماء

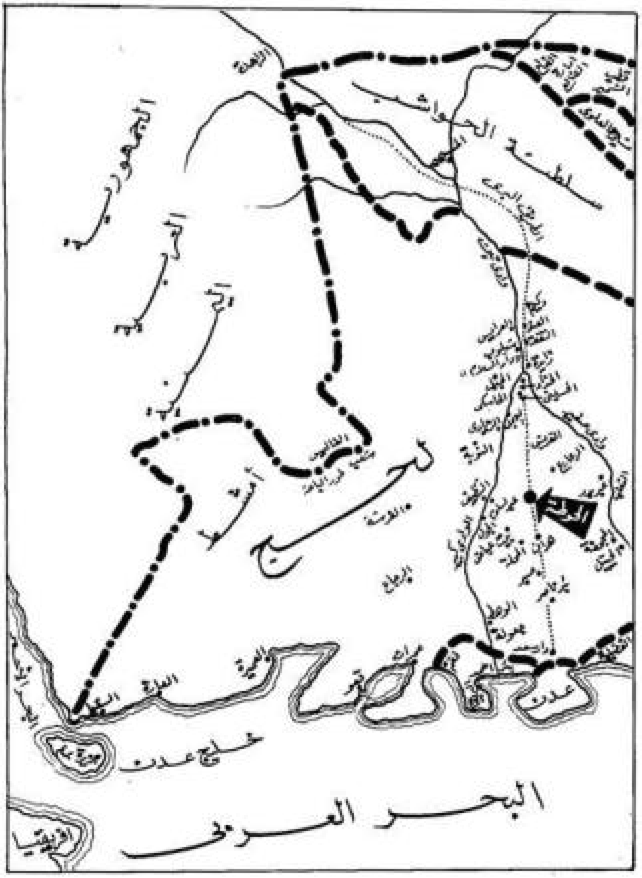
وعند رأس الدلتا كان يقوم سد ترابي هزيل ما تكاد السيول تندفع نحوه حتى تجرفه في طريقها .. وفي عام ١٩٥٩ قامت « لجنة الانعاش » ببناء سد كبير مكانه كلفها ٥٥ الف جنيه ، ليتحكم في توزيع مياه السيول على الفرعين ، وعلى القنوات الثلاث التي تروي وسط الدلتا وجانبيها .

وكثيرا ما تقل الامطار وتتوقف السيول ، ولكن أرض لحج تتميز بمياهها الجوفية الغنية ، فما يكاد صاحب الارض يحفر بئرا حتى يندفع الماء بكميات غزيرة ..

وقد تم حتى الآن حفر ٤٠٠ بئر صغيرة ، فلبت

أجمل مباني الحوطة (لحج) انه مقر رئاسة المديرية ، ويضم جميع الادارات الرسمية .. وكان في السابق قصرا للسلطان عبد الكريم ابن فضل بن علي ، شيده عام ١٣٤٣هـ . وأقاموا في حديقته هذه الأعمدة الأثرية ..





خريطة سلطنة لحج .. من الغرب تحدها الجمهورية اليمنية .. ومن الشمال سلطنة الحواشب .. ومن الجنوب عدن ، وخليج عدن.. ان مساحة لحج خمسة آلاف ميل مربع تقريبا ، وعاصمتها الحوطة، وتسمى لحج أيضا.. اما عدد سكانها فقد اختلف فيه ، بعضهم يقدره بأربعين ألفا ، والبعض يرفعه الى ١٠٠ الف !



السلطان ابن فضل بن علي العبدلي ، سلطان لحج .

★ ★ ★

نظام الرى القديم ، الى رى مستديم ...

عدن تشرب من لحج

ومما يذكر ان عدن وضواحيها تشرب من ماء آبار لحج الذى ينساب من ٢٤ بئرا ارتوازية ، تعمل عليها المضخات بلا توقف ليلا ونهارا لتسد حاجة عدن من الماء ، وتبلغ ٦٠ الف جالون يوميا.

ويصل هذا الماء العذب الى عدن عبر انبوبين يمتدان بمحاذاة الطريق البرى الوحيد الذى كانت تسير عليه قوافل الجمال منذ آلاف السنين ..

قصة طريق ..

وقد ظلت لحج تعيش فى عزلة بدون طريق معبد يوصل اليها ، حتى الحرب العالمية الاولى، فمدها مد الانجليز خطا حديديا مفردا يربط بين شمال لحج ومدينة عدن ، لاستخدامه فى اغراضهم الحربية .. واستمر هذا الخط اليتيم يعمل حتى ازيل عام ١٩٣٢ ، وبازالته اصبح الجنوب العربى خاليا من اى خط للسكة الحديد ..

ومرة اخرى ، ولاغراض حربية بحتة ، بدأوا ، فى مطلع الحرب العالمية الثانية ، فى رصف جزء من طريق القوافل القديم بالاسفلت والرمل ، ولكنه لم يعمر طويلا ، فقد تحول مع انتهاء الحرب الى كومة من الاحجار والفجوات ، لرداءة المواد التي استعملت فى رصفه .

وعندما ازدادت اهمية عدن عام ١٩٥٨ وكثر عدد سكانها ، تزايد طلبهم للماكولات من خضر وفواكه فعاد التفكير فى تعبيد الطريق ليربط بين عدن ولحج حيث تكثر المزارع ... وفى عام ١٩٦٢ انتهى العمل من رصف الطريق على احدث الاساليب ، بعد مجهود شاق كلفته ١٠٠ الف جنيه .

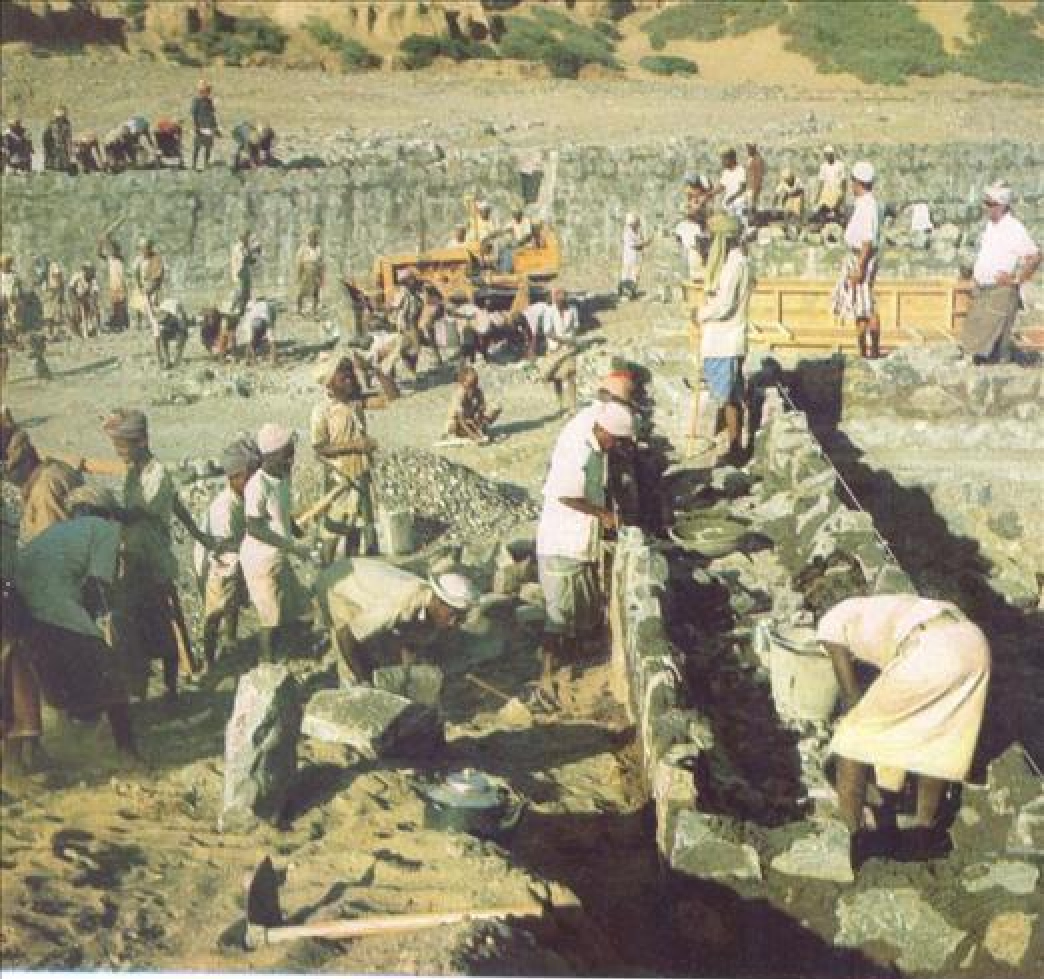
الطريق يقسم الحوطة

وكان هذا الطريق بمثابة العصا السحرية





كانت لحج مركزاً لصناعة « الشيلان » والكوفيات الحريرية ، وكان الصانعون منتشرين في مختلف انحاء السلطنة ... وكان انتاجهم يكفي استهلاك البلاد .. ولكن منافسة الحرير الياباني قضت تقريباً على هذه الصناعة ، حتى لم يعد في لحج اليوم سوى ٤ محلات تصنع الكوفيات الحريرية ، ويسمونها « المِعْوَاس » . ان ثمن الواحدة منها يتراوح بين ٣ و ٦ دنانير .. وتستورد خيوطها من الهند واليابان .. وما زالت تصنع على الطريقة القديمة ، كما نرى في الصورة العليا ..



بدا حرص الناس على الماء في لحج يتزايد .. وبداوا يعملون على اقامة السدود على الواديين المحيطين ببلدنا لحج لتنظيم توزيع المياه ... وتراهم في الصورة العليا يعملون على اقامة محطة لتوزيع المياه على فرع الوادي الصغير ... والهدف من اقامة المحطة هو توزيع مياه الري على قناتين جانبيتين ، تستطيع كل منهما ارواء ٤ آلاف فدان . وقد تكلف بناء المحطة مبلغ ٣٥ الف دينار ، وعمل فيها ١٥٠ عاملا يوميا ، وهي تبعد ٤ اميال شمال « الحوطة » ... ومما يذكر ان المهندس المسئول عنها هو ناصر محمد عامر احد ابناء لحج الذين تخرجوا من كلية الهندسة بجامعة عين شمس

الى اليمن : اقامت لجنة الانعاش الزراعي في لحج محلجا يحوي ٣٠ مكنة لحلج القطن ، وبعد ان يتم الحلج يتحول القطن آليا الى المكبس ، الذي يكبسه في بالات وزن كل منها ٣٦٠ رطلا ... اما بذرة القطن فتصدر للخارج بحالتها الطبيعية .. ومن المنتظر ان يصل الى المحلج غربال لتنظيف البذرة قبل تصديرها .. وقد اتفق على صنع هذا الغربال في مدينة المحلة الكبرى بالجمهورية العربية المتحدة ...

التي حولت قوافل الجمال الى قوافل للسيارات، مختلفة الانواع والأحجام ، تسير على الطريق وهي مشحونة بالخضر تنقلها الى عدن ، التي تبعد ٢٥ ميلا عن لحج ، وترجع من هناك محملة بالمصنوعات، التي يعاد تصديرها على ظهر السيارات الى تعز باليمن ، وتبعد ١٠٠ ميل عن لحج ، عبر طريق شاق غير معبد ، لان الطريق المعبد يمتد فقط من عدن الى الحوطة عاصمة لحج .

وهذا الطريق يقسم مدينة الحوطة الى نصفين ، وعلى جانبيه تصطف مئات المتاجر الصغيرة المتلاصقة التي تبيع الجلود ، والحقائب المعدنية ، والفواكه ، والمعلبات ، والنعال وغيرها .

والى جانب المتاجر تصطف المقاهي التي تنطلق من اجهزة الراديو فيها اغاني مطربي الجنوب العربي ، فتملأ الطريق ضوضاء ، فوق الجلبة التي تسببها العربات التي تجرها الجمال ، واصوات بائعي الفل والكادى الذين يحتلون مداخل اسواق الخضر .

الكادى .. والندّ .. والمعسلة !

ان الفل والكادى ، وهو غصن شجرة له رائحة طيبة ، من الحاجيات الاساسية عند المرأة ، فهي تتجمل بهما فتضعهما في شعرها وعلى ملابسها ...

وقد ورثت المرأة اللحجية عن جدتها حبها للتعطر والتطيب بمختلف الطيوب التي تصنعها بنفسها داخل منزلها ..

واشهر الطيوب المنزلية هما النِدّ والمعَسلة ... ويصنع الاول من خلط المسك بقليل من السكر وعود الصندل ، تطبخ على النار ثم تجفف وتستعمل في البخور ...

اما المعسلة فتصنع بدق السكر مع الصندل والزعفران ، وبعد طبخ الخليط على النار يترك ليجف ، وبعدها تبخر به المرأة !

والمرأة اللحجية ما زالت حتى الآن تعيش على نفس النمط الذي كانت تعيشه جدتها ! فما تكاد الفتاة تبلغ الثانية عشرة من عمرها حتى « تتشرّشف » اي تغلف نفسها بالعباءة السوداء وتسمى « شرّشف » في لحج ، وتغطي وجهها بالقناع الاسود ، ويسمونه « المقْرمة » !

وتعيش المرأة اللحجية في فراغ ثقيل قاتل خلف اخشاب نافذتها ، تنظر الى الاطفال يلعبون في الازقة الرملية المحيطة بمنزلها ، والى جوارهم مجموعات من الماعز الاسود تلتهم كل ما يصادفها من اوراق او مهملات ...

تعليم الفتاة بدأ بخدعة !

وقد ظلت الفتاة اللحجية بعيدة عن مقاعد التعليم حتى عام ١٩٥٧ . ففي هذا العام جرى

اثناء جلسات مضغ القات وتخزينه في الفم ،يحلو الرقص للبعض .. فيقوم كل واحد مع زميله ليرقصا رقصا شعبيا ذا خطوات لطيفة منتظمة ،على نغمات آلات الطرب ، من عود وكمنجة وطبلة.







لا تتوقف حركة السيارات على الطريق الوحيد فى لحج .. انها تأتى من عدن .. وتستريح فى لحج .. لتتابع سيرها الى تعز باليمن .. حاملة مختلف الانواع والاصناف .. وفوق كل هذا اكداس من البشر فى طريقهم الى تعز ..

استعراض عام لطلبة المدارس .. واثناء سير الموكب اندست ١١ فتاة صغيرة بين مجموعات الطلبة ، وسرن وكانهن يمثلن اول مدرسة للبنات ! فقوبلن من المتفرجين بالتصفيق الحاد ...

وكانت هذه بداية البداية ، اذ بدا بعدها تعليم الفتاة ، الذى ظل يتطور ويتطور حتى اصبح عدد التلميذات اليوم ٦٣٢ تلميذة .

لقد وصل التعليم الى ذروته فى لحج خلال العام الماضي اذ تقدم ١٧٠٠ طالب مستجد للالتحاق بالمدارس ... وقد ترتب على قبول هذا العدد الضخم ـ نسبيا ـ ان اصبحت الدراسة تتم على فترتين فترة صباحية ، واخرى مسائية للتغلب على ازمة مبانى المدارس ...

المتعلمون ٦٪ فقط

ان عدد سكان لحج ٤٥ الف نسمة تقريبا ، لا تزيد نسبة المتعلمين منهم عن ٦٪ فقط ، يشغلون مختلف الوظائف فى السلطنة ، اذ ان لحج تتميز عن غيرها من الامارات والسلطنات بموظفيها المحليين المختارين من ابناء البلاد نفسها ... وقد لاحظ الآباء ان الشاب المتعلم هو الذى يحتل اكبر المراكز فعمدوا الى تعليم ابنائهم ، بعد ان كانوا يرفضون تعليمهم فى السابق ..

وقد اصبح مجموع عدد الطلبة اليوم ٥٠٠٠ طالب يتعلمون فى ٢٧ مدرسة ابتدائية ومدرستين متوسطتين ومدرسة ثانوية حديثة بها فصل واحد ... وهناك مدرستان مشتركتان بين التلاميذ والتلميذات لضيق الاماكن ...

وقد بدا التعليم الحديث فى لحج منذ ٢١ سنة على المنهاج المصرى ، ولكنه اليوم يتأرجح بين المنهاج المصرى والمنهاج السوداني ... !

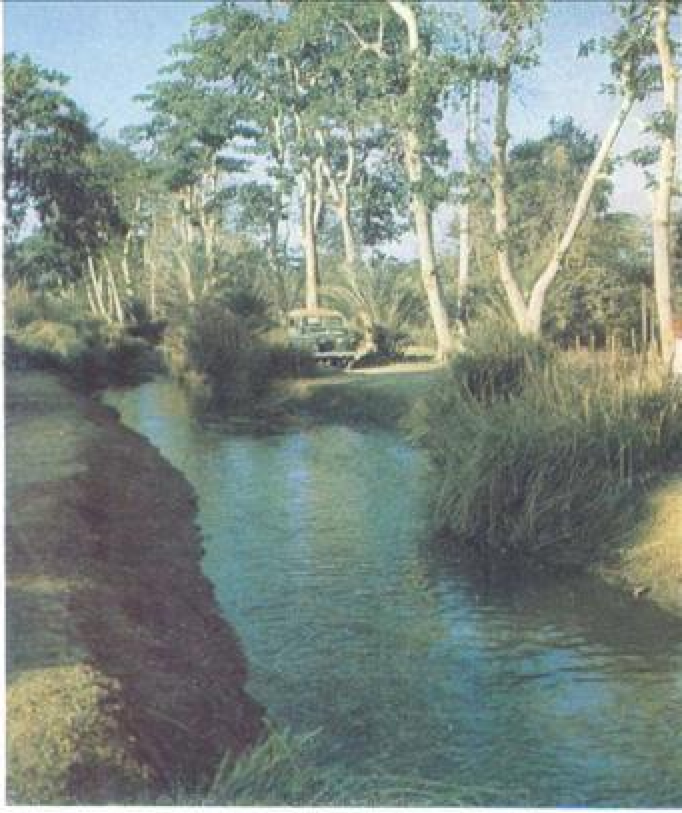
ضرائب للتعليم

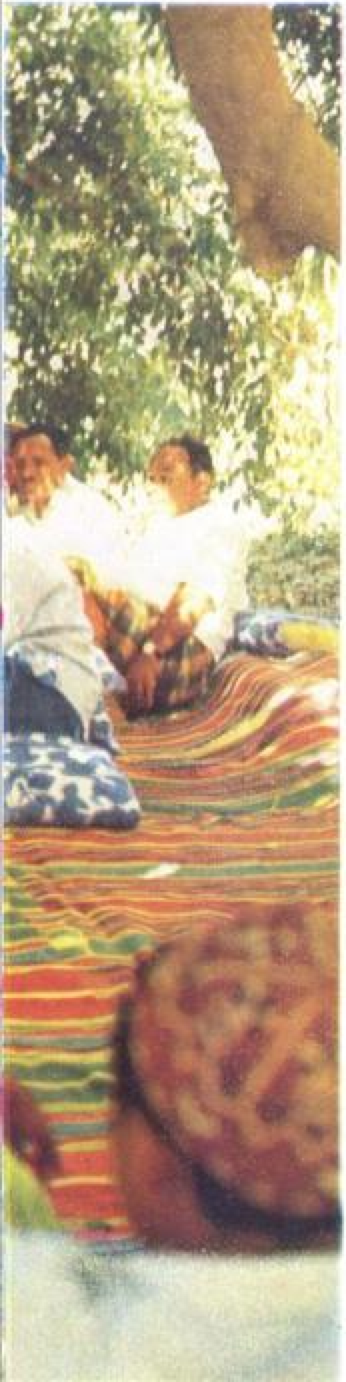
اما مشكلته الرئيسية فهى فى قلة عدد المدرسين والمدرسات .. والذين يعملون حاليا هم من ابناء لحج والسودان وسوريا ولبنان والاردن ...

وقد شعر المسئولون عن التعليم بأسى عميق عندما الغيت المنح الدراسية التي كانت الكويت والعراق قد خصصتاها لابناء لحج .

ولكن كل هذه المصاعب لم تثبط عزيمة الاهالي ، الذين مضوا فى طريقهم وكونوا مع المسئولين « هيئة التعليم الاهلية اللحجية » لتتولى

بســاتين الحســيني
ماء .. وخضرة .. وقــات







تشتهر منطقة الحسيني ، عند رأس دلتا لحج ، ببساتينها الجميلة التي تروى من مياه الينابيع الطبيعية ، وترتفع على ضفاف جداول الينابيع أشجار البيدان العالية التي تستعمل جذوعها في أعمال البناء .. ويقصد أهل لحج وعدن الى هذه البساتين فيتناولون طعامهم تحت ظلال الأشجار .. وبعدها يجلسون على الوسائد ، ويبدأون في مضغ القات وتخزينه في أفواههم ، بينما يشنف المغني الوطني آذانهم بأغانيه المحلية بصحبة العود والطبلة .. ومما يذكران التفكير في انشاء كازينو في هذه المنطقة الجميلة يعود الى سنين عديدة مضت .. ولكنه لم ينفذ



فتح المدارس والمعاهد الجديدة ، واتاحة الفرصة امام أكبر عدد من ابناء لحج للدراسة العالية ...

وميزانية هذه الهيئة تأتي من ضرائب مباشرة على الشعب يؤديها الجميع عن طيب خاطر ، فمثلا كل شخص مسافر في سيارة من لحج الى عدن ، عليه دفع مبلغ ٢٠ سنتا ، لمساعدة ميزانية الهيئة ، فتتجمع من هذه الضريبة حصيلة تصل الى ما قيمته ٦٥٠ دينارا شهريا ...

وفي مطلع كل شهر يدفع كل موظف ١٪ من راتبه للهيئة ومجموع حاصل هذه الضريبة ١٠٠ دينار شهريا ... وكذلك كل من يدخل السينما يدفع ١٠٪ من ثمن التذكرة كضريبة للتعليم ...

وتمد الحكومة الهيئة التعليمية باعانة قدرها ٥٠٠٠ دينار سنويا ...

ويجبى على كل قنطار قطن ضريبة مقدارها سنت واحد ، وهذه تأتي بريع يتراوح مجموعه بين ٥و٦ آلاف دينار سنويا ، تخصص كلها للتعليم .

القطن مكان الذرة

وهذا المبلغ الذى يتجمع من ضريبة القطن يبين لنا مدى اهمية هذا المحصول في البلد ...

لقد احتل القطن مركز الصدارة على سائر المحصولات ابتداء من عام ١٩٥٥ ، واحدثت زراعته تغييرا جذريا في مختلف نواحي الحياة في لحج بعد ان ترك المزارعون الذرة والمحاصيل الفقيرة الاخرى ، واتجهوا نحو القطن ، حتى وصلت مساحة الارض المزروعة منه ١٤ الف فدان ، تعطي ١٤ الف بالة سنويا ، تزن اكثر من خمسة ملايين رطل انجليزي، كلها من نوع القطن الطويل التيلة.

وتقوم لجنة الانعاش الزراعي ، المكونة من الملاك والمستاجرين برئاسة السلطان ، بشراء القطن مع بذرته من المزارعين بسعر ٦٦ سنتا للرطل الواحد ، وتنقله الى المحلج الذى يضم ٣٠ مكنة ، وبعد حلجه ينقل بالسيارات الى عدن ومنها يعبر البحر بالبواخر الى انجلترا وهولندا والهند وجنوب افريقيا حيث يباع بسعر بورصة ليفربول ...

ويقسم الفرق بين ثمن الشراء والبيع الى ثلاثة اجزاء متساوية : جزء يضاف لرأس مال لجنة الانعاش ، وجزء يعطى للمزارع كأرباح ، وجزء يصرف على المشروعات الزراعية ..

وبهذه الوسيلة تم تغطية ثمن المحلج في عام



أحد فصول المدرسة الابتدائية
الفصل حتى تركت ١٣ طالبة تراهن
الاطمئنان الى أن المصور لن

واحد ، وأعطيت القروض للفلاحين فاقاموا ٤٠.. مضخة للماء ، كما تم بناء سد رأس الوادى .

استصلاح الاراضي

ان مساحة الارض المزروعة في لحج هي ٣٠ الف فدان أى نصف مساحة الارض الصالحة للزراعة هناك ..

وكان الاقطاع هو النظام السائد ، وكان الفلاح يعيش في ظل أوضاع شاذة .. ثم بدأ التفتح والوعي ينتشران بين مختلف الفئات ، ومعهما بدات تظهر مشاريع لاستصلاح الاجزاء المهملة من الاراضي الزراعية ، وفي مقدمتها مشروع منطقة الفيوش الذى سيحيي الف فدان ، سيتم تقسيمها الى قطع مساحة كل منها خمسة أفدنة سوف يتم تأجيرها بايجار اسمي لمائتي عائلة .. وقد كان الاصل تمليك الفلاح للارض التى سوف يزرعها ...

وقد أوشك العمل على الانتهاء من استصلاح هذه الاراضي التى وضعت عليها مضخات كبيرة تستطيع سحب ٧٠ الف جالون ماء في الساعة من باطن الارض ..

وهناك مشروعا « العرب » و « حمّولة »





للبنات فى مدينة الحوطة (لحج) يضم ٢٢ طالبة ، ولكن ما كاد مصورنا يدخل حجرة فى الصورة اليسرى ـ مكانهن هاربات من التصوير ـ ولم يعدن الى مقاعدهن . الا بعد يلتقط صورتهن !!!

لاستصلاح ٤٠٠ فدان أخرى ، وكلها سوف تروى بمياه الآبار الارتوازية التى تعمل بالمحركات الكهربائية ..

الآفة الكبرى فى لحج

وليس معنى هذا ان لحج تخلو من الينابيع الطبيعية ، بل على العكس ، فمنطقة بساتين الحسيني ، شمال الحوطة ، تزخر بالينابيع التى تتدفق مياهها فتروى اشجار البساتين وتحيل المنطقة الى منتزهات كبيرة ، هى بمثابة رئة يتنفس منها اهل لحج واهل عدن أيضا ، خلال أوقات فراغهم وعطلة نهاية الاسبوع.

ويحلو للكثيرين منهم عقد مجالس القات تحت ظلال الاشجار ، مخالفين بذلك الاساليب المتبعة فى مجالس القات بالبلاد المجاورة ... ففى اليمن تعقد هذه المجالس داخل غرف زجاجية عالية تسمى « المَنْظر » ... وفى عدن تعقد فى قاعات فسيحة مغلقة تسمى « المَبْرز » .

وقد أخذت قصة القات فى لحج شكلا جديدا منذ ان بدات حركة مقاطعة القات « الهررى » الذى كان يأتي يوميا على متن طائرتين من الحبشة لسد حاجة أهالي لحج وعدن ...

لقد استغنى عن هذا القات الهررى ، الذى يعتبرونه من افخر الانواع ، واستعيض عنه بالقات اليمنى المعروف بالقات الصَبْرى ، اى المزروع فى جبال صبر المطلة على تعز . ومعه القات المزروع فى امارة الضالع ...

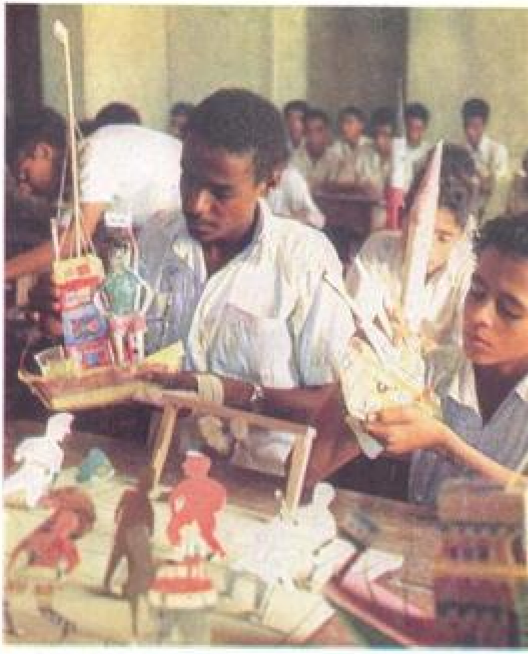
ان القات هو الآفة الكبرى التى تعانى منها لحج ، ففيه شقاء نحو ٨٠٪ من سكان البلاد الذين يمضغونه يوميا ، مضحين بكل شيء فى سبيله . حتى ان الموظف الذى يتقاضى ١٥ دينارا شهريا ينفق منها ما يقرب من عشرة دنانير لشراء القات !

القات منبه ، وليس مخدرا

وما يكاد الظهر يحل حتى تصل ثلاث سيارات نقل كبيرة من اليمن محملة بالقات .. فيتهافت الناس على شرائه ويحمل الواحد منهم «الدَّرْبة» اى اللفة ، وتتكون من عشرة عيدان صغيرة ثمنها ٦ شلنات ، يحملها فى يده مزهوا وهو يسير فى طريقه الى مجلس القات !

... ان تجارة القات هي التجارة الوحيدة التى لا تبور فى لحج ... فما تكاد الساعة تصل للثانية حتى يكون السوق قد انتهى ، ووقفت الحركة فى البلد ، واقفرت الشوارع ...





رغم قلة الموارد استطاع هؤلاء التلاميذ في المدرسة الحسنية صنع هذه النماذج الجميلة بالورق العادي ..

الى اليمين : تشارك الفتاة العربية مشاركة فعالة في تعليم اختها الفتاة اللحجية ..والصورة اليمنى التقطت في المدرسة الابتدائية للبنات ، وفيها تبدو الآنسة خضرة شكيب ابو حجلة التي جاءت من الاردن ، اثناء تدريسها للفتيات اللحجيات

الى اليسار: بدات التقاليد والعادات القديمة تتراجع وتنكسر امام الاقبال الهائل على التعلم من جانب الفتيات .. وفي الصورة اليسرى تبدو الآنسة سعود المنتصر مرآنسات لحج تلقن بنات الجيل الجديد دروس الحساب .. انها اول مدرسة لحجية دخلت ميدان التعليم ...





وصل عدد التلاميذ في المدرستين المتوسطتين الى ٤٠٠ تلميذ يتلقون تعليمهم بالمجان . والمدرسة الثانوية الوحيدة فتحت ابوابها في العام الماضي فقط .. اما البعثات للخارج فعدد طلبتها ٣٦ طالبا يدرسون في القاهرة ، وليبيا ، والاردن ، والبحرين على نفقة اهليهم .. وفي الصورة العليا يبدو بعض طلبة مدرسة الحوطة المتوسطة اثناء حصة الرياضة



وتحت ظلال اشجار مزارع الحسيني يجلس الناس متكئين على الوسائد ، ويخرج كل منهم لفته ، ويبدأ في انتقاء الاوراق الصغيرة الخضراء من اغصانها فيضعها في فمه ويلوكها ، ويظل يضع الاوراق واحدة بعد الاخرى في فمه حتى تصبح على هيئة كرة صغيرة يخزنها بين اسنانه وخده ، وبين الفينة والفينة يتناول رشفة من شراب مثلج، ويمر الشراب المثلج على اوراق القات الممضوغة فينقل عصارتها معه الى داخل جوفه .. فاذا ما استنفدت اغراضها القى بها ، وبدأ في تخزين اوراق جديدة طازجة .. وهكذا تمر الساعات الطوال والناس يمضغون ويخزنون حتى تغيب الشمس فينفض المجلس ويتجه كل منهم الى منزله ، وهو متنبه تماما ...

كيف نقضي على القات ؟

وسألنا بعض « المخزنين » عن رأيهم في هذا البلاء ، فاجابونا : « نحن اسعد حالا منكم .. حقيقة انه مرض ابتلينا به ، لكنه اخف مما عندكم من حشيش وافيون وخمور ...! » .

ان الفراغ الكبير الذي يعيشه أبناء لحج هو المجرم الذي يدفع بالناس الى اغصان القات ، بالرغم من سخطهم عليه ... وقد حاولوا الحد من انتشاره ففرضوا عليه ضريبة مرتفعة بلغت جملتها ثلاثة آلاف دينار في عام واحد ... ولكنها لم تستطع أن توقف الاقبال الزائد على شرائه !

ويعتقد اهل لحج ان الخطوة الرئيسية للقضاء على القات في الجنوب تستوجب اتفاقا بين اليمن وعدن ولحج . وأي اصلاح من طرف واحد لن يعطي أي ثمرة او نتيجة .

القات ينقذ « دار سعد »

وقد سبق منذ حوالى عشر سنوات ان منعت سلطات عدن دخول القات الى البلاد ومنعت استيراده . ولكن لحج لم تمنعه . فكانت النتيجة ان اهل عدن اتجهوا بالآلاف الى حدود عدن فعبروها الى قرية « دار سعد » في لحج ، لمضغ وتخزين القات الممنوع في عدن ..

وشهدت « دار سعد » ازدهارا مصطنعا مفاجئا ، وبدأت منازلها تتحول من الخشب والصفيح الى الاسمنت والحديد .

وتنبه المسئولون في عدن الى عقم اجرائهم فاعادوا التصريح بدخول القات الى عدن .. وتوقفت السيارات المتجهة الى « دار سعد » ، وكادت البلدة ، التى شهدت هذا الازدهار المؤقت أن تعود الى زوايا النسيان كقرية صغيرة مهملة ، لولا أن أهل عدن تنبهوا الى أهمية « دار سعد » كموقع قريب من عدن يصلح لحل ازمة السكن التي يعانونها .. وكانت النتيجة زيادة في الانشاء والتعمير وازدهارا حقيقيا لدار سعد التى كانت قرية صغيرة فاصبحت المدينة الثانية في لحج .. ولن يمضي وقت طويل حتى تصبح المدينة الاولى لكثرة العمران وامتداده فيها .

مدن وقرى لحج

اما بقية مدن لحج فهي قرى شبه معزولة لعدم وجود طرق معبدة توصل بينها ، واشهرها : الوَهْط ، والمِجْحَفة ، الحمراء ، الخُداد ، صوبر، جلاجل ، الفيوش ، الشُقْعة ، الرعارع، سفليان ، القريشي ..

وتذكر كتب التاريخ ان مدينة الشيخ عثمان ، وهي حاليا المدينة الثانية في عدن ، كانت ضمن حدود سلطنة لحج حتى عام ١٨٨٢ عندما باعها السلطان العبدلي بطريقة تجارية بحتة الى سلطات عدن .

ويمتد شاطىء لحج حتى باب المندب ، وبحاره تزخر بشتى أنواع الاسماك ..

برميل بارود

وسلطان لحج الحالي هو السلطان ابن فضل ابن علي العبدلي ، ويشغل وظيفة وزير الدفاع في مجلس وزراء اتحاد الجنوب العربي .

اما سلطان لحج السابق فهو السلطان علي عبد الكريم الذى اصطدم مع الانجليز ، فكانت النتيجة احتلال الجيش البريطاني لأراضي سلطنة لحج ، واقصاء السلطان علي عبد الكريم عن الحكم !

ان شعب لحج ، مثله مثل شعب المنطقة الجنوبية كلها يتطلع الى حياة حرة كريمة يتمتع فيها بخيرات بلاده ، وقد جاءت قرارات الأمم المتحدة صريحة وواضحة ومؤيدة لرغبته في تقرير مصيره بنفسه . ولكن سياسة بريطانيا التعسفية في عدن تنذر بأحداث جسام في الجنوب العربي كله. ■■

سليم زبال

العربي

شعبان ١٣٨٥
ديسمبر
نون اول) ١٩٦٥



اطلب

ربي الصغير

هذا العدد

جوائز

١٢٠٠

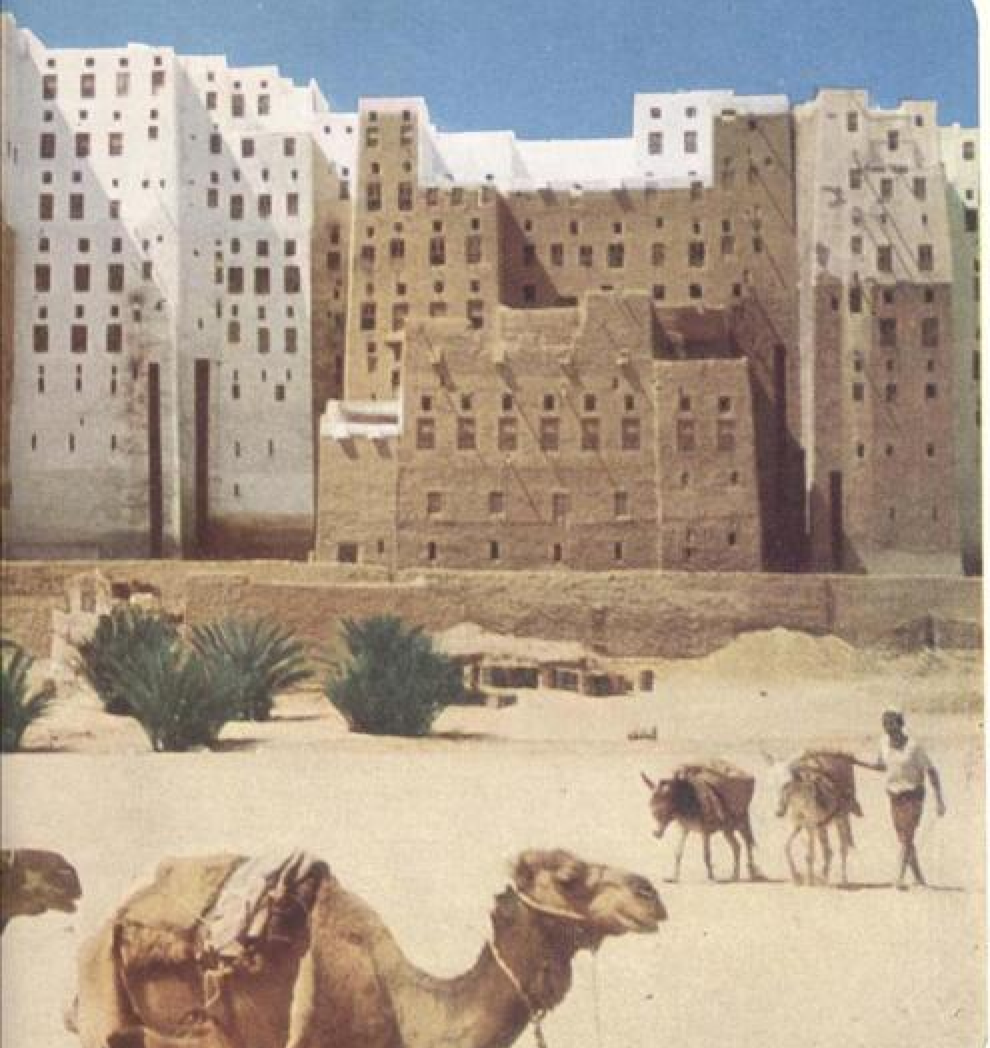
ار سنويا

السماء دائما

الانظار بالآمال

الثمن

	١١٠	فلوس
عربي ٢	٢	روبية
ة	٢	ريال
	٣٫٥	شلن
	١٢٠	فلسا
	١٠٠	قرش
	١٠٠	فلس
	١٠٠	قرش
	١٠	قروش
	١٠	قروش
	١٥	قرشا
	٢٠٠	مليم
	٢٠٠	مليم
	٢	درهم



اعرف وطنك أيها العربي

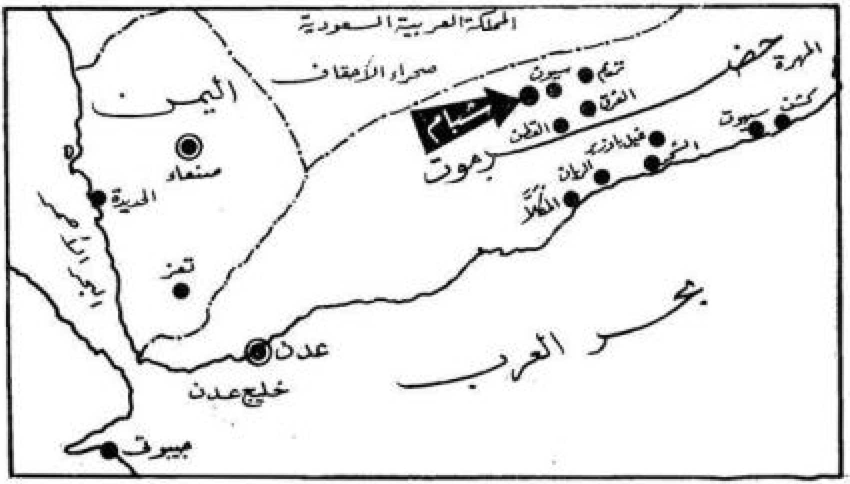
شبام



قام بهذا الاستطلاع **سليم زبال** وصوره «أوسكار»

■ **تقدم لك « العربي » في هذا العدد مدينة من اجمل مدننا الصحراوية العربية ..**

انها المدينة التي تتراءى عماراتها عالية متسامية وسط وادي حضرموت الكئيب ، عند حدود رمال الربع الخالي ، فتجعل المرء يتساءل : احقيقة هي ام سراب ، ام شبح من اشباح مدن الف ليلة وليلة ؟



خريطة الجنوب العربى ، وفيها يبدو موقع مدينة شبام

انهـا مدينـة « شـبـام » ... اعظم مـدن ناطحات السحاب فى حضرموت .. بناها العرب الاقدمون قبـل ان يبنى الامريكيـون نيويورك بعشرات القرون ..

وتتساءل مندهشا : ومن اين للعرب الاقدمين الحديد والأسمنت لبناء مثل هذه المنازل ذات الستة الطوابق والسبعة ، والتى يخالها الناظر ، وكأنها ١٤ طابقا ، لوجود صفين من الشبابيك فى كل طابق : الشباك العـادى الكبير ، وفـوقه شباك صغير للتهوية ولادخال أكبر كمية مـن ضوء الشمس .

وتزداد دهشة السائل واستغرابه عندما يعلم ان بناء هذه العمارات العالية لم يدخله شيء من الحديد او الاسمنت ، وانما هى مبنية من طين مخلوط بالتبن ، ومجفف باشعة الشمس !! .. اما الاعمدة التى يظنها خرسانية ، فما هى سوى جذوع نخيل او جذوع اشجار الحِمّر المغطاة بالطين !!

لقد استطاعت هذه المواد البسيطة ان تتحدى الأمطار والزوابع ، فالمنازل المبنية بهذه المواد ما زالت تقف عالية متلاصقة بعضها ببعض ، فتبدو وكأنها عمارة واحدة هائلة ذات هندسة متشابهة !

واجهة مضللة

ان روعة الواجهـة الخارجيـة لهذه المنازل تجعـل المـرء يقف مشدوها .. ولكـن سرعان ما ينتزاح القناع ، ويدرك المرء انه امام منظـر زائف مضلل ، يخفى الوانا من البؤس ، والاما من الحياة القاسية المحزنة التى يحياها ابنـاء هذه المدينة المجهولة القابعة عند طرف صحراء الاحقاف او الربع الخالى ..

ولا يحيط بشبام اى نوع من الاسوار القديمة ، لأن منازلها العالية المتلاصقة هى اشبه ما تكون بسور ضخم منيع يحميها ، ولذا لا تجد اثرا للابواب فيها ، وانما هى تنفتح جميعا فى الناحية الاخرى داخل قلب المدينة ..

والمدينة نفسها لها مدخل رئيسى وحيـد ، كان يقفل ابوابه فى الليل ، ولكنه جدد ، فازيلت بوابته القديمة لتاخذ مكانها بوابتان يدخل منهما الناس ، ولكنهما مختلفتان فواحدة كبيرة تدخل منها الجمال وسيارات الشحن ، والصغيرة وتدخل منها حاملات الماء والجنازات ـ هكذا عرفهم ـ !

ممرات .. واخاديد !

وتركنا سيارتنا الصحراوية (اللاندروفر) عند

الساحة الداخلية قرب البوابة ، لانهم قالوا لنا : لا يمكن للسيارات ان تسير داخل شبام ... وسالنا عن السبب .. فقالوا : ادخلوا وسوف ترون العجب !!

وعبرنا من بوابة الجمال الى ساحة واسعة ، فيها قلعة نائب اللواء وصيدلية تعاونية ... وملعب لكرة السلة يلعب فيه تلامذة المدرسة الابتدائية ..

وفى هذه الساحة تصب او تلتقى جميع ازقة وحارات شبام ! .. ولم نقل شوارع ، لانه لا يوجد فى شبام شارع ، وانما ممرات او اخاديد لا حصر لها ، تتقاطع فيما بينها لتعود فتتلاقى اسفل المنازل المتعالية ... وفى هذه الممرات يصعب على اربعة اشخاص السير معا صفا واحدا، فى بعض الاحيان .

مجار مكشوفة

وليس ضيق الممرات هو الازعاج الوحيد الذى صادفنا .. ففى أركان هذه الازقة تتجمع قطعان الماعز والدجاج مع اطفال شبام ، الذين يعبثون وسط المياه القذرة المندفعة من مزاريب المنازل فى طريقها الى شق طولى وسط الازقة..انها المجارى المكشوفة ، التى تنبعث منها روائح تعافها النفس، وتعيش فيها جراثيم تفوق الحصر !

وقد زادت كمية مياه هذه المجارى زيادة كبيرة فى الآونة الاخيرة ، بعد أن زاد نصيب الفرد من الماء فاصبح عشرة جالونات يوميا ، بدلا من جالونين فقط !

الماء من جوجة !

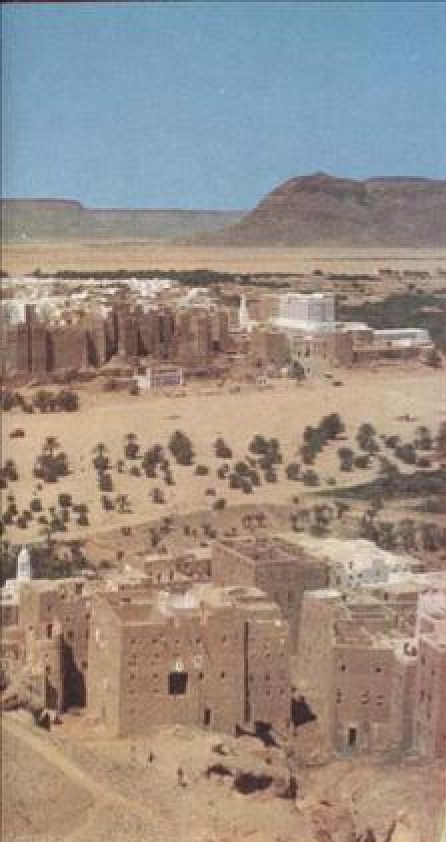
كان أهل شبام يعانون متاعب جمة للتغلب على ازمة جلب الماء الى منازلهم .. ففى كل صباح كانت النسوة المتشحات بالسواد يخرجن الى الآبار المحيطة بشبام فيسحبن بالدلو ماء فيه كثير من الملوحة يستعملونه للوضوء والغسيل وشرب الماعز .. أما ماء الشرب فكان السقاءون يجلبونه على ظهور الحمير من آبار الجبل القريب من شبام .. وظل الحال على هذا المنوال حتى تأسست فى العام الماضى شركة الماء الاهلية المحدودة براس مال قدره ٣٠ الف دينار .. وكان أول عمل قامت به ، أن



مئذنة جامع هارون .. انها تطل على زقاق السوق .. وقد جددت المئذنة عدة مرات كان آخرها عام ١٣٦١ هـ . ومع ذلك فما زالت المئذنة والجامع فى حاجة ماسة للترميم والاصلاح



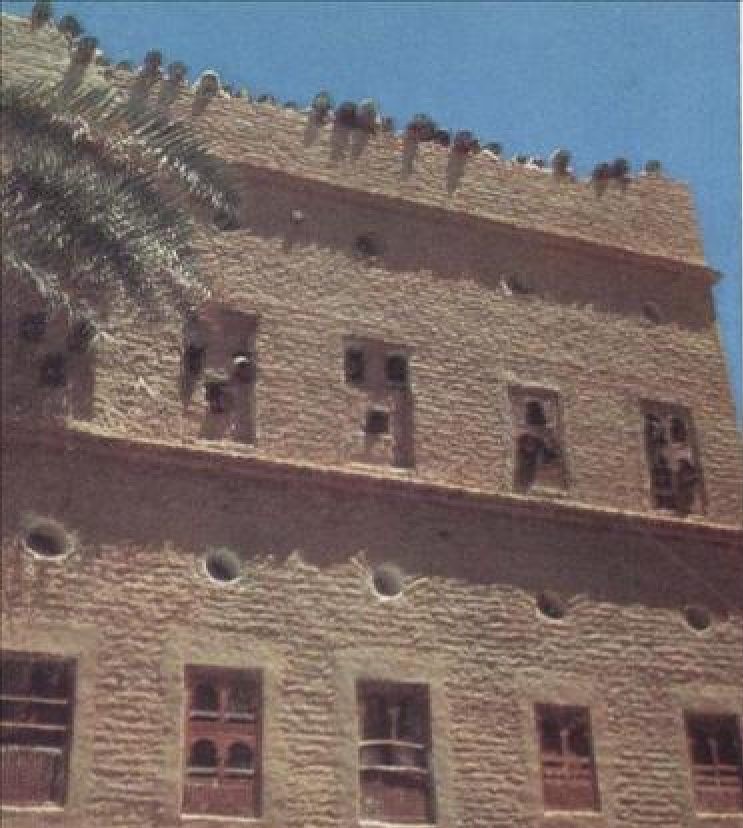
تختلف نظرة أهل شبام الى المرأة اختلافا كبيرا . فعدد كبير من الرجال يريدها دائما جاهلة متأخرة . ولكن منذ ثلاث سنوات فقط بدأ تعليم الفتاة ، فاستؤجرت لهن شقة صغيرة في الطابق العلوي من منزل قديم (انظر الصورة التي الى أقصى اليسار) تقوم معلمتان محليتان غير مؤهلتين بتلقينهن النزر اليسير من المبادىء الاولية .. وحتى هذا القدر لم يستمر ، فمنذ أشهر نقلت احدى المعلمتين الى خارج شبام ..

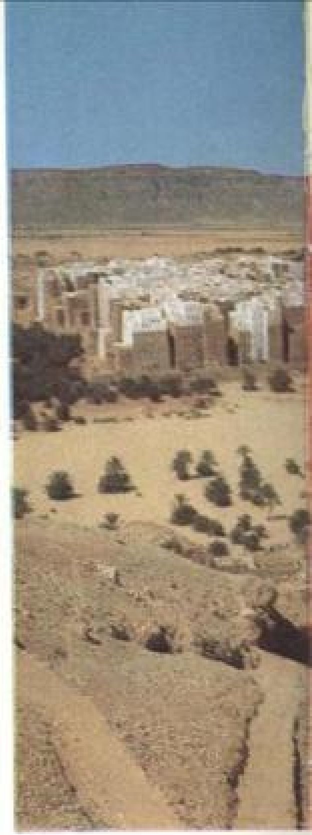


هذه هي شبام .. خمسمائة منزل متلاصقة وسط وادي حضرموت .. **والى اليمين** يبدو أحد ازقة المدينة .. لقد قالت « الوعي » النشرة الشهرية التي تصدر في شبام « .. اننا جميعا نعيش في اسطبل جنبا الى جنب مع الجمال والحمير والبقر والغنم ، التي تزاحمنا في كل شبر من السوق والشوارع الضيقة .. » ومما يذكر أن المجلس البلدي أصدر قرارات بمنع تجول الاغنام والحمير .. ولكن بدون نتيجة !

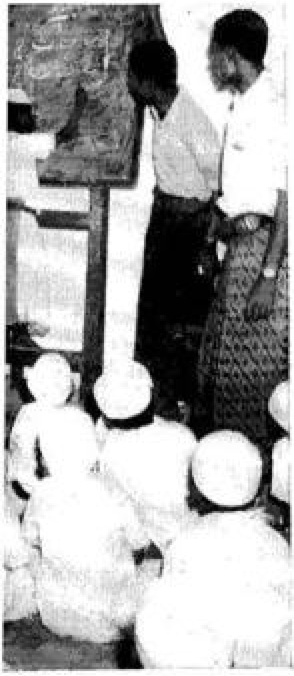
الى اليسار : أعضاء نادي التعاون في شبام جالسون في الغرفة الوحيدة التي يتكون منها ناديهم ، ومن هذه الغرفة تصدر النشرة الشهرية الوحيدة في شمال حضرموت .. ان امكانيات النادي المادية هزيلة ومع ذلك فقد أنشأ صيدلية تعاونية ، ولجنة لمكافحة السل ، وفتح صفوفا لمحو الامية .. وأخيرا أعلن النادي تحوله الى الهيئة القومية السياسية الاجتماعية الثقافية ، بعد صدور قانون الجمعيات في حضرموت ...













ثلاث صور لطلبة المدرسة الابتدائية بشبام .. فى الاولى يلعبون كرة السلة قرب الـ
طالبا ، اصبحوا اليوم ٢٤٠ طالبا .. والتعليم فيها يتبع المنهاج السودانى .. والى
التبرعات من الاهالى .. والصورة الثانية تبين الطلبة جالسين على الارض

مدت الانابيب من آبار قرية جوجة ـ وتبعد ثلاثة أميال عن شبام ـ حتى خزانات الماء الضخمة التى أقاموها لهذا الغرض ، على قمة جبل الخبة المطل على شبام .. وبذلك اصبحت المياه تصل الى جميع منازل شبام ، وعددها ..٥ منزل ، تضم نحو ...٥ نسمة ، حتى الطوابق العليا من هذه المنازل المرتفعة الى ٧٥ قدما، وصلها الماء .. وذلك لعلو مصدرها فى الجبل .

ممرات فى الطابق الخامس !

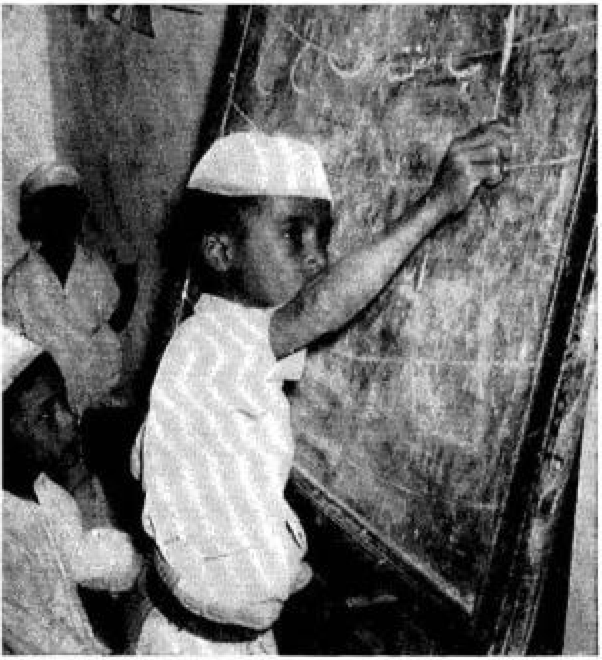
وفى هذه الطوابق العليا يعيش الناس .. ومن اللطيف أن بعض العائلات الكبيرة تعيش متجاورة فى منازل متلاصقة ، وقد هدتها الحيلة الى فتح ممرات فيما بينها عند الطابق الخامس ،فاصبحت المرأة تقوم بزيارة قريباتها فى المنازل المتجاورة دون حاجة للنزول الى الشارع .. ! اما الرجال فقد فتحوا لانفسهم ممرات فى الطوابق السفلى ..

السيول توقف نمو المدينة

وكثيرا ما تهطل الامطار بغزارة ، فيمتلىء وادى حضرموت بمياه السيول ، وتصبح شبام وكأنها جزيرة تحيط بها المياه من كل جانب دون أن تنالها لان المدينة مشيدة على ربوة صخرية مرتفعة عن سطح الوادى ..

وكانت هذه السيول العقبة الرئيسية فى عدم اتساع رقعة المساحة المبنية فى شبام .. لان كل منزل يبنى خارج رقعة الخمسمائة منزل الحالية، كانت تجرفه السيول ، حتى أصبحت المدينة تعانى مشكلة سكنية هائلة ، لم يخفف حدتها سوى بناء ضاحية جديدة عند سفح الجبل اسموها « السحّيل » لا يفصلها عن شبام سوى ارض الوادى ، التى تتحول أيام الصيف الى طريق رملى تتناثر عليه آبار المياه المالحة ، التى ما زال الاهالى يأخذون منها حاجتهم للغسيل ولشرب الماشية ..





الرئيسية فى المدينة .. لقد فتحت هذه المدرسة ابوابها عام ١٩٤٤ وكان عدد طلبتها ٤٠
هذه المدرسة الحكومية توجد مدرستان أهليتان ، تابعتان للجنة الاهلية التى تجمع
وجود مكاتب .. بينما الثالثة تبين مدى الشغف الزائد الذى يقبل به الطلبة على التعلم

تجارة .. وهجرة مريبة

ويعتمد اهل شبام على التجارة منذ قديم الزمان ، فموقع مدينتهم وسط وادى حضرموت يتيح لها ان تسيطر على طرق القوافل ، مما جعلها من اهم مدن حضرموت الداخلة .. وكانت الى زمن قريب عاصمة لسلطان الشحر والمكلا ..

وتحيط بشبام مزارع للنخيل واسعة ، تروى اغلبها من مياه السيول ، وتقدم للاهالى محصولا من التمر يعتمدون عليه فى وجباتهم الرئيسية .

ان انتاج هذا النخيل يمكن ان يتضاعف اذا زادت العناية به .. لقد اصبح الكثير منه مهملا ، ينمو ويتكاثر من ذات نفسه دون اى رعاية ، والسبب ان بعض رجال شبام قد مل التجارة البدائية التى كان يزاولها اجدادهم وآباؤهم ، فبداوا ينزحون عن مدينتهم ، مخلفين عائلاتهم لرعاية مزارعهم ، مكتفين بزيارة مسقط راسيهم مرة كل سنة .

لقد اصبح لكل منهم متجر فى المكلا على الساحل ولم تعد تجارتهم الجديدة تسمح للكثيرين منهم بالعودة الى شبام فاهملوها ، وكادوا ان ينسوها ، وان كانوا يدعون العكس ..

وقد ترتب على هذه الهجرات وضع غريب شاذ ، ففى الكثير من العمارات العالية ، التى تحوى سبعة طوابق تعيش امراة وحيدة ، او اسرة صغيرة ، تركها عائلها وسافر الى اندونيسيا وشرق افريقيا والهند ، بحثا عن لقمة العيش !

ورجال شبام لا ياخذون زوجاتهم معهم فى مهجرهم ، وانما يكتفون بارسال النقود لهن شهريا .. وكم من مآس تخفيها جدران منازل شبام بسبب هذه الهجرات .. وبسبب قوانين الزواج الغريبة فى شبام ، التى تختلف عن بقية البلاد ..

فعندهم ما يسمى « الشرط » واسرة العروس هى التى تشترط هذا الشرط ، وهو على عدة انواع .. فمرة تشترط عدم سفر الزوجة ، ومرة تشترط تزوج الرجل من الطفلة ، على ان ينتظرها حتى تصل الى سن البلوغ .

وتتميز حفلات العرس فى شبام بالاسراف الزائد

الذى يقصم ظهر اسرة العريس ، والعروس على حد سواء ، لكثرة مصاريف المآدب والدعوات التى يحضرها كل مرة ما يزيد عن ٥٠٠ مدعو ياكلون ويشربون على حساب العريس وأهل العروس !

أزمة بسبب السكن

وبعد احتفالات الزواج العادية تنتقل أم العروس الى منزل العريس فتقيم فيه بعض السجاد والبساط والحصير والمشمع التى هى كل اثاث المنزل !

ورغم عروض الايجار العالية فان الاهالى لا يؤجرون منازلهم الخاصة ابدا ، لان تأجير المنزل الخاص يعتبر فى اعتقادهم ــ دليلا على العوز والفقر !!

وقد تسببت ازمة السكن فى حدوث مأساة ذات ذيول طويلة : لقد ظلت شبام تعيش فترة طويلة دون طبيب لعلاج سكانها ، وسكان ضواحيها ، وانهالت البرقيات على المسئولين فى المكلا تطلب طبيبا .. وجاء الطبيب من باكستان .. وظن نائب لواء شبام ان اعداد السكن اللازم له سيكون امرا سهلا .. ولكن الامور جاءت بعكس ما يشتهى نائب لواء شبام .. لقد طرق جميع ابواب المنازل وكان الرد واحدا : « امهلونا وقتا للتفكير والبحث » وهذا اعتذار مهذب ، بدلا من الرفض الصريح !

وعقد اكثر من اجتماع ، فشلت كلها فى ايجاد ماوى للطبيب الباكستانى ، وعندما فتح هذا الطبيب ابواب صيدلية مستشفى شبام ، وهو مستشفى يضم ١٤ سريرا ، وجد أن الصيدلية فارغة الا من شربة ملح !

وطلب رؤية غرفة العمليات ، فهالة النقص الهائل فى جميع ادواتها !

وسأل عن عدد السكان الذين سيتولى علاجهم ، فاجابوه : ستعالج خمسين الفا .. يمثلون سكان لواء شبام كله !

يقبل اهل شبام على لعب كرة القدم بشغف زائد .. وقد تكونت عدة اندية صغيرة فى المدينة يضم كل منها فريقا رياضيا .. وترى هنا السيد عمر محمد باصالح نائب لواء شبام يصافح اعضاء احد الفرق الفائزة فى المباريات





تتناثر عند مدخل شبام آبار المياه المالحة ، التى تقصدها السيدات فى الصباح لتسحب حاجتهن من مياهها الذى يستعملونه للغسيل وشرب المميز !

وبعد مجهود استطاعوا ان يقدموا لـه منزلا مناسبا ، اعترض على طريقة تأثيثه وفرشه ، واتخذ من هذه الحجة ذريعة تمسك بها ليهرب من شبام ويعود بسرعة لبلاده !

وبقيت شبام بدون طبيب ، حتى يوم زيارتنا لهـا ، ويقـوم حاليـا بعض المساعدين الصحيين المحليين بمهمة الطبيب لسكان شبام وضواحيها ..

الشعوذة ، والتدجيل ، والمرأة

وليست الامراض هى الوحيـدة التى تعصف بأهل المنطقة ، وانما يشترك معها الجهل والفقر ، والعادات والتقاليد البالية ، والمعتقدات السخيفة من تدجيل .. وسحر .. وشعوذة .. مما زاد من مصائب والام اهل شبام !!

وتسبب المرأة الشبامية التى تعيش فى جهل قاتم فى اكثر هذه المتاعب .. ان تعليمها لم يبدا الا منذ ثلاث سنوات ، وهو تعليم تافه يهدف الى تلقينها كيفية « فك الخط » مع النزر اليسير من امور الدين !

ان مجموع عدد التلميذات فى لواء شبام كله ٥٤ تلميذة فقط بينما عدد السكان ٥٠ الف نسمة !

وما تكاد التلميذة تبلغ العاشرة من عمرها حتى تسحب من المدرسة وتحجب داخل البيت لا تظهر

على احد ، ولا حتى على المرأة المتزوجة ، وانما على اقرب المقربين لها فقط !

ان المرأة المتعلمة فى شبام ينظر اليها نظرة مريبة .. والمسئولية فى هذا تقع على بعض الرجال الضعاف الذين يريدون المرأة دائما جاهلة متاخرة حتى يستطيعوا التحكم فيها طبق اهوائهم ، فيطلقوها ويهجروها متى شاء لهم مزاجهم .. وهم يؤكدون ان التعليم والثقافة مفسدة وانحلال !!

نتائج جهل المرأة

وقد ترتب على جهل المرأة كارثة رهيبة ما زالت تعيشها شبام حتى اليوم .. فقد حدث منذ ثلاث سنوات ان احست احدى النساء ببعض الالام .. فقالوا لها : تعالى نذهب للطبيب فى المستشفى .. فقالت مستنكرة : « الموت افضل عندى من الذهاب للطبيب فى المستشفى » .

وجاء صديقاتها لعيادتها .. كل منهن تصف لها علاجا ودواء ، او تحضر لها تعويذة مكتوبة على ورقة من عند احد « السادة » وتضعها لها فى كوب الماء ، وتقدمه لها لتشربه حتى تصح !

وتشرب المسكينة « الدواء » ولكن الآلام تزداد كلما مرت الايام ..

وبدأت بعض قريباتها فى التخلف عن زيارتها ، فسألت عنهن ، فقيل لها : انهن بدأن يشعرن بالم مماثل للألم الذى تشعر به فى صدرها ..

وتمر فترة سكون يعقبها همس ، سرعان ما يصبح حديثا يتناقله الناس : انه السل (بدأ ينتشر بين النساء الجاهلات ومنهن امتد للرجال ، حتى اصبح عدد المرضى المصابين به ـ حسب الاحصاء الرسمي ـ ١٥٠ مريضا ، داخل شبام نفسها ، عدا المرضى الذين يعيشون حول المدينة ، وعددهم يفوق بكثير عدد الذين بداخلها ..

ويقوم بمساعدة هؤلاء المرضى حاليا ، افراد لجنة السل بنادى التعاون بشبام .. انه النادى الثقافى الوحيد فى المدينة ، موارده محدودة للغاية ، ومع ذلك يتولى العناية بـ ٢٤ مريضا ، يقدم لهم الدواء ولكنه لا يستطيع تقديم الطعام الا لاثنين فقط من المرضى !!

فاذا علمنا ان نقص التغذية هو السبب الرئيسى لانتشار السل بشبام ، لهالنا الموقف الصحى الذى يزداد سوءا يوما بعد يوم !

ان كوبا من الحليب مع قليل من الخضار واللحم هى وجبة تافهة لا تكفى ، ومع هذا فلجنة السل بنادى التعاون فى حاجة الى الفي دينار فقط لتقديم حتى هذه الوجبة التافهة لمدة سنة الى ١٥٠ مريضا ومريضة !

أمراض بالجملة

ان حاجة اهل شبام الى الاطباء ، تعادل حاجتهم الى الهواء ! .. وقد تقلب على هذه المدينة اطباء هنود وباكستانيون وطبيبة المانية .. اما الاطباء العرب ، فلم يسمع بهم اهل شبام .. وقد يكون لهؤلاء الاطباء بعض العذر لانهم لم يسمعوا ابدا عن مدينة اسمها شبام ـ ينتشر فيها السل .. ويموت فيها ٦٣ من كل ١٠٠ طفل يولدون .. ويصاب اهلها بالبلهارسيا ، رغم وجودهم عند رمال الربع الخالي .. وتنتشر فيها الملاريا ،



مدخل شبام الرئيسى : باب كبير لدخول الجمال ، وباب صغير لمرور الجنازات ، وحاملات الماء .. !



اجتماع لاعضاء المجلس البلدى بمدينة شبام .. والمجلس مكون من ١٢ عضوا يعينهم نائب لواء شبام بعد مشاوراته مع وجهاء البلد ، ويرفع كشفا بأسمائهم الى المسئولين فى المكلا ، وبعد الموافقة تصدر الاوامر السلطانية بالتعيين .. ان ميزانية المجلس هى ١٧٥٠ دينارا سنويا ويتعرض المجلس لحملة شديدة من ابناء شبام الذين يطالبونه باصلاح كل اعوجاج فى المدينة . بينما هو مقيد لا يستطيع حراكا كبيرا بسبب نقص المادة من جهة .. وتراكم الاعمال الكثيرة المطلوبة منه ، من جهة اخرى !

والروماتزم ، والتراخوما والانيميا وغيرها .. فضلا عن الاصابات الناتجة عن الحوادث .

ان الطبيب الذى يفكر فى الذهاب الى هناك يجب ان يكون قادرا على علاج جميع هذه الحالات التى سوف تعرض عليه !

اسلوب جديد فى الطب

وقد نشرت الطبيبة الالمانية ايفا هوبك التى قضت خمس سنوات فى شبام كتابا عن ذكرياتها هناك .. وفى احد فصوله وصفت كيف اصلحت اعوجاج السلسلة الفقرية لاحد المرضى فقالت :

« لم يسبق لى ان عالجت عمودا فقريا محطما طيلة عملى فى مهنة الطب ، وفى شبام جاءونى برجل سقط فى البئر ، فانكسر عموده الفقرى ..

« واطلعت على صورة الاشعة ، فوجدت ان عموده الفقرى لم يكن محطما فحسب ، بل كان العظم قد خرج من موضعه ايضا .

« وقلبنا الرجل على بطنه .. وراح اثنان من زملائه يجذبان ساقيه وذراعيه ، وقمت بالضغط على خصره ونحره ، وشهدت رجة واضحة، فقد استقام الشق الفقرى الذى كان اتخذ شكلا ملتويا كحرف S (الافرنجى) .. ولم تكن النتيجة مرضية .. ورحت اقول للجميع : « حاولوا .. لا تتخلوا عنه، ان شفاء الرجل يعتمد على معونتكم » ..

« وواصل اصدقاء الرجل الجذب والشد والدعم

والاسناد بكل قواهم ، وبذلا غاية ما لديهما من جهد ، حتى تصبّب العرق من جبهتيهما .. واخيرا استقام العمود الفقرى تماما .. وارتحنا الى النجاح الذى حققناه فى تقويم العمود الفقرى .. ووضعنا اربطة الجبس من حوله .. وفى اليوم الثاني استطاع السير وتحريك ذراعيه وساقيه !! »

انه اسلوب فى عالم الطب لم يكن من الممكن القيام به الا فى شبام !

البنطلون .. والطاقية !

والى جانب المرضى يوجد الاصحاء من ابناء شبام وهؤلاء يقضون وقتهم فى فراغ قاتل .. ان المدينة ليس فيها شجرة او وردة واحدة ! كما ليس فيها سينما او مكان يذهب اليه الناس لتمضية وقتهم .. حتى الكهرباء تبدأ من الرابعة مساء حتى منتصف الليل ، وبعدها يسود الظلام ..

وعلى ضوء (لمبة الجاز) – اذ لم تدخل الكهرباء بعد الى جميع المنازل – يجلس ابن شبام ، الذى يتعلم بالمدرسة المتوسطة الوحيدة التى فتحت ابوابها منذ عامين فقط ، يجلس هذا الشاب مفكرا ومتسائلا : « لماذا تغير العالم كله ولم يتغير بلدى ! ان ابسط الامور التى اتعلمها فى المدرسة لا استطيع تطبيقها فى بلدى ، حتى ارتدائى « البنطلون » أو خلعى للطاقية يسببان امتعاضا واعتراضا .. انى لا اظن ان اجدادى الاوائل كانوا يعيشون اسوأ منى .. لقد قال استاذنا فى حصة التاريخ : ان وادى حضرموت كله كان ينعم فى عام ٦٠٦ هـ برخاء عجيب ، حتى انه لم يكن هناك سارق او محتاج .. « فاين ذلك الماضى المجيد من هذا الحاضر التعس الذى يعيش كل انسان فيه محتاجا !! » .

أصل كلمة ((شبام))

والى القرب من المدينة كانت تقوم مدينة شبوة الحميرية التاريخية القديمة ، التى يذكرها المؤرخ احمد الهمدانى فى كتابه صفة جزيرة العرب فيقول : « .. وبعد ان قامت الحروب وتهدمت شَبْوة اتجه اهلها الى شبام فسكنوها ، وبهم سميت شبام .. وكانت فى الاصل شباة ، ثم تحورت التاء الى ميم ، فاصبحت « شبام » ..

دخول الاسلام

وفى العام العاشر من الهجرة اتجه وفد كبير من سادة قبيلة كندة ، برئاسة الاشعث بن قيس الكندى الى المدينة المنورة ، حيث مثلوا عند النبى عليه الصلاة والسلام ، واعلنوا له اعتناق الحضارمة للاسلام ، وكانوا يدينون بالوثنية ، واليهودية ، والنصرانيــة .

وفى عام ١٢٩هـ ارسل الخليفة الاموى عامله على رأس جيش كبير لاحتلال شبام .. وفى عام ٥٥٣ هـ احتلها الزنجيلى عامل الدولة الايوبية فى اليمن .. ثم اصبحت شبام مركزا لسالم بن ادريس الحبوظى الذى جاء من ظفار لفتح حضرموت . ولما عاد الى ظفار اناب عنه آل كثير فى ادارة الحكم فاستقلوا بها .. ولكن شبام ما لبثت ان اصبحت مركزا لقتال شديد ، ومعارك هائلة بين القبائل الكثيرية وانصار القعيطية .. وفى عام ١٧٢٥ هـ اتفق على ان تقسم شبام مناصفة بين القعيطى والكثيرى .. ولكن القعيطى انفرد بحكمها بعد دسائس ومؤامرات طويلة ..

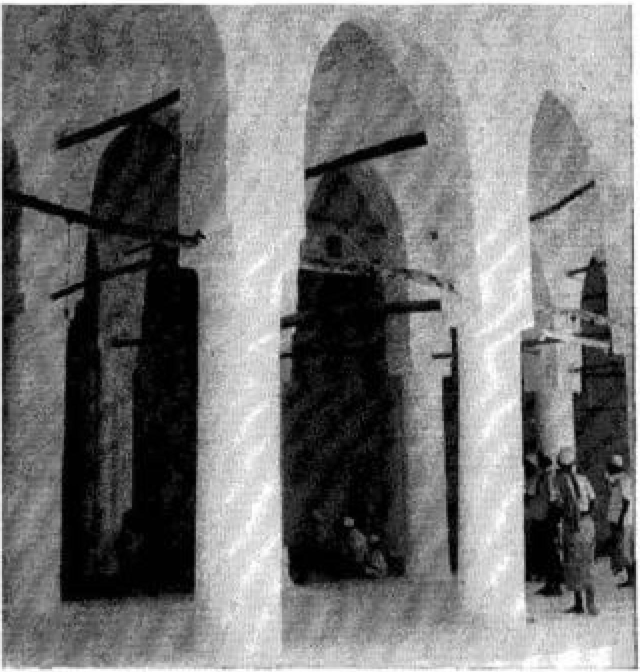
وما زالت شبام حتى اليوم ضمن اراضى السلطنة القعيطية رغم انزوائها فى داخل حضرموت قرب حدود السلطنة الكثيرية .

الأمل الكبير .. هل يتحقق ؟

ان اهل شبام يدركون جيدا مقدار تخلفهم ، ولكنهم يعيشون على الامل .. فتجدهم فى المساء يجلسون مثلما يجلس اجدادهم امام نوافذ منازلهم الشاهقة ، ولكنهم لا يتطلعون الى قوافل الجمال التى كانت تنقل التوابل والمسك والبخور ، ثم تدنت حتى اصبحت تنقل اليوم السمك المجفف والارز .. لم تعد الانظار تتجه الى هذه الجمال بحمولتها الهزيلة ، انما كل الانظار تتجه صوب الشمال .. صوب صحراء ثمود .. حيث يجرى التنقيب بحثا عن الذهب الاسود ..

انه الامل الكبير الذى تعيش عليه شبام ، ولكنه امل لم يتحقق حتى اليوم ..

لقد انتهى الخبراء من حفر البئر الثانيــة ، ووصلوا فى حفرهم الى عمق ٥٧٥٠ قدما بحثا عن آثار للنفط ، ولكن بدون نتيجة . وفى نهاية شهر



تضم شبام ستة مساجد ، اكبرها مسجد هارون ، نسبة الى هارون الرشيد الذى امر عامله ببنائه عام ٢١٥ هـ . وترى هنا صورة البهو الداخلى للمسجد

اغسطس الماضى اذاعت شركة بان امريكان للزيت الحضرمية ، بيانا قالت فيه : « ان نتائج حفر بئر طارقيت ـ البئر الثانية ـ اثبتت بأن هذه البئر لا يمكن ان تنتج بترولا بأية كميات تجارية .. وان الشركة مع جميع موظفيها ، قد اصيبوا بالاسف الشديد كما هو الحال بالنسبة لاهالى حضرموت والمهرة ، لان البئر لم تكن منتجة .

« ولكن الشركة مستمرة فى عملياتها ، وهى متفائلة جدا فى وجود حلقات اخرى منتجة للبترول بكميات تجارية ، وسوف يتم فحصها بحفر آبار اخرى . »

كيف ننهض بشبام ؟

ان انقاذ شبام اعتمادا على موارد الحكومة القعيطية امر مستحيل ، لان حكومة هذه السلطنة لا تجد امكانيات لانقاذ ورفع مستوى عاصمتها « المكلا » .. فكيف الحال بشبام المدينة المنعزلة عند مشارف الربع الخالى ، وهى المدينة التى يربطها بالساحل طريق وعر للغاية ما تكاد الامطار تهطل عليه حتى ينقطع السير ، وتصبح شبام معزولة تماما عن العالم ، اللهم الا الطائرة الصغيرة التى تهبط فى مطارى «القطن» و«الغرف» المجاورين .. ويعانى ابناء شبام الامرين من اهمال وعدم مبالاة شركة الطيران وعدم احترامها للمواعيد، فكثيرا ما تتأخر الطائرة دون ان يعلم احد متى سوف تصل .

لقد قال لنا اهل شبام « ان ماضينا الكئيب وحاضرنا المشئوم يسدان امامنا اى امل فى المستقبل المنشود ، ما لم تتكاتف معنا سواعد اخواننا العرب لمساعدتنا فى العمل المخلص للقضاء على القوى الهدامة التى اوصلتنا الى هذا الدرك من التأخر المخزى » .

وفى وسط هذا الاضطراب فى جميع المجالات نجد الكتاب والصحفيين الاجانب يتغزلون بجمال الفن الهندسى العربى القديم الذى تمثله مبانى شبام ، ويطالبون بالمحافظة عليه ..

وهذا كلام جميل علب .. ولكنه من المستحيل ان تظل شبام على ما هى عليه ارضاء لحفنة من السياح والفنانين .

ان هدم بعض المنازل ، وازالة اجزاء من بعضها الاخر امر ضرورى للمحافظة على صحة وسعادة خمسة آلاف شخص ، يعيشون داخل مدينة ناطحات السحاب !

■■

العربي

٢٢ شوال ١٣٨٥
فبراير
(شباط) ١٩٦٦

نهاية الكاتب الفنان الذى شغل الناس قرنا من الزمان

لا ترفعوا سن الزواج ، بل خفضوه .. للفتيات والفتيان

أمثلة أشارع فى العواصم العربية بالآثار الإسلامية



اطلب

العربى الصغير

مع هذا العدد

جوائز

١٢٠٠

دينار سنويا

رأس
عرا من كل زينة
كما خلقه الله

الثمن

الكويت	١١٠	فلوس
الخليج العربي	٢	روبية
السعودية	٢	ريال
اليمن	٥ر٣	شلن
العراق	١٢٠	فلسا
لبنان	١٠٠	قرش
الاردن	١٠٠	فلس
سورية	١٠٠	قرش
ج.ع.م.	١٠	قروش
السودان	١٠	قروش
ليبيا	١٥	قرشا
تونس	٢٠٠	مليم
الجزائر	٢٠٠	مليم

اعرف وطنك أيها العربي



تريم

قام بهذا الاستطلاع
سليم زبال

وصوره
أوسكار مترى

- سور برلين فى حضرموت !
- الاموات يزحفون على الاحيـاء !
- مساجدها ٣٦٥ ، وبها مئذنة من أعاجيب الدنيـا !



مئذنة عمر المحضار أروع مآذن الجوامع العربية ، ترتفع١٧٥ قدما في سماء تريم ، بداخلها ١٤٠ درجة سلم ل
الى القبة .. يعود تاريخها الى خمسين عاما مضت ،فقد صممها أبو بكر بن شهابى عام ١٣٣٣ هـ .

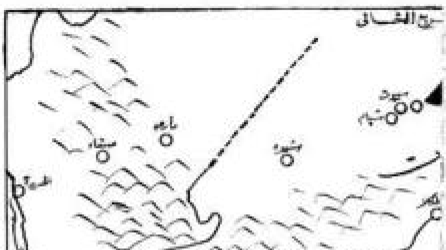
■ عندما يفكر الانسان فى قحطان وسبأ وحِمْيَر ، يتجه تفكيره على الفور الى جنوب الجزيرة العربية . ولكن أين ؟... وفى أى مكان ازدهرت هذه الحضارات ؟.. واى مدينة من مدنها ما زالت باقية ؟.. ان هذه كلها اسئلة تضيع الاجابة عليها وسط دوامة من الفروض والاستنتاجات .

و« تريم » التى نقدمها فى هذا العدد ، اسم لاحدى مدن مملكة سبأ القديمة .. انها ما زالت حية حتى اليوم ، تعيش مختفية هادئة على بعد ٢٠ ميلا من رمال الربع الخالي ، بعيدا عن فؤوس المنقبين والباحثين .

ان اسمها مشتق من اسم احد أبناء سبأ الذى استمرت مملكته من عام ٨٥٠ الى ١١٥ ق.م تقريبا ..

وتقع تريم على وادى حضرموت ، ويمتد ٣٦٠ ميلا داخل صحراء حضرموت .. وهو ليس واديا بالمعنى الصحيح ، وانما مجرى نهر قديم كبير جف منذ زمن بعيد ...

ويختلف اتساع هذا الوادى تبعا للمنطقة ، فمرة يصل الى ٢٠ ميلا ، ليتقلص الى اربعة او خمسة اميال عندما يقترب من تريم ، ويتبدل اسمه فيصبح وادى المسيلة .. ويظل يمتد نحو البحر حتى ينتهي عند سيحوت على شاطىء المحيط .



خريطة الجنوب العربى .. وقد ظهر عليها موقع تريم ..



قصر جمال الكاف فى تريم ، وسط واجهته كتبت هذه الكلمات .. « يا وطود عزك راسخ » ...

سور برلين فى حضرموت !؟

وتريم هي شقيقة لمدينة شبام فى القعيطية ، والاخت الصغرى لسيئون عاصمة الكثيرية ، ولكنها تختلف عنهما ، فهي ما زالت تعيش داخل سور عجيب له خمسة بوابات و ٢٠ برجا .

ويتحدث اهل تريم عن هذا السور بمرارة زائدة ، اذ يتخيلونه كسور برلين الذى يفصل بين برلين الشرقية والغربية ... بينما ان سورهم يفصل بين حدود السلطنتين القعيطية والكثيرية! فعندما كنا خارج السور قالوا لنا : « انتم الآن على اراضي السلطنة القعيطية » .. وعندما تخطينا السور بعبور بوابته الجنوبية : قالو لنا : « انتم الآن فى اراضى السلطنة الكثيرية » .. لان تريم نفسها تابعة للسلطنة الكثيرية .

ويعانى أهل تريم الامرين من هذا التقسيم ، فمثلا البضائع التى ترد الى مدينتهم تخضع لضريبة مزدوجة ، فمرة تحصل جمارك القعيطية ٢٢٪ من قيمة البضاعة ، ومرة أخرى ، وعند البوابة ، تحصل جمارك الكثيرية ١٧٪ من الثمن،



حضرموت ، وعلى
مجدك باذخ ،



سور برلين فى تريم ... انه السور الذى يفصل بين أراضى السلطنتين القعيطية والكثيرية . وتريم تابعة للسلطنة الكثيرية ، ولكنها محاطة بأراض كلها تابعة للسلطنة القعيطية.

وهذا يجعل الاسعار داخل المدينة مرتفعة للغاية بالنسبة لمدن الساحل ..

بخور ولبان .. وسكر وسمك !

وما زال الكثير من البضائع يرد الى تريم على ظهور الجمال والحمير التى تسير على طريق القوافل الممتد منذ ثلاثة آلاف عام !

لقد كان اهل سبأ يتاجرون بالبخور ، واللبان ، والطيب ، والمر ، والبلسم ، والعنبر ، والكحل ، والماشية ، وكانت أراضيهم خصبة للغاية .. أما اليوم فالقوافل لم تعد تنقل سوى الشاى والسكر والسمك المجفف ، وبعض السلع الضرورية الاخرى .. أما البخور واللبان ، فلم يعد لأشجارهما وجود فى حضرموت ، فقد قطعت كلها ، وتحولت زراعتها الى منطقة ظفار شرق حضرموت .

وفى الآونة الأخيرة بدأ يظهر الكثير من السيارات من طراز « لاندروفر » Landrover على الطريق الصحراوى ، منافسة بذلك الجمال والحمير .

ولقد تدهش اذا علمت ان اصحاب الجمال أنفسهم هم الذين أدخلوا السيارات الى بلادهم دون أن يدروا ! فقد وصلت أول سيارة الى تريم عام ١٩٢٠ مفككة على ظهور الجمال عبر الطريق الذى يمتد ٣٠٠ كيلومتر حتى المكلا . وفى تريم تم تجميع أجزائها على يد شاب تدرب على هذا العمل ..

الاموات يزحفون على الاحياء

ما كدنا نعبر بوابة تريم الرئيسية حتى وجدنا أنفسنا وسط صمت القبور الذى يخيم على أرض شاسعة تضم الوف المقابر بشواهدها الحجرية على جانبى الطريق المؤدى الى قلب المدينة ..

ان أهل المدن والقرى المجاورة يأتون بجثث موتاهم لدفنها فى تريم. انها مدينة السادة الاشراف أحفاد الفقيه المقدم - أى مقدم السادة وأجدادهم - أحمد بن عيسى بن محمد ، من أحفاد الحسين بن على بن أبى طالب (رض) ... لقد هاجر هذا السيد من البصرة الى حضرموت فى





داخل حجرة مرتكز سقفها على أعمدة خشبية جلس تلاميذ « رباط » تريم يتلقون درسا فى الفقه الاسلامى .. وخلفهم رفوف المكتبة القديمة التى تحوى كتبا للبخارى ، والرازى ، والزمخشرى وغيرهم .. ان « رباط » تريم فى أمس الحاجة للمساعدة حتى لا يغلق أبوابه !

السيد محمد جمال الكاف يعرض على بعض أنجاله وأحفاده مجموعة المصاحف النادرة التى ورثها عن والده .. انها ثروة دينية فنية موجودة فى خزائن أسرة الكاف بتريم . جمعوها من الهند وسنغافورة واليمن واندونيسيا ، ويعود تاريخ أقدم هذه المصاحف الى عام ٢٤٣ هـ ، وكلها مكتوبة باليد ومزخرفة بماء الذهب

الى اسفل : داخل أحد منازل آل الكاف انه نسخة من أسلوب الحياة فى سنغافورة نقله الحضارمة معهم ، عند عودتهم من المهجر ، الى تريم بحضرموت الكثيرية





قصر النعيم ! هنا ينزل السائحون والسائحات الذين يأتون من أمريكا وانجلترا ، عن طريق عدن ، للتمتع بمشاهدة مدن تريم ، وشبام ، وسيون .. انها المدن الثلاث القائمة على أطراف الربع الخالى .. ان فتح ابواب حضرموت أمام السائحين يعود الفضل فيه الى الاخوين يعقوب وصالح الكاف اللذين تراهما في الصورة امام حوض السباحة الكبير الذي أقاماه في حديقة القصر .



الى اليسار : بجوار تريم ، حيث يضيق وادى حضرموت الى اربعة اميال فقط ، اقاموا هذا السد الفرعى لحجز ماء الامطار التي تهطل غير منتظمة .. ومما يذكر ان سدا كبيرا يدعى سد النقرة أقيم على وادى حضرموت قرب تريم وتكلف نحو مليون شلن ، ولكنه لم يستطع الصمود امام أول سيل لسوء تصميمه ، فتهدم وضاعت احجاره ، وخربت مزارع النخيل ، وانجرفت التربة الطيبة مع المياه الضائعة في المحيط .

عام ٣٢٠هـ . ومكث في حضرموت ٢٦ عاما تزعم خلالها مقاومة المذهب الاباضي ، وساعد على انتشار مذهب الشافعي وعقيدة أهل السنة ...

وما زال السادة من أحفاده يتمتعون حتى اليوم بمركز خاص وباحترام زائد .. وهم يلبسون الملابس البيضاء ولا يحملون اى نوع من الاسلحة. وقد ساهم وجودهم بمدينة تريم في تحويلها الى مدينة شبه مقدسة ، ومن هنا كان سعى الناس لدفن موتاهم فيها .

ان اجلال اهل تريم يعبّر تعبيرا صادقا عن شعور أهلها الذين يعيشون حياتهم كلها في انتظار نهاية رحلة الحياة ... فكل شيء هادىء خامل في المدينة ، والمشاريع معدومة ، وكثير من الناس يفترسون شوارعها بلا عمل وكأنهم في انتظار دورهم ليلتحقوا بهؤلاء الذين يقبعون داخل القبور ذات الشواهد الحجرية !!

لقد كادت تريم أن تصبح مدينة للأموات ، الذين يزداد عدد قبورهم كل يوم ، حتى غدوا يهددون بالقضاء على مدينة الاحياء ! ولقد ضمت هذه القبور الافا من الموتى وذلك في عام ١٩٤٤ ، أثناء المجاعة الهائلة التى وقعت عند ذلك .

٣٠٠ مفتٍ من قبيلة واحدة !

لقد عرفت تريم منذ فجر التاريخ ، بأنها معقل العروبة والاسلام ، وقد حدث أيام الردة ان أهل تريم – بالخصوص – لم يرتدوا مع المرتدين من أهل حضرموت ، بل كان رجالها في صف الخليفة ابي بكر ضد المرتدين ..

وكانت تريم تشتهر بكونها دوما المدينة التى تنجب أشهر رجال العلم والصالحين الاخيار ، حتى قيل انها كانت تضم ٣٠٠ مفت من قبيلة واحدة في القرن السادس الهجرى ..

انقذوا رباط تريم

ان من المؤسف ان نجد تريم ، بعد ذلك الماضى المشرف ، تمر بمحنة قاسية ، فلقد تحولت الى مدينة فقيرة مهدمة يهجرها أهلها .. حتى ان رباط تريم ، الذى هو بمثابة الازهر لحضرموت ، حيث يتخرج العلماء الشرعيون الذين يقومون بمهام الدعوة والارشاد والافتاء وشئون القضاء .. هذا « الرباط » أوشك على اغلاق أبوابه ، بعد ان اصبح في حالة يرثى لها من التدهور .. ان كل شيء ينقصه .. ومحتوياته القليلة تعود الى قرن مضى .. حتى مبناه أصبح يعتمد على جذوع الاشجار لتسنده،كما أصبح سقفه مهددا بالسقوط بين لحظة واخرى .. اما الغرف التى ينام فيها الطلبة فغرف تأنف الدواب من النوم فيها .. حتى الكتب والكراسات اصبحت نادرة في أيدى الاساتذة والطلبة ..

لقد وصل عدد طلبة هذا الرباط في يوم ما ٥٥٠ طالبا ، منهم ٢٥٠ طالبا مغتربا ، جاءوا من افريقيا الى تريم لتلقى علومهم الدينية .. أما اليوم فقد هبط العدد الى ١٥٠ طالبا فقط .. واصبح « الرباط » يعيش على عائدات عقارات قليلة من الملايو وحضرموت ، لا تزيد في مجموعها



اقبال هائل على التعليم .. كل أب في حضرموت أصبح يرغب في تعليم ابنه وابنته .. ولكن هذا الوعى جاء كالسيل دفعة واحدة ، والذى استطاع أن يجد لابنائه مكانا في المدرسة الابتدائية ألحقهم بها ، حتى تكدس ٥٢٠ طالبا في هذه المدرسة الوحيدة.. ان عدد طالبي العلم يتضاعف ، بينما الامكانيات تقف عند نقطة الصفر !

عن ٥٠ دينارا شهريا .. وحتى هذا المورد الضئيل مهدد بالانقطاع بين لحظة واخرى بسبب القيود المالية التي تفرض في بلاد الشرق الاقصى .

وفي حديث مع رئيس الرباط ، الشيخ محمد المهدي بن عبد الله الشاطرى ، قال لنا : « اننا على ثقة من أن أشقاءنا في البلاد العربية سيهبّون الى نجدتنا لانقاذ هذا المعهد العلمي عندما يعلمون بالمحنة التي نمر بها .. اننا في حاجة الى كل شيء لاعادة الحياة الى هذا المعهد الاسلامي ذي الماضي المجيد » .

مسجد لكل يوم !

وقد اشتهرت تريم منذ زمن بعيد بعدد مساجدها الذي يبلغ ٣٦٥ مسجدا ، أي ان المرء يستطيع الصلاة يوميا في مسجد مختلف على طول مدار السنة .!!!

ربما كان هذا القول صحيحا بالنسبة للماضي ، أما اليوم فقد اندثر الكثير من هذه المساجد لعدم توفر المال اللازم لصيانتها .

واشهر مساجدها هو مسجد عمر المحضار ، ذو المئذنة العالية الرائعة .. انها الاعجوبة التي ترتفع على حدود الربع الخالي ، ولم يرها الاولون ليضموها الى عجائبهم السبع الأخرى . !!

ويكفي ان تعلم ان هذه المئذنة الرفيعة التي ترتفع ١٧٥ قدما في الفضاء ، لم يستخدم في بنائها لا الحديد ولا الاسمنت ، وانما الطين وجذوع النخيل فقط !!

وارتفاعها الشاهق يجعلها قبلة الأنظار فحيثما اتجهت في تريم تجدها امامك .. وفي المساء تشع منها الأضواء فيراها القاصي والداني (انظر الصورة ص ١٢٧) .

المدرسة الوحيدة !

وكان التعليم كله يدور داخل كتاتيب المساجد ، اما اليوم فاصبح يسمى بالتعليم الابتدائي . وهو ابتدائي تجاوزا في التعبير . وتنظر في كتبه فتجدها صنفين ، كتب اللغة العربية والدين تاتي من الكويت ، واذن فهي تتبع مناهج الكويت ، وكتب الحساب والعلوم تاتي من السودان ، واذن فهي تتبع مناهج السودان .

حقيقة ان المسئولين عن « جمعية الاخوة



رؤساء رباط تريم : في الوسط محمد المهدي بن عبد الله الشاطرى رئيس الرباط .. والى يساره الاستاذ محمد بن احمد بن عمر الشاطرى المؤرخ الحضرمي ، وصاحب المؤلفات الشهيرة .

والمعاونة » يبذلون قصارى جهودهم للنهوض بهذه المدرسة التابعة لجمعيتهم ، ولكن هذه الجهود تكاد ان تتوقف لعدم استنادها الى مورد مالي ثابت يمولها ،اللهم الا بعض المال الذي يأتيها من الجهات الخيرية الأهلية ، وجزء يسير آخر تساعد به الحكومة الكثيرية ..

ويدفع الطلبة ، وعددهم ٥٢٠ طالبا ، مصروفات رمزية للمسئولين عن المدرسة .. فالطالب القادر يدفع شلنا واحدا شهريا ، والذي يعجز والده عن دفع هذاالمبلغ يتغاضى عنه ..

وقد قامت الحكومة في العام الماضي بفتح مدرسة متوسطة في تريم مكان المدرسة السابقة الاهلية التي أغلقت وتضم حاليا ١٠٠ طالب .

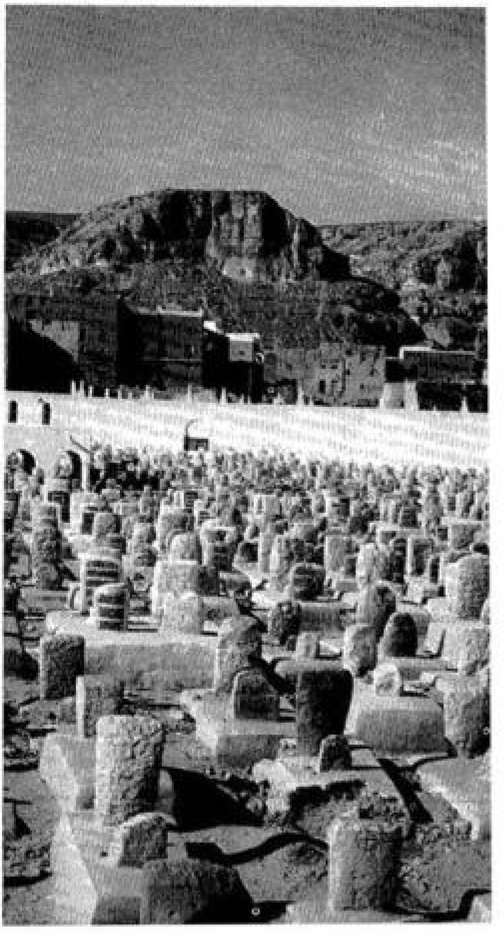
تعليم المرأة مرتبط بالماضي !

اما تعليم المرأة فلم يطرأ عليه أي تقدم أو تغيير حتى الآن .. انه تعليم بدائي يهدف الى ان

تستوعب الفتاة بعض الجمل والكلمات لتكتبها الى زوجها الذى يتركها بمفردها سنوات وسنوات ، ويقيم في المهجر بسنغافورة او الملايو .. وفي السنين الاخيرة بدات الهجرة تتجه نحو البلاد العربية المنتجة للنفط ..

اما تعليم المراة طبقا للبرامج الحديثة ، فهذا شيء يجر الى المفاسد .. في رايهم !!.. وهم يقولون ان الرجل المتعلم يستطيع ان يقوم بجميع الاعمال دون حاجة الى المراة المتعلمة . ويتابعون قولهم : « شاهدنا تعليمها في بلاد المهجر ، فذقنا من ذلك الامرين .. ونحن لسنا وحدنا في محاربة

القبور تزحف بشواهدها الحجرية ، حتى كاد الموت يطغى على الحياة في تريم !



تعليم المراة فقد سبقنا الى المناداة بهذا التحريم ابو العلاء المعرى نفسه !! يشيرون بذلك الى بيت ابى العلاء :

علموهـــن حـــرفة الغـــزل والنـــ
ـــسج وخلوا قـــراءة وكتابـــــة

ولا تكاد فتاة تريم تبلغ الثانية عشرة من عمرها حتى تسحب من المدرسة ، وتلبس الحجاب الأسود داخل بيتها .. لا احد يراها ، ولا تظهر على احد حتى ولا السيدات من قريباتها .

وكتبت جريدة « الطليعة » الحضرمية عن تعليم الفتاة ، فقالت : « ان جميع الاهالي يطالبون بتعميم التعليم الرسمي للبنات في كل مدينة وفي كل قرية .. اما الاصوات النكراء التي ما زالت تحذر من اخطار تعليم المراة وتصفه بأنه من اعمال الشيطان فهي اصوات يجب أن تلقم افواهها الاحجار ، وأن لا يوجه اليها اى اهتمام ، لانها اصوات الماضي تريد ان تشدنا حتى لا نتحرك قدما الى الامام ولا نتطور .. »

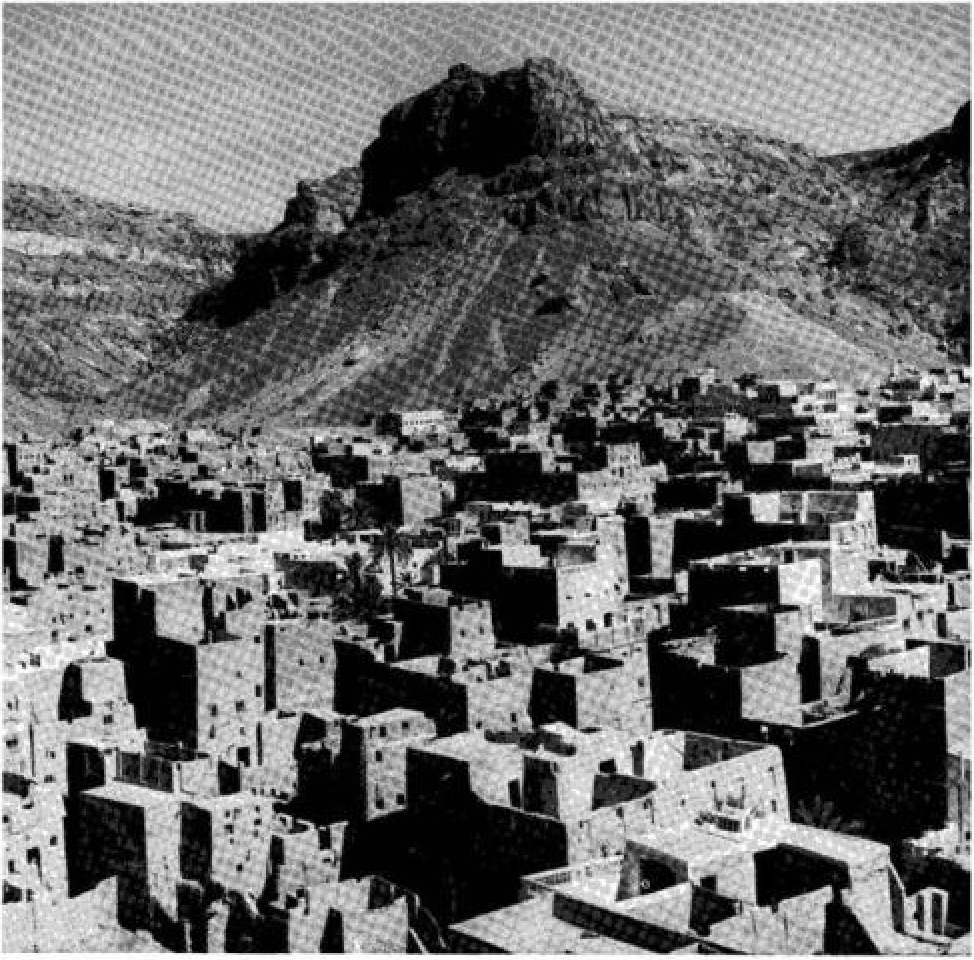
السياحة تبدأ لاول مرة

ان حياة تريم ليست كلها بهذه الصورة الحزينة ... فهناك الصفحة الاخرى الحديثة .. لأن تريم مدينة ذات وجهين ..وجه يطل على الماضي ويتحسر على ايامه .. ووجه يطل على العالم الحديث من اوسع ابوابه ..

ان الوجه الحديث لتريم صنعته اسرة واحدة ... انها الأسـرة التي شقت الطريق الذى يربط بين قلب حضرموت وساحلها ، وهى التى ادخلت السيارة الى تريم، واقامت فيها مستشفى ومكتبة عامة ، وشيدت عشرات القصور التى تحمل الطابع الهندسى للملايو وسنغافورة ، وهما الوطن الثانى الذى هاجرت اليه هذه الاسرة .. انها اسرة آل الكاف اشهر اسر تريم ، وحضرموت معا ..

ومنذ اربع سنوات قام اثنان من ابنائها هما يعقوب وصالح الكاف بأول عمل من نوعه في الجنوب فقد قاما بتجهيز احد قصور اسرة الكاف في منطقة « يعيديد » من ضواحي تريم ، واسمياه « قصر النعيم » ، وجهزاه بكل ما يحتاج اليه السائح من اثاث عصرى ، كما اقاما حماما كبيرا للسباحة في حديقة القصر ..

وتاتى افواج السائحين الى تريم من امريكا وانجلترا فتصل الى عدن ، ومنها تنقل باجر زهيد لا يتجاوز ٢٤ جنيها استرلينيا للشخص الواحد



منازل تريم : انها تختلف عن ناطحات سحاب مدينة شبام ، وتقل زخرفة عن منازل العاصمة سيون .. فقد أفقد اختلاط الفن العربي بالفن الاسيوى القادم مع المهاجرين ، المساكن فى تريم وحدة الجمال الهندسي . ويبلغ عدد سكان المدينة نحو ١٠ الاف نسمة .. ومثلهم يعيش فى المهجر بالخارج .. ومن المؤسف أن أغلب الحضارمة الاثرياء فى الخارج يستغلون أموالهم بعيدا عن بلادهم، اما استغلالها فى اي مشروع جدى داخل البلاد ، فشيء بعيد عن تفكيرهم !

الى تريم ، وتشمل هذه الاجرة السفر ذهابا وايابا من عدن الى تريم مع الاقامة والاكل لمدة ثلاثة ايام فى تريم .

انها المرة الاولى التى تفتح فيها اراضى حضرموت الداخل ابوابها امام السائح الاجنبى الذى سيشهد مناطق لم يكن يحلم بزيارتها ، كانت بالنسبة له فى الماضى مغلقة .

ان السائح فى جولته هذه سيشهد روعة مباني شبام ، وجمال حدائق سيون ، وسيركب الجمال ، ويرى مئذنة جامع عمر المِحْضار .. والى جانب كل ذلك سيلمس عن كثب مدى الاهمال المشين الذى تعيش فيه المنطقة فى ظل حماية بريطانية بدات منذ ١٢٥ سنة تقريبا .

ان فكرة فتح الجنوب العربي امام السائح الاجنبي يجب أن تلقى كل تشجيع وترحيب من شركات السياحة العربية حتى يتسنى للسائح

زيارة الجنوب والتعرف على هذه المنطقة المجهولة من العالم ..

حقيقة ان السائح لن يجد هناك وسائل الراحة الكاملة كما في بلاده .. ولكنه ليعتبر من السعداء لان تريم اليوم اصبح فيها كهرباء ، دخلت المدينة لاول مرة منذ عام واحد فقط ، ولكن استعمالها مقصور على ست ساعات يوميا ، من السادسة مساء حتى منتصف الليل .. تضاء خلالها بعض شوارع المدينة وهي شوارع غير ممهدة !

قــوش !؟

وتواجه بلدية تريم متاعب جمة في سبيل نظافة المدينة ، فهي تطلب عمالا للتنظيف ، وتعرض عليهم اجرا مغريا يصل الى ثمانية شلنات يوميا ، ومع هذا لا يتقدم احد !! انهم يرفضون العمل لأن مهنة تنظيف الشوارع تعتبر في نظرهم « قوش » اي مهنة حقيرة !! . وهم يفضلون على هذا العمل الجوع ، او الاستجداء ، يستجدون الطعام ، وينامون الى حوائط الدور .

يد واحدة لا تصفق !

ويبذل حسين عبد القادر الكاف ، رئيس بلدية تريم جهدا كبيرا مع الهيئات والجمعيات الأهلية فيقصدها طالبا مساعدتها في مهمته من اجل تجميل المدينة والنهوض بمشاريعها ، ولكن محاولاته تذهب ادراج الرياح ، فهذه الهيئات لا تريد ان تساهم او تلتزم مع البلدية في اى مشروع ..

ويقف رئيس البلدية وحده ليخطط المشاريع ، مثل مشروع سياج من الاشجار حول المقابر الثلاث الكبيرة .. وانشاء حمامات شعبية .. وتمهيد بعض الطرق ، ولما كانت ميزانية بلدية تريم لا تتجاوز الفي دينار في العام ، فقد اضطر رئيس البلدية الى طلب قرض من الحكومة .. وكان ما يزال ينتظر هذا القرض عندما غادرنا تريم ..

ممنوعات ومحرمات

ومن بين هذه المشروعات مشروع اقامة حديقة عامة تكون بمثابة رئة كبيرة لأهل البلد يستطيعون ان يجدوا فيها متنفسا ومهربا ، فكل شيء في مدينتهم محرم وممنوع ..

وتبدأ قائمة الممنوعات بحظر ارتداء السروال أو البنطلون ، ولو ان أبناء اسرة الكاف حطموا هذا التقليد ، واصبحوا يرتدون البنطلون والسروال باستمرار ...

والغناء والطرب بمصاحبة الأوتار ممنوع ، لأنه لهو يجر الى « المفاسد » ، كما يقول المتزمتون الذين يؤكدون : « ان الائمة الأربعة أجمعوا على تحريم الطرب بمصاحبة الاوتار » .

وسألناهم : وكيف اذن تسمحون بالغناء المنبعث من المذياع ؟

فقالوا : هذا ليس غناء .. ولكنه صدى لصوت ، وفرق كبير بين الصوت وصداه ! » ..

اما السينما ، فتأتي في مقدمة قائمتي الممنوعات والمحرمات معا ! وهي ليست محرمة في تريم فقط

الطرب بالأوتار يجر الى المفاسد .. ! هكذا يقول المتزمتون الذين يطربون للاغاني التي ينقلها لهم المذياع ، ثم يقولون : انها ليست اغاني .. وانما صدى لأصوات !! ولكن أسرة آل كاف التي عادت من المهجر بسنغافورة ، حطمت هذه الخرافة ، واصبحت المدينة كلها تطرب للاغاني الشعبية الجميلة التي تنطلق من قصور آل كاف بتريم في المناسبات والاعياد .



ولكن فى المنطقة كلها !! .. وبمناسبة الأعياد فقط تقام بعض الحفلات السينمائية فى سيون ،عاصمة حضرموت الكثيرية .. وفى هذا اليوم يهرع أبناء تريم وشبام على ظهور جمالهم وحميرهم وسياراتهم، التى لا يزيد عددها على التسعين سيارة فى تريم ، للتمتع بمشاهدة الروايات السينمائية مرة فى السنة !!

طبيب لكل ٢٥ الف نسمة !

ووسط الحرمان الذى يعيش فيه أهل تريم تطل ازمة الأطباء ، وسوء التغذية ، وانتشار امراض الحميات والطفيليات بين الأهالى ..

لقد اقامت أسرة الكاف مستشفى فى تريم ظل يعمل مدة ٢٥ عاما .. كان به خمسة اسرة ،وطبيب واحد تدفع له أسرة الكاف راتبه ، ولكن القيود التى فرضتعلى اخراجاموال الحضارمة المهاجرين من سنغافورة والملايو قضت على المشروع ... ثم ما لبث ان تقرر تقديم المستشفى بكل ما فيه هدية للحكومة الكثيرية ، ويعمل فيه حاليا طبيب واحد من أسرة الكاف هو الدكتور عبد القادر الكاف الذى يعتبر مسئولا عن ٢٥ الف نسمة فى منطقة تريم .. ان الامكانات فى المستشفى تكاد تكون معدومة .. أما الحالات التى تحتاج الى اجراء عمليات جراحية فينقل اصحابها لمسافة ٥٠٠ ميل الىعدن حيث تجرى هذه العمليات فىمستشفياتها.

النفط واليورانيوم

ان ماضى حضرموت البعيد مدفون تحت الجبال والرمال لم يكشف عن آثاره بعد ، ولكن القليل الذى ظهر منها حتى الآن يبعث على الزهو والفخر.

اما حاضرها ، وحاضر تريم معها ، فيبعثان على الألم والأسى ..لانهما ما زالتا تعيشانمنطويتين على نفسيهما بعقلية القرون الوسطى وتقاليدها .

وننتقل الى المستقبل ، وهو شىء يتوقف اساسا على تحقيق أمل كان يبدو لامعا براقا ولكنه ما لبث ان بدا يتبدد على مر الايام .. انه النفط فى شمال حضرموت ، الذى ما زالت تجرى اعمال التنقيب عنه حتى الآن دون العثور على أثر له ..

وينتظر الحضارمة فى الوطن والمهجر بفارغ صبر تقرير خبيرين جيولوجيين سعوديين ذهبا الى منطقة الحفر ، وشاهدا عن كثب اعمال الحفر .



قسوة الحياة فى تريم ... امرأتان تسحبان المياه من قلب البئر . انهما تشدان حبلا طويلا رُبط فى نهايته دلو من جلد الماعز ... ولكي يخرج الماء تصعد هاتان المرأتان التل الصغير المؤدى الى فوهة البئر ، عشرات المرات كل يوم .. وقد كاد هذا المنظر أن يزول من تريم بعد ان بدأت المضخات الآلية تحل محل الانسان فى سحب الماء من الأعماق ..

والى جانب النفط توجد المعادن الاخرى ، وفى مقدمتها اليورانيوم الذى يقول لك ابناء تريم عنه :

« ان بريطانيا قد دفعت ما عليها من ديون الحرب العالمية الثانية لأمريكا باليورانيوم الحضرمي الذى استخرجه الانجليز من شمال بلادنا » .

★ ★ ★

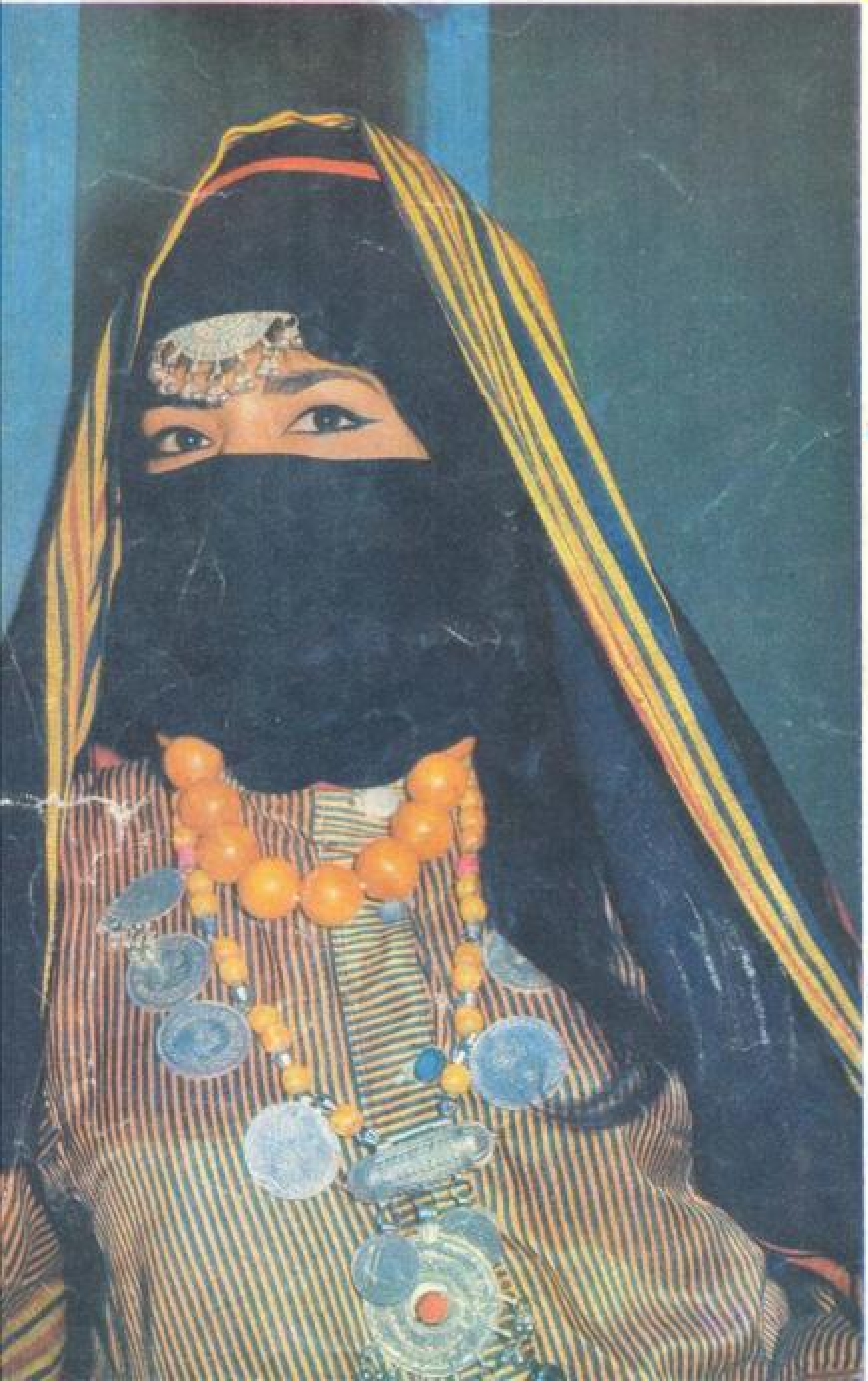
ان تريم ، أو مدينة الموتى لا تزال تامل ان يتفوق مستقبلها على ماضيها ، لتعود مدينة للعلم فى جنوب الجزيرة العربية فتضىء بشعاعها ظلمات الجهل والفقر والمرض والتخلف الذى يعيش فيه ابناء هذه المنطقة المنسية من وطننا العربى الكبير .

ومن يدرى ، فقد تتحقق امنية هذا الشعب الطيب ، وتنتقل المدينة من الموت الى الحياة ، ومن الظلمات الى النور . ■■

سليم زبال

العربي

رجب ١٣٩٠
سبتمبر
(ايلول) ١٩٧٠



اطلب

العربي الصغير

مع هذا العدد

جوائز

١٣٠٠

دينار سنويا

عينان وكهرمان ..
من ريف صنعاء

الثمن

الكويت	١١٠	فلوس
الخليج العربي	٢	ريال ق
السعودية	٢	ريال
البحرين	٢٠٠	فلس
اليمن	٣٫٥	شلن
العراق	١٢٠	فلسا
لبنان	١٠٠	قرش
الأردن	١٠٠	فلس
سورية	١٠٠	قرش
ج.ع.م.	١٠	قروش
السودان	١٠	قروش
ليبيا	١٥	قرشا

اعرف وطنك أيها العربي

.. ثم عاد السلام الى عاصمة اليمن العريق :

صَنْعَاء



رئيس المجلس الجمهوري
القاضي عبد الرحمن الارياني

« لابد من صنعا ولو طال السفر .. » ومن قمم الجبال ، وبعد أن حل السلام ، يتوافد ابناء اليمن على عاصمتهم .



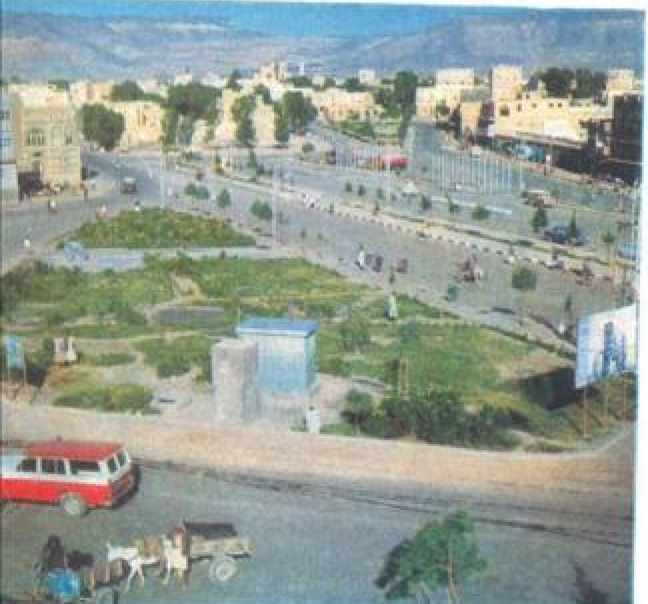




رئيس المجلس الوطني ، وزعيم قبائل حاشد ، الشيخ عبد الله الاحمر

دولة محسن العيني ، رئيس مجلس الوزراء يترأس الاجتماع الاسبوعي للوزارة اليمنية

استطلاع : سليم زبال



شوارع طويلة ، وميادين فسيحة ، انها صنعاء الحديثة .. والى اسفل تطورت المرأة الصنعانية واصبحت تعمل في مصنع النسيج بصنعاء ، انها ما زالت تخفي وجهها ، ولكن وراء منديل احمر



في شوارعها يتجولون حاملين بنادقهم



■ **نداء من أخ عربي الى الامة العربية ، ننقله كما جاء على لسانه ، عندما ذهبنا اليه نستطلع اليمن الجديد ..**

قال دولة محسن العيني رئيس وزراء جمهورية اليمن العربية :

« سأحدثكم حديثا واضحا بلا مجاملات .. اسمعوها صريحة قوية خارجة من القلب ..

« ان التخلف الرهيب الذي يعيش فيه هذا البلد العربي ، لا يمكن لليمنيين وحدهم ان يجدوا له الحلول ..

« اننا نشعر ان الدول العربية ، والمنظمات العربية ، عليها واجب يفرضه الاخاء .. والقومية .. والمصير الموحد لنا جميعا ..

« ان الشعب اليمني الاصيل الذي انطلقت منه الهجرات العربية الاولى .. هذا الشعب الذي يعتز بكرامته واصالته .. اصبحت صلته بالعالم صلة المحتاج المتسول .. رغم وجود الثروة تحت رماله وفي بطون جباله ! ولكن الامكانيات البشرية والمادية هي التي تنقصه لاستخراج تلك الثروات .

« ان ٩٥٪ من اطفالنا وشبابنا محرومون كليا من التعليم ، لعدم وجود مدارس او مدرسين .

« وليس عندنا سوى ٥٢ طبيبا ، يعالجون خمسة ملايين نسمة ، اى طبيب واحد لكل ٩٤ الف نسمة !

« والناس يموتون يوميا على ساحلنا المطل على البحر الاحمر في تهامة ، يموتون من الجوع ، ونحن لا نملك الا ان نوزع عليهم ٥ آلاف كيس خبز يوميا ، في محاولة يائسة لانقاذهم .

« اننا نعيش منذ ٤ سنوات في جفاف رهيب دون امطار .. ولولا بعض المساعدات التي تأتينا من ايطاليا والمانيا والصين وروسيا والسوق الاوروبية المشتركة لمات هذا الشعب العربي . »

دولة محسن العيني
رئيس وزراء اليمن .



معركة البناء

ويتوقف رئيس الوزراء ، الشاب الذى تعلم في مدارس المقاصد بصيدا وتخرج في جامعة القاهرة ، ليتابع حديثه قائلا : « لقد توقف القتال تماما في اليمن .. وعاد السلام يرفرف على ارضنا الحزينة .. لقد ادركنا أن حل مشكلتنا الى جانب فوائده على اليمن ، هو مصلحة عربية عامة ، حتى نعبىء كل قواتنا ومجهوداتنا ضد عدونا المشترك ..

« ان معركة البناء في اليمن ، اصعب آلاف المرات من معركة الهدم والدمار .. ولكن ثقتنا كبيرة في ان السلام سيجلب الرخاء للبلاد .. »

طرف الخيط

وتركنا رئيس الوزراء وهبطنا درجات السلم العالية ونحن سكوت .. احاسيس كثيرة كانت تعتمل في نفوسنا لقد وضع رئيس الوزراء طرف الخيط في يدنا ، فكان علينا ان نتابع البحث والتحرى ، عن متاعب وآمال أهل صنعاء في مسيرتهم الجديدة نحو بناء دولة حديثة ..

طرق تربط صنعاء بالخارج

وبدانا جولة في شوارع صنعاء .. يا الله كم تبدل منظر المدينة .. لقد استطلعناها عام ١٩٦٣، عندما لم يكن فيها طريق واحد معبد ، أما الآن فاصبحت الطرق الفسيحة تشقها بالطول والعرض .. وكانت صنعاء ترتبط بالعالم عن طريق الحديدة فقط ، اما اليوم فاصبحت ترتبط مع تعز ، وقريبا مع صعدة بطرق دولية .. لقد تبرع الامريكان بشق طريق صنعاء تعز ذلك الطريق الجبلى الوعر الذى يبلغ طوله ٢٦٥ كيلو مترا ، وما كادوا ينتهون من شقه حتى انقطعت العلاقات بين اليمن وامريكا ، وتوقف العمل ، وتقدمت المانيا متبرعة لكسوة الطريق بالاسفلت .. اما طريق صنعاء



خريطة الجمهورية العربية اليمنية ، وقد ظهرت عليها المدن الرئيسية الثلاث : صنعاء ، تعز ، الحديدة .. والجزء الغربي من اليمن المطل على البحر الاحمر يطلق عليه اسم : تهامة .. وفي الوسط ترتفع منطقة سلاسل جبال السراة العالية .. ثم تأتي منطقة الهضاب ، ومنطقة السهول الشرقية ..

صعدة في شمال البلاد فتقوم الصين بشقه بموجب قرض .. كما انها هي التي شقت طريق صنعاء الحديدة بموجب قرض آخر قيمته ٥٤ مليون فرنك سويسري ..

هنا كانت .. فاصبحت !

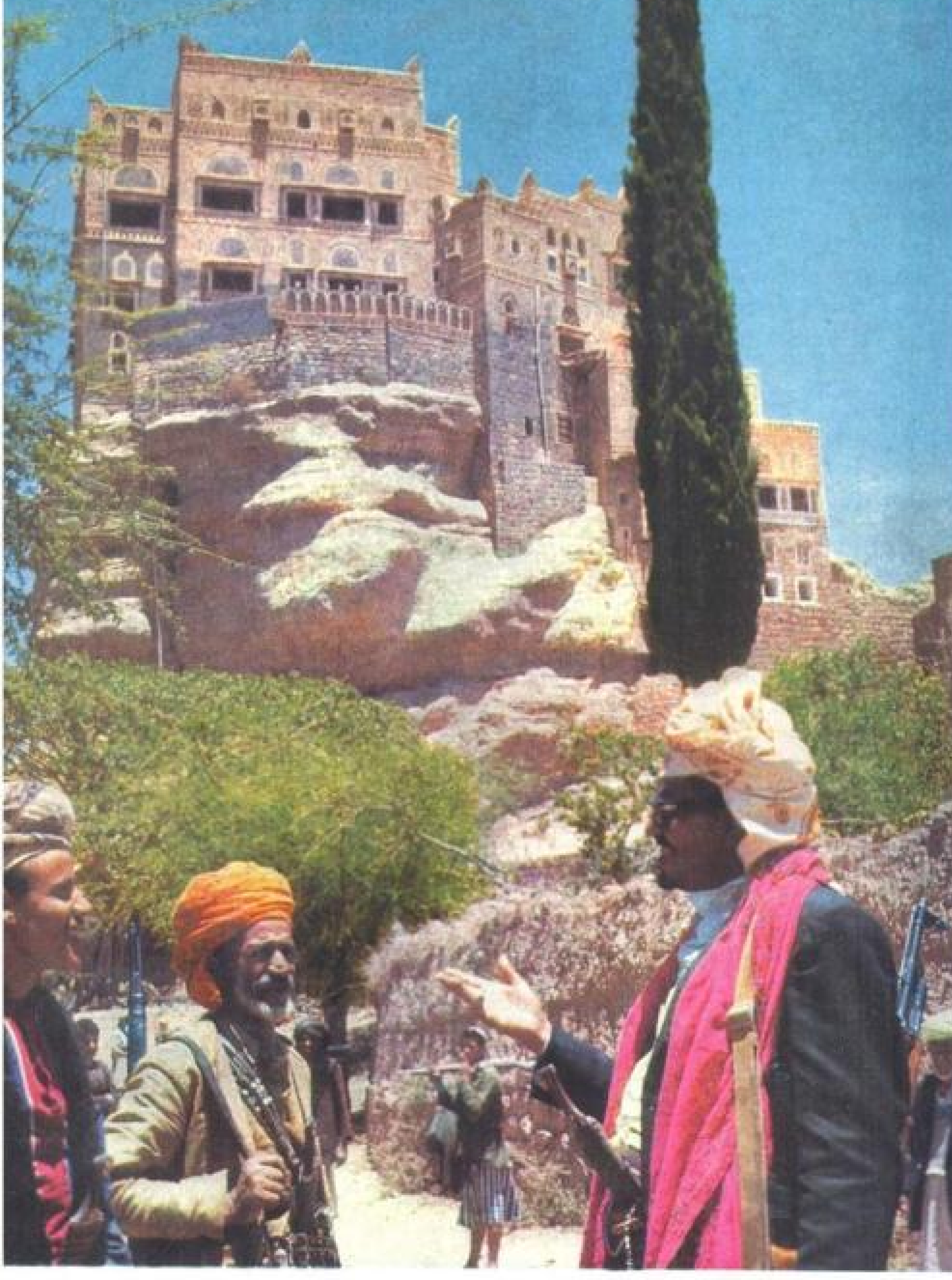
وسرنا في شوارع صنعاء ، ومعنا وكيل وزارة الاشغال علي ابو الرجال .. كان يشير ذات اليمين وذات الشمال ويقول : « هنا كان باب خزيمة

الى اسفل : طابع البناء الصنعاني ،يتميز بالاسلوب العربي الاصيل ، الذى لم يتأثر باساليب الهندسة او البناء العصري في العالم .. وتبنى الطوابق الاولى من المنزل باحجار البازلت السوداء والبيضاء . اما الطوابق العليا فتشيد بالآجر لانها اخف وزنا .. ان هذا الاسلوب الجميل القديم يحتاج الى وقت طويل في بنائه ، لهذا اتجه بعض الناس الى بناء منازلهم طبقا للاساليب الهندسية الحديثة ، مما اثار اهل صنعاء .. وقررت الحكومة حلا وسطا ، بان سمحت بالبناء الحديث ، على شرط الاحتفاظ بطابع البناء القديم بعد تطويره .





اسماءا ، امن المساجد والجوامع العامرة ، ذكرها الحاج محمد الحجري في كتابه « مساجد صنعاء » ، كما اورد اسماء ٢٥ مسجدا منسيا ، لم يبق منها الا اطلال .. ومن المساجد العامرة في صنعاء **مسجد** البكرية الذى شيد عام ١٠٠٥ هـ . ويحوى المسجد زخارف جميلة رائعة ، كما ترى في الصورة .



على مسافة ربع ساعة بالسيارة من صنعاء،تقع « دار الحجر » وتعتبر من أجمل المباني الاثرية وأروعها هندسة في اليمن ، اذ يرتفع القصر ستة ادوار فوق صخرة ثابتة وسط وادي ضهر .. ويرجع تاريخ البناء الى العصر الحميري ، الذي امتد من عام ١١٥ ق.م الى عام ٥٢٥ بعد الميلاد . ولكن هذا القصر كان يتعرض دائما للهدم والتدمير ، ليعود فيبنى فوق اطلاله قصر جديد .. ويقيم في القصر حاليا بعض الدوائر الحكومية ، ولكن من المنتظر اخلاؤه قريبا ، وتحويله الى فندق من الدرجة الاولى.

احد ابواب صنعاء السبعة القديمة..لقد هدمناه وجعلنا مكانه حديقة .. وهنا كانت مقبرة ، قسمناها الى طريق واراض للبناء . وهنا كان يرتفع السور الذي تشرلم سورته عام ١٩٦٢ لقد حولناه الى شارع على جانبيه المنازل .. وهذا ميدان التحرير تحول الى صورة اخرى بعد تخطيطه ورصفه واقامة المبانى الحديثة الجميلة حوله .. وهذه منطقة باب شعوب ، كانت مهجورة خاوية فأصبحت حيا يضج بالحياة .. »

اسواق لكل مهنة

حتى الاحياء القديمة امتدت اليها الطرق .. اما الاسواق فما زالت على ما هى عليه ، كل مهنة لها سوقها القديم الخاص بها .. سوق المخلّص (الفضة الخالصة) وسوق الحلقة (الاساور) وسوق الملح ، وسوق العنب ، وسوق الحَب .. وسوق القات .. وسوق البَز (الحرير والقطن) .. وغيرها عشرات الاسواق المتلاصقة المتشابكة تقبع تحت ظلال المبانى الصنعانية الجميلة الساحرة التى ترتفع ستة طوابق .. الطابقان الاولان مبنيان بحجر البازلت، وبقية الطوابق بالآجر .. بينما الجص الابيض يزخرف الجدران والنوافذ من الخارج .



اربع سنوات لم تهطل خلالها الامطار .. فجفت الابار وتوقف الماء من صنابير المياه ، في المنازل وحتى المساجد حيث يتوضأ المصلون (كما ترى في الصورة) .. وعندما كنا في صنعاء كانت الحكومة تدرس امكانية الوضوء في البيوت ، فيأتي المصلون للمسجد متطهرين ..

١٧٠ الف نسمة فى صنعاء

وتنتهى الجولة مع وكيل الاشغال بقوله : « اننا لم نقم بالتعمير الا في اضيق الحدود ، نظرا للظروف التى مرت بنا .. ومع ذلك نستطيع القول اننا صنعنا شيئا للعاصمة صنعاء ، فقد ارتفع عدد سكانها من ٦٠ الف نسمة الى نحو ١٧٠ الف » .

ترسانة متحركة !

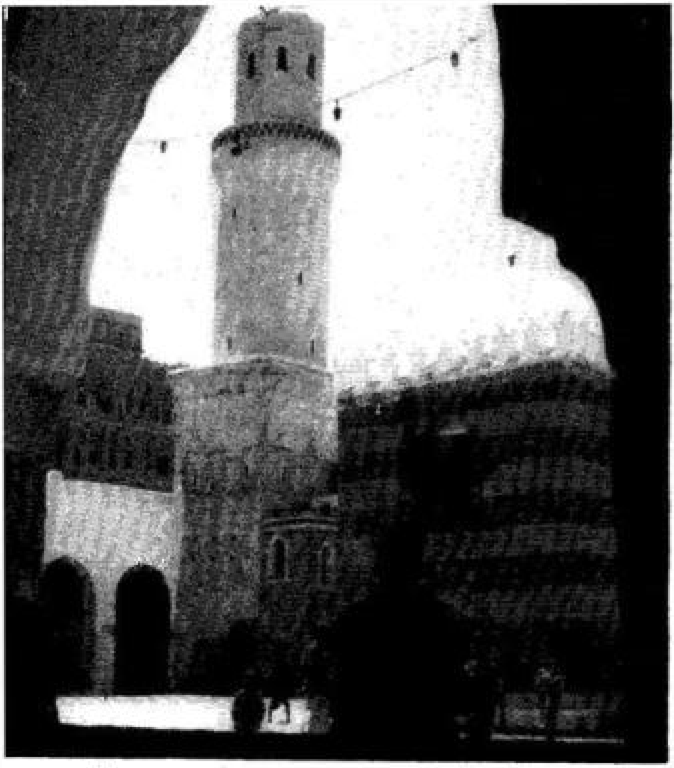
واكثر ما يلفت النظر في صنعاء هو كثرة الرجال المسلحين في طرقاتها ، انهم رجال القبائل جاءوا من الجبال بعد ان استقر السلام ، قاصدين صنعاء .. يسيرون حاملين بنادقهم السريعة الطلقات ، ومدافع البازوكا والقنابل في احزمتهم .. يسيرون وكانهم ترسانة اسلحة،مرحين،مبتهجين في شوارع صنعاء ، ان صنعاء تمثل في نظرهم كل شيء جميل رائع .. ولكنهم يصابون بخيبة امل كبيرة عندما لا يجدون مكانا للنوم فيها..فالفنادق قليلة ومعدودة .. حقيقة انه افتتحت ثلاثة فنادق جديدة متجاورة في صنعاء .. ولكنها كاملة العدد دائما اذ ينزل فيها السفراء والزوار الاجانب والمحليون .

السمسرة والخان ..

ويسقط في يد الرجل « القبيلى » فيتجه الى الفنادق الاخرى الصغيرة ، والى « السمسرة » .. اى محلات صغيرة هى اشبه بالخان في بلادنا ينزل فيها القرويون مع دوابهم باجر زهيد ..

الشقة والمنزل

واكثر ما يندهش له « القبيلي » هو تلك



جامع صنعاء الكبير .. « اول مسجد عُمّر باليمن في صدر الاسلام ، عمره وبر بن يحنس الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في سنة ٦ هـ . وقال الرازى احمد بن عبد الله : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر وبر بن يحنس الانصارى ،حين ارسله الى صنعاء واليا عليها ،فقال له : ادعهم الى الايمان ، فان اطاعوا لك فاشرع لهم الصلاة .. فان اطاعوا لك بها ، فمر ببناء المسجد في بستان باذان ما بين الصخرة الململمة الى غمدان .. وقيل ان الصخرة المشار اليها هي الموجودة الآن في الصرح الغربي في اصول اساس الجدار الغربي من الجامع .. » هذا ما ذكره الحاج الحجرى مؤلف كتاب مساجد صنعاء .. ومما يذكر انه تمت توسعة المسجد على مر القرون ، في فترات متعددة ، ويقال ان اعمدة واحجار قصر غمدان العظيم قد استعملت في بنائه .. وللجامع اثنا عشر بابا ، على أحدها كتابة قديمة بالخط المسند الحميرى .

المنازل الحديثة المطلية بالاصباغ التى انتشرت في صنعاء ، والتى بدأت في منافسة طراز البناء الحجرى القديم التقليدى ..

ان كل يمنى ما زال يحلم ببناء منزل من ستة طوابق ، يقيم به هو وعائلته المكونة من اربعة اشخاص او ستة .. اما فكرة الاقامة في شقة ، فهذا شيء جديد عليه لم يألفه بعد..لهذا تقتصر الاقامة بهذه الشقق في الوقت الحاضر على العائلات الاجنبية ، والعائلات اليمنية العائدة من المهاجر ..

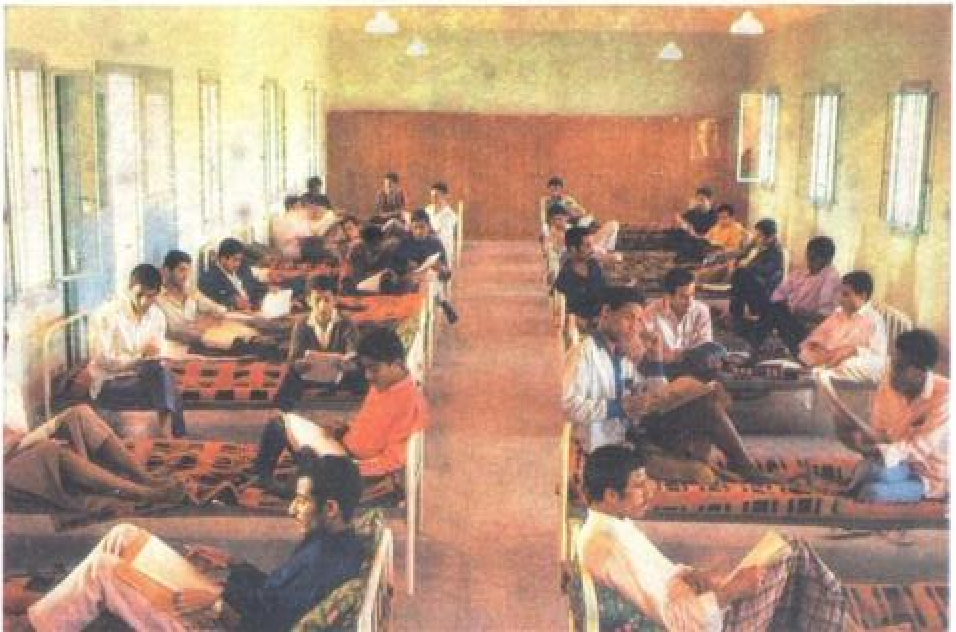
الماء .. الماء !

ونتيجة لازدياد عدد السكان اصبح الماء مشكلة المشاكل في صنعاء .. واغلب المنازل في المدينة ، يحوى كل منها بئرا خاصة به ، يتزود منها السكان بالماء من عمق ٣٠ مترا..وقدروا عدد الآبار المحفورة في المدينة بنحو ١٠ آلاف بئر .. وهذا العدد الهائل ادى الى زيادة في الاستهلاك ، فانخفض مستوى المياه الجوفية ...

.. وزاد الطينة جفافا ، انعدام الامطار في السنوات الاربع الاخيرة ، فنضبت المياه في كثير من الآبار ، وانقطعت عن بعض الفنادق والمنازل والمطاعم والمباني الحكومية ، التى اصبحت تشترى الماء من الخارج وتجلبه بالسيارات ذات الصهاريج.

والى جانب نقص المياه كشفت دراسات مكتب الامم المتحدة ، على ان مياه سبع آبار من كل





تعطش للعلم .. الالوف من ابناء الجيل الجديد في اليمن يبحثون عن العلم ، ولكن هيهات .. فليس في اليمن مدارس تكفي هذه الاعداد من طالبي العلم .. ان ٩٥٪ من اطفال اليمن في الشارع .. صيحة اخرى يطلقها ابناء اليمن الى اخوانهم في العروبة ، ولكن ما من سميع ولا مجيب ..

٢٠٠ استاذ عربي ، قدمتهم مصر وسوريا والعراق للعمل في اليمن .. اما المعلم المحلي فهو المشكل رقم واحد في نظام التعليم باليمن .. وفي الصورة الى اليمين بعض الطلبة يستذكرون دروسهم في جو هادىء بعنابر النوم بمبنى كلية المعلمين الحديث ، الذي شيدته حكومة الكويت ، وقدمته هدية لابناء اليمن .





صورة مؤلمة .. ما كان يجب ان تنشر !! .. ولكن الى الى متى نظل نفكر بمنطق النعامة .. التى تخفى رأسها بعيش اليوم مأساة ، ولا احد يلتفت اليه بالقدر الكافي .. ان هذا الشاب المريض نقله والده على ظهره وسار به على الى المستشفى الجمهورى بصنعاء ، بعد ان انهكه المرض وهو لا يدرى ماذا حل به .. كل ما رآه والده فيه انه على علاجه وقد اذهلهما ما رأيا من امره .. وقال الطبيبان ، واحدهما من ابناء اليمن ، والثاني من الصين : **الامراض اخفها الملاريا والبلهارسيا وفقر الدم .. ولو انه ترك بضعة ايام اخرى ، لفارق الحياة !** » امثال هذه

تسع ، هي مياه ملوثة ، بسبب تسرب نفايات المجارى اليها ..

وقامت الحكومة بمحاولة من ناحيتها ، فحفرت في ضواحي صنعاء آبارا عميقة تسحب منها المياه مجانا للاهالى ..

وقام مكتب الامم المتحدة بعمل دراسة موسعة عن الموضوع ، ارسلها الى مقر المنظمة في نيويورك لاعتمادها .. وما زالت الدراسة فى نيويورك .. وتقدر تكاليف مشروع مياه صنعاء بنحو ٧٠٠ الف دولار .

اين البعثات العربية ؟

واتجهنا الى المستشفيات لنرى حالةاهل البلد الصحية ، بعد أن رأينا المياه الملوثة التى يشربونها .. ووصلنا الى المستشفى الجمهورى .. ورأينا صورة مؤلمة لمأساة الانسان اليمنى .. ان انعدام الوعى الصحى يجعله لا يذهب الى الطبيب الا في آخر لحظة بعد ان يستفحل الداء في جسمه .. وفي المستشفى الجمهورى تعمل بعثات طبية روسية وصينية وايطالية الى جانب ٦ اطباء يمنيين .. اما البعثات العربية فلا وجود لها !!

وقابلنا الدكتور كوسون من اطباء البعثة الصينية . لقد جاء من بكين ليعمل في صنعاء ، سألناه عن الحالة الصحية للسكان فأجاب بألم،



ق الرمال متخيلة ان احدا لايراها .. ان الانسان اليمنى قدميه مدة اسبوعين ، جاء يحمله من قمة الجبل البعيد قد تحول بسبب مجهول الى هيكل عظمي..وعكف الطبيبان تالا : « **مسكين هذا الشاب ، انه مصاب بمجموعة من** الصورة كثيرة .. الم نقل لكم انها مأساة !

موجزا المأساة كلها بقوله : « المرضى كثيرون .. والامراض متنوعة .. والاطباء قليلون .. »

امراض بالجملة

ان هذا المستشفى الجمهورى الذى يتسع لنحو ٣٠٠ سرير يزدحم اليوم باكثر من ٦٠٠ سرير .. مرضى جاءوا من كل مكان .. يسيرون على الاقدام بالاسابيع ، يأتون من قمم الجبال قاصدين العلاج ، حاملين معهم الملاريا والبلهارسيا، والسل ، الى جانب الانيميا وسوء التغذية ..

ويقف الاطباء حول المرضى يتألمون لآلامهم ، ولكن لا يستطيعون الا التخفيف عنهم بالامكانات القليلة

الموجودة تحت ايديهم ، فالتحليلات المخبرية ضعيفة ان لم تكن معدومة في مستشفى الجمهورية .. وازدحام المرضى وكثرتهم يربكان الطبيب المعالج ..

١٨ عملية جراحية يومية

وعندما تكون هناك حالة تستوجب اجراء عملية جراحية يتم تحويل المريض الى مستشفى الثورة .. انه المستشفى الذى قدمته روسيا هدية الى اليمن ، وفيه تجرى يوميا ١٨ عملية جراحية من جميع الانواع ، على ايدى الاطباء الروس واليمنيين .. وهو مزود بجميع المعدات واجهزة الاشعة .. وتعمل فيه تسع ممرضات يمنيات تخرجن من مدرسة التمريض في صنعاء .

ممرضة وسيدة بيت

لقد اقبلت المرأة الصنعانية على مدرسة التمريض اقبالا هائلا ، ولكن المدرسة لا تستطيع ان تستوعب أكثر من ٨٥ فتاة .. لقد شيدت الكويت المبنى ، وتولت هيئة الصحة العالمية ، ادارته .

وتقول السيدة عاتكة الشامى رئيسة المدرسة :

« اننا نعمل على تخريج سيدة وليس ممرضة .. نعلمهن الدروس العامة والحساب والخط والعلوم، الى جانب مختلف طرق التمريض والرعاية الصحية .. والذى يحدث انه ما تكاد الفتاة تتخرج من المدرسة حتى يتقدم اليها احد الشباب من الخريجين ويتزوجها .. وهذا لا يضايقنا ، لاننا نعلم ان وجودها في المجتمع سيعمل على زيادة الوعى فى هذا المجتمع .. لان خريجة مدرستنا تعتنى بنظافة منزلها وطعامها واطفالها ، فتصبح قدوة حسنة لبقية نساء المجتمع .. »

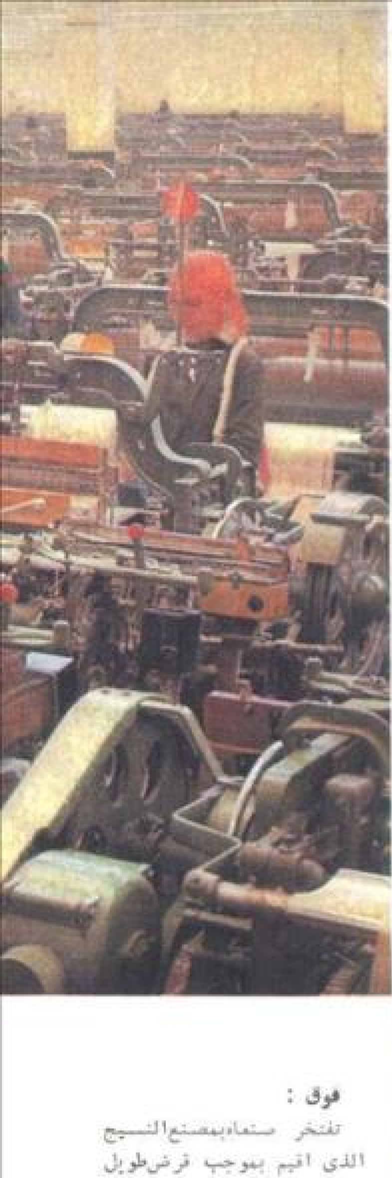
المرأة تنافس الرجل فى المصنع

وليس عمل المرأة الصنعانية مقصورا على التمريض فقط ، وانما رأيناها تعمل في مصنع الغزل والنسيج ، ذلك المصنع الضخم الذى قامت الصين ببنائه وجلب جميع معداته بموجب قرض قيمته ٣٠ مليون فرنك سويسرى ، يشمل قيمة المصنع وقيمة الطريق المؤدى من صنعاء الى صعدة في الشمال .



٥٢٩ طالبة يتلقين تعليمهن الابتدائي والاعدادي في مدرسة بلقيس بصنعاء .. وفي لواء صنعاء لا يزيد عدد الطالبات اللواتي تستوعبهن مدارس البنات هناك على أكثر من الف طالبة ، بينما يزيد عدد سكان اللواء على مليون ونصف مليون نسمة ! .. **والى اسفل** احدى عضوات جمعية المرأة تدرب زميلتها على طريقة عمل الطاقية .





فوق :

تفتخر صنعاء بمصنع النسيج الذي اقيم بموجب قرض طويل الاجل قدمته حكومة الصين الشعبية لليمن ، **انه المصنع** الوحيد المنتج في البلاد ، ويبلغ انتاجه اليومي ٣٦ الف باردة من القماش ، **ويعمل** فيه ١٥٠٠ شخص من بينهم ٢٦٢ عاملة ، ترى بعضهن امام الماكنات في الصورة .





الى اليسار : ١٥ فتاة تخرجن هذا العام في مدرسة بلقيس الاعدادية ، انهن النواة الاولى التي ستكون منها المدرسة الثانوية للبنات في صنعاء . وفي الصورة ، خمس من هؤلاء الفتيات ، يعرضن على الاستاذ احمد عبد الواسع الواسعي نتائج اجاباتهن في الامتحان .





في شهر يوليو (تموز) ١٩٦٩ صدر مرسوم جمهوري بانشاء الجمعية النسائية اليمنية .. فكان هذا ايذانا بانتقالها الى مرحلة جديدة ، بعد اجيال طويلة من الحرمان والجمود .. وهؤلاء هن اعضاء مجلس ادارة الجمعية خلال اجتماعهن

اول مذيعة في اذاعة صنعاء ، اليوسفي ، تعمل منذ ثلاث المراة لمختلف المجالات ..

ويعمل في هذا المصنع ٩٩١ عاملا .. و ٢٦٢ عاملة ، يعملن وهن يضعن المقمق (الحجاب الملون) على وجوههن .. وعندما دخلت الفتاة الى المصنع يوم افتتاحه عام ١٩٦٦ لم يحدث اى رد فعل معاكس لها ، بل على العكس بدأ التنافس بينها وبين فرقة الرجال التى تعمل في المساء .. ان معدل انتاج المراة ثابت ، بعكس انتاج الرجل فهو يتارجح بين الصعود والهبوط .. ونتيجة لهذه المنافسة بين الفريقين ، ارتفع انتاج المصنع من ٢٦ الف ياردة في اليوم الى ٢٩ الف ياردة ..

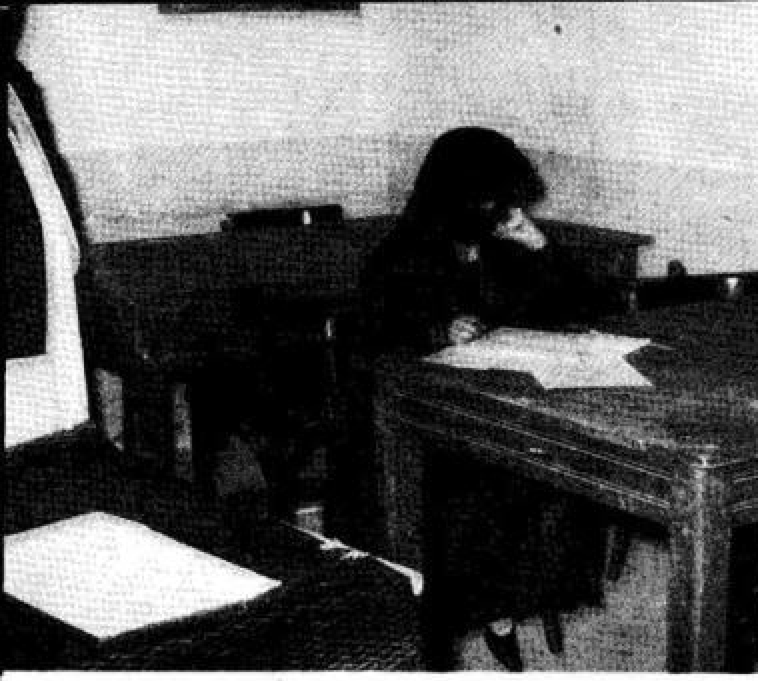
صناعات بسيطة ..

ويعتبر مصنع نسيج صنعاء الوحيد من نوعه في اليمن ، وانتاجه لا يكفى الاسواق المحلية .. لهذا بدا التفكير في تشغيل مصنع باجل المتوقف عن العمل منذ انشائه عام ١٩٥٦ ، رغم ان تكاليفه بلغت اكثر من مليون دولار ، وتجرى حاليا دراسة اسباب التوقف لحلها حتى يستطيع المصنع العمل لانتاج عشرة الاف متر من الاقمشة يوميا لمواجهة حاجة الاسواق المتزايدة .

اما الصناعات الاخرى الموجودة في صنعاء فلا تتعدى مصانع صغيرة لانتاج بلاط الاسمنت ، ومقاطع وكسارات للاحجار ومصنعين للاخشاب ، وورشا لاصلاح السيارات . صناعات خفيفة بسيطة رغم ان اسم صنعاء مشتق من صفتها ..

من الستارة الى الشرشف !

واذا كانت المراة تعمل محجبة في المصنع ، الا انها تعمل سافرة في الاذاعة ، لتعود وتسير محجبة في الشوارع تحت غطاء كثيف يسمى الستارة .. قطعة من القماش المزخرف بالالوان ، يغطى المراة من قمة راسها الى اخمص قدميها .. وقد تطورت الستارة الى الشرشف الاسود الذى يغطى المراة باكملها (انظر الصورة صفحة ١٢٥) .





فاتن محمد عبد الله
سنوات ، وهكذا بدأ غزو
ممرضة ومعلمة وعاملة

لا توجد حتى الآن طالبات في المرحلة الثانوية .. ولكن فتاة واحدة هي عائشة احمد شرف الدين ، تخرجت من مدرسة بلقيس الاعدادية ، ودرست في منزلها منهاج الاولى الثانوية ، وتقدمت للامتحان فجلست بمفردها تحت رقابة الاستاذ

فشل .. ونجاح

لقد حاولت المراة الصنعانية اقامة جمعية نسائية يمنية ،ولكن المحاربة القاسية التى قوبلت بها من الرجال جعلتها تفشل في مهمتها .. الا أنها عاودت الكرة مرة ثانية في نهاية عام ١٩٦٩ ونجحت في فتح جمعية جديدة للمراة اليمنية ، تراسها حورية المؤيد ..

وزرنا مقر الجمعية وتحدثنا الى رئيستها التى قالت : « اسسنا هذه الجمعية لحماية المراة اليمنية وتوعيتها ، مع محاولة لمحو الامية من اللواتى لم يتعلمن في المدارس .. وقد افتتحنا دارا للحضانة لرعاية اطفال السيدات العاملات في المصنع .. »

في دائرة الظلام !

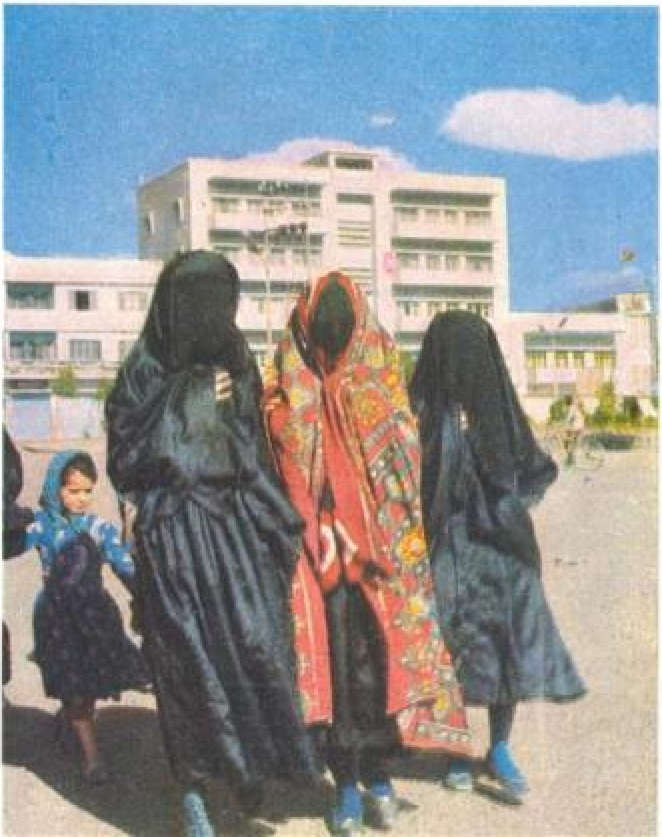
وتنتقل رئيسة الجمعية فتتحدث عن مشكلة المراة اليمنية فتقول بصراحة تامة : « ان اكبر مشكلة أمامنا هى رجالنا ، ان مجتمع اليمن هو مجتمع الرجل .. بيده كل السلطة والجبروت للتسلط على المراة .. انه لا يشجعنا ابدا على الخروج من دائرة الظلام التى نعيش فيها منذ مئات السنين .. فما تكاد الفتاة تنهى تعليمها الابتدائى حتى يقول لها ابوها او اخوها : اجلسي في المطبخ ، تعلمى السبار وشغل الديمة (اى صناعة الطعام وعمل المطبخ) وتظل الفتاة في المنزل حتى تصل الى سن ١٣ او ١٥ سنة على الاكثر يعمل بعدها والدها على زواجها بسرعة دون ان يسألها رأيها .. المهم ان يتقاضى اقصى سعر .. انه يبيعها بثمن البقرة : ثلاثة آلاف ريال .. وتنتهى حياة الفتاة بالزواج ، وانجاب الاطفال بالجملة .. »

سيضحك الجيران !

وينتقل الحديث الى الحجاب والشرشف الذى يغطى المراة فتقول رئيسة الجمعية : «أما الشرشف



٥٨ ممرضة يمنية يعملن حاليا في في مستشفيات اليمن .. وتتولى السيدة عائدة الشامي مهمة تدريب الفتيات في مدرسة التمريض ، التي شيدتها الكويت وتديرها الامم المتحدة .. وترى هنا بعض التلميذات – من مجموع ٨٥ تلميذة – يستمعن للسيدة عائدة وهي تلقي عليهن درسا عمليا في التمريض .



الى اليسار : تطور زى المرأة من الشرشف الملون ، الى الستارة السوداء ، واستبدل السروال الطويل ، الملاصق للارض ، بجوارب زرقاء .. اما الوجه فكان يغطى بمجموعة من الخمر (المناديل) فوق بعضها البعض ، اما اليوم فاصبح يكتفي بمنديل واحد ! ..



سيدتان في طريقهما الى جلسة يمنية نسائية يحملان على راسيهما البن ، اى القهوة المصنوعة من قشر البن .. واحداهما الى اليمين ، حملت البن داخل « الجمنة » الفخارية القديمة ، والثانية وضعته داخل ابريق من الالمنيوم .. انهما يتجهان للتفرط .. والتفرط هو الذهاب للجلوس في منزل السيدة التى انجبت مولودا ، حيث تتجمع الصديقات وهن يرتدين افخر الملابس ، واكبر كمية من المصوغات الذهبية ، ويغطين ملابسهن بالستائر المزركشة ويتركن اطفالهن في المنزل ، ويرجع الزوج فيجد زوجته « متفرطة » اى عند صديقتها .. وتستمر الجلسة ٣ ساعات يوميا ، ابتداء من اليوم السابع بعد الولادة ، حتى اليوم الاربعين .

لقد حاولت بعض المضوات والقادمات من المهاجر خلعه ، والسافرات في الشارع ، فقاطعهن اهلهن ورفضوا حتى السلام عليهن فى الشارع .. بالرغم من ان هؤلاء الاهالي من الطبقة المثقفة ، أى من الاطباء والاساتذة .. »

وهنا قال مرافقنا الشاب اليمني : « هذا الكلام لا ينطبق عليّ ، لقد قلت لزوجتي : اخرجي كاشفة ، وانزعي الشرشف ، فرفضت وقالت لي : « سيضحك علي الجيران ، اذا سرت سافرة ! »

وهنا قالت حورية المؤيد : « أنا أؤيد كلامك وازيد ، ان من الاشياء التى نعانيها انعدام الوعي عندنا .. حتى اصبحنا نعتقد ان التقاليد القائمة هي الاصل .. وهكذا باتت الفتاة اليمنية تتمنى الزواج من أى شخص يقدمه لها والدها ، حتى تتخلص من جحيم الانغلاق والحبس في منزل اهلها .. لان المرأة المتزوجة يمكنها ان تتفرط ، اي تذهب لزيارة صديقاتها بعد الظهر ..

« انا نأمل ان تساعدنا الجمعيات النسائية العربية للنهوض من اغفاءتنا الطويلة .. ان العمل امامنا كثير جدا .. فرعاية اليتامى من الاطفال ـ وعددهم يقدر بالالاف ـ هو من صميم واجباتنا .. ولكن قبل هذا يجب علينا رعاية المرأة اليمنية وتوعيتها حتى تستطيع تأدية مهمتها .. »

لؤلؤة داخل صدفة !

والمجتمع اليمني ينقسم الى مجتمعين منفصلين: مجتمع للرجال وآخر للنساء .. ولكنه في كلتا الحالتين مجتمع انشراح ومرح ، وخاصة في جلسات تخزين القات اليومية (سنرجع للحديث عن القات في استطلاع قادم مستقل) .

ويقول الاستاذ محمد احمد نعمان مستشار رئيس الجمهورية : « ان صنعاء مثل اللؤلؤة المغطاة بالصدف .. والمدينة القديمة مغطاة بالستر والاحجبة ، ولا يمكن ان تعرف طيب عطرها الا اذا فركتها لتفوح رائحتها .. ومن يدخل صنعاء تصهره في بوتقتها وتجعله صنعانيا .. انها مدينة الاصالة والعراقة ، ففيها فن صنعاني ، وغناء صنعاني ، ومعمار صنعاني .. انها بلد التقاليد والعادات الاصيلة .. ولا يمكنكم ان تصلوا الى اعماق هذا الجو ، الا اذا عشتم معنا في صنعاء .. انها قلب اليمن النابض بالحركة المتجددة .. »



قال لنا القاضي اسماعيل بن علي الاكوع ، رئيس مصلحة تاريخ بعضها الى القرن الاول والثانى والثالث الهجرى . معظم الاقطار الاسلامية ، واحتفظت بها اليمن ، لان طائفة كتاب « المغنى » للقاضي عبد الجبار بن احمد شيخ ظهر منه حتى الآن ١٩ مجلدا ، ولم يبق منه تحت الطبع الكتب الحديثة ، التى تبرع ببنائها المغفور له الشيخ

غيرة

وتدور منافسة خفية بين صنعاء .. وتعز ..

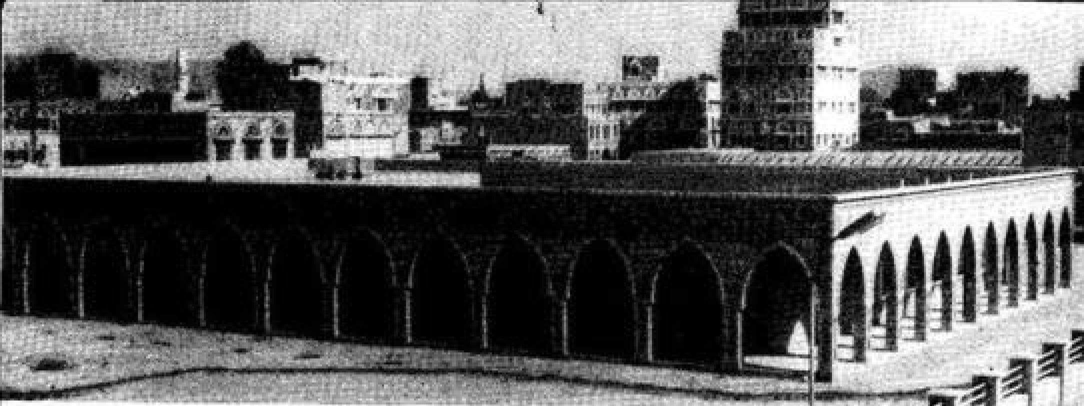
لقد ظلت صنعاء عاصمة لليمن حتى اغتيل فيها الامام يحيى حميد الدين ، وعندها ثارت ثائرة ابنه الامام احمد فدخلت القبائل الى صنعاء عام ٤٨ ونهبتها .. وقرر الامام احمد جعل تعز عاصمة البلاد .. ثم جاءت الجمهورية واعادت الى صنعاء مركزها وجعلتها عاصمة البلاد.

ان صنعاء مدينة قبلية ذات تقاليد اصيلة متمسكة بها ، بينما نجد القبلية قد تفككت في تعز ، لان اهلها يسافرون ويهاجرون كثيرا الى الخارج .. والوعى التعليمي متوفر في تعز اكثر من صنعاء ، نتيجة الاحتكاك بالعالم الخارجي ، يضاف الى ذلك ظروف السلام ، لقد تمتعت بها تعز اكثر من صنعاء ، التى عانت الامرين من الحصار والحروب .

لقد جاء تاجر تعز الى صنعاء للكسب الحلال ، وهو في تجارته اكثر نجاحا من الصنعاني ، لانه يعلم كيف تكون معاملة الزبائن ، بعكس ابن صنعاء الذى يجهل اسلوب المجاملة والمرونة ..

المهاجرون يفطنون العجز

والميزان التجارى اليمني مختل تماما ، فبينما كانت اليمن في أوائل الخمسينيات تصدر جميع



الاثار والمكتبات في اليمن : « في صنعاء مجموعة من المخطوطات ، يقرب عددها من ٨ آلاف مخطوط ، يعود
وهي محفوظة في مكتبة الاوقاف بالجامع الكبير .. وتوجد ايضا مجموعة كبيرة من كتب المعتزلة ، التي خلت منها
الزيدية كانت ، ولا تزال ، تلتقي مع المعتزلة في اصول الدين ، فاهتم علماء الزيدية بجمعها وحفظها ، ومنها
المعتزلة .. وهو الكتاب الذي امر الدكتور طه حسين -عندما كان وزيرا للتربية - بتحقيقه واعادة طبعه ، وقد
سوى الجزء الاول .. والى جانب المخطوطات يوجد نحو ١٠ آلاف كتاب مطبوع ، نعمل حاليا على نقلها الى دار
عبد الله السالم الصباح امير الكويت السابق . » - **الصورة العليا** - .

انواع المنتجات الزراعية ، نجدها اليوم تستورد بنحو ٣٠ مليون دولار حبوبا وماكولات .. وهذا التدهور نتج عن حرب السنوات السبع الطويلة..

والانتاج الزراعي الوحيد الذي تصدره اليمن حاليا هو البن ، بواقع ١٢ مليون دولار سنويا .. والى جانب البن تصدر الجلود الخام ، بمبلغ مليوني دولار سنويا ..

ويقول وزير التجارة : « ان صادراتنا المنظورة - كما ترى - لا توازي وارداتنا .. ولكن تغطية العجز تتم بالتحويلات الشهرية التي يرسلها اليمنيون من بلاد المهاجر في فرنسا والحبشة وامريكا والدول العربية ، وتقدر قيمة هذه التحويلات بنحو مليون جنيه استرليني شهريا.. »

الحياة فوق الجبال

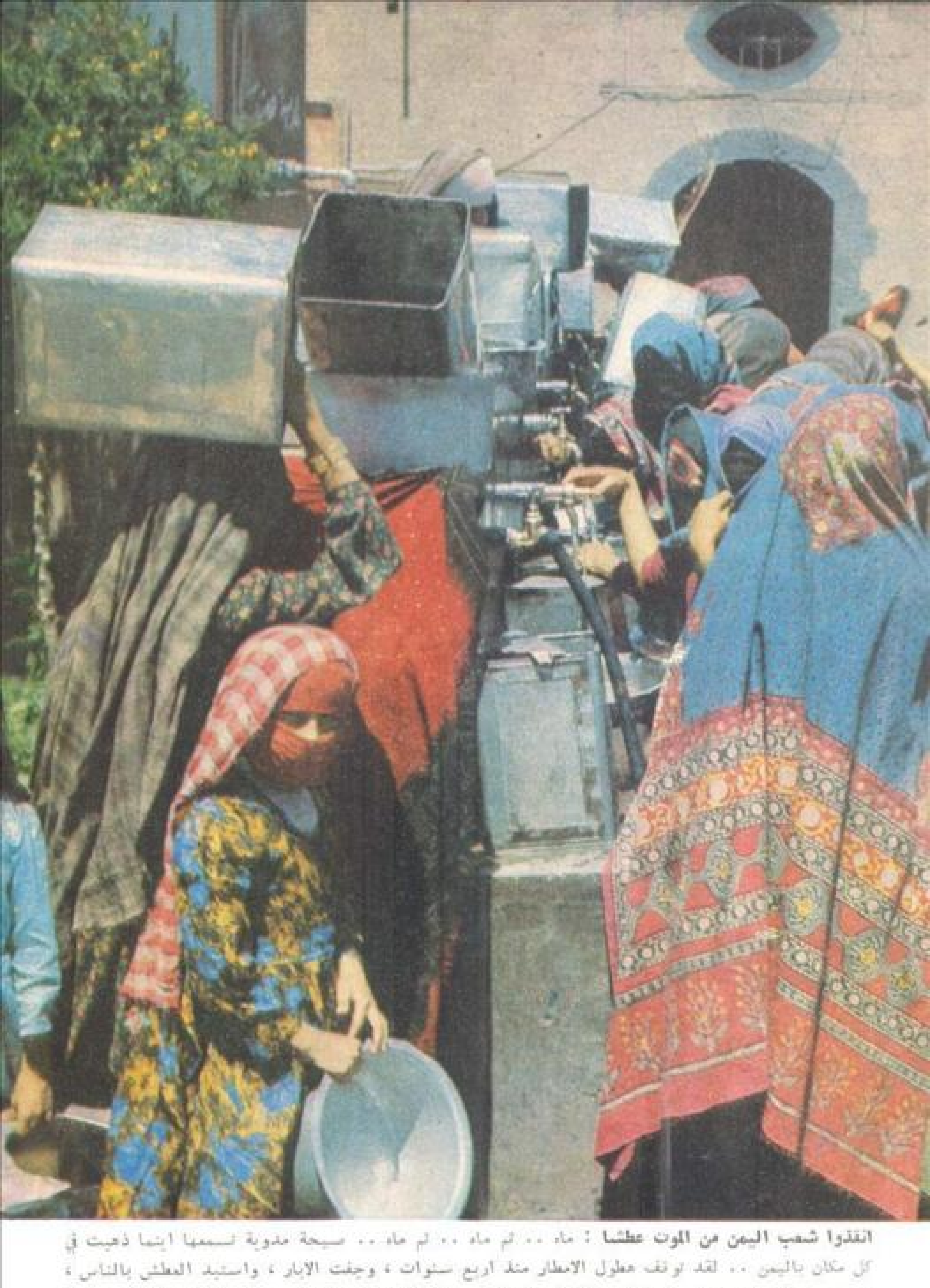
والعجيب في شعب اليمن ان ٨٨٪ من سكانه - البالغ مجموعهم ٥ ملايين نسمة تقريبا - يعيشون في منازل وقرى متفرقة ، فوق قمم الجبال التي يتراوح ارتفاعها بين ١٢٠٠ و ٣٠٠٠ متر ..

ويعمل في الزراعة بين ٨٠ و ٩٠ في المائة من هؤلاء السكان ، الذين اقاموا خلال قرون طويلة نظاما رائعا للزراعة ، والري وحفظ الماء .. حتى ان جميع خبراء منظمة الاغذية والزراعة العالمية (الفاو) الذين جاءوا الى اليمن ، اظهروا اعجابا زائدا بالمزارع اليمني ، ووجدوه متفتحا للغاية ويميل الى معرفة كل جديد في الزراعة .

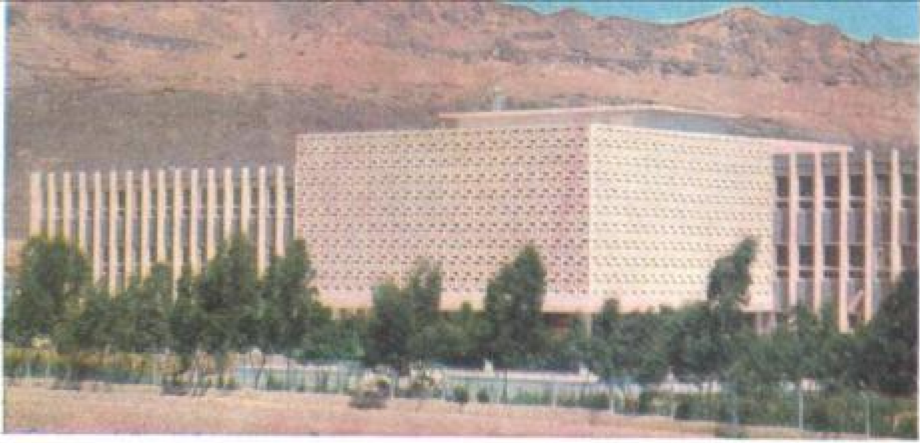
ولكن رغم هذه الشهادات الطيبة فان المزارع يمكن ان يتضاعف انتاجه اذا تبدل تفكيره ، فهو يرى ان الزراعة هي اسلوب حياة ، يزرع مرة في السنة عندما تهطل الامطار ، حسب اجتهاده الفردي ، والمطلوب اقناعه انها عمل تجاري مربح يمكنه ان يتطور ويصبح دائما . اذا اقيمت السدود وحفرت الآبار الارتوازية ، واستعملت آلات الحراثة الحديثة .

قبائل اليمن تختلف عن القبائل الاخرى

وذهبنا لمقابلة الشيخ عبد الله الاحمر زعيم قبيلة حاشد ، من اكبر قبائل اليمن واشهرها .. وهو في نفس الوقت رئيس المجلس الوطني الذي يقوم حاليا بوضع مسودة جديدة لدستور اليمن.. وسألنا الرجل الذي يخضع له الوف كثيرة من رجال القبائل ، عن رأيه في النظام القبلي في اليمن ، فاجاب بسرعة قائلا : « القبائل اليمنية تواقة لتطوير بلادها ومعيشتها وتعليم ابنائها .. وهذا الشعور نابع تلقائيا من الرجال انفسهم .. لكني احب ان اوضح لكم امرا هاما ، وهو ان قبائل اليمن تختلف كلية عن قبائل الشعوب الاخرى ، لان « القبيلي » هنا يملك - في الغالب -

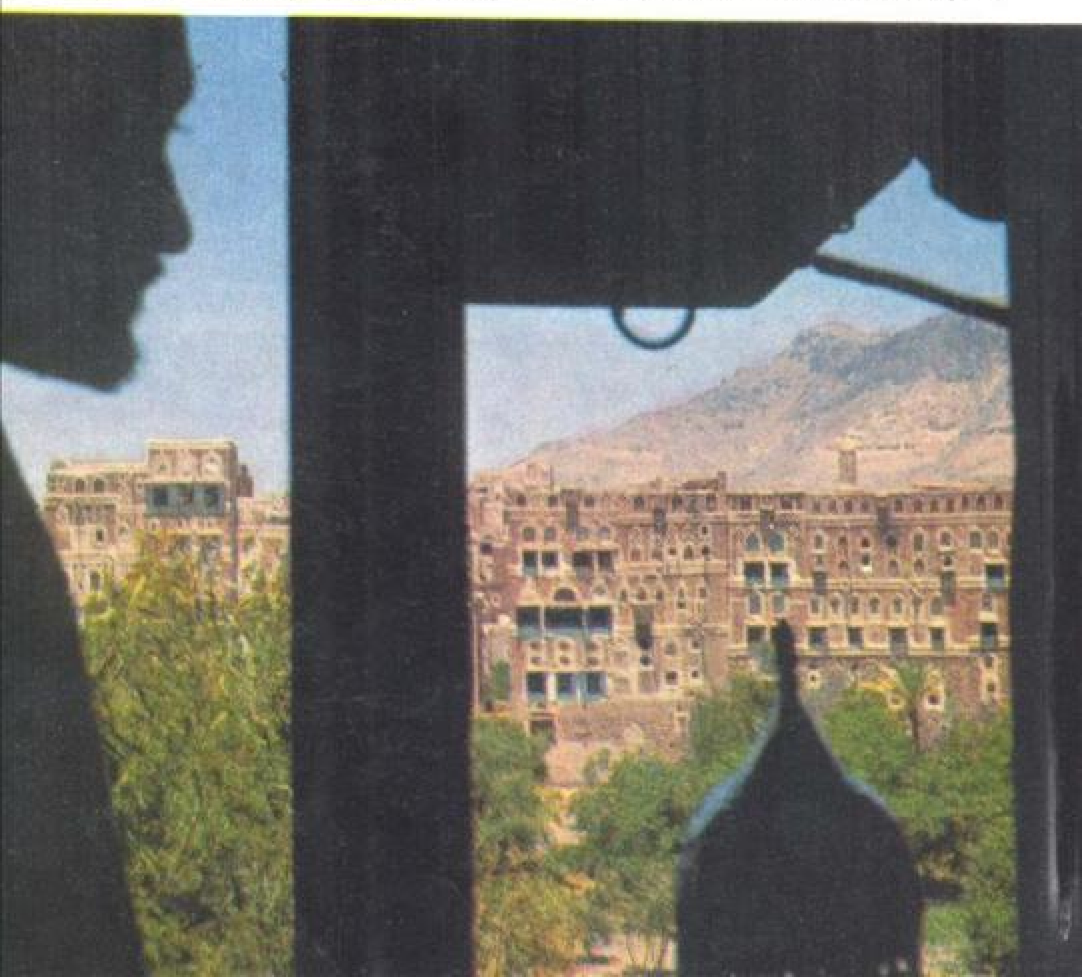


انقذوا شعب اليمن من الموت عطشا : ماء .. ثم ماء .. ثم ماء .. صيحة مدوية تسمعها اينما ذهبت في كل مكان باليمن .. لقد توقف هطول الامطار منذ اربع سنوات ، وجفت الابار ، واستبد العطش بالناس ، وخرجت النساء يحملن الصفائح والاواني ليملأنها بمياه الابار العميقة التي حفرتها الحكومة ، في محاولة لانقاذ شعب اليمن من الموت عطشا .. ان العشرات يسقطون يوميا في منطقة تهامة ، بعد ان عجزوا عن العثور على قطرة ماء يبللون بها شفاههم التي جفت ظمأ ..



احدث مستشفيات صنعاء ، قدمته روسيا مع تجهيزاته هدية لشعب اليمن .. « ان الامراض تفتك بي ، وانت تسألني هل وراء هذه المساعدة اتجاه الى اليسار .. انني اقبل اى مساعدة بغض النظر عن مصدرها ، اقولها وانا اتألم بعد ان نسي اخواننا العرب مأساتنا .. » كلمات تسمعها على لسان المسئولين .

الى اسفل : في اعلى كل منزل بصنعاء ، غرفة خاصة تسمى « المنظر » او « المفرج » مفروشة بالسجاد والوسائد المزركشة الملونة ، وبها نافذة ، تسمح للجالسين برؤية المنظر الجميل الذى امامهم .



ارضا ومنزلا مكونا من ثلاثة طوابق ، على سطحها مفرج من الزجاج يطل منه على المنظر الطبيعي الجميل امامه .. انه يعيش في منزل حجرى عال ، وليس في كوخ غارق في الوحل ..

« ويخضع رجل القبيلة الى نظام حازم اشبه بدستور . يمنع الرذيلة والسرقة ويحافظ على الاستقرار والسكينة ..

« ان قبائلنا ليست قبائل متوحشة ، لهذا نرى ضرورة المحافظة عليها وعلى عاداتها ، لان هذا النظام مفخرة للبلاد .. ونحن لا نوافق على تذويب القبائل وتقاليدها .. انما نؤمن بتطويرها لما فيه مصلحتها ومصلحة افرادها ، مع ادخال وسائل التعليم والطب الحديث اليها ..

ويستطرد رئيس قبيلة حاشد قائلا : « اما عملية تحويل رجل القبيلة من محارب الى مزارع، فمن السهل جدا هذا التحويل ، خاصة اذا اقيمت المشاريع المائية والزراعية ، وحفرت الابار وشقت الطرقات المؤدية الى اراضيه .. كل هذا اذا توفر سيساعد على الاستقرار والهدوء والعمل.

« وحتى اثبت لكم صدق كلامي اذكر لكم انه رغم الحرب في السنين السبع الماضية ، قامت القبائل بحفر آبار كثيرة ، ففي ناحية خمر اقاموا ١٠٠ مضخة ، وفي منطقة عمران حفروا ٢٠٠ مضخة واشتروا ٥٠ حراثة ، وسيارات نقل كثيرة جدا .. »

رشاشات ومدافع للزينة !

وعندما قلنا للشيخ الاحمر : « ان الرجل القبلي ينتشي عندما يقتل ، ويطلق رصاص الرشاشات ويلقى القنابل ... **قاطعنا بعصبية قائلا :** « هذا زيف .. ولا صحة لما يقال انه رجل حرب ، انه اقدم انسان شاد السدود ،ومن السهولة جدا عندما يتوفر السلام ان تسحب منه البندق والبازوكا واللغم ، كل هذا سيختفي ويتلاشى شيئا فشيئا حتى ينتهي تماما عند استتباب السلام .. انه يحمل هذه الاشياء للزينة ، لانه تعود على حملها ، وهو لا يقصد بها شرا .. »

الى اسفل : ان وجود الاسلحة الحديثة في ايدى ابناء اليمن ، اضطر المسئولين في كلية الشرطة ، الى تدريب ضباط المستقبل على استخدام اسلحة احدث واقوى لمواجهة اى احتمال ، كما ترى في هذه الصورة .

الى اسفل : ناد داخل مقهى ! فما زالت اندية الشباب في صنعاء تفتقر الى المباني الخاصة بها ، لهذا رأيناهم يستأجرون المتاجر والمحلات ليمارسوا فيها بعض الالعاب الخفيفة . وبعد ان عاد السلام الى اليمن تألف مجلس أعلى لرعاية هؤلاء الشباب.







اليمن مهد الحضارات . . وآثار تلك الحضارات ما زال معظمها مطمورا تحت الارض ، حتى الذى اكتشف منها رأيناه « مطمورا » فوق الارض . . في الغرفة رقم ٢٧ بمبنى وزارة الداخلية بصنعاء ! . . وتجرى الآن مباحثات لاجلاء موظفي وزارة الداخلية عن « دار الشكر » الجميلة ، وتحويلها الى متحف يليق بآثار سبأ وحمير . .

النضال التقليدى في وطننا الكبير

وقد دخل عنصر جديد الى اليمن . . انه اليمنى المهاجر الذى عاش مغتربا في بلاد العالم سنوات وسنوات ، عاد الى بلاده بعد غياب طويل ، يريد تطبيق ما رآه وتعلمه في الخارج ، ويقف الى جانبه الشباب الذين اكملوا دراستهم الثانوية والجامعية يطالبون بالتبديل والاصلاح في بلادهم ، ولكنهم لا يجدون تجاوبا كافيا لارائهم ، حسب قولهم . . فتراهم يخوضون النضال التقليدى الذى تخوضه شعوبنا العربية في جميع ارجاء الوطن الكبير . . نضال بين القديم والحديث . .

الزمن كفيل بازالة العادات الضارة

ونسال رئيس الجمهورية الشيخ الوقور القاضى عبد الرحمن الارياني عن رايه في هذا الصراع ، فيقول بصوت رزين هادىء : « أنا اعتقد انه ليس من السهل تبديل عادات وتقاليد مستمدة من التاريخ والدين ، ومفاهيم خاصة ، ليس من السهل تبديل هذا كله بجرة قلم . ونحن نعمل من جانبنا على محاربة العديد من العادات الاجتماعية الضارة ، المتوارثة . . وانا اعتقد ان كل هذا لن يزول الا بالزمن ، وباختلاط الشعب وانفتاحه على العالم . . حقيقة ان شعبنا معزول وفقير ، الا انه ذكي وفيه رواسب حضارات قديمة تجعله سريع التكيف مع كل جديد . . »

احلام . . وامكانيات

واكثر ما يضايق الشباب هو عدم وجود اندية يجتمعون فيها ، انهم يتجمعون في محلات تجارية ومقاه مستاجرة حولوها الى اندية مؤقتة ، حتى تقوى لجنة رعاية الشباب وتنتظم . .

والواقع ان الشكل الخطير في اليمن هو التفتح الشعبي الكبير في المجالين السياسي والاجتماعي ، اللذين دفعا بالناس الى العيش في احلام القرن العشرين . . يحلمون بالماء العذب النظيف والكهرباء والبوتاجاز والتليفون ، والفيلات والمطاعم النظيفة ، والمتاجر المليئة بالكماليات . . لقد سمعوا عن كل هذا وقرأوا عنه في الصحف . .

لكن هذه الاحلام تقابلها امكانيات معدومة ومرتبات ضئيلة . مع فراغ هائل ، واحساس عميق بالحرمان . . الحرمان من كل شيء جميل في الحياة . .

حقوق دون واجبات

ويقول رئيس الوزراء في هذا الصدد : « العيب اننا اعطينا المواطن شعورا وايحاء ووعودا بان مشاكله انتهت . فاصبح كل انسان يطالب بكل شيء فهو يسأل عن حقوقه ، دون ان يتحمل اى واجبات . .

« والاقتصاد المزدهر الذى شهدناه خلال سنين الحرب كان اقتصادا مصطنعا ، ونحن اليوم امام تجربة جديدة . . تجربة الاعتماد على النفس ، وعدم الاعتماد على الغير . . »

٦ ملايين دولار من الامم المتحدة

واستنادا الى روح النهضة الجديدة تقدمت اليمن بطلب الى الامم المتحدة تطلب فيه اعادة النظر في رجال هذه المنظمة العاملين في اليمن



يعاني الجهاز الوظيفي الحكومي اليمنى متاعب شتى ، لهذا اقيم المؤتمر الادارى الاول لدراسة هذه المشاكل ، وتحدث الينا السيد احمد جابر عفيف وزير التربية ورئيس المؤتمر فقال : « انشىء الجهاز الحكومي حديثا ، بهدف التنظيم ، ولكن ظروف الحروب وقلة الخبرة ، جعلت الجهاز يتعثر في طريقه ، لهذا اقمنا هذا المؤتمر الذى يضم وكلاء جميع الوزارات ، والمسئولين الاداريين . وفي الصورة وزير التربية يترأس الاجتماع الختامي للمؤتمر لبحث وسائل التخلص من هذه المشاكل .

الذين استغلوا مراكزهم .. كما تطلب اعادة النظر في المشاريع التى تنفذها المنظمة في البلاد.. واستجابت الامم المتحدة ، واعلن يوثانت ان اليمن تعتبر « حالة خاصة » ، اعتمدوا لها في ميزانية الهيئة الدولية مبلغ ٦ ملايين دولار مساعدات سنوية ، واستبدلوا بالرجال السابقين رجالا جددا .

من اين نبدأ ؟

وجلسنا الى المستر توني هاجن رئيس مكتب الامم المتحدة في اليمن ، وتحدثنا اليه ، فقال :

« لقد واجهتنا مشكلة كبرى في اليمن ، وهي من اين نبدأ ، رجال التربية يقولون : لا يوجد تقدم بدون تعليم .. ورجال الصحة يقولون : لا تقدم بدون صحة .. والمواصلات تقول : لا تقدم بدون طرق ومطارات .. والزراعة تقول : لا تقدم بدون غذاء والا مات الناس ..

وفعلا وجدنا ان الزراعة هي التي يجب ان نوليها اهتمامنا الاكبر .. لهذا قمنا بعمل برنامج نأمل بموجبه ان يتوقف استيراد المنتجات الزراعية في خلال ٧ سنوات .. يعود بعدها اليمن الى التصدير للخارج كسابق عهده ..

« واليمن مثلها مثل بقية الدول النامية تحلم بوجود المعادن في جبالها والنفط تحت رمالها .. اما عن المعادن فالتقارير التي تحت يدنا لا تعطينا املا كبيرا في وجودها ، وهذا بعكس ما يقولونه لك من وجود المعادن في كل بقعة من اليمن ..

« أما عن النفط فنعتقد انه موجود بصفة قاطعة في تهامة وتحت مياه البحر الاحمر .. اما المنطقة الشرقية فلم يجر التنقيب فيها بعد .. »

وجبة ساخنة ..

وينهي ممثل الامم المتحدةالخاص حديثه بقوله :

« ونحن اليوم نقدم لـ ٢٣ الف طالب طعاما هو

شطائر باردة ، وسيرتفع الرقم الى ٦٠ الف شطيرة في مطلع العام الدراسي القادم ..

« ونحن نعمل الان على انشاء مطبخ مركزى سيتكلف ٦٠٠ الف دولار لتقديم الوجبات الغذائية الساخنة للطلبة .. وسوف نساعد الصيادين لتحسين وزيادة صيدهم ، حتى يمكننا تقديم السمك للطلبة ، وهو من الاغذية الهامة التي لا يتناولونها في منازلهم .. »

تفتح على السياحة ..

ان وجود اليمن في اقصى الجنوب ، جعلها تعيش منعزلة عن مناطق التجمع العربية المعتادة ، ولكن السياح القادمين من الحبشة وجيبوتي ، بدأوا يتوافدون على اليمن لرؤية هذا العالم المجهول ..

وجلسنا الى الفريق حسن العمرى عضو المجلس الجمهورى ووزير الدفاع اليمنى ، انه ملم بكل كبيرة وصغيرة عن اليمن ، وعندما يحدثك يتشعب الحديث معه الى جميع المجالات ، فتعال نستمع اليه سويا وهو يقول :

« اننا نبدأ من الصفر .. لا يوجد عندنا شيء قائم .. والاراضي الزراعية عندنا تكفي لاطعام ٣٠ مليون نسمة لو احسنا خدمة الارض .

« اننا نفتح ابوابنا على مصراعيها امام اشقائنا العرب ، ونطلب منهم ان يعتبروا اليمن بلدهم .. اننا سنعمد الى تبنى الاتجاه الحر في بلادنا .

« ان المشكل الاول امام اليمن هو الناحية



الفريق حسن العمرى .

الاقتصادية .. وحل هذا المشكل سوف يحل بقية المشاكل تلقائيا ..

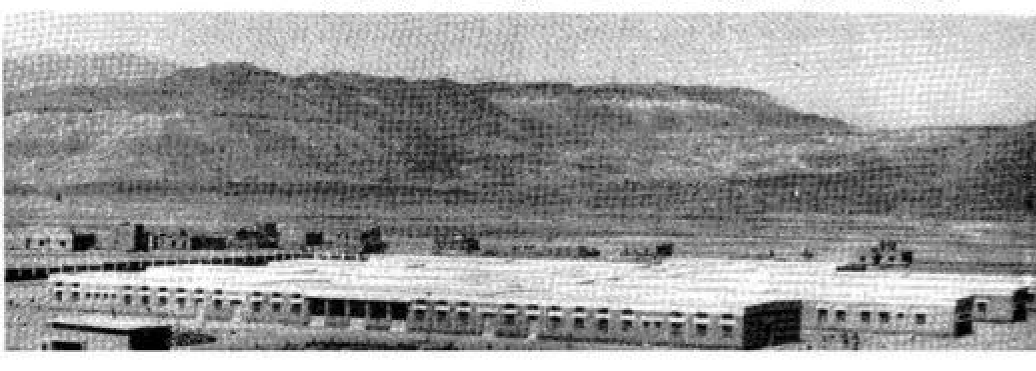
لقد ساعدتنا الكويت مساعدات فعالة كان لها اثرها الكبير في الشعب فقد شيدت المدارس والمساجد والمستشفيات والمستوصفات .. وهذا اعظم واجل عمل يقوم به بلد تجاه بلد شقيق .

حديث مثير طويل

ان الحديث عن اليمن .. ومشاكل اليمن .. وآمال اليمن .. وثروات اليمن .. وعادات اليمن .. حديث مثير غريب طويل .. وما هذا الذى نكتبه الا استطلاع محدود الصفحات .. فالى لقاء آخر نحدثك فيه عن مدينة « تعز » ثانية مدن اليمن . ■■

سليم زبال

الى اسفل : ١٩ مدرسة وكلية للمعلمين ، ومسجد ، ومستشفيان و ٩ مستوصفات ، ودار للكتب ، اقامتها الكويت حتى الان ، وقدمتها هدية للشعب اليمنى .. وفي الصورة منظر خارجي لمستشفى الامراض الصدرية في صنعاء الذى اقامته دولة الكويت وزودته باحدث المعدات الطبية ، ويحوى ٢٠٦ سرير .. وتجرى حاليا مفاوضات لتقوم بعثة طبية اجنبية بادارته .



العربي

عدد ١٤٥
شوال ١٣٩٠
ديسمبر
(كانون الاول) ١٩٧٠



اطلب

العربي الصغير

ع هذا العدد

جوائز

١٣٠٠

دينار سنويا

طالبة من تعز . اتيحت
لها الفرصة فابدعت !

الثمن

ويت	١١٠	فلوس
خليج العربي	٢	ريالان
سعودية	٢	ريـال
البحرين	٢٠٠	فلس
اليمـن	٢٫٥	شلن
عراق	١٢٠	فلسا
لبنان	١٠٠	قرش
ردن	١٠٠	فلس
سورية	١٠٠	قرش
ع.م.ع	١٠	قروش
سودان	١٠	قروش
ليبيا	١٥	قرشا
تونس	٢٠٠	مليم

الى اسفل : شيء غريب لمسناه في هذا الشعب ، فهو رغم بداوته الا انه يتميز بحس مرهف ، انه يعشق الزهور ، فتراه يشتريها ويتزين بها ويضعها وراء اذنه ..



اعرف وطنك أيها العربي

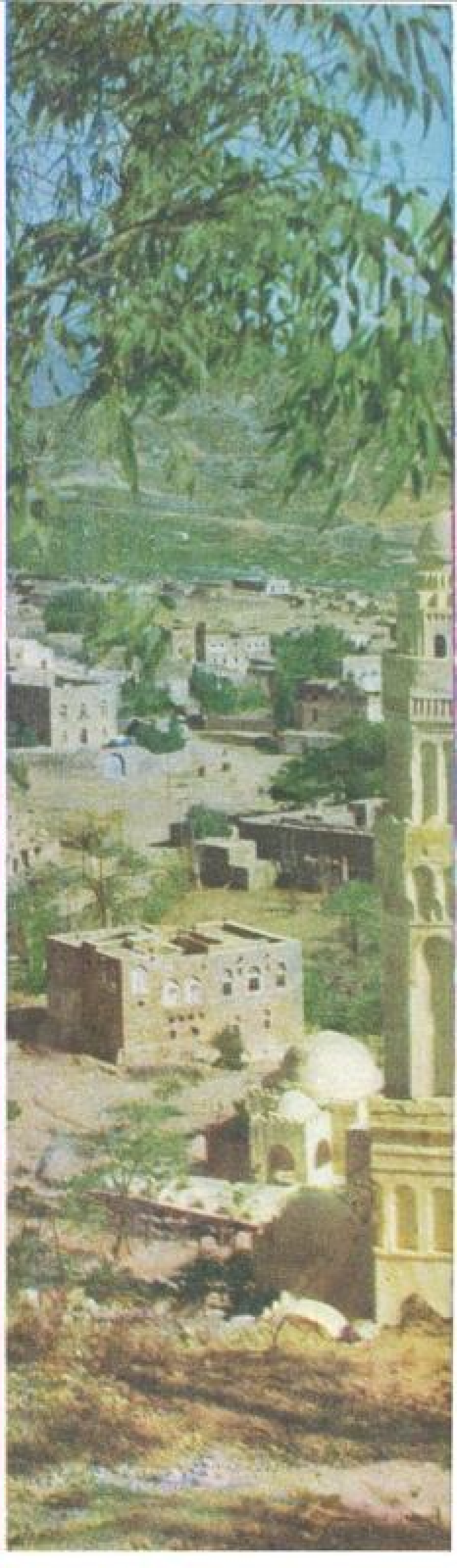
تَعِزْ

جَنَّة .. فَوْقَ قِمَّةِ جَبَل زَرَعوهُ بالسموم

استطلاع
سليم زبال

تصوير
أوسكار متري

الى اليمين : هكذا تبدو مدينة تعز من بين مئذنتي جامع الاشرفية ، الذي بناه الاشرف الكبير في القرن الثاني الهجري . ولتضم تعز ٢٢ جامعا ومسجدا .



■ تحت ظلال جبل صبر المكسو بالاشجار الخضراء ، تقبع « تعز » .. ثانية مدن اليمن .. على ارتفاع ١٢٠٠ متر عن سطح البحر ..

وكونها ثانية المدن اليمنية ، اكسبها مركزا مرموقا ، مع اختلاف كلي عن صنعاء ، أولى مدن اليمن .

فالناس فى تعز غير الناس فى صنعاء .. هنا فى تعز ، تشعر انك تعيش فى مجتمع متفتح بعض الشيء ، نتيجة لكثرة أسفار أفراده ورحلاتهم .. بينما مجتمع صنعاء مجتمع محلى قبلى منغلق على نفسه ! .

وفي تعز لم يعد احد يحن الى اسلوب البناء القديم او يتحسر عليه ، بل اتجه الناس الى استعمال الحديد والاسمنت والاصباغ ، بدلا من حجر البازلت والاخشاب .. تلك التي تراها في معظم بيوت صنعاء القديمة ..

وصنعاء تقوم على ارض مسطحة مستوية ، بينما تمتد تعز فوق خمسة تلال ، وتتلوى طرقها وسط الوديان وحول الجبال .. انها طرق جبلية ترهق الانسان والحيوان على السواء ..

والتعليم في تعز متقدم بمراحل عن التعليم في صنعاء . وكذلك الماء فهو نقي عذب ، بعكس صنعاء التي تشرب ماء ملوثا يميل الى الملوحة .

اوجه التشابه بين المدينتين

واذا كانت الاختلافات كثيرة بين المدينتين ، الا انهما تشتركان فى امرين :

اولهما : شغف اهلهما الزائد بتخزين نبات القات ، اى مضغه ..

وثانيهما : الانتشار المريع للامراض بين السكان ، مع انعدام الوعى الصحى !

اما الحديث عن القات فهو حديث طويل سنرجع له في استطلاع آخر مستقل .. ولكن الحديث عن الامراض لا يتحمل التاجيل ، فهو حديث يرجع بنا الى قرون خلت ، ويرتبط ارتباطا وثيقا باسم تعز .. فقديما كانت تعز تعرف باسم العدينة ، وهو الاسم الذى يطلقه البعض على جامع المظفر حتى اليوم . وكانت هذه البلدة تشرب من مياه العيون المنحدرة اليها من جبل صبر .. تاتيها في قنوات مكشوفة فتتلوث بالجراثيم ، فانتشرت الامراض في المدينة .. حتى ان الطاعون الذى اكتسح اليمن عام ٨٤٠ هـ (١٤٢٠ م) بدا انتشاره من هذه

الصعود الى جبل صبر على ظهر البغال .. اما تعبيد الطريق وتمهيده فقد توقف بسبب مزرعة قات !!





خريطة الجمهورية العربية اليمنية،وتظهر مدينة تعز في جنوبها قرب الحدود الجنوبية

البلدة ، لهذا اطلقوا عليها اسم تعز ، لانها بلدة تعزّ الصحة فيها على ساكنيها .

رواية اخرى !

ولكن أهل تعز يرفضون هذا القول وينسبون اسم المدينة الى قصة بطولية يقولون فيها :

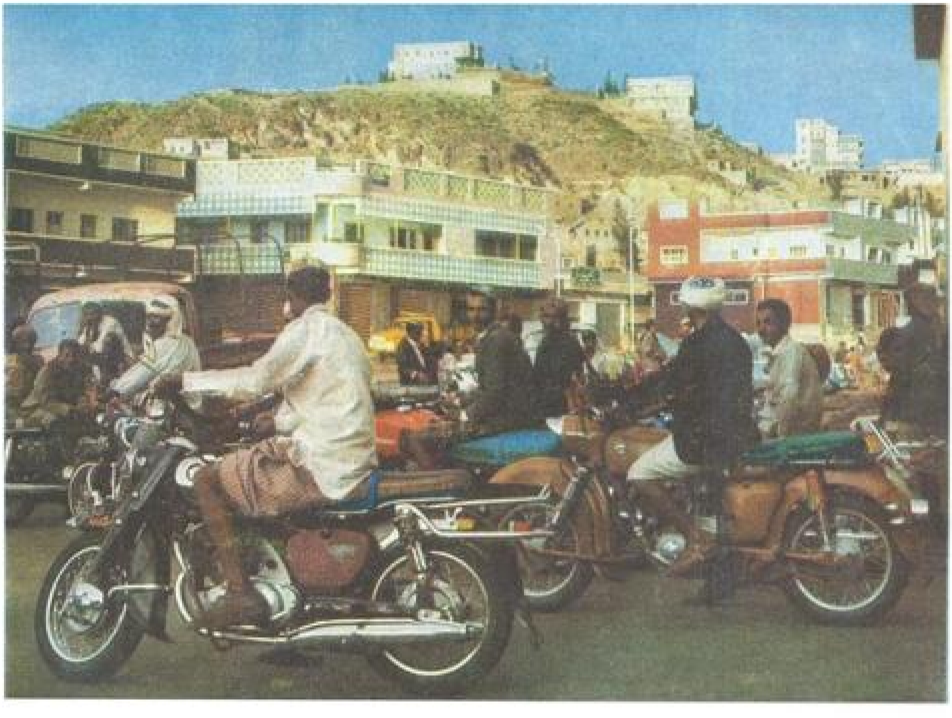
« نشبت في قديم الزمان حروب كثيرة بين سلاطين بني رسول وائمة الشمال حول منطقة المدينة .. وقرر الاهالي الدفاع عن قريتهم ، وقالوا : « تعز علينا ان نسلمها .. » وقاتلوا باستماتة حتى انتصروا .. فاطلقوا على قريتهم اسم تعز .

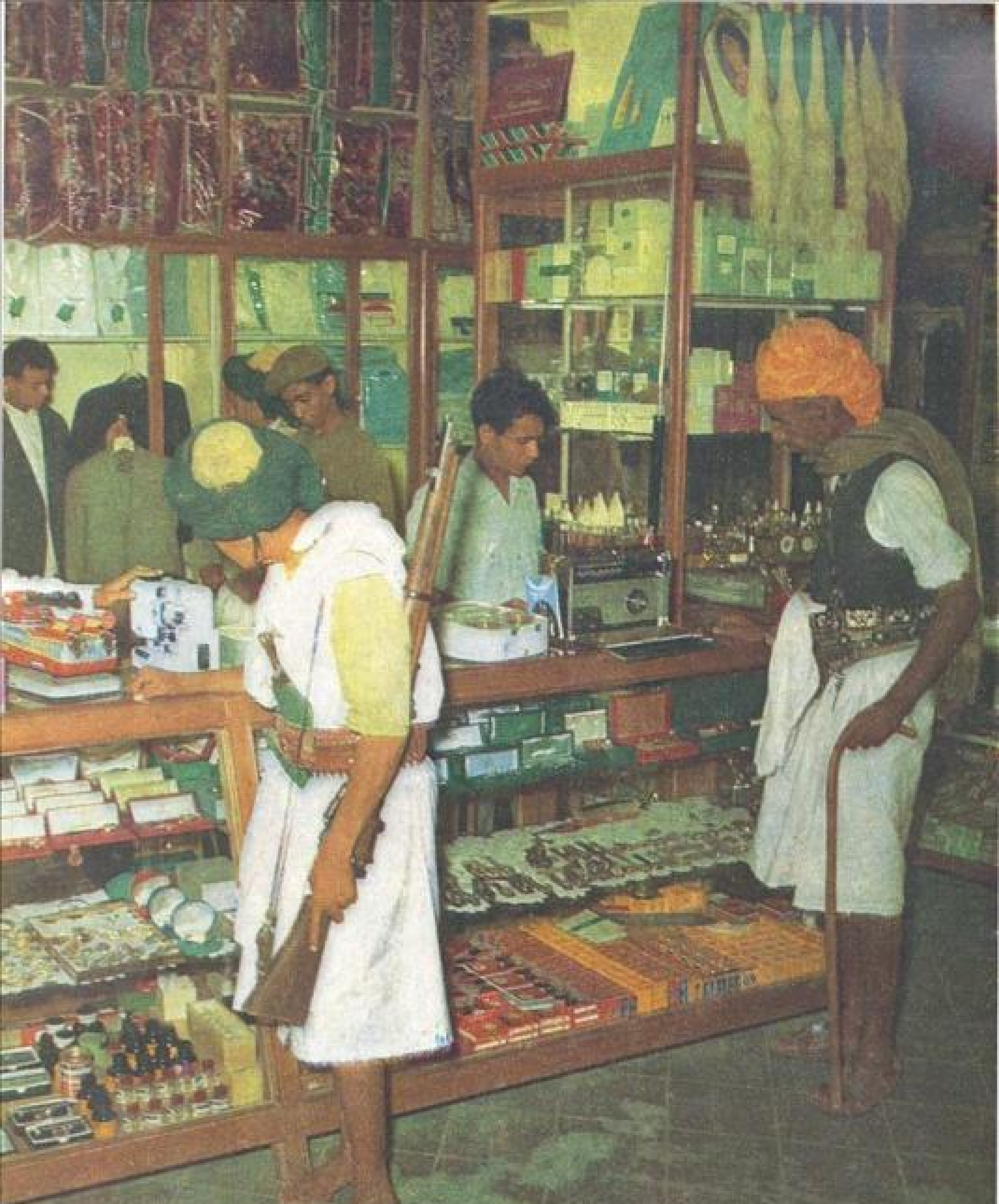


الى اليمن : مبنى الركاب في مطار تعز الجديد .. ان شركات الطيران تعقد الاتفاقيات من الآن لهبوط طائراتها في هذا المطار الذى سينتهي العمل فيه بعد سنتين .



الى اليمن : جفت الآبار السبع التي كانت تمد تعز بالماء ، فحفروا ثلاث آبار اخرى ، ولكنها ما لبثت أن جفت بدورها لزيادة الاستهلاك فعادوا يحفرون ، وسلموا ادارة مشروع المياه لهيئة التعاون الاعلى فقامت بحفر آبار جديدة في منطقة الحوجلة ، تكفي حاجة المدينة لمدة ٨ سنوات اذا استمر الجفاف .





الى اليمن : « تاكسى » موتوسيكل ، بدلا من السيارة ، وهذه محطة انتظار الركاب الذين يجلسون دائما وراء السائق .

تمتلىء متاجر تعز بمختلف السلع والكماليات .. وينزل ابن الجبل الى المدينة ، ويدخل هذه المتاجر ويتعجب مما يرى .. انه عالم جديد لم يألفه من قبل .

ونحن نذكر اسم تعز بالتاء المفتوحة ، بينما الواقع ان كلمة تعز تقرأ بالتاء المكسورة والعين المكسورة ايضا ، والزاى المشددة ، حسب ما ذكر الشيخ الواسعي في كتابه « تاريخ اليمن » .

لكل طريق قصة !

لقد ظلت تعز منزوية عن العالم ، لافتقارها الى الطرق المعبدة المؤدية اليها .. حتى كانت السنوات القليلة الاخيرة ، التى شهدت شق العديد من الطرقات الموصلة اليها .. لكل طريق من هذه الطرق مشكلة ، يرويها السيد محمد الملفي ، مدير مصلحة الطرقات في تعز بقوله :

« لقد انتهينا من تعبيد الطريق الذى يربطنا بعدن ..عبدناه حتى حدودنا مع جمهورية اليمن الجنوبية ، التى قامت بدورها بتعبيد الطريق من عدن حتى حدود اليمن ، ولكنها تركت قطعة من الطريق غير معبدة بالمرة ، طولها ٤٠ كيلو مترا ، يمر بها السيل عندما ينهمر فيخرب الطريق ،لهذا تتعطل السيارات في تلك المنطقة ، فتقطع المسافة من تعز الى عدن ، ومقدارها ٢٠٠ كيلو متر ، في ٨ ساعات ونصف ساعة ، بدلا من ساعتين ونصف فقط ! !

« اما الطريق المؤدى من تعز الى صنعاء ـ وطوله ٢٦٥ كيلو مترا ـ فقد تم شقه دون رصفه ،وتجرى حاليا الدراسات لتعبيده ، وفرشه بطبقة من « الاسفلت » .. في حين ان الطريق المؤدى من تعز الى ميناء المخاء على البحر الاحمر ، ما زال دون اسفلت حتى الان ..

اما الطريق الرابع ، فهو الطريق الذى يربط تعز بميناء الحديدة ، فما زلنا نعمل في شقه وتعبيده .. »



شجرة البن .. مشاريع كثيرة مقترحة لاعادة سابق مجدها اليها ، وجعلها الثروة الزراعية الاولى في البلاد .. ترى هل سترى هذه المشاريع النور ؟

مليون يمنى فى المهاجر

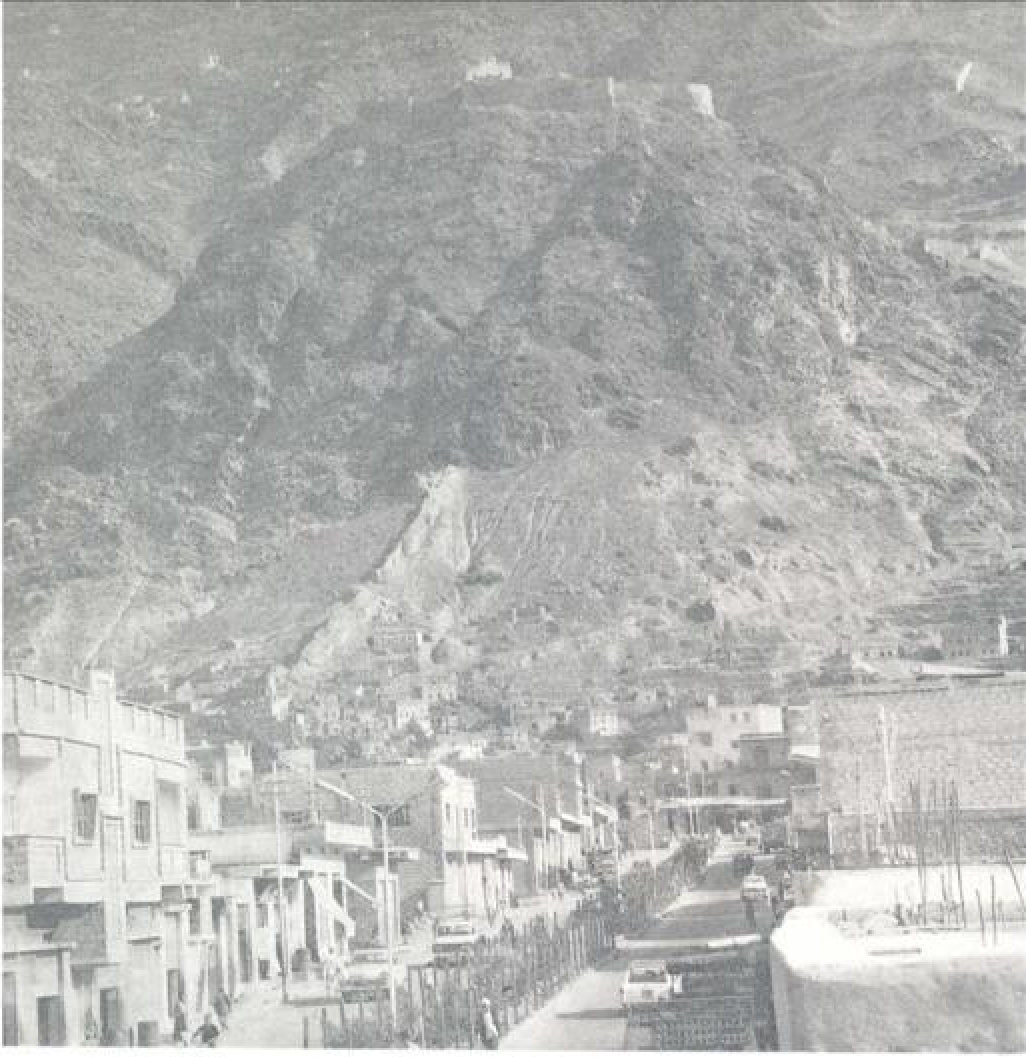
ان كثرة الطرق المؤدية الى تعز جعلت المدينة تحتل المركز التجارى الاول في اليمن ، فظهرت فيها الاحياء الحديثة،وعمرت أسواقها القديمة ..

ويرجع الفضل في جزء كبير من هذا الانتعاش التجارى الى المهاجرين اليمنيين ، الذين بدأوا يعودون لبلادهم ..

قوافل من السيارات تأتي يوميا على الطريق القادم من عدن .. تحمل عشرات العائدين .. لقد اشتهر اليمنيون بهجراتهم الاربع القديمة : ٣ هجرات سامية ، وهجرة قحطانية اتجهت عام ٣٥٠٠ وعام ٢٥٠٠ ق.م الى العراق وسوريا والاردن ونجد .. اما الذى لم يعرف عن اليمنيين فهو هجرتهم الحديثة ، التى ترجع الى بضع عشرات من السنين .. هجرة طلبا للرزق والثروة، وهربا من التخلف والجهل ..

لقد اتجه ابناء اليمن في هجرتهم هذه الى بلاد العالم الواسعة : ٨٠ الف اتجهوا الى اندونيسيا ، ١٤ الفا اتجهوا الى فرنسا ، في منطقة بوردو بالذات .. سبعة الاف يعيشون في الولايات المتحدة ، في حي بروكلين .. عشرة الاف هاجروا الى انجلترا ، وعاشوا في لندن وكارديف وساوثمبتون ..

ثم تدفق النفط في بلادنا العربية ، فاتجه اكثر من ربع مليون شخص الى المملكة العربية السعودية .. والى بلدان الخليج العربي جاء ٥٠ الف نسمة .. ومجموعات اخرى عبرت البحر



مدينة تعز تقبع تحت ظلال جبل صبر .. وقد ظهرت فوقه قلعة القاهرة التي شيدها توران شاه، شقيق السلطان صلاح الدين الايوبي

الاحمر .. الوف اتجهوا الى اليوبيا .. والوف قصدوا الصومال ، والسودان .. والوف تفرقوا في مختلف الاقطار ...

وقدروا اعداد المهاجرين اليمنيين بحوالي ٧٥٠ الفا .. وقدرهم البعض باكثر من مليون .. بعضهم هاجر مع اهله .. وبعضهم سافر وترك عائلته في اليمن ، يرسل لها الحوالات شهريا .

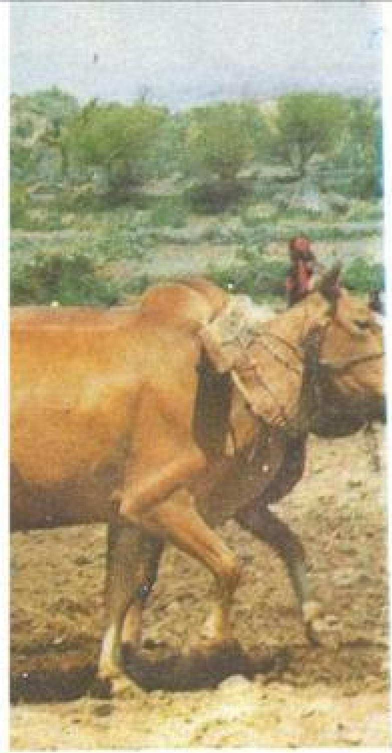
وعندما بدأ ابناء اليمن ينادون اخوانهم الى العودة للمشاركة في بناء اليمن ، بدأ الموظفون والتجار الصغار في العودة ، وظل اليمني الناجح في المهجر ، وصاحب راس المال الكبير ، مترددا ، حتى انتشر السلام في ربوع اليمن ، فبدأت في الشهور الاخيرة عودة بعض اصحاب رؤوس الاموال الى بلادهم ..

خمسة ملايين مشكلة !

ان العائدين ليسوا من المحاربين ، بل اغلبهم



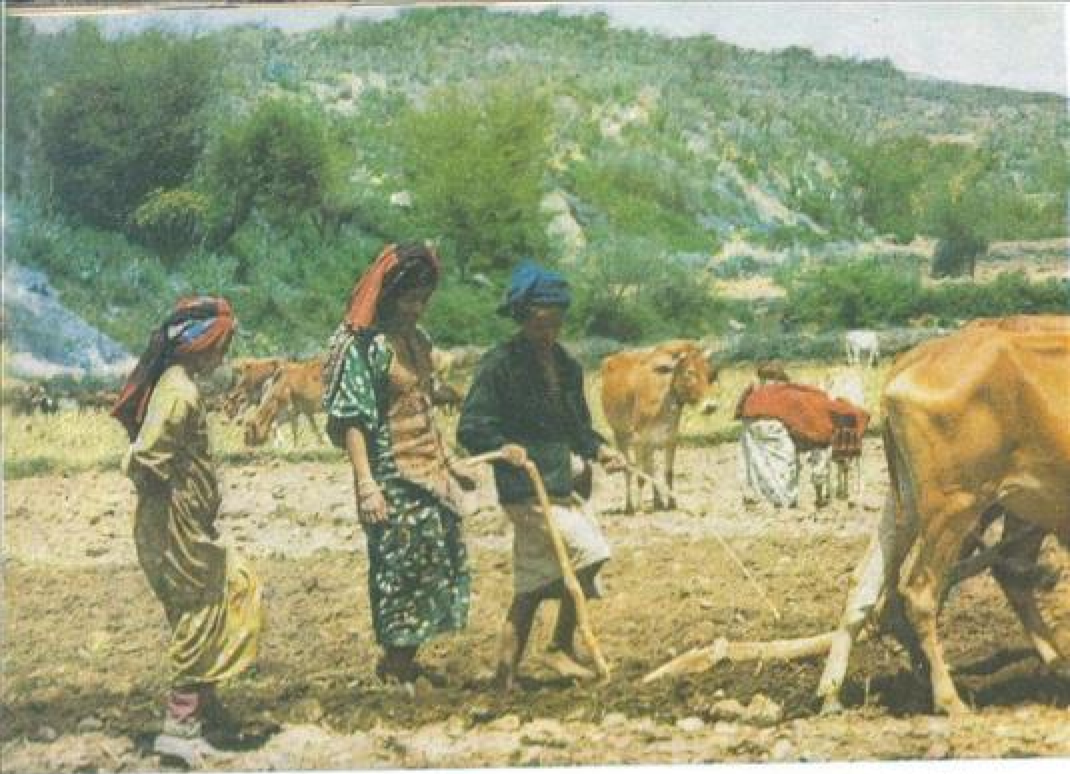
طفلة من جبل صبر تتعلم في المدرسة الوحيدة الموجودة في راس الجبل .. لاحظ رسوم الكحل فوق حاجبيها وعلى وجنتيها ..



المرأة فى المدينة تطالب بالمساواة مع المرأة فى الريف :

الى اليمن : كانت المراة في جبل صبر تجلس قديما في منزلها ، والرجل يحمل القات والفواكه وينزل بها الى تعز ليبيعها ، وكان يتعرض اثناء نزوله لقطاع الطرق ينهبون القات والفواكه .. ففكر الرجال في ارسال النساء للنزول الى المدينة مع منتجات الجبل .. ولم يتعرض احد للمراة لان لها « حصانتها » !! وظل الحال على هذا المنوال الى يومنا هذا .. المراة تجمع المحصول وتبيعه (كما ترى في الصورة) والرجل جالس في مسكنه يمضغ القات !!





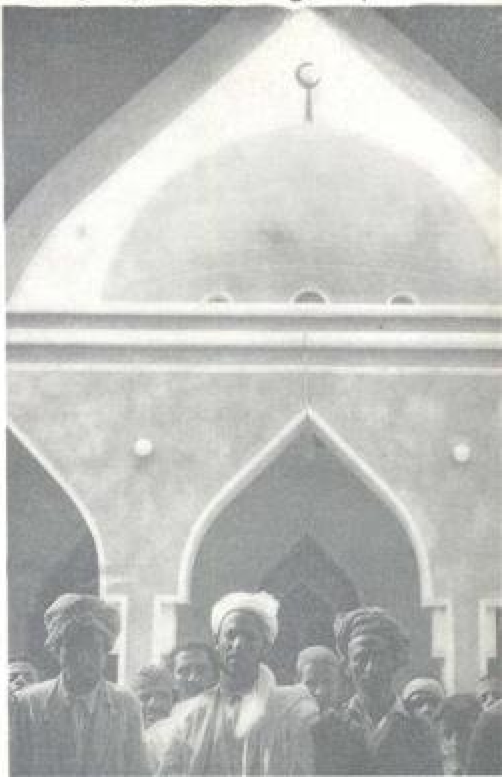
تعمل المرأة في الريف الى جانب الرجل ، تساعده في حرث الارض وجني المحصول وبيعه .. وهذه صورة نادرة تبين المرأة وهي تعمل الى جانب الفلاح في الحقل.. بينما توضح الصورة السفلى بعض نساء جبل صبر في سوق تعز ، ومعهن انتاجهن من « التنور » الفخاري الذي يعدون فيه الخبز في المنازل .. ان المرأة الريفية والجبلية تسير سافرة بعكس المرأة في المدن اليمنية..



من التجار الذين عاشوا في عالم متفتح ، وجاءوا معهم بافكار جديدة لبلادهم ، لابد لها من ان ترى النور قريبا في ظل السلام والاستقرار ..

ولكن المشاكل في اليمن لا حصر لها ولا حدود.. وقدرنا عددها بخمسة ملايين مشكلة .. اى نفس عدد السكان !! فما من شك ان لكل يمنى مشكلة مختلفة عن الآخر .. ولكن اليست هذه هي حال الناس في كل ارجاء الارض ؟ نعم .. ولكن المشاكل هنا اكثر تعقيدا .. فقد عاش اليمنى في ظل الاستبداد والخوف والذل والحروب قرونـا عديدة .. ثم بدأ يخرج من الظلام الى النور .. انه في حاجة الى من يأخذ بيده ويرشـده ، ولو لفترة بسيطة ، حتى ينطلق في مسيرته نحو الطريق الصحيح .. ولكننا نجده اليوم ،وللاسف الشديد، يقف وحيدا ، محاولا ان يبدأ من النقطة التى توقفت عندها عقارب الساعة فى بلاده ، بدلا من

الى اسفل : هذا المسجد الكبير في تعز ، تولى الانفاق على بنائه المغفور له الشيخ عبد الله السالم الصباح ، امير دولة الكويت الراحل .



تلك التى كان يجب ان تكون قد وصلت اليها عقارب الساعة لو انها استمرت في حركتها !

انها ــ كما قال لنا احد كبار المسئولين ــ : « عقدة الاستقلال .. التخوف من الخبراء وكراهيتهم .. والسبب المباشر لهذا الخوف هو الميل الى العزلة ، ثم الشعور بالكرامة الزائدة بعد الاستقلال ، والاحساس الخاطيء ــ عند البعض ــ باننا قد وصلنا الى الكمال بمجرد حصولنا على حريتنا » .

مكابـرة ..

وتستطيع ان تلمس صدق هذا الكلام وانعكاسه في الفنادق الحديثة التى بدات تظهر في تعز وصنعاء على حد سواء .. العاملون فيها يديرون الفنادق مثلما يدير صاحب الخان خانه ، يعتقدون انهم يتعاملون مع قرويين في حين ان نزلاءهم من رجال السلك السياسي والخبراء الاجانب والسياح ، يقدمون لهم الماكولات التى تقدم في المطاعم البلدية بالاسواق ،وفي اوان تنقصها النظافة وتنقص مقدمها اللباقة واللياقة .. انه معذور لانه لم يتعلم هذه المهنة من قبل .. ولكنه لا يعترف بهذا النقص ، وانما يكابر ويغالط نفسـه .. انه يريد ان يتعلم من تجربته هو ، ولا يريد ان يتعلم من تجارب الاخرين ! !

كارثة ..

وقد يهون هذا الامر بعض الشيء بالنسبة للفنادق ، وقد يهون الحديث عن الفنادق ، وما هي عليه من حال ، ولكن الامر يتحول الى مأساة وكارثة عندما نخوض في الحالة الصحية السيئة التى يعاني منها أهل هذا البلد !

وفي مستشفى الجمهورية بتعز شهدنا صورة من صور هذه المأساة ، فقد حدث ان تغيب اخصائي الاسنان وسافر الى صنعاء ، ولم يكن هنـاك طبيب آخر في المستشفى .. وجـاء المرضى يشكون من آلام اسنانهم .. فتالم المرضى بدوره لآلامهم ، ثم كانت المفاجاة عندما وجدناه يشمر عن ساعده ويمسك بالكلابات والحفارات ، ويبدأ بمعالجة أكثر من ٣٠ مريضا يوميا ، بينما وقف معه من يساعده في نفس الغرفة احد الطلبة

الذين يدرسون طب الاسنان في موسكو !! ؟ (انظر الصورة) .

تنافر بدلا من التنسيق

وفي تعز تعمل عدة هيئات صحية جاءت بعثاتها الطبية الصغيرة من مختلف اقطار العالم .. من الصين .. وايطاليا .. وروسيا .. والسويد .. وفرنسا .. والامم المتحدة ، الى جانب الاطباء اليمنيين .. وكل هؤلاء يعملون في تعز ، كل منهم حسب اجتهاده ، فليس هناك اى تنسيق بينهم ، بل تنافس وتنافر .. كل منهم يغلق بابه على نفسه ، يحتفظ بمعلوماته وملفاته ونتيجة دراسته ، دون ان يطلع عليها احد ..

بابا اندريه يتحدث

وجلسنا الى الدكتور اندريه الفرنسي عميد الاطباء الاجانب في اليمن .. لقد مضى عليه ١٥ عاما في اليمن يعالج مرضى السل ، حتى اصبح اليمنيون يسمونه بابا اندريه لفرط حبهم له .. وعندما يتحدث هذا الطبيب عن انتشار السل في اليمن ينتابك نوع من الخوف والفزع .. فتعال نسمعه معا وهو يقول : « يعتبر السل من الكوارث الوطنية التى تصيب البلاد المتخلفة .. واكثر البلاد تقدما في القضاء عليه هي هولندا حيث تصل نسبة المرضى هناك واحدا في الالف فقط .. واعلى نسبة تجدها في الهند ، حيث تصل الى ثلاثين مصابا بهذا الداء بين كل ألف مواطن .. اما هنا في اليمن فتتراوح النسبة بين ١٤ و ١٦ في الالف .. وهذا رقم مخيف .. اذا اخذنا بعين الاعتبار الامراض العديدة الاخرى المنتشرة في البلاد ..

« فاذا قلنا ان عدد سكان اليمن خمسة ملايين نسمة، فان عدد مرضى السل يصبح ٨٠ ألف مريض يجب أن يوضع ربعهم على الاقل في المستشفيات ، اى يلزمنا ٢٠ الف سرير ، ولكن كل ما لدينا في اليمن لا يتعدى ٣٦٠ سريرا فقط !! »

ويمضي بابا اندريه في وصفه لهذه المأساة فيقول :

« ان حالات كثيرة جاءتني واصابني الهلع عندما كشفت على أصحابها فلم أكن أجد أثرا لرئاتهم .. لقد أكلها المرض اللعين .. وفي اليمن ثمانية آلاف مسلول في مثل هذه الحالة الخطرة .. انهم في



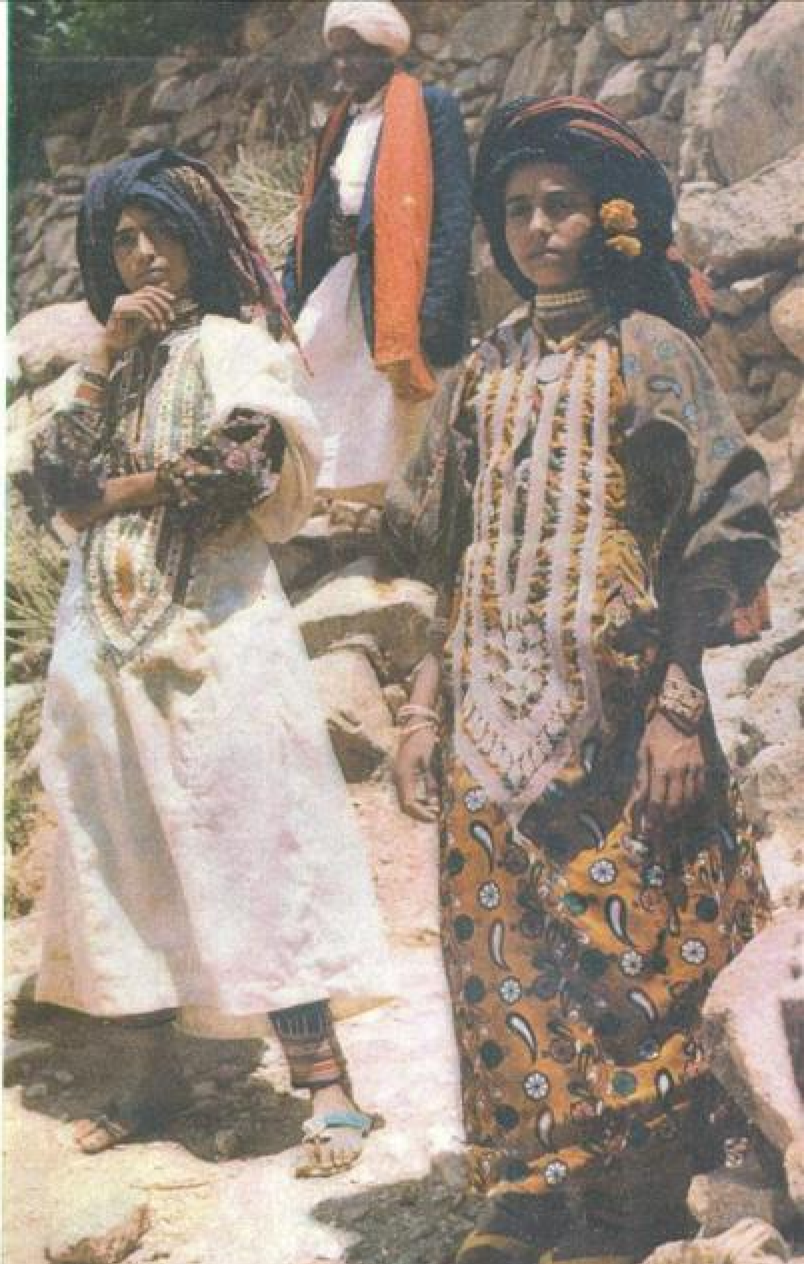
غاب طبيب الاسنان فقام الممرض وطالب الطب في جامعة موسكو ، بمهمته أثناء غيابه !!

حاجة ماسة الى جراحة صدر .. ولكن المؤسف انه لا توجد في اليمن كله ، غرفة خاصة لجراحة الصدر ! .. ان الخطر - كل الخطر - هو العدوى السريعة التى يمكن ان ينشرها هؤلاء الثمانية الآف شخص الى الاصحاء المعافين .. »

اجرام دولى فى اليمن

وانفعل الدكتور اندريه عندما سألناه عن الامم المتحدة وما تقدمه من مساعدات ، وقال في حدة .

« اذكرها على لساني صريحة واضحة، ان منظمة الصحة العالمية لم تقم بأى عمل حتى الآن من أجل اليمن المسكين ، انه اجرام دولى .. خبراؤها





في جبل صبر .. تجوع المرأة ، وتأكل الخبز الجاف ، وتعمل من الصباح حتى المساء لتجمع المال اللازم لشراء الطبخ والقرط والشكة الذهب .. والملابس الملونه الجميلة .. وهاتان فتاتان بكامل زينتهما تتجهان لجمع الحطب من رأس الجبل !! ان هذا الجبل الجميل ليس فيه مستوصف او حتى صيدلية ، واذا اصيب احدهم فعليه النزول الى تعز للعلاج !



كيف تدخل الفتاة اليمنية الى المدرسة لم تبقى فتاة صالحة لمجتمعها وبيئتها ؟! اننا نريد تجنب الأخطاء التى وقعت فيها البلاد العربية ، نريد من فتاتنا ان تهتم باللب دون القشور .. ! وينقسم المجتمع اليمنى الى قسمين ٥٠٪ يؤيدون تعليمها ، و ٥٠٪ يعارضونه .. البعض يريدها ان تسير مغطاة « بالستارة » ، كما ترى في الصورة التى الى اليمين .. والبعض يريدها عضوا عاملا فى مجتمعها ، كما ترى في الصورة العليا لبعض الفتيات وهن يتدربن على مهنة التمريض في المركز الصحي بتعز ..





توزيع الهدايا على العمال في عيدهم ، وترى محافظ تعز الشيخ امين عبد الواسع نعمان ، الذى نزل بلباس المرش للمشاركة في هذا الاحتفال ، والى يمينه محمد الملقى ، مدير مصلحة الطرقات ..



الفصل مكتظ بالطالبات بينما المعلمة تلقى عليهن درسا نظريا فى العلوم ، لعدم الى اليسار الانسة حورية عبد الله المهدى

بأنون ويجلسون في الفندق يلعبون الدومينو ويتنقلون بين صنعاء وتعز .. انهم يريدن من اليمنيين أن يقولوا لهم شكرا جزيلا مقابل لا شيء !! »

نـداء ..

ويرفض الدكتور اندريه انهاء حديثه قبل ان يحملنا رسالة للمحسنين .. فيقول : « ان مبنى مستشفى السل موجود .. والاخصائيين الجراحيين ستتولى احضارهم من فرنسا .. ولكن المطلوب هو الالات والادوات الجراحية التى تبلغ قيمتها ٣٢ الف دولار لانقاذ حياة ٨ الاف مريض بالسل في حالة خطرة ، ينشرون العدوى في طول اليمن وعرضها دون ان نستطيع عمل اى شيء لهم .. اننا نأمل ان نحصل على هذا المبلغ في اقرب وقت .. »

نداء نرجو ان يلقى جوابا ..

بؤرة قذارة ..

اما عن نظافة شوارع تعز ومستشفياتها فنكتفى بما أورده تقرير المركز الصحي العالي بتعز في شهر مارس الماضي .. يقول التقرير :

« ان جميع انواع الفضلات والاوساخ تلقى الى الشوارع والطرقات من المستشفيات والمنازل والمتاجر والمطاعم ، وهذه الاوساخ تعطى المدينة منظرا سيئا .. فضلا عن الاوبئة والامراض التى تساهم في نشرها .. ويعمل في البلدية ١٥٠ عامل نظافة ولكنهم يكنسون الاماكن التى تحلو لهم ، ويتركون المناطق التى يجب كنسها ، وسبب هذا انعدام الرقابة عليهم .. اما اسواق اللحم والخضار فقد تحولت الى بؤرة لنشر الامراض ، لا يوجد في المدينة مرحاض واحد عام ، لهذا يقضي الناس حاجتهم في اماكن معينة اصبحت مركزا لتوالد الذباب .. » .



في ورشة التجارة بالمدرسة الثانوية وقف المدرس الروسي نيقولاى شوكين يلقى الدرس على الطلبة باللغة الروسية بينما مساعده يترجم ما يقول .. والى اليمين مدير التعليم الاستاذ ياسين عبد العزيز



لجين سلاح الدين القادمة من العراق ، وجود مختبرات في المدرسة .. وقد وقفت ناظرة المدرسة ، ومن اوائل الخريجات .

اما نظافة المستشفى الجمهورى فقد اختصه التقرير بثلاث صفحات كاملة تضمنت حملة شعواء على انعدام النظافة فى المكان الذى يجب ان يكون مثالا للنظافة يحتذى به .

يرفض محاسبته ! ؟

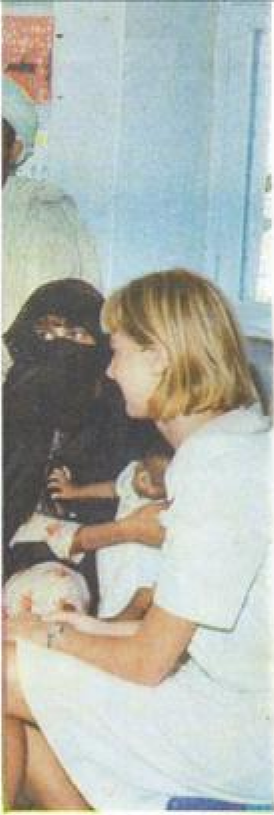
واتجهنا الى بلدية تعز وتحدثنا الى مديرها ، الذى قال : « انها بلدية مشلولة تماما عن العمل، ولا يمكن محاسبتها على شيء .. لان ميزانيتها لا تتعدى ٨ الاف ريال في السنة (كل ستة ريالات = دولارا) اى ٤٧٥ دينارا فقط ، هو مجمل ميزانية بلدية ثاني مدن اليمن .. وبهذا المبلغ الضئيل مطلوب منا فتح طرق جديدة وتعبيد الطرق القديمة ، وانشاء حدائق واسواق ، .. ومجار للسيول والامطار ، كل هذا في مدينة جبلية تقوم على تلال ووديان .. واقرب ارض مستوية اليها تبعد عنها بحوالي ٢٠ كيلو مترا .. لهذا اقاموا مطار تعز الجديد بعيدا عن المدينة . »

افتتاح المطار بعد عامين

واتجهنا الى المطار الجديد ، فقد هبطت بنا الطائرة في مطار رملى قديم عندما وصلنا تعز .. اما المطار الجديد فمطار انيق كبير ، انتهوا من تأثيث مبنى المسافرين فيه قبل ان ينتهوا من تعبيد ورصف مدارجه ! . انفقوا عليه حتى اليوم مبلغ ستة ملايين ريال ، والمطلوب ثلاثة ملايين ونصف مليون ريال اخرى لتنتهي وزارة الاشغال من مدارجه ، وتعلن افتتاحه رسميا بعد سنتين .. وحتى ينتهي المدرج الثاني تقوم الطائرات الصغيرة بالهبوط في المطار القديم .

جبل صبر ..

ويتطلع اهل تعز عاليا الى جبل صبر المطل





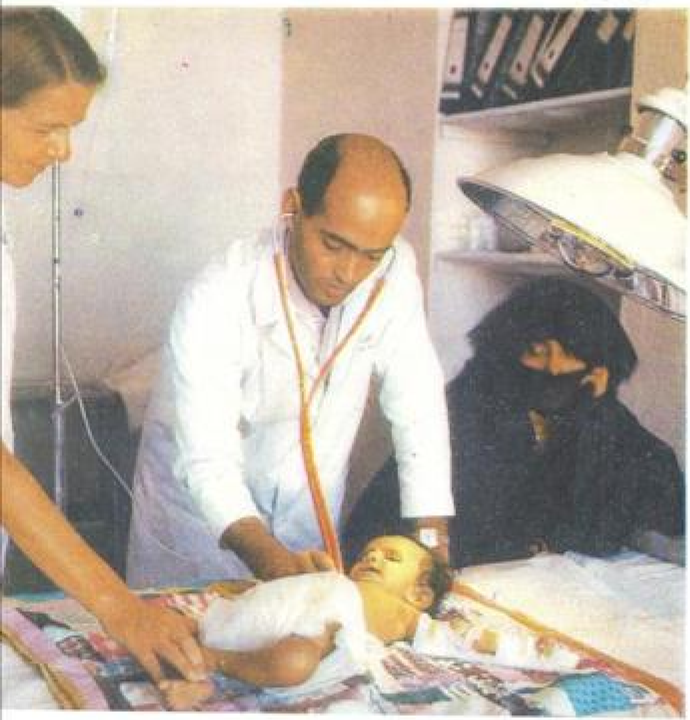
بابا اندريه .. الطبيب الفرنسي الذى مضى عليه ١٥ عاما يعالج مرضى السل في تعز .. انه يقف مع مساعده وسط صالة المستشفى الجديد ، الذى لن تفتح ابوابه لعدم وجود ادوات الجراحة .. (راجع المقال) .

الى اليسار : الممرضة السويدية ايد ستروم تشرح للآباء والامهات كيفية العناية بأطفالهم وبغذائهم في مختلف مراحل نموهم . ان انعدام الوعي الصحي ، مع تضخم عدد الاطفال ، الذين يتراوح عددهم بين ٥ و ٨ أطفال في كل اسرة ، اضف الى ذلك سوء التغذية ، يجعل نسبة الوفيات بين الاطفال ترتفع الى أكثر من ٥٠٪ وهو رقم مخيف .. وعندما سألنا ابا ناصر ، الرجل الجالس مع طفله في يمين الصورة ، « كم عدد اطفالك ؟ » قال : « ثمانية مات منهم اربعة ! » .. ماتوا من سوء التغذية ، فقد كان يطعمهم الخبز الجاف والماء ..



الى اليمين : ٢٠٠ الف دولار تجمع سنويا في شوارع مدن مدن السويد لاعانة اطفال اليمن عن طريق جمعية رعاية الاطفال السويدية ... وهذه احدى الممرضات السويديات تقوم بزيارة قرية بجوار تعز لتطعيم اطفالها.





الى اليسار : ١٥٠ طفلا يتم علاجهم يوميا في المستشفى السويدي بتعز .. ويحتاج هذا المستشفى الى ثلاثة اطباء آخرين ، بجانب الطبيبين الموجودين لمواجهة الضغط الزائد عليه .. والى جانب الاطباء يحتاج المستشفى الى المال لشراء الدواء ..

عليهم .. انهم يحسدون سكانه على مائهم وهوائهم وزرعهم .. من الفواكه و « القات » .. كما يحسدونهم على جمال بناتهم الذى يضرب به المثل في اليمن كلها ! اذ تقول الاغنية الشعبية التى تذاع باستمرار من الاذاعة ، ويتغزل صاحبها في بنات جبل صبر .. فيقول :

« ما احلى بنات الجبل عندما يطفن المدينة بالثياب الدمس » .

« خدود مثل الورد .. ضوء الفجر ارواها واعطاها المشاقر حرس .. »

حتى الرحالة الدانمركى الشهير كارستن نيبور، عندما جاء الى تعز عام ١٧٦١ سحره جمال هذا الجبل فقرر الصعود اليه ، وكتب يقول :

« انه جبل اخضر مغطى بجميع انواع الزهور التى تنمو في العالم .. »



نبوغ فنى على الفطرة .. انه الفنان هاشم على ، الذى ما يكاد يفرغ من رسم لوحة حتى يشتريها منه رجال السفارات الاجنبية فى الحال .. ان امنيته أن يقيم معرضا للوحاته الزيتية الجميلة في البلاد العربية ..

رحلة على ظهور البغال !

ولم يكن ممكنا بعد كل هذا الاطراء الذى سمعناه الا ان نصعد الى الجبل ، الى « صبر » .. وامر المحافظ بتجهيز البغال ، ومع تباشير الفجر وشقشقة العصافير ، كنا نصعد الجبل فوق ظهور البغال ، نتارجح ذات اليمين وذات اليسار ولكنها كانت تعرف طريقها ..

وبدأت البغال تصعد الى ارتفاع ٦٦٠٠ قدم فوق سطح البحر .. الطريق كله احجار جرانيت وتين شوكى .. ولكن البغال تعرف الى اين تتجه .. وكلما ارتفعنا احاطت بنا مزارع « القات » من على الجانبين .. بينما الفتيات يقفزن بملابسهن الحريرية الجميلة برشاقة وخفة فوق الصخور ، وكانهن ظبيات شاردات .. لقد كن يسرن سافرات حاملات السلال التى امتلات « بالقات » والمشمش بيعه لاهل تعز الذين ينتظرونهن عند سفح الجبل ..

ان جبل صبر هو القات .. وشجرة القات تعطى اكثر من الف ريال في العام ، في حين ان شجرة البن لاتعطى الا اقل من ربع هذا المبلغ !!

والمراة في هذا الجبل تعمل بجد واخلاص .. والرجل مزواج ، يتزوج اربعا ويجلس في المنزل يخزن (اى يمضغ) القات في الصباح والمساء ، معتمدا على المراة تزرعه وتجمعه وتبيع محصوله في السوق .

فشل شق الطريق

ان جبل صبر يمكن ان يصبح مصيفا رائعا فمناخه طيب ، وبه ١٥٠ غيل (نبع ماء) وكل قطعة أرض فيه يملكها افراد لا يريدون التنازل عنها مهما كان الثمن .. فهي تدر عليهم من القات ذهبا صافيا على مدار السنة ..

وعندما بدأت وزارة الاشغال محاولتها لشق طريق طوله خمسة كيلو مترات تربط به جبل صبر بتعز ، اصطدمت بمزرعة قات بعد تعبيد



من الغريب ان الفتاة عندما تتزوج ترتدى الملابس السوداء ، وتقوم زميلاتها وقريباتها بمصاحبتها من منزلها حتى تصل الى منزل العريس وهن جميعا مرتديات السواد ؛ وحاملات الشموع والزهور .. ويتم اختيار الزوجة بمعرفة الاهل ، دون أن يعرف العروسان بعضهما البعض ..

كيلو مترين فقط .. وحاولت الوزارة التفاهم مع صاحب المزرعة ، ولكنه تمسك بارضه ورفض التنازل عنها مهما بلغت قيمة التعويض ، وفشلت جميع المحاولات .. وتوقف مشروع مد الطريق من تعز الى جبل صبر بسبب مزرعة قات !!

عاصمة الصليحيين وبني رسول

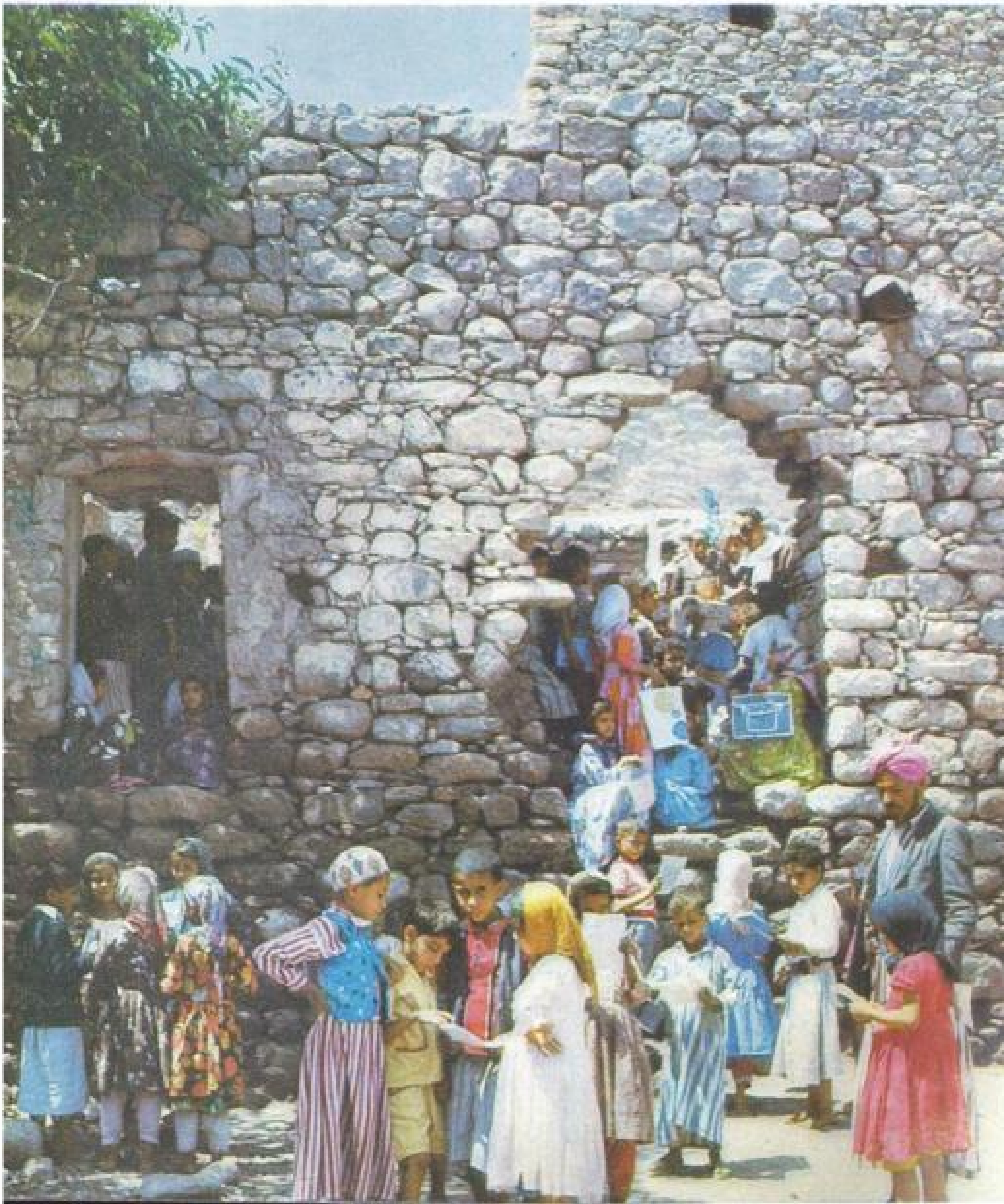
ان جبل صبر يرتفع ٦٦٠٠ قدم – كما ذكرنا – وارتفاع مدينة تعز لا يتعدى ٣٩٣٤ قدما بينما نجد ان ارتفاع صنعاء يصل الى ٩٦٠٠ قدم .. ويعيش في تعز نحو ٤٠ الف نسمة ، وتاريخ هذه المدينة ، ومن بناها يشوبه الكثير من الغموض .. لكن الذى لاشك فيه ان المدينة في بداية تاريخها لم تكن اكثر من مجموعة من القلاع التى انتشرت فوق جبل صبر .. ثم شيدت المنازل عند سفحها ايام حكم الصليحيين (٤٣٩ – ٥٣٢ هـ) (١٠٤٧ – ١١٣٨ م) ثم جاء توران شاه شقيق صلاح الدين الايوبي من مصر ، ومعه ثلاثة الاف مقاتل لنجدة الشريف قاسم بن يحيى لفتح اليمن ، ودخل تعز وشيد قلعة فوق جبلها اسماها قلعة القاهرة ، ما زالت قائمة الى اليوم .

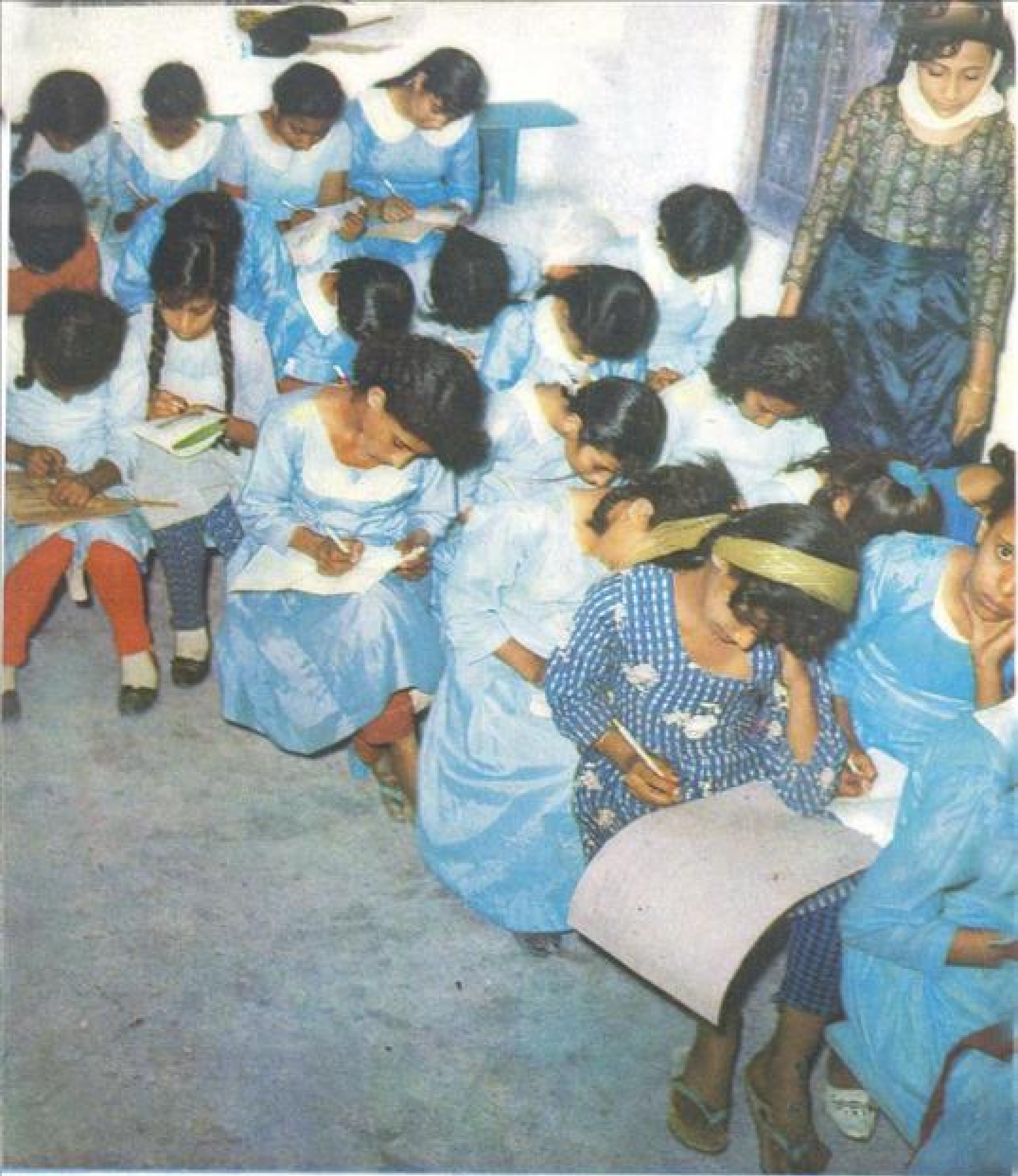
وشهدت تعز عهدها الذهبي ايام سلاطين بنى رسول ٦٢٦ – ٨٥٨ هـ (١٢٢٩ – ١٤٥٤ م) . فقد شيدوا فيها جامعيها المشهورين المظفر والاشرفية .. وشيد المؤيد داود بن يوسف قصر المعقلي الخيالي الوشى سقفه بالذهب ، والذى كانت تضم حديقته ٣٠٠ تمثال لطيور وحيوانات تتدفق المياه من افواهها .. ولم يبق اى اثر لهذا القصر الجميل الفريد من نوعه .

((الاكليل)) الضائع !

ويهتم اهل اليمن بتاريخهم وكتبهم القديمة ،

الى اسفل : لا يشكل نقص المبانى المدرسية عقبة امام التعليم فى تعز ، فهم يختارون اى مكان خال مهجور فيحولونه الى مدرسة ، كما ترى فى الصورة .. ونظرا لعدم وجود مبان كافية صالحة ، فقد تحول التعليم الى تعليم مختلط ، البنات مع الاولاد فى نفس « الفصل » .. ان الطالب الذى ينتقل من فصل الى فصل يترك كتابه ليستعمله زميله فى السنة التالية .. لقد فتح باب التعليم فى اليمن بعد ان كان مغلقا فى الماضى ، فاندفع اليمنيون على اختلاف طبائعهم وتقاليدهم يعلمون ابناءهم وبناتهم ..





هل تصدق ان هذا فصل دراسي في مدرسة ابتدائية ؟

لقد جلست الفتيات على الارض يكتبن .. نظرا لعدم وجود مكاتب يجلسن عليها .. واحس طلبة المدرسة الثانوية بمشكلة اخوتهم فصنعوا لهن ٣٥ مقعدا خشبيا في ورشة الثانوية .. وهكذا استطاعت الفتيات الجلوس على المقاعد الخشبية ، اما نقص المكاتب فهو في هذه الحالة يعتبر من الكماليات .. ان كل الذى نستطيع ان نقوله في هذا الصدد : « كان الله في عون هؤلاء الفتيات !! » اما المعلمة التى تعلمهن فهى ما زالت طالبة في الاولى الثانوية !!!

وخاصة كتاب الاكليل لأبي محمد الهمداني .. انه موسوعة علمية كُتبت في القرن الرابع الهجرى ، وعدد اجزاء هذه الموسوعة عشرة .. لا يوجد منها الا اربعة اجزاء ، هي : الاول والثاني والثامن والعاشر .. اما بقية الاجزاء فمفقودة تماما .. لا يوجد لها اى اثر في مكتبات تركيا او اوربا .. ومع ذلك فابن تعز لا يكف عن البحث عنها في كل مكان في العالم ..

طوفان ..

والاقبال على العلم والتعليم في تعز يشبه الطوفان في اندفاعه ، وهم يقيمون المدارس في اى مكان يجدونه ، لا يهمهم شكل المبنى ، وانما المهم هو التعليم .. وكل مبنى حكومي يتم التخلي عنه يتحول مباشرة الى مدرسة !

ورغم كل ذلك رُفضت طلبات ٤٠٠ طالب ابتدائي في العام الماضي..وتضم مدارس تعز حاليا ٢٠ الف طالب و ٩٠٠ طالبة ، منهن ١٥ طالبة في القسم الثانوى .. وتقوم حكومة الكويت ببناء مدرسة اعدادية وثانوية كبيرة للبنات .. اما ثانوية البنين فتضم ٦١٨ طالبا ، وهي مدرسة حديثة للغاية قدمها الاتحاد السوفيتي باثاثها ، هدية للشعب اليمنى ..

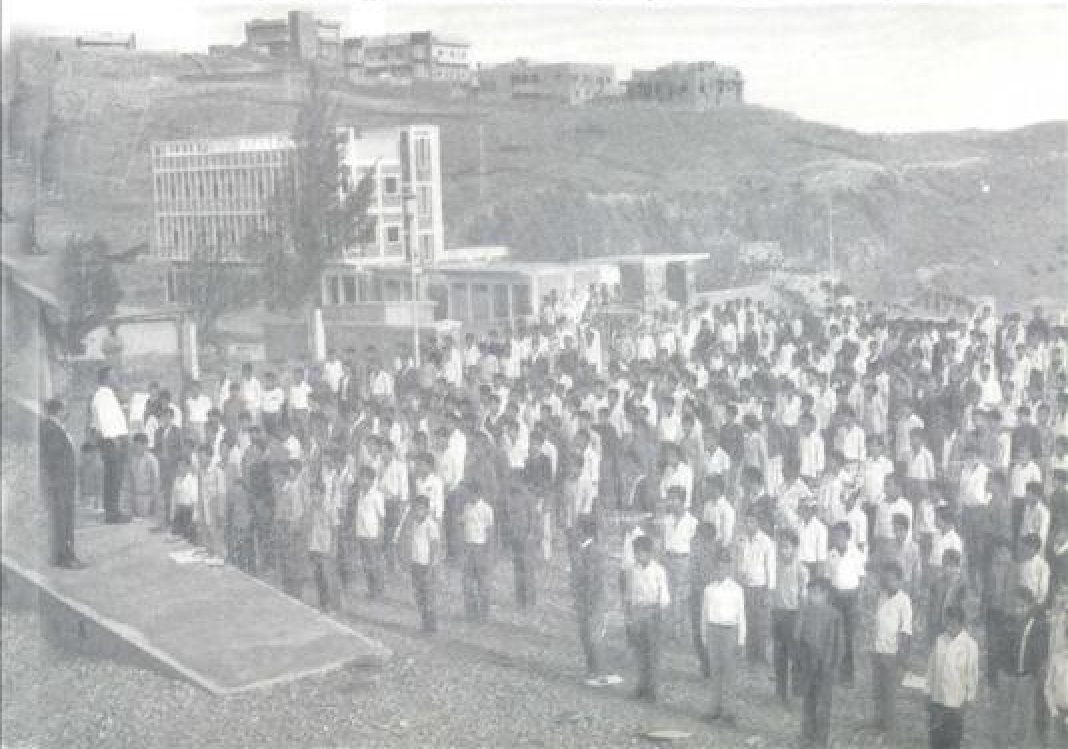
هجرة من الريف ..

ويحدثنا الاستاذ احمد جابر عفيف وزير المعارف اليمني عن مشاكل التعليم الرئيسية في تعز فيقول :

المشكل الرئيسي هو زحف ابناء الريف الى المدينة .. الاب يرسل ابنه بمفرده محملا اياه خطابا لصديق في المدينة ، مع بعض النقود .. ويسير الابن اياما طويلة وسط الجبال حتى يصل تعز .. وتتولى وزارة التربية مهمة اسكانه واطعامه ليتعلم .

ويتكلف الطالب ستين ريالا في الشهر ، الى جانب مكافاة تصرف له شهريا ، تتراوح بين

طابور الصباح في فناء ثانوية تعز التى تضم ٦١٨ طالبا .. انها مدرسة كبيرة حديثة قدمتها روسيا هدية للشعب اليمنى .. وتقوم الكويت حاليا ببناء مدرسة ثانوية كبيرة للبنات ..





فائزة احمد ياسين .. احدى الطالبات اللواتي يتعلمن في مدرسة التمريض وعددهن ١٨ طالبة



بعض طالبات السنة الثالثة الاعدادية يؤدين الامتحان . ان عددهن ٦٧ طالبة ..

٥ و ١٥ ريالا (كل ٦ ريالات = دولارا) .. وينام هؤلاء الطلبة ، وعددهم ٣١٦٦ طالبا ، في اماكن متعددة .. بعضهم ينام عند اصدقاء العائلة ، بينما ينام ما يزيد عن ٧٠٠ طالب مكدسين في مبان حكومية تكاد تسقط عليهم !

اما الحاجة الى المعلمين والمعلمات فحدث عنها ولا حرج رغم وجود بعثتي مدرسين عراقيين وسوريين » .

مشاكل التعليم

ان معالجة مشاكل التعليم في تعز لا يمكن حلها بين يوم وليلة بميزانية لا تتجاوز ٤٣ الف ريال هي عبارة عن مرتبات واجور للمدرسين والموظفين ، و ٢٤ الف ريال مصاريف تجديد وبناء ..

والمشاكل المطلوب معالجتها هي :

اولا : بناء مدارس في الريف ليخف الضغط عن مدارس تعز .

ثانيا : عمل منهج موحد في بداية العام الدراسي .

ثالثا : الحاجة ماسة الى مدرسين ومدرسات مؤهلين تأهيلا تربويا عاليا ، ومن ذوي الاختصاص .

رابعا : زيادة منح الدول العربية لتعليم ابناء اليمن ، اسوة بالمنح التي تقدمها الدول الاجنبية على ابناء اليمن ..

* * *

وقد قام الاستاذ احمد جابر عفيف وزير التربية اليمني بجولة على بعض البلاد العربية طالبا مساعدتها ، ولم نعرف نتائج اتصالاته بعد .

نعيم وجحيم

واذا تركنا التعليم بمشاكله وانتقلنا للزراعة وجدنا تعز تقوم وسط عدة وديان زراعية تحيط بها .. وادى المحبة .. وادى العسل .. وادى الموادم . وادى عصيفرة ..



١٠ الاف شجرة برتقال ويوسفى ، تم في أرض الحوجلة في تعز ، قرب آبار المياه في تعز ، للقضاء على الغلاء الفاحش لاسعار



هكذا تمتد تعز الجديدة ، فوق جبل الضبعة .. وترى الفندقين اللذين فتحا ابوابهما حديثا ، فندق الاخوة وفندق الهيلتوب ، وبهما ٦٥ غرفة تضم ١٠٠ سرير .

اسماء تدل على النعيم الذى كان يعيش فيه أهل المنطقة .. عيون المياه المتدفقة من الجبل تروى خطا رفيعا من الارض ، لا تزيد نسبته عن ٥٪ أما الارض الباقية ـ ونسبتها ٩٥٪ ـ فتعتمد على مياه الامطار .. وكثيرا ما تتعرض للجفاف لعدم سقوط هذه الامطار .. لهذا يحتاج الامر الى تعميم الآبار الارتوازية وحفرها في كل مكان ..

ومن مشاكل الريف ، ارتفاع اجرة اليد العاملة الى أربعة ريالات يوميا .. واستعمال طرق الزراعة القديمة العقيمة ، وانعدام وجود طرق تؤدى الى الاراضى التى تسقى بماء الغيول (الينابيع) لنقل منتجاتها من فواكه وخضراوات ..

اعادة مجد البن !

أما عن المشاريع التى تقوم وزارة الزراعة وهيئة الامم المتحدة بدراستها فالكلام عنها يملأ مجلدات باكملها ، وتبحث عن التنفيذ فلا تجد له اثرا ..

ومن أمثلة هذه المشاريع السريعة : مشروع اعادة الحياة الى شجرة البن ..ستخصص مساحة ٢٥٠ هكتارا في تعز واب وفي منطقة صنعاء ، لزراعتها بشجيرات البن ، وسيتقاضى المزارع مساعدة مالية خلال فترة خمس سنوات ، حتى تعطى شجرة البن ثمارها..وسوف يستمر التوسع التدريجي في مساحة الارض ، حتى يعود مجد البن الى سابق عهده ..

مشروع رائع جميل ، لو وجد طريقه الى التنفيذ ! ؟؟

« زنبيل الشركة » !

والواقع ان مشكلة الجهاز الحكومى الوظيفي تأتي في مقدمة مشاكل اليمن .. وفى تعز يندر ان تجد موظفا جالسا على مكتبه طول فترة العمل ، ففي الصباح الباكر يترك الكوفية او العمامة في المكتب ، وعندما يطلبه المدير يقولون له : « معه زنبيل الشركة » !

وتعجبنا منهذا التعبير وسألناهم ، فقالوا لنا : معناه سلة من سعف النخيل ، يحملها الموظف ويذهب بها الى السوق يشترى اللحم والقشمي (الفجل) والحلبة وبعض الفواكه ، ويضعها في



استيراد شتلاتها من لبنان ، وانتهى غرسها .. انه احد مشاريع هيئة التعاون الاهلى الفاكهة .



وهذا مشروع سياحي آخر لهيئة التعاون الاهلى .. ان بدء وصول افواج السائحين ، جعل من الضروري انشاء فندق كبير ، يضم مسبحا وسينما ومسرحا ، وحديقة ، لاستقبالهم ، وتوفير الراحة لهم .

الزنبيل ويوصلها الى المنزل ، ثم يعود الى عمله .. ولكنه لا يمكث فيه كثيرا ، اذ تتكرر القصة .. فيترك الشال على المكتب ويخرج في الساعة الحادية عشرة والنصف الى .. سوق القات .. يشترى حاجته منه ! !

وعندما كنا نسأل عن الموظف الغائب كان يقال لنا : ذهب الى وزارة اخرى ليتجز بعض الاوراق المتأخرة !

نفس المشكلة التى يعاني منها جهازنا الوظيفي في اغلب ارجاء الوطن العربي ..

القات يعيد المتفرجين !

وحياة الليل في تعز بدأت تتغير وتتبدل بعد افتتاح الفندقين الجديدين .. وكذلك توجد ثلاث دور للسينما تضم ٣٧٠٠ مقعد ، تعرض الافلام الهندية والامريكية ، ونادرا ما يعرض الفيلم العربى الا القديم منه جدا .

وعدد الحفلات مقصور على حفلة واحدة يوميا ، تبدأ من الثامنة والنصف مساء ، اى بعد انتهاء جلسة تخزين القات في المنازل .. لقد حاولت ادارة السينما منع ادخال القات مع المتفرجين ، فكانت النتيجة ، ان احدا لم يعد يذهب الى السينما .. فعادت الادارة وسمحت بادخال القات ، فعاد الرواد يملؤون الدور الثلاث .. !!

★★★

وتركنا تعز واتجهنا الى صنعاء على الطريق الجبلى الطويل .. وشاهدنا القرى .. متناثرة هنا وهناك .. فوق كل جبل منزل شيده صاحبه في اصعب موقع .. لا يوجد طريق يوصل اليه .. لقد تعود على حياة العزلة .. حياة حرة طليقة ، لا يتقيد فيها بشيء ، ولا يسمع كلام احد .. انه يكتفي بقطعة ارض صغيرة يزرعها من ماء النبع الطبيعى الصغير الذى يقع بجوار منزله ..

ان اليمن ليس في مدنه وانما في قراه .. ان عدد سكان صنعاء ١٧٠ الف نسمة وعدد سكان تعز ٤٠ الف نسمة ، فاين هذا من مجموع سكان اليمن الذى يقدرونه باكثر من خمسة ملايين نسمة ؟ ؟

سليم زبال

العربي

العدد ١٤٧
ذو الحجة ١٣٩٠
فبراير
(شباط) ١٩٧١

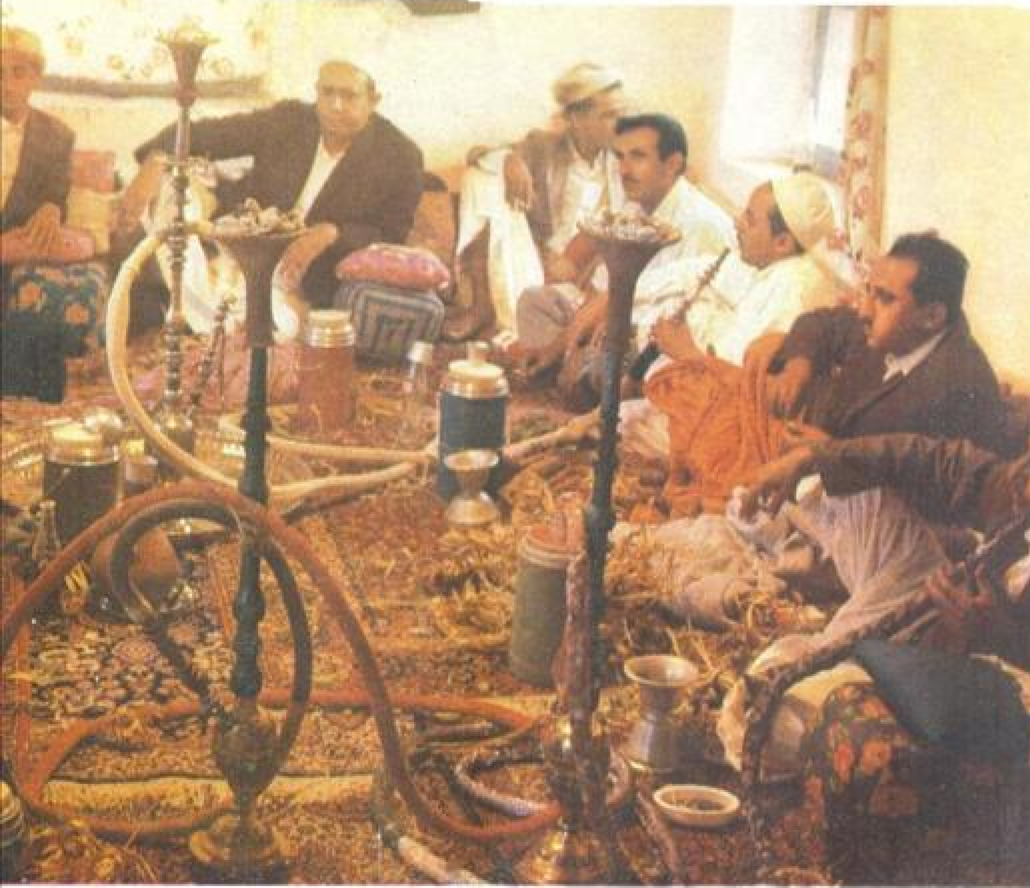


كير من رجال اليمن يختزن القات في شدقه ..
ان القات هو الطامة الكبرى في هذا البلد الشقيق .

جوائز
١٢٠٠

الثمن

الكويت	١١٠ فلوس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان	١٠ قرو
الخليج العربي	٢ ريالات	لبنان	١٠٠ قرش	ليبيا	١٥ قرش
السعودية	٢ ريال	الأردن	١٠٠ فلس	تونس	٢٠٠ مليم
البحرين	٢٠٠ فلس	سورية	١٠٠ قرش	الجزائر	٢٠٠ مليم



هكذا يجلسون في كل بيت في اليمن .. ساعات طويلة يقضونها في أوهام .. ويحلقون في آفاق بعيدة لا تمت الى عالمهم الذى يعيشون فيه بصلة ..

اعرف وطنك أيها العربي

القَاتُ

- شجرة تتحكم في اقتصاد اليمن.
- اقتلعوا أشجار البن ليزرعوا القات مكانها.
- ٣٥٠٠ مليون ساعة عمل تضيع سنويا بسبب إدمان شعب اليمن على تعاطي القات.
- حزمة القات قبل رغيف العيش!!



استطلاع
سليم زبال

تصوير
اوسكار متري

انها مأساة اجتماعية .. بل هي مشكلة اقتصادية من اعقد المشاكل التي تواجه هذا الجزء من وطننا العربي .. اليمن ..

حاولوا علاجها .. ولكن استعصى العلاج ..

وصفوا للمرضى الدواء، فلما ذاقوا مرارته أعرضوا عنه وولوا هاربين !

وقال القائلون : « مالكم بنا ، هذه حياتنا، عشناها ونعيشها منذ مئات السنين ؟ » .

فما اسم هذه المشكلة .. وما هو شكل هـذه المأساة ؟

الجواب على هذا السؤال يتلخص في كلمة واحدة .. انها القات ..



■ مشاكل ومآس تشدنا الى الوراء وتعوق مسيرتنا نحو حياة أفضل كريمة ..
وفي كل مرة يسعى الساعون لعلاج احدى المآسي يصطدمون بجدار من الاستنكار ، بحجة انها مشاكل تحولت مع الزمان الى مقدسات من المحرم على الناس أن يتناولوها بالنقد .. لانها غسيلنا القذر فكيف ننشره على العالم ؟! .

انها مشاكل موجودة في كل مكان ، وفي كل جزء من وطننا الكبير .. ولكنها في اليمن – موضوع استطلاعنا اليوم – تاخذ طابعا فريدا غريبا .. القات .. ويلعنون اليوم الذى عرفوا فيه هذا السم المقيت القات ! .

يمضغ ويلعن !

والقات هو شجرة دائمة الخضرة ، أصبح المواطن اليمني أسير أوراقها اللامعة ، يملأ بها فمه ، ويسير بها يمضغها في كل مكان .. في المنزل والمتجر .. في السينما والمقهى .. وفي الحقل والمكتب .. في السيارة وعلى الدراجة .. لا فرق بين رجل وامراة .. ولا عامل وفلاح .. حتى الوزير في مكتبه .. والمحافظ في مركزه .. والعالم حيثما كان .. كلهم يمضغون القات .. ويلعنون القات .. ويلعنون اليوم الذى عرفوا فيه هذا السم المقيت القات ! .

خسارة ٣ آلاف مليون ساعة !

وكان لا بد أن نحضر جلسة قات .. وانتهت الجلسة وثارت ثائرتنا على ما شهدنا .. وتوجهنا مباشرة الى مكتب رئيس وزراء اليمن دولة محسن العيني نسأله – بكل بساطة – : « لماذا لا تمنعون القات بجرة قلم ، وتريحوا البلاد من مآسيه ومشاكله ؟ » .

ونظر الينا رئيس الوزراء وقال بألم ومرارة : « ما من شك أن في سؤالكم الكثير من الغيرة ، ولكن مشكلة القات لا يمكن حلها بجرة قلم ..

وكم بودى أن أوقع في هذه اللحظة قرارا يمنع زراعة القات ، اذا كان هذا يقضي على هذه المشكلة ولكني أعلم أنها سوف تخلق لليمن مائة مشكلة أكثر تعقيدا من مشكلة القات نفسه .

ويتابع رئيس وزراء اليمن كلامه بقوله : « يكفي أن أذكر لكم أن اليمن تخسر سنويا ما يزيد على ثلاثة آلاف مليون و ٥٠٠ مليون ساعة عمل ! ان هذا الوقت الهائل هو الذى يقضيه أبناء اليمن في مضغ القات وتخزينه كل سنة ... انه وقت ثمين للغاية ، بلادنا في أشد الحاجة اليه ، يضيع هكذا دون أى فائدة أو مكسب للبلاد ، فيصيب اقتصادنا القومي بخسائر فادحة ..

« تصوروا أننا حاولنا دعوة موظفى الحكومة للعمل في الدواوين بعد الظهر لنسرع في حل بعض مشاكل اليمن المستعجلة ، ولكن مواعيد «التخزين» القات أى خزنه في أشداقهم ، وقفت حائلا بيننا وبين تحقيق أمنيتنا .. انها مأساتنا ومشكلتنا الكبرى !! »

القات قبل رغيف الخبز

وانطلقنا من مكتب رئيس وزراء اليمن نبحث عن القات .. زرنا مزارعه على قمم الجبال ، واشتركنا في مجالس مضغه وتخزينه في القرى والمدن .. وتحدثنا مع المدمنين ، والمزارعين ، والمسئولين .. لنخرج بهذا الاستطلاع الجديد الذى تقدمه لك في هذا العدد .

تبدأ القصة مع اشراقة كل صباح .. ما يكاد الناس يعملون عملهم العادى وتتجمع لديهم بضعة ريالات حتى يسرع – كل منهم – الخطى الى السوق .. سوق القات ليشترى ربطة قات ، قبل شرائه رغيف الخبز اللازم له ولأطفاله .

ويتضاعف الرثاء لحالة هذا اليمنى الطيب ، عندما تعلم أن زوجته وأولاده – فوق سن السابعة – كلهم يمضغون القات ويخزنونه في أشداقهم !

متى عرفت اليمن القات ؟

ان هذه العادة السيئة بدأت منذ عام ٥٢٥م . أى قبل الاسلام بتسعين عاما عندما دخلت شجرة القات الى اليمن مع الفتح الحبشي لها ..

ولكن أبناء الشعب يروون عن دخول القات الى اليمن قصة لطيفة تقول : ان الذى أدخل القات الى اليمن متصوف حضرمى اسمه ابراهيم أبو زربين ..

سافر الى بلاد الأحباش ، وفي أثناء تجوله هناك شاهد قطيعا من الماعز مستسلما لنوم عميق ، وفي فم كل شاة بقايا ورق أخضر انتزعته من أشجار مجاورة ..

وجرب الشيخ ابراهيم هذا النبات – وكان

هو القات ـ فاستعذبه وقرر نقله الى بلاده ، وفي هذا يقول الشاعر :

أمسى يجمع منه حتى تملى الجراب
مشى يحدث عنه وفي الحديث الصواب
فصدقوه وذاقوا من مثله واستطابوا

حديث مع مزارع قات

واتجهنا الى تعز ، ومنها امتطينا ظهور البغال للصعود الى جبل صبر ، اذ لا يوجد طريق ممهد يوصل الى قرى هذا الجبل ، والسبب هو مزارع القات .. ان ٩٩٪ من مزروعات هذا الجبل الخصب هى القات . والفلاح لا يريد التنازل عن شبر واحد من أرضه لشق طريق ممهد !!

واستقبلنا صاحب احدى المزارع ، وقد انفرج فمه فظهرت أسنانه سوداء ملونة باللون الأخضر .. انه يمضغ القات منذ الصباح الباكر .. وقدم لنا رزمة من القات ، فقلنا :

ـ ولكننا ما زلنا فى الصباح ولم يحن موعد تخزين القات ؟

فأجابنا قائلا : « اننا هنا نمضغ القات فى جبل صبر مدة ٢٤ ساعة متواصلة .. لا فرق عندنا بين صباح أو مساء .. »

قلنا : ولكنكم سمعتم دون شك عن الأمراض العديدة التى تنتج من مضغ القات ؟

فقال بسرعة وبحضور بديهة : يقول المثل عندنا داو الاجساد بما تعتاد .. والقات هو علاجنا ، لأننا تعودنا عليه !

قلنا : ما رأيك لو منعت الحكومة زراعة القات ؟

فقهقه طويلا وقال : « مستحيل أن يحدث هذا .. لأن اليمن هو القات ، والقات هو اليمن ، والحكومة تعيش على القات ! .. فاذا ما فكرت فى منع القات ، فانها تقتل نفسها واليمن معها .. »

ويعتقد أهل صبر أن زرع القات يحمى المنطقة من الأوبئة ، وأن من يحمل غصن قات على صدره، يكون بمنأى عن عدوى الأوبئة !!

شجرة القات

ودخلنا احدى مزارع القات .. فوجدنا الارض مقسمة الى مدرجات يعلو بعضها بعضا ..

ويزرع القات بغرسه شجيرات متباعدة ، بين كل منها خمس أقدام على الأقل ، وتؤخذ الشجيرة من الشجرة الأصلية التى تعطى فى المعتاد ٩ شجيرات كل موسم ..

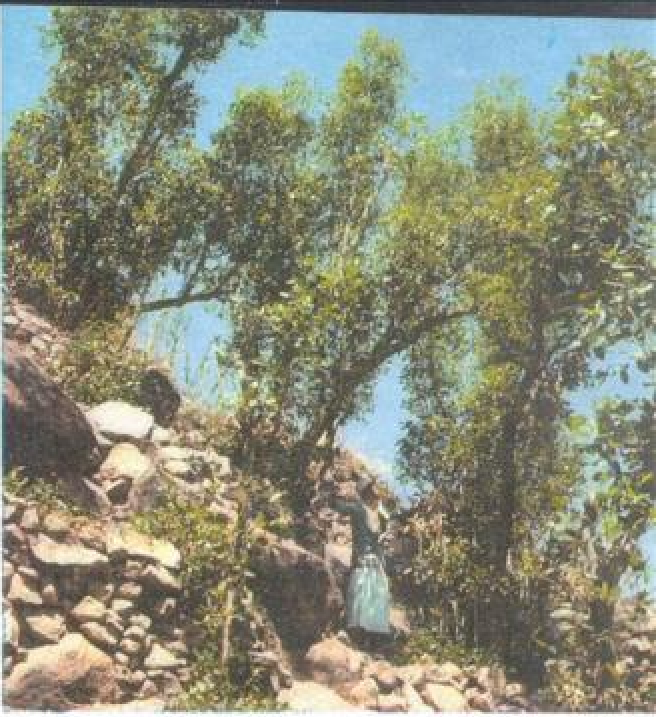


يلعب العود دورا هاما في جلسات القات بصنعاء فهو ينتقل من يد الى يد .. وهذا هو الاستاذ عبد الكريم تقي يبدأ بتقاسيم طويلة ، يعقبها بغناء هادىء ، وبجانبه جلس الشاعر الدكتور محمد غانم يسجل هذه الاغاني ويجمعها على أشرطة .

وشجرة القات خشبية دائمة الخضرة ، لا بذر لها ولا زهر .. يزرع النوع الجيد منها ابتداء من ارتفاع ١٠٠٠ متر اما النوع الردىء فهو المزروع فى السهول والمناطق الواطئة ..

ويصل طول شجرة القات الى ارتفاع ٢٠ قدما فى بعض الأحيان ، ولكنها تقطع رؤوسها عندما تصل الى هذا الارتفاع حتى تنمو من جديد على ارتفاع منخفض فيسهل قطف أوراقها .. وتعمر هذا الأشجار ٢٠ عاما ، وتورق أوراقا جديدة على مدار أيام السنة ، لهذا يكون القات متوافرا دائما لا ينقطع سواء فى الصيف أو الشتاء ..

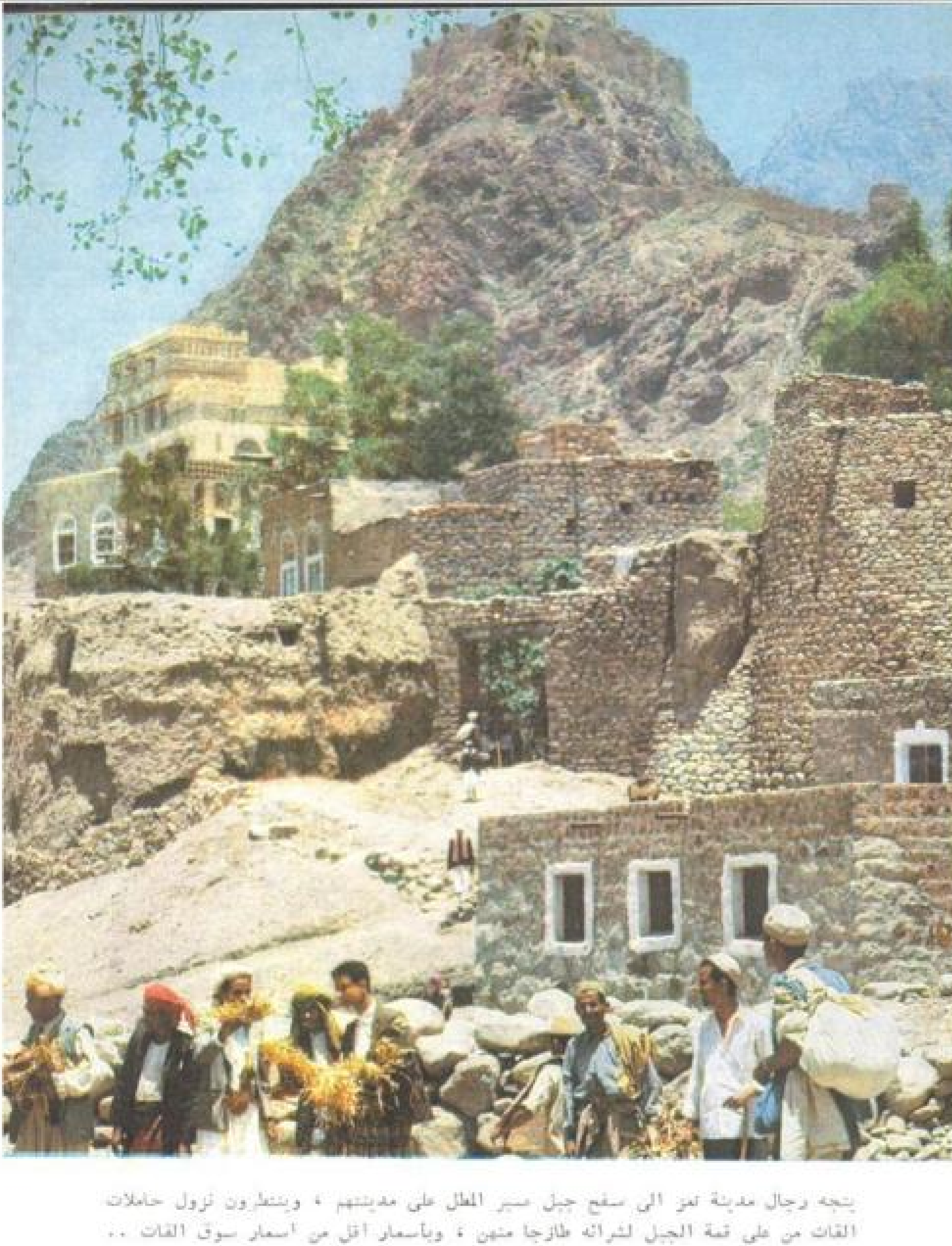
وفى ضواحى صنعاء يقوم الرجال بقطف أوراق شجرة القات ، أما فى جبل صبر ، فتقوم النساء بقطف الأوراق الصغيرة الخضراء الرطبة من أعلى الشجرة وبربطنها بقشر الشجر والحشيش على هيئة رزمة أو ربطة بها نحو ٢٥ غصنا ، ويضعن هذه الرزم فى سلة كبيرة يضعنها فوق رؤوسهن



الى اليمين : مجموعة من أشجار القات المرتفعة ... لاحظ طولها بالنسبة للرجل الواقف امامها .. انها أشجار تعمر أحيانا ٢٠ عاما ، وتزرع شجيرات صغيرة تؤخذ من الشجرة الكبيرة .. والورق الذى يقطف هو الورق الرطب الصغير .



الى اليسار : حاملات القات .. يضعنه في السلال الكبيرة وينزلن به من فوق الجبل الى المدينة .. ان بنات جبل صبر والريف اليمنى يسرن سافرات ، بعكس نساء المدن المحجبات .. والمرأة في جبل صبر تتحلى بعقود الذهب الملتفة حول رقبتها ، انها تجوع وتأكل الخبز الجاف من أجل توفير المال اللازم لشراء هذا العقد !!



يتجه رجال مدينة تعز الى سفح جبل صبر المطل على مدينتهم ، وينتظرون نزول حاملات القات من على قمة الجبل لشرائه طازجا منهن ، وبأسعار أقل من اسعار سوق القات ..

وتعتبر اليمن والحبشة من أكثر المناطق التي تزرع القات وهما يصدرانه بالسيارات وبالطائرات الى عدن التي تستهلك كميات كبيرة جدا منه .. بالرغم من انه يزرع في مناطقها الجبلية حول منطقة ردفان ، ولكن أهل عدن يعتقدون ان افضل انواع القات هو القات الصبرى الوارد من جبل صبر في تعز .. الذى يعيش فوقه اكثر من ١٠٠ الف نسمة ؛ لا يكترثون لأى شيء الا القات .. أما تحسين جبلهم أو شق طريق فيه ؛ او عمل صيدلية صغيرة فلا احد عنده الوقت الكافي للتفكير في هذا .. فالقات يأخذ كل وقتهم .. يمضغونه ويخزنونه من الصباح الى المساء دون توقف أو انقطاع .. انه مأساة اجتماعية توارثها الابناء عن الآباء والأجداد ..

ويقفزن بها فوق صخور الجبل ، متوجهات الى سوق تعز باقصى سرعة ، لان القات الطازج هو المرغوب .

لماذا أخذ القات مكانة البن ؟

ويملك الفلاح الواحد في جبل صبر نحو ٥٠ شجرة قات في المتوسط ، ولكن هناك من يملك اعدادا لا حصر لها تزيد عن الفى شجرة ، وهذا معناه ثروة كبيرة كما اتضح لنا عندما قلنا لصاحب مزرعة جديدة :

– لماذا لا تقطع شجرة القات وتزرع بدلا منها شجرة البن ؟!

فاجابنا متعجبا مبتسما : « هذا ما فعلته فيما مضى ، ولكن عكست .. فقد قلعت شجرة البن لازرع مكانها شجرة القات ؟! »

قلنا مستائين : « ولكن هذه جريمة .. »

فاجابنا محتدا : « تقولون جريمة ، دون محاولة تفهم وضعنا كمزارعين .. لقد تدهورت أسعار البن في الأسواق العالمية تدهورا كبيرا ابتداء من عام ١٩٦١ أضف الى ذلك أن الشركات المحلية الاحتكارية التى كانت تشتريه منا وتبيعه للعالم ، كانت تفرض علينا السعر الذى يناسبها دون أن يكون لنا حق معارضتها .

ان شجرة البن كانت تعطيني ايرادا سنويا لا يزيد عن ٦٠ ريالا ، في حين أن شجرة القات اقطف منها على مدار السنة ، فتدر علي كل شجرة ربحا لا يقل عن ألف ريال سنويا .. ان ربحي من زراعة القات يفوق ربحي من زرع أى زراعة اخرى .. فلماذا تلومونني على قطع شجرة البن وزراعة شجرة القات محلها ؟ .. ثم اننا أصبحنا نصدر القات الى عدن بكميات تصل الى ٨٠ الف جنيه استرليني شهريا .. »

من مخا ! MOCHA

وهكذا تدهورت ثروة اليمن ، تدهور بنها العالمي المسمى « مخا » نسبة لميناء المخا الذى كانت تصدر منه .. ومن اللطيف أن العالم اشتق اسم البن من كلمة مخا اذ قلبها الى Mocha أما الغريب فهو أن أهل اليمن يستهلكون قشرة البن فقط ، أما الحبة نفسها فلا يستعملونها .. ولذلك يطلقون اسم سوق القشر على سوق البن !

لقد كانت اليمن تصدر ١٦ الف طن من البن سنويا ، أما اليوم فقد انخفض الرقم الى ٣ آلاف طن فقط ..

وينافس البن شجرة القات حتى ارتفاع ٢٢٥٠ مترا وبعدها يسيطر القات تماما على مدرجات الجبال الخصبة ، لان القات يتحمل البرد والرياح ، بعكس البن الذى يحتاج الى مصدّات للهواء ، حتى لا تسقط زهرته التى تزهر في الصيف ، ثم تتحول الى حبة صغيرة خضراء لا تلبث أن تحمر قبل أن تقلى فتاخذ لونها البنى الأسود اللطيف..

وشجرة القات لا تحتاج لأى مجهود من أجل زراعتها .. التربة السيئة تصلح لها ، بعكس البن الذى يتطلب تربة خصبة .. والجراد لا يأكل ورق شجرة القات ، ولكنه يعرى تماما شجرة البن من كل اوراقها .. وشجرة البن تحتاج الى سقى وتبخير ومكافحة حشرات ، بعكس شجرة القات التى لا تحتاج الى ماء كثير ، ولا الى أى مكافحة للحشرات ، واذا اضفنا الى كل هذا ، الاجراءات التعسفية التى كانت مفروضة على الفلاح من أخذ عشر المحصول ضريبة حكومية ، ثم الثلثين لصاحب الارض، وما تبقى يأخذه هو فيبيعه بسعر مفروض عليه لا برضاه .. ازاء كل هذا نجد أن قلع الفلاح لشجرة البن هو تصرف معقول من ناحيته ..

ضرر على اقتصاد البلاد

وترتفع أصوات الاحتجاج وترد على هذا الرأى بقولها : « بالرغم من أن القات يعتبر أحسن مورد مالى للمزارعين الا أنه لا يعتبر سلعة صالحة للتصدير بكميات كبيرة للخارج .. وفي هذا ضرر بالغ على الاقتصاد القومى ، وعلى الميزان التجارى ، ودخل البلاد من العملة الصعبة التى هى في أشد الحاجة اليها ..

وتجرى حاليا محاولة جادة من قبل مكتب الأمم المتحدة لزرع ٢٥٠ هكتارا بشجيرات البن ، مع دفع اعانة للفلاحين خلال فترة الخمس سنوات اللازمة حتى تعطى شجرة البن ثمارها الأولى ..

أين تقرير الأمم المتحدة ؟

ان مشكلة القات تفتقر الى دراسة جدية .. والشعب اليمنى يجهل كل شيء عن هذا العدو الخفى الذى يصيبه بأفدح الأضرار .. وقالوا لنا : « لقد قامت الأمم المتحدة بعمل دراسة شاملة عن القات ، ولكن هذه الدراسة ما زالت طي الكتمان ، لم يعلن عنها رغم مضي ٦ سنوات على اتمامها ..

والتجهنا الى مكتب الامم المتحدة في صنعاء ، انه ما زال ينفض عنه غبار اهمال عشر سنوات ، فشل خلالها في عمل اى شيء صالح لليمن ، حتى اضطرت الادارة العامة في نيويورك الى تغيير كل الاداريين والفنيين العاملين بمكتبها باليمن .

وسألنا المدير الجديد النشيط عن التقرير الذى اعدته المنظمة الدولية ، وفوجيء الرجل ، وضغط على الازرار التى امامه وسأل معاونيه عن هـذا التقرير ، فوعدوا بالبحث عنه .

ولم تكن هناك الا صورة فوتوغرافية عن النسخة الاصلية ، اضطررنا الى دفع أجر اضافي للسكرتيرة التى قامت بنسخ صورة خاصة من هذا التقرير المكون من ١٩ صفحة فولسكاب ..

عصبة الأمم تهتم بالقات

ويرى هذا التقرير في احد فصوله مدى اهتمام الامم المتحدة بالقات فيقول :

يرجع الاهتمام الدولى بالقات الى ما قبل انشاء الامم المتحدة .. ففى عام ١٩٣٥ بـدأت اللجنة الاستشارية لعصبة الامم باول دراسة عن القات .. ولكنها لم تسفر عن اى نتيجة .. وظلت مشكلة القات تعانى من التأجيلات حتى اوصت اللجنة الخاصة بمكافحة المخدرات ، هيئة الصحة العالمية بالقيام بدراسة طبية عن التأثير الطبى لعادة ادمان مضغ أوراق القات ..

وقامت هيئة الصحة العالمية بعد ذلك مباشرة بالعمل ، وقد اتضح لها ان عزل العنصر الفعال يجب القيام به قبل اجراء اى بحوث مخبرية أو بحوث معملية على الخواص الطبية الاقرباذينية لهذا المخدر ، وقد تبين ان عملية التحليل والفصل الكيميائي عملية صعبة للغايـة استهلكت وقتـا اكثر بكثير مما كان مقدرا لها .

دول تحارب القات .. ودول تسمح به

وظلت الاتصالات الطويلة المملة تدور في الأمم المتحـدة ، وجـاءت التقـارير تفيد أن عـدن والصومال البريطانى رفعـا الحظر على استيراد القات ، وأن المملكة العربية السعودية أصـدرت قرارا سنة ١٩٥٨ يقضى بمنع زراعة أو استعمال القات . كما قامت حكومة الحبشة بتقديم تقرير تقول فيه ان تأثير القات لا يدخل تحت المواصفات التى يمكن أن يطلق عليها لفظ ادمان المخدرات .. وانه نتيجة لهذا لا يوجد سبب لمنع أو تحديد زراعة القات في الحبشة .

وقدمت حكومة اليمن تقريرا في ذلك الوقت (١٩٥٨) قالت فيه ان القات ليس مخدرا !! .

حتى من اسرائيل تلقت اللجنة تقريرا يفيد أن القات يزرع في كل القرى الفلسطينية المحتلة ، التي توجد بها اغلبيـــة من المهاجـرين اليمنيين اليهود !! .

اما السودان فعندما بدأ القات يرد اليه عام ١٩٥٧ قامت الحكومة باصدار القوانين لمنع زراعته او استعماله . وفي المغرب اضيفت أوراق القـات ومستحضراته على جدول العقاقير المخدرة ..

وفي عام ١٩٥٨ أضافت مصر القات على لائحة النباتات الممنوع زراعتها بالبلاد .

مشكلة في عدن والسبب : القات !

من هذه النظرة السريعة على تقرير الأمم المتحدة يتضح لنا ان مشكلة القات ليست مشكلة اليمن بمفردها ، وانما هناك دول أخرى مرتبطة معها .. وخاصة منطقة عدن وامارات الجنوب العربى في ذلك الوقت .. ففى عدن يقبل الناس على مضغ وتخزين القات بشراهة زائدة ، وعندما الغت السلطات البريطانية بجرة قلم ، استيراد القات الى عدن ، انطلق الناس من عدن هاربين الى لحج ودار سعد لشراء القات ومضـغه هناك .. وحدثت ازمة في اليد العاملة في عدن ، مما اضطر سلطات الاحتلال الى الغاء قانون منع استـيراد القات بعد سنة واحدة من صدوره !! .

في سوق القات

وبيع القات الطازج في المدن لا يبدأ قبل الساعة ١٢ ظهرا .. وعند حلول هذه السـاعة يهرب الموظف من مقر عمله الحكومي ، ويتجه الى سوق القات تاركا شاله الطـويل الاحمر على المكتب للتأكيد بانه عائد ! وفي سوق القات المكتظ بالناس، تبدأ عملية الاختيار ، لان القات انـواع عديدة تختلف من بلدة الى اخرى،ففي تعز نجد العوارض والنشر والجدة والبرح والمثنى والصبرى .. وفي صنعاء نجد القرية والضلاعي والهمداني والحرازى والسوطى وهو النوع الردىء . ويبدأ متعاطى القات في اختيار النوع المناسب ، يمسك بالربطة وينظر الى اوراقها .. هذه طيبة ، وتلك يابسة .. هذه من قرية حابل وتلك من وادى ظهر .. وبعد ان تتم عملية الاختيار تبدأ المساومة مع البائع ،



الى اليسار : احدى بنات جبل صبر تقوم بقطف الاوراق الطرية من شجرة القـات الكبيرة .. انها شجرة تجدد أوراقها طوال ايام السنة ، لهذا لا يتوقف تخزين القات أبدا ..

الى أسفل : يختلف شكل جلسات القات من منطقة الى أخرى ففي المدن يجلسـون على المراتب والبسط المفروشة على الارض، بينما في القرى يجلسون على المقاعـد الخشبية العالية .. وترى في الصورة القائم على خدمة مخزني القات ، يقدم للضيوف حزم أوراق القات ، وقد امتلات أفواه بعضهم بها ، بينما انهمك آخرون في تدخين « المداعة » أو النارجيلة ..





احد ابناء اليمن وقد حمل بيديه ربطتين من القات الطازج ثمن الواحدة منها ٩ ريالات يمنية، وهي تساوي دولارا ونصف دولار،انه يشتري القات قبل رغيف الخبز الخاص به ، وباطفاله.. والمطالب التي يطلبها المُخزّن من القات هي مطالب نفسية .. وجربنا مضغ وتخزين القات، فوجدناه مرّ المذاق ، وانتظرنا أن ينبه الفكر ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. وقالوا لنا : « ان تأثيره على الشخص المبتدئ، يختلف تماما عن تأثيره على الشخص المدمن عليه فهو يشحذ فكرنا،ويضاعف قدرتنا على العمل،ويجعلنا نحلق في أجواء عالم آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه».

ويشترك جميع الموجودين في الحديث ، فهذه الربطة بستة ريالات (أي دولار امريكي تقريبا) وتلك باربعة ، ويصل ثمن بعض الأنواع الممتازة الى ١٠ ريالات في الصيف ، ترتفع الى ١٥ ريالا في الشتاء .. ويكتفي احدهم بربطة واحدة بينما يشتري آخر خمس ربطات .. كل على حساب مقدرته ..

لتحريك الدورة الدموية !

وبعد أن يشتري المدمن ربطة القات يحملها الى منزله ويتركها هناك ، ثم يمر على مكتبه ليأخذ شاله الأحمر الذي تركه على مكتبه ويتوكل على الله ويبدأ بالسير على قدميه مسافة بضعة كيلومترات طويلة حتى يتصبب العرق منه .. اما في الشتاء فيذهب الى الحمام التركي ليأخذ حماما بخاريا ساخنا ويلف جسمه بالملابس الصوفية .. وعندما سألناهم عن سبب هذا ، أجابنا أحدهم باسلوب علمي : « هذه الحركة لا بد منها لتحريك الدورة الدموية حتى تصل الى غايتها ، وهدفنا من هذا هو الاقلال من المياه المخزونة داخل جسمنا ، حتى نلتذ بشرب المياه الباردة مع القات .. » .

« المنظر » و « المفرج »

وأثناء قيام الرجل بهذا المجهود الشاق تقوم المرأة باعداد الغرفة الخاصة بتخزين القات ..

لقد استطاع القات أن يؤثر على هندسة البناء في اليمن ، اذ يضم كل منزل في اعلاه غرفة خاصة مستطيلة الشكل ذات نوافذ كبيرة .. وفي الحائط نوافذ صغيرة مقفلة زجاجها ملون ، وتطل هذه النوافذ على منظر الوديان والجبال المحيطة بالمنزل. ويطلقون عليها : « المنظر » ..

وفي بعض الأحيان تكون هذه الغرفة في الطابق السفلي وتدعى «المفرج» ، وتطل نافذتها الزجاجية على مزروعات خضراء في وسطها نافورة مياه (شاذروان) .. كل هذا متعة لانظار الجالسين..

المداعة والكعدة !

وتفرش أرض هاتين الغرفتين بسجاد ملون ثمين ، وعلى جوانبها الاربعة توضع المراتب والفرش المتقابلة ، والمساند والمتكات الوثيرة وعلى الجدران تعلق المرايا الجميلة والادوات النحاسية ..

وفوق السجاد توضع صوان نحاسية كبيرة في وسطها « المداعة » التي تختلف عن الشيشة والنارجيلة العادية ، بارتفاعها وطول قصبتها الحمراء الذي يصل الى اربعة امتار ..

وامام كل جالس توضع « الكعدة » وهي آنية من الفخار تبخر بالبخور ثم توضع فيها المياه الباردة فيكون طعم الماء شهيا مقبولا .. وقد بدأت هذه « الكعدة » تندثر من الجلسات ، ويستعاض عنها بالثلاجات الصغيرة (الترموس) لحفظ الماء .

جلسة القات

وما تكاد الساعة تدق الثانية بعد الظهر ، حتى يبدأ الرجال في التوافد على الغرفة .. وفي كل حارة يجتمع أهل المنطقة عند الشخص الذي تتوافر لديه امكانيات جلسة التخزين .. وكذلك النساء يجتمعن عند احدى الصديقات لمضغ القات .. ويدخل كل رجل متأبطا ربطة القات والتبغ اللازم لنارجيلته .. وعندما يكتمل العدد تغلق الأبواب والنوافذ .. « لان القات لا يأتلف مع الهواء أو البرد » .. والويل لمن يفتح الباب ، فان اللعنات تنصب عليه ..

ويجلس الرجال متلاصقين دون فراغ بين الواحد والآخر خشية البرد .. وتبدأ جلسة التخزين بفك ربطة القات ورمي أربطتها الجافة على الأرض ، ثم يمسك الواحد بغصن القات ، ينتقي وريقاته الصغيرة ، واحدة بعد الأخرى ، انها هي التي تستعمل فقط ، يضعها في فمه ويلوكها ويمضغها تدريجيا بحركة رحوية ، ولكنه لا يبلعها ، وانما يخزنها في أحد شدقيه ..

وتظل الأوراق تدخل في الفم حتى تصبح كرة بحجم الجوزة ، تستقر داخل الشدق لا تتحرك ، وانما يرتشف المدمن الماء من الكعدة المبخرة امامه بلذة زائدة ، تظهر من الاصوات التي ترافق ابتلاعه لها .. والماء ضروري لانه يمر على الأوراق المخزونة في الفم ، فيأخذ عصارتها المرة القلوية معه الى المعدة .. وعندما تذوب الكرة المخزونة وتصبح اليافا يلفظها المدمن في « المدفل » النحاسي الموجود أمام كل منهم .. ثم يعاودون مضغ أوراق جديدة رطبة طرية ، حتى تنتهي جلسة القات ..

ربع كيلو سكر ونعناع

وبدلا من الماء أصبح بعضهم يشرب الكولا .. انها طراز جديد جاء من جنوب اليمن .. والكولا الداكنة السوداء هي المطلوبة فقط ، اما الشراب

في العدد القادم سننشر كلمة فيما يوجد في القات من عناصر فعالة وكذلك اثارها الطبية في الجسم .

البرتقالي فغير مرغوب فيه بالمرة ..

ويتندر أهل قرى اليمن على أهل المدن بقولهم : « هؤلاء ما عندهم ذوق في تخزين القات » والسبب ان القروى يتناول ربع كيلو سكر ، ويشرب النعناع الساخن اثناء تخزينه للقات من الصباح الى المساء ..

حالة المدن

وطلبنا من احد كبار المواطنين أن يصف لنا شعوره اثناء تخزينه للقات ، فقال :

« عندما اتناول القات اشعر بانسجام نفسي واسترخاء عصبي وبلورة فكرية ، ونشاط في جسمي ، فبعد ان كنت اتثاءب والخمول يسيطر على جسمي وفكرى ، انحول الى شخص كله انتعاش وصفاء ذهن فاتذكر ما كنت قد نسيته سابقا فانشد الشعر واتبادل النكات وتستمر هذه النشوة طيلة الوقت الذى اخزن فيه القات في فمي .. وقبل انتهاء جلسة القات اى قرب السابعة مساء ، اشعر بقلق نفساني ينتابني وينتاب جميع الجالسين معي في المجلس فيخيم علينا صمت وشرود ذهني ووجوم ، فنشرب القشر (اى القهوة المصنوعة من قشر البن) لنزيل هذا القلق الذى انتابنا . واحاول تحليل هذا الخوف هل هو رد فعل النشوة التي عشتها ؟ أم الحزن على انفضاض هذا المجتمع اللطيف الذى احبه ؟ واخرج من الجلسة والنشاط يدب في جسمي ، ولكني لا استطيع تناول العشاء اذ اشعر دائما بالشبع وبانقباض في معدتي .. ويطير النوم من عيني واسرح بفكرى وحواسي ، وتنتابني الافكار السوداء ، فاضطر لتعاطي الخمر حتى « اقطع » تاثير القات ، واستطيع النوم .. وفي صباح اليوم الثاني استيقظ بكل تعب ولا اجد في نفسي قابلية للعمل ، احيانا اصاب بامساك واحيانا اسهال شديد .. لهذا اعاود شراء القات لاتخلص من هذه المتاعب !! .

وزارات بعمر الدخان !

وتتحول جلسة القات الى ندوة أدبية أو سياسية أو دينية ، تختلط فيها اصوات المخزنين بكركرة مياه المداعة (النارجيلة) التي ينطلق منها دخان كثيف يملأ جو الغرفة ..

ويتحدث الجالسون في مختلف الموضوعات اذ يبدو أن تخزين القات يشحذ افكارهم بشكل يجعل الواحد منهم يعتقد انه هو الذى صعد الى القمر بالصاروخ . وكم من مرة الف المخزنون الوزارات تلو الوزارات .. وما يكاد ينقشع دخان المداعة حتى ينتهي عمر الوزارة !! ؟

نقد ذاتي قاس

ويحظى الحديث عن القات ، باهتمام المخزنين ، وفي احدى الجلسات رأينا احدهم وقد امتلأ فمه باوراق القات يقول : « ما من شك انه يجب علينا ايجاد وسيلة للقضاء على هذا القات اللعين ! » ويقهقه الحاضرون .. ويقول ثان : « هل سمعتم بهذه الابيات التي تذم القات وتسب متعاطيه :

انما القات حشيش أخضر
ليس يحتاج اليه البشر
فاذا مالت اليه فئة
فاعذروهم انما هم بقر

ويضحك المجتمعون طويلا .. ثم يتابع احدهم الكلام بقوله : « هل طالعتم ما ذكرته جريدتنا الاخبار عن القات » .. ويفتح الجريدة على صفحة تحمل عنوانا كبيرا يقول : « القات مشكلة اليمن الكبرى » ، ويبدا بقراءة هذه الفقرة :

« القات هو العامل الاول في تاخر الشعب اليمني وتخلفه المخجل المشين ، كيف لا وقد خدر القات اعصابنا فتصلبت .. وافكارنا فتبلدت ، حتى اصبحنا دون العالمين ، احياء امواتا نسمع ونبصر ونتكلم ، ولكن لا نحس ولا نتالم .. ولا نثار ولا ننتقم .. ولا نفكر ولا نشعر .. تزلزل الدنيا ونحن نيام .. ويتغير وجه الكرة الارضية ونحن نعيش على هامش الحياة ، لا نتحرك ولا نشارك ولا نتجاوب مع احد ، كاننا من فصيلة اخرى غير فصيلة الانسان .. » .

لا تقارنوه بالحشيش والافيون

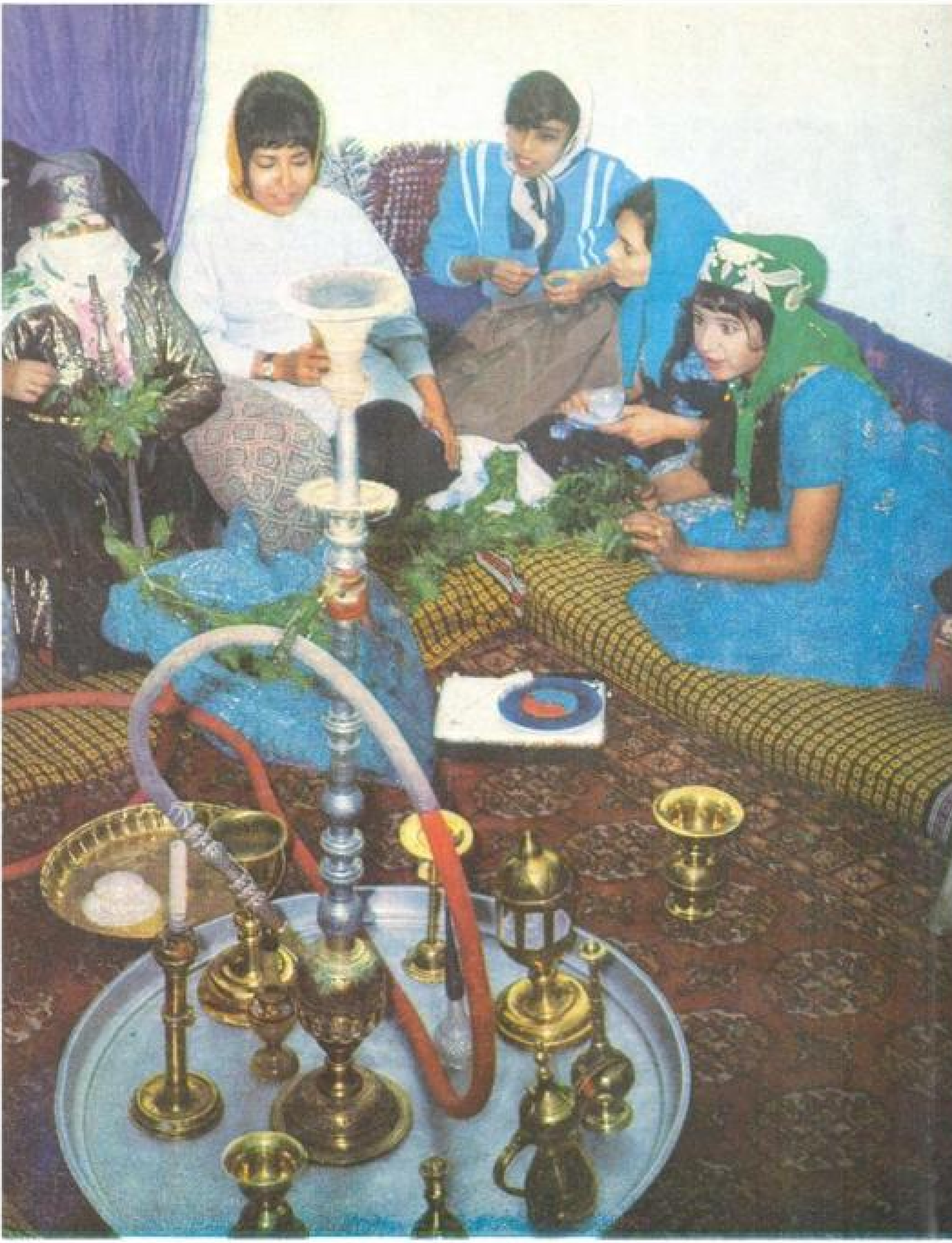
هذا النقد الذاتي القاسي ، ردده امامنا عدد كبير من مدمني القات ..



الى اليمين : رجلان يرقصان سويا في جلسة بعد أن انتشيا بالطرب والقات .. انهما لا يرقصان تصنعا ، وانما بأصالة وبراعة . وقد قالوا لنا ان ٩٨٪ من رجال صنعاء يجيدون الرقص الشعبي .

الى أسفل : لحظة الوجوم والتراخي بعد انتهاء مضغ القات ، وقد تناثرت على أرض الحجرة بقايا أغصان القات واللفائف الجافة التي يلف بها ..





اول صورة تنشر لجلسة قات نسائية .. فبينما الرجال يمضغون القات ويخزنونه ، تجلس النساء في غرفة أخرى يقمن بنفس العملية .. والمرأة تخزن بكميات اقل من الرجل .. ولكنها تستعمل المداعة مثله تماما . وتتزوج الفتاة بين ١٣ و ١٥ سنة ، وبعدها يحق لها الذهاب الى جلسات القات ، فتجلس الساعات الطوال مهملة منزلها واطفالها ، الذين بلغت نسبة الوفيات بينهم الى ٥٠٪ من فرط الاهمال الزائد لهؤلاء المواليد الجدد .. انه احدى لعنات القات !

وفي آخر جلسة قات سألونا عن رأينا في حل مشكلة القات ، بعد أن عشنا معهم ١٥ يوما قلنا :

ـ ظلمنا القات عندما ظننا انه في مرتبة الحشيش والافيون ، لأنه كما وصفته هيئة الصحة العالمية : « يثير ـ على ما يظهر ـ شعورا بالصداقة ، فلا هو بالذي يعزل المدمن عليه عن الناس ، كما يفعل الافيون ، ولا هو بالذي يدفعه الى عالم زاخر بتهاويل الخيال كما يفعل الحشيش » .

والواقع أن مشكلة القات ما هي الا واحدة من مجموعة مشاكل مجتمع ظل يعيش منغلقا منعزلا عن العالم مئات السنين .. ولهذا لا يمكننا ان نفصل او نحل مشكلة القات بمفردها ، ما لم نحل ـ ولو جزئيا ـ بعض المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصحية التي يعانيها اليمن ..

« ان الحياة الاجتماعية التي يحياها اليمن حياة قاسية ، والأدب الجم الذى تفرضه عليه التقاليد كثيرا ما يخفي وراءه أخطر العواصف والشكوك ، لهذا نرى أن القات يساعده على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الناس ، وهذه العلاقات جمة النفع له ، في بلاد ما أكثر ما تنعقد فيها الصفقات على أساس من شخصيات المتعاقدين ، وتحطم فيها العلاقات الشخصية قيود الرسميات .. » .

انقاذ الجيل الجديد

والذى لاحظناه ان تعود الرجل اليمني على تخزين القات ، بلغ درجة من الادمان، لم يعد يجدى معها اى نصح في سبيل الاصلاح ، لهذا لا بد من توجيه الجهد ـ كل الجهد ـ لتوعية الجيل الجديد وترك الجيل القديم على حالته .. لا بد من ايجاد وسيلة لابعاد النشء الجديد عن مجالس القات بانشاء الاندية وفتح المعاهد واقامة المباريات والمسابقات ، لشغل وقت فراغه الطويل الممل .

والى جانب توعية الشباب يجب تنمية وتشجيع زراعات جديدة مربحة مثل البن والفواكه، لتزاحم زراعة القات على المدى البعيد ..

رجل بخيل

والمشكل في القات ان كل الطبقات تمضغه وتخزنه ـ كما قلنا ـ وهذا يجعل علاجه صعبا ، لانه حتى المهاجرون العائدون الى بلادهم بعد هجرة طويلة ، يرتعبون من تدهور مجتمع بلادهم ، فيحاولون الاصلاح ، ولكن سرعان ما تجدهم قد اشتركوا في جلسات القات ! .

والسبب هو أن أهل اليمن يعتقدون أن الذى لا يخزن القات هو رجل بخيل وغير مكتمل الرجولة !! .

وعندما يحاول احدهم اصلاح هذا الوضع الشاذ يتعرض لهجوم صاعق ، ويردد القوم قول شاعرهم :

يا عاذلي عن حصول القات مت كمدا
لا نترك القات أحياء وامواتا

تحايل على قانون السماء

حتى الناحية الدينية استطاع القات ان يؤثر عليها ، وفي هذا يقول القاضي والمفكر اليمني الكبير المرحوم محمد محمود الزبيرى :

« لقد وجد اليمنيون مآربهم في المذهب الزيدى الذى يسود المناطق الجبلية العليا ، وهذا المذهب يجيز بعض أئمته الجمع بين صلاتي الظهر والعصر ، فيقدمونهما قبل جلسة القات، أما المغرب والعشاء فيؤخرونهما الى اى ساعة يشاءون ! .

وهكذا يتحايل اليمنيون على قانون السماء ، كما تحايلوا على قانون الارض ، اذعانا لسلطان الشجرة الشيطانية العاتية ! .. »

مطلوب اسلوب جديد في معالجة المشكلة

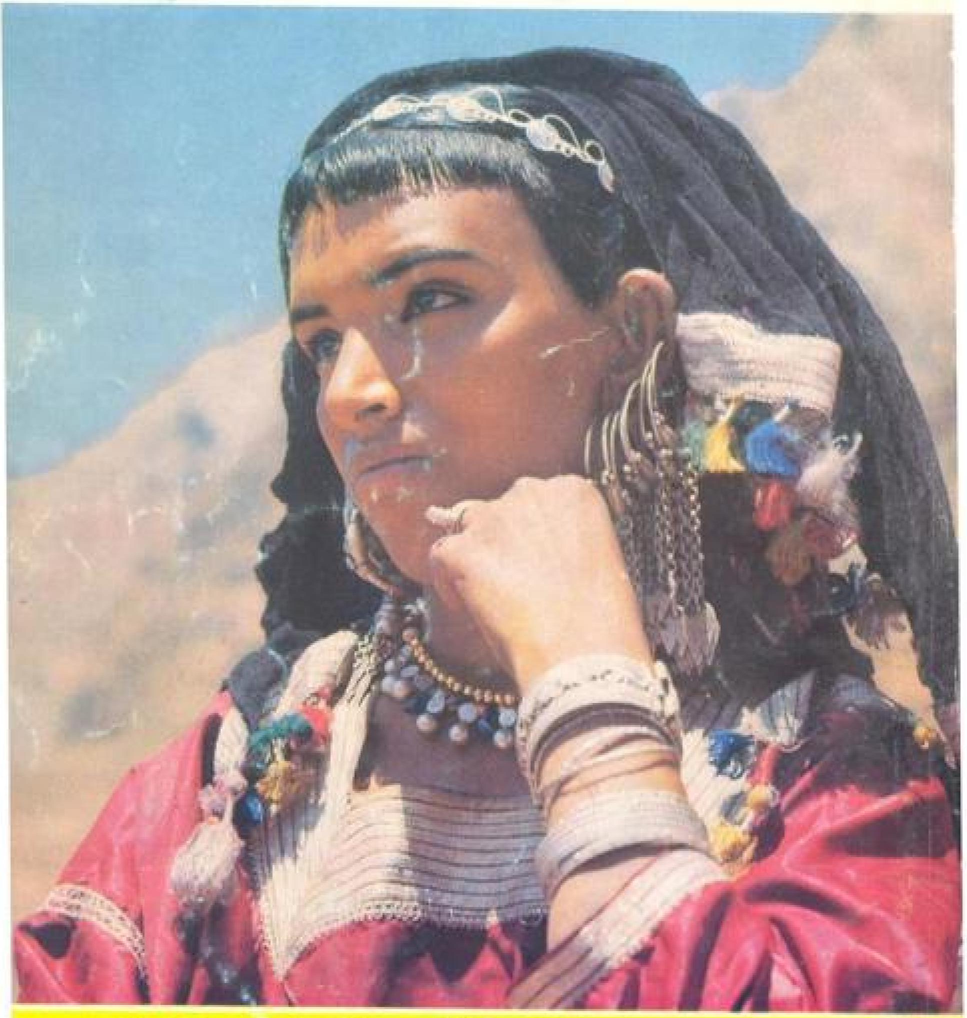
ان القضاء على القات يحتاج الى جهود كبيرة مشتركة لمعالجته باسلوب حديث ، وتحت اضواء ساطعة وعقليات متفهمة متفتحة . تنقص كثيرا في اليمن .. لأن مجتمعهم البشرى تنعدم فيه مسئولية الفرد .. فالجميع يجلسون يتطلعون ويتفرجون دون أن يتحركوا .. انه مجتمع مرتكز على العصبيات العائلية والتكتلات القبلية الى جانب النعرات الطائفية والعنصرية ..

انها تركة مثقلة بالمتاعب ورثها العهد الحاضر من العهود السابقة ، ولهذا اطلق القاضي الفاضل عبد الرحمن الايرياني رئيس المجلس الجمهورى اليمني شعارا جديدا في اليمن .. « الاعتماد على النفس ، والصدق مع النفس » .. انه الخطوة الأولى في الطريق الطويل للقضاء على مشاكل اليمن .. وفي مقدمتها مشكلة القات .. ■■

سليم زبال

العربي

العدد ١٥٢
جمادى الأولى ١٣٩١
يوليو
(تموز) ١٩٧١



انا من سقطرى .. هل تعرفون جزيرتي هذه ؟

جوائز
١٢٠٠
دينار سنويا

الثمن

الكويت	١١٠ فلوس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان	١٠ قروش
الخليج العربي	١ ريال	لبنان	١٠٠ قرش	ليبيا	١٥ قرش
السعودية	١ ريال	الاردن	١٠٠ فلس	تونس	٢٠٠ مليم
البحرين	٢٠٠ فلس	سورية	١٠٠ قرش	الجزائر	٢٠٠ مليم

اعرف وطنك أيها العربي

سُقُطْرَى

تحسبها جزيرة أهل الكهف!

- قوم من العصر الحجري يعيشون في القرن العشرين
- سقطري ليست لأحد بقاعدة حربية
- جزيرة الصبر وسمك القرش تحاول أن تستيقظ من نوم طال



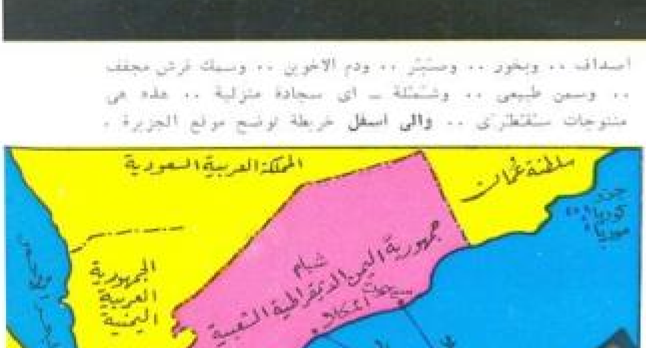
تنقسم الحياة في سقطري الى قسمين : حياة في وسط الجبال على مستوى بدائي .. وحياة اكثر تقدما على السواحل .. والمرأة في كلا الحالتين تميل الى استعمال الالوان الصارخة في ملبسها ..

استطلاع
سليم زبال

تصوير
اوسكار متري



اصداف .. وبخور .. وصنبر .. ودم الاخوين .. وسمك قرش مجفف .. وسمن طبيعي .. وشملة ـ اي سجادة منزلية .. هذه هي منتوجات سقطرى .. **والى اسفل** خريطة توضح موقع الجزيرة .



■ عندما انطلقت بنا الطائرة هذه المرة ، اندفعت في رحلة غريبة .. رحلة الى الوراء .. الى الماضي السحيق .. !

كانت رحلتنا هذه ، هي « رحلة الرحلات » انتقلنا خلالها الى اكبر جزر وطننا العربي التي تنام منسية مهملة ، وسط مياه المحيط الهندي الدافئة ..

لقد بقيت جزيرة سُقطرى على ما كانت عليه لم تتبدل او تتغير ، رغم تبدل العالم من حولها ..!

وكأنها هي التي عناها احمد شوقي بقوله :

تكاد لاغراقها في الجمود
اذا الارض دارت بها لم تدر

بعض اهلها مازال يعيش في كهوف سحيقة حفرتها الطبيعة في بطون جبالها .. وعلى سواحلها ترتفع اكواخ صنعوها من الاصداف وقواقع البحر وسعف النخيل !

حياتهم قاسية مؤلمة ..
اذا مرضوا كووا اجسادهم بالنار ..
واذا اقتحمت الذبابة الاستوائية افواههم ، سارعوا بابتلاع كمية من الجاز اقتل بويضات هذه الذبابة !

واذا رمدت عيونهم قطروا من سائل لزج ينساب من احدى الاشجار الغريبة التي تعج بها الجزيرة !

ما هذا .. ؟ .. واى حياة تلك .. واى نوع من البشر هؤلاء الذين يعيشون اليوم في القرن العشرين على هذا الاسلوب القديم ؟ اين هم .. ومن هم ؟

انهم عرب مثلنا .. ومع هذا مازالوا يعيشون باسلوب وتفكير اجدادهم .. هم .. هم .. لم يتبدلوا منذ آلاف السنين ..

ولكن مهلا .. ولنبدأ القصة من اولها ..

طائرة حربية خاصة

حاولنا مرارا سابقة الوصول الى جزيرة سُقطرى ولكن انعدام المواصلات اليها ، كان يقف دائما عقبة في سبيل تحقيق امنيتنا ..

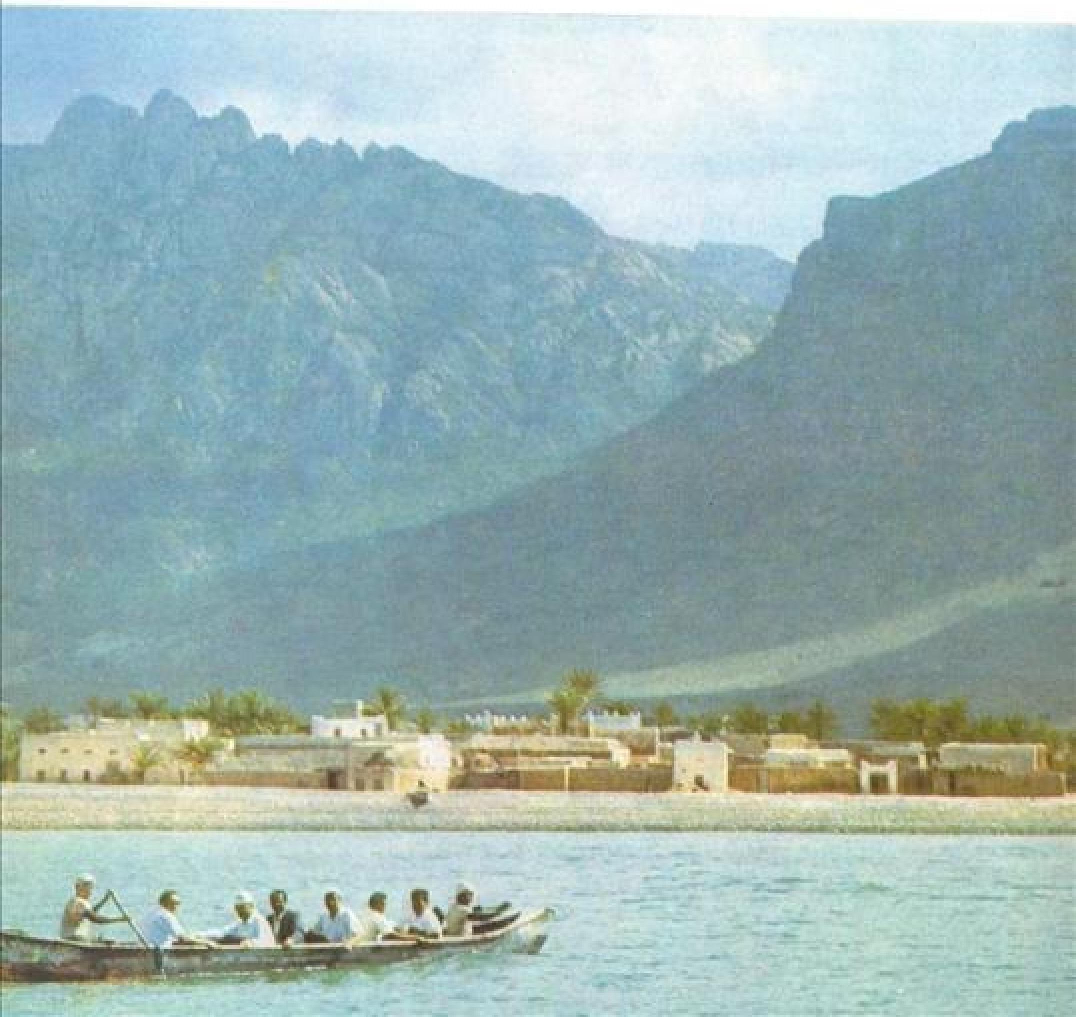
لا توجد خطوط بحرية .. ولا خطوط جوية

ساحل قلنسية .. روعة ما بعدها روعة .. تظللها جبال لبنا وسَمرهَر .. ولكن هذا الهدوء ينقلب الى عواصف وامواج هائلة، ابتداء من شهر مايو حتى اكتوبر من كل عام.. فتختفي المراكب وتتوقف الحياة في الميناء الذي يعد اكبر موانيء الجزيرة



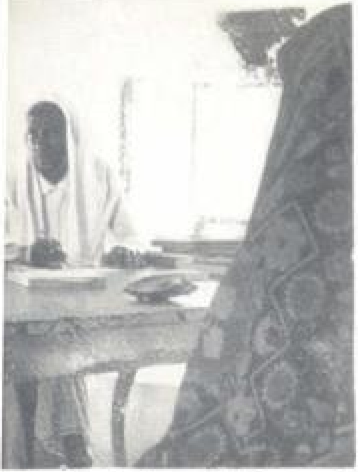


الى اليسار : في كل ليلة تدق الطبول ، ويتلاعب الزمار بأنغام مزماره .. وتتجمع امواج من البشر يرقصون ويرمثون.. بينما نفس اللحن والكلمات تتكرر وكلها حنين وشوق لرؤية عدن .. ان أهل سقطرى يهربون من واقعهم الاليم الى عالم خيالي سعيد ، كله غناء وطرب ورقص !





الشارع الرئيسي في حديبو العاصمة .. واغلب منازلها من طابق واحد ، ليس بها شبابيك وانما ثقوب في الحائط .. لاحظ زى الاهالى : فوطة وفوقها قميص،اما البنطلون فيرتديه القادمون من عدن.



اشتهرت سقطرى بجمال نسائها ودلالهن اطفال ، كما ان زواج الكهول من الفتيات والرجل السقطرى رجل مزواج ، يتزوج مرة حتى الان .. اما الزواج من ١٥ الى الغريب ان السبب في هذا الزواج الكثير التى تأتى الى القاضى وتطلب منه ان يطلقها لا اريده » ونرى هنا كاتب المحكمة الشرعية قبل ان يحكم بالطلاق ..

وعند مصب اودية الجبال على الساحل الضيق ترتفع المدن الصغيرة ، انها قرى ومراكز .. اكبرها : حديبو عاصمة الجزيرة .. تليها قلنسية وقاضيب ..

اختلاف فى العدد وفى الاسم !

ويقدرون عدد سكان الجزيرة بنحو ٢٥ الف نسمة ، ولكن الاهالى يحتجون على هذا التقدير ويقولون : « ان عددنا اكثر من ٦٠ الف نسمة » ..

ولا يمكننا تحديد الرقم الصحيح ، لانه لا يوجد احصاء رسمي لعدد السكان ..

وكما احتار الكتاب والمؤرخون فى تقدير عدد سكان الجزيرة ، كذلك اختلفوا فى طريقة كتابة اسمها ، كل منهم يكتبه بصورة مختلفة عن الاخر .. فالزبيدى صاحب تاج العروس ذكر اربعة اشكال لكتابة الاسم مرة : سُقُطْرَى (بضم اوله وثانيه وسكون طائه وفتح رائه والف مقصورة) .. ومرة اضاف لها الالف المضمومة فجعلها : (أُسْقُطْرَى) .. وثالثة كتبها كما يكتبها اهلها : (سكوترة) .. ومرة رابعة كما يكتبها العامة : (سقوطرة) ولكن « الهمدانى » صاحب « صفة جزيرة العرب » ، وياقوت الحموى صاحب « معجم البلدان » ، اتفقا على كتابتها : سُقُطْرَى ..

واختلف ابو الفداء صاحب تقويم البلدان عنهما ، فكتبها : سقوطرة .. كما قال الزبيدى فى احدى رواياته .

اما دائرة المعارف الاسلامية فقد افردت عدة صفحات تحدثت فيها عن الاسماء القديمة للجزيرة، فذكرت ان اليونانيين عرفوها قديما باسم جزيرة ديوسقوريدس ، وجزيرة ملك بلاد اللبان .. وذكرت « ان اسم سقطرى مشتق من كلمتين باللغة السنسكريتية ، هما : « دفيبا سخترا » اى الجزيرة السعيدة » ..

ولكن هناك تعليلا آخر يقول ان الاسم مشتق من كلمتين عربيتين هما « سوق القطرة » .. والقطرة هنا هي السوائل التى تنساب من الاشجار الكثيرة المتناثرة فى الجبال ..

مطلوب يد ساحرة مخلصة

والحديث عن اصول الاسم واختلاف طريقة كتابته ، حديث طويل ليس هنا مجال الافاضة

اميال من العذاب

ولم تطل فرحتنا كثيرا فقد تركتنا الطائرة كاليتامى في الصحراء .. يحيط بنا مجموعة من اهل البلاد يرتدون الفوطة الملونة ، وصدرهم عار لفحته الشمس .. ومعهم حماران صغيران ..

وكان علينا مواجهة « المرحلة الثانية » بعد وصولنا الى « مطار كورى » .. كان علينا ان نصل الى حديبو العاصمة .. وقالوا لنا : « انها على مسافة ٧ اميال من المطار .. » ولكنها سبعة اميال من العذاب : جبال وعرة ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم ليس فيها اى ممر او طريق .. عليك ان تتسلقها لتصل الى العاصمة ، ومن خلفك قافلة الجمال التى تحمل امتعتك .. وكم من مرة تدحرجت الجمال المسكينة بين صخور هذه الجبال : جبال الحيباق ، فماتت من الآلام لاستحالة انقاذها ..

وهذا الطريق الجبلى لا بد لك ان تتسلقه اذا قصدت الجزيرة ابتداء من شهر مايو حتى نهاية سبتمبر .. انه موسم الاعاصير والانواء التى تجعل مياه المحيط متلاطمة متعالية .. اما اذا قصدت الجزيرة في غير هذه الشهور فيمكنك الاتجاه من المطار الى البحر لمدة ساعتين سيرا على الاقدام ، حتى تصل الى شاطىء راس كرما ، وتستقل من هناك مركبا يكون في انتظارك بعد اتفاق مسبق .

اهل سقطرى فى فيينا !

وشاهدنا المركب الخشبي الكبير الذى سينقلنا الى حديبو العاصمة ، يقف على مسافة ٢٠٠ متر من الشاطىء ، فاستعنا بقوارب الاهالى الصغيرة « الهورى » تحمل امتعتنا الى المركب الكبير ، ثم تعود لتحملنا بدورنا الى المركب .. الذى انطلق يقطع مسافة السبعة اميال التى تفصلنا من العاصمة ..

وحاولنا التحدث الى البحارة ، فوجدناهم يتحدثون العربية بصعوبة ، ولكنهم يتحدثون فيما بينهم بلهجة غريبة هى اللهجة السقطرية ، المشتقة من اللغة المهرية .

وكم من كتاب صدر عن اللغات واللهجات المَهرية والشِحْرية والسُقطْرية .. ولكنها كلها كتب لكتاب اجانب ، اصدروها من باريس وفيينا وليبزج وموسكو .. وقد وصل الامر باكاديمية العلوم بفيينا ، عاصمة النمسا ، ان ارسلت بعثة علمية الى اليمن لجمع النصوص عن اللهجات اليمنية .. ولم تكتف بهذا بل عمدت الى نقل



جميع اهالى سقطرى مسلمون شافعيون .. ومساجدها منتشرة في المدن والداخل ، ولكن مسجدين فقط لهما مآذن : واحد في حديبو والثاني في قلنسية (وهو الظاهر في الصورة) .

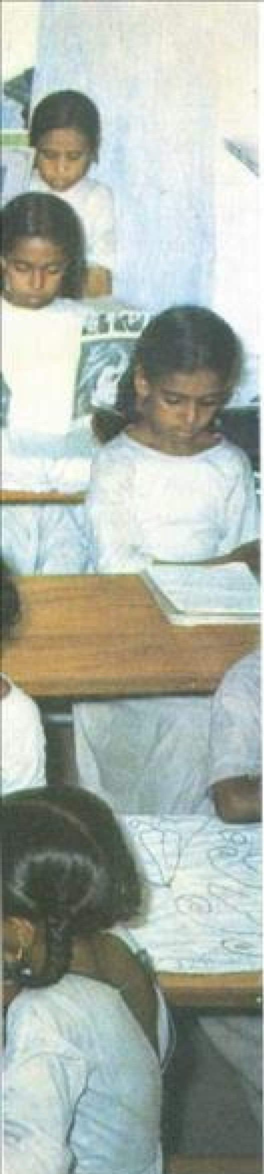
بعض اهل البلد نفسها الى فيينا لدراسة لهجتهم عن قرب !! .. فاين نحن من كل هذا ؟

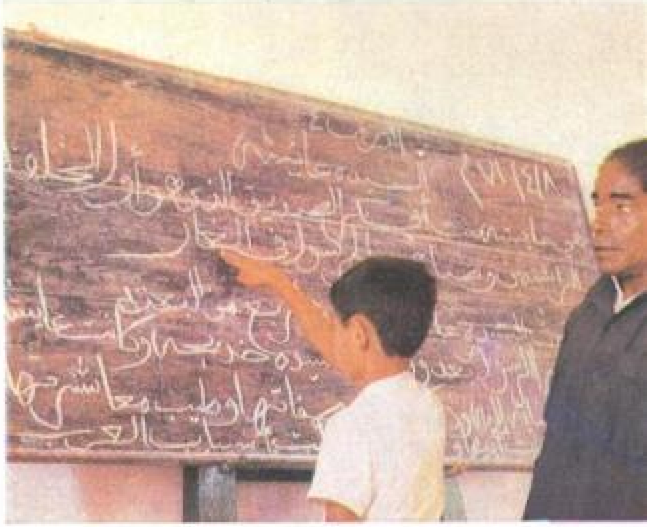
لغة فى طريقها للفناء

وقد حاولنا ان نجمع بعض النماذج من اللغة السقطرية ، فهالنا الاختلاف الكبير في نطقها ، والتضارب في الفاظها . انها لغة في طريقها الى الموت ، لانها لا تكتب ولا تقرأ ، فهى لغة تخاطب فقط .

فمثلا سألنا احدهم ان يذكر لنا الارقام بالسقطرية ، فقال : طاد .. تِرْ٢ .. ثلاثة .. اربعة والباقى مثل الارقام العربية ..

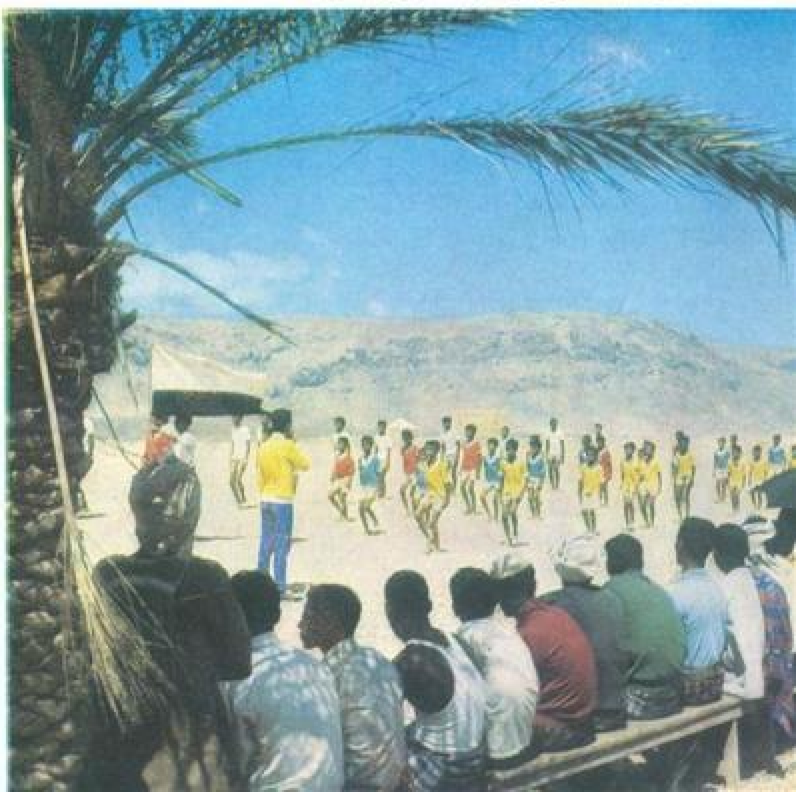
وسألنا مدرسا محليا ان يذكر لنا الارقام بالسقطرية فقال : طاط ــ تيراه ــ ثِلِيه° ــ اوربع



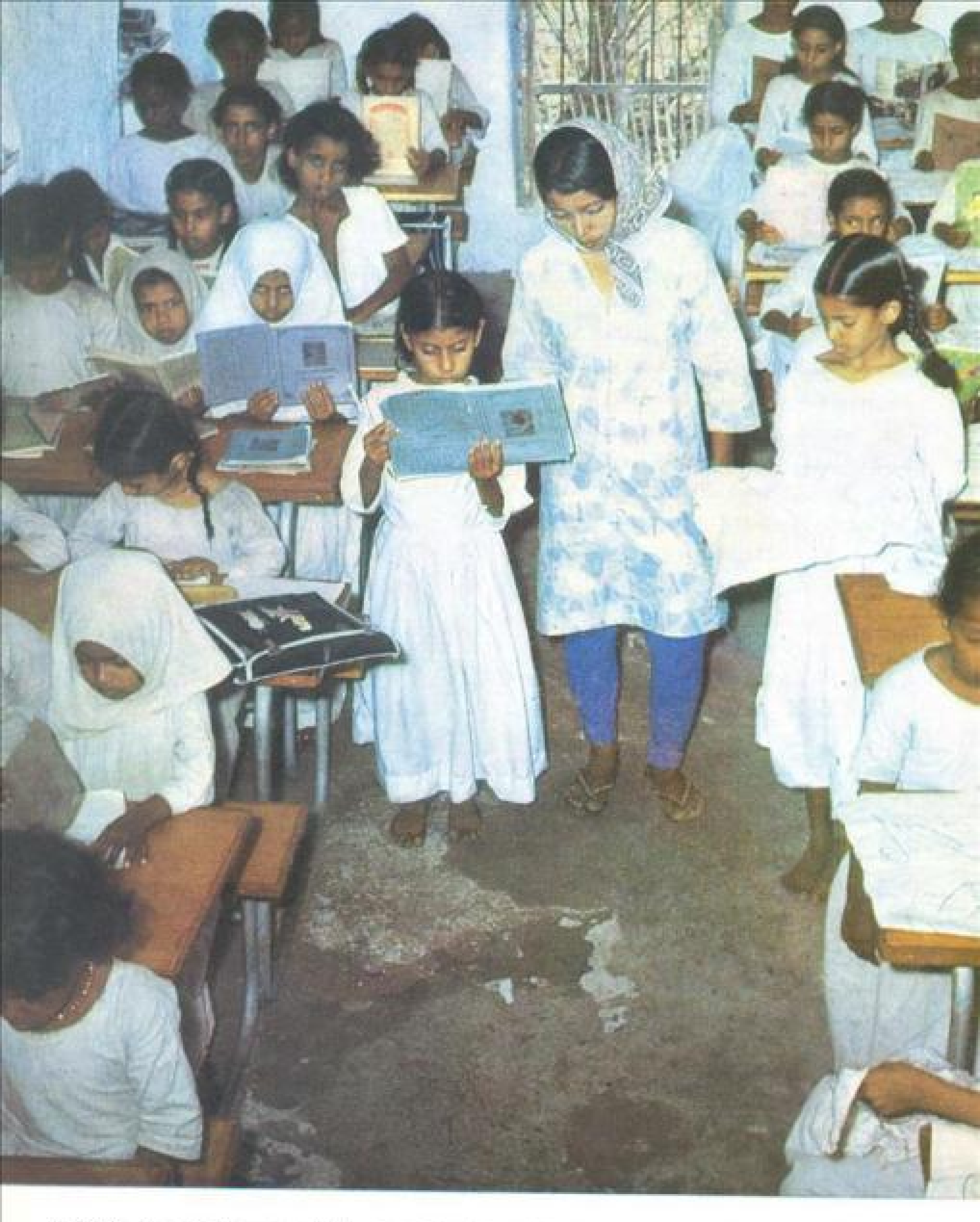


درس ديني عن السيدة عائشة ، كتبه الاستاذ « صلاح » على السبورة ، حتى يحفظه التلاميذ .. لانه لا يوجد في مدرسة حديبو كتب دين او جغرافيا او طبيعة او تاريخ او حساب !!

الى اسفل : اهالي قلنسية يشهدون استعراضا رياضيا رائعا يقوم به ابناؤهم الطلبة ، تحت اشراف استاذهم المثقافي احمد عيسى غانم المتخرج من ثانوية الشويخ بالكويت .



صفقوا معنا لهذه المعلمة



لعبت المرأة دورا تاريخيا مشهودا في تاريخ سقطرى ،فقد ذكرت كتب التاريخ قصة « **زهرة السقطرية** » تلك المرأة التي استغاثت في قصيدة طويلة بامام عمان لانقاذ سقطرى من الاحتلال الاجنبي فهزت بقصيدتها مشاعر الامام وجعلته يحرك جيوشه الى الجزيرة .. اما اليوم فان حفيدات « زهرة السقطرية » الشاعرة اصبحن جاهلات اميات يؤمن بالخرافات والخزعبلات .. حتى كان عام ١٩٦٩ عندما افتتحت الحكومة اول مدرسة لتعليم البنات .. ومر عام وزاد عدد الفصول فاصبح فصلين ، ولكن عدد المعلمات ظل واحدة فقط هي : مريم على سالم حديث من عدن .. واسقط في يد المعلمة فلم تجد مخرجا الا وضع الفصلين – ٤١ تلميذة – في غرفة واحدة ، تحاول قدر الامكان تقسيم وقتها بينهما .. وتراها هنا تقف حائرة : عن يمينها طالبات الفصل الثاني ومن يسارها طالبات الفصل الاول .. ان الجزيرة تنتظر وصول المعلمة الثانية على احر من الجمر .. علما بانه لا توجد الا هذه المدرسة لتعليم البنات في الجزيرة كلها .



قبل وصولنا الى سقطرى بتسعة ايام فقط ، وصلت اول ممرضة الى الجزيرة .. سميرة على من عدن جاءت لمعالجة نساء القرية .. ولكنها ليست مولدة ، والمشكل الاول امام المرأة السقطرية هو تعسر الولادة .. فهى تتزوج صغيرة ، وتموت صغيرة .. لعدم وجود طبيب في الجزيرة ! .

- حيمى - ستة - سبعة ثمانية - تسعة - عاثر - عاثر وطاط - عاثر وتراه - الخ ..

وانت تلحظ الفرق الكبير بين كلام الشخصين ..

هذه هى حديبو ..

ووصلت السفينة الى خليج حديبو .. وشاهدنا امامنا خطا رفيعا من المنازل البيضاء وسط مزارع النخيل .. ولم يستطع المركب الاقتراب من الساحل لضحالة مياهه ، فتكررت نفس القصة التى سبقت في راس الكرما ، ونزلنا الى حديبو مع امتعتنا في « الهورى » الصغير ..

.. الشمس عمودية ، والحرارة زائدة .. وعلى الشاطىء وقفت مجموعة كبيرة من الاهالى لتحية القادمين الجدد والسلام عليهم فردا فردا باليد ..

وسرنا بين منازل حديبو ذات الطابق الواحد اليتيم ، لقد بناها اصحابها حسب مزاجهم على ما يبدو ، اذ ليس فيها اى جمال هندسي او فني ، ثم اضافوا لها حدائق صغيرة احاطوها بسعف النخيل ، فزادت من بشاعة منظر المدينة ..

ومررنا بجامع حديبو الكبير ، الذى شيدوه في القرن الخامس عشر الميلادى ، انه في حالة يرثى لها من الاهمال .. وعلى مسافة قريبة من الجامع ساحة كبيرة واسعة هى المقبرة الوحيدة في المدينة يرتفع حولها مبنى قيادة الشرطة والمدرسة والمستوصف ..

واسترحنا في مبنى القيادة ١٩ شخصا جلسنا في غرفة واحدة ، وتناولنا طعاما شهيا على مائدة عبد الكريم محسن مأمور الجزيرة ، مكونا من خروف صغير مع تل من الارز !

رمثة حتى الصباح !

وبدات الشمس تميل للغروب فرحنا في سبات عميق ، كل منا يريح راسه على جسد زميله .. وبعد اغفاءة قصيرة استيقظنا على صوت الدفوف والطبول .. انها رقصة الرمثة الشعبية تنعقد كل ليلة في الجزيرة : غناء وتصفيق وطبل ومزمار وعرق وغبار .. وعندما يتعب الطبال يأتى شخص جديد مكانه .. وهكذا تركناهم يرمثون الى ما بعد منتصف الليل .. ورحنا في سبات عميق غير عابئين بالطبول او الدفوف ..

الخبز والكيك !

وحديبو ليس فيها شيء يستحق المشاهدة او الزيارة .. لا يوجد فيها كهرباء وبالتالى ليس فيها نقطة ماء بارد ، واهلها لا يعرفون الى الان ما هو الثلج ! .. وليس فيها حلاق للشعر ، ولا خياط ولا حداد .. حتى المتاجر معدومة الا تاجر واحد يبيع بالمقايضة للاهالى : يأخذ منهم الاصداف ودم الاخوين ، والصبر ، والبخور ، والزباد ، والسمن البلدى .. ويعطيهم الشاى والسكر و«صتقتص» (الارز المكسور) والهندى (الذرة الرفيعة) والسمن الصناعى .

وليس في سقطرى مخبز لصنع الخبز ، واهلها لا يعرفون كيفية صناعته ، ولا كيفية طبخ الطعام ، لهذا كان الطعام يأتينا من منازل الاستاذ صلاح وبقية المدرسين يرسلونه لنا مشكورين .. ولكن الخبز كان اشبه بقالب الكيك منه بالرغيف !

من المقايضة الى النقود

وقديما كان اهل الجزيرة ينتظرون السفن المارة بسواحلهم ليزوجوا فتياتهم الى البحارة ، مقابل كيس من الاكل والطعام ..

كان كل شيء يتم بالمقايضة ، حتى وصل الموظفون الحكوميون من عدن بعد الاستقلال ، فانتقلت معهم العملة النقدية والورقية .. ولكن تداولهما ما زال محدودا جدا .. ومن المحال ان تجد في الجزيرة كلها قطعا معدنية كافية لصرف دينار واحد !

وميزانية الجزيرة المعتمدة لهذه السنة هي ٢٥ الف دينار يمني جنوبي (الدينار يساوى جنيها استرلينيا) منها ٢٣ الف دينار مرتبات لـ ١١٦ موظفا وجنديا .. اى ان المبلغ المتبقى للنهوض بالجزيرة وتنفيذ مشاريع الاصلاح فيها لا يتعدى الفى دينار في السنة !!؟

مهنة في اليد خير من شهادة على الشجر !

ومن مدرسة حديبو الابتدائية ، بدأت تنطلق بعض الاضواء على الجزيرة .. كانت كتابا صغيرا لتحفيظ القرآن عام ١٩٦٣ فاصبحت اليوم مدرسة ابتدائية تضم ٥ مدرسين و ١٢٠ طالبا .. رغم ضئيل بالنسبة لعدد السكان ، ولكن ما زال الرجل السقطرى يرى ان مهنة في اليد خير من شهادة على الشجر ! .. لهذا تراه لا يحبذ كثيرا جلوس ابنه في حجرة قذرة مقفلة ليأخذ شهادة بعد سنوات .. ماذا سيفعل بها في سقطرى ؟ .. لا شيء..ان الرجولة هنا تكمن في الغوص العميق، واستخراج الصدف الكبير واللؤلؤ الثمين ،وصيد الاسماك ، وخاصة سمك القرش المفترس !!

صاحبة بالين

واتجهنا الى اول مدرسة لتعليم البنات .. فتحت ابوابها منذ عامين ، فزاد عدد فصولها من واحد الى اثنين .. ولكن المعلمات لم يزدن بنفس النسبة ، بل بقى العدد : معلمة واحدة .. تقوم بتعليم الفصل الثاني فقط ، وعندما يكون عندها فراغ تعلم الفصل الاول !!

لا يعرف القطار ولا اللمبة !

والواقع ان التعليم في سقطرى هو المخرج الوحيد لهذه الجزيرة من الظلام الذى يكتنفها .. ولكن يبدو ان وزارة التربية في عدن فتحت هذه المدارس ونسيتها ! نسيت ان ترسل لها الكتب ، فشهدنا الاستاذ يكتب الدرس على السبورة السوداء حتى ينقله الطالب ويحفظه وهو جالس على شط البحر .. اما وسائل الايضاح فهي معدومة .. رغم اهميتها القصوى .. فالطفل لا يعرف ما هو القطار او البطة ، وما هى اللمبة وما هو التلفاز !!

ورغم ان هناك اعتمادا في الميزانية لشغل



ظلت هذه السيارة الوحيدة تعمل بكل اخلاص حتى ساعة وصولنا الجزيرة ، وكأنها كانت تنتظر تسجيل صورتها قبل احالتها الى التقاعد .. ووسيلة المواصلات الشائعة في الجزيرة هى السير على الاقدام وفوق الجمال والحمير .. وكان الجنود البريطانيون قد بدأوا بشق بعض الطرق اثناء وجودهم في الجزيرة ، ما زالت آثارها باقية، مثل الطريق من المطار الى قلنسية .. كما وعدت هيئة الامم بالمساعدة في مد طريق من المطار الى حديبو ، ولكن لم يتم شيء بعد .. وفي عهد المأمور السابق شكيب محمد اسماعيل شقوا طريقا من حديبو حتى منطقة ريدا شرقا ، والامل كبير في تكملته،حتى منطقة نوجد في الجنوب (انظر الخريطة)

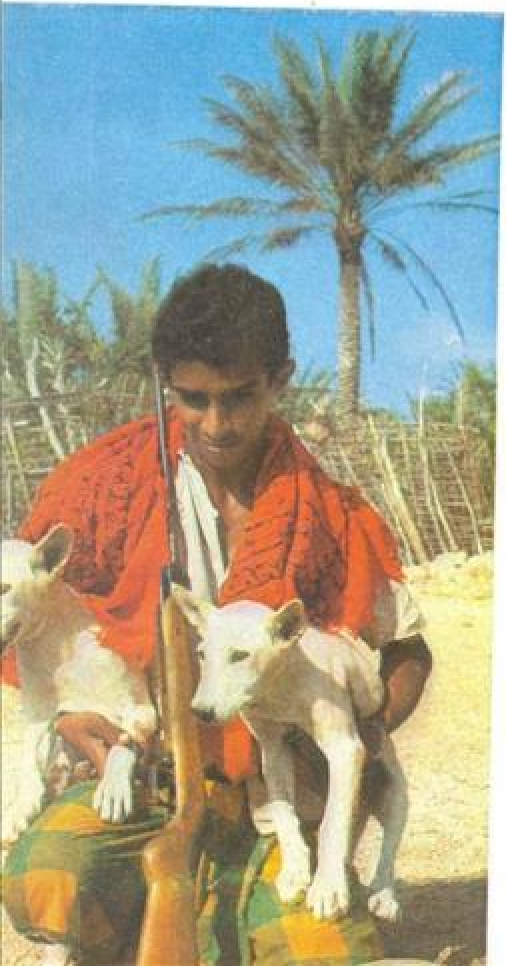




اكبر مقبرة لسمك القرش (اللخم) تجدها في بلدة قلنسية ، يصطادونه في الليل بطرق بدائية ، وينقلونه الى الشاطىء .. يقطعون رأسه وزعانفه ، ويخرجون أحشاءه ، ويملحون لحمه ويتركونه عشرة ايام على الساحل تحت الشمس حتى يجف . ويصدرون منه سنويا ٥٠ الف قطعة الى افريقيا والهند .



الى اليمين : يستخرج الغواصون الاصداف الكبيرة من مياه حديبو ، وينقلونها الى « عم بوحماد » التاجر الذي يقايضهم وطن الصدف بقصعة من الارز او التمر أو السمن الصناعي ، لا يتجاوز ثمنها شلنا واحدا !! **والى اسفل :** اول كلبين جاء بهما « بو حماد » الى الجزيرة .. وطعامهما هو التمر ، كما ترى !





قط الزباد .. قط متوحش ، يأكل التمر ويمتص دم الدجاج ولا يأكل لحمها ؛ يصطادونه داخل اقفاص بها تمر ، ويستخرجون الزباد بالضغط الشديد على غدة عند استه ، او باستعمال المشرط لجرح غدته حتى يتدفق منها الزباد ، وهو مادة سوداء اللون زفرة الرائحة ، يخالطها طيب كطيب المسك تستعمله المرأة عطرا ، وعلاجا لحالات العقم ، وبعد استخراج الزباد يطلق سراح القطة المتوحشة ، فتهرب الى مزارع النخيل حيث تمر فترة يصطادونها بعدها مرة اخرى لاستخراج الزباد ثانية .. وهكذا .

وظائف ١٤ مدرسا ومدرسة ، الا انه لا يوجد الا ١٢ منهم فقط في كل الجزيرة !

اما مباني المدارس ، فهي تكاد تشبه حظائر الحيوانات ، وخاصة مبنى مدرسة مدينةقلنسية، ثانية مدن سقطرى ..

سقطرى هبة من الله للمهريين

لقد ظلت الجزيرة تعاني الامرين من الاهمال والفوضى .. اهمال سلطان ضعيف هزيل جاهل حكم البلاد باسلوب بدائي فلم يطورها ولم يتطور .. فطار من مقعده ، واصبح مواطنا عاديا ..

اما جده السلطان عمرو بن سعد سلطان قشن، الذي جاءه الكابتن هينس البريطاني عام ١٨٣٥ حاملا معه مبلغ عشرة آلاف ريال نمساوي يريد بها شراء جزيرة سقطرى ، لتحويلها الى محطة ضخمة لتموين السفن ، فكان موقفه اكثر عنادا ، اذ اجاب غاضبا على عرض الكابتن بقوله : « وحق ايماني الراسخ بان هناك الها واحدا موجودا في الجنة ، كذلك لن اتخلى عن ذرة من ارض سقطرى » ورفع يده مؤكدا قوله بطرف اصبعه .. وتابع السلطان كلامه قائلا : « ان سقطرى هبة من الله للمهريين أورثها الاجداد الى الابناء الذين انا سلطانهم .. ودائما .. » ..

لعنة سقطرى ..

ولكن الوداع كان على عودة .. فقد عاد الانجليز على رأس قوات هندية احتلت الجزيرة عام ١٨٣٥ فحلت عليهم لعنة سقطرى ، اذ هبت عواصف هوجاء على الجزيرة ، اغرقت الزوارق بما تحمل من جنود ، وانتشرت الحمى بين القوات الباقية ، فافنت معظمهم حتى انه لم يكن هناك من يملك القوة الكافيةليحفر قبرا لنفسه او لزملائه .

ولم يبق لبريطانيا الا ان تهجر الجزيرة ،مكتفية بمعاهدة معالسلطان .. اذ كان كل همها الا تخضع الجزيرة لطرف آخر .. فتركتها مغلقة مهملة متاخرة ، وكأنها قطعة من العصر الحجري تعيش في القرن العشرين !!

ولكنها فتحتها امامعلماء النبات والطيور وطبقات الارض ، فجاءوا يجرون دراستهم علىحياة الجماد قبل حياة الانسان !!

نوجد ستصبح قلب سقطرى

وقررنا مغادرة حديبو الى المنطقة الجنوبية .. منطقة نوجد .. المسافة ٢٢ ميلا قطعناها فياربعة ايام مع لياليها متسلقين الجبال ونائمين في العراء .. انها رحلة عبر بادية سقطرى التي سنعود اليها في استطلاع قادم مستقل ان شاء الله .

ووصلنا نوجد (انظر الخريطة) انها ارض صحراوية على مدى البصر ، مساحتها ٣٠ الف فدان .. دخان الحرائقيرتفع منكل مكان فيها .. انها النيران تلتهم الاعشاب البرية ، لتبدأ مكانها الزراعةعلى نطاقواسعلاول مرة في تاريخالجزيرة..

وجلسنا في استراحة الزراعة بنوجد نتبادل الحديث مع السيد محمد عوض باعامر مدير وزارة الزراعة، الذي قال : « بعد سنتين سينتقل مركز الثقل من شمال الجزيرة الى جنوبها .. الى نوجد التي ستصبح قلب سقطرى النابض .. هنا سنزرع الطعام : الذرة والدخن في الاول ، لان السكان يفضلونهما على غيرهما .. ولكننا سنزرع



اشترى احد تجار قلنسية هذا الجرار لزراعة ارضه ونقلته السفينة الكبيرة من عدن الى قلنسية .. وبقيت مسافة المائة متر التى تفصل بين مكان وقوف الباخرة والساحل .. واجتمع الناس للمساهمة في انزال الجرار .. ولكن ثقله جعله يغرق في « شبر ماء » وسحبوه الى الساحل ، ولكن الماء المالح اعطب الآلة .. وحاول صاحبها اصلاحها بنفسه ففشل..وبقيت الجرارة كالتمثال في وسط المدينة ، تتساءل متى يكون لسقطرى مرسى صغير تقف عليه السفن .. متى ؟!

لهم كل شيء مستقبلا .. سنحاول ان نمنع المجاعة من ستقطرى .. لا بد ان يأخذ السكان اكلهم من ارض جزيرتهم .. ان السماد متوافر محليا بكثرة .. والماء متوافر بغزارة .. والارض صالحة للزراعة .. ونوجد محمية من الاعاصير والانواء لهذا لا يوجد اى سبب يمنع زراعتها ..

« اما تدريب ابناء سقطرى على الزراعة ، فقد بدأنا بنقل مجموعة منهم الى عدن لتدريبهم في مزارعنا هناك .. » ..

وتركنا نوجد وعدنا الى حديبو عبر الوديان من الجهة الشرقية ، حيث احتمالات وجود النفط كبيرة ، كما قال الخبراء الصينيون ..

مع احفاد ابن ماجد !

كان الارهاق قد اخذ منا ماخذه ، فلم نحفل بقرع الطبول بل رحنا في سبات عميق حتى صباح اليوم التالي ..

واتجهنا مباشرة الى سفينة البوم الخشبية لتنقلنا الى قلنسية ، المدينة الثانية .. وكانت الرحلة البحرية من اطرف الرحلات واغربها ، قضينا ست ساعات فوق ذلك العالم العائم على سطح البحر .. النوخذا (القبطان) حليق الراس يدير دفة المركب بقدمه ، ويعطي اوامره لصاحب المركب حتى يدير الموتور .. انه من احفاد ابن ماجد بارع مثله ، يعرف شواطىء ورياح الخليج العربي وخليج عمان وجنوب الجزيرة العربية وموانىء افريقيا،مثلما تعرف انت شوارع بلدتك!.

سمك .. وتمر

والقى احد البحارة بالسنارة في الماء ، وما هي الا بضع دقائق حتى كانت سمكة كبيرة هائلة ترفع بالخطاطيف الى داخل المركب بين ارجلنا .. وفي الحال نزل عليها البحار بالسكين يذبحها ويبقر بطنها لاخراج احشائها .. والقى بالسنارة مرة ثانية ، وما هي الا دقائق حتى اخرجوا سمكة اكبر من الاولى ، عالجوها بنفس الطريقة ..

وفي ركن خاص في وسط المركب بدأوا في اشعال الحطب ووضعوا فوقه قدرا مملوءا بماء البحر ، وعندما بدأ الماء يغلي القوا بقطع السمكداخله ..

وتذكرت حالنا في المنزل عندما نطبخ السمكة الطازجة ، نضع معها العديد من قطع الليمون وعيدان القرفة وحب الهال والبصل .. وبعدها نبخر المنزل لتزيل رائحة السمك !



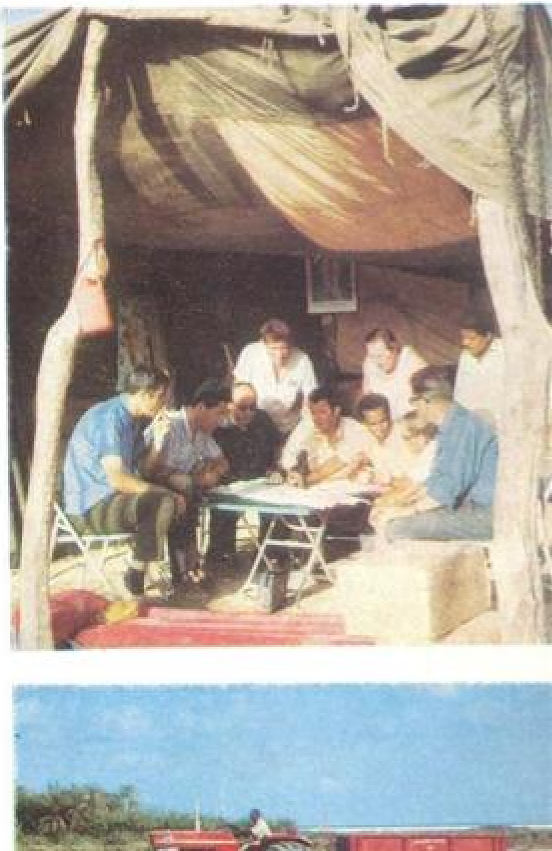
اقدم الانوال وجدناها في منازل حديبو .. ويصنعونها من جذوع شجرة العلق ، وتقوم المرأة بنسج « الشَمْلة » السجادة الرفيعة . طولها ٦ اقدام وعرضها قدم ، من صوف الغنم والماعز الابيض والاسود ، ولكنها تزركشها باللون الاحمر في الوسط .. ويقبل اهل عدن وبقية مدن اليمن على شراء الشملة بمتوسط ٣٠٠٠ قطعة سنويا ، مما يجعل سوقها دائما مزدهرة .. وترى هنا « قافلة بنت عبد الله » تنسج الشَمْلة .. وقد علقت وراءها الجرَّفة .. انها نلاجة سقطرى ! .

اما هنا فلم يكن احد عنده الوقت الكافي لهذا الكلام الفارغ .. وبعد ان نضج السمك اخرجه البحار من الماء المغلي ، ووضعه في صينية كبيرة .. ومن قاع المركب جلب كمية من التمر ، وضعها بجانب السمك المسلوق وقدمه لنا .. فاكلنا سمكا وتمرا حتى شبعنا ، وكانت وجبة طيبة وسمكا لم نذق اشهى منه .. !

اسمها اكبر من مساحتها !

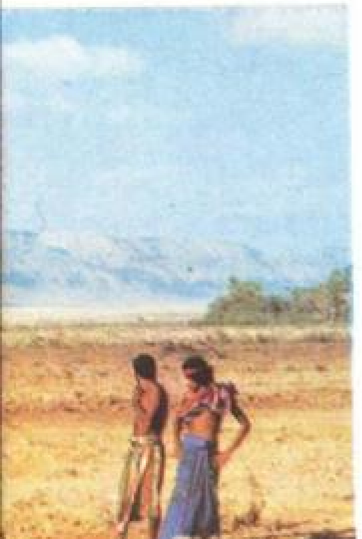
واخيرا وصلنا قلنسية .. المدينة الثانية .. اسمها اكبر من مساحتها ! .. فعدد « منازلها »

الى اسفل : منذ عام ١٨٣٤ والدراسات العلمية تتوالى على جزيرة سقطرى ، ولكن نتائج هذه الدراسات ظلت دائما محجوبة سرية ، لهذا كان على وزارة الزراعة في عدن بعد الاستقلال ، ان تعيد الكرة وتبدأ من الصفر ثانية ، مستعينة بخبراء عرب وروس والمان شرقيين وصينيين ، لمسح الجزيرة كما ترى في الصورتين أسفل هذا الكلام .









يقول تقرير بعثة ادارة الزراعة اليمنية :
كلها زراعة ذات شان .. » واعتمادا على
بالذرة الشامية والدخن .. وعدا
ساعة في اليوم ، بخلع الاعشاب وبدفعها



الى اليمين : هنا فوق هذه المنطقة الصحراوية
ستقوم سقطرى الغد .. انها منطقة نوجد ، الممتدة
تقريبا على طول الساحل الجنوبى للجزيرة ، وتقدر
مساحتها بحوالى ٣٠ الف فدان ، وتتميز المنطقة بعدم
تعرضها للانواء والاعاصير الموسمية التى تهب على
شمال الجزيرة ، والمياه الجوفية متوفرة فيها ، مما
يجعلها ارضا صالحة تماما للزراعة والحياة .



« نستطيع القول دون مبالغة ، ان اهالى سقطرى يعيشون في عصر ما قبل الزراعة .. اذ لا توجد في الجزيرة
على هذا التقرير بدات « **عملية نوجد** » التى تهدف في المرحلة الاولى الى استصلاح وزراعة ٣٠٠ فدان
التراكتور ـ الذى أنزلوه على منصة موضوعة فوق ١٦ برميل لعدم وجود مرسى في الميناء ـ يعمل ١٢
للمحرقة .. انه عهد جديد تدخله الجزيرة .. عهد الزراعة للقضاء على المجاعة !!

لا يزيد عن ٢٠٠ منزل .. ليس فيها كهرباء ولا طرقات .. ولكنها مع ذلك اكثر تقدما من حديبو ، لانها تقع في طرف الجزيرة الغربي ، وهذا يجعلها محطة للمراكب المتجهة من الخليج الى افريقيا ..

وتشتهر قلنسية بانها مقبرة سمك القرش .. رائحته تغلف المدينة من اقصاها الى اقصاها .. يخرجون في منتصف الليل على ظهر « الهوري » في كل مركب شخصان ، ينطلق المركب الى المياه العميقة ، ويرمي الصياد خيطا طويلا تتدلى منه ٢٠ سنارة كبيرة ويربط الخيط بالمركب وينام .. وعندما يشعر الصياد بالهوري يتحرك يعلم ان السنارة قد امسكت بسمك القرش .. فيطعنه بالحربة حتى يموت ، وينقله للمركب اذا كان صغيرا ، واذا كان كبيرا ربطه بالهوري وعاد به الى الشاطىء ثاني يوم ظهرا ..

الزعانف اغلى من اللحم

وينقل الصيادان صيدهما الى « المشرحة » يفصلان رأسه عن جسمه ، ينزعان الزعنفة من ظهره .. ان ثمن الزعنفة والذيل اغلى من ثمن اللحم نفسه !! وينزع الكبد والاحشاء .. ويغسل اللحم ويضع فيه ملحا ويتركه تحت اشعة الشمس على الشاطىء لفترة ١٠ ايام حتى يجف ..

اما الكبد فيغلونه في الماء مستخرجين منه الدهن يجمعونه ويبيعونه لصناع السفن الخشبية الذين يستعملونه طلاء لسفنهم .. وقديما كان الذي تقطع يده يضعون بقيتها في هذا الزيت لوقف النزيف !

ومما يذكر ان قلنسية تصدر سنويا ما يقرب من خمسين الف قطعة « لُخْم » مجففة للدول الافريقية والهند .. تصدرها ولا تاخذ ثمنها مالا .. وانما مقايضة بالارز (القصقص) والهندي (اي الذرة الرفيعة) وغيرهما من ضرورات الحياة ..

سقطرى لم تر طبيبا منذ سنة

ودخلنا مستوصف قلنسية ، وشاهدنا فضل الحاج ، المساعد الصحي يعالج الملاريا والانفلونزا والاسهال والسل الرئوي والتراخوما وشلل الاطفال ويخلع الاسنان .. كل هذا حسب نظرته وتقديره .. يحكم على المرضى دون ان يكون عنده مختبر او اي استعداد للعلاج !

لقد مضى على « فضل » سنتان دون ان ياخذ اجازة ، فانتهز فرصة سفرنا وقرر ان يسافر معنا على نفس الطائرة الى عدن .. وهكذا سيبقى سكان قلنسية وضواحيها بدون مساعد صحي حتى يعود فضل من اجازته السنوية ..

وقلنسية تعتبر سعيدة لان عندها مساعدا صحيا ، اما البادية في الداخل فليس فيها اي اثر للتطبيب .. ومما يذكر انه قد مضى عام باكمله لم تطأ فيها قدم طبيب ارض سقطرى .. وما من شك ان وزارة الصحة في عدن تقوم بجهود طيبة جدا لزيادة الصداقة مع شعوب العالم اجمع ؟!!؟

شر البلية ..

وقبل ان نترك « المدينة » سألنا المسئول الحكومي عن مشاكل قلنسية فاجابنا متعجبا :

« لا توجد مشاكل .. كل شيء ممتاز .. » ..

وكدنا نصعق ، فعدنا نسأله : « لماذا لا تعلقون مصباح جاز عند نواصي الشوارع والطرق .. بدلا من الظلام الداكن الذي يغلف المدينة .. » ..

فاجابنا بسرعة : « نحن نعتقد ان نور القمر افضل من نور مصباح الجاز !!! » .

فقلنا : « ولكن عندما يختفي ضوء القمر يصبح ضوء المصباح ضروريا ، اليس كذلك ؟ »

فاحتار المسئول وضحك .. فقد اعتبرها نكتة !!!؟

وضحكنا معه .. فشر البلية ما يضحك !

ان مشكلة جزيرة سقطرى لم تعد تكمن في تأخرها فقط ، وانما اصبحت في الدرجة الاولى في تأخر المسئولين عن تقدمها وتطويرها وانقاذها من ورطتها ..

★ ★ ★

ومع الغروب انطلقت السفينة من قلنسية .. وبدأت عملية صيد الاسماك من جديد .. وكان عشاؤنا سمكا وتمرا مرة ثانية .. وبدأنا نبحث عن مكان للنوم ، كانت السفينة خالية من كل حيز يصلح لهذا الغرض ، اما البحارة فرأيناهم ينامون في ركن صغير .. يضعون رأسهم على صخرة وينامون ، وكأنهم مستريحون على وسائد من الريش!!!

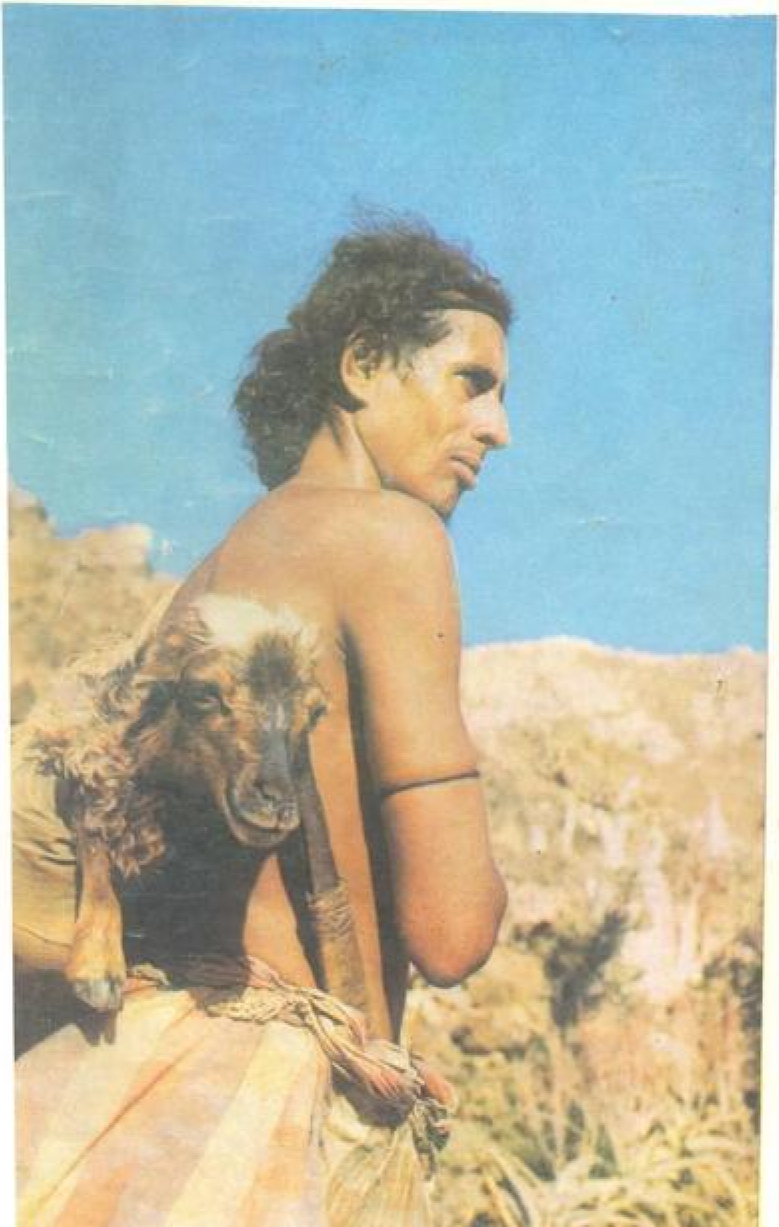
وكان التعب قد اخذ منا مأخذه ، فنام بعضنا حول بعض ، دون ان ندري كيف واين نمنا ؟

فالى الغد .. الى صباح يوم جديد في عدد جديد ، ننقل لكم فيه صفحة اخرى ، وما اكثر الصفحات التي سجلناها لهذه الحياة الغريبة في جزيرة سقطرى .. جزيرة اللبان والصبر والسعادة وسمك القرش !! ■■

سليم زبال

العربي

ـدد ١٥٣
الاخرة ١٣٩١
ـغسطس
ب) ١٩٧١



اطلب

ربى الصغير

هذا العدد

جـوائز

١٢٠٠

ينار سنويا

ـل من سقطرى
ـه الانسان الاول

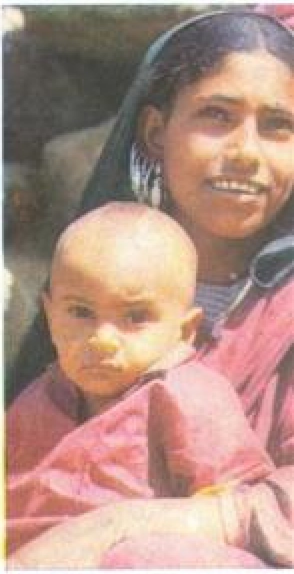
الثمـن

يت	١١٠ فلوس
يج العربي ٢	ريالات
عودية ٢	ريال
رين	٢٠٠ فلس
ـن	٢٫٥ ريال
راق	١٢٠ فلسا
ان	١٠٠ قرش
ن	١٠٠ فلس
ورية	١٠٠ قرش
ج.ع.م.	١٠ قروش
ودان	١٠ قروش
يبيا	١٥ قرشا
ـس	٢٠٠ مليم
زائر	٢٠٠ مليم

اعرف وطنك
أيها العربي

سُقُطْرَى

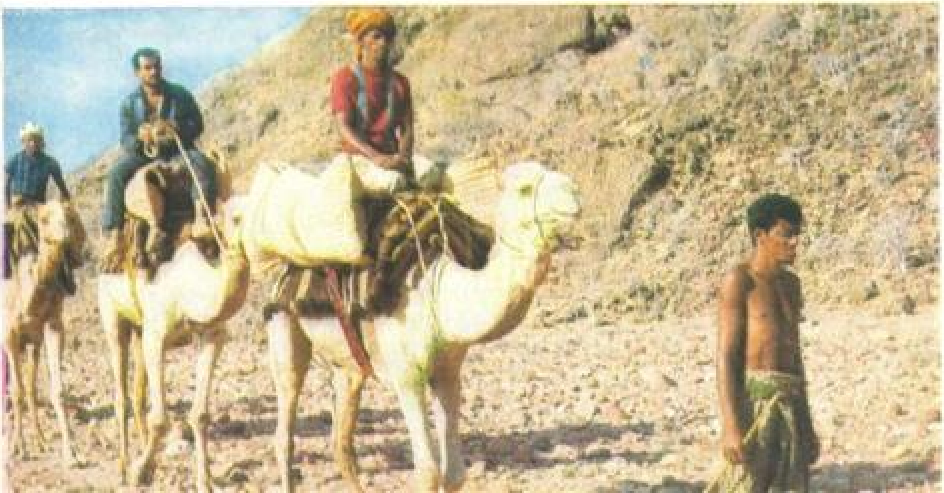
عَوْدَةٌ إليها.. والعَوْدُ أَحْمَد..

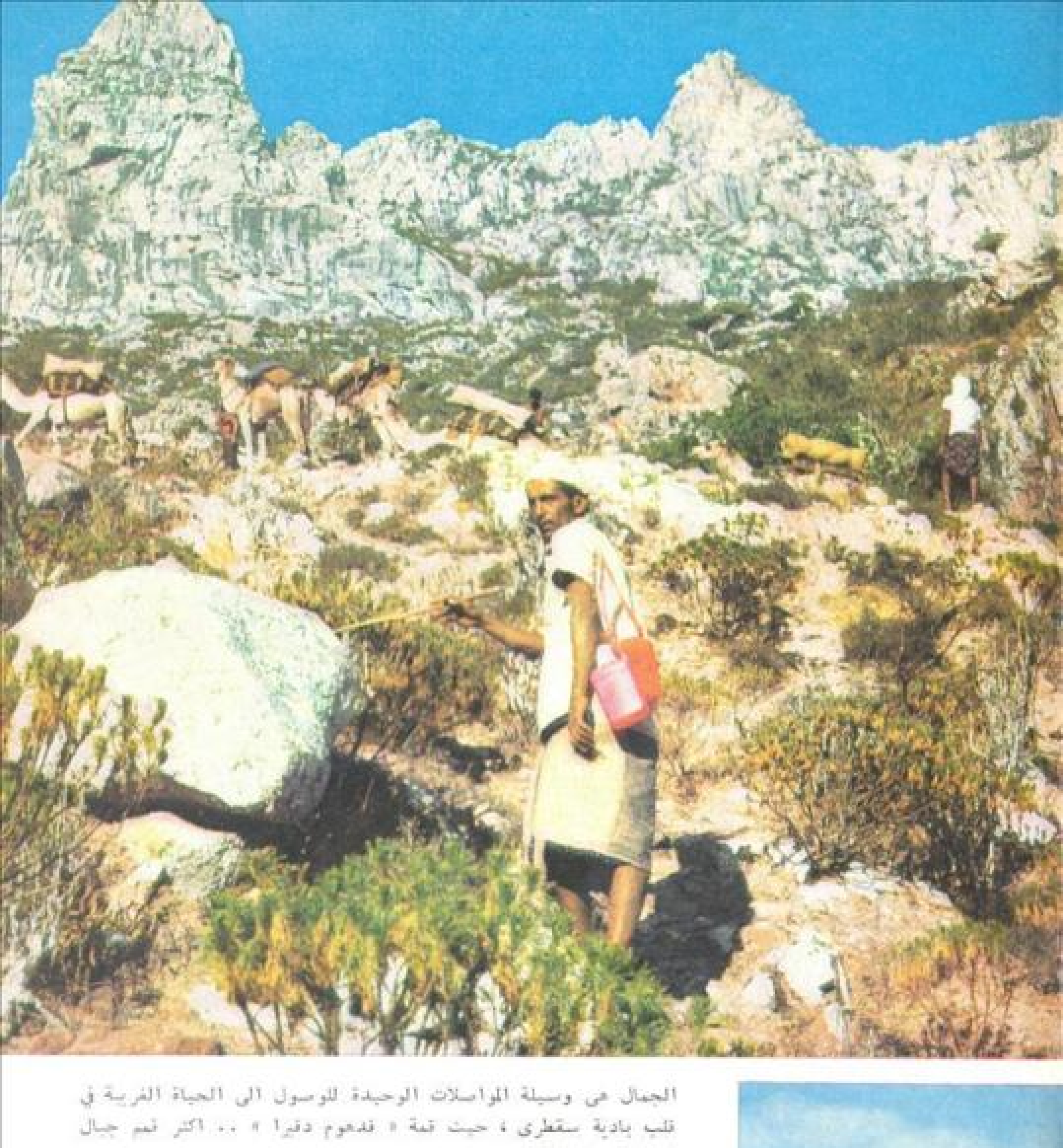


هُنَا يُولَدُ الإنْسَان
وَيَعِيشُ وَيَمُوتُ وَيُطْوَى
وَكَأَنَّهُ مَا كَان !

استطلاع
سليم زبال

تصوير
اوسكار متري





الجمال هي وسيلة المواصلات الوحيدة للوصول الى الحياة القرية في قلب بادية سقطرى ، حيث قمة « قدعوم دفيرا » .. اكثر قمم جبال الحَجْهر ارتفاعا

- مُتْحَفٌ حَيّ يَضُمّ ٦٠٠ نَوْع مِنَ النَّبَاتَاتِ النَّادِرَة
- دَمُ الأخَوَيْن : الشَّجَرَة الجَرِيحَة المُتَعَالِيَة عَلَى آلامِهَا
- الكَيّ بِالنَّارِ يَشْفِي مِنْ كَافَّة الأمْرَاض !



■ اليس غريبا ان يتحول الالم والانين الى اغنية تتردد على شفاه سكان جبال سُقُطرَى .. ؟ كانوا اسرى مكبلين بالحديد .. وكانوا يصرخون: «وايا .. وايانا .. واناتا .. ثانيا ..» منذ اكثر من اثنى عشر قرنا .. واذا بهذه الصرخة تعيش .. ويتردد صداها الى اليوم بين صخور هذه الجبال التى وقفت بقممها تتحدى الزمن ..

لقد اقتصر استطلاعنا السابق على مدن وسواحل جزيرة سُقُطرَى ، اكبر جزر وطننا العربي واكثرها غموضا .. واليوم ننقلك الى قلب هذه الجزيرة .. الى جبالها العالية وباديتها الغامضة حيث الصبر الجيد الذى لا يوجد مثله ، والبخور ، ودم الاخوين ، والنخيل الكثير ، والتمر الهندى ، وعشرات القصص والاساطير رواها المؤرخون عن عجائب هذه الجزيرة .. جزيرة الجن .. جن شجرة البخور ، حسب قولهم !

ابناء العم يتوارثون السلطنة

استيقظنا مع خيوط الفجر على صوت رغاء



يلتهم الجمل اغصان الاشجار بفمه ، غير عابىء بالاشواك .. ولكنه يبتعد بسرعة عن اوراق شجرة القات البرى التى تخدره ثلاثة ايام كاملة ، وعن شجرة التريمو التى تسممه !

الجمال المختلط باصوات الجمالين ، وهم يجذبون الجمال من ازمتها لتبرك فى الزقاق الصغير الملاصق لمنزل السلطان السابق ، حيث كنا نقيم فى حديبو عاصمة سقطرى . انه قصر : « صاحب العظمة السلطان احمد بن عبد الله بن عيسى بن احمد بن سعد عفرار ، ملك المهرا وسقطرا » هكذا وجدنا الاسم مطبوعا على ورقة منسية فى المنزل . انه واحد من سلاطين بنى عفرار الذين حكموا سُقُطرَى من عام ١٤٨٢ حتى مولد جمهورية اليمن الجنوبية عام ١٩٦٧ .

الناقة تسبق الجمل

وتركنا « القصر » وبدانا نرقب عملية حزم الامتعة داخل سلال من سعف النخيل تربط على جانبي سنم الجمل .. كان الجمالون يتسابقون لحمل اخف الامتعة حتى لا يثقلون على كاهل جمالهم .

كان علينا امتطاء هذه الجمال لتقطع الجزيرة من شمالها الى جنوبها عبر طرق جبلية ملتوية ، مرتفعة الى ....٥ قدم فوق سطح البحر ..

وبدأت القافلة تتحرك .. سبعة جمال تسير متتابعة .. النياق تسير امام الجمال ، ونحن ركوب فوق النياق الهادئة الوديعة التى لا تثور ولا تعض ، بعكس الجمال .

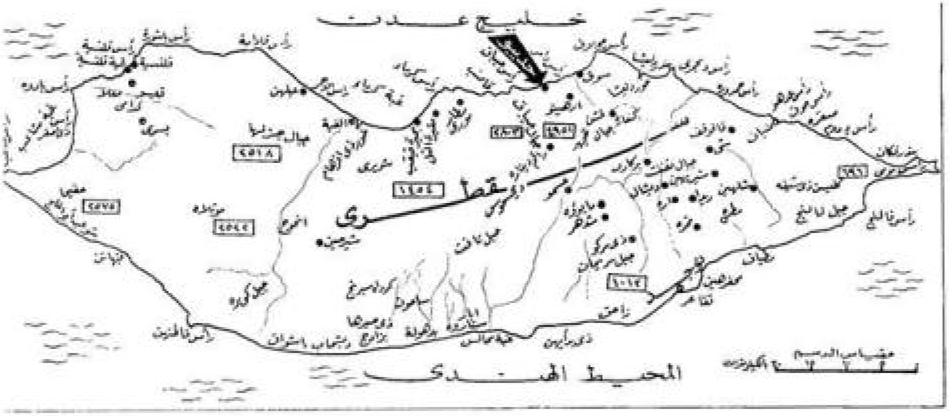
ماذا يخفى تل حسون ؟

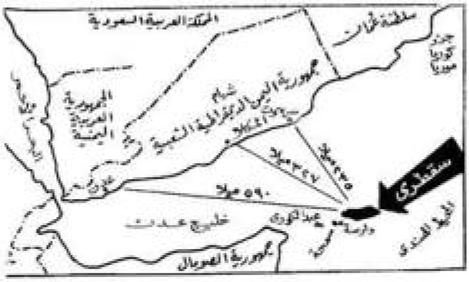
ومررنا بتل رملى يرتفع وحيدا وسط السهل المتسع .. انه ليس تلا طبيعيا ، وانما تل كونته الرمال المتحركة فاخفت آثارا قديمة مجهولة .. ترى هل هى آثار القلعة العربية التى لم يحتلها البرتغاليون الا بعد ملاحم بطولية رائعة سجلها اهل سُقُطرَى العرب اثناء قتالهم مع الغزاة ؟

ام هي آثار المعبد الخيالى الذى وصفه الجغرافي ديودورس الصقلى Diodorus The Sicilian فى القرن الاول قبل الميلاد بكل دقة قائلا :

« كان المعبد قطعة اثرية ثمينة تثير الاعجاب .. اعمدته مرتفعة محلاة بالرسوم الرائعة .. وتماثيله ضخمة دقيقة الصنع .. وابوابه مزخرفة بالذهب والفضة والعاج وخشب الليمون » ..

هذا ما ذكره ديودورس الصقلى منذ الفى عام .. وبعده لم يتحدث احد عن هذا المعبد .. ولن يستطيع احد ان يتحدث عنه قبل ازالة الرمال





خريطتان الاولى تبين تفاصيل جزيرة سقطرى واهم الاماكن التى فيها ، والارقام التى على الخريطة توضح ارتفاع الجبال بالاقدام . ولكننا لم نستطع تعيين خط السير الذى سلكناه ، لاننا ذهبنا الى مناطق لم يسجلها صاحب الخريطة .. اشحصى – قيشن – عما جالو – ديحزحز – دهرهو .. والخريطة اليسرى توضح موقع سقطرى بالنسبة لجمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية .

والاحجار من فوق تل حسون ، والكشف عن آثاره التى قد تلقى ضوءا على حضارة عصر البخور واللبان في هذه الجزيرة ، التى يؤكد بعض المؤرخين ان بعثة الملكة حتشبسوت الى بلاد بنت جاءت اليها لاخذ البخور منها .

الانسان اولا ..

ولكن الكشف عن الآثار وتاريخ الجزيرة لا يمكن ان ياخذ طابع الاستعجال .. لان هناك ما هو اهم .. هناك عملية الكشف عن الانسان السقطرى الذى ما زال قابعا في الظلال وتحت زوايا النسيان : .. يولد .. ويعيش .. ويصنع الحياة .. ويموت .. ويطوى ، دون ان يدرى او يهتم به احد .. وكأنه ما جاء .. وما عاش .. وما مات !!

« الفِطام » القاتل !

وتابعت القافلة رحلتها بهدوء ورتابة حتى وصلت جبال الحَجْهر ، وبدأ الصعود فوق احجار الجبال .. الجمل يصعد مرتفعا وينحنى فجأة ليقلع الاعشاب مع جذورها ، ويسير وهو يلوكها في فمه فوق الصخور المسننة القاسية ، التى كان يتسلقها مزمجرا ، ومصدرا اصواتا عالية كصهيل الجياد ، يطلق عليها اهل اللغة كلمة : رُغاء !

وسألنا جمالنا سعد جمعة عن سر هذه الاصوات، فاجابنا ببساطة : « الجمل خائف من الطريق ، لا يريد السير فيه .. انه يخاف من الصخور المسننة ، والفطام الاسود ، ذلك العنكبوت البرى السام الذى ينقلب على ظهره عند شعوره باقتراب الخطر ، فاذا مر الجمل فوقه عقصه في قدمه ، فارداه قتيلا » .

قلنا : « واذا عقص انسانا ؟ » .

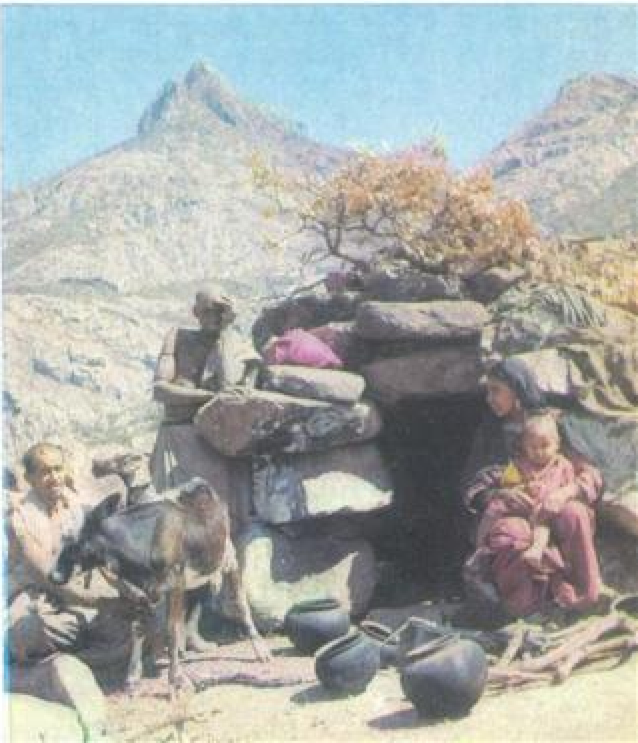
قال : « على الملدوغ في هذه الحالة ان يخرج سكينه من غمده ويقطع به في الحال الجزء المصاب في قدمه .. واذا لم يفعل ذلك فانه يموت بعد دقائق !! » .

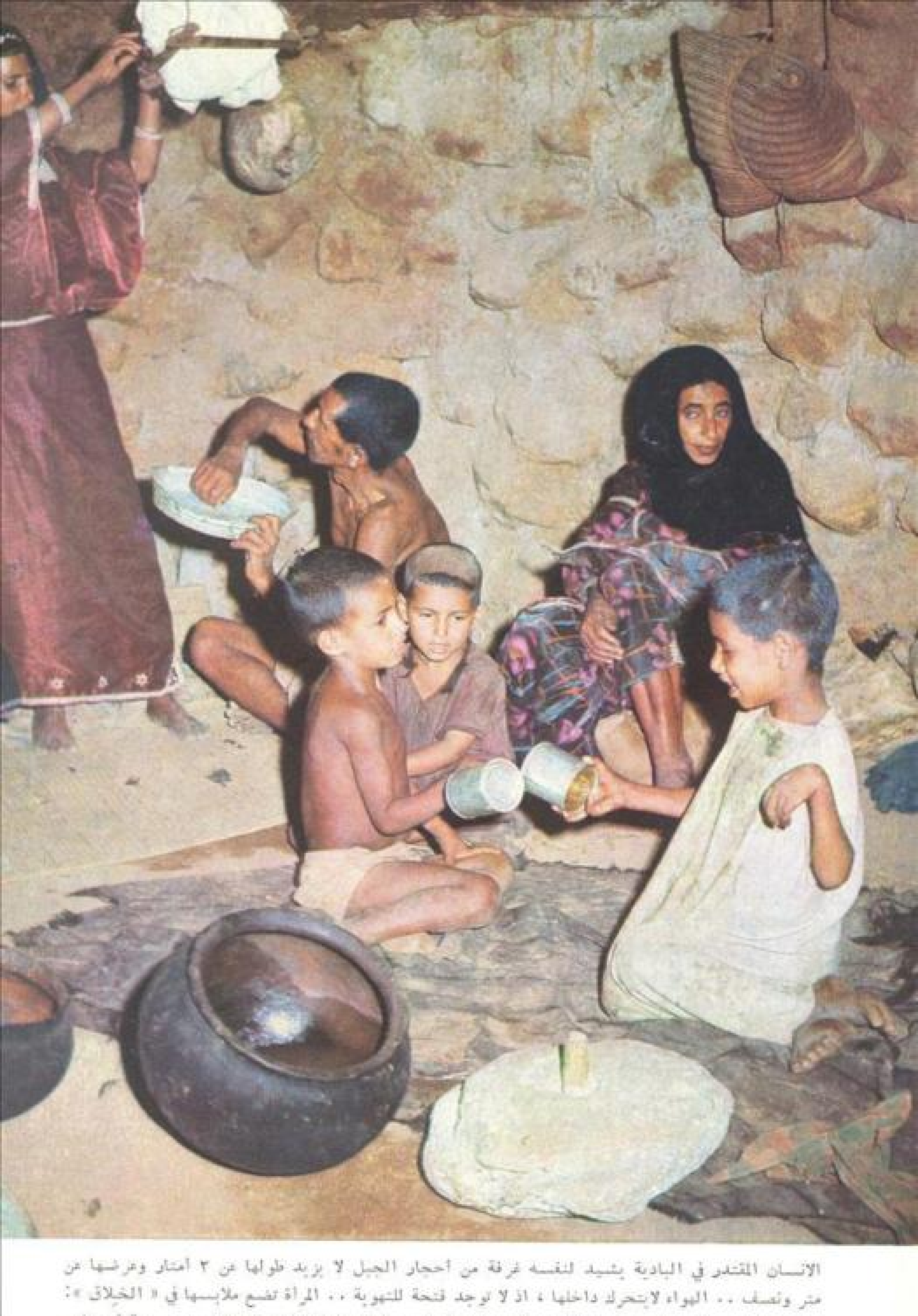
٦٠٠ نوع من النباتات النادرة

ومررنا وسط غابات من الاشجار لم نر لها نظيرا في اى مكان آخر .. انها ثروة سقطرى الحقيقية .. حديقة طبيعية هائلة تضم ٦٠٠ نوع



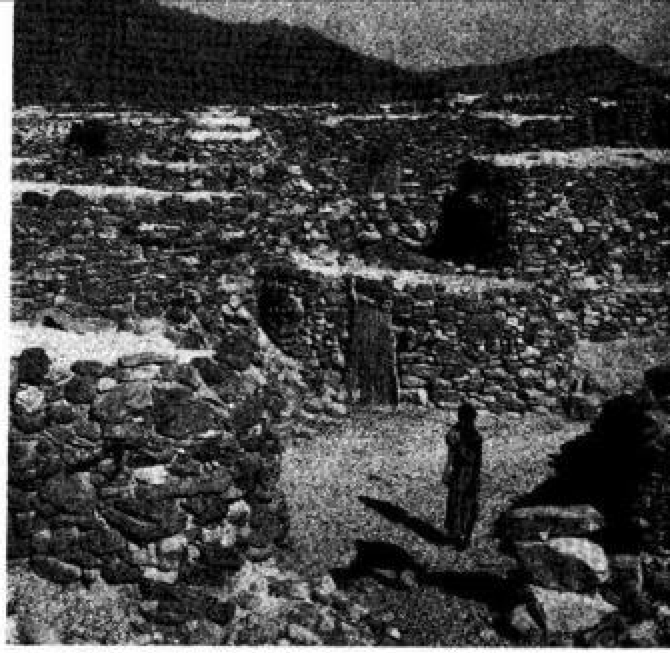
« في اى مكان انام .. بلاد الله واسعة .. » والكهوف منتشرة في كل انحاء الجبال .. ينام فيها البدوي مع اغنامه ، يشرب الحليب مع قليل من التمر ، واذا وجد القشقش (الارز المكسور) غلاه مع الماء واكله .. وترى في الصورة العليا غار تيمان ، وقد اقام صاحبه جدارا من الاحجار ليمنع هرب الماعز .. والغار بارد في الصيف ، ولكن المشكل هي « الحككاك » : ذبابة ينقلها الماعز معه فتعيش في الكهف ولا تخرج منه .. واذا فكر البدوي في بناء منزل ، جاء على صورة كهف فوق الارض (الصورة اليمنى) .. ان متطلبات الحياة معدومة عندهم ، يأكلون ويشربون من نفس اواني الفخار التي يطبخون فيها ، دون استعمال شوكة او سكين ، وانما غصن الشجر يأخذ مكانهما !





الإنسان المقتدر في البادية يشيد لنفسه غرفة من أحجار الجبل لا يزيد طولها عن ٣ أمتار وعرضها عن متر ونصف .. الهواء لا يتحرك داخلها ، اذ لا توجد فتحة للتهوية .. المرأة تضع ملابسها في « الخلاق »: حبل متدلى من السقف تربط في آخره ملابسها وحليها .. لاحظ اليد المشلولة للطفل .. سبعة أشخاص يعيشون في هذا الجحر ، يأكلون ويشربون من نفس الاواني الفخارية وعلب الصفيح .. ألم نقل انها مأساة !!





روكب : اسم القرية الوحيدة التى صادفتنا فى رحلتنا ، يهجرها رجالها في الصباح متوجهين لرعى الاغنام . اما نساؤها فيوصدن الابواب عندما يشعرن بقدوم شخص غريب!

اشجار اللبان .. ترتفع عالية مجردة هذه الاشجار لو تكلمت لروت قصص من اجل الحصول على اللبان

من النباتات النادرة ، منها ٢٠٠ نوع تنفرد بها سقطرى .. هكذا قال علماء النبات الذين اجروا مسحا شاملا لنباتات الجزيرة سنة ١٩٥٦و١٩٦٧ .

وامسكنا بالقلم ونحن جلوس فوق الجمل ، نسجل ما يذكره دليلنا عامر الدعرى ، من اسماء وفوائد بعض الاشجار الغريبة ، بلهجته السقطرية : « هذه شجرة امتى ، تقطر سائلا خاصا اذا تسرب الى العين افقدها البصر لفترة من الزمن » ..

« وهذه شجرة عطرعة ، انها شجرة الفاصوليا الخضراء الوحشية التى ظلت تمتد حتى اصبحت حبالا متصلة ، يقطعها ابن البادية ويجففها ثم يطحنها ليستعملها فوق الجراح التى تصيب الجمال والابقار فيشفيها .. » .

واستمر عامر يروى قصص واسماء عشرات الاشجار الخضراء والصفراء والحمراء والفضية ، ونحن ماخوذون بسحر هذه النباتات وروعتها ..

٧٠ قرشا ، ثمن الخروف

وعند نبع عين « دانجهان » كانت محطتنا الاولى .. المنطقة خالية من المباني والسكان .. ومياه النبع تنساب هادئة بين الصخور والاشجار .. الجمالون فكوا الاحمال عن ظهور الجمال ، وتركوها حرة طليقة ترعى بمفردها الاوراق والاعشاب ..

وما كادت تمر دقائق على وجودنا ، حتى اصبحنا محاطين باعداد من اهل البادية ، جاءوا من حيث لا ندرى وكان الارض قد انشقت عنهم فجاة .. كل منهم يصر على السلام علينا باليد .. اننا بالنسبة لهم نمثل عالما جميلا مجهولا يحتكون به لاول مرة تقريبا ..

وعرضوا علينا اغنامهم وماعزهم .. فاشترينا خروفا بما يوازى ٧٠ قرشا ومعزة بنحو ٥٠ قرشا ، اى نصف جنيه استرليني .. ان اسعار الماشية رخيصة جدا هنا ..

رحلوا وبقيت الابقار !

والثروة الحيوانية فى الجزيرة متوافرة بكثرة، وقد تمت دراستها عدة مرات من قبل خبراء عالميين ، قالوا في تقاريرهم : « تنحدر ابقار سقطرى من فصيلة ابقار الفريزيان الشهيرة التى





من اوراقها لعدم هطول الامطار .. ان امجاد مضت ، العالم كان يتصارع والبخور والصبر السقطرى

داتجهان .. اول محطة استرحنا فيها .. شربنا من نقى المياه مع الجمال ، واسترحنا فوق احجار الجرانيت الحمراء والبيضاء ، يظللنا سعف النخيل البرى الكثيف .

جلبها البرتغاليون معهم عندما احتلوا الجزيرة عام ١٥٠٧ لفترة قصيرة رحلوا بعدها وبقيت الابقار .. ومع مرور السنوات ضعفت السلالات وصغر حجم البقرة ، واصبحت لا تنتج اكثر من لتر حليب يوميا !

« وتتميز الاغنام في الجزيرة بصغر حجمها ، وذيلها الرفيع المشابه لذيل الحمار ، وهي انواع من الخراف معروفة سلالتها في اوربا وروسيا تحت اسم : اغنام الذيل الطويل .. » .

اما الماعز ، فقد رأينا انواعا غريبة منها ، تضاءل حجمها حتى كاد ان يصبح بحجم القط الكبير ، يغطيها شعر كث وفير ، يصنعون منه الشملة المحلية (السجادة) .

آمينال ..

وقبل ان يذبحوا الخروف والمعزة اللتين ابتعناهما ، جاءوا بهما الى دليلنا في الرحلة عامر الدعرى ، الذى امسك بهما وجلس على الارض ، ومن حوله الصبية والاطفال .. وبدأ يمسح على صوفهما مرددا هذا الدعاء :

ـ اشكر ربى على الخيرات .. **فيرد الصبية :** آمينال ..**اى آمين ..**

ـ لان ربى يرفع عنا جميع انواع البلاء .. **آمينال ..**

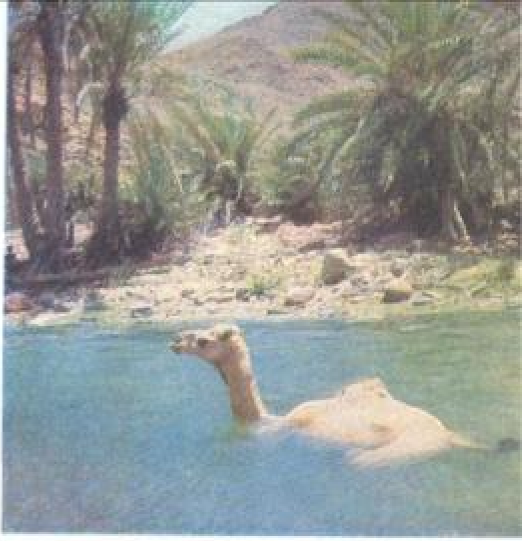
ـ ويسكب لنا المطر والارزاق .. **آمينال ..**

وهكذا استمر عامر مكررا الدعاء تلو الدعاء ، والاطفال يردون عليه : آمينال **بصوت منفعل يزداد ارتفاعا وسرعة .. فالبطون الجائعة لا تحتمل الصبر الطويل ..**

عذاب الحيوان ..

واخرج احدهم السكين من جرابه المصنوع من جلد الماعز ، وفحصنا السكين فاذا به قطعة من الحديد البارد ، صنعوها من مخلفات معسكرات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية .

ولن نتحدث عن عذاب الحيوان المسكين عندما يذبح بقطعة حديد مثلومة ، لاننا لم ننظر الى كيفية الذبح ، ولم ناكل حتى لحم الذبيحة المسكينة .. احتجاجا صامتا قدمناه ضد تعذيب الحيوان ..



الى اسفل : هذه الآبار حفرها الاجداد في قديم الزمان في منطقة دشرّهو ، الى عمق ٣٠ قدما ، وبطنوا جدرانها بالاحجار الضخمة .. وتأتي المرأة بدلوها المصنوع من جلد الماعز وترفع المياه .. انها مياه قذرة جدا .. ومع ذلك تجد نفسك مضطرا لشربها لعدم وجود مياه غيرها !





المياه في جبال الحَجْهر متوفرة بكميات هائلة ، فيها العيون الطبيعية التى لاتنضب ابدا ، وفيها مياه الامطار ، التى تندفع سيولا في الوديان فتضيع في البحر دون الاستفادة منها .. وما تكاد الجمال ترى بحيرة ماء حتى تندفع اليها تأخذ حماما باردا بعد رحلة شاقة مرهقة .. اما البدوى فيذهب الى منبع العين ليشرب الماء نقيا عذبا حلوا .. ولكنه كثيرا ما يضطر الى شرب الماء من نفس المكان الذى استحمت فيه الجمال من قبل.



كل من في سقطرى يمرض من الاتربة والعواصف والذباب والناموس والأكل على نمط واحد .. وقد شعرنا بالاعجاب بهذا الشعب الذى استطاع العيش رغم هذه الظروف .. ويطلقون على الطبيب المحلي كلمة «دختر» وهو يقوم بعمله مجانا لوجه الله .. ونرى هنا الدختر عبد الله بن سعيد يجرى عملية كي بقضيب رفيع ملتهب لاذن وأسنان المريض محمد الدعرى الذى أمسك به ثلاثة من زملائه .. انهم يحاربون شيئا مجهولا .. والنار هي اكثر الاشياء تطهيرا في اعتقادهم لهذا العدو المجهول .. انها طريقة عقيمة ولكن ما هو البديل ؟ .. ان البديل السريع لهذا الوضع هو ان ينطلق الممرضان الموجودان في حديبو وقلنسية الى البادية بالتناوب لعلاج المرضى هناك .. اجراء مؤقت حتى يتم تعيين طبيب !

سأصعد الى نخلة اخرى

وفي احدى المرات التي توقفنا فيها خلال الرحلة ، كان جلوسنا تحت ظل نخلة مثمرة .. نظرنا اليها ورجونا احد الصبية الملتفين حولنا ان يجلب لنا بعض الحبات من تمورها الناضجة ..

وتسلق الصبي جذع النخلة حتى وصل الى قمتها وعيوننا ترقبه .. فرأيناه ينظر مليا الى التمر ، ومكث فترة مترددا ، نزل بعدها مسرعا دون ان يجلب معه تمرة واحدة ، وجاء قائلا :

« سأصعد الى نخلة اخرى ، لان هذه فيها القرآن مفتوح » .

وتعجبنا ، فشرح لنا عامر الدعرى القصة قائلا :

« يعمد اصحاب النخيل في البادية الى وضع اوراق فيها آيات من القرآن الكريم وسط التمور على النخلة المثمرة ، والويل للسارق من عذاب الله ، اذا امتدت يده الى تمرة واحدة فيها القرآن مفتوح .. » .

الساحرة السابحة

وفي ذات مرة تجمعت السحب بكثافة في السماء مما عاقنا عن التصوير ، فسألنا احد ابناء البادية :

« هل تعتقد ان المطر سيهطل غدا ؟ » .

سؤال خلناه بريئا عاديا ، ولكن صاحبنا احتقن وجهه ، ووقف منفعلا امام الجميع ، وهو يصيح :

« استغفر ربك يارجل .. هل تعتقد انى ساحر فأتنبأ بالغيب .. » .

انها عقدة السحر والساحرات الشريرات في سقطرى .. اراد الرجل المسكين ان ينفيها عن نفسه على رؤوس الاشهاد .. وكم من مرة عانت النساء الطاعنات في السن من هذه التهمة الباطلة، فالمراة المتهمة بالسحر تنقل الى ساحل البحر ، ويوضع على ظهرها وصدرها ورجليها اثقال مختلفة ، وتحمل في مركب صغير مع بعض الغواصين ، وعلى مسافة قريبة من الساحل تلقى المراة بحملها في الماء ، فاذا استطاعت السباحة الى الشاطىء فهذا اثبات انها ساحرة ، لان ابليس هو الذى ساعدها على السباحة حتى لاتموت .. اما اذا غطست في الماء وبدات تغرق فهذا يثبت انها بريئة ، فينزل الغواصون لانقاذها .. وكان عقاب المراة الساحرة هو القاؤها من فوق هاوية راس كور غرب حديبو ، ثم استبدل هذا الحكم بالنفى من الجزيرة .. اما الآن فقد الغى هذا التقليد تماما .



قبل ذبح الخراف والماعز ، يقوم كبير القبيلة بالمسح على صوفها ، وتلاوة الدعاء وشكر الله على خيراته ، فيرد الحاضرون : **آميتال** .. اى آمين .

تجربة قاسية مريرة

وتابعنا تسلق الجبل مترجلين ، رحمة بالجمال التى تتسلق امامنا صخورا يعجز عن تسلقها الانسان .

وانحرفنا عن طريق الجمال الى « جيز'عة » ، اى طريق مختصر للسير على الاقدام ، يرافقنا دليلنا عامر .. نتسلق ونقفز من حجر الى حجر .. الغيوم واطئة .. الرطوبة زائدة .. والحركة المتواصلة تزيد من حرارة الجو فتجعله سياطا من اللهب .. خلعنا القمصان وسرنا عراة الصدر مثل اهل البلد .. الماء القليل الذى حملناه معنا نفد عن آخره .. والجمال اصبحت بعيدة .. الحلق كاد ان يجف من فرط الظمأ .. كنا على استعداد لدفع اى ثمن مقابل كوب ماء .. لا داعى ان يكون مثلجا .. وانما ماء فقط .. حتى لو كان ماء ساخنا !!

وهتف عامر الذى كان يسبقنا : « ها هو نبع الماء امامنا هنا » .. واندفعنا بدون وعى بملابسنا

واحذيتنا نشرب ونشرب .. لقد شربنا اكثر مما تشرب الجمال ! غير عابئين بالقواقع والاسماك الصغيرة ولا بالسلطعون (ابو جلمبو) الحمراء والسوداء التى تعيش كلها في مياه العيون العذبة على ارتفاع ٤ آلاف قدم ..

ام سبعة وسبعين !

وآخيرا تقابلنا مع الجمالين والجمال في منطقة « قيشن » بعد ان ادمت الاحذية المبللة ارجلنا .. كان الجمالون يفكون الاحمال من على ظهور الجمال، فهنا في « قشن » سننام .. انها المحطة الاخيرة قبل الوصول الى قمة جبال الحجهر .. لم يكن في قشن اى اثر لقرية او حتى لمنزل ، وانما كهف صغير وبئر ماء ، ومكان لعمل الشاى على الحطب ، وصخرة هائلة سوداء نقشت عليها بعثة جامعة اكسفورد تاريخ وصولها الى المنطقة عام ١٩٦٧ .

وبدأنا نستعد للنوم ، اشعلنا الحطب في كل ركن لنمنع الحشرات ، ونجحت الخطة فسرعان ما شهدنا حشرة تتهادى وتقترب .. ، امسكها احد الجمالين بيده والقاها في النار .. وسألناه عنها فقال بكل بساطة : «انها ام سبعة وسبعين !»

تلكؤ ومماطلة

ورحنا في نوم عميق مفترشين الارض ومتدثرين بالاغطية الصوفية .. فالرياح تهب باردة في الليل .. وقمنا مع الفجر نوقظ الجمالين ، ليجمعوا جمالهم التى انطلقت خلال الليل ترعى في الجبال .. وبعد ساعة عادوا بها .. وبدأوا في شرب الشاى وحزم السلال .. ان المشكل الاول مع الجمالين هو اعتقادهم انهم اذكى اهل الارض .. يتلكؤن ويماطلون ، وينحرفون فى طرق طويلة ، لكسب الوقت وزيادة عدد ايام الرحلة ، لان الايجار اليومي للجمل الواحد هو دينار .

ذكاء فطرى !

ومن قصص ذكائهم الفطرى التى عانينا منها هذه القصة : حدث ان سارت الناقة التى اركبها على حجر مسنن جعلها تعرج في مشيتها ، فالتفت الينا سعد جمعة قائلا : « الناقة متعبة .. هل لك ان تنزل وتسير على قدميك لتخفف عنها ؟ » .

واصاب كلامه وترا حساسا ، فان مشهد الحيوان المصاب يؤلمنا اكثر من الم الجرح المتقيح في القدم نتيجة ابتلال الحذاء في الماء .. ونزلنا



انتشرت بين نساء العالم تقليعة تدعو الى وضع عشرة خواتم في اصابع اليدين .. وظن الناس انها تقليعة حديثة ، ولكن نساء سقطرى سبقن نساء العالم بعشرات السنين في تطبيق هذه التقليعة .

راضين من على ظهر الناقة المتألمة .. نسير خلفها ونعرج مثلها متعبين مرهقين .. ولكننا ماكدنا نسير بضع خطوات حتى شهدنا منظرا أثار اعصابنا .. سعد جمعة يقفز فوق ظهر الناقة ويضربها بالخيزرانة فتنطلق به كالريح .. ولم نستطع اللحاق به الا بعد اربع ساعات .. عند قمة الجبل .. على ارتفاع خمسة الاف قدم !

دم الاخوين

وعند القمة تماما رأينا لاول مرة شجرة دم الاخوين .. تقف فخورة مزهوة .. فهي من الاشجار النادرة في عالم اليوم .. واقتربنا منها وتأملناها فوجدناها شجرة جريحة متألمة متعالية على آلامها ..

جذعها ينزف دما احمر ، بينما اوراقها تمتد مشرعة متحدية .

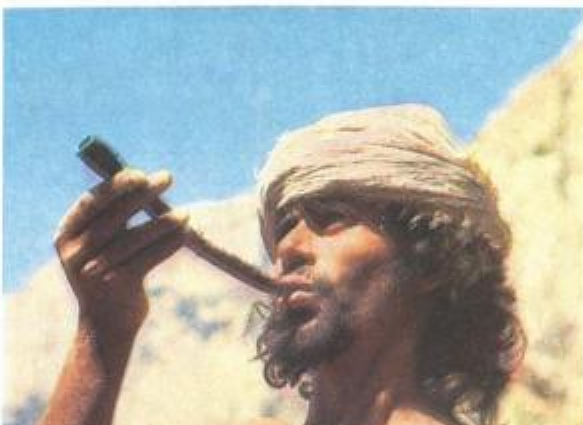
ان الاهالى يجرحون جذعها بالسكين لينزف مادة راتنجية (مادة شبيهة بالصمغ) تميل الى اللون الاحمر الداكن . لا تلبث ان تتجمد فتصبح صلبة هشة على هيئة كتل صغيرة مثل الصمغ العربي ، ليس لها رائحة ولا يكاد يكون لها طعم .. يصدر الاهالى كميات قليلة منها الى عدن ، حيث يعاد تصديرها الى العالم الخارجى الذى يعمل

الى اليمين : انه ليس نجما سينمائيا ، ولكنه عبد الله جمعان من صميم بادية سقطرى .. انتقل مع بعثة الزراعة الى مزارع عدن ليتعلم هناك طريقة الزراعة ، ثم يعود الى بلاده ثانية . انه يمثل العربي الاصيل بكل تقاطيعه .



الى اسفل : تعمل المرأة طوال اليوم في البادية : تنقل الماء من البئر الى المنزل ، وتخض اللبن لاستخراج الزبد ، وتجرى وراء الماعز والاغنام في الجبال تراقبهم وتبحث عن الشارد منهم .. انها حياة كلها حركة وتعب .. اما مساحيق الوجه ، فاللون المفضل هو « الكركم » الاصفر .. كما ترى في الصورة .





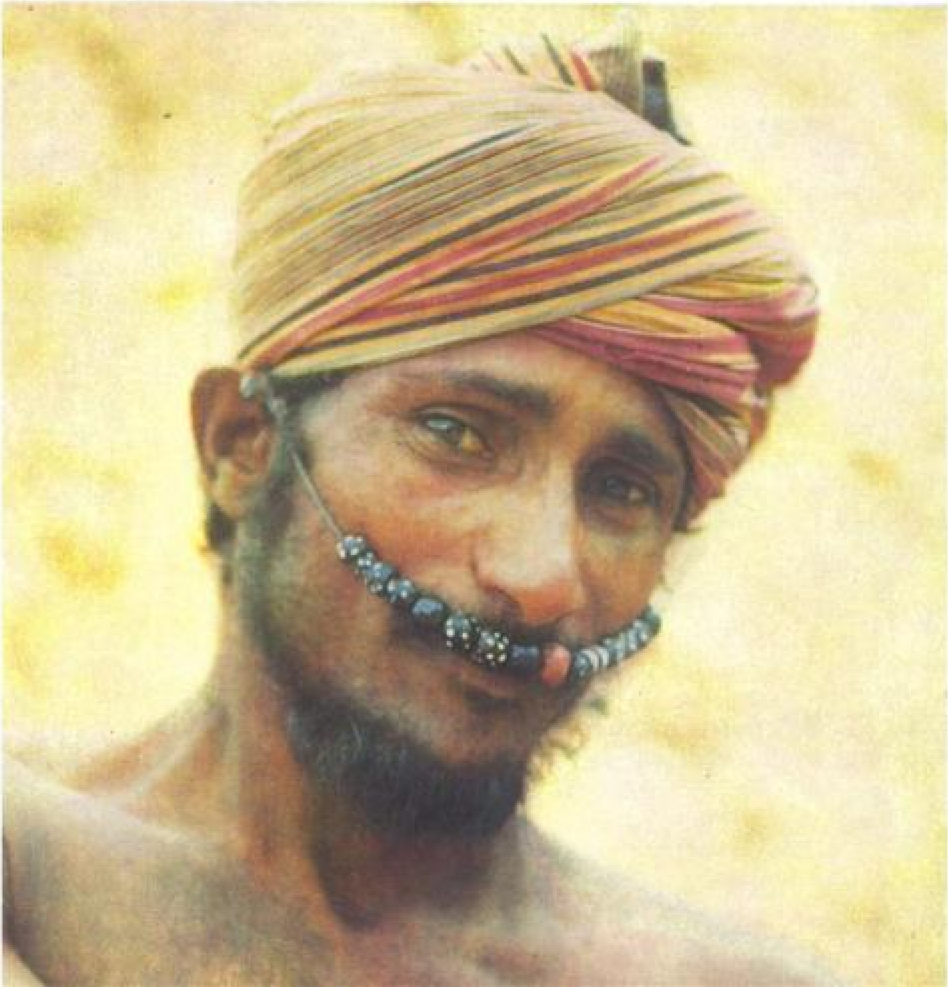
الى اليسار : سالم الدعرى يدخن التمباك بالغليون المحلي المصنوع من غصن شجرة السلو بعد تفريغها ، وراس الغليون مصنوع من الطين . ويدخنون التمباك في شهقة واحدة فقط .





الى اليسار : ٢٠ الف رجل وامرأة تقريبا ، يعيشون في بادية سقطرى ، بعيدا عن كل ما يمت الى هذا العصر بصلة !

الى اسفل : سعيد بن سالم ، يضع « المقد » تحت الفم ليمنع دخول ذبابة ديمازر الاستوائية الى حلقه التي تصيبه باختناق شديد في حالة تسللها .. وتكثر هذه الذبابة عند حلب الغنم .



على تصنيعها واستعمالها مادة مطهرة قابضة للثة ، ملونة للورنيش ولمساحيق الاسنان ..

اما ابن سقطرى فيطحن دم الاخوين ، ويضع مسحوقه على جراحه وجراح ماشيته لتلتئم ، كما يستعمله لتلوين وزخرفة اوانيه الفخارية .

البادية تشتهي ان تتقدم

وتحت ظلال « دم الاخوين » جلسنا نتحدث مع اربعة من ابناء البادية : سالم الدعرى ، محمد الدعرى عيسى الدعرى ، يحيى الدعرى .. وكلمة الدعرى نسبة الى منطقة دعرهو التي تتوسط الجزيرة تماما ..

وبدأ الرجال الحديث بسؤال تقليدى تعودناه من ابناء البادية : « ما عندكم دواء ؟ » .

وكشف احدهم عن قدمه المتقيحة نتيجة جرح كبير لم يعالجه احد ، ووضعنا له قليلا من صبغة اليود فاستراح قبل ان تبدأ المادة المطهرة تؤتي مفعولها !

الى اسفل : طاحونة او رحى ، من العصر الحجرى ، مازالت تستعمل في القرن العشرين .. في بادية سقطرى !



قلنا : « لماذا لاتزرعون ارضكم .. ولماذا لاتتعلمون ؟ » .

واندفعوا بصوت واحد ينفون هذه التهمة قائلين بلهجتهم العربية الخاصة : « نحن بغينا (اردنا) التعليم .. نحبوا المدارس حق العيال بنات واولاد .. نشتهى من الله ومن حكومتنا ، ومنكم ان تعلم .. البادية تشتهى ان تتقدم .. تشتهى ان ينتهي تأخرها ..

« أما الزراعة فما عندنا فهم .. نحن في جزيرة متأخرة .. وما في « دربى » (اى لا توجد حبوب) .. والزراعة ما هي عيب .. وهل يمكن ان يكون الاكل عيبا ؟؟ انا اشتهى اتعلم زراعة القطن .. » .

لاقيمة للوقت

قلنا للرجال الاربعة : « وهل بلادكم بعيدة ؟ ».

فاجابوا على الفور : « ابدا دعرهو قريبة هنا ساعات قليلة .. انها وراء هذا الجبل .. »

وبدأنا نتحرك ظهرا ، ولم نصل دعرهو الا ثاني يوم ظهرا .. اى امضينا ٢٤ ساعة حتى وصلنا دعرهو !!

« ساعات قليلة » حسب قول ابناء بادية سقطرى .. ان الوقت لاقيمة له عندهم لانهم يجهلونه ، فنحن لم نشهد ساعة في يد اى شخص منهم .. لهذا تجده لا يعلم كم هي الساعة وكم هي الدقيقة ، وكم هي المسافة !!

الشرجي .. والتسامح

والواقع اننا لم ناسف على رحلتنا الى دعرهو ، فهي قلب البادية السقطرية .. تتكون من اربعة منازل حجرية فقط ، ولكن سرعان ما بدأ الناس يتوافدون من كل ناحية .. من الاكواخ والكهوف التي يعيشون فيها حول المنطقة .. ان دعرهو هي قرية دليلنا عامر .. وكان استقبالا حارا من امرأته واخته وقريباته سارعن الى تحيته باسلوبهن الخاص : « الشرجي » اى حك الانف بالانف .. وكم كان جميلا منظر الاب وهو يحك انفه بانف زوجته واطفاله بحنان زائد ..

ومن الطريف انه اذا هطلت الامطار وتقابل عدوان او خصمان في بيت او كهف ، فانهما يشرقان (اى يحكان انفيهما) ويتصالحان ويتناسيان عداوتهما ، لان الذى جمعهما هو المطر .. والمطر معناه الخير وليس الشر !



الى اليسار : ينزل ابن البادية من قمم جبال حَجْهَر الى حديبو العاصمة عندما يسمع بقرب وصول الباخرة التي تحمل طعاما .. وكثيرا ما تتأخر الباخرة فينام على الشاطيء وسط الحصى الكبيرة لمدة ١٠ أيام او اكثر في انتظارها .. وهؤلاء الاربعة هم من قبيلة الدعرى ، وقد جاء ذكرهم في المقال ، في طريقهم الى حديبو .

كرم حاتمي

وبدأنا نستعد للنوم في العراء واصر عامر على ان ننام في منزله ، فشكرناه ورجوناه ان يتركنا ننام في العراء .. وجاء من يقول لنا : « لا تناموا لان عامر يستعد لذبح خروف ومعزة احتفاء بوصولكم » ..

وكان الارهاق قد اخذ منا كل ماخذ ، فرجوناه ان يؤجل الذبح لظهر الغد .. واستمرت المحاورة بيننا زهاء الساعة ، اشترك فيها مرافقونا شكيب محمد اسماعيل من المحافظة الاولى ، وعبد الحميد نكاتي من الخارجية ، ومحمد عبد القادر عرْجي من وزارة الثقافة ، وتدخل الحمالون ، حتى استطعنا في النهاية اقناع عامر بتاجيل ذبح الخروف الى الغد ..

الاغاني تحفظ تاريخ الجزيرة

وبدأنا نغط في سبات عميق ، ولكن اصواتا خافتة بدأت تتسلل الى اذاننا : « ايا واه .. يا وا .. اوا .. وا .. وا .. » والتفتنا فاذا بمجموعات من الرجال والنساء اللواتي ارتدين اجمل حللهن ، وكلهم جلوس على الارض في صفين متقابلين .. النساء من ناحية يغنين ، والرجال يجيبون عليهن . انهم يمكثون حتى ساعات متأخرة من الليل يرمشون ، اى ينشدون الاغاني السقطرية التي اخذت اصولها من التاريخ .. انها تاريخهم

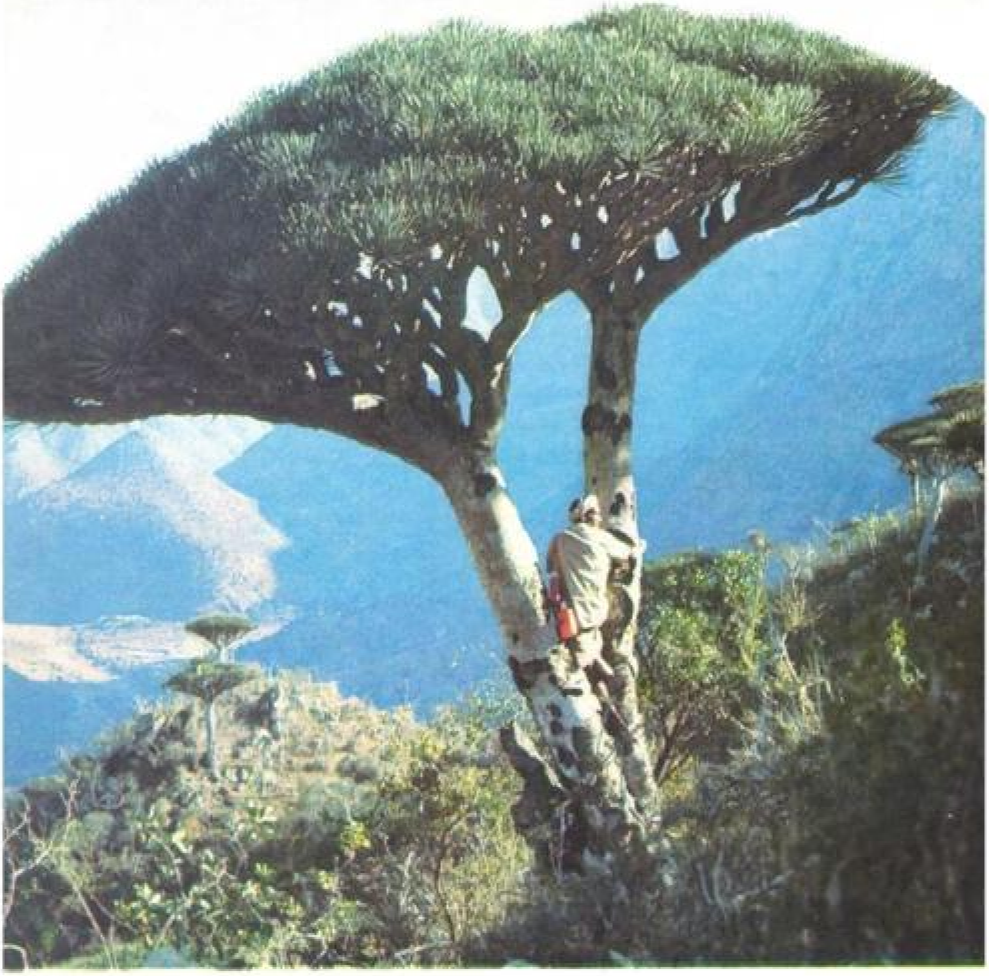


كانت الطبيعة سخية على بادية سقطرى ، وتغيرت في العام الماضي ، وبخلت حتى بقطرة من امطارها !!





يجد علماء النبات متعة زائدة في اكتشاف النباتات النادرة في الجزيرة .. وفي الصورة العليا نبات الصبر ، تقطع اوراقه فتنزف مادة الصبر على قطعة من جلد الماعز ، وتترك لتجف ببطء ، وبعد حوالي شهر يتكون الصبر ذو اللون البني ، وهو افخر انواع الصبر في العالم . يصدرونه للهند ويستعملونه مسهلا . والى اليمين شجرة تريمو Adenium السامة تنبت ، بين الصخور دون أن يزرعها احد .. جذعها لونه زنبقي جميل ، وازهارها ملونة بالوان اربعة ، اذا اكل الجمل ورقة منها مات في الحال . يستعمل الاهالي افرازها لعلاج رمد العيون !





مفخرة سقطرى .. انها شجرة دم الاخوين .. تنبت باعدادها هائلة فوق قمم الجبال في منطقة عصا جالو ودعرّهو ، ويقول الاهالى ان هذه الشجرة موجودة منذ وجدت الجزيرة على الارض.. وهم يعمدون الى احداث «جرح» كبير في جذعها ، لتنساب منه مادة لزجة حمراء اللون تتجمد مكونة قصوصا حمراء داكنة هشة ، يباع الرطل منها بثلاثة شلنات .. وارتفاع الشجرة يتراوح بين ٦ و ٩ امتار ، وتنمو احيانا بجذع واحد او اكثر ، ويطلق عليها الاهالى اسم (عريب) وذكرها بعض الكتاب باسم العَنْدَم والايدع ، اما الاوربيون فيطلقون عليها اسم Dragon's Blood اى « دم التنين » .

غير المدون ، الابناء يحفظونها من الآباء والاجداد .. يتحدثون عن كسرى انو شروان وقواته التي جاءت لمساعدة سيف بن ذي يزن في طرد الاحباش من اليمن ، وكيف نفوا الاسرى والعصاة الى جزيرة سقطرى ، واوثقوا ايديهم واقدامهم في القلاع ، فكانت تاوهاتهم واناتهم وحشرجاتهم يتردد صداها بين وديان وجبال سقطرى .. وا .. ياوا .. واناناا .. انانيا .. يستعطفون قوات كسرى دون طائل .

ايش الفايدة

ومن التقاليد التي سجلتها الاغاني ، عادة ذبح الابقار والاغنام وتوزيعها على الاقارب عندما يموت انسان ، تقول الاغنية باللهجة العربية المحلية : « ليش (لماذا) يبكوا عليه .. وايش يسووا فيه .. لقد صار من امر الله . كل واحد بنوبي يذبحوا عليه غنم كثير .. ايش الفائدة ، وليش تذبحوا عليه .. ليش ما تطلبوا ربكم في هذا الغنم من اجل انزال المطر .. المطر ساعة ما ينزل تنفتح السماء ، وتعم الارزاق .. » .

اشكر ربك ..

وفي الصباح اتجهنا الى بئر الماء لنغتسل ، واخرجوا الماء من البئر في دلو مصنوع من جلد الماعز ، الثقوب فيه لا تحصى كثرة ! ؟ وتطلعنا الى الماء فوجدناه اسمر اللون ، تتلاعب فيه حيوانات صغيرة ، فقلنا لعامر : « لماذا لاتنظفون البئر من الاقذار ؟ » .

فاجابنا بفلسفة مرة : « اشرب الماء الذي تحصل عليه ، وكل الطعام الذي تصل يدك اليه .. واشكر ربك لان هذا الماء الملوث موجود ، وهذا الاكل الفاسد متوفر في جزيرتنا المتوحشة المتأخرة » !!

ذبابة ديمازر

وشاهدنا الصبية والرجال يضعون عقودا من الخرز تحت انوفهم ، فتعجبنا وسألنا عن السبب ، فقالوا : « انه حرز .. يمنع ذبابة ديمازر الاستوائية من التسلل الى الانف والفم ووضع بيضها في الحلق .. ولو حدث هذا فان المصاب يشعر باختناق ، لا ينقذه منه الا شرب جاز اللمبة ليقتل بيضها ! » .

وطبيب بعثة اكسفورد التي مكثت ٥٢ يوما تبحث وتنقب عن كل شيء في الجزيرة ، ذكر هذه الذبابة الاستوائية بقوله : « باعتقادي ان هذه الذبابة حشرة خيالية لا وجود لها .. » .

شلوه معكم

وجاء عامر الينا ومعه طفله الذي لم يتجاوز السادسة وقدمه لنا قائلا : « ابني مريض .. اسنانه تؤلمه .. لماذا لا تشلوه (تأخذونه) معكم الى بلادكم الكويت .. انا متأكد انه عندما يطيب ويتقدم ، سوف يفيد الجزيرة اكثر من وجوده هنا .. » .

واسقط في يدنا ، ولم نستطع ان نعمل اكثر من اعطائه بعض حبوب الاسبرو وكل ما نحمله من بسكويت وحليب في محاولة للتخفيف من آلام اسنان الطفل المسكين ..

والعلاج في البادية معدوم تماما ، لا يوجد فيها حتى مستوصف .. والدواء الشائع الى اليوم هو الكي بالنار .. ومن النادر ان تعثر على سقطري ليست فيه آثار هذا الكي .. حتى الاطفال يكوونهم بالنار .. وما اكثر الكي الذي

هذا الصبي ، سالم بن علي ، من ابناء البادية انتفخت معدته فحاولوا علاجها بالكي ، ولكنها ظلت على ما هي عليه ، فنقلوه الى مستوصف حديبو ، وهناك قام المساعد الصحي سعد علي سلمان بعلاجه من انتفاخ المعدة ، ومن تقيح الجروح التي خلفها الكي !!





نور دعيسوس .. ينطفى نورها وتذبل بسرعة .. انه السل اللعين يفتك بها ، لم تستطع الانتقال لمستوصف حديبو ، ولم تأخذ اى دواء .. «المعلم» في دمرهو ، كتب لها حرزا تراه بيدها ، وطفلها في حجرها يلتقط منها الميكروب القتال !!

ترك آثارا مؤلمة على الجسم فحولها الى جروح عفنة يستحيل على الشخص العادى مساعدة اصحابها .

انهم يحاربون عدوا يجهلونه .. والنار هى اكثر الاشياء تطهيرا ـ في اعتقادهم ـ فاعتمدوها دواء شافيا لكل امراضهم .. يكوون الاطفال باسياخ الحديد لانقاذهم من شلل الاطفال .. يكوون المرأة المتعسرة ولادتها بالنار ، حتى تسهل ولادتها .. يكوون الصدر لمعالجة السل !!

يكوون الخد الخارجى لمعالجة آلام الاسنان الداخلية .

وامراض العيون يختلف علاجها عن امراض الجسم، فالذى يصاب بالرمد يأخذونه تحت شجرة « التريمو » ينزعون وردتها ، فينساب منها سائل سام لزج الى العين المريضة مباشرة !

غير معقول ..

وتتعاظم المأساة ، عندما تلج داخل احد المنازل ، او الكهوف ، وترى كيف يعيشون .. وتتسلل من بين شفتيك كلمتى : « غير معقول .. غير معقول ان يعيش سبعة اشخاص في جحر مغلق ، مع جلد الماعز المجفف ، والتمر والسمن البلدى والذباب والبعوض » !! (انظر الصور)

عيك .. عيك

والمرأة في البادية تسير سافرة ، لها السلطة الاولى في المنزل ، ترتدى اجمل الملابس وتتحلى باقراط الفضة ، لعدم مقدرة زوجها على شراء الذهب .

وتحدثنا الى بعضهن وسألناهن : « لماذا لاتزرعن حول المنزل مثل شقيقتكن في حديبو ؟ » .

فقلن ببساطة : « ماعندنا عِلْم (اى لا نعرف) اما بنت حديبو فتستمع للراديو .. اما احنا ما عندنا تَهْم للراديو ! » .

قلنا : « هل تشتهين تعلم الزراعة ؟ » .

فقلن بسعادة : عيك .. عيك .. (اى نعم .. نعم).

وودعناهن فقلن بصوت واحد : « ميستكرم .. مستكرم .. » اى شكرا .. شكرا .

الاتكال على الله

وفي طريق العودة قابلنا اعدادا كبيرة من ابناء البادية اجرينا معهم احاديث كثيرة ، من الصعب روايتها كلها لضيق المكان ، ولكنا نكتفى بهذا الحديث لدلالته .

سألنا احدهم : « ما اسمك » ؟

اجاب : « ليش بتسألنى » .

وشرحنا له مهمتنا ، ولكنه اصر على عدم ذكر اسمه . انه شاب لم يتعد العشرين من عمره كل ما يملك هو فوطة ملونة يغطى بها نصف جسمه ، يضع فيها سكينا ..

قلنا : « هل انت سعيد في حياتك ؟ » .

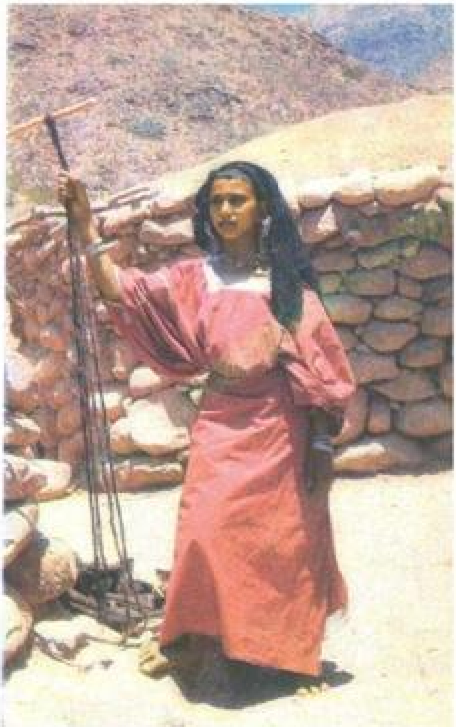
فقال : « وكيف .. انا مبسوط جدا والحمد لله » .

قلنا : « ماذا تعمل ؟ » .

قال : « كل شيء اعمل .. اذا علمتونى الزراعة اعمل مزارع ، واذا كان تشلونى للبحر اعمل في البحر .. كل شيء اعمل .. » .

كان يجلس وامامه ثمانية حبات من التمر ، وانضم الينا في الحديث رجل آخر جلس يستمع

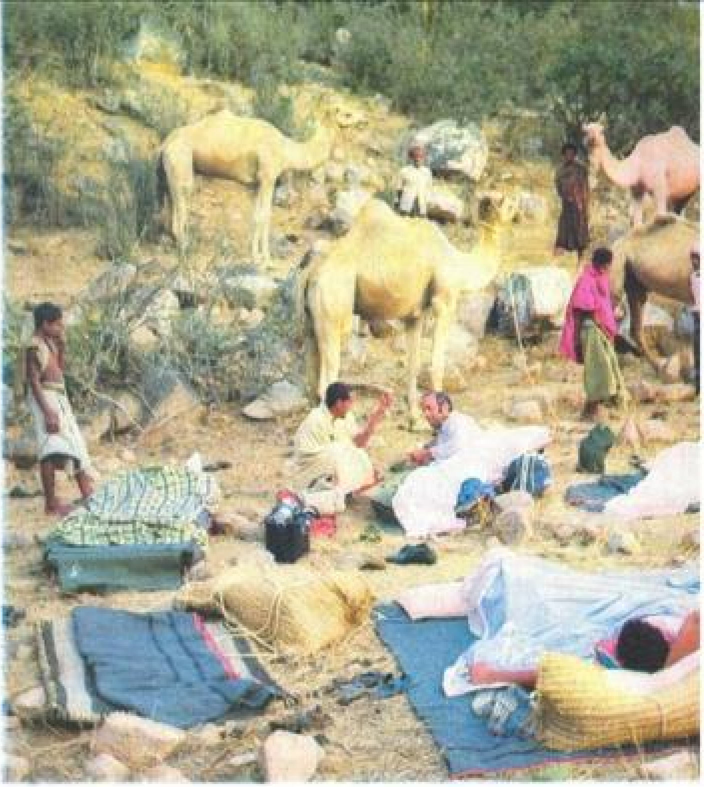




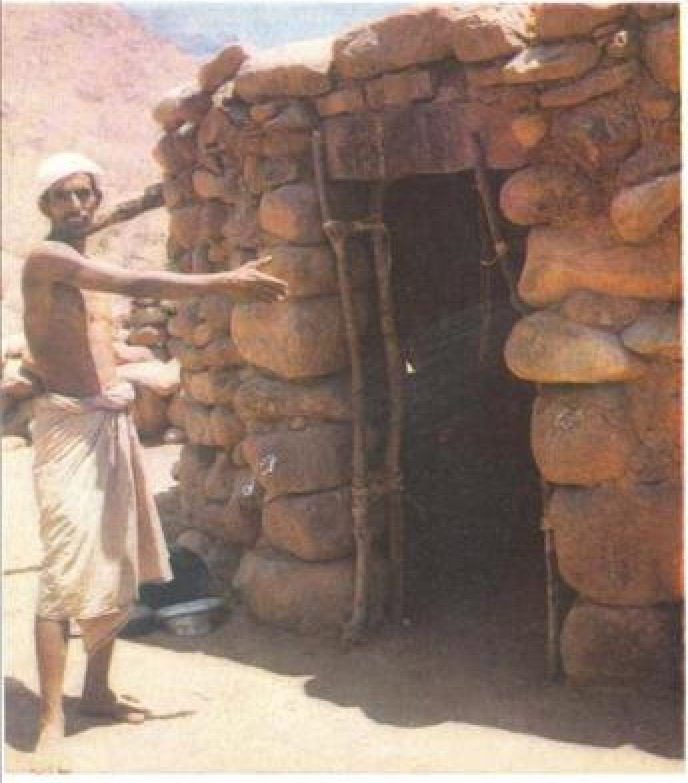
الى اليمين : المرأة في البادية تختلف عن اختها في المدينة ، فالبادية لم تعرف الحجاب ، لان عمل المرأة يجعل من الحجاب معوقا لها ، فهي تتسلق الجبال وتجمع الاحطاب ، وتجرىوراء الماعز والخراف .. وهذه صورة فاطمة بن جمعان ، بكامل زينتها ..

الى اسفل : من الممكن ان تمد سقطرى بقية اجزاء الجمهورية بحاجتها من اللحوم اذا اعتنى بتحسين نوعية ابقارها وماعزها وخرافها ، وفي الصورة مجموعة من الماعز الوحشي الذي يربيه الاهالىبصعوبة





الى اليمين : ليس في البادية ، اى مكان يصلح لنوم رغيد .. حتى منازل الاعالي لاتصلح .. وعندما قالوا لنا : سننام في قيشن ، تخيلنا قشن قرية صغيرة ، ولكننا وجدناها قطعة ارض فسيحة وضعنا عليها الاغطية الصوفية ، ورحنا في سبات عميق غير عابئين برغاء الجمال .. ولا بغناء الجمالين .. ولا بأم سبعة وسبعين !!



الى اليسار : « .. تفضلوا .. خذوا هذا المنزل واجعلوه اول مدرسة لتعليم اولادنا وبناتنا .. نحن نشتهى التعليم .. نشتهى ان نتقدم . ساعدونا »
هكذا قال لنا عامر بن احمد بن سالم بن علي بن حميد بن دعري ـ !! ـ لقد سافر الى عدن وادرك ان التطور لن يتم الا بالتعليم ، فشيد هذا المنزل ليكون مدرسة في البادية .. وفي حديبو قمنا بعملية بحث عن استاذ يقبل العمل في دعرهو ، فوجدنا من يقبل العمل بمرتب ٤٠ دينارا شهريا لمواجهة صعوبة الحياة هناك .. والكتب المطلوبة هي اربعين كتابا لاربعين طالبا في الصف الاول .. اى ان المطلوب ٤٠ دينارا شهريا و ٤٠ كتابا ليبدأ تعليم البادية ـ ٤٠ دينارا تبدأ بها عملية انتشال شعب من الجهالة ..



عريس وعروسه لم يبلغا سن الخامسة عشرة بعد ، ومع هذا تزوجا .. ويعتقد البدوى ان المرأة الجميلة يكون قلبها صافيا مثل وجهها !

فشاهد التمرات الثمان فبدأ ياكل منهـا دون استئذان صاحبها ، الذى لم يجد اى غضاضة فى هذا التصرف ..

واشعل الشاب غليونه ، فقلنا له : « من اين لك هذا التمباك ؟ » .

قال : « اشتريته بالفلوس » .

قلنا : ومن اين لك الفلوس ؟ » .

قال : « الله ينزل الفلوس .. اليس الله هو الذى غدانى وعشانى ؟ » .

قلنا : « اين تنام ؟ » .

قال : « الله اعلم .. ارض الله واسعة » ..

فقر مشترك

وجلسنا نفكر ونحاول البحث عن حل لمشاكـل جزيرة سقطرى .. انها تركة مثقلة ورثتهـا جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية من استعمار بريطانى بدأ منذ عام ١٨٢٤ ولم ينته الا بعد ١٢٧ عاما ، اى فى عام ١٩٦٧ وترك البلاد على نفس الحال الذى كانت عليه عام ١٨٢٤ لقـد توقفت عقارب الساعة طوال هذه الفترة فى هذه الجزيرة .. وكم من مرة كاد اهلها يموتون جوعا ، مثلما حدث عام ١٩٤٢ عندما مات اكثر من ١٠٪ من اهل البادية جوعا ..

والناس ماتوا جوعا لانهم لم يجدوا من يعلمهم طريقة شق الارض ، واخراج الطعام ..

والبدو فى الجبال ليس عنـدهم المال الكافى لخزن مؤنة ستة شهور عجاف ، تغلق فيها الجزيرة سنويا ، بسبب الاعاصير والانواء ..

ان الذى يعزى ابن سقطرى هو ان الفقـر مشترك بينهم جميعا تقريبا ، لهذا لايشعرون بالفرة فيما بينهم ، والمؤلم ان هـذا الفقر سيستمر مادام الاصلاح فى الجزيرة يكاد ينعدم .

لهـا رب

ان التركة المثقلة التى ورثها النظام الحالى فى اليمن الديمقراطى تجعل من الصعب عليه توجيه عناية كبيرة الى الجزيرة ، فهناك مشاكل هائلة تعانيها ست محافظات اخرى متاخرة فى حاجة الى اصلاحات سريعة .

اما سقطرى فان لها ربا سوف يوجه نظر الاشقاء العرب والامم المتحدة الىضرورة مساعدتها للنهوض بها من غفوتها الطويلة .. !

واعيـباه

وعدنا الى حديبو ـ او تمارا كما كانوا يطلقون عليها قبل القرن التاسع عشر ـ عدنا اليها بعد ان قطعنا نحو ٧٨ ميلا على الاقدام وفوق ظهور الجمال فى ستة ايام .

عدنا ومازالت اصداء صرخات محمد الدعرى تدوى فى اذاننا وهم يكوونه بالنار لعلاج اسنانه .

عدنا ومازال صوت سعال على عيسى يطـرق اذاننا .. انه السل ياكل صدر الطفل بهدوء دون ان يعالجه احد .

عدنا ومازالت صورة عامر الدعرى مرتسمـة امامنا وهو يقدم لنا ابنه قائلا : « خذوا ابنى .. شلوه معكم .. عالجوه .. علموه .. وربوه .. » .

عدنا ومازالت تاوهات اغنية الرمثة تدوى فى اذاننا : « يا .. باوا ياو .. نا . بالاليا » .

واعيباه .. انفى اصواتنا العربية تموت دون ان يساعدها احد ■■

سليم زبـال

العربي

العدد ١٥٩
ذو الحجة ١٣٩١
فبراير
(شباط) ١٩٧٢



فتاة من بلاد المهرة .. تلك الارض المجهولة في وطننا العر

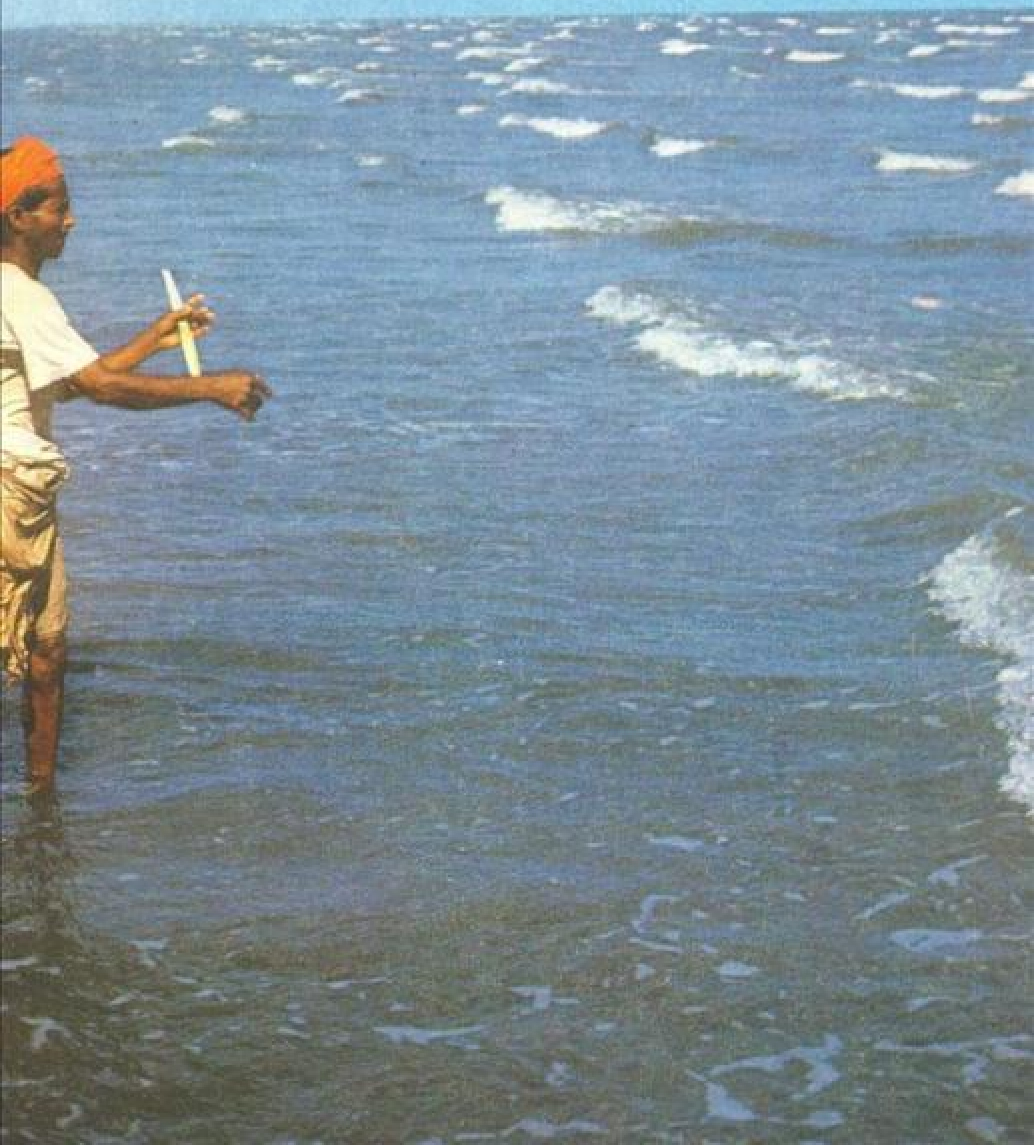
جوائز
١٢٠٠
نار سنويا

الثمن

الكويت	١٠٠ فلوس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان
الخليج العربي	[illegible]	لبنان	[illegible]	ليبيا
السعودية	[illegible]	الأردن	[illegible]	تونس
البحرين	[illegible]	سورية	[illegible]	الجزائر

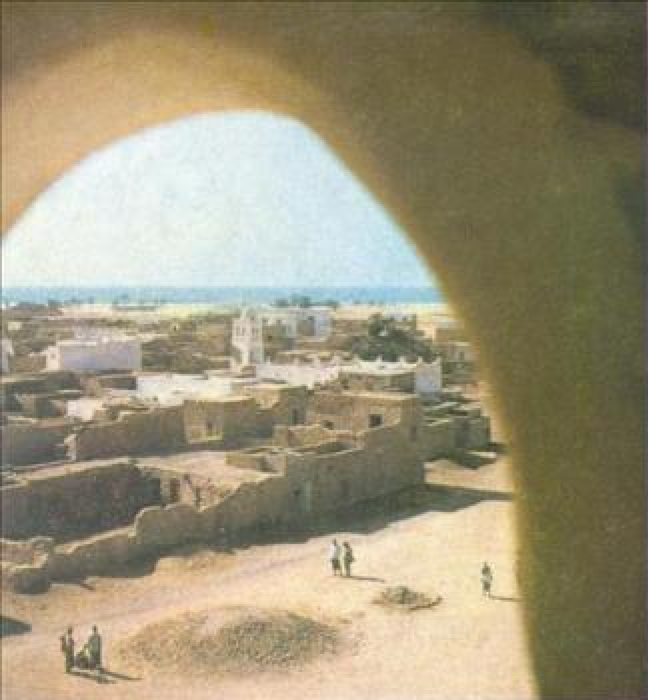
اعرف وطنك أيها العربي

بلادُ المَهَرَة



استطلاع
سليم زبال

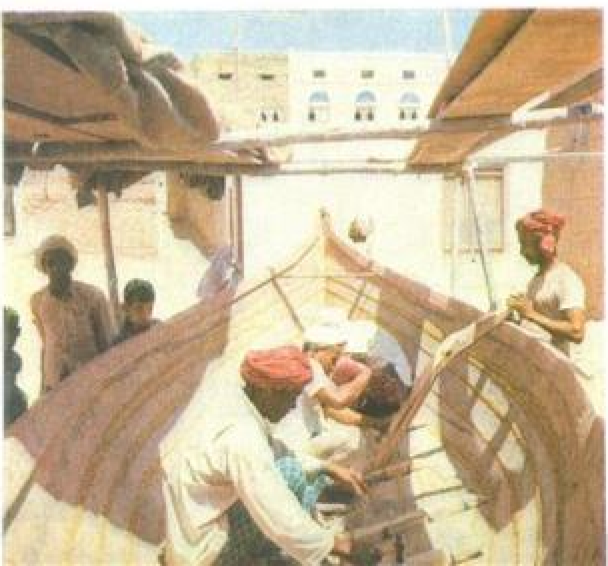
تصوير
أوسكار مترى

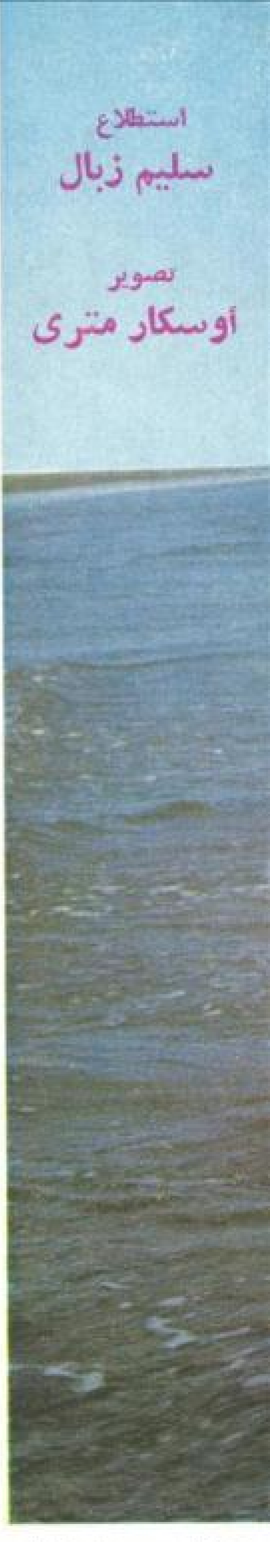


سيحوت : واحدة من المدن الست المتشابهة في بلاد المهرة : اطلال فوق رمال الصحراء ،يعيش داخلها عرب اصلاء بعيداً عن الحضارة والاضواء..

رحلة الى أرض مجهولة من وطننا العربى لو لخصنا حياة أهلها لكانت سمكاً ونياقاً

الى اسفل : قنبار وقار ، واشجار الصاج الواردة من نيبار .. يصنع منها المهرى قاربه الرفيع « البنوش » او السنبوك.. ليخوض به البحار، ويغالب الاعاصير والانواء .





...سمكة تكفيه هو وعائلته فقط !.

■ رمال وجمال .. واناس يعيشون في جحور .. ولا شيء اكثر من هذا .

كانت هذه هي الصورة التي طالعتناعندما بدأنا رحلتنا في بلاد المهرة .. ولا تسأل عن بلاد المهرة الآن .. فسوف نأتيك بالجواب عن هذا الشعب المنسي ... عن اصله وفصله وتاريخه وكل شيء يخطر على بالك ..

وقفنا نتأمل هذا الذي نراه امامنا ، وقلنا نسأل انفسنا : **« ترى اي مصيبة تلك التي حلت بهذه البلاد ؟ فجعلتهاتعيش في هذا التخلف المخيف ؟ »** .

حرموا البلاد من كل شيء



وفي رئاسة مجلس الوزراء في عدن ، عاصمة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، التقينا بشاب هادىء وسيم ضخم قوى البنية ، وكان لقاؤنا به بعد ان انتصف الليل او كاد .. كان يجلس في مكتبه ويسرح بخاطره في تلك الأكوام المكدسة من المشاكل التي تعاني منها بلاده ، ومنها بلاد المهرة .. انه رئيس وزراء اليمن الديمقراطي الأستاذ علي ناصر محمد .. ودار حديث طويل اختتمه بقوله :

« .. لقد رحلوا عن بلادنا بعد ١٣٠ عاما من استعمارهم لها ... رحلوا مخلفين وراءهم شعبا تخنقه المتاعب والمشاكل والتخلف .. رحلوا بعد ان حرموا البلاد من كل شيء : من العلاج ، والتعليم ، والمواصلات ، والطرق ، والموانىء والزراعة ، والصناعة .. كان همهم التركيز على قاعدة عدن ، ولا شيء الا عدن ، فاهملوا مليونا ونصف مليون انسان يعيشون فوق ارض مساحتها ١١٢ الف ميل مربع .

« انا سعيد لأنكم ستتوجهون غدا الى محافظتنا السادسة التي كانت تعرف باسم بلاد المهرة ، سعيد لأنكم ستنقلون للقارىء العربي صورة واقعية لمأساة يعيشها شعب عربي منسي مجهول منذ مئات السنين » .

الليل ستار للعيوب !

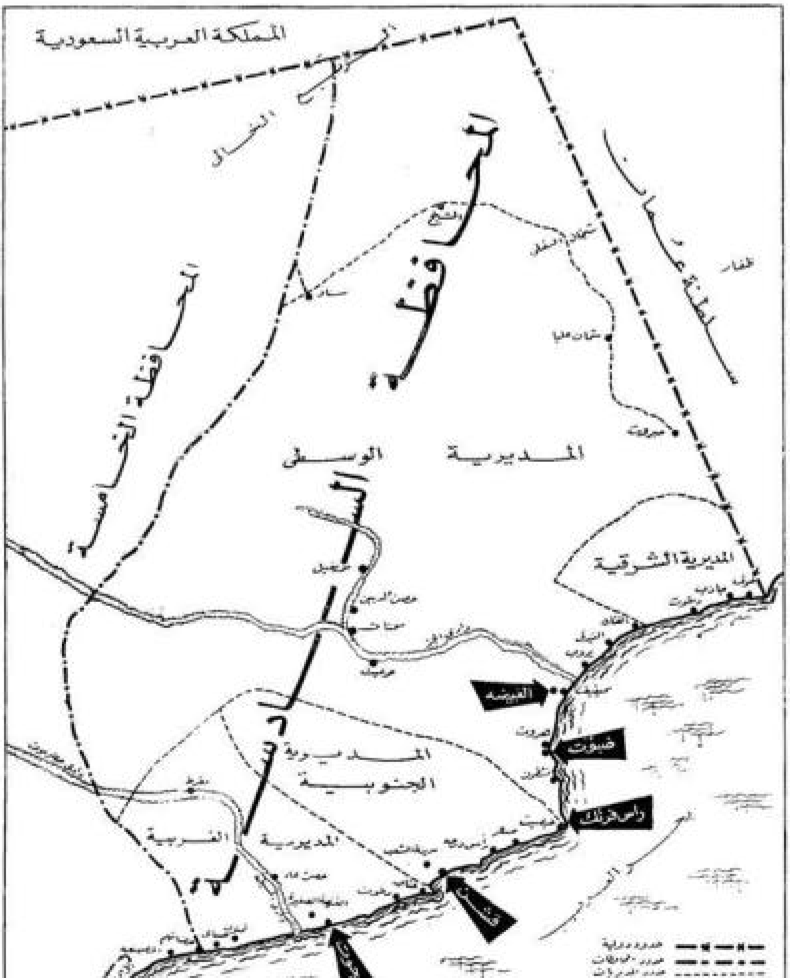
وبدأنا رحلتنا على امتداد الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب .. الطائرة الصغيرة نقلتنا في ساعتين من عدن الى المكلا ، عاصمة المحافظة الخامسة التي كانت قبل ذلك حضرموت (انظر الخريطة) .. ومن المكلا انطلقت بنا سيارة اللاندروفر على ساحل البحر الذي انحسر عنه الماء .. ولكن سرعة السيارة لم تسعفنا كثيرا ، فقد بدأت امواج المد تندفع على طول الساحل ، فحاصرتنا مياهها داخل السيارة .. وانزاح المد .. وعاودنا السير على الساحل المبتل الذي بدأت تتكاثر عليه الصخور فتجعله غير صالح للمواصلات ، واتجهنا صوب الداخل .. الرمال الناعمة تعوق حركة السيارة ، ولكنها سيارة صحراوية تعرف كيف تتخلص من المآزق .. الرمال تحيط بنا من كل جانب .. وأسدل الليل ستارا حجب عنا منظر التلال الصعبة والوديان البخيلة المجدبة .

الانطلاق صوب المجهول

ومع دخول الليل ظلت السيارة تنطلق في كل

الى اليسار : خريطتان .. العليا لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، بمحافظاتها الست ، ومجموع مساحاتها ١١٢ الف ميل مربع ، ومجموع سكانها مليون ونصف مليون نسمة (تقريبا) وتمتد على الساحل لمسافة ٦٠٠ ميل تقريبا .. والمحافظة السادسة هي التي كان يطلق عليها اسم بلاد المهرة سابقا .. وتراها بالتفصيل في الخريطة السفلى : مساحتها ٣٠ الف ميل مربع تحتل الجبال نسبة ٦٠٪ من اراضيها وعدد سكانها ٧٥ الف نسمة ، لكن اهلها يقولون انهم ١٥٠ الفا . والاسهم السوداء تشير الى اهم المدن التي ورد ذكرها في هذا الاستطلاع ، كما ظهر في الخارطة وادي حضرموت ووادي الجزر او الجيزاء ومعناه الجذع بالعربية .


سلطنة عمان
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية
المحافظة الثالثة
المحافظة الأولى
خليج عدن
جزيرة سقطرى


المملكة العربية السعودية
المحافظة
المحافظة الخامسة
المديرية الوسطى
المديرية الشرقية
المديرية الجنوبية
المديرية الغربية
الغيضة
رأس فرتك





عملية خلع ضرس في ضوء الشمس عند بوابة المستوصف ، فالكهرباء لم تعرفها المنطقة بعد .. ان محمد احمد غانم القادم من جزيرة سقطرى ، والذى يعمل مساعدا صحيا في مدينة قشن ، يقوم بخلع الاسنان ، وعلاج السل ، والتهاب الكبد ، والولادات المتعسرة، والتهاب المبايض ، حتى علاج الحيوانات يقوم به .. ان بلاد المهرة ليس فيها مستشفى ، وقشن لم تعرف طبيبا الى اليوم !!





كفل الدستور للمرأة كافة حقوقها السياسية والاجتماعية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، ولكن تطبيق هذه النصوص على المرأة المهرية من الصعوبة بمكان ، فهي ما زالت حبيسة منزلها ، ما تكاد تبلغ الحادية عشرة من عمرها حتى « تتقمقم » اى ترتدي القمقم الاسود ـ هكذا يسمون العباءة ـ وتجلس في منزلها وسط فراغ هائل .. وعندما يتقدم العريس لطلب يدها ، يستشيرها والدها في الامر ، فاذا وافقت ، دفع العريس المهر الذى يتراوح بين ٥ و ١٥ الف شلن ، رغم قانون تخفيض المهور .. وبعد الزواج يسافر الزوج وتبقى المرأة في منزلها مع اطفالها لفترات قد تمتد الى سنوات ..

الى اليمن : يتميز المواطن المهرى بالكرم العربى الاصيل ، فعندما يأتيه ضيف يذبح له الشاة او العنزة ، ويضع لحمها فوق اكوام من الارز المطبوخ بالمرق والحومر .. ولكن الطعام اليومى للاهالى مختلف تماما ، ففى الصباح يشربون حليب الناقة مع قطعة من خبز الذرة،وعند الظهر يأكلون سمكا ، وفي الليل يشربون حليب الناقة ثانيا، .وعندما يخرج المهرى للبحر يأكل العصيدة،اى دقيق الذرة المخلوط بالسمن الحيوانى ..اما الخضراوات والفواكه فلا اثر لها على الاطلاق في المنطقة ، ومن هنا انتشرت امراض فقر الدم والانيميا وغيرها بين السكان لعدم تنوع الطعام .

اتجاه يحلو للسائق ، كنا مندفعين صوب المجهول .. صوب ارض منزوية عن اضواء الحضارة ، صوب أرض مرتبطة بعصر غير عصرنا .. انها أرض المرّ والبخور والبان ، وموطن المهرة .. هؤلاء العرب الاقحاح ، الذين ما زالوا يفتخرون بانهم من نسل يعرب بن قحطان ... !

اشعب هو السبب !!

وعدنا بالذاكرة الى الوراء ... الى الازمنة الغابرة ... الى ايام الهجرات العربية الاولى .. الى عصر العرب العاربة .. وبين صفحات التاريخ بدانا نبحث عن قصة رجل اسمه : مهرة بن حيدان ..

وعثرنا عليه ، وهو ينطلق نازحا من تهامة الى ارض سبأ ليستقر في مأرب ، مع بطون مختلفة من قبيلة قضاعة الشهيرة ، التى احتار النسابون في نسبها ، البعض يقول انها من نسل عدنان ، والبعض الآخر يقول : لا .. انها من قحطان ..

ويظهر أن « مهرة » قد نزح مع قضاعة في بداية التاريخ الميلادى او قبله قليلا ..

وعاش الجميع بسلام في مدينة مأرب ، حتى جاء ذلك اليوم الذى نزل فيه غلام اسمه اشعب الى بئر ماء في مأرب ، وادلوا عليه دلاءهم ، فطفق الغلام يملأ لمواليه ويؤثرهم ، ويبطيء عن الآخرين .. فما كان من احدهم الا ان ثارت اعصابه ، وغضب ، وامسك بحجر والقاه على راس الغلام المسكين في قاع البئر فدمغه ... وقامت الدنيا ولم تقعد ، واقتتل القوم فيما بينهم ... ثم تفرقوا ... وبدأوا نزوحا جديدا ، فقل بعضهم راجعا الى تهامة ، والبعض الآخر نزح للمدينة المنورة .. اما الشخص الذى يعنينا وهو « مهرة بن حيدان » فقد اتجه مع جماعته صوب الجنوب ، الى مدينة الشحر ـ قرب المكلا ـ فاستقل بها وعرفت به .. والى هذا الرجل « مهرة بن حيدان » ينتسب كل رجل مهرى ..



الاخ محسن علي باسر محافظ المحافظة الثالثة ، يتفقد اللمسات الاخيرة في بناء مأمورية قشن .. لقد استطاع هذا الشاب ان يوفق في حل اكثر من ١٠٦ حالة ثأر كانت موجودة بين مختلف القبائل



الشاعر الشعبي عامر سالم ، ينشد الشعر باللهجة المهرية .. والشعراء المهريون يزيد عددهم عن ٣٠٠ شاعر .. يتغنون بالحب والجمال والحياة القبلية ، ويشبهون المرأة الجميلة بالناقة ! .



سهرة حتى منتصف الليل قضيناها مع العمال في مقرهم المتواضع بالغيضة .. ان المشاكل امامهم كثيرة، وشكواهم المرة هي انعزالهم عن العالم .. لا توجد صحف ولا دور للسينما ولا تلفاز .. والمذياع هو وسيلة الاتصال الوحيدة بينهم وبين العالم الخارجي ، وعندما سألناهم عن غزو الانسان للقمر ، وجدنا ان ٩٥٪ منهم يكذبون هذا الحدث التاريخي ، ولا يعتقدون به !

في ظلام التاريخ

كانت معلوماتنا عن بلاد المهرة منحصرة فيما ذكرته كتب التاريخ * ، وحاولنا سد هذا النقص في عدن ، فرحنا ندق ابواب الوزارات ، نسالهم معلومات عن بلاد المهرة او المحافظة السادسة في جمهورية اليمن الديمقراطي .. وكانت الاجابة : « لا يوجد عندنا شيء ... انها ما زالت تعيش في ظلام التاريخ » .. هكذا قالوا لنا ..

اين سيحوت ؟

كانت هذه الافكار تتتابع امامنا في ظلام الليل ، والسيارة تتارجح بنا .. لقد مضت ١٢ ساعة منذ ان تركنا المكلا في طريقنا الى سيحوت .. القرى تتتابع امامنا لا اثر لانسان فيها .. وفي كل مرة نسال السائق .. هل هذه سيحوت ؟ .. فيجيبنا:

لا ... كان التعب قد بلغ اشده منا عندما دخلنا قرية قالوا انها سيحوت .. ونظرنا الى مؤشر السيارة ، فوجدناه يسجل ١٨٩ ميلا قطعناها من المكلا الى سيحوت في ١٢ ساعة .

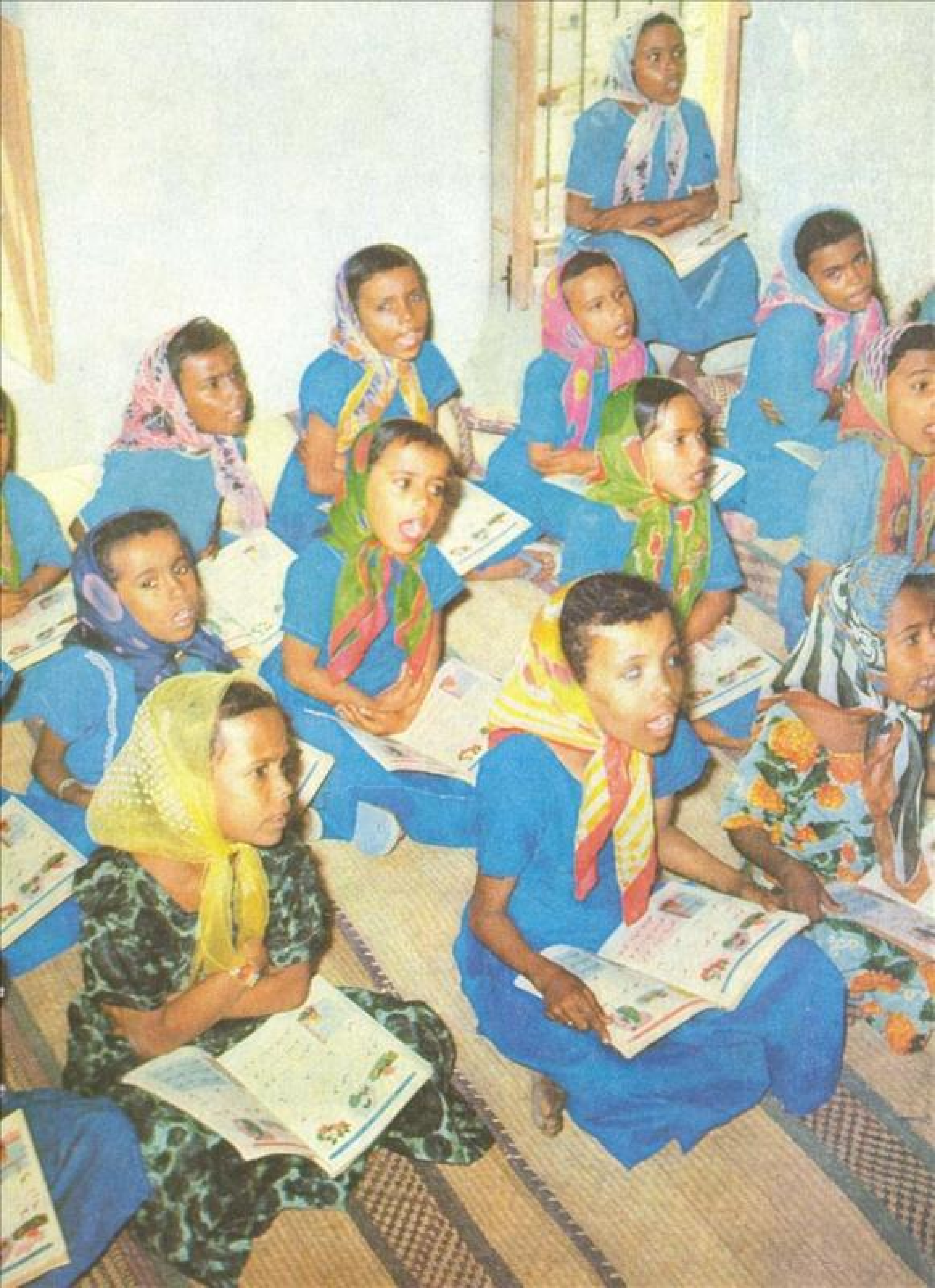
هكذا هي الحياة

وعلى ضوء لمبة الجاز ذهبنا الى منزل حديث البناء ، وصعدوا بنا الى غرفة في الطابق الثالث ... كان المنزل خاليا تماما من كل اثاث ... وقال لنا الحارس : « لحظة،واحضر لكم الفراش » وعاد بعد ربع ساعة حاملا سجادة قطنية القاها على الارض ، ثم حيانا قائلا : تصبحون على خير !!

وذهلنا .. ولكن هكذا هي الحياة في سيحوت .. ونمنا على ارض صلبة دون وسادة او غطاء .. ولم نكن في حاجة الى غطاء فمناخ سيحوت رائع ممتاز ...

---

* معجم مااستعجم ، للبكري – نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، للادريسي – العرب قبل الاسلام ، لجرجي زيدان ، وغيرها .







هؤلاء هم احفاد يعرب بن قحطان ، يتلقون درسهم الاول باللغة العربية بدلا من اللهجة الامهرية التي ظل اباؤهم يتوارثونها محافظين عليها بغيرة زائدة ، دون اية فائدة .. فهي لهجة ميتة ، لانها لهجة تخاطب يتحدثون بها دون ان يستطيعوا كتابتها .. لقد رفض الاهالي في البداية تعليم بناتهم ، وفجأة انقلب الوضع ولم يعد هناك مكان لقدم في مدارس البنات .. انظر الى الصورتين جيدا ، ولا تحاول ان تتمسك بالقشور ، وتسأل اين المقاعد ؟ وما هو مستوى الاساتذة ؟ ولماذا يسير الاطفال حفاة ؟ .. لان الذي يحدث حاليا في بلاد المهرة اشبه بمعجزة .. كانت هناك مدرسة واحدة يتعلم فيها ٤٥ تلميذا .. وفجأة .. ومنذ عام ١٩٦٨ قفز عدد المدارس الى ٢٢ مدرسة تضم ١٨٠٠ تلميذ و ٢٥٤ تلميذة .. ومباني المدارس اصبحت تقام بفضل تبرعات الاهالي ، ومن حصيلة تبرع كل موظف في الدولة بمرتب يوم في الشهر .. ومن حصيلة هذه التبرعات تم بناء عشرات المدارس الصغيرة في القرى والمراكز .. وما يكاد الطفل ينهي تعليمه الابتدائي في مدارس بلاد المهرة حتى يسافر الى المكلا – في المحافظة الخامسة – لتكملة تعليمه الاعدادي هناك .. وفي العام الماضي سافرت الى المكلا اول دفعة من هؤلاء الطلبة وعددهم ١٣ طالبا .. وهذه المشقة يتكبدها الطالب ويتحمل اهله النفقات الباهظة لعدم وجود مدرسة اعدادية الى اليوم في بلاد المهرة ، او المحافظة السادسة من جمهورية اليمن الديمقراطي !

وتقع سيحوت عند ساحل البحر على مقربة من مصب وادى حضرموت ، الذى يتبدل اسمه الى وادى المسيلة عند مصبه .. وسيحوت معزولة تماما عن العالم لا توجد طرق تؤدى اليها ، ولا مطار تهبط فيه الطائرات .. والبحر هو بابها الوحيد على العالم .

سر الختان المتأخر

والواقع ان بلاد المهرة كلها لم تنفتح على العالم الا في عام ١٩٦٨ وقبل هذا التاريخ ، كانت البلاد مغلقة على ٢٧ قبيلة متناحرة ، لكل منها عاداتها وتقاليدها ومناطق نفوذها .. اما السلطان احمد بن عيسى بن عفرار « ملك المهرة وسقطرى » فلم يكن يجلس في بلاده ، وانما كان يهرب منها الى جزيرة سُقطرَى .. تاركا حكم البلاد الى القبائل القوية تتقاتل وتتناحر ، وتورث الأبناء ثأر الآباء والأجداد .

ولحماية الجنس المهرى من الانقراض عن طريق الثار ، وضعت القبائل عرفا يحرم قتل اى طفل غير مختون .. وهذا يوضح لنا سر تأخر عملية الختان عند المهرة الى سن السادسة عشرة ..

حرب اهلية وفوضى

وكان المهرى ـ قبل الاستقلال ـ لا يجسر على السير الا والبندقية على كتفه للدفاع عن نفسه ..

وفي الغيضة ـ عاصمة المهرة ـ تأزم الموقف الى شبه حرب اهلية بين طرفي المدينة .. في الجزء العلوى تمركزت قبيلة كلشات ، وفي الجزء السفلى تمركزت قبيلة كدة ، واشتد القتال بين الطرفين الى حد استعملت فيه المدافع بينهما ..

وفي ظل تلك الفوضى انعدم التعليم وانتشرت الخزعبلات ، واصبح رش دم الماعز على جسم المريض ، وكيه بالنار ، وشرب حليب الناقة ، هى طرق العلاج المثلى للسل ، والملاريا ، وألم الاسنان ، والسرطان ، وغيرها !

بلاد المهرة في سطور

وتضم بلاد المهرة ٦ مدن رئيسية هى : الغيضة، وجاذب ، وحوف ، وصقر ، وقشن ، وسيحوت .. وتجمعات قروية حول آبار المياه ، والفيول (اى الينابيع) والكرفان ، والكرف هو الحفرة



السنبوك الصغير الرقيع ، تتقاذفه الأمواج العاتية عند رأس فرتك ، ونحن بداخله .

الكبيرة المسوحة بالاسمنت لحفظ مياه الامطار لفترة عام أو اكثر .. والكرفان منتشرة بصورة واسعة في البلاد ، وقد احصوا عددها في المديرية الغربية فقط فوجدوه ٧٩ كريفا .

ومساحة بلاد المهرة ٣٠ الف ميل مربع ، يعيش فوقها ٥٪ فقط من مجموع سكان جمهورية اليمن الديمقراطى ، البالغ مجموعهم مليون ونصف مليون نسمة .

اما سيحوت نفسها فلا يتعدى عدد سكانها خمسة آلاف نسمة ، مهمتهم في الحياة صيد الاسماك ، وتجفيفها على الساحل تحت اشعة الشمس ، لاستعمالها سمادا للزراعة وعلفا للماشية ..

كانوا في السابق مشهورين بتصدير اللبان والبخور .. وتدهورت هذه التجارة ، فلم يعد احد يصعد الجبال لجمع هذا المحصول ، الذى تنمو اشجاره تلقائيا على رؤوس الجبال ..

وقبل الاسترسال في الحديث عن سيحوت بمفردها ، يحسن الاشارة الى ان معظم مدن المهرة تكاد تتشابه ، وكأنها صور من اصل واحد .

الخطر عند رأس فرتك

ومن سيحوت ركبنا السنبوك الى قشن (انظر الخريطة) ومن قِشِين* سرنا بالسيارة الى صقر وحصوين وخيصيت .. وتوقفنا عند خيصيت فجبال فَرْتَك* ذات الصخور الحمراء التى تعلوها اشجار اللبان ، تقف سدا حائلا بيننا وبين متابعة رحلتنا .. وكانت الوسيلة الوحيدة لمتابعة

الرحلة هي ركوب السنبوك المحلى مرة ثانية لينقلنا بحرا الى الغيضة ..

ووضع النوخذا ـ ربان السفينة ـ صخورا وحصى في قاع السنبوك الرفيع ليزيد من وزنه خوفا من ان تجرفه تيارات وامواج رأس فرتك .. وقفزنا الى داخل السنبوك ودفعه الرجال الى داخل المياه .. وما كدنا نتقدم بضع ياردات حتى قفزت فوقنا موجة عالية غطتنا داخل السنبوك واعادته للساحل ! .

ونزلنا من السنبوك نعصر ملابسنا ونزيح المياه عن حقائبنا ، ونحمد الله اننا كنا وضعنا الات التصوير والافلام داخل اكياس من النايلون ..

ميناء النفط المرتقب

وازاء هياج البحر قررنا التراجع مسافة اربعة كيلومترات الى حصوين حيث البحر اقل امواجا .. وبدأ الناس يسحبون السنبوك بالحبال من رأس فرتك حتى اخرجوه بسلام ..

وركبنا السنبوك وانطلقنا الى الغيضة عاصمة بلاد المهرة ، كنا نسير قريبين من الساحل فنشهد صخور الجبال تغوص في المياه الزرقاء كل جبل له اسم : العقبة الصغيرة .. العقبة الكبيرة .. عقبة رأس الحمار .. رأس شروين ..

ووقف القارب عند منطقة ضبوط .. تجمع سكانى بسيط على الساحل ، سيكون له شأن عظيم في المستقبل ، فقد اختارته شركات النفط مكانا لتصدير النفط الذى لم يكتشف بعد !!؟

ومن ضبوط ركبنا سيارة جيب من مخلفات الحرب الماضية ليس فيها مقاعد ولا زجاج ولا سقف .. ومع ذلك شعرنا براحة غريبة عندما ركبناها ، فالسير على اليابسة افضل الف مرة من ركوب بحر مضطرب .. ولكن ما هى الا دقائق حتى شعرنا بحرارة زائدة ، لقد تحولت السيارة القديمة الى قطعة من الحديد الساخن ، واوقف السائق السيارة حتى بردت ، ثم تابعنا السير حتى وصلنا الى الغيضة عاصمة بلاد المهرة بعد ثلاث ساعات .

كان هذا وصفا مختصرا سريعا لخط سير رحلتنا .. رحلة اخترناها متعبة لننقل صورة واقعية حقيقية لحال البلاد ..

لغة في طريقها للانقراض

واول ما يتساءل المرء هو عن لسان اهل البلاد وبماذا يتحدثون ؟ وقد اجاب الجغرافي العربى الادريسي على هذا السؤال عام ٥٥٠ هـ (١١٥٥م) بقوله : « لسان اهل مهرة مستعجم جدا ، لا يكاد يفهم ، وهو اللسان الحميرى القديم .. »

والواقع انهم يتحدثون بثلاث لهجات : المهرية، والشمرية ، والسقطرية .. « ودراسة هذه اللهجات تبين لنا بوضوح انها ليست مشتقة من العربية الفصحى ، وانما تكون مجموعة خاصة من لغات النقوش اليمنية في اسرة اللغات السامية .»

وحاولنا تتبع اللهجة المهرية فوجدناها تختلف من منطقة الى اخرى .. وما تزال المهرية هى اللغة الوحيدة التى يتكلم بها اهل البادية من القبائل الرحل .. اما في سيحوت والغيضة فقد اخذت في الاندثار ، ولكنها ما زالت منتشرة بكثرة في قشن .

طاط وشطيط

ان المهرية لها ارتباط تاريخي بالمنطقة، والدولة تعتبرها من التراث القومى .. وهذه نماذج لبعض الكلمات بالمهرية مع ترجمتها العربية :

ـ ما اسمك = هَمَك مون

ـ جاء من السوق = تكَاك من السوق

ـ اما كلمة عين فتنطق عن ولكنها في الجمع تتحول الى عينتن بدلا من عيون كما في العربية .

اما العد من ١ الى ١٠ فهو على هذه الصورة : طاط ـ ثرو ـ شاطيط (واحيانا يقولون : شاصية او قاليت) رُوبوط ـ خوموه ـ يَتيت (او ابتيت) ـ يَبيت ـ يَمْنيت ـ تسيت (واحيانا : تسعايت) عشريت .

اما بقية الارقام التالية لرقم ١٠ فيستعملون نفس الكلمات العربية .

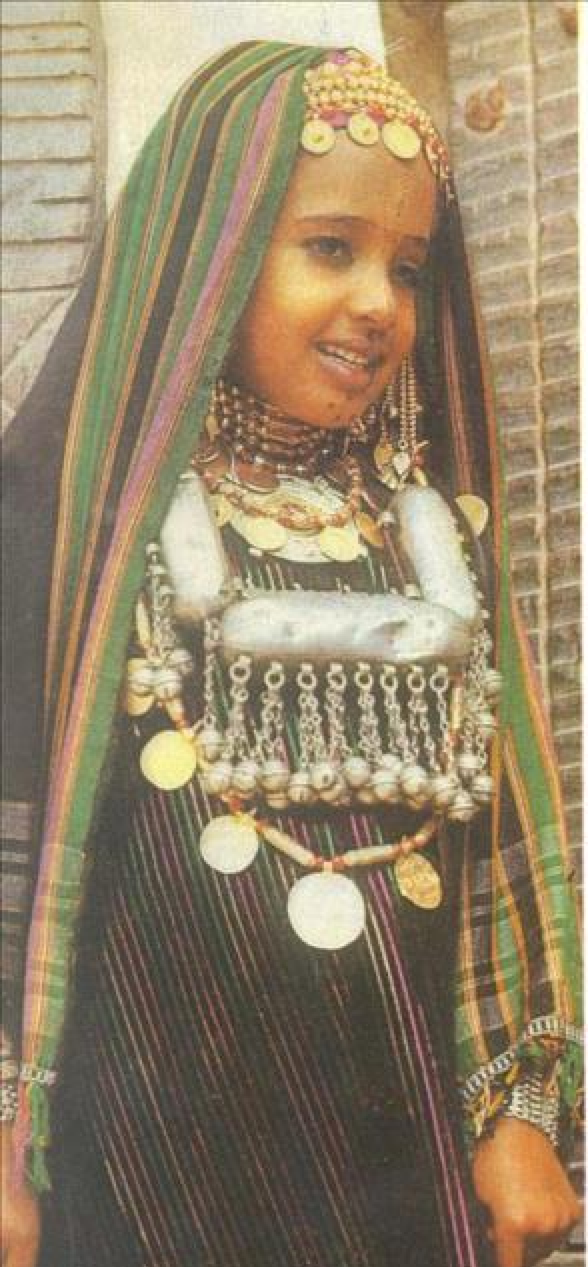
اشهر الابل العربية

واكثر ما يلفت الانتباه في المدن المهرية هى الاعداد الهائلة من الابل والجمال التى تفوق عدد السكان .. انها الابل العيدية اشهر الابل العربية على الاطلاق ، ذكرها المؤرخون والكتاب والشعراء .. فقال الادريسي : « والابل المنتجة عند هؤلاء





ڤ الشهر السادس من كل عام يبدأ المهاجرون المهرة في العودة الى بلادهم لقضاء اجازة الصيف بين واهلها على طلب الزواج .. تبدأ الاحتفالات فيرتدي العريس ابهى حلة ، وكلها من الحرير الملون المصنوع يتدلى العرسثمال (اى الشال) .. ولا بد ان يقدم العريس لعروسه « الميحنتحن » وهو عقد فض .. ويقوم بصنع « المحنحن » صياغ محليون ، يصهرون ريالات الملكة تريزا الفضية ويحولونها الى الذهب فقضلته على الفضة .. والى جانب المحنحن ترتدى الفتاة حليا كثيرة يبلغ مجموع اوزانها نحو الوقاش ، ليجمع المال من جديد .. تاركا عروسه





ذويهم . وابتداء من هذا الشهر تبدأ سلسلة الافراح والاعراس ، لمدة ٣ اشهر .. وبعد ان توافق العروس
ي الهند ، ويتمنطق بالجنبية ، اى الخنجر ، تحت المحشة (اى حزام الوسط) وعلى كتفه الايسر
تقيل كله جلاجل ، ترسل الرنين عندما ترقص العروس ، والنسوة المجتمعات في الافراح على دقات الطبول
مصنوعات فضية .. وكانت المصنوعات الفضية هي الحلي المفضلة لدى المرأة ، ولكنها اتجهت اخيرا الى
ستة ارطال (**انظر صورة الغلاف**) .. وبعد انتهاء حفلة الزواج يعود المهرى الى عمله في بلاد البترول خاوي
بمفردها مع اهلها ، حتى يعود لها في السنة القادمة ..

العرب الصرح لا يعدل بها شيء في سرعة جريها ، ومن غريب ما ينسب اليها انها تفهم الكلام ، وتعلم ما يراد منها ، ولها اسماء اذا دعيت بها جاءت واجابت بغير تأخر ولا توان في ذلك .. »

حليب الناقة والدكتر

وبدأنا نسأل عن النياق والجمال ، فقال لنا مسئول الزراعة : « اننا نقدر عددها بحوالي ١٠٠ الف جمل وناقة في المحافظة السادسة » **، اى ان كل شخص في بلاد المهرة يملك في المتوسط جملا ونصف جمل .**

ورحنا نسأل الاهالي عن اسماء نياقهم، فوجدنا اسماء : الغزال وزهرة ، وشريفيت او ورده وحمرانة وتمرة .

وعندما لاحظ احدهم كثرة اسئلتنا عن الجمال والنياق سألنا بدوره : اما عندكم جمال في بلادكم؟ **قلنا :** لا ..

قال : ما تشربون حليب الناقة ؟ **قلنا :** لا .

فضرب كفا على كف .. وارتسمت على شفتيه ابتسامة رثاء لحالنا وهو يقول : « عجيب امركم .. كيف تعيشون دون حليب الناقة .. ان فيه قوة وصحة ، يصلح المعدة ، ويغذى الجسم .. انه دواء لكل مرض ! »

واندفع محمد عبود يقول متحمسا : « الدكتر الوحيد في بلادنا هو حليب الناقة .. ما عندنا دكاتر ولا ادوية .. اننا نتناول حليب البوش (اى النياق ايضا) مرتين في اليوم صباحا وليلا مع خبز الذرة .. ان حليب الناقة يعطى الرجال قوة لا تعادلها قوة .. »

سكر ودقيق وتمر وسمك

وجلسنا عند حافة بئر ارتوازى نستمع الى مهرى يدلل ناقته ويدعوها لشرب الماء المخلوط بالسكر والدقيق : « يا هيء بلانة وهيبى .. يا هيء بلانة وهيبى .. » **وتقترب الناقة وترتشف الماء بدلال .**

ان المهرى يقدم لناقته اكلا يوميا يكلفه عشرة شلنات على الاقل .. يقدم لها التمر والقصب والعومة (اى السمك المجفف) والسكر والدقيق المخلوط بالماء العذب .. انه يحرم نفسه وعائلته من كل شيء في سبيل تامين الطعام الجيد للناقة، حتى تعطيه حليبا دسما مليئا بالفيتامينات ، على حد قوله .. وعندما تهب الزوابع وينغلق البحر

الى اسفل : ينفق الرجل على نياقه اكثر مما ينفق على اسرته ! .. وهذا سعيد بن بلحاف من اهل الغيضة يقدم لناقتيه شرابا مخلوطا بالسكر والدقيق والماء .. انه لم يعد قادرا على الانفاق على النياق ، لهذا قرر بيع واحدة منها بسعر ٨٠ دينارا تقريبا .. **وفي الصورة الثانية** ترى ناقة اصطحبها صاحبها الى الوحدة الصحية في تشن ليعالجها من اصابة في رقبتها !







يشترى المهرى المؤونة اللازمة لحاجة جماله طوال اربعة اشهر ..

الطماطم في رمضان فقط

ونتيجة لهذا الاهتمام الزائد بمأكل الناقة اصبح الناس لا يزرعون الا القصب الذى تأكله النياق ، ويسمونه المِسيبلى او الرُهوط .. ولم نستطع ان نعثر على شيء اسمه طماطم او اى نوع من الخضراوات في المنطقة .. وعندما كنا نسألهم كانوا يقولون : ان بعض التجار يجلبون الطماطم من عدن في شهر رمضان فقط !!

الناقة وتقاليد الزواج

لقد اصبحت الجمال تمثل مشكلة اقتصادية مستعصية في المنطقة ، فالاقتصاد والزراعة ، ومجهود الاهالى كله مسخر لتامين متطلبات هذا الحيوان الطيب الصبور .

حتى في تقاليد الزواج تدخلت الناقة ، فالمرأة لا تدخل منزل الزوجية الا اذا اشترى لها العريس ناقة حلوبا ، يتراوح ثمنها بين ٣ و ٦ آلاف شلن ، اى من ١٥٠ الى ٣٠٠ دينار يمنى جنوبى ..

فدان واحد افضل من عشرة

والزراعة في بلاد المهرة تمر بمرحلة انتقالية دقيقة ، فقبل الاستقلال كانت القاعدة المتبعة هي: الارض للأقوى .. واليوم حاولت الدولة تقديم اراض للمواطنين ، ولكنها اصطدمت بوضع غريب، فالمهرى يرفض ارضا مساحتها عشرة فدادين بعيدة عن منزله ، مفضلا عليها مزرعة مساحتها فدان واحد بجوار داره .. ان الارض الكبيرة لا تهمه ، فهو لا يريد من الارض اكثر من الغذاء اللازم لناقته فقط .. واذا زاد محصول قصب الرهوط عن حاجة نياقه فان السوق يمتص اى كمية تعرض فيه .. ان قصب الرهوط بضاعة مضمونة البيع، بعكس اى انتاج زراعى آخر ..

اتكالية وهجرة

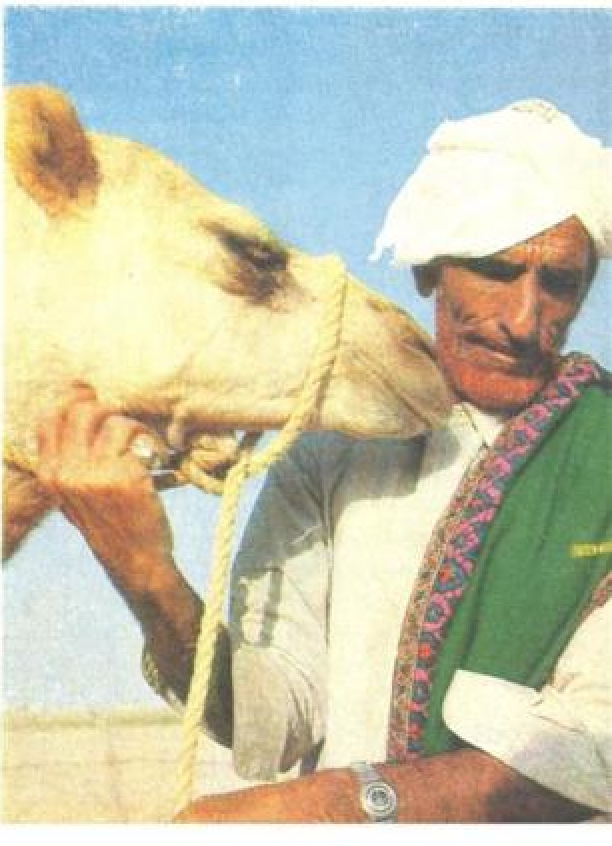
والضربة الثانية التى اصابت الزراعة هى الاتكالية ، فالرجل المهرى يعيش في فراغ هائل ، يقتل وقته دون ان يقدم اى انتاج .. انها بلد استهلاك .. ومنطقة تصدير للجنس البشرى .. لقد هجر المهرى مهنة اجداده فلم يعد يصعد الى قمم الجبال ليجرح شجر اللبان ،ويأخذ انتاجها، لقد هجر هذا العمل الصعب واتجه الى بلاد البترول في الخليج العربى ، حيث العمل اخف والربح اكثر .. يرسل الاموال الى اهله الذين يعيشون معتمدين على هذا المورد الوحيد ..

ويتمتع المهرى في المهجر بسمعة طيبة للغاية ، فهو لا يسرق ولا يخون الامانة وصادق في معاملاته، مما اكسبه الاحترام والثقة في كل مكان يقصده .. وادرك الكثيرون هذه الحقيقة ، فعمدوا الى تزوير الجوازات المهرية واستغلالها ، وفي دبى اكتشفوا (قبل استقلال اليمن الديمقراطى) عصابة لتزوير الجوازات المهرية للهنود والصوماليين !! .

من المشاكل التى تواجه المهرة مشكلة اعتمادهم الكلى على الحكومة في تنفيذ المشاريع .. لقد ألفوا هذا الاسلوب من العمل في بلاد البترول الغنية التي هاجروا اليها .. ولكن امكانيات حكومة اليمن الديمقراطى محدودة ومختلفة تماما .. لهذا تجد الكثير من المشاريع التى يمكن ان يتعاون الاهالى على اقامتها متوقفة تماما .. مثل مشاريع الكهرباء ، ومشاريع مد مياه الشرب ، التي استفحل امرها حتى ارتفع سعر الصفيحة من الماء الى شلنين ، لانها تستخرج بطريقة بدائية من بئر على مسافة ميل واحد من قشن ! ..



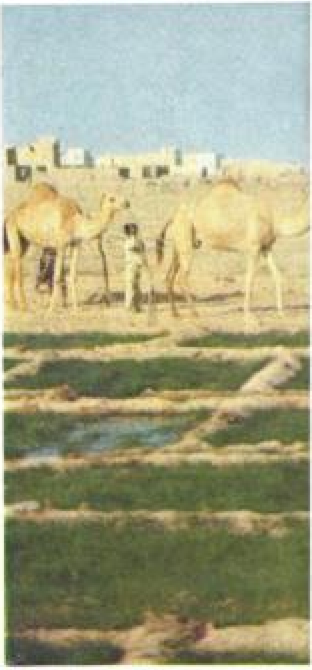
تلعب النياق والجمال دورا خطيرا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان المحافظة السادسة .. وفي مجال الزراعة لا يزرع الاهالي الا القصب الذي تأكله الجمال ، ويسمى «الروهو» او « المسيلي » باللغة المهرية .. اما الخضراوات أو الفواكه فلا اثر لها بتاتا .. ولم نشهد في جولتنا الا مزارعا واحدا زرع البطيخ .. ولكن «القنفذ» ذلك الحيوان الشوكي الصغير والمنتشر بكثرة في المنطقة ، سبق صاحب الارض واكل البطيخ !!



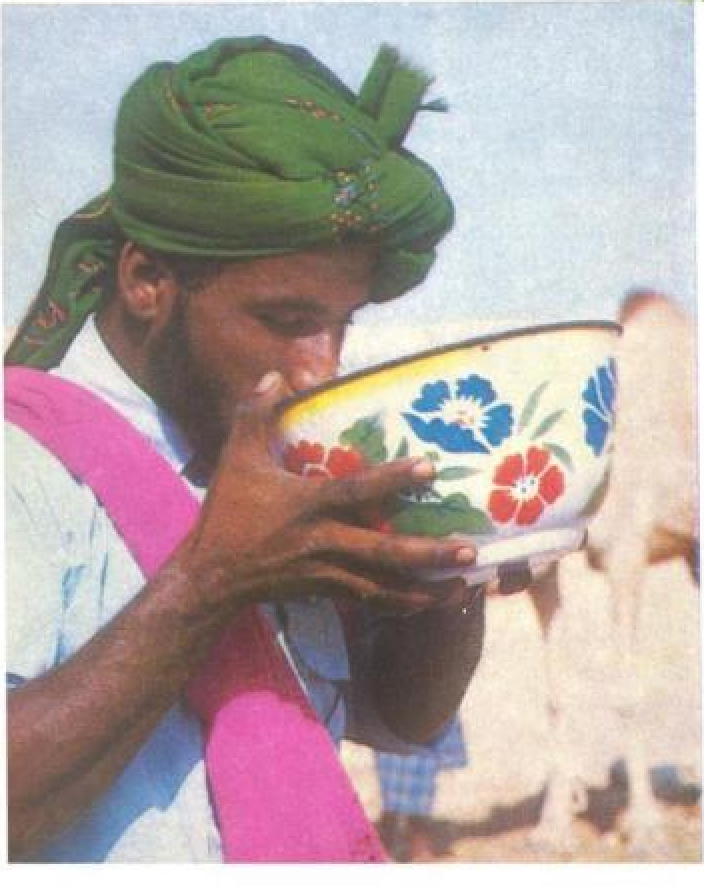
« حمرانة » تتدلل على صاحبها صالح ابن غوشة في قشن ! والمهرى بدوره يدلل نياقه ويطلق عليها اسماء الدلال .. وعندما يناديها باسمها تأتي اليه ، ويستحيل ان ينحر المهرى ناقته الا اذا مرضت واصبحت عاجزة تماما عن الحركة .. والابل العيدية هي الابل المهرية ، وتنسب الى العيد بن الندغى ابن مهرة بن حيدان ، وفيها يقول الشاعر:

ظلت تجوب بها البلدان ناجية"





هكذا تتم عملية حلب ضرع الناقة .. والناقة الحلوب (الخوارة) تعطي حليبا لفترة ستة ونصف بعد ولادتها .. ويحلبونها مرتين في اليوم .. وفي كل مرة تدر مقدار لترين من الحليب .. ويجب ان يكون وليدها بجانبها حتى تدر هذا الحليب .



الى اليسار : الرجال فقط هم الذين يحلبون الناقة ، اما النساء فيحلبن الابقار .. وما يكاد الرجل منهم يحلب الناقة حتى يشرب حليبها في الحال دون تعقيم او تسخين .. وترى هنا راشد محمد عبد الرب من اهالي الغيضة يشرب الحليب من القصعة .. ويملك راشد ٦ نياق من بينها اثنتان حلوبتان .. وتكلفه الناقة الواحدة عشرة شلنات يوميا ..

التعالي على الارض

ومن المؤسف ان هذه الهجرة اخذت طابع الارتزاق دون ان يستفيد المهري من التقدم الذي يلمسه في بلاد المهجر .. واذا حدث وحاول احدهم ادخال اصلاحات للبلاد وجد في انتظاره جدارا منيعا من الافكار والتقاليد البالية ، وسيلا من الاتهامات موجها الى كل خطوة تقدمية يخطوها .. وفي احدى المرات حاول احدهم انتعال الحذاء ، فاتهموه بانه يتعالى على الارض !!

« خام .. خام »

ويعيش المهري في بلاد المهجر عيشة قاسية ، يحمل الاقمشة على ظهره ، ويطرق ابواب المنازل لبيعها ، وتتسع تجارته ، فيستقل بالعمل في ركن صغير من السوق وعندما يتجمع لديه قدر من المال يركب اللنش الكبير ويعود الى بلاده وفي جيبه شيك بالمبلغ الذي اقتصده .

وفي اسواق الشحر وسيحوت يضيع نصف المبلغ في شراء المِحَنْتحِن الفضي والمصنوعات الذهبية والفضية .. يأخذها وينطلق الى قريته حيث يتزوج وينفق كل ما تبقى معه في دفع المهر الخيالي الذي يصل الى نحو ١٥ الف شلن ، رغم قرار الحكومة بتخفيضه الى ٢٠٠٠ شلن فقط للعذراء و ١٢٠٠ شلن للمراة المطلقة او الارملة .. (كل ٢٠ شلنا = دينارا يمنيا جنوبيا او جنيها استرلينيا تقريبا ..)



حراثات للارض من كوريا والسويد متعطلة عن العمل ، والسبب عدم وجود فني واحد لاصلاحها

« الرضوة .. »

والمراة المهرية قوية متسلطة متحكمة في منزلها ورجلها .. لا تلفظ اسمه ابدا على لسانها ، ولا تغسل له ملابسه او ترتب له سريره ، او حتى تقدم له كوب ماء .. وعندما تضع طفلها لا يقربها زوجها لمدة سنتين على الاقل .. اعتقادا منها بان مخالفة هذا العرف قد تنال الطفل بالسوء !

والطفلة الصغيرة تمرح وتلعب في الطرقات الرملية (اذ لا يوجد اى طريق معبد في جميع مدن بلاد المهرة) حتى تصل الى سن ١١ سنة ، وبعدها ترتدي القمقم على وجهها وتضع النيلة الزرقاء فوق جسدها ، وتجلس بالمنزل في انتظار ابن الحلال .

واذا تزوج الرجل على زوجته الاولى تركت له المنزل واطفالها واعتكفت في بيت والدها ، ولا ترجع الى منزلها الا في حالة مجيء الزوج لمقابلة اهلها، الذين يشترطون عليه أن يدفع لزوجته الغاضبة نفس قيمة المهر الذي دفعه للزوجة الثانية ، ويسمون هذه العملية « الرضوة » .

اول لقاء مع امراة مهرية

وطلبنا من رجال قشن ان يسمحوا لنا بلقاء احدى نسائهم ، فارتسم الامتعاض على الوجوه ، وقالوا : « مستحيل ان تقبل امراة من نسائنا التحدث الى شخص غريب .. »

قلنا : « نرجو ان تعرضوا الامر على المراة واتركوا لها حرية الرفض او القبول ، بعد ان تشرحوا لها مهمتنا الصحفية .. »

وبعد ساعة جاء الينا محاسب مديرية قشن سالم بخيت سالم شقيت يقول : « لقد قبلت احدى السيدات ان تتحدث اليكم لكن بدون تصوير .. »

وقبلنا الشرط .. ودخلنا الى المنزل المشيد بالطين على هيئة قلعة .. وعند الممر جلست كتلة سوداء في الظلام مع طفلتيها ، سالناها : « كيف الحال » ؟ .. اجابت : « مرتاحة » ..

وبدأنا الحديث عن العادات التي تمنع المراة





الأم محجبة والابنة سافرة (**الى اليسار**) ، اما الأم فهى زوجة سليمان بن سولم ، وقد زينت انفها بحلقة ذهبية تسمى « المخزميت » .. واما الابنة فهى لولو بنت عبد الرحمن ، الثائرة على التقاليد والعادات المهرية ، التى لا تمت الى هذا العصر بصلة . ان الآمال كلها معقودة على « لولو » لادخال بصيص من الضوء على المجتمع المهرى المغلق .. انها اول صورة تنشر لامرأة مهرية سافرة ..

من خدمة زوجها او التفوه باسمه ، فقالت : « هكذا عادتنا .. منذ عشرين سنة وانا لا اعمل شيئا لرجلى .. لكن اعدكم انه من الآن وصاعدا سأعتنى بأموره ومأكله ومشربه » .

وهنا ارتفع صوت عال من داخل الدار يصيح قائلا : « لا .. لن تفعلى هذا » **.. وخرجت الينا امرأة عجوز تضع حلقا في انفها وبدأت تضربنا بقبضة يديها قائلة** « بغينا نعيش مثل الاول .. لا نروح لاحد .. ولا يجينا احد .. اريد بناتى يعشن نفس عيشتى .. لانها احسن عيشة » .

قلنا مقاطعين : « هل سافرت للخارج ؟ »

فصرخت : « ما اسافر الى مكان الا للقبر »

قلنا لها فجاة : « ما اسم زوجك ؟ »

فصرخت : « ما اعرفه .. ما اعرفه »

فقهقهنا ، واغاظتها ضحكتنا ، فصرخت : « اسمه سليمان بن سولم ، ايها الملاعين .. »

وكان كابوسا قد انزاح عن كاهلها ، فانفرجت اساريرها .

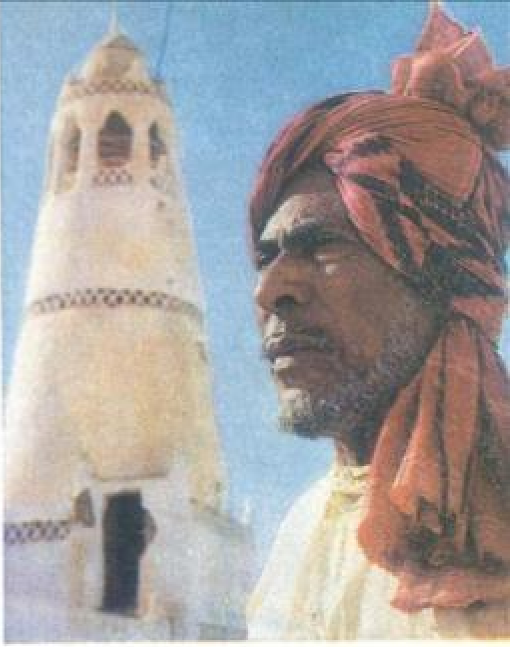
فسألنا ابنتها : « هل تحبين التعليم ؟ »

فقالت : « اوهو .. هو » **اى نعم .. نعم .**

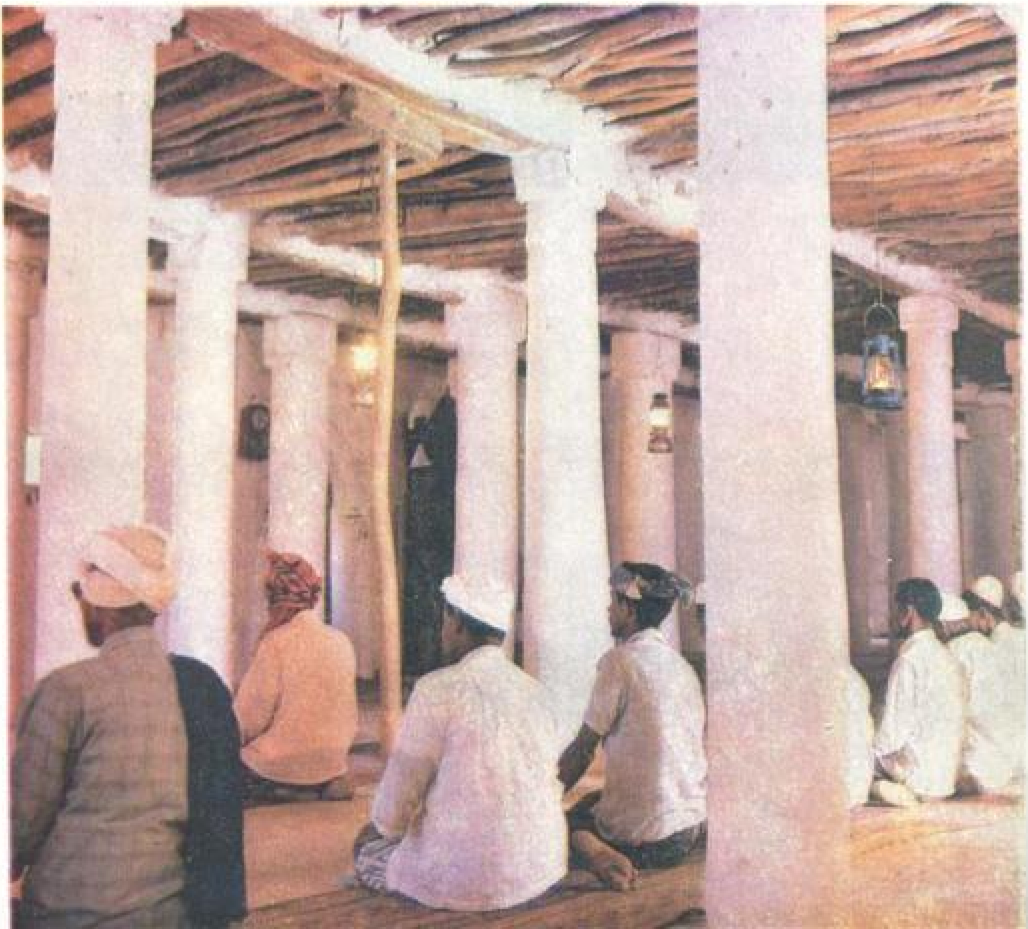
قلنا : « هل تأملين في ان تصبح بنتك مثلك ؟ »

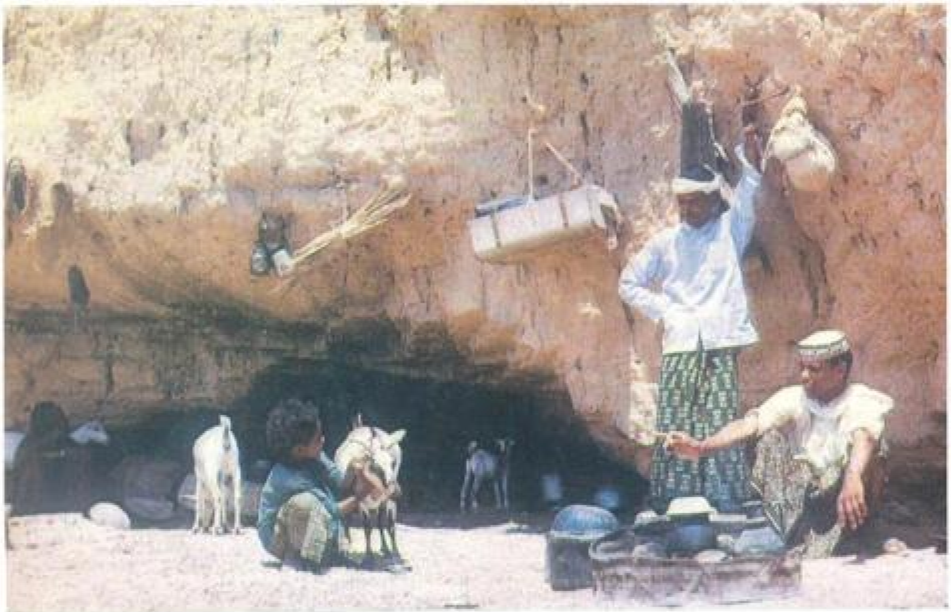
اجابت : « لا .. لا .. بغينا الاولاد والبنات يتعلموا ويعرفوا الدنيا ويكونوا احسن منى ومن ابوهم » .

وهنا صرخت الجدة : « لا .. لا .. انتم



يتمسك المهرى بشدة بتعاليم دينه الحنيف .. وهو يؤدى جميع الفروض في اوقاتها ، فيغلق باب متجره ويتجه الى الجامع للصلاة .. وفي سيحوت تسعة مساجد للرجال ومسجد للنساء .. والمسجد الجامع هو اقدم هذه المساجد .. شيد منذ ٥٠٠ سنة من جذوع النخيل والطين .. وترى مئذنته المخروطية في الصورة اليمنى ، وبجانبها السيد علوى بن علوى .. **اما الصورة السفلى** فتبين الحالة المحزنة التى آلت اليها مباني هذا الجامع .. فالسقف يكاد يقع على المصلين ، فيسندونه باعواد السمر التى يجلبونها من جزيرة سقطرى .. ان بيوت الله في بلاد المهرة في امس الحاجة الى كل مساعدة لترميم مبانيها ومدها بالمياه النظيفة والكهرباء ..





صورة لا تحتاج الى تعليق، حياة اهل الكهف، ما تزال قائمة الى يومنا هذا في بلاد المهرة

الى اسفل : بعد غروب الشمس يحلم المهري بغد أفضل دون أن يكلف نفسه عناء المساعدة في بناء هذا الغد .



تريدون تعلموا الاطفال علشان تعملوهم عسكر .. لا . لن اعلمهم .. »

قلنا للام الشابة : « هل يعجبك خط حياتك الحاضرة ، ولماذا لا تبدلينه .. ؟ »

اجابت : « العادات والتقاليد هي السبب .. تصوروا انه عندما اغسل ملابسي بالصابون يعيبون علي ذلك وفي كل مرة اسعى لتغيير شيء من عاداتنا تسخر مني بقية النساء .. انا نطلب منكم ان تفتحوا لنا مدارس وتعلموا اولادنا ، وكل شيء .. »

وفي حركة خاطفة نزعت الحجاب عن وجهها قائلة : « ولاثبت لكم ان المرأة المهرية تريد التقدم ، سانزع الحجاب عن وجهي لاول مرة ، واسمح لكم بتصويري .. ان امنيتي ان ارى العادات المقنة تنزاح عن مجتمعنا ، وان تنتهي عملية ارتدائنا لارطال الذهب والفضة .. واريد ان تكون عندنا مدارس لتعليم البنات ليعشن حياة كريمة .. »

وسالناها عن اسمها ، فاجابت : « لولو بنت عبد الرحمن » ..

وعندها بدات الجدة تصرخ قائلة : « وانا كذلك .. التقطوا صورتي .. »

والتقطنا الصورتين المنشورتين على صفحة ١١١ من هذا العدد ، وهما لاول نساء مهريات يسمحن بالتقاط صورهن سافرات ..

شموع تحترق لتنير الطريق

والحديث عن العادات والتقاليد واسلوب حياة ابناء المهرة حديث طويل غريب لا ينتهي ، لا يمكن حصره كله في هذا الاستطلاع السريع .

ولكن لا يمكن ان نختتم الاستطلاع دون الاشادة بمجموعة من المسئولين الذين يحترقون كالشمعة لينيروا الطريق المظلم امام اخوانهم المهرة .. يعملون دون ان يكون امامهم اى تخطيط او دراسة مسبقة .. ففي مجال التعليم فتحوا بالاشتراك مع الاهالي ١٧ مدرسة للبنين ، كل منها حجرة او نحو ذلك ، و ٦ مدارس للبنات . فتحوا كل هذه المدارس بالرغم من التحديات والصعوبات التي تواجههم ، من عدم وجود الاموال اللازمة .. وعدم وجود اى علاقة بين المدرسة والبيت .. وجهل الاطفال باللغة العربية .. وانعدام المواصلات بين كل مديرية ، اضف الى كل ذلك مشكلة المنهج :

فالتاريخ تاريخ العراق ، والجغرافيا ، جغرافية لبنان .. والمطالعة ، مطالعة الكويت .. وكتب الدين من السودان .. وهكذا خليط عجيب من الكتب والمناهج تجعل مهمة المدرس والتلميذ في غاية الصعوبة ..

اضف الى ذلك تاخر وصول المدرسين وعدم وجود اماكن لايوائهم ، وعدم وجود طعام وخضراوات ياكلونها ..

عدن لا ترد

اما مشكلة المشاكل فهي المركزية في عدن .. **كل شيء يجب طلبه من مكاتب الوزارات في عدن .. حتى ورق الكتابة يجب طلبه من عدن . .وعدن لا ترد عادة ، على اى خطاب الا بعد شهور وشهور ..لتقول :** « نأسف عندنا ازمة في ورق الطبع على الآلة الناسخة .. »

وفي احدى المرات ارسلت عدن اربع حراثات لتقلب ٧٠٠ .. فدان في بلاد المهرة .. ولكنها لم ترسل معها اى قطعة غيار ، فتوقفت ثلاث ماكنات عن العمل ، وانكسرت بعض اسنان الماكنة الرابعة .

ان الارض طيبة وصالحة للزراعة في مناطق

الى اسفل يتميز المهرى بالكرم والطيبة المتناهية .. الى جانب العناد والالتزام بالاخذ بالثار .. ويتصافح المهرة بحك طرف الانف بين المتصافحين





لا يستفيد المهرة من الثروة السمكية الخيالية الموجودة في مياههم الا بالقدر الذي يكفي حاجتهم .. ولكن هناك ٧ سفن يابانية تعمل نهارا وليلا في صيد الاسماك وجرف قاع البحر قبالة ارض المهرة ، مستعينة بالرادار واحدث معدات الصيد .. وترتفع صرخات الشكاوى فتصل الى عدن .. ولكن ما من مجيب .. ولم يجد الاهالي في النهاية سوى محاصرة هذه السفن اليابانية وحجزها ٤ ايام امام الغيضة ، مطالبين بتعديل الاتفاقية المجحفة .

كثيرة ، ولكن عدم وجود ميزانية للزراعة ، ومشتل حكومي ، وعدم وجود توعية ، وعدم استملاك الفلاح للارض ـ حتى الآن ـ مما يجعله لا يزرع اشجارا معمرة خوفا من سحب الارض منه ، كل هذه هي بعض مشاكل الزراعة في بلاد المهرة .

القطرة الأولى من الدواء الشافي

هذه كانت بعض مشاكل التعليم والزراعة ، اما اذا رتبنا جميع المشاكل التي تعانيها بلاد المهرة ترتيبا تصاعديا لوجدنا ان المواصلات تحتل القمة .. عوائق طبيعية : جبال ورمال ، وبحر ينغلق خمسة شهور في السنة من مايو الى اكتوبر بسبب الاعاصير والانواء ، وعدم وجود طريق بري واحد .. كل هذه العوائق تفرض العزلة على هذه البلاد وتقضي على كل محاولة اصلاح .. مثال ذلك :

زرعوا القطن ونجحت زراعته بشكل مذهل ، ولكن كيف يتم تصريفه ؟ لا يوجد طريق وميناء ، فتوقفت التجربة وجمدت !! .

لهذا قال لنا المحافظ الشاب محسن علي ياسر:

« ان مد طريق يربط بين مدن المحافظة السادسة .. وانشاء ميناء تقف عليه السفن ، هما القطرة الاولى من الدواء الشافي لمختلف العلل التي تعاني منها بلاد المهرة » .

حسرة واشتياق

وفي مطار الغيضة الرملي وقفنا ٥ساعات ننتظر الطائرة الصغيرة المتاخرة .. وكان عدد الركاب اكثر من عدد مقاعد الطائرة .. فبدأ المضيف يرجو الركاب الزائدين النزول من الطائرة ، واستمرت عملية الاقناع فترة نصف ساعة ، نزل بعدها الركاب ..

وطارت بنا الطائرة الى المكلا .. واختلفت احاسيسنا ومشاعرنا ، فمن رثاء لحال هذه البلاد وسكانها ، وحسرة على انعدام المساعدات العربية، الى فرحة داخلية للعودة الى الحياة الحضارية .. كان اشتياقنا قد وصل الذروة .. اشتياق الى توافه المدنية التي لم نحفل ابدأ بها..اشتياق لاكل قطعة جبن ، وحبة طماطم ، وصحن خضراوات ، وقضم برتقالة او تفاحة .. حتى كوب ماء صاف انه نعمة .. اما ان يكون مثلجا فهذا هو الترف بعينه .. اشتقنا الى الجلوس على المقاعد والاكل بالسكين والشوكة .. اشتقنا الى الملح الناعم بدلا من الملح الحجري ، اشتقنا الى كل شيء حتى الكهرباء وضوء المصباح .. كل هذه نعم من نعم الله ، لا يشعر بقيمتها الا من عاش في بلاد المهرة .. بلاد الحرمان من كل طيبات الحياة !

حقيقة ان المهرة شعب صغير وفقير ، ولكنه غني بتاريخه وكفاحه ومحاولته فرض وجوده على العالم والخروج من عزلته .. انه ليس في حاجة الى مساندة عربية فقط، بل الى مساعدة عالمية لانقاذه من الفناء والضياع ..

ترى هل سنساعده .. ؟!؟ ■■

سليم زبال

العربي

العدد ١٦٢
ربيع الاول ١٣٩٢
مايو
(ايار) ١٩٧٢

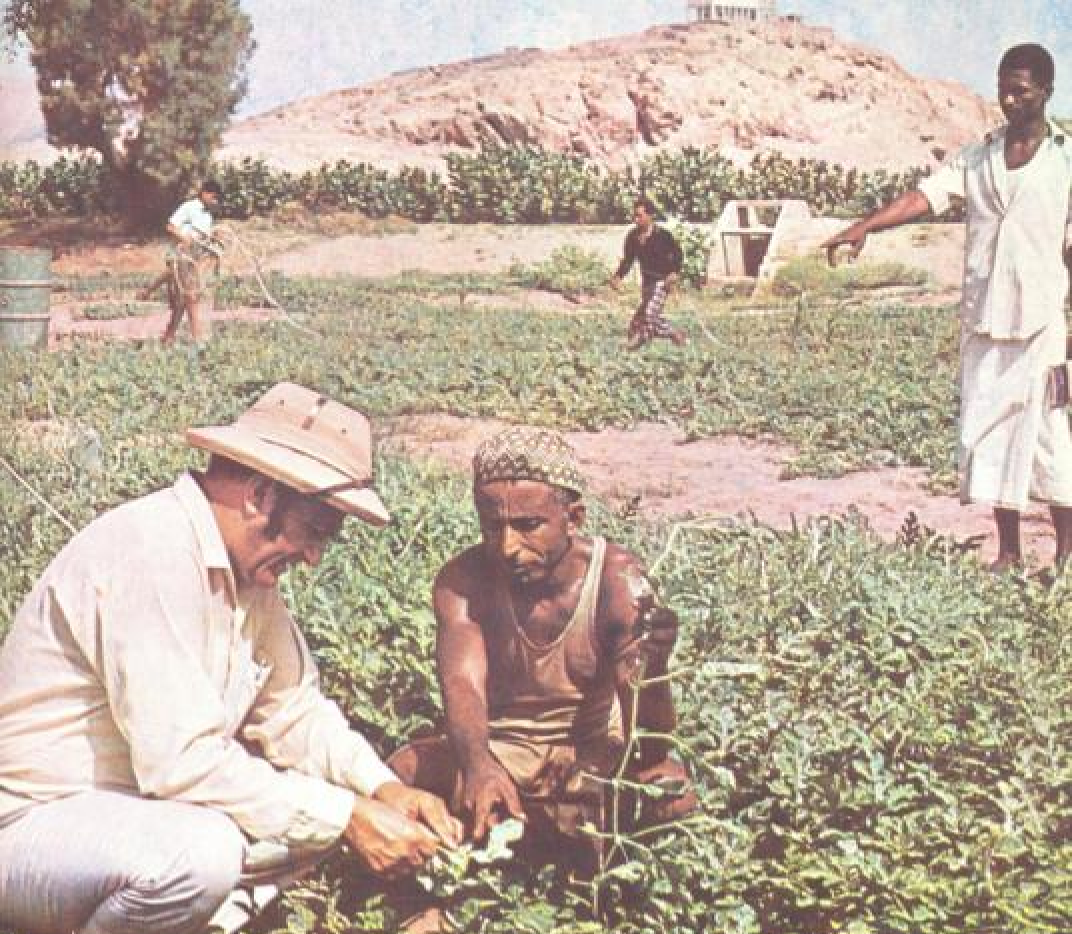


فلاح من دلتا ابيَن ، بجمهورية اليمن الديمقراطية

جوائز
١٢٠٠
دينار سنويا

الثمن

الكويت	١١٠ فلوس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان	١٠ قروش
الخليج العربي	٢ ريالان	لبنان	١٠٠ قرش	ليبيا	١٥ قرشا
السعودية	٢ ريال	الاردن	١٠٠ فلس	تونس	٢٠٠ مليم
البحرين	٢٠٠ فلس	سورية	١٠٠ قرش	الجزائر	٢ دينار
اليمن	١٫٥ ريال	ج.م.ع.	١٠ قروش	المغرب	٢ درهم



عباد بن عقيل المسعدي فلاح من أبين ، يبين لفؤاد دياب خبير الامم المتحدة، الاصابات التي الحقتها الحشرات بمزرعته

اعرف وطنك
أيها العربي

دلتا أبين

رقعة خضراء بجمهورية اليمن الديمقراطية
تجرى عليها تجارب دولية لتنقذها من شتى الأمراض الزراعية

استطلاع
سليم زبال

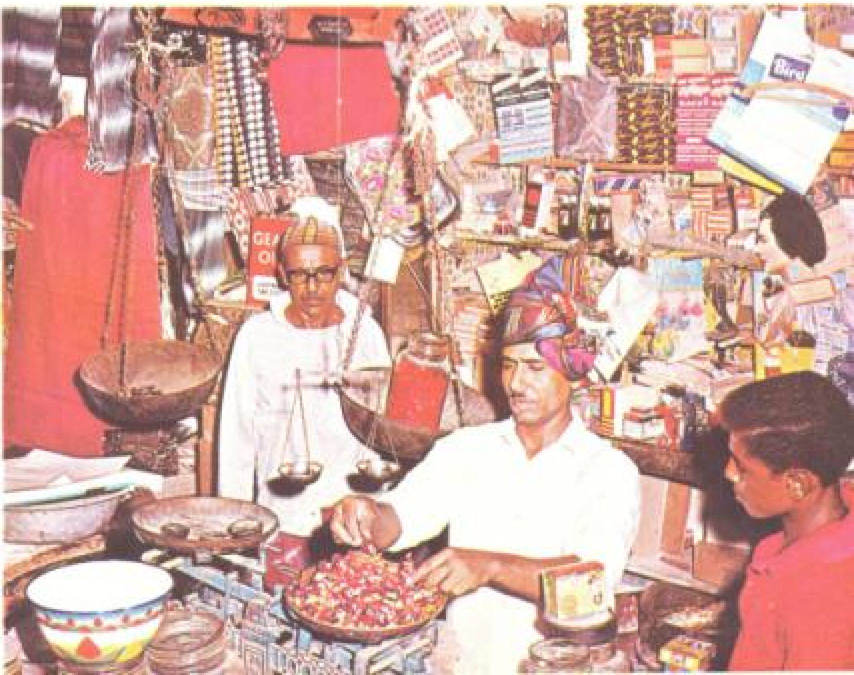
تصوير
اوسكار متري





قليل من نساء دلتا ابين يعملن في الحقول مع الرجال ، اما الغالبية فيجلسن في منازلهن يتسلين بأشغال الإبرة .

الى اسفل : متجر باهترون في قرية الحصن يبيع ٤٠٠٠ صنف وصنف .. ابتداء من المشابك ، حتى دواء « النامس » أي الناموس



■ ترى ما هو سر الاهتمام الزائد الذى تبديه الامم المتحدة ، والدول الاجنبية ، وبعض الدول العربية ، بقطعة ارض زراعية تدعى دلتا ابْيَن فى جمهورية اليمن الديمقراطية ؟
الجميع يساعدونها ، ولو انصفنا لقلنا : يعالجونها من العقم الذى أصابها .. عقم الأرض فى هذه الدلتا المجهولة المنسية ..

انها ليست دلتا نهر ، وانما هى دلتا واديين كبيرين ، يمتدان من جنوب جبال اليمن حتى بحر العرب ، يعيش فوقها ٣٥٠ الف نسمة ، .. وهذا الرقم يمثل ثلث مجموع السكان الذين يرتبطون فى اليمن الديمقراطى (الجنوبى سابقا) بالارض والزراعة .. انه ارتباط مستمر منذ الاف السنين على وتيرة واحدة .. ارتباط لا بد له من تطوير ، فاليمن يبنى نفسه من جديد متحديا التاخر والضائقة المالية الخانقة ، التى تخيم عليه ..

لقد ظل اليمنى الجنوبى ١٢٩ عاما منغلقا محبوسا ، وعندما انفتحت الابواب انطلق يريد الحياة .. حياة كريمة مليئة بالآمال الواسعة .. لم يكن يابه لشيء فى انطلاقته ، فلم يكن لديه اى شيء يخسره ، فهو يبدأ من نقطة الصفر .. هكذا كان يتصور حاله حرا طليقا ، ولكنه ما كاد يبدا فى البحث عن نفسه حتى وجدها غارقة فى لجج من الايديولوجيات والشعارات والمعميات والسلبيات التى تسللت الى جميع مظاهر حياته .

حتى بعض ادباء بلاده انطلقوا ينظمون قصائد من شعر اللامعقول . وهذا نموذج لما كتبه احدهم فى كبرى مجلات اليمن الادبية .. قال لا فض فوه :

فى خمير السندباد
سلسال من صدأ الطريق
عبر الطريق
الى بلاد المعجزات
والترهات النائمات على الحرير
على جلود المومسات
وعلى تجاعيد العبيد
فلم يعد بالاسئلة
والمسألة :
هل يرتجى اليوم نهارا
فى بخور الحذلقات
وكل أجدادى الثقات

لا تحاول أن تفهم ، فنحن كذلك لم نفهم شيئا !!
انها فترة انتقال صعبة .. تحتاج الى وقت حتى يجد الانسان اليمنى الجنوبى نفسه ..

فتح الهمـزة

ولنرجع ثانية الى دلتا أَبْيَن .. انها واحدة من المديريات الثلاث التى تتكون منها المحافظة الثالثة فى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

وهذه المحافظة كانت تضم قبل الاستقلال اراضى ست سلطنات ومشيخات : الفضلى ، ويافع ابن قاسم ، ويافع العليا ، والعوذلية ، والعوالق السفلى . ودثينة ..

وتكتب كلمة أبين بفتح الالف ، وقد أرجع ياقوت اسمها الى أبين بن زهير بن أيمن بن حمير ابن سبا ..

وابْيَن لها فى التاريخ صيت كبير يجهله اغلبنا لعدم تجميعه ، ولكنك سرعان ما ستجده امامك عندما تفتح بعض امهات الكتب ..

أبين وإرَم ذات العماد

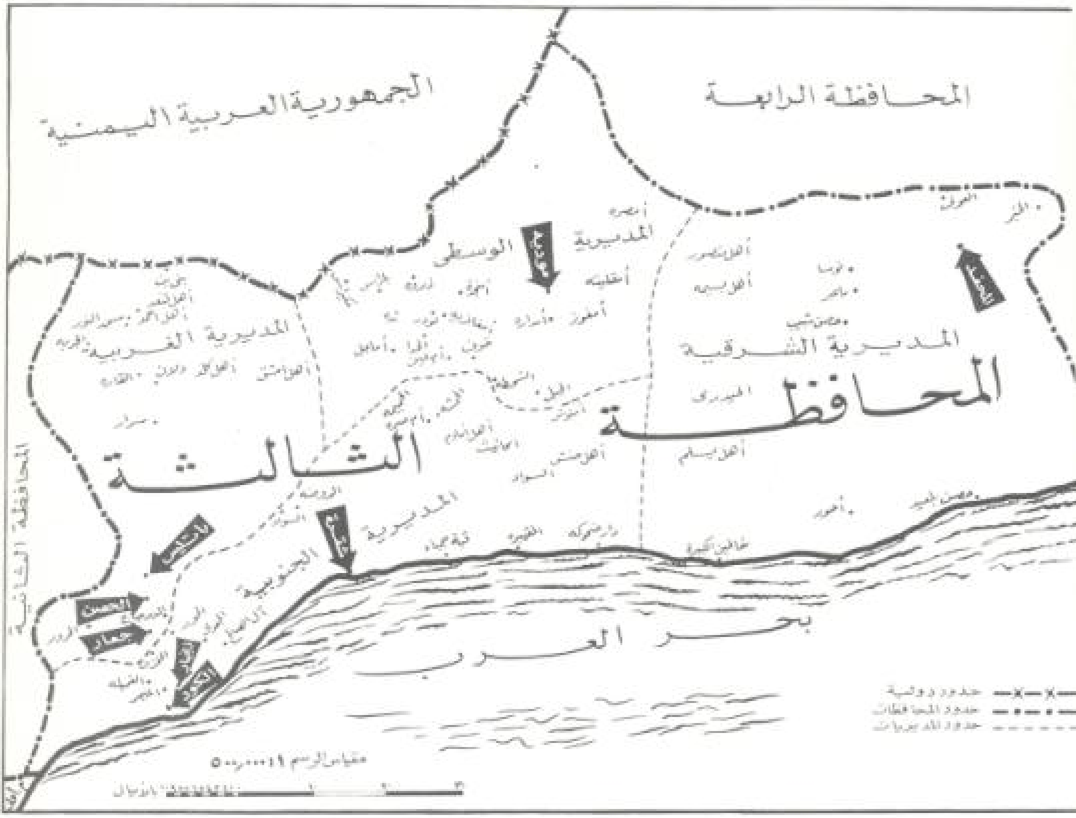
فمثلا ذكر الهمدانى فى كتابه صفة جزيرة العرب :
ان ارَم ذات العماد كانت تقوم فى تيه أبين » .
وهذا قول غريب اذ ان الاعتقاد السائد كان يرشح دمشق او الاسكندرية كموقع لهذه المدينة المجهولة ،

أحد المبانى فى قرية مودية .. لاحظ الاسلوب اليمنى القديم فى هندسة البناء ، والنقوش التى عليه وينسبونها الى سبأ ، وهى المملكة القديمة التى كانت بلقيس ملكتها .





تنقسم جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية الى ست محافظات ، وكل محافظة تنقسم الى عدة مديريات ، لكل منها مأمور، وعدد سكان الجمهورية مليون ونصف مليون نسمة تقريبا ، منهم ٢٥٠ الف يعيشون في المحافظة الثالثة ، التي تضم دلتا أبين في مديريتها الغربية ، وهي موضع استطلاعنا في هذا العدد . وقد اشرنا باسهم الى المناطق التي ورد ذكرها في المقال .



التي يقال انها « كانت تضم للاثمائة الف قصر شيدوها بالذهب والفضة والجواهر واليواقيت .

لقد حاول شداد بن عاد من الجبابرة بناء ارَم ذات العماد على صفة الجنة ـ هكذا زعموا ـ فجند لها أمهر الصناع وجمع لها كل الثروات .. حتى الاشجار في المدينة كانت من الذهب وثمارها كانت يواقيت ولؤلؤا .. واستغرق بناء المدينة ٥٠٠ عام وعندما حاول شداد بن عاد دخولها مع للاثمائة الف من أتباعه ، جاءت صيحة هائلة من السماء ، فمات هو واصحابه اجمعون ... وساخت المدينة في الأرض ولم يعثر لها على أثر ..

هكذا وردت القصة في معجم البلدان لياقوت الحموي .

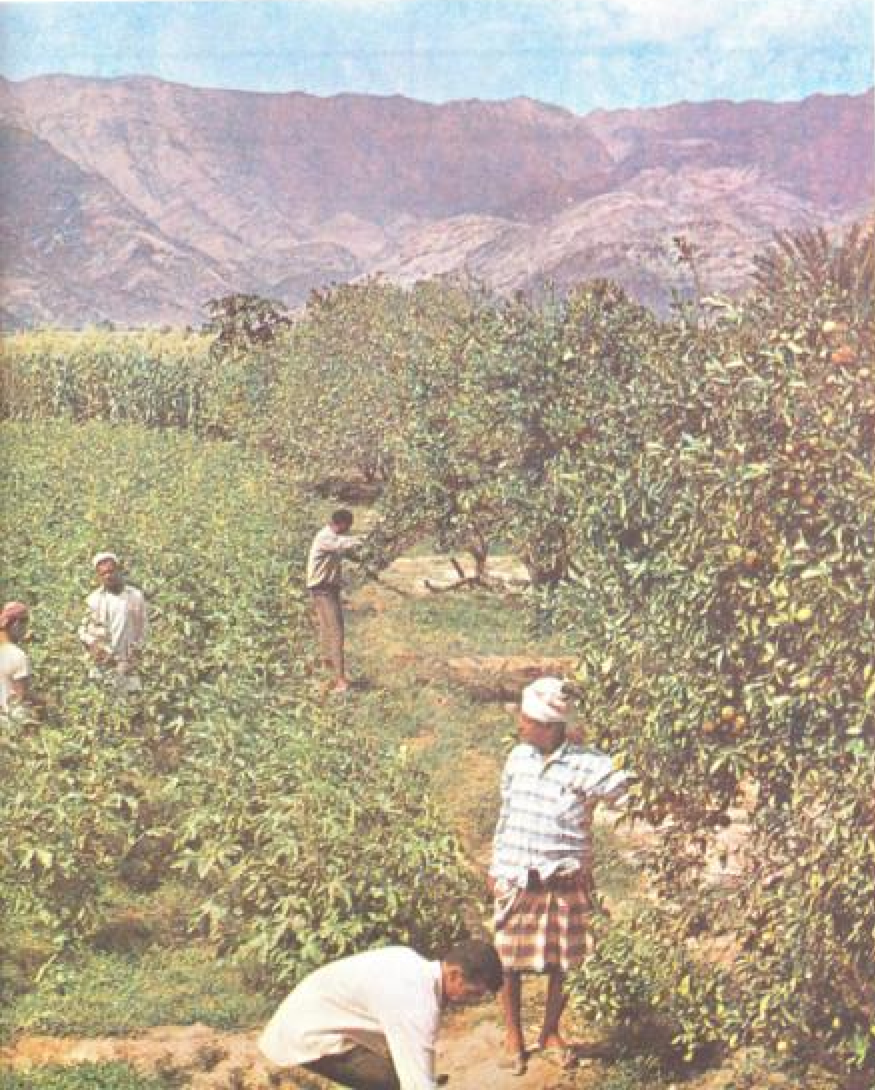
مطلوب مبيدات حشرية

وفلاح دلتا أبين لا يكترث كثيرا أو قليلا بارَم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ،



الى اليمين : لاول مرة تزرع شتلات اشجار الزينة والظل في شوارع جعار .. وهؤلاء طلبة مركز التدريب الصناعي يقومون بالزرع ، ويضعون الاقفاص فوق الاشتال لحمايتها من الماعز ..

الى اسفل : مزرعة (محمد سعيد هيثم الظهر) في قرية مودية ، تنمو فيها اشجار الليم (اى الليمون) الحامض والحلو واليوسفي بنجاح كبير .. ولكن حشرة الموالح السوداء تسبب اضرارا فادحة للاشجار والمحصول .





الى اليسار: دراسة تفصيلية لامكانية تطوير وادى ابين ، يقوم بها بعض الاخصائيين اثر توقيع اتفاقية قرض بين جمهورية اليمن الديمقراطية ، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية

الى اسفل : لا توجد اية مؤسسة صناعية تذكر في المحافظة الثالثة .. ولكن أهل البلاد يميلون الى صنع عقود الفل والياسمين بأيديهم ، لاهدائها الى نسائهم ..





فهو يعيش حاضره الصعب ، يحارب المصائب التى تراكمت عليه،نتيجة الاهمال والاستعمار والحروب القبلية ، التى ما كانت تهدأ الا لتبدأ من جديد .

وفي مقدمة المصائب التى تواجه فلاح أبين : الحشرات ... فهى على أنواع ... كل منها له ذوقه الخاص .. فحشرة الموالح السوداء معجبة بطعم شجرة البرتقال ، والحفار يتسلى بقضم ساق شجرة القطن ، والدودة السودانية تكتفى بالاوراق ، والحائكة تفضل بذور السمسم ، والخنفساء تنخر ثمار الحبحب (البطيخ) .. حشرات عديدة تخرب وتدمر على هواها لغياب المبيدات الحشرية التى لا وجود لها في المنطقة ..

بلهارسيا وملاريا وفقر دم

وبينما الحشرات تفتك بالمحاصيل ، نجد الامراض تفتك بجسم الفلاح المسكين ، الذى ميزه الله بقدرة عجيبة على تحمل الامراض والآلام ..

وفي مستشفى الشهيد ناجي ، حيث تعمل البعثة الطبية الصينية بمفردها ، جلسنا نتحدث الى رئيس البعثة الدكتور « لو ــ كاو » عن الامراض ومشاكلها في المنطقة ، فقال :

« السبب الرئيسي في انتشار الامراض هو الاستعمار .. فقد ظل البريطانيون في هذا البلد ١٢٩ عاما ثم رحلوا ، مخلفين وراءهم تأخرا وجهلا وأمراضا عديدة ، أكثرها انتشارا هى الملاريا والبلهارسيا ، وأمراض الصدر والمفاصل ، وسوء التغذية ..

« لقد وصلنا الى هنا في ابريل ١٩٧٠ وعددنا ٦ أطباء وصيدلى وخمسة ممرضين ، ونحن نعمل ٢٤ ساعة في اليوم لعلاج آلاف الحالات ، التى تأتى من كل مكان الى المستشفى الوحيد الذى لا يضم أكثر من ١٢٠ سريرا . »

ويتابع الدكتور « لو ــ كاو » حديثه قائلا :

« والمريض هنا لا يأتينا غالبا الا عندما تنهكه الامراض ، ويعجز تماما عن الحركة والعمل ، وعند تشخيصنا لمرضه ، نجده يحمل عدة أمراض في وقت واحد : بلهارسيا وملاريا وفقر دم .. ونبدأ في علاجه ، ويتعافى من أمراضه ، ولكن سرعان ما نراه مرة ثانية حاملا معه نفس الامراض التى قضينا عليها في السابق .. ومن تجرباتنا



تضم المحافظة الثالثة ١٠٥ قرية ومدينة الشرقية ، وباقي المدن مجهول عددها المواصلات .. وترى هنا قرية المقبابة تعيش

وجدنا أن علاجنا يصبح عديم الفائدة لانعدام الوقاية والوعى الصحى . » .

دم صينى لامرأة عربية !

ودعانا الاخ صالح محسن ، المسئول اليمنى في المستشفى الى جولة في أقسامه المليئة بالمرضى .. التهوية معدومة ، فالمستشفى مشيد في حفرة اختاروها في الماضي لأسباب سياسية ، فهى تقع على الحدود بين سلطنتى الفضلى واليافعى ، وكان لكل منهما نصف المستشفى بالتساوى .

وعندما سألنا الاخ صالح محسن : « أين الاطباء العرب ، ولماذا لا نجد لهم أثرا في المنطقة ؟ »

فأجابنا بمرارة : « ليس الأطباء العرب وحدهم الغائبين عن المنطقة ، وانما أطباء جمهوريتنا كذلك .. جميعهم يرفضون العمل في الريف .. انهم يفضلون المدينة ..

« وشتان بين موقفهم ، وموقف هؤلاء الصينيين الاجانب ، ذلك الموقف الذى لمسناه منذ أيام عندما جاءتنا امرأة تنزف دما بغزارة اثر انفجار داخلي في الرحم .. وفحصها الأطباء ، ولم تكن



جنوبية و٣٦ قرية ومدينة في المديرية
الغربية والوسطى ، لانعدام طرق
تحمان ورَدْفان بالمديرية الوسطى .



ما زال الناس في (أبين) يستعملون الجمال للنقل وجر العربات الصغيرة ، لقد اشترى صاحب هذا الجمل كمية من « البوش » اى عيدان الذرة الجافة بمبلغ خمسة شلنات ، وهو سيبيعها بمبلغ ١٢ شلنا للأهالي علفا لأغنامهم . اى ان ربحه اليومي ٧ شلنات فقط !

هناك وسيلة لانقاذها الا بنقل الدم اليها ... والمستشفى ليس فيه بنك دم ، واسقط في يدنا، ولكن سرعان ما تقدم بعض المرضين الصينيين واليمنيين وتبرعوا بدمائهم .. وفعلا أخذنا من دماء أربعة منهم ، وانقذنا المريضة المسكينة من موت محقق .. »

نقص فى الأطباء

وتابعنا جولتنا في اقسام الجراحة والأمراض الباطنية والعظام والنساء والصدر .. وسألنا مرافقنا : « هل تجرون عمليات جراحة صدر في المستشفى ؟ »

فاجاب : « للاسف لا يوجد عندنا طبيب صدر في المستشفى ، كما انه لا توجد جراحة صدر في أنحاء الجمهورية كلها .. وكذلك لا يوجد عندنا في ابْيَن أطباء أسنان ، ولا عيون ، ولا انف ، ولا أذن ، ولا حنجرة ، ولا امراض جلدية».

مسلسل رهيب

والحديث عن الصحة في ابْيَن ، يحتاج الى اسهاب وتطويل ، فكل علل المنطقة تكمن في صحة المواطن : لان الايدى المريضة تؤثر على كمية الانتاج .. وقلة الانتاج تؤدى الى ضعف الدخل .. وانخفاض الدخل يؤثر على مستوى التغذية والسكن الصحى ، خاصة أن متوسط افراد الأسرة في ابْيَن هو سبعة أشخاص .. وهذه الزيادة في الافراد سببها انتشار تعدد الزوجات بين الأهالى ..

ماساة الطب الوقائى

وقالوا لنا : « لماذا لا تقابلون خبير الصحة الوقائية المنتدب من الامم المتحدة ؟ »

واحسسنا بثورة عارمة على هذا المسئول قبل أن نراه ، واتجهنا اليه فكان استجوابا اكثر منه سؤالا ، وجلسنا الى حسين عبد القادر وزيرى شاب سودانى منتدب من حكومة السودان ،وليس من الأمم المتحدة للعمل في المحافظة الثالثة .. وتردد الأخ حسين كثيرا في الكلام ، ولكن امام اتهامنا الصريح له بالتقصير وانعدام كل اثر للطب





تقدم الصين الشعبية القروض المالية ، والمساعدات الفنية من أجل النهوض بمشاريع التنمية المختلفة في جمهورية اليمن الديمقراطية .. وفي الصور الثلاث المنشورة فوق هذا الكلام **والى اليسار** ، تظهر مجموعات من الخبراء والعمال الصينيين الذين يعملون في شق طريق جديد من أمسين الى المحفد ، مستعملين تراكتورات ومعدات صينية .. **والى اليمين** طبيبة صينية تعالج مريضة يمنية في مستشفى الشهيد ناجي بقرية جثمار ، مستعينة بادوية صينية ، تقدمها الصين مجانا الى الجمهورية اليمنية





الوقائي في المنطقة ، قال : « في جمهورية اليمن الديموقراطي يخضع الطب العلاجي لوزارة الصحة ، أما الطب الوقائي فيخضع للادارة المحلية والبلدية .. وهذا هو أساس المشكل ، فالبلديات هنا لا تملك امكانيات مادية أو بشرية أو كوادر فنية .. والعاملون في البلدية بحاجة الى تدريب لتولي مسئولية الصحة الوقائية ..

« وليس هذا كل ما في الموضوع ، فالعمل المطلوب يفوق كل امكانات البلاد .. فبعض مناطق دلتا آبْيَن تعتبر موبوءة ، تماما بالملاريا والبلهارسيا .. وعلاج هذا لا يمكن أن يتم الا بتدخل مباشر من منظمات الأمم المتحدة ، لتقوم باعداد الفنيين ، ونشر الوعي الصحي بمختلف الوسائل : من عرض أفلام سينمائية ، ووضع ملصقات في الشوارع ، وارسال عيادات متنقلة ، مع باحثين وباحثات للتعرف على مشاكل وأمراض هذا المجتمع الريفي .. »

« تركني وسافر ليأتي بعيش ، ومضت عليه ٣ سنوات لم يرجع ولم يكتب ، ولم يترك نفقة .. وانا مدينة بـ ١٦١ شلن ، وانا متأكدة انه تزوج .. وانا اطلب الورقة » والمقصود ورقة الطلاق .. وقد تبين للمحكمة أن هجر الزوج لزوجته زاد على سنتين ، لهذا ارسلت له خطاب انذار ، فلم يمتثل . لهذا حكمت بالطلاق والحجر على أملاكه .



قليل من الجغرافيا

ولنترك مشاكل الامراض والصحة ، وتعالوا نتعرف على المنطقة ..

ان جغرافيتها هي جغرافية اليمن .. سهل ساحلي يتراوح عرضه بين ٤ و ٤٠ ميلا .. يطل على بحر العرب .. وبعد السهل ترتفع الارض على هيئة هضبة ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم ، ثم تبدأ سلسلة الجبال الى ارتفاع يتراوح بين ٥٠٠٠ و ٨٠٠٠ قدم .

وبين هذه الجبال والهضاب نجد وديانا كثيرة ، بعضها جاف وبعضها واسع تنساب فيه المياه بغزارة ، ناقلة معها الطمي الذي يصنع الارض الطيبة على جانبي الوادي ..

والواديان اللذان نحن بصددهما الآن هما وادي بناء ووادي حسان .. **وبين هذين الواديين تقع أراضي دلتا أبين .. أرض واسعة مساحتها ١٢٠ الف فدان . يمكن زراعة ٨٠ الف فدان منها فقط .. وهي مساحة محترمة تمثل ٣٢٪ من مجموع مساحة الارض الصالحة للزراعة في الجمهورية اليمنية كلها ومقدارها مليون فدان ، لا يزرع منها فعلا الا ٢٥٠ ألف فدان .. والفدان هنا بمعنى** ACRE **ومساحته ٦٠×٧٠ مترا ، أي ٤٢٠٠ متر مربع .**

ودلتا أبين أرض طيبة تكونت من ترسبات الطمي الذي تنقله السيول معها .. الا أن المزروع من أراضي هذه الدلتا لا يتعدى ثلثها ، أي ٢٨ الف فدان : ثلاثة الاف منها تروى بمياه الآبار الارتوازية ، والباقي يروى بوضع سدود أمام السيول ، فتتجه الى أرض المزارع ترويها لفترة ٦ أو ٧ ساعات ، ثم يطلقها لأرض جاره ، حسب عرف متفق عليه من قديم الزمان ..

القطن هو المحصول الرئيسي

والمحصول الرئيسي الذي يزرع في آبْيَن هو القطن .. يزرع عندما تتدفق السيول لمدة اربعة أشهر من ١٥ يوليو الى اول اكتوبر ، ثم يبدأ جني المحصول من يناير حتى مايو .

لقد بدأت زراعة القطن في دلتا أبين عام ١٩٤٩ اثر قيام بريطانيا بالضغط على القبائل المتقاتلة ومصالحتها ، وبعدها خرجت الى حيز الوجود لجنة آبْيَن ، التي تولت ادارة جميع عمليات القطن من البذرة حتى التصدير .. وكانت اللجنة



هذه هي جعّار ، اشتقت اسمها من الضباع التي كانت تملأ المنطقة .. وجعار أصبحت اليوم عاصمة المديرية الجنوبية ، ومقرا للجنة (أبين) ، ومقرا لمركز التدريب الزراعي التابع للامم المتحدة .

بادارة انجليزية دخل معها بعض السلاطين على أساس أنهم يمثلون المزارعين ..

فكان المشروع وجد ليخدم فئة معينة ، أما الفلاح فكان دخله لا يزيد على ما يجود به المالك .. وجاء الاستقلال فقلب الوضع رأسا على عقب .. ازيلت طبقة السلاطين وملاك الارض،واصبحت لجنة آبْيَن تشترى المحصول من المزارع مباشرة وتدفع له ثمنه تحت الحساب ، وتبيع المحصول في أسواق العالم المختلفة بعد أن كان وقفا على سوق ليفربول .

وقال لنا الأخ محمد علوى السكرتير الادارى للجنة ابين : « نحن نزرع انواع لامبرت السودانية الطويلة التيلة فقط .. وفي العام الماضي اجرينا تجربة ادخال السماد الكيماوى على زراعة القطن فكانت النتائج رائعة مشجعة .

« لقد بعنا في العام الماضي لاسواق اليابان والهند وهولندا والمانيا والصين حوالى ٦٠٠٠ بالة من القطن ، أى ما يوازى ٢٠ ٪ من الانتاج الكلي للجمهورية .. وكان البيع كله بالنقد .. »

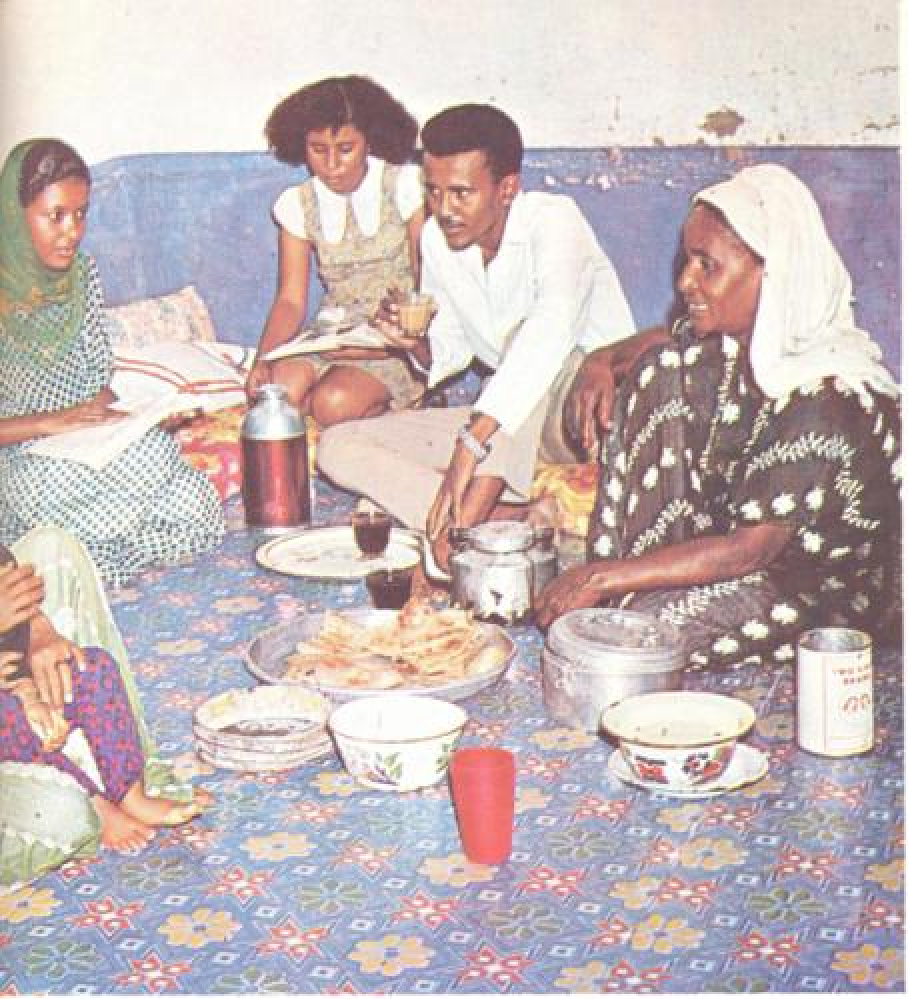
ضعف الأرض

ولكن أرقام هذا الانتاج لا تعنى كثيرا ، ففى محطة الابحاث بمنطقة الكود ، وجدناهم يقومون بدراسات من أجل انقاذ القطن من التدهور لان انتاج الفدان كان ٤٣٠ رطلا من القطن في عام ١٩٥٠ أما اليوم فانخفض الى ٢١٦ رطلا ..

هذا ما قاله لنا رئيس قسم المحاصيل الاخ حسن علي الذى تابع كلامه قائلا : « والسبب هو عدم وجود دورة زراعية معتمدة ، الى جانب طرق الرى البدائية ، والآفات الزراعية ، وجهل المزارع بالاساليب الزراعية الحديثة .. »

١١ صنفا من الموز

وليس القطن هو المحصول الوحيد في دلتا آبْيَن ، فهناك محاصيل اخرى ولكنها كلها للاسف ليست على درجة طيبة ، لهذا شاهدنا خبراء محطة الكود الزراعية يجرون عليها تجارب وأبحاثا عديدة لتحسينها .. ولكن انعدام





لاتزال المرأة اليمنية تواجه صعوبات كثيرة أمام امكانيات انطلاقها وتقدمها .. وفي مدن المحافظة الثالثة تعيش المرأة في فراغ قاتل ، فالعادات تمنع خروجها من منزلها .. وفي الصورة العليا صورة لعائلة محمد حسين ، انه يربح ٢٠ دينارا شهريا (الدينار الجنوبي يساوي جنيها استرلينيا) ، وأخته تعمل ممرضة بمرتب ٢٥ دينارا، يعولان بها أسرة مكونة من ٩ أشخاص .. والصور اليمنى لعائلة سالم سعيد بركات وهو متزوج من ثلاث نساء ، بنى لكل منهن منزلا من الطين،وله ١٤ ولدا وفتاة يجهل أسماء أغلبهم !!





. طالبات المدرسة الاعدادية وهن مرتديات الحجاب والعباءة السوداء ، في طريقهن الى المدرسة ، التى كانت سابقا قصرا لأحمد عبد الله الفضلى .. وفي المدرسة تنزع الفتاة الحجاب وتلقي بالعباءة ، وترتدى فتيات الفصول الاعدادية التنورة الخضراء،بينما بنات الابتدائي يرتدين التنورة الزرقاء .. (الصورةالسفلى)



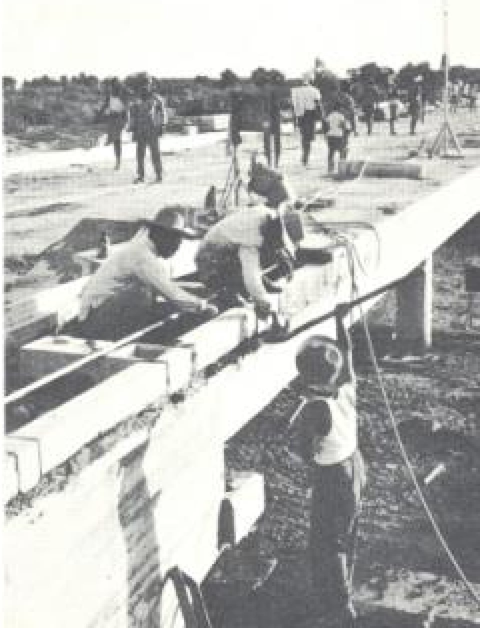
الاعتمادات المالية يجعل من أبحاثهم وتقاريرهم حبرا على ورق .. رغم اهميتها الزائدة .

وفي حديثنا مع مدير مركز أبحاث الكود الاخ أحمد الزبيدى قال لنا : « على الشريط الساحلى لدلتا أبين تنمو اشجار البابايا والمانجو والموز بنجاح مذهل ، ويفيض انتاج الموز عن حاجة المنطقة ، ولكن رداءة نوعه وصغر حجمه، بالاضافة الى سوء عمليات القطف والشحن والحرث ،تجعله لا يصلح بتاتا للتصدير .. ونحن في انتظار نتائج تجاربنا على ١١ نوعا جديدا من الموز ، لاختيار النوع الأكثر ملاءمة وتربة أرضنا .. »

الثروة الحيوانية

« اما ثروتنا الحيوانية فتمر بمرحلة صعبة للغاية » **.. هكذا بدأ ضابط الثروة الحيوانية أحمد القاسم حديثه الذي تابعه قائلا :** « فالأنواع الموجودة قديمة جدا لم تجر لها أى عملية فرز أو خلط .. والفلاح يجهل تربية الحيوان ، ويقدم له القصب الجاف غذاء فينتفخ له بطنه دون أن يغذيه مما أضعف كمية ادرار الحليب ، وأنزلها الى الحضيض .. ولا علاج

الى اسفل : في خلال اربعة شهور بدلا من سنة ، أقام المهندسون الصينيون هذا الجسر الخراساني على مسافة ٣٩ كيلو مترا من عدن . ان بناء هذا الجسر قضى على مشكلة مياه السيول التى كانت تقطع طريق السيارة المؤدى الى قرية زنجبار .



لهذا الوضع الا بادخال نوع جديد من البرسيم واستيراد لقاحات من ثيران أجنبية اصيلة ، وهو ما نفعله حاليا . »

طماطم بحجم الباذنجان

وفي الاجزاء الشمالية من المحافظة الثالثة ، أى في لودر ومودية ، تنمو اشجار الحمضيات بصورة مذهلة..رغم الحشرات الكثيرة التى تصيبها،والى جانب الحمضيات تنجح زراعة البصل والطماطم فيصل حجم الحبة منهما الى حجم حبة الباذنجان الكبيرة ..

والدخن كذلك (اى الذرة الصفيرة) تنمو بنجاح زائد .. وهم يخلطون حبانها بعد طحنها ، مع الحليب والماء ويضعون الخليط على النار حتى ينضج ، ويتركونه يبرد قبل أن يصبوا عليه الحساء وزيت السمسم المحلى او السمن .. انها العصيدة ، وهى سهلة الهضم لا تثقل على المعدة، على حد قولهم !!

والعقبة الرئيسية في عدم امكانية تسويق هذا الانتاج المذهل من الخضار والبطاطا والبصل، هو عدم وجود طرق معبدة تؤدى الى تلك المناطق..

لهذا نجد الفلاح لا يزرع الا مقدار حاجته واستهلاكه ، بينما تنفق عشرات ملايين الدنانير لاستيراد أطنان المأكولات من الخارج لتموين الجمهورية .

١٤ مليون دينار تكاليف الطريق

وجلسنا الى وزير الاشغال اليمنى الاخ حيدر ابو بكر العطاس نسأله عن الطرق فقال :

« هكذا استلمنا البلاد بدون طريق واحد يربط بين اجزائها ، واليوم بدأنا بشق طريق سيوصل عدن بالمكلا طوله ٣٢٠ ميلا ، وهو لن يربط المدينتين فقط بل سيربط خمس محافظات بعضها ببعض .

« لقد قدمت لنا الصين الشعبية قرضا لتعبيد هذا الطريق ، الذى ستصل تكاليفه الى ١٤ مليون دينار ، وهذه التكاليف ليست ذات بال اذا قورنت بالفوائد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الهائلة التى ستجنيها المنطقة من جراء شقه .. انه سينتشلها من عزلة ظلت تعيش فيها منذ وجودها .. وفي نهاية عام ١٩٧٢ نأمل ان يكون الطريق قد انتهى حتى بلدة المحفد ، وبعدها



مئذنة مسجد (جعار) ، ارتفاعها ٩٤ قدما ، ومشيدة بأحجار البازلت وأحجار اخرى متعددة الالوان .. وبانيها هو (عَلْيْوى بن صلاحى) أحد ابناء المنطقة ، ويقوم حاليا ببناء مئذنة شبيهة بها في قرية (لودر) .

يبقى لنا شق ٢٣٠ ميلا حتى نصل الى المكلا .. انه طريق جبلي وعر ، يتطلب انشاء ٣١ جسرا ونسف مئات الالوف من أطنان الصخور لشقه » .

هل اقتربت نهاية القات ؟

ووقفنا ننظر الى العمال اليمنيين يعملون مع الصينيين ، فوجدنا حماسة واندفاعا من الجانبين .. الصيني يريد اظهار قدرته وغيرته ، واليمني يريد أن يوصل الطريق بأسرع وقت الى مناطق ما زالت مجهولة ، يعالج الناس فيها – الى اليوم – مرضاهم بالكي بالنار ، وبتعليق التعاويذ والأحجبة المصنوعة من اغصان شجرة الشيدر !

ومن المؤسف انه كلما امتد الطريق ازداد انتشارا القات ، فهو ينقل بالسيارات .. وتستورد البلاد ما يعادل مليونا ونصف مليون دينار سنويا من القات .. ومضغ القات يختلف في اليمن الجنوبي عنه في اليمن الشمالي ، فهنا يستعمل مخلوطا بمواد أخرى مخدرة ، مثل المورفين والافيون والمسكرات وغيرها ..

ونتيجة لما نشرته العربي في العدد رقم ١٤٧ تم توزيع هذا العدد مع ترجمة فرنسية لمقال القات المنشور فيه ، على أعضاء لجنة المخدرات بجنيف التابعة للامم المتحدة ، فأصدرت اللجنة قرارا يوصي منظمة الصحة العالمية بأن تستأنف بنشاط أعمالها التي سبق أن بدأتها لتحليل المواد الفعالة التي تحتوي عليها أوراق القات وتأثير القات على الصحة والمجتمع ..

الضباع تعطي المدينة اسمها

وحتى نتعرف على الحياة الاجتماعية تعالوا نتجه الى بلدة جعار كبرى مدن دلتا ابين ، ومركز تموين المناطق الشمالية .

انها قرية صغيرة انشئت لتكون مركزا للجنة "أبْيَن" بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم اقامت فيها الأمم المتحدة مركزا لتدريب ابناء اليمن ، فازدهرت جعار وأصبحت مركزا مهما ، بعد ان كانت منذ ٢٥ عاما فقط ، حرشا ترتع فيه الضباع التي أعطت اسمها للمدينة ، لأن جعار معناها لغويا « الضبع » .

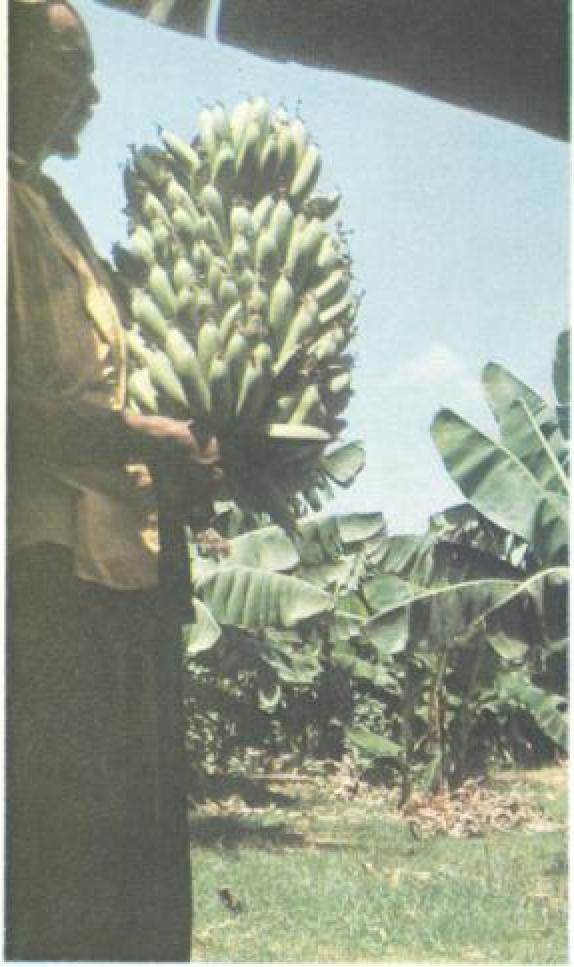
زخم الحياة

واشهر معالم جعار مئذنة جامعها . وتحت ظل هذه المئذنة يقع ميدان البلدة الكبير وفي كل ليلة كنا نجلس مع الناس في المقهى الشعبي الوحيد نشرب البارد أو الشاي مع الحليب ولا شيء غير هذا .. لا توجد دومينة، ولا ورق لعب، ولا طاولة، ولا شطرنج .. وانما الراديو مفتوح على أعلى صوته ..

وعلى الرصيف المقابل يقف بائع اللحم المشوي فتملأ رائحة الشواء الأنوف ، ويصرخ الجرسون بأعلى صوته من بعيد على الطلبات التي يستلمها ويتردد صدى صوته في الساحة مثل صياح الضباع في قديم الزمان !!

ويقف بائع الذرة الى جانب الرصيف ، ويقترب الماعز الجائع ليلتهم أوراق الذرة .. وتمر عربة تجرها الجمال تسير بسرعة نسبيا ، فقد وضعوا لها اطارات من المطاط بدلا من الخشب ..

واردنا الحصول على بعض الأرقام والمعلومات عن البلاد ، فقالوا : لا بد أن تتجهوا الى مقابلة المسئولين في زنجبار عاصمة المحافظة الثالثة ..



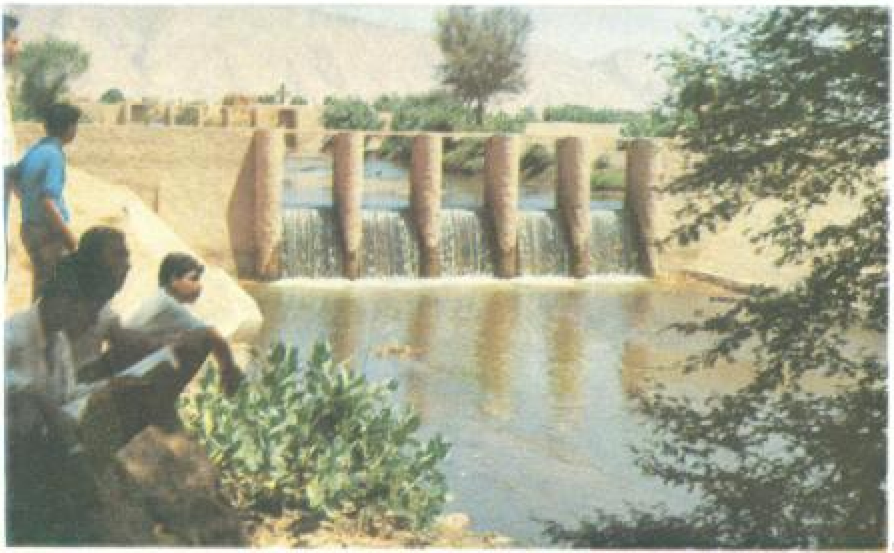




البابايا والموز والحبحب (البطيخ) من المحاصيل التي تنمو بنجاح في دلتا أبين ، ولكن كل منها له مشاكله : البابايا Paw-Paw تزرع في أضيق نطاق ، ويستهلك انتاجها محليا .. الموز المزروع من فصيلة رديئة رغم كميات الانتاج الزائدة ... والحبحب (البطيخ) يعطي ثمارا كثيرة رغم الاضرار الفادحة التي تسببها له الخنفساء .. ان السوق الوحيدة لهذه المنتجات هو سوق عدن..وأسعار الخضراوات والفواكه تقررها الجمعيات التعاونية .. اما المانجو فهي الفاكهة الوحيدة التي تصدر بكميات صغيرة للخارج ، لأن ثمارها تنضج في شهر مارس أي مبكرة عن مواسم المانجو في البلاد الأخرى .



الماء يتدفق لاول مرة من بئر ارتوازية بالقرب من قرية زنجبار،، انها واحدة من ٤٠ بئرا سيتم حفرها خلال الخطة الثلاثية .. **والى اسفل**: السيول تتدفق في وادي بناء .. أحيانا تكون كمياتها ٢٠٠ مليون متر مكعب ، فتسقى الاراضي ، وأحيانا تنخفض كمية مياه السيول الى ٨٠ مليون متر فتروى نصف الاراضي فقط !



وفوجئنا باسم زنجبار فهمنا بزنجبار اسم لجزيرة كبيرة .. فلما استوضحناهم قالوا : في السابق كان اسمها آبْيَن ، ولكن ناصر بن عبد الله الفضلى ، الذى نفى الى جزيرة زنجبار عاد الى آبيَن وابدل اسمها بزنجبار آبْيَن ، ومع الايام ازيحت آبيَن وبقيت زنجبار ... وزنجبار ما هى الا شارع كبير تقوم على جانبيه المتاجر العديدة الشعبية ، التى تحوى من البضاعة اقل بكثير مما تحويه من القذارة !! انها مركز زراعى على طريق زراعى ، ستزداد اهميتها عندما ينتهى شق الطريق الى المكلا .. ويعتقد أهلها أن مدينتهم سوف تحتل مركز عدن التجارى قريبا ! .

المرأة لا تحتاج لمحام

وفي « مدينة » زنجبار توجد المدرسة الاعدادية الوحيدة للبنات بالمحافظة الثالثة ، وفيها تتعلم ١١٩ فتاة ، قبل انتقالهن الى المدارس الثانوية في عدن لعدم وجود ثانوية في المحافظة الثالثة .. وجلسنا نستمع الى نور ناصر عمر مديرة المدرسة ، تحدثنا عن الطالبات والمرأة فتقول :

« كان عندنا فرع للاتحاد النسائى ولكنه أغلق حاليا لعدم وجود .. »

وهنا قاطعها الاخ سالم الحايك مسئول اتحاد الطلبة قائلا : « لا تستطيع المرأة أن تشرح وجهة نظرها بوضوح ، لهذا سأقوم بشرح الموضوع لكم :

« لقد تأسس الاتحاد النسائى عام ١٩٦٨ وظل يمارس نشاطه حتى شهر مايو ١٩٦٨ .. »

وهنا قاطعناه بدورنا وقلنا للسيدة نور :

« هل تحتاجين الى محام للتعبير عن وجهة نظرك؟ » .

فقالت : « أبدا أبدا .. »

فسألناها عن مشاكل التعليم فقالت :

« من مشاكلنا تنوع المنهج والقرارات ، فالحساب يتبع المنهج المصرى ، والجغرافيا والتاريخ عراقيان وهكذا .. ولكننا سنتلافى هذا التضارب عندما يتم توحيد المنهج في العام القادم .. ومن مشاكلنا نقص أدوات التدريب العملى ، ونقص عدد المعلمات ، وهذا يجعل كل معلمة ـ بما فيهن المديرة ـ مسئولة عن تقديم ٢٥ حصة أسبوعيا .. وعدد مدرساتنا حاليا ثمانية : ٤ محليات و٢ من العراق وواحدة فلسطينية واخرى سودانية .. »

وهؤلاء المعلمات هن اللواتى يحركن فرع الاتحاد النسائى ، وعندما يتغيبن يغلق الفرع أبوابه .

قطع الأشجار لدعم صندوق الاتحاد

وانتقلنا بعد ذلك الى مقر الاتحاد الوطنى للطلبة مع الاخ سالم الحايك .. المقر كان قصرا لأحد السلاطين السابقين .. الباب مخلوع من مكانه ، الارض طينة والحديقة مهملة جافة .. اشجار الكافور العالية قطعت وملقاة على الارض قلنا للاخ سالم : « لماذا تقطعون الاشجار ؟ » .

قال : « نقطعها لنبيعها خشبا ، حتى ندعم صندوق الاتحاد قليلا .. »

وصعدنا المبنى .. الجدران ملطخة ، وفوقها كتبت شعارات مختلفة بالطلاء الاحمر ، تحمل معنى خاصا ..

رسالة الى الفتاة اليمنية

وكان اول ما طالعنا في مبنى الاتحاد صحيفة حائط ، مقالها الافتتاحى بقلم بثينة تقول فيه :

« ها أنا أكتب اليك لأول مرة في تاريخ تقاليدنا الريفية على صفحات يقوم بتحريرها أخوتنا الشباب .. ولكن الى متى نظل هكذا ؟ ألسنا فيما يقال اننا في القرن العشرين ؟ ماذا نعرف عنه ؟ بل ماذا نعرف حتى عن مجتمعنا غير كلمة : عيب .. عيب .. عيب .. ولكن اسمحى لى ان اسألك كيف تكون أمهات لأبناء الغد الاكثر علما ووعيا ، ونحن لا نعرف شيئا عن اليوم الذى نعيشه .. كيف .. كيف .. ؟

اختك : بثينة ..

وانتقلنا الى غرفة المكتبة والمطالعة ، فوجدنا قاعة فسيحة خالية من كل شيء ما عدا طاولة صغيرة في وسطها صفت مجموعة من الكتب،اقتربنا منها نطالع عناوينها فوجدناها : حياة لينين .. والشبيبة اللينينية ، ماوتسي تونغ .. كيم ايل سونغ ..

فسألنا سالم الحايك : « كيف تصلكم هذه الكتب ؟ » .

فقال مبتسما : « جمعتها من السفارات في مدينة عدن » .

قلنا : « لا اعتراض لدينا على وجود هذه الكتب ، فالاطلاع يجب أن يشمل جميع فروع المعرفة ، ولكن اعتراضنا على عدم وجود أى كتاب عربى آخر بجانبها .. ترى هل حاولت الاتصال بسفاراتنا العربية في عدن ؟ » .

فقال : لا فائدة ترجى من ذلك ، فهم ليس عندهم اى شيء .. ومع ذلك سوف احاول .. قالها لارضائنا .

وهذه الحادثة تضع أمامنا استفهاما كبيرا : ترى ما هو نشاط سفرائنا وقناصلنا العرب في عدن؟ ولماذا لا تسخو السفارات بالكتب والنشرات — وما أرخصها — على فروع اتحادات الطلبة والاندية الرياضية ، التى تشكو قحطا في الكتب والمعلومات ؟

لماذا تترك الساحة خالية يحط عليها كل طير من كل جنس ؟

اسئلة كثيرة ، تحتاج الى عمل للرد عليها ، اكثر من حاجتها الى خطاب !!

عقبات في وجه الطلاق وتعدد الزوجات

وفي محاولة للنهوض بمجتمع المحافظة الثالثة ، اجتمع المحافظ مع مجموعة من القضاة والمهتمين بامور الشرع ، وأهل العلم في المحافظة ، وبعدها اصدروا لائحة داخلية او قانون الزواج ، يعمل بها مؤقتا حتى يتم اعداد قانون الاحوال الشخصية الشامل للجمهورية كلها ..

ونظرا لاهمية هذه اللائحة المطبقة حاليا ، نورد هنا أهم الفقرات التى وردت فيها :

جاء في المقدمة : عقدت الثورة الشعبية العزم على تغيير المجتمع المتخلف بكافة علاقاته الفاسدة، الى مجتمع جديد تقدمى .. وبعد هجوم عنيف على أولياء الأمور الذين يعتبرون المرأة سلعة تباع وتشترى بالمهور العالية ، بينت اللائحة ان نتائج هذا العمل كانت عزوفا بالشباب عن الزواج لقلة المال .. ثم عرجت اللائحةعلىمأساة تعدد الزوجات والمشاكل الاخرى التى تنخر في المجتمع ، وأمام كل هذا وجدت اللجنة نفسها مضطرة لوضع اسس علمية موضوعية (على حد قولها) لمعالجة هذه المشاكل ، نلخصها فيما يلى : « حدد المهر بمبلغ اربعة آلاف شلن ، اى ٢٠٠ دينار جنوبى .

× منع زواج الفتاة دون أخذ موافقتها ، يذهب اليها كاتب المحكمة ليستمع الى رايها ويأخذ توقيعها بالرضى ..

× لا تتزوج الفتاة الا عند بلوغها سن الرشد ، وحددوه بخمسة عشر عاما ..

× لا يجوز بأى حال من الاحوال أن يتم الطلاق



لاول مرة يشهد أهل قرية الحصن فلما سينمائيا عرضه عليهم رجال مركز التدريب الزراعي التابع للامم المتحدة .. وكان موضوع الفلم : زراعة الصحراء في الكويت ، مع أفلام أخرى صغيرة عن الزراعة في مختلف أنحاء العالم .

خارج المحاكم الشرعية ، مع وجوب توفير الاسباب الشرعية المقبولة لدى الشرع .

× يمنع الزواج بأكثر من واحدة الا في الحالات التالية : « مرض الزوجة المزمن — عدم الانجاب — ثبات خيانة الزوجة لحق الزوجية » .

× اذا هجر الزوج بيت الزوجية لفترة تزيد على السنتين ، فان المحكمة تنذره فاذا لم يمتثل ، تقوم المحكمة بفسخ عقد الزواج .

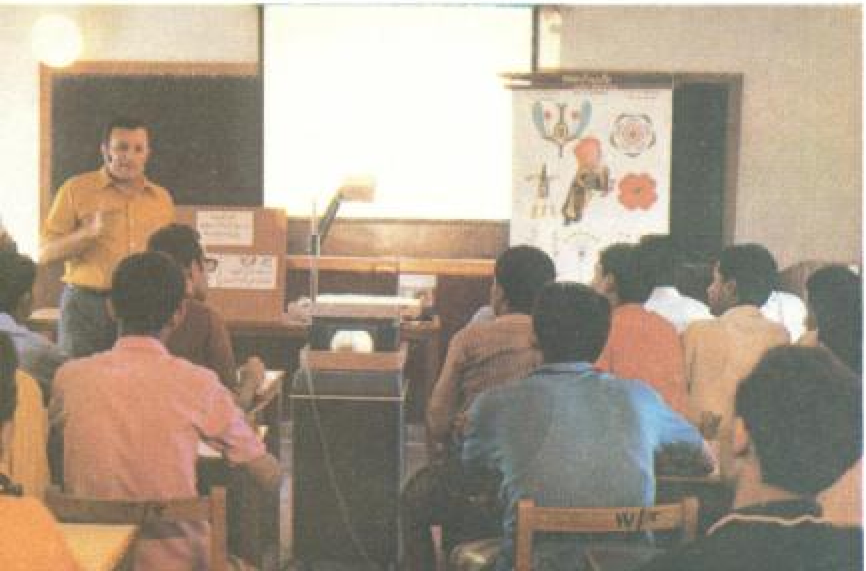
تعميق اللائحة

وسألنا قاضي زنجبار الشرعى يحيى عبد الله قحطان عن مدى تطبيقهذهاللائحة فيمحكمته فقال:

« في البداية دائمة هناك صعوبات ، ولكننا وجدنا وعيا متوفرا بين الجمهور مكننا من تطبيقبنود هذه



ثلاثة رجال من قرية امعين : كل منهم له زوجتان .. وهم من اليمين : خضر حسن وعنده ١١ ولدا وبنتا .. وناصر الجونه وعنده ١٠ اولاد وبنات .. وعلى هادي توفيت احدى زوجتيه وعنده ١١ ولدا وبنتا .. واجمل شيء في نظرهم هو المطر .. وامنيتهم فتح طريق الى قراهم ..







« قبلة » و « قمر » .. طالبتان تتلقيان تعليمهما في المدرسة الاعدادية بزنجبار .. اما التعليم الثانوي فيتطلب ذهابهما الى عدن.

الى اليمين : درس نظري لطلبة مركز التدريب الزراعي التابع للامم المتحدة في جمار ، مع توشيح بالفانوس السحري.

الى اليسار : ٤٤٢ قضية نظرتها المحاكم المدنية بالمديرية الجنوبية في ثلاثة شهور .. كانت قضايا الأطيان هي الغالبة سابقا .. اما اليوم فاصبحت قضايا الحقوق والقضايا الجنائية هي السائدة .

اللائحة ، التي تحتاج الى تعميق حتى يقتنع بها الجمهور .. » .

واستطرد القاضي الشرعي قائلا : « وهذه اللائحة لا تتنافى مع الشريعة الاسلامية .. لان تحديد الزواج والطلاق يتمشى تماما مع قوله تعالى : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » .

الارض ملك لمن يفلحها

ولم يتوقف التغيير الجذري عند هذا الحد بل تعداه الى ملكية الارض ، فبعد أن كان تحديد ملكية الارض يخضع للعرف القبلي ، وبعد أن كان السلاطين السابقون يملكون معظم الاراضي ، صدر بعد الاستقلال قانون الاصلاح الزراعي الذي صودرت بموجبه الاراضي من الطبقات الحاكمة سابقا ، وحددت الملكية الزراعية بحد اعلى بلغ ٢٥ فدانا في الاراضي المروية و٥٠ فدانا في الاراضي البعلية ..

وبدات عملية توزيع ٣ أو ٥ افدنة على العائلات الصغيرة ، ولكن كثيرا من السلبيات ظهر بعد صدور القانون فلم يطبق القانون كما يجب ،وظلت مساحات كبيرة من الارض المصادرة تحت ادارة الدولة .. ورغم هذا صدر قانون جديد يخفض مرة ثانية الحد الاعلى لملكية الارض الى ٢٠ فدانا للارض المروية و٤٠ فدانا للاراضي البعلية ، واعلن أن الارض ملك لمن يفلحها ..

وفي أوائل سبتمبر ١٩٧١ طبق الفلاحون الفقراء (كما يحلو للمسئولين والصحف في عدن تسميتهم) هذا المبدأ فاستولى كل عامل زراعة على قطعة أرض .. وبارك رئيس الجمهورية هذه الخطوة وهاجم بشدة منتقديها وقال للصحفيين العرب في اجتماعهم الاخير الذي عقد بعدن: « لقد حاول البعض وصف هذه الحركة بأنها عملية فوضوية ، ولكننا نقف مع هذه الانتفاضة لاننا نؤمن أنها الطريق الصحيح لاسترداد الفلاحين الفقراء لحقوقهم من الاقطاعيين وملاك الارض » .

.. حتى جني المحصول

وتلعب الجمعيات التعاونية، دورا خطيرا في دلتا ابين ، فقد اصبحت هذه الجمعيات من الكثرة وتعدد الاهداف ما يصعب علينا حصره .. ، فهي تبيع للفلاح الشاي والسمن والسكر نقدا ، فاذا تعثرت عليه السيولة النقدية ، تأجل الدفع حتى جني المحصول .

والجمعية التعاونية هي التي تقدم للفلاح سلف التمويل عن طريق قروض تسدد عند جني المحصول .

والجمعية التعاونيةهي التي تقدم للفلاح الآليات وتحرث له ارضه .. وعليه أن يدفع الثمن بعد جني المحصول ..

ان النظام التعاوني نظام رائع ، ولكنه هنا تحول الى نظام جعل من الفلاح مدينا على مدى السنين للجمعيات التعاونية ، تماما مثلما كان غواص اللؤلؤ قديما .. كان مدينا مدى الحياة لصاحب المركب .

الغد أفضل ..

واخيرا وبعد انتهاء جولتنا في دلتا ابين وضواحيها جلسنا نعصر رأسنا ونتساءل : ترى ما هو الحل لهذه المشاكل الموروثة والحديثة، التي تعصف باليمن الديمقراطي ، ومن أين يبدأ الاصلاح ؟

ولم نكن وحدنا نتساءل ، فهناك بعثة كاملة ارسلت على نفقة الكويت الى دلتا ابين لتدرس الوضع من جميع ابعاده ، دراسات يقوم بها ١٢ مهندسا و٥ متخصصين بدرجة الدكتوراه ، لعمل تقرير شامل كامل عن الوضع الاجتماعي والصحي والحيواني والجيولوجي والمالي والزراعي، واحسن الوسائل لاستغلال الارض في دلتا ابين .

لقد بدات البعثة عملها في أول مايو (ايار) ١٩٧١ ولن تنتهي من دراساتها المتكاملة قبل نهاية عام ١٩٧٢ .

ان الغد يحمل في طياته آمالا كبارا لمنطقة دلتا ابين .

فغدا سوف يقضى على الاوبئة والحشرات .

وغدا سيتوافر الماء لسقي الارض العطشى كلها..

وغدا سوف تنطلق السيارات بدلا من الجمال على الطرقات ..

وغدا سينتهي عذاب ابن ابين ، ولن يستمر وقوفه بالساعات على قارعة الطريق تحت اشعة الشمس انتظارا لسيارة تنقله ..

ان الغد سيكون افضل من اليوم ، بالرغم من أن اليوم افضل من الأمس !

سليم زبال

العربي

العدد ١٦٨
رمضان ١٣٩٢
نوفمبر
(تشرين ثاني) ١٩٧٢

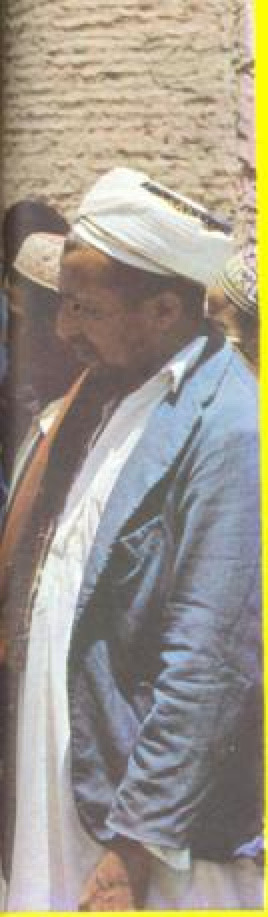


زبيد .. مدينة العلم والعلماء ، والفقه والفقهاء ، في اليمن .

جوائز ١٢٠٠ دينار سنويا

الثمن

الكويت	١٠٠ فلس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان	١٠ قروش
الخليج العربي	٢ ريالان	لبنان	[illegible]	ليبيا	١٥ قرشا
السعودية	٢ ريال	الاردن	[illegible]	تونس	٢٠٠ مليم
البحرين	[illegible]	سورية	[illegible]	الجزائر	٢ دينار
اليمن	[illegible]	ج.ع.م	[illegible]	المغرب	٢ [illegible]



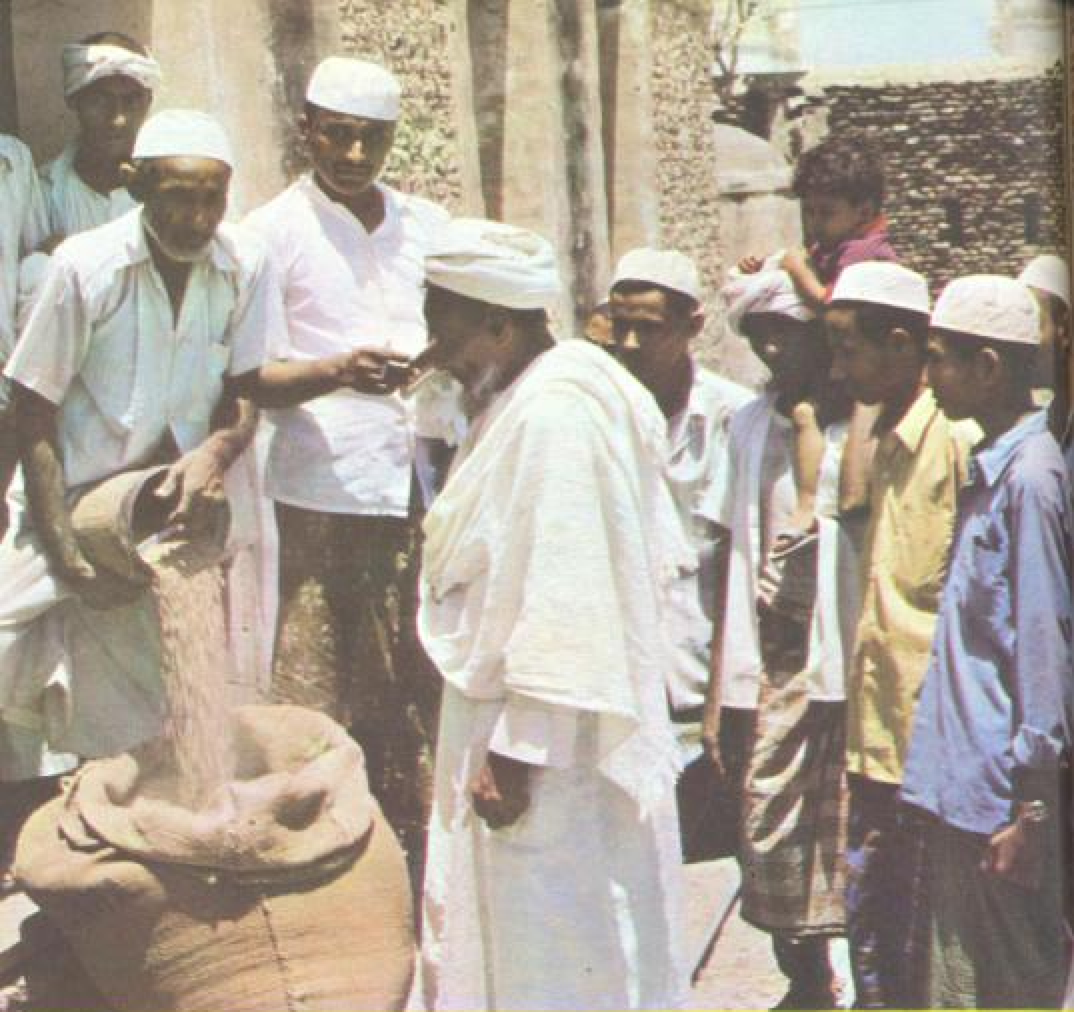


في مدينة زبيد يكدس الناس مخطوطات التراث الاسلامي القديم داخل خزائنهم .. وهذه المخطوطات في حاجة الى دراسة علمية لابراز ما انتجه الفكر اليمني القديم ..

الى اليسار: عشرات الالوف من اقداح الحبوب توزعها سنويا وزارة الاوقاف في زبيد وغيرها،على المواطنين اليمنيين المستحقين، وعلى موظفي الاوقاف وائمة المساجد وطلاب المعاهد الدينية ..

الى اسفل: تقع زبيد على طريق الرئيسي الممتد بين الحديدة ـ تعز .. وتبعد ٩٨ كيلومترا عن الحديدة و ١٧١ كيلومترا عن تعز و ٢٥ كيلومترا عن ساحل البحر الاحمر .





زبيد

- مدينة العلم والعلماء تعيش في زوايا النسيان
- حضارة القرن العشرين تدق أبواب اليمن

استطلاع
سليم زبال

تصوير
أوسكار متري

■ التطور يقرع بعنف ابوابهم المغلقة ليوقظهم من سباتهم الذى طال امده ..

ويتعجب اليمني من هذه الضجة ، انه لم يتوقع هذا الطارق الغريب ، ولم يستعد لاستقباله، لقد جاءه على غير ميعاد ، لهذا لن يفتح له الابواب ..

ورغم ذلك يستمر الطرق .. انها حضارة القرن العشرين تريد ان تنفذ الى عالم «اليمن السعيد» المنغلق منذ مئات السنين ..

وطال انتظار الطارق دون جواب ، وعيل صبره فاندفع في حركة غاضبة حطم بها الابواب عام ١٩٦٢ وكان دخوله مفاجأة لبعض السكان ، فثاروا في وجهه بحكم انتمائهم للقديم ، ولم تهدأ البلاد الا في عام ١٩٦٨ عندما اقتنع اهل اليمن ، بان القادم الجديد لا يريد الا خيرهم وخير ابنائهم .

وبدأ الجميع يتعاونون معه ، مستغربين من هذا القفزات التي تختصر بهم الزمان ، وتنقلهم مباشرة من قرون الانغلاق ، الى عصر الانفتاح والاتصال بالاقمار .

ولثالث مرة تطير بعثة «العربي» الى الجمهورية العربية اليمنية لتنقل لك صورة عن الحياة في ثلاث مناطق نائية مجهولة معزولة عن عالمنا هي :زبيد ، حجة ، الصليف

عجز سنوي مستمر

هبطت بنا الطائرة في مطار الحديدة .. واتجهنا الى محافظها للسلام عليه ، فاصر الشيخ الجليل سنان ابو اللحوم على دعوتنا الى الغداء معه في منزله .. وبعدها انطلقنا في رحلة خمس ساعات الى صنعاء لمقابلة دولة محسن العيني رئيس وزراء اليمن ، فوجدناه يخطب في جماهير شعبية غفيرة جاءت من منطقة الجوف تطالب بفتح مدارس ومستشفى، وبكهرباء ، وماء ، وطريق يمر بمناطقها المعزولة عن العالم .. ثم اتجه ركب رئيس الوزراء لافتتاح اول ناد للخريجين في اليمن .. وبعد الظهر



دولة محسن العيني ، رئيس الوزراء ووزير الخارجية اليمنية ، يتحدث الى القراء .

ترأس اجتماع القادة الاداريين والقى فيهم كلمة حماسية رائعة.. واشفقنا على الرجل من الارهاق، ولكنه اصر على دعوتنا للعشاء معه في منزله المشيد على الطراز اليمني القديم ..

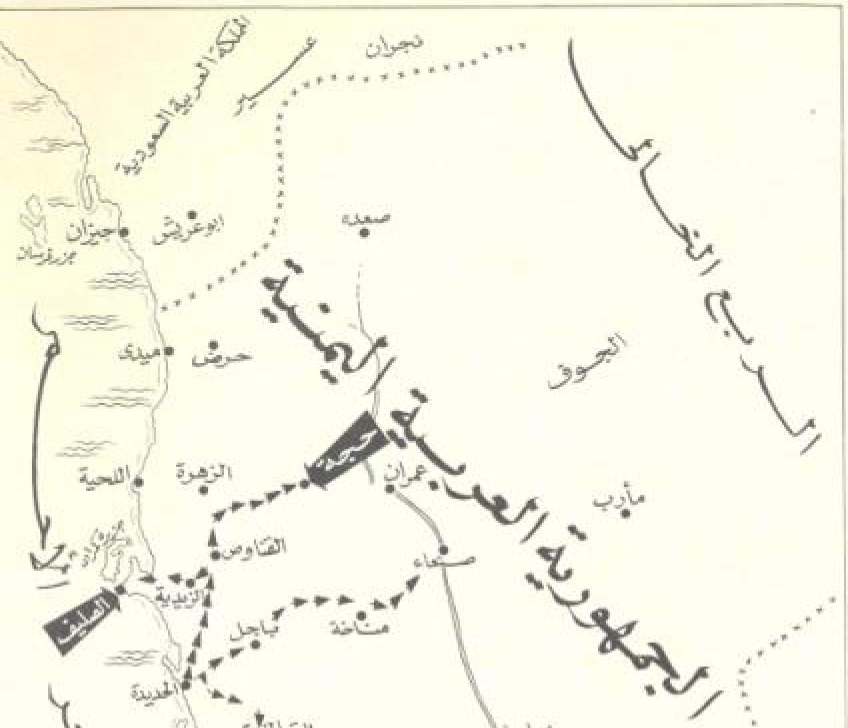
امتد الحديث ساعات عديدة عن « فترة الآمال والآلام » التي يمر بها الشعب اليمني ، وقال الرئيس العيني : ليس عندى شيء اخفيه، لان هدفي الوحيد العمل من اجل اعادة مجد اليمن والنهوض به من كبوته .. لقد سرنا خطوات كبيرة الى الامام، رغم انعدام الامكانات المالية .. تخيلوا حالنا ونحن نستورد سنويا بنحو ١٨٠ مليون ريال يمني (الدولار=٥ ريالات) ولا نصدر الا بمقدار ١٦ مليون ريال .

« وايرادات الدولة لا تتعدى ٩ ملايين ريال شهريا ، في حين أن نفقات الدولة هي ١٤ مليون ريال .. ولاتسألني كيف نغطي العجز .. وكيف نستمر في العمل ولا نتوقف .. » .

خطر سقوط اليمن

قلنا : « قد يكون العون العربي الخارجي هو سندكم ؟ »

فاجابنا محسن العيني متألما : « اليمني خجول بطبعه ، وعندما يتلقى اية مساعدة ، ولو يسيرة ، تراه يسارع بالشكر الحار .. ولكن المؤلم ان اغلب المساعدات التي تلقاها الى اليوم لا تتناسب اطلاقا مع امكانات الدول العربية ، ولا مع حاجة



خريطة عامة لليمن، والاسهم تشير الى خط سير بعثة العربي .. وتنقسم اليمن الى ثماني محافظات .. ومساحتها ٢٠٠ الف كيلومتر مربع .. وعدد السكان يقرب من تسعة ملايين ونصف مليون نسمة منهم مليون ونصف مليون مهاجر خارج البلاد .. ويعيش في مدن اليمن الرئيسية حوالي نصف مليون نسمة فقط، وبقية السكان يعيشون في القرى على رؤوس الجبال والوديان ..

ليمن الملحة الى المساعدة .. ولا حتى مع ما دعيه من المصير المشترك والعلاقات الطيبة التي ربط بعضنا ببعض .

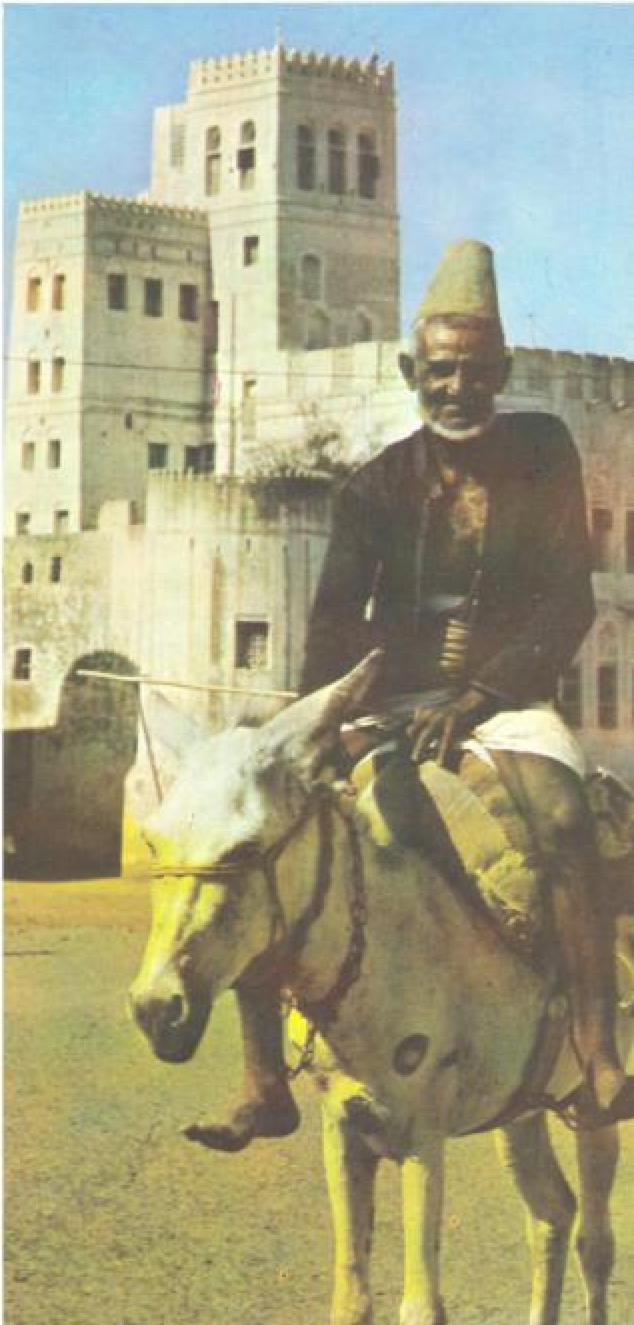
« ومن المؤسف ان هذه المساعدات اليسيرة لتي تقدم الينا تصلنا دائما ناقصة ، تحتاج الى يزانية اضافية لتفي باغراضها ، ولا نملك لها لمال اللازم ..

« لا احد يقدر ظروفنا تماما ، ولا احد يشعر بمقدار الخطر الذى سيحيط بالمنطقة في حالة سقوطنا .. »

وهذه جملة وراءها من المعاني ما وراءها ...

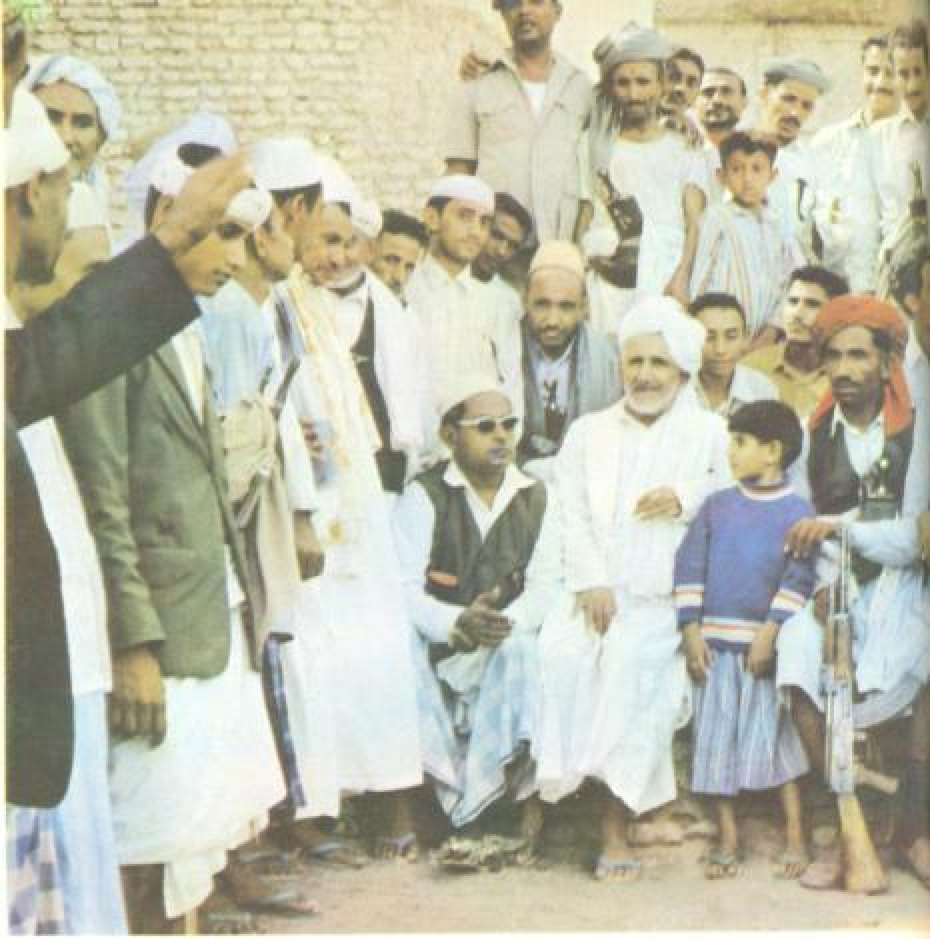
ويتابع رئيس الوزراء حديثه قائلا : « لقد خرجنا من حرب مدمرة شاملة .. ومساعدتنا واجبة على كل عربي يتفاخر بعروبته .. ان اليمن لا يمكنها ابدا ان تحل مشاكلها بنفسها .. انها في حاجة الى مساعدة الاشقاء العرب ... كل

الى اسفل : الهوة سحيقة بين ابن زبيد والعالم .. فهو يعيش بيشة البساطة التي تقرب من الفطرة .. يتجول على ظهر حماره فوق طرق ترابية ، بين قلاع آل رسول وآل نجاح التاريخية ، مرتديا ملابسه البسيطة المحلية : طاقية من سعف النخل وقميصا مفتوحا .. واهم من هذا كله « الجنبية » اليمنية التقليدية التي يتمنطق بها

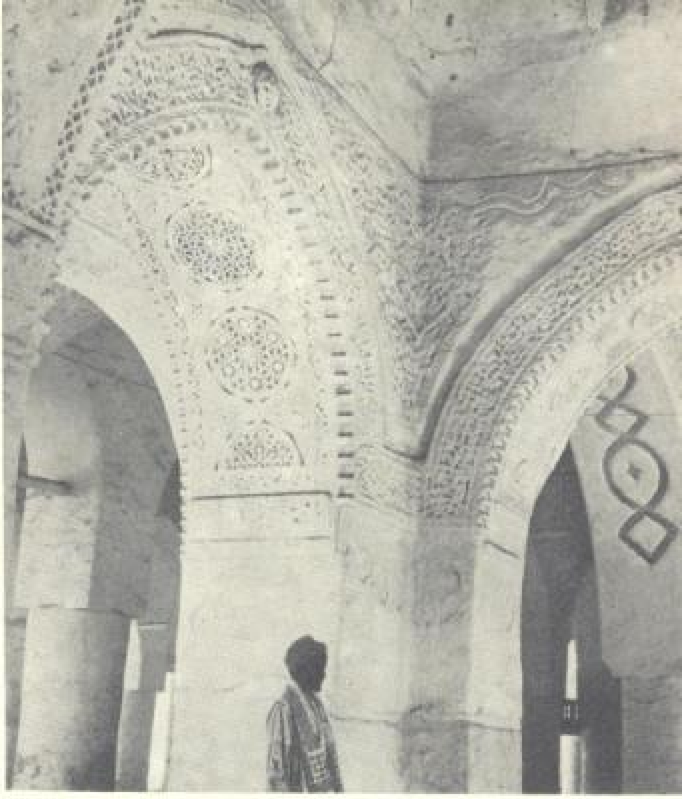




اهل زبيد اشبه باسرة واحدة كبيرة عددها ١٠ آلاف شخص ، يجتمعون في الصباح حول عامل مدينتهم الشيخ صالح القالح يتحدثون اليه في مطالبهم ، لقد الفوا الاتجاه الى رئيس الدولة او رئيس المنطقة مباشرة في كل امورهم ، وهذا يؤدي الى عرقلة عملية الاصلاح الاداري .. والصورة اليسرى لبعض فتيات زبيد يرتدين ملابسهن الزاهية ويسرن سافرات .. لان سنهن اقل من ٦ سنوات !!









٨٠ مسجدا في زبيد ، تدل على مدى ما كانت عليه زبيد من عظمة وتقدم . ولكن انعدام الترميمات لنقص الاموال ، جعل اسقف معظم المساجد تتداعى ، والنقوش تضمحل من كثرة الاتربة والجص الابيض الذى يلقى عليها ، كما نرى في الصورة التي التقطت لسقف الجامع الكبير الذى يعود تاريخه الى عام ٣٩٣هـ (١٠٠٢م) .

لا تزال الدراسات الدينية، في اربطة زبيد .. وهذه صورة الى القرن ١٢ هـ . كان يأتي العالم الاسلامي لدراسة العلوم اما اليوم فيضم الرباط ٦٠

العرب .. ان شعبنا يتفتح ويتطلع حوله فلا يجد الا البؤس والحرمان .. واسألوا الاخ احمد جابر عفيف (وزير التربية) فهو خير من يحدثكم عن واحدة من قمم مآسينا .. هي مأساة التعليم .. »

مليون طفل خارج المدارس

وتكلم احمد جابر عفيف فقال : « لقد تضاعفت نسبة التعليم في اليمن بمقدار ٤٠٠ في المائة خلال السنوات الثلاث الاخيرة .. ومع ذلك لم نستطع ايجاد مدارس الا لمائة الف تلميذ ابتدائي .. وبقي مليون ومائة الف طفل خارج الاسوار ، محرومين من التعليم ، لعدم وجود مبان او مدرسين او كتب .

« ان التعليم هو الوسيلة العملية الوحيدة لانهاء مشاكل اليمن .. ولكن امكاناتنا تقف عاجزة عن مواجهة جحافل الأطفال الذين يريدون التعليم بأي وسيلة » .

المواطن العربي يجب ان يعلم

وانهي دولة محسن العيني الحديث الذى طال الى ما بعد منتصف الليل بقوله : « ستقومون غدا بجولتكم في مناطق نائية ، وكل الذى ارجوه ان تكونوا امناء في نقل صورة واقعية حقيقية عن حالتنا .. اننا لا نبحث عن مجاملة ، بل نريد ان يعرف المواطن العربي في كل مكان جميع ابعاد مشاكل اليمن ، حتى يشترك معنا في حلها .. »



... على نفس النمط القديم
الاهدل الذى يعود تاريخه
الطلبة من جميع ارجاء
...بة والدينية على نفقتهم ..
جاءوا اليمن انحاء اليمن



اشتهرت زبيد بالعلماء والمحققين والمؤرخين الذين ولدوا فيها او وفدوا اليها ، ومن اشهرهم الفيروزابادى مؤلف « القاموس » الذى استوطنها ومات بها .. وهذا هو قبره الذى ما يزال يعرف الى اليوم بقبر « صاحب القاموس » .

مدينة العلم والعلماء

وتركنا منزل رئيس الوزراء ، وكلماته ترن في آذاننا وكأنها صفارة الانذار .. واتجهنا جنوبا على الطريق المعبد قاصدين زَبيد ..
« مدينة العلم والعلماء ، والفقه والفقهاء، والدين والصلاح ، والخير والفلاح ، التي لم يعلم بوجود مدينة من مدائن اليمن المعمورات ، ومساكنها المشهورات ظهر فيها ما ظهر في مدينة زبيد ، فهي أم قرى اليمن ، ومحطة الرجال العلماء في كل فن .. » .

هذا ما ذكره المؤرخ اليمني « الديبع » في مؤلفه « بغية المستفيد في اخبار زبيد » **المكتوب في القرن العاشر الهجرى .**

ابو موسى الاشعرى من زبيد

والواقع ان تاريخ زبيد حافل متنوع ، فهي موطن قبيلة الاشاعرة ومنهم ابو موسى الاشعرى الذى قدم مع اخويه وافراد قبيلته في العام السابع الهجرى الى الرسول الكريم فقال عليه الصلاة والسلام : « جاءكم اهل اليمن ارق افئدة، والين قلوبا ، الايمان يمان والحكمة يمانية » .

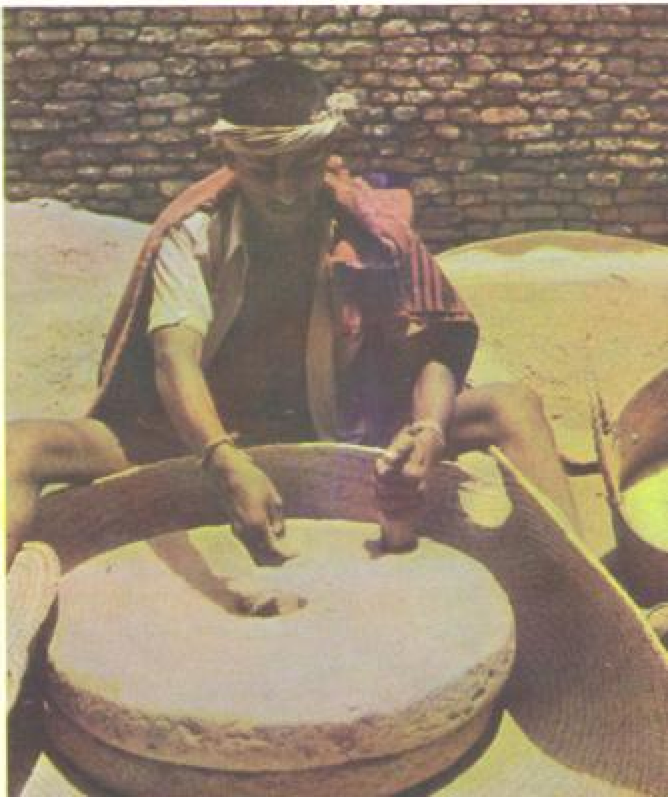
القاموس وتاج العروس

ومن مفاخر زبيد ان الفيروزابادي ، مؤلف القاموس المحيط **استوطنها وتزوج سلطانها الاشرف اسماعيل الرسولي ابنته ، ومات الفيروزابادى ودفن في زبيد عام ٨١٦هـ (١٤١٣م) وقد ناهز**



الى اليمن : اشتهرت زبيد بصناعة الاقمشة ذات المربعات الصغيرة الملونة المستعملة بكثرة في الدواوين والمجالس اليمنية ونرى هنا ابراهيم علي صالح ، صاحب واحد من مصنعي نسيج ما زالا يعملان في زبيد ، بعد ان كان العدد يزيد على ٣٥ مصنعا اقفلت ابوابها بسبب مزاحمة البضائع المستوردة.

الى اليسار : هذه الصورة توضح لنا مدى الترابط الوثيق بين اجزاء وطننا الكبير رغم ترامي اطرافه .. فهنا في زبيد يتم صبغ الاقمشة البيضاء بالنيلة الزرقاء ، قبل تجفيفها في العراء .. وهناك في اقصى الجناح الغربي لوطننا الكبير على ساحل المحيط الاطلسي ، يعيش في موريتانيا «الرجل الازرق» الذي لا يرتدي الا هذه الملابس الزرقاء ويفتخر بانتمائه الى قبائل عدنان وقحطان .. لقد تدهورت هذه الصناعة في زبيد ، ولم يعد فيها الا ثلاثة مصانع من أصل ٣٠٠ مصنع كانت تصبغ الاقمشة البيضاء وتبيعها لرجال القبائل المتمركزين فوق القمم الباردة في جبال اليمن.



الى اليمن : « الشمة » .. واحدة من الكوارث التي ابتلي بها الشعب اليمني منذ قديم الزمان.. ونرى هنا صانعها يجلس الى الرحى الحجرية القديمة ، يدير بيد ويلقي باليد الاخرى خليطا من نفاية التمباك مع صخور ورمال وبلورات بحرية صغيرة مستوردة من كينيا والهند ، يظل يطحنها حتى تصبح بودرة ناعمة. ثم يبيعها للاهالي الذين يضعونها تحت السنتهم باستمرار فتزيدهم أرقا على أرق ، ودوارا على دوار ..



التسعين من عمره.. ولا يزال قبره يعرف بصاحب القاموس الى اليوم .

ومن الذين نشأوا في زبيد وتلقوا العلم فيها صاحب « تاج العروس » محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ..

ومحاولتنا حصر اسماء العلماء البارزين والمحققين والمؤرخين ، وائمة الدين واللغة الذين لمعت اسماؤهم من زبيد هي محاولة شاقة لكثرة عددهم .. فقد كانت زبيد بمثابة جامعة اسلامية يتخرج منها عشرات العلماء سنويا ..

افول بعد ازدهار

هكذا كان حال زبيد الى قرون قليلة مضت : شعلة من العلم ، تنير صحراء تهامة اليمنية الموحشة .. ودارت الايام .. وتعاقبت الاحداث.. وخبت الأضواء .. وابتعدت زبيد عن مجرى الحياة ، لتعيش في زوايا النسيان ، بعد ان كانت ملء الاسماع والابصار ..

مساجدها ، ومدارسها ، واربطتها ـ وكان عددها ٣٦٥ ـ تهدم معظمها ، فلم يبق منها سوى ٨٠ مسجدا ومدرسة ، تكاد مبانيها تتساقط من فرط قدم بنائها الذى يعود الى ايام الدويلات والاسر التي حكمت اليمن في قديم الزمان ، من آل زياد الى آل نجاح والايوبيين والرسوليين والطاهريين ، وغيرهم ..

« النيلة » هى السبب

والى جانب شهرتها العلمية تميزت زبيد في ماضيها بكثرة صناعتها البدائية .. واشهرها صبغ « البَز » اى القماش الابيض المصنوع من الكتان او القطن ، صبغه بالنيلة الزرقاء الداكنه، ثم دقه بالمدقات الخشبية ليكتسب بريقا ولمعانا .. وتلك صناعة دخلت الى زبيد من الهند في القرن العاشر الهجري ، فشاعت منتوجاتها ، عندما ارتدتها اغلب نساء اليمن ، وارتفع عدد « المصابغ » الى اكثر من ٣٠٠ مصنع .

واشتهرت زبيد كذلك بنسج الاقمشة وصناعة الحلويات ، واستخراج الزيت من السمسم ، وصناعة الحلي الفضية .

ولكن هذا الازدهار سرعان ما مال الى الأفول ، عندما وجد الأهالي في الأقمشة المستوردة ، بديلا عن الاقمشة النيلية ،التي تصبغ اجسادهم باللون الازرق .

ومع بداية عام ١٩٥١ بدأت مصانع البَز الأزرق تغلق أبوابها واحدة وراء الاخرى.. وهجر السكان مدينتهم فانخفض عددهم من ٥٠ الفا الى ١٠ آلاف نسمة ..

وكذلك القات

ولم ينج مجتمع زبيد الصغير من المحنة ، بل زاد الطين بلة ادمانه الزائد على تعاطي القات .. الرجال يخزنون القات في اشداقهم من الثالثة الى السادسة مساء ، والنساء يبدأن جلسات التخزين من السادسة مساء حتى ساعة متأخرة من الليل . وهكذا اصبح الزوج لا يري زوجته الا لماما ، فتدهور حال الاسرة وتدهور المجتمع بالتبعية ..

وعندما قلنا لاحد كبار المسئولين في زبيد : « الا تعتقد انه قد آن الأوان للتخلص من هذه العادة السيئة ؟ »

اجابنا ساخرا (وبيده غصن قات يتأمله بحثا عن ورقة رطبة لينة ليمضغها) : « انا معك في ان تعاطي القات عادة سخيفة ، لكن الأسخف منها هو التفكير في الغائها .. ان الشخص الذى لا يخزن القات يشك في قوميته وفي انتمائه الى اليمن .. فيقولون عنه انه من المولدين ، او اهله من المهاجرين » .

الماضي الحاضر

ونتيجة لتدهور الاقتصاد والمفاهيم الاجتماعية تدهورت زبيد وتراجعت عن مركزها .. وتجولنا فيها اياما واياما ، اينما سرنا كنا نجد الماضي حاضرا امامنا ...

الطرق جميعها رملية ، تتعالى منها الأتربة عندما تسير عليها .. لا احد يكترث لتنظيفها فالبلدية غائبة ..

والأسواق هي بؤرة القذارة والفساد .. الناس يتزاحمون فيها وفمهم مملوء باغصان القات ، او مسحوق الشمة (تمباك مع قواقع بحرية مسحوقة بعضها مع بعض) فتراهم يسيرون وهم يبصقون في كل مكان ، بصقات متوالية اشبه بطلقات الرشاش في سرعتها ، فتمتلىء الازقة الضيقة بقذارة تعافها النفس ..

وترتفع درجة الحرارة أحيانا الى ٤٦ درجة مئوية ،



صورة من الحياة في وادى زبيد .. انه عبد الله معلب ، سألناه : ماذا تعمل ؟ قال : عاطل لا اعمل .. كيف تعيش ؟ على الله .. كم تحمل من المال ؟ ففتح علبة في حزامه وجدنا فيها ريالا .. قلنا : هل تخزن القات ؟ قال نعم .. بكم تخزن قاتا يوميا ؟ بريالين .. ومن اين لك المال ؟ الله يبعث .. ماذا ستعمل غدا ؟ سأتمدد .. لماذا لا تبحث عن عمل ؟ فين ابحث ، انا لا اعرف الفلاحة ، وانما اقص الهندى (اى الذرة) .. أين تذهب الآن ؟ عند صديقى سأنام عنده .. هل انت متزوج ؟ نعم .. اين تركت زوجتك ؟ في المنزل وعندها رُبعة طعام (اى حبوب) .

ومع ذلك لا تجد قطعة ثلج تبل بها ريقك ، ولا مروحة تحرك الرياح الرابضة على الانفاس .. ان الكهرباء تنير المدينة خمس ساعات يوميا .. ثم تتوقف خمسة ايام قبل ان تعود ثانية لتتوقف من جديد ...

ايجابيات بعد السلبيات

واذا تابعنا سرد السلبيات والمعوقات في زبيد فاننا لن نصل الى نهاية .. ولن يخرجنا من هذا المأزق الا استعارتنا لاسلوب العرافة وهي تقول :
« ارى خيرا كثيرا قادما على الطريق » .

انه الامل الذى بدأ يتجسد حقيقة في زبيد .. ففي مساء ايام الربيع والخريف يخرج اهل المدينة الى العراء ، يتجهون بانظارهم الى السماء ، يتابعون الغيوم الكثيفة السوداء وهي تتسابق نحو الجبال العالية المطلة على وادى زبيد ... وتطمئن القلوب ، وتفتر الثغور ... فالامطار ستهطل غزيرة ، ومجرى الوادى سيمتلىء بالماء ، وهذا معناه زيادة في المحصول ، وفي الايراد ...

من هو سيىء الحظ ؟

وهذا الوادى ـ وادي زبيد ـ هو واحد من سبعة اودية كبيرة خصبة تمتد من جبال اليمن حتى مياه البحر الاحمر غربا عبر صحراء تهامة .. وفي وسط وادي زبيد تقع مدينة زبيد ، التي كانت تعرف قديما باسم الحُصَيْب ، ثم غلب عليها اسم الوادى ..

وقد وقع اختيار منظمة الاغذية والزراعة (الفاو) التابعة للامم المتحدة على وادى زبيد عام ١٩٥٧ لاجراء دراسات رائدة في حقل الزراعة باليمن .. وتعاقبت السنوات والمشروع لم يتحرك، واخيرا وبعد ١٥ عاما ، انتهت عملية مسح الوادى .. اما التنفيذ فما زال قيد البحث والدراسة الى اليوم .. انه واحد من مشاريع الامم المتحدة المعمرة في اليمن ..

ويتساءل بعض اليمنيين : ترى من هو سيىء الحظ .. هل هو خبير الامم المتحدة العامل في اليمن ، أم هى مشاريع اليمن التى يشرف عليها خبراء الامم المتحدة ؟

انخفاض معدل الانتاج

ونتيجة للدراسات المطولة على وادى زبيد ، الذى لا يزيد طوله على ٥٠ كيلو مترا ، اتضح ان الزراعة في اليمن يمكن ان تصبح عماد المستقبل الاقتصادى للبلد ، اذا اعطيت العناية الكافية ..

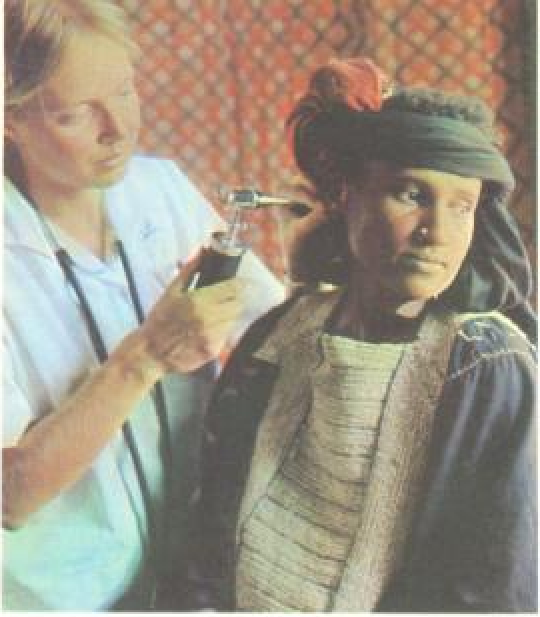
فمما لا شك فيه ان تربة وادى زبيد ومياهه يصلحان تماما للزراعة،ولكن معدل انتاج المحاصيل من الارض ينخفض الى ادنى مستوى .. فمثلا هكتار الارض المزروع ذرة في وادى زبيد ، يعطى محصولا يقرب وزنه من سبعة اعشار الطن الواحد .. في حين ان انتاج الارض المماثلة في العالم ، يرتفع وزن محصوله الى نحو طنين من الذرة ، ان لم يكن اكثر ..

ثلاثة اسباب وراء تدهور الانتاج

ويقول الخبراء المجربون ، الذين قاموا بعملية مسح الوادى ، ان هناك ثلاثة عوامل وراء تدهور كميات الانتاج :

اولها : صاحب الارض نفسه ، **الذى يزرع وفقا لمبدأ المشاركة ، بمعنى انه يؤجر ارضه لمزارع ، كي يحرثها ويزرعها ويسقيها ويحصد**







المرض والجهل ، وسلبية المواطن العربي تجاه آلام اليمن ، كلها تعيق تقدم تلك البلاد .. وتوضح الصورة اليمنى تلميذات كتاب الشميري المكان الوحيد الذي تتعلم فيه فتيات زبيد ، من وراء الشيدر الاسود المطرز بكلمتي : ملبوس العافية .. اما الصورتان العليا والسفلى فهما للطبيبة السويدية جونيل والممرضة آن ، جاءتا من بلاد السويد البعيدة الباردة مع زميلات اخريات لمعالجة اطفال زبيد فقط .. فوجدن الامراض المختلفة تفتك بكل الناس في زبيد دون ان يعالجهم احد .. فاضطررن لفتح ابوابهن امام الجميع .. ولكن المشكل في الاهالي انهم يريدون علاج امراضهم ، ولكنهم في نفس الوقت يرفضون التخلي عن عاداتهم التي تسبب هذه الامراض !





الذهب الابيض في مؤسسة القطن
القطن عمدوا الى ٧٠٠ الف فراسلة في عجز المحلج انه يحلج ١٢



بائع الشَّمَّة ، قائد مقبير ، يحمل بضاعته على ظهر حماره متجها الى القرية التي على قمة الجبل ، ونظرا لطول المسافة ، يأخذ معه حمارا احتياطيا يُحمّله بالقصب « الاجور » ليأكل منه الحمار الاول .. ويضع الشَّمَّة في كيسين ، وزن الواحد نحو ١٠ ارطال يبيعه بمائة وعشرين ريالا ، يقبض ثمن كيس واحد مقدما ، والثاني يتركه امانة عند التاجر الجبلي حتى يبيعه

محصولها ، مقابل ثلث كمية الانتاج .. بينما يجلس صاحب الارض مكرما لا عمل له في زبيد ، الا الاسترخاء والتحليق في عالم الخيال اثناء مضغ القات ، ثم تقاضي ثلثي محصول الارض !

والسبب الثاني لتدهور الانتاج يعود الى جهل الفلاح ، وزراعته للارض بنفس اسلوب الاجداد ، دون استعمال للمخصبات الكيماوية ، او معرفة بالمحاصيل الجديدة التي يمكن ان تدر ربحا وافرا ..

واذا اضفنا حالة الفلاح النفسية الى كل هذا ، وشعوره بانه يزرع وغيره يجني ، وان ارتباطه بالارض لا يتعدى توقيعه على ورقة او كلمة شرف .. كل هذه الاسباب تجعله لا يهتم كثيرا باصلاح حال الارض الا لموسم زراعي واحد .. وبعدها من يدري ماذا سيؤول اليه الامر ؟

والعامل الثالث في تدهور انتاج الارض هو ملكية الاوقاف والحكومة لنحو ٤٦٪ من اراضي وادي زبيد ، واراضي القطاع العام ـ كما نعرف ـ تلقى دائما عناية ضئيلة ، لهذا يتدنى انتاج ارضها الى اقل كمية منتجة من المحصول ..

وبالاختصار نجد ان اراضي وادي زبيد تفتقر الى رابطة تربطها بالفلاح كي يعتني بها ويرويها بعرقه ودمه .

١٠ جسور ستضاعف المحصول

وجلسنا نستمع الى المهندسين اميل شيتز رئيس المهندسين المجربين وهو يحدثنا عن مشروع وادي زبيد فيقول : « انتهينا من دراساتنا عن الوادي ، ورفعنا ١٠٠ نسخة من جميع تقاريرنا الى منظمة الاغذية العالمية ، والى الصندوق الكويتي





المرأة العاملة في حقول وادى زبيد تنطلق سافرة ، بعكس شقيقتها في مدينة زبيد ، التي لا تبرح منزلها الا وهي محجبة بالشيذر الاسود .. وهذه سعود حمود .. تأخذ الماء من الوادى لاهلها في الجبل .. سألناها هل تذهب للمدرسة .. قالت : ما اقرا .. كم عمرك ؟ ما ادري .. قلنا هل تدرين ان هذا الماء ملوث ؟ قالت : ايه .. هذا حق الحيوانات .. لكن ايش نسوى !

وجد الاهالى ان كل انتاجهم من من ٣٤٨ الف الى ولكن المشكل يكمن الزيادة في الانتاج .. والمطلوب محالج

للتنمية الاقتصادية العربية ، واقترحنا عدة مشاريع للنهوض بالوادى ، وقد ووفق على مشروع اقامة عشرة جسور صغيرة دائمة في مجرى الوادى ، لتغذية ١٦ قناة فرعية بالمياه .. وهذا المشروع – وتكاليفه مليون ونصف مليون دولار – سيزيد مساحة الارض المروية بمياه الوادى من ١١ الى ١٤ الف هكتار ، وسيرفع قيمة انتاج الوادى من ٨٤٧ الف دولار الى ٢٠٠٥٠٠٠ دولار تقريبا » .

اول دراسة جادة

لقد انتهى الخبراء المجربون من دراساتهم على الوادى ، وبداوا في الرحيل عن المنطقة بعد ان دربوا مجموعة مؤهلة من الشباب اليمنى ، من بينهم المهندس عبد الرحمن سعيد الذى قال لنا :

« لم يكن عندنا في اليمن اى دراسات علمية لاستثمار اى شيء ، سواء اكان صناعيا او زراعيا ، ومشروع وادى زبيد هو اول دراسة جادة ستمكننا من استثمار اشياء كثيرة .

« وقد لمس الفلاح اليمنى بيديه الخير الكثير الذي يمكن ان تنتجه له ارضه ، اذا اولاها العناية اللازمة .. فهكتار واحد من الارض اعطانا ٦ الاف حبة بطيخ .. وهكتار آخر اعطانا محصولا من الطماطم غطى حاجة اسواق تعز والحديدة لمدة شهر ..

« ان امنيتنا الغالية هي ان يسارع البنك الدولى وصندوق التنمية الكويتي – اللذان سيساهمان في تكاليف المشروع – الى تحويل التقارير والدراسات لحقيقة ملموسة في اقرب وقت .. »

القرشيون والأشعريون

ويعيش في وادي زبيد ٦٠ الف نسمة ينتمون الى قبائل عربية ما زالت متمسكة بتقاليدها القديمة الى اليوم .. واشهر هذه القبائل .. القرشيون والاشعريون والزرانيق والسوج والمعاصلة والزمة، واغلب ابنائها يعملون في الزراعة، والباقون يعيشون في زبيد .

الى الجد الخامس

وسألنا الاستاذ عبد الرحمن عبد الله الحضرمي، الذي تطوع مشكورا بمرافقتنا في جولتنا ، عن مؤسس زبيد ، ومعنى اسمها ؟

فقال : اختط المدينة محمد عبد الله بن زياد عام ٢٠٤ هـ (٨٠٩ م) بأمر من الخليفة المأمون .. وينتسب اسم المدينة الى زبيد بن ربيعة ابن اسلم بن مازن بن ربيعه بن زبيد الاكبر بن منبه ابن علمه بن جلد بن خولان بن الحارث بن ..

وهنا اوقفناه عن الاسترسال خوفا من ان يوصلنا الى ابينا آدم عليه السلام.. ولكنه قال :

« لا .. فانا كنت سأتوقف عند يَعْرُب بن قحطان فقط !! » .

قلنا : « هل تحفظ اسماء اجدادك ؟ »

فأجاب : « كل شخص في زبيد يحفظ نسبه حتى جده الخامس على الاقل . » واردف قائلا : « هل تريدون معرفة اسمي كاملا ؟ » .

فسارعنا بالاعتذار بحجة ضيق الوقت !

بدأنا اصلاح الأوقاف

وهؤلاء الاجداد جروا على عادة ترك اراضيهم وخيراتهم ، بعد وفاتهم ، لوزارة الاوقاف تديرها حسب شروطهم ..

وهذا امر طيب لا غبار عليه ابدا ، اذا كانت الوزارة على مستوى المسئولية لادارة ٣٦٪ من اراضي زبيد .. رقم هائل تلزمه ادارة حازمة .



واتجهنا الى وزير الاوقاف اليمني السيد يحيى عبد الله الضحياني، الذي يتولى حاليا مهمة شاقة في اليمن وهي اعادة تنظيم الاوقاف المترامية، وبدأ الرجل يتكلم قائلا :

ـ منذ سنتين بدأنا اول خطوة في سبيل اصلاح الاوقاف اليمنية ، واستخراج حقوقها المغتصبة .. وهذا جعلنا نعيش في مشاكل ومتاعب عديدة ، فالاصلاح ليس سهلا ، لان الاوقاف في اليمن متعددة الاغراض والاهداف ، منها اوقات المساجد ، واوقاف الذرية ، واوقاف التعليم .. حتى حمام مكة عندنا اوقاف له ، تدر علينا اربعمائة ريال يمني سنويا تشتري بها حبوبا لاطعام حمام مكة المكرمة ..

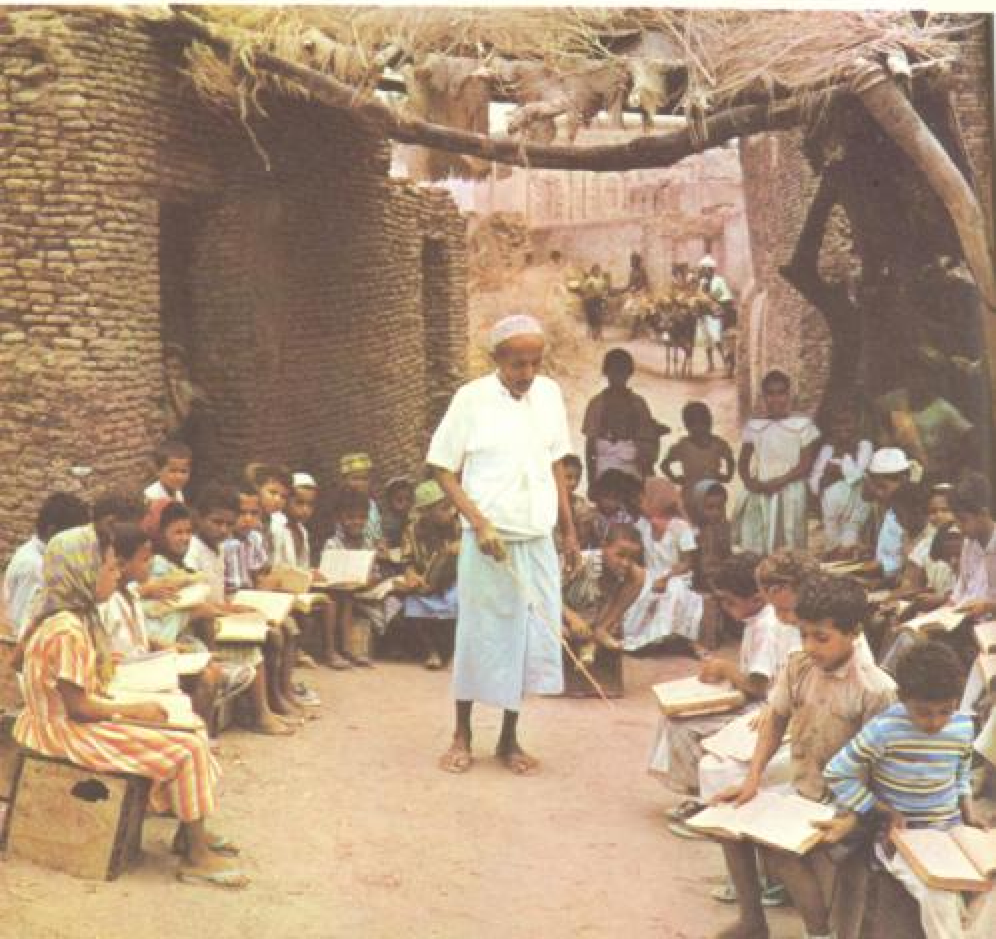
اما قولهم ان الاوقاف في اليمن هي اغنى وزارات الجمهورية .. فهذا يمكن ان يصبح حقيقة اذا اصلحنا حال الاوقاف .. وهذا ما نحن ساعون اليه ان شاء الله .

يقطع الانسان بالمنشار

قلنا : « نرجو معرفة رأيكم في هذه القصة التي يرددها ابناء زبيد ، انها عن « وقف الباشا » اكبر اوقاف مدينتهم .. وقصة هذا الباشا تبدأ عندما كان جنديا في حملة السلطان التركي سليم الاول على مصر ، وظل يترقى حتى اصبح اميرا لقافلة الحج المصري .. واشتهر الباشا بقسوته

الى اليسار : مليون ومائة الف صبي محرومون من التعليم في اليمن لعدم وجود مدارس لهم !! ان معالجة هذه المشكلة تحتاج الى تبرعات سخية جدا من الدول العربية الشقيقة في المقام الاول ، اما التبرع على مستوى دولة بفتح مدرسة تتسع لخمسة وسبعين طالبا ، او ارسال مقاعد ومكاتب بالطائرات، او الوعود بفتح عشرات المدارس، فليس هذا هو الاسلوب الصحيح لمعالجة هذه المأساة . والصورة العليا تمثل طلبة المعهد الديني او « الازهر الصغير » في زبيد .. بينما توضح الصورة السفلى الفصل الوحيد في مدرسة العديني القائمة في الهواء الطلق وسط الطريق ، لتعليم القرآن الكريم للاطفال المحرومين من المدارس !!





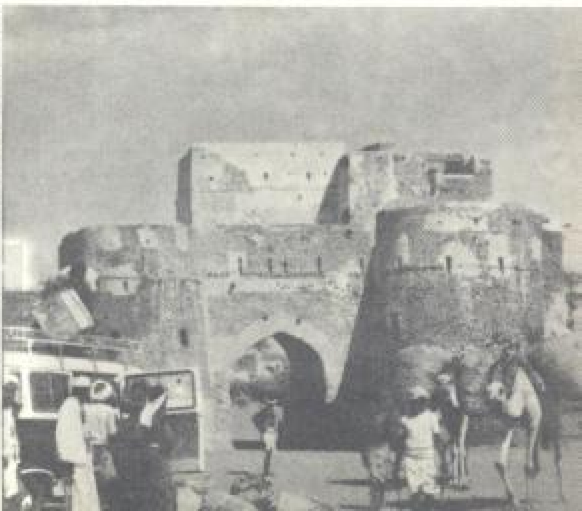
الزائدة مع اللصوص ، اذ كان ينشرهم بالمنشار الى نصفين عند وقوعهم في يده ، فاطلقوا عليه اسم مصطفى باشا النشار .. وهذا « النشار » عينه السلطان سليمان القانوني واليا على اليمن فأقام في زبيد ومات فيها عام ٩٦٤ هـ (١٥٥٦م).

واثناء توليه الحكم استولى على اراض كثيرة في زبيد ، اوقف ريعها بعد وفاته على ٣٨ قارئا يتلون يوميا آيات القرآن الكريم على روحه المعذبة، لقاء اقداح من الحبوب تصرف لهم شهريا .

وبعملية حسابية بسيطة نجد انه قد انقضى ٤١٦ عاما على وفاة مصطفى باشا النشار ، والتلاوات على روحه تتكاثر بمعدل ١٣٤٢٠ مرة في السنة ، حتى بلغ مجموع التلاوات الى اليوم خمسة ملايين وستمائة الف تلاوة .. وما زالت الامور مستمرة على هذا النمط ، فما رأيكم في هذا ؟

فاجابنا وزير الاوقاف قائلا : « كما قلت لكم اننا بدأنا الاصلاح في الاوقاف منذ سنتين، وبالنسبة لوقف الباشا المذكور فانه من الناحية الدينية لا يصح التصرف في غير ما نص عليه الواقف ، اذ يظل الوقف ساري المفعول الى يوم القيامة بحسب نص الواقف . ولكن هذا لا يمنع من امكانية ادخال تعديلات ، بعد دراسات عميقة تعد من قبل لجنة علمية تدرس الموضوع .. »

سور كبير به اربعة ابواب ، كان يحيط بمدينة زبيد .. شيد ايام بني زياد ، ورمم في عهود بني نجاح وبني مهدي وطغتكين الايوبي ، ومنذ عام ١٩٦٢ اوقفت الترميمات ، وبقيت البوابات على حالها .. وهذه بوابة ابي موسى الاشعري .



اوقاف الكويت تلبي النداء

وينهي وزير الاوقاف اليمني كلامه بقوله : « لقد شرعنا في تطوير وزارتنا حتى تسير في الطريق الصحيح ونحن نكون شاكرين لكل دولة تساعد الاوقاف اليمنية في اي مجال من المجالات ، فنحن في اشد الحاجة الى تدريب موظفي وزارتنا في الدول الشقيقة ، وتبادل الزيارات معها .. »

وبدورنا عرضنا هذه الاستغاثة على الاستاذ راشد الفرحان وزير الاوقاف الكويتي الذي ابدى استعداد وزارته التام لمساعدة اليمن في كل المجالات ، ودعا وزير الاوقاف اليمني لزيارة الكويت للتباحث معه والتشاور في مختلف الامور ..

القارضة تأكل التراث

وحتى تنظم وزارة الاوقاف امورها ، تعالوا نبحث معا عن تراثنا العربي القديم الموجود في زبيد .. وسألنا عن المكتبات التي تبيع كتبا . فقالوا : « لا توجد اي مكتبة تبيع كتبا في زبيد .. وانما هناك حوالي ٣٠٠ مكتبة خاصة مغلقة في منازل الاهالي ، يتوارثون محتوياتها ابا عن جد » **وبعد جهد رضي احد اصحاب المكتبات ان نزور مكتبته ، وذهبنا اليه فوجدناه لا يعرف ما تحويه مكتبته ، كتب مخطوطة مكدسة بعضها فوق بعض ، لا يعرضها للنور او القراءة ، وانما يتركها للاتربة وللحشرة القارضة « الارضة » .**

انقذوا المعهد الديني

وذهبنا لزيارة المعهد الديني في زبيد ، ويطلقون عليه اسم « الازهر الصغير » ، انه اقدم معاهد التعليم في اليمن ، وكان التعليم فيه دينيا محضا، يقام ، حلقات بجامع الاشاعرة ، وقد تحول حاليا الى مبنى مستقل يدرس فيه مائة طالب العلوم الدينية والعربية ، والعلوم الحديثة مثل اللغة الانجليزية والرياضيات والاجتماعيات .. ويتسلم كل طالب قدحا الا ربعا حبوبا ، وريالين الا ربعا نقدا، مساعدة شهرية من وزارة الاوقاف .

ولكن هذا المعهد في حاجة ماسة الى تبرعات كثيرة من اجل تحسين كل شيء فيه ، ابتداء من المبنى مرورا بالمكتبة والاساتذة والطلبة ، حتى الكوب اليتيم الذي يشرب منه كل الطلبة !!



٢٤٠ مليون متر مكعب من المياه تندفع سنويا في مجرى وادى زبيد ، ولكن عيبها ان القسم الاكبر منها يندفع من الجبال على هيئة سيل مدمر يأتي كاللص في الليل عادة ، ولا يستغرق اندفاعه اكثر من بضع ساعات ، يكتسح خلالها السدود التحويلية البدائية التي يصنعها الاهالى من الطين والاحجار واغصان اشجار « الورّاك » .. والمشروع الجديد لوادى زبيد ، وتكاليفه مليون ونصف مليون دولار ، ينحصر في اقامة عشرة حواجز تحويلية ثابتة في بطن الوادى لحجز مياه الفيضان وعدم ضياعها .

وعد من العراق

ويتولى الاستاذ عبد الله محمد عطية مسئولية ادارة التعليم الحديث في زبيد ، وقد قال لنا : « عندنا ٨٠٠ تلميذ في الابتدائي و ١٥٠ في الاعدادى و ١٥ طالبا في الفصل الاول الثانوى الذى افتتحناه في العام الدراسي الماضي بالمدرسة الكويتية . »

وتعجبنا من قلة عدد الطلاب ، فقال لنا مدير التعليم : « كان الآباء يمتنعون عن ادخال ابنائهم الى المدارس الحديثة ، مفضلين عليها التعليم التقليدى في الاربطة .. ولكنهم اليوم بدأوا يشعرون بأهمية التعليم الحديث ، فأدخلوا اولادهم وحتى بناتهم الى نفس المدرسة ، وهكذا وجدنا انفسنا نوافق على التعليم المختلط لعدم وجود مدارس مستقلة للبنات .

« وقد وعدتنا الحكومة العراقية ببناء مدرسة للبنات في زبيد ، ونحن ما زلنا في انتظار تحقيق هذا الوعد ، اما حاليا فتعليم الفتاة مقصور على الكتاتيب . »

الرجال لا يريدون

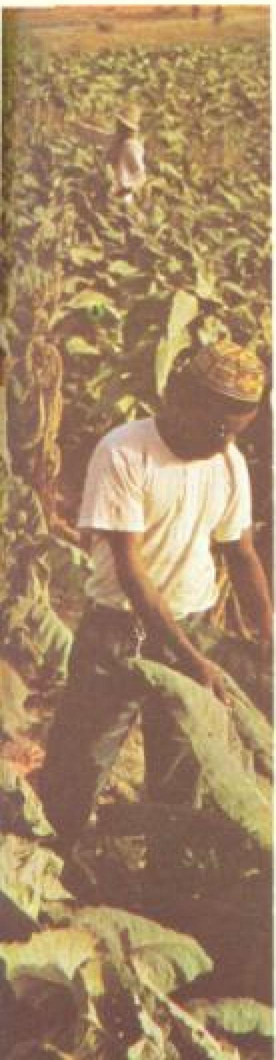
وذهبنا الى « الكتّاب » فوجدناه مبنى قديما مكتظا بثمانين طفلا واربعين طفلة مكدسين بعضهم الى بعض .

ومن خلف حجابها الاسود ـ ويسمونه الشّيذر ـ

الى اليسار : تتفرع من جانبي وادى زبيد ١٦ قناة صغيرة تنقل المياه الى ١١ الف هكتار من الارض الطيبة ، وهناك ٥٩٠٠ هكتار من الاراضي المرتفعة، تسقى بمياه الامطار، والفا هكتار تسقى بمياه الآبار ان وادى زبيد هو واحد من سبعة أودية كبيرة تمتد من جبال اليمن حتى مياه البحر الاحمر .



خبير الامم المتحدة ، والخبير المجرى ، ومعهما ثلاثة من الشباب اليمني المؤهل الذين تدربوا لتولي مسئولية ادارة مشروع وادى زبيد بعد سفر الخبراء .





انتاج الارض في وادى زبيد لا يتعدى الاحتياجات الاساسية لطعام الاهالي ، ولكن المزرعة التجريبية التي أقامها المجريون اثبتت أن انتاج البطيخ (الى أعلى) والتمباك الفرجيني (الى اليسار) وغيرهما من المحاصيل يمكن أن يتم بصورة تجارية ناجحة





بدأت السيدة علوية على الوصابي ، زوجة ناظر المدرسة تقول لنا بلهجتها المحلية : « نشتهي بناء مدرسة بنات ، بدلا من ان تدرس تحت الشمس المحرقة للدم .. ان الاهالي الرجال لا يريدون بناء مدرسة للبنات ، ولا الحكومة » .

قلنا : « وهل سيكون هناك اقبال على مثل هذه المدرسة ؟ » .

فاجابتنا : « لو فتحنا مدرسة بنات ، لتعلمت الامهات قبل البنات .. » .

وتطرق الحديث الى حالة المرأة في زبيد فقالت: « عندما تبلغ الفتاة التاسعة من عمرها تغطى بالشيلر الاسود ، وتقتل المرأة وقتها بزيارة صديقاتها وقريباتها .. وفي المساء تجلس في المقيل تتعاطى القات معهن .. انها تعيش في فراغ كبير » .

نتائج جهل المرأة

وانعكس تخلف المرأة وجهلها على صحة المواليد والاطفال في زبيد .. فارتفعت نسبة الوفيات بينهم الى ارقام عالية مخيفة ، سجلتها بالارقام الدكتورة السويدية جونيل التى تعمل منذ سنتين في زبيد ، فكانت النتيجة : ١٢٪ من مواليد زبيد يموتون بين سن شهر وسنة و٥ر٣٣٪ اخرى يموتون وسنهم يتراوح بين عام وثلاثة اعوام و ٣١/٢٪ يموتون قبل بلوغ الرابعة من عمرهم .. وبمعنى آخر ان الذين يتابعون رحلة الحياة بعد عمر اربع سنوات هم ٢١٪ فقط ، من مجموع المواليد في زبيد ..

وتتابع الدكتورة السويدية كلامها : « ورغم هذه النسبة الهائلة من الوفيات ، نجد ان متوسط عدد الاطفال في الاسرة الواحدة في زبيد ما زال مرتفعا الى رقم خمسة اطفال على الاقل .. » .

من استوكهلم الى زبيد

وسألتنا الطبيبة السويدية : « من انتم ؟ وماذا تعملون هنا » .

فقالت ببساطة : « نحن بعض افراد جمعيه سويدية تعمل من اجل انقاذ الطفولة في العالم ، دون اى تدخل في الشئون السياسية او التبشيرية .. لقد حاولنا في زبيد ان نجعل علاجنا مقصورا على الاطفال فقط ، ولكننا لم نستطع ان نوصد ابوابنا امام جحافل النساء والرجال المرضى ، فاضطررنا لمعالجة الجميع ، بمتوسط ٢٥٠٠ حالة شهريا .

« ومواردنا المالية تأتينا من السويد ، نجمعها

٢٥ مدرسة ابتدائية ، وثلاث مدارس ثانوية كبيرة ، ودار للمعلمين ، و ٨ مستوصفات ، وثلاثة مستشفيات ومكتبة عامة كبيرة ، ومسجدان ، وعمارتان سكنيتان ، اقامتها الكويت في اليمن بواسطة الهيئة العامة للجنوب والخليج العربي ، كما قدم صندوق التنمية الكويتي نحو مليوني دينار قروضا لليمن .. وفي الصورة ترى مباني المدرسة الثانوية الكويتية والمستوصف في زبيد





٧٩٪ من اطفال وادى زبيد يموتون خلال فترة الاربع سنوات التى تلى ولادتهم ! بسبب جهل الامهات ، والفقر ، وانعدام العناية الطبية .. وكانت الوالدات يجلسن في منازلهن داخل القاعة المزينة بالمرايا والاوانى النحاسية لمدة ٤٠ يوما لا يتحركن ، وانما يستمعن الى احاديث الجارات والصديقات .. اما اليوم فرأينا الامهات يذهبن الى مستوصف الكويت في مدينة زبيد ، بعد خمسة ايام من ولادتهن ، مطالبات بالفيتامينات لاطفالهن ، ومتطلعات الى الممرضة السويدية « بوديل » وهي تلقي عليهن شرحا بالانجليزية عن كيفية العناية بالطفل .. ثم يفتحن آذانهن ليستمعن الى الممرضة اليمنية سعدة محمود وهي تترجم كلام السويدية الى اللهجة المحلية ! ان الحاجة الى ممرضات يمنيات مؤهلات ، تكاد تتساوى مع الحاجة الملحة الى الاطباء والطبيبات !!

من الجمهور السويدى ، ونحن وقوف على نواصي الطرقات والشارع من اجل انقاذ اطفال اليمن .. انقاذهم من سوء التغذية والملاريا والسل والبلهارسيا والام المعدة وفقر الدم ، وغيرها من الامراض » .

من سياخذ مطهم

وتحصر الدكتورة السويدية الشقراء متاعبها في اليمن في ثلاث نقاط هي :

اولا : انعدام الوعي الصحي بين المواطنين ، وعدم وجود طب وقائي لتوعيتهم ، وهذا يجعل المريض الذى عالجناه من امراضه ، يعود الينا بعد بضعة ايام حاملا نفس المرض ..

ثانيا : الادارة ترهقنا اكثر من العلاج الطبى ، ان تنظيم المرضى ، وادارة المستوصف ، وتأمين المعدات والادوية اللازمة .. يأخذ جزءا هائلا من مجهودنا ..

وتنهى الطبيبة السويدية حديثها قائلة : « اننا نتألم لحالة ابن زبيد الصحية .. وقد دربنا بعض الشباب والشابات محليا ، ولكننا في اشد الحاجة الى ممرضات محليات للتفاهم مع النساء .. ومن المؤلم اننا سنترك زبيد مع





اشراقة عام ١٩٧٥ لان جمعيتنا قررت اغلاق ابوابها في اليمن مع نهاية عام ١٩٧٤ للنقص الكبير الذى تعانيه في ايراداتها المالية » .

اين نحن ؟!؟

لقد تألمت السويدية التى احبت اليمن وجبله واهله الطيبين للغاية ، تألمت لانها ستتركهم في عام ١٩٧٥ .

ونحن بدورنا نتألم،ونختصر كلامنا حتى لا يكون معادا : « نتألم ونحن نرى تقاعس حكوماتنا العربية الثماني عشرة .. ووزارات الصحة .. وجمعيات الهلال الاحمر .. ونقابات اطبائنا .. بل حتى اطبائنا .. اين كل هؤلاء ولماذا لا يتحركون لعلاج هذا الشعب الذى لديه طبيب واحد لكل ١٠٠ الف نسمة .. وهذا الطبيب غالبا ما يكون اجنبيا او اجنبية ! ! ؟

مشاريع ومصانع

ان الحكم على تطور اليمن وتقدمه يكون جائرا لو قارناها باى دولة او بلد آخر .. فهنا لا يبدأ العمل من الصفر ، وانما من تحت الصفر .. فكل شيء ناقص مفقود في اليمن .

ولكن هذه حالة لن تستمر طويلا .. لان تنفيذ مشروع تطوير وادى زبيد سيخلق ازدهارا كبيرا في المنطقة .. اذ سيصبح بالامكان زراعة القطن بكميات ستصل الى ٨٥٠٠ طن سنويا .. وهـذه ستحتاج الى محالج حديثة سريعة تستطيع حلج ثمانية اطنان في الساعة ، بدلا من المحلج اليتيم الذى يحلج حاليا اربعة اطنان كل ٢٤ ساعة .

وستتوافر بذرة القطن بكمية تقرب من خمسة الاف طن وهذه يلزمها مصنع تكاليفه نحو ٣٥٠ الف دولار لاستخراج الف طن من زيت القطن .

ونتيجة للنجاح المذهل في زراعة الخضراوات والطماطم ، يوجد مشروع لاقامة مصنع لتعليب الطماطم والخضراوات تكاليفه ٢٥٠ الف دولار ..

والى جانب هذه المصانع يجب الاستعداد من الآن لتسويق ٢٤ الف طن بطيخ و ٨ آلاف طن طماطم ، و ٦ آلاف طن بصل ، كلها سينتجها الوادى بعد تنفيذ مشروعه..لقد استوردت اليمن في عام ١٩٧٠ مواد غذائية قيمتها ٦٠ مليون ريال .. ومن المنتظر ان يغطى انتاج وادى زبيد جزءا كبيرا من حاجة البلاد ويزيد ..

بداية التراجع

مشاريع كثيرة بدأ الناس يتحدثون عنها وهم جالسون في المقيل يمضغون القات ويخزنونه في اشداقهم ، ويتعجبون كيف جرؤ المؤتمر الادارى لكبار موظفى الدولة ان يتخذ قرارا بقلع اشجار القات من جميع اراضي الحكومة والاوقاف .. وتحريم تعاطى القات على موظفى الدولة من مدنيين وعسكريين .

وقد فاتهم ان كل هذا هو بعض مظاهر حضارة القرن العشرين التى بدأت تتسلل الى زبيد ، المعقل الرئيسي لشراذم القرن السادس عشر ، الآخذة في التراجع من خطوطها المحصنة في اليمن السعيد .

سليم زبال

الى اليمين : الناس يجوعون في اليمن ، لانهم يجهلون شق الارض الطيبة واخراج الطعام منها .. وكم من مرة قلب المزارع الاجير الارض وبذر الحب ، وانتظر هطول الامطار ، التي بخلت عليه بمياهها فضاع جهده عبثا .. وفي الصورة العليا نرى عباشا وسيفا يحرثان الارض ، بنفس الاسلوب الذى ورثاه عبر القرون ، دون ان يدخلا عليه اى تطوير او تجديد .. والصورة السفلى لمجرى وادى زبيد ، الذى جاءت اليه اخيرا بعثة من البنك الدولى والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ، لتقييم دراسات الخبراء المجريين على الوادى ، وتحديد حجم المشروع الاستثمارى ، الذى ستصل جملة الاستثمارات فيه الى حوالي ١٥ مليون دولار .

العربي

العـدد ١٧١
ذو الحجة ١٣٩٢
فبراير
(شباط) ١٩٧٢

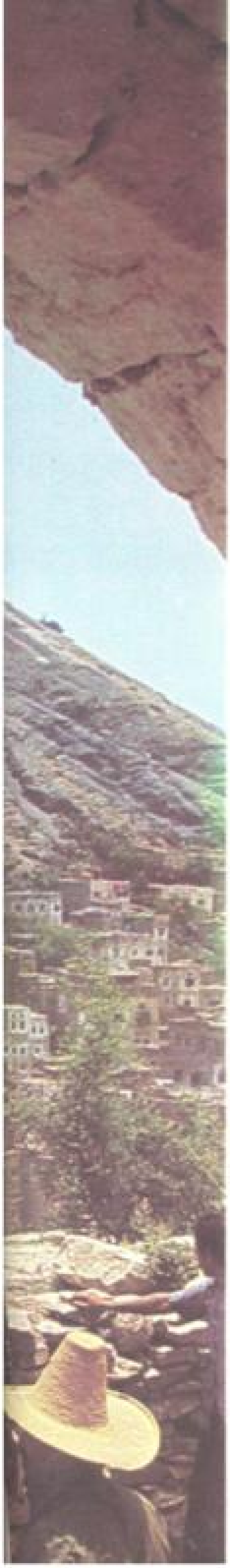


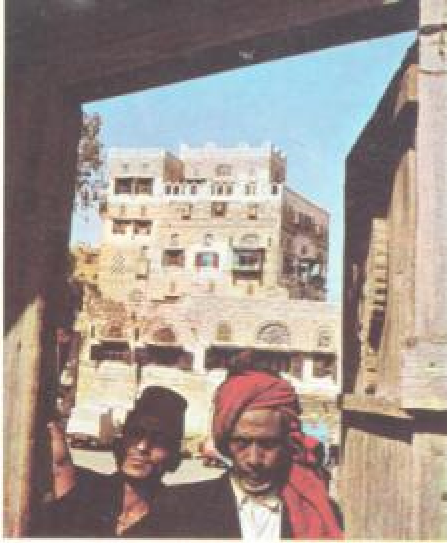
فتاة من حجة : البلدة اليمنية التي اتخذت من قمة الجبل مستقرا لها

جوائز ١٢٠٠ دينار سنويا

الثمن

الكويت	١١٠ فلس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان	١٠٠ [illegible]
الخليج العربي	٢ [illegible]	لبنان	١٠٠ قرش	ليبيا	١٥ [illegible]
السعودية	٢ ريال	الأردن	١٠٠ فلس	تونس	١٠٠ مليم
البحرين	[illegible]	سورية	١٠٠ قرش	الجزائر	١ دينار
اليمن	[illegible]	[illegible]	١٠٠ [illegible]	المغرب	١ درهم





ابواب قصر سعدان وقد فتح لاول مرة .

اعرف وطنك أيها العزيز

حجة

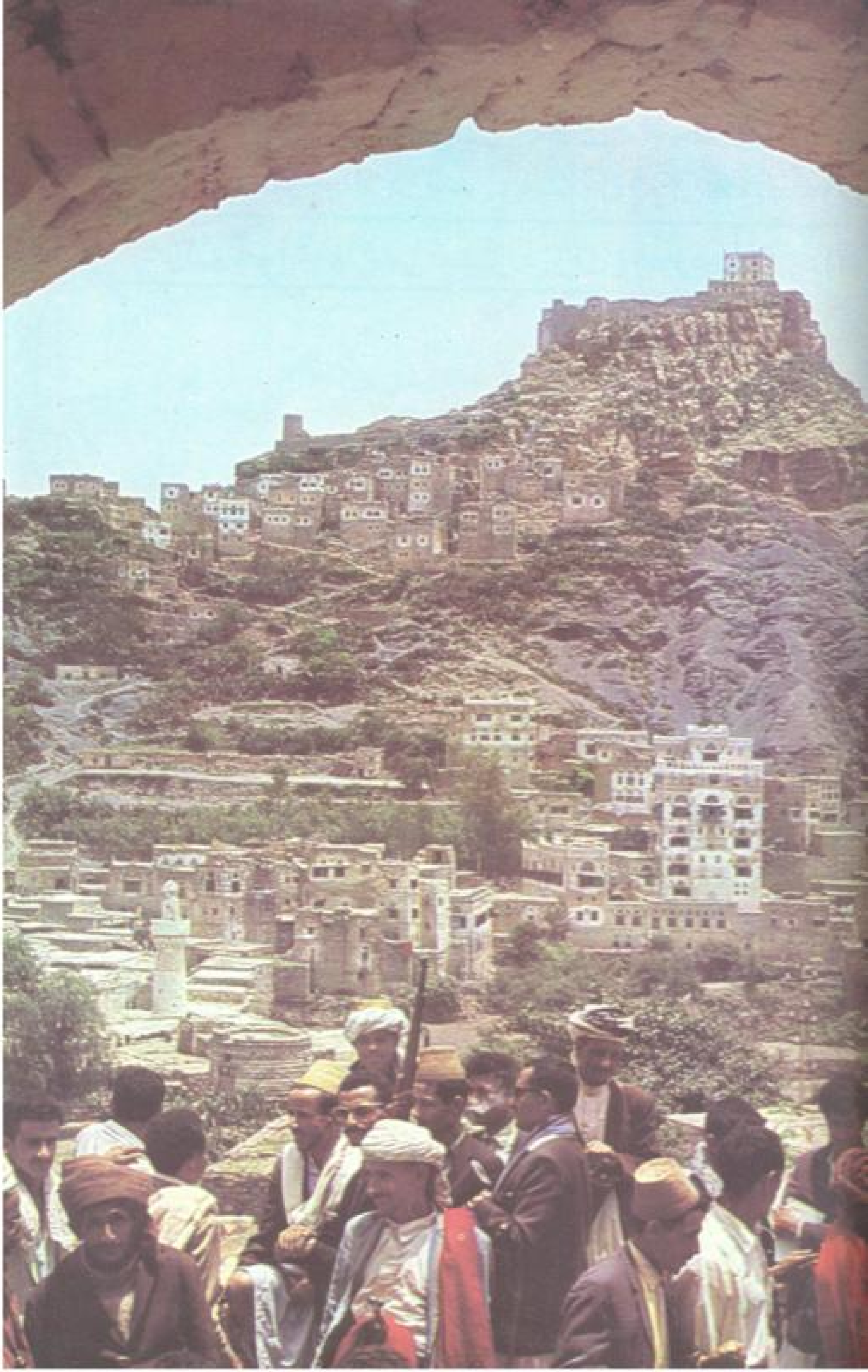
بلدةٌ فوقَ قِمةٍ جبل

استطلاع :
سليم زبال

تصوير :
أوسكار مترى

الى اليسار : هذه هى حجة ، وكأنها لوحة فنية رائعة ، والى اسفل : الشعب كله يعمل على اصلاح مبنى مستشفى حجة .





حجة : بلدة فوق قمة جبل: وهى كسائر بلاد اليمن : مدائن فوق جبال

عزلتها مواقعها فهى تعيش فى زمان غير هذا الزمان

■ فوق قمة كل جبل فى اليمن قرية . . وفى كل قرية اناس يعيشون حياة غريبة . . لا يحس بهم احد ، ولا يحسون بأحد . . انها العزلة التي اختاروها لانفسهم ، وفرضتها عليهم ظروف الحياة فى اليمن السعيد .

وطرنا الى اليمن فى محاولة لاستطلاع هذه العزلة . . فماذا رأينا ؟

لقد شاهدنا العجب العجاب ، مما لايخطر على بال ، فقد رأينا اناسا لا يمتون بصلة الى الحياة التي نعيشها . . رأينا اناسا خيّروا بين أهون الشرين : المرض او الموت . . وطبعا اختاروا المرض عن طيب خاطر ! رأيناهم يتألمون فى صمت دون أن يسمعهم أحد . . وعندما اطمأنوا الينا سألونا بسذاجة . . «أننا بشر ، لنا حقنا فى الحياة ، فلماذا لا تساعدوننا ؟! »

عزلة فوق الجبل !

وحتى نلم بجميع اطراف الصورة ، تعالوا نتفهم اولا الاسلوب العجيب الذى عليه التوزيع السكاني فى اليمن . .

يقول احصاء ١٩٧١ ان عدد سكان المدن الثماني الرئيسية فى اليمن يقترب من نصف مليون نسمة تقريبا ، . . فاين يعيش بقية الاهالي ؟ . . اين يعيش ثمانية ملايين نسمة ؟ . . ويأتينا الجواب : انهم يعيشون فى نحو ١٧ الف قرية وعزلة . .

لقد كرست اليمن كلمة الانعزالية شعبيا ورسميا ، فاصبحت كلمة عزلة تطلق على كل تجمع سكاني صغير فوق قمة جبل فى سلسلة جبال اليمن الهائلة . .

ويبدا تكوين العزلة عندما يصعد رجل وزوجته الى قمة الجبل ، وتتكاثر العائلة مع الايام، فيضطر الاب الى بناء غرفة اضافية . . وينضم اليهم عريس جديد ، فتتسع رقعة العزلة وتصبح على شكل قرية . . ولكن اسلوب الحياة يظل على ما هو عليه منذ الاف السنين حفرة كبيرة فى وسط العزلة تتجمع فيها مياه الامطار ، والرجال ينزلون الى الوادى كل يوم لزراعة رقعة صغيرة من الارض ، ومع الغروب يصعدون الى قمة الجبل ثانية حاملين معهم كمية من الطين لتوسيع الرقعة الزراعية عند القمة . . وهم يزرعون غالبا نوعين : الذرة للطعام ، والقات للعادة الرذيلة المعروفة فى اليمن !

لماذا ؟ !

واول سؤال يتبادر الى الاذهان هو : لماذا اختار اهل اليمن قمم الجبال مكانا مفضلا لسكناهم ؟

وتجيبنا كتب التاريخ اليمنى قائلة : « لم يذق اليمن طعم السلام والاستقرار ، الا خلال فترات قصيرة نادرة من حياته الطويلة . . ففي أيام الخلفاء الراشدين استتب السلام لمدة ١٥ عاما . . وفى ايام الامام يحيى بعد اكثر من الف من السنين استقرت البلاد لمدة ٣٥ عاما . . تحت الذل والارهاق . . وفيما بين ذلك كانت الفتن والحروب والغزوات والمعارك تمزق كيان اليمن . . وكانت المدن الثائرة تباح لرجال القبائل ، ينهبونها ويقتلون رجالها ، ويسبون نساءها . . بلاء اصاب اليمن فجعلها يمنا شقية تعسة ، بدلا من يمن سعيدة . .



الى اليسار : توضح هذه الخريطة موقع « حجة » في الطرف الشمالي من الجمهورية العربية اليمنية .. لقد ظلت حجة تعتبر منفى للمسجونين ، واليوم تراها تنتظر بلهفة فتح الطرق المؤدية اليها حتى ترتبط بالعالم الخارجي .

وفي غمرة الحروب تهدمت السدود التي تحجز مياه الامطار ، ولم يقم احد باصلاحها ، وانطمست الجداول ، وانسدت الغيول (عيون الماء) ، وانعدمت اشجار الفاكهة ، التي ذكرها احد المؤرخين بقوله : « من فرط كثرة اشجار الفاكهة في اليمن ، كانت الثمار تسقط في صينية العروس اثناء ذهابها لبيت الزوجية !! »

ولم تقتصر حروب اليمن على التاريخ القديم ، فما زالت في اذهان جميع القراء ذكرى الحرب اليمنية الاهلية الاليمة التي وقعت بين الجمهوريين والملكيين من اهل اليمن بين عام ١٩٦٢ وعام ١٩٦٨ ازهقت خلالها حياة مئات الالوف من ابناء اليمن ، ماتوا دون ان يعلم بهم احد .. وما كادت تلك الحرب تتوقف حتى نشبت في العام الماضي فقط ، عام ١٩٧٢ معارك حربية طاحنة بين الاشقاء من ابناء اليمن ، شماله وجنوبه .

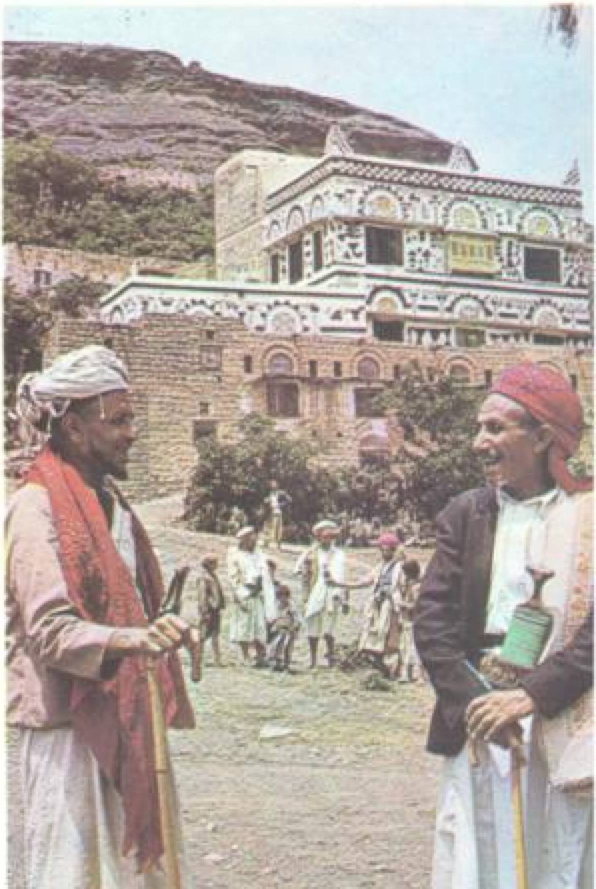
حروب ومعارك لا تكاد تهدأ حتى تشتعل من جديد حاملة الخراب والدمار الى بلد في اشد الحاجة الى الاستقرار ..

لكل هذه الاسباب اتجه غالبية ابناء اليمن الى



الى اسفل : يعشق اهل اليمن الالوان الصارخة ، وهم يصنعون ملابسهم ملونة بها ، وهى تشبه في الوانها ملابس الاكراد في شمال العراق .. ويرتدى القضاة عمامة من الشاش فوق رؤوسهم ، ويضعون الشاش الحريرى الطويل حول اكتافهم ، ويزركشونه بالسيم ، اى الخيوط الفضية . اما عامة الناس فيضعون كوفية من القطن ، يطلق عليها اسم « عواذل » .. ويتمنطقون بالجنبية ذات المقبض المصنوع من عظم وحيد القرن ، الغالى الثمن .

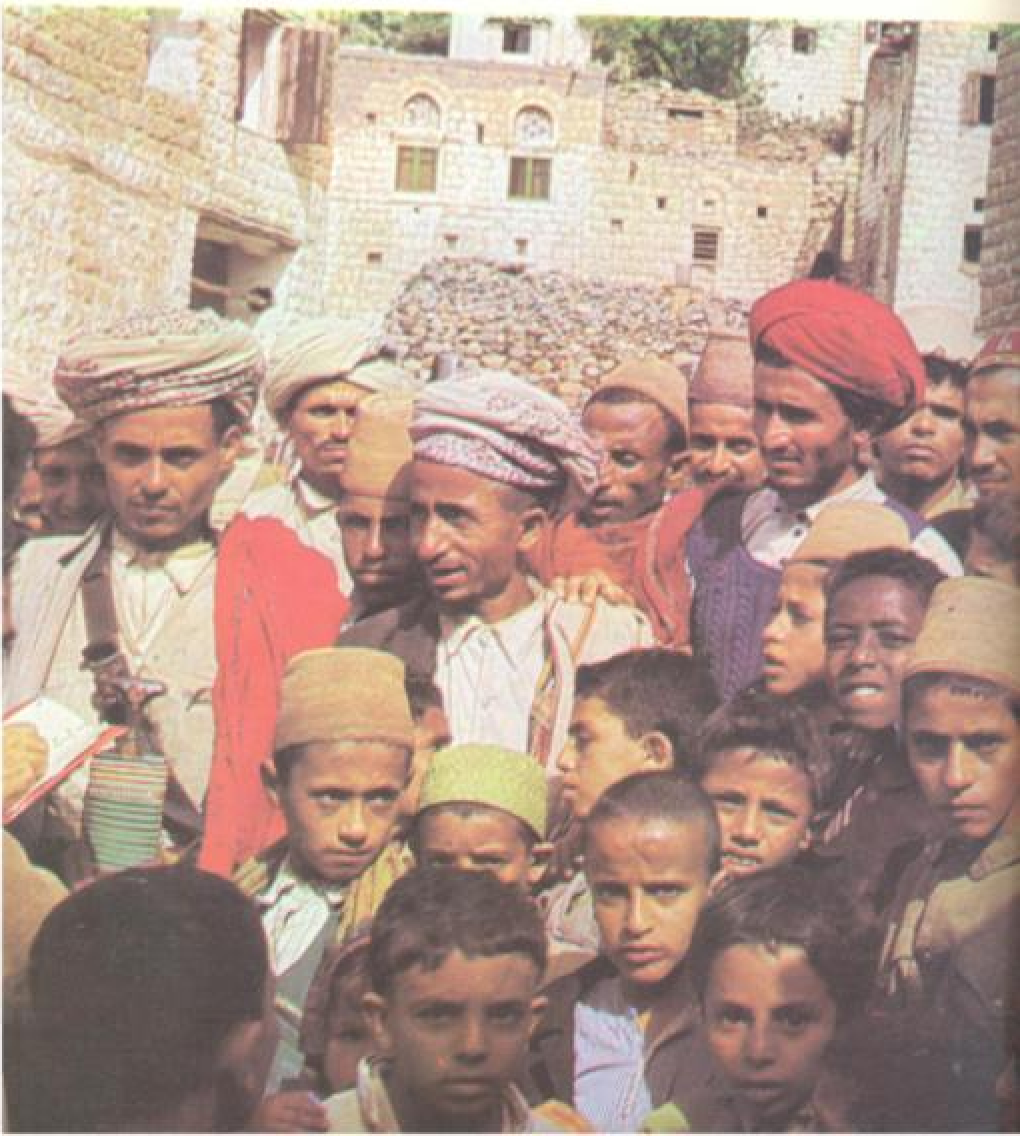






الى اليمين : « الشرع» كلمة تطلق على المحكمة الشرعية، وتحال الى هذه المحكمة جميع القضايا المدنية والعمالية والجنائية . لقد زالت جميع التفرقات المذهبية في ربوع اليمن وأصبح المعتمد هو الدليل من الكتاب والسنة الصحيحة . وقد تتفق قواعد الاحكام كثيرا مع مذهب الامام ابى حنيفة والامام زيد بن على (امام الزيدية) .. واكثر القضايا المعروضة حاليا هى قضايا الدم ، اى الثأر ، والقضايا المالية ..

الى اسفل : ابناء حجة بملابسهم الملونة العادية .. لقد كانوا يحيطون بنا دائما ويتطلعون بفضول زائد الى مصور العربى اثناء عمله .







ثلاث صور : اثنان منها توضحان وعورة الطريق الجبلي الطويل المؤدي الى حجة ، والثالثة
المحافظات التي يمر بها الطريق .. هذا الطريق الجديد سيختصر المسافة بين الحديدة وص

قمم الجبال يحتمون بها ويتحصنون بعيدا عن الاماكن المضطربة .

الطريق الى حجة

وكان هدفنا في اليمن هو استطلاع مدينة حجة.. اكبر المدن المعزولة عن الحياة في اليمن .. وعندما علموا في ميناء الحديدة اننا قاصدون حجة ، قالوا : رحم الله الشاعر الذى قال عندما سألوه الى اين تسير فنظم هذا البيت :

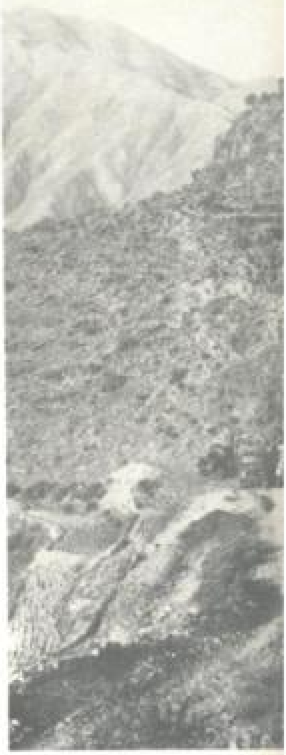
الى اين تمشي والطريق وعور
فقلت الى حيث النسور تطير

ومع اشراقة الشمس ، كنا داخل السيارة الصحراوية (اللاند روفر) التي انطلقت بنا من الحديدة متجهة شمالا بمحاذاة مياه البحر الاحمر .. ثم انعطفت الى الداخل ، الى بحر من الرمال الناعمة ، انها صحراء تهامة ، المحصورة بين جبال اليمن من الشرق والبحر الاحمر من الغرب، بعرض يقرب من ٢٥ كيلو مترا .

وتتابعت امامنا قرى تهامة ووديانها .. هذه قرية سردود : ١٥ عشة ومقهى .. ارضها طيبة ، زرعتها الطبيعة بالاعشاب ، ولم يزرع الانسان فيها شيئا .. وهذه قرية الضحى بمدرستها الابتدائية للبنين ، اما البنات فلم يتعلمن حتى اليوم لعدم وجود مدرسة لهن ، وكذلك الطب الحديث لم تعرفه هذه القرية التي يقرب عدد سكانها من اربعة الاف نسمة وجوههم صفراء وعيونهم حمراء من فرط الارهاق والمرض !!

وعند قرية المعروفية وقفنا امام بئر الماء ، التي يشرب منها الاهالي .. المرأة هي التي تعمل .. تلقي بالطربال (الدلو المصنوع من الجلد الاسود) الى داخل البئر العميق، ثم تسحب الحبل الطويل الثقيل ، وتفرغ الماء في الكد (الجرة الفخار) وتحملها الى منزلها ، حيث يجلس الزوج دون





شق طريق جديد يوصل من الحديدة الى حجة ، تقوم بها وزارة الاشغال اليمنية ، بتمويل من
كيلو مترا ، بدلا من ٢٦٠ كيلو مترا ، هى طول الطريق الحالى ..

عمل الا ان يخزن القات ، وينتظر هطول الامطار حتى يثبت البذر الذى كان بذره .

الصورة تتبدل

وتركنا صحراء تهامة ، ويسمونها بالصحراء الكاذبة ، لأن الماء موجود فيها على عمق امتار قليلة تحت الرمال ، ينتظر من يرفعه ليحول الصحراء الى جنة خضراء ..

وانعطفت بنا السيارة الى المنطقة الجبلية ، الصورة تتبدل ، فالاشجار الخضراء منتشرة في الوديان وعلى سفوح الجبال .. والمياه تتفجر عيونا غزيرة .

وبدات السيارة الصحراوية « تتسلق » الجبل، فالطريق بعد منطقة «الأمان » لا يمكن أن يسمى طريقا ، انه مجموعة حفر متجاورة حولها الاحجار النارية ، احجار البازلت السوداء ، ويزيد الحالة خطورة أن الطريق يكاد يرتفع عموديا .

وعند المنعطفات الخطرة الضيقة ، كان السائق يصيح بالصبى الذى معه : « انزل يا ابن .. » ويهرول جاسم المسكين الى خلف السيارة ، يأخذ حجرا من الطريق ويضعه تحت الاطار الخلفى للسيارة حتى لا تنزلق .. ويطمئن السائق فيدفع السيارة تاركا الصبى المسكين يجرى لاهثا ليلحق بها .

وصادفتنا سيارة واقفة في الطريق ، فتوقفنا فرأينا صبيا يصرخ متألما والدم يسيل بغزارة من يده ، لقد بتر اطار السيارة بعض أصبعه اثناء وضعه الحجر تحت الاطار ..

النوم في قصر الامام

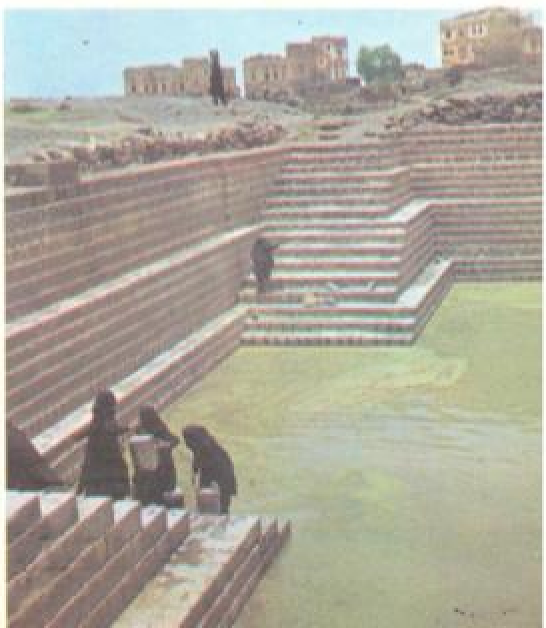
وأخيرا وبعد رحلة شاقة مرهقة استغرقت اكثر من ١٢ ساعة قطعنا خلالها ٢٦٠ كيلومترا ، لاحت امامنا حجة ، وكأنها لوحة زيتية رائعة ، منازل حجرية عالية متراصة فوق الجبل ، بعضها فوق

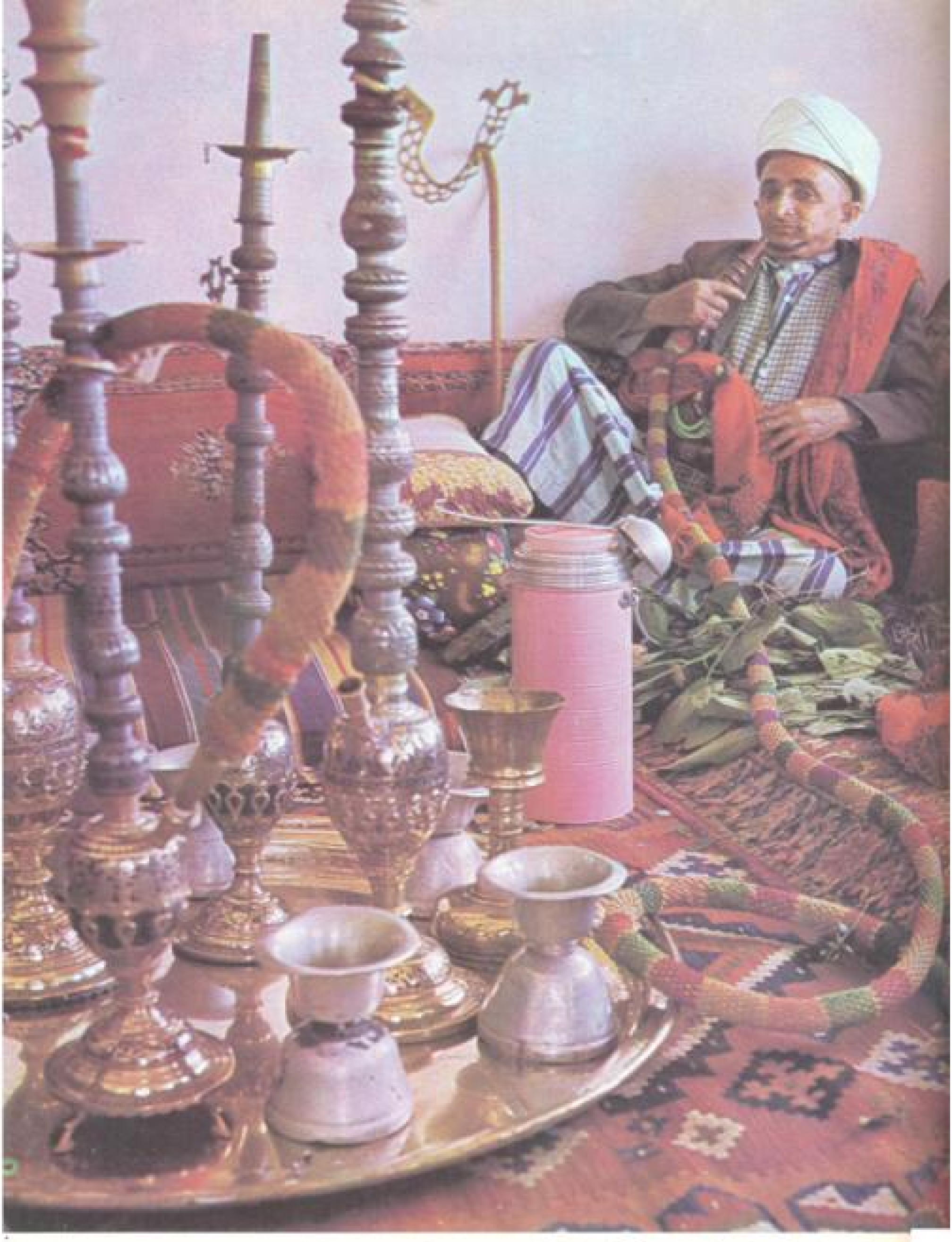


لم يكن للشعب اليمنى اية حقوق ، وانما عليه واجبات فقط .. يدفع الزكاة ويطيع الاوامر طاعة عمياء من حاكم مطلق الصلاحيات .. اما اليوم فقد بدأ الناس يشعرون بحقوقهم وخاصة التعليم والعلاج ، ولكن المشكلة انهم في غمرة حماسهم للثورة قد نسوا كل واجباتهم ، واصبحوا لا يطالبون الا بحقوقهم .. ويرى هنا الدكتور عنتر يعالج بعض نساء حجة في المستشفى .

الى اسفل : هذه هي بركة الماء التى تنطلق منها ميكروبات البلهارسيا ، بصورة وبائية ، جعلت ٩٨٪ من سكان حجة مصابين بالبلهارسيا .. وفي الصورة الثانية تبدو النساء يحملن الصفائح المليئة بهذا الماء الملوث ، وهناك صبى يحذر النسوة من مصورنا ..







اكثر ما يضايق ابن اليمن هو القول بان القات مخدر .. انه يرفض هذا الادعاء ويتهمنا بالمقابل قائلا : « الحمد لله اننا لم نصب بأى علة من عللكم ، عندكم الافيون والحشيش والخمر وبقية المسكرات ، فأين هو القات من آفاتكم ؟ » وفي الصورة ترى في مثل هذه الجلسة هادى بن حسن المسعودى الذى مضى عليه ٧٠ عاما وهو يخزن القات ، وعندما سألناه عن تأثير القات عليه : اجاب « ان القات شيء تمام ، ينشط الذاكرة ، ويجعلك سريع البديهة ، لانه يفتح العقل ! » .



بعض ، وكأنها تتزاحم على احتلال قمة الجبل .

ودخلنا المدينة .. لقد وصلناها قبل وصـول البرقية المستعجلة التى ارسلها محافظ الحديدة لمحافظ حجة يخبره فيها باننا في طريقنا الى حجة.

وتجمع بعض الاهالى حول سيارتنا ، وبداوا يتحدثون الينا ، وبين كل جملة واخـرى كانوا يضيفون اوراقا خضراء رطبة الى القات المخزون في افواههم .. حتى الاطفال الصغار شـهدناهم يخزنون القات ويمضغونه !

واخذونا الى قصر حجرى عال .. انه قصـر سعدان الذى كان يقيم فيه الامام احمد .. لقد اصبح اليوم مضيفا ينزل فيه زوار حجة الخالية من كل اثر للفنادق .. وصعدنا درجات السلالم العالية ونحن نلهث ، فقد كانت عملية تسلق اكثر منها عملية صعود على درجات سلم ، وفي الطابق العلوى خصصوا لنا غرفتين ، وما هي الا دقائق حتى رحنا في سبات عميق ، تحت الكتابة المحفورة على الحائط ، و... مديح في الامام احمد .

حجة تستيقظ

ومع تباشير الصباح جلسنا الى نافذة القصر العالى ، نتطلع الى المدينة ، فرأينا المرأة تخرج من منزلها ملتحفة بالسواد من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، تسير مع صديقاتها ، كل منهن تحمل على رأسها صفيحة سمن فارغة ، عليها ماركة التليفون الاحمر .. انهن يتجهن الى بركة الماء ليملأن الصفائح الفارغة ..

وتتقابل حاملات الماء مع رجل يسير متمنطقـا بالجنبية وممسكا بعصا خيزرانية ، فلا يعير أحدهم الآخر التفاتا ولا سلاما .. ويتسارع الاطفال حاملين في أيديهم المداعة (الارجيلة) والتمباك .. انها الأدوات الضرورية لجلسة القات ، يأخذونهـا لاصلاحها حتى تكون جاهزة لجلسة المقيل بعد الظهر ..

وتحت القصر شهدنا في حديقته اشجار البرقوق والرمان والموز والنخيل تنمو بنجاح .. وبينها كان الفلاح يقتلع الأعشاب ، تساعده زوجته .. انها تساعده في زرع الحبوب والفواكه والخضراوات ، ولكنها لا تساعده ابدا في زراعة القات او جنيـه او بيعه ، بعكس أختها في « جبل صبر » المطل على « تعز » ، فهناك المرأة هى التى تتولى كل شئون القات ..

ومن أحد المنازل الحجرية الكبيرة ، اندفعت مجموعة من الماعز والدجاج ومعها حمار .. الماعز ذهب في حال سبيله يأكل كل ما يجده في الطريق ، والصبى الصغير ركب على الحمار الذى انطلق به نشيطا سريعا .. أما الدجاج فقد اتجه الى ركن بجوار الباب ، وبدأ ينبش بمنقاره بين اكـوام النفايات المتدفقة من فتحة في المنزل على هيئة مجار مفتوحة .. ويميل أهل اليمن ـ عموما ـ الى تخصيص الطابق الاول من منازلهم التقليديـة القديمة ليكون حظيرة للحيوانات .. والطابق الثانى يستعمل مخزنا والطابق الثالث يستعمل للنـوم والطعام ، أما الطابق الرابع فيستعمل صـالونا يجلس فيه الاصحاب لمضغ القات وتخزينه ..





صورتان توضحان مدى المتاعب والآلام التى تتحملها المرأة في صحراء تهامة التابعة لمحافظة حجة ، من اجل الحصول على الماء اللازم للحياة .. ان مهمة تأمين المياه هي مسئولية المرأة ، اما الرجل فعليه مسئولية زرع الارض ، وتخزين القات !!

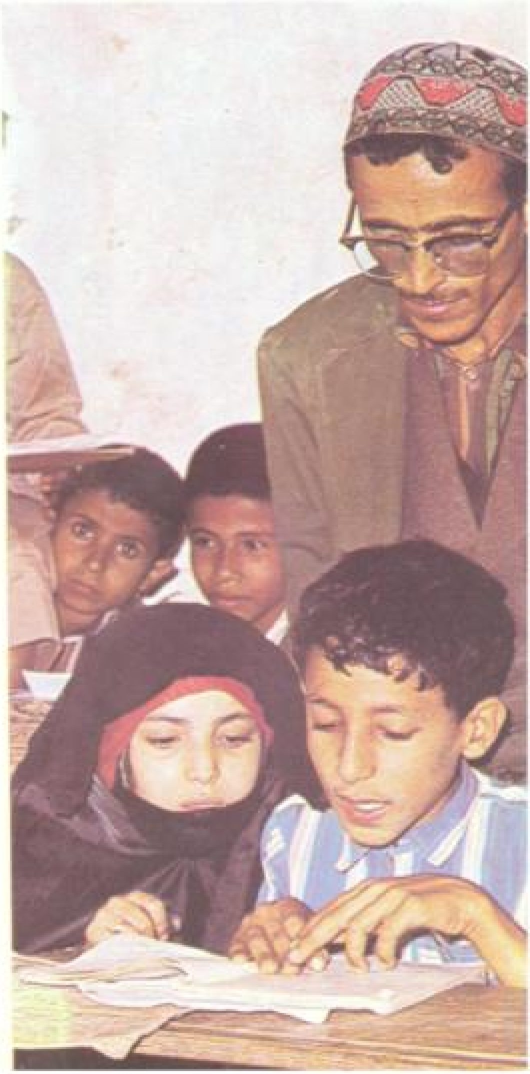
أنت صينى ؟

وهبطنا درجات سلم القصر ، بعد ان شربنا الشاى الطيب المخلوط بالقرنفل ، وسرنا في شوارع حجة مع نائب المحافظ .. المناخ جاف رائع .. اننا على ارتفاع ..٢٤٠ قدم .. المبانى لا يربطها رابط ، لقد تطورت المدينة وفق ذوق السكان ، دون مبالاة بالاحتياجات الاولية،من حيث الصحة، وجمال المدينة الهندسي ، وشق الطرق .

كنا نسير في الطريق ، وعدد الصبية المحيطين بنا يزداد مع كل خطوة نخطوها .. كانوا يتحدثون ويتهامسون وهم يشيرون الينا ، واقترب منا احدهم ، وسالنا بسرعة : « أنت صينى ؟ » .. وتعجبنا من السؤال ، فملامحنا أبعد ما تكون عن الملامح الصينية .. وأدرك نائب المحافظ الوضع



مع بداية الثورة قام التعليم الحديث في حجة، ولكنه لم يأخذ صفة الدوام بسبب ظروف حجة الصحية.. واليوم اصبح في حجة ثلاث مدارس تضم ٩٠٠ طالب وطالبة يجلس بعضهم الى جانب بعض ويتعلمون، تحت اشراف اساتذة مخلصين يبذلون قصارى جهدهم لتعليمهم كما ترى في الصور الثلاث المنشورة على هذه الصفحة .. ان وزارة التربية هي اول وزارات اليمن التي دخلت الى حجة وبدأت تعمل بحماس زائد .





الى اسفل : بعض فتيات « **مدرسة الفتح** » للبنات يتلقين درسا في الهواء الطلق بجوار القلعة المسماة « قلعة القاهرة » وتشرف عليهن مدرسة هي صفية محمد احمد سعد ، التي لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، ونراها في الصورة مغطاة الوجه بلثام ابيض ..



فقال موضحا : « لا تتعجبوا من هذا التساؤل ، فقد عاش ابناء حجة قرونا من الزمان دون ان يحتكوا بالعالم المحيط بهم ، ومنذ سنة مضت ، جاءت الى حجة بعثة صينية لتدرس عملية شق اول طريق يصل حجة بالعالم الخارجي عن طريق صنعاء .. وشعر الاهالي بامتنان بالغ لهؤلاء القوم الغرباء ، حتى اصبح كل شخص غريب يدخل حجة يعتبر صينيا .. حتى ولو كان امريكيا !! »

قصة الصين واليمن

وترجع علاقة الصين باليمن الى عام ١٩٥٦ عندما اعترف الامام احمد بالصين الشعبية ، فكانت اليمن اول بلد عربي يعترف بالجمهورية الصينية التي كانت تعاني من سياسة العزلة المفروضة عليها .. وحفظت الصين الجميل لليمن ، فراحت تمدها بقروض تقدر قيمتها بعشرات الملايين من الجنيهات، دون ان تطالبها باي فائدة او تتمسك معها بضرورة تسديد القروض في مواعيدها .. ولا تعطي الصين نقودا لليمن ، انما تقوم بتنفيذ الاعمال بواسطة عمال ومهندسين صينيين ، مثل شق طريق (صنعاء ـ الحديدة) الذي تكلف ٥٤ مليون فرنك سويسري وشق طريق (صنعاء ـ صعدة) وطوله ٢٢٨ كيلو مترا ، وتكاليفه عشرة ملايين من الجنيهات الاسترلينية وشق طريق (حجة ـ عمران) وطوله ٦٠ كيلو مترا .. واقامة اول مصنع للغزل والنسيج في صنعاء وقد تكلف ٣٠ مليون فرنك سويسري .. والى جانب ذلك ارسلت الصين منذ عام ١٩٦٦ بعثة طبية مع جميع ادويتها ومعداتها تضم ٣٢ طبيبا صينيا .. حتى الميزان التجاري المختل مع جميع دول العالم ، نجده يتحول الى صالح اليمن عند تعاملها مع الصين ، فهي قد صدرت ما قيمته مليونا و ٦٠٠ الف دولار من القطن الخام الى الصين ، واستوردت منها بضائع قيمتها مليون دولار فقط خلال عام ١٩٧١ .

واخر مساعدات الصين لليمن ، جلبها معه دولة محسن العيني رئيس الوزراء ، عندما عاد من رحلته الى الصين الشعبية حاملا معه قرضا جديدا بمبلغ ثمانية ملايين ونصف مليون جنيه استرليني ، خصصت لشق طرق جديدة في الجمهورية العربية اليمنية .

ترى اين مساعدات الدول العربية من هذه المساعدات الضخمة ، ان مجموع ما قدمته ١٧ دولة عربية لليمن لم يقترب بعد من رقم خمسة ملايين جنيه استرليني الى اليوم !!

بركة سليمان

وتابعنا سيرنا في طرقات حجة الجبلية الوعرة حتى اقتربنا من بركة ماء هائلة محفورة في الارض، ومبطنة الجوانب ، اشبه ما تكون ببركة النبي سليمان قرب مدينة بيت لحم بفلسطيننا المحتلة ، ولكن هنا في حجة تحولت هذه البركة الى بؤرة لتوزيع الميكروبات والامراض على السكان ، ففي منتصف شهر مارس من كل عام تهطل الامطار بغزارة على حجة ، وتستمر في هطولها حتى منتصف شهر ابريل ، فتتكون السيول في الطرقات ، وتندفع المياه الى البركة حاملة معها الاتربة وروث البهائم، وقاذورات الطرق ، فتحيل لون مياه البركة الى بني غامق تتخلله بقع خضراء ، تعاف رائحتها النفس ..

وفي كل صباح تأتي نساء القرية الى البركة ، يحملن منها الماء في صفائح التليفون الاحمر ، الى

الى اسفل : ابرة للتحصين ضد الكوليرا يعطيها الاستاذ لطالبات مدرسة الفتح الابتدائية .. ويتم التحصين باستعمال جرعة من نفس الابرة الضخمة التي لا تتغير !





الظروف الصعبة الدقيقة المحيطة بالدكتور عنتر ، الطبيب الوحيد في حجة ، تجعل من اعماله ملحمة اسطورية رائعة .. فالكهرباء غير موجودة ، وتعقيم المعدات يتم في الحديدة ورغم ذلك تجده يقوم شهريا بعمل ٤٠ عملية جراحية فوق مكتبه الخشبي ، يربط خلالها المريض بالحبال حتى لا يسقط اثناء العملية ويعطيه بنجا نصفيا او موضعيا لعدم وجود طبيب بنج .. تحية الى هذا الطبيب الشاب المثابر ..

منازلهن لاستعمالها في الغسيل والتنظيف والشرب، معتقدات أن تركها لمدة يومين راكدة بدون حركة يزيل منها كل اثر للميكروبات !!

صحة اهل حجة

وهالنا الأمر فاتجهنا في الحال لمقابلة الدكتور عنتر ، ابن مدينة حجة ، الذى تخرج جراحا من جامعة موسكو ، وترك عمله الخاص في تعز ، وجاء الى حجة ليخدم أبناء بلدته .. قال لنا متألما :

ـ عندنا في حجة ٤٠ بركة ماء ، مثل البركة التى شاهدتموها في طريقكم ، تتجمع فيها مياه الامطار منذ عهد الاتراك ، دون ان يفكر احد في تغيير مياهها ، فهى برك صماء ليس لها مصارف ولا موتورات .. ونتيجة لهذا أصبحت معظم هذه البرك مركزا مختارا لقواقع مرض البلهارسيا ، المصاب به نحو ٩٨٪ من سكان المدينة .. ان النساء يحملن الميكروبات مع المياه التى يحملنها الى



شقاء الانسان في اليمن نجده في صورة هذا الكهل الذي ينبش الجبل ليستخرج منه حجر البازلت الاسود حتى يبنى به منزلا .

الى اسفل : اسواق عامة ، تعقد يوميا بالتتابع في قرى محافظة حجة .. لاحظ الاشجار المقطوعة بكثرة .. ان الثروة الخشبية اصبحت في خطر ..





تحيط بحجة جبال شاهقة مرتفعة من جهاتها الاربع وعلى مدرجات الجبل يزرع الاهالي الذرة والقات ..



الى اليسار : تنتشر زراعة شجرة القات في حجة والجبال المحيطة بها ، وترى هنا المزارع (عبده رزه) أمام شجرة « قات » يانعة .. انه يسقيها ثلاث مرات في السنة ، في حين ان شجرة البن تلزمها عناية زائدة وروى مستديم.





بداية التنظيم الادارى بدخل حجة .. وترى هنا المقدم احمد على العمرى ، مدير الامن في لواء حجة يراقب العمال اثناء طلائهم لمبنى الامن العام الجديد.

بئر الماء في
غائرة الى
البركة ولك

منازلهن .. وعندما اقول لهن هذا تكون اجابتهن لى :

ـ نحن نعلم ان هذه المياه ملوثة ، ولكن ألا تعتقد يا حكيم ان مرض البهارسيا اهون شرا من الموت عطشا ؟!

« وامام هذه الحال لا استطيـــع شيئا ... فامكانيات التنظيف والتوعية معدومة في حجة .. »

التيمم بدلا من الوضوء

ووجه الينا الدكتور عنتر سؤالا فقال : هــل رايتم بركة ماء الوضوء امام مسجد حجة ؟ قلنا : « لا » قال : « ارجو ان تذهبوا وتروا بانفسكم مدى بشاعة المأساة التى نعيشها .. »

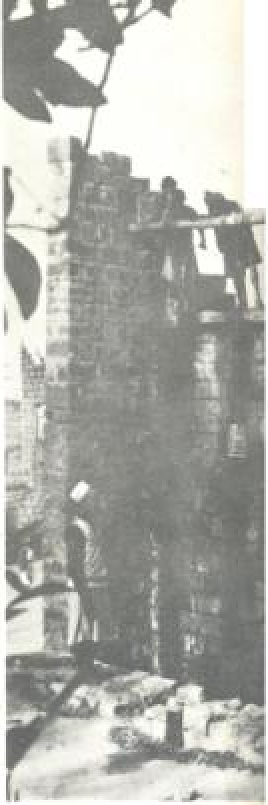
واتجهنا الى مسجد حجة ، وعند الباب شهدنا منظرا غير معقول .. فداخل حوض واسع ، مياهه ضحلة لم تتبدل منذ عشرات السنين ، تجمع اكثر من ١٥٠ شخصا يتوضأون بمائه ويتطهرون به ، ليدخلوا بعد ذلك الى المسجد . ورأينا الرجال يشدون على انوفهم ويبصقون في مياه الحوض ، ثم يغسلون افواههم بنفس هذا الماء .. ويغسلون اسنانهم .. ويتسلل الاطفال بين أرجل الكبار ، يخلعون جلابيبهم ويغطسون للاستحمام في الماء ،

وشعر احد المغتسلين باننا نتالم لهذا المنظر فجاءنا قائلا :

« أن هذه المياه التى ترونها هى مياه نقيــة طاهرة ، فالله يرسل ملائكته ويطهرونها في غفلة عن الانسان ، فيقتلون كل ما فيها من جراثيم.. »

ونقلنا القصة بحذافيرها الى السيد يحيــى الضحيانى وزير الاوقاف اليمنى ، فكان أن أصدر





... أصبحت مياهها
... مياه النظف من مياه
... لراحة الجميع .

سجن نافع ، أو سجن الاحرار فهنا سجن الارياني والنعمان والاحمر والسلال والعمرى ، كان الامام يسجنهم في الطابق الذى تحت الارض ، اما اليوم فاصبح السجناء يسجنون في الطوابق العليا فقط .

اوامره بوقف الوضوء بهذه المياه الآسنة ، والاستعاضة عنها بالتيمم ، حتى يتم تطهير الحوض من المياه الملوثة ..

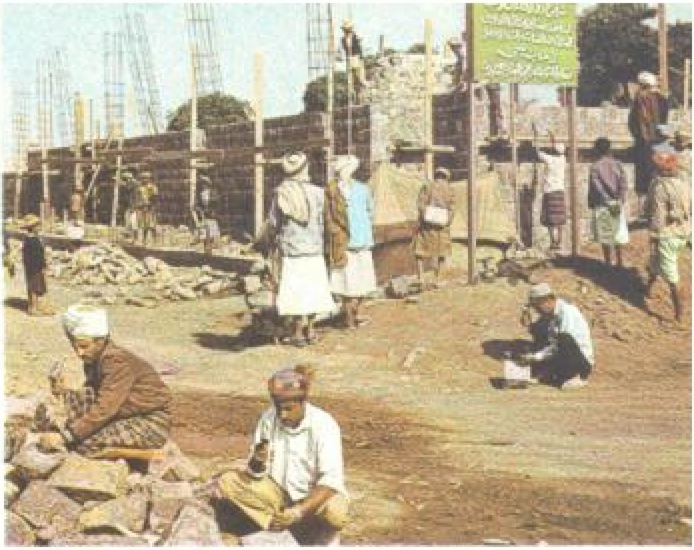
من يساعد حجة ؟

لقد وصل مندوب هيئة الصحة العالمية ، وهو طبيب افغانى الجنسية ، الى مدينة حجة في اوائل عام ١٩٧٢ وشهد المأساة بعينيه ، وسجل جميع ابعادها في مذكرته التى رفعها الى المسئولين الدوليين .. ولكن اهل حجة يعلمون جيدا أنه لا يمكنهم الاعتماد كثيرا على مساعدات الامم المتحدة ، فالتعقيدات الادارية فيها تجعلها تتقدم بسرعة السلحفاة في سيرها .. وقد يفنى اهل حجة عن بكرة أبيهم قبل أن تصلهم مساعدات الامم المتحدة !

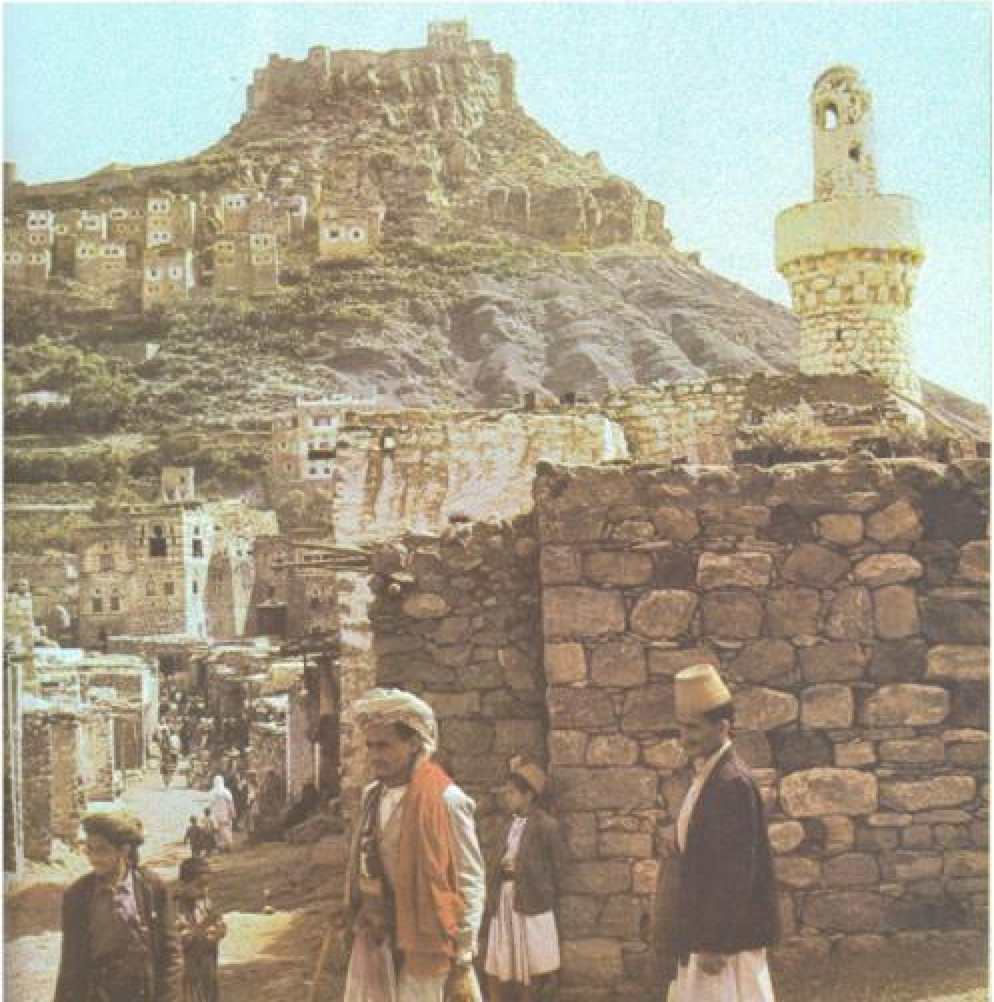
أما المساعدات العربية فحالها ليس باحسن من حال مساعدات الامم المتحدة ، كل دولة عربية لها مشاكلها ومتاعبها ، وهى ليست على استعداد للتضحية بدقيقة من وقتها للتفكير في حل مشاكل مدينة عربية أصيلة مثل حجة ، ربما لم تسمع باسمها من قبل !

مرارة وخيبة امل لمساهما يسيطران على قلوب ابناء حجة .. يريدون ما يوازى ٧٠ الف دينار كويتى من اجل رفع المياه المتدفقة في الوادى ، وتوصيلها الى قمة الجبل ، لارواء عطش أهل حجة وانقاذهم من جراثيم البلهارسيا التى تفتك بهم ، وتحد من حيويتهم ونشاطهم ، وتحرمهم من أكل البسباس ، اى الفلفل الاحمر الحار ، الذى يعشق أكله أهل المنطقة ! ذلك لان الطبيب نصحهم بالابتعاد عن الفلفل ما داموا مصابين بالبلهارسيا .

الى اليمين : كانت الكويت اول بلد يقدم مساعدات ملموسة لاهل حجة .. وهذه المساعدة تتجلى في بناءين كبيرين سيصبحان مدرستين: واحدة للبنين ، واخرى للبنات .

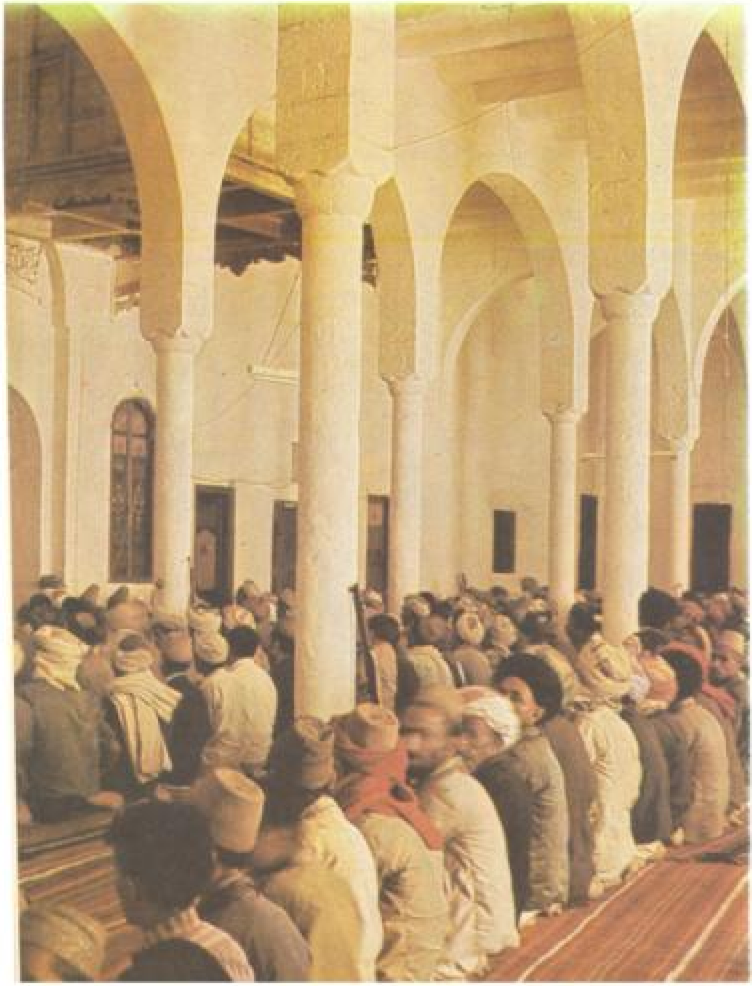


الى اسفل : الطريق التجاري الرئيسي في حجة .. ومن فوقه تظهر المنازل متناثرة على قمة الجبل، يعلوها قصر نعمان .





في هذه الساحة كانت الرقاب تقطع بالسيف في عهد الائمة، خلال الموسيقى التي تصدح بالالحان التركية .. اما اليوم فما زالت الموسيقى تصدح ، ولكن تحية للجنود الابطال الذين يتدربون في حجة ..



الى اليسار : بحلول ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ انتهت التفرقة الحادة التي كانت موجودة بين الشافعية والزيدية .. وهذه جموع من المصلين في مسجد حورة، الذي شيد في عهد الامام احمد ..

الكتب بالمظلة الجوية

ومن بين أسباب تأخر حجة، تأخر التعليم فيها، وهو لم يبدأ في الانتظام الا في العام الماضي فقط .. فقد ظلت حجة محاصرة أثناء الحرب الأهلية .. التي كانت قائمة .. كانت الكتب المدرسية والأدوات القرطاسية ، تصلها خلال ذلك عن طريق الجو ، وتلقى بالمظلة مع الطعام والسلاح !!

واليوم أصبح في حجة ثلاث مدارس : اعدادية، وابتدائية مشتركة بنين وبنات ، وابتدائية بنات .. تضم كلها ٢٨٠ طالبة و٦٢١ طالبا من أصل ١٥ ألف مواطن يعيشون في حجة ..

ويعمل المدرسون اليمنيون قصارى جهدهم للنهوض بمستوى الطلبة ، بعد أن ترك المدينة ثلاثة أساتذة عرب كانوا يعملون باخلاص فيها ، وذلك بعد مرض أحدهم ووفاته في صنعاء ، فخاف الاستاذان الباقيان من أمراض حجة فتركاها .

مشاكل الآباء

وليست مشاكل التعليم مقصورة على تأمين المدرس والمعلم ، وانما نجد مشاكل نابعة من طبيعة المنطقة وعاداتها وتقاليدها ، فالطلبة يأتون الى مدارس حجة من العزلات العديدة المحيطة بالمدينة ، يهبطون جبلا ، ويتسلقون آخر حتى يصلوا الى المدرسة بعد ساعتين من الجهد والتعب ..

أما الآباء فأغلبهم يصمم على ترك ابنه للمدرسة ليساعده في الحقل أثناء موسم الحصاد الذي يستمر شهرا .. وعندما تحدث وفاة في المدينة ، يترك الأطفال المدرسة ويسيرون خلف الجنازة ، حسب تقاليد البلد !!

غزو خشن

وبعد أن انتهينا من زيارة مدارس البنين اتجهنا لزيارة مدرسة الفتح للبنات ، مدرسة افتتحوها في مبنى مهجور يقع محاذيا للقلعة المسماة بقلعة القاهرة ، وكانت سجنا للمعتقلين الأحرار في عهد الأئمة ..

واعتقد البعض أن هذا المكان النائي الصعب سوف يصرف البنات عن التعليم ، ولكن العكس هو الذي حدث فقد أقبلت الفتيات على التعليم بشغف زائد .. ولم يتركهم الأطفال يدرسون بمفردهن بل جاءوا الى المدرسة ، وجلسوا بجوار الفتيات على نفس المقاعد ، يتعلمون معهن ، بعد أن ضاقت مدرسة البنين عن استيعابهم.

تعبنا من الحياة عند قمة الجبل

وقابلنا المعلمة صفية سعد ، أول فتاة من بنات حجة تعمل في التعليم ، سنها لا يتجاوز السادسة عشرة ، وعندما سألناها عن حالة المرأة في حجة اجتماعيا وتربويا ، أجابتنا بأسلوب ساخط حزين، جعلنا نقف مبهوتين ، اذ قالت :

« المرأة في حجة تعيش في فراغ وكبت زائدين.. انها لا تستطيع أن تعبر عن رأيها الا من خلال رَجلها .. وأصبحت من فرط تعودها على حياة الضغط والحرمان ، تخاف من حياة الحرية والانطلاق ..



مصنوعات فخارية يصنعها أهل حجة، وينقلونها على ظهور الجمال الى القرى المجاورة .

انا نريد ان نعيش مثلكم .. نريد ان ننطلق في هذا العالم الجميل المحيط بنا .. لقد تعبنا من حياتنا فوق قمة الجبل ، حيث اضحى للاعراف والتقاليد قوة تفوق قوة القانون .. انا بشر لنا حقنا في الحياة ، فلماذا لا تساعدوننا » .

واشارت صفية سعد الى لوحة مكتوبة على الجدار وقالت :

« هذه اللوحة تعبر لكم عن مدى سخطنا على ماضينا » فهي تقول :

« قاتل الله ماضينا ، كان من عصور الحجر » .. نعم كنا نعيش في عصر حجرى ، بينما كان غيرنا يعيش في عصر الصعود الى القمر !! »

تدهور الصحة

كانت صفية تتحدث من خلف لثام أبيض يغطى وجهها تماما .. وبعد أن انتهت من حديثها دعتنا الى زيارة المدرسة .. ودخلنا أحد الفصول .

فقالت صفية : « عندنا هنا ١٨٥ فتاة ، أكبر واحدة عمرها ١٢ سنة والتى تتجاوز تلك السن يسحبها أهلها من المدرسة لتزويجها ، أو وضعها في المنزل تساعد والدتها .. »

كانت تتحدث وكنا نتأمل بحسرة الفتيـــات الصغيرات ، كل منهن تسعل بدورها من خلف قطعة قماش تغطى وجهها باعتبارها لثاما .. انهن يجلسن داخل غرف ليس لها اى منفذ للهواء او الشمس .

في انتظار الخريجات

لقد حصلت المرأة اليمنية على حقوقها السياسية ، ولكنها للآن لم تستطع الحصول على اى حق من حقوقها في الحياة العادية .. وعندما تألفت اول جمعية نسائية في صنعاء دب الخلاف بين العضوات فتفككت الجمعية .. ولن يكون من المجدى اقامة جمعية نسائية جديدة ، الا بعد تخرج عدة دفعات من الجامعات والمدارس الثانوية .



جموع المصلين تخرج من مسجد حجة الكبير ..

فوائد الحلبة

والمرأة في حجة هى التى تطبخ في المنزل مختلف أنواع الاطعمة اليمنية ، وهى التى تطحن القمح ، وتخبز في تنور بمنزلها .. وعندما دعانا نائب المحافظ لتناول الغداء في منزله كانت كل أنواع الاطباق مصفوفة على السماط الممدود على الارض ، وامتدت الايدى كلها الى صحن الحلبة أولا ، ويسمونه الحامضة ، ويتم اعداده بعد نقع كمية كبيرة من الحلبة وضربها حتى تصبح بيضاء اللون ، ثم يضاف لها كمية من الخضر المسحوق من نعنع وكزبرة وكرات ، ومعها كمية من الملح والبسباس (فلفل احمر) والكمون وقليل من الخل ..

ويعتقد أهل حجة ـ مثل بقية أهل اليمن ـ ان الحلبة تساعد على الهضم ، وعلى صحة البدن ، فتعطيه قوة وتفتح الشهية ، وتطرد الامساك والأوجاع .

والصحن الثانى الذى اقبل عليه المدعوون كان الشفوط ويصنع من خبز الذرة مع الحليب والكرات والطماطس (طماطم) وبصلة مع الخل ..

ويطلقون على هذين النوعين : قيادة الاكل ، اى المشهيات ، وبعدهما بدأ تناول الطعام العادى، وكان مكونا من : « بنت الصحن » ، وهى نوع من الحلو ، مطبوخ من دقيق وبيض وسمن مع حبة سوداء ، توضع في الفرن ، ثم يرش عليها العسل والسمن ثانية ، وتقدم ساخنة .. وبعدها اكلنا مختلف انواع الخضراوات من بامية وفرع مطبوخ مع صلصة الطماطم واللحم ..

وطوال مدة الغداء كان رب البيت خارج قاعة الطعام التى كان يجلس فيها اكثر من ٤٠ مدعوا .. لقد جرت العادة ان يختفى صاحب البيت عن مائدة الطعام ليترك لضيوفه حرية الاكل كما يشتهون !!

وما اشبه ذلك بالذى يجرى في البلاد العربية الاخرى لا سيما بلاد الجزيرة ، من ان صاحب الضيافة لا ياكل مع اضيافه ، وانما يظل بخدمهم والمائدة قائمة .

القات بعد الطعام

وبعد الطعام صعد الجميع الى الطابق العلوى، وجلسنا في صالة المقيل ، وبدأ كل مدعو يخرج لفافة القات من طيات ملابسه .

لقد قدرت وزارة الزراعة مساحة الارض المزروعة قاتا في اليمن بنحو ٢٠ الف فدان ، يباع انتاج الفدان الواحد منها بنحو ١٠ الاف ريال يمنى سنويا ، اى نحو ٢٠٠٠ دولار تقريبا .. وفي عام ١٩٧٠ صدرت اليمن ١٠٥٢ طنا من القات، بلغ ثمنها مليونين ومائة الف ريال يمنى ، اى ما يوازى ٤٢٠ الف دولار ..

لقد اصدر المؤتمر الادارى لكبار موظفى الحكومة اليمنية قرارا هاما في ٢٠ مايو ١٩٧٢ يقضي بقلع شجرة القات من املاك الدولة والاوقاف ..وشعر ابناء اليمن بمدى الاضرار التى تلحق بسمعة جمهوريتهم الفتية من جراء ادمانهم على مضغ القات وتخزينه ، فبدأت حملات مركزة في الاذاعة والصحف تحارب القات وتلعنه ، وتطالب بالقضاء عليه ، ليتفرغ الشعب للقضاء على المصائب الاخرى التى تثقل كاهله ..

ولكن القضاء على القات لا يمكن ان يتم بهذه السهولة انه مشكلة عميقة الجذور ، تمتد الى جميع مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اليمن ، والقضاء عليه لن يتم الا بعد دراسات مستفيضة ، يشترك فيها خبراء اجتماعيون واقتصاديون ونفسانيون عاليون .. والشيء الاهم من هذه الدراسات هو ايجاد الجهاز القادر على تطبيق تلك التوصيات ، ووضعها موضع التنفيذ، حتى لا تصبح حبرا على ورق فقط ..

مطلوب سياسة اسكانية جديدة

لقد تركنا حجة بعد ان مكثنا فيها عشرة ايام.. تركناها ونحن نتأسف ، فهى صورة لما يعانيه نحو نصف سكان اليمن الذين يعيشون في عزلة فوق قمم الجبال الجميلة الصعبة .

ان هذا الوضع الشاذ يتطلب بالضرورة وضع سياسة اسكانية جديدة تعيد النظر في اماكن التجمعات السكانية على اسس حديثة .. لانه يستحيل على اى دولة ان تقيم مدرسة ومستشفى وتوصل المياه والكهرباء وتشق الطرق الجبلية الصعبة الى كل قمة من الوف القمم الجبلية .

نداء من العربي الى كل عربى

ان مناخ حجة لا يضارعه مناخ ، يشفى كل مريض وكل صاحب علة ، ولكنهم هنا كلهم مرضى بأمراض صنعوها بايديهم ، ولن يستطيعوا التخلص منها الا اذا امتدت اليهم كل يد قادرة على المساعدة ، لتخرجهم من عزلتهم التى فرضتها عليهم ظروف الحياة القاسية ..

لا بد لنا ان نصعد جميعا الى قمم الجبال في حجة وغيرها ، حيث يعيش الالوف من اخواننا العرب الذين شاءت الاقدار ان تفصل ما بيننا وبينهم ..

انه نداء يوجهه العربى الى كل عربى .. ■■

سليم زبال

العربي

العدد ١٧٦
جمادى الثانية ١٣٩٣
يوليو
(تموز) ١٩٧٣



الحرس الوطني الكويتي الساعد الايمن للجيش

الثمن

الكويت	١١٠ فلوس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان	١٠ قروش
الخليج العربي	٢ ريالان	لبنان	١٠٠ قرش	ليبيا	١٥ قرشا
السعودية	٢ ريال	الأردن	١٠٠ فلس	تونس	٢٠٠ مليم
البحرين	١٢٠ فلسا	سورية	١٠٠ قرش	الجزائر	٢ دينار
اليمن	٢ر١ ريال	ج.ع.م.	١٠ قروش	المغرب	٢ درهم

جوائز
١٢٠٠
دينار سنويا





أرضهم كلها من الملح .. انهم يحفرون وينزلون الى الاعماق فلا يجدون الا الملح الصخرى .. لقد بدأ عهد جديد لهذا الملح الصخرى النقى ، من أجل استغلاله على أكمل وجه .

اعرف وطنك ايها العربي

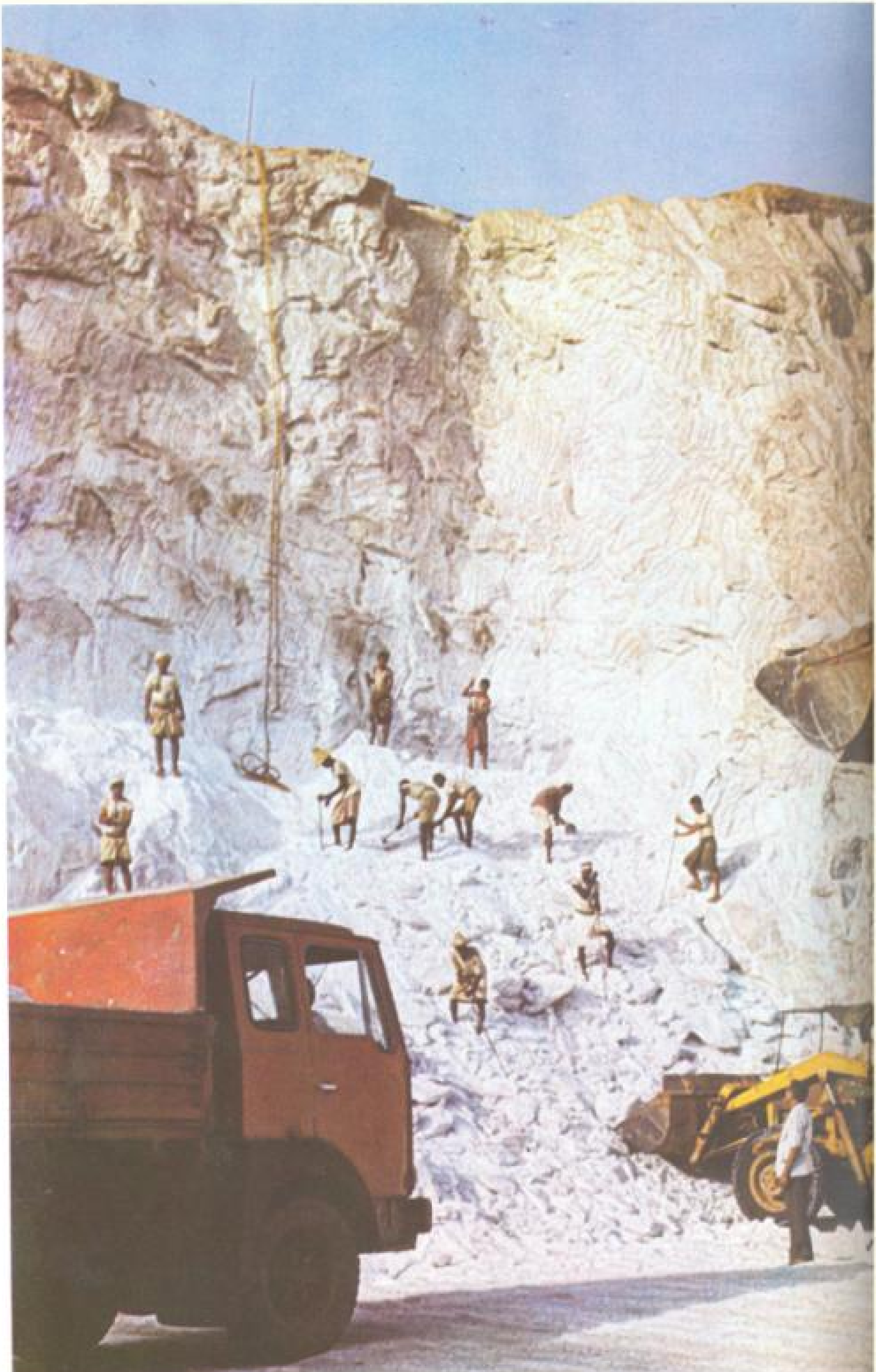
الصليف

مَدينةٌ تَعيشُ فَوْقَ جَبَلٍ مِنَ المِلْحْ

هَلْ يُخْفِي المِلْحُ نَفطاً غزيراً بينَ طَبقاتِهِ ؟

استطلاع :
سليم زبال

تصوير :
اوسكار مترى



■ رأيناهم يأكلون أرضهم !!

ان الناس عادة تأكل من خيرات ارضها ، ولكن هذه الارض ليست ككل ارض . انها هي نفسها طعام .. انها من الملح ..

يأكلون الملح الصخري الشفاف الذي يعيشون فوقه .. ويبنون عليه منازلهم ، ويمشون فوق صخوره ..

فارضهم فريدة في نوعها ، قوامها ليس التراب ، وانما الملح .. ولا شيء غير الملح !! .. لا اثر للماء أو للزرع فيها .. وانما حياة جافة قاسية غريبة ..

وبلغت مأساتهم قمتها ، عندما جاءتهم شركات النفط للتنقيب في المنطقة ، وبدلا من ان تعثر على النفط عثرت على طبقات من الملح ممتدة الى عمق سبعة الاف قدم تحت سطح الارض .. ولم يروا فائدة من متابعة الحفر ، وانما اكتفوا بالقول بان هذا الملح ممكن أن يكون ممتدا الى عمق اربعة اميال تحت سطح الارض !

هذا المنجم الهائل من الملح الصخري ، يقع في اقصى منطقة وعرة نائية عن قلب وطننا العربي .. انها منطقة الصليف المطلة على مياه البحر الاحمر في الجمهورية العربية اليمنية ..

وعد رسمي ..

وبدانا رحلتنا من ميناء الحديدة .. السيارة الصحراوية (اللاندروفر) تنطلق بنا في طريق طويل .. مياه البحر الاحمر على يسارنا ، ورمال صحراء تهامة على يميننا .. اننا نتجه شمالا الى الزيدية ، لان السير بمحاذاة البحر ليس ممكنا الا وقت الجزر . ولا يوجد اى اثر لطريق معبد يوصل الى الصليف .. ولكن هذا الوضع لن يستمر طويلا ، فقد تعهدت المملكة العربية السعودية رسميا لجمهورية اليمن بشق طريق معبد يربط بين مينائي الحديدة وجيزان .. انه الطريق الذى ينتظره ابن اليمن منذ فترة طويلة ، فهو بمثابة الباب البرى الذى سيربط اليمن بالوطن العربي وبقية العالم عبر المملكة العربية السعودية .

تذكروا اسم « الزيدية » !

ووصلنا الى بلدة كبيرة عامرة بالسكان ، اغلبهم يعيش داخل « العشيش » المصنوع من سعف النخيل .. انها الزيدية ، المدينة التي ينقصها كل شيء .. ينقصها الماء العذب ، والكهرباء والمدارس والمستشفى والابار الارتوازية ..

الا ان رائحة النفط التي بدات تتصاعد من تحت ارض الزيدية ... جعلت من المؤكد ان مستقبلها افضل بكثير من ماضيها وحاضرها !

تشريفات الصليف ..

وانطلقنا غربا .. فصادفتنا سبخة هائلة .. مستنقع من ماء مالح وطين .. ان منطقة الصليف تعلن عن نفسها ابتداء من هنا .. انه عنق الزجاجة الخطير الذى يجب أن تعبره كل سيارة متجهة الى الصليف .. ولم نستطع نجدة السيارات الضخمة الغارقة في السبخة ، واكتفينا بوعد أن نرسل لها النجدة من الصليف ..

وسارت سيارتنا برفق حتى وصلنا الصليف ، وكان الليل قد بدا يرخي سدوله ، فرحنا في سبات عميق ، محاولين نسيان صعوبة الطريق ..

واستيقظنا على صوت طرقات كأنها انفجارات .. انهم المهندسون الكنديون ، يقومون باول عملية مسح جيولوجي فوق ارض الصليف .. لقد حفروا ٣٣ ثقبا ، عمق كل منها نحو ١٠٠ متر ، في منطقة محدودة جدا من ارض الصليف ، لحصر كميات الملح الممكن استخراجها من هذه المنطقة المحدودة . وتحديد نوعيتها .

لقد اراد الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ان يعرف باسلوب علمي امكانيات وثروات منطقة الصليف ، قبل ان يبدا في تنفيذ اى مشروع للنهوض بها .. فكلف هؤلاء الخبراء الكنديين بعمل مسح شامل للمنطقة .

٢٢٥ مليون طن !

وقدم الكنديون تقريرهم ، واهم ما جاء فيه قولهم : « الملح متوافر بكميات هائلة تحت سطح المنطقة التى اجرى عليها المسح الجيولوجى ، ومساحتها ٦٨٠ ألف متر مربع ، وسمك طبقات



خريطة تفصيلية لمنطقة الصليف وجزيرة قمران .. وتبدوان على هيئة نتوء خارج من أرض اليمن ، لاحظ اماكن آبار النفط التي تم حفرها .. وتبعد الصليف نحو ١٠٠ كيلومتر شمال ميناء الحديدة ... وممر قمران عمق مياهه ٢٠ مترا ، مما يسمح بمرور السفن حمولة ١٥٠ الف طن بسهولة ، من شماله وجنوبه .. والخريطة الصغيرة توضح موقع الصليف للبلدان المجاورة .

هذا الملح هي ١٠٠ متر على اقل تقدير .. واذا تم استخراجه بطريقة المنجم المفتوح ، اي الاخذ مباشرة من السطح الى عمق ٣٠ مترا فقط ، فان الكميات التي يتوقع استخراجها بهذه الطريقة سوف تزيد على ٧٠ مليون طن.وبالامكان استخراج كميات هائلة أخرى ، تصل الى ٢٥٠ مليون طن ، اذا دعت الحاجة ، وذلك بطريقة فتح الدهاليز والممرات في أعماق الارض الى عمق ١٠٠ متر .

وبتابع الخبراء الكنديون تقريرهم بقولهم :

« الملح المستخرج من الصليف نقي جدا ، معدل متوسط نسبة كلوريد الصوديوم فيه ، وهو ملح الطعام النقي ، هي ٩٨٫٢٪ وليس هنالك ما يشير الى وجود أملاح بوتاسيوم ولا مغنسيوم ، بنسبة تذكر فيه .. »

الضوء الاخضر ..

وبناء على ما جاء في هذا التقرير ، اعطيت اشارة الضوء الاخضر من مدير الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ، للبدء فورا في تنفيذ مشروع متكامل ، تكفل الصندوق الكويتي بانجازه في الصليف ..

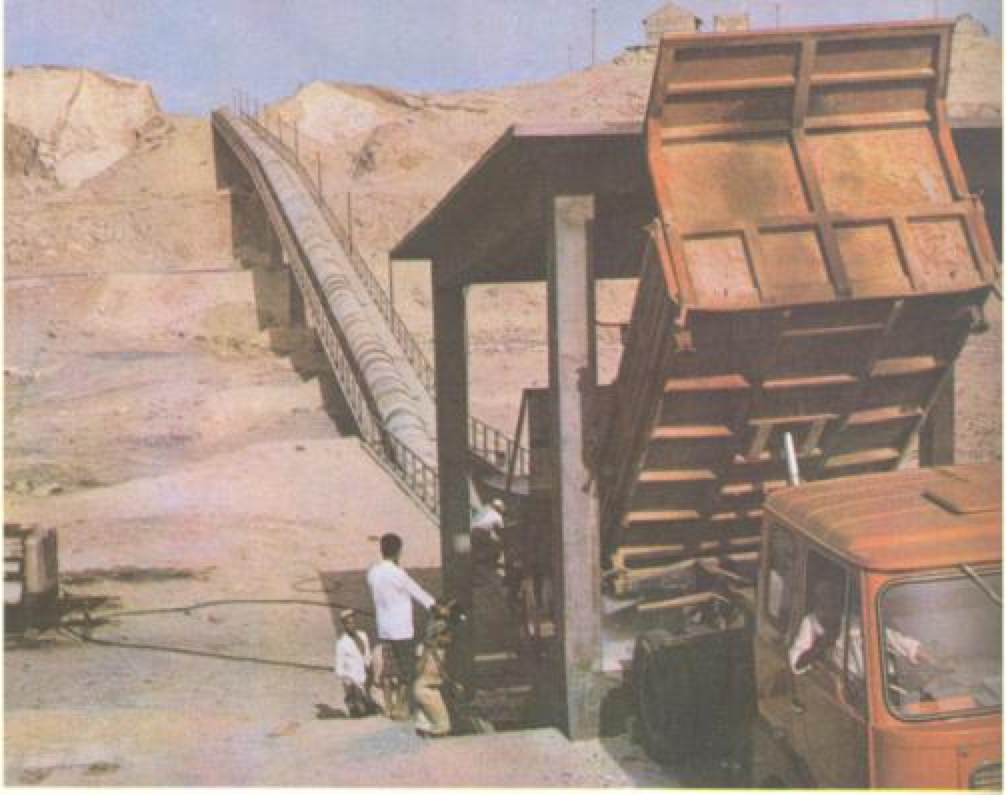
ويشتمل المشروع على اقامة العديد من المنشآت منها رصيف كبير يمتد الى مسافة ٢٠٠٠ متر داخل البحر ، وكسارة لكتل الملح ، وأحزمة آلية عرضها

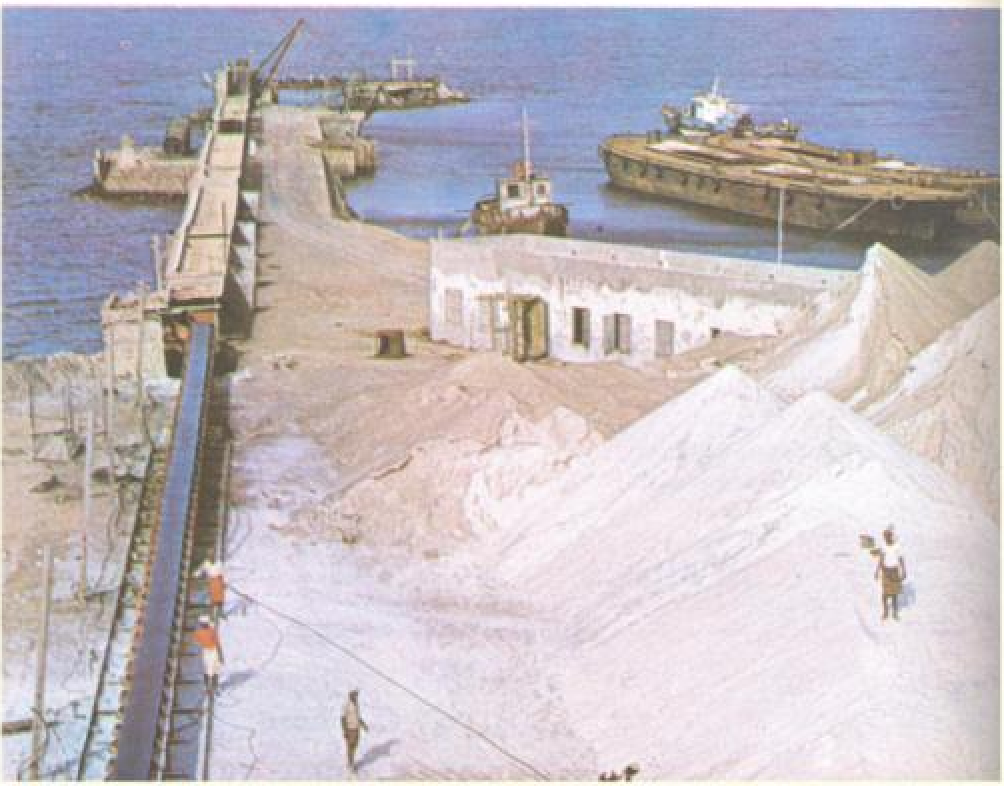
الى اليسار : الصليف منطقة فقيرة ليس فيها صناعة او تجارة او زراعة .. انما ملح فقط .. لهذا وجدنا شركة الملح اليمنية بمثابة الام في المنطقة .. الام التي اسقط في يدها ، لان امكاناتها لم تعد تتناسب مع مطالب التطور الجديدة .. لقد استعانت برومانيا لاقامة منشآت للمناجم وحزام ناقل ، طوله ١٧٠ مترا ينقل الملح من المنجم الى الميناء ، ولكن هذا الحزام لم يستطع انقاذ عملية التصدير ، فالميناء لم تجر عليه اية اصلاحات .. لهذا توقف الحزام عن الدوران ، وتوقفت الحركة في الميناء .. انتظارا لاستكمال المشروع الجديد .



الى اليمين : جاء الجيولوجيون الكنديون بمعداتهم الى الصليف ، وبدأوا عملية مسح شامل للمنطقة استمرت اربعة شهور ، حفروا خلالها ٣٢ ثقبا ، مجموع أعماقها ٢١٢٩ قدما .. وبلغ متوسط عمق كل ثقب ٩٥ مترا ، الا أن احدها وصل عمقه الى ١٨٥ مترا ، ومع ذلك فان قاع جميع هذه الثقوب كان من الملح ، ولم يصل الحفر ابدا الى نهاية التكوين الملحي .. ان مساحة الارض التي اجرى المسح عليها بلغت ٦٨٠ متر مربع وجد فيها نحو ٢٥٠ مليون طن من الملح .. وكانت عينات الملح الصخري (الصورة السفلى) ترسل الى كندا لتحليلها ، وقد ثبت أن نسبة نقاوتها تصل الى نحو ٩٩٪











الملح الابيض الصخرى يتطاير في الهواء اثر تفجير الديناميت ، في الجبل .. وبعدها تنقل كتل الملح ا
خشن ، يحمله حزام آلي ناقل الى رصيف الميناء .. هكذا كانت تتم العملية بطريقة نصف آلية ،

١٢٢ سنتيمترا تنقل الملح من المنجم الى الميناء ، ومستودع ضخم لحفظ الملح ، وغيرها الكثير من المنشآت التكميلية .. انه مشروع متكامل تبلغ تكلفته ستة ملايين دولار ، سيغير وجه المنطقة الحزينة الهادئة ويجعلها عامرة صاخبة .

ممنوع اكل الملح !

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا ، هو :
« ألم يحاول اليمنيون استغلال تلك الثروة الكبيرة من قبل ؟! »

والجواب : نعم حاولوا ولكن جميعها كانت محاولات على مستوى صغير،لا على مستوى قومى.

لقد احتلت تركيا ارض اليمن على ثلاث فترات متباعدة ، كانت أولاها عام ١٥٢٨ واستمرت ٣٠ عاما ، والمرة الثانية بدأت عام ١٥٦٩ واستمرت ٦٧ عاما ، والاحتلال الثالث بدأ عام ١٨٤٩ واستمر نحو نصف قرن .

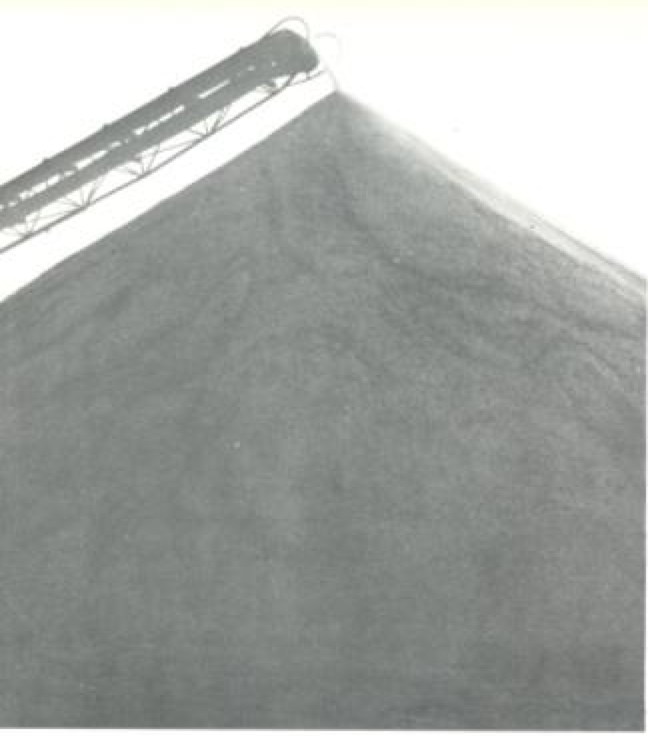
وكان الأتراك على بيّنة بمناجم الصليف وملحه، فكانوا يستخرجونه بكميات كبيرة ، ويبيعونه داخل اليمن وخارجها ، وحتى يمنعوا أهل الصليف من المتاجرة وبيع ثروتهم ، حرموا عليهم حتى وضع الملح في طعامهم ، حتى لا يكون أكل الملح ذريعة للتجارة فيه !

ومن الغريب اننا عندما تناولنا الطعام في الصليف وجدناه ماسخا .. لقد تعود أهل الصليف على أكل طعامهم بدون ملح الى اليوم بينما الملح تحت اقدامهم يعيشون فوقه !

ويعتقد الأهالي أن الشيطان يولى والجن تذهب اذا فرقعت قطعة الملح الملقاة على الجمرة.. كما يعتقدون بأن قطعة الملح البلورية تشفى من الاختناق في الأكل ..

الاسطول يقصف الصليف

وقبل نهاية الحرب العالمية الأولى وضع الاتراك والالمان الخطط للسيطرة على مدخل البحر الأحمر، وتنبهت بريطانيا للخطر، فارسلت أسطولها البحرى لقصف موانىء اليمن .. وكان نصيب الصليف وابلا من النيران الحامية ، دمرت أغلب منشآت

الى الكسارة ، فيقوم العمال بتكسيرها الى احجام متوسطة ، قبل أن تطحنها الآلات وتحولها الى ملح ...نتظر ان يتبدل كل هذا مع المشروع الجديد الذى بدأ العمل فيه ، وسينتهى فى أواخر عام ١٩٧٢ .

استخراج الملح ، واوقفت المشروع التركى لبناء ميناء جديد في المنطقة ..

ورحل الأتراك عن اليمن .. ونسى الناس ملح الصليف ، فتراكم الصدأ على الآلات ولم تعد تصلح للعمل ، حتى كانت أوائل خمسينيات هذا القرن ، عندما أعطى امام اليمن لآل الوجيه امتيازا باستغلال ملح الصليف لقاء مبلغ من المال ... وعندما راى الامام نجاح آل الوجيه في مشروعهم جلب معدات حديثة من المانيا ، وسكة حديد ضيقة محلية ، كانت تنقل ألف طن من الملح يوميا ، من المنجم الى الميناء .

وانسحب الألمان من المشروع ، فتدهور العمل وتوقف تقريبا ، ولكنه عاد في عام ١٩٦٤ عندما تقدمت المؤسسة المصرية للتعدين وشاركت في اقامة الشركة اليمنية لصناعة الملح ، بنسبة ٤٩٪ من مجموع رأس المال ، البالغ ٤٠٠ الف جنيه استرليني .

اليابان المستورد الوحيد

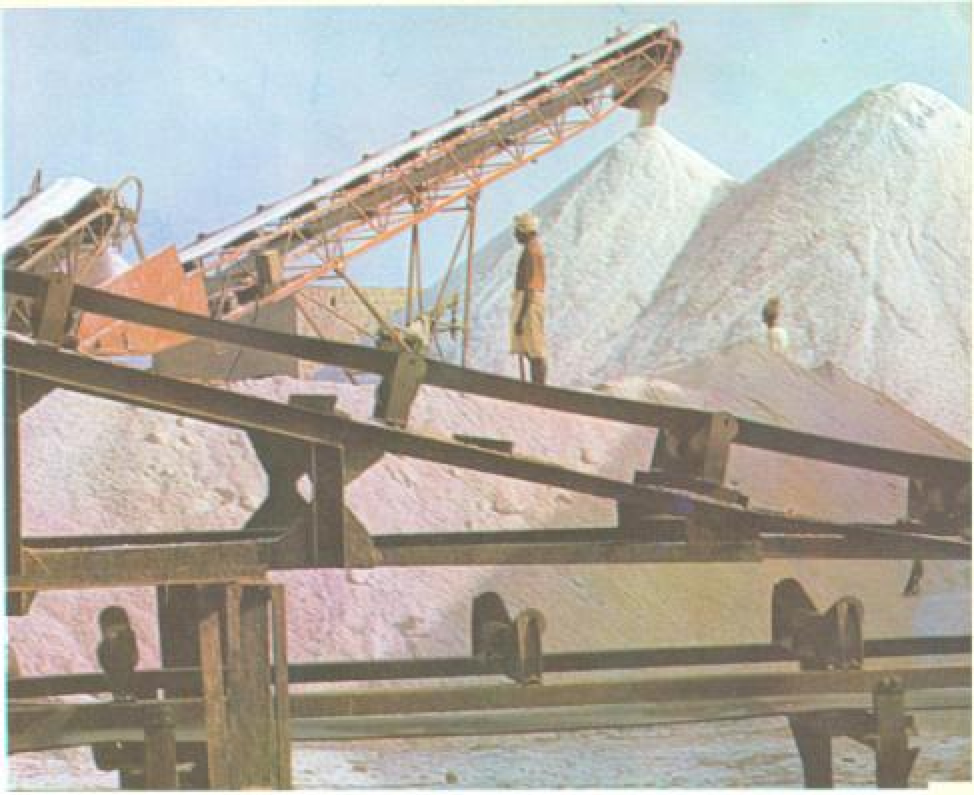
وفي عام ١٩٦٨ اشترت الحكومة اليمنية جميع اسهم رأس مال الشركة ، فاصبحت شركة الملح يمنية كاملة ، اتفقت مع مؤسسة رومانية على اقامة منشآت نصف آلية في الصليف ، يمكنها انتاج ٦٠ الف طن سنويا ..

وقامت شركة الملح اليمنية بتسديد اغلب قيمة الآلات الرومانية رغم متاعبها المالية ، اذ أن المستورد الوحيد لملح اليمن كان اليابان ، ونتيجة للاعتماد على مستورد واحد ، وجدت شركة الصليف نفسها تحت رحمة مزاج المستورد الياباني ، فبينما نراه يستورد ١٢٠ الف طن في عام ١٩٦٦ نجده يتوقف عن الاستيراد نهائيا في عامي ٦٧ و ٦٨ ثم يعاود الاستيراد في عام ٦٩ لينخفض استيراده الى ٣٣ الف طن في عام ١٩٧٠ .

وفي منتصف عام ١٩٧٢ جاءت سفينة يابانية يتيمة الى الصليف حملت ثمانية آلاف وخمسمائة طن من الملح ، ورحلت بها الى اليابان ، ولم ترجع ابدا ، ولم يعد احد يشترى ملح الصليف ..

اسباب توقف اليابان

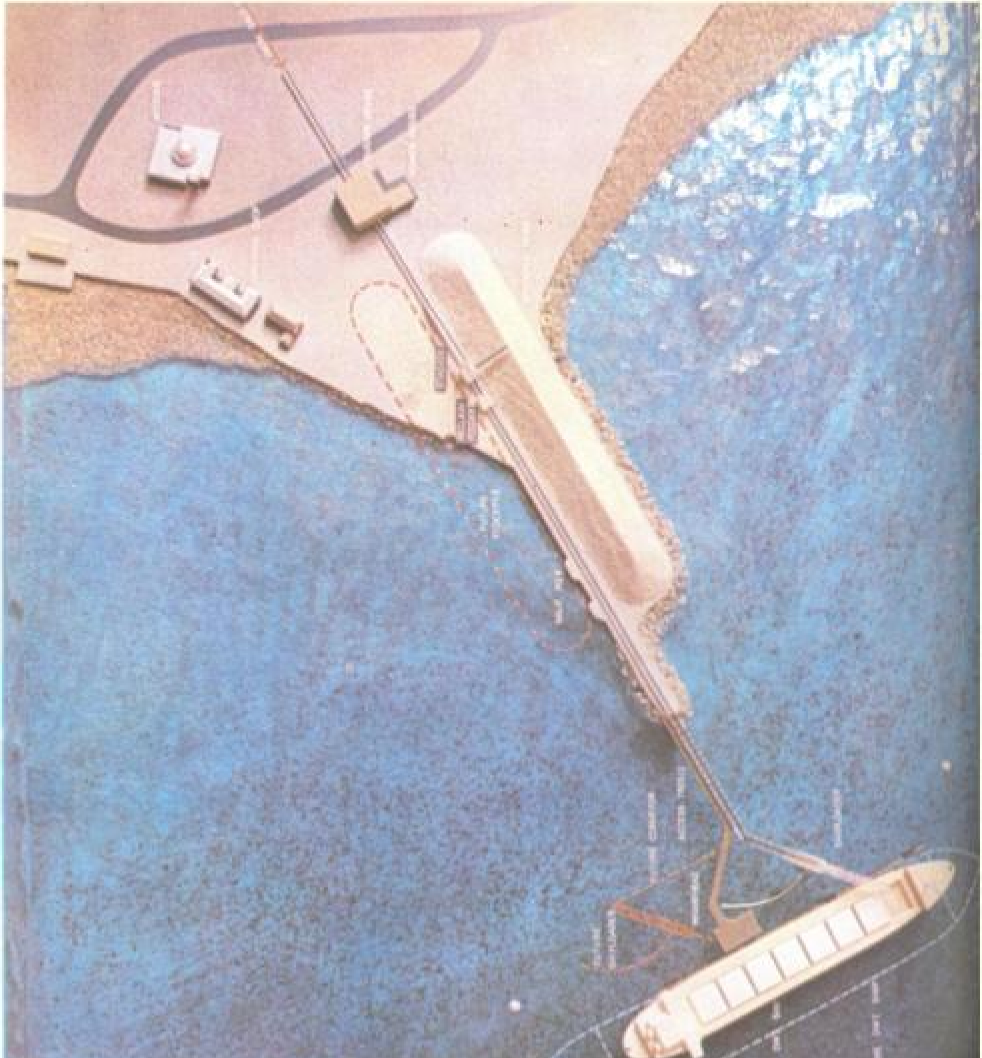
واليابان لم تتوقف عن استيراد ملح الصليف

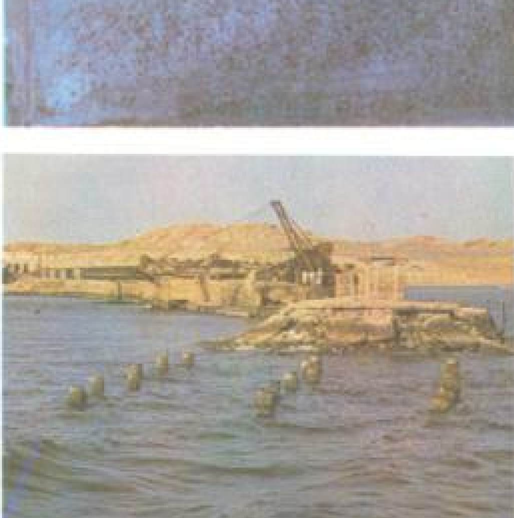


في منتصف شهر يوليو ١٩٧٢ نقلت سفينة ملح يابانية ثمانية آلاف طن من ملح الصليف .. وبعد هذا ساد الهدوء على المنطقة ، وتكدس الملح على هيئة تلال فوق رصيف الميناء .

الى اسفل : السيد عبد اللطيف الحمد مدير الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ، يشرح تفاصيل مشروع الصليف لوزير مالية الكويت السيد عبد الرحمن العتيقي ، ولاعضاء الوفد اليمني الذي قدم في شهر اغسطس عام ١٩٧٢ لتوقيع اتفاقية العقد ، وكان مكونا من السيد محمد احمد الجنيد وزير الدولة للتنمية ، والسيد عبد الكريم الايرياني رئيس مجلس التخطيط ، والمرحوم السيد حسين المقبلي ، والسيد محمد شكري السكرتير الاول في سفارة اليمن في الكويت .







صورتان توضحان قصة الحلم الذي بدأ يتحول الى حقيقة .. الصورة اليسرى تمثل ميناء الصليف كما هو اليوم .. ميناء مهجور تتخلله اوتاد مهملة ، زرعها الاتراك قبل الحرب العالمية الاولى .. والصورة العليا توضح بالرسم المجسم مشروع صندوق التنمية الكويتي المتكامل ، الذي سيتكلف ستة ملايين دولار ، وينتهي العمل فيه في عام ١٩٧٤ . وبعده يصبح بالامكان تصدير مليون طن من الملح سنويا

بسبب نوعيته ، بل توقفت بسبب عدة عوامل من بينها ، متاعب الشحن في الصليف ، وعدم وجود ميناء ترسو عنده ناقلات الملح الكبيرة ..

ان اليابان ما زالت تعتبر أكبر مستورد لمادة الملح في العالم ، تستورد ملايين الأطنان من المكسيك واستراليا والصين ، داخل ناقلات ملح عملاقة حمولة ١٦٠ الف طن .. اما من الصليف فكانت ترسل ناقلات ملح يابانية حمولة ١٠ الاف طن فقط ، تقف على مسافة ٤٠٠ متر من الشاطىء ، تأتيها الصنادل الصغيرة تباعا حاملة براميل الملح تفرغها الواحدة بعد الاخرى في مستودعات الناقلة ، وتظل الصنادل تروح وتجيء لمدة أسبوع كامل حتى تعبىء الناقلة الصغيرة .. وهذا التأخير كان يسبب خسائر كبيرة لأصحاب السفينة ، بالاضافة الى طول المسافة بين اليابان والصليف ، والتي تصل الى ١٣ الف كيلو متر بحرى تقريبا ..

الف طن في الساعة

وهكذا نجد ان مشكل الصليف الاول هو عدم وجود ميناء كبير في مياهه .. ومشروع الصندوق الكويتي يعالج هذا النقص ، اذ سيكون للصليف في نهاية عام ١٩٧٤ ميناء جديد باستطاعته استقبال ناقلات ملح حمولة ٥٠ الف طن ، سوف ترسو على الرصيف ، بينما الحزام الآلي الطويل يحمل الملح مباشرة من المنجم ويفرغه في مستودعات الناقلات بسرعة فائقة تصل الى الف طن في الساعة الواحدة ، يمكن زيادتها الى ٢٠٠٠ طن في الساعة ، بعد اضافة معدات جديدة .. كما سيكون بالامكان في المستقبل رسو سفن حمولة ١٥٠ الف طن على الرصيف .

ماذا نصنع بالملح

ـ « ترى ماذا يمكن أن يفعله بلد صغير متخلف مثل اليمن ، بهذه الكمية الهائلة من الملح ؟ »

سؤال طرحناه على مدير مصنع الملح في الكويت الدكتور محمود مرضيه ، بعد أن أجرى عملية تحليل على بعض النماذج من ملح الصليف قدمناها له ، قال : « هذا الملح يمكن استغلاله في اى صناعة دون حاجة الى ادنى تنقية ، فهو من النوع الممتاز في نقاوته ، اذ يشتمل على ٩٩٫٣٤٪ من الصوديوم كلوريد .. ولا اثر فيه لمادة المغنسيوم ، الموجودة في الملح المستخرج من مياه البحر ، وهذا عامل له أهميته الكبرى في التصنيع ، وكل ما يحتاجه ملح الصليف هو تنظيمه وطحنه الى أحجام

الى اسفل : فوق صخور الملح يقيم سكان الصليف عششهم ومنازلهم .. وتنذرهم شركة الملح اليمنية بأن أراضيهم معدة « للتصدير » ، وانهم سيجدون انفسهم بدون مأوى في المستقبل ، ويتقبل الاهالي واعدين بالجلاء عن الملح عندما يجيء دور تصديره .





« الحمد لله ، كل شيء عندنا متوفر الا الماء .. نريد ماء .. ماء » هكذا قال لنا أهل الصليف الذين لم تعد تهمهم مظاهر الحرمان الكبير الذي يعيشونه .. ان كل شيء يهون ويحتمل الا نقص الماء .. وهؤلاء بعض الاهالي يقفون عند فوهة الآبار العميقة يستخرجون الماء المالح منها .. لقد وعدهم صندوق التنمية الكويتي بمد أنابيب الماء العذب الى القرية قبل نهاية عام ١٩٧٣ ..

محددة ، لاستعماله مباشرة في مختلـــــف أنواع الصناعات .. وحبذا لو اتخذت الاستعدادات لتصدير كميات صغيرة نسبيا تتراوح بين ٥٠٠ والف طن لاستعمالها ملحا للطعام .

« ان البلاد العربية كلها بحاجة الى هذا الملح، وهي تخطو بسرعة نحو التصنيع .. لان الملح والصناعة متلازمان ، وهذا تبينه لنا الاحصائيات الدولية ، التي تشير الى انمعدلاحتياج الفرد من الملح في البلاد الصناعية يصل الى ٢٠٠ كيلوجرام سنويا،وهذا المعدل ينخفض الى سبعةكيلوجرامات في الدول المتخلفة ..

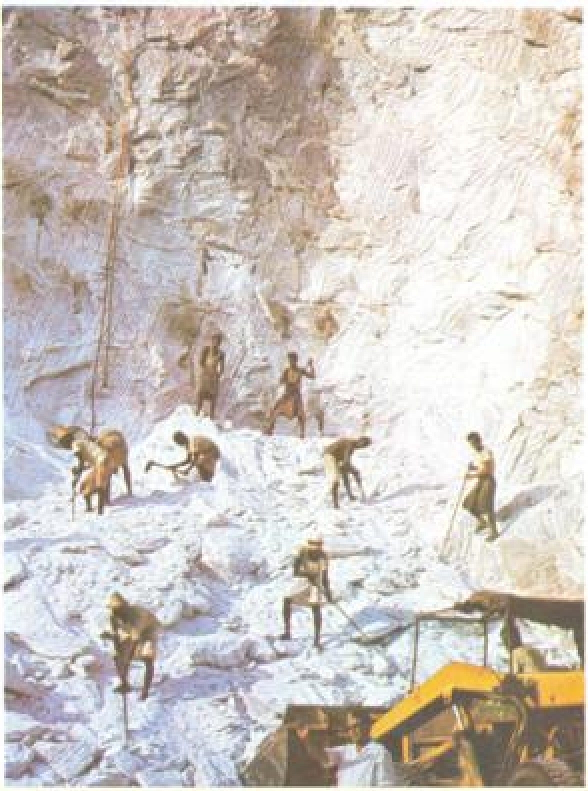
« انهم لا يأكلون هذه الكمية الكبيرة من الملح ، ولكنهم يصنعونه .. يستخرجون منه عشرات المستحضرات الكيماوية من كلور ، وصودا كاوية، وكربونات الصوديوم وغيرها، ويستعملونه فيعمليات تعليب الخضراوات ، وصناعة الصابون ، وتثبيت ألوان الاصباغ ، ومئات الصناعات الأخرى ، العضوية أو الكيماوية منها .. حتى رصـــف الطرقات أضيف الملح الصخرى في البلدان المتقدمة الى الاسفلت لتغطية الطرق التى تهطل عليهـــا الثلوج ، منعا للتزلج .. »

هربت الاسماك !

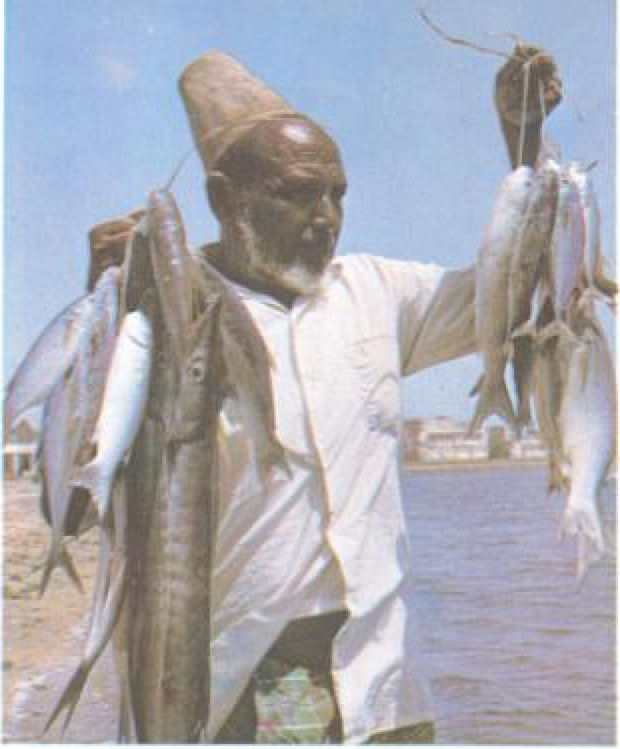
وعملية تصنيع الملح غير ممكنة حاليا في بلدمثل اليمن ، تنقصه الطاقة المحركة ، ورأس المـــال ، واليد العاملة المؤهلة .. وأهل الصليف ما زالوا يعيشون على الفطرة تقريبا في بلدة « القرية » على مسافة ٣ كيلومترات من ميناء الصليف .. عددهم ٣٥٠٠ نسمة ، كان ٥٧٤ منهم يعملون في استخراج الملح،يمسكون العتلة الحديدة بيدهم، يرفعون بها كتل الملح الابيض الضخمة التى تجمعت اثر تفجير الديناميت في الجبل ..



يعتمد سكان جزيرة قمران في غذائهم وضرورات حياتهم ، على الصليف ... حتى مرضاهم ينقلونهم من الجزيرة في قوارب صغيرة الى الصليف ومنها الى الحديدة ، لقد كانت جزيرة قمران غنية بآبارها العذبة التي جف معظمها ، والباقي أصبحت مياهه شديدة الملوحة .. ان أهل قمران ينتظرون — هم الآخرون — مشروع جر المياه الى الصليف ، لسد حاجاتهم من الماء .



الى اليمن : بعد تفجير الديناميت في جبل الملح ، يتسلق العمال الصخور الكبيرة ، ممسكين بأيديهم « العبرة » الحديدية يدفعون بها الكتل البيضاء الصافية الى جوار السيارات لنقلها الى الكسارة . هكذا كانوا يستخرجون الملح ، أما اليوم فقد توقف العمل تماما .



الى اليسار : توقف الغوص في البحر بحثا عن اللؤلؤ منذ عام ١٩٥٢ واليوم يخرج الصياد بمفرده في مركبه «الهوري الصغير » ، يصطاد بالسنارة بعض الأسماك التي ما زالت في المنطقة .. وترى هنا الشيخ ابكر «شيخ الصليف» ممسكا ببعض أنواع السمك التي يصطادها الأهالي .

الى اسفل : حول اشجار الدوم البرية يتجمع الأهالي في الأمسيات ، يقتلون الوقت في أحاديث مكررة .. وعندما تغرب الشمس يتوجهون الى منازلهم للنوم ، فالكهرباء لم تعرفها القرية بعد .. ولكن هذا الفراغ الكبير الذي يعيشون فيه بدأ يتحول الى عمل صاخب ، بعد أن بدأ العمل في مشروع صندوق التنمية الكويتي .



وعندما توقفت الآلات عن العمل . توقف معها دولاب الحياة في القرية ، وعاد الاهالي الى ركوب « الهوري » ينطلقون به في خليج قمران ،يصطادون الأسماك القليلة الباقية ، بعد أن هربت أسراب الاسماك من المنطقة خوفا من شباك السفن الكبيرة التي جاءت الى مياه الصليف لصيد ثروتهـــا السمكية ..

وعند الأصيل يخرج اهل القرية من منازلهم يجلسون تحت أشجار الدوم البرية يفترشـون الارض ويثرثرون فيما لا طائل تحته ! فراغ كبير يعيشون فيه ..

ويعتمد بعض سكان الصليف على التجـارة مع سكان جزيرة قمران القريبة (١/٢ ٣ كيلومتر) ينقلون الركاب ويحملون مختلف ضرورات الحياة، وخاصة القات ، الى تلك الجزيرة التي هي في الواقع جزء من نتوء الصليف (انظر الخريطة).

وكان اهل الصليف يخرجون ابتداء من أول ابريل ، لمدة اربعة اشهر الى عرض البحر يغوصون في مياهه بحثا عن اللؤلؤ الكبير ، ومعهم أهـل اللحية وجيزان وجزر فراسان .. ولكن الغوص توقف نهائيا ، ولم يعد أحد يخرج بحثا عن اللؤلؤ .. ومن الطريف انه عندما حاول الجيولوجيون الكندبون أخيرا فحص قاع البحر لمعرفة قـوة تحمله ، انزلوا انبوبا الى عمق ٢٥ مترا ، فغطس الاهالي الى الأعماق وربطوا الأنبوب في مكانه دون استعمال اى الآلات .

مدرسة هذا العام ومستوصف في العام القادم

ويتعلم أبناء الصليف في غرفة واحدة يتكدسون فيها .. وعلاجهم الطبى يتم في غرفة مجاورة ، يشرف عليه مضمد ، يعالج كل المرضى ، يخلع لهم أسنانهم ، ويصف لهم الدواء ، حتى عمليات الولادة يقوم باجرائها ، فكانما هو طبيب !!

ونقلنا هـــذه الصـــورة التي رأيناها الى الأســـتاذ احمـــد الســقاف الســفير في وزارة الخـارجية الكويتيـة والعضو المنتدب للهيئـة العامة للجنوب والخليج العـــربى . وما كدنا ننتهي من وصف ما شاهدناه حتى وعدنا بأن تقيم الهيئة في الصليف ، مدرسة ابتدائية حديثة في هذا العام ١٩٧٣ ومستوصفا حديثا في العام القادم ..

قبل عام ١٩٧٤

وأكثر مشاكل الصليف ازعاجا هي انعـدام

الى أسفل : بالقرب من رصيف الصليف، أقامت شركة ديلمان الالمانية للنفط، عشرة منازل حديثة لسكنى موظفيها ، ولكنها اضطرت لترك المنطقة دون أن تحفر بئرا ، أو تسكن في تلك المنازل ، التي أصبحت اليوم مقرا لمكاتب لشركة الملح اليمنية ولسكنى موظفيها ، ولضيافة زوار المنطقة .





٦٠٠ كيس من الاسمنت وضعت فوق بئر نفط ميكوم ٢ لسده .. ان احتمالات وجود النفط بين طبقات الملح في الصليف كبيرة جدا .. ولا تقوم حاليا أى شركة نفط بالحفر او التنقيب ، والذين يتقدمون لاخذ الامتياز ليسوا جديين ، ان كل همهم الحصول على الامتياز لاعادة بيعه بأسعار مضاعفة .. هكذا فعلت كل شركات النفط التي مرت من هنا ، مخلفة وراءها كتلا من الاسمنت وسط الصحراء تحمل أكثر من علامة استفهام وتعجب ؟!

المياه في القرية ، فتراهم يقطعون مسافة ٢٥ كيلومترا ليحملوا ما يشربونه من مياه الآبار العذبة الموجودة عند مدخل نتوء الصليف ... وبعضهم يفضل اختصار المسافة ، فيشرب مياها غير عذبة يستخرجها بالدلو من الآبار السطحية القريبة ..

وعندما زار مدير صندوق التنمية الكويتي منطقة الصليف ، التف حوله الاهالي يطلبون منه ايصال الماء اليهم ، فوعدهم بمد الانابيب من الآبار الحلوة حتى القرية . وقد بدأ فعلا في اعداد اللازم ليكون هذا المشروع منتهيا قبل بداية عام ١٩٧٤ .

الصليف .. وتكساس !

وفي منزل الشيخ على شيخ منطقة الصليف ، جلسنا نحتسي الشاى ونتأمل بقايا أنياب سمك القرش وأبو منشار المزدانة بها الغرفة .. وامتد بنا الحديث الى آمال الاهالي ، فقال لنا الشيخ بكر:
« الازدهار في طريقه الينا .. فالمشاريع كثيرة .. بناء الميناء .. والمصنع .. ومد أنابيب المياه .. والاستيراد والتصدير .. كل هذا سينعكس خيره علينا في القريب العاجل .. »

واستطرد هامسا : « ولا ننس الجبس والنفط .. انهما موجودان تحت أقدامنا ؟! » .

ونظرنا الى الارض ، بينما الخبير الجيولوجي الكندي يحدثنا قائلا : « لقد اكتشفنا لملا حقلا كبيرا لمادة الجبسوم (الجبس) طوله ١٥٠٠ متر وعرضه ٥٠٠ متر ، وسمكه نحو ١٠٠ قدم تقريبا .. يكمن فوق قمة جبل داخلي من الملح .. »

وتابع الخبير الجيولوجي حديثه قائلا : « الجبسوم والملح قد يخفيان تحتهما نفطا لا ممدنا .. هكذا ثبت لنا في مختلف أنحاء العالم ، ففي ولايتي تكساس ولويزيانا استخرج من بين طبقات الملح أكثر من خمسة آلاف مليون برميل من النفط ، ونفس الوضع ظهر في رومانيا ، اذ تتخلل طبقات الملح مسالك وفجوات مناسبة لتجمع النفط .. وليس مستبعدا وجود النفط بين طبقات ملح صليف .! »

سدوا آبار النفط

والواقع أن عمليات التنقيب عن النفط في

الجمهورية العربية اليمنية يمكن أن تسمى : « مأساة اليمن مع شركات النفط .. »

ولنبدأ القصة من أولها ، من عام ١٩٢٧ عندما تقدمت شركة نفط امريكية بطلب امتياز للتنقيب عن النفط في اليمن وكان رد الامام الرفض التام .. وبعد ١٧ عاما نجحت شركة ديليمان الالمانية في الحصول على امتياز من الامام أحمد للتنقيب عن النفط في منطقة الصليف .. وسارعت الشركة باقامة مبان حديثة على شاطىء الصليف ، وبجلب معدات الحفر .. ولكنها لم تحفر ابدا فقد عارضت الهيئة الشرعية ، أو المجلس الامامي هـــــذه الاتفاقية ، فرحلت الشركة الالمانية تاركة مبانيها التي ما زالت تستعمل الى اليوم ..

وفي عام ١٩٦٠ حصل الامريكي جون ميكوم على حق التنقيب من الامام احمد ، ولم يضيع ميكوم وقته بل شرع فورا في حفر ثلاثة آبار .. واحدة على مسافة ٣٢ كيلومترا من الصليف عند بحر جابر حفرها الى عمق ١٢٠٠ متر فعثر على النفط فيها ، حسب ما اكده لنا بعض الذين كانوا يعملون فيه .. ثم حفر بئرين في مدار الصليف الى عمق ١٢ الف قدم لم يعثر فيهما الا على الملح ، ولم يتوصل ابدا الى طين او رمل في قاعهما .. وانما ملح فقط ..

وظل جون ميكوم يعمل بنشاط زائد ، وكانت طائرته الخاصة لا تتوقف عن الطيران بين الصليف واسمرة ونيويورك ، لقد كان النفط على الأبواب ، هكذا كان اعتقاد جميع العاملين مع ميكوم .

وعندما بلغت أخبار هذا النجاح مسامع الامام احمد امر بوضع الحراسة على الآبار ومنع الشركة من استخراج النفط ، فصبوا في بئر الزيدية ٦٠٠ كيس من الاسمنت ليغلقوه تماما .. وجاءوا بلحامي الاكسجين واغلقوا فوهة البئر رقم واحد. ولكن هذه المشاكل لم توقف ميكوم ، الذي واصل التنقيب والحفر ، وبينما كان يحفر بئرا في منطقة البيضاء على مسافة ٨ كيلومترات شمال الحديدة اندلعت ثورة اليمن في عام ١٩٦٢ وحاولت«الثورة» عدم عرقلة اعمال ميكوم ، فلم تعارضه في شيء .. ومع ذلك شاهده الجمهور يرحل بعد شهرين من الثورة مع كل خبراء شركته ..

رائع .. مذهل .. ولكن .. ؟

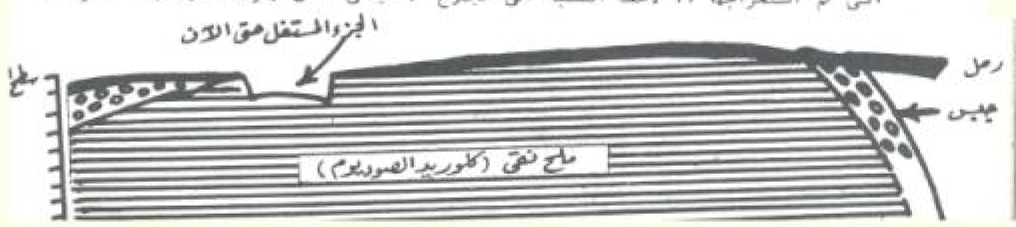
ومضت ستة اعوام جاءت بعدها شركة سوناطراك الى اليمن ، تحمل خرائط ميكوم التي اشترتها منه .. وبدأت الشركة اعمالها بعمليات مسح سيزميكية ، مستعينة باجهزة الكترونية لتسجيل الذبذبات الارضية بعد التفجيرات الجوفية ولم يعرف احد ابدا نتائج هذا المسح .. واجتمعنا الى بعض كبار العاملين في الشركة وتحدثنا اليهم مطولا فاخبرونا بانه عندما كان الخبراء يمسحون منطقتي الزيدية والصـــــليف يصرخون بين الفينـــة والاخرى مكررين كلمتي Fantastique..Formidable « رائع .. مذهل » فقد كانت الاجهزة الالكترونية تعطى نتائج ايجابية طيبة جدا ، عن احتمال وجود النفط في هاتين المنطقتين .

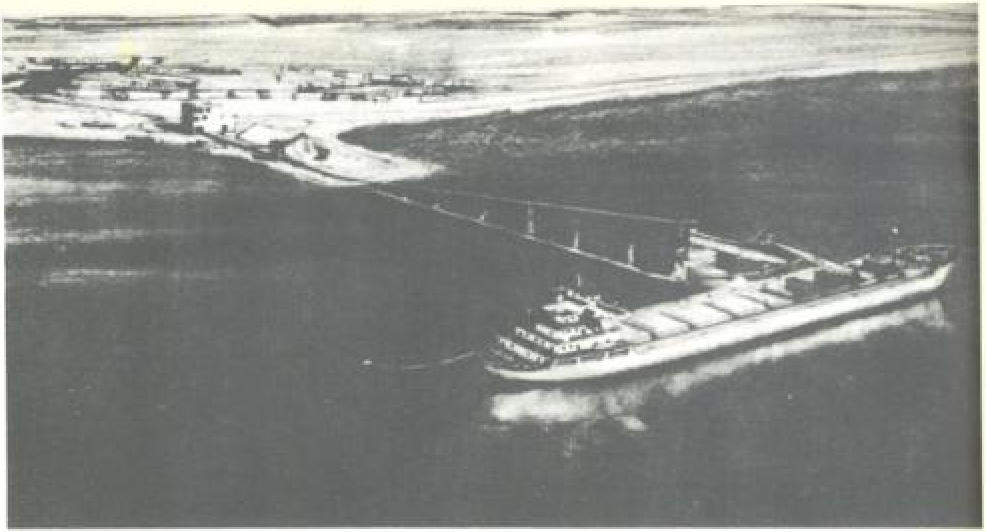
واستمرت عملية المسح سنة كاملة شملت الجبل والسهل ، من الحدود السعودية حتى منطقة الزيدية والصليف ..

وفجاة هدأ كل شيء،وسافر خبراء السوناطراك في شهر اغسطس ١٩٧١ في اجازة قصيرة على أمل العودة سريعا الى اليمن .. وطالت غيبتهم ولم يعد منهم احد ، وبدأوا يطلبون من حكومة اليمن ان تدفع مبالغ مالية لتغطية مصاريفهم في اليمن ، ورفض دولة محسن العيني ، رئيس وزراء اليمن ـ في ذاك الوقت ـ مطالبهم ، واصر على تنفيذ العقد .. وانتهت المحادثات بفسخ العقد .. ولم يعد احد يبحث عن نفط اليمن ..

واليوم اصبحت لدى سوناطراك خرائطهـــا وخرائط ميكوم ، كلها معروضة للبيع .. ترى من

الى اسفل : رسم يوضح مقطعا في أرض الصليف .. ان احتياطى الملح الذى تم تحديد كمياته يبلغ ٢٥٠ مليون طن .. وهذا يعني انه اذا تم تصدير مليون طن سنويا من ملح الصليف ، فانه يلزم ٢٥٠ عاما لاستنفاد كميات الملح في الصليف !! والسهم الذى فوق الرسم يبين لنا مدى ضآلة كمية الملح التي تم استخراجها .. لاحظ النسبة الى مجموع الاحتياطي الذى رمزنا له بخطوط افقية .





رسم يبين ماذا سيكون عليه ميناء الصليف بعد انتهاء مشروع الصندوق الكويتي . ففى نهاية عام ١٩٧٤ سيصبح بامكان الميناء استقبال ناقلات ملح حمولة ٥٠ الف طن في البداية ، تزداد الى ١٥٠ الف طن ، يتم تحميلها بسرعة ٢٠٠٠ طن من الملح في الساعة .. وقد فازت شركة كندية بتنفيذ هذا المشروع من بين ٣٠ شركة عالمية تمثل عشر دول اوروبية وامريكية اشتركت في المناقصة .. ومن المؤسف أنه لا كندا ولا الشركات الكندية المنفذة للمشروع قدمت اى مساعدة لليمن .. بل بالعكس ربحت مئات الالوف من طريق اليمن !!

هو سعيد الحظ الذى سيشتريها ، ليضع خاتمة سعيدة لهذا المسلسل التعس ؟!

ميناء المستقبل

والصليف لن يكون ميناء ملح فقط، بل اصبحت الاصابع تشير اليه بوصفه ميناء اليمن الاول .. فبحيرة الصليف الواسعة يمكنها استيعاب ١٠٠ سفينة مرة واحدة .. وميناء الصليف ميناء طبيعى هادىء ممتاز ، عمق مياهه ٢٦ مترا مما يسمح للسفن حمولة ١٥٠ الف طن من الرسو فيه بسهولة .

ومن ميناء الصليف تمتد قناتان طبيعيتان عمق كل منهما ٢٠ مترا ، واحدة تتجه الى المدخل الشمالى للبحيرة عند راس جزيرة قمران ... والاخرى تمتد الى المدخل الجنوبى للبحيرة .. وهذا العمق في المياه يعطى مجالا واسعا لسير السفن حمولة ١٥٠ الف طن والتى يمتد غاطسها الى ١٧ مترا عندما تكون فارغة ، و١٨ مترا وهى بكامل حمولتها ..

ولا يوجد خطر من تراكم الرمال في القناتين ، فالتيارات البحرية تجرف الرمال اولا باول، بعكس ميناء الحديدة الذى عمق مياهه ٢٢ قدما فقط ، والذى تتراكم عند مدخله الرمال مما يتطلب صيانة دائمة باهظة التكاليف ..

ونتيجة لهذه العوامل ، وبعد ان ظهرت الامكانات الطبيعية الدائمة لميناء الصليف ، بدا المسئولون يخططون ليصبح الصليف ميناء اليمن الرئيسي الاول .. وفي الحال ادخلت اضافات وتعديلات على رصيف شحن الملح في المشروع الكويتي ، بحيث يصبح بالامكان استعماله في نفس الوقت ، رصيفا لاستقبال السفن التجارية وانزال بضائعها وخاصة الوقود الذى فاق استهلاك اليمن منه ٥٥٠ الف طن سنويا تستورد كلها من الخارج .

ميزات رائعة

ان مناجم الملح في الصليف تبعد الف متر فقط عن الباخرة الواقفة في الميناء .. وهذه ميزة رائعة قل ان تجد مثلها في العالم ، فمناجم الملح في رومانيا مثلا تبعد ٢٠٠ كيلومتر عن موانىء التصدير .

ويتميز منجم الصليف بانه منجم مفتوح يؤخذ منه الملح من على السطح مباشرة ، انه منجم مكشوف ، فالأمطار تكاد تكون معدومة في الصليف ومنذ سنتين لم تهطل قطرة مطر واحدة على المنطقة، بعكس المناجم في دول العالم ، يحفرون الانفاق داخل طبقات الملح لحمايته من هطول الامطار والثلج ..

ميزات رائعة ينفرد بها موقع منجم ملـح الصليف ..

« ملحنا سيلقى اقبالا »



وفي شرفة قاعة الاستراحة المقامة في أحد المنازل التي تركتها شركة النفط الالمانية ، جلسنا نفكر فيما يلزم للخروج بالصليف من عزلتها ، وكان معنا حسين العيشي مدير الشركة اليمنية لصناعة الملح ، الذي كان يتحدث من قلب عاشق لكل حبة ملح في الصليف قال : « أهم عامل في رواج الملح بالاسواق الدولية هو معدل سرعة الشحن ... وامكاناتنا الحالية لم تعد تمكننا من منافسة الشحن الدولي .. لهذا التجأنا الى الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ، كي يساعدنا في حل مشكلتنا ، ولم يخيب الأخوة رجاءنا ، فأولوا الصليف عناية خاصة ، وقدموا لنا قرضا طويل الاجل مقداره نحو ستة ملايين دولار ، بفائدة ٣٪ نسددها على مدى ٢٠ سنة ، بعد أن يبدأ المشروع في العمل وجلب الايراد ..

« ولم يكتف الأخوة بهذا ، بل قدموا لنا مساعدة على شكل منحة ، مقدارها ربع مليون دولار لتغطية مصاريف عملية المسح الجيولوجي للمنطقة ..

« ان ملحنا سيلقى اقبالا من أسواق العالم بعد انتهاء مشروع الصندوق الكويتي .. لان تحميل ناقلات من حمولة ٥٠ ألف طن بسرعة فائقة ، سيمكننا من المنافسة في الأسواق الدولية !! »

اريد من الاخوة العرب

فقلنا له : « ما الذي تطلبه من الدول العربية ؟! »

ولم يفكر الرجل طويلا ، بل قال ببساطة :

« عندي ٢٥٠ مليون طن من الملح الصخري أريد المساعدة على تصديرها .. أريد وكلاء عرب ، أو شركة عربية كبرى ، تتولى توزيع وبيع ملح الصليف ، وفتح أسواق جديدة له .. أريدهم أن يساعدوني في شق طريق يربط الصليف بالحديدة جنوبا وبجيزان شمالا .. أريدهم أن يساعدوني في اقامة محطة لتقطير ماء البحر .. أريدهم أن يساعدوني في العثور على شركة نفط تعمل باخلاص وتجرد ، لاستخراج النفط من مكامنه ..

« ان اليابان كانت تضغط علينا لتخفيض سعر ملحنا ، فكانت تشترى الطن منا بسعر ٣٫٧٨ دولار .. لقد اعتمدنا على اليابان لتكون المستورد الوحيد لملحنا ، وقد آن الاوان أن تفتح الاسواق العالمية ، والعربية بالذات ، أبوابها أمام ملحنا ذي الميزات الرائعة .. ان عملية تجفيف مياه البحر واستخراج الملح منها يكلف أقطارنا العربية من ٥ الى ٧ دولارات للطن ، وعملية تكثيف مياه البحر في المكثفات لاستخراج الملح ، كما يحدث في الكويت والمملكة العربية السعودية ، تكلف ٣٠ دولارا للطن الواحد .. فأين هذه الاسعار من أسعار ملحنا .. ؟! »

هل نفذنا الوصية ؟ •

ويتوقف حسين العيشي عن التحديث قليلا ليفاجئنا بسؤال : « هل تعرفون أن الصليف منطقة سياحية من الدرجة الاولى ! . وان بها شاطئا بحريا جميلا لا مثيل له في العالم ! تعالوا نذهب سويا لنسبح هناك .. »

وانطلق بنا المركب في البحر .. يرافقنا في الجو طائر « الاجام » الابيض ، وفي مياه البحر كانت تتتابع امامنا داخل المياه قطع مستديرة بيضاء يطلقون عليها كلمة « الحمّار » .. انها الاسماك المعروفة بالهلالية وهي ليست باسماك ، فليس لها فقار في الظهر .. وبعد نصف ساعة وصلنا الى لسان حارافة ، الذي أصبح الناس يطلقون عليه اسم عرفه تخفيفا لنطقه .. لسان رملي طويل رفيع يقسم البحر الى بحرين .. المياه حوله شفافة كالمرآة ، والرمال صفراء ناعمة ملساء .. وقضينا ساعة نستحم في مياه لسان عرفة .. انطلقنا بعدها الى المركب الذي اعادنا الى الصليف .. ومنها انطلقنا الى الحديدة ، لنستقل الطائرة ونعود الى الكويت ..

وفي الكويت جاءتنا الاخبار معلنة غرق « حسين العيشي » في المنطقة التي احبها وكافح من اجلها .. وتذكرنا قوله لنا : « لا يمكن أن تتركوا الصليف هكذا .. يجب أن تنشروا عنها شيئا في « العربي » ليعرفها كل مواطن عربي فيساعدها .. »

املنا أن نكون نفذنا الوصية . ■■

سليم زبال

العربي

العدد ١٨١
ذو القعدة ١٣٩٢
ديسمبر
(كانون اول) ١٩٧٢



بنت ظفار تتعلم لاول مرة فى تاريخها ...

جوائز ١٢٠٠ دينار سنوياً

الثمن

الكويت	١١٠ فلوس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان	١٠ قروش
الخليج العربي	٢ ريالان	لبنان	١٠٠ قرش	ليبيا	١٥ قرشا
السعودية	٢ ريال	الاردن	١٠٠ فلس	تونس	٢٠٠ مليم
البحرين	٢٠٠ فلس	سورية	١٠٠ قرش	الجزائر	٢ دينار
اليمن	٢,٥ ريال	ج.ع.م	١٠ قروش	المغرب	٢ درهم

اعرف وطنك
أيها العربي

ظفار

قدمٌ في القرن العشرين
وقدمٌ في العصر الحجري !

استطلاع **سليم زبال** — تصوير **اوسكار متري**



القاضي زايد بن سيف بن محمد آل عبد السلام كان يحكم في قضايا الناس الشرعية والمدنية طبقا للتفسير الاباضي للشريعة الاسلامية .. أما اليوم فان اكثر القضايا المعروضة عليه اصبحت قضايا حوادث المرور والسيارات !! انه قاضي ظفار الوحيد . تعرض عليه جميع انواع القضايا .



عمل متواصل من أجل تغيير معالم التأخر ، والدخول الى حضارة القرن العشرين ..

والى اليمين : وقفة استرخاء طبيعية لاحد ابناء البلد ..

والى اسفل : فاق الاقبال على التعليم كل التوقعات .. انه التعطش الى المعرفة في ظفار .





■ **الحديث عن ظفار حديث حساس .**

فهذه المنطقة اصبحت كأنها قدس من الأقداس، لا يجوز مسّه .. واذا اراد احد الكتابة عنها فلا خيار له الا في اتباع احد الخطين : يميني متحاز .. أو يساري متطرف !! والويل له من انصار المعسكرين اذا كتب غير هذا !

هكذا يسير العرف بين الكتاب منذ تسع سنوات ..

التيارات السياسية من ناحية ، والأعاصير الجوية من ناحية اخرى ، يعملان بتعاون وثيق على حجب الرؤية وطمس الحقيقة عن اعين المواطن العربي ، الذي يريد أن يعرف كل شيء عن شقيقه الظفاري .

ووسط هذا الخضم المضطرب ، يقف ابن ظفار يقرأ ما يكتب عنه ، ويراقب ما يدور حوله.. فيتألم ويحزن ويصمت .. متسائلا : لماذا كل هذا؟

واليوم ، ونحن ننشر هذا الاستطلاع عن ظفار ، ننشره بعيدا عن كل هدف الا ان يكون استطلاعا لشعب عربي فحسب : أين يعيش ... وكيف يعيش ... وما حظه من الحياة !

ولا نحسب أن فردا عربيا يسر بأن تحجب صورة شعب عربي ، كان من حسن طالعه ، أو سوئه ، أن يولد في منطقة مضطربة تستنزف يوميا دما عربيا ... ومالا عربيا .. وجهدا عربيا .. انها واحدة من معاركنا العربية الجانبية الفرعية تدور بين اخوة وابناء عم منذ تسع سنوات ، كان بالاحرى توجيهها نحو معركتنا الرئيسية ، مع عدونا الصهيوني المشترك ..

الى اسفل : والي ظفار بريك بن حمود الغافري ، يتمتع بدرجة وزير ، وله ستة نواب في مختلف المناطق ، وهو يتبع السلطان مباشرة ... ويجلس والي ظفار يوميا في مكتبه المفتوح للاهالي ، ونراه هنا وجها لوجه مع مسلم محمد المهري ، الذي قدم من البادية ليعرض شكواه ، وقد ظهر معهما الشيخ عيسى المعشني ، احد شيوخ القبائل .



ما هي ظفار ؟

ظفار ليست مدينة ، كما يحلو للبعض وصفها، بل هي اكبر ولاية في سلطنة عُمان ، تمثل ثلث مساحة البلاد الاجمالية ، اى نحو مائة الف كيلومتر مربع .. مساحة شاسعة تزيد على مساحة الاردن ولبنان والبحرين مجتمعة .

وقد اسهم موقع ظفار الطبيعي في عزلها عن العالم ... من الشمال تحدها رمال الربع الخالي .. ومن الجنوب تغسل سواحلها مياه بحر العرب .. ومن الشرق يعزلها جبل سمحان المرتفع، اما من الغرب فحدود مغلقة دائما مع جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

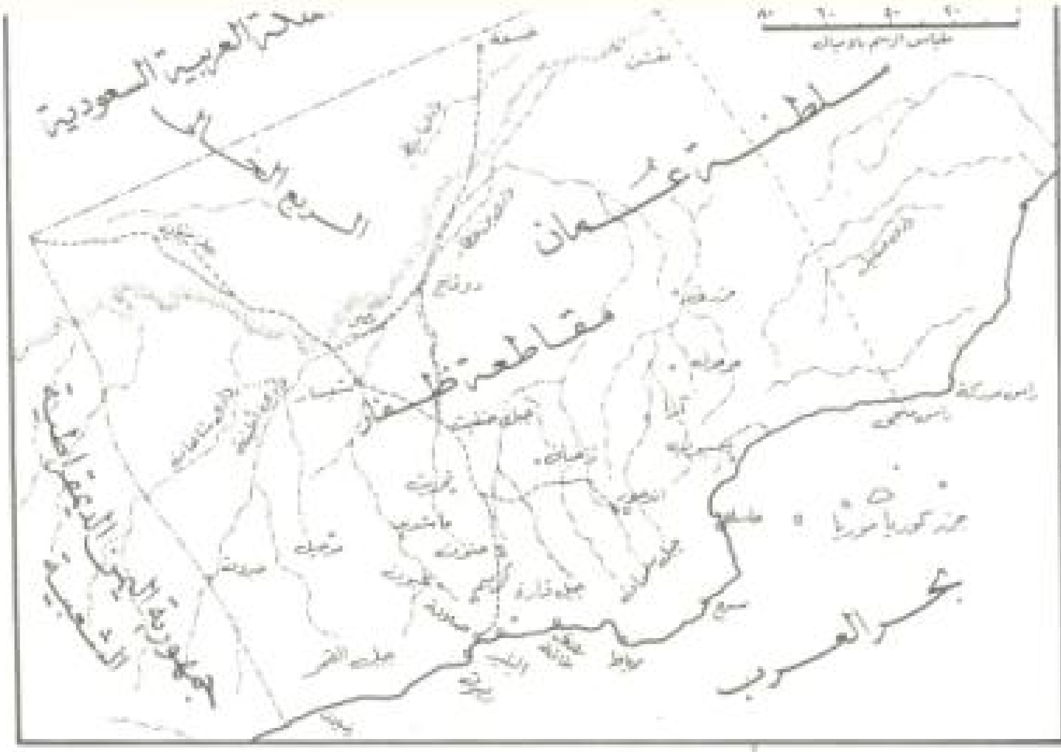
والى جانب عزلة الموقع تشترك طبيعة الارض في زيادة صعوبة الحياة ، فالصحراء تحتل نسبة ٩٠٪ من مجموع ارض ظفار ، والجبال تحتل ٩٪ والباقي ، اى ١٪ سهل ساحلي .

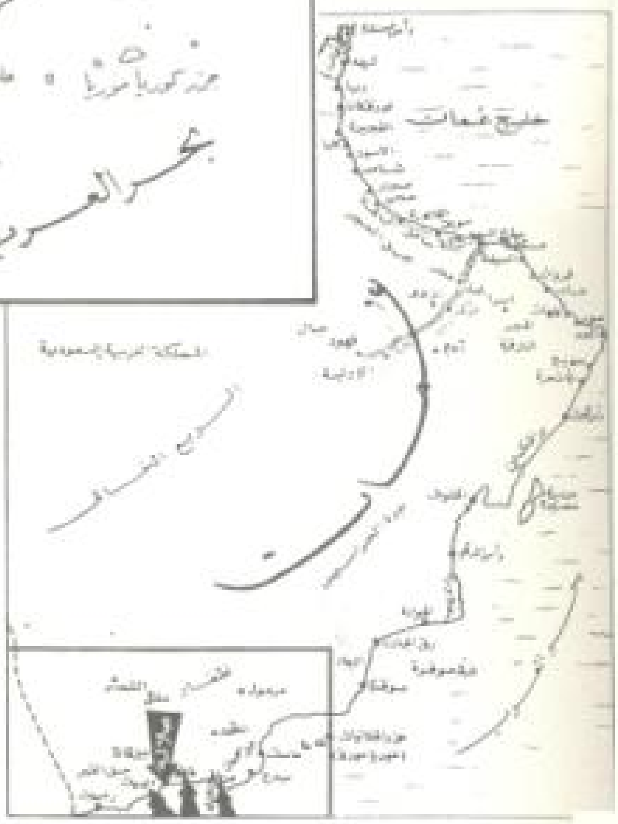
اما مناخ المنطقة فحدث عن تنوعه دون حرج .. فبينما تنضج البيضة الطازجة تحت حرارة شمس رمال ظفار في الشمال ، نجد الاعاصير تهب على الساحل الجنوبي ، فتغلق البحر مدة ٣ شهور في وجه المراكب والسفن .. وتهطل الامطار بمعدل خمس بوصات على الساحل ، و ٣٠ بوصة على جبال ظفار الثلاثة : القمر ، وقارة ، وسمحان ..

طموح قرية

ومن هذه الجبال ينحدر اثنا عشر واديا باتجاه البحر ، قامت عند مصبها القرى والتجمعات السكانية ، تعزلها الجبال بعضها عن بعض .

واشهر هذه القرى : صلالة ، ذاع صيتها وانتشر ، فامتدت واتسعت حتى ابتلعت قرى الحصن وحافة ، وما زال طموح ابنائها كبيرا ،





خريطتان : اليمنى تبين موقع ولاية ظفار التي ظهرت مكبرة في الخريطة العليا . وظفار هي واحدة من ثلاث ولايات لتكون منها سلطنة عمان ،مساحتها مائة ألف كيلو متر مربع أو ٤٠ ألف ميل مربع ، كان يقدر عدد سكانها بنحو ٢٠ الفا يعيشون في الجبال و ١٥ الفا يعيشون على الساحل .. عاصمة الولاية صلالة ، وتبعد من مسقط بنحو ٩٧٠ كيلومترا .. العملة المتداولة هي الريال السعيدي ، ويساوي جنيها استرلينيا .. احسن الاوقات لزيارة ظفار الشهر التاسع .

انهم يريدونها مدينة نابضة تشع الخير على المنطقة باسرها ، وبدا حلمهم يتحقق ، فسكانها قفز عددهم من ٣ آلاف الى ١٦ الفا ، وبلدتهم اصبحت العاصمة الادارية لولاية ظفار ، فيها مجلس الوالي والقاضي ، والمدرس ، وفيها الفندق والمستشفى والمسجد والمدرسة .

وبعد صلالة في الأهمية تأتي مرباط ، وطاقة ، وريسوت .. قرى ساحلية بدأت تأخذ اشكالا حضارية في الآونة الأخيرة .

اما بقية اسماء القرى ، فلا تعدو كونها تجمعات سكانية لا يزيد سكان اكبرها على الف نسمة ، مثل رخيوت ، وبلكوت ، والحاسك ، وعوقة الأولى وعوقه الثانية ، ورزات وغيرها .

وعدد سكان ظفار غير معروف بالدقة لعدم وجود احصائية رسمية ، ولكنهم اكدوا لنا أن سكان الجبل كان عددهم ٢٠ الف نسمة يملكون ٢٠ الف بقرة ، وسكان الساحل كان عددهم نحو ١٥ الف نسمة ، اما اليوم فقد امتزجت الأرقام ، نتيجة للهجرة المتزايدة من الجبل المضطرب الى الساحل الهادىء ..

مبني على « الكسر » !

وقد جرت عادة الناس في ايامنا هذه على نطق ظُفار بضم اولها .. في حين أن ضبطها الصحيح، كما جاء في « معجم البلدان » وكتب اللغة ، هو : ظَفار بفتح اولها ، اما آخرها فبعضهم يبنيه على الكسر وبعضهم يُعربه .

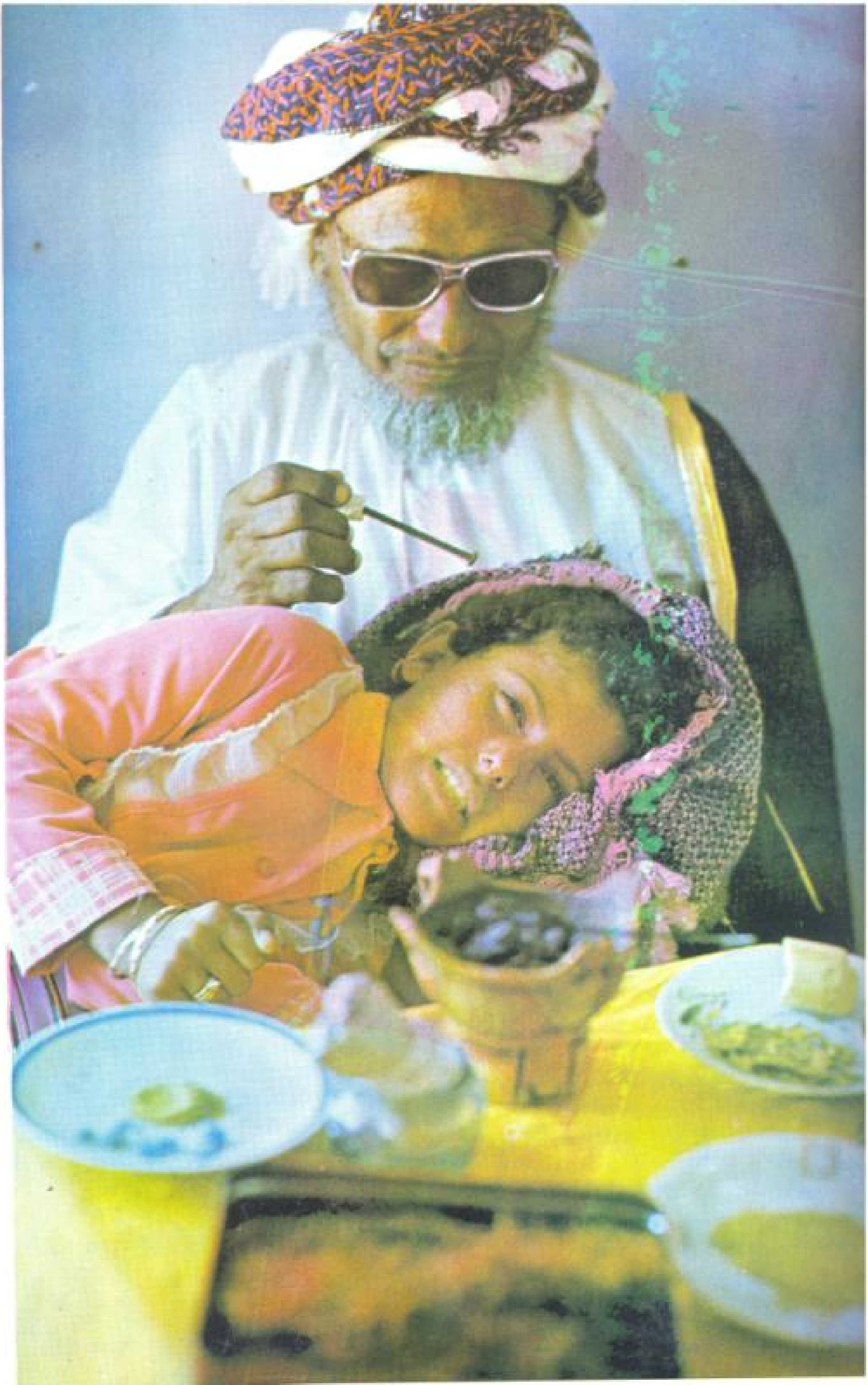
اما السلطان السابق سعيد بن تيمور ، فكان بناؤه على « الكسر » فقط !! كان يحكم بسلطات تعسفية مطلقة ، يعاونه خدمه كوزراء له، يرسلهم الى الاهالي يبلغونهم اوامره بمقدمة تقليدية تقول : « يسلم عليكم حبّاب (اي السيد العظيم) ويقول لكم .... »

وكان السلطان سعيد ، الذى توفي منذ نحو



« ما فينا الم كبير حتى نذهب للدكتور ! » .. ان ابن ظفار يكابر حتى في المرض ، فلا يذهب للطبيب الا عندما يبلغ الرمق الاخير تقريبا ..! وتطعيم الرضع ضد شلل الاطفال والتيتانوس والجدري والدفتريا ، لم تعرفه المنطقة بعد .. كما ان هيئة الصحة العالمية لم تعرف هي الاخرى منطقة باسم ظفار !! والناس هناك تعودوا على التبرك باضرحة الاولياء العديدين لشفائهم من امراضهم ، وخاصة الضريح الغريب الطويل « للنبي عمران » **(الصورة العليا)** الذى بناه مسافر هندي باعتبار ان طول ابونا آدم كان ٦٠ ذراعا !! وبعضهم ما يزال يصر على الذهاب الى « الطبيب العربي » عم فرج ، **(الصورة اليسرى)** رغم اعتزاله الخدمة بعد ٤٠ سنة من معالجة الناس بالكي والصبر السقطرى والتوابل . وهو يقول : « الناس ما افتكوا مني ، انهم يصرون على فائدة علاجي » .. ولكن الاغلبية الساحقة من الناس اصبحت تتردد على مستشفى صلالة المزود بغرفة عمليات حديثة **(الصورة السفلى)** ويعمل فيه سبعة اطباء و ١١ ممرضا وممرضة .. عالجوا في السنة الماضية ربع مليون متردد على المستشفى .









هذه الصورة ليست في هونولولو وانما في ظفار .. اشجار جوز الهند الرشيقة تتمايل على الشاطيء الجميل الذي لا يستحم فيه احد .

خلجان متتابعة ، جميلة رائعة تمـ ريسوت هو افضل هذه الشواطيء

عام في لندن ، مهتما بمنطقة ظفار باسلوبه الخاص .. يخطط للمشاريع ويشبعها بحثا ، ولكنه لا ينهيها ابدا .. فمثلا شيد جدران المستشفى في صلاله ، ولكنه تركه بدون سقف مدة ١٧ سنة ، واجرى الخبراء مسحا زراعيا شاملا لمقاطعة ظفار ، وقدموا تقاريرهم ، فجمدها ولم ينفذها .. وفكر في شق الطرق ، وجلب فعلا خمسة تراكتورات ، ولكنه وضعها في ساحة قصره مدة خمس سنوات ، فعلاها الصدأ !!

حتى التعليم ، كان للسلطان سعيد ، الذي كان يجيد خمس لغات ، فلسفته التعليمية الخاصة ، فتح مدرسة ابتدائية ، واعطى اوامره بتحديد القبول بخمسة وعشرين طفلا سنويا فقط .. وغير هذه ، قصص اخرى كثيرة يرويها لك الناس كلها تحوى العجب العجاب .

السلطان يؤيد الثوار

وهكذا تضامن « الانغلاق الانساني » مع « الانغلاق الطبيعي » على عزل ابن ظفار وتحويله الى انسان يعيش في زمان متأخر عن زمانه بعدة قرون .. فكان هذا مرتعا خصبا لانتشار الخزعبلات والدجل ، وسيطرة الثالوث المرعب : الفقر والجهل ، والمرض على كل ارجاء ظفار ..

ولم يكن هناك مفر من اندلاع ثورة ظفارية على هذا الواقع الفاسد ، وحظيت الثورة بتأييد داخلي وخارجي شامل ، حتى السلطان قابوس ، الذي أطاح بوالده سعيد بن تيمور في ٢٣ يوليو ١٩٧٠ قال بعد توليه الحكم : « كانت مطالب الثوار معقولة ، وكان الجميع ــ بما فيهم أنا ــ مع الثورة عند انطلاقها عام ١٩٦٤ لقد كان الأمس ليلا مظلما ، وفي الغد تشرق الشمس » .

واليوم وبعد مضي ٣ سنوات على « اشراقة الشمس » ما الذي تبدل في ظفار ؟

مصاعب التحول

لقد عشنا اسبوعين في المنطقة تنقلنا خلالهما بالسيارات والقوارب والهليكوبتر ، الى مناطق نائية لم تطأها قدم ،وقطعنا الساحل جيئة وذهابا ، وعبرنا جبال ظفار الى نجد ورمال الربع الخالي .. وخرجنا من كل هذا بحصيلة وافرة من المشاهدات والمعلومات يمكن تلخيصها في هذه الكلمات : « ان ظفار اليوم قد وضعت قدما في القرن العشرين ، ولكن قدمها الاخرى ما زالت مشدودة الى القرون الحجرية الاولى » .

وهذا وضع طبيعي بالنسبة لظفار ، فعمليات الاصلاح التي تمت حتى اليوم ، لا تعدو قطرة



على طول ساحل ظفار .. وشاطىء وان كانت خلجان مرباط لا تقل روعة .



روشة ريسوت .. اطلق عليها هذا الاسم لانها تتشابه مع روشة بيروت وظهر في الصورة عبد العزيز محمد الرواس مسئول الاعلام في ظفار .

من بحر ، فهنا لا يمكن اجراء التبديل بسهولة ، فالتقاليد والعادات المتوارثة ، لم يحاول احد تطويرها عبر الاجيال ، فرسخت في نفوس اهل ظفار ، رسوخ النقش على الحجر !

ان التحول من مجتمع قبلي بدوى ، نسبة الأمية فيه ٩٨٪ الى مجتمع حضرى متعلم ، ليس من الأمور التي يمكن أن تتم في طرفة عين ، فكل شيء هنا معقد ليس من السهل حله .

جنة الزبالين

تعالوا ناخذ مثلا بسيطا : نظافة المدن الظفارية .. لقد سرنا في قرية « طاقة » تتجول بين احيائها ومبانيها ، فوق ارض معبدة .. معبدة بسماد الابقار الطبيعي ،وبقايا عظام الماعز والاسماك !

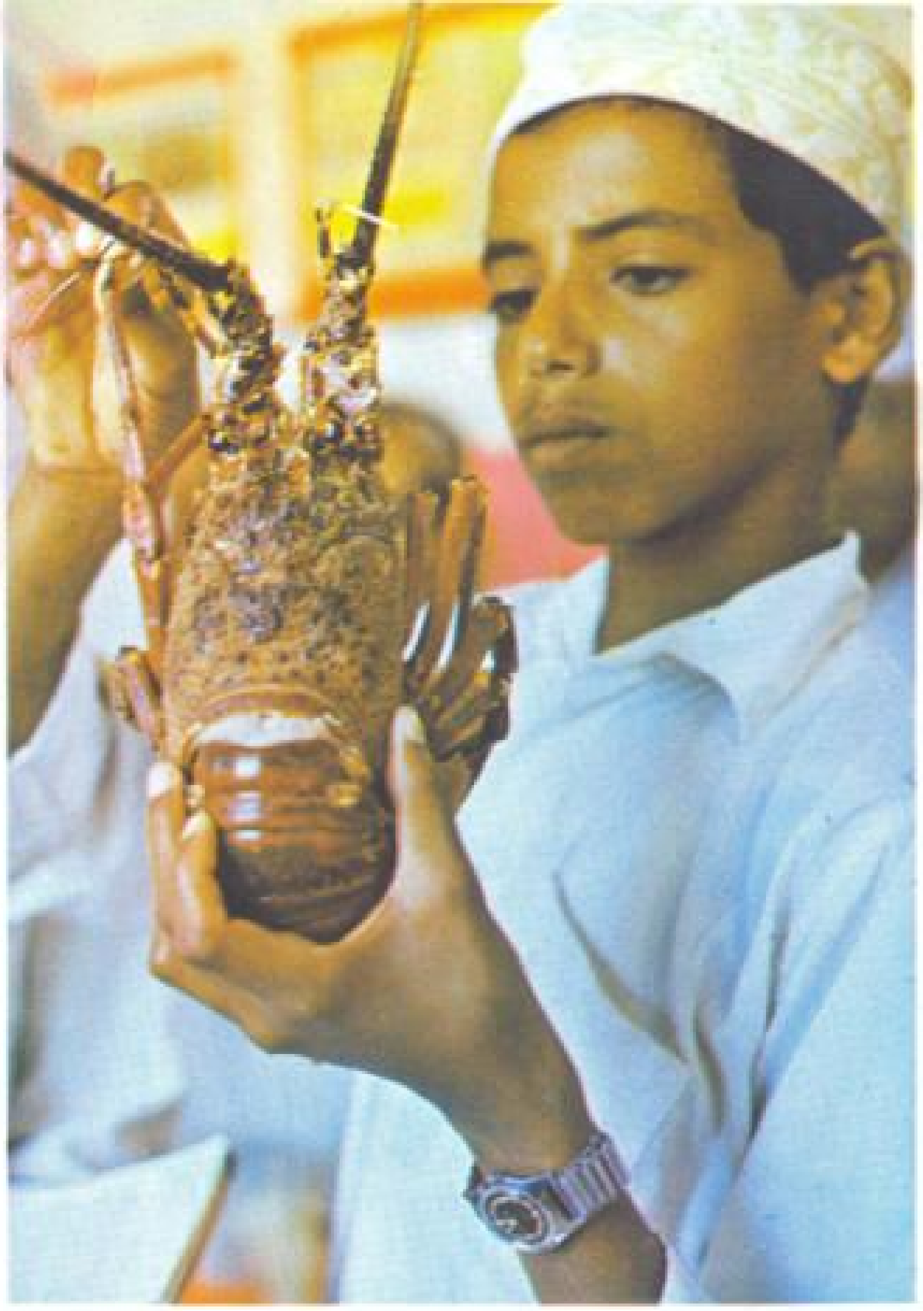
كثرة الذباب جعلتنا لا نستطيع فتح افواهنا لنسأل : لماذا هذا ؟ حتى وصلنا الى صلالة فطرحنا السؤال على ضابط البلدية الذى اجابنا متحسرا : « عندما بدأنا عملية تطوير صلالة ، وجدنا ان شوارعها لم تنظف منذ ٤٠ سنة على الاقل .. المهملات متراكمة في كل مكان .. وحاولنا تعيين زبالين محليين ، ولكننا لم نوفق .. لان القبلي لا يعمل ابدا في هذه المهنة لحقارتها (والقبلية ـ بالمناسبة ـ ما زالت منتعشة في عمان .. وعند وصول طائرتنا الى مطار مسقط طلبوا منا ـ ومن بقية الركاب الاجانب ـ كتابة اسم قبيلتنا على بطاقة الدخول .!!) ولم تجد بلدية صلالة مخرجا الا باستيراد الزبالين من خارج البلاد ، فجلبتهم من الباكستان بعد ان ارسلت لهم بطاقة سفر بالطائرة ، وجاء ٥٠ زبالا الى صلالة ، يتقاضى الواحد منهم ، الى جانب السكن والكهرباء والماء ، ٣٤ ريالا سعيديا (الريال يساوى جنيها استرلينا) والمسئول عن التفتيش عليهم ـ وهو باكستاني ـ يتقاضى ٦٥ ريالا شهريا ، وهم لا يتكلمون لغتنا ، لهذا عينت البلدية مترجما خاصا بالزبالين !! »

هذا مثل من مشاكل المنطقة ، والمثل الثاني لمسناه عندما حلقت بنا الطائرة فوق مدينة مرباط .. مدينة كالحة اللون ، ليس فيها غصن اخضر واحد ، فنزلناها ، ووجدنا الخضرة في القلوب ، وفي كرم اهلها وبشاشتهم ، اما الزراعة فمهنة حقيرة عندهم ، بعكس بقية مناطق ظفار التي يكثر فيها الزرع والاشجار ..

استيراد العمال

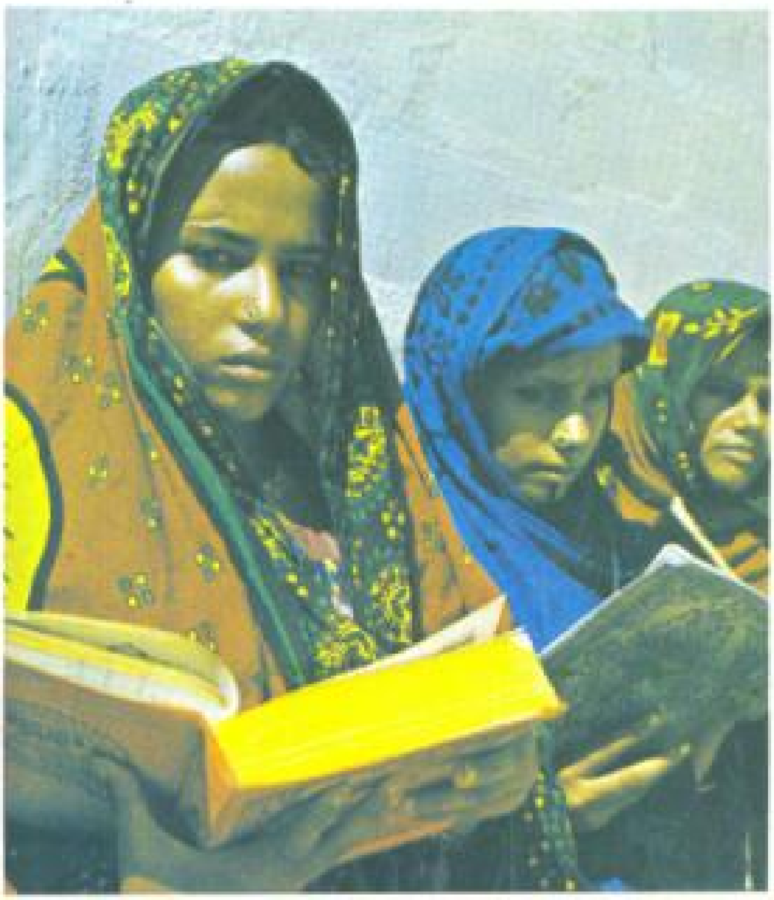
هاتان المشكلتان الصغيرتان توضحان لنا نوعية من المشاكل الكبيرة التي توارثتها المنطقة ..

أوشك القرن العشرون – وهو عصر العلم – على الانتهاء ، ولم يكن في كل مقاطعة ظفار الا مدرسة واحدة تضم ١٤٠ طالبا .. وجاء الانفتاح بعد طول الانغلاق،وكان هناك اصرار على توسيع فرص الالتحاق بالتعليم لكل راغب فيه .. وذللت اغلب الصعوبات والمتاعب التي في الطريق ، ولم يعد يرفض اي تلميذ يرغب في التعلم .. فقفز عدد التلاميذ من ١٤٠ الى ٢٠٥٣ في سنتين فقط .. وبعد انتهاء من مرحلة « **الكم** » بدأ التشديد على مرحلة « **الكيف** » وبدأ التعاقد مع معلمين ومعلمات عرب مؤهلين ، وشرع في اعداد منهج عماني يتحدث عن البيئة العمانية .. مع الاخذ بالاساليب التعليمية الحديثة ، مثل تصبير حيوانات واسماك المنطقة لدراستها (**الصورة اليمنى**) انه طموح كبير الى حياة افضل من ملء المدارس بالتلاميذ والتلميذات (**الصورتان اليمنى والسفلى**) ..









نزلت « خضرة » من الجبل الى صلالة لتستقر فيها مع اهلها ، فدخلت المدرسة المؤقتة حتى يبدأ العام الدراسي التالي ، ونراها هنا تتعلم تلاوة آيات من المصحف الكريم .

ولا علاج لكل هذه المشاكل الا بنشر التعليم على اوسع نطاق .. ولكن من يحل مشاكل التعليم نفسه ؟.. « من اين نأتي بالاساتذة ، واين المباني اللازمة لسكناهم ؟ ».

ان الازمة السكنية خانقة ، لانه لا توجد مبان صالحة للسكنى في المنطقة .. وعندما بدأت عملية التطوير تولت وزارة الدفاع مهمة البناء ، لخوف المقاولين الكبار من الانغلاق والاضطرابات ، ولتشجيعهم على دخول المنطقة عرضوا عليهم شروطا مغرية ، تتلخص في دفع جميع تكاليف البناء ، مع نسبة مئوية زائدة تحتسب لهم ..

لم يكن في المنطقة كلها نجار او سباك او كهربائي واحد ، فاضطرت الشركات الى جلب العمال من الهند والباكستان ودبي .. وبدأت المباني والطرقات الحديثة تظهر في صلالة ، وارتفع عدد شركات المقاولات العاملة في المنطقة الى خمس ، واحدة منها عربية لبنانية جلبت معها عددا محدودا جدا من العمال الفنيين العرب . وقال لنا احد مسئولي الشركة العربية : « ان المشكلة اقتصادية في المرتبة الاولى ، فالعامل الهندي والباكستاني ممكن جلبه بسرعة وبأقل التكاليف، بينما العامل العربي ، المتفوق عليهما فنيا ـ يجب ان تدفع له تذكرة سفر ثمنها ٢٠٠ ريال ، وتهيىء له السكن المناسب ، بينما العمال الآخرون يقبلون النوم جماعات تحت خيمة .. ».

اما العامل الظفاري العادي فلا يتقاضى اقل من ثلاثة ريالات يوميا (الهندي يتقاضى ريالين).. وقد نجحت عملية تدريبه في قيادة السيارات والشاحنات والتراكتورات ، واستطاع ان يأخذ مكان ٣٠٠ عامل هندي وباكستاني ، تركوا المنطقة بعد توفر اليد المحلية العاملة ..

التعليم يكتسح المشاكل

وانعكست ازمة البناء على التعليم في المنطقة ، شرحها لنا الاستاذ عبد القادر الغساني ، مشرف التعليم في ظفار ، بقوله : « كان عدد التلاميذ في كل المنطقة ١٤٠ تلميذا يتعلمون في مدرسة واحدة حتى نهاية عام ١٩٧٠ ، واليوم اصبح لدينا ٢٠٥٣ تلميذا وتلميذة .. ولم يكن ممكنا ان نستلم اول مدرسة في صلالة الا في سبتمبر عام ١٩٧٢ ، ومدرسة البنات استلمناها هذا العام فقط ، وهي تسع لاثنى عشر فصلا .

« ان متاعب البناء لم تقف عقبة أمامنا، فنحن لم نرفض أي طالب من ٦٥٨ طالبا تقدموا الينا في العام الماضي . ان ٥٥ مدرسا يقومون حاليا بتعليم الاطفال على فترتين صباحا ومساء ، حتى نستغل المباني على اوسع نطاق .

« وقبل افتتاح مدرسة البنات هذا العام كانت الفتيات يتعلمن في المنازل الخاصة الكبيرة تحت اشرافنا ، وقامت نساء صلالة المتعلمات بدور ايجابي رائع ، فتولين التدريس للفتيات في منازلهن » .

اما تأثير مشكلة البناء ، فيظهر جليا في مساكن الاساتذة لقد كان ابناء ظفار هم الذين يعلمون التلاميذ ، وفي عام ١٩٧٢ جاء لاول مرة ١٠ أساتذة عرب : خمسة من مصر وخمسة من الاردن ، وفي هذا العام ١٩٧٢

الى اسفل : شجر جوز الهند في ظفار على نوعين: قصير يعطي انتاجه بعد رابع سنة من غرسه ، وطويل يعطي انتاجه بعد سابع سنة ، ولا تؤتي الشجرة (ويسمونها النارجيل) ثمرتها المرجوة حتى تبلغ السابعة عشرة من عمرها .. وهي تعمر من ٨٠ الى ١٠٠ سنة . وثمرة جوز الهند يسمونها الكراية يقطفونها خضراء ويشربون حليبها المنعش اللذيذ ، ويأكلون لبها . ويسمونه « الفقيش » والصورة توضح عملية تقطيع الثمرة





ثلاثة وجوه لثلاثة رجال .. تركوا الجبل مع عائلتهم واستقروا في قرى الساحل .. ان حمل السلاح هو عنوان الرجولة عند أهل ظفار .. سواء كان سلاحا أبيض او مدفعا رشاشا !

ستاتي خمس عشرة معلمة عربية ، وقد وعد مكتب التنمية باعداد المساكن اللائقة لهم مع بداية العام الدراسي الحالي .

جامعاتنا ولغة العصافير ؟

ويتلقى الطلبة علومهم باللغة العربية الى جانب تعلمهم اللغة الانجليزية ، ولكنهم في حياتهم العادية يتحدثون باللغة الشحرية او الجبلية ، ويطلق عليها الاجانب اسم لغة العصافير والطيور ، فهي تتميز بنغم عذب، وبحرف يتوسط الثاء والشين.. وسمعناهم يتحدثون بها فخلناها العربية ، ولكن سرعان ما تبين لنا اننا لا نفهم شيئا !!

وهذا نص حديث شحري دار امامنا سجلناه بحرفيته : لكن سوشاشيت غرامكو حيا الله ابو سعود طايف عادوا يتسبرق اوربيتر خلاص لا تصفيح دلحقت د الحمر »

ولا تسالنا عن المعنى ، وانما اليك معنى الأرقام فهي اسهل ، وترتيبها من ١ الى ١٠ كالآتي : طاد ، ثره ، سانيت ، اربعات ، خولش ، شيتيت ، سثغيت ، ثبنيت ، تسقيت، عثريت.

وهم يختصرون بعض الكلمات فكلمة خبور ؟ تاخذ مكان : ما هي اخبارك ؟ . ومه بدلا من الماء .. وكم يكون رائعا ومفيدا اذا قامت احدى جامعاتنا العربية بتسجيل واجراء دراسة مفصلة لهذه اللهجة ، قبل ان تنقرض مع الانفتاح الجديد على العالم ..

واللغة الشحرية هي لغة تخاطب فقط ، اذ انها لا تكتب ، ويتحدث الناس بها في كل ولاية ظفار ، وفي مرباط يتبادل الرجل والمرأة كلمات الغزل شعرا باللغة الشحرية قبل زواجهما ، ومرباط (سكانها ٢٠٠٠ نسمه) وهي المدينة الوحيدة في ظفار التي يضحك اهلها ويرقصون ويطربون للشعر ، وياكلون الصوبلح بنهم زائد ، وهي مادة هلامية يخرجونها من داخل اصداف كبيرة ، تظهر على شاطىء مرباط بكثرة عندما ينفتح البحر بعد الاعاصير ، يجففونها في الشمس، وياكلونها قطعا صغيرة كل يوم تقريبا .

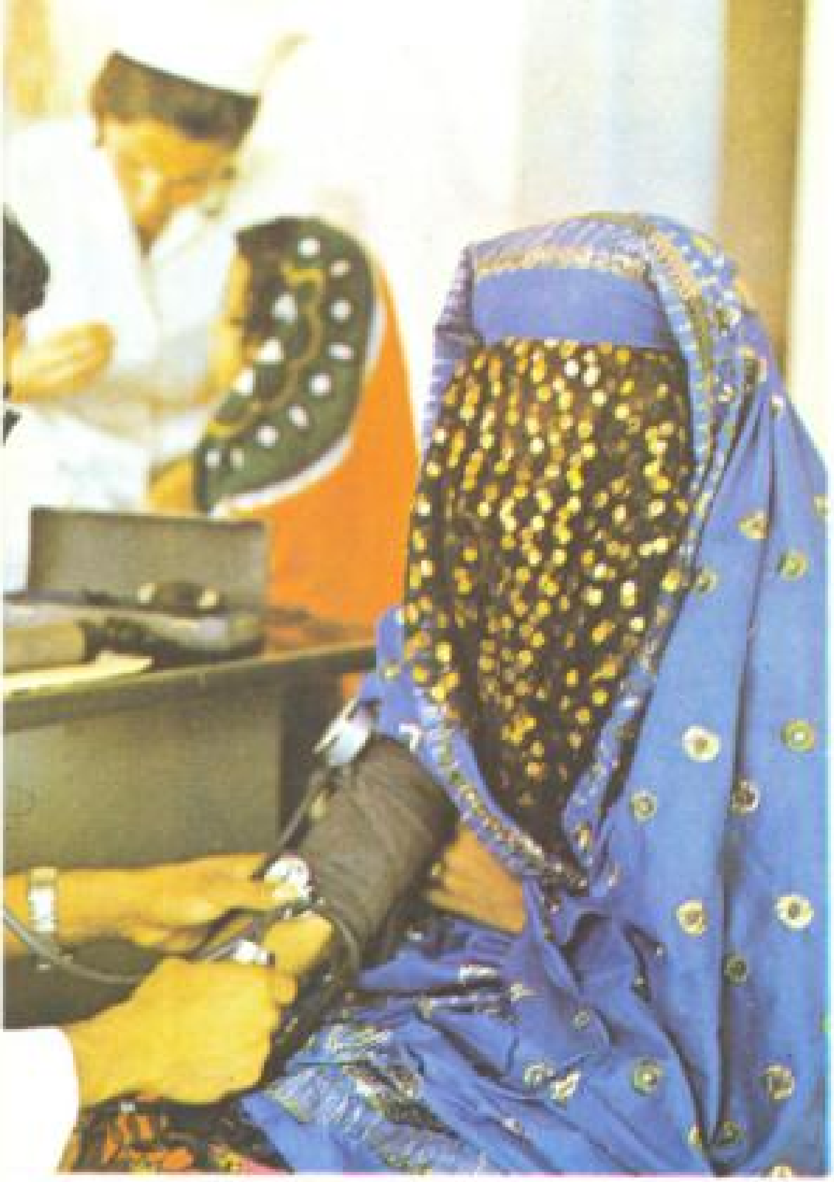
وفي مرباط نمنا في حصن الشيخ عامر بن علي العامري نائب الوالي ، وفي الصباح جلسنا نتناول الفطائر المشبعة بالسمن والعسل مع الشاي والحليب ، مبدين اعجابنا بالنسمات اللطيفة التي هبت في الليل ، فقال الشيخ عامر : « لو عشت معنا شهرا ، فلن ترجع ابدا الى مسقط راسك ، وستذكر قول الشاعر :

كأن بمائها نفثات سحر
تنسيك الآلى وتبوك طفلا

كل شيء رائع هنا .. هواء مرباط اللطيف يجعلك تستيقظ نشيطا كالظبي .. انكما أول صحفيين جاءا الينا ، وهذا حدث له اهميته لنا فوصولكما دليل على بداية انفتاحنا على العالم، وبداية خير كثير للمنطقة !!

يخاف من الحضارة !

قلنا للشيخ عامر : « مرباط تعيش في عزلة تامة

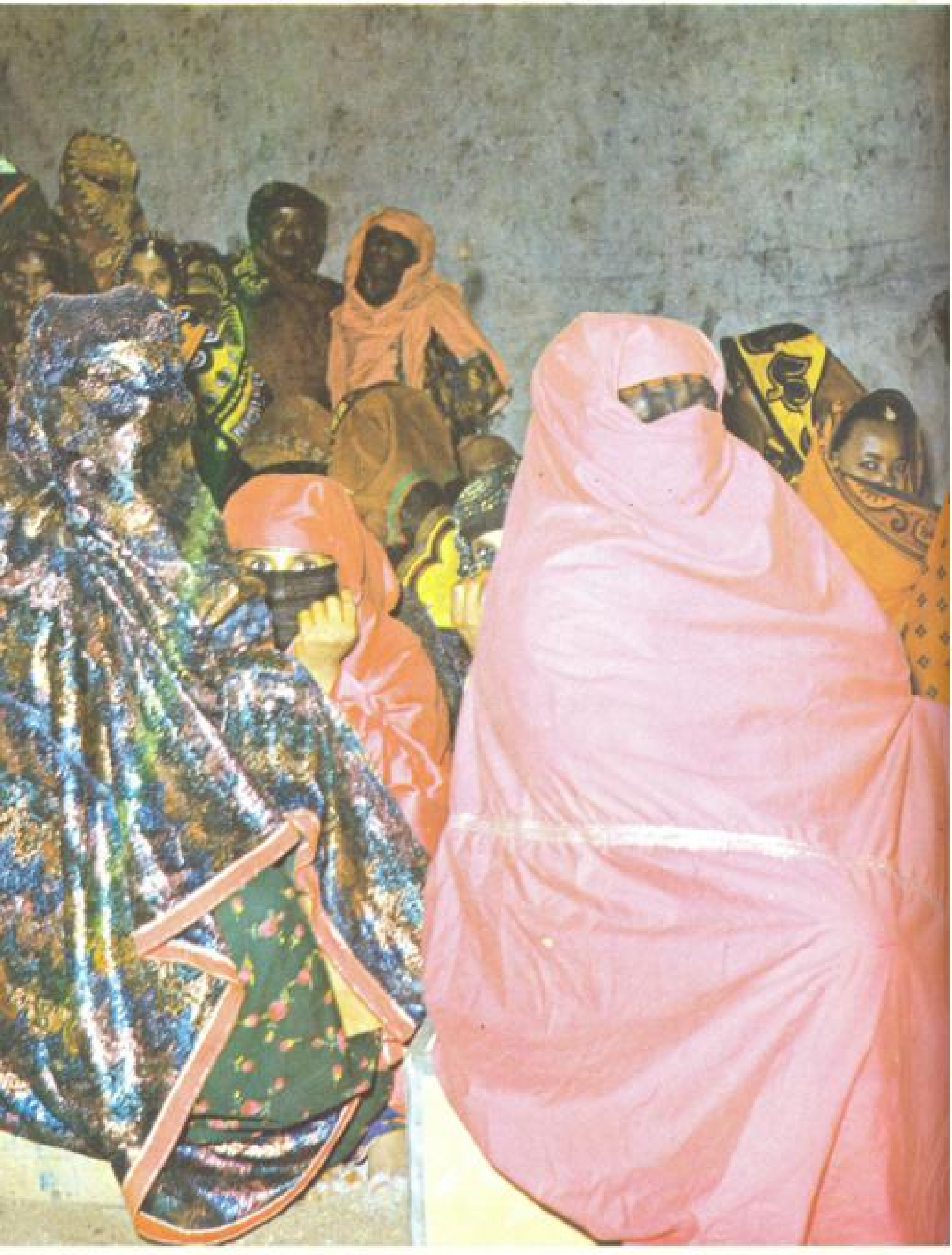


الى اليسار : ثلاثة اطباء عمانيين يقومون بعمل انساني مشرف في مستشفى صلاله .. لقد بدات المرأة لاول مرة تعالج نفسها عند الطبيب ، وكانت في السابق تذبل وتموت بامراضها دون أن يعالجها احد .. وفي الصورة الدكتور العماني «بزدوى محمد» يعالج احدى المريضات المحجبات ..



الى اليمين : الفتاة الظفارية الحديثة .. بدات تتعلم في مدارس نظامية في هذا العام (١٩٧٣) ان الامال كلها معقودة على فتيات الجيل الجديد للنهوض بمستوى المرأة المتدهور في ظفار ..

الى اسفل : الالوان الصارخة الحامية هي الالوان المفضلة لدى المرأة الظفارية .. فتراها تغطي جسمها بقطعة هائلة من القماش الملون .. وغالبية النساء يضعن الحجاب الكثيف على الوجه ، ولا يخرجن من منازلهن الا مرة او مرتين في الاسبوع .. وتشكو المرأة من الفراغ الكبير الذي تعيش فيه .. وتتزوج المرأة عندما تبلغ ١٥ عاما .. وغالبية الرجال ، وخاصة في مرباط ، يتزوجون اربع نساء مرة واحدة !!



لا طريق ، ولا سيارات ، فما رأيك في الحضارة الحديثة التي بدأت تدق ابوابكم ؟ »

فسكت الشيخ عامر ، ونظر الينا من تحت نظاراته الثقيلة قائلا : « أنا لم أسافر الى الخارج ابدا ، حياتي كلها قضيتها على وتيرة واحدة : ٦ شهورة في مرباط ، و ٦ شهور نصعد فيها الى الجبل عندما ينغلق البحر في الخريف.. والحضارة المصرية تخيفني ، لاننا سعداء بحياتنا ، ولا نعتقد ان احدا عاش عيشة طيبة مثلنا ، اني اخاف من شيء اشعر انه سيمس ديني ، وينقص ايماني .. ان التقدم الكهربائي والمالي ليس تقدما .. العادات المستمرة هي الأحسن ، والحضارة ما هي الا مرض اجتاح العالم .. ان الحضارة الحقيقية هي التي تبني ولا تهدم ، أما الحضارة المصرية الحالية فانها تجردني من معنى الانسانية وتجعل من الانسان حيوانا ، القوي يريد أن يأكل الصغير ... »

هذه لغته ، وهذا هو تفكيره .

العروس تهرب من العريس !

وانتقلنا بعد العشاء الى منزل الشيخ مسلم

ساعتان ونصف استغرقتها رحلتنا بالطائرة من مسقط الى صلالة .. وقد تم افتتاح خط طيران تجاري منتظم، ينطلق بين مسقط وصلالة مرتين في الاسبوع .. وما زال السفر الجوي يتم على نفقة الحكومة بالنسبة للفقراء والمرضى ..



ابن سعيد العمري لتناول الصبّوبلح «والفوالة» اى الفاكهة والقهوة ، وامتدت الجلسة الى ساعة متاخرة من الليل ، قال خلالها الحاضرون : ان ابن مرباط يموت وهو دائما عريس ، وقد جرت العادة في المدينة ان يتزوج الرجل باربع نساء ، والاستثناء بواحدة .. وللفتاة حق الاعتراض ، عن طريق امها ، على العريس الذي يختاره لها والدها ، ومن عادات الزواج في منطقة جادر ان العريس عندما يدخل على عروسه تجرى منه الى البادية ، فاذا امسكها كان الزواج ناجحا ، واذا فشل في اللحاق بها ، عادت ثاني يوم مع امها طالبة الطلاق والانفصال !!

عادات وتقاليد ، لو ذكرناها كلها ما تركنا مجالا لحديث آخر .

تاريخ « شوية مفقود » !

وعندما سالناهم عن تاريخهم القديم ، اجابونا بحياء : « التاريخ عندنا شوية مفقود .. لكن الاكيد ان شداد بن عاد هو المالك الوحيد لظفار » !!

وشداد هو من العرب البائدة ، والواقع ان تاريخ ظفار يشوبه بعض الاختلاط ، اذ توجد اربعة اماكن تحمل نفس الاسم ، حتى صنعاء اطلقوا عليها اسم ظفار .

وتعتبر ظفار مركز البخور واللبان العربي المر الذي كان يتهافت عليه العالم القديم بشراهة زائدة ...

وكتب هيرودوس يقول : « ان الثعابين المجنحة هي التي تحرس اشجار اللبان » .. وقال آخرون : « بل التنين الذي ينفث النار والدخان هو الذي يحرسها » .

والواقع اننا وقفنا امام شجرة اللبان في ظفار ، فلم نقف على اثر لثعبان أو تنين .. !!

لقد ظل العالم القديم ، من فراعنة واغريق ورومان يعتقد ان العربية السعيدة Arabia Felix اى اليمن ، ومعها الصومال ، كانتا مصدر هذا اللبان ، ولكن الواقع ان القوافل كانت تبدا رحلتها من ظفار محملة باللبان على الطريق الطويل الممتد عبر حضرموت واليمن حتى ميناء غزة ، ومنها كان يشحن اللبان الى اوروبا ، وكانت هناك طرق اخرى تمتد الى الخليج العربي والهند والشرق الاقصى .

كيف تدهور اللبان ؟

واستمر سوق اللبان العربي رائجا حتى عشر سنوات مضت .. وتعالوا نستمع سويا الى نهاية قصة شجرة اللبان العربي ، كما رواها لنا تاجر اللبان الظفارى مسلم العمرى ، قال :

« حياتنا كانت تعتمد على حجر اللبان المستخرج من ملايين الاشجار التي تنمو طبيعيا دون أن يزرعها أحد في جبالنا ، كنا تجارا في مرباط ، اما في ظفار فهم يزرعون ولا يتاجرون (يقصد بكلمة ظفار كل ما هو واقع قرب مرباط ، مع ان مرباط نفسها هي جزء من ظفار ! .. وكل قبيلة أو عائلة تختص بمجموعة من أشجار اللبان تستغلها لنفسها أو تؤجرها ، كما يحلو لها .. أما نحن فكنا نخرج ومعنا ۳۰۰ بعير (جمل) على الأقل ، تسير مدة ثلاثة ايام حتى نصل الى موقع اشجارنا عند النجد خلف الجبل .. وبمجرد وصولنا نبدأ بجرح كل شجرة بالسكاكين ، فتنزف حليبا أبيض ، نتركه عشرة أيام حتى يجف ويتحول لونه الى أصفر ، فنضربه مرة ثانية باسياخ من حديد ، فيتساقط على الأرض ونجمعه .

« هكذا كنا نجمع كميات هائلة من اللبان .. وأحيانا أخرى كنت الأجر اشجارى ، واتقاضى ۳۰ رطلا من اللبان ، عن كل عامل يعمل في اشجارى .

« واللبان لا يشتهي الماء عندما نجرح اشجاره ، لهذا كنا نصعد الجبل ايام الجفاف في الشتاء ، وننزل بعدها الى مرباط مع حملنا الثمين .. وتكون الخشاب (اى المراكب الخشبية) الهندية في انتظارنا ، تأخذ منا اللبان ، وتعطينا الملابس والاكل ، وعندما استقلت الهند بدأوا يعطوننا الروبيات بدلا من الملابس ، لم تشددوا في اجراءاتهم فاتجهنا لبيع محصولنا الى تجار عدن .. واستقلت عدن ، وترك تجار اللبان البلاد ، وزاد الطينة بلة وقوع الاضطرابات في الجبال ، فلم يعد أحد يهتم بجرح الأشجار ، او جمع اللبان بكميات » .

اللبان يسطر التاريخ

ولم تكن اشجار اللبان مصدرا للخير دائما ، بل كانت سببا لغزوات متواصلة تعرضت لها ظفار على مر التاريخ ، من الشرق والغرب .. فقد جاءتها قوات الملك الساساني انو شروان فاحتلتها عام ٥٧٠م ، وفي بداية التاريخ الاسلامي كانت عائلة المنجاوة تدير اقليم ظفار في مرباط ، وفي منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، قتل امير هرمز اهل ظفار وسباهم ، ثم جاءها ملوك بنى رسول من اليمن .. وزارها ماركو بولو عام ١٢٨٥ وبعده بنصف قرن مر بها ابن بطوطة ، وفي القرن السادس عشر دمرها البرتغاليون .. واحتلها سيف الاسلام الغساني اليمني في القرن السادس عشر .. وفي عام ١٨٢٩ احتلها حاكم مسقط سعيد بن سلطان ، وفي عام ١٨٧٩ ضمها نجله السلطان تركي بن سعيد الى سلطنة مسقط نهائيا ، ولم تنجح الاضطرابات المتوالية ، ولا اطماع الجيران في تغيير الوضع .

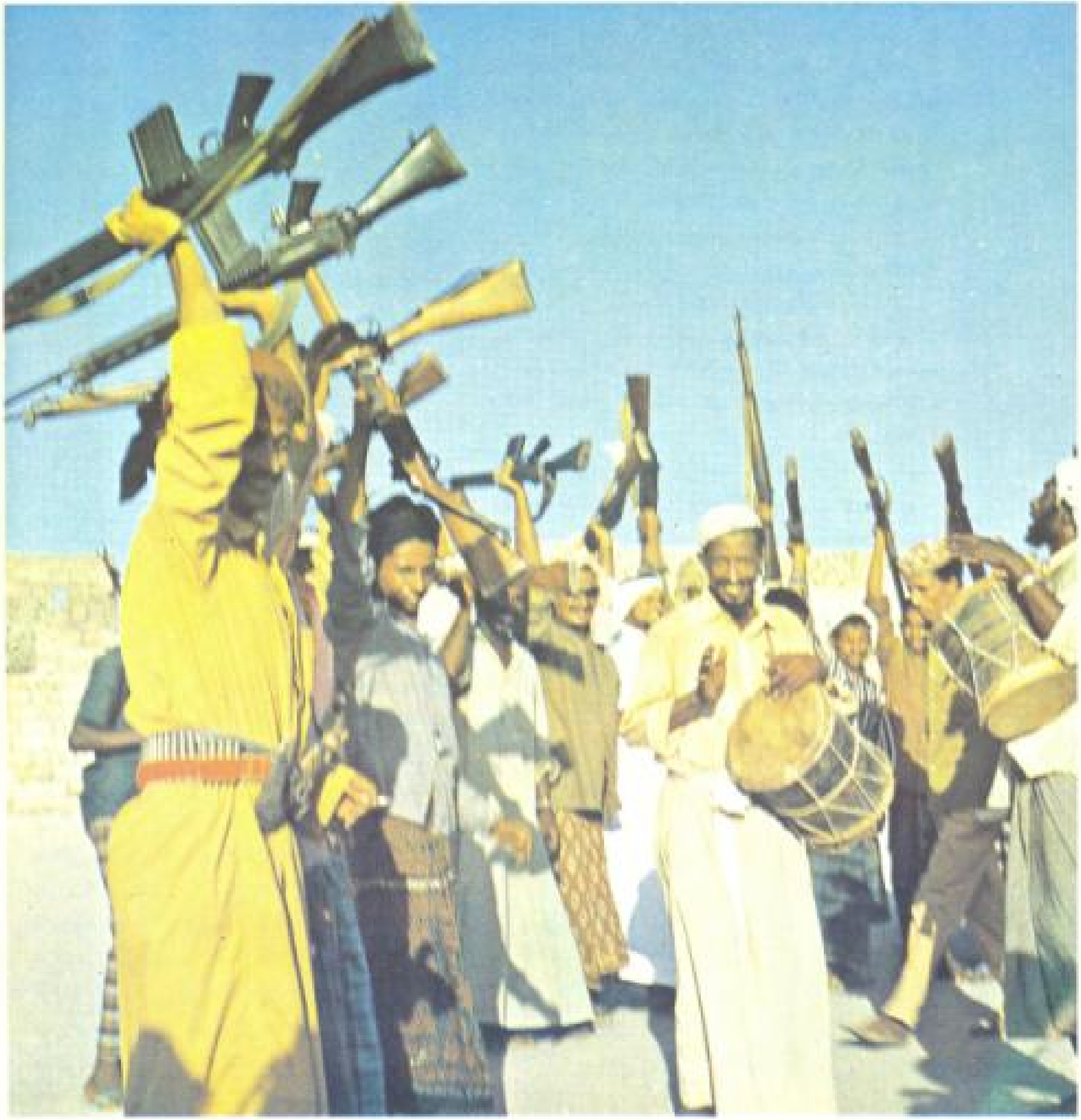
نصيب الأسد لظفار

وهكذا تعاقبت الغزوات على ظفار ، دون ان تبذل اى محاولة للاصلاح ، اما اليوم فاصبحت ظفار تستأثر بنصيب الأسد من الاهتمام ، لها ادارة خاصة ، ووال بدرجة وزير يتبع السلطان مباشرة هو الشيخ بريك بن حمود الغافرى ، ثم ستة نواب موزعون في مختلف قرى ظفار .



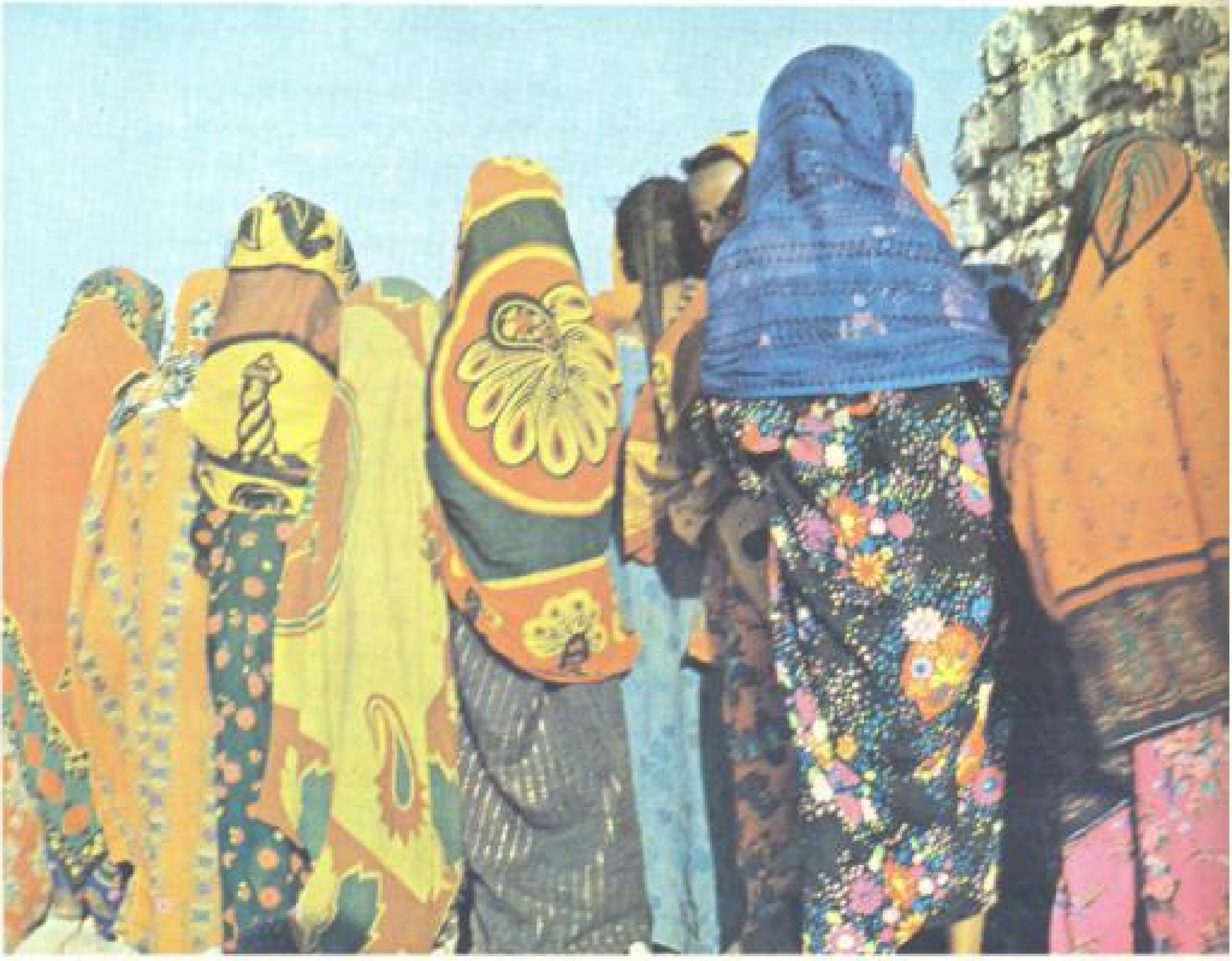
هنا ظفار .. بدأت الاذاعة بقوة كيلو واط واحد اصبحت الآن ١٠ كيلو واط ، تبث لفترة ٧ ساعات ، نصفها موسيقى ونرى هنا مديرها حماد الغافرى يذيع على الهواء .. ان الاغاني الظفارية تصادف اقبالا كبيرا من اهالي المنطقة ..

الى اليسار : اهل مرباط ، اهل طرب وغناء ، ما كدنا نسألهم عن رقصة شعبية حتى أجابونا بقرع الدفوف والطبول ، وتجمع اهل البلدة كلهم في ساحتها الرئيسية « ربدوت » واستمر الرقص والغناء من بعد الظهر الى ما بعد منتصف الليل .. وتجلس النساء الى جانب الرجال في الحلقة المحيطة بالراقصين ، يصفقون وينشدون .. بينما تكتفي بعض الفتيات بالتفرج ، دون الاشتراك في الرقص ، مرتديات الشال الملون الوارد من الباكستان والهند (**الصورة اليسرى الى اسفل ..**)



رقصة الحرب في ظفار .. انها رقصة الهَبْوت .. كان الرجال يرقصونها حاملين في أيديهم عصيا خيزرانية وبنادق قديمة ، يقذفونها في الهواء ويتلقفونها .. أما اليوم فقد استبدلوا بعصي الخيزران البنادق السريعة الطلقات ، والرشاشات الثقيلة التي لا يمكن قذفها في الهواء وتلقفها بسهولة !! وفي الساحة العامة كان الرجال يرقصون على قرع الطبول مرددين الالحان التي اخذت معاني سياسية .









ريسوت ... أول ميناء يقام على الساحل الطويل الممتد من مسقط حتى عدن .. ان هذا الميناء الذى تكلف ثلاثة ملايين ريال سعيدى ، والذى سيفتتح في نهاية ١٩٧٢ سيؤمن رسوا مباشرا بجوار اليابسة للسفن من حمولة ١٥٠٠ طن ..

ثلاثة ثيران فريزيان جاءوا بها الى ظفـ
رائعة ، اذ زاد وزن البقرة من ٥٠
ظفار الحيواني يرتكز على هذه الابقـ
بقرة .. تعيش في جبال ظفار وسيوا

وفي صلالة مجمع لدوائر الحكومة يضم فروعا مستقلة لكافة الوزارات والادارات ، وخاصة ادارة تنمية ظفار ، التي تنفق سنويا بين ٤ و ٥ ملايين ريال سعيدى .. ويجرى حاليا العمل في وضع اللمسات الاخيرة لمشروع السنوات الخمس في ظفار ، وسيخصص له نحو ١٢ مليونا ونصف مليون ريال سعيدى (مجموع دخل سلطنة عمان من النفط وغيره ٦٠ مليون ريال سعيدى ، نصفها مخصص للقوات المسلحة التي تحارب الثورة في ظفار) .

اصلاح ما افسده الدهر

ان الابن يحاول اليوم اصلاح ما افسده الدهر في ظفار ، مدفوعا بعوامل شتى ، فهو ظفارى من ام ظفارية ، فتراه يغدق على المنطقة بسخاء .. كهرباء ، وماء ، وتلفون ، واذاعة ، وطرقات ، وصحة وتعليم .. و .. و ..

لقد فتحت ظفار ابوابها واسعة امام رياح القرن العشرين ، وخصصت الحكومة طائرة خاصة ظلت تنقل الأهالي مجانا من مسقط الى صلالة ٤ مرات في الاسبوع ، حتى تم افتتاح خط طيران رسمي الى صلالة يسير منتظما مرتين في الاسبوع باجرة رمزية لا تتجاوز ٢٠ ريالا سعيديا .

ويسعى السلطان من ناحيته الى استقطاب كبار زوار السلطنة الى صلالة ، فتراه يجلس فيها ويستقبلهم كما حدث مع ولى عهد أبو ظبى ، ووزير خارجية الكويت ، حتى السفير الأمريكي قدم اوراق اعتماده في صلالة .

وينزل كبار الزوار في بيت الضيافة الحكومي، او في فندق صلالة الحديث المكيف الهواء ، الذى يضم ٢٤ سريرا ، ويتقاضى يوميا ١٢ ريالا سعيديا ، اجرة النوم مع الوجبات الثلاث .

اول ميناء بين مسقط وعدن

ويقوم زوار صلالة بجولات على مختلف المنشآت التي اقيمت في المنطقة .. يسيرون على طريق معبد يوصلهم الى ريسوت ، فيتشاهدون « روشة ريسوت » ، ومينائها الحديث (١٤ قدما





لتلقيح الابقار الضعاف،وكانت النتيجة
رطلا الى ٣٢٥ رطلا .. ان مستقبل
التي يقدرون اعدادها بنحو ٢٠ الف
مدللة من اصحابها ..

يتوارد ابناء جبال ظفار على مدينة صلالة في مختلف شهور السنة ، ومعهم اطفالهم .. وحتى يتعود الاطفال على جو الدراسة ، اقيمت لهم مدرسة مؤقتة تضم ١١٥ طفلا وطفلة، اذ انه من المستحيل ادخالهم بالمدارس الحكومية ، في الشهور الاخيرة من الدراسة النظامية .

عمق مياهه) وهو الاول من نوعه على طول الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية الممتد من مسقط حتى عدن ، وقد تكلف ثلاثة ملايين ريال سعيدي .

ريش الهدهد وكبد الضباع !

ثم سيزورون مستشفى صلالة ذا الستين سريرا ، ويتحدثون الى اطبائه السبعة ، الذين تردد عليهم في العام الماضي ٢٥,٠٠٠ الف مراجع ، واجروا ٦٠٠ عملية جراحية .. لقد ذكر ابن بطوطة ان الناس في ظفار مصابون بداء الفيل والفتاق ، اما اليوم فيقول الاطباء ان اكثر الامراض انتشارا هو السل في الجبل ، والملاريا والبلهارسيا وديدان الاسكارس في السهل .

ان وجود هذا المستشفى الكبير في صلالة ، جعلها قطب جذب ، فالعلاج الذي كان شائعا في صلالة ، وما زال شائعا في بقية مناطق ظفار ، هو كي المريض بالنار .. وحفر اسنانه المسوسة بالمسمار .. ومسح صدر المريض بدم الماعز او دم البقرة المذبوحة حديثا في ليلة قمرية .. والمجنون يحبسونه في حجرة لا تفتح ابدا .. وختان الفتيات يتم بالملح الحجري بعد ولادتهن مباشرة .. حتى ريش الهدهد ، وكبد الضباع يفيدان في علاج الشلل !!

الابقار تاكل السردين

وبعد زيارة المستشفى سيتجه الزوار لمشاهدة ثيران الفريزيان الضخمة ، التي لا يتناسب حجمها مع حجم الابقار الظفارية القصيرة القوية .. والمطلوب من هذه الثيران تحسين نسل الابقار المحلية وزيادة ادرارها من الحليب الذى انخفض الى اربع ليترات فقط يوميا .

وقصة تربية الابقار تبدو غريبة ، فقد تعود العرب على تربية الجمال ، واشتهرت ظفار في القرن السادس عشر بكونها مركز تجارة الخيل العربية الى الهند وافريقيا الشرقية ، اما اليوم فلم تشهد حصانا واحدا في المنطقة . لقد انصرف الناس الى تربية الابقار تاركين وراءهم الجمال

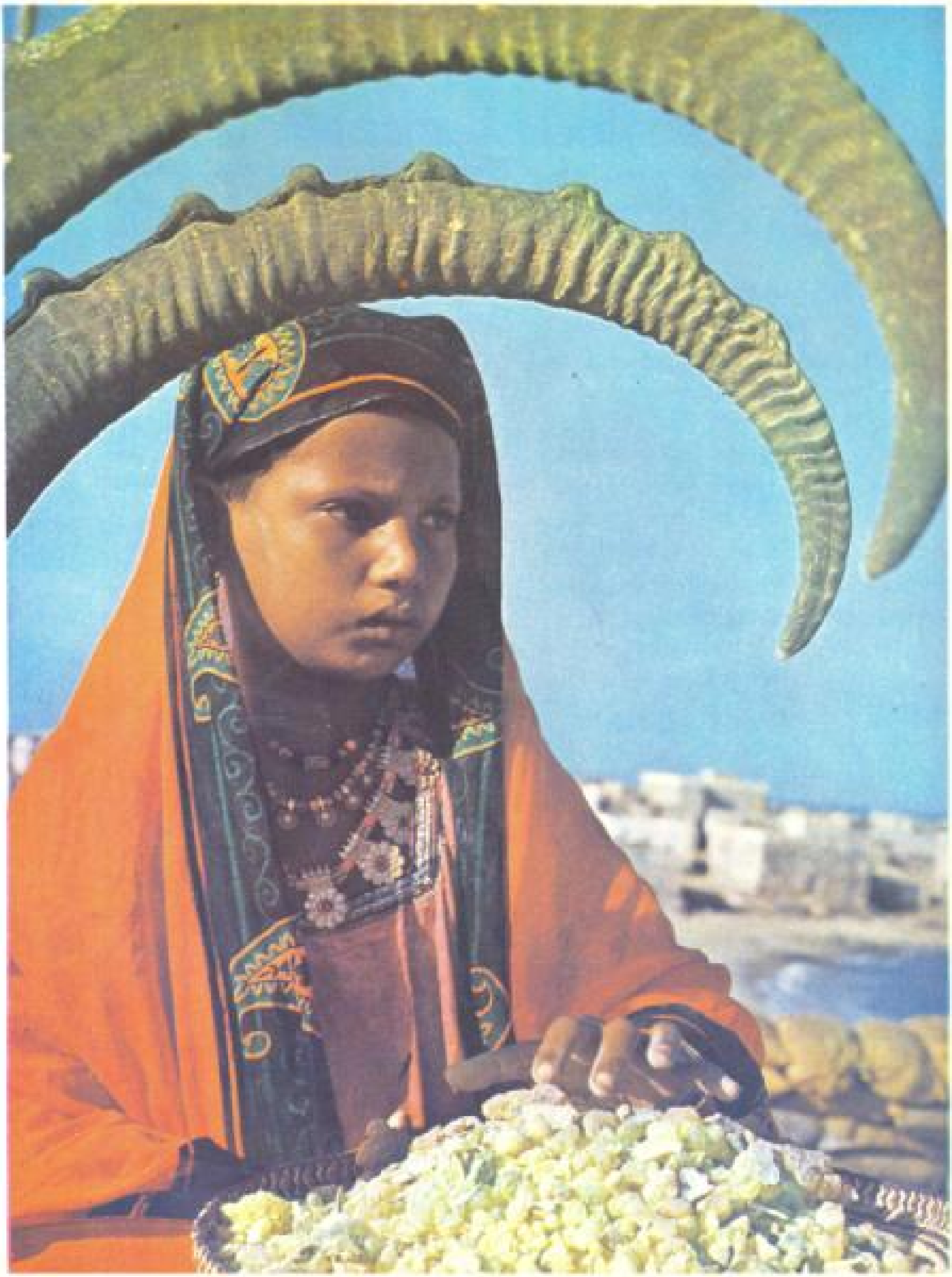




الى اليمين : كان الاقدمو
يعتقدون ان اللبان العربي الر
مصدره بلاد اليمن والصوما
.. ولكن الواقع أن ظفار م
مركز هذا اللبان ، والاشجا
التي تنمو في جبال ظفار
لا تعادلها اية اشجار من ناحي
وفرة المحصول .. لقد است
سوق اللبان العربي رائجا حت
عشر سنوات مضت .. وبعد
لم يعد احد يستورد اللبان ..

الى اليمين : كانت قوافل الجمال الكبيرة تنقل اللبان من ظفار الى اليمن ومنها شمالا الى موانىء البحر الابيض .. اما اليوم فلم يعد احد يجمع اللبان ، فالاضطرابات كلها تدور في مناطق اشجار اللبان .. واصبحت الجمال عاطلة عن العمل ، تسير دون هدف في الصحراء الواسعة ..

الى اسفل : الكمية الوحيدة من اللبان العربي المرى شهدناها في مرباط .. وهذه كريمة والى مرباط جالسة بجوار اللبان ، تحت ظلال قرني الوعل الوحشي الموجود في جبال ظفار ..







الرخاء سينتقل من الساحل الى الجبل .. وقد اقيمت فعلا ثلاثة مراكز بالجبل في : ثمريت ، ومقشن
الخالي ، ويضم كل مركز مسجدا ومدرسة ومستوصفاومتجرا ، ومنازل للموظفين ، مع مولد كهربائي و

والخيل وجمع اللبان !

كانوا يخرجون بابقارهم الى الجبل ، يعطونها للراعى ومعها كمية من « العومة » و « القاشع » اى سمك السردين المجفف باشعة الشمس ، تأكله الابقار فيزداد حليبها ، وبالتالي يزداد استخراج السمن الظفارى الشهير ، الذى كان عصب الاقتصاد في المنطقة ، ظلوا يصدرون منه ٤٠ الف جالون حتى عام ١٩٦٤ وبعدها توقف صعود الابقار الى الجبال المضطربة ، وقل صنع السمن ، وارتفع ثمن الجالون منه الى ٢٠ ريالا ، بالرغم من ان عدد الابقار ما زال يقدر بنحو ٢٠ الف بقرة ، الا ان طعامها الجاف على الساحل يختلف تماما عن رعيها للحشائش الخضراء في الجبل .

ابن امه ؟

ويدلل الظفاريون ابقارهم ، تماما مثلما يدلل اهل المهرة ابلهم ، يطلقون عليها الاسماء المحلية مثل : فرحات ، هالت ، فيتوك ، كيود .. اما الثيران فينسبونها الى امها ، وينادونها بن هالت ، بن فيتوك ، وما يكاد الثور او البقرة يسمع اسمه حتى يسارع بالحضور ملبيا نداء صاحبه .

والرجال فقط هم الذين يحلبون الابقار ، في ظفار ، اما النساء فيحلبن الماعز ، والاغنام قليلة نادرة ، وقال لنا الاهالي : الخروف لا يخلق هنا ، ولا تكاد توجد اسرة في ظفار الا وتملك حيوانا .. وكان الحليب يوزع مجانا على من يشاء ، اما اليوم فاصبح يوزع على المنازل يوميا، مقابل ريال واحد للكوب شهريا .

مطلوب نصف مليون شجرة نارجيل

وتتجمع الابقار تحت اشجار جوز الهند ، ويسمونها « النارجيل » محليا .. وهو لفظ فارسي يعني جوز الهند ، ان ظفار هي المنطقة الوحيدة في شبه الجزيرة العربية التي تنمو فيها هذه الاشجار وهي لهم بمثابة « شجرة العمر » يأكلون ثمارها ، ويشربون حليبها ، ويصنعون الحبال من اليافها ، ومن جذوعها يستخرجون اخشاب البناء ، تماما مثل النخيل الذى لا ينمو في ظفار بسبب رداءة الطقس .

ويقدرون عدد اشجار جوز الهند في ظفار بنحو ٨٠ الف شجرة تنمو في المناطق المحيطة بصلالة ، وكان العدد اكثر من هذا بكثير ، ولكن عملية تقطيعه كانت تتم بدون حساب ، مما حدا بوالى ظفار الى اصدار قانون بمنع قطع اشجار النارجيل او جوز الهند .

وارسلت الحكومة خبيرها الزراعي من صحار الى صلالة ، فبدأ برنامجا جريئا سيزيد بموجبه عدد اشجار جوز الهند الى نصف مليون شجرة ، حتى يمكن استخراج الزيت منه بكميات تجارية.

الزراعة لاكل الحيوان !

ان مستقبل ظفار يعتمد حاليا على الزراعة ،





وثاليم ، كما سيقام مركز في حيروت .. انها مراكز مخصصة للبدو من سكان النجد عند أطراف الربع
ارتوازية أو نبع طبيعي ، والصور الاربع العليا التقطناها لاوجه الحياة الجديدة في مركز منضي .

اما المعادن التي في الجبال فما زالت في علم الغيب ، او من الاسرار التي لم يكشف النقاب عنها بعد ، وساحل ظفار صالح في اغلب اجزائه للزراعة ، امطاره قليلة ، لكن تعوضها رطوبة الجو المستمرة من يونيو الى سبتمبر ، ومن المؤسف جداً انه نتيجة للاضطرابات ، طمرت ستة افلاج ضخمة (عيون ماء) كانت تمد المنطقة يوميا باكثر من ٦٠ الف متر مكعب من الماء ، واستعيض عنها بنحو ٢٥٠ بئرا ارتوازية تروى ٢٢٥٠ فدانا فقط ، أى ٥٪ فقط من مساحة الاراضي الصالحة للزراعة على الساحل ومجموعها ٥٠ الف فدان .

وتجدر الاشارة الى ان ٩٠٪ من الانتاج الزراعي هو علف للحيوان .. وهناك مشاريع كثيرة لتطوير زراعة البطاطا الحلوة ، ويسمونها « القندال »، وهي تنمو بنجاح مذهل هنا ، الى جانب الذرة والتمباك وقصب السكر ، واشجار بذور الزيت من خروع وكتان وخردل وفول سوداني .

الطيران فوق الجبل

ان ظفار ليست على الساحل فقط ، وانما الجبل وما وراء الجبل ، حيث اقيمت اربعة تجمعات سكانية في المناطق النائية .. وكان لا بد ان ننتقل لنرى واحدة من هذه القرى التي اقاموها على النجد بين رمال الربع الخالي والجبل.

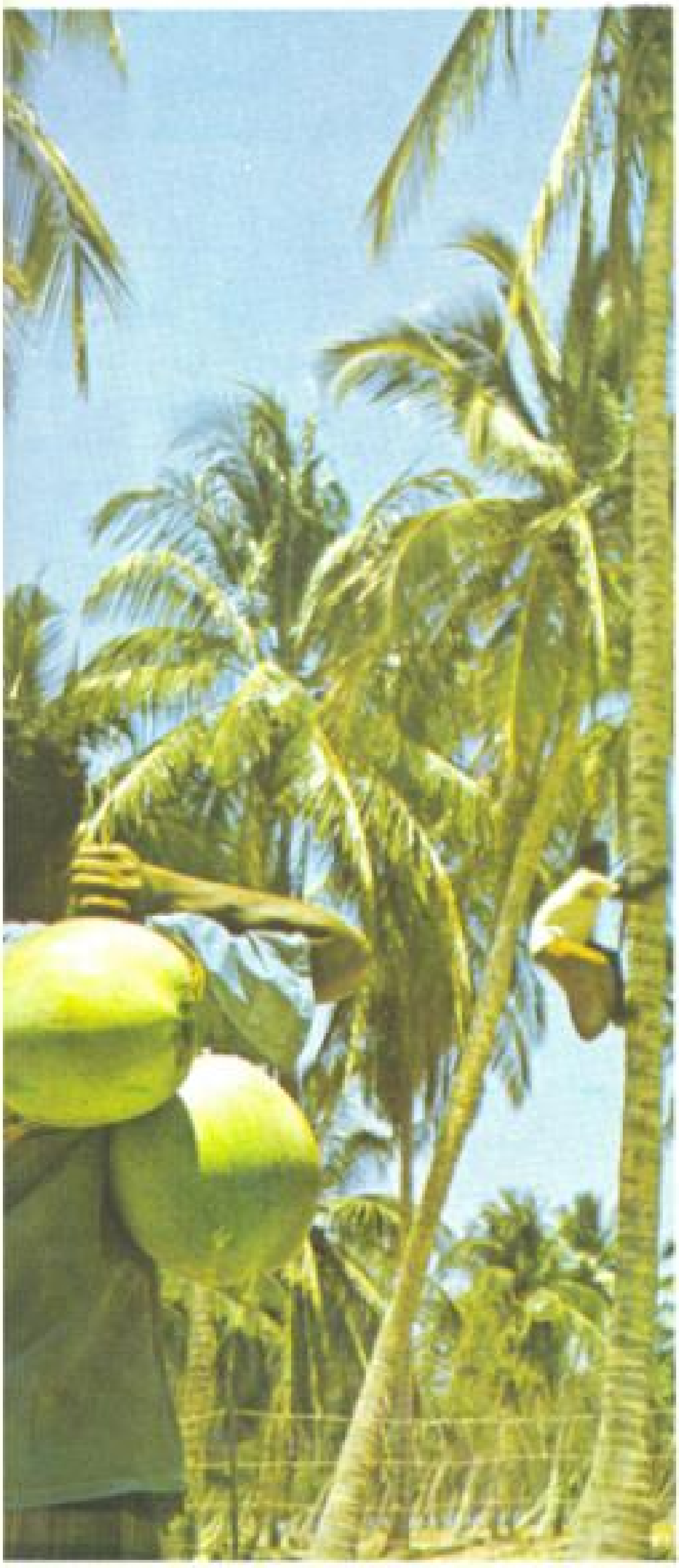
الطائرة تحلق بنا فوق جبال ظفار ، الجبال شبه جرداء فنحن في موسم الجفاف ، انها ليست جبالا مسننة الاطراف ، وانما قمم واسعة عليها سهول كبيرة خصبة ، تصلح تماما للزراعة ، الوديان تحيط بها من كل جانب ، الانسان غائب لا اثر له تقريبا في الجبال ، الطبيعة تتولى زراعة الجبل نيابة عنه .

الطائرة تتبع الجبال في انحدارها البطيء نحو الشمال، انه نجد ظفار، هنا تبدأ المعركة بين الجبل ورمال الربع الخالي ، الارض جافة قاسية ، وكان صخور الجبل قد تشققت من شدة الحرارة فتحولت الى الوف الوديان الصغيرة المنطلقة الى كل اتجاه ، قبل انتهائها من رحلة الضياع تحت رمال الربع الخالي .

ثلج فوق الرمال الحارقة

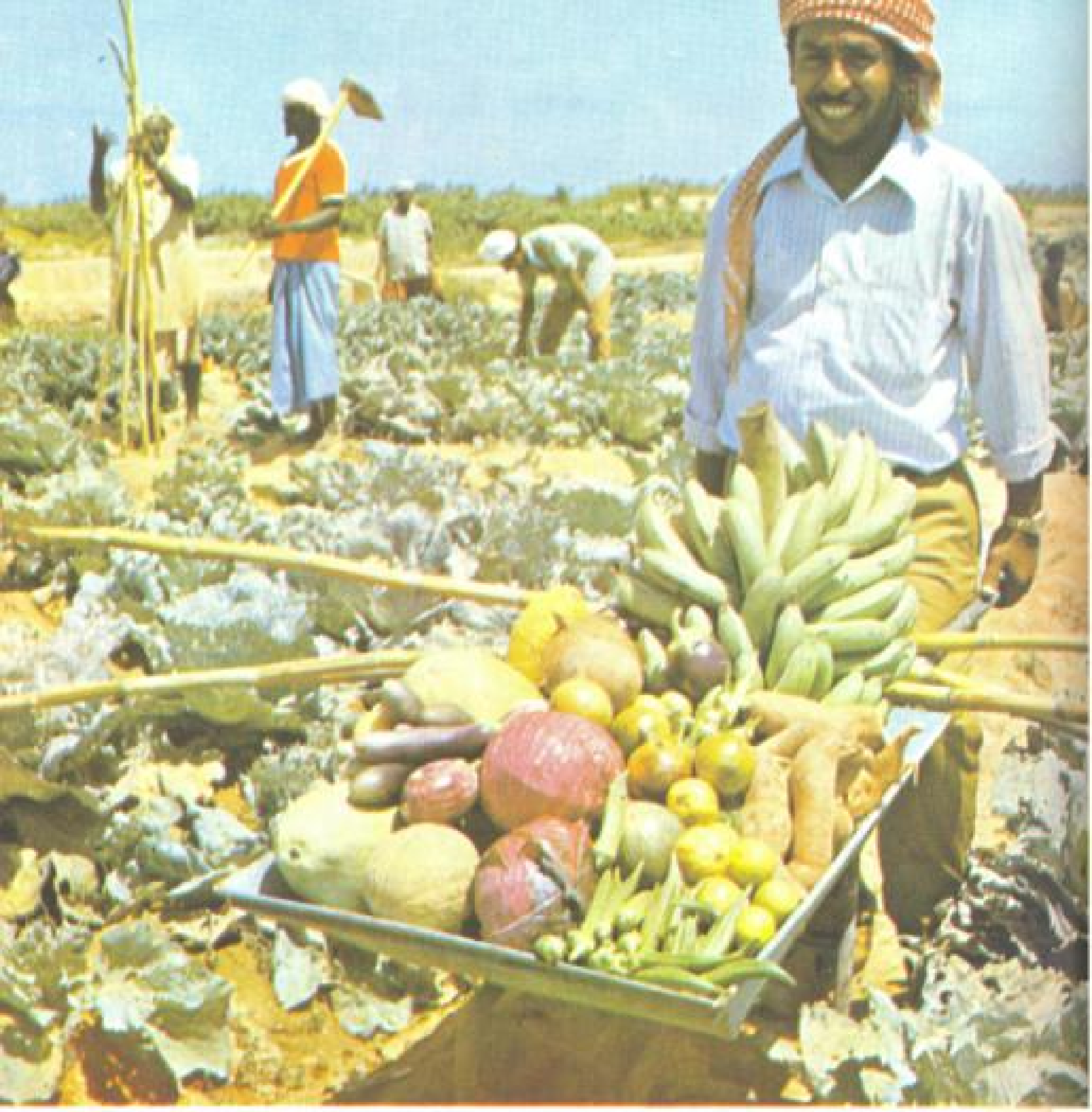
وحطت بنا الطائرة العمودية على الارض ،ونزلنا الى « منضي » انها واحدة من التجمعات التي اقيمت في « نجد ظفار » لخدمة البدو ، الصورة هنا تختلف تماما عن صلالة ، البدو والبدويات مع جمالهم جاءوا ليتعالجوا من التراخوما والسل في اول مستوصف ينشأ في المنطقة ، وجاء معهم اولادهم ليتعلموا في اول مدرسة اقيمت فوق النجد الحارق .. ولاول مرة كذلك دخل موتور كهربائي كبير الى المنطقة ، وجاءت الثلاجات الكبيرة تصنع الثلج تحت درجة حرارة تصل الى ٥٠ درجة مئوية في الظل ، وكم كان عذبا رؤية

الى اسفل : ٨٠ ألف شجرة جوز هند ، تنتج نحو مليوني ثمرة سنويا ، موجودة في ساحل ظفار .. ولكن المشكل الذي يواجه هذه الشجرة الطيبة هو أن الناس توقفوا عن تسلقها لجمع ثمارها ، التي تجف على الاشجار دون أن يستفيد منها احد .. ولن تعالج هذه الحالة لا عندما يفتح مصنع زيت جوز الهند ، فيرتفع ثمن الثمرة ، وعندئذ يتسارع الناس لتسلق الاشجار !!

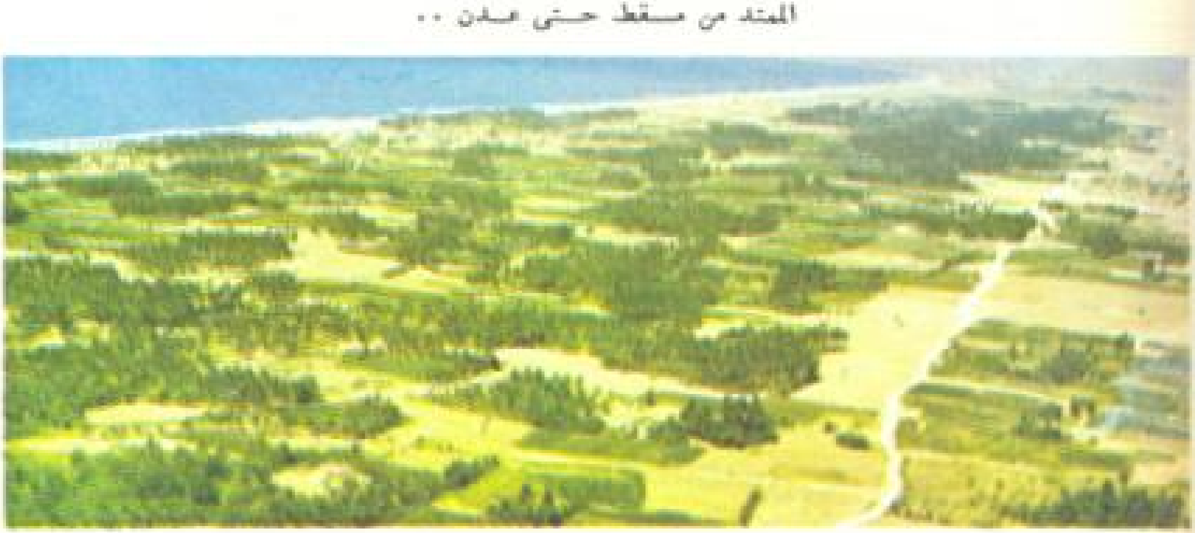




في لبنان يقولون : « يا ريتني حصان في بيت سرسق لآكل بندق وفستق » .. اما في ظفار فيقولون : « يا ريتني بقره لأندلل وآكل سمكة » .. نعم فالأبقار في ظفار تحظى برعاية ، كل واحدة لها سمها الخاص المعروفة به ، والبقرة لدى الحلوب تمني وجود عين حسود ، فيتم تبخيرها باللبان والبخور .. ويغذي الظفاري بقرته بالتمر والسردين المجفف (العومة) فهو يزيد ادرارها للحليب .. أما هو فيكتفي بشرب حليب البقر !. ومما يذكر أن ظفار تضم نحو ٢٠ الف راس من البقر .



في شهور الصيف والجفاف تتوقف الزراعة تقريبا في شمال عمان ، أما ظفار فتتميز بمناخها الصيفي الرطب ، الذي يسمح بنمو كل انواع المزروعات .. وكانت نتائج الزراعة التجريبية مذهلة **(أنظر الصورة العليا)** انه المزارع سعيد احمد الرواس يحمل انتاج الارض الطيبة بكل فخر واعتزاز .. وساحل ظفار المحيط بصلالة **(الصورة السفلى)** هو المنطقة الوحيدة الخضراء على الساحل الطويل الممتد من مسقط حتى عدن ..





الى اليمن : « العربي » تصفق لهذه المجموعة المتفانية من الاساتذة العمانيين والمصريين والفلسطينيين الذين يقومون بتعليم ابناء ظفار في مدارس صلالة .. وقد توسطهم الاستاذ عبدالقادر الغساني مشرف التعليم في ظفار .

المرطبات الباردة وماء الثلج الى جانب الزوابع الرملية العمودية الحارقة .

« ان منفي » والتجمعات الاربع الاخرى بدات تبدل اسلوب البدو التقليدي ، الذى لم يطرا عليه اى تبديل منذ بدء التاريخ ..

هجرة مع المشاكل

ان ابن الجبل لم يعد يكتفي بالنظر الى الاضواء الكهربائية المنبعثة من صلالة ، بل بدا يتجه اليها ومعه اسرته الكبيرة حاملين معهم عاداتهم وتقاليدهم وابقارهم ، وما ينتج عنها من مشاكل لا تعد ولا تحصى ، انهم يريدون التعليم والسكن والارض والدواء والعمل ، اعباء ثقيلة تضاف على كاهل الحكومة التى تتحمل مشاكل بقية المدن والمناطق العمانية ، مثل : نزوى ، والجبل الاخضر ، والرستاق ، وصحار ، وعبرى ، وصور، وغيرها. كلها في حاجة ماسة الى اصلاحات سريعة .

الاتكالية بدات تطل براسها

وعندما سالنا القادمين الجدد الى صلالة ، دون اى مهارات انسانية : « ماذا ستصنعون من أجل تأمين رزقكم ؟ »

اجابونا ببساطة : « الحكومة راح تسوى كل شيء ! »

اتكالية بدات تطل براسها بين اناس الذين يعيشون في فراغ كبير .. فراغ قلب حياتهم ، وقلب معها معاني الكرامة والعزة ، فتسمعهم يفاخرون : « نحن نعيش على الطبيعة ، ونحيا بعيدا عن تعقيدات المدنية » .. ناسين أو متناسين ما هم عليه من تخلف .

انهم الان ينتظرون تنفيذ المشاريع الجديدة ليختاروا الوظيفة التى تناسبهم ، فهم لا يريدون العمل في اى وظيفة خالية ... ان المشكلة لم تعد مقصورة على الوافدين الى صلالة فقط ، بل امتدت الى ابناء ظفار الذين يعيشون خارج الحدود (يقدر عدد العمانيين العاملين في دول الخليج العربى فقط بنحو ٥٠ الف عماني) أكثرهم يريد العودة الى بلده ، ولكنه لا يريد العودة ليعمل سائقا أو عاملا ، بل يشترط لعودته ان يشغل وظيفة بدرجة مقبولة .. وهذا اضعف الايمان ، في نظره !

الزمن لم يتوقف !

ان ظفار بلد بكر يحتاج الى كل أبنائه ليساعدوه في انطلاقته .. والذى يجرى حاليا هناك ليس عملية بناء هندسي ، بقدر ما هو عملية بناء انسان جديد .. انسان يشعر بانسانيته وباهميته فيبدأ العمل بتفكير جدى من أجل المجتمع الذى يعيش فيه ، لا من أجل نفسه فقط !

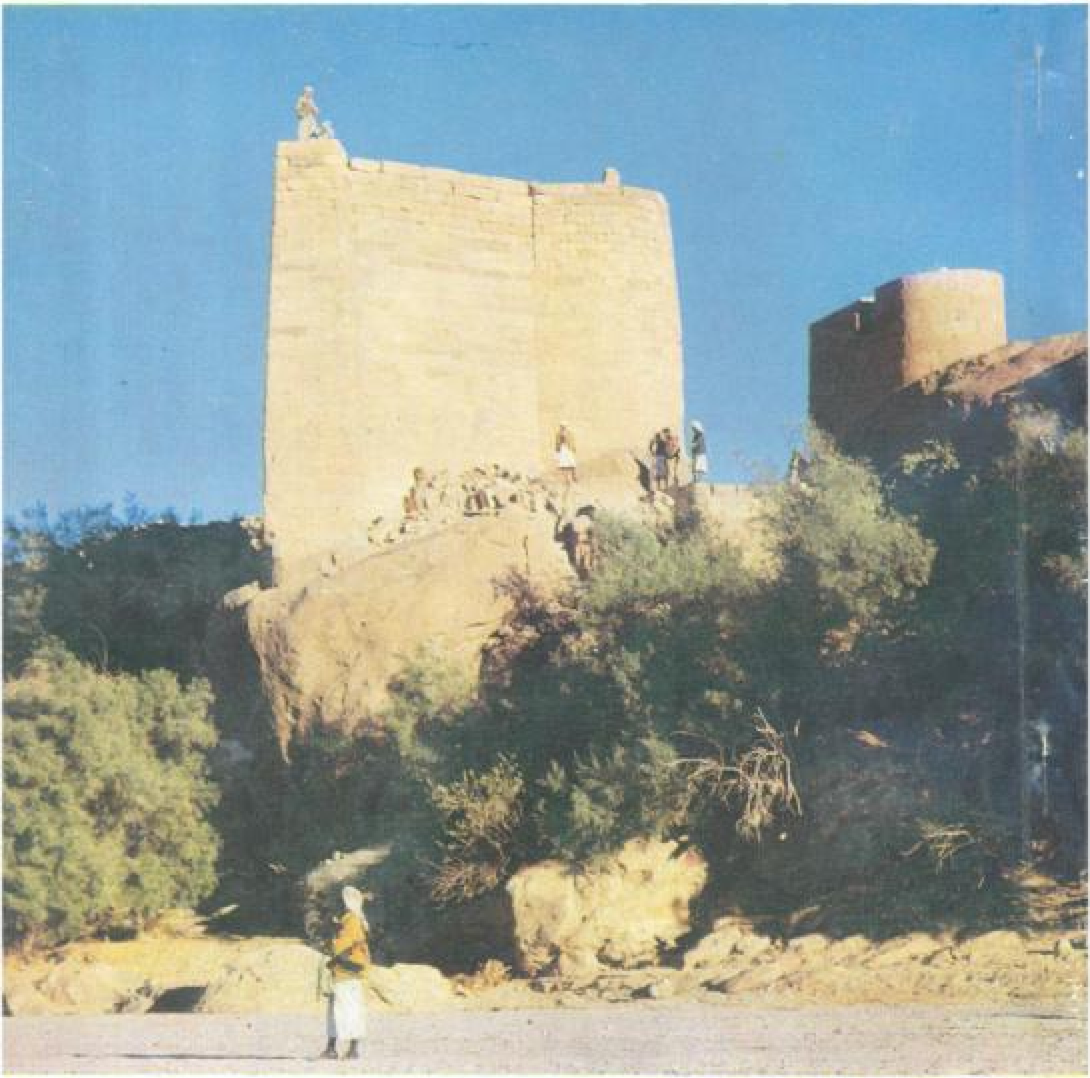
ان الزمن لم يتوقف في ظفار .. وانما تطوير الانسان هو الذى توقف .. فاهل مرباط ما زالوا يؤمنون بفوائد الصويلح والمسلة والحياة الهانئة .. واهل الساحل يزرعون طعام الابقار ويتسون طعام الانسان .. فالانسان عندهم ما يزال يغط في نومه .. انه في حاجة الى يد تمتد اليه لتهزه بعنف كى يستيقظ ويتململ وينطلق ..

ان الطريق الذى كان مقفلا وعرا ، أصبح اليوم مفتوحا ممهدا امام ابن ظفار ، ولكنه ما زال خاليا .. لانه من فرط تعود المواطنين على الانغلاق والظلم ، اصبحوا حذرين تجاه الانفتاح والانطلاق .. فتراهم يسيرون بكل تؤدة وروية .. سدد الله خطاهم ..

سليم زبال

العربي

العدد ١٨٤
صفر ١٣٩٤
مارس
(آذار) ١٩٧٤

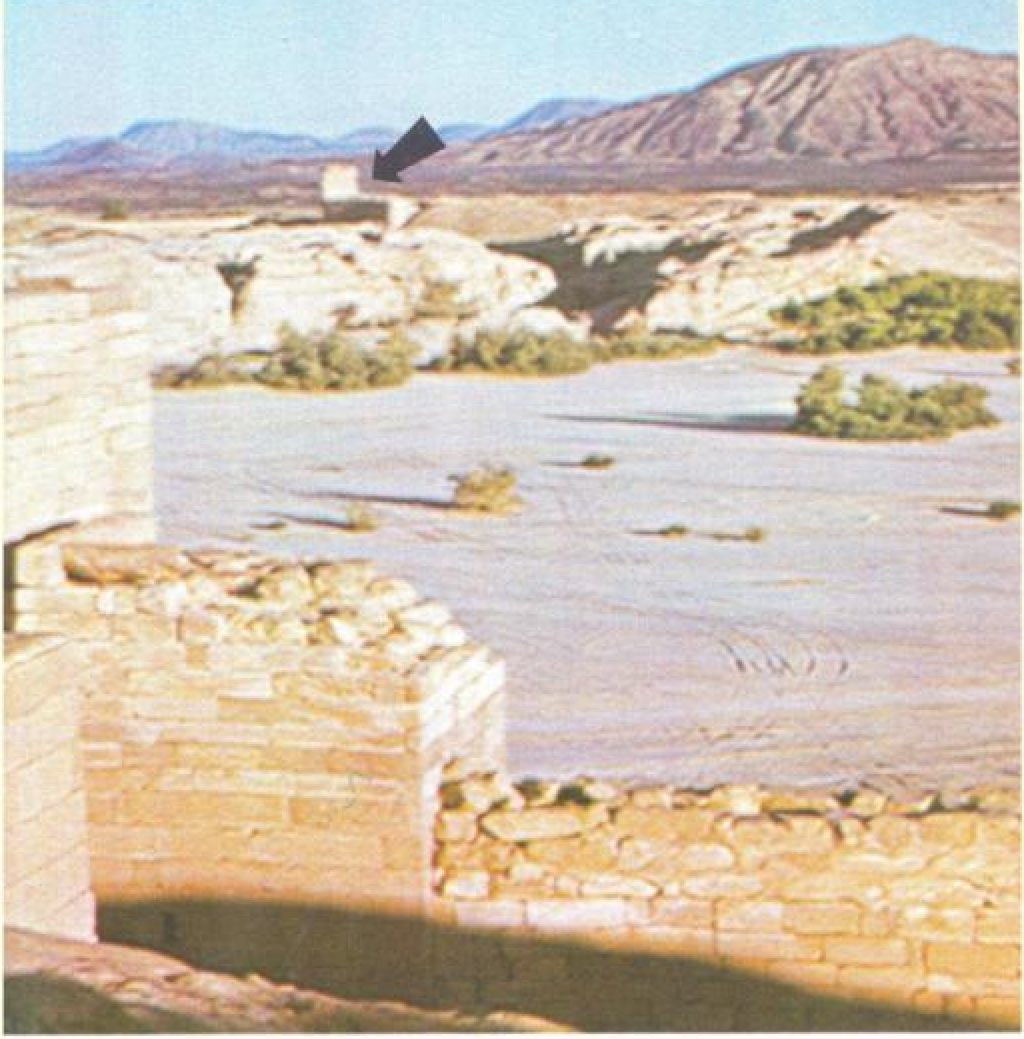


سد مأرب ..
بنته « سبأ » قبل ألفي عام ويريد العرب اعادة بنائه هذه الايام

جوائز ١٢٠٠ دينار سنوياً

الثمن

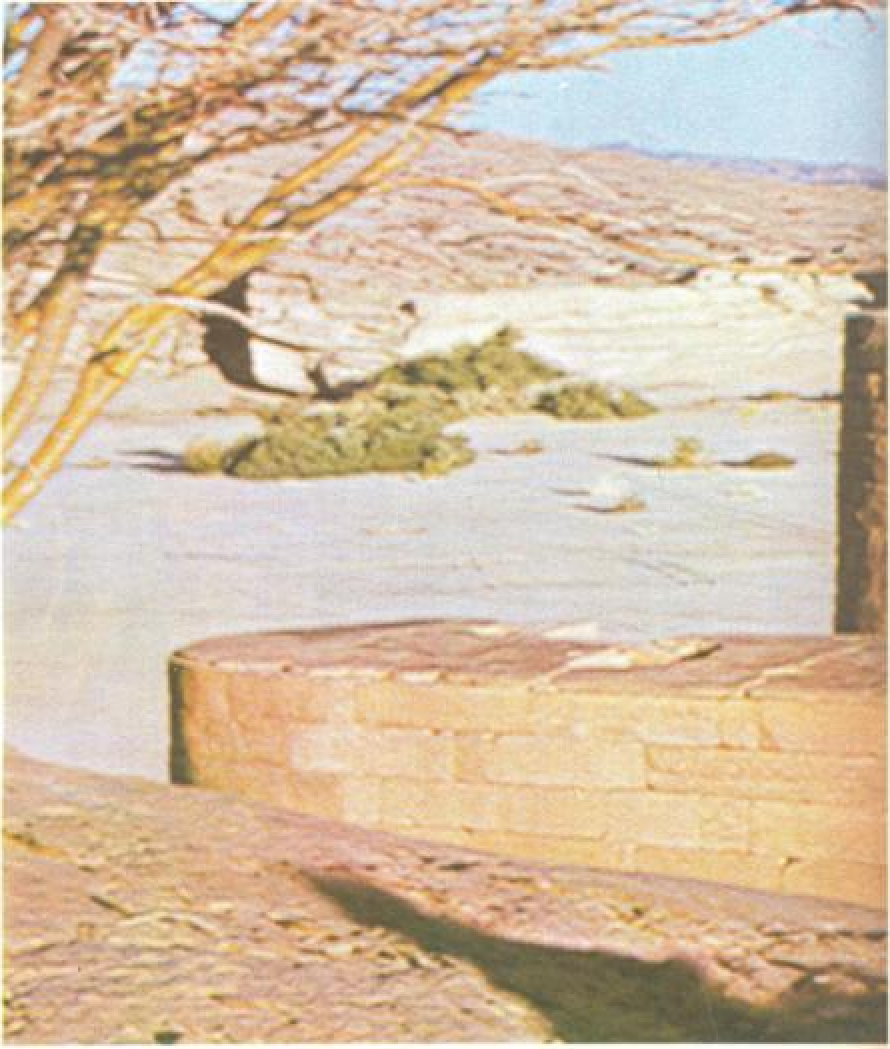
الكويت	١١٠ فلوس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان	١٠ قروش
الخليج العربي	٢ ريالات	لبنان	١٠٠ قرش	ليبيا	١٥ قرشا
السعودية	٢ ريال	الاردن	١٠٠ فلس	تونس	٢٠٠ مليم
البحرين	٢٠٠ فلس	سورية	١٠٠ قرش	الجزائر	٢ دينار
اليمن	٢٫٥ ريال	ج.م.ع.	١٠ قروش	المغرب	٢ درهم

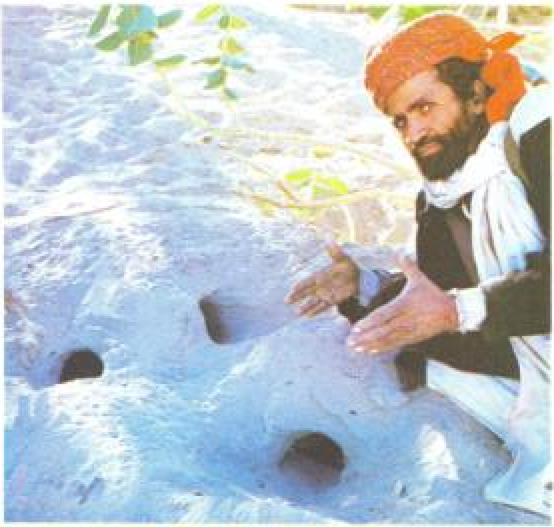


اعرف وطنك ايها العربي

سد مأرب

جرف "سيل العرم" واليوم يريد العرب إعادة بنائه، فالذى من ورا





استطلاع
سلیم زیال
تصویر
اوسکار متری

زلک خیر کشیر.

■ كان رجال الفضاء ينطلقون بين الكواكب والنجوم بحثا عن عالم الغد .. أما نحن فكانت رحلتنا عكسية .. كنا نبحث عن عالم الامس ! عالم سبأ وبلقيس ، الذى اندثر منذ خمسة عشر قرنا مضت ! ..

ان عالم سبأ ، هو جزء من ارض اليمن .. انه عالم مجهول تماما . لقد حرص بعض المؤرخين العرب على اظهار صورة العربي ، الذى عاش قبل الاسلام ، بصورة الشخص الذى لم يعرف حضارة ، ولم يتذوق ثقافة ، بل عاش دائما في جهالة بدون أصالة .. مطلقين على عصره اسم : العصر الجاهلي ...

وكأنما ارادونا بهذا ان نطمس ونتجاهل شعوبا وحضارات عربية قدمت للانسانية فنونا وعلوما وثقافات ، وارست الكثير من الاسس التي قامت عليها حضاراتنا الحديثة ..

ان الاسلام الذى جاء بعد هذه الحضارات القديمة ما كان من الممكن ان تثبت بذوره في ارض كانت من الجدب بحيث يصفون .. ان الذى جعل الاسلام يستقر ويثبت ، وينمو ، وينتشر في تلك الارجاء ، انما كان بسبب ما كان فيها من ثقافة ، وما كان من حضارة ، وما كان من فهم ..

قال رسول الله (ص) : « خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام اذا فقهوا .. » .

هذا ما صنعناه بآثارنا

ان العرب الاقدمين تركوا لنا آثارا كثيرة في شتى ارجاء الجزيرة العربية تنطق بما كان لهؤلاء الاقوام من شأن كبير غير مبخوس ، لو أنها بقيت سليمة ..

ولو ان العرب الأحدثين اهتموا بها وقاموا فدرسوها واستنطقوها ، لتحدثت لهم عن ماضي العرب بالشيء الكثير .. ولكن ما صنعه العرب بهذه الاثار شيء لايحمد ..

الكثير منها هدمناه ، قلاعا وقصورا .. وانتزعنا منها الاحجار ، واقتلعنا منها المرمر والرخام لتبنى منها بيوتنا .. اما الذى خف حمله من تلك الاثار ، فقد بعناه لعلماء أوربا ، وهواة اقتناء الاثار بابخس الاثمان ..

وقام هؤلاء العلماء بدرس آثارنا ، والكشف عن ماضينا ، واستجلاء ما يهم من امسنا هذا البعيد ، واخرجوا لنا نتيجة ذلك ، دراسات حول التاريخ العلمي الصحيح للحضارات العربية القديمة ، دون زيف او تهويل ..

ان علماء الغرب يعتزون ــ يا أخي ــ بآثارنا وحضاراتنا العربية .. ويضعونها في صدر متاحفهم في لندن وفينا وباريس وكوبنهاجن واستنبول وواشنطون وغيرها ..

انهم يعلمون الكثير عن قتبان ، ومعين ، وحمير واوسان وسمعى وسبأ .. اسماء حضارات عربية مجهولة تماما لدينا ، فيما عدا سبأ ، التي ورد ذكرها مرتين في القرآن الكريم ، وعشرات المرات في القصص والروايات الخيالية التي نسبوها الى ملكة سبئية سموها « بلقيس » !

وحتى لانبدأ مقالنا من حيث يجب ان ينتهي ، تعالوا ننطلق معا في رحلتنا هذه الى مملكة سبأ خطوة بخطوة ، دون تزويق او تنميق ..

الى اسفل : كان « لصوص الآثار » يستعدون لنقل هذه اللوحات المزدانة بخط المسند، عندما فوجئوا بوصولنا .. فتركوها على الارض واختفوا .. وترى القاضي اسماعيل الاكوع يحاول قراءة ما اشتملت عليه .





توضح هذه الخريطة الطريق الذي سلكته بعثة « العربي » من صنعاء حتى مأرب .

بعد خمس سنوات من الانتظار

منذ خمس سنوات مضت ، ونحن نحاول الوصول الى مدينة مارب ، عاصمة مملكة سبا .. وفي كل مرة كان المسئولون في صنعاء ، عاصمة اليمن ، يقولون لنا : « انتظروا قليلا ، فالطريق مازال وعرا غير مأمون العواقب .. »

وفي زيارتنا الاخيرة لليمن ، اتجهنا الى رئيس الوزراء القاضي عبد الله الحجرى ، نسأله التصريح لنا بالسفر على نفس الطريق القديم الذي كانت تسير عليه قوافل الجمال القادمة من مملكة سبا الى صنعاء ..

ووجدنا تجاوبا سريعا من القاضي الحجرى الذي قال لنا : « الامان مستتب حاليا في كافة أرجاء اليمن .. ويمكنكم الذهاب الى حيث تشاؤون .. وتسهيلا لمهمتكم سيرافقكم القاضي اسماعيل الاكوع رئيس الهيئة العامة لشئون الاثار ودور الكتب ، والنقيب علي الرويشان من كبار مشايخ خولان ، وعبد الكريم الخميسي سكرتيري الخاص لشئون الاعلام .. وساضع سيارتي الخاصة تحت تصرفكم ، علها تساعد في تسهيل المهمة .. » .

ولم نصدق اذاننا ، فهذه اول مرة نسمع فيها بالسفر الى بلاد سبا منذ ١٥ سنة !

البحث عن المتاعب

ومع اول خيوط شمس يوم الاربعاء ٢ ديسمبر (ك ١) ١٩٧٢ انطلقنا من صنعاء متجهين شرقا داخل سيارتين صحراويتين (لاندروفر) ، واحدة احتياطية للاخرى .

كان بامكاننا السفر الى مارب مباشرة بطائرة عمودية (هليكوبتر) ولكننا فضلنا السيارة لنتعرف على الارض واهلها .. كيف يعيشون وبماذا يفكرون؟ وهل حقيقة انهم من اهل الجن ، كما يقول المؤرخون العرب ؟

قد يكون المؤرخون اخطاوا ، فليس بين اهل الارض جن ، ولكن الذي رأيناه أعجب من «الجن» نفسه .. ! ان حال أهل سبا اسوا من حال سدهم الذي جرفته السيول واكلته الفئران ؟!!

الحرب غيرت طبيعة الانسان

كانت السيارة تنطلق بنا وسط سلسلة جبال على ارتفاع ٢٢٠٠متر فوق سطح البحر .. هذا جبل اللوز .. وهذا جبل كَنَن اكثر الجبال ارتفاعا وآثارا .. وهذه بلاد سنحان ، وتلك بلاد الروس .. وهذه هي « الجرداء » قرية صغيرة على مسيرة ربع ساعة من صنعاء كانت تتلاقى عندها حدود الجمهوريين والملكيين حتى عام ١٩٧٠. اما ما خلفها شرقا فاراض يمنية واسعة .. اراض حولتها الحرب الاهلية اليمنية الاخيرة ، التي استمرت ثماني سنوات ، الى خراب ودمار رهيبين ..

ولم تقتصر اثار الحرب على المباني فقط ، بل امتدت الى الانسان القبلي الطيب ، فغيرت من طبيعته .. وعزلته عن التيار الحضاري الذي بدا يدخل اليمن ، وجعلت ارضه منطقة مغلقة لايسمح للغريب او القريب بدخولها ..

واصبح المال هو الهدف وهو الوسيلة وهو الغاية .. ومن اقوالهم القديمة في هذا المعنى :

مانا قبيلي حد ، ولاحد دولــتي
مادولتي الا مــن مــلا كفي فروش

اي انا لا انتمي ، ولا احد يملكني ، ولكن ولائي لمن يملا كفي قروشا !!







الى اعلى : منذ ٢٥٠٠ سنة كانت قوافل السبئيين تنقل الى صنعاء ، الملح الجبلي من منطقة الملح الكبرى في صافر ، وتقع على مسافة مائة كيلومتر شرقي مأرب ، وهي منطقة تبدو فيها احتمالات وجود البترول بكميات كبيرة جدا .. اما اليوم فما زالت قوافل الجمال تتجه من وادي حباب الى صنعاء ، محملة بالحطب والأعشاب في مسيرة تستمر ستة أيام .. وعلى هذا الطريق نفسه كانت سيارتنا تسير لتتوقف كل بضعة كيلومترات عند « نقاط الحدود » التي وضعها رجال كل قبيلة على الطريق الممتد ١٨٨ كيلومترا .. ولم نأخذ معنا شيئا ، وانما كنا نعيش ونأكل كما يأكل أهل المنطقة **وفي الصورة اليسرى** « علي ومبارك » يقومان باعداد وجبة الغداء !



كانت سيارتنا تتقدم بقية السيارات ، ونحن نسير في أراضي بني جبر ، وفجأة سمعنا طلقات الرصاص تدوي في كل مكان ، فضغط سائق السيارة على البنزين بعنف لنخرج من دائرة الخطر .. وفي منطقة الوتدة توقفنا ، فلحقت بنا سيارة نزل منها رجال مسلحون قالوا لنا : « **لماذا لم تتوقفوا عند سماعكم الرصاص .. لقد كنا ندعوكم لتناول الطعام عند عبد المجيد احمد ختشي من رجال بني جبر ...** »
ان الكرم العربي ما زال موجودا عند الكثيرين من احفاد سبأ . أما قبائل عبيدة ، فقد تركونا ننام على الرمال الباردة ، تحت بوابة السد ، بعضنا بجانب بعض،في دفء النيران المشتعلة بأغصان اشجار الاثل .



اعجب طريق

انطلقنا نسير على طريق طوله ١٨٨ كيلومترا ، هو وبلاشك مرشح ليكون اعجب طريق في العالم ، فكل بضعة كيلومترات منه تخضع لقبيلة مختلفة ، وما كان بامكاننا أن نسير من منطقة الى أخرى ، الا بعد ان نستأذن من شيوخ القبيلة التالية .. يأتون الينا حاملين كامل اسلحتهم من بنادق ومدافع خفيفة .. ويجلسون في نصف دائرة ، ويبدأ النقيب الرويشان السلام الطويل معهم بهذه الصورة :

ـ قويتم
ـ الله يحييك
ـ علمكم ؟
ـ كل خير
ـ من صنعاء ما جرى علم
ـ وانتم منكم اخباركم
ـ قدامكم ما علم شر .. حيا بكم ، واهلا بالرجال الابطال ..

وبعد سكون قليل يقول شيخ القبيلة :

ـ ما وراك يارويشان ؟ .. ومين هاذول اللي معاك ؟

فيخرج الرويشان خطابا من رئيس الوزراء الى شيخ كل قبيلة يقدمنا ويعرفنا ، ويدعو فيه الشيخ للحضور الى مقر مجلس الوزراء في صنعاء من اجل التفاوض مع الحكومة لصالح المنطقة .. وكان اغلب زعماء القبائل يرحبون بالدعوة .. فيطلب منهم « الرويشان » أن ينضموا الينا في رحلتنا الى مارب، اظهارا للتضامن القبلي وتسهيلا لمهمتنا .

وهكذا كان عددنا يتزايد شيئا فشيئا كلما تقدمنا بضعة كيلومترات .

في بلاد الغادر

كان كل شيء يسير منتظما ، حتى وصلنا الى منطقة « الخيام » ، وهناك جلسنا ساعتين تحت الخيمة ننتظر قدوم الشيخ علي الغادر .. من مشايخ الأعروش ..

وبعد فترة من الوقت سمعنا اصوات سيارات وجلبة ، وما هي الا لحظات حتى ظهر « الغادر » عند مدخل الخيمة وخلفه مجموعة كبيرة من رجاله كلهم مدججون بالاسلحة السريعة الثقيلة الحديثة .. ووقف الجميع ودخل الرجال الخيمة ، وبداوا السلام : اليد تصافح اليد ، والرسغ يضرب الرسغ .. ومن بين الشفاه يخرج صوت رفيع « تسي Tsi » .. لم يقولوا السلام عليكم .. او حياكم الله ، وانما اصوات كالصفير تنطلق من بين الشفاه : تسي .. تسي .. !

وجلس «الغادر» مع رجاله في طرف الخيمة ،

كـــل الطـــرق

من صنعاء تنطلق ثلاثة طرق الى مأرب : طريق شمالى طوله ٢٢٣ كيلومترا .. وطريق أوسط وطوله ١٦٥ كيلومترا ، وطـــريق جنوبى طوله ١٨٨ كيلومترا ، هو الذى يمر بأرض خولان ، وهـو الذى قطعناه .. وهذا الطريق لم رصفه بالايدي في عهد الامام أحمد (الصورة اليمنى) .. أما حاليا فقد تكفـل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العـــربية المتحدة ، بتكاليف شق طـــريق



وفي الجانب الاخر جلسنا مع الرويشان والقاضي الاكوع وبقية المشايخ الذين انضموا الينا في الطريق .. وبدأ السلام المعتاد كل شيخ قبيلة يلقى السلام على « القادر » .. وبدأ «الرويشان» يتحدث الى « القادر » ويقدم له مرافقيه ونحن منهم ، وكيف ان الحكومة في نيتها ضبط المنطقة وتنظيمها .

كان القادر يستمع لحديث الرويشان محركا اكواب الشاى الصغيرة بعصبية ظاهرة ، وتوقفت لعبة الاكواب ، عندما بدأ يقول : يارويشان باى صفة تحدثني ، بصفتك ابن خولان او مندوبا عن الحكومة .. ؟ أريد أن اعرف !

فقال الرويشان : انا ابن خولان وافتخر بهذا ..

فاسرع القادر قائلا : « اذن .. اذا أرادت الحكومة أن تحادثنا فعليها الاتصال بنا .. انها لم تتصل بنا ، ولم تتحدث اليها ، ولم تتحدث الينا .. ولم نعترف بها أو تعترف بنا .. اما ارسالها الوفود للمرور من أراضينا دون سؤالنا او التفاوض معنا ، فهذا ضحك على الذقون .. »

فقاطعه احد شيوخ القبائل المرافقين قائلا : « لاداعى لهذا الحديث امام الضيوف .. »

فاجابه القادر : « لايوجد ما اخفيه .. ».

فقال الرويشان للقادر : « انا عندى حديث خاص معك .. تعالَ نجلس في الخيمة المجاورة .. »

وانتقل جميع شيوخ القبائل الذين انضموا الينا في رحلتنا الى الخيمة المجاورة .. ومكثنا وحدنا في الخيمة الكبيرة الباردة ، ومضت الساعات الاولى والثانية ، وكاد ينتصف الليلُ واصوات المشايخ ونقاشهم الحاد مازال تقطع سكون الليل ..

النوم في الخان

وكان التعب والجوع والبرد ، قد اخذت منا ماخذها ، فقلنا لصاحب الخيمة ، هل عندك غرفة مقفلة نستطيع النوم فيها ؟ فاخذنا الى « الخان » .. غرفة صماء ليس فيها فتحات ، مستطيلة الشكل (٣ أمتار في ٨ امتار) ينام فيها اربعة اشخاص ، اضطجعنا بجوارهم على الارض ونحن نجهل مصيرنا : هل سنتابع السفر الى مأرب ؟ أم نعود الى صنعاء ؟ .. ورحنا في سبات قصير ، اذ استيقظنا على اصوات المشايخ الذين انفض اجتماعهم ، جاءوا ينضموا الينا في الخان ، فنمنا متلاصقين .. بعد أن اصبح عددنا ١٧ شخصا !!

النظام القبلي ما زال حيا في اليمن !

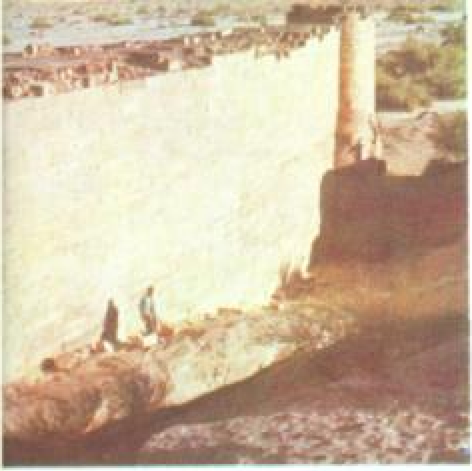
وهنا يجب ان نتوقف قليلا لنتحدث عن النظام القبلي في اليمن ، الذى يشبه لعبة الكلمات المتقاطعة من فرط تشابكه وتقاطعه !!

ولو حاولنا تبسيطه لقلنا ان سكان الجزيرة

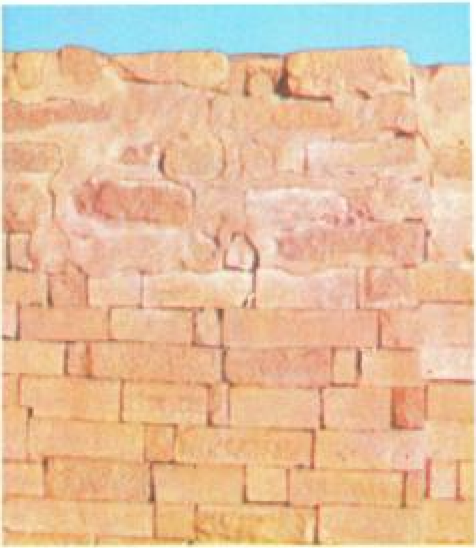


تؤدى الى مأرب !

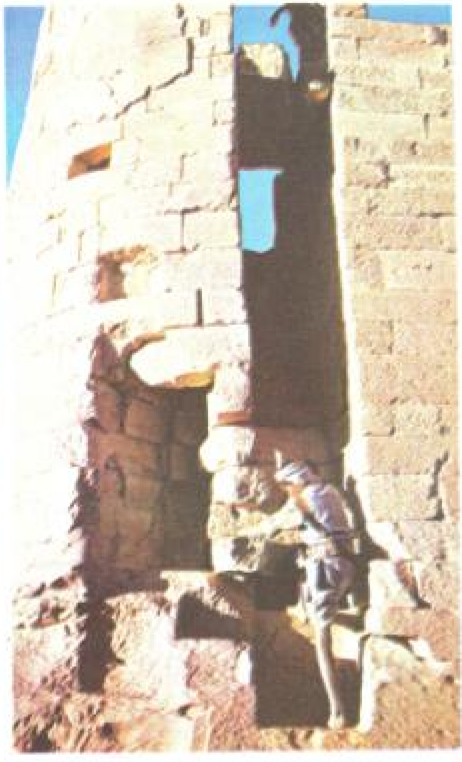
حديث من صنعاء الى مأرب .. وفعلا بدأت شركة سويدية بعملية مسح شاقة للطرق الثلاثة المؤدية الى مأرب ، لاختيار أفضلها .والى اليسار نرى المهندس اليمنى عبد الاله القميشى يجرى عملية المسح .. وقد جاءت الاخبار اخيرا تفيد أن الاختيار قد وقع على الطريق الشمالى الموصل الى مأرب ... حقيقة انه أطول الطرق ، ولكنه اقلها تكلفة ومشقة فليست فيه جبال ووديان الى جانب انه قريب الى منطقة الجوف .



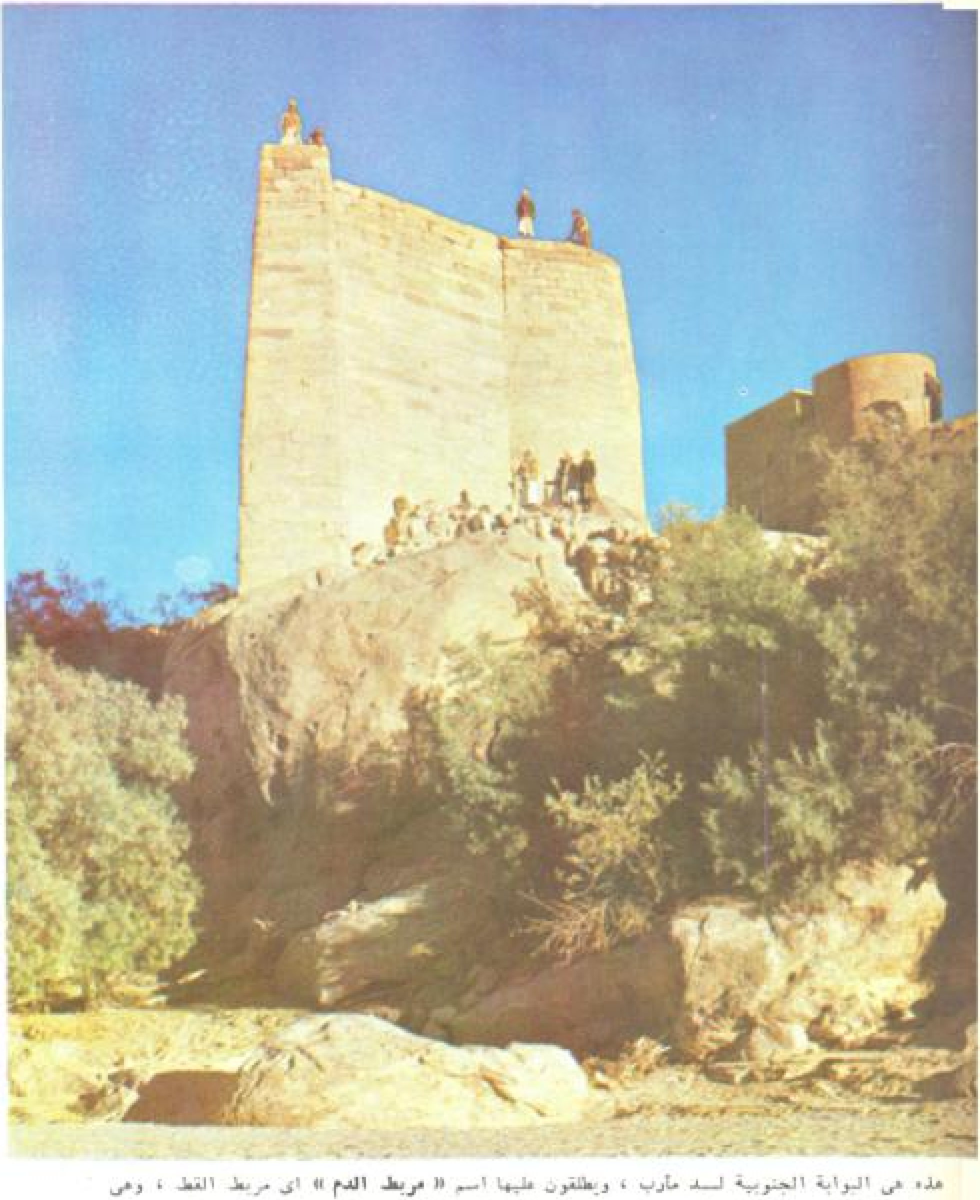
الى اليسار : عندما بدا سد مأرب في التصدع ، حاول بعض الملوك السبئيين اصلاحه ، فاضافوا على جدار البوابة الجنوبية (المبنية من الحجر المنحوت ، وعرضها نحو ٨٠ مترا) احجارا من الحصى لتتماسك (الصورة الثانية) فشوهت جمال الهندسة السبئية الاولى ، التي كانت تعتمد على الاحجار المتداخلة بعضها في بعض ، بصورة هندسية رائعة (الصورة الثالثة) .







في هذا المكان من البوابة الجنوبية للسد ، كانت اعمدة حديدية وخشبية ، تحرك **الاحجار** الضخمة الكبيرة ، التي كانت بمثابة بوابات تفتح وتغلق حسب حاجة اراضي « **الجنة الجنوبية** » الى المياه .. ان الهدف من بناء السد كان السيطرة على مياه السيول وتخزينها وصرفها بمقادير خاصة .



هذه هى البوابة الجنوبية لسد مأرب ، ويطلقون عليها اسم « **مربط الدم** » اى مربط القط ، وهى ترتفع فوق أحجار جبل بلق الجنوبي .. لقد استطاع « **سيل العرم** » ان يكتسح جسم السد ، اما بوابتيه فبقيتا حتى اليوم شاهدا على عظمة هذا السد الذى يقع على أرض ترتفع ١٠٥٠ مترا فوق سطح البحر .. وبعد خراب السد تفرق أهل المنطقة أشتاتا فى مختلف أجزاء الجزيرة العربية ، واخذت كل طائفة منهم طريقا .. فضربت العرب بهم المثل فقيل : **ذهب القوم ايدى سبا ، وايادى سبأ ،** واليد تعنى الطريق .. أى فرقتهم طرقهم التى سلكوها ، كما تفرق أهل سبأ فى جهات متفرقة ..



دول داخل دولة : من صنعاء الى مأرب لم نشهد اثرا للحكومة اليمنية ، أو لأى مساعدة سواء
الرجل القبلى الطيب بندقيته ، كى يحمى نفسه وارضه ، ويفرض ما يتراءى له من نظم وقوانين
معرفة احوال العالم واخباره .. ونجلس في القرية حتى يأتى رجال القبيلة التالية ليسمحوا لنا

العربية يعتبرون انفسهم اسرة واحدة تنتمى الى سام بن نوح .. وهم يتفرعون الى فرعين رئيسيين: عدنان وقحطان .. وبعدها تقسيمات لاحصر لها .. فقحطان مثلا تنقسم الى كهلان وحمير .. وكهلان تنقسم الى حاشد وبكيل .. والى بكيل تنتمى قبيلة خولان التي نحن بصددها، فافرادها يعيشون في هذه المنطقة التي تعرف باسم ارض خولان الطيال .. والطيال معناها المرتفعات ، تمييزا لها عن خولان الشام ، اى فرع خولان الذى يعيش فى منطقة صعدة شمال اليمن ..

وخولان قبيلة كبيرة ، عدد افرادها ، كما يدعى بعض ابنائها ، هو ١٨٥ الف نسمة ، منهم ٤٠ الف محارب .. هذه القبيلة تنقسم الى ٨ بطون ، وكل بطن منها ينقسم الى اربعة أو خمسة افخاذ!!

وهذا التفرق والتقطع الى عائلات صغيرة جعل هذه القبيلة الكبيرة ، تعيش بدون زعيم كبير تدين له جميع البطون والافخاذ بالطاعة والولاء التامين .. فحلت الفرقة والتناحر ، وانتشرت الحروب الصغيرة بين أولاد العم ، واستعاض الناس عن العصا بالبنادق السريعة : روسية والمانية وزكى كرام .. نسبة الى اسم الوسيط زكى كرام الذى اشترى الاسلحة للامام فاطلقوا اسمه على بندقية المانية سريعة الطلقات !!

وتحصنت كل قبيلة داخل اراضيها ، ووضعوا الحراس على طول الطريق الممتد ١٨٨ كيلومترا من صنعاء الى مأرب.. كل قبيلة تحتل كيلومترات



رية او اجنبية ولو من منظمة الامم المتحدة ، كلهم غائبون عن المنطقة .. ونتيجة لهذا الغياب حمل ما تكاد تصل الى بلدته حتى يتجمعوا (الصورة اليسرى) انهم مشتاقون الى العالم الخارجي ، يريدون من اراضيهم . وترى هنا النقيب على الرويشان، يتحدث الى أشراف مأرب ، للسماح لنا بالمرور الى مأرب.

معدودة منه ، يقطعونها او يفتحونها لمن يريدون وحين يريدون !

انها دول تعيش داخل كيان دولة اليمن .. دول ظهرت نتيجة توقف دوران عقارب الزمان والتطور منذ قرون بعيدة في اليمن السعيد .. !

امانة في عنقكم

ومررنا بالقرى الواحدة تلو الاخرى .. كل منها وراءها قصة ومأساة تهز مشاعرك هزا عنيفا مؤلما .. هذه مثلا قرية الكبس .. قرية السلام الوحيدة، يحمل رجالها العصي بدلا من المدفع الرشاش .. هذه القرية تحولت منازلها الى اطلال ، وقصورها الى انقاض من فعل قذف الطائرات ومدافع الدبابات.

وسألنا الاستاذ على الكبسي ورفاقه : « ماذا في مدينتكم ؟ » .

اجابوا ساخرين متألمين : « لا شيء .. لا مستوصف .. لا مدرسة .. لا منازل .. لا طريق .. ولا آبار .. ولكن عندنا الكثير من انواع الامراض .. عندنا البلهارسيا والتيفو (التيفوئيد) والسل .. وطالما شكونا مرارة الجهل ودائه .. وها أنتم اول من وصل الى بلادنا .. اننا نحملكم مسئوليتنا .. اننا امانة في عنقكم .. فلا تخذلونا».

مائة « دفتر » لن تكفى ..

وفي قرية الوتدة التف حولنا الاهالي يتحدثون ويتحدثون ، قائلين : « من عهد بلقيس لم يعلمنا



ترتفع قيمة المرأة بارتفاع كمية المخلص (أي الفضة) التي تضعها فوق رأسها دائما ، حتى أثناء ذهابها لسحب الماء ، تحتفظ بها على رأسها .

الى أسفل : هذا الرجل مسافر على قدميه منذ الفجر الى صنعاء ، حاملا معه صوف الغنم لدرء البرد عنه وبعث الدفء الى جسمه .







الخنجر ، وحزام الرصاص ، والبندقية .. ثلاثة اشياء لا غنى للرجل القبلي عنها .. وعندما وصلنا الى مأرب كان معنا مجموعة من شيوخ القبائل هم : النقيب (وهو لقب قبلي اعلى مرتبة من شيخ) محمد عبد الوهاب ابو حليقة من رؤساء هجرة خولان ، والشيخ جاسم بن ناجي حنطش والشيخ محمد ابن جاسم المسمى ، من مشايخ بني جبر ، والشيخ ناجي بن علي الدبا من مشايخ الاعروش ، والشيخ محمد المصري ، والشيخ علي سعيد عمير من مشايخ جهم ، والشيخ سعيد بن حسين الشجني ، والنقيب محمد بن حسن بوحليجه من مشايخ مسور .. ونرى بعضا منهم في **الصورة السفلى .**



أحد .. ما زلنا حتى الآن نخلع أسناننا بالكلابة التي تخلعون بها المسامير ! وجع الراس نكويه بالنار .. نساؤنا يلدن في الجبال ، ويقمن ويعملن بعد ٣ أيام من ولادتهن .. رضيعنا نرضعه السمن السائل فينام دون آلام .. اذا عطشنا في أيام الجفاف « نشط » الجمل من بطنه لنأخذ الماء من معدته .. واذا احتجنا لدواء قطعنا عرقا في انف الجمل نجمع منه الدم نسخنه ثم نشربه .. ونضع العسل مع أوراق الريحان على الجرح تحت حجر نربطه على الجريح ».

وعندما رآني الشيخ النقيب على دبا ، من قبيلة الاعروش اسجل هذا الكلام قال : « الامنا كثيرة وعديدة .. ولا يكفيك مائة دفتر لتسجيلها .. الآلام تحيط بنا من كل الجهات .. سبع سنين مضت في جفاف وحروب ، كلنا بدون عمل .. عمل أ .. متى العمل .. ! اننا شعب ضائع .. آآ » .

الثار .. الثار

كنا نسير على نفس الطريق القديم للقوافل التي كانت تنقل الملح من منطقة صافر الى صنعاء .. وكان عددنا يتزايد بانضمام مشايخ قبائل الينا .. ان الحديث المشترك الذي نسمعه في كل المنطقة هو : الثار .. **الثار لمقتل ٦٥ من زعماء وشيوخ خولان في الكمين الذي دبر لهم في منطقة بيحان منذ ما يقرب من نحو عامين ..**

رأينا الاعلام السوداء والجمال المجللة بالسواد .. لقد قتلت نساء المغدورين كلابهن ، معبرات عن عدم وجود حام لهن .. وسمعنا بقصة المراة التي القت بنفسها من فوق منزلها ، لان والدها وزوجها واخاها واثنين من أولادها قتلوا في المذبحة، فقالت وهي تلقي بنفسها : وانا كذلك انتهيت ..

والأخذ بالثار من العادات المتاصلة في المنطقة ، وفي اليمن عامة ، واذا جاء احدهم وقال لأهله : استقضيت بعد سنة (**اي اخذت بثاري بعد سنة**) **قالوا له :** لماذا استعجلت !!

وكان على راس المقتولين في بيحان الشيخ ناجي على الغادر شقيق على الغادر الذي قابلناه تحت الخيام . . . ان الشقيق يطالب حكومة اليمن بان تقف معه في مطالبته بدم اخيه ، وهو بدوره يخزن الاسلحة والالغام ويجمع المحاربين استعدادا ليوم الانتقام والثار ، حتى قالوا لنا ان ما يملكه من بعض انواع المتفجرات يوازي الكمية الموجودة لدى جيش حكومة اليمن نفسها ! ! ؟

الى اسفل : اخطأت الصبية وحملت سفاحا فلم تجد أمامها وسيلة للتخلص من عارها الا بالقاء نفسها من قمة هذا الجبل ، الذي اصبح يعرف باسم (مَرْجة الصبية) اي خطيئة الصبية !!



العنب بدلا من القات

كان الطريق شاقا مرهقا ، تنطلق عليه السيارة بسرعة ١٥ كيلومترا في الساعة ، اننا نسير الآن وسط وديان مسور ، والسومان ، والاعروش ، وجباب .. ان النجاح الرائع لزراعة العنب في هذه المنطقة جعلهم يخلعون القات ، ليزرعوا العنب ، لزيادة مردوده الاقتصادي .. حدث هذا لاول مرة في اليمن ، على ما نعرف ..

أرض اللبن والعسل سابقا !!

كنا عند مشارف صرواح .. وما ادراك ما هي صرواح ، انها العاصمة السبئية الاولى .. والمنطقة التي شهدت أعنف المعارك واشرسها في الحرب اليمنية الاخيرة ..

وقد أثبتت النقوش التي اكتشفها الرحالون الالمان ، ان اول ملوك سبأ ، ويطلق عليه مكرب، جاء الى صرواح عام ٨٠٠ق.م . من شمال الجزيرة العربية مجتاحا بلاد المعينيين وجيرانهم الحضارمة والقتبانيين .. واستقر هنا في صرواح يبني المعابد



من كل أرجاء الجزيرة العربية كانت القبائل تهاجر الى أرض سبأ ، أرض العسل واللبن ، وهذا النقش السبئي القديم لعناقيد العنب يعكس ما كانت عليه هذه الارض من خصب .

والعصور .. وقد وجد نقش يبين هذا الكرب ، واسمه (سمة على) يقدم البخور والمر الى الاله القومى السبئى (المقه) نيابة عن قبيلته التى قادها من الفيافي والقفار ، الى « الارض السعيدة التى تفيض لبنا وعسلا » .

نعم كانت هذه حالة الارض منذ ٢٨٠٠ سنة ، اما اليوم فقد تحولت الى ارض تفيض بؤسا وشقاء !!

ولم يعد لصرواح اى وجود ، فهى مدينة مدفونة تحت الرمال .. لهذا اصبحت تعرف باسم « الخربة » .. واشهر ما فيها حاليا هو بقايا مبنى اثرى ، يقولون له معبد بلقيس ، فى حين انه قصر لاحد ملوك سبا .. وجدناه مغلقا .. اين المفتاح ؟ مع الشيبة (اى الرجل العجوز) وهو غير موجود حاليا .. عند عودتكما من مأرب يكون « الشيبة » قد وصل ، فيفتح لكم الباب .. »

حجرا صرواح !

وشعرنا بشخص يقترب منا ويقول هامسا : « تعال بمفردك لأريك شيئا خياليا رائعا » .. واصابنا حب الاستطلاع ، فانسحبت دون ان الفت الانتباه ، وسرت مع محدثى الى متجر مظلم جلست فيه على حجر قديم ، بينما سار هو الى الداخل ،

وعاد حاملا لفتين من الورق القديم فتحهما فاذا بداخلهما قطعتان من المرمر الابيض والمرمر الاحمر عليهما رسم ثعبان .. ثم جاء بمجموعة اخرى من الاحجار عليها كتابات سبئية ..

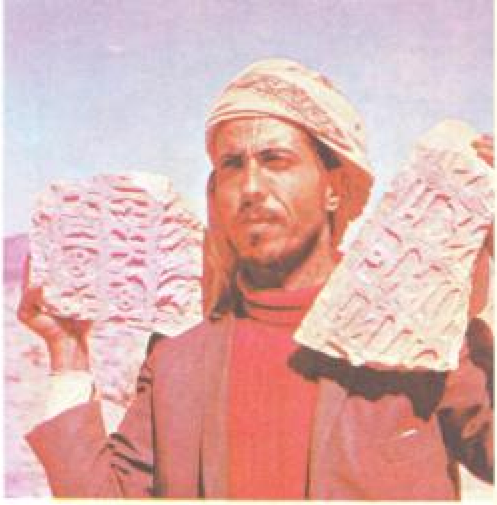
وقال هامسا : « هذه الآثار وجدتها كلها تحت سور المعبد .. هل تريد شراءها ؟ » وطلب مبلغا كبيرا من الريالات وبعد اخذ ورد ومفاصلة ، اشتريت القطعتين وحملتهما سعيدا فخورا الى مدير هيئة الآثار لاقدمهما له ..

وامسك المدير بالقطعتين ووضع نظارته على عينيه .. ونظر الى مبتسما ، ثم قال : انهما قطعتان مغشوشتان !! ؟

ولم نصب بخيبة امل كبيرة ، فقد استطاع الاهالى من قبل بيع آثار مزيفة للرحالة هليفي ومتحف بومباى وحتى اللوفر ، وغيرهم .. وقد افادت هذه اللوحات المزورة كثيرا ، لأنها كانت تقليدا لاخرى اصلية ضائعة .

التبة الحمراء

وانطلقنا فى السيارتين بالرجال الى محطتنا الاخيرة الى مارب وسدها ، تحيط بنا جبال صرواح التى كانت تحمل اسماء : الاشقرى وعيلان والعجارم .. اما اليوم فتحولت هذه الاسماء الى : التبة

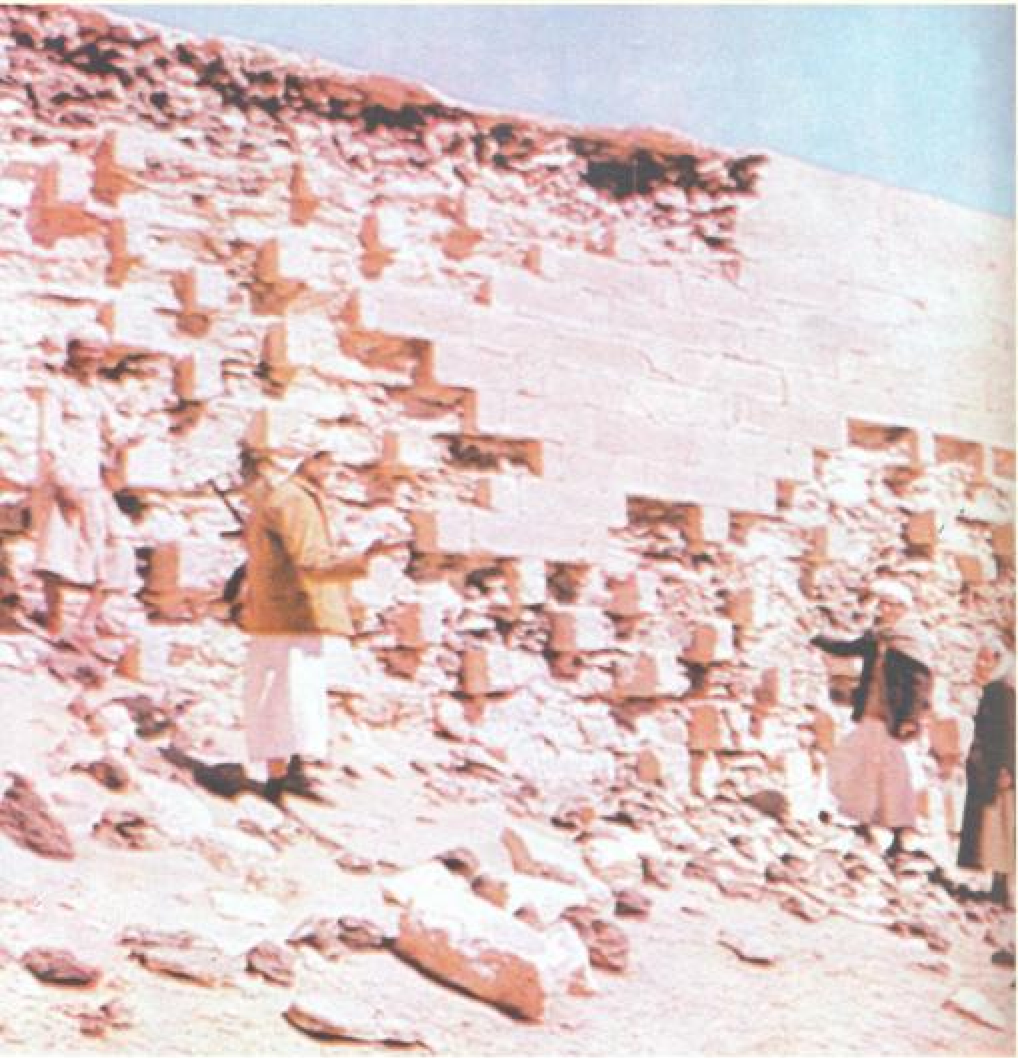


ما من شك أن فتح منطقة مأرب أمام السياحة العالمية ، يمكن أن يجعلها أكثر المناطق ازدهارا في جنوب الجزيرة العربية .. ومنذ ثلاث سنوات عرض « وندل فيلبس » على السلطات اليمنية ، استعداده لبناء فندق ومدينة سياحية عالمية في مأرب ، لأنه حسب قوله ، يريد أن يرد الجميل الى حكومة اليمن التي اذنت له بالتنقيب في المنطقة .. ان الآثار اليمنية في طريقها الى الفناء والضياع ما لم يتخذ اجراء حازم لصيانتها .. واثناء تجوالنا في المنطقة كنا نشاهد القطع الاثرية على الطريق ، فيقوم صالح المقبلي بحملها لنقلها الى متحف صنعاء . **والصورة السفلى** تبين رئيس هيئة الآثار اليمنية يحاول اقناع سعيد عبد الله ، بأن قصر صرواح الاثرى ليس من املاكه!





بالرغم من صدور قانون بمنع خروج الآثار من اليمن ، ومنع سرقتها وبيعها وهدمها .. راجت تجارة الآثار التي كانت تتسرب عبر الحدود المفتوحة، بين مأرب ونجران .. وهذه الصورة تبين الحالة المؤلمة التي آل اليها جسم البوابة الشمالية من سد مأرب .. كانت حائطا أملس ، آية في الروعة والجمال .. هكذا كان بالامس .. اما اليوم فان الاحفاد اقتلعوا الاحجار من اماكنها ، ارسلوها للخارج ، وكسروها قطعا صغيرة ، حفروا عليها بعض الرسوم الهزيلة ، وهم يبيعونها لعشاق الآثار ، على انها قطع اثرية قديمة !





الى اليسار : بعد زيارتنا للمنطقة اتجه أشراف مأرب، ثم مشايخ عبيدة، في قافلة طويلة الى صنعاء .. وهناك تم الصلح بينهما مدة شهرين .. قابلة للتجديد !

الحمراء ، والسوداء ، والثنية رقم ٥ . اسموها الحمراء لأن صخورها ورمالها اصطبغت بالدماء الغزيرة التي سالت عليها في الحرب الاخيرة ..

لقد جاءت القوات المصرية الى صرواح واقامت معسكراتها هناك .. لان من يحتل صرواح يسيطر على المنطقة الشرقية من اليمن .. وكان ثلث القوات المصرية تقريبا يرابط حول بئر الماء الوحيدة في صرواح .. «لأن ضياع البئر كان معناه نقل المياه جوا وهو امر صعب ، او الموت عطشا ، وهو امر اكثر صعوبة !!!»

كنا ننطلق صوب السد ونحن نحلم بمارب ، وبلقيس ، وسليمان الحكيم ، والجن !

لقد انتقلت عاصمة السبئيين من صرواح الى مأرب ، بعد أن ظلت صرواح عاصمة لهم من نحو عام ٨٠٠ الى عام ٦٥٠ قبل الميلاد ، تعاقب على حكمها ٨ مكربين (ملوك) سبئيين ، وكان كل همهم بناء سدود على وادي (ذنة) ولكنها جميعا كانت تعجز عن تامين حاجة المنطقة الزراعية من المياه .. حتى جاء (يثع امرين) بين عام ٦٥٠ و٦٢٠ ق.م. ونجح في اقامة سد مارب الجبار الذى اعتبر اكبر عمل هندسي عرفته الجزيرة العربية حتى منتصف القرن العشرين الذى نعيشه .. واعتبره البعض من عجائب العالم القديم ..

اما مارب فقد ظلت عاصمة للسبئيين ، طوال فترة حكم ٦٧ ملكا سبئيا تعاقبوا عليها .. اى من تاريخ بناء السد حتى تاريخ خرابه .

لسنا حشرات ..

كنا نتذكر هذه القصص ، عندما شهدنا حاجزا خشبيا يمنع تقدمنا .. وبجواره وقف شاب طويل قال بصوت هادىء : « ايش عندك يا رويشان .. ومن معك ؟! » .

ونزل اليه « الرويشان » وتحدث معه ... وسمعنا الرجل يقول : « الحكومة تأخذ مالا .. وانتم تاخذون مالا .. ونحن لنا حق في وطننا ، نحن لسنا حشرات نحن أناس مثلكم تماما .. »

ولم يستغرق النقاش طويلا ، اذ سرعان ما انضم الينا الشيخ على سعيد عمير من قبيلة « طميمة » وركب سيارته الوحيدة في المنطقة التى تحمل لوحة : محافظة مارب .. لقد ركب عميرة معنا ليساعدنا في اقناع أشراف مارب بالسماح لنا بدخول مدينتهم ..

لمن تتدفق السيول ؟

وسرنا وسط اراض خصبة ليس فيها نبتة ولا انسان .. اننا نسير وسط وادى « ذنة » .. هنا تتجمع السيول .. تندفع اليه من الجبال ، من الغرب والشمال والجنوب .. وتنطلق شرقا .. كل سيل له اسم : سيل القطوطة .. وسيل الجوبة .. ولكن جميع السيول تأخذ اسم سيل الذنة عندما تتجمع في هذا الوادى .

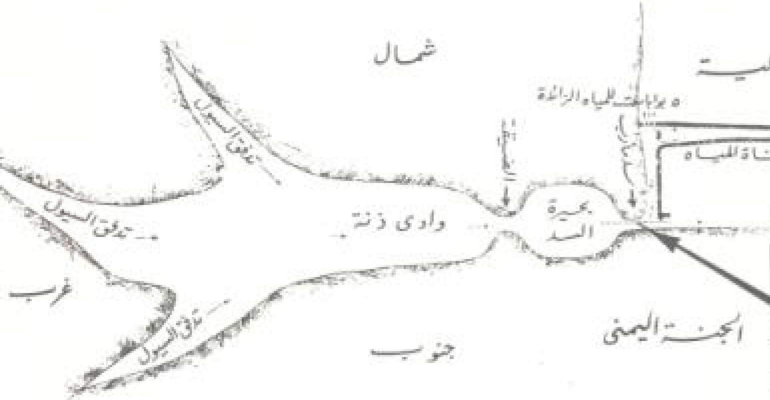
وانتقلنا من وادى ذنة الى « الضيقة » ، ممر عرضه نحو ٥٠ مترا يقسم جبل بلق الى جبلين : بلق الايمن وبلق الايسر ، كل جبل منهما يرتفع ٣٠٠ قدم فوق سطح الارض ..

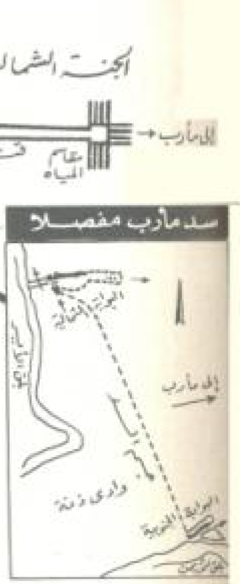
واعقب « الضيقة » متسع من الارض عرضه نحو ٥٠٠ متر وطوله اربعة كيلومترات ، هنا كانت تقوم بحيرة سد مارب ، تحجز كمية هائلة من المياه .. لتروى «الجنتين» عن اليمين والشمال.

ان الامطار لا تهطل على منطقة مارب الا نادرا ، ولكن السيول المتدفقة بغزارة في واديها هى التى جعلت السبئيين يقيمون السد الجبار لرى نحو

الى اسفل : بئر الماء في صرواح ، وبجانبها مخلفات الحرب .. منذ ٢٨٠٠ سنة وهم يستقون من هذه البئر العميقة التى يحرسها جنٌ اسود يخرج في الليل ، واذا مات هذا الجن فان البئر ستجف !! هكذا يعتقد الأهالى على الاقل .. !







رسم يوضح منطقة سد مأرب .. وكيفية تدفق السيول من الشمال والجنوب والغرب لتتجمع فى خزان طبيعى دائرى قبل السد .. اما جسم السد فكان طوله نحو ٦٠٠ متر .. وعلى جانبيه بوابتان : شمالية وجنوبية .. ومن هاتين البوابتين تخرج قناتان ، واحدة تروى الجنة الجنوبية وأخرى تروى الجنة الشمالية .. وكل قناة تنقسم فى نهايتها الى ١٢ فرعا عند مقاسم المياه ، لتروى أرضا كانت مساحتها ٨٠ كيلومترا مربعا تقريبا .. وفى مطلع هذا العام هبطت عند منطقة السد طائرة عمودية (هليكوبتر) تحمل مهندسين عالميين لدراسة امكانية اعادة بناء السد على نفقة الشيخ زايد .. لأن المياه ما زالت تتدفق بغزارة دون أن يحجزها حاجز .. (الرسم بتصرف من كتاب رحلة فى بلاد العربية السعيدة للأستاذ نزيه مؤيد العظم)

---

٨٠ كيلومترا من الاراضي الزراعية الطيبة المرتفعة عن بطن الوادى بخمسة امتار ..

والسيول الغزيرة ما زالت تتدفق الى اليوم بغزارة وبنفس الكميات ولمدة ٩٠ يوما فى السنة ، ولكنها تذهب وتضيع هباء لعدم وجد سد يحبسها.

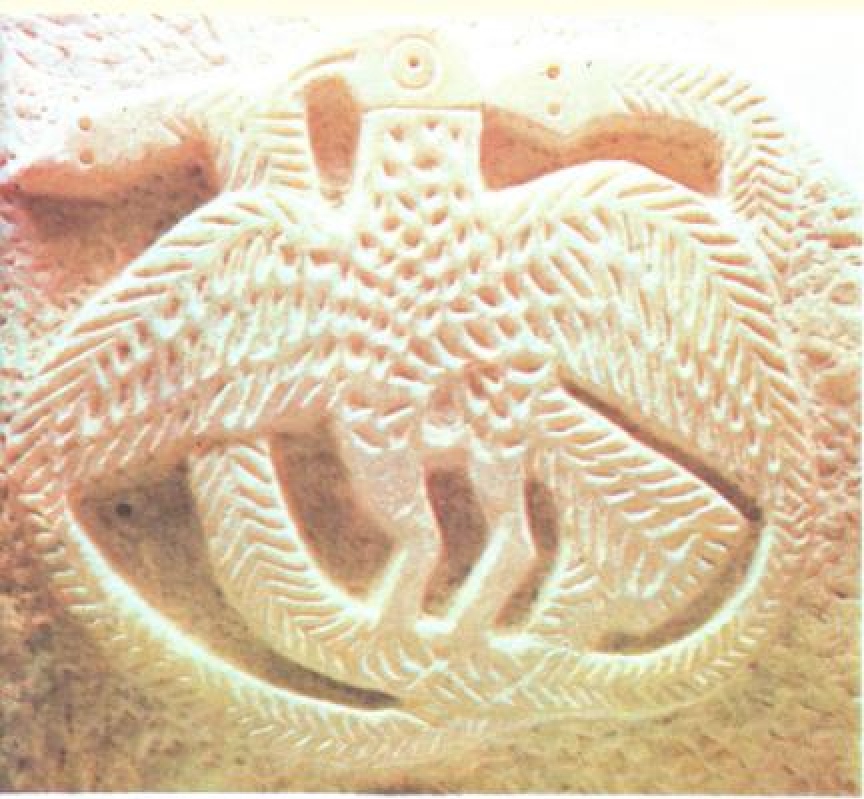
السد لن يطير

كانت عيوننا شاخصة الى الامام ، فموقع السد اصبح قريبا .. ولاح امامنا بناء عال مرتفع توقفت السيارات عنده .. وسارعنا بالهبوط .. كل منا يحاول ان يسبق زميله فى الوصول الى السد اصبح قريبا .. ولاح امامنا بناء عال مرتفع اليه .. ولم تنفع نداءات الشيخ محمد المصرى ، من مشايخ بنى جهم ، وهو يقول لنا : « على مهلكم يا اخوان فالسد واقع فى اراضينا .. ارض قبيلة بنى جهم .. وعندكم مطلق الحرية وطول الوقت لمشاهدته كما تريدون .. فهو لن يطير .. »

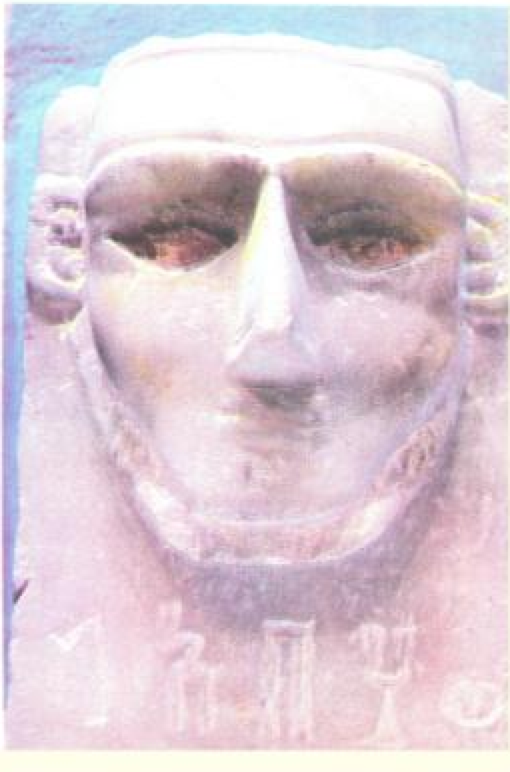
والواقع اننا كنا نخاف فعلا ان يطير السد .. فمنذ ١٥ سنة لم يصل شخص غريب الى هذا المكان الذى نقف عليه ، وكم من محاولات بائسة قام بها رجال الآثار والتاريخ فى العالم للوصول الى السد باءت كلها بالفشل .. كل هذا بالاضافة الى العراقيل والمتاعب التى صادفتنا فى الطريق ، فصرنا نعتقد اننا لن نصل ابدا الى السد ..

السد ومرجاز البن !

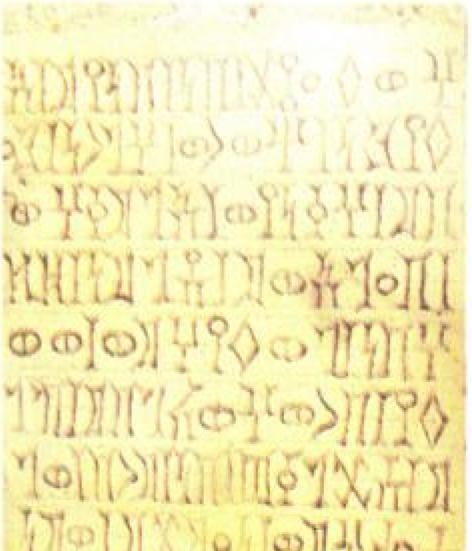
ووقفنا تحت ظلال السد فرحين سعداء .. نصوره من كل زاوية واتجاه ، كانه عروس نريد استجلاء كل اوجه جمالها وحسنها .. نتطلع اليه مشدوهين مذهولين من ضخامته وروعة هندسته ، وكم تمنينا لو كان معنا كل مهندس عربى ليرى هذا التناسق والجمال .. ويرى كيف استطاع الاولون حفر الجبل وتحويله الى ممرات ، وكيف استطاعوا ربط احجار البناء بالجبل .. وكيف ربطوا



كلما تدفق سيل على منطقة سد مأرب ، جرف معه آثارا ومجوهرات سبئية نادرة ، ويخفيها الاهالى حتى يجدوا المشترى المناسب الذى يدفع الثمن .. وفى متحف الآثار بصنعاء ، شاهدنا مجموعة رائعة للآثار السبئية . ان العالم بدأ عملية نهب آثار اليمن منذ منتصف القرن الثامن عشر .. نقل الى بلاده أروع النقوش والتماثيل البرونزية والنحاسية والمرمرية السبئية، ومع ذلك فان ما بقى فى المتحف يوضح تماما مقدار التقدم الحضارى الذى كانت عليه مملكة سبأ .. **انظر الصورة العليا مثلا** : صورة نسر سبأ الشهير يصارع حيتين بمنقاره ومخالبه .. لوحة بارزة رائعة منقوشة على قطعة من المرمر .. اما الصورة اليمنى فتمثال من المرمر لوجه امرأة قدمته الى اله القمر السبئى الشهير « المقة » الذى استمرت عبادته نحو الف عام فى بلاد العرب الجنوبية ، تعبيرا عن شكرها للإله الذى أستجاب طلباتها .



الى اليمن : بدا عهد سبأ حوالي سنة ٨٠٠ قبل الميلاد ، واستمر حتى عام ٥١٠ بعد الميلاد .. وهذا التمثال الرائع المصنوع من البرونز قد صنع في القرن السادس قبل الميلاد وقد قدمه صاحبه (معد يكرب) الى الاله (المقه) يشكره على افضاله ..



اقرب ظاهرة لمسناها خلال جولتنا بين آثار هذا الماضي البعيد، هي ان اخواننا العرب في منطقة مأرب يكتبون خط « المسند » الحميري بسهولة اكثر من الخط العربي الذي نكتبه اليوم .. لان المدارس العربية لم تظهر في هذه المنطقة بعد !! وهذا نموذج لخط المسند ، منقوش على قطعة رخام شفاف من العهد السبئي ..



الاحجار بعضها مع بعض مستعملين قضبانا قصيرة من الرصاص والنحاس لزيادة قوة البناء ..

ومن المؤسف ان الاحفاد يسرقون حاليا تلك القضبان ، يستعملونها « مرجازا » يدقون به البن !!

والواقع ان البناء الذى شهدناه امامنا ليس هو السد باكمله ، فجسم السد قد ازاله « سيل العرم » ولم يتبق من السد سوى البوابتين الشمالية والجنوبية .. (انظر تفاصيل السد مع الصور والرسوم) .

القرآن الكريم وسبأ

وقصة سد مارب وسبأ ، تلخصها آية سبا التى وردت فى القرآن الكريم ، وفيها يقول الله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان من يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور .. »

وقد اختلف المفسرون فى معنى العَرِم ، فذكر صاحب لسان العرب : « العَرِمة سد يعترض به الوادى والجمع عرم .. وقيل قد يكون ذكر الفأر .. وقيل اسم واد .. وقيل العَرِم هو المطر الشديد » .

اسطورة الفار الذى هدم السد

وقال ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان : « ان موعد خراب سد مأرب تنبأت به كاهنة تسمى طريفة ، أخبرت الحكام بنبوءتها ، فصعدوا الى رأس الوادى ليروا ما حدثتهم عنه ، فشهدوا الجرذان الحمر تحفر السد بأنيابها، فتقلع الحجر الذى لا يحمله مائة رجل ، ثم تدفعه بمخاليب رجليها حتى تسد الوادى ..

ولم يترك بقية المؤرخين العرب قصة الفئران تمر بسهولة ، فذكرها العلامة الدميرى فى كتابه حياة الحيوان قائلا : « لما كفر أهل مأرب بنعمة ربهم ، سلط عليهم جرذا أعمى ، يسمى الخلد، نقب السد من أسفله ، فلم يتركوا فرجة بين حجرين الا وربطوا عندها هرة (أى قطة أو هرة) ولكن أقبلت فأرة حمراء الى هرة من تلك الهررة فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة ، فدخلت الفأرة فى الفجوة وحفرت ثقبا ، فلما جاء السيل وجد خللا ، فدخل فيه حتى قلع السد ، وفاض على اموالهم (ارضهم ومزارعهم) فأغرقها ودفن بيوتهم بالرمال .. » .

اما « الضحاك » فقد ذكر ان الجرذ الذى خرب السد كانت مخالبه وانيابه من الحديد !!

فار السد مازال يتناسل حتى اليوم

وسألنا مرافقينا : هل ما زالت الفئران باقية الى اليوم ؟

فاجابنا احد ابناء بنى جهم : « الله يشهد أن الفأر الذى فجر سدنا العظيم نزل فى غرارة لن كان يحملها جمل من خولان .. ايه والله .. وهذا الفأر ما زال يلدى أولادا ، ونسله مستمر من

الى اسفل : هكذا اصبحت حالة بنات بلقيس: مريضة فوق ظهر حمار .. ! قال لنا شقيقها بلهجته العامية « انها وجيعة جدا فى رأسها ، أشتى دكتور ، ماشى مع الحمار منذ ساعة » انها احدى مآسى انغلاق المنطقة .



ذلك اليوم الى تاريخنا .. الآن .. وحجمه مثل البِسّ (القط) الصغير .. ايه والله .. وراسه راس بسم .. وشنبه شنب بسم .. وايديه وارجله نفس الشيء .. الا انها اقصر قليلا .. »

النوم فوق الرمال

كنا نتحدث غير منتبهين الى الوقت .. لقد اتجه الشيخ عمير الى اشراف مارب ليسمحوا لنا بزيارة مارب ، التى تقع على مسافة ١٠ كيلو مترات منا ، واتجه شيخ بنى جهم الى قبيلة عبيدة لتسمح لنا بالمرور الى أشراف مارب .. ولكن كلا المندوبين لم يعد .. والليل بدأ يرخى سدوله ، وبرودة الجو تزداد .. فبدأنا نقتطع شجر الاثل المنتشر عند السد ، نستعمله حطبا للتدفئة .. واتجه سائق السيارة الى صرواح ليشترى خروفين للعشاء ..

« بلقيس » بين الحقيقة والخيال

ورحنا نقطع الوقت باحاديث خفيفة ، بدأناها بسؤال احد شيوخ القبائل عن بلقيس وهل كانت جميلة

فاجابنا على الفور : « جميلة ؟ الله على جمالها .. لقد خلقها الله على أجمل صورة .. لكن الشعر على رجليها كان ينبت كثيفا !! »

اما نشوان الحميرى المتوفى عام ٥٣٧ هـ. فيذكر ان بلقيس هى ابنة الملك الهدهاد بن شرحبيل الذى تزوج بامرأة من الجن لم ير الراءون احسن منها وجها ، ولا اكمل منها خلقا .. فولدت له بلقيس فنشأت اعقل امرأة سمع بها فى ذلك الزمان ، وافضلهن رأيا وحلما وتدبيرا وعلما .. وقد ملكت بعد وفاة ابيها .

وفى ايامنا هذه نشر احدهم كتابا عن قصة بلقيس فى ٧٠٠ صفحة !!

وحتى نقطع الشك باليقين فى قصة بلقيس سألنا القاضي اسماعيل الاكوع رئيس هيئة الآثار اليمنية ان يحدثنا عنها ، فقال : « لم يرد اسم بلقيس فى أى من النقوش أو الرسوم السبئية التى عثر عليها حتى اليوم .. الا انه ورد فى بعض النقوش اسم « ملكة » دون تحديد اسم لها .. وفى منطقة بنى حشيش توجد قرية اسمها : الملكة .

« وفى سورة النمل : قال الله تعالى : **« انى وجدت امرأة تملكهم »** ، ولم يذكر اسم بلقيس ..



كانت ترتفع هنا ستة أعمدة اثرية بجانب قصر صرواح ، لم يبق منها اليوم سوى هذين العمودين ، اما الاربعة الباقية فقد استعملت فى بناء منازل الاهالى !!

واعتقد أن هذا الاسم معروف بالتوارث جيلا بعد جيل .. ومن يدرى !! »

قف عندك !

وبينما كنا نتحدث حول النار سمعنا سائقنا يصيح : « قف عندك » **.. وفى الحال أمسك جميع مرافقينا بنادقهم السريعة الطلقات ووضعوا اصابعهم على الزناد ..**

ومن الظلام خرج شاب هزيل تبدو عليه ملامح التعب ، قال لنا : اسمى على عبد الله الحداد .. واريد زجاجة بترول ! »

قلنا : « واين هى سيارتك ؟ »



هل هناك أقسى من أن يكره المواطن ارضه وبلده ؟ هذه اليوم هي مأساة شباب منطقة سبأ .. لقد التقينا بثلاثة منهم ، قال أولهم : **« خذوني معكم لقد كرهت هذا البلد ، ابي لا يريد أن يعلمني .. »** وقال الثاني : **« لا اجد شيئا يستحق ان اعيش من اجله هنا .. »** وقال الثالث : **« اريد ان اهرب من الحياة القاسية التي اعيشها ، ويعيشها كل شاب مثلي هنا .. اني ابحث عن العلم في اي مكان .. « شلوني»« خذوني معكم الى كويتكم ..)** وتركناهم ، وفي العين دمعة ، وفي القلب غصة، ولكنا لم نتخل منهم فقد نقلنا صرختهم الى السيد جاسم المرزوق وزير التربية الكويتي ، فقال : **« مرحبا بهم في وطنهم وبلدهم الكويت .. وكل بلد عربي فهو لهم وطن » ..**



الى اليمن : أقام بعض الاهالي المضخات في مناطق متفرقة من البلاد ، سحبوا بها المياه من جوف الارض ، زرعوا عليها العنب والقمح والذرة ، فكانت المحاصيل مذهلة من ناحيتي النوعية والكمية..ومن الغريب أنهم يستعملون الرخام والاحجار كعرائش لاشجار العنب ..



اشتهرت قرية الكبْس بأنها مركز « المهجرين » ، أي الذين يهجرون بلدتهم ليقوموا بمهمة « حمامة السلام » بين القبائل المتحاربة دوما .. ويرتدي المهجرون على رؤوسهم « القاووق » وهي عمامة مصنوعة من الحرير الملون ، تلف عليها قطعة من الشاش الخفيف .. وحجم القاووق يصغر ويكبر حسب أذواق الناس ، وإن كان الحجم الصغير هو المفضل حاليا .. إن « الكبس » ، أو « بلدة السلام » ، تعرضت في الحرب اليمنية الأخيرة لقصف عنيف بالدبابات والطائرات ، أسفر عن تهدم معظم دورها ، وأصبح طلبة المدرسة القرآنية يتلقون دروسهم في الهواء الطلق بعد خراب مدرستهم !! ترى من الذي سيرمم هذا الدمار الشامل !!



قال : « انا لا أملك سيارة .. وأريد البترول حتى أتخلص من السوس (الدود) الذى في معدتي .. » !!

قلنا متعجبين : « ولكن شرب البترول قد يقتلك ! »

قال : « لا .. اعطونى قليلا ، ولن أموت .. »

وأكد لنا شيوخ القبائل الذين معنا ، أن هذا العلاج شائع في المنطقة ، وانه لا غضاضة في ذلك .. وامسك الرجل بزجاجة البترول ووضعها على فمه وبلع ما فيها .. فرجوناه أن يبتعد عن النار رحمة بحاله !!

المدرسة قبل الطريق

قلنا لشيوخ القبائل الذين معنا : عندما كنا في صنعاء قال لنا السيد عبد الله فهد القيل ، مدير مكتب مساعدات المملكة العربية السعودية لليمن ان لدى المكتب اعتمادا ماليا لبناء سبع مدارس وثلاثة مستوصفات في المنطقة الشرقية من اليمن ، وهم ينتظرون افتتاح الطريق ليبدأوا فورا في بناء المدارس ، فما رأيكم في هذا الكلام ، واين يمكن بناء هذه المدارس ؟ »

فقالوا : « نحن على أتم استعداد للمساعدة في بناء المدارس مجانا ، كل الذى نريده أن يتعلم أبناؤنا .. ولا يمكننا الانتظار حتى يشق الطريق ، فهذا قد يستغرق سنوات وسنوات .. اننا في حاجة الى ١٥ مدرسة ، في جحانة ، والاعروش ، وقرو ، وبنى سحام ، والكبس ، وسهمان ، وحباب ، وبنى شداد ، وصرواح،وارالد دنا ، ومأرب مرادة ، وحصون جلال ، والجدوة .. ان اطفالنا يكبرون بسرعة ، لهذا نريد هذه المدارس بسرعة !!

« أما المستوصفات فقد رأيت حالتنا .. ان كل شخص هو طبيب نفسه هنا .. وثلاثة مستوصفات في جحانة والاعروش وصرواح ، يمكن ان تخفف الكثير من آلامنا .. »

وكان البرد قد اشتد ، فارسل شيخ صرواح السيارة الى بلدته لتجلب لنا الاغطية الصوفية ، وضعناها فوق رؤوسنا ورحنا في سبات عميق (انظر الصورة) .

الجنة اصبحت رمالا

وجلسنا في الصباح نشرب « القشر » أى قشر البن ونستمع الى اخبار « على عميرة » و « بن جهم » يخبراننا بان أشراف مأرب سيصلون عند الظهر ، وان قبائل عبيدة سيصلون بعد صلاة العصر .

وبدأنا نتجول ، فيما تبقى من الوقت ، بين الآثار .. اتجهنا نحو البوابة الشمالية للسد ، ورأينا حجارتها المنزوعة المسروقة . .وسرنا بين الاطلال المتبقية من جسم السد .. وانطلقنا لمشاهدة « الجنتين » فلم نجد الا رمالا ، بعد أن كانت المرأة السَّبئية من قبل تسير بين اشجارهما حاملة الزنبيل على رأسها فتتساقط الفاكهة ، ويمتلىء الزنبيل بها ، دون أن تلمس المرأة الشجرة !! قصة تكرر ذكرها في كتب التاريخ تظهر لنا مدى خصب تلك المنطقة التى كان يعيش فيها ملايين البشر ، انخفض عددهم اليوم الى ثلاثة آلاف نسمة فقط !.

حروب محلية

وعدنا ظهرا الى موقعنا تحت السد ننتظر وصول أشراف مأرب ، فلم يصل منهم أحد .. وجاء من يخبرنا أن اشراف مأرب منقسمون الى قسمين ، يتحاربون فيما بينهم حول مأرب ، وقد وقع منهم اربعة قتلى .. ومن ناحية ثانية هناك معارك حربية اخرى بين أشراف مأرب وقبيلة عبيدة ، حول محرم بلقيس أو معبد اله الشمس ، لهذا تأخر وصول أشراف مأرب الينا ، حتى يتم الاتفاق بينهم اولا ..

اما قبيلة عبيدة فقد حضروا بعد صلاة العصر .. وتبعهم أشراف مأرب .. وسمحوا لنا بدخول مدينة مأرب لمدة ٢٠ دقيقة فقط .. لقد قررت القبيلتان عقد هدنة ، ووقف القتال بينهما لمدة سبعة أيام اكراما لنا ..

مدينة الاشباح

كانت الشمس تميل للمغيب .. وسيارة (اللاندروفر) تسرع بنا نحو مأرب في سباق مع الشمس .. ودخلنا المدينة التى طبقت شهرتها آفاق العالم القديم ، وسرنا في شوارعها ..فصعقنا .. انها مدينة الاطلال والاشباح .. كل شيء مهدم فيها : دار الضيافة تصدعت .. وبناية المتحف تهدمت .. ومبنى الحكومة الحديث الضخم ، الذى استعمل في بنائه احجار ١٥ معبدا سبئيا اثريا ، اصبح مهجورا متداعيا ..

انها الحرب هذه القرية التى هدمت ١٠٥٠ بيتا من بيوت مدينة مأرب ، فهجرها اهلها واصبحوا يعيشون في البوادى والضواحى ..



هذا ما تبقى اليوم من جسم السد الذى اكتسحه سيْل العَرم .. لقد كان طول جسم السد نحو ٦٠٠ متر ، وعرضه ٣٠ متراً ، وارتفاعه ١٥ مترا تقريبا .. وكان مصنوعا من الطين والاحجار والرصاص أما اليوم فيجرى التفكير في اعادة بنائه بالاسمنت والحديد ..

وسألنا عن مصير الآثار التى اكتشفها « وندل فيليبس » فادخلونا الى حجرة فارغة مهدمة في مبنى الحكومة .. ان الآثار النادرة الثمينة التى اكتشفها وندل فيليبس « سرقتها » القوات الملكية والجمهورية التى تبادلت احتلال مدينة مارب عدة مرات !!

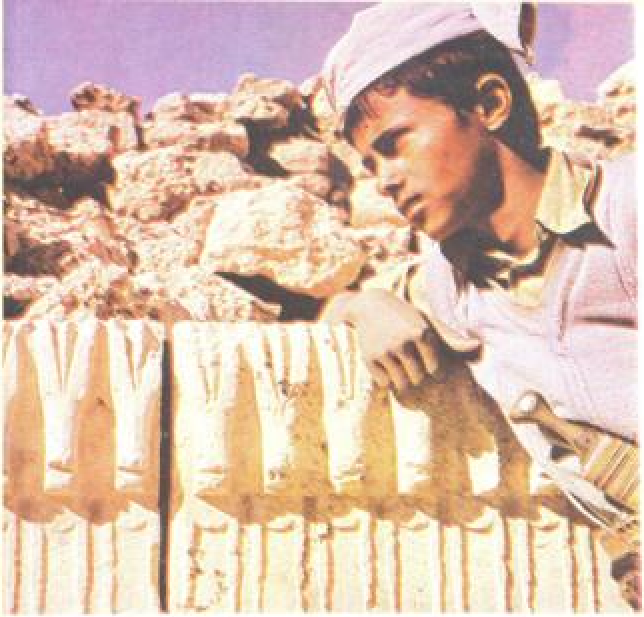
اما معبد اله الشمس ، او محرم بلقيس ، فقد جاءنا التصريح بالذهاب اليه متاخرا من قبيلة عبيدة ، وكنا في عجلة من امرنا ، فتركنا المحرم الذى اخبرونا بان حجارته المنقوشة الملونة البديعة، قد اقتلعت منه ، وارسلت الى نجران لتساهم في بناء مبانيها .

لو تعلمنا

وبدانا رحلة العودة.. رحلة كثرت فيها الاحاديث وتبادل الآراء عن مشاهداتنا ونزلنا عند الشريف عبد العزيز عبد الرحمن الامير من رؤساء اشراف مارب ، الذى اصر على تناولنا العشاء والنوم في منزله وكان عددنا ١٩ شخصا ، فذبح لنا العديد من الخراف ، وجهز لنا الغرف بالفراش .

وعند الشريف استمعنا مذهولين الى الشاب يحيى عبد الله الامير يحدثنا ببراءة وذكاء قائلا :

« أنتم لا تريدوننا أن نتعلم ، لاننا لو تعلمنا وكانت عندنا مدارس ، لتغلبنا وتفوقنا عليكم .. اننا نقود

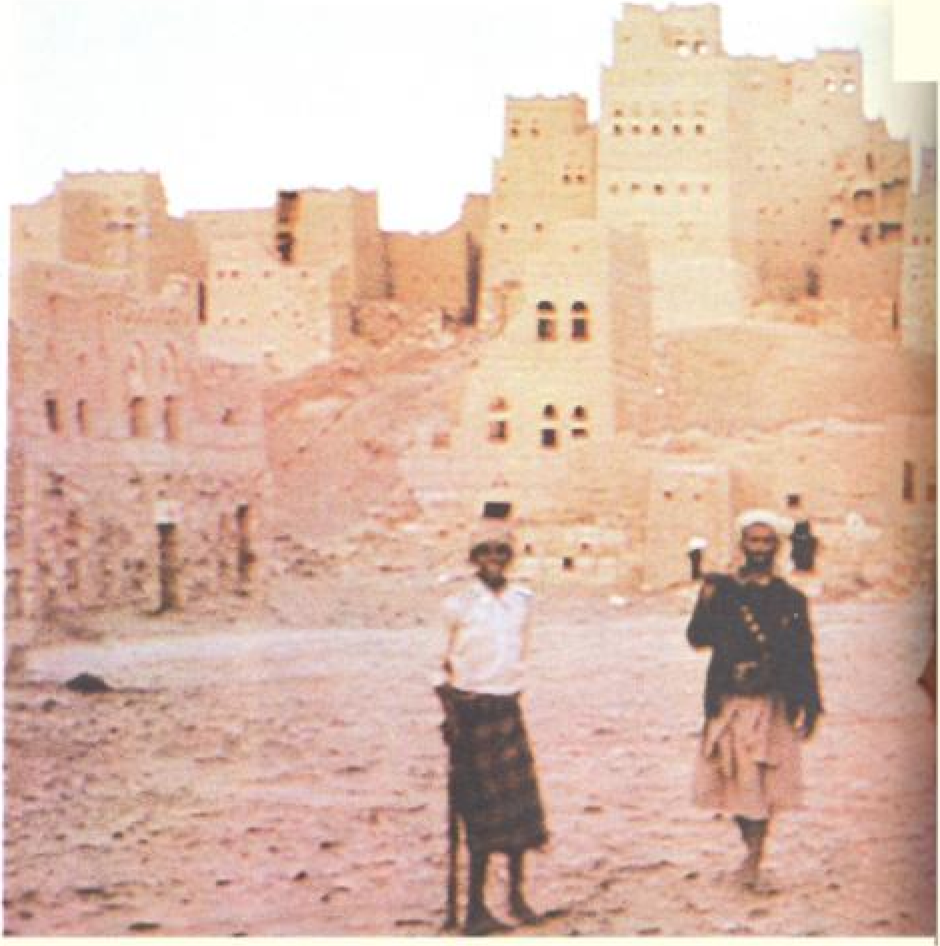


الى اليسار : كانت الوعول والغزلان تعيش في منطقة صِرْواح بأعداد كبيرة .. وقد سجل السبئيون في نقوشهم رسوم هذه الحيوانات بمهارة زائدة.. وترى هنا أحد هذه النقوش الدقيقة ملقىً بإهمال زائد في فناء قصر صرواح ، وبجانبه جلس علي محمد المصري الجهمي ، أحد أبناء صرواح ..





الى اليسار والى أسفل : صورتان توضحان حالة مدينة مأرب اليوم .. لقد أصبحت مدينة الأشباح ، لا تسكنها الا اربع عائلات .. والمطلوب اليوم اعادة ترميم وبناء منازلها التى هدمتها الحرب اليمنية، حتى يعود اليها أهلها الذين يعيشون اليوم ، حاقدين ثائرين فى السهول والوديان .



السيارة في الجبال دون أن نتعلم السياقة .. ونبطل مفعول المتفجرات في الالغام بشوكة من شجر "السَّلَم" .. ونطلق القنبلة من مدفع البازوكا دون جهازها ، باستعمالنا بطارية صغيرة .. كل هذا نفعله دون أي تعليم ، فكيف بنا لو تعلمنا ؟ !» .

اين هي الحكومة

وعندما وصلنا صرواح اتجهنا الى «معبد القمر» وفتح لنا عبد الله سعيد الباب .. وكم كان من الافضل لو لم يفتحه .. لقد تحول القصر العظيم الى مستودع للمهملات والنفايات كلها ، تحيط بلوحة النصر السبئية الرائعة الملقاة على الارض مهملة..واصر صالح بن علي ، على طردنا من المعبد قائلا : أنا صاحب المعبد .. اخرجوا من هنا .. قلنا : لا .. لن نخرج هذا المعبد ملك للحكومة .. اجابنا بسرعة : وأين هي هذه الحكومة .. اننا نريدها .. ولكنها لا تأتي الينا ولا تعرفنا !!

الى اسفل « لعنة بلقيس هي التي أصابت مبنى الحكومة في مأرب ، لأنهم اخذوا أحجار ١٥ معبدا سبئيا قديما ، ليشيدوا بها هذا المبنى الحكومي » ، الذي اصابته قنابل الطائرات والمدافع في الحرب الاهلية اليمنية الاخيرة .



هذه هي فاكهتنا ..

وكان قد مضى على وجودنا في المنطقة نحو اسبوع لم نذق خلاله الا لحم الخراف مع الارز .. اما الفاكهة والخضراوات والثلج والمياه الغازية ، وحتى مياه الشرب النظيفة ، فليس لها اثر في المنطقة ..واحس بن عميرة بما نفكر فيه فقال لنا : تشتهون تفاحة ؟ .. تفضلوا .. وادخل يده في حزامه واخرجها ممسكة بقنبلة يدوية ، قائلا : هذا هو تفاحنا وبرتقالنا .. ان سر حياتنا يكمن فيها .. ولكننا على استعداد للتنازل عنها وعن كل اسلحتنا اذا جاءتنا الحكومة ، وحرستنا وابعدت العدو المخرب عن ديارنا .. »

احاديث .. واحاديث لا نهاية لها .. كل شخص له رايه ، وله مشكلته ، وله متاعبه ، وله ماسانه والامه ..

كل منهم يحمل سلاحا هجوميا متطورا ، يهاجم ولا يدافع .. وكلما ضعفت حكومة صنعاء زادت قوة القبائل .. ان مشكل المنطقة يتمثل في كيفية نقل ابنائها من حالة الحرب والثار ، الى حالة السلام والمحبة ..

انهم يعيشون في فراغ شامل ، حتى قال لنا أحدهم : « ان العصر الجاهلي لم يكن قبل الاسلام انما هو في هذه الايام .. »

مطلوب كلمة حلوة

انهم يستصرخونك ايها الاخ العربي لتجدتهم ..

لقد تكفل الشيخ زايد آل نهيان ، بشق الطريق الى مارب ، وباعادة بناء السد ، وانشاء متحف للآثار في صنعاء ..

وهذا شيء عظيم رائع .. الا ان المطلوب اكثر من ذلك بكثير .. فهنالك مهمة اعادة بناء المدن المهدمة .. وقبل هذا وذاك مهمة اعادة بناء الانسان الذي لم يعلمه او يطوره احد منذ عهد بلقيس !

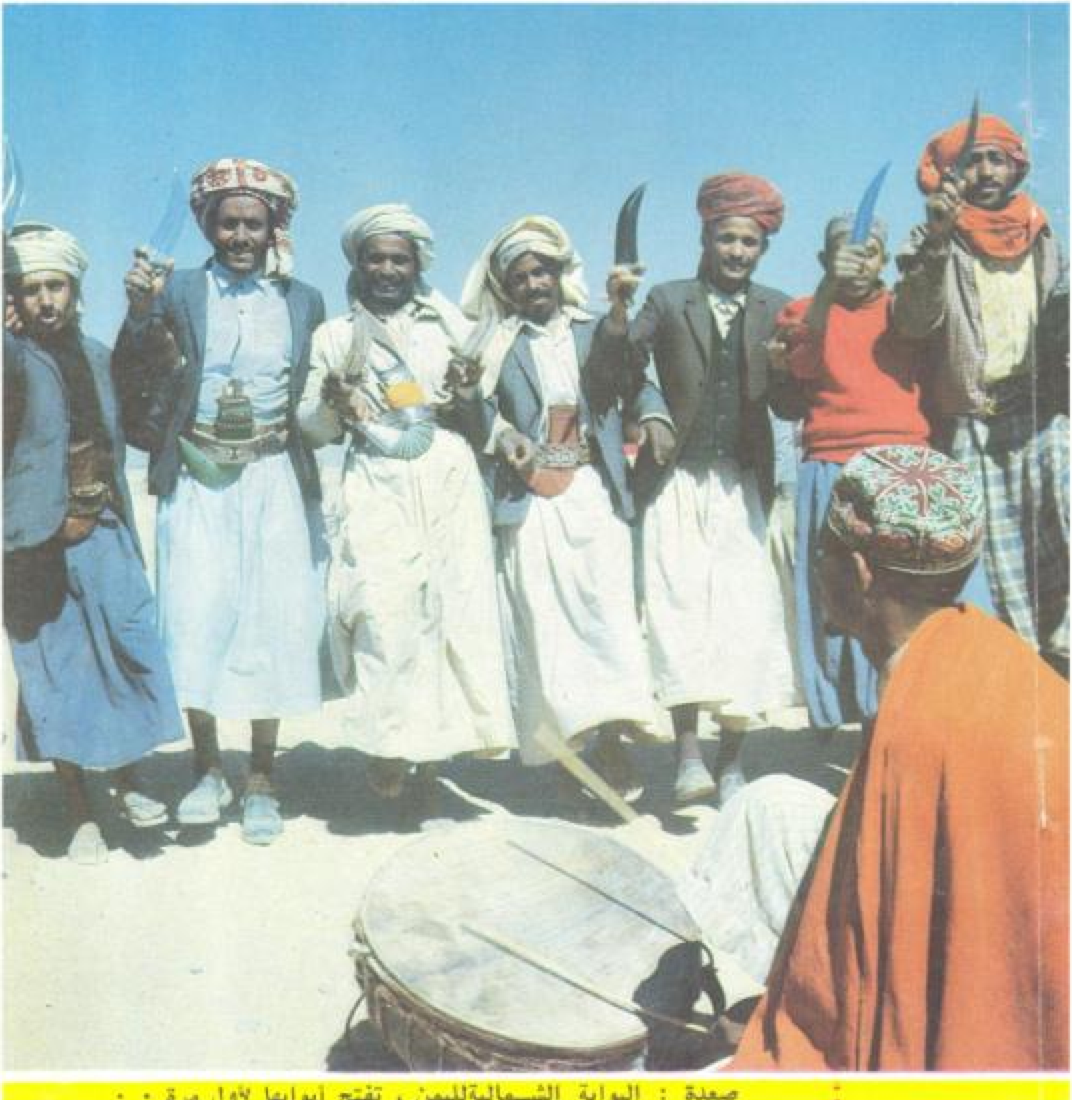
ان هذا الانسان العربي الاصيل الذي لم يختلط به اى جنس من الاجناس ، في حاجة الى العطف والمحبة والابتسامة والتسامح ، اكثر من حاجته الى الشدة والحزم والبطش .. ان تاثير الكلمة الحلوة في ارض سبا اقوى من الف طلقة وطلقة ..

ولكننا للاسف لم نجد شخصا واحدا ينطق بكلمة حلوة في المنطقة التي كانت ، في يوم من الايام ، مركزا للعسل واللبن ، وموطنا لملكة سبا !! ■■

سليم زبال

العربي

العدد ١٨٨
جمادى الثانية ١٣٩٤
يوليو
تموز ١٩٧٤



صعدة : البوابة الشمالية لليمن ، تفتح أبوابها لأول مرة ..

جوائز
١٢٠٠
دينار سنوياً

الثمن

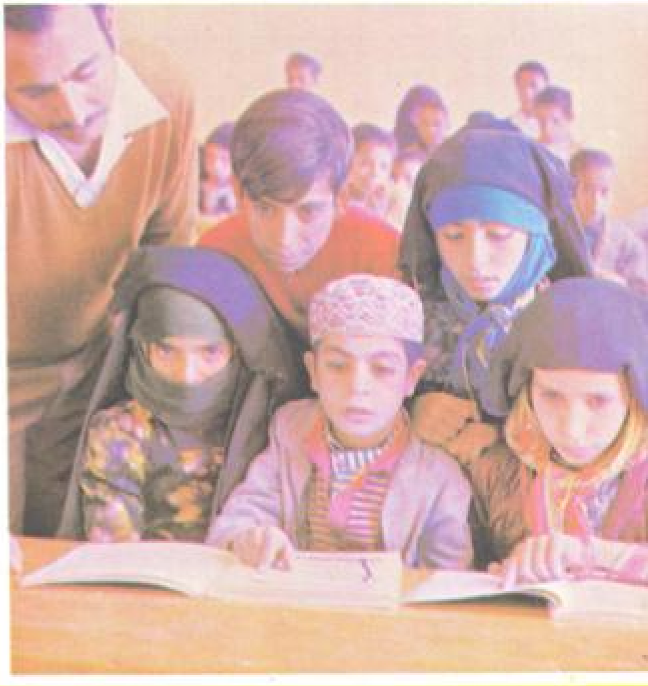
الكويت	١١٠ فلوس	العراق	١٢٠ فلسا	السودان	١٠ قروش
الخليج العربي	٢ ريالات	لبنان	١٠٠ قرش	ليبيا	١٥ قرشا
السعودية	٢ ريال	الأردن	١٠٠ فلس	تونس	٢٠٠ مليم
البحرين	٢٠٠ فلس	سورية	١٠٠ قرش	الجزائر	٢ دينار
اليمن	٢٫٥ ريال	ج.م.ع.	١٠ قروش	المغرب	٢ درهم

اعرف وطنك
أيها العربى

صَعدَةُ

عَلَى طَرِيقِ الانفِتَاحِ .. بَعدَ انغِلَاقٍ





استتب السلام فى ربوع اليمن .. فبدأت صعدة المستكينة فى مجاهل شمال اليمن ، تفتح ابوابها أمام رياح التبديل والتغيير .. وكنا هناك .. حيث شهدنا اقبالا هائلا على التعليم الحديث .. ورأينا روعة العمارة اليمنية فى مساجدها الأربعة عشر ، لاسيما جامعها الهادى ، ذا المئذنة التى ترتفع ٣٧ مترا .. وتألمنا للامراض التى تعصف بأهل البلد ، والتى يعالجها طبيب وطبيبة جاءا من المانيا لعلاج أبناء صعدة من الامراض التى تعصف بهم .. وفى مقدمتها البلهارسيا .

استطلاع :
سليم زبال

تصـوير :
اوسكار متري

استمر أكثر من ألف عام !!



■ اخيرا جاء اليوم الذى بدأ فيه ابن اليمن يحس بالدنيا التى حوله .

جاءت الساعة التى ظل ينتظرها عبر الاف السنين ..

اشرقت الشمس على هذه البقعة التى عاشت في طي النسيان ، يحتويها الفقر والمرض والجهل والظلام ،بدأت اليمن تخطو ببطء محاولة الاقتراب من حياة القرن الذى نعيشه .. القرن العشرين..

ان صورة اليمن ، وحياة أهل اليمن ، لم تغب عن مخيلتنا منذ ان وطئت اقدامنا ارض هذه البلاد العزيزة فى عام ١٩٦٢ .

لقد بقينا نتابع عن كثب طموحها الذى يفوق الآمال والامكانات .. ونتمنى لها التوفيق في محاولاتها اليائسة للتخلص من عبودية ماض اليم ..

علة العلل ؟

كنا نحاول دائما التعرف على « علة العلل » التى يعانى منها ابن اليمن .. ولكن اليمنى حريص على اخفاء الامه عن اعين الجيران .. حتى كانت رحلتنا الاخيرة الى شرق وشمال اليمن .. وفيها رأينا الرجل القبلى على الطبيعة .. وتابعناه فى صنعاء ، فرأينا مجتمعا غريبا،سكانا جددا جاءوها من الضواحى والقرى ، ليتمتعوا بمزايا الكهرباء والماء العذب ، والأرز،والبامية!! ولكن انشغالهم بمظاهر المدنية لم يستطع ان يمحو من قلوبهم الدمغة القبلية .. واذا جرف تيار المدينة احدهم،وجد من يقول له : « تقبيل !! » اى لا تنس عاداتك القبلية ..

وفى مقدمة هذه العادات : الولاء لزعيم القبيلة اولا ، ثم للوطن ثانيا ..

وانطلاقا من هذا المفهوم اصبح لرئيس القبيلة حجم يفوق حجمه الطبيعى .. أصبح فى حجم رئيس الدولة الاقطاعى ، له أراضيه المترامية ، واتباعه ، وقوانينه ، وقواته المسلحة .

انها دويلات داخل الدولة ، تقف امامها حكومة صنعاء عاجزة حائرة .

دفاع عن القبيلة

وعندما سألنا الشيخ صالح بن هادى غسان شيخ قبيلة آل عمار عن رأيه فى النظام القبلى ، اجابنا بحماس زائد قائلا : « النظام القبلى فى اليمن علم يحتاج الى دراسة .. وهو نظام تأسس فى فترة لم يكن فى اليمن خلالها دولة ، وكان نظاما دقيقا ، له دستور مكتوب ، يحدد جميع الانظمة القانونية والجنائية والعسكرية ..

« والنظام القبلى لا يتعارض مع نظام الدولة كما تتصورون ، ولا مع التطور بشىء .. واذا وجد نظام قبلى يتعارض مع نظام الدولة أو نظام الشريعة ، فان الخضوع فى هذه الحالة يكون لنظامى الدولة والشريعة .. »

رئيس الوزراء يقول ..



وسألنا رئيس مجلس وزراء اليمن الدكتور حسن مكى رأيه ، فقال : التخلف فى اليمن لا ينصب على النظام القبلى فقط .. انما النظام القبلى هو احد مظاهر التخلف ، وليس هو السبب الرئيسى .. انما التخلف بكل اشكاله ومظاهره هو مشكلة اليمن اليوم .

« ولو استطاعت اليمن ان تخطو خطوات اخرى نحو التطور ، والخروج من مرحلة التخلف الذى تعيشه ، فلا بد لها من ان تعمل على ايجاد المؤسسات الحضارية ، التى كلما كبرت ونمت، قلت مظاهر التخلف واسبابه .. وعندما تظهر هذه المؤسسات الحديثة ويحل القانون والنظام فان هذا يعنى ايجاد اسس جديدة لتنظيم العلاقات بين افراد المجتمع ،تسهل النمو والتطور فى اليمن الحديثة .. »

ثلاث محافظات جديدة

بعد توقف الحرب اليمنية الاهلية فى عام ١٩٧٠ انضمت الى الجمهورية العربية اليمنية ثلاث محافظات يمنية كانت تسيطر قوات البدر على معظم أراضيها .. محافظات كانت مراكز لقتال شرس عنيف .. محافظات لم تعرف شيئا من الانفتاح الذى عاشته بقية اجزاء اليمن ..

والى محافظة صعدة ـ وهى واحدة من هذه المحافظات ـ اتجهت بعثة العربى .

من صنعاء ركبنا السيارة الصحراوية (اللاند روفر) ويممنا شطر صعدة فى مجلس



خريطة تبين الجزء الشمالي من الجمهورية العربية اليمنية ، وفيها تبدو مدينة صعدة ، انها بوابة اليمن الشمالية ، فهي على مسافة ٧٠ كيلو مترا فقط من الحدود السعودية،وتقع على ارتفاع ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر .. الذي يبتعد عنها مسافة ١٥٠ كيلومترا .. وقد تم مسح الطريق من صعدة الى ظهران الجنوب في السعودية (٩٠كم) وهو الطريق الذي وعدت السعودية بشقه ورصفه منذ ثلاث سنوات .. اما الطريق من صنعاء الى صعدة وطوله ٢٥٠ كيلومترا ــ فقد قدم الصينيون قرضا لليمن لشقه ، وسوف ينتهي العمل منه تماما مع نهاية ١٩٧٤ ، وتضم محافظة صعدة مدينة صعدة و ٩٦٣ قرية و ٨١ عزلة و ٩ نواح و ٥ اقضية .

الشورى : الشيخ فيصل عبد الله مناع ، والسيد عبد الوهاب المؤيد ..

وقد تكرما بمرافقتنا ، وهما يقولان : « اننا نريد ان يطلع العرب على بلادنا .. ان صعدة تعيش بعيدا عن الاضواء .. والمسافر اليها من صنعاء مثل المسافر الى ما وراء البحار .. لهذا اطلقوا على محافظتنا اسم « لواء الشام » » .

طريق الحياة

كان الاهالي يقطعون المسافة من صنعاء حتى صعدة على ظهور الحمير في خمسة ايام .. اما نحن فقطعناها في ١٢ ساعة ، داخل سيارة تتمايل بنا يمينا ويسارا .. اما انت ايها القارىء ، اذا شدك هذا الحديث ، واردت أن ترى بنفسك هذه المدينة ، فلن تشعر باي عذاب ،لان الصينيين اوشكوا على الانتهاء من تعبيد الطريق الذي سيختصر المسافة الى ٢٠٠ كيلومتر فقط !!

تعالوا نسير معا وبسرعة على هذا الطريق ..

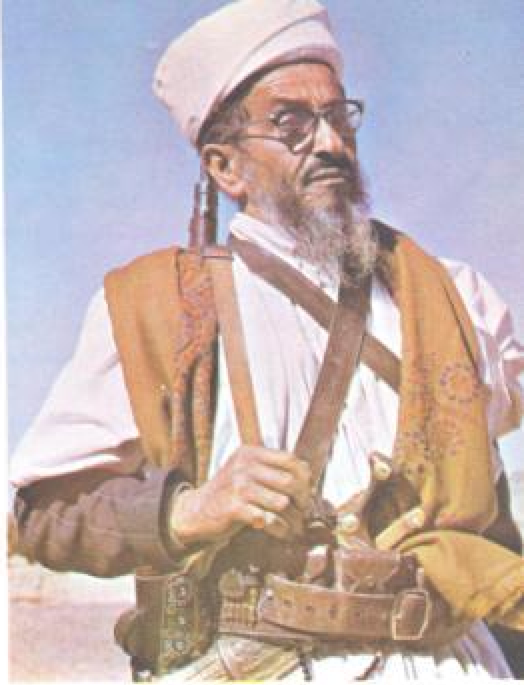
هذه هي قرية عمران .. انها على مسافة ٥٠ كيلومترا شمالي صنعاء وهي نقطة استراتيجية هامة ، سيتفرع من عندها طريق مختصر (٦٠ كيلومترا) حتى مدينة حجة ، تبرع الصينيون بشقه من اموال فاضت خلال شقهم لطريق صعدة !! واجمل ما في قرية عمران مدرستها الابتدائية الاعدادية التي بنتها حكومة الكويت منذ تسع سنوات .

وهذه هي قرية ريدة ، سكانها ينزلون من قمة الجبل ، ليسكنوا السفح ، حيث الارض الخصبة التي اقاموا عليها ٥٠ مضخة ماء ، بينما المطلوب ١٠ الاف مضخة !!

وهذا هو « قاع البون » .. **ارض زراعية شاسعة مستغلة كلها .. انها** سهل البقاع **اليمني .. وهاتان القريتان المتقابلتان امامه .. يطلقون عليهما اسم** السنتين : **الستة العلياء والستة السفلى ..**

اننا نمر الآن في اراضي قبيلة « بكيل » .. **وبعد جبل الفولة تبدأ اراضي** « حاشد » .. « **وقرية عمران » ــ التي مررنا بها ــ هي** جيب من حاشد في ارض بكيل !! **وبعد هذا تتابعت اراضي القبائل .. هذه** لسفيان ، وتلك لهمدان، والثالثة لسحار .. **وهكذا ..**

ووصلنا الى مدينة « خمر » **الشهيرة .. وفيها شهدنا المستشفى الوحيد الذي شيدته الكويت في المنطقة يعمل فيه طبيب وممرضة وثلاثة ممرضين، وسألنا الطبيب اليمني « عبد الملك ابو طالب » عن متاعب خمر ،فقال :** « انقطاع الماء من المدينة لمدة ايام متتابعة يسبب امراضا وازعاجا كبيرا للثلاثة الاف نسمة يعيشون في خمر ، ويعانون من



الى اسفل : القات فى قمة ازدهاره فى صعدة ·· انـه يكثر وينتشر عندمـا تتحسن الطرق وتسهل المواصلات··ومن الغريب أن كل منطقة فى اليمن « ترتاح » الى نتاج منطقتها ·· وهنا فى صعدة تجد أن « قـات رازح » هـو أحسن قات ·· وهو يزرع فى جبل رازح على مسافة ٢٤ ساعة من صعدة ، يأتون به على ظهور الحمير ، والجمال ، وعلى الاكتاف"·وبعضهم يفضل القات العمّارى ، نسبة الى مكان يقع فى قضاء همدان على مسافة ساعتين بالسيارة من صعدة ·· وربطـة القـات العمّارى ثمنها عشرة ريالات ·· والمولع بالقات يخزن فى اليوم الواحد أربع ربطات،أى ما يساوى ثمنـه ٨ دولارات يوميا ! ! وقـد تحولت مجالس القات التى تستمر نحو اربع ساعات ، ويحضرها الامير والفرّاش ، الى نـدوات كلهـا أحاديث واستذكـار ، واصبح الكثيرون يأخذون ثقافاتهم من مجالس القات ·· وطلبنا رأى صالح ضيف الله مـن مزارعى القات ، فقال : « **اذا ضمنت الحكومى لى دخلا يوازى دخلى من القات ، فانى على استعداد لاقتلاع اشجار القات وحرقها ·· انى اربى ١٥ طفلا من زراعتى للقـات ، واذا زرعتمكانه عنبا،فانى لن أربى اكثر منطفلين !**» ان حل مشكلة القات يحتاج الى دراسات وافيـة لا يمكنان يقوم بها الا جهاز مثل منظماتالامم المتحدة

الجنبية وحزام الرصاص على ؟الوسط··والبندقية والشال على الاكتاف··ان ابناء صعدة وضواحيها لا يسيرون الا وسلاحهـم معهـم ·· « **لقد تعودنا على هذا ونشأنا عليه ، ولا يمكن ان نفترق عن سلاحنا»هذا ما قاله لنا السيد بنمحمد الصعدى**·





« انا ضعيف •• انا في ذمتك » كان يقولها المتهم للشيخ محمد بن علي رئيس محكمة لواء صعدة الذي انهمك في قراءة ملخص للقضية يقع في ورقة واحدة طولها خمسة امتار ـ ! ! ـ امسك باولها كاتب المحكمة ! ! وتطبق على المتخاصمين احكام الشريعة الاسلامية المستمدة من الكتاب والسنة •• واكثر القضايا المرفوعة هي قضايا المال ، والارض ، وجرائم القتل !



البلهارسيا اللعينة .. والمرأة في خمر تفضل الموت على ان تتكشف على طبيب رجل . وفي خمر مدرسة ابتدائية اعدادية بنتها الكويت منذ سبع سنوات ومدرسة ثانوية ستسلمها الكويت في مطلع العام الدراسي القادم .

ووصلنا الى قرية « الحرث » التي تحيط بها رمال ناعمة .. اهلها يزرعون عندما تهطل الامطار. ولكن الامطار لم تهطل منذ خمس سنوات ! وفتح الله لهم بابا جديدا للعمل هو طريق صنعاء ـ صعدة .. انهم يعملون عند الصينيين بمرتب يتراوح بين ٥ و ٢٥ ريالا يوميا (كل ٥ ريالات يمنية تساوي دولارا تقريبا) .

الاموات يستقبلوننا !

ووصلنا مع الغروب الى مشارف صعدة .. ان صعدة ـ وهي وريثة التاريخ الطويل القديم ـ ترقد هادئة تحت سفح جبل تلمص ، يحيط بها سور كبير متكامل يحجبها عن العالم ، ويحجب العالم عنها !

ومررنا وسط القبور لندخل المدينة .. وشهرة قبور صعدة تعم كل انحاء اليمن ، ويقولون في ذلك : ان عدد الاموات يزيد على عدد الاحياء في صعدة ! .. واهلها يفتخرون بشواهد قبور الاموات ، وبالخط الذي كتبت به الاشعار على الشواهد .. ويحفظون عن ظهر قلب قصيدة

٥٠ مهندسا صينيا ، والف عامل يمني ، يضعون اللمسات الاخيرة على جسر من ٢٠ جسرا ، والف معبر لمرور الامطار ، موجودة على الطريق المعبد الممتد مسافة ٢٠٠ كيلومتر من صنعاء حتى صعدة .



فاطمة، التي نظمها القاضي الافضل سعد الزيدي ، عام ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) .. ووقفنا عند قبر فاطمة نقرا القصيدة التي مطلعها :

يا قبر لا زال يهمي فوقك المطر
وفوق تربك ينمو الورد والزهر
ففيك لؤلؤة مكنونة دفنت
تحت التراب وفيك الشمس والقمر
بنت الاكارم من اعلى الأصول نمت
عديمة المثل ، عنها يحسن الخبر
حليفة الدين والتقوى منزهة
عن كل عيب نماها سادة غرر
عدمتها قبل ان اشفي الفؤاد بها
وقبل ان ينقضي منها لنا وطر
بالله ، يا قبر ، هل زالت محاسنها
وهل تغير ذاك المنظر النضر
وا حسرتاه على ذاك الجبين ، وهل
يجدي التحسر ، او يشفي به الضرر ؟
لقد تنغص عيشي بعد فاطمة
ومقلتي بعدها اودى بها السهر ..

٢٥٤ كيلومترا في ١٢ ساعة

ومن باب اليمن اخترقنا سور صعدة الكبير العالي ، ان صعدة تكاد تكون المدينة العربية الوحيدة التي ما زالت تعيش داخل سور قديم متكامل ..

وعلى ضوء « لمبات الجاز » التي كانت تضيء بعض الطرقات ، اتجهنا الى استراحة الحكومة ، فوجدنا النزلاء على وشك الانفضاض من مجلس القات .. وبعد السلام والتحية والتعارف ، اتجهنا الى غرفتنا ، ورحنا في سبات عميق بعد رحلة شاقة مرهقة قطعنا خلالها ٢٥٤ كيلومترا في ١٢ ساعة ..

أسلوب الاجداد

ماذا يمكن ان يكون حال مدينة ظلت منغلقة على نفسها فترة الف عام ؟!

ان عقارب الزمن قد توقفت عن الدوران في صعدة .. هكذا خيل لنا .. حقيقة انهم ورثة اصالة وامجاد .. ولكن ايا منهم لم يسع الى تطوير تلك الحضارة او الاصالة المتوارثة .. مطالبه في الحياة بسيطة : مسمار في الحائط يغني عن الدولاب .. وسجادة على الارض بدلا من

السرير .. « وكدمة » من الخبز الجاف هي وجبة الطعام .. لا يذوق الخضراوات ولا الفاكهة .. يعتقد بوجود الجن في دلمان ، ويخاف من جنية تدعى « قرضة » في جبل « غثم » ترجم الأشرار بالاحجار ، وتفضح اسرارهم في مجالس القات !

حتى كلامهم اصبح محرفا ، يقولون قديح بدلا من قليل .. والمتبش عوضا عن النزل .. وازيط بدلا من الانسحاب بهدوء ..

ويتفاخرون بانتمائهم الكبير الى « حاشد » « وبكيل » « وسحج » .. يسقون اطفالهم الرضع دهن الخراف السائل ، لتهدئتهم ، فيموت ٥٠٪ من الاطفال قبل بلوغ الشهر الثالث ! ..

وقبل ان يموت الرجال يوصون اولادهم بخزانة الكتب ذات الورق الاصفر التى ورثوها عن اجدادهم .. كتب ما تكاد تقلب صفحة منها حتى تتساقط على الارض من فرط قدمها !!

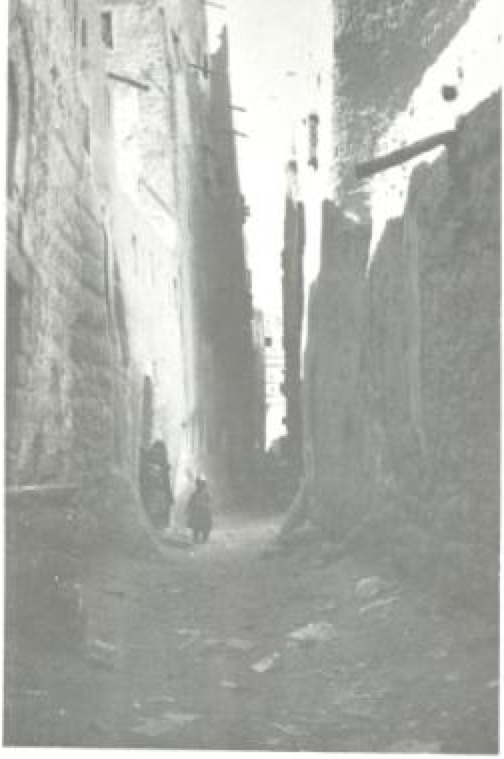
التدهور من القمة !

من اين جاء اسمها ؟ صعدة اسم المرة من : « صعدت صعدة » اى واحدة.هكذا يقول اللغويون اما ابناء البلد فيقولون : « صعدة هى النبتة المستوية أو قصبة الذرة » ، وكانت صعدة اكثر علما من « زَبيد » ، ومعقلا للعلم والعلماء .. ثم بدا الأفول ، وهاجر العلماء الى هجرة فللة ، وهجرة ضحيان القريبتين ..

وتحولت صعدة وضواحيها الى منفى للسياسيين المغضوب عليهم عند الامامين يحيى ، واحمد ، ثم قامت الثورة ، واستمرت الحرب الاهلية لثماني سنوات ، اثخنت خلالها صعدة بالجراح ، اذ تبادلتها واستباحتها قوات المتحاربين اكثر من ست مرات !!

وكانت هذه الحرب سببا فى زيادة عوامل الريبة والشك عند المواطن الصعدى الطيب .. فاصبح لا يتقبل ــ حتى سنتين ماضيتين ــ اى فكرة للتعاون ، او الاصلاح ، او التطوير . ونتيجة لهذه السلبية اصبح المسئولون بدون مسئولية ، فى حين ظهرت مسئوليات بدون مسئولين .. !!

ولم يكن لهذا الوضع أن يستمر ، لان صعدة هى البوابة الشمالية لليمن ، لهذا ما كاد السلام يرفرف ، حتى بدات قوافل الحجاج اليمنيين تنطلق على طريق صنعاء ــ صعدة ــ المدينة .. وكان لا بد لصعدة ان تتحرك ، وتفتح محلات



شارع الدرب،عرضه متران ونصف متر .. ،وكل حارة فى صعدة كان لها باب يقفل عليها فى الليل ..

لاصلاح السيارات ، وورشا للنجارة والحدادة .. وادرك الاهالى حاجتهم الماسة للكهرباء والماء ، فسارعوا بالمساهمة فى شركة الكهرباء والماء .

حديد بدون حدادين

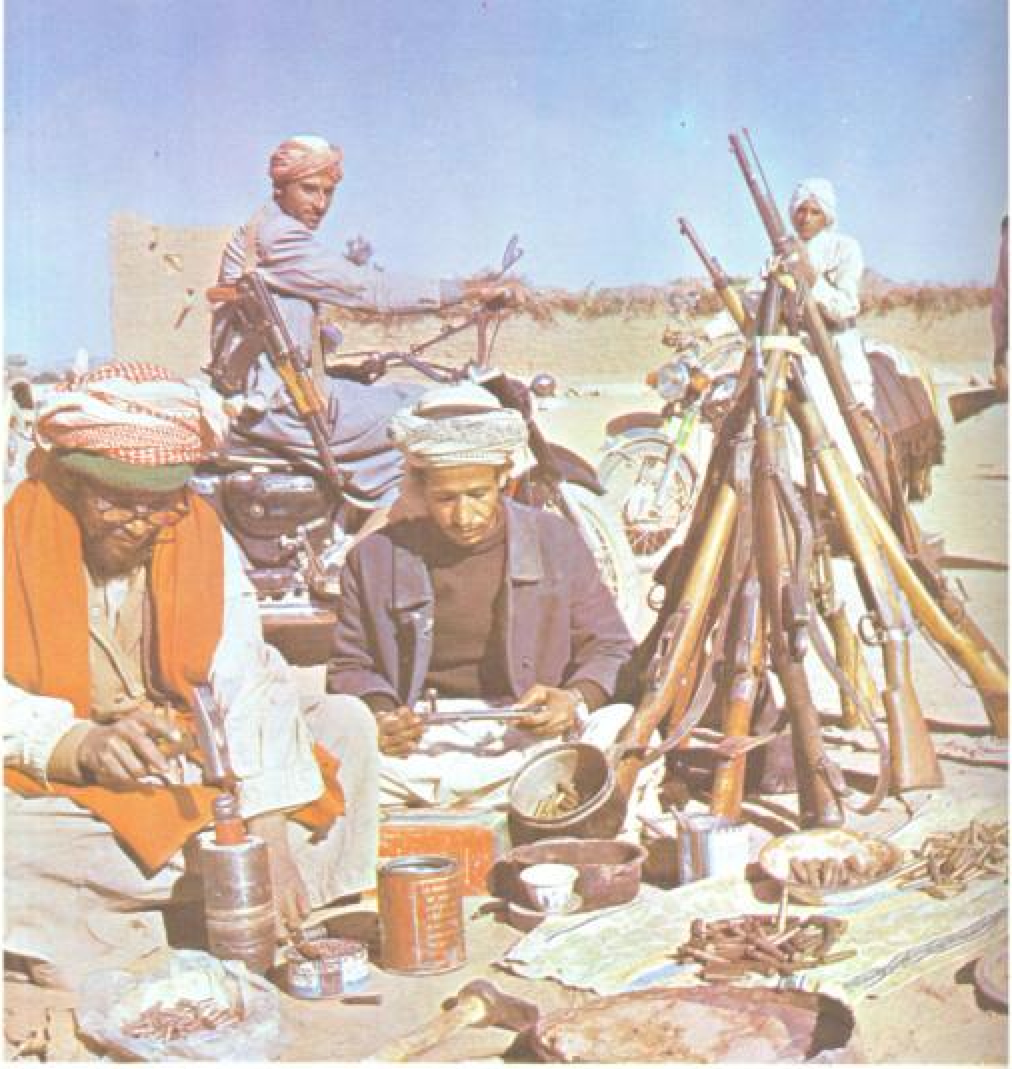
والواقع ان صعدة عرفت من قبل عملية صهر الحديد الخام الموجود بكثرة فى جبل خنمقر .. ان نسبة الحديد فى هذا الجبل تفوق ٧٠٪ ، لهذا كان سكان قرية « المجز » كلهم من الحدادين .. كان فى صعدة والمجز ٢٠٠ حَوية (اى معمل صهر الحديد) افران عادية تعمل على الحطب ، تفصل خام الحديد عن الخَبَث .. كانوا يصنعون السيوف والسبيكى ، وكانت شهرة حديد صعدة تعم اليمن كلها ، اذ كانوا يصدّرونه لصنعاء وعدن ..

كانت هذه الصناعة مزدهرة حتى عام ١٩٥٠ ، وبعدها اغلقت الحويات ابوابها ، ولم يعد احد يكترث بالحديد او بخام الحديد الملقى عند بوابات السور ، ومنازل صعدة !!

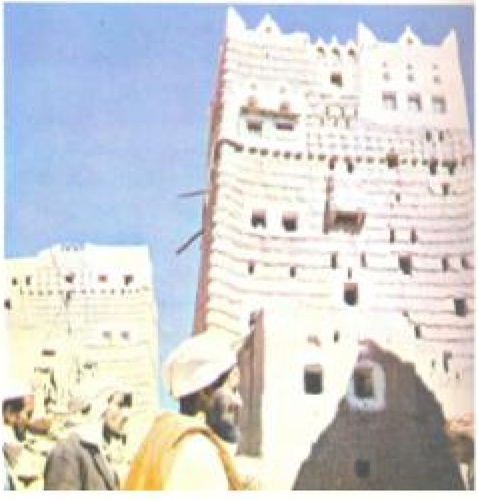


كلنا يذهب الى الاسواق ليشترى تحفا وعاديات ، أو احذية وملابس ، او فاكهة وخضراوات ". أما أن نشترى القنابل والالغام ، والبنادق والخناجر ، والمسدسات والرشاشات ، من وسط السوق ، فهذا مالم يخطر لنا ببال ، حتى دخلنا سوق صعدة ، ورحب بنا عبدالله بن جابر الفرازى فى متجره العجيب ، مبتسما ابتسامة كشفت عن اسنان خضراء من فرط تخزين القات .. قال لنا : « **تشتهون لغما صينيا ؟ بخمسة ريالات فقط والقنبلة اليدوية من كل نوع : امريكى ، انجليزى ، صينى .. بعشرة ريالات .. والمسدس بثلثمائة ريال فقط** » ". وعندما ابدينا دهشتنا ، قال لنا عبد الله مقهقها من « سذاجتنا »: « **انتم ما عندكم قنابل فى بلادكم ؟ . هنا كل مواطن يمنى عنده خنجر وبندق وقنبلة ومسدس ورشاش** »

الى اليسار : مبانى صعدة تعكس الطابع العربى للمدينة ، مساكن اشبه بقلاع ، مصنوعة من الاحجار والتبن والتراب . والخطوط التى فى المبنى تسمى صرعا ، سمكها ٦٠ سنتيمترا ، وكل ٧ صروع تكون طابقا



مصنع للاسلحة والذخيرة في الهواء الطلق !! احمد ومحمد العوشي خبيرا المفرقعات اليمنيان يجمعان القنابل الكبيرة التي لم تنفجر في الحرب ، يفككانها ويأخذان منها البارود ليحشوا به الرصاص الفارغ للبنادق!! انهما يشتريان كل ٢٠٠ رصاصة فارغة بريال واحد من اطفال المنطقة الذين يجمعونها من الارض ، وبعدها يبيعان كل رصاصتين محشوتين بارودا بريال واحد ! !





باب اليمن الجنوبي هو الباب الرئيسي في سور صعدة ، الذي يحوي خمسة ابواب ثلاثة منها مستعملة والرابع يجري فتحه ، والخامس سوف يفتح عندما يفتح المستشفى الحديث ابوابه .. لاحظ تكدس الطلبة في السيارة التي تنقلهم الى المدرسة .



ماذا يجدي العلاج والدوا
في هذه البحيرة ـ الظاهرة
حاملة معها اوساخ قر
المصدر الوحيد للماء ، يا
يشربون جنبا الى جنب ،

البامية العملاقة !!

ومن ثروات صعدة الزراعة .. لقد تجولنا في صعيد صعدة (٤٥ كيلومترا طولا و ٢٥ عرضا) .. ارض خصبة بكر لا يزرع منها الا بضعة افدنة فقط ، شهدنا فيها حبة البامية طولها ١٥ سنتيمترا ، وحبة البطاطس وزنها نصف كيلو .. نجاح مذهل لزراعة تقوم على اسس بدائية في مزارع خاصة محدودة ..

وماذا عن بقية الارض التي تزيد مساحتها على الف كيلومتر مربع ؟

ان الاسلوب الاقطاعي القبلي في ملكية الارض يقف عقبة في سبيل زراعة هذه المساحة الشاسعة في صعيد صعدة الخصب .. فالارض تتقاسمها القبائل فيما بينها ، لكل منها حق معين فيها : هذه القبيلة لها حق الماء ، وهذه لها حق الرعي ، وتلك حق ملكية الاشجار .. وهناك اراض مشتركة بين عدة قبائل .

ان هذا التقسيم الغريب يجعل من استغلال الارض عملية مستحيلة لصعوبة الاتفاق بين الافخاذ والبطون المتفرعة عن القبيلتين الرئيسيتين : خولان بني عامر ، وهمدان !!

فشل محاولة اختراق السور

وعندما وجد وزير الاشغال السابق ، السيد عبد الله بن يحيى الصعدي ، ان اصلاح صعدة القديمة واعادة تخطيطها يتطلب اموالا ومجهودات هائلة ، رأى مع مهندسه ان عملية بناء صعدة جديدة خارج اسوار صعدة القديمة سيكون اسهل بكثير من الهدم واعادة التعمير !! وخطط المهندس للمدينة الجديدة خارج السور .. وعندما تقرر تنفيذ المشروع فوجئوا بمشايخ القبائل يدعون ان هذه الارض ارضهم ، وانهم ورثوها عن آبائهم !!؟

وأسقط في يد وزير الاشغال ، وبدأ التحقيق فانكشفت امور مذهلة .. فاثناء الحرب الاهلية كان المسئولون يبيعون اراضي الوقف ـ التي لا يملكونها ـ لمشايخ القبائل ، وقواد الوحدات ..





ا كان سبب الداء باقيا ثابتا؟
صورة ـ تتجمع مياه الامطار
المرت » ٠٠ ان البحيرة هى
كان القرية مع حيواناتهم ،
س المياه الملوثة القذرة ؟؟؟

احترقت ساق الطفلة « اسيا » وهى تلعب ، فجلست فى منزلها البعيد لا تستطيع حراكا ،وفى كل يوم بعد الظهر يأتى « الدكتور والدكتورة » ويردا « الالمانيان ، يفحصان القدم ويعالجانها ٠٠ ان ٩٢ طبيبا من مختلف انحاء العالم يعملون فى علاج اهل القرى اليمنية ! !

واليوم اصبحت كل أملاك الدولة والاوقاف داخل السور وخارجه مباعة ! ٠

وهكذا توقف بناء صعدة الحديثة ، ولم يعثروا الا على قطعتى ارض اقيمت عليهما مدرسة الكويت ،والمستشفى الحديث ٠٠

الهادى كان اكثر توفيقا

ولم تكن هذه اول مرة يفكرون فيها لنقل صعدة من مكانها ، ففى عام ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) عندما جاء الامام الهادى من المدينة المنورة الى صعدة ، داعيا اهلها لمبايعته ، والانضمام الى المذهب الزيدى كانت صعدة مدينة حميرية قديمة زاهرة تقبع تحت جبل تلنمص ،واراد الهادى بناء مدينة خاصة به وباعوانه فجلس فى مكان المدينة الحالية، وغرس « صعدة » ، اى قصبة ذرة ٠٠ وقال : هنا سوف تبنى صعدة الجديدة !!

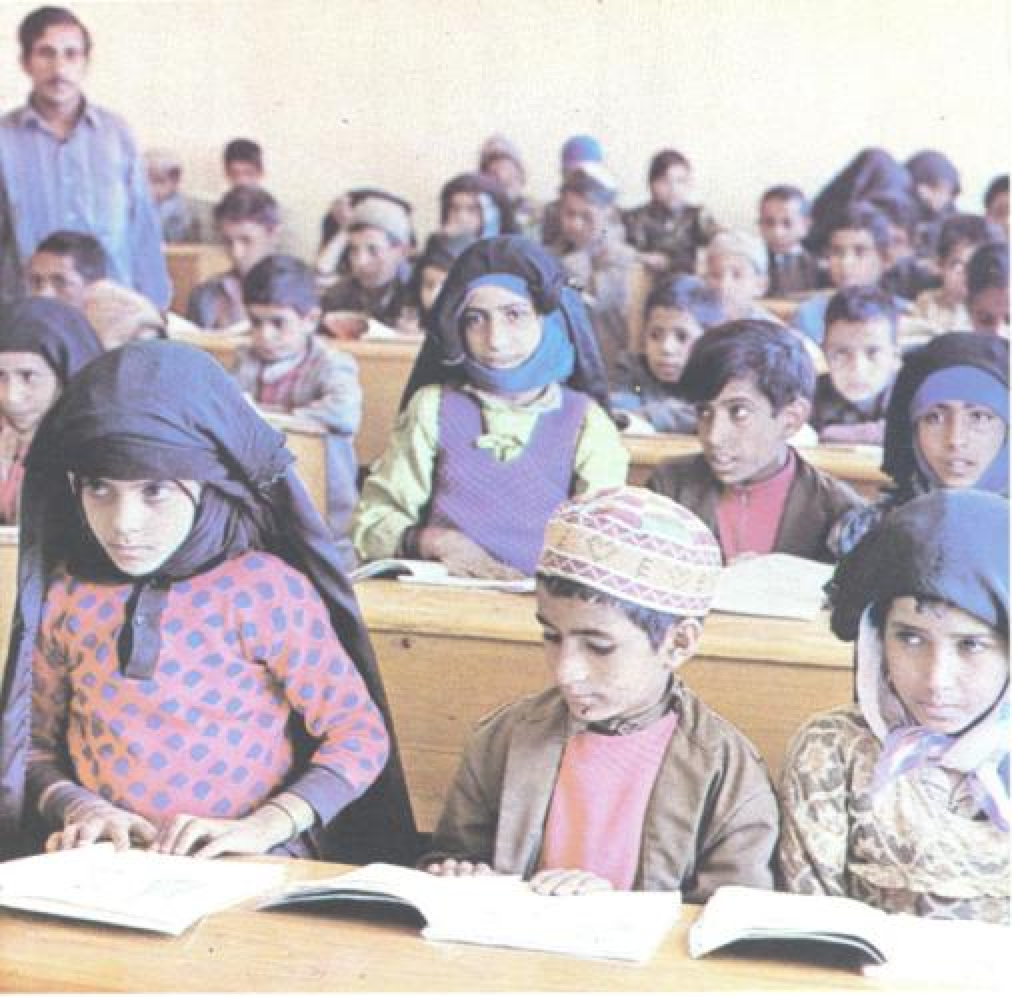
وخلف الامام الهادى ولده محمد ، الذى تنازل لشقيقه الناصر ، وكان رجل حرب ، اتخذ من صعدة قاعدة له ، وانطلق يخوض معارك دموية ، عنيفة مع القرامطة ٠

وتتابعت المحن على صعدة ، وقامت الحروب الدموية بين ابناء الناصر ، فهرب الناس من المدينة عام ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م ٠) وبعدها ابتعدت الامامة عن صعدة،لكن سلطان الائمة ظل محصورا فى شمال اليمن حتى اوائل القرن الحادى عشر للهجرة ، الا فى فترات قصيرة متقطعة ، بسبب معارضة الدول اليمنية الاخرى لهم ، ومناهضة سلاطينها لحكمهم ٠٠

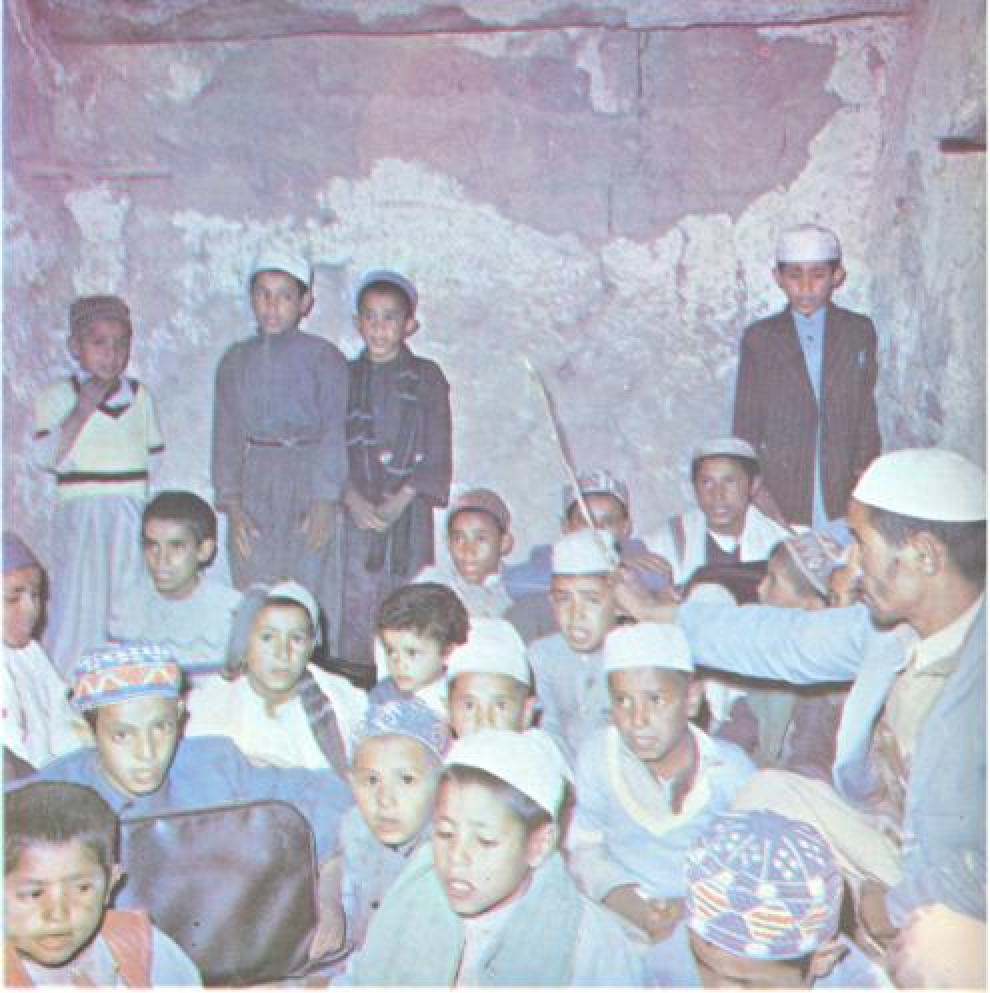
ومما يذكر ان حكم الائمة فى اليمن ، الذى بدأ على يد الامام الهادى الى الحق عام ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) استمر بعد ذلك لمدة ١٠٦٥ عاما ، تعاقب خلالها ٦٧ اماما على حكم اليمن ، حتى قيام ثورة اليمن واطاحتها بالامام البدر فى شهر سبتمبر ١٩٦٢ ٠

على نفسها جنة براقش

لقد عاشت اليمن خلال هذه الفترة تحت ظل حكم تعسفى عفن ، لم يعرف العالم له مثيلا ٠٠







مطلوب بناء ١٢٠ مدرسة جديدة حول صعدة وضواحيها،لتستوعب ٧٥ بالمائة من اطفال المنطقة المحرومين من التعليم ، لعدم وجود مبان مدرسية ! ! ان بناء مدرسة واحدة ذات ست حجرات ، طبقا للهندسة المحلية ، يكلف نحو ١٠ آلاف دولار ٠٠ فلماذا لا تبنى مدرسة تخلد بها اسمك في صعدة ؟ ! سؤال نوجهه الى كل عربي قادر ؟ ٠٠ **والصورتان اللتان الى اليمين** ، التقطناهما في مدرسة الكويت ٠٠ اول مدرسة حديثة اقيمت في لواء صعدة ٠٠ **في الصورة الاولى** الفتيات والفتيان يتعلمون معا ٠٠ **وفي الصورة الاخرى** الفتيان فقط هم الذين يتعلمون الرياضة دون الفتيات!! اما الصورة العليا فهي لأطفال « هجرة فللة » يتلقون التعليم الديني في الكتّاب المقام داخل أحد الاضرحة القديمة المهجورة٠٠ سألنا الاستاذ عن عدد التلاميذ فاجابنا : « **ربما يكونون ٤٠ تلميذا** » ، محشورين في مقبرة ليس بها تهوية،ولا تزيد مساحتها على ستة امتار مربعة ٠٠ ولم نسمع شيئا من الدرس ، لان



حكام لم يسمحوا بتسرب بصيص من النور الى شعب عريق الاصل .. حكموه حكما هو اقرب الى عالم الأساطير منه الى واقع عالم اليوم .. ومن الامثلة التى عادت على صاحبها بالكوارث قصة الامام صلاح بن على بن الحسين .. عاش في القرن التاسع الهجرى ،وكان يوهم افراد قبيلة « منبه » بقدرته على التحكم في هطول الامطار .. فكانت الامطار تهطل فى حله ، وتنحبس عند ترحاله ، فيهللون ويكبرون !! وحاول المسكين السفر بعد ذلك ، فاصروا والحوا عليه في البقاء .. ولكنه تمسك بالسفر .. فما كان منهم الا ان اردوه قتيلا بالرصاص ، واحتفظوا بجثته تبركا ، لكى يضمنوا بقاء الخير في ارضهم !! وطالبت قبيلة « جماعة » بجثة الامام ، فرفض طلبها .. وقامت على الفور حرب صغيرة بين قبيلتى « جماعة » و « منبه » سقط فيها ٧٠ قتيلا و ١٥٠ جريحا ، وانتهت بنقل جثة الامام الى مقبرته الحالية فى هجرة فللة !!

ووقفنا عند قبره فوجدنا على شاهده آثار رصاص ترمز الى الاسلوب الذى قتل به !! (انظر الصورة) .

من هنا خرج ١٦ اماما

وتجولنا في فللة انها بلدة القبور والاموات .. مقابر ومشاهد رائعة .. هذه من القرن السابع ، وتلك من القرن الثامن .. مقابر تشهد باصالة هذه البلدة واهميتها .. انها بلدة اشتهرت بخروج ١٦ اماما من بين ابنائها ، انها قرية هاشمية بحتة «والهاشميون كانوا يرون أن حتمية الامور تفرض عليهم وجوب القيام بالامامة ، بمجرد احساس احدهم بشيء من الافضلية على الاخر ، ومع هذا فانه لم يحدث في الغالب ـ خصوصا بعد القرن العاشر الهجرى ـ ان مات امام ولم يعقبه قيام امامين او اكثر ، كل منهم يرى احقيته في الامامة ! وهذا هو سبب التطاحن والانقسامات ، وما خلفته من ضغائن واحقاد بين القبائل ، جعلتهم يعيشون في صراع مستمر ، وفوضى مستحكمة » (١) .

ان هذه القرية الصغيرة ، هجرة فللة تعيش اليوم نسيا منسيا ، بالقرب من صعدة ، تجتر ماضيها وتتغنى بامجاد اجدادها .. بعيدا عن انظار العالم كله ..

البلهارسيا مرض غير خطر

سألناهم ، وقد رأينا ماء الوضوء آسنا اخضر اللون ، لشدة قذارته : « الا تخافون من الجراثيم الكامنة فى هذا الماء ؟ » .

فاجابنا الشيخ السيد سراج الدين بن عز الدين ، مفتى هجرة فللة : « تقول لهم ، ويعرفون ان البلهارسيا من هذا الماء .. ولكنها الحاجة هى التى اضطرتهم الى استعماله .. ونعتقد ان الشرع لا يبيح لنا العدول عن التيمم بالتراب بدلا من ذلك الماء الملوث .. لان التيمم لايسمح به الاخشية التهلكة ، اما الضرر فليس بعذر .. » .

قلنا : « والبلهارسيا ، اليست من التهلكة ؟ » .

فانبرى لنا رئيس البلد السيد على بن عبدالله حورية قائلا : «ما زلنا نعتقد أن البلهارسيا مرض غير خطر ، وانه غير مهدد للحياة .. ونحن عشنا على هذه الحالة ، كما عاش اباؤنا عليها .. وعلى الجيل الناشيء الجديد مسئولية تدبير نفسه !!؟ » .

والفئران كذلك ليست خطرة

وخلف كل ضريح زرناه ، كانت تسترعى نظرنا اكوام من الاوراق المطبوعة القديمة البالية الصفراء ، ملقاة خلف الضريح ، والفئران تتسلل بينها ، وتعجبنا من هذا المنظر ، فقال لنا مفتى فللة : « انها اوراق المصاحف القديمة نلقيها خلف الاضرحة ، احتراما للمصحف ، وحرمة له من « الدعس » ، وقد اتخذت الفئران منها مأكلا لها » .

قلنا : « وخطر الميكروبات التى ينقلها الفأر ، الا يمكنكم حرق الاوراق ؟ » .

اجابنا : «لم يكن يخطر بالبال ان في ذلك اسبابا لامراض خطرة .. ونحن لا يمكن ان نفتى بحرق اوراق المصاحف القديمة الا بعد مؤالفة ، حتى لاينقم الناس علينا .. ويجب ان نبدى لهم اولا الرأى الوجيه المبيح للحرق !! » .

عيب

ولا يفتح الناس فى هجرة فللة ، الراديو الا خلال نشرة الاخبار ، اما سماع الموسيقى فحرام ، وحجتهم فى ذلك قول الله تعالى : « ومن الناس

---

(١) كتاب تاريخ اليمن السياسى فى العصر الاسلامى للدكتور حسن سليمان محمود .

من يشترى لهو الحديث ، ليضل من سبيل الله »··
قلنا : « هل توافقون على تعليم البنات ؟ »
فاجابونا بالم ومرارة : «ماوجدنا معلما للصبيان، حتى نعلم البنات ! »

عدد السكان ؟!

وفي سوق صعدة الشهير ، بدات الحركة تنتعش·· ان انفتاح المدينة ، وقرب وصول الطرق اليها ، جعل البضائع ترد اليها من الشمال والجنوب ، وبدأ اصحاب المتاجر يتحولون الى تجار كبار ، يبيعون ويشترون من الحجاج ·

ولكن الرجل القبلي يرى العيب ، كل العيب ، فى بيع الخضراوات والفواكه ، من بطاطا ، وبصل، « وطماطيس » وعنب ·· كما أن احتراف اى مهنة مازال يعتبر عيبا عند القبلى ··

وسالناهم عن عدد سكان صعدة ، فتضاربت اقوالهم ولم يتفقوا على رقم ، وراجعنا دفاتر جمع الزكاة ، فوجدنا عدد الذين يدفعونها ١٥٠٠ نسمة فقط ، ومن المعروف ان الفقراء لا يدفعون الزكاة ··

وسالنا مدير الامن العام فى صعدة ، فقال : لا يزيد عدد سكان المدينة على اربعة الاف نسمة ·· وطالعنا كتاب « الاحصاء السنوى لجمهورية اليمن » ، فوجدنا عدد سكان صعدة ٣٠ الفا !!

امراض صعدة

اما صحة السكان فحدث عنها ولا حرج ·· الامراض تفتك بهم فتكا ·· ان الاوبئة تنتشر بين بيوتهم ·· والعلاج فى مدينة مثل صعدة لا يجدى كثيرا ، لان الوقاية والوعى الصحى لا وجود لهما، فمن السهل معالجة المريض ، ولكن من الصعب حمايته من الوقوع فى المرض نفسه · الاطفال يولدون ولا ياخذون اى جرعة من التطعيم ضد الشلل ، او الدفتريا او التيتانوس ، او السعال الديكى ، والحمد لله ان الله قد حماهم من شلل الاطفال ، فهو غير موجود فى المنطقة ··

اما الكبار فمرضهم الرئيسى هو البلهارسيا ، والمرض الثانى هو الديدان المعوية ، نتيجة عدم غسل الخضراوات جيدا ·· والمرض الثالث هو السل ·· وهناك امراض اخرى : مثل الجدرى والكوليرا ··



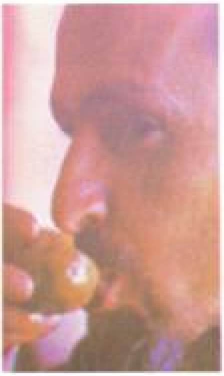
لشد ما هو محزن ومؤلم ، منظر آلاف الاطفال اليمنيين الذين هم فى سن التعليم ، وليس لديهم مدرسة يتعلمون فيها ! ولا مستوصف ليخفف عنهم آلام خلع الاسنان بالكلابتين ·· والام التراخوما التى تعمى العينين ·· واوجاع البلهارسيا التى تفتك بالكليتين ·· انها صورة مهداة الى ضمير كل عربى حى ! !

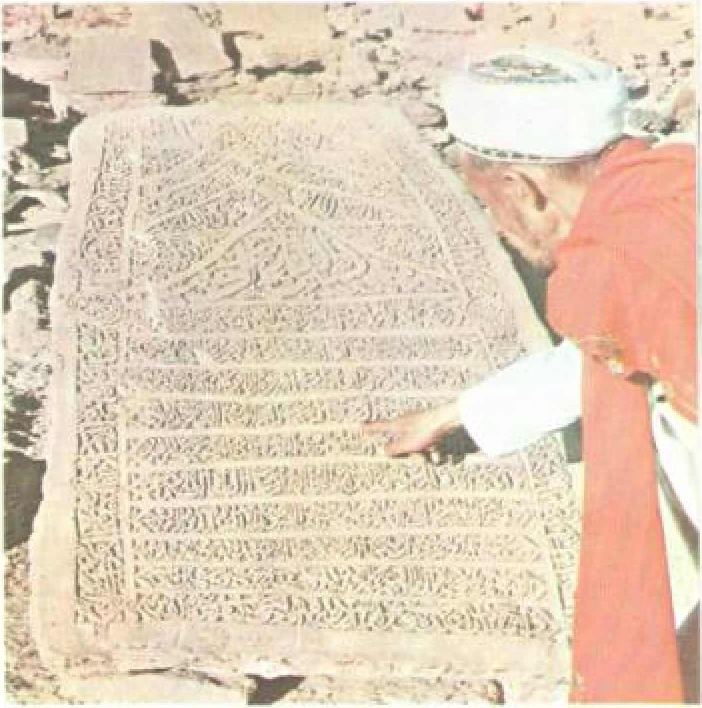
وفى صعدة ثلاثة ادعياء طب ، ينتحلون صفة الاطباء ، ويزاولون عملهم بين الاهالي الطيبين ·· كل منهم يدعى انه مدير صحة صعدة !!!

وقد اصيب هؤلاء بخيبة امل كبيرة ، عندما جاء فى العام الماضى طبيبان المانيان ، وثلاث ممرضات من استراليا ونيوزيلندا وامريكا تابعين لهيئة الخدمات العالمية ، اقاموا فى مبنى المستشفى القديم وبداوا فى علاج الاهالى باحدث الاساليب··

والمستشفى الذى تقوم المملكة السعودية ببنائه مازال تحت البناء منذ عامين ··

الى اليسار : الحلبة الحامضة مع الخل ، والشفوط ، واللحوح وبنت الصحن ولحم المراق المشوي ، ماكولات يمنية شهيرة .. ولكن صعدة تتميز باكلة «**الكواعيب**» .. انه « سلاح سري » يبقى في المعدة بلا هضم ثلاثة ايام على الاقل !! فهو ملعقة من العجين تحشى بها حساء اللحم ، وتاكلها سويا : الملعقة والحساء ! (**الصورة السفلى**) .





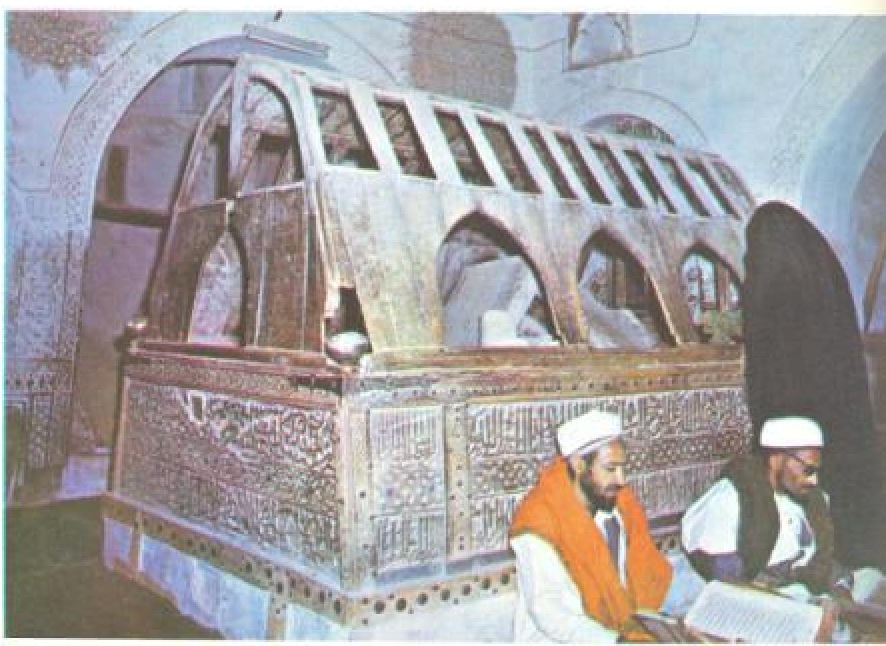
على هذا الحجر كتبت قصة مقتل الامام صلاح بن علي قتلوه للتبرك بجسده ؟ !

الى اسفل : حلقة دراسة في جامع الهادي ، يرأسها فضيلة الشيخ حسن بن قاسم الحوثي ..



الى اليسار : قبر الامام الهادي ، اول ائمة اليمن .. مازال الاهالي يتبركون به ، يضعون عليه اغصان الريحان والنور .. فيأتي الاطفال ياخذون النور ويتركون الريحان للسدنة ! !





بلدية بالاسم فقط

وتحدثنا الى مساعد مدير بلدية صعدة عن نظافة المدينة فقال : « ما عندنا امكانيات لدفع مرتبات لعمال نظافة .. ان ميزانيتنا ٣٠٠ ريال شهريا ، نصرفها على الكهرباء والايجارات ومصاريف البريد . ونحن نحصل شهريا على ١٣٠٠ ريال من عائدات القات ، و ٨٠٠ ريال من عائدات اللحوم ، وهي ايرادات تسلمها للخزانة العامة ، ولا يمكن ان نتصرف في ريال واحد منها » .

راى له وجاهته

وما تكاد الساعة الثامنة تدق ، حتى تتوقف الحياة في صعدة ، ويتجه الناس الى منازلهم .. فيما عدا مقهى غازي حيث يسهر الاساتذة العرب.!

وقد حاول بعض رجال صعدة فتح دار للسينما فيها ، ولكن العلماء رفضوا الطلب ، واتجهنا الى القاضي الفاضل جاسم بن حسن سادن جامع الهادي والمدرس بالمعهد العالي ، نسأله عن الموضوع ، فقال : « رفضنا المشروع ، لان السينما تصور اشياء حقيقية ، فيرى الناس المرأة سافرة مكشوفة، ويرون الخرافات التي لا أصل لها في الاسلام .. وهي تلهي الشباب عن اداء واجباتهم ، وتجعلهم يرفضون النعمة التي هم فيها .. بمعنى انه اذا نظر الشاب الى من هم فوقه في الدنيا ، ورأى التطور الذي هم عليه احتقر نفسه .. وهذا يؤدي الى كفر بالنعم ! !

« ونحن لانقول بتحريمها شرعا ، ولكننا نتخوف من نتائجها.. واذا كانت هناك افلام لاتظهر فيها المرأة سافرة ، فلا بأس من عرضها ، في غير اوقات الصلاة ! ! »

راى طريف له وجاهته ..

مشاكل التعلم

ان العديد من مشاكل صعدة ، واليمن عامة ، لن يحلها الا نشر التعليم الحديث في البلاد ..

وقد بدأت فعلا عمليات تطوير التعليم .. فالتعليم الديني ـ وكان يجلس الطالب فيه ١٢ عاما يتعلم ، اختصر حاليا الى ٦ سنوات وهناك مشروع حديث يجرى تنفيذه من اجل بناء معهد علمي جديد .

وفي ١٩٧٠ فتحت « مدرسة الكويت » ابوابها، فكانت اول مشروع تربوي حديث تشهده المنطقة الشمالية .. وتضم مدرسة الكويت حاليا ٤٦٥ طالبا ، منهم ٨٥ طالبة يدرسون في الفصول الابتدائية حتى الثانية الاعدادية .

ومشاكل التعليم تتلخص في صعوبة نقل الطلبة الى مقر المدرسة خارج السور ، وهذه المشكلة حلها وزير الاشغال السابق بتبرعه الكريم لنقل الطلبة ..

ومن المشاكل الاخرى عدم تناول الاطفال تغذية كافية .. ثم انعدام وسائل ايضاح البديهيات . الاطفال يعيشون بعيدا عن العالم .. اما المشكل الاكبر فيكمن في تنوع مصادر الكتب المدرسية ، فهي تأتي من مصر ، ومن العراق ، وسوريا .. تتحدث بالليرة والجنيه والقرش،بينما عملة اليمن هي الريال والبقشة !!

تحية للاساتذة

وزرنا الاساتذة العرب واليمنيين في الشقة التي اعدت لاقامتهم .. كل منهم يعيش في غرفة ارضها من الاسمنت .. جدرانها مطلية بالنورة البيضاء ، ليس فيها خزانة او طاولة .. وانما مسامير على الجدران يعلقون عليها ملبوساتهم .. وصندوق خضراوات فارغ يضع الواحد منهم عليه الراديو الترانزيستور .. انه الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم ، فالصحف لاتصل،واخبار العالم من حولهم معدومة ..

وحتى لايمتعض الاهالي من ارتداء الاساتذة للسروال استبدلوه بالفوطة التقليدية المحلية ..



وتحدثنا الى وزير التربية احمد جابر عفيف، الرجل الذي يتحمل مسئولية التعليم في اليمن منذ الاستقلال عن رأيه في هذا الكلام فقال : « ان مشكلة التخلف في اليمن لم يعرف العرب ابعادها الحقيقية بعد .. ان اليمن يعتمد على نفسه للنهوض ببلاده .. ومشكلة التعليم في بلادنا متعددة صعبة ، ومازال ثلاثة ارباع اولادنا في الشوارع بدون تعليم .. »



منظر جوى لمدينة صعدة بكاملها ٠٠ وهى من المدن العربية القليلة التى مازال يحيط بها سور قديم متكامل بنى فى عام ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) وجدده الامام احمد عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م) ومجموع طول السور ٣١٦٠ مترا ، وارتفاعه ثمانية امتار من الخارج ، و٦ امتار من الداخل ، وقد استعمله المتحاربون فى الحرب الاهلية اليمنية للدفاع عن المدينة ٠

« وفى صعدة نعرف جيداً ان ظروف المنطقة صعبة جداً ، لهذا تجدنا شاكرين ومقدرين للدور الكبير الذى يؤديه الاخوة المدرسون ٠٠ انهم يبنون اليمن الجديد بالتعليم فى ريفنا المحروم ٠٠ »

العناية بالاطفال والشباب

والتعاون بين المنزل والمدرسة فى صعدة شبه معدوم ٠٠ اما العناية بالاطفال فلا اثر لها ٠٠ يتركونهم يتجولون فى الطريق حتى الليل ٠٠ ورأيناهم باعيننا ٠٠ اطفالا لاتتجاوز سنهم ٦ سنوات يدخنون وياكلون « الشمة » او«البرتقان» وهى خليط من ملح وتبغ ورمل ٠٠ بها من الاضرار مابها !!

واغلب الشباب يقبلون على قزقزة «المصفص» اى اللب او البذر ، بنهم زائد ، ويبصقون قشرته بسرعة غريبة خلال حديثهم معك ٠٠

آثار الحرب

وتاثير الحرب يبدو ظاهرا جليا فى الاعداد الكبيرة من المجانين الذين يملاون المدينة ٠٠

وفى شوارع صعدة لايسير الناس الا والاسلحة على الاكتاف ، وكأنما الحرب على الابواب ، بينما العكس هو الصحيح ، فليس هناك حرب ، او حتى شبح حرب ، ولكن الناس من فرط تعودهم على الحرب نسوا الحياة فى سلام !!

الباخرة المجهولة !

ان الاهتمام بالريف اليمنى لم يبدأ بعد على نطاق واسع ٠٠ واغلب المسئولين الذين يتعاقبون على حكم اليمن هذه الايام ، تشغلهم مشاكل المدن عن الريف ، فيبقى منطقة مجهولة بالنسبة لهم ٠٠

ان طرق المواصلات الحديثة هى الشرايين التى سوف تمد هذه المناطق بماء الحياة ٠٠ واهل اليمن ينتظرون بفارغ الصبر انتهاء طريق «صنعاء ـ صعدة»، ويأملون ان تبدأ المملكة السعودية بشق طريق صعدة ـ « ظهران الجنوب » ،اما الطريق الى البحر، الى ميناء ميدى ، فما زال فكرة لابد من تحقيقها ليعرف طلبة صعدة ماهى السمكة،وماهى الباخرة، انهم لم يشهدوهما ولم يعرفوهما حتى اليوم !!!

اجب على السؤال

اننا عندما ننقل للقارىء الكريم صورة الواقع الاليم الذى يعيشه اليمن السعيد ، نهدف الى مزيد من البذل والعطاء لليمن ٠٠

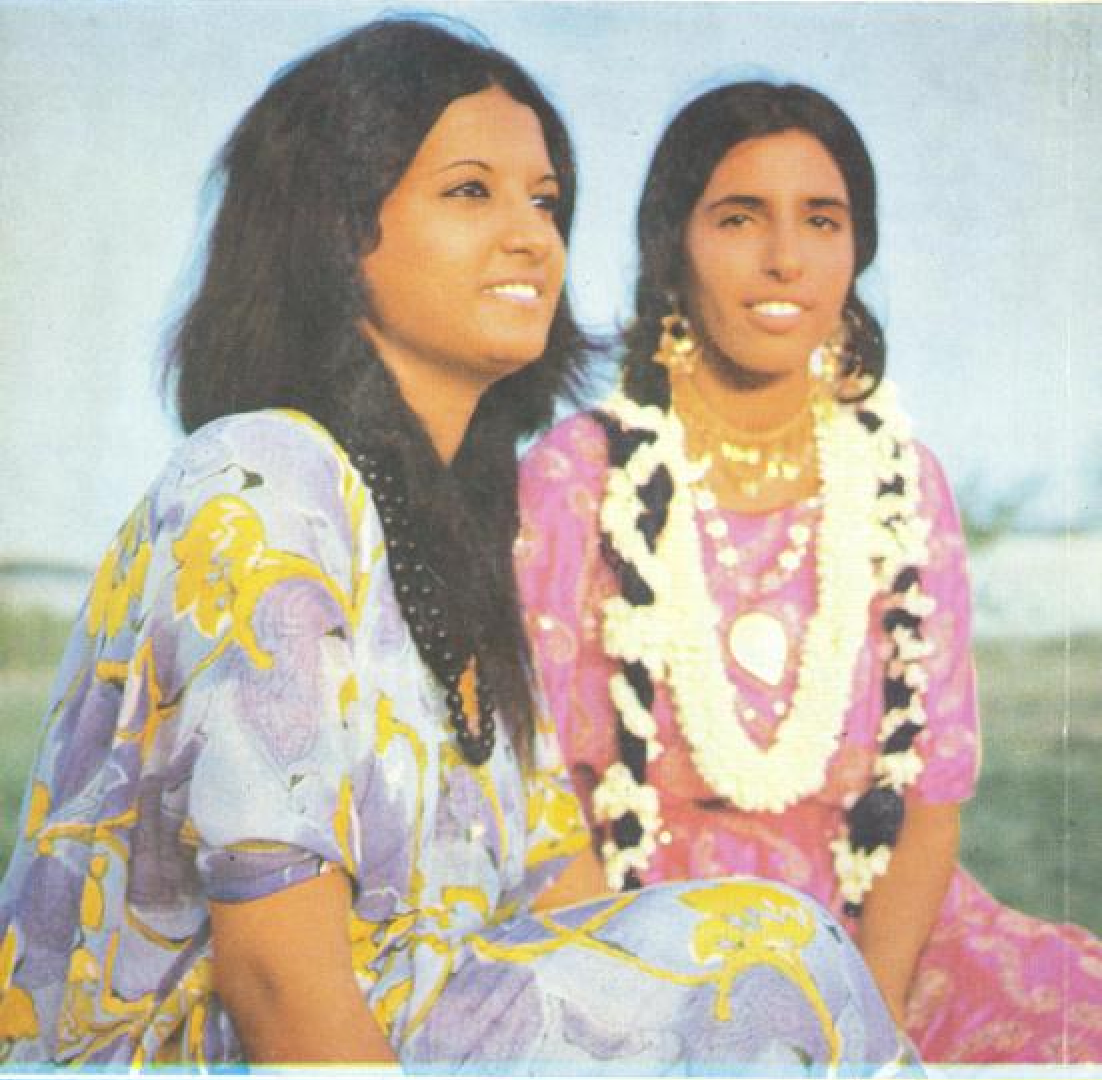
ان هذا الشعب العربى القديم العريق ، لن تقوم له قائمة الا اذا ساعدناه واخذنا بيده ٠٠ ان الامم المتحدة تعامل اليمن معاملة « الدولة الخاصة المرموقة » ٠٠ والناس يجمعون التبرعات فى مدينة استوكهلم عاصمة السويد وفى غيرها من مدن اوربا، من اجل اليمن ، واطفال اليمن ٠٠ اجل اطفال اليمن ٠٠

ونحن العرب ٠٠ الاشقاء الاحباء ماذا فعلنا لليمن ؟ ٠٠٠ سؤال نترك الاجابة علية لضمير كل عربى ٠٠ ■■

سليم زبال

العربي

العدد ٢٠٤
شوال ١٣٩٥
نوفمبر
(تشرين الثاني ١٩٧٥)



الابتسامة تعود الى عدن

جوائز
١٢٠٠
دينار سنويا

الثمن

الكويت	١١٠ فلوس	العراق	١٤٠ فلسا	السودان	١٠ قروش
الخليج العربي	٢ ريالان	لبنان	١٠٠ قرش	ليبيا	١٥ قرشا
السعودية	٢ ريال	الاردن	١٠٠ فلس	تونس	٢٥٠ مليم
البحرين	٢٠٠ فلس	سورية	١٠٠ قرش	الجزائر	٢ر٥ دينار
اليمن	٢ر٥ ريال	ج.م.ع.	١٠ قروش	المغرب	٢ر٥ درهم





ميناء عدن يرحب من جديد بالسياح .. لقد اخذ ابن البلد مكان الاجنبي ، وهذا هو الكابتن سعيد اليافعي ضابط ميناء عدن — في الصورة اليمنى — يتطلع بكل ثقة الى السفن العائدة الى الميناء الكبير .. لقد عادت الابتسامة من جديد الى وجوه بنات وابناء عدن .

اعرف وطنك أيها العربي

الابتسامة تعود إلى ...

عدن

استطلاع
سليم زبال

تصوير
أوسكار مترى





■ كانت بعثة العربي هناك ·· ترقب نهاية السنوات الثماني العجاف التي مرت بميناء عدن، وتسجل بداية مرحلة الازدهار وعودة الحياة الى هذا الميناء الكبير ·

ان قصة ميناء عدن ملتصقة وملتحمة مع قصة قناة السويس،ففي كل مرة تغلق فيها القناة،تصاب عدن بالاختناق ، وتتوقف الحياة فيها ·

حدث هذا مرتين في عام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ في المرة الاولى كان الانجليز يحتلون عدن ، فقاموا بتغطية العجز المالي الكبير الذي أصاب البلاد ، وعندما اغلقت القناة للمرة الثانية في عام١٩٦٧ شعر البريطانيون بان القصة سوف تتكرر ،وكانوا في نفس الوقت يواجهون ثورة مسلحة عارمة من ابناء المنطقة تحت قيادة التنظيم السياسي للجبهة القومية ، فما كان منهم عند اشتداد ضربات الثوار وتلاحم جماهير الشعب معها ـ الا ان قدموا موعد رحيلهم عن عدن من ٩ يناير عام١٩٦٨ الى٣٠ نوفمبر ١٩٦٧ بعد استعمار دام نحو ١٢٩ عاما ·

وتركوا ابن البلد يواجه بمفرده الكوارث التي ستنشأ من جراء انقطاع واردات ميناء عدن ، التي كانت تمثل حجر الاساس في اقتصاد المنطقة ··

مواجهة التحدي

لقد تسلم ابن اليمن بلاده وهي مجزأة الى اكثر من ٢١ سلطنة وامارة ومشيخة ، لكل منها حدودها ، ونظامها واقتصادها ، وتسلم ميناء عدن وهو في أدنى حركاته الملاحية يستقبل في الشهر مائة سفينة بدلا من٦٠٠ سفينة،وواجه ابن البلدهذا التحدي بعزيمة مع ايمان،واستطاع خلال السنوات الثماني العجاف ان يكيف نفسه ويعيش دون ايرادات مينائه الكبير ·

تشاؤم ··

حتى انه عندما تقرر اعادة فتح قناة السويس ، قابل بعض المسئولين اليمنيين هذا الخبر بمزيج من الهدوء المشوب بالبرود قائلـــين : «ان اعادة الحياة الى ميناء عدن لن تحل مشاكلنا ، فخلال السنوات الثماني الماضية انفتحنا على بلادنا في الداخل ، وادركنا مدى التخلف الرهيب الذي نعانيه ·· ان عدن كانت الواجهة او الديكور الجميل الذي يخفي ابشع صور التخلف والفقر ·· وعودة الحركة الى مينائها لن يحل مشاكلنا·· »

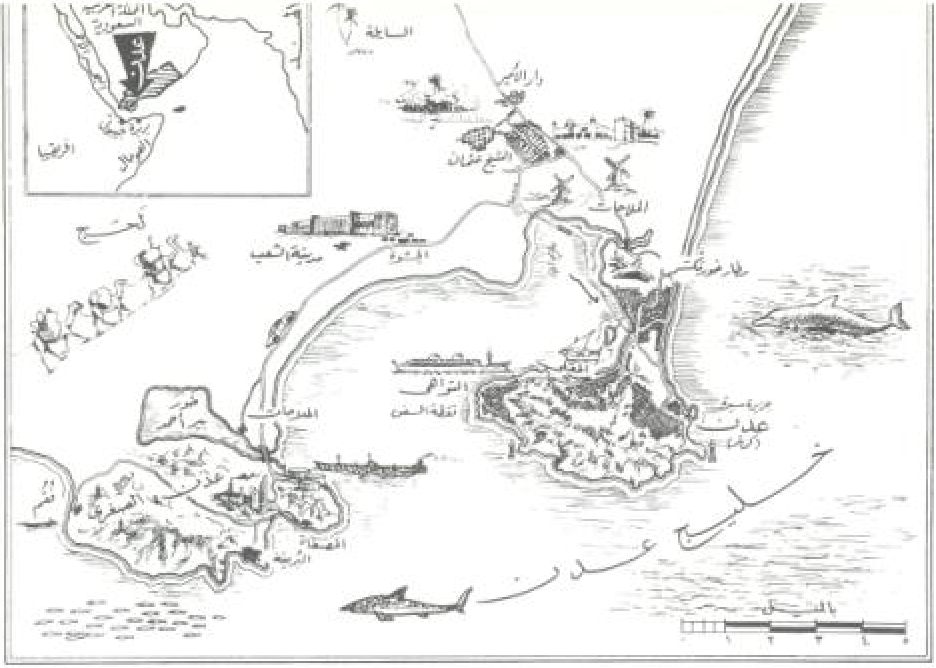
وتفاؤل

ولكن تقارير بعض المنظمات الدولية ، واحاديثنا مع وزير المواصلات اليمني ، والمسئولين في وزارة التجارة بعدن ، لا تقر تماما هذه النظرة المتشائمة وتقول : في عام ١٩٦٨/٦٧ انخفض الناتج القومي الاجمالي لليمن الديمقراطي بحوالي ٦٤ مليون دولار ، اى ما نسبته ٣٠٪ من مجموع الناتج القومي في السنة السابقة ··

ويعود هذا الانخفاض الى توقف بريطانيا عن تقديم معونتها للميزانية · والى نقص ايرادات ورسوم ميناء عدن بسبب اغلاق قناة السويس في ذلك العام ·· ويشكل هذان السببان نصف الانخفاض في الناتج القومي المشار اليه ·· اما النصف الآخر فانه يعود الى توقف النشاطات الاقتصادية التي كانت تعتمد على المعونة البريطانية،

واجه ميناء عدن تحديات ضخمة كان يمكن ان تقضي عليه··الصدمة الاولى كانت تقلص عدد السفن المارة به ·· والثانية كانت مغادرة معظم العاملين الاجانب ذوى المراكز الرئيسية للبلاد ، وكانت فرصة سانحة لابن اليمن كي يتقدم ويحتل جميع المراكز القيادية في الميناء ·· وهذا هو وزير المواصلات الاخ انيس حسن يحيى مجتمعا مع رؤساء اقسام الميناء ··





تبلغ مساحة اراضى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حوالى ١١٢ الف ميل مربع ‎٠٠‏ وتنقسم البلاد الى ٦ محافظات ، ‎٠٠‏ وعدد السكان نحو مليونى نسمة ، منهم اكثر من ‎٥٠٠‏ الف يعيشون فى العاصمة عدن وضواحيها ‎٠٠‏ ويقع ميناء عدن على مسافة مائة ميل تقريبا ، من مدخل البحر الاحمر ‎٠٠‏ وهو ميناء يتوسط فكين من الجبال البركانية العالية التى تحميه من الانواء والاعاصير ‎٠٠‏

وعلى اعمال الميناء من خدمات وتجارة ‎٠٠‏

من هذه الارقام يتضح ان عودة الحياة لميناء عدن سوف تحقق فوائد كثيرة للبلاد ، فوائد مباشرة وغير مباشرة ، فهى ستخفض تكاليف نقل طن البضاعة من اوربا الى عدن بمقدار سبعة دولارات على كل طن ‎٠٠‏ والبواخر الـ٣٤ التى يمكنها ان ترسو مرة واحدة فى ميناء عدن ، ستدفع رسوما للميناء ، وستزود بالوقود ، وهذا يعنى زيادة فى عائدات الدولة لان المصفاة سوف تعمل بكامل طاقتها، وستشترى البواخر الخضروات والماكولات والمياه ، وركابها سينزلون الى الاسواق، يشترون وينفقون ، وهذا يعنى حركة زائدة فى اسواق المدينة ‎٠٠‏ اى ان كل دينار يصرف كحركة فى ميناء عدن يتحول الى دينارين او اكثر.

١٨ مليون دولار لتحسين معدات الميناء

ان روعة ميناء عدن ليست فى امكانياته الطبيعية فقط ، بل فى ادارته ، فجميع العاملين فيه حاليا هم من ابناء اليمن الديمقراطى ، الذين حدثونا عن الميناء وكانه قطعة عزيزة من ذاتهم انه ميناؤهم‎٠٠‏ يعرفون كل ركن فيه ، فقد عملوا فيه منذ ٢٩ عاما واكثر ‎٠٠‏ من هنا جاءت غيرتهم عليه ‎٠٠‏ انهم يخططون ويدرسون ويتحركون من اجل تحسينه ورفع كفايته ، وجعله فى مستوى اكبر الموانىء واكثرها تقدما ‎٠٠‏

من هنا كان اتصال الحكومة اليمنية بالصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية، لاجراء عملية مسح هندسى واداري ومالى لميناء عدن ، واعداد خطة طويلة الامد لتطويره وتدعيمه الى جانب الموانىء اليمنية الاخرى ‎٠٠‏

وقدم الصندوق الكويتى معونة فنية لاجراء هذه الدراسة ، ولكن بعد ان دخل موضوع اعادة فتح قناة السويس مرحلة جدية ، كان لا بد من الاسراع فى تجديد جزء كبير من المعدات التى تاكلت بفعل الصدا طوال السنوات الثمانى الماضية ‎٠٠‏

وهنا تم الاتفاق بين حكومة اليمن الديمقراطى والصندوق العربى للانماء الاقتصادى والاجتماعى،

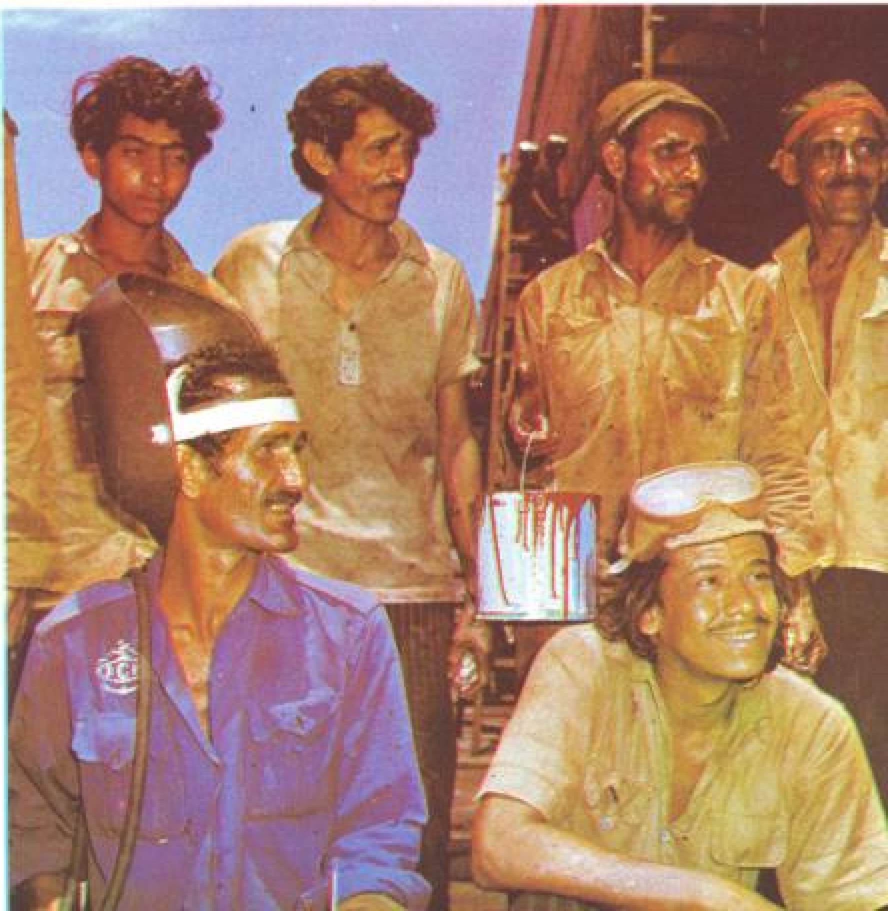


« لا تكونوا قساة في الحكم علينا ٠٠ فنحن شعب فقير ، ولكننا اغنياء بتقاليدنا وعاداتنا وفنوننا ٠٠ اننا احفاد الذين نزحوا من هنا ليشيدوا الحضارات في ارجاء الوطن العربي ٠٠ ونحن ما زلنا نحب الرقص والغناء ٠٠ ونجيد اطلاق النكتة ٠٠ ولكننا في نفس الوقت نطور انفسنا ، لقد اصبح للمرأة اليمنية طموحات كبيرة جدا ، فهي تحاول ان تعوض ما فاتها بالدراسة في فصول محو الامية ، وفي المدارس العادية والصناعية (الصورة اليمنى) واغلب الفتيات اصبحن مصممات على تكملة دراستهن العليا ٠٠ لقد كانت حياتنا السابقة تدور في فراغ رهيب ، وكانت جلسات تخزين القات تأخذ كل وقتنا ، اما اليوم فلم تعد واحدة منا تخزن القات ٠٠ ولكننا ما زلنا نحب الطبخ وخاصة اكلة الدربيان الشعبية وهي ارز مع صانونة (مرق) وبطاطا ، وبسباس وكرنب وسمك وطماطم ولحم ٠٠ واحيانا سمك ٠٠ »





ابن اليمن ، ما هو دوره اليوم ؟ انه يحاول اللحاق بالتطور ، بعد ان ظل يولد ويموت في الظل دون ان يدري به احد ·· لقد انطلق في جميع الاتجاهات ، حتى الرقص الشعبي اصبحت له ـ لاول مرة ـ فرقة رقص شعبية يمنية رسمية ، تم جمع افرادها ورقصاتها من كل محافظات اليمن ·· زارت الاتحاد السوفيتي وقدمت رقصاتها على مسرح لينينجراد امام ١٢ الف متفرج ، فانتزعت الاعجاب والاستحسان·· والصورة اليسرى لفتحي حمزة من عدن ، واماني السقاف من تريم··وفي ورشة اصلاح السفن بميناء عدن يعمل الرجال على اصلاح السفن بكل تفان واخلاص بادوات ، يجري العمل حاليا من اجل تبديلها ··



ومع هيئة التنمية الدولية ، من اجل تمويل عملية شراء اكثر من ٨٠ قطعة بحرية مختلفة ، من زوارق سحب وارشاد وصيانة ونقل الماء وصنادل و٥٠٠ منصة نقالة ومعدات ومكائن حديثة ، وقطع غيار ومعدات غطس بحرية ، ومعدات لاسلكية ، وكذلك الاعمال المدنية اللازمة لتعميق المجرى الرئيسي للميناء ··

ان قيمة ما سيتم انفاقه على هذا المشروع هو ١٨ مليون دولار · سيدفع منها الصندوق العربي نحو ١٤ مليون ، والبنك الدولي ثلاثة ملايين ، والباقي تموله حكومة اليمن الديمقراطي بالعملة المحلية ·· وقد بدأ تنفيذ هذا المشروع فعلا ، ومن المنتظر ان ينجز خلال عام ١٩٧٧

عمق الميناء من عمق القناة

اما الدراسة التي يقوم بها بيت خبرة استشاري بريطاني ، ويمولها الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، فتهدف الى تحديد ابعاد الصورة التي سيكون عليها ميناءعدن في المستقبل··

ومن بين النقاط الهامة التي تجري دراستها مسالة تعميق المجرى الرئيسي في ميناء عدن ، وقد رصدت لها المخصصات الكافية ضمن المشروع الذي يشارك الصندوق العربي في تمويله ·

ان ميناء عدن حاليا هو مثل قناة السويس ، يستطيع استقبال السفن التي لا يتعدى طول غاطسها ٣٨ قدما ·· ولكن مشاريع تحسين القناة تهدف في المدى البعيد ، الى تعميق مجراها حتى يصل الى ٥٦ قدما ·· وسوف يتم بلوغ هـذا الهدف في ميناء عدن ، ضمن الخطط الطويلة الامد التي اعدت للميناء ··

سفن الغرب تمر من عدن

وعندما كنا في ميناء جيبوتي قال لنا مديره الفرنسي : « اعتقد ان ميناء عدن سوف يستقبل سفن الدول الاشتراكية في حين تتجه سفن الدول الغربية الى ميناء جيبوتي »·· ونقلنا هذا الحديث الى وزير المواصلات اليمني الاخ انيس حسن يحيى، الذي قال لنا بهدوء :

ــ نحن نعتز بصداقتنا مع المعسكر الاشتراكي، لكننا نفهم تماما مسئولياتنا تجاه الملاحة الدولية·· اننا كجزء من الاسرة الدولية سنظل نرعى ونحترم واجبنا نحو تلك الاسرة ، وميناء عدن لم ولن يتوقف في الماضي او الحاضر ، من تقديم كل خدماته لكل السفن دون تمييز بين الجنسيات ــ

• يعتبر ميناء عدن من اكبر موانيء الخدمة والتزودبالوقود في العالم ·· ولا يمكن لاي ميناء مجاور له ان اليه الباخرة السوفييتية ديمتري فرمانوف ، والموسيقىتصدح لها باغنية « مليح يازين » ·· وتقوم شركة التسهيلات الادارية والمصرفية لتستوردمباشرةكل ماتحتاجهالسفن وما يحتاجه السياح والسلك الدبلوماسي » وميناء عدن مدينة عدن كلها منطقة حرة ، اما اليوم فاصبحت مساحة





اللهم الا سفن العدو الاسرائيلي اننا نحرص على المواثيق الدولية ونصوصها ٠٠ وقد جاء مندوبون من شركات الملاحة البريطانية والالمانية الغربية ، والاسكندنافية ، والايطالية واتفقوا معنا على اعادة مرور سفنهم في ميناء عدن ٠ »

متى تعود الحركة الى سابق عهدها ؟

ان عدد السفن التى استقبلها ميناء عدن عام ١٩٦٦ اى قبل اغلاق القناة بلغ ٦٢٥٠ سفينة انخفض الى ١٣٢٠ سفينة بعد اغلاق القناة منذ عام ١٩٦٧ ويتوقع المراقبون ان ترجع الحركة فى الميناء الى سابق عهدها فى عام ١٩٨٠ بعدد من السفن يقرب من ٥٥٠٠ سفينة ٠٠ وهذا الانخفاض فى عدد السفن يرجع الى التطور الذى شمل زيادة حجم السفينة وبالتالى زيادة حمولتها ٠٠

ماذا يدور فى الادمغة ؟

وميناء عدن هو البوابة التى تطل منها جمهورية اليمن الديمقراطية على العالم ٠٠ اما مدينة عدن فاصبحت المدينة التى تشع على جميع اراضى ومدن اليمن الديمقراطية ٠٠ انها تعيش اليوم حياة مغايرة تماما لحياتها بالامس ٠٠

وحتى نتعرف على حقيقة اسلوبهم فى هذه الحياة ، لابد ان نعرف ماذا يدور فى ادمغة الناس هناك ٠٠ وهذا من الصعوبة بمكان ، فهم لايبوحون بما يختزنون ٠٠ والبديل هو أن نعيش مع القوانين ، والقيم التى تحكمهم ، والمشاريع التى اقاموها ، والمجتمع الذى يجمعهم ، والخلفية التاريخية لكل هذا ، حتى ياتى حكمنا صحيحا ٠

كلهم جاءوا الى صيرة !

ان ميناء عدن صنعته الطبيعة ، ولم يصنعه الانسان ٠ نفس المنطقة التى نزلت عندها القوات البريطانية فى صباح ١٩ يناير ١٨٣٩ لتبدأ احتلال عدن فى وجه مقاومة عنيفة عنيدة من سكان المدينة ٠٠ ولم يكتف الانجليز باحتلال عدن ، بل وسعوا دائرة احتلالهم حتى شملت اراضى مساحتها ١١٢ الف ميل مربع ، الا ان اهتمامهم الرئيسى كان موجها الى عدن ٠٠ والعناية بعدن ٠٠ وتجميل عدن ٠٠ وتحسين ميناء عدن ٠٠ وهكذا خلقوا ازدهارا اقتصاديا مصطنعا ، يستفيد منه بضعة اشخاص اغلبهم من الاجانب ، على حساب بقية ارجاء البلاد ، التى ينافسه فى هذا المجال ٠٠ » لقد عادت الحياة الى الميناء فى صباح ١١ يونيو (حزيران) ١٩٧٥ عندما دخلت النصر بتموين السفن بما تحتاج اليه من مواد ، ويقول مديرها على احمد المترة : « لقد قدمت لنا الدولة جميع يتسع لرسو ٣٤ سفينة تقف بجوار العوامات ، فيما عدا ٤ سفن تستطيع الوقوف ملاصقة للارصفة ٠٠ لقد كانت المنطقة الحرة ٧٣٦ الف قدم مربع ٠







٢١٧ الف طالب وطالبة يتلقون تعليمهم فى جميع مدارس ومعاهد اليمن الديمقراطى ·· ويولى المسئولون عناية خاصة للاطفال ، وفى عيد الطفولة العالمى تقام المهرجانات ، التى يقدم فيها الاطفال التمثيليات والاغنيات بالاشتراك مع موسيقى الجيش ·



الى اليسار:مصنع الاحذية،اقيم بالاشتراك مع الامم المتحدة لتدريب الشباب على هذه الصناعة ، التى تدخل البلاد لاول مرة ·· ومن المنتظر ان يبدأ انتاجه فى اوائل عام ١٩٧٦ لينتج ٢٤٠ الف زوج من الاحذية سنويا ، وهو حجم الاستهلاك المحلى للبلاد ··



يتخاطف الدبلوماسيون ، والبحارة ، والسياح المصنوعات الفضية والشعبية الجميلة الرائعة التى تصنع فى المحافظات الست لليمن الديمقراطى ، والتى يجمعها محمد خالد فى متجره ٠٠ ان هذه الصناعة فى حاجة الى تشجيع المسئولين للنهوض بها ، او المحافظة على مستواها الرفيع ، على الاقل ٠٠ اما تركها هكذا بدون رعاية فهذا يعنى ان مصيرها الى الاندثار اصبح وشيكا !!



الى اليسار : بمساعدة الصندوق العربى للتنمية الاقتصادية اعدت خطة سريعة لاستبدال معدات ورشة اصلاح السفن فى ميناء عدن ، كما خطط لاضافة الكثير من المعدات المتقدمة لهذه الورش ٠

تركوها مهملة منسية تشكو من انعدام مظاهر الحياة .. لا طرق .. ولا مستشفيات .. ومدارس قليلة نادرة ..

مجتمع جديد

وثار ابن اليمن ثورته المسلحة المشهورة ،واهتزت جبال ردفان ، وشهد جبل شمسان النيران والقنابل تنفجر في كل احياء عدن .. ورحل الانجليز مع عائلاتهم عن البلاد .. وخلفوا وراءهم المنازل في « التواهي » وشارع المعلى الانيق ، مهجورة فارغة ، ولكن لفترة بسيطة قصيرة ، اذ سرعان مانزل ابن البلد من اكواخه المتناثرة على جبل شمسان ، ليحتل اكثر من ثلاثة الاف شقة ، في شارع المعلى .

وانضم الينا اناس جاءوا منكل حدب .. من البوادي والقرى ، وحتى اليمن الشمالي ، جاءوا ليقيموا ويستقروا في عدن،ويخلقوا مجتمعا جديدا لا يمت بصلة الى المجتمع القديم المرفه .. لقد كان ايجار الشقة الواحدة في شارع المعلى يرتفع الى نحو ١٥٠ دينارا ، انخفضت الى نحو خمسة دنانير بعد تاميم الحكومة لهذه العمارات ..

الاشتراكية العلمية

وبدأت عمليات التجميل والتصنيع في عدن تسير على قدم وساق ، تحت ظل انظمة وقوانين تتخذ من الاشتراكية العلمية قاعدة لها .. لقد قامت الدولة بتاميم بعض المنشات والمؤسسات معللة ذلك بان عائدات تشغيل هذه المنشات لا تساهم في عمليات التنمية في البلاد .

قانون الاسرة

ووضعوا قانونا جريئا « لانقاذ المرأة والمجتمع من الضياع » .. يشتمل على ٤٥ مادة ، من بينها ثلاث مواد سوف يكون لها تاثير كبير على حياة الفرد في مجتمع اليمن الديمقراطي داخل البلاد،وفي بلاد المهجر على حد سواء ..

فالمادة السابعة في هذا القانون تنص على انه لايجوز عقد زواج فيه تفاوت في السن يتجاوز عشرين عاما ، الا اذا كانت المرأة قد بلغت من العمر ٣٥ عاما ..

اما المادة ١١ فتقول : لايجوز الزواج من ثانية الا باذن كتابي من المحكمة الجزئية المختصة..وليس للمحكمة ان تمنح الاذن الا اذا ثبت لديها عقم الزوجة، أو مرضها مرضا مزمنا..

وتاتي المادة ٢٥ فتمنع الطلاق من طرف واحد ، وتحظر على المحكمة الاذن باكثر من طلقة واحدة في كل مرة !

وجلسنا الى وكيل وزارة العدل والاوقاف الاخ على فضل علي،نساله عن تفاصيل هذا القانون، فقال : « قبل الاستقلال ، كانت احكام الاحوال الشخصية ، تخضع في غالبية اجزاء اليمن الديمقراطية ، الى التقاليد والعادات والاعراف.. ونحن نسعى لبناء مجتمع سليم متين ، وهذا المجتمع لايمكن أن نوجده الا اذا رفعنا قيمة المرأة التي هي نصف المجتمع .. من اجل هذا نجد الدستور يمنحها كامل حقوقها السياسية والاجتماعية .. اما تقييد الزواج باكثر من واحدة فنحن لانعتبره خروجا على نصوص الشريعة الاسلامية ، بل هو بمثابة اجراءات تنظيمية تساعد على خلق المجالات الاوسع لمشاركة المرأة ونيلها لحقوقها ..

والآيات القرانية نفسها ما تركت مسألة تعدد الزوجات مطلقة بدون حدود ، اذ تقول : « فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » ، وفي آية أخرى من نفس السورة«ولن تعدلوا بين النساء،ولو حرصتم»

طلقة واحدة فقط

وسالنا فضيلة الشيخ عبدالله محمد حاتم مدير ادارة الشئون الدينية وكبير المأذونين في

الى اسفل : وكيل وزارة العدل والاوقاف السيد « على فضل على » وبجانبه كبير المأذونين الشرعيين الشيخ عبدالله محمد حاتم، يتحدثان عن قانون الاسرة الثوري !.



اليمن الديمقراطي عن الحكمة في تقييد الطلاق ، **فقال** : « في السابق كان الرجل يبعث بورقة صغيرة للمأذون ، يحصل بموجبها على الطلاق بدون علم الزوجة ، وهذا فيه امتهان كبير للمراة ، اما حاليا فلا يسمح بالطلاق الا بعد استحالة التوفيق بين الزوجين عبر لجان الاصلاح ، فاذا رات اللجان ان الحياة الزوجية ستصبح جحيما ولا يوجد حل الا الطلاق ، عندها فقد يسمح للزوج ان يطلق زوجته طلقة واحدة فقط ، اما الطلاق بالثلاث بلفظ واحد وفي مجلس واحد فيعتبر طلقة واحدة ·· ما لم تكن الثلاث طلقات متفرقات ·· وهذا ما ينص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى : **الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان ··** والمراد بالتسريح هذا الطلقة الثالثة ·· »

الوقوف امام الطوفان

قلنا للشيخ حاتم : « هل توافق على اعطاء المراة كافة حقوقها ؟ ·· »

فاجاب بحماس زائد : « انا اوافق على اعطائها كافة حقوقها ·· فالمراة في عصرنا الحاضر غير المراة في الازمنة والعصور السابقة ·· لقد صعدت المراة الى الفضاء الخارجي ، وحاربت جنبا الى جنب مع الرجل في معارك التحرير ·· وانا اسالكم بدوري : هل يمكنكم وقف عجلة التطور وحرمان المراة من ان تنال حقوقها كاملة ؟ ·· ان الوقوف امام مطالبها وحقوقها اشبه بالوقوف امام الطوفان ·· وصدق الله العظيم القائل : ولهن مثل الذي عليهن ·· »

البحث عن مبنى ! !

وقد راينا المراة اليمنية في عدن تعمل في كافة المجالات ، تعمل قاضية ، وطبيبة ، ورئيسة مختبر ، ومسئولة وعاملة في المصانع ، وسكرتيرة في مكاتب الوزارات ، وعضوة بارزة في الاندية الرياضية ·· انها تنطلق عاملة في كل المجالات بمجهودها الشخصي ، اما الاتحاد النسائي اليمني فما زالت المسئولات عنه يبحثن عن مقر لهن حتى يبدأن نشاطهن ؟! بالرغم من ان احدى كرائم قارئات العربي كانت تبرعت عام ١٩٦٤ ــ بعد نشر استطلاعنا الاول عن عدن بمبلغ خمسة الاف دينار لبناء مقر للجمعية النسائية ؟؟؟



المبنى الداخلي لكلية التربية العليا ، الذي يتسع لاكثر من ٢٥٠ طالبا ، سيكون مجهزا بمسبح وملاعب وسينما ·· انه واحد من مظاهر الخدمات التي تقدمها الهيئة الكويتية العامة للجنوب والخليج العربي الى جمهورية اليمن · وتقوم الهيئة حاليا ببناء مستشفيين في المكلا والشيخ عثمان يتسع كل منهما لثلثمائة سرير سيقدمان مع كافة تجهيزاتهما لليمن ·

المراة في المصانع

وزرنا المصانع الجديدة ·· انها مفخرة لليمن الديمقراطي ومفخرة للمراة اليمنية ، فهي موجودة في كل مصنع الى جانب شقيقها بنسبة تقارب الخمسين في المائة من مجموع العاملين ·· لقد اطلت الصناعة براسها رغم الضائقة المالية التي تعانيها البلاد ·· وهي صناعات قامت لتصنيع المواد الاولية الخام المتوافرة محليا ، ولوقف نزيف العملات الصعبة المتسربة من البلاد ··

٧ ملايين متر من الاقمشة

ويعتبر القطن في اليمن الديمقراطي من المحاصيل الرئيسية لهذا اقاموا في عدن مصنعا كبيرا للغزل والنسيج ، شبيها بمصنع صنعاء ، بمساعدة الصين الشعبية التي قدمت القرض والخبراء لتعليم ابناء اليمن ·· « انهم لا يبخلون علينا بتجربتهم · انهم يقدمون لنا كل خبراتهم ومعارفهم من اجل تعليم ابنائنا ··



على اليمين : اول قاضية عُربية لها كل الاختصاصات فى القضايا الجنائية والمدنية والاحوال الشخصية !٠ انها السيدة القاضية حميدة زكريا خريجة كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، التى ما كدنا نسالها عن رايها فى قانـون منع تعدد الزوجات حتـى قالت : **« فى ظروف مثل ظروفنا فهم الرجل الشرعية فهما غير صحيح ، وكان يستغل اباحة تعدد الزوجات بشراء او تبديل المراة كما يشاء ، ويدون علمها ٠٠ واعتقد ان هذا كان ضد الشرع والتشريع ٠٠ لهذا سارع الرجل ، قبل المراة ، الى تقييد مثل هذه الامور التى استغلها الكثيرون فى غير ما اراد الشرع لها ».**







شاركت المرأة اليمنية فى الثورة المسلحة التى قامت قبل الاستقلال . وما زالت حتى اليوم تتلقى التدريبات العسكرية فى المدارس (الصورة اليمنى) ، لتصبح مؤهلة للعمل فى الدفاع المدنى ، أو فى ميليشيا النساء ·· ولكنها تحتفظ فى منزلها بملابسها التقليدية الجميلة مع زينتها الفضية . والى اسفل تبدو الطالبة المتفوقة اروى محمد خالد بالزى الوطنى الكامل ··



الى اليمين : ظل اقتصاد اليمن الديمقراطى يعتمد على اقتصاد زراعى مختلف ، يستغل بطرق بدائية نحو ٣٠٠ الف فدان ، اى اقل من نصف مساحة الارض الصالحة للزراعة . اما اليوم فقد قامت عدة مصانع بدأت تعمل لتحول اقتصاد البلاد ، من الاستهلاك الى الانتاج ·· وهذه الصورة من مجمع صناعة النسيج الذى سيضم ١٢٠٠ عامل وعاملة ·

الى اليمين : عالم المرأة يتشكل الان فى هدوء ·· فهى تتعلم كيف تعد الخطط على رقعة الشطرنج فى الاندية الاهلية السبعة المنتشرة فى كل حى من احياء عدن ، وهى اندية مختلطة ، تمارس فيها كل انواع النشاطات الاجتماعية والرياضية والثقافية رغم شح الاموال ، وبخل السفارات العربية بمدها بالكتب العربية القيمة ، بعكس سفارات دول المعسكر الاشتراكى التى تغدق عليها الكتب والمطبوعات بدون حساب ؟!!





صهاريج عدن اروع آثار العرب بعد سد مأرب ٠٠ لا يعرف بانيها ، ولكن تاريخها يرجع الى نحو ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد ٠٠ كانت تحفظ فيها المياه ، اما اليوم فهي منطقة سياحية لا يقصدها احد لخلوها من اى استراحة سياحية نظيفة !

٤٥٠ طفلا تضمهم روضة منتشرة فى احياء عدن ، وتقول **تذوب كالشمعة ليشع النور تعتمد علينا للعناية بطفلها ٠٠ »**

والعامل اليمنى استوعب حاليا الكثير من مهارات الخبراء الصينيين فى مجال صناعة الغزل والنسيج وصيانة واصلاح الالات ٠٠ »

ويتابع مدير مصنع النسيج الاخ محمد سعيد سالم كلامه قائلا : « اننا فى مرحلة تدريب الكادر اليمنى ، ومع ذلك أنتجنا ١٩٠ الف قدم من الاقمشة القطنية حتى الآن ٠٠ وعندما ندخل مرحلة الانتاج فى عام ١٩٧٦ سوف تنتج سبعة ملايين ونصف مليون متر من الاقمشة سنويا ، وسوف نحتاج الى ١١٠٠ طن من القطن الخام ، سنأخذها من منطقتى لحج وابين ٠٠ »

٧٣٠ سيجارة يوميا

وبعد القطن ياتى التبغ ٠٠ وللتبغ فى اليمن الديمقراطى قصة ، فهو ينمو بنجاح فى منطقة غيل باوزير فى المحافظة الخامسة ، ولكن نوعيته ليست بالمستوى المطلوب ، لهذا عمدت وزارة الزراعة الى جلب خبراء من الامم المتحدة وكوبا ومصر ، استطاعوا تحسين النوعية وانتاج تبغ فرجينى محلى ممتاز ، وسينمو بكميات تجارية تصل الى ٥٠ طنا ابتداء من العام القادم ٠٠

« ان أبناء اليمن يدخنون يوميا مليونى سيجارة ، وقد اعتادوا تدخين السجاير البريطانية ، بحكم الاستعمار الطويل للبلاد ، لهذا قمنا بجلب الالات من بريطانيا وحصلنا على رخصة من شركة سجاير بريطانية عالمية ، لتصنيع سيجارة تحمل اسم سجائرهم ٠٠ ونحن اليوم نستعمل ٤٠٠ طن من التبغ البريطانى المستورد ٠٠ كنا نخاف الا يلاقى انتاجنا قبولا لدى الجمهور ، ولكن الحمد لله ان انتاجنا من السجاير المحلية والاجنبية حقق نجاحا منقطع النظير ٠٠ وأملنا كبير ان نشرع قريبا فى التصدير ، بعد ان غطينا حاجة الاسواق المحلية بانتاج مليونى سجارة يوميا ، **هذا ماصرح لنا به الاخ عمر عبدالله باهرمز مدير شركة التبغ بالنيابة ٠**

الانتاج يفوق حاجة الاسواق

وابناء اليمن مثل بقية ابناء الجزيرة يعشقون اكل اللحوم ، وكانت جميع الجلود تصدر خاما للخارج حتى كان عام ١٩٧١ وفيه تبنت وزارة الاقتصاد مشروعا لدباغة الجلود ، وجاءت بمهندسين مصريين ركبوا الات المصنع المهمل ٠ ودربوا العمال اليمنيين ، وبعد عامين غادروا البلاد ، واصبح كل العاملين من اليمنيين ٠٠ ونحن ننتج حاليا الفى قطعة جلد مصنعة لاستعمالها فى صناعة الاحذية ، وتجليد الكتب ، وصناعة الملابس الشمواه ٠٠ والسوق المحلى لايستهلك الا ٤٠٪ من انتاجنا والباقى نصدره ٠

هذا ما قاله لنا الاخ عبد القادر ابو بكر سالم ، نائب مدير مصنع الدباغة الوطنى ٠

مطلوب مساعدة عربية ٠٠٠

ان الخطط الطموحة لتصنيع اليمن الديمقراطى على اوسع نطاق تصطدم بعقبتين رئيسيتين : نقص رأس



لنموذجية .. انها واحدة من ٦ روضات
جلاء شمسان : « **ان بنت اليمن اصبحت**
طفالها .. ان المرأة العاملة اصبحت



شارع المعلى .. كانت الحركة الاقتصادية متمركزة فيه .. ومع رحيل المستعمر هدأت الحركة في الشارع ، واصبحت عماراته في حالة يرثى لها . ولكن عودة الحياة الى ميناء عدن ، جعل وزارة الاسكان ترمم وتطلى كافة المنازل في هذا الشارع الرئيسي .

المال .. ونقص اليد الفنية المؤهلة ..

وللتغلب على العقبة الاولى ، تقوم البلاد بالاقتراض من مختلف الدول .. وقد تقدم رئيس مجلس الرياسة بطلب مشترك مع رئيس اليمن الشمالى ، الى مجلس جامعة الدول العربية يطالبان فيه بمعالجة مشكلة الازمة الاقتصادية في اليمنين . عن طريق اعتماد مالي ثابت للبلدين من الدول العربية ، يكون متفقا مع حجم المشكلة ، ويستمر الى ان تتغير الظروف الاقتصادية في اليمنين ، تغيرا يجعلهما قادرين على الاعتماد على نفسيهما اعتمادا ذاتيا ..

كل الضمانات لرؤوس الاموال

وجلسنا الى وكيل وزارة التجارة والتموين الاخ محمد على باصرة نتحدث عن التجارة ورؤوس الاموال العربية فقال لنا :

« اننا نرحب برؤوس الاموال العربية قبل اي اموال اخرى .. فالمجال كبير ومردوده كبير جدا .. وعندنا مجالات للاستثمار لم يطرقها احد بعد .. مثل التنقيب عن النفط ، وتثليج وتعليب الاسماك ، وميدان السياحة والصناعة الكيماوية التي يمكن ان تقوم بجوار مصفاة النفط عندنا ..

« وتسألني عن الضمانات ، فاقول اننا على استعداد لاعطاء كل الضمانات التي تعطيها دولة اخرى .. لانه لا يمكن ان نعمل ضد مصلحتنا ..

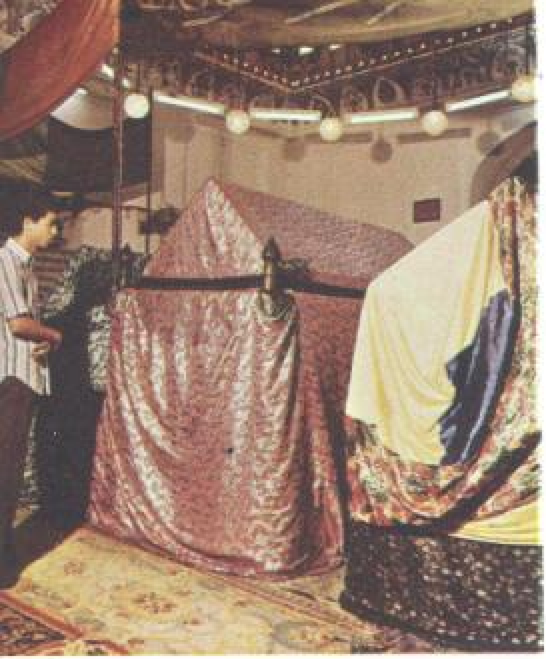
« ان الشكوك والتردد لا داعي لهما .. لان التاميم من اجل التاميم امر غير وارد .. والتاميمات التي قمنا بها لم يكن لنا الخيار فيها .. فالاموال هربت كلها من البلاد بعد الاستقلال ، والاستغلال كان فاحشا في كل المجالات ، وخاصة في ايجارات المنازل ، كل هذا دفعنا الى التحرك لحماية ابن البلد ..

« ومن اجل التخفيف عن المواطن نقوم سنويا بدفع اربعة ملايين دينار من ميزانية البلاد ، لتثبيت اسعار المواد الضرورية الاستهلاكية كالدقيق والارز وحليب الاطفال والقمح .. اما السكر فهو المادة الوحيدة التي نوزعها بالبطاقة لان سعرها ارتفع اضعافا مضاعفة في الاسواق العالمية » .

تغيير السلم التعليمي

اما عن العقبة الثانية امام الصناعة .. وهي نقص اليد الفنية الماهرة ، فلا علاج لها الا بالتعليم ، والتعليم في اليمن الديمقراطي له الاولوية على كل شيء ، حتى انهم جعلوا رئيس الوزراء هو وزير التربية في نفس الوقت ، وهذا يعكس مدى اهتمام الدولة بالتعليم ، الذي بلغت ميزانيته اكثر من اربعة ملايين دينار يمني في العام الماضي .

« والتعليم في بلادنا يمر بمرحلة انتقالية رئيسية .. اننا في سبيل تغيير السلم التعليمي التقليدي .. ستكون عندنا مرحلة موحدة لفترة ثماني سنوات ثم مرحلة الثانوي ..

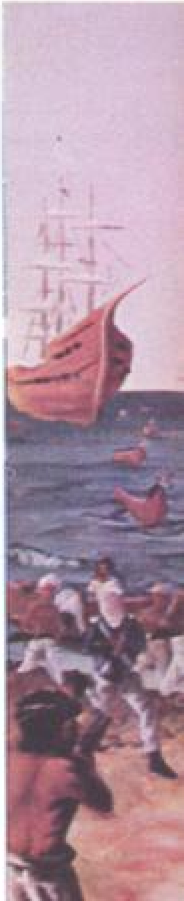


الي اليسار : يقوم في المحافظة الاولى ١٦٠ مسجدا ٠٠ وفي مدينة تريم بالمحافظة الخامسة يقوم المعهد الديني الذي يتخرج منه علماء الدين ٠٠ اما في عدن فيمتلىء جامع العيدروس بالمصلين في ايام الجمع ٠٠ وقد اقيم هذا الجامع حول ضريح شمس العلماء الحسيب النسيب السيد ابي بكر بن عبدالله العيدروس الذي يرقد والى جانبه بقية ذريته ٠٠ وفي الصورة اليسرى يظهر حفيده زين ، الطالب في الثانوية ، واقفا امام ضريح جده ٠٠ ويأتي الزوار الى هذا الضريح من جميع انحاء العالم الاسلامي ٠٠ ولا بد لكل فتاة في عدن ، تتزوج او تترك المستشفى بعد شفائها ، ان تمر بالجامع للتبرك بالضريح وصاحبه ٠









٤ فنانات و ٣١ فنانا ، يضمهم اتحادالفنانين التشكيليين اليمنيين ٠٠ وكل فنان
منهم يرسم لوحاته في منزله ، بامكانياته الخاصة الشحيحة ، ورغم هذا فان لوحاتهم
تحظى بتقدير كبير في المعارض العربية ٠٠وفي الصورة العليا مجموعة من الفنانين
يتوسطهم علي غداف رئيس الاتحاد ٠٠ اما الصورة اليمنى فهي لوحة زيتية كبيرةتحتل
مكان الصدارة في المتحف العسكري بعدن ٠٠وتمثل مقاومة الاهالي للقوات البريطانية
التي احتلت عدن عام ١٨٣٩ ولم تجل عنها الا بعد ١٢٩ عاما ٠٠

• اننا نعتقد ان فترة الست السنوات الاولى من نظام التعليم الحالى لا تؤهل الطالب للكتابة ، باسلوب صحيح ، وهذا ما يجعل احتمال ارتداده للامية احتمالا كبيرا ·· ونعتقد ان فترة ٨ سنوات هى ضمان كاف حتى لا يرتد للامية ··»

احترام المهنة

ويتابع وكيل وزارة التربية الاستاذ سعيد النوبان ، كلامه قائلا : « اننا نخطط تعليمنا لنعطى الطالب مهنة يعمل ويساهم بها فى مجال التنمية ··

• اننا نحاول التركيز على الجوانب العلمية ، والطالب فى السنوات الثمانى الاول سيصبح بمقدوره استيعاب بعض العلوم مع العمل اليدوى والمهنى ·· اننا نريد ان يحترم كل طالب العمل المهنى . لهذا سيكون على كل طالب اختيار مهنة ابتداء من الفصل الخامس ·· وتوسعنا فى التعليم المهنى يهدف الى تخريج مواطن عنده القدرة الثقافية والفكرية التى يستطيع التعبير بها عن نفسه . وفى نفس الوقت يسهم فى تنمية بلده ··»

سنقضى على الامية عام ١٩٨٠

وسألنا وكيل وزارة التعليم عن نسبة القبول بين الطلبة الذين فى سن التعليم ؟

فقال لنا : « حاليا نسبة القبول بين الطلبة هى ٨٠٪ وبين الطالبات ٤٨٪ والعامل الرئيسى فى قلة نسبة البنات هو العادات والتقاليد المحلية ··

اننا نأمل ان تصل هذه النسبة الى ١٠٠٪ بين الطلبة و ٧٠٪ بين الطالبات فى مارس ١٩٧٩ . ونأمل كذلك ان نقضى على الامية فى بلادنا فى عام ١٩٨٠ . والتعليم فى بلادنا مختلط من المرحلة الابتدائية حتى نهاية الثانوى والتعليم العالى »·

مدينة تتحول لجامعة !

قلنا : هل تعتقدون ان اليمن فى حاجة الى جامعة ؟

اجابنا قائلا : « التعليم العالى قائم فعلا فى بلادنا ··وقد وجد هذا التعليم لسد حاجات البلاد·· فعندما احتجنا لاساتذة فى التعليم الاعدادى فتحنا كلية للمعلمين ·· وجاءت الخطة الخمسية وشعرنا بحاجتنا الى فنيين زراعيين فانشأنا كلية ناصر للعلوم الزراعية ·· واحتاجت خطط التنمية الى محاسبين فأقمنا كلية الاقتصاد · وعندما احتجنا الى شباب ليكونوا همزة الوصل بين المهندس والعامل الفنى انشأنا المعهد الفنى العالى لتخريج مساعدى مهندسين ··

• واليوم نشعر اننا فى أمس الحاجة الى جامعة متكاملة ·· وقد تقدمنا بطلب الى جامعة الدول العربية لتسهم معنا فى انشاء هذه الجامعة ، وقد وصل فعلا خبيران من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،ودرسا الموضوع ورفعا تقريرهما بضرورة انشاء جامعة ·· ومع ذلك لم نتوقف ،بل قررنا فتح كلية للطب فى العام القادم ١٩٧٦/٧٥ وكلية للحقوق ، وتحويل المعهد الفنى الى كلية للهندسة ··

• وخصصنا مدينة الشعب ، القريبة من عدن، لتصبح مقرا لمبانى هذه الجامعة ، التى نأمل ان تساهم الدول العربية فى بنائها معنا ·· ونحن حاليا نتلقى مساعدات قيمة من بعض الدول العربية التى تقدم لنا المبانى المدرسية ، وتقدم لنا البعثات التعليمية ، وهى : مصر والكويت وليبيا والعراق وسوريا ·· وفى العام القادم سوف تصلنا بعثة من دولة الامارات العربية المتحدة تضم مائة أستاذ ، الى جانب المساهمة فى انشاء أبنية مدرسية ··»

شعارات فى كل مكان

ان الثورة التعليمية تواكبها ثورات فنية وادبية وثقافية ·· وعدن هى البلد الوحيد الذى يذكرك دائما بانك تعيش وسط ثورات ·· أينما تدر

ثلاثة من شعراء اليمن : عبد الرحمن فخرى ، وعبدالله سلام ناجى ، والقرشى عبد الرحيم سلام · يسجلون قصائدهم الحديثة امام الميكرفون ·



وجهك تجد شعارا : على الارصفة ، وعلى الجدران ، وفي المنازل والمكاتب والفنادق ، وفي مبنى ميناء عدن وجدناهم وقد زخرفوا جدران السلم والمكاتب باوراق الشعارات !

اما الادباء اليمنيون فقد حققوا اول خطوة وحدوية بين شطرى اليمن ، فكونوا اتحادا للادباء والكتاب اليمنيين برأسه شاعر صنعاء الكبير الاستاذ عبد الله البردوني ٠٠ فكانوا اول من حقق جزءا من هدف اتحاد الادباء العرب بتوحيد جميع الادباء فى البلاد العربية ٠

وفي جلسة مطولة صريحة مع اربعة من شعراء وأدباء اليمن هم الدكتور عبد الرحمن عبد الله وكيل وزارة الاعلام ، والشعراء عبد الرحمن فخرى ، وعبد الله سلام ناجي،والقرشي عبدالرحيم سلام ، دار الحديث عن الادب والشعر فى اليمن فقالوا :

● السمة البارزة فى الادب اليمنى المعاصر هى سمة الادب الحديث ٠٠ عندنا شعراء يكتبون وفق اسلوب أحدث المدارس،وشعراء يكتبون علىالعمود القديم ٠٠

● ان وفد الادباء اليمنيين أحدث هزة فى المؤتمر العاشر للادباء العرب الذى انعقد فى الجزائر ، وتسارع الجميع الى تهنئتنا على حيوية الشعر العربى فى اليمن ٠٠ ولكن ما كادت الوفود تعود الى بلادها ، حتى كتبت الصحف العربية واطنبت فى وصف ما دار فى المؤتمر واهملتنا كلية ، ما عدا الصحافة الجزائرية ٠٠

الى اسفل : فى كل دقيقة ينتج مصنع التبغ فى عدن ٢٥٠٠ سيجارة ! وهو يعتمد على التبغ الاجنبى المستورد ٠



الغرفة اليتيمة

وتنقلب الصورة عند التحدث عن الفنانين اليمنيين التشكيليين ، ان اعمالهم تلقى نجاحا منقطع النظير خارج اليمن ٠٠ ، اما فى عدن فقد زرناهم بمقرهم في وزارة الثقافة ورأينا الغرفة اليتيمة للاجتماعات والرسم وتخزين اللوحات ! انهم ٣٥ فنانا يضمهم اتحاد الفنانين التشكيليين

انقذوا صناعة الفضة

واروع الفنون وأجملها فى اليمن هى صناعة الفضة ٠٠ « انه دليل على تأصل الحضارة فى شعبنا ٠٠ ان العامل اليمنى البسيط هو الذى يقوم منذ عشرات السنين بتحويل عملة الملكة تيريزا الفضية الىقلائد واساور وسيوفوجنبيات ومكاحل ومباخر رائعة ٠٠ ان صناعة الفضة فى اليمن هى صناعة الماضى والحاضر والمستقبل » هذا ما قاله لنا الاخ محمد خالد اشهر خبراء الفضة فى عدن ٠٠

ونضيف الى كلامه ان المصنوعات الفضية الحديثة لا يمكن مقارنتها ابدا بدقة المصنوعات القديمة ٠٠ ان الحرفى اصبح يبخل بمعلوماته وخبرته على الجيل الجديد ٠٠ ولا علاج لهذا الا باقامة اتحاد للحرفيين ، أو معهد للتدريب على المهن اليدوية ٠٠ مع تسهيل الاجراءات لكل اجنبى يريد شراء خنجر يمنى جميل الصنع !! ؟

نتمنى له كل الخير ٠٠

ان الامم المتحدة قد صنفت دول العالم الى دول متقدمة ودول نامية ودول فقيرة ٠٠ واليمن الديمقراطى جاء ترتيبه مع الدول الفقيرة ٠٠

ولكن الذى يتعبه اكثر من الفقر ٠٠ هو الكرامة الزائدة والأنفة ٠٠ انه يريد أن يبنى بلده بعضلاته ٠٠ انه لا يريد ان يكون مدينا لاحد ٠٠ أو أن يرفعه احد ، بل يريد ان يرفع نفسه بنفسه بقدر ما تسمح به قدراته ومواهبه وموارده ٠٠

اننا قد لا نقره على نظرته او اسلوبه فى الحياة ، ولكننا فى نفس الوقت لا نملك الا أن نتمنى له الخير فى رحلته الطويلة ٠٠ فهو شعب عربى اصيل ، عادت اليه ابتسامته ، التى كاد ان ينسى معناها طوال فترة اغلاق ميناء عدن العظيم ٠٠ ■ ■

سليم زبال

العربي

العدد ٢٢٧ شوال ١٣٩٧ ـ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٧

- الايمان وحده لا يعصم المجتمع من المشكلات
- بأيدينا نصنع كل يوم أمراضاً جديدة!

دولة شابة مسلمة ـ تعيش بواجدان عربي : ماليزيا •



عندما طرقت الجامعة أبواب صنعاء

بقلم : محمد خليفة التونسي

تصوير : فهد الكوح

وصار في اليمن جامعة .

« الخبر » بالغ الاهمية ، رغم ان الحدث عمره حوالي سبع سنوات ، والكل يعرف السبب . كيف ان يكون مسرح هذا الحدث الكبير هو اليمن ، التي كان يطلق عليها الرومان ـ فيما مضى ـ « العربية السعيدة » !

ما هي قصة الجامعة ؟

هذا الاستطلاع يصحبنا في زيارة لأرجائها .

● في البدء، لابد من وقفة امام اليمن ذاتها ، التي يرجح كثير من علماء البشريات (الانثروبولوجي) انها مهد الجنس البشري ،كما انها مهد العروبة في ارجح الاراء ، وفيها اقدم الحضارات العربية(المعينية ، والسبئية ،والحميرية) ومنها خرجت الموجات البشرية التي أسست او اشتركت في تاسيس اقدم الحضارات العمرانية في منطقة الشرق الاوسط ولا سيما العراق والشام ومنها الحضارات الاكادية (البابلية) والاشورية والعمورية والكنعانية ووليدتها الفونية (الفينيقية) التي امتد نفوذها الثقافي والاقتصادي الى كثير من جزر البحر المتوسط وشواطئه شمالا وجنوبا حتى بلغت اسبانيا وفرنسا والجزر البريطانية ، كما خرجت من اليمن موجات بشرية اخرى الى شواطىء شرقي افريقية قبل الميلاد وتوغلت فيها حتى الحبشة ، وكونت هناك دولة راقية واسعة ، ثم خرجت موجة اخرى الى اطراف الجزيرة العربية وقلبها ، فاسست مملكة اللخميين في الحيرة جنوبي العراق ومملكة الغساسنة في الشام ، ونزلت بعض قبائلها : الاوس والخزرج في يثرب (المدينة) ، حتى اذا جاء الاسلام واستنفر العرب للجهاد في سبيل الله خرجت باسمه أكبر هذه الموجات من قلب الجزيرة العربية وسائر أطرافها (وأهمها اليمن) فانتشرت فيما بين الصين شرقا حتى المغرب الاقصى والاندلس على ساحل المحيط الاطلسي غربا ، وامتدت الى جزر البحر المتوسط وبعض شواطئه الشمالية ، وكانت هذه الموجة ابعد الموجات مطرحا ، واعظمها نفعا ، واعمقها أثرا في تاريخ العالم كله . اذ صححت وجهته نحو الله ، واحيت كل نافع من ثقافاته وحضاراته ، وجعلت من اشتاتها وحدة حية ذات



اقامت جامعة صنعاء معرضها الاول فى ختام العام الدراسى الاخير ، وفى الصورة احد مشاهد توزيع الجوائز على الفائزين فى المعرض• وقد وقف الاستاذ الايرانى وزير التربية ورئيس الجامعة يسلم احد الفائزين جائزة ، والى جواره ظهر الدكتور عبد المحسن العبادى عميد كلية العلوم •

صبغة اسلامية ، وان لم يكن الاسلام منشاها ، وهذه الصبغة انسانية عامة ، تسوى بين البشر امام الله ، وترفع عنهم كل وصاية لغيره ، فلا حجر على فكر أو ضمير او سلوك ، وتجعلهم اخوة فى كفالته وكفالة بعضهم بعضا ، بل هى صبغة الهية ، لانها ابرزت الكون كله بارضه وسماواته كانه اسرة واحدة تعيش فى عنايته لانه وحده خالقها ومديرها وقيمها لا سواه •

ومعروف ان هذه الفتوح الجغرافية الاسلامية فى بدايتها انما انطلقت من الجزيرة العربية وكان العرب وحدهم مادتها فى هذه البداية ،ولو تدبرنا هذه المادة لرأينا معظمها من قبائل اليمن، فقد كانت اقدم جهات الجزيرة العربية حضارة وارحبها عمرانا •

وقد احدث خروج هذه العناصر النشيطة منها الى البلاد المفتوحة خفة فى سكانها ، مما جعل بعض المؤرخين يزعمون عن سوء نية او سوء نظر ان الاسلام قد زعزع مكانة اليمن، وسلبها استقلالها، ولو احسنوا النية او الراى وتدبروا الحقائق الواضحة لعرفوا ان الاسلام حفظ سلطانها لاهلها فى حماية دولته الجديدة ، بعد ان كانت للحبشة حينا ، ولفارس حينا ، وسوى بينها وبين الاقاليم العربية وسائر البلاد المفتوحة فى السلطان ، واعطى اهلها كما اعطى بقية الفاتحين ارضا جديدة يستوطنونها ، ويرتزقون من خيراتها ،وفتح لهم طرق التجارة التى كانت فى ايدى الفرس والرومان ، وتركت منازلهم فى اليمن لمن بقوا فيها ، بالاضافة الى الاسلام الذى وحد عقيدتهم فخلصهم من المنازعات الدينية الداخلية بين يهودية ومسيحية ومجوسية ووثنية ، وقد انتشرت شراذم هذه القبائل اليمنية ولم تزل بقاياها حتى اليوم حيث يسمع الاذان بدعوة الاسلام سواء فى المدن او الارياف ، ولم يزل كثير منها يذكر اصوله اليمنية •

كيف نشات الجامعة ؟

ظهرت الجامعة فى السنة الدراسية ٧١/٧٠ ، وكانت كسائر المواليد فى بدايتها صغرا وضعفا، اذ بدات كليتين : احداهما للتربية ، تضم ١٣ طالبا وطالبة ، وكلية للشريعة والقانون ،وطلابها وطالباتها ٣٧ ، وهذا فى دولة دخلت الثلث الاخير من القرن العشرين ، وسكانها يومئذ خمسة ملايين او يزيدون •

ولكن هذه البداية ـ مع صغرها وضعفها ـ جديرة بالاعجاب ، ولولا اصرار بعض اولى العزم من فضلاء الدولة على انشائها ، والمعونة المالية من بعض الدول العربية لتاخر ميلادها سنة او سنوات ، ويكفى عقبة دون فتحها قلة المؤهلين لها من خريجى الثانوية ، كما تدلنا على ذلك النظرة

السريعة الى عدد الطلاب والطالبات معا وهـم خمسون عند افتتاحها كليتين •

لقد ولدت كما اريد لها « على اى نحـو » ، وكانت ولادتها بما يشبه العملية القيصرية قبل الاوان ، لا ولادة طبيعية ، ولكنها عاشت ،ونمت طبيعيا ، وامتلأت عافية ، بل صارت كخير ماتكون اى جامعة فى مثل عمرها ، وهى اليوم فى سنتها السابعة من عمرها العريض الطويل بتوفيق الله، وهمة الغيورين • وكم من دولة عربية وغيرعربية غارقة فى ثرائها ، ولديهـا اعـداد من خريجى مدارسها الثانوية ، ثم اشفقت من تاسيس كلية واحدة فضلا عن جامعة ذات كليات ، فهى ترسل هؤلاء الخريجين ولو على نفقتها الى جامعات دول اخرى •ومن هنا ياتى بدء العجب من انشاء جامعة «صنعاء» ، والاعجاب بها

لم تزل نهضة « يمننا » هذه فى بدايتهـا ، ولهاعذرها بل اعذارها الـكثيرة ، فانها ــ حتى ثورتها الاخيرة سنة ١٩٦٢ ــ بقيت معزولة وراء سورها الحديدى الذى ضربته حولها « حـكمة » حكامها السابقين من ابنائها ، فلم تنتفع بمزايا استقلالها المبكر الذى سبقت فيه معظم شقيقاتها العربية ، مما يدل على ان الاستقلال لا يغنى فتيلا عن اصلاح احوال شعبها واطلاق الحرية له كى ينشط بكل ما لديه ذاتيـا من طاقات ادبية ومادية • لقد بقيت « يمننا » فى عزلتها لا يسمح لشعبها ان يتصل بسواه من شعوب العالم ، ولا يسمح لها ان تتصل به ، حتى اذا تسللت اليه ــ من خلل السور ــ دعوات الحرية والاصلاح ــ بالكره من حكامه ــ قامت طوائف من احراره بالثورة على هذا الطغيان الراصد حتى اطاحت به ، وبذلك تصدعت كل جوانب ذلك الســور الخانق ، وتفتحت صدوعه لرياح شتى تهب عليه من سائر بلاد العالم شرقا وغربا ، و « يمننا » لا شك فى اشد الحاجة الى كل عـون صالح ، لتمضى فى نهضتها •

ولقد كانت البلاد القـريبة منها اسرع الى نجدتها وعونها ، فالاخ الى اخيه اقرب ، وبعونه اجدر ، وله اشد قبولا ، وعليه اكثر اعتمادا ، وان كان هذا لا يعفى سائر بلاد العالم القادرة على اى معونةمن ان تسعف ولو بأيسر ماتستطيع، فهذا واجب لا فكاك منه ، ولا عذر فيه لمقصر بعد ان صارت اقطار الارض ــ بسـبب تشابك مصالحها ــ كاعضاء الجسم الحى ، فلا تضار مصلحة طرف قاص او دان حتى تضـار مصالح سائر الاطراف • عرف ذلك من عرفه ، وانـكره من انكره ، واذا لم يكن حب الغير وبعد النظر كفيلين بحمل القادرين على المعونة ان يقدموها عن سماحة وحكمة ، فان جرائر المحن واضرارها عليهم كفيلة بان تعلم الجاهل ، وتنبه الغافل ، وتكبح جماح المعاند ،فيخف الى النجدة اضطرارا، ان لم يبادر بها اختيارا ، ولا عجب اذن ان تجد المساعدات تاتى هذا القطر من دول كثيرة غربية وشرقية ، ايا كانت الدوافع من هنا او هنالك• وكلها خيرات واجبة القبول ، جديرة بالتقدير ما ابقت للشعب واحراره المسئولين حريتهم فىتدبير احواله والتصرف فى ثرواته على وفق مصلحته ، دون وصاية خارجية •

التعليم قبل الثورة

كانت البلاد قبل سبتمبر سنة ١٩٦٢ تكادتكون خلوا من التعليم النظامى على اختلاف مستوياته

القديم والجديد فى صنعاء• هذا المبنى الشاهق يطل على الجامعة • هو صرح غمدان ، قصر وحصن يقوم على صخرة واحدة بالقرب من صنعاء ، وكان يسكنه الملوك الائمة قبل الثورة (١٩٦٢) وهو يعود الى (اليشرح) أحدملوك سبأ فى القرن الاول الميلادى وقد بنى بالحجارة الضخمة الملونة والرخام الفاخر ،وكان يتكون من عشرين طبقة ، ارتفاع كل منها عشرون ذراعا ، فهو اقدم ناطحة سحاب نعرفها ، وبقى الى أيام سيف بن ذى يزن آخر الملوك الحميريين الذى استطاع بمعونةالفرس أن يطرد الاحباش سنة ٦٧٥ بعد أن احتلوا اليمن نحو خمسين سنة ، فتوافد عليه رؤساء القبائل يهنئونه بالانتصار والملك ، ومنهم عبد المطلب (جد النبى عليه السلام)وأبو الصلت الثقفى (والد شاعرنا المخضرم أمية بن ابى الصلت) الذى نظم قصيدةفى تهنئته ، منها قوله :

« أرسلت أسدا على بقع الكلاب ، فقد ... أضحى شريدهم فى الارض فلّالا
فاشرب هنيئا ، عليك التاج ، مرتفعا ... فى رأس غمدان ــ دارا منك محلالا



وانواعه فليس فيها اى تعليم عال ، بل لم يكن هناك تعليم ثانوى عام او فني ، ولا في مستواه فاذا هبطنا الى مستوى التعليم المتوسط حتى السنة الدراسية ٦٢ / ٦٣ ـ بعد بداية الثورة ـ لم تجد الا ثلاثة مدارس هزيلة تضم نحو عشرين فصلا ، فيها نحو سبعمائة طالب ، ومعهد واحد للمعلمين ابتدائي ، يدرس خريجوه في المدارس الابتدائية ، على قدر ما تعلموا فيه من بدايات المعرفة • واما المدارس الابتدائية في تلك السنة فكانت اشبه بالكتاتيب المتهالكة ، لانها هيئت على عجل عقب الثورة بقدر ما تهيأ من وسائل ومعونات معظمها خارجي .وقد بلغت هذه المدارس او الكتاتيب يومئذ اكثر من تسع مئة ، تضم نحو ٥٧٠٠٠ تلميذ ، والفى تلميذة ، ولا استثناء من هذا التخلف لغير حركة ضعيفة في مجال التعليم الديني ، فقد كان هناك بعض الافراد الذين يتولونه في المساجد ونحوها متطوعين غالبا . فاهل البلاد مسلمون فهم مضطرون الى من يعلمهم مالا بد من علمه من امور دينهم ، ويقيم لهم شعائره ، ويفتيهم في مسائله ، ويقضي بينهم بما اصطلح عليه علماؤهم من احكامه ، ومن طلاب هذا التعليم كان كثير من شباب الجامعة الغمسين الذين التحقوا بها عند فتحها • ولم تتوان الدولة عقب الثورة في انشاء ما تيسر لها من المدارس على اختلاف المستويات ، ولاسباب كثيرة لم تجد بدا من التاني في الاستكثار من المدارس المتوسطة والثانوية للبنين والبنات ، حتى يتهيا لكل مستوى منهما عدد كاف من خريجي المستوى السابق له.ويجلب اليها المعلمون من الخارج. وكان من الاسباب ان الدولة كانت في شغل شاغل بمشاكل الحرب الاهلية وجرائرها في السنوات التي تلت الثورة سنة ٦٢ حتى افتتاح الجامعة سنة ١٩٧٠ •

قفزات واسعة

وقد يبدو انشاء الجامعة متاخرا عن وقته بالنسبة للبلاد الاخرى ، ولكن التقدير الصحيح لتلك الاسباب المعوقة يحملنا على اعتبار ان نشاة الجامعة كانت مبكرة ، بل انها ولدت قبل اوانها وهي لم تولد ـ كما اسلفنا الا نتاج تلك العزمة الصادقة الجبارة من بعض ذوى الغيرة والقدرة والحنكة الذين تبنوا فكرتها ، وطلبوا المعونة المالية لتوليدها ثم رعايتها ، فوجدوا من يلبيهم بين الاشقاء من ذوى المروءة ، وكانت الكويت اسرع نجدة ، واجزل عطاء •

كانت ولادتها فلتة ، ولكنها محسوبة العواقب ولهذا نمت كما تنمو افضل الجامعات حظا ، وان كانت بدايتها صغيرة ضعيفة ، فان مدارس الدولة اخذت تمد الجامعة بخريجيها ، وتواصلت المعونة المالية لها ، فمضت تكبر ، وتجد في خطاها ، ثم توالت قفزاتها المأمونة العواقب ، وهي ماضية في ذلك حتى تتكامل بنيتها كسائر الجامعات العريقة•

اشرنا من قبل الى ان الجامعة بدأت سنة ٧٠/٧١ كليتين : احداهما للتربية تضم ثلاثة عشر طالبا وطالبة ، وثانية للشريعة والقانون ، طلابها وطالباتها ٣٧ ، ولم يكن المكان الذى بدأت منه ـ ولم تزل فيه حتى الان ـ قد خصص لها ، بل ليكون معهدا للمعلمين ، فاستقرت فيه ، وبعد سنه واحدة تهيأت للتفرع ، فتطورت كلية التربية لتكون كلية الاداب والعلوم والتربية ، تمهيدا لفصلها ثلاث كليات بعد ان كانت ثلاثة اقسام في كلية واحدة ، واما كلية الشريعة والقانون فقد قفز طلابها من الجنسين في سنواتها الثلاث الاولى من ٣٧ ، الى ١٣٤ ، الى ١٦٣ ، حتى سنتها الرابعة (٧٣/٧٤) فالحقت بها شعبة للتجارة والاقتصاد بلغ طلابها وطالباتها ٢٤٣ ، فلما استقلت في السنة التالية باسم « كلية التجارة والاقتصاد » بلغوا ٥٧١ ، وهكذا صارت الكليتان خمس كليات•

نجاحان : داخلي وخارجي

وفى هذه السنة ايضا (٧٤/٧٥) كان قد مضى على انشاء الجامعة اربع سنوات ، واقترب ظهور خريجيها ـ كان الخريجون في كلية الاداب مثلا في تلك السنة عشرة ـ احتاج امرها الى مراجعة عامة للنظر في مستقبلها ومستقبل خريجيها ، وتهيئة الطريق لهم ولها ، وتعديل ما يلزم من شئونها الداخلية ، ومن ضمان مكانتها بين الجامعات ، وقد حققت نجاحا في الجانبين ، فاما نجاحها الخارجي فقد تحقق عندما تقدمت الى مجلس اتحاد الجامعات العربية الذى انعقد فى فبراير سنة ١٩٧٤ ، وطلبت قبولها عضوا فى الاتحاد والاعتراف بخريجيها ، فاجيبت بالموافقة •

واما النجاح الداخلي فهو الخاص بتحديد مهمتها ، وتنظيم كلياتها واقسامها واجهزتها التعليمية والمالية والادارية التي تشرف عليها ، وتحديد اختصاص هذه الاجهزة وعلاقة بعضها

الحكمة اليمانية

الإيمان يمان والحكمة يمانية « حديث شريف »

العدد ١ السنة الأولى — مجلة علمية جامعة دورية — ذي القعدة سنة ١٣٩٧

شعار جامعة صنعاء ، اختاره مجلس امنائها - وهو يمثل اعمدة العرش الخمسة لاحد ملوك « سبأ » وفوقه عبارة « الحكمة يمانية » وتحيط بذلك حنية زخرفية على طراز يمني .

ويعتز اليمنيون بعبارة الشعار ، اذ يستندون في ذلك على حديث نبوي « الايمان يمان ، والحكمة يمانية » ولذلك سموا احدى جرائدهم « الايمان » وسموا احدى مجلاتهم « الحكمة » ، ويبدو في الصورة المرفقة رأس العدد الاول منها .

ببعض ، وفي ذلك صدر قرار مفصل هو القانون (١١٨ لسنة ١٩٧٤) ، اشار في فقراته الى ان مهمة الجامعة العناية بالبحث العلمي ، وتهيئة المواطن الصالح ، والاسهام في صنع مستقبل الوطن ، وتحقيق الرخاء لشعبه ، كما حدد القانون جهاز مجلس الجامعة واختصاصاته ، وعدد الكليات واقسامها وشروط قبول الطلاب يمنيين وغير يمنيين ، منتظمين ومنتسبين (حتى في الدراسات العليا بعد ظهورها) والرعاية لهم اجتماعيا ، وصحيا ، وسكنيا (في المدينة الجامعية) والشهادات التي تمنح للخريجين (البكلوريوس ، والليسانس) ونظام الامتحانات والنقل ، وكل هذا متبع بقدر ما تملي للجامعة احوالها المالية والتعليمية سنة فسنة ، وهي في جملتها احوال طيبة ، ولهذا تتسع خطواتها في ثقة وعزم وامان ، وذلك ما توضحه مظاهر كثيرة ، منها مثلا عدد الطلاب والطالبات فقد كانوا (٥٠) عند افتتاحها (٧٠/٧١) فصاروا في سنتها الخامسة (١٦٢١) وهم اليوم في سنتها السابعة (٣٠١٤) .

كليات الجامعة واقسامها

ومن مظاهر سعة خطواتها ايضا تفرعات كلياتها واقسامها ، ففيها اليوم خمس كليات ، لكل منها مبناها الخاص ، (ما عدا كلية التربية) ولها جهازها التعليمي والاداري ، وهذه الكليات هي

١) كلية الشريعة والقانون : وهي احدى الكليتين اللتين بدأت بهما الجامعة سنة ٧٠/٧١ وكان طلابها يومئذ (٣٧) وهم اليوم (٤٣٠) ، واقسامها ثلاثة : الشريعة ، والقانون العام ، والقانون الخاص .

٢) كلية الاداب : وكانت تابعة لكلية التربية التي صارت بعد سنة افتتاحها تسمى « كلية الاداب والعلوم والتربية » ، ثم استقلت كلية الاداب سنة ٧٣/٧٤ ، وكان طلابها يومئذ (٤٦٨) فصاروا في السنة التالية (٥٦٤) وهم اليوم (٤٠٢) واقسام الكلية خمسة : اللغة العربية والدراسات الاسلامية ، واللغة الانجليزية وادابها ، التاريخ والاثار ، الجغرافية ، الفلسفة والاجتماع .

٣) كلية العلوم : وقصتها كقصة كلية الآداب وقد استقلت سنة ٧٣/٧٤ ايضا ، وكان طلابها يومئذ (٥٩) وفي السنة التالية (١٠٩) وهم اليوم (٢٩٣) وقد اخبرنا عميدها الدكتور عبد الحسن العبادي أن اقسامها سبعة : الفيزياء والكيمياء ، والرياضيات ، الحيوان ، الجيولوجيا ، البحار ، وقسم الجيولوجيا اكثر الاقسام طلابا ، للحاجة الى كشف ما في باطن الارض من ثروات ، في مقدمتها النفط ، وفي داخلها قسم للعلوم والتربية لتخريج مدرسين للرياضيات والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي (جيولوجيا ، نبات ، حيوان) ، والطالب يتخصص في مادتين ليستطيع العمل في أحد مجالين أو كليهما ، (والدولة في أشد الحاجة الى مدرسي العلوم بخاصة ، مدرسي سائر المواد بعامة) .

٤ ـ كلية التجارة والاقتصاد ، وقد بدأت شعبة في كلية الشريعة والقانون سنة ٧٣/٧٤ ، وكان طلاب الشعبة وطالباتها يومئذ (٢٤٣) وفي السنة التالية صارت كلية مستقلة ، فصاروا (٥٧١) وعددهم اليوم (١١١٨) فهم أكثر



● اقامت الجامعة معرضا قدمت فيه أحدثما عندها ٠ وفي الصورة التف بعض الزوار حول جهاز يبين الجهات الاربع ٠ **(الصورة الى اعلى)**

● مباني كلية الدراسات الاسلامية والعربيةفوق أحد جبال مدينة تعز ، يظهر من الخلف جبل « صبر » الذى يبلغ ارتفاعه حـــوالى٦٠٠٠ قدم **(الصورة الى أسفل)**





● ثلاث طالبات بكلية العلوم ، فى حديقة الجامعة، تتوسطهن احدى الوافدات، وقد وقفت سافرة بين زميلتيها اليمنيتين المتحجبتين ، فى لقاء لا ينكر فيه طرف على طرف ما اختار لنفسه من أزياء •

عددا من أمثالهم في أى كلية ، واقسام الكلية ثلاثة : المحاسبة ، والاقتصاد ، وادارة الاعمال ٠

٥) كلية التربية : وقد أشرنا آنفا الى أنها كانت احدى كليتين بدأت بهما الجامعة ومن التربيةتفرعت كليتا الاداب والعلوم ، لم استقلتا عنها ، ولها الان عميدها وهيئتها الادارية ولكن ليس لها مبنى مستقل ، لان طلابها من الجنسين (وعددهم اليوم ٩٦٤) موزعـون مؤقتـا بحسب اقسامها الخمسة بين كلياتثلاث ، فاللغة العربية، وقسم اللغة الانجليزية وقسم العلوم الاجتماعية ملحق بكلية الاداب ، وقسم العلوم الطبيعية ملحق بكلية العلوم ، وقسم العلوم التجارية ملحقبكلية التجارة والاقتصاد ٠٠ ولا شك ان لتفاوت اعداد الطلاب بين الكليات الخمس دلالاتها التى لا تخفى على خبير ٠

اختلاط الطلاب والطالبات

والاختلاط بين الطلاب والطالبات سائد في كل ما اطلعنا عليه من اقسام الدراسة : داخل قاعات المحاضرات ،وفى افنية الكليات ـ وهى متداخلة ـ وفى مكاتب الادارات ، وهذه ظاهرة جريئة ،فكثير من الطالبات محجبات حتى لا تظهر الا عيونهن ، وبعضهن كاشفات الوجوه فحسب وغيرهن سافرات فى الزى المألوف الشائع بين مثيلاتهن من الطالبات الجامعيات فى هذه الايام ، وهذا دليـل سماحـة وتسامح ، وفيه حل لمشكلة عسيرة الحل فى بلاد كثيرة وقد تكفلت البنات بهذا الحل عن رضا من اسرهن او بتشجيعها ، حين اقتحمن الجامعة ففتحت لهن كل ابوبها ، وجلسن الى جانب زملائهن فى قاعات الدرس ، وسايرنهم فى حرم الجامعة بلا تهيب ، سواء منهن المتحجبات وغير المتحجبات ٠ وقد لقينا مصادفة احد آبائهن ، وكانت لحيته فوق صدره تلامس مقبض خنجره البارز من منطقتـه المزخرفة فاكبرنا رأيه فى وجوب تعليم البنات الى اقصى درجات التعليم ، وعدم شعوره باى تحرج فى اختلاطها باخوتها او زملائها فى حرم الجامعة، وقد اسمعنا فىذلك حججه الدينية والواقعية التى هو مقتنع بها ، وهى وجهة تستحق التقدير ٠

ومن تدبر احوال النهضة النسائية فى بلادنا العربية (ونحوها) يجد ان اثر العدوىالاجتماعية فيها ـ اتباعا للغرب فى بدايتها ـ كان اسبق واقوى من اثر السماحةالدينية وسير النهضةكذلك حتى اليوم ، سواء وقفت عند حدود الدين او فارقتها ، وقد املت الضرورات على النهضـة النسائية التعليمية ما جعل الاختلاط بين الفتيات والفتيان منتشرا فى كثير من مـدارس الاريـاف متوسطة وثانوية سواء فى بلادنا او غيرها ، على حين لم يزل كثير منـا ينكرون هـذا الاختلاط ، ناظرين الى ضروراته المختلفة ـ او غير ناظرين ، ويرون وجوب الفصل بين الجنسين حتى فى الجامعة ولو كان ذلكمتعذرا اما لقلةالهيئات التدريسية، او لان عدد البنات من جهة لا يكفى لتكوين فصل فضلا عن مدرسة ، ولكل وجهة هو موليها ٠ وان كان من حسن النظر ان تقدر الضرورات بقدرها على وفق الامكنة والاحوالالاجتماعية وان لا تحرم فتاة حظها منالتعليم بسببالاختلاط ،والضرورات تفرض نتائجها رضى ذلك من رضيه ، وأباه منأباه

الجمعيات الثقافية فى حمى الجامعة

ولا يقتصـر نشـاط الكليـات على القـاء المحاضرات داخل القاعات ، بل حاولت ان تمد أنشطتها الثقافية الى مرافق مختلفة ، وتتلاحم فى ذلك مع جهـات مختلفة فى لواء صنعـاء والالوية التسعة الاخرى ، ففى كلية الشريعة والقانون مثلا أنشئت الجمعية الشرعية القانونية، وفى كلية العلوم أنشئت الجمعية الكيميائية ، والجمعية البيولوجية ، وفى كلية التجارة أنشئت جمعيتان علميتان : احداهما للمحاسبة والمراجعة، والاخرى للاقتصاد والاحصاء ٠

وهذا التلاحم بين هذه الجمعيات وتلك الجهات خارجهـا يسهم نظريا وعمليا فى وضـع حلول للمشاكل الوطنية المختلفة مع المسئولين وسائـر المختصين فى مرافق الدولة ، وقد سرنا أن نجد كثيرا من هذه الجمعيات تصدر مجلاتها مطبوعـة على الالة الكاتبة ، ويشترك فى تحريرها الاساتذة والطلاب ، وهى ذات مستوى طيب ٠

واتباعا لهذه الوجهة الخيرة نظمت كلية الاداب ندوة علمية ، رغبة فى تعليم اللغة الانجليزية٠ بطريقة افضل ، وقد حضر الندوة كثير من ممثلى الجامعات والهيئات التعليمية فى البلاد العربية، واصدروا توصياتهم للمهتمين بتدريسهذه اللغة٠ كما ان لكلية الاداب معملا صوتيا لتعليم طلابها اللغة الانجليزية بطريقة حديثة ، ولم تزل الدولة فى حاجة الى الاهتمام باللغـات الحديثـة وفى مقدمتها الانجليزية ، وهى تبذل فى هذا جهـودا جبارة داخل الجامعة وخارجها ، وتستعين فىهذا

السبيل بجهات كثيرة من بعض الدول ، ومن بعض الهيئات الثقافية الدولية .

استكمال كليات الجامعة

والجامعة اليوم ـ مع نهضتها القوية ـ لم تستكمل فروع التعليم التي تحتاج اليها الدولة، ويحدد رئيسها الدكتور عبد الكريم الارياني ، صورة المستقبل بقوله : ان الخطة الخمسيةالحالية (٧٥ ـ ١٩٨٠) للجامعة ادرجت انشاء مبان جديدة للكليات الخمس العالية بالاضافة الى ثلاث كليات اخرى : الهندسة ، والزراعة ، والطب ، وقد اشترت الدولة الارض اللازمة لها وملاحقها بملايين الريالات ، والبناء يجرى الآن فيها بهمة ، واوشك بعض المنعمات ان يتم . والمنطقة الجديدة شاسعة تكفي لكل الكليات وملحقاتها حتى مساكن الاساتذة والمدينة السكنية الجامعية لكل من الطلاب والطالبات . وان الدولة شديدة الاهتمام بتخريج المعلمين والمعلمات ولهذا تتوسع في كلية التربيه ، تيسر لطلابها وطالباتها كثيرا من المساعدات لتجذب اليها اكبر عدد كما تهتم بانشاء معاهد للمعلمين والمعلمات، منهاثلاثة تحت التنفيذ في صنعاء وتعز والحديدة .

ومن مكتب الرئيس انتقلنا الى مكتب نائبه المقيم الاستاذ محمد مطهر ، لنستكمل حديث الجامعة الجديدة ، فقال ان الاعداد للكليات الثلاث الجديدة قد استلزم مشاركة كثير من الهيئات العالمية في الدراسة والتخطيط ، ومنها البنك الدولي ، واليونسكو ، ومنظمة الصحة العالمية ومنظمه الاغذية العالمية الى جانب منظمات اخرى. وان الدراسة في هذه الكليات ستبدأ في السنة الدراسية ٨١/٨٠ وان الدولة مهتمة بتخريج الزراعيين من الجامعة ومن المرحلة الثانوية ايضا، وقد بنيت لذلك مدرستان ثانويتان ، سبقتهما مدرستان اخريان في منطقتي « اب » و « سردد » وبعد انتقال الجامعة الى مركزها الجديد قد تتحول مبانيها العالية الى مدرستين ثانويتين احداهما للبنين والاخرى للبنات ، او نحو ذلك، لضيق المدارس العالية عن احتواء الطلاب الراغبين في الدراسة .

منطقة الجامعة الجديدة

وفي طريق وادى « ضهر » خارج صنعاء ، على مسافة قريبة منها ـ شاهدنا المنطقة التي ستقام فيها « الجامعة الجديدة » بكلياتها الثماني وملاحقها ، فاذا هي واسعة تمتد على جانبي الطريق ، وقد وضحت حدودها باسلاك وقوائم ، والعمل يجرى فيها نشيطا على اوسع نطاق ، وكان في صحبتنا مهندس يمني يعمل في مكتب الكويت هو السيد محمد الخطرى ، وله معرفته بمشروع بناء الجامعة الجديدة ، لانه يشارك في الاشراف على تنفيذه ومراجعة من يقومون به ، وقد وضح لنا مواقع الكليات وملاحقها كالمكتبة والمعامل ، والمدينتين السكنيتين للطلابوالطالبات ومساكن الاساتذة ، وقد شاهدنا اسس كثير منها بارزة ، وهي في سبيلها الى الارتفاع ، وبعضها في طور التمهيد ، وتوشك مساكن الاساتذة على التمام ، وهي مشيدة بحجارة منحوتة مختلفة الالوان ، مقالعها في الجبال القريبة ، وما كدنا نشاهدها حتى ذكرنا الآية القرآنية الكريمة «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود » .

وقد مر بنا هنا ذكر « مكتب الكويت » و « مستشفى الكويت » في صنعاء ، كما مر بنا ذكر المعونات المالية الكويتية للجامعة ، ونشير هنا الى ان دولة الكويت كانت من اوائل البلاد العربية التي خفتلنجدة اليمن وبعض دول الخليج في مرافق الخدمات الشعبية ، ولا سيما التعليم، والصحة .

« والهيئة العامة للجنوب والخليج العربي » بوزارة الخارجية الكويتية هي الموكلة بهذهالخدمات ولها ميزانية مالية سخية غير معلنة ، وينوب عن هذه الهيئة في اليمن الشمالية مكتب الكويت في صنعاء ، فهو يشرف على كل الاعمال التنفيذية التي تقررها « الهيئة » خدمة لهذه المرافق .وقد تبنت الهيئة مشروع الجامعة بالانفاق منذ انشاء الجامعة حتى الآن ، وهي تمدها باعضاء هيئة التدريس ، ومنهم اليوم نحو سبعين من حملة الدكتورية اختارتهم جامعة الكويت ، والى جانبهم عدد كبير من مساعدى المدرسين ، بالاضافة الى بعض مدرسي اللغات ، ثم المحاضرين الذين ينتدبون من موظفي وزارات الدولة للتدريس ، ويكافأ هؤلاء بقدر ما يلقون من محاضرات . وقد اشترت حكومة اليمن منطقة الجامعة الجديدة بملايين الريالات ، وتسلم « مكتب الكويت » مشروعها ليقوم بتنفيذه على نفقة الكويت حتى يتمه ، فيسلمه الى رئاسة الجامعة في صنعاء



● مذيعة من اذاعة صنعاء · الحجاب يغطي وجهها باستثناء العينين في حوار مع احدى الطالبات ·

● في احدى قاعات الدراسة بكلية التجارة والاقتصاد جلس الطلاب والطالبات يستمعون لمحاضرة الاساتذة المصريين · (الصورة السفلى)





الغسّالات الكهربائية

لتحصلي على الأفضل والأسهل عليك بفيليبس

إفحصي بنفسك أية غسّالة فيليبس فتدهشك ميزاتها إن بمظهرها الخارجي الجذاب أو بمقاييسها العملية. غسّالات فيليبس ستستهويك أيضاً بسهولة وضع الغسيل في الحوض وسهولة تشغيلها بفضل أزرار مركّزة ومدروسة تمكنك من القيام بجميع العمليات المطلوبة بطريقة سهلة وكاملة.

هذه الغسالات لم تصنع في ليلة وضحاها بل هي ثمرة جهود ودراسات وبحوث واختبارات عالمية متواصلة. ان كل غسالة من مجموعة غسّالات فيليبس المتعددة مصنوعة كي تعطيك سنين طويلة من الخدمة الممتازة. هذا ما نضمنه.

PHILIPS

فيليبس الأفضل لكم دوماً

كما اسهمت الكويت في بناء مدارس عدة للبنين والبنات في المحافظات اليمنية العشرة ، وكلما تم بناء مدرسة حتى المفتاح زودتها بما يلزمها من اثاث ، وسلمتها الى وزارة التربية هناك ، وقد بلغت هذه المدارس ٥٠ مدرسة ابتدائيةومتوسطة، و ١٥ ثانوية ، ومن هــذه المدارس في مدينة « تعز » كلية الدراسات العربية والاسلامية التي يدل اسمها على مهمتها التعليمية العالية حين تتم صفوفها في المستقبل ، وقد شاهدناها فاذا هي مشيدة على احدث طراز تعليمي في موقع جميل يطل على مدينة تعز ، الى جوار جبل صبر الذي يعد من اعلى الجبال في الجزيرة العربية اذ يبلغ ارتفاعه نحو ٦٠٠٠ قدم وقد قال الاديب الشاعر احمد السقاف العضو المنتدب « لهيئة الجنوب والخليج العربي » ، أن الهيئة ترسل على نفقتها سنويا الى المدارس هناك كثيرا من المدرسين بالاضافة الى اعضاء هيئة التدريس بجامعة صنعاء ثم هي تقوم بتاثيث بعض المدارس هناك تاثيثا كاملا ، او تسهم في تاثيثها وتزويدها بالمعامل والادوات المدرسية ، وفي خلال زياراتنا لبعض هذه المدارس في صنعاء وتعز اشار بعض المسئولين هناك الى بعض هذا الاثــاث والادوات ومنهـا الآلات الموسيقية ، وذكروا انها « هدية الكويت » .

بين الجامعة والتعليم العام

الاقبال على التعليم في جميع انحاء اليمن على اختلاف مستوياته شديد ، وهو في المدن اشـبه بالسيل ، ولكنه لا يجد متسعات ينساح فيها ، والتعليم العام ثلاث مراحل في اثنتى عشرة سنة، الابتدائية ست سنوات ، والمتوسـطة ثلاث ، الثانوية ثلاث ، وفي زيارتنا لمعهد المعلمات في تعز ـ وهو مما بنته دولة الكويت ـ لاحظنا ان الشعب او الفصول مع سعتها حافلة بالطالبات في قسم المعلمات وفي القسم الثانوي للبنات ، ودراسة هذين القسمين صباحية ، وفي المسـاء تتحول المدرسة ابتدائية باسم « مدرسة سبأ » ويبلغ عدد تلميذات الشعبة فيها احيانا اكثر من مئة ، وقد يضطر بعضهن للجلوس على الارض خلال الدروس ، لضيق المقاعد عن استيعابهن . والمدارس حتى القروية منها لا تستوعب كل طلاب التعليم وطالباته ، وقـد يكون بين التلميذ او التلميذة والمدرسة طريق طويلة بين مصاعد ومهابط ملتوية ، ولكن هذا لا يمنع الصغار من معاناة المتاعب لبلوغ المدارس وقت الدراسة وهذا ما رأيناه في زيارتنا لبعض المدارس القـروية في ضواحي « تعز » .

ولكن المدارس اقل جـدا مما ينبغي لها ان تكون ، وفي زيارتنا مرتين للاستاذ عمر الوصابي وكيل وزارة التربية في مكتبه بصنعاء وجدنا انه يعمل في مكتبه صباح مساء ، لحاجة العمل الى هذه المثابرة ، ولما فاتحناه في مشكلة قلة المدارس عما ينبغي لها وزحام الموجـودة منها بالطـلاب والطالبات ـ وجدنا انه يحس المشكلة بكل متاعبها، واخبرنا ان كل المسئولين في وزارته يحسـون ما يحسه ، ويعملون جهدهم في حـل المشـكلة ، ليستدركوا سنة بعد سنة ما يلاحظونه من قصور، ومن حسن الحظ ان كثيرا من البلاد العربية ترسل بعثات على نفقتها من المدرسين للتعليم في مدارس اليمن ، ومن هذه البلاد : الـكويت ، ومصر ، والعراق ، والسعودية ، وقطر ، ودولة الامارات العربية المتحدة ، ولكن التعليم يحتاج الى مـا هو اكثر من هذه البعثات ، فعسى أن يجد تلبية اكبر .

واغوثـاه

حقا تتلقى اليمن المساعدات الكثيرة من دول شرقية وغربية ، ولكنا نلاحظ انها في اشد الحاجة الى مساعدات اكثر واكثر واكثر ، من كل دولة قادرة على المساعدة ، ولا سيما الدول العربية الشقيقة الغنية ، واذا قصر لسان القول عن الاسـتغاثة بدافع من عزة او حياء فان لسان الحال ينـادي كما نادى عمر بن الخطاب في عام الرمادة خـلال خلافته حين وقع القحط في البوادي حوله فكتب رسالته المشهورة القاسية الى عمرو بن العاص عامله على مصر ، وختمها بقـوله مسـتصرخا « واغوثاه ثم واغوثاه ثم واغـوثاه » ، ثم جاءت الامداد حتى رفع الله الغمة . وان الشعب اليمني ـ مع صبره ـ لفي حاجة الى امداد كثيرة تترى، ولو الى ان تدب العافية في كل اعضائه ، فيحس بعضها ببعض ويعين بعضها بعضا في حركته ، ثم يترك لامره ، وان فيه من القوى الحيوية ـ ما لو نتبه ـ لعاد عملاقا كما كان ، وصار ـ كما كان يسمى عند الرومان « العربية السعيدة » ، والله في عون المرء ما دام المرء في عون نفسه ، قادرا على التعاون مع اخوانه .

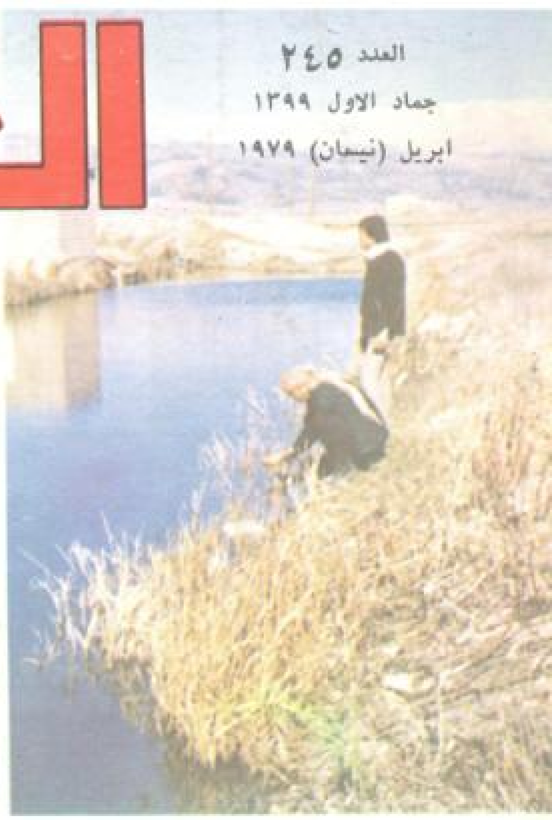
■■

محمد خليفة التونسي

العربى

العدد ٢٤٥
جماد الاول ١٣٩٩
ابريل (نيسان) ١٩٧٩





الليطانى : نهر عربى فى خطر



فهمي هويـــدي يكتب من اليمن الشمالي :



نقوش عصرية على جدران صنعاء

بعيد عن العين ،وربما عن القلب ايضا،هذا اليمن السعيد ، سابقا !

ولانه كذلك ، فقد صارت اليمن تشكل مثالا نادرا للفهم المغلوط ، تماما كما ان اليمني نمـوذج فريـد للانسـان الـذى لا يعكس ظاهرة حقيقته• وفى زمن كالذى نعيش فيه ، حيث العين والقلب يتجهان ـ فى أغلب الحالات ـ الى « بر العجم » ، فان محنة بلد كاليمن تصبح مضاعفة •فالفهم المغلـوط يصبح مقترنا بالجسـور المقطوعة • اذ يصبح الوصول الى صنعاء مشكلة ، والنفاذ الى صنعاء ذاتها مشكلة اخرى •

لن يعترضك احد بكل تأكيد ، لكنها « الحواجز النفسية » ـ بتعبير المرحلة ـ هى المانع والعائل • وهى حواجز بعضها غرسناه ، وبعضها نما فى غفلة منا ، وبعضها كنا ضحاياه • وكلها ، كلها ، هش قابل للسقوط والزوال فى لحظة زمن •

وتلك حقيقة مرة ، لا تتوفر الا فى عالم العجائب العـربى ، الـذى ينتقل من النقيض الى النقيض بنفس سهولة تتابع الليل والنهار • فبعد أن كانت عيوننا وقلوبنا طوال الستينات معلقة على جبال صنعاء وصرواح وحجـة وصعدة ، حيث كان المد العربى ـ ممثلا فى ٨٠ الف جندى مصرى ـ يحتضنون بكل الحب والحرص ثورة اليمن الوليدة ، وبعد ان رسمت حدود الجمهورية العربية اليمنية بدم ٢٠ الف شهيد مصرى مع عشرات الالوف الاخرين من ابناء اليمن• بعد هذا كله، طلعت علينا السبعينات بمواقف معاكس تماما ، عبر عنه شعار « انا اولا » ـ الذى أصبح « أنا فقـط » فيما بعد ـ وطويت صفحة الستينات ، ولطخت بكل ما تيسر من اتهامات وشتائم وأوحال • حتى كادت تتحول الى وصمة ، تلك الصفحة المجيدة من تاريخ النضال العربى •

وكلما علت أصوات « الانا أولا » ، تبـاعدت المسافات بين العواصم العربية • حتى صرنا نقرأ اخبار صنعاء فى الصحف بين الحين والآخر • وفى مقدمتها خبران اثنان يكتبان دائما بصيغ مختلفة• ان انقلابا وقع ، أو قرضا تم الاتفاق عليه !

ولا أخفى أننى ذهبت الى صنعاء بخطى متثاقلة، متأثرا ـ ربما ـ بما ظل ينقل عن اليمن من أخبار خلال السنوات الاخيرة • خصوصا تلك التى تتعلق بالتقلبات السياسية المستمرة • وبعد أن تتابعت الاحداث فى الساحة اليمنية ، من ثورة الى انقلاب الى تصحيح ، الى تصحيح التصحيح ـ (غير المحاولات التى لم تنجح) الى غير ذلك من الشعارات

المستحدثة التي صارت تغلف كافة الاتجاهات في آن واحد !

وفي ظل تلك المتغيرات ، عاشت اليمن مأساة العديد من دول العالم النامي ، حيث يدور القتال على جبهات عديدة ، وتعصف كل معركة ببعض الرؤوس ، ويتبين في النهاية أن القتال يدور في غير الاتجاه الصحيح ، وأن أغلب الرؤوس قد طارت ، وانه لم يبق شيء يذكر للمعركة الحقيقية معركة التنمية ، لا جهد تبقى ولا كفاءة استمرت •

ولانها المرة الاولى ، وبلت حقيقة مؤسفة ، فقد ذهبت أبحث عن أبناء جيلنا ، زملاء الدراسة في ثانوية حلوان بمصر في بداية الخمسينات • وهم الدفعة الاولى من الشباب اليمني الذين أوفدوا للتعليم في الخارج بعد انقلاب سنة ٤٨ ، الذي قتل فيه الامام يحيى ، ولم يكتب له النجاح •وكان هؤلاء الشبان أنفسهم هم الذين تصدروا مواقع القيادة بعد ثورة ٦٢ • ولكني فوجئت بأن معظم ابناء هذا الجيل قد اختفوا من مسرح الحياة السياسية • وأن التقلبات السريعة أقصتهم خارج الحلبة ، فمنهم من أحيل الى التقاعد ، ومنهم من اصبح لاجئا سياسيا ، ومنهم من اعتزل السياسة الى البحث العلمي أو التجارة ، ومنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر !

هل تعود الامامة ؟!

وهذهالظاهرة ـ مع شواهد أخرى ـ تجسد احدى الحقائق التي تلمحها العين منقوشة بحروف بارزة على جدران صنعاء ، وأعني بها الحاجة الملحة الى الاستقرار • ذلك انه بعدما أنهكت حرب الستينات اليمن كله ، حتى أعلن افلاس خزينة البلاد في سنة ٧٠ ، منذ ذلك الحين والى الان ، تتابعت ستة عهود على اليمن ، من السلال الى الايرياني، الى الحمدي ،الى الغاشمي ، الى العرشي ثم أخيرا الى الرئيس الحالي علي عبد الله صالح •

على أننا نقع في خطأ فادح ، اذا ما ربطنا ما بين ثورة ٢٦ سبتمبر ٦٢ ، وبين تلك التقلبات ، لان العهد الامامي الذي سبق الثورة لم يخل من الهزات العنيفة ، ثم أن اليمن كله ظل طوال تلك السنوات يعيش فيحالة قصوى من الغليانالشعبي• فضلا عن أن ذلك العهد لا يمكن أن يعتبر مستقرا الا بالقدر الذي يوصف به شخص مكمم الفم ومقيد بسلاسل الحديد ، بانه هادئ، ووديع للغاية !

وليس سرا أن ثمة أطرافا عديدة من مصلحتها أن يستمر القلق في اليمن والا ينعم هذا الشعب العريق والغني بأي قدر من الاستقرار ، يمكنه من ترتيب حياته وتفجير طاقاته الكامنة ، واستثمار ثرواته • وتحرص هذه الاطراف على الا يظهر في الجزيرة العربية أي ليمن القرن العشرين ، وان يظل هذا اليمن واقفا على أبواب القرن الثالث عشر ، ولا بأس ـ من وجهة نظرهم ـ أن يتقدم الى القرن الرابع عشر ، شريطة الا يتجاوز القرون الوسطى بأي حال !

وليس سرا أيضا أن بقايا العهد الامامي ما زالت تحلم بالعودة ، بحجة أن «الامامة» هي ضمان الامن والاستقرار في بلد « متخلف » كاليمن ، كانت ثياب الثورة فضفاضة عليه ، فتعثر وانكفأ • ولا سبيل الى علاجه الا بإلباسه ثيابه المناسبة ، التي هي ـ بالضبط ـ في قياس الامامة !

وحتى لو كان ذلكحلما مستحيلا ، فانه لا يزال يراود البعض خارج اليمن على أي حال •

في القاموس اليمني الجديد

على أننا اذا ما غضضنا البصر عما هو سياسة مباشرة ، فاننا نستطيع أن نقرأ على جدرانصنعاء نقوشا ذات دلالات لا تخفى أهميتها ••

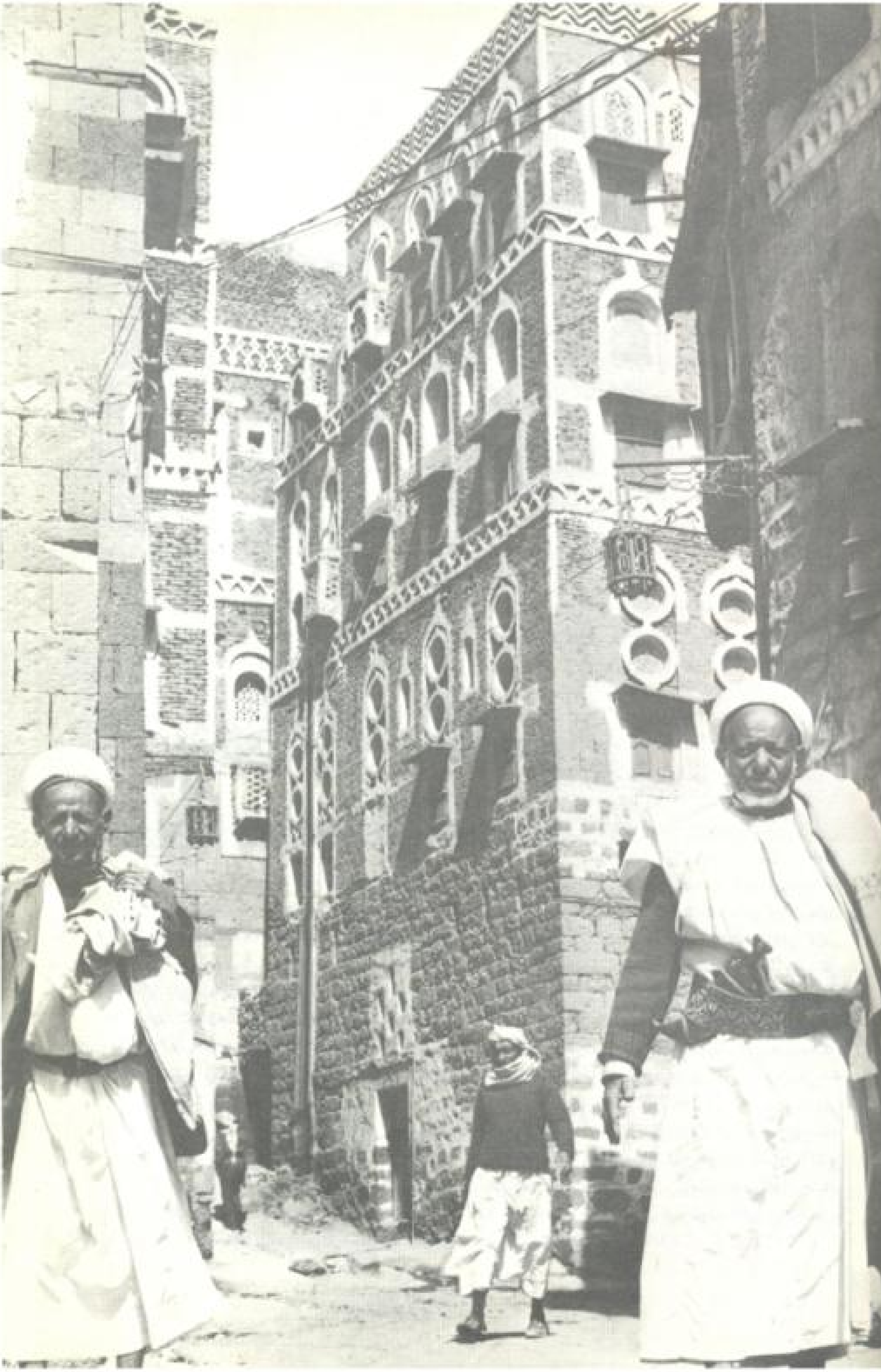
وقصة النقوش قديمة في اليمن يرجع تاريخ بعضها الى القرن الخامس أو السادس عشر قبل الميلاد ، عندما كانت العربية لغة « خام » ، لم تحكمها بعد قواعد النحو والصرف ، فيما عرف بعد ذلك بالفصحى • وقد عثر على عدد كبير من هذه النقوش ، التي تسجل تصرفات الافراد المرموقين ، مدونة على ألواح تتراوح بين الحجر والذهب •

أسلوب النقوش هذا ، لا يزال له دور في تعبير اليمني عن نفسه• وواجهات بيته، وثيابهالخارجية، وحتى تطريز غمد خنجره الفضي ، والحزامالعريض الذي يطوق خصره ، هذه الصيغ كلها تؤكد تلك الحقيقة •

وكما ترصد العين نقوشا كهذه ، الا أن بقية

◄

صورة من صنعاء القديمة ، حيث تتشكل معالم الحياة من جديد ، وتتجسد التحديات فيمحاولات اختراقاسار القرون الوسطى•



الحواس تستطيع أن ترصد نقوشا أخرى ـ ليست مدونه بالضروره ـ على سطح الحياة اليمنية •

واذا وضعنا في الاعتبار ذلك الحرص على أن تبقى اليمن أسيرة عصور القرون الوسطى ، فانه يصبح مثيرا للانتباه أن « نكتشف » في القاموس اليمني عبارات تعد اختراقا لتلك الحدود ، مثل : البرنامج الانمائي والخطة الخمسية ، والتعاون للتطوير ، ثم أن يصبح لهذه الرموز دور ـ أى دور ـ في مسيرة اليمن •

فقد عرف اليمن لاول مرة في تاريخه تعبير « الموازنة العامة » في برنامج الانماء الثلاثي الذى بدأ في عام ٧٣ ، ثم هم الان ينفذون ، ومنذ عام ٧٦ ، خطة خمسية تمس الكثير من الطموحات (استثماراتها ١٦٫٥ مليار ريال) •• والى جانب هذا وذاك فان ثمة جهدا له قيمته تبذله التعاونيات المنتشرة الان في أنحاء اليمن •

وتشغل قضية التعاون هذه جانبا كبيرا من اهتمام المسئولين في صنعاء • ولا تكاد تجتاز أبواب العاصمة حتى يسألوك : هل رأيت تجربه التعاون؟ ولا تكاد تدخل أى مدينة أو قرية الا وتلاحق عينيك ملصقات التعاون • بل لا تكاد تستمع الى نشرة الاخبار الا وتجد على رأسها أخبار التعاون • حتى أصحاب المحلات التجارية ، لم يفتهم أن يعلنوا عن تجاوبهم مع شعارات المرحلة ، فصارت اللافتات تحمل عبارات بقالة التعاون وجزارة التعاون وصيدلية التعاون !

وتسعى الحكومة في حدود قدراتها الى دعم هذه التعاونيات ، ماليا واعلاميا • وفضلا عن المساعدات العينية ـ جرارات وموتورات كهربائية ـ فقد تنازلت الحكومة للتعاونيات عن ٧٥٪ من دخل الزكاة وخصصت لها ٢٪ من قيمة الرسوم الجمركية ، هذا غير حملة الدعاية المركزة التي تستهدف لفت الانظار الى التجربة • ويشير احصاء أخير ، الى أن عدد التعاونيات في محافظات اليمن الاحدى عشرة ، قد بلغ ١٨٥ هيئة • وان تلك التعاونيات قامت خلال السنتين الاوليين من سنوات الخطة الخمسية بانشاء ٣٠٩ مدارس ، و ٦٤٥ مشروعا للمياه ، و ٢٨ مستوصفا ، غير شق وتمهيد طريق طولها ٧٦٥٨ كيلومترا •

ورغم أن البيانات الرسمية غالبا ما تجنح الى المبالغة في مثل هذه الحالات ، الا أنه يظل انجازا كبيرا أن تكون هناك ـ من حيث المبدأ ـ تعاونيات في اليمن وان تحقق ولو نصف مثل هذه المشروعات •

اكثر من مشكلة للتنمية

ومع ذلك ، تظل قضية التنمية في اليمن مشكلة بالغة التعقيد ، فاذا توفر الاستقرار النسبي ، لا يتوفر المال • واذا توفر المال يتعذر الحصول على الايدى العاملة الماهرة • أى أنه ينطبق على اليمن وصف « قصور الحال والمال » !

فمن ناحية ، لا يدخل الانتاج الزراعي أو الصناعي ضمن موارد الميزانية • لان الانتاج ـ ان وجد ـ موجه كله الى الاستهلاك • وثمة احصاء رسمي أخير يشير الى أن حجم المنتجات الزراعية المستوردة يتجاوز المنتجات المصدرة بما يعادل ١٦ ضعفا • الامر الذى يعكس مدى العجز الخطير في الانتاج الزراعي • ومما يلفت النظر هنا أن اليمن بدأت تستورد البن مثلا ، وهو المحصول الذى تميزت اليمن بانتاجه على مدى قرون !

ولان « الانتاج » خرج من حساب الموارد ، فان الموارد الحقيقية للميزانية اليمنية لا تكاد تخرج عن دائرتين أساسيتين : القروض والمعونات الخارجية التي تشكل حوالي ٧٠٪ من حجم الاستثمارات ، ثم الرسوم على الواردات • كما تشكل تحويلات المهاجرين مصدرا آخر للدخل بالعملات الصعبة (مليار دولار في العام الماضي) •

هذا في جانب الموارد المادية ، أما من ناحية الموارد البشرية ، فقد تسببت الهجرة ، مع ارتفاع نسبة الامية الى ٩٠٪ في نقص الايدى العاملة بوجه عام ، والمدربة بوجه خاص • وفي مناطق عديدة باليمن يزرع الفلاحون المحاصيل ولا يجدون من يقوم بحصادها أو جنى ثمارها ، وينتهى الامر بهم الى حصاد المساحة التي تغطى احتياجات كل منهم فقط ، وتترك بقية الزراعات الاخرى بغير حصاد • وهذا النقص هو الذى يفسر وجود حوالي ١٠ آلاف عامل سوداني في اليمن ، غير عدد مماثل من العمال المصريين • وهو الذى يفسر أيضا الزيادة الكبيرة في أجور الحرفيين • حتى أن متوسط أجر عامل البناء يصل الى ٥٠ دولارا في اليوم الواحد •

وأمام هذا الاغراء ، لم يكن غريبا أن ألتقي في تعز بأحد اليمنيين ، يحمل شهادة الماجستير في التاريخ ، لكنه يعمل في البناء ، و متخصص في تثبيت البلاط !



الانامل اليمنية الدقيقة والرقيقة هي التي نقشت هذا البناء. الذي تحلق فوقه أرواح ٢٠ الف جندي مصري استشهدوا خلال سنوات تحرير اليمن. والصورة للنصب التذكاري للجندي العربي المصري المجهول . يطل على صنعاء من فوق احدى هضابها القريبة . النصب له دلالة اكبر . وثيقة الصلة بحقيقة الوحدة والتلاحم العربي .

ورغم الاهتمام بمشروعات الصناعة ـ الاسمنت والنسيج مثلا ـ الا ان التركيز الاساسي ، بل المخرج الراهن والمنظور لازمة الموارد في اليمن ، منصب على مشروعات الزراعة في مناطق تهامة الساحلية المؤهلة طبيعيا لهذا الدور .. وثمة مشروع نفذ فعلا ويموله الصندوق الكويتي للتنمية لانشاء سدود لضبط المياه وتوزيعها في منطقة زبيد الخصبة . وكانت نتائج هذا المشروع مشجعة للغاية .

ويؤكد اهمية المستقبل للزراعة بساحل تهامة ان تجربة محدودة تمت في وادي رماع ، الذي كان منطقة مجاعات في الماضي وبجهد بسيط ، استهدف العناية بتسميد التربة وريها ، ومكافحة الآفات الزراعية . وكانت النتيجة ان تضاعف انتاج القمح والشعير ٢٠ مرة في العام الماضي .

ولنا أن نتصور من هذا النموذج ، اي مستقبل كبير ينتظر ساحل تهامة اذا ما توفر له الحد الادنى من الاهتمام .

ولان المشكلة معقدة كما قلت ، فانه رغم ان الزراعة هي المفتاح الاول لحل المشكلة الاقتصادية اليمنية ، الا انها لا توضع في المقام الاول من استثمارات الخطة الخمسية وتمثل هذه الاولوية قضية المواصلات والطرق ، وهو ترتيب منطقي في الواقع لان اي جهد انتاجي ـ زراعة او صناعة ـ لا يمكن ان يخطو خطوة واحدة الى الامام ، ما لم تكن هناك طرق سالكة وممهدة تخدمه . ورغم ان شبكة الطرق الاساسية قد تمت تقريبا في اليمن ، الا ان هذه الطرق ربطت المدن بالدرجة الاولى ،

وفي سبيلها الى ربط مناطق الانتاج أيضا •

ولا يزال النصب التذكاري الذي اقامه الصينيون على طريق صنعاء ـ صعده تكريما لعمالهم الذين قتلوا وهم يشقون هذا الطريق قبل سنوات ، لا يزال هذا النصب رمزا لمدى العون الذي قدمه العالم الخارجي في هذا المجال •• وهو عون قامت الدول الاشتراكية بدور بارز فيه حتى أوائل السبعينات ، ثم بدأت الدول الغربية تاخذ مكانها مؤخرا ، تبعا لتغير الموازين السياسية في المنطقة•

عن الحضور العربي

وهذه الصورة تطرح قضية الحضور العربي في اليمن • وهو حضور قائم وله دوره الملموس الآن، ويتمثل فيما تقدمه صناديق الانماء العربي ، ودول الكويت والسعودية ودولة الامارات من دعم مالي •• وما تقدمه الدول العربية الاخرى من رصيد الخبرات الفنية والبشرية المطلوب في كافة التخصصات •

وما يحتاج الى مناقشة حقيقية هو الجانب المتعلق بالدعم المادي الذي يتم في صيغ مختلفة مساعدات مالية مباشرة ، مشروعات خدمات (مستشفيات ومدارس وطرق) انشاءات (سدود او محطات توليد الكهرباء) • ذلك أنه من المؤكد أن الفرصة متاحة للمستثمرين العرب لكي يشاركوا في مجالات الانتاج الصناعي باليمن • وهي المجالات التي تحتكرها الصناعة اليابانية بذكاء بالغ •

واذا تأملنا خريطة الجزيرة العربية جيدا ، فستجد أن اليمن تشكل موقعا نموذجيا للاستثمار• مساحته (١٩٥ الف كيلومتر) وامكانياته الطبيعية (أرض زراعية مساحتها ٥ر١ مليون هكتار، غير خامات الفحم والحديد والنحاس والاسمنت) وثروته البشرية (٨ ملايين نسمة) هذه العناصر ـ اذا خضعت لدراسة واعداد جيد ـ تؤهل اليمن لمستقبل اكثر اشراقا ، خصوصا وان لليمن رصيدا حضاريا عريقا تمتد جذوره الى ما قبل الميلاد الى دول وممالك معين وقتبان وسبأ وحمير ، التي ازدهرت



• الاستهلاك الاستهلاك • ما من قرية يمنية الا وتتكدس السلع المستوردة في محلاتها التجارية الصغيرة• وتلك صورة لا تتكرر في أي جزء من الوطن العربي • والصورة لاحد هذه المحلات ، بينما صاحب المحل لم ينته أن « يخزن » القات في فترة القيلولة •

فيها التجارة والزراعة والصناعة بصورة مدهشة، وكانت هذه هي جذور ما سمي فيما بعد باليمن السعيد ٠

وبأي مقياس،ليس مفهوما أنتتوجه الاستثمارات العربيه الى اقصى الولايات المتحدة الامريكية ـ مثلا ـ بينما ـ تتوفر لها ظروف مواتيه في بلد كاليمن ، فضلا عن التحول العظيم الذى يمكن أن تحدثه مثل هذه الاستثمارات هناك ٠

حتى ذلك الدعم المادى الذى تقدمه بعض الدول البترولية يحتاج الى ترشيد فى انفاقه ٠ ذلك أن هناك أموالا تدفع لبعض القبائل مباشرة ، وهي تدخل في الحسابات السياسية ولا علاقة لها بالتنمية ـ ثم أن بعض ما ينفق في الانشاء لا يدخل ضمن الاولويات المطلوبة لليمن ٠ اذ لا معنى مثلا ـ أن تزجه دولة ملايين الريالات لانشاء مساجد جديدة في مدن اليمن ، بينما البلاد ما زالت بحاجة الىمزيد من المدارس والمستشفيات٠

هذا القطاع الخاص

على أن ثمة وجها آخر للصورة ، تعكسه نقوش الشارع اليمني ، الذى يعاني من حالة تضخم تكاد تفوق أى عاصمة عربية أخرى ٠٠ واذا تاملت هذه الحقيقة جيدا سوف تكتشف أن فياليمن شعبا غنيا ودولة فقيرة ٠٠ وان تعبير الفقر اليمني هو مغالطة كبرى ، الا اذا كان مقصودا به خزينة الحكومة فقط ٠ التى تخلو من موارد ذات قيمة ولا تحتاج الى جهد كبير لتدرك أن تفاوت المواقف الاقتصادية على هذا النحو له مردود سياسي اذ الاقوى هو الاقدر ، والعكس صحيح٠وعند رصد عناصر القوة يظل التجار ، باعتبارهم « قوة عظمى » في اليمن الان ٠

والسؤال الذى تطرحه هذه الصورة على الفور هو : ما مصدر هذه السيولة المتدفقة على جيب اليمن ؟

رجال الاقتصاد يقولون : أموال المهاجرين اليمنيين في الخارج وعددهم مليون ونصف مليون مهاجر يمولون ستة ملايين ونصف مليون في داخل اليمن ٠ أى أن كل مهاجر يعول ٤ أو خمسة أفراد في الداخل ٠

يقولون أيضا أنحرب الستينات خلفت حالة من الثراء الشديد لدى القبائل التى كانت تتقاضى أموالا من الجانبين المتحاربين الملكيين والجمهوريين وهي مبالغ كانت تدفع بالملايين ٠

وهناك من يهمس بان ثمة أموالا ما زالت تدفع الى بعض شيوخ القبائل ـ بمعدلاتها الكبيرة ـ حتى الان ٠

وثمة عنصر آخر وهو أن ارتفاع أسعار القات لخمسة أضعاف على الاقل أصبح يشكل مصدر سيولة له أهميته في الريف اليمني ٠ وكانتنتيجة ذلك كله أن شهدت اليمن حالةرواج مفتعلوامتلات المدن والقرى بالسيارات والدراجات النارية وتضاعفت أعداد موتورات الكهرباء الخاصة ، وانتشرت المتاجر التى تبيع من أحدث العطور وربطات العنق الفرنسية الى علب البان «نيدو » وسفن أب !

وبسبب الحرمانالشديد فيالماضي،ونتيجة لضعف الوعى العام ، فان هذه الاموال كلها ، أموال المهاجرين والمهربينوالمزارعين ومموليالقبائل تذهب الى الاستهلاك ٠ أى تصب عند التجار ٠ !

هؤلاء التجار هم الورثة الحقيقيون للامامة فى اليمن ٠٠ وربما فسر ذلك تاييدهم السريع لثورة سبتمبر ١٩٦٢ م ، واشتراكهم في الاعداد للثورة في تعز ، كما ذكر أخيرا كتاب « أسرار الثورة اليمنية » ٠

وكل ما فعله التجار حتىالانأنهم أغرقوا السوق اليمنية بالسلع الاستهلاكية ، الكماليةلا الضرورية (واردات ميناء الحديدة ارتفعت من ٦٨٠ الف طن عام ٧٦ الى أكثر من ٢ مليون طن عام ٧٨) وليس هناك متجر بقالة في أى قرية يمنية ، أينما كانت، ـ الا وهو مكدس بالفواكه المستوردة والمعلبات والمشروبات الغازية القادمة من كافة أنحاء العالم٠

في اليمن تعرف بالضبط معنى تعبير القطاع الخاص الشره والمستغل ، وتدرك خطورة أن يكون للدولة ـ في بلد نام كاليمن ـ دور في تصحيح مسار الاقتصاد الوطني ، بعدما تتاكد تماما من أن ما يفعله هذا القطاع الخاص هو افساد حقيقي للجماهير ، هذا اذا استخدمنا أكثر التعبيرات تأدبا ٠

لكن هذه ليست كل النقوش على جدران اليمن الان ٠ لانه لا يمكن لاحد أن يزعم انه قام برصد ما يجرى في اليمن ، ما لم يقف أمام حديث الساعة وكل ساعة : « القات » !!

■■

فهمي هويدى

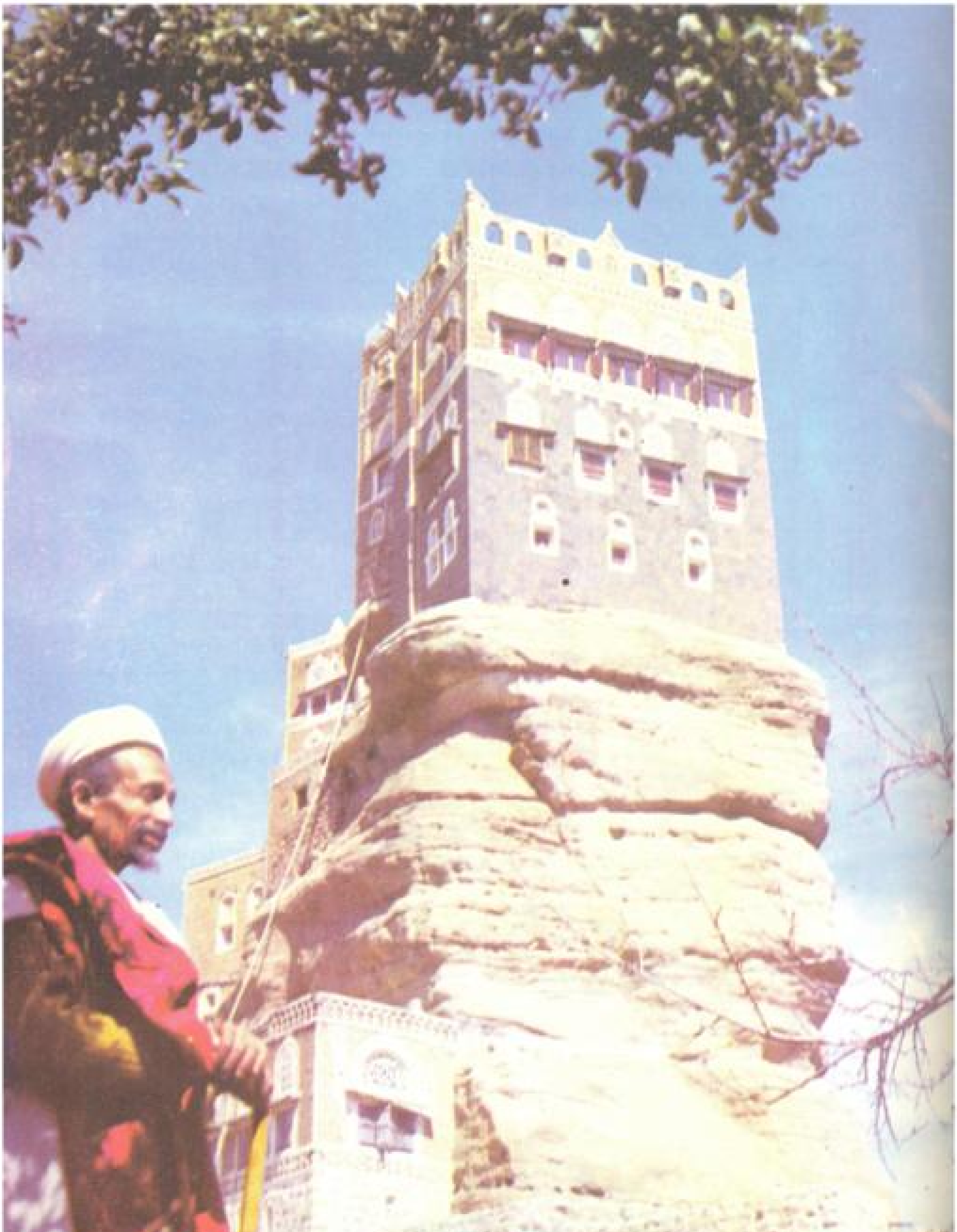

العربي
العدد ٢٤٦ / جمادى الثاني ١٣٩٩ / مايو «أيار» ١٩٧٩
العمارة
اليمنية
تتحدى!

العمارة اليمنية تتحدى

استطلاع :
فهمي هويدي

تصوير :
اوسكار متري





الصورتان تعكسان بصيغتين مختلفتين مدى الابداع في العمارة اليمنية · الاولى ، الى اليمين بعض النقوش التى تعلو مدخل احد المنازل ، وبينهاكتابات محفورة على الجدار تقول : بسم الله الرحمن الرحيم · ما اريد الا الاصلاح ما استطعت،وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت واليه انيب· ثم تقول في جانب منها : ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن · والصورة الثانية (فوق) قصر الحجر قرب العاصمة صنعاء ، وهو احد قصور الائمة السابقين · وقد تربع فوق صخرة عالية في تكون معمارى مدهش · لاحظ الانسجام بين شكل الصخرة وشكل المبنى ·

هذا بلد منقوش على الحجر !

بايديهم ـ في اليمن ـ نحتوا كل شيء ، الجبل والسفح وواجهة البيت ، بل وابوابه ونوافذه ومغاليقه . لم يتركوا شيئا بغير نقش ، حتى الاساور والخناجر والاحزمة والمكاحل !

وحيثما ذهبت في اليمن تتراءى لك النقوش ، باهزة واخاذة ، حتى تبدو لك القرى اليمنية المتناثرة فوق قمم الجبال الشاهقة ، كما لو كانت شريطا يعرض مجموعات من اعمال النحاتين العظام .

يدهشك مثلا ، كيف حمل اليمني بجسده النحيل وسيقانه الرفيعة كتل الحجر الى ارتفاع ثلاثة الاف متر فوق سطح الارض ، لا ليبني قصرا او معبدا ، ولكن لينشيء قرية باكملها ، بل عديدا من القرى . ولا يكتفي بذلك ، بل يعمد الى تزيين واجهات بيوت تلك القرى بالاحزمة والحجارة الملونة ، وعقود الزجاج المعشق !

وتاخذ العقل ـ كما يقول أهل الشام ـ قرى اخرى في الوديان ، ـ زبيد مثلا ـ وقد لجأ الفنان اليمني الى « تطريز » واجهاتها بنقوش لا يخلو منها شبر واحد . ولا مبالغة في استخدام كلمة « تطريز » هنا ، لان كثافة النقوش ، والجهد المبذول فيها ، والصبر الهائل على انجازها ، والتفنن في تصميم اشكالها ، بحيث يبدو كل منها مختلفا تماما عن الاخر ، هذا الابداع المكتمل العناصر ، لا يسمح لاي منصف بأن يصف العمل باقل من انه « تطريز » . حتى ولو انصرفت الكلمة في الاساس الى الثياب والمفارش والملاءات !

ثم ماذا تقول في صنعاء ؟ ، وقد كست النقوش مبنى من سبعة طوابق ، من عتبة الباب عند المدخل الارضي ، حتى سور السطوح حول « المفرج » ؟ .. وبين الطابق والطابق حزام بنقش مختلف ، وفوق كل نافذة عقد برسم مختلف ، وعلى كل جدار تكوين بخطوط مختلفة ! ... ثم تتبين ان هذه ليست بدعة أو « صرعة » ، ولكنها نمط وطراز مدينة كاملة . وتدهشك بقية الصورة في الكتب ، اذ يروي ابن بطوطة الذي زار المدينة قبل ٦٠٠ سنة ، انها مفروشة كلها بالبلاط ، وان الامطار كانت تغسلها كلما هطلت !

وليس في هذا كله اكتشاف ولا مفاجاة ، رغم ان اجيالا عربية باكملها لا تعرف عن اليمن الا وجهها التعس ، التخلف والفقر والجهل ، والحرب والامامة والقات ! . وبغير عدد اولئك الذين ذهبوا الى اليمن ، لكن اكثرهم لم ير فيها الا قسمات ذلك الوجه التعس . ربما لانهم شغلوا برصد الهموم عن اي شيء آخر ، وربما لان عقدة الشعور بالنقص عندنا تحجب عنا دائما رؤية النصف الملآن من الكوب بحيث لا نرى فيه الا نصفه الفارغ . ولا نرى في حياتنا الا وجهها الكئيب ، ولا نلمح في تاريخنا الا صفحاته الجدباء !

حتى على مستوى البحث العلمي ، فانه منذ تنبه الباحثون الى اهمية الحضارة اليمنية ، وبداوا يلهثون وراء اكتشاف اسرارها في منتصف القرن الثامن عشر . فان الباحثين العرب الذين شاركوا في هذا الجهد لا يتجاوز عددهم اصابع اليدين * . وبقية القافلة كلها من « اعاجم » اوروبا وامريكا !

وخلال محاولاتنا « التنقيب » عن اي مطبوع يتحدث عن العمارة اليمنية ، لم نعثر الا على كتاب واحد ، اعده اثنان من الايطاليين ـ مهندس ومصور ـ كانا يعملان بادارة الآثار في صنعاء ، واستطاعا ان يستخدما امكانيات الادارة ، فضلا عن موهبة المصور اينيو فيكاريو ومعرفة المهندس باولو كوستا ، وقدما الكتاب بعنوان « اليمن بلاد البنائين » .

وكانت نتيجة هذا الخليط من الجهل والتجاهل ، ان ظل اليمنيون وحدهم يجترون صفحات الماضي ، وشعراؤهم وحدهم يتغنون بالمجد القديم . وهي مصادفة لا تخلو من دلالة ، أن كان أهم مرجع عن حضارة اليمن كتبه

---

* أول بعثة عربية سافرت الى اليمن ، اوفدتها جامعة فؤاد الاول المصرية (القاهرة الآن) عام ١٩٣٦ ، وكان من بين اعضائها العالمان العربيان الدكتور سليمان حزين والدكتور خليل يحيى نامي .

احد العلماء اليمنيين فى القرن العاشر الميلادى ، هو ابو محمد الحسن بن احمد الهمدانى ، الذى قدم موسوعته الشهيرة « الاكليل » ، فى عشرة اجزاء .

بلد بلا زيف

واذا كانت النقوش علامة ترف فى بلاد كثيرة ، فانها فى اليمن ، ومنذ عرف التاريخ المكتوب ، لغة تعبير يستخدمها الجميع . والواح « المسند » ــ النقوش اليمنية القديمة التى ترجع الى اوائل القرن التاسع قبل الميلاد * ــ شاهد على ذلك . فرموز ابجدية المسند (عددها ٢٩) تعتمد اسلوب التكوينات التجريدية ، التي تعبر عن اصوات الحروف العربية الحديثة . بينما الهيروغليفية (المصرية القديمة) تستخدم الى جانب التجريد وسائل اخرى للتعبير مثل صور الكائنات ، الطيور او الحيوانات .

ويربط بعض الباحثين بين شكل ابجدية المسند وبين العمارة اليمنية . وفى هذا الصدد يقول اسرائيل ولفنستون فى كتابه « تاريخ اللغات السامية » ان « الحضارة جنوب بلاد العرب عقلية تنحو نحو الاعمدة فى عمارة القصور والمعابد والاسوار والسدود وابواب المدن . ومن اجل ذلك فان لديهم ميلا شديدا لايجاد حروف على هيئة الاعمدة » .

ورغم ان اللغة تطورت ، واخذت الحروف صياغات واشكالا مغايرة ، فان النقوش ظلت محفورة فى اعماق اليمنى ، « يسقطها » احيانا على واجهة منزل ، واحيانا على سفح جبل ، ودائما فى ثيابه وكل ادوات زينته .

وسترى ان النقوش لا تؤدى دورا جماليا فقط ــ على اهمية هذا العنصر ــ وانما كثيرا ما تؤدى « وظيفة » فى الوقت ذاته . وفى الحالتين ــ لانها لغة الجميع ــ فان طراز العمارة اليمنية لم يختلف فى القرى عنه فى المدن . بل لم يختلف منذ قرون سحيقة عنه الآن !

وربما لهذا السبب ، فانك فى اليمن ــ ومعذرة لعدم التفرقة بين الشمال والجنوب ، لان المعنى هو اليمن بشطريه ، ورغم ان زيارتنا كانت للشمال ــ تشعر بانك وسط بلد لم تمتد اليه يد التزييف .بلد له جذور ضاربة فى اعماق التربة واعماق التاريخ ، وتفوح من شوارعه رائحة الاصالة والعراقة .

وهو على العكس من بلاد اخرى فى عالمنا العربي، تشعرك بانك تتعامل مع واقع لا يمت الى الحقيقة بصلة . لا توقف امامه التاريخ ، وبالكاد اقحم على الجغرافيا ! واقع يرتدى اكثر من قناع . فالمدن وهمية والبشر ممثلون ، والجميع يؤدون ادوارا مرسومة فى فيلم سينمائي يجرى تصويره . وينتابك احساس بأن هذه الاقنعة سوف تختفى بعد فترة تطول او تقصر ، لترى مكانا غير المكان ووجوها غير الوجوه ، وازياء مختلفة تماما ، وربما قصة مختلفة ايضا !

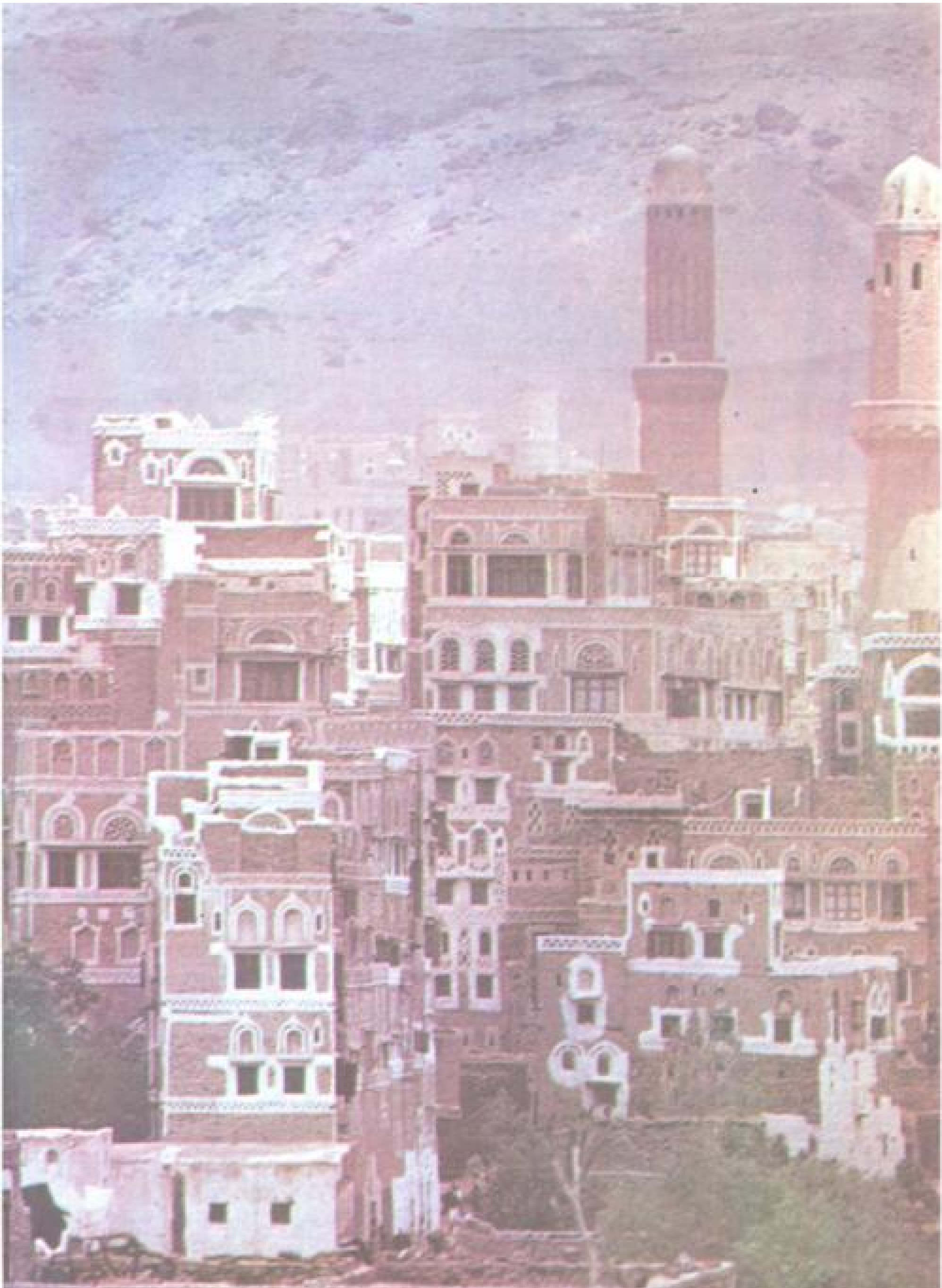
وغير تلك المدن الوهمية فى عالمنا العربي ، فثمة مدن اخرى يتنازعك فيها الوهم والحقيقة . او قل هي مصابة بمرض ازدواج الشخصية ، الذى نعانى منه جميعا بدرجات متفاوتة . فمقابل الوجه الاصيل عشرة اوجه اخرى مزيفة . بل ربما بدا هذا التخبط فى البناء الواحد ، الذى لا تعرف بالضبط اشرقى هو ام غربى ، ام مزج بين هذا وذاك ، ام مسخ لهذا وذاك !

وهي مشكلة ــ لم تحل ــ تتجاوز الحجر الى البشر ، وتطرح قضية أهم واخطر ، هي قضية الشخصية العربية المستقلة ، وكيف نبقى على اصالتها امام موجات التحديث المطلوبة والتغريب المرفوضة . حتى لا نلقى مصير الغراب ، الذى فشل فى تقليد الطاووس ، وفشل فى ان يعود الى طبيعته ، فجرى له ما جرى.او مصير بلد كتركيا، الذى انتزعه كمال اتاتورك من الشرق قبل نصف قرن ، والبسه ثيابا غربية وعمية ، فانتقل من صدارة الشرق الى مؤخرة الغرب ، كما قيل بحق ، فلا بقى شرقيا ، ولا صار غربيا !

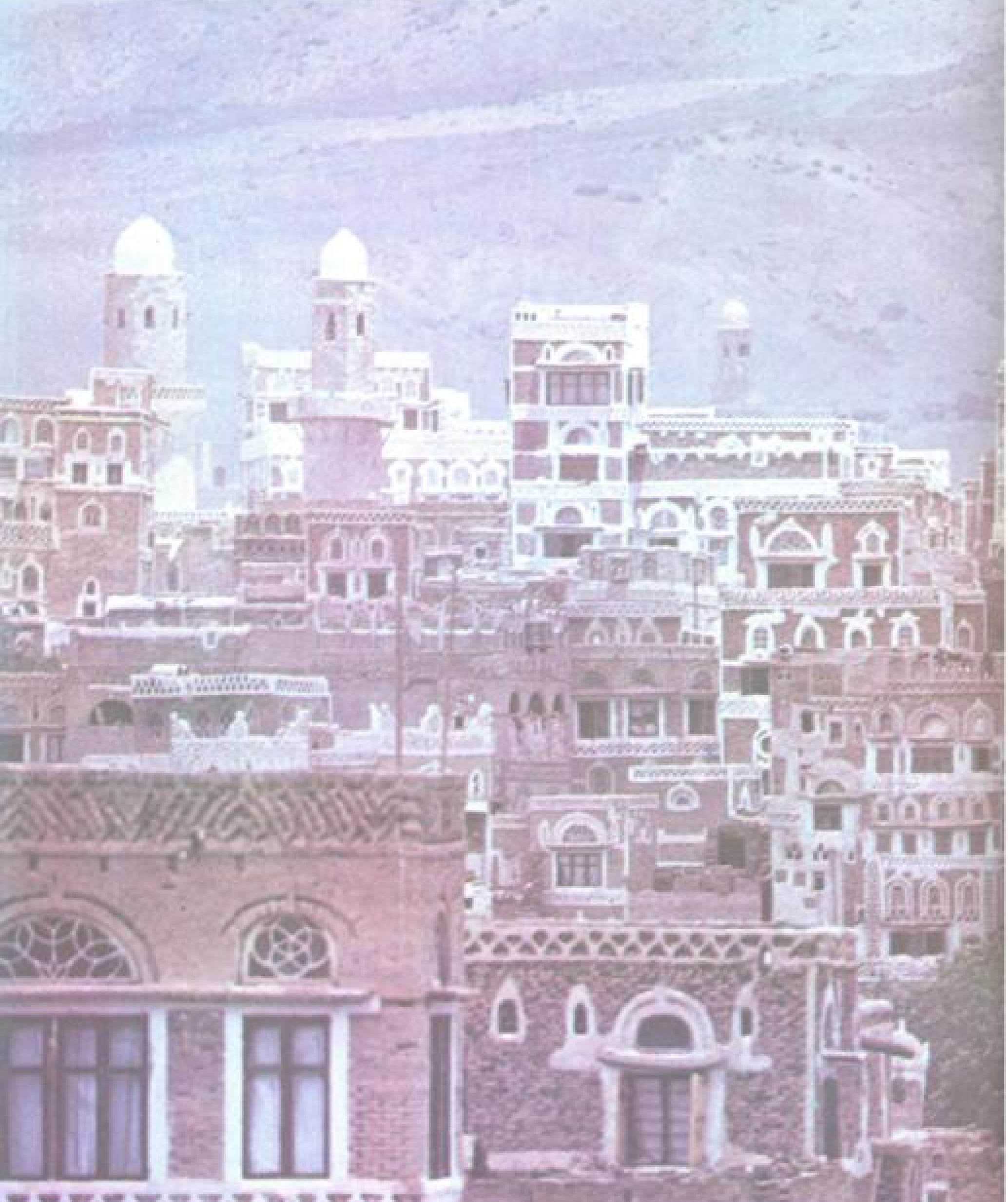
وهكذا ، فان العمارة فى اى بلد تكاد تعكس واقعه بامانة شديدة ، هى مرآة الشخصية العامة ، السوية او المريضة ، الاصيلة او المزيفة، القوية او الهشة والهزيلة .

وكثيرون هم الذين تحدثوا عن الالتصاق بين العمارة والبيئة ، الطبيعية والاجتماعية . اذ ان عمارة البيئة الحارة او الصحراوية ، تختلف بالضرورة عن عمارة البيئة الباردة او الزراعية .

* نشر خطأ فى العدد السابق أن النقوش ترجع الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ــ ص ١٠٨ .



صنعاء القديمة عن بعد ، وبنايات المدينة مكسوة كلها بالنقوش المرسومة والمحفورة بلونين التين المعمارى ، الذى لا يمكن ان يتصور احد انه وليد التلقائية ، وان يد مهندس لم تمتد اليه ورغم ان البنايات تبدو متراصة ومتلاصقة عن بعد ، الا ان الشوارع او الحارات تخترق المدينة



فقط ، الاول لون الحجر ، والثاني هو اللون الابيض • واللوحة تبرز الى حد كبير مدى الجمال
على الاطلاق • ذلك ان المقاول اليمني هو الذي يقوم بكل شيء : التصميم والانشاء والنقوش •
بصورة منظمة للغاية ، بحيث يكون في كل حارة مسجد وبستان •

وبنفس القدر فانهم يربطون بين العمارة والعادات والتقاليد ، فيذهب البعض ـ مثلا ـ الى ان هناك علاقة بين الشرفات والسفور ، وبين المشربية والبرقع (الخمار المثقوب الذى يغطى الوجه) ، وبين النوافذ الصغيرة (الطاقات) والحجاب .. وهكذا . وهم يستندون فى ذلك الى منهج يرى ان نجاح العمارة يقاس بمدى استجابتها لاحتياجات الفرد ، الاقتصادية والنفسية والاجتماعية .

أغنى العرب

يقودنا ذلك الى تقرير حقيقة اخرى ، هي ان العمارة العظيمة لا يمكن الا ان تكون نتاج حضارة عظيمة . وهي بالضبط كذلك فى اليمن . ذلك انه اذا كان للحضارة شكل ومضمون ، فالمؤكد ان العمارة هي احد عناصر الشكل .

فالموقع الجغرافي لليمن ، اتاح لها فى الزمن القديم احتكار الوساطة التجارية بين امم الشرق ، الهند والشرق الاقصى من ناحية ، وبين شمال الجزيرة العربية ومصر وبقية الدول المحيطة بالبحر الابيض من ناحية اخرى * . حتى صار اليمنيون « وكلاء كل ما يدخل تحت صفة النقل التجارى بين آسيا والغرب » ، كما سجل مؤرخ القرن الثالث قبل الميلاد ، اجاترخيدس . وظلوا على هذه الحال طوال ١٣ قرنا ، حتى قدر المؤرخون ان العصر الذى شغلته حضارة اليمن يشمل عهود : بابل وآشور والفرس واليونان والرومان .

ويقدم لنا مؤرخ هو البريبلوس (القرن الثالث للميلاد) صورة لميناء « المخا » اليمني وقتئذ او « موزا » كما كانوا يسمونه ، فيقول : « ان المكان كله يعج باصحاب السفن العرب والبحارة و (التجار) ، الذين لهم صلات تجارية مع ساحل الجانب القصى (الصومال) وباريجازا (فى الهند) ويبعثون اليها بسفنهم .

وتتوالى الكتابات التى تصف ثراء هذه المناطق. فهذا « استرابو » يقول : انهم اغنى العرب ، يقتنون الرياش الفاخر ، ويتمتعون بكل اسباب الرخاء والترف (*) . ويكثرون من آنية الذهب والفضة والفراش الثمينة . ويزينون جدران منازلهم بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويصف ارضهم بانها اخصب ارض العرب ، وانها تنتج المر واللبان والقرفة .

وهذا اجاترخيدس يقول انهم أغنى أهل الارض ، وسبب غناهم اتجارهم بغلال بلاد العرب والهند . فيحملونها على القوافل الى الغرب او بحرا الى بابل. ولهم سفن ضخمة تسير فى المحيط الهندى ومراكب تسير في الانهر ،يصلون بها الى بابل ، وقد يصعدون فى دجلة الى مدينة « اوبيس » ، ومنها تنقل البضائع الهندية والعربية ، وتنتشر في بلاد مارى وارمينيا وما جاورها . ويضيف المؤرخ اليوناني هيرودوت « ان بلاد العرب كلها كانت تفوح بالعطر والطيوب ، لأنها البلاد الوحيدة التي تنتج المر واللبان والاقاصيا واللادن » .

وقد كان هذا الثراء والرواج ، هو الذى اغرى الرومان بمحاولة غزو اليمن فى العام الخامس والعشرين قبل الميلاد ، لكن الحملة لم تنجح ، وعاد قائدها يوليوس جالوس الى بلاده وهو لا يزال يحلم بكنوز بلاد اليمن ، التى روى عنها الكثير للمؤرخ بلينوس ، وسجلها هذا فى كتاباته .

كما كان هذا الثراء والرواج فى العصر القديم هو المصدر الحقيقي لكل اوصاف « السعادة » التي ارتبطت باليمن . فقال عنها الرومان « اربيا فيلكس » اى العربية الخيرة او السعيدة . وحرص بلينوس على ان يشرح لماذا اطلق عليها هذا الوصف ، فكتب يقول : كسبت بلاد العرب نعت سعيدة لأنها فياضة بحاصلات يستعذبها أهل الترف ، ويتباهون فى اقتنائها جهازا لموتاهم (يقصد بذلك اللبان) . وذكرت فى التوراة باعتبارها « العربية الغنية » وعرفها العرب بانها « بلاد العرب الخضراء » ، واعتبرها الفراعنة « البلاد المقدسة » ، وسماها الاخباريون « بلاد ؟؟

ليست هذه احدى لوحات الفن الحديث ، ولكنها جزء من واجهة مبانى صنعاء القديمة . والفتحات المرسومة بهذا الشكل هى فى الواقع نوافذ « لمطبخ » المنزل ! ـ لاحظ الفم المفتوح . والتجانس بين الشكل والمضمون والوظيفة .

(*) تاريخ اليمن القديم ـ محمد عبدالقادر بافقيه .

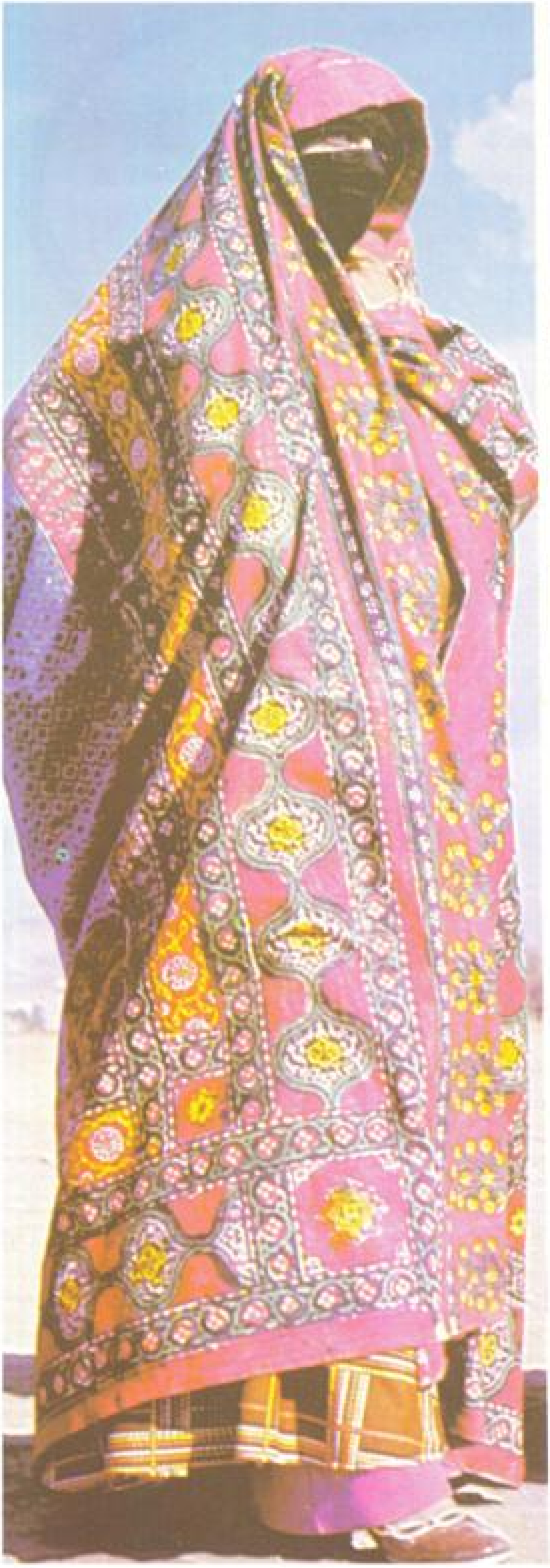
(*) اليمن وحضارة العرب ـ الدكتور عدنان ترسيسى .

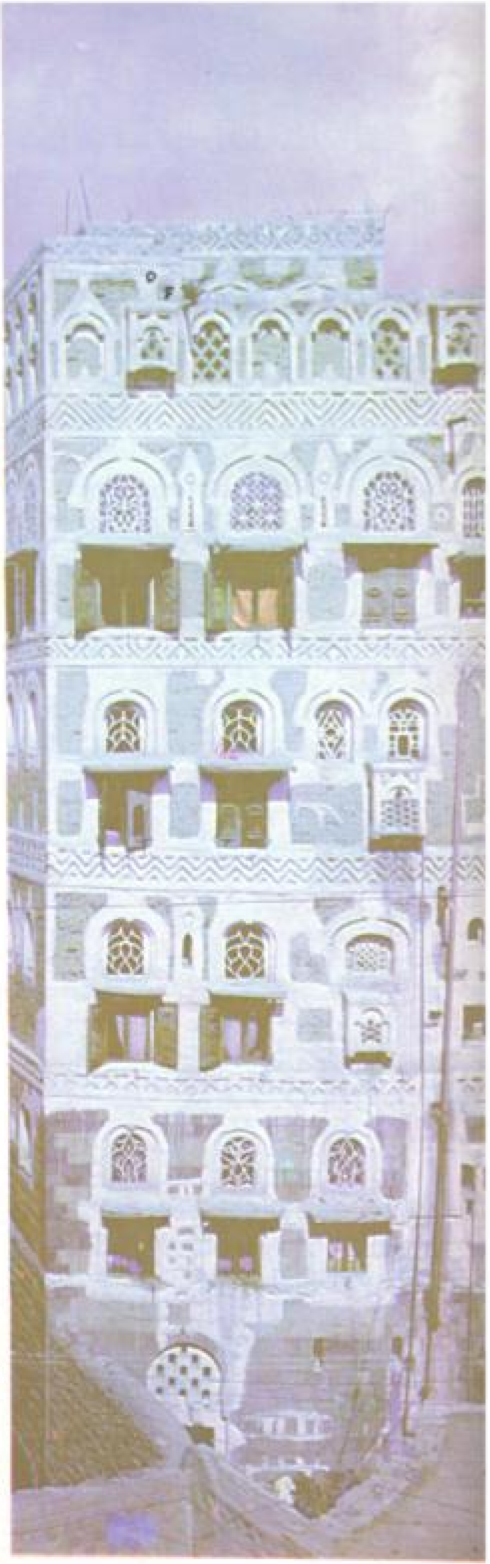




على هذه الصفحة ، اثنان من مساجد زبيد •مسجد القرحانية (فوق) بلا سقف يغطيه ، ومع ذلك فلم يخل من النقوش • والمسجد الكبير (تحت)الذى يزيد عمره على عشرة قرون ، سقفه محمول على ٢٠٠ عمود ، وله ١٣ بابا ، والضوء فيه من بركة مياه• وعلى الصفحة المقابلة صورتان تؤيدان فكرة التماثل بين العمارة والثياب : هل هناك فرق كبير في الشكل بين المبنى والمرأة ؟!







الطيب » بينما اطلق عليها الاغريق اسم « بلاد العطور » .

وبسبب اشتغالهم المبكر بالتجارة ، فقد كانوا اكثر العرب معرفة بالعالم القديم ، وكان ترحالهم في اقاصي المعمورة امرا طبيعيا ، وكانت درايتهم بمسالك البحار وشعاب الارض تفوق اي خبرة اخرى .

الجنتان وسد مارب

وكان ازدهار التجارة مصحوبا بازدهار الزراعة، واساليب الري والعمارة .

ولعل اشارة القرآن الكريم في سورة « سبأ » خير شهادة لمدى التقدم الزراعي الذي عرفته اليمن في العصور القديمة ، اذ نصت على انه « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان ، عن يمين وشمال »، ووصف الجنة هو ادق ما يمكن ان تقدم به الزراعة في ذلك الزمن . ورغم ان اقدم نقش سبئي يرجع الى القرن الثامن قبل الميلاد ، الا انه من الثابت ان جنات اليمن ظلت قائمة حتى قبل ظهور الاسلام ، وان خبرات اليمنيين في الزراعة لعبت دورا كبيرا في اثراء المد الاسلامي فيما بعد . اذ كان اليمنيون وراء ظهور « جنات » اخرى في البلاد التي دخلها الاسلام ، من المغرب الى الاندلس وصقلية كانوا هم الذين عرفوا كيف يستثمرون ما خلفه الرومان من مشروعات زراعية وانشائية . اذ لم يكن بين العرب الفاتحين لهذه البلاد ، من يملك ناصية الخبرة في هذا المجال غيرهم . (لا تزال آثارهم باقية الى الآن في الاندلس ، وفي مقدمتها قلعة يحصب وقلعة همدان في غرناطة ، وقلعة خولان في اشبيلية) .

ومنذ الازل ، واليمني يبني المدرجات وينحتها على جوانب الجبال العالية ، ليزرع كل شبر فيها ويعيد بناء ما تهدمه الامطار الغزيرة والسيول ، وخبرته عظيمة بانواع المزروعات التي تناسب كل ارتفاع ، ماذا ينبغي ان يزرع على القمة ، وماذا ينبغي ان يزرع وسط الجبل وعند سفحه ، وفي اسفل الوادي . ولا عجب بعد هذا ان عدد الهمداني في « الاكليل » ٢٠ صنفا من العنب كانت تزرع في اليمن ، ولا تزال !

اما تخزين المياه بالسدود بكافة احجامها ، وبالخزانات والصهاريج ، فالمرجح انها كانت من اختصاص اليمني منذ اقدم العصور . حتى ذكر الهمداني ان منطقة واحدة في اليمن (يحصب العلو) كان مقاما فيها ٨٠ سدا ، ذكرها الشاعر اليمني القديم في قوله :

وفي البقعة الخضراء من ارض يحصب
ثمانون سدا تقذف الماء سائلا .

وسد مارب هو) اشهر آثار اليمن واعظم عمل هندسي في الجزيرة العربية كلها » كما يقول الدكتور احمد فخري . وهو « ثورة في عالم الهندسة وتفكير الانسان » ، كما يقول العلامة الدكتور جواد علي .

ويقدر بان هذا العمل العظيم بني في بدايات الالف الاولى قبل الميلاد ، وان ملوك سبأ الذين تتابعوا عليه ، ساهموا في ترميمه وتعليته ، حتى بلغ ارتفاعه في المراحل الاخيرة الى ١٤ مترا فوق سطح الوادي ، بينما طوله ٦٠٠ متر ، وعرضه ٨٠ مترا . وقد ظل يؤدي وظيفته في تخزين مياه الامطار والسيول ، حتى انهار تحت ضغط سيل كاسح دمر مدينة مارب ، عاصمة السبئيين في القرن السادس قبل الميلاد .

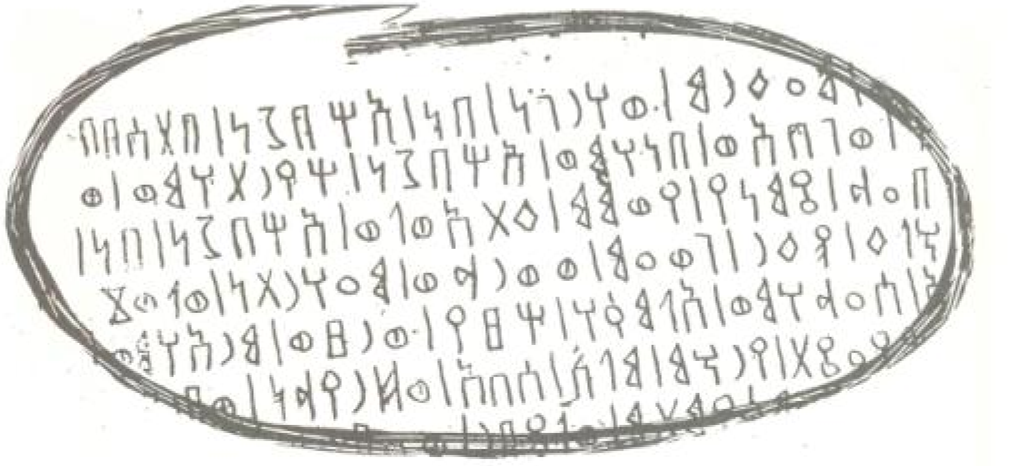
وفي كتابه « اليمن ماضيها وحاضرها » ، حقق الدكتور احمد فخري نقشا هاما سجل عليه مجموع ما انفق في انشاء السد، يشير الى ان بناته انفقوا ٥٠٨٠٦ كيس من الدقيق ، و ٢٦ الف حمل من البلح ، وثلاثة الاف ثور وجمل ، وسبعة الاف راس من الغنم لتغذية العمال » .

وكان الهمداني اول من رأى انقاض السد ، وكتب عنها في « الاكليل » يقول : وهي (سبأ) كثيرة العجائب . و « الجنتان » (اللتان ورد ذكرهما في القرآن) عن يمين السد ويساره ، وهما اليوم غامرتان . والغامر هو العافي ، وانما عفتا ، كما اندحق السد فارتفع عن ابدي السيول .

الى ان يقول : ورأيت بناء احد الصدفين ، وهو الذي يخرج منه الماء ، قائما بحاله على اوفق ما يكون ، ولا يتغير الى ان شاء الله . وانما وقع الكسر في العرم (صلب البناء) . وقد بقي من العرم شيء مما يصالي الجنة اليسرى ، يكون عرض اسفله ١٥ ذراعا » .

اول ناطحة سحاب !

والذين بنوا هذا السد الهائل ، ما كان اسهل عليهم ان يشيدوا الى جانبه عمارة عظيمة ، حتى ان البعض اضاف الى اوصاف اليمن وصفا اخر هو : بلاد القصور . وتسجل كتب التاريخ القديم



بعض نقوش « المسند » أو الكتابة اليمنية القديمة التي يرى البعض ان لها علاقة بنقوش العمارة اليمنية . ليس بالضرورة فى الشكل . ولكن فى طريقة التعبير .

ان فى مدينتي ناجية وتمنة ـ اندثرتا ـ ٦٥ هيكلا ـ وفى شبوه ـ ما زالت باقية على الطريق الصحراوى بين مارب وحضرموت ـ ٦٠ هيكلا .

واذا ذكرت القصور ، بل واذا ذكرت العمارة فى اليمن ، فلا بد ان يقترن بها اسم قصر غمدان ، المدفون الآن فى صنعاء وعلى تلاله أقيم « القصر » وهو بناء قديم نصفه مخزن للسلاح ، والنصف الآخر سجن للمعتقلين السياسيين !

قصر غمدان هذا يعتبرونه أول ناطحة سحاب فى التاريخ المدون ! . اذ انه بنى فى القرن الاول للميلاد ، ومن الثابت أنه كان لا يزال قائما فى اوائل القرن الاول للهجرة ، على عهد الخليفة عثمان بن عفان ، أى انه استمر حوالي ستة قرون . وقد شاهد الهمداني بقاياه ، تلا عظيما كالجبل ، ونقل الينا اخباره .

وهو يقدم وصفا مثيرا لذلك البناء الشامخ ، الذى كان يتألف من عشرين طابقا ، والمسافة بين كل سقفين عشرة اذرع ، أى ان ارتفاعه يبلغ مائتى ذراع . وكانت حجارته من الجرانيت والرخام .

ويذكر أن « صاحب غمدان » كان يجلس فى الطبقة العليا ، التى غطى سقفها برخامة واحدة . فكان يستلقى على فراشه ، فيمر به الطائر ، ويعرف الغراب من الحداة ، وهو تحت الرخام ! ولا غرابة فى ذلك ، لان رخام « الالبستر » الشفاف معروف فى اليمن باسم « القمرية » ، وله استخدامات عديدة حتى الآن . (البعض يرى أن هذه الغرفة العلوية هى أصل « المفرج » ، حجرة الاستقبال ذات النوافذ الواسعة التى تقام فوق أسطح البيوت اليمنية ، وفيها تعقد جلسات القات) ، وأكثر من ذلك ، فقد كان على كل ركن من اركان القصر الاربعة تماثيل مجوفة لاسود من نحاس ، رجلا الاسد فى الدار وراسه وصدره خارجان من القصر . وبترتيب خاص ، فانه اذا هبت الريح ودخلت أجواف التماثيل ، سمع لها زئير كزئير الاسد . ولهذا القصر اوصاف كثيرة ، ويبدو انه كانت تعرف اتجاهات الريح من نوع زئير كل اسد بحسب اتجاه موقعه . وقيل ايضا ان الاسود كانت تنار بالقناديل فتبدو فى اشكال عجيبة . وقيل انه كان عند مدخل كل باب من أبواب الغرفة الرئيسية تمثال نحاسى ، اذا هبت الريح زأر . وداخل الغرفة ستائر لها اجراس ، اذا ضربتها الريح تسمع الاصوات من بعيد .

ومن الأشعار التى كتبت فى قصر غمدان ، قول احدهم :

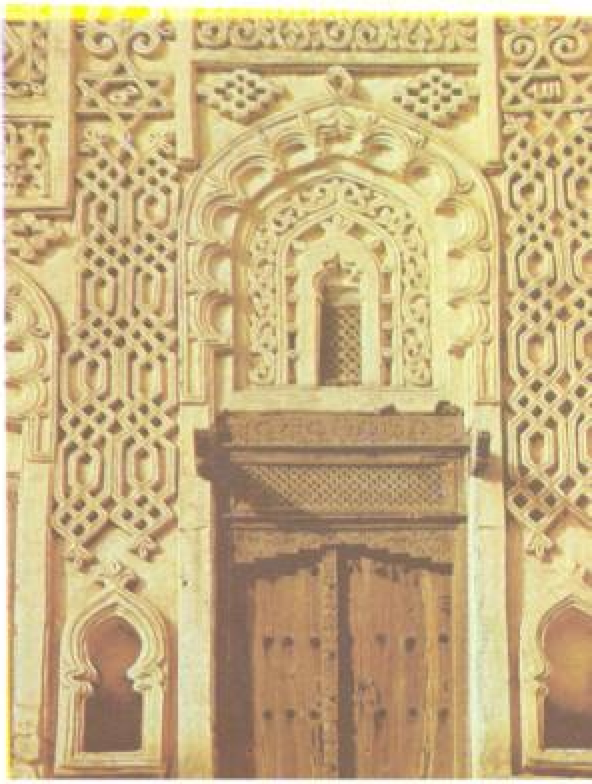
يسمو الى كبد السماء مصعدا
عشرين سقفا سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة
ومن الغمام منطق ومؤزر
متلاحكا بالقصر منه صخرة
والجزع بين صروحه والمرمر

وغير قصر غمدان ، فان القائمة حافلة بالقصور العظيمة . قصر ناعط الذى كان يتألف من ٢٠ قصرا كبيرا مقامة على قمة جبل تنين بهمدان .



لا احد يصدق ان هذه واجهة منزل ، لانه يصعب على بشر عادى ان يقوم بهذا التطريز كله على الحجر ، وان يكون الهدف منه هو تجميل المنظر فى اعين الاخرين • وليست هناك اى مبالغة فى القول بان اى جدار فى زبيد يمكن ان يتصدر جناحا باكمله فى متحف اللوفر بباريس• اختر اى وحدة وتامل نقوشها وتكوينها ، لتدرك اى ذوق رفيع رسم هذه الوحدات ، واى خيال بديع قدمها على هذه الصورة •

فى زبيد مرة اخرى ، والصورة تسجل شكلا آخر من اشكال نقوش واجهات المنازل ، لم تستخدم فيه الكتابة هذه المرة ،باستثناء كلمتي الله ـ حى • لاحظ ان الباب ايضا لم يخل من النقوش التي تمتد لتشمل الجزء العلوى من الباب ، لم الضلفتين ، ومغلاق الباب ، وهو طراز ليس فريدا فى نوعه ، ولكنه تعبير على كل باب ، ويختلف من باب آلى باب !





وقصر مدر الذى كان يضم ١٤ قصرا ، وقصر كوكبان الذي وصفه الهمداني بقوله « كان مؤزر الخارج بالفضة وما فوقها حجارة بيض ، وداخله مصر بالمرمر والفسيفساء وصنوف الجوهر » .. الى اخر تلك القائمة .

وبقي الشكل

ولكن قدر لهذه المسيرة الحضارية العظيمة ان تتوقف ، بعد ان دارت دورة الزمن ، وتجمعت اسباب عديدة ، حولت المد الى انحسار وجزر . وهنا يقول الدكتور عدنان ترسيسي ان « انهدام سد مارب كان رمزا لانهدام الحضارة اليمنية القديمة الضخمة ، مما ادى ايضا الى انهيار السدود العديدة الاخرى ، والمنشآت الزراعية والصناعية ، وغيرها من الانجازات التي كانت قائمة في فترة الازدهار الطويلة ، التي قد تعود بدايتها الى ما يقارب الالفي سنة قبل الاسلام » .

لم تعد التجارة بين آسيا والغرب مقصورة عليهم ، اذ لم يكن ممكنا ان يواصلوا احتكار اسرار تجارة الشرق لاكثر من ١٢ قرنا . بل وتعددت طرق التجارة ايضا ، ولم يعد جنوب الجزيرة هو اهم جسورها . ومنذ تأثرت تجارة العالم القديم عموما بالحروب الاهلية الرومانية في اواخر عهد البطالسة (وحتى القرن الاول قبل الميلاد) ، ومنذ سيطر الرومان على مصر والشام وانزلوا اسطولا في البحر الاحمر ، ثم ازداد نشاط التجار الاغريق في المحيط الهندي ، فقد كان ذلك ايذانا ببدء مرحلة الافول والانحسار . وتوافق مع ذلك ان اليمن اصبحت تعاني ويلات صراع داخلي طويل ، اتاح للاحباش ان يثبتوا اقدامهم في سواحل عسير والحجاز ، وان يحاولوا التغلغل في اليمن . وهي المرحلة التي انهار فيها سد مارب ، وضربت الزراعة اليمنية ضربة قاصمة .

وقدم الاسلام (القرن السادس الميلادى) بينما الافول مستمر ، وكانت قبائل الاوس والخزرج اليمنية المهاجرة الى المدينة من اول من اعتنقه . وجاءت هذه المرحلة مصحوبة بانتقال صناعة الاحداث بعيدا عن اليمن . اى الى دمشق وبغداد والقاهرة وشمال افريقيا والاندلس ، الامر الذى صارت اليمن في ظله « راس جزيرة معزولة ، لا تؤثر ولا تتأثر » كما يقول الدكتور عبد العزيز المقالح في كتابه « عن الشعر المعاصر في اليمن » .

وكانت خبرة اليمنيين بالترحال في انحاء الارض هي التي نشرت الاسلام في الشرق الاقصى والسواحل الافريقية . كما كانت خبرة اليمنيين في التجارة والزراعة والادارة وحتى القتال هي احد الاعمدة الاساسية التي قامت عليها دولة الاسلام ، حتى اصبح اليمنيون هم الركيزة الاولى للجيش الاسلامي المنظم في عهد الخليفة الاول ابي بكر الصديق ، اذ انضم الى هذا الجيش ٢١ الفا منهم ، وحتى قال جورجي زيدان في كتابه « التمدن الاسلامي » ان « اليمانية هي التي رفعت عرش الدولة الاموية » . وهو الامر الذى دفع الدكتور المقالح الى القول بان « اليمنيين ظهروا على مسرح الاحداث في حواضر الاسلام المختلفة ، باكثر مما ظهروا على ارض اليمن » .

ومع مرحلة الافول تلك ، فقدت الحضارة اليمنية اهم عناصرها . او قل فقدت المضمون وبقي الشكل وكان هذا الشكل هو العمارة التي لازالت ماثلة امامنا الان . وان شئنا الدقة في

« بيت الشربة » الذى يقوم مقام الثلاجة فى البيت - مكان صغير مطل على الواجهة البحرية توضع فيه اوانى المياه للتبريد والاطعمة المتبقية لليوم التالي .



التعبير فانه ازاء عظمة هذه العمارة وابداعها ، فان القول الحقيقي ينبغي ان يكون من جانبنا نحن .

ليس انتقاصا من الاسلام

على ان هذه الرحلة ، التى نقفز فيها قفزا عبر العصور والقرون، يثير انتباهنا فيها حقيقتان هامتان تبطلان بعض ما هو شائع بيننا من افكار وآراء .

الحقيقة الاولى ، هي انه كانت هناك حضارة حقيقية للعرب قبل الاسلام . وان مقولة ان الاسلام وفد على جزيرة العرب واهلها يعانون من الجدب الحضارى والتخلف ، هذه المقولة تبدو الان ابعد ما تكون عن الصحة . وهو ما اكده العلامة العراقى الدكتور جواد على فى مؤلفه الضخم « العرب قبل الاسلام »(١٢ جزءا) .

الحقيقة الثانية ، هى ان العمارة اليمنية لها جذورها الضاربة فى اعماق التاريخ ، قبل الاسلام بقرون عديدة ، ولها سماتها الفريدة منذ الازل ، ومحاولة الغاء الشخصية اليمنية فى العمارة ، واطلاق وصف العمارة الاسلامية عليها، هي مغالطة لا مبرر لها ، فضلا عن انها افتئات على الواقع .

ولا ينقص من قدر الاسلام ان يكون للعرب حضارة قبل مجيئه ، كما انه لا ينقص من قدر العمارة الاسلامية القول بانه كانت هناك قبلها ـ بل والى جوارها ـ شيء اسمه العمارة اليمنية .

والمؤتمرات العربية والاسلامية العديدة تشهد مواقف حادة من بعض الباحثين تجاه هاتين القضيتين ، ربما لان هؤلاء يخشون من ان تطوع حقائق التاريخ لصالح الغاء دور الاسلام ، بدعوى انه لم يضف جديدا الى حضارة كانت قائمة او عمارة كانت مزدهرة . وربما لان هؤلاء ينتمون الى مدرسة التفكير العربي التي تنمو الى الغاء الماضي ، لابراز عظمة الحاضر وجلاله . وهى المدرسة التى نعانى من افكارها الربضة فى كتابات الارتزاق بالحاضر والمزايدة عليه ، فى مجالات السياسة والثقافة خصوصا ما يتعلق بالتاريخ .

وايا كانت الحجج التى يمكن ان تساق فى هذا الصدد ، فان ثمة حقائق تاريخية لا سبيل الى انكارها واذا انكرناها اليوم فلا بد ان تظهر غدا ، واذا حجبناها نحن فسوف يكشف عنها غيرنا !

سمات اساسية

تلك اذن عمارة يمنية اصيلة ، ما فى ذلك شك .

والذين شيدوها هم ذواقة موهوبون ، من ابناء حضارة اصيلة ، ايضا ، ما فى ذلك شك . وهذه الاصالة فى الطراز ، اقترنت بقدر من التميز والتفرد ، تستطيع العين ان ترصده عن بعد، ومن اول نظرة .

فالتلقائية هي سمة اساسية فى العمارة اليمنية . لاشيء مفتعل . لا شيء مقنن . لا شيء مقلد . لاشيء تحول الى نمط ثابت . ولكن الفنان اليمني الماهر يغترف كيفما اتفق . وما يخرج به هو بالضبط ما يعكسه على عالمه الخارجي . ولان الامر كذلك ، فهو فى كل مرة يقدم شيئا مختلفا ، وما يقدمه اصيل دائما . وربما لاجل هذا السبب ، فان بضاعة المهندسين المعماريين بائرة الى حد كبير ، ولا اقبال يذكر على هذا التخصص . ومن بين ٦٠ مهندسا فى اليمن . فليس فى بلاد البنائين هذه الا خمسة فقط من المعماريين !

وهذا الالتصاق بالبيئة والتعبير الامين عنها، سمة اخرى اساسية فى العمارة اليمنية . ذلك ان التصميم والالوان والخامات والوظائف ، هذه العناصر تغطى تماما مساحات عريضة جدا من الحياة اليمنية ، كما سنرى .

والشكل المعمارى لا يعرف هذا التميز الشائع بين الريف والمدينة والذى هو دائما لحساب المدينة . لان المسألة لا علاقة لها بالقدرة الاقتصادية . ولكنها مرتبطة باعماق الانسان ذاته. ومن هذه الزاوية ، فان تراه فى المدينة هو ذاته الذى تراه فى القرية ، كما قلت من قبل .

ثم ان هذا الاهتمام البالغ بالشكل الخارجي ، هذا التجمل والاستعراض الموجه الى الاخرين ، هو عنصر له دلالته ، التي تعزز فكرة حلول حضارة الشكل ـ اذا صح التعبير ـ محل

القطع الفضية المستخدمة في زينة الرجال جنباالى جنب مع النساء • والقطع كلها مشغولة بصورة غاية في الدقة والجمال • وكثير من الخطوط السائدة على الخناجر او الاساور هي ذاتها على جدران المساكن •





الصورتان تعكسان شيئين : الاول مدى احتفال اليمنى بمظهره الخارجي الذى تلعب فيه « الجنبية » ـ خنجر الوسط المعلق فى حزام عريض ـ دورا كبيرا ،بقيمتها المالية والجمالية ، وهى تختلفباختلاف الوضع الاجتماعى دائما ، وباختلاق القبيلة احيانا ٠ والشيء الثانيهوثروة الالوان التى تحفل بها طلعة اليمنى٠٠ وهذان العنصران ينعكسان الى حد ما على منطقالعمارة اليمنية ، الموجهة ايضا الى الخارج٠





ة الجند (بفتح الجيم والنون) عن بعد ،وقد
ـت منازلها العالية حول قمة احد الجبال ،
ث اليم كل بيت على كتلة من الحجر الصلب
احظ ان البيت اشبه بالقلعة) ٠٠ بينما طوقت
ضرة سفح الجبل والوادى ، فى تكوين طبيعى
ـع ٠

حضارة المضمون . وتصاعد قيمة المظهر الى اعلى درجة، متجاوزة بذلك العديد من القيم الاجتماعية الاخرى ، مثل قيمة الانتاج مثلا .

وفضلا عن هذا وذاك ، فان المدينة اليمنية ، تشترك مع بقية المدن العربية في شيئين هما : الاسوار والاسواق . فالاسوار تحيط بكل مدينة ، لاسباب امنية في الغالب ، والمداخل محكومة بعدد محدود من الابواب ، مفاتيحها اما بيد الحراس أو في خزانة السلطان (لاحظ ان المفهوم لا يزال سائدا ، وان كانت الاسوار غير مرئية !) .

ثم ان الاسواق مقسمة بحيث يتجمع اصحاب « التخصص » الواحد ، في مكان واحد . وهو النظام الذى كان متبعا في كافة المدن العربية والاسلامية ، من القاهرة الى دمشق وبغداد .

وهناك اعتبار لابد من تسجيله ، ساهم في الحفاظ على تراث العمارة واستمرارها طوال تلك القرون ، هو تلك العزلة التى عاشت فيها اليمن ، منذ تحولت عنها الانظار في الماضي، واذا كانت هذه العزلة قد اخرت كثيرا بمسار التقدم في اليمن طوال العصور الحديثة ، الا انها ساهمت الى حد كبير في الابقاء على هذا الوضع الراهن ، وترسيخ التمسك بالصيغة اليمنية في انماط الحياة المختلفة ، والعمارة فيها . يؤكد ذلك انه في داخل اليمن ، كلما اقتربت المدينة من الحياة العصرية وازداد انفتاحها النسبي على العالم الخارجي ، انحسرت فيها ظلال العمارة اليمنية الاصيلة ، وهو واقع لم ينعكس على القرى اليمنية ولله الحمد .

و « الحديدة » نموذج يؤكد هذه الحقيقة ، فالمدينة مفتوحة اكثر من غيرها ، باعتبارها ميناء بحريا ، الامر الذي ادى الى اندثار طابعها المعمارى التقليدي الى حد كبير ، وانحساره في نطاق ضيق ، لا يكاد يتجاوز ما يسمى الان بالمدينة القديمة . ليس هذا فقط ، بل ان بعض المباني تحمل الطابع الهندى ، لوجود جالية هندية كبيرة فيها . « وتعز » نموذج آخر، وانفتاحها ليس راجعا لاعتبارات متعلقة بالوقع، ولكنه مرتبط بالوظيفة بالدرجة الاولى . ولان تعز هى المدينة التجارية الرئيسية في اليمن ، فضلا عن انها كانت مقر اقامة الائمة ـ لاسباب امنية ايضا حتى نقل « البدر » ـ وآخرهم ـ المقر الى صنعاء قبل الثورة في بداية الستينات، لهذين السببين اساسا فان تعز التجارية والعاصمة الفعلية مضت على درب « الحديدة » ، فقد انحسر منها الطابع اليمنى ، بنسبة اقل ، امام زحف البنايات الحديثة على شوارع المدينة . ومع ذلك فان وظيفتها كمقر للامام ، افادت من ناحية واحدة ، هي انهم « اضطروا » الى اقامة عديد من القصور لاقامتهم ، وهي التي تشكل الان الملامح البارزة لاستمرار العمارة اليمنية في المدينة .

خارج هذا النطاق ، فان الطابع الاصيل هو السائد في بقية انحاء اليمن .

الصنعاني : باني اليمن

لكن الشائع ـ في العاصمة على الاقل ـ ان الذى بنى اليمن هو في الاصل « صنعانى » !

ويبدو ان هذه المقولة صحيحة الى حد كبير. ففي صنعاء تتجلى العمارة اليمنية في اوضح وابهى صورها . اذ يتوفر فيها اشهر البنائين والنقاشين وصناع العقود ، ولا تزال صنعاء القديمة كما هي ، باستثناء سورها العتيد ، الذى تهاوت بعض اجزائه . احيانا بفعل الزمن ، واحيانا بفعل فاعل ، هو « البلدية » للاسف البالغ .

واذا اعتبرنا مقياس نجاح العمارة هو مدى تعبيرها عن الواقع الاجتماعي والاقتصادى،وتلبيتها لاحتياجات الانسان المختلفة ، فاننا ينبغي ان نتعرف اولا على هذا الواقع وهذا الانسان وحتى نتمكن من استيعاب وتقييم مدى نجاح هذه العمارة .

وفي كلمات قليلة ، نستطيع ان نقول ان صنعاء مدينة تقع في منطقة الوسط الجبلية والصخرية، وانها كانت على مر العهود هدفا لاعتداءات القبائل الطامعة فيها ، هذه القبائل هي التي اطلقت العبارة المشهورة : (لابد من صنعا وان طال السفر) ، اي لابد من بلوغ المدينة والاستئثار بما فيها رغم كل المشاق . وان طقسها معتدل الى حد كبير ، واهلها محافظون الى حد كبير ، وجلسات القات هي الصيغة الوحيدة المطروحة للم شمل الناس الى حد اكبر !

والمؤكد انك تستطيع ان تستخلص هذا كله ، من طراز العمارة وحده ، دون اطلاع على تاريخ او جغرافيا ، ولا حتى اطلاع على احوال الناس وعوائدهم .

فكل بيت صنعاني اصيل هو قلعة عسكرية ، قد تصغر او تكبر لكنه يظل قلعة بالمعنى الحرفي للكلمة . فهو مؤهل للدفاع عن النفس من ناحية، وتتوفر له كل عناصر الاكتفاء الذاتي ـ التي تحتمل الحصار الطويل ـ من ناحية اخرى .

ففي مواضع عديدة من البناء تتخلل الجدران فتحات تؤدى وظيفة في التهوية ، ولكنها اساسا للرصد واطلاق الرصاص على المهاجمين . ثم ان الطابق الاول من البناء مخصص لتخزين الحبوب ، وفي كل بيت بئر للمياه ، ومطحنة وفرن . الامر الذى يتيح لسكانه ان يعيشوا شهورا طويلة داخل البيت ، بغير متاعب تذكر .

والبيت الصنعاني متعدد الطوابق ، قد تصل الى ثمانية او عشرة . ولكونها منطقة جبلية ، فقد توفرت الحجارة بانواعها بسهولة بالغة . ترص قطع الجرانيت الاسود بارتفاع متر او متر ونصف ، ثم يجيء دور الحجارة البيضاء ، ويعلو البناء . وتؤدى الحجارة دور المكيف الطبيعي . فهي تمتص الحرارة والبرودة في ان واحد . وتحتاج عملية قطع هذه الاحجار وتهذيبها الى جهد هائل ، اعتاد عليه البناء اليمني ، وصار يمارسه كما لو كان يعبث بقطع من العجين !

والمدهش ان البناء التقليدى مهما علا ، فان الاسمنت ـ مثلا ـ لا يستخدم فيه . وان الحجارة يتم تركيبها فوق بعضها البعض بشكل طبيعي وبدائي ، وان « الطين » هو الذى يستخدم لملء الفراغات التى تبقى بين الاحجار . وهو اسلوب يسمح « بترقيع » المبنى من اى مكان .

وقد رايت بعض البنائين وقد افرغوا جانبا من اساسات مبنى بارتفاع ستة طوابق ، لكى يجددوه ، بعد ان تساقط الطين الفاصل بين احجاره . وكل ما فعلوه ، عندما حل عليهم الظلام ، ان وضعوا قطعة من الخشب استندت اليها كتلة الحجر الرئيسية في المنطقة خلعوا احجارها ، حتى صبيحة اليوم التالي !

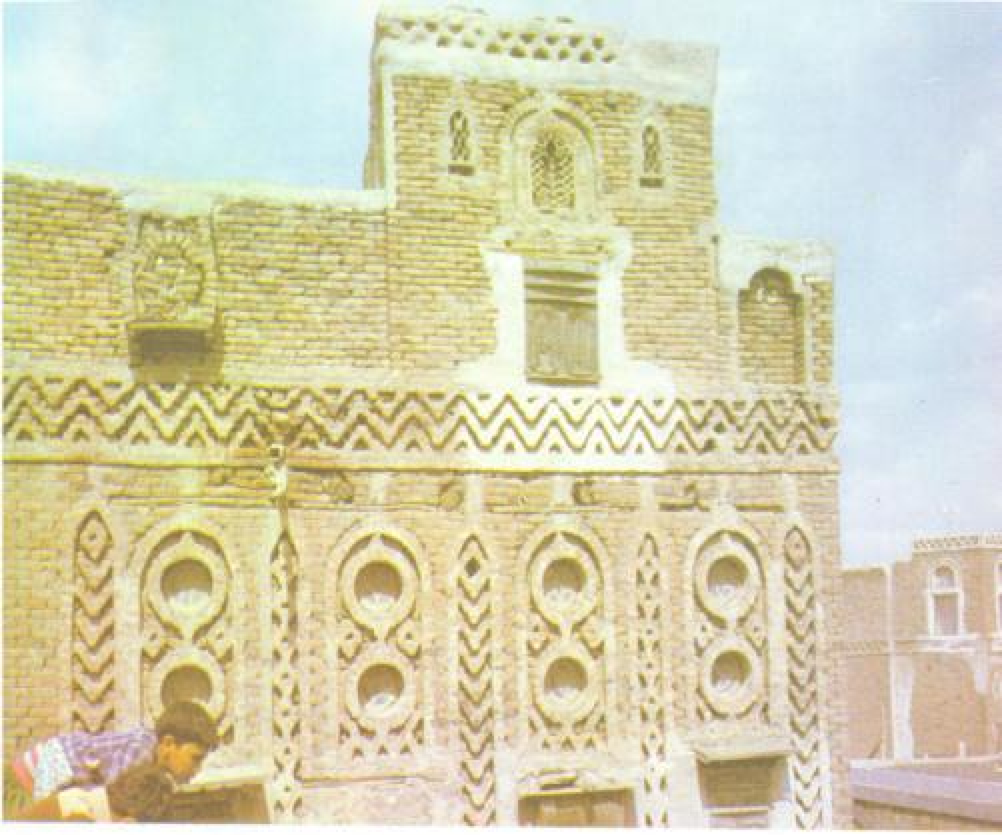
ثياب المراة والمباني

الطابق الارضي للماشية ، وهو بغير نوافذ (لاحظ ان من طرق التغذية الحديثة للماشية ان توضع في مكان مظلم مع توفير حمام مفر لها ، الامر الذى يعجل بتسمينها اذ يتصرف كل همها في الاكل) . والطابق الاول لتخزين الحبوب كما قلنا ، بينما فتحات الجدار اشبه بالثقوب .

يصعد معنا عبد العزيز قصعة ، احد اشهر مقاولي صنعاء ، الذى توارثت اسرته المهنة منذ الجد السابع . من الطابق الثانى تبدا غرف السكن ، ويظل البناء يعلو بقدر حجم الاسرة وقدرتها الاقتصادية . ويفترض دائما ان اسرة واحدة تعيش في البناء الواحد . الجد والابناء وزوجاتهم . درجات السلم عالية ، وسقوف الحجرات عالية ايضا ، حتى يصل ارتفاع كل طابق الى ثلاثة امتار . السلم والمطبخ والحمام في اتجاه الشمال ، بينما الغرف في اتجاه الجنوب (يسمونه البيت العدني لان عدن في جنوب اليمن) . بين كل طابق وطابق ، مكان مفتوح على الواجهة البحرية ، يسمونه « بيت الشربة » ، وهو يقوم مقام « الثلاجة » ، وفيه توضع اواني المياه للتبريد ، والاطعمة ـ اللحوم اساسا ـ التى تبيت لليوم التالي . لا شرفات للبيت ،ونوافذ الحجرات صغيرة للغاية ، بارتفاع ٥٠ سنتيمترا في اغلب الاحوال . فوق السطوح يقوم « المفرج » ، او حجرة الاستقبال التى يلتقي فيها رجال الاسرة وخلانهم ، في جلسات القات اليومية . يتفلك المفرج الى عالم مختلف. فهو على عكس كل حجرات البيت واسع نسبيا ، وملىء بالنقوش والزينات ، ونوافذه كبيرة يصل ارتفاع الواحدة منها الى متر ونصف متر . ويفترض طبقا للتصميم الاصلي للمدينة ، ان يطل المفرج على بستان (لاحظ وصف الحجرة العلوية من قصر غمدان) .

ثمة رافعات للمياه من البئر الى الطوابق العليا ، وفتحات تنزل بتصيب دورات المياه الى حفرة عميقة في اسفل البناء . والفرد يحتاج لحفرة اعمق من ٧ او ٨ امتار ، لتستوعب فضلاته طوال حياته ، والمهدة على القصدي !

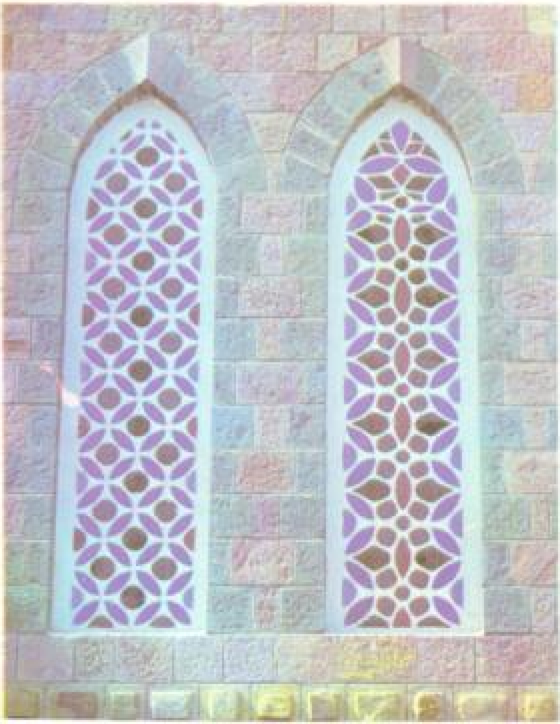
لكن الاحتفال كله ، والزينة والنقوش كلها ، موجهة الى الخارج . الباب الصغير ، المقبض



الصورة العليا لاحد منازل صنعا
القديمة ، ذات الطابع الفريد ، سوا
في خامات البناء او نقوشه • ذلك ا
المنزل مبني هنا بالطوب الاحمر ، وا
كانت اساساته من الحجارة • فضا
عن ان النقوش ذات حجم كبير
والدوائر الظاهرة فيها صورة طب
الاصل لكلمات النقوش اليمني
القديمة (المسند) التي كشفت عن
الحفريات ، ويمتد عمرها الى ما ق
الميلاد • لاحظ ايضا ان الحز
العلوي الذي يفصل الطابق ع
السطوح والمفرج ، هو صورة طب
الاصل من الحزام الذي يطوق اليم
به خصره •
والصورة الجانبية (الى اليمين) لاح
النوافذ ، وقد ظهر العقد فوق بالو
الزاهية •







الصورة العليا لمبنى وزارة العدل فى صنعاء الجديدة ، وهو نموذج للعمارة اليمنية الحديثة التى طورت التصميم التقليدى ، واحتفظت بطابعه ،وقدمته على هذا النحو • وقد استخدم مصمم البناء كل عناصر البناء التقليدى ، الحجارة الملونة والاقواس والعقود ، وان جاء التصميم على شكل دائرى غير مالوف فى العمارة اليمنية • اما (الصورة الى اليسار) ، فتقدم نموذجا للعقود التى تعتمد على الزجاج الملون ، والتى يلفت النظر فيها انها لاتخضع لاية صيغة نمطية • بمعنى ان كل عقد لابد ان يكون مختلفا عن الاخر ، حتى وان تجاور العقدان ، كما فى الصورة الجانبية •

والمغلاق والاطار والصلف ، هذه كلها من الخشب المنقوش . والجدران مزينة بالنقش المحفور او المرسوم . واللون المستخدم في التزيين هو الابيض ، وتطوق خطوطه النوافذ بوجه خاص . وفضلا عن الشكل الذي يمنحه اللون الابيض ، فان مكوناته طاردة للحشرات والذباب خاصة . اي ان اللون له دور جمالي ووظيفة في الوقت ذاته . على ان المهم هنا ايضا ان ارضية الجدران ذاتها من لون الشارع تقريبا .

وان اية الوان غير الابيض تضاف اليها تكون دائما اصيلة وغير مصنعة . ذلك انهم يستخدمون احيانا احجارا ملونة بطبيعتها في تزيين بعض جوانب البناء .

العقود المزينة بالزجاج الملون فوق كل نافذة . والاحزمة العريضة تفصل بين الطابق والطابق . والتشكيلات التجريدية تتوزع على البناء كله . وتلك مجالات بغير حدود . ومتوسط تكلفة نقش الطابق الواحد ٢٠٠ الف ريال ، والعقد الواحد يمكن ان يصل الى ٥٠٠ ريال .

(الدولار يعادل قيمة ٤٫٥ ريال) .

ولابد ان يثير انتباهك هذا التشابه العفوي بين شكل المباني وباب اليمن . فاحتفال اليمني بمظهره الخارجي هو ذاته مسجل على واجهة البناء . ونقوش عباءة المرأة ، والفتحة الصغيرة التي تطل منها لا تختلف كثيرا عن اي بناء تتناثر الفتحات في اعلاه ! بل ان هذا وذاك تلمح ظلاله في المشغولات الفضية التي يتزين بها النساء والرجال !

على ان اي وصف للبناء الصنعاني يعجز عن نقل الحقيقة كاملة ، والصورة قد تؤدي هذه المهمة على وجه افضل . ولا يمكن ان تستوعب قيمة هذا الفن المدهش الا اذا رأيته بعينيك ، حتى اذا تقطعت انفاسك ـ مثلي ـ وانت تصعد الدرج المرتفع لكي تصل الى « المفرج » !

ذلك عن البناء الواحد ، فما بالك اذا كانت هذه الوحدة مضروبة في الف ؟ ، وتراصت هذه المباني جنبا الى جنب في مشهد رائع تتحول معه المدينة الى لوحة باهرة ابدعتها ريشة فنان عظيم .

اما تخطيط المدينة فيثير الدهشة ايضا ، فهي تقوم اساسا على فلسفة البناء الحديثة ، حيث تم التوسع رأسيا وليس افقيا . وهو افضل استثمار لمساحة الارض المحدودة لصالح عدد السكان المتزايد والوسيلة الوحيدة لتجنب الجور على المساحات المزروعة المحيطة بها . وفكرة الطوابق العديدة المرتفعة تعكس هذا التصور . وما ناطحات السحاب الا ابنة شرعية لهذه الفكرة .

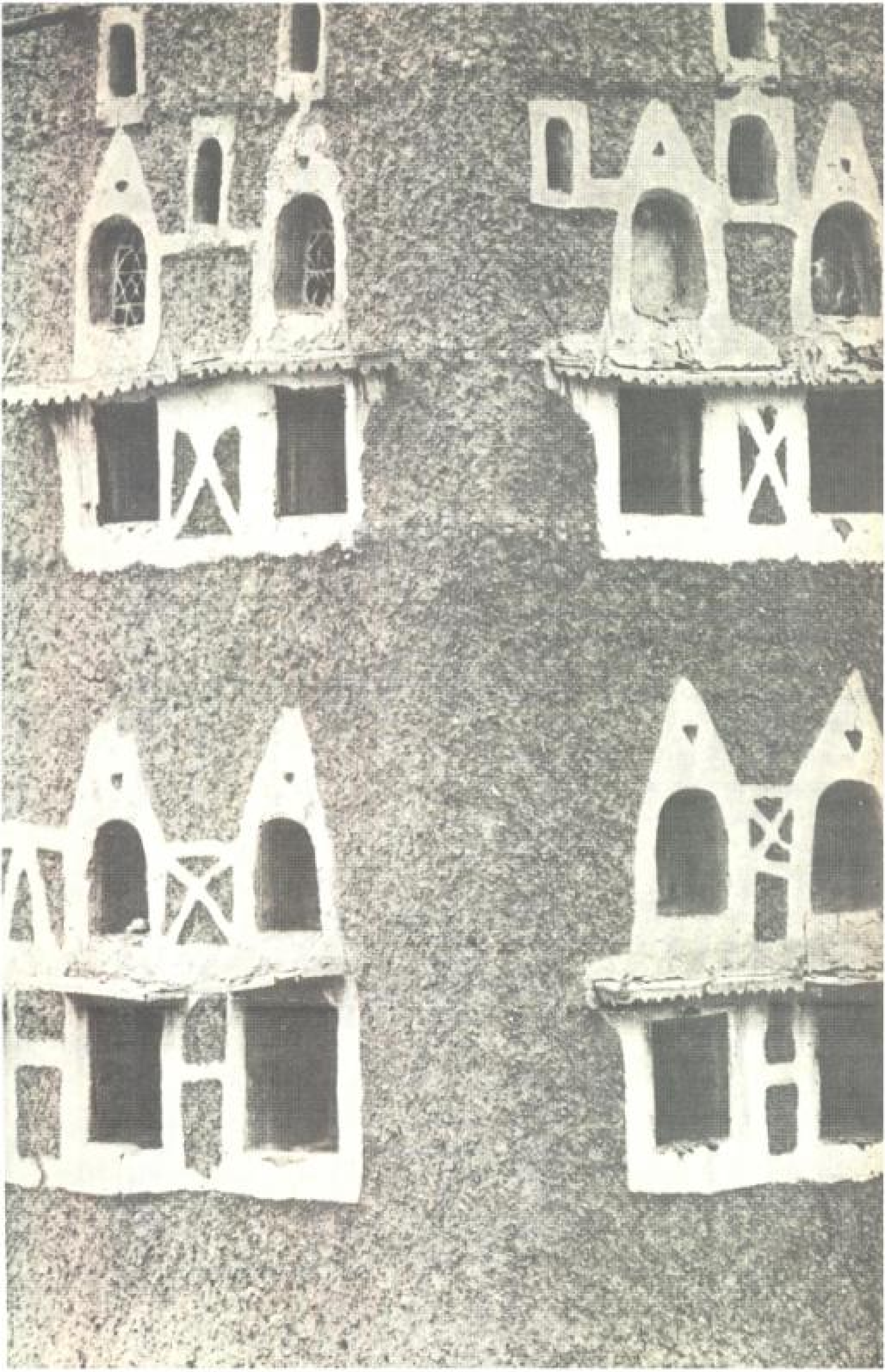
وشوارع المدينة (يسمونها « الحارات »)عمودية على البحر ، بحيث تشكل مسارات للرياح ، حتى لا تصطدم بالمباني . ثم ان الشوارع تصب بالضرورة في الاسواق . ولكل حارة مسجد امامه بستان ، هو الطبيعة الجميلة التي يتطلع اليها الجالسون في «المفارج» ، وهو الممول لسكان الحارة بحاجتهم من الخضر والفاكهة ! وهذه المعالم كلها لازالت باقية الى الان ، لا احد يعرف منذ متى ، لكن احد ابنية المدينة في مكانه منذ سبعة قرون . والمرجح ان التخطيط القائم لا يقل عمره عن ذلك .

في زبيد

واذا كانت صنعاء هي نموذج لمدينة الجبل ، فزبيد نموذج لمدينة الوادي .

وزبيد (٩٠ كيلو مترا من الحديدة) كانت عاصمة قديمة للدولة الزيدية التي انشقت عن الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري وسكنها اساسا قبيلة الاشاعرة ، ومنهم ابو موسى الاشعري الصحابي الشهير الذي انتدبه امير المؤمنين علي بن ابي طالب لتمثيله في التحكيم بينه وبين معاوية (الذي كان يمثله عمرو بن العاص) . وهي مشهورة بفقهائها وعلمائها . تختلف عمارة زبيد عن مثيلتها في صنعاء في التصميم والخامات . فالبيت القلعة غير قائم . كما ان البيت متعدد الطوابق لا حاجة اليه ، اذ ان مساحة الارض تسمح بالتمدد بارتياح ، فضلا عن ان المناخ تلائمه اكثر الحجرات الواسعة

ليست هذه احدى لوحات الفن الحديث ، ولكنها جزء من واجهة مباني صنعاء القديمة ، والفتحات المرسومة بهذا الشكل هي في الواقع نوافذ و تطبع « المنزل » !



والافقية . والى جوار كل بيت حديقة ، والمفرج هو الصق الحجرات بالحديقة ، ولان المنطقة ليست صخرية ، والحجر الابيض اكثر وفرة ، فلا وجود للحجارة السوداء ، وكل الابنية بالحجارة البيضاء .

ولان المدينة كانت حتى عهد قريب ، قبل نصف قرن ، فى حالة انتعاش ورواج ، اذ كانت مركزا لصناعة النسيج اليدوى ومقرا لحوالى ٥٠ مصنع نسيج بالاضافة الى ١٥٠ مصنعا للصباغة ، ثم ان وجودها فى منطقة سهلة وفر لها ثروة زراعية لها قيمة . واذا اضفنا الى ذلك ازدهارها الثقافي ايضا ، فانه لهذه الاسباب كان التعبير الفنى أكثر ثراء فى زبيد عنه فى صنعاء .

وواجهات البيوت القديمة كلها مكسوةبالنقوش المنحوتة وليست المرسومة ، والتى لم اجدسوى كلمة « تطريز » تعبر عنها . ويضاف الى هذه النقوش كتابات محفورة ـ ايضا ـ تتصدر مدخل كل بيت تتراوح بين الايات القرآنية والاحاديث الشريفة وتسجيل تواريخ الانشاء ، واي واجهة فى أي « حارة » بزبيد ، تصلح لان تتصدر جناحا باكمله فى متحف اللوفر بباريس لان اى مربع صغير . أى حجرة او نافذة ، هى بحد ذاتها تحفة فنية رائعة .

فى القرى والمدرجات

على ان التوقف عند صنعاء وزبيد وحدهما يعد ابتسارا للصورة . وهو عرض ناقص بكل المقاييس . بل ان التوقف عند المدن والقرى وحدهما هو ظلم آخر للواقع لا يغتفر . لان الوديان مليئة بالمدرجات البديعة التى اقامها اليمنيون على سفوح الجبال . نحتوها نحتا ، وبداب مذهل ليزرعوها ، وليحولوا الصحراء الى معرض فني آخر يشكل اعلانا عن المهارة والاصالة .

وعلى طول الطريق من صنعاء الى الحديدة كانت المشاهد الرائعة تشد ابصارنا ، خصوصا فى « مناخة » ثم « الحيمة » . ومنذ خرجنا من الحديدة الى تعز وتوقفنا عند بيت الفقيه وزبيد ، ثم بعد مرورنا على « الجند » واب (اللواء الاخضر) . منذ ذلك الحين وانا على يقين من ان اي بلاغة لن ترقى الى مستوى التعبير عن مدى جمال هذه المناطق ، وان الامر يحتاج فى تقديمه الى شعراء باكثر من حاجته الى صحفيين وكتاب .

وهو يقين تأكد اكثر واكثر ، عندما صعدنا الى جبل صبر الذى يطل على تعز ، وقضينا حوالى ساعتين ونحن نشق بالسيارة طرقا ملتويةلتصل الى اقرب منطقة من قممه الشاهقة التي ترتفع لاكثر من ثلاثة الاف متر فوق سطح الارض ! .. وطوال الطريق ونحن نخترق مدرجات مزروعة تشكل على البعد تفرشا مدهشة لجوانب الجبل ، ثم بطول الجبل وعند قممه ، تناثرت القرى اليمنية فى تكوينات لا يمكن لاحد ان يتصور انها من صنع بشر ، لا فى الجمال ، ولا فى الموقع ، وهو شعور يتكرر فى مواجهة القرى التى ترصع قمم جبل سمارة قرب صنعاء .

واعترف اننى تعمدت عدم التفصيل فى تقديم تلك الثروة الهائلة من المساجد المنتشرة فى اليمن والتى تستمد غناها من قيمتها التاريخية من ناحية ، ثم قيمتها المعمارية بعد ذلك . يكفى ان فى اليمن ثلاثة مساجد يرجع تاريخها الى القرن الهجرى الاول وهى : المسجد الكبير فى صنعاء ، وجامع الجند (بفتح الجيم والنون) فى بلدة تحمل الاسم ذاته ، ثم جامع الاشاعرة فى زبيد . وهذه المساجد الثلاثة والمئات الاخرى المنتشرة فى ارجاء اليمن يشكل كل ركن فيها ـ ايضا ـ تحفة فنية رائعة .

وهذا المرور السريع على المساجد مقصود ، لانه ربما لا يكون من قبيل الاضافة ولا يثير الدهشة ان نشهد اروقة المساجد وجدرانها وسقوفها صورا عديدة من الابداع الفني ، لان هذه الصورة مكررة فى العديد من العواصم العربية ، والمعابد عموما كانت ولا تزال حقلا غنيا بكافة صور الفن التشكيلى ، من رسم وتصوير وزخرفة ونحت ، لكن المثير والمدهش أن تخرج هذه الفنون من المعابد الى الشوارع « والحوارى » ، وهو الوضع الشائع فى المدن والقرى اليمنية .

اخطار محدقة

ومع ذلك ، فمن الانصاف والامانة ان اقول ان هذا كله في خطر !

واذا كنت حتى الان قد حرصت على ان اسجل الوجه المشرق للعمارة اليمنية ، الا انني لم اشر من قريب او بعيد الى ما تتعرض له هذه العمارة من اخطار . ذلك انك بقدر ما تؤخذ بجمال هذه العمارة ، فلابد ان تصدم فيما بعد عندما تعلم كيف تعامل . وكما ان الدهشة تستغرقك في زبيد وبيت الفقيه ، فان حزنا بنفس القدر لابد ان يستغرقك وانت ترى كيف تحجب هذه الواجهات الرائعة وكيف تطمس ملامحها بل وكيف تنقرض مع زحف الابنية الجديدة.

ثمة مشكلة حضارية كما قلت ، تتمثل في تشتت الشخصية العربية وتمزقها ، وانسياقها بغير وعي وراء كل ما هو غربي ومستورد . وهي مشكلة تتفاقم كلما كانت « النخبة » في أي مجتمع بين ضحاياها . وقد كان حزني عميقا عندما تطلعت الى المبنى الجديد لوزارة الاشغال في صنعاء وهو مبنى على الطراز اليمني ، ووجدت ان وزير الاشغال ذاته طلب ان يصمم مكتبه بشكل « مودرن » يصل الى حد استخدام الالومنيوم في النوافذ ! وبدات الاستجابة للطلب بالفعل ، ولكن انصار العمارة اليمنية ثاروا ، فاضطر الوزير الى سحب قراره !

وهذا الحزن تحول الى اسى ، عندما شاهدت مبنى من ٢٠ طابقا لشركة الطيران اليمنيه ليس فيه من العمارة اليمنية شيء ، بل ان واجهته كلها مكسوة بالالمنيوم . والعجيب ان هذا المبنى هو اول ما يطالع القادمين من المطار الى مدينة صنعاء !

وثمه مشكلة اقتصادية ايضا ، لان الخامات المستخدمة في البيت اليمني الاصيل — وفي مقدمتها الاحجار — ثم النقوش والعقود والاحزمة، هذه كلها تكلف الكثير . حتى ان تكاليف النقوش وملحقاتها في طابق واحد تقترب احيانا من تكاليف بناء هذا الطابق . وهنا كثيرون الان لا يحتملون هذه التكاليف وللمهندس عبدالله الشرفي مسئول التخطيط في وزارة الاشغال وجهة نظر في هذه النقطة ، خلاصتها ان عمر المبنى الذى يقام بالحجر ضعف عمر المبنى الذى يقام بقوالب الاسمنت او الطوب ، الامر الذى لا يعطى البناء الحديث اى ميزة اقتصادية ، فضلا عن المزايا الاخرى التى تترتب على استخدام الحجر ، فهو يمتص الحرارة والرطوبة ولا يحتاج الى صيانة .

ثم أن هناك مشكلة قانونية ، فليس هناك ضابط يحكم عملية الانشاء . وغاية ما تستطيع الدولة ان تمارسه الان ، هو الزام الجهات الحكومية ببناء منشآتها على الطراز اليمنى ، ورفض اى تصميم يخالف ذلك . لكن مبانى القطاع الخاص تخرج من دائرة هذا الالزام .

وهناك بعد ذلك مشكلة رابعة ، يهمسون بها ولا يصنفونها تحت اى من التقسيمات السابقة . ذلك أن هناك أكثر من دولة عربية تقدم مساعدات لها اهميتها بالنسبة لليمن . ومؤسسات هذه الدول تباشر مشروعات انشائية عديدة ، لكنها كثيرا ما تتغاضى عن الالتزام بخطوط العمارة اليمنية ، ربما بسبب التكاليف . وهو وضع احرج السلطات في اليمن، التى لا تريد أن تضغط على هذه المؤسسات ، ولا تريد أن توقف نشاطاتها التي هي في امس الحاجة اليها ، ثم انها في الوقت ذاته ، ليست سعيدة بما تصممه هذه المؤسسات من مشروعات !

المهم أن المجنى عليه في النهاية هو هذا الفن المعمارى اليمنى العظيم .

ترى ، هل تجدى الدعوة الى انقاذ العمارة اليمنية؟أم تلقى هذه الدعوة مصير دعوات اخرى سابقة طالما بحت الاصوات وهى ترددها ، ولم تفلح واحدة منها في انقاذ بقايا الشخصية العربية الاصيلة في القاهرة ودمشق وفاس المغربية وبو سعيد التونسية وحي القصبة في الجزائر . ام كتب على هذه الشخصية العربية ان تندثر حتى في العمارة !

وبعد الذى جرى ويجرى ، ماذا سيبقى من العرب بعد قرن من الزمان ؟! ■■

العربي

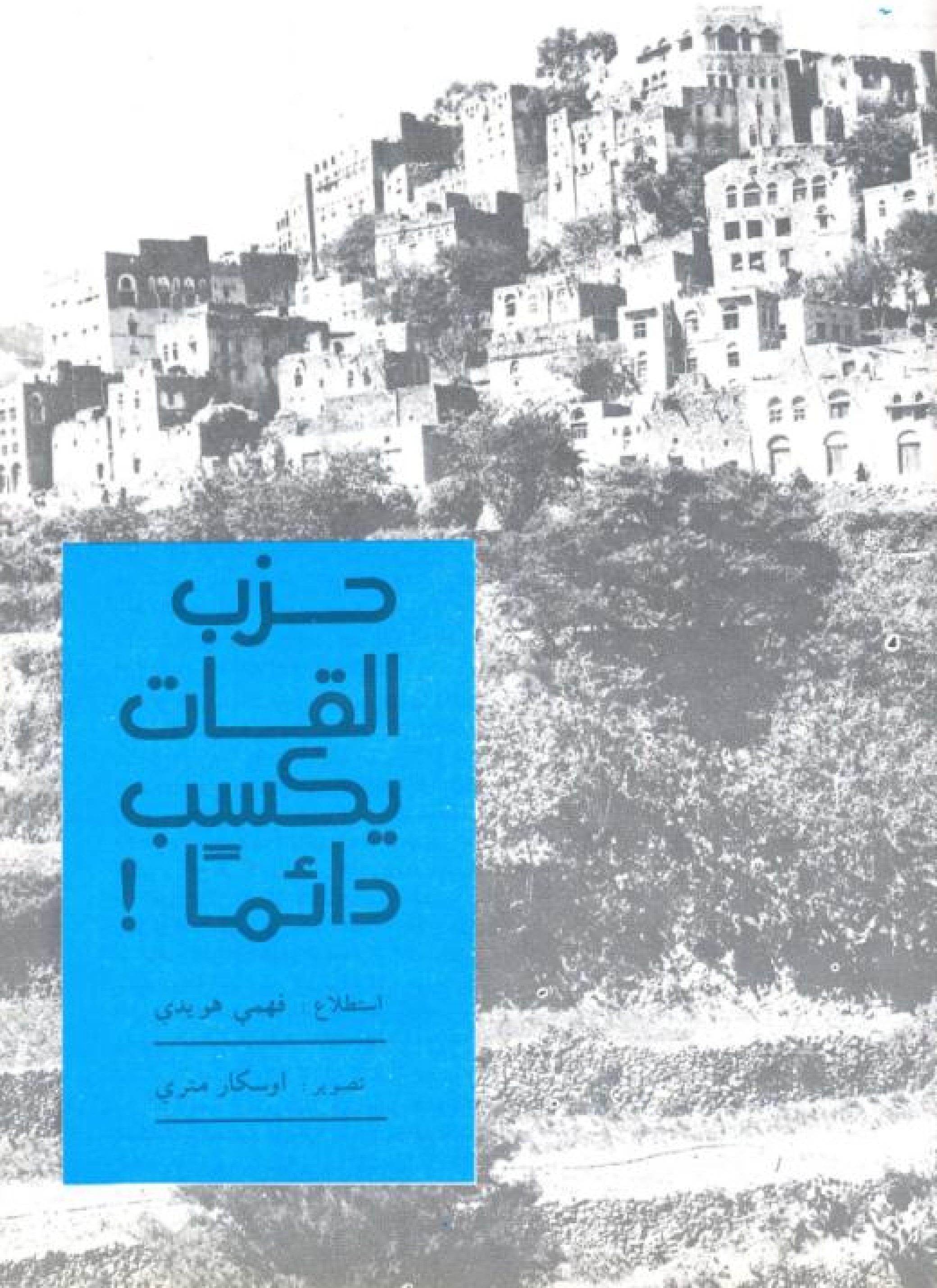
شعبان ١٤٠٠ هـ - يوليو (تموز) ١٩٨٠ م



خطأ النواة الوراثية في الإنسان !

أهل الحل والعقد : من؟ وكيف؟

في اليمن يفسر التاريخ بالقات ـ الشاعر محمد محمود الزبيري



حزب القات يكسب دائماً !

استطلاع : فهمي هويدي

تصوير : اوسكار متري

لا نبالغ كثيرا اذا قلنا ان في اليمن حزبا عتيقا وعريقا ، لم ينفرط ولم ينحل ، لا في فترات الامامة ، ولا في ظل الثورة ، ولا في فترات البين بين . هو حزب القات ، الذي حقق انتصارات كاسحة خلال السنوات الاخيرة ، تمكنه من ان يبقى في الصدارة الى ما شاء الله .

وبنفس القدر ، لا نبالغ كثيرا اذا قلنا ان القات يشكل مفتاحا اساسيا يفسر الكثير من ظواهر الحياة اليمنية ، من العمارة الى الهجرة ، مرورا بالطعام والانجاب . الأمر الذي يمهد لقبول فكرة « التفسير القاتي » لتاريخ اليمن وجنوب الجزيرة . وهي الفكرة التي طرحها ابو الثوار اليمنيين الاستاذ محمد محمود الزبيري ، في مقاله عن القات في اول اعداد مجلة العربي (ديسمبر ١٩٥٨) ، عندما قال انه اذا كان الماركسيون يعتبرون التاريخ محركا للاقتصاد ، والداروينيون يفسرون التاريخ بالجنس ، فانه في اليمن يفسر التاريخ بالقات !

والقات الظاهرة لا جديد فيه . وكما يعرف الناس الذهب الاصفر ، والذهب الاسود ـ النفط ـ فان القات عند اليمنيين بمثابة « الذهب الاخضر » ، مع اختلاف واحد يميزه عن الذهب الاسود والاصفر . فمنتجو الاصفر والاسود يقبضون من ذهبهم ، اما هم ـ اليمنيون ـ فيدفعون من أموالهم وأنفسهم لقاء ذهبهم هذا !

ومن الثابت انه انتقل الى اليمن من موطنه الاصلي في الحبشة ، مع غزو الاحباش لبلاد اليمن في القرن السادس الميلادي . ولا يزال القات الهرري ـ من هرر الحبشية ـ يزرع في بعض الجبال اليمنية الى الآن . وروى بعض قدامى المؤرخين انه كان يستعمل « لتنشيط الذهن وشحذ الذاكرة وابعاد الهم والحزن عن النفس » ، عن طريق حرق الاوراق واستنشاق دخانها . بينما اعتبره بعض الرحالة الاجانب « شاي العرب » . وقيل ان الاسكندر الاكبر استعمل القات في علاج جنوده من مرض تفشى بهم . ومن المرجح ان زراعته باليمن سبقت زراعة البن . وان كان موطنه الان موزعا بين دول شرق وجنوب افريقيا . في الحبشة والصومال وكينيا ، الى الكونغو واوغنده ونياسلاند وروديسيا . ويعتبر اليمن الشمالي الآن هو اكبر منتج له .

لكن الجديد في الامر شيئان هما : حجم الظاهرة ، ثم انعكاساتها السلبية على حياة الناس واقتصاديات البلاد .

حساسية شديدة

ومن الثابت ان هناك حساسية شديدة لليمنيين تجاه موضوع القات ، ربما لان معالجات الموضوع اتجهت منذ البداية الى التركيز على سلبياته ، وصورت الشعب اليمني في النهاية ، كما لو كان مجموعة من البشر المخدرين والكسالى . وقد لاحظت ان كثيرين من اليمنيين يحملون بعض العتب على مجلة العربي ، لانها نشرت مقال الاستاذ الزبيري الذي هاجم فيه القات تحت عنوان : « شيطان في صورة شجرة » . وفوجئت بان منهم من لا يزال يحفظ بعض عبارات المقال ، الذي نشر قبل ٢٠ عاما ! كما لاحظت ان مثقفا يمنيا بارزا مثل الدكتور عبد العزيز المقالح ـ الاستاذ بجامعة صنعاء ـ قد الف كتابين عن شعر العامية ثم شعر الفصحى في اليمن . حجم كل منهما يصل الى ٥٠٠ صفحة تقريبا ، عرض خلالها كافة صور الممارسات الشعرية القديمة والحديثة . لكنه لم يشر الى القات . رغم ان جانبا لا يستهان به ـ من الشعر اليمني الحديث على الاقل ـ هو وليد جلسات القات . فضلا عن الاشعار التي قيلت في القات ذاته ـ والمدح اضعاف اضعاف القدح ـ ما سمعته منها في اليمن خلال ١٥ يوما ، يكاد يكون وحده ديوانا من الحجم المحترم !

والواقع ان معالجة موضوع القات من زاوية تأثيره على صحة الافراد ، او حتى تبديد اوقاتهم ، لا يخلو من تبسيط شديد . لان ملايين المدخنين في العالم يدركون كم هو ضار تدخين السجائر . وفي بلاد كثيرة تحمل كل علبة سجائر تحذيرا من الخطر . ومع ذلك فان هؤلاء الملايين لم يكفوا عن التدخين . كما ان اكثر الاطباء الذين ينصحون مرضاهم بالاقلاع عن التدخين ، هم ايضا مدخنون !

ذلك ان القات ليس نباتا يتلذذ به البعض و « يخزنونه » في الجانب الايمن من افواههم ، كما انه ليس كيفا يستريح معه البعض ويدمنه الآخرون ، ولكن القات قضية اكبر من هذا وذاك . هو الصيغة

والمناسبة التي يلتقي الناس عليها كل يوم . وهو المنبر الذي يعتليه البعض ليقولوا رأيهم في اعظم الاشياء واتفه الاشياء . هو - بتعبير الاستاذ الزبيري - السينما والمسرح والمتنزه والمقهى والمنتدى ، وقاعة المحاضرات ومكتبة المطالعة !

اليس في هذه النشاطات ما يتجاوز حتى قدرات الحزب !!

وهو نوع من الذكاء الفطري عند اليمني . الذي عاشت اجياله سنوات طويلة محرومة ومفتقدة لهذه الاشياء كلها ، فقرر - بوعي منه او بغير وعي - ان يختزلها في جلسات القات ، وان يعوض هذا الحرمان بالصيغة التي رآها اكثر ملاءمة لظروفه الفريدة .

وكانت الحاجة ، هي ام هذا « الاختراع » !

واكاد اقول ان اهل القات يشكلون الآن تنظيما بالمفهوم المتطور السائد في بعض دول العالم الثالث . اعني صيغة « التحالف » التي تلملم شتات الجميع تحت مظلة واحدة ، ايا كانت اتجاهاتهم . اما اذا كان الحزب ينقصه البرنامج فليست هذه مشكلة ، لان الاوضاع السائدة في العالم العربي تحتمل ذلك . اذ يصبح الحزب احيانا هو الهدف . والبرنامج لا يهم . فضلا عن انه ما اكثر البرامج التي وضعت ثم ظلت حبرا على الورق ، وصار وجودها كعدمها .

يضحك اخواننا اليمنيون ، ويقولون : عظيم ، هذه افكار القات !!

ساعة القات

ولانه يقوم بهذا الدور « الشمولي » في الحياة اليمنية ، فان ساعة القات لها ما يشبه القداسة الخاصة . وعندما يحين أوانها ، لا يعلو صوت فوق نداء القات . الجميع يهرولون الى سوقه ابتداء من الثانية عشرة ظهرا . الموظفون والتجار والعمال والمثقفون ، وكل الفئات التي يضمها « التحالف » . وهو زحف كثيرا ما أدى الى تعطيل حركة المرور في صنعاء ، الامر الذي دفع بلدية العاصمة الى تقرير نقل سوق القات خارج المدينة ، في منطقة متربة مليئة بالحفر والهضاب . ومع ذلك ورغم كل « العوائق الطبيعية التي تحول دون الوصول الى موقع السوق ، فانه يتحول في ساعة الظهر الى « قبلة » ، يهون في سبيل التوجه اليها كل شيء . واذا كنت في صنعاء ، وشهدت على البعد سحابة من الأتربة تتصاعد في الافق ، وتناهت الى اسماعك اصوات ضجيج بشري هائل ، ولمحت سربا من المركبات يتراوح بين الحمار والمرسيدس ، فانت على مقربة من سوق القات ، والكل على موعد معه !

سألتهم : بعدما زرت اسواقه ، وشهدت بعض جلساته ، ما سر هذا الاقبال الشديد على القات ؟

تعددت الردود : قال احدهم : المال كثير في ايدي الناس ، والبركة في المهاجرين الذي يعملون في الخارج ، ويمولون .

وقال آخر ، المناخ الاجتماعي - العادات والتقاليد . واضاف ثالث ، والمناخ السياسي ايضا ، ثم تساءل : الم ترتبط الماريجوانا بحرب الامريكيين في فيتنام ؟.. كم فيتنام شهدناها في اليمن ؟! وقال رابع ، الفرصة الوحيدة المطروحة امامنا ، لنلتقي ونتحاور ، ونقضي وقتا طيبا وسط الاقارب والاصدقاء ، في زمن لم يعد يعرف فيه الساكن جاره ، ولا الابن أباه .

تصنيفات اخرى

وان يصبح اليمنيون فريقين : قاتيون ، وغير قاتيين ، فذلك يضيف عنصرا جديدا ، متطورا نسبيا الى قائمة التصنيفات العديدة في اليمن . فاذا كانوا جغرافيا قد صاروا شماليين وجنوبيين . فانهم - مذهبيا - زيود وشوافع وقلة من الاسماعيلية . وعرقيا ، هم يصنفون قحطانيين او عدنانيين . اما طبقيا واجتماعيا ، فحدث ولا حرج ، لان درجات الناس - من هذه الزاوية - ثمان : السادة الذين ينتمون الى البيت الهاشمي (كانت فيهم الامامة) ، ثم القضاة ، والتجار ، وملاك الاراضي ، وشيوخ القبائل ، والفلاحون وصغار التجار ، واصحاب المهن والحرف التي يترفع عنها الآخرون (الجزارون ، والحلاقون وصانعو الاحذية مثلا) . واخيرا ، أتعس الفئات وادناها ، وهم « الاخدام » ويقال انهم بقايا الاحباش الذين استعمروا اليمن قبل الاسلام ، بزعامة « ابرهة » ، الذي حاول هدم الكعبة . وقد صاروا يمنيين الآن ، لكنهم معزولون ، ويعيشون في اطراف المدن ، ويعملون خدما في البيوت ، وعمال نظافة في الشوارع .

ولكل فريق من هؤلاء معالمه المميزة ، من غطاء الرأس الى شكل ووضع الخنجر الذي يزين « الجنبية » التي تطوق خصره ، وهكذا . حتى ان فئة اصحاب الحرف الصغيرة ، لا يتزوج من بناتهم احد من الفئات الاخرى .

وثمة تقسيمات اخرى معاصرة ، مثل العسكر والمدنيين ، والعسكر فرق ، السبتمبريون (الذين قاموا

بثورة سبتمبر) ، والبوتوبيون (انصار حركة التصحيح في ١٣ يونيو ٧٤ التى قام بها المقدم ابراهيم الحمدي) ، وما الى ذلك !

ورغم أن هذه التقسيات تبرز وتختفي حسب مقتضيات الاحوال . ومتغيرات المناخ السائد ، الا ان الفريقين اللذين لم يتأثرا بمسار الأحداث ـ وان اختلف حجم كل منهما ـ هما انصار القات وخصامه . وكان الحزب المعارض للقات قد نشط بعد ثورة سبتمبر ، خصوصا وان بعض آباء الثورة تعاهدوا بعد نجاحها على ان يقاطعوا القات ، في محاولة لارساء قيم جديدة ملائمة للمرحلة . ومن هؤلاء الشهيد محمد محمود الزبيري ، والقاضي عبد الله الايرياني (مقيم في سوريا الان) والاستاذ احمد محمد النعمان (انتهى به المقام في السعودية) . وكانت ذروة المواجهة عندما اصدر محسن العيني رئيس الوزراء قرارا في عام ٧٣ يمنع زراعة القات . ولكن القرار استخدم ضده ، حتى خرج من الوزارة !

وفي ظل الاوضاع التي تلاحقت ، عادت الامور الى « نصابها » ، والغي قرار العيني ، بل ايضا الغيت الضريبة على تجارة القات ! (كانت حصيلتها حوالي ٣ ملايين دولار سنويا) ، بعدما رفعت الضرائب عن مختلف السلع التي تنتج محليا ، لتشجيع هذا الانتاج ! ورغم ما يقال عن ان الغاء ضريبة القات يرجع الى ان اعباء جباية هذه الضريبة كانت تفوق حصيلتها ، الا انه من المرجح ان القرار كان سياسيا ، هدفه كسب تأييد حزب القات .

وكانت هذه الخطوة ـ في النهاية ـ انتصارا لحزب القات وتأكيدا لدوره في الساحة السياسية !

في « المقيل » و « التفرطه »

وقد اتيح لي ان اشهد ثلاث جلسات للقات . وفي كل مرة كنت افشل في تخزينه ، وابتلعه بعد لحظات من مضغ اوراقه الحمراء الداكنة . اذ يحتاج الامر الى مران فيما يبدو ، لكي يتمكن المرء من تخزين تلك الكرة الصغيرة في جانب من الفم ، ويحتملها لمدة ساعة على الاقل ، وينفصل عنها ليمارس نشاطات اخرى عديدة ، من المناقشة الى القراءة والكتابة ، واحيانا الرقص والغناء !

وجلسة القات (يسمونها « المقيل » من القيلولة) لها مواعيد ونظام وطقوس .

اولا تتم في قاعة مصممة خصيصا لهذا الغرض ، يسمونها « المفرج » ، من الانفراج ربما ، او لان نوافذها الكبيرة ، التي في مستوى الجالسين على الوسائد الارضية ، تمكن الجميع من « الفرجة » على المشهد الخارجي ويسمونه « السفح » (في صنعاء القديمة كان لكل شارع بستان صغير) . وكما ان « المقيل » يتم بعد الغداء مباشرة (الثانية او الثالثة ظهرا) في المناطق ذات الطقس المعتدل مثل صنعاء ، وبعد صلاة العشاء في المناطق الحارة مثل الحديدة ، فان المفرج ، والطراز المعماري ، يختلف تصميمه ايضا باختلاف الطقس ، هو في صنعاء وما حولها في قمة البناء المرتفع ، الذي يصمم خصيصا بحيث ، يتمكن الجالسون من الاطلال على « السفح » وفي الوقت ذاته ، لا تتلصص اعينهم على الجيران من سكان البنايات الاخرى . اما في ظروف حرارة ورطوبة الحديدة وما حولها فالمفرج بالدور الارضي . في جانب من فناء البيت ويطل على حديقة البيت ذاته .

واهل كل حارة ـ الاسم المتداول للشارع ـ يجتمعون في بيوتها بالتناوب . يتوزعون على بيتين كل يوم . وعندما يحين الموعد يتوافد الجمع على المقيل ، وكل منهم متأبط حزمة القات ، ومستلزماته ان شاء ، وهي بالدرجة الاولى ماء بارد في « ترمس » صنعه الذكاء الياباني خصيصا لهذا الغرض ، بحيث الحقت به قطعة خارجية يوضع عليها كوب الماء الصغير تحت طرف فوهته . وبضغطة اصبع واحد . ينساب الماء بالقدر الذي تحتاجه عملية ترطيب جفاف الحلق ، وارواء العطش الذي يسببه القات . ومن اراد ان يحضر معه ترمس شاي او قشر القهوة المغلي ، فلا مانع . المهم ان يصل كل واحد وهو في حالة اكتفاء ذاتي ، حتى لا يتحمل المضيف عبئا ثقيلا في وجود ١٥ او ٢٠ شخصا دفعة واحدة .

يتحلقون حول القات في تلك الجلسات اليومية المنتظمة ، لا فرق بين غني وفقير ، او وزير وخفير ، تتساوى الرؤوس ويرفع التكليف ، وتحفظ الالقاب ، بمجرد ان يخلع القادم نعله ، ويفك جنبيته ، واذا كان من الافندية فانه غالبا ما يتحلل من البنطلون ، ويستبدل به ازارا جاهزا (يسمونه الفوطة) يمكنه من الجلوس على الارض طوال ساعات المقيل ، بغير عنت ولا مشقة .

وللنساء جلسة مماثلة ، يسمونها « التفرطه » ، التي ينفرط فيها عقد الوقت . ورغم انه يفترض نظريا انها تتم لمناسبة معينة (زواج او ولادة او ختان او وفاة) ، الا انه من الناحية العملية لا تخلو حارة كل يوم من مناسبة كهذه ، خصوصا وان الزواج مناسبة تستحق ـ



وجهان في الحياة اليمنية لا ينفصلان ، المشغولات الفضية الدقيقة والبديعة التي تصيب الاجانب بالهوس ، وتخزين القات الذى ينبغي ان يتم يوميا في موعده المقرر بغير تأخير

طبقا للعرف السائد هناك ـ ان يستمر الاحتفال بها ٤٠ يوما . والولادة ، حدث لا يقل اهمية ، وهو يحتاج الى ٤٠ يوما اخرى . اما الختان فله اسبوع واحد . واحزان الرحيل ينبغي ان تتكافأ مع فرحة الميلاد ، وينبغي ان تستمر ٤٠ يوما اخرى .

والتفرطه لا تعقد في بيت صاحب الشأن بالضرورة ، ولكنها تتم في بيوت اخريات لحساب المناسبة وباسمها . وهي مقصورة على المتزوجات فقط ، ومحظورة على غيرهن من البكاري . وكما في المقيل ، فان كل قادمة تأتي بزادها من الماء او قشر القهوة او البخور . والقات دوره محدود . اذ التخزين في التفرطه استثناء وليس قاعدة . واذا كان الرجال في المقيل يتنافسون في شراء الاجود والاغلى من القات ، الا ان منافسات التفرطه تدور حول الثياب والحلي والعطور والبخور ، فضلا عن ادق أسرار الحارة ، والقيل والقال !

درس في التخزين !

لهثنا وتقطعت انفاسنا حتى صعدنا الى المقيل « المتكى » من الاتكاء في روايات اخرى ـ اذ كان المفرج فوق سطوح بني من سبعة طوابق ، والمسافات بين درجات السلم الحلزوني بعيدة الى حد لا يقوى عليه الا متسلقو الجبال الشاهقة . تقدمنا مرافقنا مخترقا ستائر الضوء الشاحب ، وعند كل منعطف ينبه من يهمه الامر من السكان او النازلين ، ويردد بين الحين والآخر : الله . الله .

تقنعك الرحلة في حد ذاتها بانك بحاجة الى مقيل او متكى . اذ تصبح في نهايتها بحاجة الى ان تلقي بنفسك على اى مقعد او حشية . لتستريح عدة ساعات . لكنها كانت مشكلة شخصية فيما يبدو ، لان بقية الصاعدين دخلوا من باب المفرج ولله الحمد . وكأنهم قادمون من غرفة مجاورة خارجون لتوهم من حمام منعش وساخن . (وهي عادة يتمسك بها البعض قبل حضور جلسات القات في الشتاء) .

القاعة فسيحة ومزينة الجدران ، والحشايا والمساند ذات الألوان الزاهية ، متناثرة بطول القاعة وعرضها ، بينما تنتصب في الوسط نرجيلة او اكثر ـ مداعه ـ طويلة العنق لها مستودع نحاسي ، « ومبسم » واحد في نهاية خرطوم اطول ، مكسو بالقماش وربما مطرز ، مهمته توصيل مفعول النرجيلة الى اوسع دائرة ممكنة من الجالسين .

ولا يخلو المفرج القديم من نافذة صغيرة للتهوية اذا لزم الامر . وان كانت المباني الحديثة قد حلت هذه المشكلة بصيغة اكثر تطورا . عن طريق الاجهزة الكهربائية التي تتولى سحب الهواء الى الخارج . من ذلك النوع الذي يستخدم في المطابخ عادة .

ومن باب حسن الظن بي ، وربما املا في ضمي الى عضوية الحزب ، فقد اعطيت في البداية ما يمكن ان يسمى « ثقافة قاتية » ، وهي خلفية لازمة للوافدين الجدد ، تؤهل للانخراط فيما بعد .

وخلال هذه المرحلة الاولى ، تكتشف ان القات درجات (٢٥ وفي رواية ٧٠) كما ان الناس درجات . وان سعر الحزمة (حوالي ٤٠ عودا) يتراوح بين ٢٥ و ٣٠٠ ريال ، بينما كان سعر الحزمة من اجود الانواع ٣٠ ريالا حتى عام ٧٤ . (بعد رفع اسعار النفط) ، اى ان سعر النوع الجيد تضاعف ١٠ مرات .

تكتشف ايضا أن كل منطقة تتميز بانتاج مختلف من القات . في صنعاء مثلا ، اجود الانواع تحمل اسماء : ضلاعي ـ وادي ـ قرية ـ رجامي . والصوتي هو اردأ الانواع . وفي تعز اجود الانواع هي الصبرى (من جبل صبر) والجعشي ، واردؤها هو الشرعبي . واجودها في الحديدة هي الشامي والقسطل والحرامي ، واردؤها الحقاشي . واهم واجود قات اليمن الجنوبي هو اليافعي والضالعي .

وكل الاصناف متوفرة على مدار العام . لان شجرة القات ، دائمة الخضرة ، ويناسبها تماما طقس المرتفعات والاجواء المفتوحة ، وهو اكثر مما يتميز به قلب اليمن ، حيث سلاسل الجبال العالية ، التي لا تنتهي . ومن اسرار هذه الشجرة انها تنمو بغير بذر ولا زهر ، ولكن « بالعقلة » في اغلب الاحوال ، اذ تؤخذ الفروع الرفيعة وتقطع الى عقل طول كل منها نصف متر ، ثم تزرع في بطن التربة ، وتروى لمدة ٤٠ يوما فقط ، ثم تترك لتعتمد على مياه الامطار ، وتعمر مدة تصل الى ٢٥ عاما . وكلما قطفت اوراقها نمت من جديد . والغريب ان شجرة القات لا تصاب بالآفات الزراعية الا نادرا ، وان اشجار البن المزروعة الى جوارها كثيرة الاصابة بهذه الافات .

في مرحلة تالية تلقيت درسا في التخزين !

المخضرمون يقولون في البدء لم يكن هناك تخزين ، ويحسدون هذا الجيل الذي اتيح له ان يوظف مظاهر التقدم العلمي لصالح تعاطي القات ، حتى انه اصبح يتلقاه طازجا حيث وجد . وهنا يروون ان اليهود اليمنيين



في سوق القات ، التجار لهم اكشاك خاصة لكن ذلك لا يمنع اى مزارع من ان يحمل جني الصباح ، ويعرضه وسط السوق

الذين هاجروا الى اسرائيل منذ عام ٤٨ زرعوا القات هناك ، وان هذا القات يصدر الآن للجاليات اليمنية في الخارج (انجلترا بوجه خاص) . وسمعت من احدهم ان هناك طائرة تنقل القات الى لندن كل يوم سبت ، وانه شخصيا خزنه في العاصمة البريطانية مساء السبت ، ليس خرقا لقوانين المقاطعة ، ولكن ـ فقط ! ـ للتثبت من الأمر !

يضيف المخضرمون انه قبل نصف قرن ، عندما كانت الجمال هي وسيلة الانتقال الاولى ، كان متعذرا ان يحصل انصار القات عليه طازجا .. فكانت اوراقه تجفف وتنقل من بلد الى آخر ، حيث يشرب الجميع منقوع القات . ومن هنا جاء تعبير الرحالة الاجانب الذين زاروا مناطق القات في القرن الماضي ، واسموه « شاي العرب » . لان القاتيين كانوا يضعون هذه الاوراق الجافة في الماء لبعض الوقت ، ثم يشربون الماء بعد ذلك .

وعندما ظهرت السيارات والقطارات اصبح انتقال القات الطازج ميسورا بين دول شرق افريقيا التي تنتجه ، وادت السيارات هذه الوظيفة في اليمن ، اذ لا توجد هناك سكك حديدية . لكن الفرج الاكبر ـ على حد تعبير احدهم ـ جاء مع استخدام الطائرات .. التي كانت احدى وظائفها الاساسية في الماضي هي نقل هذا القات من الحبشة الى اليمن ، ومن صنعاء الى عدن والحديدة وتعز ، وهكذا .

وكلما تقدمت وسائل المواصلات والنقل ، تطورت اساليب تعاطي القات ، حتى اختفى تماما شرب منقوع القات ، وسادت طريقة التخزين .

الهواة يقطفون اوراق القات الصغيرة من اطراف الفروع ، ويمضغونها ثم يحتفظون بها لبعض الوقت ، وبعد ذلك يتخلصون منها في اناء صغير ، ليواصلوا القطف والتخزين بعد ذلك . اما المحترفون فانهم يحتفظون بالاوراق مدة اطول ، وقد لا يتخلصون مما في افواههم الا في نهاية الجلسة . ولذلك فانهم يقطفون ويقطفون ، ويضيفون المزيد الى ما في افواههم ، وتظل الكرة تكبر وتكبر ، وينتفخ معها جلد الوجه في الجانب الايمن ، حتى ليبدو كما لو كان هذا الجزء قد صار « مطاطيا » من كثرة الاستعمال .

على انهم لم يعودوا الآن بحاجة الى الطائرات ـ في داخل اليمن على الاقل ـ لان القات اصبح يزرع في كل مكان ، باستثناء سهل تهامه الساحلي ، الذي يتلقى احتياجاته عن طريق السيارات ، خصوصا بعد استكمال شبكة الطرق الرئيسية في اليمن .

مخدر ام ماذا ؟

سألتهم ، ما هو المفعول الحقيقي للقات ؟ .. هل هو مخدر ام لا ؟ ..

انصار القات يعددون مزاياه ولا يرون الا النصف المليء من الكوب . بينما الخصوم يتهمونه بكل نقيصة ، ويؤكدون انه مخدر ومضيع للوقت والجهد والمال ، اى انهم يركزون على النصف الفارغ من الكوب .

ويبدو ان ما يقوله الطرفان صحيح . والفرق بينهما ان الانصار يصدرون حكمهم على القات من خلال رصد الموقف في بداية « المقيل » ، بينما الخصوم عليه من نهاية الجلسة !

ولأنني كنت طرفا محايدا ، فقد رويت لهم ما شاهدته ، من خلال تجربة مباشرة . ذلك أن احد مرافقينا في الرحلة كان من انصار القات ، ورغم انه ممثل مسرحي ، وكان شديد الالحاح على ان اناقش معه مشكلة المسرح اليمني ، الا ان سؤاله الاساسي الذي كان يطرحه قبل تجوالنا كل صباح هو : اين سنتناول الغداء ؟ وكانت هذه صيغة مهذبه تغلف سؤالا آخر هو : اين سيتم التخزين ؟

كان طلال ـ وهذا هو اسمه ـ يعلن الطوارىء قبل الثانية عشرة ظهرا . يضيق صدره ولا يحتمل سؤالا فضلا عن ملاحظة . كان يبدو حاضرا معنا ولكن عقله غائب عند « المقوت » ـ بائع القات .

ولا يستريح له بال الا بعد ان يشترى حزمة القات . كان يدفع ١٠٠ ريال كل يوم ـ بمعدل ٣ الاف ريال كل شهر ـ بينما راتبه الشهري ٨٦٠ ريالا (الفرق يغطيه من بيع اراض ونباتات يملكها) . يعود من غيبته بعد ان يطمئن الى ان زاده معه . ملفوفا في كيس من النايلون ، صنعته اليابان خصيصا لاهل اليمن وكتبت عليه « بلادي بلاد القات » ، ولكن هذه الاكياس اصبحت تنتج محليا الآن (!) .. بعد الغداء ينهض طلال ليفض الكيس ويبدأ في التخزين . يعتدل في مقعد السيارة ويقول ، وقد عادت اليه حيويته وابتسامته ، الآن انا مستعد للذهاب معكم الى نهاية العالم . لا يعود اليه عقله الغائب فقط ، لكنه يتحول الى شخص آخر ، شديد الانتباه والانطلاق . تشعر كما لو كان مؤشره في صعود ومعنوياته في السماء . يظل على هذه الحال طوال ساعتين او ثلاث على الاكثر . اى انه بعد الساعة الخامسة ، ومن السادسة ، يتحول الى شخص ثالث ، يصعب عليه التركيز ، وتتلقى ردوده ببطء ، بينما تصبح حركته اكثر بطئا . وتكتشف على الفور ان المؤشر قد عاد الى الهبوط ، وان معنوياته تهبط معه تدريجيا !

وفي كل صباح كان يجيئنا مكتئبا من الارق وقلة النوم ، رغم محاولاته التغلب على الارق بشرب المتوفر من الكحوليات . (وهي عادة اكثر مدمنى القات ، ويسمون هذه المرحلة الثانية « التفسيخ ») خصوصا وان القات يفقده الشهية ، فلا يتمكن من تناول اى طعام في العشاء .

فتش عن القات

واكثر الذين ناقشتهم اقروا هذا التوصيف . وزادوا عليه قولهم انه بسبب القات فان دوام موظف الحكومة لا يتجاوز ٣ ساعات في اليوم ، لان الموظف الذي يظل مؤرقا في الليل ، يصل الى مكتبه متأخرا ، ولا يحتمل الجلوس على مقعده بعد الثانية عشرة ظهرا ، عندما يحين موعد شراء القات . ويبدو ان وزارة الاشغال في صنعاء ارادت ان تحل المشكلة ، فخصصت احدى حجراتها داخل مبنى الوزارة للتخزين ، في محاولة للابقاء على الموظفين اطول فترة ممكنه .

اى ان انتاج الموظف ومواعيد حضوره وانصرافه لها علاقه بالقات ، الذي يؤثر ايضا على مواعيد طعام ونوم وكافة ارتباطات اى مواطن آخر . اذا اردت موعدا فهو

في المقيل ، والنوم بعد الغداء لا مكان له بسبب موعد المقيل . واذا اردت الاحتفال باى مناسبه ـ حتى ولو كانت عيدا ـ فليكن ذلك حول القات . ولانه يفترض ان اللقاءات تتم في المقيل ، فليس من اللائق ان تزور يمنيا في بيته بعد السابعة والنصف مساء . وربما كانت مصادفة ان تجيء تعاليم المذهب الزيدي المنتشر في اليمن متوافقة مع متطلبات جلسة القات . التي تمتد الى ما بعد صلاة المغرب . ذلك ان الزيود يجيزون جمع الصلوات في الظروف العادية ـ خلافا لاهل السنه الذين يبيحون الجمع في حالات السفر والضرورة ـ وعلى ذلك فان الزيدى يستطيع ان يجمع الظهر والعصر قبل ذهابه الى المقيل ، وان يجمع ما بين المغرب والعشاء بعد الجلسه (جمع تاخير) . وبذلك يظل في مكانه طول وقت المقيل ، بضمير مستريح للغاية !

بل ان تركيب الطعام اليمني ذاته يكاد يكون محاولة للرد على مفعول القات وتخفيف اضراره الصحية . ذلك ان استمرار فقد الشهية الذي يحدثه ، يؤدي طبيعيا الى انتشار امراض سوء التغذية من البلاجرا الى تضخم الكبد وقروح المعدة . وكان الرد الغريزى على هذا الخطر هو ما لجأ اليه اليمنيون من اضافة الحلبة المطحونه الى اغلب الاطعمة في وجبتي الافطار والغداء . و « المطيط » ـ الطبق الرئيسي والشعبي عند عامة اليمنيين ـ هو خليط الدقيق بالحلبة والبيض مع السعتر والفلفل . تقوم الحلبة بهذا الدور الوقائي ، بما تحتويه من قيمة غذائيه كبيرة ، فيتامين ج و د فضلا عن البروتين والفوسفور والكالسيوم . وقد قرأت تقريرا لأحد الخبراء يقول فيه « ان الحلبة تقوم بدور هام في المحافظة على البقية الباقية من صحة شعب اليمن . فضلا عن انها تعالج حالة القبض الشديد الذي يحدث بالامعاء نتيجة القات . »

ويذهب البعض الى ان للقات دورا في تزايد هجرة اليمنيين الى الخارج في السنوات الاخيرة ـ فقد ادى ارتفاع اسعاره الى افلاس الكثيرين ، لانه عمليا ليس بمقدور اليمني ذى الدخل العادي ان يغطي نفقات التخزين اليومي (مرافقنا نموذج لذلك) ، والذين لا يتاح لهم ان يغطوا انفاقهم على القات من مصادر اخرى ، يضطرون الى الهجرة .

وليتها الميزانية فقط التي تتأثر ـ هكذا يقولون ـ لكنه حجم الاسرة ايضا . لان ادمان القات يؤثر سلبيا على قدرات الرجال الجنسية . فضلا عن تأثيرات اخرى في ذات الاتجاه ، يشيرون اليها ولا يخوضون في تفاصيلها . وربما كان هذا هو السبب في ان عدد سكان اليمن ينمو ببطء شديد ، اذ انهم كانوا ستة ملايين منذ ١٦ عاما ، وحتى العام الماضي لم يزد عددهم على ثمانية ملايين !

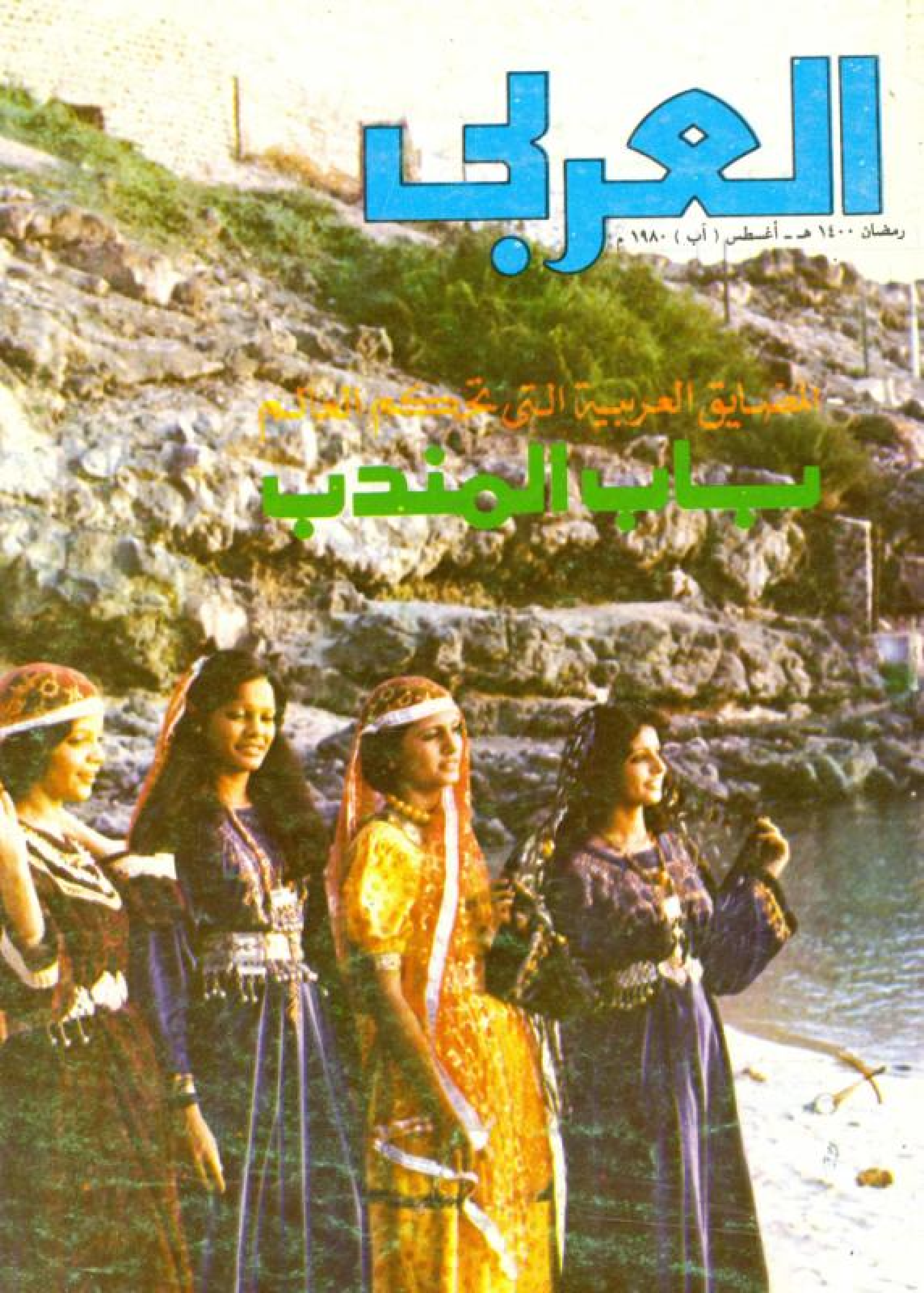
واخطر من ذلك تاثيراته على الاقتصاد اليمني ، اذ ان الارتفاع الشديد في اسعاره دفع كثيرين من الزراع الى التوقف عن زراعة المحاصيل الاخرى ، والتحول الى القات لانه اوفر ربحا ورعايته تحتاج الى جهد اقل . وذلك أدى الى العجز في الانتاج الزراعي . ولان اكثر انواع التربة ملاءمة لزراعته ، هي تلك التي يزرع فيها البن ـ لتعاسة الحظ ـ فإن بعض الزراع لم يترددوا في خلع اشجار البن واستبدال اشجار القات بها !

لكن هناك ايجابية تذكر للقات ، ولا يختلف عليها احد ، انه استطاع خلال السنوات الاخيرة أن يؤثر في توزيع الثروة باليمن ، عن طريق نقل ثروة المدينة الى الريف . ذلك ان زيادة الاقبال عليه أدت الى زيادة اسعاره بصورة مدهشة ، وذلك أدى الى مضاعفة دخول المزارعين من سكان الجبال والقرى . وكان لهذه النتيجة دور فعال في اقبال الفلاحين على شراء موتورات الاضاءة والسيارات والدراجات البخارية ، فضلا عن ظاهرة التوجه الاستهلاكي العام السائدة هناك .

وهم يردون على كل ما يطرح من ملاحظات بقولهم ان القات افضل من المشروبات الكحولية اى أنه أهون الشرين . ويسلمون بان سلبياته اكثر من ايجابياته ، ثم يقولون : ما هو البديل عنه ، وكيف تحل مشكلته التي استشرت ؟ . لقد حرمت اليمن الجنوبية بيعه وتعاطيه الا في يومي الخميس والجمعة من كل اسبوع ، ولاسباب متعلقة بتوقيت الاجراء . وطبيعة الاوضاع هناك ، أمكن تطبيق النظام ، وامكن تقليص نفوذ القات .

أخيرا ، يرددون : ان اتهام اليمنيين بالقات ينطوى على ظلم فادح لهم ، وتجن يتبنى على مغالطة كبرى . فاليمني عندما يسافر الى خارج البلاد لا يفكر في القات ، بعكس اى مدمن . وعندما يعود لا يجد صيغة اخرى تمكنه من ان يشارك في نسيج العلاقات القائمة في المجتمع اليمني . وهي مشكلة لا تحل بقرار ، وانما بطرح هذا البديل الذي لا يملك مفتاحه طرف واحد ، ولا يمكن ان يحسم القضية لا في شهر ولا في سنة .

اليس غريبا هذا التشابه بين حزب القات واكثر احزابنا العربية ، حيث الغالبية العظمى على استعداد لان تتخلى عنه في لحظة اذا وجدت بديلا مقنعا ، فضلا عن احساس الانصار بان « العضوية » عبء تتمنى لو تحللت منه ، وان الاختيار لا يتم على اساس مفاضلة بين جيد ورديء ، ولكنها بين رديء وارداً !!! ■■

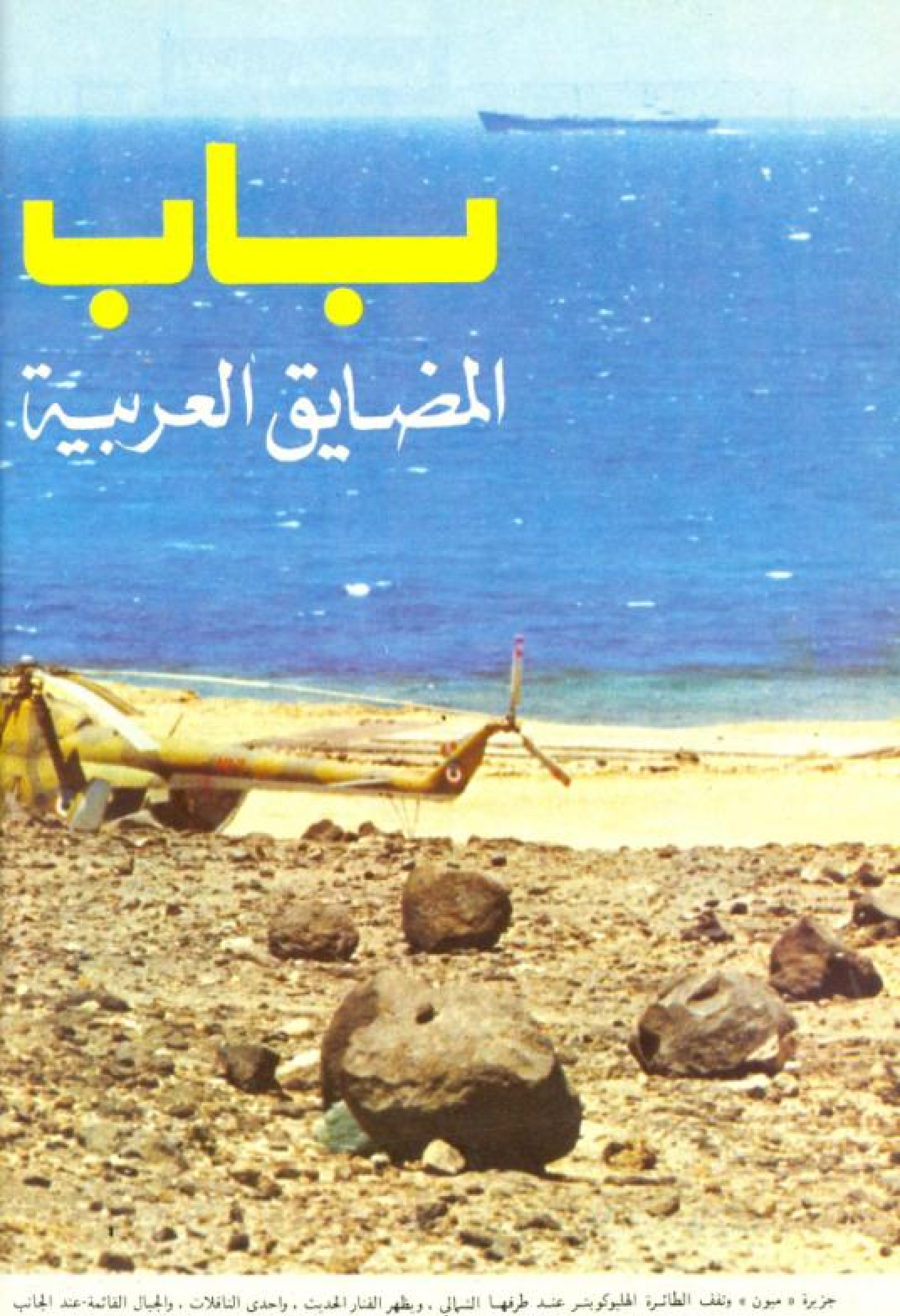


العربي

رمضان ١٤٠٠ هـ ـ أغسطس (آب) ١٩٨٠ م

المضايق العربية التي تحكم العالم

باب المندب



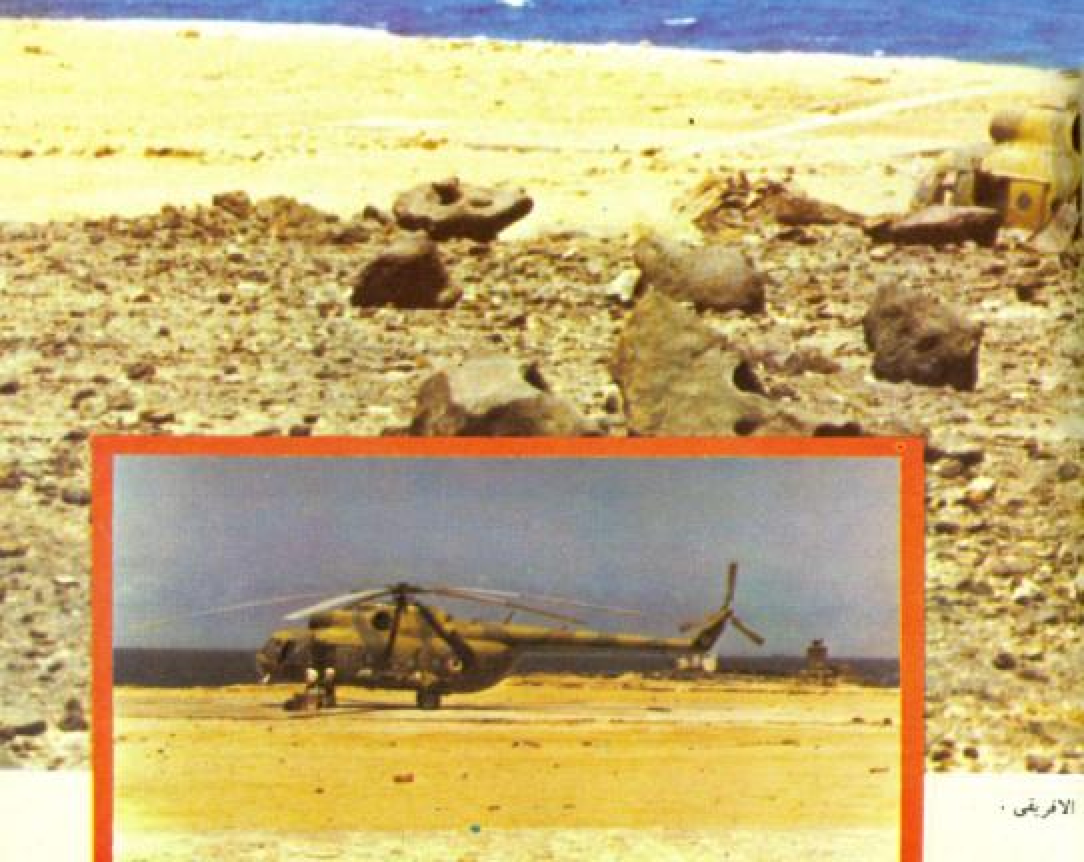
جزيرة « ميون » وتقف الطائرة الهليوكوبتر عند طرفها الشمالي ، ويظهر الفنار الحديث ، واحدى الناقلات ، والجبال القائمة-عند الجانب

المندب

التى تحكم العالم

استطلاع : مصطفى نبيل

تصوير : اوسكار متري



الافريقى ،

ننتقل هذه المرة في قفزة واحدة من مضيق هرمز الى مضيق « باب المندب » ، ومن مخارج الخليج العربي الى مداخل البحر الاحمر ، ومن عمان الى اليمن الديمقراطية ، ونصل الى نقطة استراتيجية اخرى هي مفتاح الكتلة الاستراتيجية العربية التي تشمل الخليج العربي والبحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط ، ونتوقف طويلا في « ميون » في قلب باب المندب وفي عدن ..

نتتبع هذه النقاط ونتعرف عليها ونستنطقها ونسمع منها ..

يتردد في المدارس على اسماع التلاميذ عبارات مثل : موقع العالم العربي فذ وفريد ، والعالم العربي يتوسط العالم ، ويشرف على اهم ممراته الدولية ، وغير ذلك مما يبين اهمية الموقع ، وحينما يقرأ التلاميذ عن جزر القمر او حتى فنلندا يقرءون نفس العبارات عن الموقع الفريد !

حتى اختلط عليهم الامر ، واصبح يخامرهم الشك بان تلك العبارات ما هي الا نوع من الزهو الوطني ، او تهدف الى خلق الاعتزاز القومي ، اما اذا تمثلوا تلك المواقع ودرسوا تاريخها عندئذ تكتسب هذه العبارات معناها ، واذا اتيحت لهم ايضا فرصة التنقل بين المواقع الاستراتيجية العربية من مضايق وجزر ، وشاهدوا اهم الممرات المائية بين ايدي العرب وتحت سيطرتهم . هنا سيدركون مغزى الكلمات ويلمسون ابعادها .

وهذا ما يسعى اليه هذا الاستطلاع ..

وثمة استدراك ضروري ، يضع الامور في نصابها ، وهو ان الجغرافيا دائما محايدة ، لك او عليك ، يحدد ذلك البشر انفسهم ..

ومركز زيارتنا هو باب المندب الذي يقع بين قارتي أسيا وافريقيا ، ومفتاح الملاحة الرئيسي في البحر الاحمر ، وهو حلقة وصل بين افريقيا وآسيا واوروبا ، لذا يعتبر الكثيرون البحر الاحمر قلب العالم الاستراتيجي ، ومفتاح امن المنطقة العربية منذ التاريخ القديم وخلال التاريخ الاسلامي وحتى التاريخ المعاصر ..

فالبحر الاحمر بؤرة شبكة معقدة من المصالح والاطماع والمتناقضات الدولية والاقليمية والمحلية ، وهو في نفس الوقت يمثل انبوبا يتدفق منه بترول الخليج ، ويعبره ٦٠٪ من احتياجات اوروبا الغربية التي تبلغ ٤٥٨ مليون طن في العام ، وهو هكذا قناة وصل بين البحار المفتوحة في المحيط الاطلنطي والمحيط الهندي ، فأي تحرك في البحر المتوسط ينتهي الى البحر الاحمر ، وأي تحرك في الخليج العربي ينتهي غالبا الى البحر الاحمر بعد مروره على المحطات التالية مضيق هرمز ـ خليج عمان ـ المحيط الهندي ـ خليج عدن ـ باب المندب ، ما عدا تلك الناقلات المتجهة الى الشرق الاقصى ..

في عدن

وفي اليوم الثاني عشر من وصولي الى عدن ، اقلعت بنا طائرة هليوكوبتر من مطار خورمكسر متجهة الى جزيرة ميون ـ بريم بالانجليزية ـ التي تقع وسط باب المندب .

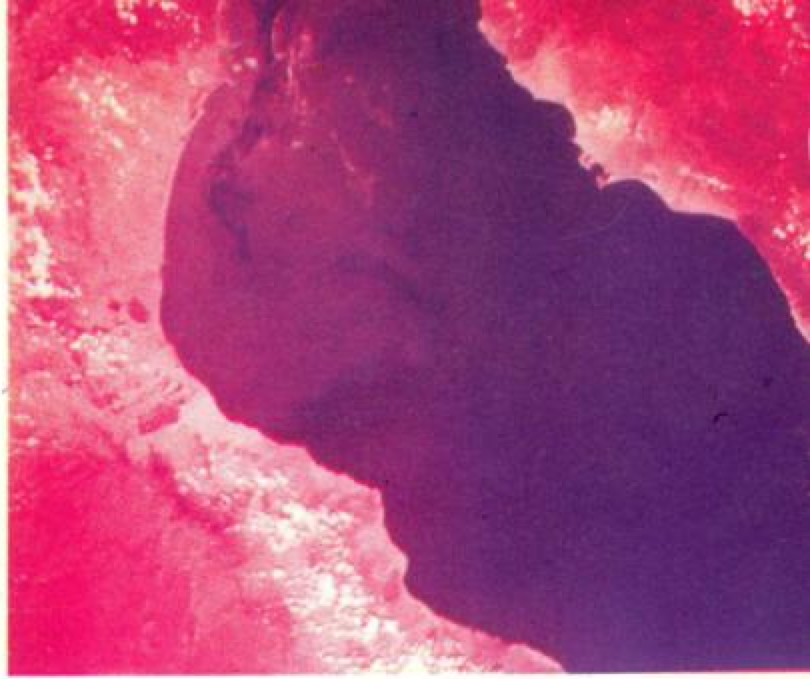
وعند وصولي الى عدن وجدت كافة المسئولين مشغولين باجتماعات المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب الحاكم . تلك الاجتماعات التي ادت الى تغيير في قمة السلطة وتولى علي ناصر محمد رئاسة الدولة ، واكد كل من التقيت به ، ان الوقت ليس مناسبا لزيارة جزيرة ميون ، ولم ار صلة بين ما يجري في عدن وبين السماح لنا بزيارة الجزيرة ، التي سبق ان حصلت على موافقة بزيارتها ، وقضيت فترة الانتظار في عدن التجول في الميناء وفي الجزر العديدة المتناثرة على مقربة من الشاطيء ، واستغرقتني الوثائق والمخطوطات التي جمعت داخل مركز الدراسات اليمنية . المركز قائم فوق ربوة عالية في المقر السابق للمجلس التشريعي في حي كريتر الشهير الذي تردد اسمه كثيرا خلال حرب الاستقلال كاحد القلاع الوطنية . فقد كان يسكنه فقراء عدن الذين يعملون في البناء والتشييد ، وما زالت صورة جنود الاحتلال البريطاني ماثلة ، وهم يفتشون الوطنيين داخلين وخارجين من كريتر تحت تهديد السلاح ، ومداخل كريتر عبارة عن ممرات ضيقة بين الجبال التي تحيط بالحي ..

ومن الوثائق الهامة في المركز ، المراسلات المنقولة عن مركز الوثائق البريطاني ، والتي بعث بها جون موري Murray اول من احتل الجزيرة بقواته التي بلغت ٣٠٠ جندي ، والتي بقيت فيها مدة ستة شهور ، وانسحبت منها مع توصية بضرورة احتلال عدن لدعم



يطل البحر الاحمر على عشر دول وطول ساحل مصر بالاميال ٨٧٥ والسودان ٣٩٠ واثيوبيا ٥٠٥ وجيبوتي ٣٠ واليمن الديمقراطية ٥ واليمن الشمالية ٢٥٠ والسعودية ١٠٢٠ والاردن ١٢,٥ ميل ... وهو جزء من هلال الأزمات . ومن موانئه السويس والقصير وسفاجه وبور سودان ومصوع وجيبوتي وبربره ومقديشيو والحديده وجده وينبع وجيزان والعقبه .





خليج عدن وباب المندب كما يظهران من صور القمر الصناعي .



الصيد اقدم الحرف في اليمن .

تمتلىء القرية الوحيدة في جزيرة ميون بالاطفال بعد خروج الرجال الى العمل .



أي قوات على الجزيرة ، ومخطوط هام آخر يحتوي على عدد من المسائل التاريخية جمعها « الشوكاني » ويلقي الضوء على ردة الفعل العربية على المحاولات البريطانية لاحتلال اطراف الجزيرة العربية وثغورها ..

ويستعرض موري في رسائله الموجهة الى قيادته في الهند . الصعوبات التي تواجه قواته فوق جزيرة صخرية ليس بها حياة او مياه ، وتكشف هذه الرسائل ان تموين الجزيرة كان يتم من ميناء « المخا » ، ويلح بضرورة التأثير على موقف « سلطان » ! مكة بالاموال عن طريق تيبو ، كما تشير هذه الرسائل الى الصراع البريطاني الفرنسي بين القائد البريطاني نيلسون وبين نابليون ، بعد وصول نابليون على رأس الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨ ، وتحدد الرسائل دوافع سعي بريطانيا للسيطرة على مدخل البحر الاحمر وارسال حملتها في ابريل عام ١٧٩٩ ، وان هذه الحملة قد انسحبت لعجزها عن السيطرة على المضيق بواسطة مدفعية ذلك الزمان ، بالاضافة الى مناخ الجزيرة القاسي ، وكما يقول توم ليتل كان هذا هو اول تورط لبريطانيا في جنوب الجزيرة العربية » ... وهذه الحملة هي التي مهدت لاحتلال عدن فيما بعد والعودة مرة اخرى الى الجزيرة .

وبدأت المصالح الغربية تتطلع بنهم الى البحر الاحمر ، وكان الاحتلال البريطاني لعدن جزءا من تحرك استولت بريطانيا خلاله على سيلان (سيرلانكا) وجنوب افريقيا لكي تسبق النفوذ الفرنسي ..

أمر لم يقع مثله !

اما مخطوط الشوكاني فيحتوي على رسالة بعث بها شريف مكة الشريف غالب بن مساعد الى المنصور بالله المهدي في محرم عام ١٢١٤هـ ـ ١٧٩٤م يحذره فيها من المخططات البريطانية يقول نص الرسالة : ورد الينا كتب من كبار الانجليز من الكفار بقصد بناء قلعة في باب المندب الذي عليه طريق كل داو ومركب ، وهذا امر يتفاقم خطبه ، ويعز بعد وقوعه معاناته وطلبه ويشمل كافة المسلمين كربه ، وتتولد منها مفاسد جمة تضر بالمسلمين من الامة ، وخصوصا اقطاركم اليمنية وبنادركم التي هي موارد الجهات التهامية ، ثم انه امر لم يقع فيما قبل مثله ، ولا سبق في قديم الزمان فعله ، ولا جرى في سباق الزمان ، فتداركو الامر قبل تحكمه ، وابذلوا الجهد في اطفاء هذا الشر قبل تضرمه ، وابذلوا همتكم الهاشمية ، ولا تمكنوا اعداء الله من هذه الحيل .. »

وتكشف هذه الرسالة ان حكام ذلك الزمان كانوا يدركون الخطر ولا يستطيعون دفعه ...

الجغرافيا خرساء .. ولكن .

ومن هذه الوثائق التاريخية الهامة ، نقلب صفحات تاريخ هذا الثغر العربي ، فاذا كانت الجغرافيا خرساء صامتة فالتاريخ لسانها . وما احوجنا الى قراءة التاريخ من جديد بعيدا عن الرؤية الغربية ، وبعيون مفتوحة . فطيلة الفترة التي تمتد من القرن العاشر وحتى القرن السادس عشر ، ومنطقة الثغور العربية والتخوم الجنوبية تتعرض لمحاولة الالتفاف حول القلب من البرتغاليين والهولنديين والانجليز في محاولة الفوز بموقع اليمن وعمان على كل من البحر الاحمر والخليج العربي ، وواجه هذه المحالاوت كل من المصريين ثم الاتراك ..

ويلاحظ ان ابحاث المؤرخين تركزت حول الدور الذي لعبه كل من صلاح الدين والظاهر بيبرس في رد الغزو الصليبي والمغولي عن القلب ، ولم يوجه نفس الاهتمام للصراع الذي كان يتم على محور آخر عند مدخل البحر الاحمر ، والتي تحكي عدن وجزيرة ميون وباب المندب طرفا منه ..

ففي نهاية القرن الثاني عشر وصلت الى مداخل البحر الاحمر قوات صلاح الدين ثم تلتها قوات المماليك من اجل تأمين تلك المداخل ، وفي القرن الخامس عشر عقب الصراع الديني في شبه جزيرة ايبيريا (الاندلس) اندفع البرتغاليون يطاردون المسلمون على سواحل افريقيا ، ويهاجمون ثغورهم ، وقد هدد البرتغاليون جده عام ١٥٠٥ وتسللوا الى مكة كما ذكر ابن اياس في « بدائع الزهور في وقائع الدهور » وعندما وصل القائد البرتغالي البوكيرك الى مدخل البحر الاحمر ، فشل في احتلال عدن والجزر التي في مدخل البحر الاحمر ، ونجح في الاستيلاء على « المخا » وجزيرة سقطري وانتشر البرتغاليون على الساحل الجنوبي من الجزيرة حتى الخليج زارعين قلاعهم وحصونهم ، وتمكن البوكيرك من السيطرة على البوابات البحرية الثلاث الهامة الموصلة الى المحيط الهندي ، مضائق هرمز وباب المندب وملقا عند طرف شبه جزيرة الملايو ، وفشل في احتلال عدن او الوصول الى جدة عندما قاومه السلطان الغوري باسطول بحري اعده في السويس ..

القدس والقاهرة

وكتب البوكيرك في يومياته يشرح اهداف الحملة

البرتغالية التي قادها رغبة في النيل من القدس والقاهرة . فكان يهدف الى الوصول الى الاراضي المقدسة واقتحام المسجد النبوي الشريف ، لاخذ رفاة النبي عليه السلام « رهينة » ليساوم بها العرب من اجل ان يستولى الصليبيون على القدس ..

اما الهدف الثاني فيتمثل في احتلال جنوب مصر وتغيير مجرى نهر النيل كي يصب في البحر الاحمر قبل وصوله القاهرة مما يضمن القضاء على المقاومة بخنق القلب الذي يقود الجهاد ضد الغزاة .

وما اشبه الليلة بالبارحة ، فبعد خمسة قرون ما زال ما يستهدفه الغرب هو القاهرة والقدس ، وكأن التاريخ يعيد نفسه ..

وبقي الدفاع عن التخوم يقوده المصريون حتى دخلت مصر ضمن الدولة العثمانية ، فانتقل الدفاع عن هذه الثغور اليها ، واستطاعت على نحو ما ان تؤمن البحر الاحمر امام الزحف البرتغالي ، واخذت بسياسة منع السفن الاوربية من الدخول الى البحر الاحمر ، لانه يطل على الاراضي المقدسة ، وحرم على السفن غير الاسلامية الدخول اليه ..

وورثت مصر النفوذ العثماني من جديد عندما سعى محمد علي الى نقل القيادة من القسطنطينية الى القاهرة ، ومن الاتراك الى العرب ، وقام بالعمل على وقف التغلغل البريطاني وبنى اسطولا قويا ، وبدأ الانجليز يقاومون البحرية المصرية ، وقاموا باحتلال عدن وتحصينها عام ١٨٣٩ ، بعد ان كان الامر في البحر الأحمر والخليج نوعا من السباق بين القوة المصرية البازغة وبين الاسطول البريطاني ، فازت فيه بريطانيا .

وقد قام حكم مصري في البحر الاحمر ، على شاطئه الاسيوي والافريقي ليصل هذا النفوذ الى مداخل البحر الاحمر وما يليه من شرق افريقيا ، وقد تجددت المحاولة في عهد اسماعيل ، عندما سعى الى سبق الاستعمار الاوروبي الى هذه المناطق وتأمينها ضده .

فوق بوابة الدموع

تأخرت الطائرة مدة ساعتين في مطار خورمكسر . فقد كانت تجري اتصالات مكثفة بشأن رحلتنا ، وكما قال الطيار : هذه اول مرة نصحب معنا صحفيين الى الجزيرة ، وانتهت الاتصالات بان وصل عدد مرافقينا الى ثلاثة ضباط بحريين من رتب مختلفة ، واقلعت الطائرة الهليوكوبتر السوفيتية الضخمة ، وهي تحمل تموين الجزيرة وعدد من الجنود والمستشارين ..



منارة ميون ابرز معالم الجزيرة والتي تقوم على أعلى ربوة عليها .



من الميناء يظهر حي المعلا ، شريط ضيق بين البحر والجبل .

لقطة فريدة - للاصل والظلال - بيت عربي الطراز عند سفح الجبل .



الفنار الجديد والناقلة وبيت مهدم فوق جزيرة ميون .



تنفست الصعداء، والطائرة تتجه الى هدفنا، واخذت الصور تتلاحق متتابعة من خلال كوة ـ نافذة مستديرة ـ وكأنها شريط سينمائي تسجيلي والطائرة تطير على ارتفاع منخفض، حلقنا فوق عدن الصغرى ـ البريقة ـ التي تقوم عليها مصفاة عدن، ثم تلاحقت الجزر الصخرية الداكنة والخور والخلجان وصيادو السمك في بيئة يمنية متميزة بطابعها الغلاب، تقطع صحراء قاحلة، كثبان من الرمال خلف كثبان، هناك صمت هائل يترامى على اتساع الصحراء، وبين الحين والحين يظهر كوخ من الجريد او بيت من الخشب، ويظهر في الافق راكب جمل يسير متفردا في صحراء مترامية، وراع ليس معه سوى اغنامه، والجميع يعيشون في بيئة قاسية، فقد تحول جزء كبير من اليابسة الى ارض بور ليس بها سوى بعض الاعشاب وبعض النخيل، رغم ان الفلاح اليمني نشيط ومثابر، ولا يترك اي بقعة من الارض دون زراعة مهما تكن صغيرة، وتشهد على ذلك الزراعة في كل من لحج وحضرموت التي تقوم على سفوح الجبال وتبدو وكأنها سلم يتجه الى السماء..

تنقلنا الطائرة من الصحراء الى حائط من الجبال الخشنة، والتي تنتهي بنا الى بحر له شخصية خاصة، تظهر امواجه ضعيفة متسكعة واحدة وراء الاخرى والريح ساكنة، البحر هنا كالرجل العجوز الذي فقد قوته وعنفوانه. وكم كتب على صفحات مياهه من مشاهد التاريخ !!

جزيرة ميون

وبعد ما يقرب من خمسين دقيقة من مغادرة مطار خور مكسر وصلت الطائرة فوق باب المندب ـ الذي يبلغ عرضه ٩٦ ميلا ـ نحلق فوق البوابة الجنوبية للبحر الاحمر، وعند الركن الجنوبي الغربي للجزيرة العربية، وعلى الجانب الاخر يقع القرن الافريقي الزاخر بالتوتر، وهذه البوابة هي التي تصل البحر الاحمر بخليج عدن والمحيط الهندي، واطلق عليها العرب باب المندب وبوابة الدموع عندما كانت السفن تتعرض فيه للارتطام بالصخور البارزة وتحطمها وتفقدها بحارتها، حتى تردد ان عائلات البحارة كانت تندبهم عند رحليهم فسمي باب المندب.

وهذا الممر الضيق تطل عليه اربع دول، فيقع على ساحله العربي اليمن بشطريه، وعلى ساحله الافريقي كل من اثيوبيا وجيبوتي.

وتتناثر الجزر حول باب المندب وعند مدخله توجد جزر ذات قيمة استراتيجية اهمها جزر القرسان وجزر دهلك التي تبعد ٦ اميال بحرية عن باب المندب، والتي سبق ان استأجرتها الولايات المتحدة الامريكية من اثيوبيا لمدة ٢٥ عاما..

اخذنا نقترب من جزيرة ميون التي يشبه موقعها جبل طارق وهرمز، وهي تشطر الممر المائي الى قسمين، ممر شرقي بين نتوء في اليابسة هو الشيخ سعيد تابع لليمن الشمالية وبين جزيرة ميون ويسمى مضيق اسكندر والذي لا يتجاوز عرضه ثلاثة كيلو مترات وعمقه اقل من مائة قدم اما الممر الغربي بين ميون وجيبوتي فيبلغ عرضه ٢٠ كيلو مترا وعمقه يقرب من ألف قدم..

وهذه الجزيرة تتحكم في كتلة استراتيجية واحدة ـ التي يطلق عليها هلال الأزمات ـ تشمل البحر الابيض والبحر الاحمر والخليج العربي، وتتوسط المسافة بين منابع النفط وقناة السويس، لا تنقطع امامها ناقلات النفط الضخمة، التي اذا التقطت لها صور من قمر صناعي ظهرت كمجموعة نقط متصلة بين حقول النفط وبين مواقع استهلاكه، واتذكر ما سبق ان قاله كوجلان المقيم البريطاني وهو يحرض حكومته البريطانية على الاستيلاء على هذه الجزيرة في المرة الثانية وبعد احتلال عدن يقول: « انها ستتيح للبريطانيين فرصة التحكم في موانيء البحر الاحمر جميعا بالاضافة الى موانيء الساحل الافريقي مثل زيلع وتاجوره وزنجبار وان وضع قوة بحرية صغيرة في تلك الجزيرة سوف يكون كافيا لمراقبة المضايق وتفتيش اي سفينة تمر بها..».

نحلق فوق الجزيرة التي لا تتجاوز مساحتها خمسة اميال وهي على شكل حدوة حصان تتجه الى الشاطيء الافريقي، وهي اقرب الى « اللوح » الذي يمسكه الرسام ويضع عليه فرشاته والوانه. قطعت الطائرة الجزيرة من جنوبها حتى طرفها الشمالي حيث هبطنا الى جوار فنار حديث يحدد بداية الجزيرة، والى جواره مبنى القوات المسلحة..

ابلغنا قائد الطائرة ان الطائرة ستبقى في الجزيرة ساعة واحدة، ولم يكن لدينا وقت نضيعه، تجولنا في الجزيرة الصخرية المنبسطة التي ليس بها اي طرق معبدة بواسطة سيارة لاند روفر. التقط زميلي المصور عدة لقطات للناقلات التي تمر في الممر الغربي، وانتقلنا الى الممر الشرقي الذي يطل على الشيخ سعيد، وفي الجنوب الشرقي من الجزيرة وسط الغبار يقطع السكون صوت الرافعات الضخمة ورتابة الجو القائظ، ترى الكراكات والرافعات والجرافات مشتبكة تقيم ميناء



لم تبخل الطبيعة على جزيرة ميون الصخرية بالوان البحر الزاهية ، وبالطيور البحرية الجميلة ويظهر في اعلى الصورة المستشفى الذى تركه الانجليز خاليا من الحياة .

حديثا او لعله قاعدة بحرية محل الميناء الطبيعي الذي كان قائما في خور الجزيرة وتقف جنوب الجزيرة قطع بحرية من القوات البحرية اليمنية ، ومن علامات الجزيرة المميزة فنارها الكبير القديم الذي يقف فوق اعلى مكان في الشمال الشرقي والذي يبلغ ارتفاعه ٦٨ مترا فوق سطح البحر والذي يرشد السفن المارة عبر المضيق والذي احضرته القوات البريطانية من الهند ..

وتوقفنا عند القرية الوحيدة في الجزيرة ، قرية صيد يطلق عليها « ميون » ايضا (وهو اسم الجزيرة) وفي القرية عدد قليل من الصيادين يجففون صيدهم على رمال الشاطىء ، ويتقاسمون انصبتهم من الماء العذب الذي توزعه عليهم محطة صغيرة لتحلية المياه ، وفي القرية عدد قليل من الرجال فاغلب الرجال في هذا الوقت يعملون في اقامة الميناء الجديد وبقي عدد كبير من الاطفال ، وليس بالجزيرة مدارس ولا مستشفيات ، سوى مبنى المستشفى القديم الذي تركه الانجليز خلفهم بعد نزع كل معداته وحتى نوافذه خلال رحيلهم حسرة وكمدا على ترك الجزيرة ..!

خلاف حول التعداد

لم يكن التقاط الصور سهلا على الجزيرة فما اكثر المناطق التي اعتبرها المرافقون « عسكرية » لا يجوز تصويرها ، اما تعداد السكان فقد اختلف حوله من التقيت بهم ، وتراوحت اقوالهم بين ٣٠٠ و ٤٠٠ نسمة ، واذا كان لدينا فسحة من الوقت لقمنا باحصائهم ، لتتمكن شركة النقل البحري التي تمون الجزيرة من القيام بعملها على اسس دقيقة ، واخذنا نسمع الحكايات من شيوخ القرية ومتعلميها ، حكايات تختلط فيها الحقيقة بالاسطورة ، واطرف ما سمعته كيف كان الاتراك يغلقون الممر المائي بواسطة سلسلة حديدية تمتد بين الشيخ سعيد والجزيرة ..

وكانت الجزيرة مقرا لاحدى شركات تموين السفن اقامتها القوات البريطانية خلال احتلالها للجزيرة ، كما كان بها محطة ارسال برقي اغلقت عام ١٩٣٦ ..

مفاتيح بوابة الدموع

ومفاتيح باب المندب موزعة على عدد من الجزر والنقاط الاستراتيجية ، وتعتبر جزيرة ميون اهمها جميعا ، يشاركها جزيرة قمران والشيخ سعيد وجيبوتي وسقطري ، وهذا دفع قوات الاحتلال البريطاني للسيطرة على الجزر المتناثرة في البحر الاحمر باعتبارها ركائز هامة :

● جزيرة قمران .. سميت قمران لان ظل القمر يظهر في بحرها كأنه قمران وليس قمرا واحدا ، وقد احتلتها بريطانيا بعد الاستيلاء على عدن بعامين اي في عام ١٨٤١ ، وتقع في مواجهة ميناء الصليف في شمال الساحل اليمني المطل على البحر الاحمر ، وكانت موضع نزاع بين اليمن وبريطانيا ، وكانت محجرا صحيا للحجاج ، وربطتها بريطانيا اداريا بمستعمرتها عدن في عام ١٩٤٩ ، وانتقلت الى اليمن الديمقراطية بعد الاستقلال ، الا ان قوات اليمن الشمالية احتلتها بالقوة مؤخرا ، وهي تقع على بعد مائتي ميل شمال باب المندب ، وعلى بعد لا يزيد على ثلاثة اميال من ساحل اليمن الشمالي ، وتعتبر اكبر جزيرة في مجموعة الجزر الصغيرة والمرتفعات الضحلة المتناثرة في الساحة المعروفة باسم قمران ..

● كما استولت بريطانيا على جزيرة كوريا موريا عام ١٨٥٦ وهي تقع امام ساحل ظفار وتتوسط المسافة بين عدن ومسقط ، واصبحت تتبع عدن التي كانت بها



معالم الميناء ـ البواخر الحديثة
والحوض الجاف ، ثم الجزر المتناثرة
وتظهر جزيرة العبيد التي كانت
محجرا صحيا وتحولت الى جزيرة
لصيد الاسماك ، وبني عليها
مصنع لتعليب السمك







احد الوجوه اليمنية المميزة



القيادة البريطانية للشرق الاوسط حتى عام ١٩٦٠ ، وانتقلت بعد الاستقلال الى اليمن الديمقراطية حتى احتلتها القوات العمانية ..

● اما جزيرة سقطري التي تقع على بعد ٢٢٠ ميلا من الجنوب الشرقي لباب المندب ، فقد احتلها البرتغاليون عام ١٥٠٧ ، ثم احتلتها القوات البريطانية عام ١٨٥٣ ، وهي الان تتبع اليمن الديمقراطية .

● ويبدو انه من الضروري زيارة المنطقة لتعرف ان جزيرة قمران انتقلت من اليمن الجنوبية الى اليمن الشمالية ، وان كوريا موريا انتقلت الى عمان ، وان الساحل المقابل لجزيرة ميون ـ الشيخ سعيد ـ تابع لليمن الشمالية ، وليست كما يظهر في العديد من الخرائط !

اسرائيل وباب المندب

وقد شهدت امواج البحر المتلاطمة هنا فصولا هامة من الصراع العربي الاسرائيلي فاسرائيل حاملة طائرات غربية احد جناحيها على البحر الابيض المتوسط والاخرى على الطرف الشمالي للبحر الاحمر على خليج العقبة . كان الفصل الاول عندما هاجم الفدائيون في يونيو عام ١٩٧١ ناقلة نفط متجهة لميناء ايلات وتحمل ٦٥ الف طن من النفط الايراني ، وقد استخدم الفدائيون في هجومهم زورقا تجاريا سريعا ..

وخلال حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ اغلقت القوات البحرية اليمنية والمصرية مضيق باب المندب في وجه الملاحة الاسرائيلية ، واستمر مغلقا خلال شهري اكتوبر ونوفمبر ، وقد تحرك الاسطول السابع الامريكي مقتربا من المضيق ، وكما ذكر وقتها فقد وضعت اسرائيل وحدات كوماندوز على جزر اثيوبية قريبة من باب المندب ..

ولم يقع اي صدام مع الاسطول الامريكي ولا مع القوات الاسرائيلية .

وقد روى لي المقدم الجلد قائد القوات البحرية في مكتبه المشرف على ميناء عدن .. قصة اغلاق باب المندب ، قال : لم يكن اغلاق باب المندب وليد الصدفة ، بقدر ما كان نتيجة تنسيق عربي طويل ، وكانت قواتنا البحرية والبرية في حالة تأهب واستعداد ، ومنذ اعلن اغلاق المضيق لم تقترب سفينة اسرائيلية واحدة ، بل لقد غيرت السفن والناقلات الاسرائيلية اتجاهها ... »

وللاهمية البالغة لمضيق باب المندب بذلت القوى الغربية عدة محاولات تهدف الى وضع المضيق وجزيرة بريم تحت صورة من صور السيادة الدولية ، ولم يكتب لهذه المحاولات النجاح .

جبال كاسنان سمك القرش

ونعود لنتوقف مرة اخرى في عدن ..

اقف على ربوة عالية وارى منظرا عاما لمدينة عدن ، يظهر شكلها المميز .. الجبال الحادة كأسنان سمك القرش ، وسهل ضيق بين الجبال والبحر ، والجزر متناثرة في الميناء ، والبواخر التي القت مراسيها في صبر ، والجوامع تشق طريقها برشاقة نحو السماء ..

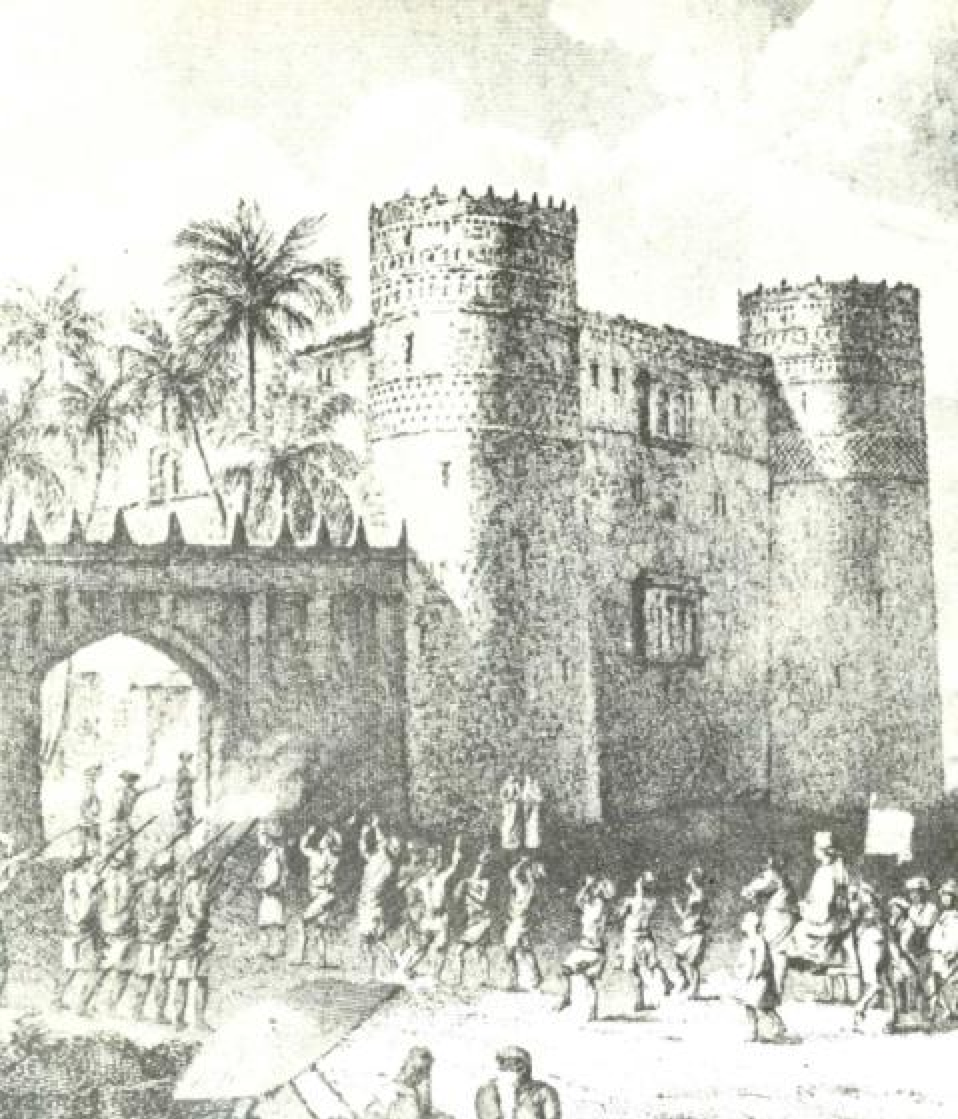
واشاهد المنظر العام للمدينة : رأسان بركانيان كالكماشة هلالا كبيرا ، ويتصلان بواسطة حزام ضيق من الاراضي ، ويصنعان معا خليجين يشكلان ميناءين صالحين لرسو السفن يقع احدهما في الشرق والاخر في الغرب ، اما في الداخل فتشكل واحة الشيخ عثمان مركزا سكانيا حافظ على الطابع اليمني القديم ..

لقد كانت عدن على الدوام احد مواقع الجذب الاستراتيجي ومطمعا دائما للدول الكبرى ، ومفتاح فهمها يكمن في تلك الاهمية الاستراتيجية ، فكانت بالنسبة لبريطانيا ، نقطة تجمع ، وبرج مراقبة ، ومدخلا لشرق افريقيا ، وقاعدة استراتيجية تحمي البحر الاحمر وطريق النفط ..

قال عنها الروائي الفرنسي بول نيزان .. « عدن نقطة تقاطع لعدة طرق بحرية محاطة بالمنارات والجزر الصغيرة المزروعة بالمدافع ، وهي احدى الحلقات في السلسلة الطويلة التي تحافظ على ارباح تجار لندن في كافة انحاء العالم وهي قطعة شقيقة لجبل طارق .. »

وقال عنها المستشرق البريطاني هارولد جيكوب .. « انها القلعة التي تلفحها الشمس ، والواقعة عند فوهة البركان ، والتي تتحكم في البحر الاحمر ، والتي اصبحت درة التاج البريطاني » .

واحتلالها وقصة حصولها على الاستقلال تكشف اهميتها الاستراتيجية وتلقي الضوء على مسارها الراهن ، فهي ما زالت تدفع ثمنا فادحا للسياسة الاستعمارية البريطانية ، ويكفي ان تعرف انه عندما تركتها بريطانيا لم يوجد خارج عدن سوى ١٤ ميلا من الطرق المعبدة ، كما احيطت بمنطقة عشائرية رأت بريطانيا تكريس اوضاعها لتصبح عدن جزيرة آمنة وسط اوضاع متخلفة ، وكانت التوجيهات التي تلقاها « هينز » الضابط البحري البريطاني الذي احتلها واصبح اول مقيم سياسي بريطاني فيها تقول .. « ينبغي اعتبار



لوحة لقلعة في عدن رسمت اوائل ايام الاحتلال .

اهمية عدن الحربية اعظم من تقدمها التجاري ، ويجب ان يكون هذا هو الهدف الاول والمنظور والمشاهد .. »

وعندما زارها هينز في اول رحلة استطلاعية قدر عدد سكانها بحوالي ستمائة نسمة من بينهم مائتان وخمسون يهوديا يمنيا ، وخمسون من التجار الهنود ، وقال .. « ان عدن يمكن ان تصبح من المدن العظيمة في الجزيرة العربية ، وان مرفأها افضل واصلح ميناء يتحكم في الطريق البري المصاحب للبحر الاحمر لموقعه المشرف على مدخله الجنوبي .. »

اما السير روبرت جرانت حاكم بومباي فقد كتب في فبراير ١٨٣٨ بصراحة يقول .. « ان اهمية عدن لا تقدر بثمن . فيمكن استخدامها كمخزن ومحطة تموين ، وهي





يتميز البحر الاحمر بثروته
السمكية الكبيرة ، مما ينعش
حرفة الصيد على سواحله .



كهل فوق جزيرة ميون .

مركز التقاء ومرفأ ممتاز للسفن التي تعبر طريق البحر الاحمر والخليج والساحل المصري الغني بمنتجاته ، وعندما تصبح ملكا لنا فانها كجبل طارق تتميز بحصانتها ومنعتها من البر والبحر على السواء ، انني انظر الى الموضوع بشمول وعمق ، فهناك امتان كبيرتان تتآمران علينا وتودان القضاء على قوتنا في الشرق ، اولها روسيا وهي تتجه نحونا من خلال ايران ، والثانية فرنسا وهي آتية من خلال مصر ! وحتى نتصدى لهذه التهديدات يتحتم علينا ان نقيم مراكز دفاعية متقدمة .. » وهكذا على مر العصور كان « الامن » ذريعة التوسع والعدوان !

ويمكن ملاحظة الصلة بين مصر واليمن ، فقد جاءت بريطانيا الى عدن مرتين ، احداهما عندما استولى نابليون على مصر ، فاحتلت جزيرة بريم وسعت للسيطرة على عدن ، والثانية عندما وصل محمد علي الى اليمن ، ويقول جرين في كتابه الموجز عن تاريخ الانجليز ، ان بريطانيا استولت على عدن خوفا من قيام محمد علي بالسيطرة عليها ، وخوفا من بسط حمايته على سوريا والجزيرة العربية ، فيسيطر على الطريقين بين الشرق والغرب ، طريق البحر الاحمر وطريق وادي الفرات ويضيف .. « ولم يكن غريبا ان واجهت القوات البريطانية في عدن المجندين من الطوبجية المصريين »

يهود عدن

ومنذ ان وطأت القوات البريطانية ارض عدن وهي تواجه هجمات الوطنيين ، وخلال السنوات الاولى واجهت ثلاث محاولات رئيسية من لحج ، فشلت امام الاسلحة البريطانية التي ضربت الثوار من البواخر الراسية في الميناء ، ولا يفوتني أن اذكر في هذه المعركة الدامية ، الدور البارز الذي لعبه اليهود في عدن لمساعدة الاحتلال البريطاني ، وتكشف المصادر البريطانية جزءا يسيرا من هذا الدور ، وتذكر كيف استعان هينز باليهود واستخدمهم ، وكانت تبليغاتهم احد الاسباب الرئيسية التي ادت الى القضاء على الثوار واحكام سيطرتهم على عدن ، تلك التقارير التي كانت تكتب ـ كما يذكر جيكوب ـ باللغة العبرية حتى لا يتمكن السكان العرب من فهمها ، وكان البيت التجاري المهيمن في عدن لاحد اليهود وهو مناحيم ميسا ، وكان مسئول الجمارك من اليهود ، واوضح هينز في تقاريره .. « ان اليهود افضل العناصر التي استعان بها ، اذ كانوا يعرفون المواقع المتعددة التي يقيمون فيها ، وكانوا جزءا من نسيج



الضابط البريطاني هينز الذي دخل عدن غازيا في يناير ١٩٣٩

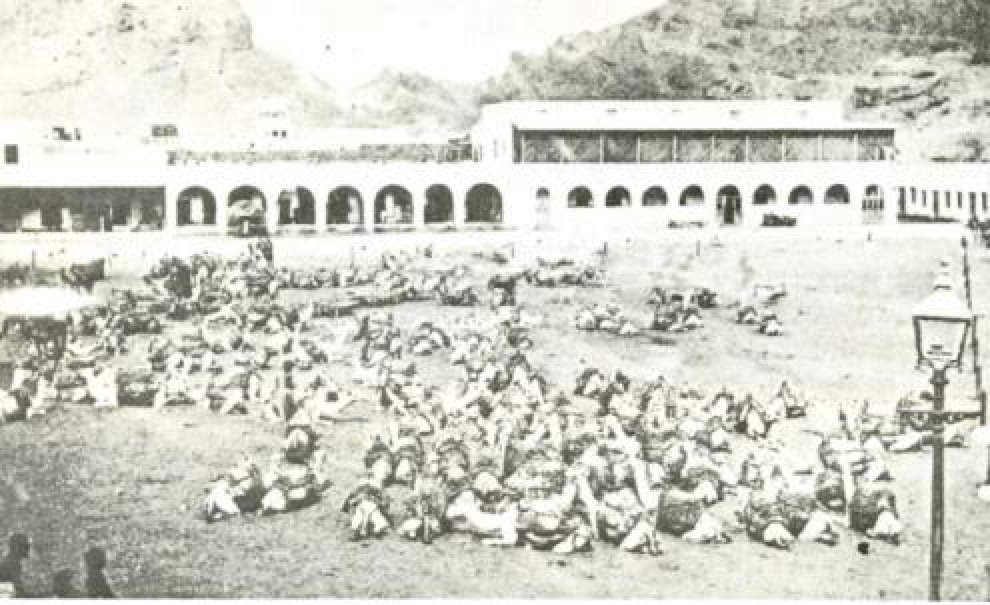
المجتمع يعملون صيارفة ومحاسبين لدى شيوخ القبائل ..».

مفتاح عدن

اليس من الطبيعي اذن ما نراه ونلاحظه من ان عدن تحكمها اليوم عقدة الخوف على موقعها ، وخاصة وهي تئن تحت ثقل قلة الموارد والمصاعب الاقتصادية ، وهي جزء من منطقة غنية تتدفق بالنفط والثراء ، كما انه يؤرقها الحصار ، وتعيش ما يمكن تسميته بالعقدة التاريخية بما كان لها من تاريخ مجيد في الماضي ..

وتنتقل من مكان الى آخر باحثين منقبين ..

التجول في شوارع عدن وازقتها ، وارى كم تغيرت عدن منذ الاستقلال ، تغير الكثير وبقي الاهالي بوجوههم المميزة المكدودة ، وازرهم زاهية الالوان ، ولم يعد مضغ القات عادة يومية ، بل تحظر الحكومة بيعه وتعاطيه خلال ايام الاسبوع عدا يومي الخميس والجمعة ، ولم تعد السيارات تمشي على اليسار كالجزيرة البريطانية ، واختفى من شوارعها ودواوينها هذا العدد الكبير من الهنود الذين كانوا يعملون في الادارة والتجارة ، ولم تعد كما كانت ارخص مكان في العالم ، فقد اختفى الازدهار الناتج عن تجارة الترانزيت ، واصبحت ترى العديد من المحلات التي كانت تمتلئ



صورة قديمة لسوق الجمال في كريتر .

بالبضاعة الاجنبية مغلقة ، بعد ان اصبحت الحكومة تقدم الخدمات للذين حرموا منها في الداخل ، ولم يعد الاجانب يسكنون حي التواهي والمعلا بل زحف اليها ابناء البلاد ، وما زالت الاكواخ على جانبي تلال كريتر عند سفوح جبال شمسان قائمة ..

والذي لفت انتباهي اختفاء العصافير وكثرة الغربان السوداء باصواتها المزعجة ، وما زال يحذر السكان من الاجنبي ، في بلد لم ير من الاجنبي سوى الرغبة في السيطرة حتى اصبح الحذر غريزيا ، بل ومقتنا !

وما زالت احياء مثل كريتر والشيخ عثمان ، تروى ايام مجد سابقة ، من خلال فن العمارة والابداع في فن التطريز للمشغولات الفضية والنحاسية ، والتي يفوح منها رائحة مجد تاريخي قديم ، بل اذا زرت الشحر او سيئون فيمكن ان تشاهد ذلك بصورة اوضح ..

خزان العرب البشري

ومن حق عدن ان تطمح ، بل ومن حقها ان تبحث عن دور يفوق حدودها ، وان تتمرد على اوضاع الفقر والتخلف ، وخاصة مع حركة الاحياء الواسعة للتاريخ والتراث الذي تشهده ، الم تكن اليمن مهد العرب وخزانهم البشري ، فمن تلك الزاوية المكتظة بالسكان ، انطلقت موجات الهجرة حتى وصلت الى سواحل البحر المتوسط ، وكانت الارض اليمنية بجبالها الشامخة والشحيحة لا تستطيع ان تنتج ما يكفي ابناءها ، فكانت مثل المضخة التي تدفع بموجات البشر بعضها وراء بعض ، ويرجع بعض علماء « الانثروبولجي » اصل سكان مصر القديمة الى هذه المنطقة التي عبروا منها البحر الاحمر الى مصر ، ويرجع الى هذا الركن من العالم سكان نجد التي يطلق البعض عليها « مصنع العرب » ، ومع انتشار الاسلام انتشر اليمنيون في العديد من ارجاء العالم القديم ، حول البحر الابيض ، والى بلاد ما بين النهرين ، وحملوا معهم الحضارة العربية الى الشرق الاقصى ..

وحتى اليوم نجد ابناء اليمن في كل دول شرق افريقيا ودول الخليج ، بل لقد وصلوا الى مارسيليا الفرنسية وكاردف البريطانية ، كما لعبت هجرة الحضارمة اليمنيين دورا تاريخيا عندما حملوا بضائعهم وافكارهم الى شرق افريقيا والمحيط الهندي ، وما زالت توجد جاليات يمنية تزيد عن ٣٠ الف نسمة تعمل بالتجارة في اندونيسيا ، وجالية اخرى كبيرة في سنغافورة .

ولكن هذا المجد التاريخي لا يعالج مصاعبهم الراهنة .

فما زالت همومهم حول امن البحر الاحمر قائمة ، وما زالت معضلاتهم الاقتصادية تبحث عن حل .. وما زالت الفجوة قائمة بين دول عبور النفط ودول انتاجه ،



قدمت حكومة عدن البواخر الحديثة وادوات الصيد لجمعيات تعاونية للصيادين . وهذا الخور امام قرية ميون ، وتظهر القلايك ، وعدد من السكان .

اسراب الطيور الجميلة تكسر حدة الطبيعة القاسية ، والجو القائظ .







والفجوة قائمة بين الثروات والدخول وبين الاعباء والتضحيات .

فتتحدد مصادر الدخل في اليمن الديمقراطية في القليل من المنتجات الزراعية وصيد الاسماك والرعي ، ورسوم الميناء ودخل مصفاة عدن ، ويبقى العجز السنوي للميزانية كبيرا .. وهناك خطط طموحة لتجاوز فجوة التخلف ، ويتزايد الانفاق على التعليم والخدمات الصحية وبالتالي يزيد العجز المالي ..

ميناء عدن

ورسوم الميناء كانت اهم مصدر دخل لعدن ، ويهيمن مرفأ عدن على البلدة ، تزدهر بازدهاره وتتدهور معه ، الميناء ببواخره وجزره وخلجانه يشبه مدينة فينسيا الايطالية ، لا تنقطع منه الحركة ، بواخر حديثة تقف الى جوار البواخر التقليدية اليمنية القديمة .

كان اول من التقيت به داخل الميناء مدير الميناء ، مصطفى عبد الكريم مانا الذي قضى عمره يعمل فيه ويرى ايام ازدهاره ، حدثني عن المشاريع الجديدة لتطوير الميناء ليواكب حركة الملاحة العالمية : وقد تم تعميق الميناء من ٣٦ قدما الى ٣٩ قدما ، وتقام ارصفة جديدة لاستقبال الحاويات » واضاف .. « ان حركة الميناء لم تصل بعد الى ما كانت عليه قبل اغلاق قناة السويس ..»

وهذا الميناء افضل ميناء طبيعي في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وجنوب شرق البحر الاحمر ، يزدهر الميناء مع ازدهار التجارة في البحر الاحمر ، فمثلا بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ودخول مصر ضمن الدولة العثمانية ، اخذ ميناء عدن يتراجع ، حتى تم افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، فاسترد ميناء عدن ازدهاره ، وخلال حرب السويس عام ١٩٥٦ هبطت السفن من ٤٥٤ باخرة شهريا الى ٩٣ باخرة ، وبعد العدوان الاسرائيلي واغلاق القناة عام ١٩٦٧ كان كل من ميناء عدن وميناء جيبوتي يحتلان المركز الرابع والسادس بين موانيء العالم من حيث عدد السفن التي تدخلها ، ولميناء عدن منافس خطير هو ميناء جيبوتي ، ومنافس اخر محلي هو ميناء المكلا .

وعدن محطة على طريق الشرق القديم اما المحطات الاخرى فهي : جبل طارق ومالطا ، وقبرص ، وقناة السويس ، وفسر مدير ميناء عدن تقلص تجارة الترانزيت بالتغيرات التي وقعت في حركة السياحة العالمية ، فلم تعد السياحة بالبواخر اقتصادية بعد التطور الهائل في حركة الطيران ، وما زال الميناء يحتاج الى مشاريع ضخمة تلاحق التقدم الكبير في صناعة الناقلات واساليب الشحن والتفريغ ، كما يحتاج الى شبكة طرق تربط الميناء بكل مراكز التسويق والانتاج .

لمن الأمن ؟!

نصل الان الى الموضوع الرئيسي الذي نحوم حوله تمهيدا للخوض فيه ، اعني به امن مدخل البحر الاحمر ، بعد ان كانت وقفاتنا في الثغور والتخوم والمفاتيح الاستراتيجية ، والذي تشرف عليه في جانبه العربي دولة مجزأة هي اليمن ، ونتساءل .. كيف يتحقق الامن ؟ ولمن يتحقق ..؟

فكثيرا ما يتناول الكتاب « الامن » بمعنى تأمين وصول احتياجات الغرب اليه بالشروط التي تناسبه ويصبح الامن هنا ، امن احدى الكتلتين الدوليتين المتصارعتين تجاه الكتلة الاخرى ، ولذلك نلاحظ ان قضية امن البحر الاحمر قد اثيرت وعقدت من اجلها المؤتمرات بعد سقوط امبراطور اثيوبيا ، وكانت مثل امن الخليج ، فكما وقع عند مضيق هرمز وقع عند مضيق باب المندب ، ففي السابق أوكل الغرب للشاه في ايران حماية مضيق هرمز ، وأوكل مهمة امن باب المندب لامبراطور اثيوبيا ، وعندما سقط الشاه والامبراطور تعالت الصيحات حول امن الخليج وامن البحر الاحمر ..

اما الامن العربي فمعناه امن الاقطار العربية ضد الاخطار التي تتهددها بعيدا عن التكتلات الدولية ، وبهذا لا يمكن ان يتحقق الامن عن طريق استبدال قوة دولة باخرى ، وهي الظاهرة التي يصدق عليها قول المفكر الجزائري مالك بن نبي ظاهرة القابلية للاستعمار ؛ وما يؤدي اليه ذلك بأن تصبح الاقطار العربية ساحة للصراع الدولي ، ويصبح أمنها وتطورها رهينة لدى احدى القوتين الكبيرتين ..

اما الامن العربي في البحر الاحمر فيتحقق بمواجهة التهديدات الاسرائيلية ، ومن هذا المنظور تصبح التنمية والتحديث مفاتيح رئيسية للامن العربي ، كما يصبح حل الصراعات المحلية والتوفيق بين الاهداف المتباينة مدخلا طبيعيا لتحقيق الامن العربي ..

وحدة اليمن

وترتبط قضيتا الامن والتنمية في اليمن بتحقيق

الوحده بين شطري اليمن . وخاصة بعد ظهور جيل على الجانبين ينظر الى المستقبل بثبات ويتجاوز النظم السياسية والاقتصادية ، ويستشرف مستقبل يمن مزدهرا بوحدته التاريخية ، وتشكل الوحدة اليمنية تيارا جارفا ، بل بعدا سياسيا مؤثرا على كافة الاحداث التي تشهدها كل من عدن وصنعاء ..

ولا يمكن تحقيق الامن او التنمية في نصف بلد ، ويواجه تيار الوحدة تخوفا عميقا من تزايد اتساع الجفوة مع الوقت بين شطري اليمن ، بين نظامين احدهما قبلي والاخر شمولي ، احدهما له علاقة بالاتحاد السوفيتي والاخر بالولايات المتحدة ، والتخوف العميق من الاستقطاب الدولي مما يحول قضية الوحدة ، الى ما يشبه الوحدة الالمانية التي جعلها الاستقطاب الدولي مستحيلة ..

وضمن هذا السياق يصبح مشروع مثل مد خط انابيب من حقول النفط على الخليج الى مصفاة عدن بعد تطويرها خطوة هامة على طريق الامن العربي ، وهو الذي يؤدي الى رفع مستوى دخل الفرد ، ويساهم في سد الفجوة بين الذين يملكون والذين لا يملكون ..

ومن هنا تأتي اهمية المساعدات التي تقدمها الكويت لكلا شطري اليمن ، وهي المساعدات التي تساهم ايضا في تحقيق الامن وسد الفجوة بين دول انتاج النفط ودول عبوره .

وتقيم اليمن الديمقرطية شبكة علاقات لتحقيق امنها وفك الحصار من حولها ، ويؤكدون ان العلاقات القائمة بين اديس ابابا وعدن قد نجحت في القضاء على الوجود الاسرائيلي في كل من جزيرة « حنش الكبرى » و « حنش الصغرى » وجزيرة ابو عيل ...

كما عقدت اتفاقية صداقة سوفيتية يمنية تحصل عدن بمقتضاها على عتاد واسلحة لعلها تمكنها من الدفاع عن هذا الموقع الاستراتيجي .

وبعد

حلقنا بالطائرة فوق مدخل البحر الاحمر وجزره ، وتتبعنا مضيق باب المندب ، وتجولنا في كل من ميون وعدن ، واعدنا قراءة تاريخ هذه المواقع الاستراتيجية ، كخطوة اول تقفز بعدها ٢٠٠٠ كيلو متر في وثبة واحدة وتصل الى مخارج البحر الاحمر عند قناة السويس ، ونواصل تقديم البحر الاحمر موانئه وشواطئه وجزره في استطلاع قادم . ■■

مصطفى نبيل .

العلم ... والسياسة !

سألوا البرت أينشتاين : « كيف استطاعت البشرية ان تطلق الطاقة الذرية من عقالها ، ثم تفشل بعد ذلك في منع استخدامها في تدمير البشرية ؟ »

فقال العالم الكبير : « الامر في منتهى البساطة » لان السياسة يا اصدقائي اكثر تعقيدا بكثير من العلوم بكل ما فيها من معادلات وتفاعلات !! .

الردع

● توصلت احدى السيدات الفرنسيات الى طريقة عبقرية للانتصار في معركة البدانة ... فكلما تسللت الى المطبخ لتناول بعض الطعام ، وفتحت باب الثلاجة ، كان اول شيء يقع بصرها عليه .. صورة لنفسها عندما كانت سمينة ملصقة في الباب !

العربي

جمادى الأولى ١٤٠٣ ـ مارس (آذار) ١٩٨٣

□ القلب الصناعي ينبض بالحياة

□ الرواجف هزت كرسي الزيدية







الصورتان من رصابة ، أم القرى اليمنية ، التي كانت في المقدمة مع المناطق التي اصابها الزلزال في البداية .. لاحظ ان مفاتيح ابواب البيت المنهار وخزائنه ، ما زالت معلقة في رقبة المرأة التي يغطي وجهها بحجم وعمق ماجرى .

هذا ما حدث في ذمار

الرواجف هزت كرسي الزيدية

استطلاع : فهمي هويدي

تصوير : اوسكار متري

بعدما أدار الزمن ظهره لها ، وفقدت ذمار مكانتها باعتبارها « كرسي الزيدية » والحصن المتقدم لفقه المذهب الذي كان يحكم اليمن ، قدر للمنطقة ان تدخل عالم الشهرة مجددا ، وان يقفز اسمها الى الصفحات الاولى من الصحف ، والى صدارة كافة نشرات الاخبار في عواصم العالم . لكن ذمار دخلت التاريخ هذه المرة من الباب الخطأ ، اذ لم ينفتح لها في زماننا سوى باب الزلازل الارضية أو الرواجف كما تقول كتب التراث !

كانت البداية في الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ، الثالث عشر من ديسمبر الماضي (٨٢) ، بينما كان الشيخ محمد المؤذن يقيم صلاة الظهر في مسجد مدينة ضوران المتربعة فوق قمة جبل يحمل اسمها بلواء ذمار . وما ان قال الرجل « حي على الفلاح » حتى انهار فوقه السقف ولم ينطق . ثم تداعت جدران المسجد فوق جموع المصلين ، الذين بلغ عددهم ١٨٠ شخصا . وتحققت بالصدفة مقولة أهل ضوران ، الذين تعلقوا بشيخهم طوال ستين عاما ، وشاع بينهم اعتقاد بان مدينتهم التي تبدو من بعيد كنجمة معلقة في الأفق ، سوف تنتهي بموت امامهم وشيخهم . وخلال ثوان معدودة،تحولت ضوران ، التي كانت منذ ثلاثة قرون عاصمة للدولة القاسمية الى مقبرة عظيمة ، ومدينة للخرائب والاشباح .

ومنذ ذلك الحين ، توالت الهزات الارضية في لواء ذمار بدرجات متفاوتة . ولم يجد الناس ما يفعلونه سوى ان يلجأوا الى الله ـ تزاحموا في مساجد مدينة ذمار ـ العاصمة ـ وظلوا ثلاث ليال يبتهلون ، من بعد صلاة العشاء وحتى الفجر . لم يجدوا في التراث أدعية ولا مأثورات مما يمكن ان يقال عندما تحل كارثة الزلازل . فلم يقع شيء من هذا القبيل على عهد رسول الله على عكس حالات انقطاع المطر وخسوف الشمس ، التي وردت بشأنها بعض الأدعية المناسبة . تصرف احد فقهاء المدينة بسرعة او اقترح ان يردد اهلها اى صيغة تسأل الله ان يلطف بعباده . وظلت حناجرهم تجأر بالتوسل طوال الليالي الثلاث ، مستغيثة وفزعة الى الله ومرددة في صوت واحد :

يالطيفا	لم	تزل
الطف	بنا	فيما نزل
انك	لطيف	لم تزل
الطف	بنا	والمسلمين

حتى كانت الساعة الثالثة بعد منتصف ليلة اليوم الثلاثين من ديسمبر ، عندما كان محافظ ذمار ، احمد عبد الله الحجري ، يغط في نومه . واذا به يتململ على صوت ازيز يطن تحت رأسه ، اعقبه صوت اشبه بارتطام الصخور لم يع بالضبط مابعده ، لانه في لحظة زمن كان قد طرح ارضا . نهض فزعا واضاء النور . وقعت عيناه على شرخ في مدخل بيته الكبير . لم يكن بيته وحده الذي تشقق ،اذ تبين ان ٦٥ ٪ من بيوت مدينة ذمار تشققت ايضا ، واصبح سكناها محفوفا بالخطر ، بالاخص عندما يحل موعد سقوط الامطار مع بداية شهر مارس الحالي .

فيما بين التاريخين ، ١٣ و ٣٠ ديسمبر ، كان قد بلغ عدد الهزات الارضية في اليمن ١٧٧ هزة ، فيما بلغ عدد القتلى ١٦٠٠ شخص ، ومثلهم من الجرحى الذين نقلوا الى المستشفيات . ووصل عدد الذين شردوا ٣٠٠ الف شخص بينما اضيرت ٥٠٥ قرى ، منها ٩٦ قرية تهدمت وهجرت تماما !

ذلك أنه عندما اهتز جوف الارض تهدمت بيوت وهلك خلق كثير وانكسرت افئدة ودفنت اموال بغير حصر . وفيما سكن ذلك كله ، تزلزلت افكار ومعتقدات كثيرة في الوعي والضمير اليمني ، وانفتحت على مصارعها ملفات الماضي والحاضر والمستقبل ، وتفجر عديد من القضايا ، جيولوجية وجغرافية وتاريخية ، واقتصادية واجتماعية .

زلزال صعدة

فوجىء الناس ـ مثلا ـ بان الزلازل لها تاريخ في اليمن ، ولم يصدق كثيرون اعينهم حينما نشر الدكتور عبد العزيز المقالح الاديب المعروف ومدير جامعة صنعاء ، مقالا عن



زلزال وقع في منطقة صعدة بالشمال في يناير عام ١٩٤١ ، وهو زمن قريب نسبيا ، وكثيرون من شهوده لايزالون احياء . وضمن مقاله نصا لما نشرته مجلة « الحكمة اليمانية » في ذلك الوقت تحت عنوان « زلازل عظيمة » وكان الخبر المنشور في المجلة اشبه بالبيان الرسمي ، اذ المعروف ان ما كان ينشر بالصحف في تلك المرحلة كان يخضع لمراجعة مباشرة من الامام ، أو من يمثله .

يقول الخبر - البيان - بعد مقدمة ابرز بعدها الآية القرآنية : « ومانرسل بالآيات الا تخويفا » : « وانه لما كان يوم السبت ثالث عشر شهر ذي الحجة الحرام ، لعله في الساعة الخامسة منه وهو آخر ايام التشريق ، وقع ارتجاف عظيم وزلزال هائل مهيل بصعدة ونواحيها حتى بلغت الى مسيرة ثلاثة ايام شمالا ونحو مرحلتين غربا ويوم من اليمن ، دهشت له العقول وذهلت منه الافكار وتصدعت منه الافئدة فطارت شعاعا وصار الناس حيارى ، وتراهم سكارى وماهم بسكارى . وقد كانوا مشغولين باضاحيهم فمن مضجع ومن مشرق ومن مقدد ومن طابخ ومن ذاهب وآيب . فما كان الا كلمح البصر او هو اقرب حتى تطايرت الجبال واضطربت وفارت كفوران القدر ، وغلت غليان المراجل ، وانفلق عنها اكثرها وانشقت الأرض واهتزت اهتزازا شديدا ، اهتزاز ترح ، لا اهتزاز فرح ، ودوران غضب ، لادوران طرب . ومادت في ارتفاع وانخفاض واستقامة واعتراض .

● الرواجف هزت كرسي الزيدية

ولقد حكى ان احد الأحداث كان راعيا او مارا تحت وادعوكان ممن كتب الله له السلامة فلم يتسلل من الوادى حتى ابيض عارضه شيبا ، وغاض نهر النضير الشهير وفاض نهر الخضاير بملاف وكثر ماء الآبار بصعدة ونواحيها ، وخرج من مرابع الوحوش بوادي غمر مالايعد من الوحوش : الأسود والنمور والفهود والضباع والذئاب والثعالب وتفرقت في المفاوز .

ويبدو ان الهزات الارضية استمرت لبعض الوقت ، لان مجلة الحكمة اليمانية نشرت بعد ذلك باربعة اسابيع رسالة لمراسلها في منطقة الشام تقول ان ذلك « الزلزال الاول المفجع والنازل المفظع .. تلاه آلاف من الزلازل ليلا ونهارا ، صباحا ومساء » . أهمها زلزال وقع في ٨ محرم في منتصف النهار ، في مناطق أخرى غير صعدة « تدهورت منه شناخيب الاطواد بعد ان رقصت ، وشوامخ الدوابي عقيب ان تمايلت » . . ثم اضاف المراسل « ويحق لي ان اقول ماوصفه مكاتيكم بصعدة ، فهو قطرة من مطرة ، او مجة من لجة ، ذلك ان الجبال قصرت بعد ان كانت طويلة ، وانحط جبل على جبل فوق وادي آل عباد في جماعة ، وهلك جميع سكان ذلك الوادي ، وغطى جميع قراه (ومناطق اخرى مجاورة) حتى شوهد ان اناسا هناك اصيبت عقولهم ، واختل شعورهم ، وصاروا يهذون لا قوة الا بالله » .

اصيب كثيرون بالدهشة ، عندما قرأوا هذه الصورة التي كانت قد سقطت من ذاكرة الجميع ، ربما في دوامة الاحزان اليمنية الكثيرة . وعلت دهشة الجميع عندما علموا بان ضحايا زلزال صعدة بلغوا ١٠ الاف نسمة ، وان لم ينشر احصاء رسمي بذلك ، ولكن ذلك رقم يردده معاصرو تلك الفترة . وهم الذين نقل عنهم ان اهل صعدة الذين شردتهم الزلازل ظلوا عاما كاملا يسكنون الخيام في العراء ، وان الامام يحيى تكتم الخبر واستثمره لصالحه . فقد اشاع ان ماحل بصعدة كان نتيجة لغضبة على قبائل تلك المنطقة ، وصدق كثيرون المقولة فاندفعت القبائل المحيطة بصنعاء تجدد له البيعة والولاء ، حتى لايصيبها شيء من غضبه !

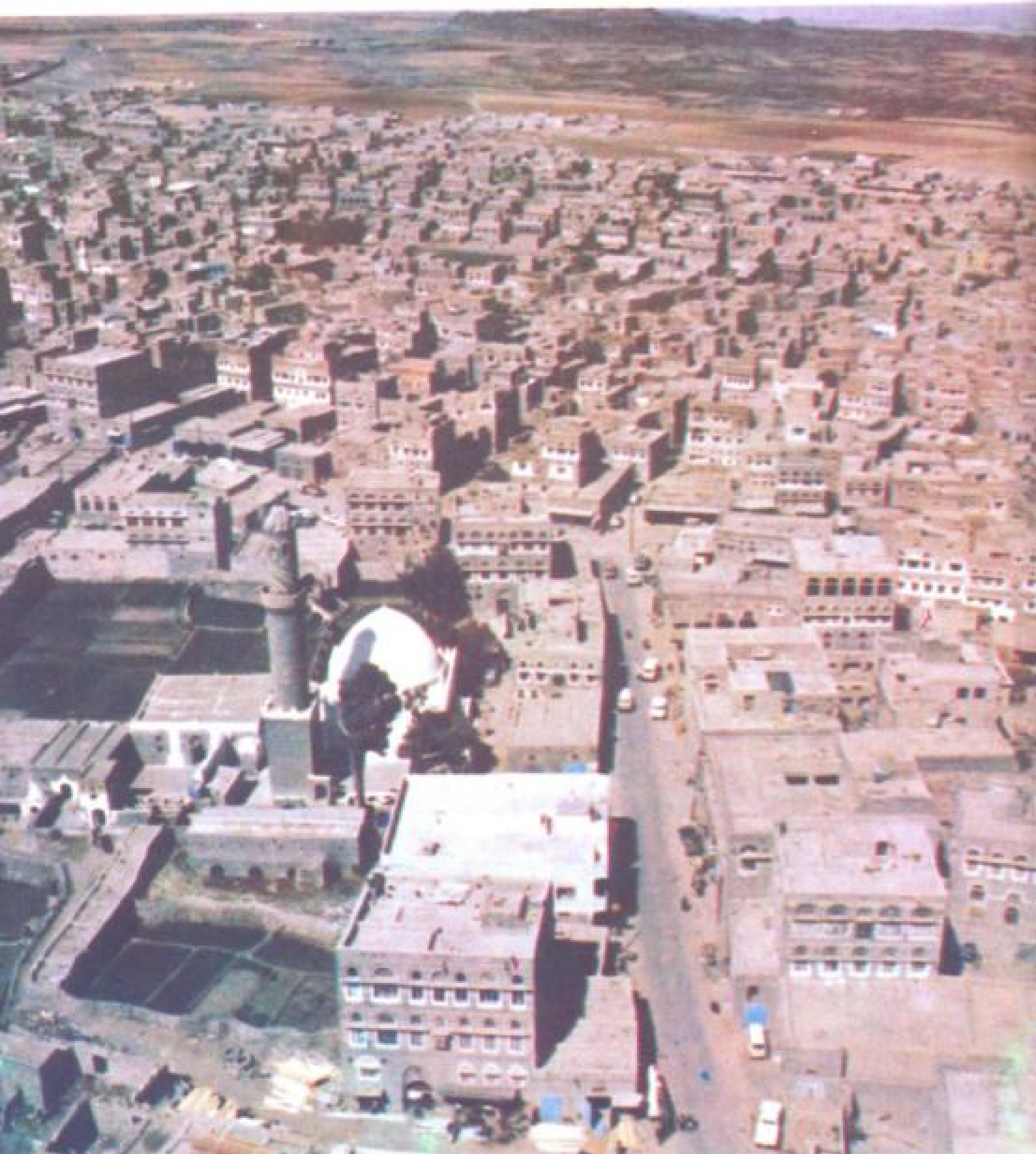
ومما يردده معاصرو تلك الفترة ايضا انه بسبب التعتيم الرهيب الذى كان مفروضا على اليمن ، فان « محمية » عدن المجاورة لم تعرف بخبر الزلازل الا بعد شهرين من وقوعها ، وقد سمعت ذلك من بعضهم في سياق الحديث عن انتشار اخبار زلزال ذمار في انحاء العالم بعد ساعات من حدوثه .





في العراء وقفوا يبحثون عن مصير . كانت الخيام
شحيحة في البداية ، وعندما وصلت اكتشفوا ان بعضها
يستر ولا يحمي من برد الليل القارس .





صورة لذمار من الجو حيث بدت بيوتها قائمة ولاأثر فيها للخسائر ، لكن الحقيقة كانت عكس ذلك تماما ، فاكثر من ٦٥ ٪ من هذه البنايات اصابتها الشقوق والشروخ ولم يعد صالحا للسكنى ، فضلا عن انه معرض للانهيار تحت وطأة اول موجة من الامطار .

من سجلات الماضي

وفيما نشر الدكتور عبد العزيز المقالح مقاله ـ الذي قرأه البعض باعتباره اخبارا تذاع لاول مرة ـ نشطت عملية البحث في الذاكرة اليمنية البعيدة عن مثل تلك الكوارث الطبيعية التي تسمى في بعض الكتب « الرواجف » ـ من ارتجاف الارض ـ وهزت الوعي اليمني تلك الدراسة التي نشرها في جريدة « الثورة » الصنعانية ، الباحث عبد الله الحبشي بعنوان « زلازل اليمن في التاريخ » ومما قاله في عرضه التاريخي :

عن اليمن افرد العلامة علي بن ابي بكر العرشاني (المتوفى سنة ٥٥٧ هـ) كتابا خاصا في موضوع الزلازل ، وجعلها من الشروط المنذرة عافانا الله منها .

أول زلزلة في اليمن تحدثت عنها المراجع الاسلامية وقعت في زمن الخليفة العباسي المأمون (سنة ٢١٢ هـ) وقد امتدت من صنعاء الى عدن وتهدمت فيها المنازل والقرى وهلك خلق لايحصى .

في سنة ٢٤٥ هـ حصلت زلازل عظيمة في المغرب والشام واليمن : هلكت فيها امم وخربت مدن وغارت عيون كثيرة .

في سنة ٥٤٩ وصف المؤرخ علي بن حسن الخزرجي في كتابه« العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك » زلزالا عظيما في منطقة « اب » قال انه في تلك السنة سقطت من السماء حجرة فوقعت في الصلاحفة وهو موضع قريب من مدينة جبلة ، فوقعت رجفة شديدة وتزلزلت منها الارض باهلها .

وفي ذلك اليوم (الجمعة ٢٦ ربيع الآخر) انشقت السماء وسط النهار وظهر النجم وبعده جاوز في المخلاف الاخضر (اب) وحصلت بعد ذلك زلزلة شديدة في اليمن من صنعاء الى عدن،هلك فيها عدد كثير من الناس ، وانهدم كثير من الحصون والقرى والمساكن » .

وأورد الخزرجي حصرا مدهشا ـ بالارقام ـ للخسائر التي نجمت عن الزلزال في الدور والحصون والخلق .

وفي سنة ٦٠١ هـ في مستهل شهر رمضان انقض كوكب عظيم الى ناحية المغرب اضاءت له الآفاق وتعقبته رجعات تزلزلت منها الأرض .

وفي سنة ٨٣٥ انفجر بركان في جبل بالبحر ، بين كمران وجزيرة وهلك ، وظهرت فيه نارودخان ، وربما كانت قواصفه مريعة لمن سمعها . . . وبعد ذلك بثلاث سنوات (٨٣٨) ظهرت نار في احد جبال المنطقة السابقة ، فكان يسمع دويها كالرعد القاصف من امكنة بعيدة .

وذكر عبد الله الحبشي بيانات تشير الانتباه عن عدد الزلازل التي شهدتها اليمن في القرن الحادي عشر الهجري على النحو التالي :

في سنة ١٠٢٩ حدثت زلزلة كادت تذهب بالاركان « الجبال » وتبعها ليلة الخميس ثانية ، وتبعها ليلة الجمعة ثم ليلة السبت ، وكانت هذه الزلازل في جميع اليمن ، وانشق منها دار المطهر التي بصعدة وخرب جانب منه وكذلك في المدينة وسائر القرى حصل في بعضها .

في سنة ١٠٣٩ وقعت زلزلة بصنعاء وشهدت سنة ١٠٥٦ زلزلة أخرى اصابت صنعاء وما حولها .

في سنة ١٠٧١ ساخ جبل في جهات بني عشب فخرب قرية تحته الا بيتين في طرفها ، ودفن كثيرا من اموالها . ذكر ذلك صاحب بهجة الزمن المؤرخ يحيى بن الحسين .

ـ في سنة ١٠٧٧ في الساعة الرابعة من ليلة الاحد ١٨ رمضان « رجفت الارض وانشق لها بعض البيوت وانتبه النيام وصاح من في قلبه ضعف وقد عمت أكثر البلاد اليمنية . »

ـ في سنة ١٠٨٥ ، شهدت مدينة ضوران ، التي كانت في مقدمة ماانهار من الهزة الاولى في الزلزال الأخير ، حوالي ٣٠ زلزلة ، كما تقول المراجع التاريخية . ثم مرت المدينة بكارثة مماثلة في العام التالي . حيث شهدت زلازل كبيرة « في بعضها انشق أكثر البيوت حتى تناثرت الحجارة من جبل ضوران ، وامتدت الى صنعاء ، وكان دوامها بضوران قدر قراءة سورة « يس » حتى اختلط على بعض ذوي القلوب الرقيقة الى آخر تعبير المؤرخ يحيى بن الحسين » .

هل اليمن منطقة زلازل حقا ؟

وضعت السؤال امام فريق من اساتذة الجيولوجيا بجامعة صنعاء ، الذين شغلوا بالحدث الكبير منذ وقوعه ، وظهروا في الصحف وعلى شاشة التليفزيون أكثر من مرة ، يشرحون للناس أبعاد الزلازل واحتمالاتها .

واستخف الناس في البداية ما روجه البعض ، من ان الزلازل ليست الا تعبيرا عن غضب الله على منطقة ذمار .

وقد ذهب هؤلاء ـ وهم قلة ـ الى ان اولئك الذين أنزل بهم الله غضبه ، لا يستحقون عونا ولا يجوز نقل الدم الى مصابيهم في المستشفيات ، وعليهم ان يتوبوا عما اذنبوا ، وعلى غيرهم أن يعتبروا والا حل بهم ماحاق بأهل ذمار من دمار وخراب . وغذى هذا التيار تصريح لاحد الفقهاء نشر في بعض الصحف العربية،وقال ماخلاصته ان الزلازل عقاب من الله يصيب الاشرار من البشر . وانتهز آخرون الفرصة ، ووزعوا بيانا يطالبون فيه بالمسارعة الى وقف بعض المسلسلات التلفزيونية والحد من تجارة الفيديو ، وتغطية رؤوس ووجوه السافرات وتشديد الرقابة على الفنادق ، والا حل القضاء ووقعت الواقعة .

حوصرت هذه الموجة بسرعة ، وظهر من أهل الفقه من قال بان الزلازل تظل آية من آيات الله ، وانها ظاهرة كونية لها اسبابها العلمية ، وان القول بانها عقاب للبشر فيه اساءة الى عدل الله ، خاصة وان اول الضحايا في ضوران ، كانوا ١٨٠ من الذين وقفوا بين يدي الله عند صلاة الظهر ، ومثلهم من اطفال الصفوف الأولى للمرحلة الابتدائية .

وعندما ناقشت الأمر مع مفتي اليمن القاضي احمد زباره (٧٨ سنة) اتهم الذين قالوا بان الزلازل عقاب الهي للذماريين بانهم « جهلاء وان كانوا خطباء » . وأضاف انه اذا كان من هؤلاء من يصر الى الآن على ان الارض ليست كروية ، فلا محل للاستماع لرأيهم في شئون العلم والدنيا . وضحك قائلا انه اذا كان في الامر عقاب حقا ، فلابد أن تعم الزلازل والبراكين ثلاثة ارباع الكرة الارضية قبل ان تصل الى ذمار !

ذلك ان المفارقة التي استلفتت أنظار اليمنيين ان الذماريين بالذات يعدون من أكثر أهل البلاد تدينا واقبالا على المساجد . وانه بسبب خلفيتها التاريخية كأحد معاقل الفقه الزيدي فان ذمار تعد من أغنى ألوية اليمن بالفقهاء ، فضلا عن أنها من المناطق القليلة التي تطبق فيها الحدود بشدة ، وتصادر عند مدخلها اية محرمات يحملها القادمون ، مثل المشروبات الروحية . لكن البلبلة لم تستغرق سوى أيام قليلة ، ووضعت القضية في اطارها الصحيح ، وعادت الكرة الى مرمى أهل العلم والدراية ، حيث احيلت علامات الاستفهام كلها الى اساتذة الجغرافيا والجيولوجيا وخبراء الزلازل والبراكين .

كان اللقاء باساتذة جامعة صنعاء اشبه بندوة عقدت في مكتب مدير الجامعة ، حضرها الدكتور صلاح الشامي استاذ الجغرافيا ، ومن اساتذة كلية العلوم الدكتور محمد عبدالمقصود والدكتور محمد ابراهيم .

وكان مما قاله هؤلاء :

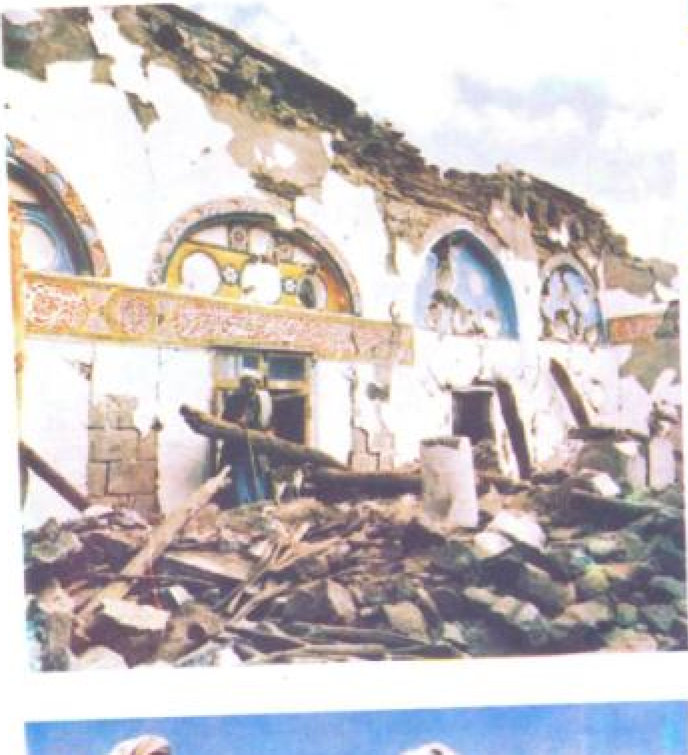
- ان الجيولوجيين يعتبرون الكرة الأرضية مثل تفاحة هائلة محيطها ٤٨ الف كيلومتر . وان القشرة الارضية مقسمة الى اجزاء ضخمة تسمى « أطباق ، **Plates** » ، عددها يتراوح بين ٨ و ١٢ طبقا . افريقيا ـ مثلا ـ تشكل جيولوجيا طبقا واحدا ، وكذلك امريكا الجنوبية ، وآسيا . انه يوجد داخل هذه الاطباق الكبرى والاساسية اطباق اخرى ثانوية **Sub Plates** وان الطبق العربي مركزه وبؤرته في السعودية ، ولبنان في طرفه ، واليمن في الطرف الآخر .

- ان القشرة الارضية صلبة حقا ، لكنها ليست على درجة واحدة من التجانس ، وتختلف فيها مناطق الضعف والقوة . وقد تحدث اضطرابات في باطن الارض ، ربما نتيجة لحركة الاطباق الاساسية او الثانوية ، وتداخلها ، مما يسبب عدم توازن قوى الشد والضغط على النقط الضعيفة في القشرة الارضية ، ويؤدي الى صدع في الصخور يظهر على سطح الارض في شكل موجات زلزالية . وقد تنشأ الاضطرابات نتيجة لانفجارات بركانية في جوف الارض او أعماق البحار والمحيطات ، تحدث ـ أيضا ـ تصدعا في الصخور ، يمتد أثره الى سطح الارض على شكل زلازل .

- ان موقع اليمن المشرف على البحر الاحمر وخليج عدن ، جعلها ـ طبيعيا ـ في ركن لصيق بالأخدود الافريقي العظيم ، الذي أدى الى انفصال افريقيا عن آسيا ، وإحداث شق عميق بين القارتين يتمثل أساسا في البحر الاحمر . الذي يبلغ عمره في تقدير الجيولوجيين حوالي ٥٥ مليون سنة ، في حين يقدرون عمر الأرض بخمسة آلاف مليون سنة ! . ولاتزال آثار عملية الانشقاق ظاهرة الى الآن في الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية للمنطقة .

- أظهرت صور الأقمار الصناعية أيضا وجها شديد الجهامة لهضبة اليمن ، التي بدت بارتفاعاتها التي تتجاوز ثلاثة آلاف متر أحيانا ، داكنة اللون ، ولا تخل أيضا من تلك الخطوط والشقوق الغائرة . كأنها وجه لواحد من المجرمين العتاة ، مليء بآثار الكسور والمطاوي وخياطات الجروح العميقة . وعندما ابديت الملاحظة قالوا ان تلك









بقايا مسجد الحسن بن القاسم في ضوران الذي يزيد عمْره على ثلاثة قرون ، وقد جلس في صحنه الشيخ علي اسماعيل قاضي - الى اليمين - يتلو القرآن الكريم .. بعد ان نجا من الموت ، وتهدمت ضوران كلها ، ولم يعد فيها بيت قائم على اركانه الاربعة .



الدكتور ـ عبد الكريم الارياني :
سلوك الناس لايتغير بقرار .

الهضبة من « أصحاب السوابق » حقا ! . وان منطقة الجزيرة العربية ـ اليمن خاصة ـ شهدت منذ ٣٠ مليون سنة نشاطا بركانيا غير عادي ، مما أسفر عن تكوين سلاسل من الجبال البركانية ، تغطي ثلث مساحة اليمن الحالية . ولأنهم في الجيولوجيا يحسبون الاعمار بملايين وألوف السنين ، فقد قالوا ان البركانيات « الحديثة » في اليمن عمرها « ٢ مليون » سنة ، وان من الباحثين من يعتقد ان المنطقة شهدت انشطة بركانية منذ الفي سنة .

ـ ان آثار هذه الخلفية البركانية القديمة ليست متمثلة فقط في طبقات الصخور البركانية ، ولا في تلك الشقوق الغائرة التي ظهرت في صور الأقمار الصناعية ، ولكنها وثيقة الصلة ايضا بما يسمونه « النشاطات البركانية او الثارية » التي تتعدد في انحاء مختلفة من هضبة اليمن وهي تظهر على شكل غازات وأبخرة تتصاعد من بعض الجبال المخروطية الشكل ، او مياه ساخنة تنساب من بعض العيون ، يستخدمها السكان المحليون في الاستحمام ، وفي العلاج اذا كانت مشبعة بالكبريت . واشهر هذه المواقع جبل الليسي شرق ذمار (بالمناسبة هناك اربع مناطق حول ذمار تظهر فيها بقايا تلك الانشطة البركانية) . وتصل درجة حرارة مياه جبل الليسي الى ٥٠ درجة مئوية . واحيانا ترتفع حرارتها بدرجة عالية .

ان اليمن والجزيرة العربية بشكل عام ، تعد خارج مناطق الزلازل النشطة،ومعدلات الزلازل التي حدثت في تاريخها ليست بأي معيار معدلات غير عادية ، واذا كان بعض هذه الزلازل قد أحدث اضرارا بصورة او اخرى ، فليس ذلك ناشئا بالضرورة عن شدتها وعنفها ، وانما ربما كان ذلك نتيجة لاوضاع محلية خاطئة ، مثل حرص اليمنيين على البناء بارتفاعات فوق قمم الجبال ، بغير اساسات وبخامات تعرض المنزل للسقوط عند حدوث اية هزة بسيطة . وفي كل الحالات فان جملة الخسائر الناشئة عن مجموع الزلازل التي حدثت في تاريخ اليمن ، لا تقارن بعدد ضحايا كارثة ارضية واحدة في مناطق اخرى ، مثل زلزال نابولي في ايطاليا (١٨٥٧م) وسان فرانسيسكو (١٩٠٦) وطوكيو (١٩٢٣) والاسكا (١٩٦٠) ونيكاراجوا (١٩٧٢) . . ويتراوح ضحايا هذه الزلازل ـ من البشر ـ مابين ١٠٠ الف ونصف مليون نسمة !

ـ ان ماجرى في ذمار ، وماحولها يمكن أن يكون نتيجة لأحد السببين اللذين سبق ذكرهما ، وهما الحركة داخل الاطباق الثانوية في الطبق العربي ، او حدوث انفجار بركاني في قاع البحر الاحمر ، ظهر صداه في ذمار ، التي تبعد عن ساحل البحر بحوالي ١٠٠ كيلومتر ، علما بان الموجات الزلزالية يمكن أن يصل أثرها الى مسافة تزيد على ١٥٠٠ كيلومتر . وهناك وجهة نظر ثالثة تقول بانه ربما كانت الزلازل نتيجة لانتفاخات اتابت الصخور الرسوبية التي تتركز عليها المباني في المنطقة . وهذه الانتفاخات تحدث بمجرد ملامسة تلك الصخور للمياه ، وهو امر وارد اذا ما علمنا ان المياه الجوفية لها وجود منتشر يمكن ان يؤدي الى نتيجة كهذه . غير ان ترجيح اي من هذه الاحتمالات ، وتحديد السبب الحقيقي للهزة الارضية يحتاج الى دراسة علمية موسعة .

سألت اساتذة الجيولوجيا والزلازل والبراكين في النهاية : هل نذهب اذن الى ذمار مطمئنين ؟ قالوا ضاحكين : العرافون والمنجمون وحدهم هم الذين يملكون وسائل الرد بالايجاب او النفي ، أما أهل العلم فليس بوسعهم التنبؤ بما سيحدث في هذه القضية بالذات !

لماذا يركبون الجبل ؟

اقترح الدكتور عبدالكريم الارياني رئيس الوزراء ان نبدأ رحلتنا على مسرح الزلازل بزيارة منطقتين اثنتين فقط ، هما ضوران ورصابة . فيها نقضي يومنا الاول ، وبعد ذلك نواصل الجولة في ذمار المدينة ، والتي ارتبط اللواء باسمها ، ثم بقية المناطق ، لم افهم في البداية لماذا اختار الدكتور الارياني ضوران ورصابة دون غيرهما من الـ ٥٠٥ قرى التي ضربتها الزلازل . وعندما استفسرت منه عما وراء هذا الترشيح قال : اذهب هناك وسترى .

خرجنا بالسيارة ذات صباح ، بينما كانت العاصمة تمسح ندى الفجر عن وجهها المكدود ، فيما ظهرت في

الافق صنعاء القديمة بمآذنها العتيقة وواجهاتها المطرزة وكبريائها الرصين ، الذي ملأ الافق جلالا ورهبة . كان علينا ان نتجه الى الجنوب الشرقي ، وان نقطع مائة كيلومتر ، فوق طريق اكثره ممهد وناعم ، ضمن شبكة الطرق التي باتت تغطي ارجاء اليمن ، وتصل اجزاءها المترامية بشرايين من نوع جديد وغير مألوف في تاريخها .

اخترقت بنا السيارة سهولا وهضابا وجبالا . وهبطنا وصعدنا ، ودرنا حول العديد من القمم ، مارين بمختلف أشكال وتناقضات الطبيعة والجغرافيا . وهي التضاريس التي كان على اليمني ان يخوض ضدها معركة بقائه واستمراره . وكانت قمم الجبال العالية ، وسفوحها ، تشهد بانتصار اليمني في تلك المعركة . كانت القرى اليمنية تطل من فوق القمم معلنة هذا الانتصار .

بالامس ، كنت اتطلع الى تلك القرى المزروعة فوق القمم باعجاب شديد ، معتبرا انها جهد بشري خارق لتزيين صفحة الافق بمجموعات من اللوحات الفنية البديعة ، منثورة في ارجاء الصحراء اليمنية ، ولم يخطر عليّ بالي ان اسأل : لماذا يسكن اليمنيون فوق القمم . لكني وجدت السؤال مطروحا هذه المرة في صنعاء ، ضمن جملة التساؤلات والقضايا التي فرضتها الاحداث الاخيرة ، على مجالس اليمنيين اليومية ، وشهدت أكثر من مناقشة حول الموضوع ، لعدد من المثقفين والفنيين والمخضرمين ، وقد برروا هذا الاختيار اليمني بعدة أسباب :

- فهناك سبب أمني يفرض نفسه في البداية ، ذلك ان صراعات القبائل وقتالها المسلح هو الذي دفع الكثيرين الى ركوب قمم الجبال والسكن فيها .

- وهناك سبب اقتصادي نابع من الحرص على عدم التفريط في الرقعة الزراعية الضيقة وطيبتها ، الامر الذي دفع اليمنيين الى ترك السهول والوديان للزراعة ، والصعود الى قمم الجبال للسكن .

- وهناك سبب عمراني يتمثل في عدم وجود شبكة للطرق او مراكز للخدمات طوال العهود التي سبقت الثورة اليمنية (حتى قبل الستينات) الامر الذي دفع اليمنيين على السكنى حيثما اتفق ، في أقرب نقطة قريبة من الارض الزراعية او مصادر المياه .

- وهناك اسباب اجتماعية وتاريخية ، ناشئة عن التركيبة القبلية ، حيث كان مشايخ القبائل يحرصون على استقلالية تجمعاتهم السكنية ، وعلى ألا تكون هذه التجمعات تابعة جغرافيا واداريا لمشايخ آخرين . وهو مادلل عليه الباحث الجامعي احمد القصير في دراسة منشورة له حول العوامل الاجتماعية والاقتصادية للتشتت السكاني في اليمن . مشيرا الى انه لهذا السبب فان مشايخ القبائل يفرضون احيانا تقسيمات ادارية لبعض المناطق ، الامر الذي يكرس التشتيت بصورة اعمق .

وكان من جراء هذا كله ان اصبحت اليمن بملايينها السبعة ـ على احسن الفروض ـ تضم ٥٢ الف تجمع سكني ، مابين « محلة » وقرية ومدينة ، كما يشير بحث التشتت السكاني ، وهو رقم ضخم للغاية ، اذا ماقورن ببلد كمصر على سبيل المثال ، التي لا يزيد عدد قراها على ٤٠٠٠ قرية ، بينما سكانها ٤٥ مليون نسمة !

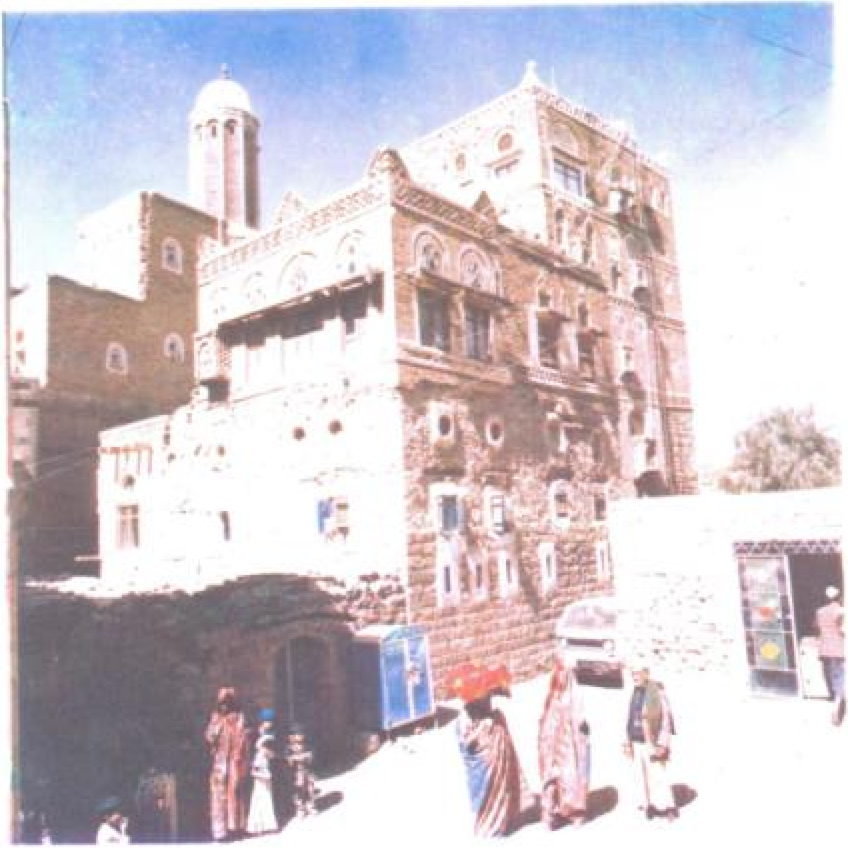
- والمثير للانتباه في معلومات البحث ان متوسط عدد السكان في كل تجمع سكاني باليمن بات يتراوح بين ٩٠ و ١٠٠ نسمة . وانه طبقا لبيانات الجهاز المركزي للتخطيط ، فان حوالي ٥٣٪ من سكان اليمن يعيشون في محلات لا يزيد عدد قاطنيها على ٢٧ نسمة في المتوسط . وان حوالي ٨٧٪ من السكان يعيشون في تجمعات لا يزيد عدد سكان كل منها في المتوسط على ٨٧ نسمة !

لكني منذ وقعت الواقعة ، اصبحت ارى القرى اليمنية المعلقة فوق الجبال بعين اخرى ، اختلط فيها الاعجاب والانبهار بالخوف والوجل . ذلك ان الذين اقاموا هذه التكوينات المعمارية الرشيقة ، وجملوا واجهاتها ، لم يخطر على بالهم بكل تأكيد ان بطن الارض قد يحمل بمخاطر الزلازل والهزات الارضية . فقد استقر في اذهان اليمنيين ان رحم ارضهم عقيم . وان ثمة حكمة خافية عليهم في ان يفرز هذا الرحم نفطا عند بعض الجيران ، بينما يصاب بالعقم في ارضهم . ولكن مفاجأة الزلازل قلبت الميزان ، واقنعتهم بان ثمة قضاء خير من قضاء ، وان العقم خير من الحمل الخبيث !

بعين مختلفة ايضا ، اصبحت ارى الجبال المنتصبة في صحارى اليمن . لم أكن أجد ـ فيما قبل ـ تفسيرا لتعدد الوانها ، وتراوح هذه الالوان بين الرملي الفاتح وبين البني الداكن الذي قد يقترب من السواد احيانا . وللدقة فانني ـ ايضا ـ لم ابحث عن تفسير لذلك ، قانعا فيما يبدو بالبعد الجمالي الذي يضفيه هذا التعدد في الالوان .

لكن الزلازل نبهت كثيرين ، وانا منهم ، الى ان تلك الالوان الداكنة التي غطت قمم الجبال لم تكن سوى







تحول عشرات الألوف الى لاجئين . وهذه أم ـ الى اليمين ـ اصبحت هذه الخيمة هي كل عالمها ، بعدما فقدت ٥ من اسرتها ، والصورة الفوقية لبيت في صنعاء عمره يزيد على ٦٠٠ سنة ، لايزال قائما كما هو ، اما الصورة الثالثة ـ الى اليسار ـ فهي لقريتين يمنيتين فوق هضبة عالية ، وهما نموذج للقرى اليمنية المزروعة فوق القمم ، وقد اكتشفوا بعد الزلازل انها ـ جميعا ـ في خطر .



القاضي محمد بن عبد الله السوسوه
مفتي ذمار : كرسي الزيدية تداعى منذ زمن

بصمات تلك النشاطات البركانية التي عرفتها الصحراء اليمنية على مدار التاريخ .

ومنذئذ لم أعد أجد في تلك الالوان الداكنة جاذبية تذكر . بل اصبحت ارى فيها دليلا اكيدا على كارثة حدثت حول هذا الجبل او ذاك . الامر الذي القى بظلال كثيفة من الفتور المشوب بالخوف والحذر ، على نسيج العلاقة الحميمة التي كانت تربطني بتلك الجبال .

لقد ادركت انني خدعت في هذا الحب . وانني اقمت علاقة مغشوشة مع قيمة جمالية ، تبين لي فجأة انها كارثة ارضية !

في عاصمة القاسميين

خرجت السيارة من الطريق الرئيسي وانحرفت في طريق آخر يخترق أرضا سهلية غير ممهدة ، تمر ببعض القرى الصغيرة . كان واضحا أن القرى تضررت بشكل أو بآخر من الزلازل ، وان بدا أن أضرارها محدودة ، اذ أنها كانت لاتزال عامرة بالحياة ، وان تناثرت حول القرى خيام محدودة ، لايواء البعض ممن تهدمت أو تشققت بيوتهم .

قطعنا حوالي ١٢ كيلومترا حتى اقتربنا من مجموعة كبيرة من الخيام أشبه بمعسكر أحيط بسياج من الاسلاك الرفيعة .

قال مرافقنا : ان هؤلاء هم من بقي من أهل ضوران . لوح لنا البعض ، ولاحقنا آخرون ، ظنا منهم أننا من العاملين في لجنة الاغاثة . بعد دقائق كانت سيارتنا تتسلق الجبل الى المدينة التي تحمل اسم أحد الملوك الحميريين : ضوران بن أنس بن الهان .

توقفنا عند مدخل المدينة ، فلم نر سوى خرائب وتلال من الطوب والاحجار والاتربة ، ، ولم نسمع سوى مواء قطط جائعة ، واصداء أغان حزينة تتردد في جنبات الفضاء ، وأصوات حفر أو نقر ترشد اليه سحابات صغيرة من الاتربة تتسكع فوق الخرائب .

كان هذا هو كل ما تبقى من المدينة ذات الثلاثة آلاف وخمسمائة نسمة ، عاصمة الدولة القاسمية ومقر الامام المتوكل على الله اسماعيل بن محمد القاسم طوال حكمه الذي استمر ثلاثين عاما ، لعب خلالها دورا بارزا في تحقيق وحدة « اليمن الكبرى . . . »

لم يكن في المدينة بيت واحد قائمة أركانه . ما لم يهدم كله ، انهار جزء منه . ومالم ينهر تشققت جدرانه ، ومالت حوائطه ، وبات سقوطه وشيكا . كانت ضوران في طليعة شهداء الزلازل ، حيث سقطت في أول هزة يوم ١٣ ديسمبر ، وكانت وحدها تجسد كل ما جرى ، من حيث طبيعة وحجم الخسائر المادية والبشرية ، وعمق هذه الخسائر ، التي لحقت ـ مثلا ـ بمسجد أثري عمره حوالي ٣٥٠ سنة ، يرتبط باسم بانيه الحسن بن القاسم ، شقيق المتوكل على الله اسماعيل ، الذي حكم لفترة وجيزة بعده ، وكان آخر أئمة الدولة القاسمية .

غير أن ضوران لم تكن تجسد فقط طبيعة وحجم ما أحدثته الكارثة ، وانما تصادف ان كان ما جرى بالمدينة تجسيدا أيضا لمفارقات القدر التي اسفرت عنها الزلازل ، اذ ارتبطت بضوران معظم القصص التي يتناقلها اليمنيون عن تلك المفارقات المثيرة للانتباه والدهشة . قصة الرجل الذي عاد ابنه من السعودية بعد غيبة خمس سنوات ، فاحتفل به وقرر أن يزوجه ، ودعا أقاربه في مختلف محافظات اليمن وألويته . ثم انهار المنزل فوق الجميع ومحيت أهم رموز تلك الاسرة التي قتل منها ٣٦ فردا مرة واحدة . قصة الأم التي انهار فوقها سقف البيت فماتت على الفور ، وعند اخراج جثتها بعد ثلاثة أيام فوجئوا برضيعها ابن الاثني عشر يوما لايزال على قيد الحياة ، ويتغذى من صدرها . قصة المرأة ذات الاربعين عاما التي سقط عليها البيت بينما كانت تملأ جرة ماء ، وظلت خمسة أيام تحت الأنقاض تعيش على ماء الجرة حتى تم انتشالها . .

ربما هذه الاسباب في مجموعها رشحها الدكتور الارياني لتكون ضوران نقطة الابتداء في جولتنا ، حتى نرى فيها ومن خلالها شريطا مصغرا لكل ما جرى .

كان مسجد الحسن بن القاسم ابرز ما واجهنا في مدخل المدينة . ولولا ميضاته التي لاتزال كما هي ، ولولا محرابه الذي نجا من الدمار ، ولولا بعض النقوش والزخارف المتبقية على بعض الجدران ، لما عرف القادم من الخارج ، ان هذا البناء كان مسجدا يوما ما ، فقد انهارت قبته ومئذنته واغلب جدرانه ، التي أشارت بعض الكتابات المحفورة عليها الى أن المسجد اسس في سنة ١٠٦٣ هجرية .

عندما اقتربنا من المكان أكثر ، تبين أن ثمة ضريحا الى جوار المسجد ، للحسن بن القاسم ذاته ، وان ثمة مدرسة ملاصقة للاثنين ، مازالت السبورة معلقة على جدار لاحد صفوفها ، وقد كتب عليها ٢٧ من صفر ١٤٠٣ - ١٣ من ديسمبر ١٩٨٢ . وتحت التاريخ كتب المدرس عبارة : « أكمل الناقص فيما يلي » ثم أورد مجموعة من العمليات الحسابية التي بقيت دون حل .

ولقد كانت مفاجأة لنا بعدما تسلقنا الاحجار وقفزنا الى صحن المسجد ، ان وجدنا وسط الركام والانقاض رجلا جالسا أمام المحراب يتلو القرآن الكريم من مصحف كبير أمامه . « كان الرجل ، واسمه علي اسماعيل قاضي (٦٠ سنة) - على عتبة المسجد عندما حدث الزلزال وانهار البناء على من فيه ، بمئذنته وجدرانه . زوجته كانت في البيت فتهدم فوقها ، ولم يجد لها أثرا . وأولاده الثلاثة كانوا في صنعاء . وهم كل مابقي له في الدنيا .

مضينا نشهد ما جرى في عاصمة الدولة القاسمية ، التي أصبحت في لحظة زمن مدينة الاشباح والخرائب والقطط الجائعة . لم يكن هناك شارع يمكن اختراقه بسهولة ، وانما كان علينا أن نتسلق تلال الأنقاض ، وان نغطي وجوهنا تجنبا للاتربة ، وان نسد انوفنا عن الرائحة الكريهة المنبعثة من تحت الركام في بعض الأماكن . لم نكن وحدنا على مسرح المأساة ، وانما كان هناك آخرون يبحثون عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، باظافرهم وفئوسهم ، في محاولات يائسة للعثور على خيط من ذاكرة البيت أو الاسرة . بينما جلس البعض فوق الاطلال ذاهلا عما يجري ، وغير مصدق لما جرى .

كانت قصة الجميع واحدة . مع اختلاف طفيف في التفاصيل والملابسات في أقل من دقيقة واحدة ، خسر كل واحد اسرته كلها أو بعضها ، وفقد بيته وماله وسلاحه ، وكل ما بناه هو وآباؤه وأجداده منذ عشرات السنين . ثم خرج بعد ذلك لايملك من الدنيا وحطامها ، غير الثياب التي يرتديها .

حدثت بعضهم ، نساء ورجالا ، فكان منهم من فقد أمه وأباه وأربعة من أطفاله وأطفال أخيه ، ومع ذلك فقد كان يروي التفاصيل والاسماء ، بهدوء وثبات عجيبين . ولقيت امرأة فقدت زوجها وأربعة من أولادها ، وبيتا من خمسة طوابق ، ثم وقفت تجيب على أسئلتنا ، دون أن تذرف دمعة واحدة . ورأيت رجلا دفن جثث زوجته وأمه واثنين من أولاده ، وصلى على الجميع وحده ، ثم عاد بعد الدفن مباشرة ، ليساعد جاره على رفع الانقاض واستخراج ماتحتها . . وهكذا .

أدهشني هذا القدر من التماسك غير الطبيعي في مواجهة الهول الذي رأيته وسمعت به . خصوصا واني في اطار التهيؤ لاستقبال المشهد ، كنت أتعبى هم مواجهة انفجارات الاحزان من اعين الناس وحناجرهم ، وارهيب لحظة العجز الانساني في مواجهة فيضان النحيب والصراخ والعويل . ثم فوجئت بان شيئا من هذا كله لا اثر له . وعندئذ ايقنت ان دموع الناس تحولت الى براكين خامدة وأن بحار الحزن اليمني تصب في الاعماق ، ومحظور عليها ان تفيض !

. . وفي البوادي رصابة

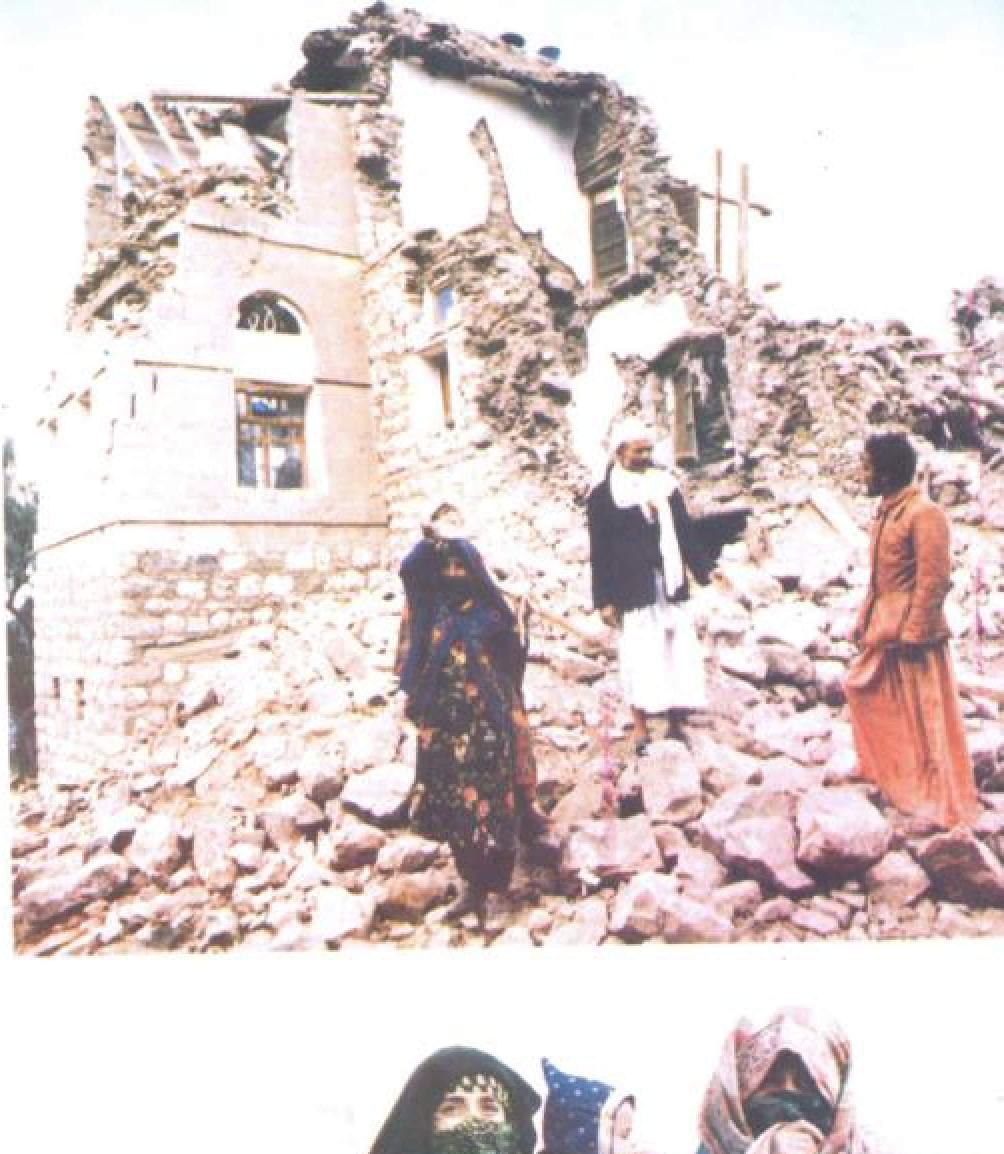
بعد ضوران استدارت بنا السيارة الى رصابة ، التي اكتشفت فيما بعد لماذا ايضا كان علينا ان نزورها في اول جولة . ذلك انه اذا كانت ضوران هي شهيدة المدن اليمنية التي ضربها الزلزال ، فرصابة هي شهيدة القرى ، باعتبارها اكبر قرى البلاد على الاطلاق . فسكانها خمسة الاف نسمة ، وذلك رقم ضخم نسبيا اذا قورنت بمثيلاتها . بل انها من هذه الناحية تعد اكبر من مدينة ضوران ذاتها ، ولأنها تحظى بمكانة خاصة لدى اليمنيين منذ القدم ، فالجميع يرددون فيها بيتا شهيرا من الشعر الشعبي نظمه حكيم الزراعة علي بن زايد منذ اربعة قرون ، وقال فيه :

ما في المدن غير صنعا
وفي البوادي رصابة



حملتنا هذه الطائرة الهليكوبتر الى المناطق المنكوبة في عمق الصحراء ، التي يتعذر الوصول عبر الطريق العادية ، ومنها التقط مصور العربي اوسكار متري صورة هذه المجموعة من القرى المتجاورة ، التي تحولت الى قبوربعد الزلازل .







أنقاض ولاجئون ، البناية في الصورة الفوقية كانت من خمسة طوابق ، لم يبق منها شيء ، حتى الأنقاض بات متعذرا اخراج ما تحتها ، بعد ما انتشلوا جثث القتلى والمصابين بصعوبة بالغة ، وفي الصورة التحتية اكثر من تساؤل حول المستقبل المجهول .

اول من لقيناه في رصابة رجل شاحب الوجه في الثلاثينات من عمره اسمه حسين احمد كان يمشي ساهما ، وقد حمل على كتفه فأسا تتساقط منها ذرات التراب . قال انه كان خارج الدار عندما انهار المنزل على زوجته وبنته وولده . فاندفع مع غيره ليرى ما حل باسرته . بعدما رفعوا الانقاض اكتشف ان زوجته قد توفاها الله . وان ابنته اصيبت بكسور شديدة ، لكنها على قيد الحياة ، فنقلت للعلاج في صنعاء . اما ابنه عبد الله ذو الاثني عشر عاما فلم يجد له اثرا . رفع كل حجر ، ونقب كل كومة تراب فلم يعثر عليه ـ قال له البعض انه كان يلهو في الشارع . ولم يتفقوا على شارع بذاته ، اذ تعددت الروايات . ومنذئذ والرجل يفتش في كل الشوارع التي تحدثوا عنها . يحمل فأسا على كتفه ويقضي يومه كله يبحث تحت الانقاض على ابنه عبد الله . وعندما كنا هناك ، كان حسين احمد قد امضى خمسة عشر يوما يفتش في الانقاض التي تملأ شوارع رصابة على ابنه ، دون جدوى !

لم تختلف رصابة عن ضوران الا في حجم الضرر الذي حل بها . كل منها تحولت الى خرائب وانقاض ، وكل منها لم يعد صالحا للسكنى ، وبات مهجورا تماما . لكن الارتفاع في ضوران كان له اثره في زيادة نصيبها من الدمار ، وزيادة عدد بيوتها التي محيت وتحولت الى قبور .

كان البعض ـ ايضا ـ لا يزال يحاول ان يستخرج من تحت الانقاض أي شيء من متاعه او ماله ، بعدما امكن انتشال الغالبية العظمى من جثث القتلى والمصابين .

لم يكن الاهالي وحدهم بطبيعة الحال ، لكن رجال الجيش لعبوا الدور الاساسي ، ورجال القوات الجوية

ادوا مهمة جليلة في عملية النقل السريع للقوات من ناحية ، والمصابين من ناحية اخرى . اما الجهد الذي بذلته القوات الفلسطينية المتمركزة في معسكر صبرا ، واستبسالها في الانقاذ ورفع الانقاض ، فان الجميع لن ينسوه ، وهو ما شهدت به ضوران قبل رصابة ، وبقية المناطق المنكوبة مع الاثنين .

كانت رصابة ، عروس قرى اليمن ، قد تحولت الى معسكر للخيام ، على مرمى بصر من القرية الاصلية . وكان اهلها يصبحون ويمسون واعينهم معلقة بالخرائب والاطلال ، غير مصدقين لما حدث في تلك الثواني التعسة . جميعا كانت لهم قصص دامية ، وكل قصة تمزق القلب ويشيب لها شعر الرأس . لكنهم ـ ايضا ـ كانوا يروون ما جرى بنفس القدر من التماسك والسكينة .

لمن ملك ذمار ؟

في اليوم التالي كنا في ذمار العاصمة والمدينة العريقة ، التي ظلمها البعض ، وادعوا أن اسمها الاصلي هو دمار ، «بالدال وليس بالذال» من الاطلال والخراب وليس من الحمى ، وهو نوع من قراءة الاسماء في ضوء الاخبار ، او نوع من القراءة يعكس احدى درجات الأمية المتفشية . واغلب الظن ان القائلين بذلك وقعت اعينهم على اسم المدينة لأول مرة عندما حدثت الزلازل في شهر ديسمبر الماضي ، في حين ان ذمار لها عمر يمتد في عمق التاريخ بمسافة تزيد على ٢٠ قرنا .

والاتفاق بين الباحثين ان المدينة حملت اسمها ذاك ، منذ سنوات ما قبل الميلاد ، وهو في الاصل اسم لأحد ملوك مملكة سبأ القديمة . لكن الاجتهادات تتعدد في التعرف على اي من هؤلاء الملوك ، اذ كان منهم اكثر من واحد بهذا الاسم . من ذلك ان الباحث اليمني الدكتور عبد الله حسن الشيبة المدرس بقسم التاريخ في جامعة صنعاء ، يرجع في دراسة له ان اسم ذمار ربما يكون نسبة الى احد حكام سبأ الذين حكموا البلاد في القرن السابع قبل الميلاد (ذمار على) ، او في القرن الخامس (ذمار على يتوف) .

وينقل ياقوت الحموي في معجم البلدان عن اخرين قولهم ان ذمار على بعد ستة عشر فرسخا من صنعاء . وانه لما هدمت قريش الكعبة في الجاهلية ، وجد في اساسها حجر مكتوب عليه بالمسند : لمن ملك ذمار ، لحمير الاخيار . لمن ملك ذمار ، للحبشة الاشرار . لمن ملك ذمار ، لفارس الاحرار . لمن ملك ذمار ، لقريش التجار !

كما يذكر الحموي اسماء عدد من اهل العلم الذين ينسبون الى ذمار ، منذ عصور الاسلام الاولى ، ومنهم مروان ابو عبد الملك الذماري ، الذي كان يعد « زاهد دمشق » وولي قضاءها .

رغم هذا كله ، تجد من « يفتي » بانها كانت دمار وليست ذمار !

لقد دخلت المدينة سجل التاريخ الحديث من باب العلم والفقه ، اذ عرفت طوال عهود مجد الامامة بانها « كرسي الزيدية » ، اذ كانت تعتبر تقليديا معقل فقهاء المذهب ، واحد المراكز الاساسية للتنظير والاجتهاد فيه . وبرزت فيها مدارس العلم والفقه بشكل اخص منذ القرن العاشر الهجري ، في عهد الامام شرف الدين . وكانت آراء فقهائها هي القانون الذي يطبقه الأئمة في صنعاء .



القاضي احمد زبارة
مفتي اليمن : الزلازل ليست عقابا الهيا

وكان موقعها الجغرافي في نقطة التماس بين نهاية منطقة الجبل التي ينتشر فيها المذهب الزيدي ، وبداية منطقة السهل الذي يسودها المذهب الشافعي ، قد رشحها لتكون ميدانا لحوار دائم بين فقهاء المذهبين ، وهو ما كان يرحب به الأئمة ، بأمل ان يؤدي هذا الحوار الى اختراق المذهب الزيدي لمنطقة الشوافع الجنوبية . وايا كانت الدوافع ، فقد ادى ذلك الى اثراء الحياة الفكرية في ذمار ، حتى ان مؤلف كتاب « مطلع الاقمار وجمع الانهار في تراجم علماء مدينة ذمار » ، يحصى من هؤلاء العلماء حوالي ١٢٥ فقيها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (الكتاب مخطوط لم يطبع ، وهو من تأليف حسن بن حسين بن حيدرة) .

لكن الامور اختلفت مع ذمار بمضي الوقت . واهتز كرسي الزيدية منذ انطفأ وهج فكرة الامامة ، بتحولها الى اداة قمع واستغلال وانغلاق ، ثم بذهابها كلية بعد الثورة في بداية الستينات . هكذا يقول مفتي المدينة محمد بن عبد الله الموسوة (٨٥ سنة) ، معتبرا ان تداعي كرسي الزيدية في ذمار ، كان بمثابة زلزال مبكر افقدها الكثير من مكانتها الادبية ، كما ان زلزال الثمانينات افقدها الكثير من قيمتها الاقتصادية .

ويبدو ان ذمار منذ خلعت عباءة الفقه الزيدي لم تكن فقط مضطرة ومغلوبة على امرها ، لكنها كانت ايضا تحاول ان تتعامل بلغة العصر . فقد انتقلت من الفقه الى التجارة والزراعة ، اي من صدارة الدين الى صدارة الدنيا . وباتت ذمار واحدة من اهم مدن الرواج الاقتصادي ، ومنها خرجت اول واكبر موجات المغتربين اليمنيين في الخارج .

كان رفيقي في الرحلة احد ابناء ذمار ، وزميل الدراسة في الخمسينات ، ووزير الاقتصاد اليمني الاسبق ، محمد عبد الوهاب جباري ، الذي اكتشفت انه اختير رئيسا للجنة الانقاذ في المدينة . ومنه عرفت ان الذماريين باتوا يسمون « ألمان اليمن » ، لحيويتهم وشدة طموحهم ، وتحركهم الدائب في مختلف مجالات التجارة والزراعة ، وان كانت خلفية المدينة الفقهية مازالت بصماتها قائمة الى الان ، وهو ما يتمثل في تمسك اغلب اهل البلاد بالتعاليم وتدينهم الشديد .

منه ايضا عرفت ان اهل ذمار لهم بعض السمات الشخصية المتميزة ، التي تجتمع فيها سلاطة اللسان وخفة الظل مع المصارحة والخشونة ، التي قد يجد فيها البعض ما يتعارض مع اصول الدبلوماسية واللياقة .

وهو ما دعا الشاعر اليمنى اسماعيل بن احمد الصحيف (توفى سنة ١١٢١ هـ) ان يعبر عن هذا الموقف في بيت شهير يقول فيه :

لست أدعى في الوغى حامي الذمار
ان تصبرت على سكنى ذمار

لم يستغرق حديثنا عن اهل المدينة سوى دقائق معدودة ، لأن رحلتنا كانت ابعد ما تكون عن السياحة في ذمار . فشاغلنا نحن الاثنين كان ما جرى لها . بل انه عند هذه النقطة قدر لنا ان نلتقي بعد فراق دام ربع قرن تقريبا ، كما يلتقي الاقران المشتتون بعد غياب طويل في سرادق للعزاء . يختصرون مسافات الزمن في البداية بكلمات شاردة مبعثرة ، ثم لا يلبثون ان يطأطئوا الرؤوس ، وقد استغرقهم المصاب الجلل .

أفظع مما نتصور

قال لي رئيس لجنة الانقاذ في ذمار ان المدينة لم تتعرض لانهيارات ودمار مماثل لذلك الذي شهدته المناطق المحيطة بها ، ولكن الحصر الذي تم اثبت انه من بين ٦٠٠٠ بيت في ذمار ، هناك ٤٠٨٠ بيتا اصابتها الهزات الارضية بشقوق تعرضها للسقوط في اية لحظة ، وبالاخص عندما يحين موعد سقوط الأمطار) هذه البيوت تركها شاغلوها عندما رأوا ما حل بغيرهم ، اذ لم يعد احد مستعدا لكي يبقى حتى يسقط عليه البيت . بعضهم نزح الى المدن الاخرى عند الاقارب ، وبعضهم لجأ الى الخيام وحجرات الزنك . واذا استطاع هؤلاء ان يتعدوا عن احتمالات الخطر مؤقتا ، فان مصيرهم ومصير بيوتهم في علم الغيب ! .. وهي مشكلة المناطق المنكوبة كلها في محافظة ذمار .

وقال ان الصورة في الايام الاولى للزلازل افظع مما يتصورها كثيرون . ذعر الناس من هول ما جرى يفوق







خرائب وخرائب ، هذا كل مابقي من مئات القرى التي كانت عامرة بالحياة . الصورتان - يمين وتحت - ليستا بحاجة الى تعليق،والصورة الثالثة (فوق) لمحافظ ذمار احمد عبد الله الحجزي يستمع الى شكاوي وملاحظات بعض المنكوبين ، وقد وقف الى جواره محمد عبد الوهاب جباري رئيس لجنة الانقاذ في مدينة ذمار . وقد رافقنا الاثنان في جولتنا بالطائرة الهليوكوبتر .

الوصف . والقتل بغير عد ، وكل من استطاع ان يستخرج جثث اقاربه حملهم واحدا تلو الآخر في اي قطعة قماش ، ليدفنهم في العراء . لا احد يعزي احدا ، فالكل مفجوع ومصاب . ومنظر الاحياء وهم يحملون موتاهم وقد لفت جثثهم على عجل وبما تيسر من امكانيات ، كان اشبه بالعائدين من السوق . كل واحد يحمل سلة في يده ، يفرغ مافيها ، ثم يعود ليملأها من جديد . وفيات الاطفال الرضع بلغت خمسين طفلا في المتوسط يوميا ، واكثرهم ماتوا من شدة البرد سواء قبل تسلم الخيام او بعدها ، خصوصا وان بعض الخيام التي ارسلت ـ الامريكية تحديدا ـ لم تكن مخصصة للايواء فيما يبدو ، وانما كانت من ذلك النوع الذي يزرع على الشواطيء في الصيف . لأنها كما قال الناس تحولت الى ثلاجات في ليالي الشتاء القارسة . لقد رفض الاهالي ان يودعوا اطفالهم في مستشفى المدينة في الليل ويتسلموهم في النهار ، واصروا على ان يبيتوا معهم ، فكان في ذلك هلاكهم . الاغلبية الساحقة من الاطفال الذين ولدوا بعد الزلازل ماتوا ايضا في الخيام . ويلفت النظر هنا ان من المواليد من تسمي باسم زلزال للولد ، وزلزلة للبنت ! . . اما مشكلة الاطفال الذين مات ذووهم ، ولا يعرف لهم أهل ، ولايعرفون لانفسهم اسماء ، هؤلاء لا احد يعرف لهم مصيرا ، وان اعتبرت الحكومة مسئولة عنهم .

ذلك كله في المناطق التي امكن الوصول اليها في وقت مبكر واستكشاف ما جرى فيها . الا ان هناك قرى تقع على قمم او سفوح الجبال العالية . بحث تعذر حتى على الطائرات ان تجد مكانا قريبا منها تستطيع الهبوط فيه . وثمة ٣٢ قرية في تلك المناطق ينطبق عليها هذا الوضع ، اغلبها في نواحي آنس ، وجبل براع ، وجبل صعب .

في ذمار كانت تنتظرنا طائرة مروحية لتقوم بجولة في مناطق الزلازل الاخرى ، وقد صحبنا في هذه الجولة محافظ المنطقة الشاب ، احمد عبد الله الحجري (٢٩ سنة) اضافة الى رئيس لجنة الانقاذ بعاصمة المحافظة محمد جباري ، كان عمر المحافظ مفاجأة لي ، لأنه بدا اكبر من سنه بعشر سنوات على الاقل ـ وعندما ابديت الملاحظة قال لي احد رفاقه انه « كان شابا قبل الزلازل »!

لقد اخلى المحافظ سكنه المشروخ ، وبعث بأسرته الى صنعاء وتفرغ هو لحمل هموم ٨٥٠ الف نسمة يسكنون المحافظة ، ولكل واحد منهم مشكلة قائمة بذاتها . في البدء كان عليه ان يواجه محنة الاغاثة ، التي تمثلت في رفع الانقاض والبحث عن القتلى والمصابين ، بكل ما اعترضها من صعوبات واهوال . ثم كان عليه في الوقت ذاته ان يواجه محنة الايواء ، وتدبير ٤٠ الف خيمة لضحايا الزلازل ، بمعدل خيمة لكل اسرة وتأتي بعد ذلك مشكلة حصر الاضرار ، ثم يتضاعف حجم المشكلة عندما يطرح السؤال الكبير حول المستقبل والمصير !

ورغم ان الدولة كلها تدعمه ، وان كارثة الزلازل فرضت نفسها على رأس شواغل هرم السلطة ، الا ان الامر في النهاية يصب عنده . وعليه ان يكون اداة المواجهة والتنفيذ .

قال لي المحافظ الحجري ان اكثر اجزاء المحافظة تضررا هي تلك التي تقع في غربها . وبالذات في جهران وآنس (ذكر في الانباء ن بعثة اليونسكو اعلنت ان بؤرة الزلزال في تلك المنطقة) وهي المناطق التي شهدت التهدم الكلي بصفة اساسية ، الذي ادى الى تفريغ ٩٦ قرية من سكانها ، وما جرى في ضوران تكرر في مختلف تلك القرى . فقرية قعوان كان بها ٦٠٠ بيت ، لم يبق منها شيء قائما سوى ثلاثة فقط قرية خشرات مسحت تماما، وكذلك الشليل والمصنعة . . وهكذا .

واضاف الحجري انه فضلا عن البيوت التي تهدمت، والقتلى والمصابين،فهناك الثلاثمائة الف شخص في المحافظة الذين هجروا بيوتهم وتشردوا ، ومطلوب حل مشكلتهم ، وغير ذلك كله ، فهناك ٦٠ مدرسة اختفت ، و١٦٤ مدرسة تشققت ، و٣٢٣ مسجدا انهار وتشقق ، وذلك غير مرافق المياه والكهرباء التي تضررت .

احشاء القرى من الجو !

بعد دقائق قليلة كنا فوق المناطق المنكوبة . وبدت صورة القرى اليمنية من الجو اسوأ بكثير مما ترصده العين على الارض . والفرق بين الصورتين قريب الشبه بمن يرى قتيلا ملقى على تلة ، ومن يصعد الى مرتفع فتقع عيناه على احشائه وقد مزقت شر ممزق .

ظلت احشاء القرى المنهارة تحت اعيننا حيثما ذهبنا ، خصوصا تلك التي شاء لها الحظ التعس ان تتربع فوق قمم الجبال . وكان تعدد تلك القرى في رقعة صغيرة من الارض او الجبل يوحي بان امثال تلك المناطق لم تتعرض للتدمير فقط ، وانما تعرضت للتمثيل ايضا .

كانها فلول منهزمة لجيش عرمرم ، سحقته قوى لا تقهر ، ودكت قواعده دكا ، مصرة على ألا يبقى فيه رمق او تقوم له قائمة .

اما منظر الجبال التي تشققت ، والفجوات السوداء المرتعشة التي تخللتها من القاعدة الى القمة ، فكأنه كان نوعا من الانفلاق الاسطوري الذي يروى ان التنين يخرج منه متبوعا بجيش المردة الذين يهددون بسحق العالم !

نزلت في بعض القرى،..العليب وهجره ومنقذه ، التي كانت صورة طبق الاصل لما رأيناه في ضوران ورصابة ،

فيها حل بها من خراب ، وفيها نزل على اهلها من سكينة ورباطة جأش لا نظير لها . وقف احدهم حاملا طفلا صغيرا ، وتحت اقدامه عدة اكوام متناثرة من التراب ، واشار امامنا الى تلك الاكوام قائلا : المتجاوران لاثنين من ابنائي ، وهذا الذي على اليمين ابي ، وعلى اليسار زوجتي . . كان يتحدث دون ان يهتز جفن او يختنق له صوت ، كما لو كان يشير الى بعض المعالم الاثرية والسياحية !

سؤالان كبيران

عدت إلى صنعاء وفي ذهني سؤالان كبيران ، اولهما يدخل في باب الفضول ، والثاني يدخل في باب الحكمة . السؤال الاول هو : اين ذهب حزن الناس في ذمار ؟ . . والثاني هو : ماذا بعد الزلازل ؟

في اجابة السؤال الاول ناقشت عددا من اهل الذكر ، فتعددت الاقوال ، فمن قائل انه الايمان العميق والتسليم المطلق بقضاء الله وقدره . اذ ان الهول الذي جرى لا يمتص آثاره العميقة سوى مستودع الايمان العظيم . ومن قائل انه ـ فضلا عن الايمان بقضاء الله ـ فقد راجت بين الناس تلك الاحاديث النبوية التي تعد من مات له اطفال صغار بالجنة ، مما كان زادا اساسيا للصبر واحتمال الكارثة . ومن قائل انهافوق هذا وذاك ـ الطريقة اليمنية في التعامل مع القدر . اذ ان القيم الدينية والاجتماعية السائدة تعتبر البكاء والعويل نوعا من الاحتجاج على القدر لا يقبله الضمير المسلم . فضلا عن ان الكوارث الطبيعية ، مشكلة ليس لها غريم ، كما يقول اليمنيون . فلو ان فردا في قبيلة قتله اخرون ، لما تنازلت القبيلة حتى ابد الدهر عن حقها في القصاص وقتل القاتل ، ودون ذلك قد يذهب آحاد وعشرات . ولكن قتلى الزلازل لا ثأر ولا غريم لهم .

ومن قائل إن حجم الصدمة اصاب الجميع بذهول ولم تكن بحار الحزن قادرة على ان توفيها حقها من الدموع . ومن قائل انها قسوة المعيشة في تلك المناطق ، التي جعلت من حياة الناس حلقات متصلة من الشقاء والعذاب ، لا مكان فيها لترف الراحة او هدوء البال . الامر الذي هيأ خلفية لاستقبال الكوارث الطبيعية باعتبارها حلقة اضافية في ذلك المسلسل ، مع جرعة مضاعفة وزائدة من الشقاء والعذاب .

وضعت السؤال الثاني امام الدكتور عبد الكريم الارياني رئيس الوزراء فكان رده ان موضوع ما بعد الزلازل خاضـ لبحث والدراسة ويحتاج إلى تاتيم دقيق لمختلف ابعاد دث الاقتصادية والاجتماعية فالقول بخطورة استم النمط اليمني في البناء فوق الجبال حتى لا جدال فيه .

ولكننا لانستطيع ان نقول للناس : انزلوا من فوق الجبال فينزلون . اذ ان دون ذلك عقبات لاحدود لها . من بينها ارتباط هؤلاء الناس باراضيهم الزراعية ومصادر مياههم ونطاق قبائلهم ، والدعوة الى اعادة النظر في ظاهرة التشتت السكاني وتجميع الناس في محلات سكنية واحدة او متقاربة ليسهل تقديم الخدمات للجميع ، حق وعدل ايضا ، لكن اسباب التشتت لها جذورها في التركيبة الاجتماعية والقبلية . وليس من الحكمة ، بل ليس من الممكن ايضا ، ان تصدر الحكومة قرارات بتغيير السلوك الاجتماعي للناس .

ثم اضاف الدكتور الارياني ، لقد نبهتنا الزلازل ايضا الى انه يجب ان نولي مزيدا من الاهتمام للدراسات الجيولوجية في بلادنا ، وان نعيد النظر في اسلوب البناء وخاماته ، فاستخدام الطين في البناء ، مع الاحجار دون اية خامات اخرى قوية تسهم في تماسك تلك الاحجار أدى الى سرعة انهيار كثير من المنازل .

وقال ان هذه الامور تتعلق باليمن ككل في حاضره ومستقبله . وهي على اهميتها البالغة تأتي في مرحلة تالية في الترتيب لمشكلة القرى المهدمة كليا وجزئيا ، والبحث عن طريقة مناسبة لاعادة تسكين هؤلاء الناس في المستقبل . وذلك همّ عظيم يتجاوز قدرة اليمن ومواردها العادية لعدة سنوات قادمة .

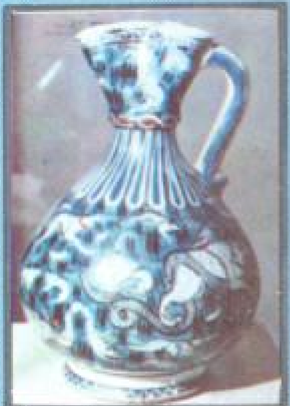
واضاف : تسألني عن الحل ؟ . . وردي ان هذه مشكلة ...الداء فيها معروف والدواء ايضا معروف . لكن من يدفع ثمن بطاقة العلاج ، اذا كان هذا الثمن يتجاوز ما في الجيب اليمني اليوم وغدا وبعد غد . سوف نعيد النظر في اشياء كثيرة بالنسبة لاولويات الخطة ، وسوف نفتح الابواب لعون المنظمات الدولية ومختلف الدول العربية التي لم يقصر اكثرها في حقنا ، في مرحلة الاغاثة والايواء . وسنمد ايدينا لكل فكرة جديدة كالتي طرحها الامير طلال بن عبد العزيز لانشاء منظمة خاصة للاغاثة العربية . لكن هل هذا سيقربنا من الهدف الذي ننشده ؟ المستقبل هو الذي سيجيب على السؤال .

في الطريق الى المطار ، كان راديو صنعاء في جولة بالمناطق المنكوبة ، وعندما استوقف المذيع واحدا من الاهالي وسأله عن قصته ، فكان رده انه فقد امه وزوجته واولاده الثلاثة ، كما قتل شقيقه وزوجة احدهما ، وفي نهاية الحوار طرح عليه المذيع السؤال التقليدي : لمن تريد ان تهدي سلامك ؟ واذا بالرجل ينفجر فيه قائلا باللهجة اليمنية : اكدض (اي افهم يا بني ادم) . . قلت لك ان كلهم ماتوا !

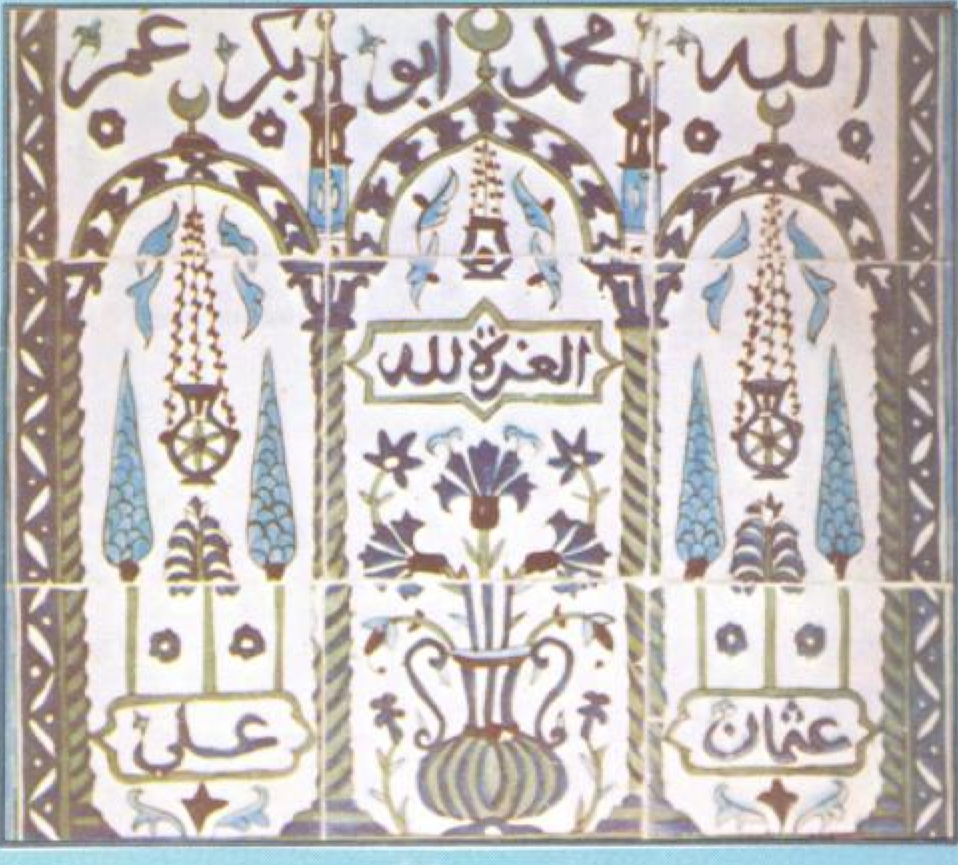
في آخر ايامه ، لم يجد الرجل في دنياه احدا يبعث اليه سلاما عبر الاثير !

رجب ١٤٠٣ هـ - مايو ، ايار ، ١٩٨٣ م

العربي



- الثقافة مفتاح باب افريقيا
- نبض التاريخ في دار الآثار الإسلامية

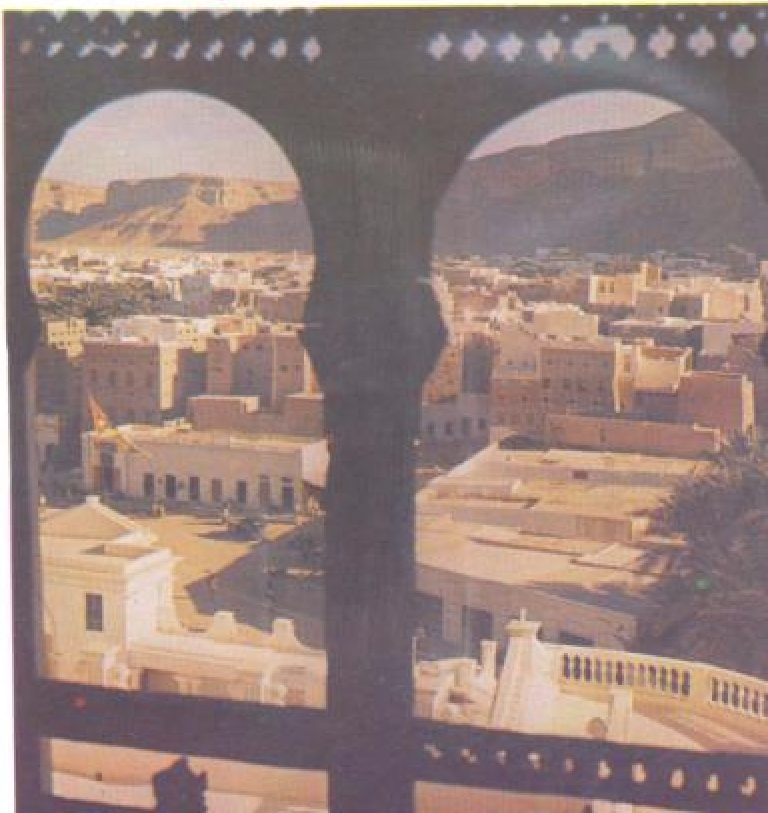




عمائر مدينة شبام

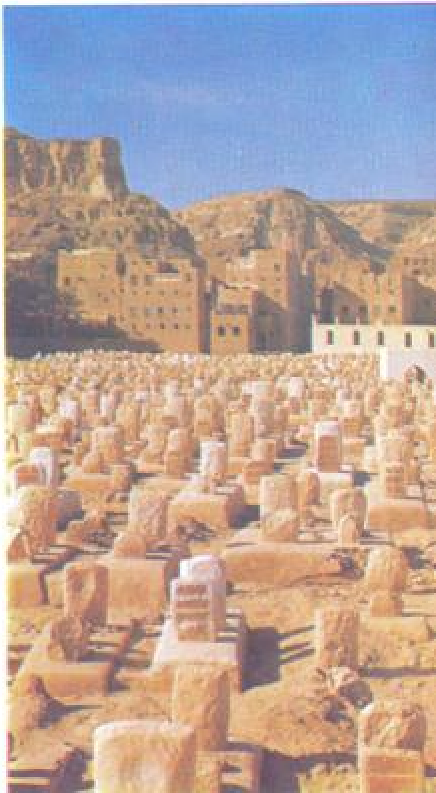
من نافذة بقصر تريم







مقابر المدينة



● عين اوربية في اليمن الجنوبي ●

ناطحات السحاب في شبام

بقلم : هيلين كيزر

ترجمة : عصام عسيران

هذه زيارة مشوقة إلى ناطحات السحاب في اليمن الجنوبي ..
اما الزائر أو الزائرة فقد كانت الكاتبة السويسرية : « هيلين كيزر » صاحبة كتاب (جزيرة العرب : arabia الصادر بالفرنسية قبل سنوات قليلة والمتضمن تفاصيل رحلتها الطويلة عبر بلاد شبه الجزيرة العربية وتجربتها الجريئة في معايشة البدو الرحل تحت مضاربهم في عيشهم اليومي ..

وأما « ناطحات السحاب » فهي الوصف الذي اطلقته الكاتبة على مباني بلدة (شبام) في حضرموت .. حيث استقبلها مضيفوها بالكرم المعهود فيهم وبتكريم تجاوبت اصداؤه مختلف جوانب كتابها المنصف .

ومن هذا الكتاب اخترت هذا الفصل الطريف ...

نطرق بابا رائع الزخرفة فتتناهى إلينا أصوات حركة آتية من الغرف البعيدة . ثم يصعد الباب صريرا أثناء فتح مغلاقه الخشبي ، المزخرف أيضا . ويقابلنا الترحيب والتكريم ففي ناطحات سحاب حضرموت كما في غيرها من بلاد شبه الجزيرة العربية تعتبر الضيافة قاعدة مقدسة .

بعد دخولنا حسبتني اعود على جناح الماضي الى عصر ملكة سبأ فأجواء البيت المعتم تعبق بالبخور . والشيخ حسين لاجم يشير إلينا بأن نتبعه . وها نحن نرقى بضع درجات توصلنا الى قاعة فسيحة مخصصة لاستقبال المدعوين ومضيفنا كدليلنا : يعقوب ـ ينتمي الى اسرة محترمة من « السادة » الذين يرقى نسبهم الى النبي محمد . السقف المدعوم بالعوارض يقوم على أربعة أعمدة والشعرية الخشبية في النوافذ توزع الضوء الى مستطيلات براقة ، فوق السجاجيد ذات الألوان الوادعة وأمام المطارح الواطئة مباخر فخارية يعس الجمر وتبدأ عبر بخورها .

قريبا سيحل المساء . وتأتي من الحجرة القريبة همهمات صلاة ويدب النشاط في المنزل بالتدريج ويدخل الخدم صامتين ويمدون سماطا عريضا فوق أرضية القاعة .

ثم يأتون بصحاف وصحون صغيرة كل ما فيها غير مألوف لدى بل إن طعام بعضها هو من أغذية الشرق الأقصى .

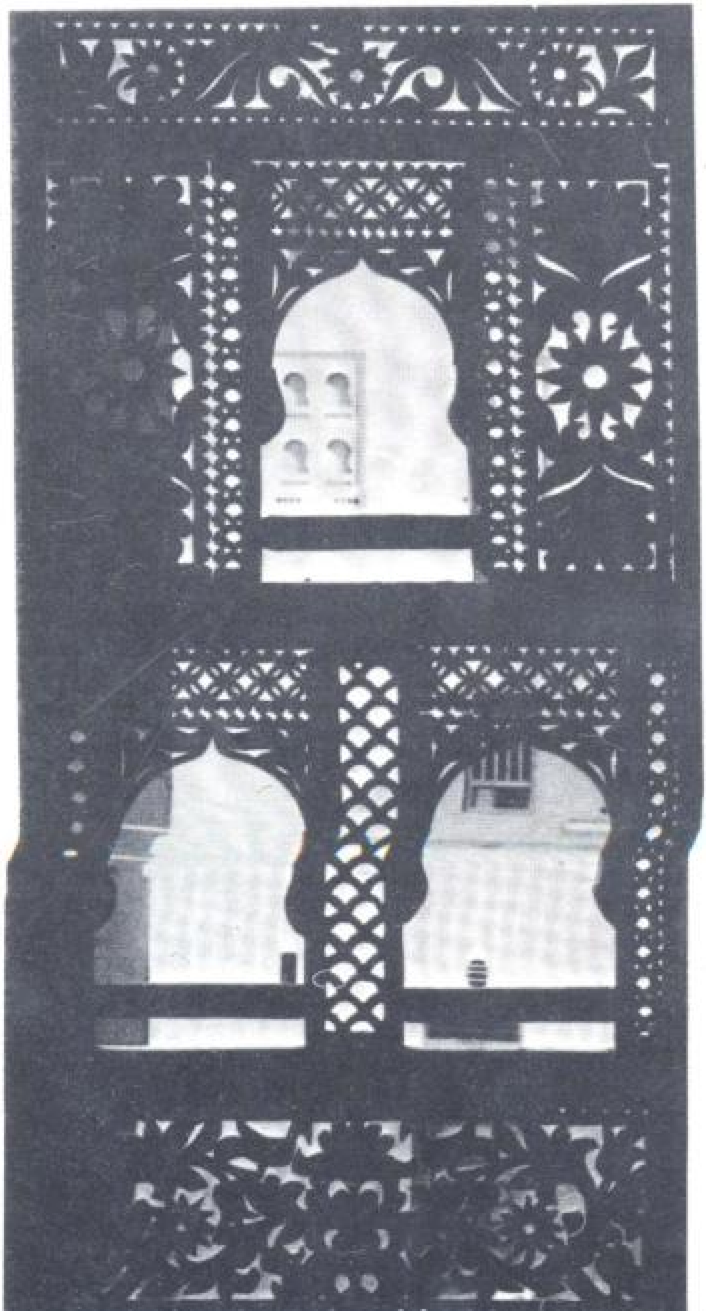
وأطل الآن رجال يرتدون الأثواب التقليدية الطويلة المعروفة بـ « الفتاح » والمستوردة هي أيضا من أقاصي الشرق ... وهي ضيقة عند الخصر وتصل الى الكاحل كما أنهم يعتمرون كوفية أنيقة . وكانوا يجلسون الواحد بجانب الآخر بمحاذاة الجدران دون أن ينبسوا ببنت شفة إنهم أسرة الشيخ حسين : الأخوة وأبناء العمومة والخؤولة الذين يقطنون هذا البيت العائلي الكبير أما الآن فهم قابعون شابكي السيقان على طريقة بوذا بانتظار انتهاء نهار الصوم .

وانطلق مدفع الافطار

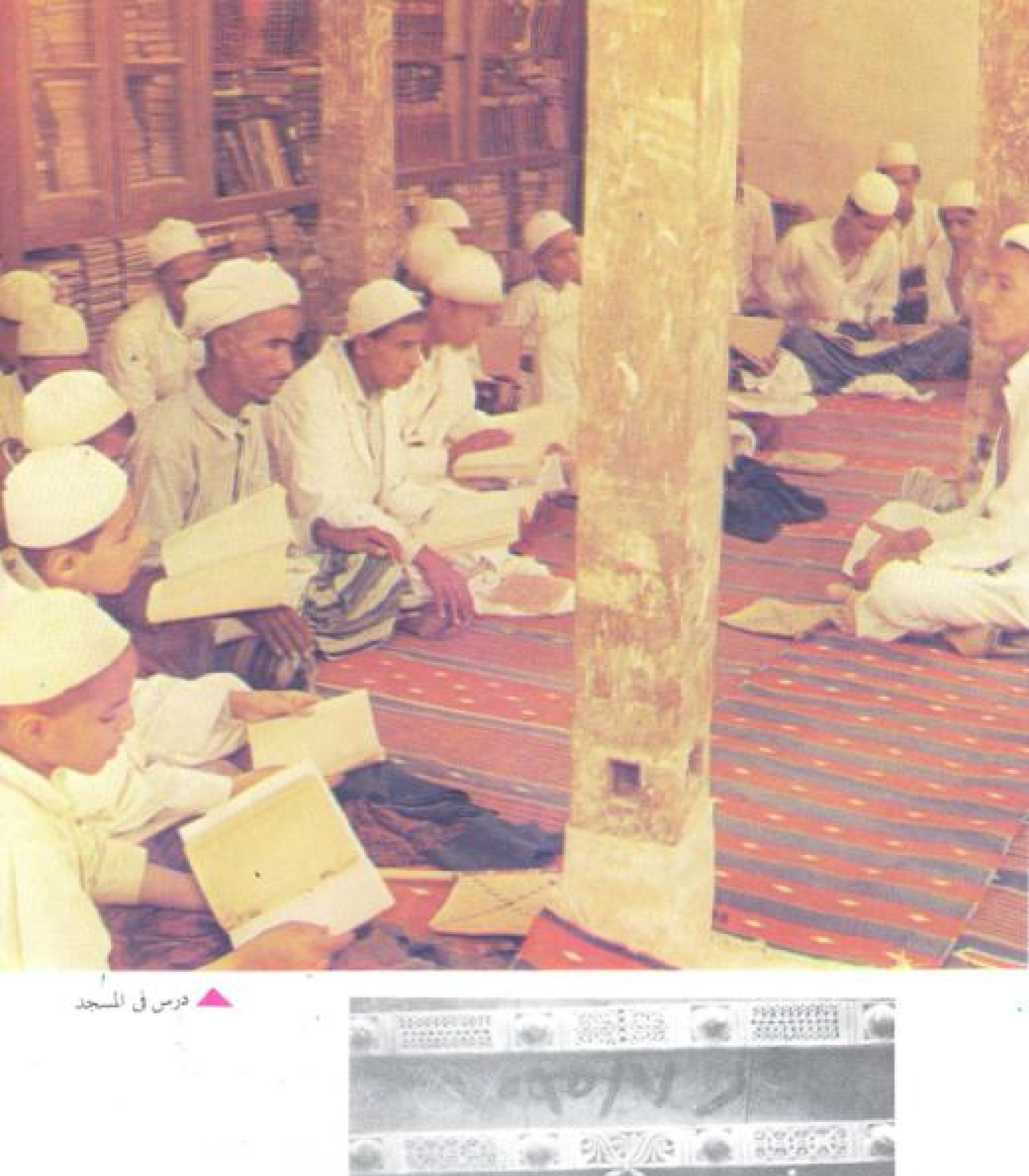
وكما حدث لي مرات عديدة من قبل فقد وجدتني في شهر رمضان الذى يصوم فيه المسلمون فلا يأكلون ولا يشربون ولا يدخنون بين شروق الشمس وغروبها ..

وسرعان ما أقبل الغروب فانطلق مدفع الأفطار بشيرا للصابرين على الجوع والعطش فأقبل الجميع على السماط الحافل بكل ما لذ وطاب وفي هذه المنطقة يستحيل على أى كان حتى على المسيحي ـ أن يحصل على أى مأكل خلال نهار رمضان الذى تقفل فيه المطاعم ودكاكين البقالة حتى المساء ..

وأخوض « غمار » وجبة الطعام فأفاجأ باصناف الحساء ذات المذاق المز ، وبشرائح من لحم الغنم مشبعة باغرب الصلصات ، ثم بمعكرونة « سباغيتي » على طريقة أهل « نابولي » الايطالية . وقبل أن تطول دهشتي من وصول « السباغيتي » الى هذه الأصقاع تبدد الوهم حينما أحرق فلفل هذه المعكرونة سقف حلقي الى حد مسارعتي الى اطفاء لهيبه بتناول أكلة مألوفة لدى هي التمر المهروس كما استعنت ببعض الاناناس للتخفيف من ألم الحروق وبين الحين والآخر كان طباخ ملوح الوجه يذكي الجمر في إحدى



نموذج لجمال النوافذ



درس في المسجد



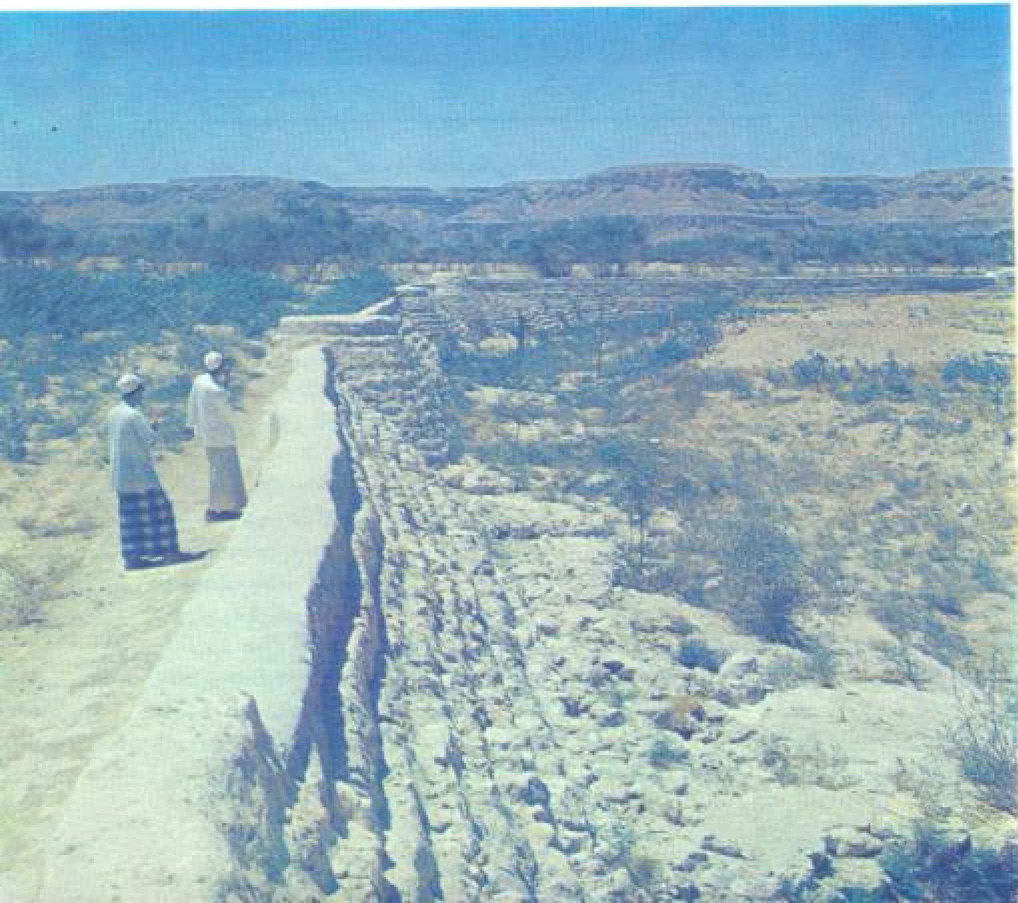
جزء تفصيلي من باب قديم





جامع المحضار

ضواحي المدينة





الواجهة الجنوبية للمدينة



شارع في شبام

زوايا القاعة . مما جعلني أتشوق لتناول بعض القهوة المركزة عقب وجبة كهذه وخاصة أن من هذه البلاد تأتي أنواع قهوة « الموكا » المعطرة بل إن في اليمن ميناء عند البحر الأحمر يحمل اسم « موكا » او مخا .

لكن ما يقدمه النادل الينا الآن في فناجين خزفية صغيرة لا علاقة له بالقهوة على ما يبدو ، اذ هو خليط شفاف ذو لون يميل الي الأصفر المخضوضي . سألت بحذر وتردد عما اذا كان هذا : شايا فسألني يعقوب بدوره الم تشربي « القشر » من قبل

ـ وما « القشر » ؟

ـ يعرف كذلك « بالقهوة البيضاء » . . . ويؤخذ من قشور ثمار شجيرات البن فيحمص ويطحن ويضاف الى مشروبه الزنجبيل والهال . . .

ويضيف مشجعا إياي قائلا :

ـ . . وشراب القشر هذا مهضم ممتاز ! . .

حينئذ جمعت أطراف شجاعتي وتناولت « القشر » والشوق يحملني الى مجالس القهوة المرة اللذيذة تحت خيام البدو في الصحراء لكن المقام لم يطل بي لعقد مقارنات أخرى بين العادات والشعوب إذ نادني صاحب الدار الى جناح « الحريم » ومثل هذا الجناح في ناطحات السحاب الحضرمية يتواجد دائما في الأدوار العليا لدواع أمنية بالطبع . وهنا أيضا تقوم الأسطح المحاطة بالجدران والمستخدمة للنوم صيفا في الليالي الشديدة الحرارة .

مع زنوبيا وأخريات

« زنوبيا » : : : ابنة الشيخ حسين اللطيفة ذات العينين الواسعتين غمرتنى بفيض من الوسائد الحريرية التي وجدتني بعد لحظات اكاد أغرق فيها ورأيت زنوبيا المنطلقة بثوبها الحريرى المقصب الطويل والمشدود الى قامتها بسلسلة من الذهب أقرب شبها بساكنة أحد قصور القرون الوسطى !!

وما ان اطمأنت زنوبيا الى إغراقها إياى بجميع وسائد البيت حتى قبعت أمامي على السجادة برشاقة وظرف بعد أن رفعت أطراف ثوبها الفهفاف . . ومضت تطرح على آلاف الاسئلة : عن أسرتي . . عن والدى واخوتي وأخواتي وأبناء عمومتي ثم عن عمرى وعدد أولادى وتساءلت : « لم أنت فقيرة الى هذا الحد فلا حلية من ذهب تزين جيدك أو يديك ؟ ! . . » ولم تدرك وهى ترثي





قصر في مدينة الناطحات

لحالي هكذا أن بامكاني أن أكون في أتم السعادة دون أن أزدان بالحلي والجواهر ! . .

وشعرت ببعض الضيق حينما أقبلت سيدة الدار مسربلة بدورها بأحلى الحلى والحلل وفي أثرها حشد من النساء بأثواب براقة وتحلق الجميع حولي مما أتاح لي أن اتنازل عن بعض الوسائد لهن وارتفعت أصوات الثرثرة والضحك والصياح وكأن الجمع في قفص لغرائب الطيور !! ذلك أن الاخوات والقريبات والجارات والصديقات قد تواعدن على اللقاء ههنا وكل منهن تروم منافسة الأخريات في الجمال والبهاء وروعة الملبس ! . .

وتنهمر الأسئلة على من جديد . وإذا بتلك النسوة اللابسات لأبهى الثياب ، المتبرجات بأحلى زينة يطلبن مني أن احدثهن عن مستحضرات التجميل . .

انا المغطاة بالغبار المتدثرة برداء صوفي خشن ذات الأنف الذى أحرقته الشمس والشعر الكث القذر ! . .

ولا شك في أن ما أعرفه عن المساحيق وأحمر الشفاة وكحل العين لايوازى جزءا يسيرا من معلومات الأميرات المتحلقات حولي ولا غرو في ان يكن قد توارثن أسرار الجمال عن ملكة سبأ الأسطورية

وأضحكتني الخاطرة . . وكانت ضحكتي وسيلة لبقة للتخلص من المأزق .

ولمحت استعدادا لتقديم قهوة حقيقية ذات حبوب من البن اليمني يتم تحميصها فوق الجمر . . فتثير رائحتها الزكية تلهفي الى الاستمتاع بمذاقها المميز .

لكن اللهفة سرعان ماتبددت حينما تبين لي أن تناول القهوة هنا هو وضع حبة من البن المحمص في الفم وطحنها ببطء بين الأسنان !!

ولم يكن امامي سوى مسايرة النساء في هذه التجربة الجديدة بالنسبة لي بعد تجربة منقوع « القشر » . فالقهوة في بلاد القهوة في جنوب الجزيرة العربية لاتشرب إذن بل تؤكل !! لكم تهيىء الأسفار لصاحبها من تجارب وتوفر له من معارف . . هيهات ان تدرك لولا الارتحال . . !

وتتويجا لجلسة مؤنسة كهذه تنقل وعاء البخور المشتعل من يد الى يد . . وكانت كل واحدة من النساء تنحني فوق الوعاء معرضة لعبقه الداخن شعرها المسترسل تحت خمارها .

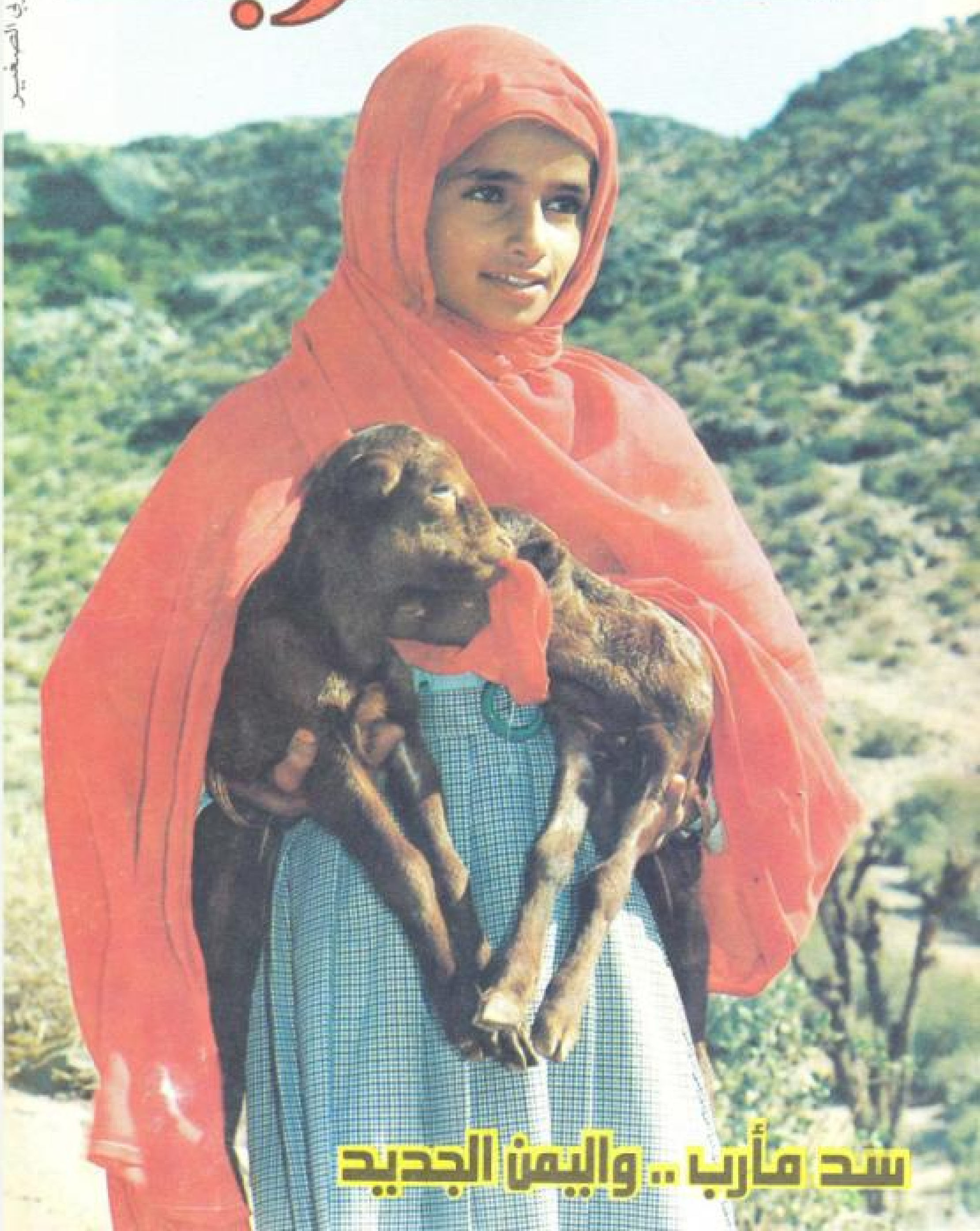
وهكذا يبدو أن قضم البن والتعطر بالبخور هما من صميم العادات الخاصة بهذه المنطقة .

وأخيرا غادرت هذا المبنى الحضرمي العالي منتشية بعبق البخور ومذاق البن وسعادة غامرة . . . ○

شوال ١٤٠٥ هـ - يوليو (تموز) ١٩٨٥ م

العربي

مع العدد: العربي الصغير



سد مأرب .. واليمن الجديد

العربي
عيونك على العالم

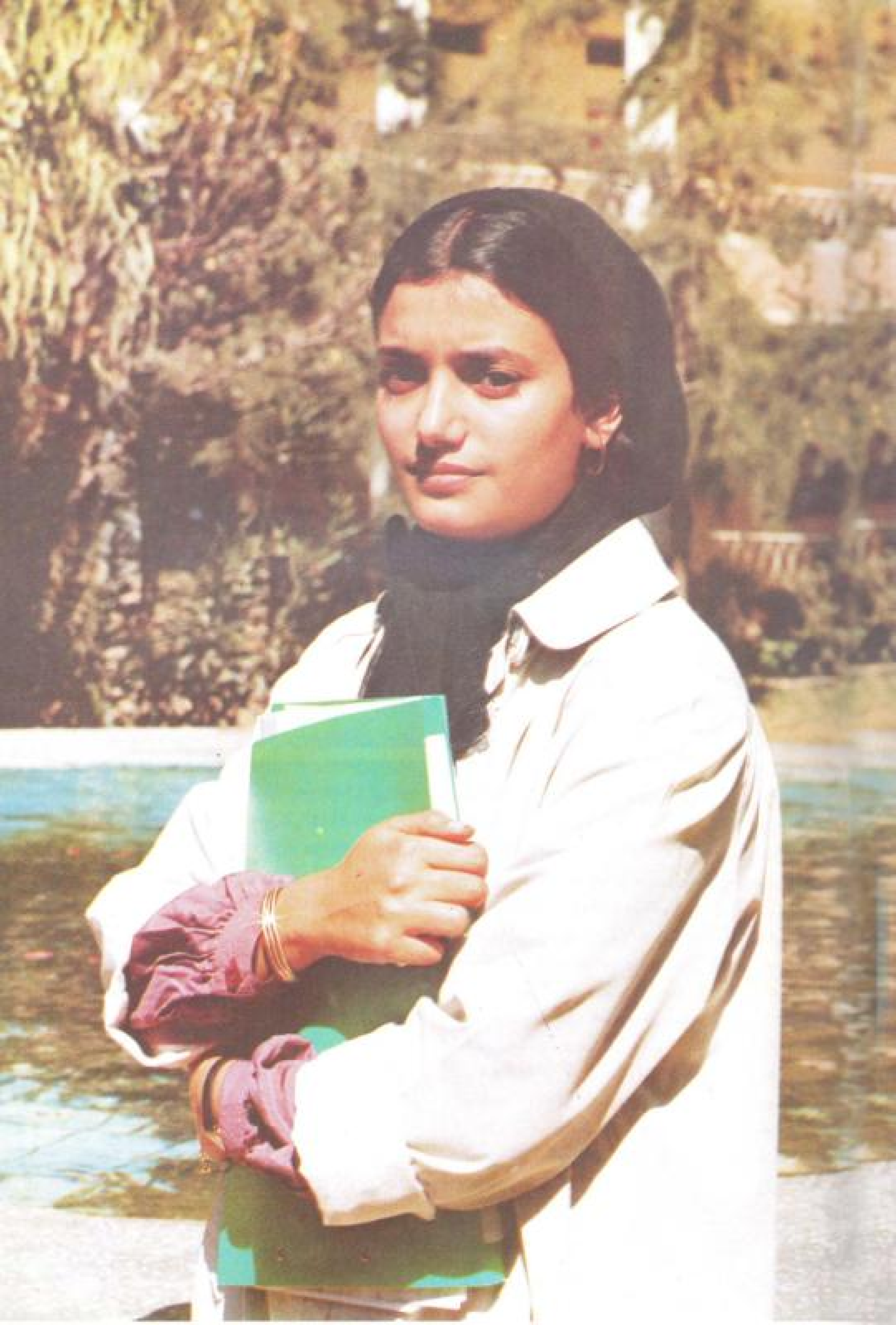
مأرب

واليمن الجديد

استطلاع : منير نصيف   تصوير : طالب الحسيني



مجموعة من طلبة جامعة صنعاء في المكتبة الجامعية   إن اليمن كلها تحاول اليوم أن ترتفع الى مستوى الجامعة
وفتاة جامعية تحمل الكتاب في الحرم الجامعي وتعلن في فخر استعادة حقها في التعليم



من منا لم يقرأ التاريخ .. تاريخ اليمن القديم وهو يحدثنا عن حضاراته التي دفنت تحت التراب وبقيت هناك قرونا طويلة .. في هذه الرحلة السريعة بين ربوع اليمن شهدت «العربي» قصة بلد نفض عن نفسه تراب النسيان، وخرج الى النور.. انها قصة اليمن الجديد الذي يلهث للحاق بركب الحضارة والتحديث.

ثمة شعور غريب انتابنا ونحن نقف في قلب هذا الوادي السحيق الذي تحتضنه الجبال الشاهقة .. وبين الأطلال التي عاشت تتحدى الزمن وتحكي لنا قصة أعظم وأقدم عمل هندسي في تاريخ شبه الجزيرة العربية .. انه شعور المرء الذي يواجه الواقع بعد رحلة الى عالم مجهول ..

المكان الذي وقفنا فيه نتأمل حكايته مع الزمن هو سد مأرب في اليمن الشمالي .. فقد كان مقصدنا ووجهتنا منذ أن بدأت الحياة تدب في هذه البقعة الأثرية القديمة من أرض اليمن، وتعلن للعالم أن الحضارات لاتموت .. فهي قد ترقد وقد يدوم رقادها لفترة طالت أو قصرت .. ولكن الحياة لاتلبث أن تدب فيها من جديد، لأنها حضارة.

كان سد مأرب حتى عهد قريب مجرد أثر من آثار اليمن، الذي يشد السائحين والزائرين الذين يبحثون في بطون الكتب ليقرأوا عن الحضارات التي سادت ثم بادت .. الى أن كان عام ١٩٨٤ في العيد الثاني والعشرين لثورة سبتمبر، التي أخرجت هذا البلد العربي الشقيق من عزلته، ووضعته في بداية الطريق نحو بناء مجتمع جديد لامكان فيه للتخلف الذي كان طابع الحياة في عصر الامامة، الذي فرض عليه العزلة عن كل مايمت الى العالم الخارجي وراء حدوده، المغلقة بصلة، من قريب أو من بعيد ..

لقد مضت الثورة تبني اليمن الجديد .. بفضل المساعدات التي قدمها ومازال يقدمها الاخوة العرب .. ومع حركة التحديث والبناء التي واكبت الثورة، جاء الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة الى مأرب، حاملا معه الهدية التي قدمها لشعب اليمن (٧٠ مليون دولار). وهكذا تحقق الأمل في احياء سد مأرب القديم ..

الحضارات لاتموت

قلت لمرافقنا بعد رحلة بالسيارة من صنعاء (العاصمة) الى سد مأرب، قطعنا خلالها مائة وسبعين كيلومترا في ثلاث ساعات .. قلت: «لو كان توينبي المؤرخ الكبير الذي عاش أطول رحلة في تاريخ التاريخ .. لو كان توينبي حيا اليوم، لما تردد في أن يعود الى كتابه «تجاربي» ليضيف اليه: «ان الحضارات لاتموت».

لقد كانت دراسة التاريخ عند توينبي رحلة ممتعة مليئة بالفكر والتأمل والعمق. ولقد قام هذا المؤرخ المعروف بعدة رحلات إلى أرضنا .. هنا في «الشرق الأدنى» خرج خلالها بعدة نتائج كانت في بعض جوانبها يناقض بعضها بعضا، فهو تارة يقول ان الحضارات لاتدوم، وتارة يؤكد أنها لا تموت .. كتب يقول في خاتمة أحد فصول كتابه الذي يروي فيه حكاياته مع التاريخ، ومع وقفاته أمام الآثار في شرقنا القريب: «هنا ترقد الحضارات الواحدة فوق الأخرى .. القلاع والمعابد والحصون ... كلها في بقعة واحدة .. حضارات فارسية ويونانية ورومانية وبيزنطية وفينيقية واسلامية .. لماذا ذابت واندثرت .. إنها لم تدم، ولكنني لا أظن أنها ستبقى طويلا تحت التراب»، ولقد رحل توينبي مع حيرته، وكانت أمنيته أن يرى الحياة تدب من جديد في الحضارات التي وقف أمام اطلالها، فقد كان توينبي يقف في حزن وهو يتأمل تلك الأطلال من حوله، تماما كما كان يجلس ويسرح بفكره عندما يخلو الى نفسه، ويتذكر الأصدقاء الذين ضحوا بأرواحهم في الحروب من أجل حياة أفضل .. وكثيرا ماكان يخرج منديله من جيبه ليمسح دمعة حاول أن يحبسها.

أرض الجنتين

ربما طال بقاء السد القديم تحت التراب .. ولكن هاهي الحياة تعود اليه بعد أكثر من ألفين وخمسمائة عام .. لقد وقفنا فوق مانبقى من جسم السد وبواباته القديمة والأحجار الضخمة التي شيد بها ، وقد تناثرت هنا وهناك في الوادي السحيق ، الذي كان يمتلىء بمياه الأمطار المتساقطة ، والذي كانت مياهه تروي مساحة هائلة من الأرض تمتد من مأرب الى حضرموت (في اليمن الجنوبي الآن) .. وقفنا وتطلعنا حولنا نبحث عن أرض الجنتين التي جاء ذكرها في القرآن الكريم .. فلم نجد لها أثرا ..

ان أحدا لايعرف على وجه التحديد من هو أول من قام بانشاء هذا السد ،حتى كتب التاريخ القديمة والحديثة في حيرة من أمر صاحبه .. من يكون ؟ فالبعض يعتقد أن باني السد هو « سبأ بن يشجب » والبعض الآخر يقول بل هو « سمهو على ينوف » وابنه « يثعمر » ، وكلاهما من ملوك القرن الثامن قبل الميلاد ، مستندين في ظنهما الى النقوش التي كشفوا عنها على جدار السد الذي أعيد ترميمه بعد ذلك في عامي ٤٧٠م ثم ٥٤٣م .

ويقع السد على بعد أربعة كيلومترات من مدينة مأرب القديمة ، التي يقال أن آباء الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ، ينحدرون منها .. ويستقر البناء القديم في وادي « ذنة » وهو مضيق منخفض تتجمع فيه المياه من المرتفعات التي تحيط به ، وهناك ثلاثة وديان رئيسية تصب فيه مياهها هي ذمار ومأهلية وسبأ ، الى جانب الوديان الأخرى الصغيرة ..

وفي هذه البقعة التي وقع عليها اختيار أجدادنا منذ قرون طويلة مضت ، سوف يقام السد الجديد الذي احتفل الشيخ زايد مع أخيه رئيس جمهورية اليمن العقيد علي عبد الله صالح بوضع حجر الأساس في اليوم الأول من شهر اكتوبر من العام الماضي ..

سد مأرب الجديد

ومشروع بناء السد الجديد الذي تقوم بتنفيذه احدى الشركات التركية ، يستهدف تجميع مياه



دخلت الطائرة لتربط بين مدن اليمن الرئيسية ، ولكن مازالت الطرق البرية تشكل حلقة اتصال هامة بينها

السيول الناتجة عن تساقط الأمطار فوق مساحة من الأرض ، تقدر بحوالي عشرة آلاف كيلومتر مربع ، للاستفادة منها في موسم الجفاف ، ويقدر متوسط تصريفها السنوي بحوالي مائتي مليون متر مكعب ، داخل خزان السد الذي تصل سعته الى ضعف هذه الكمية من المياه ، حتى يمكن اختزان المزيد منها عندما تكون السماء أكثر سخاء .

اما ارتفاع جسم السد فسوف يصل الى تسعة وثلاثين مترا ، وطوله سبعمائة وثلاثة وستون مترا ، وعرضه من أسفل مائة وخمسة وتسعون مترا ، ومن أعلى ستة أمتار ، ويبلغ حجم الردميات للسد ، او السد الترابي ، مايقرب من الثلاثة ملايين متر مكعب .

وقد وضعت التصميمات على أساس تمرير مياه الري خلال نفق بالجانب الأيمن للسد ، يبلغ قطره حوالي مترين ونصف المتر ، وطوله مائة وخمسة وتسعون مترا ..

ولانريد أن نمضي في التفاصيل ، فهي مازالت على الورق ، وان كان العمل قد بدأ في بنائه وهو يسير



مبنى جامعة صنعاء القديم .. لقد كانت الجامعة هي هدية دولة الكويت لليمن الشقيق



الشباب اليمني الجديد المتعلم أمل المستقبل .. محاضرة في جامعة صنعاء .



واجهة أحد المباني الحديثة بجامعة صنعاء التي تخرج منها الآف الطلبة والطالبات منذ قيامها



وخرجت المرأة اليمنية من وراء جدران بيتها الذي لم تكن تبرحه لتمارس حقها المشروع في تلقي العلم لأول مرة منذ قرون طويلة..

سريعا ، وقد انتشرت الآلات والمعدات في الموقع ، وتجمع الرجال الذين يحملون عبء البناء .

ماذا تعني اعادة بناء سد مأرب ؟ يقول الدارسون : « ان العائد الاقتصادي سوف يصل الى أربعة عشر بالمئة سنويا . وانه سوف يحقق زيادة في المساحة المزروعة في منطقة المشروع تصل الى ثلاثين الف هكتار ، أي مايوازي مائتي مليون متر مربع ، وذلك بفضل اتباع النظم الحديثة في الري ، كالري بالرش والتنقيط ، والري المحوري .

وسوف يحقق السد بعد ذلك ضمان توافر المياه بصفة دائمة طوال أشهر السنة ، الى جانب حماية الأراضي الزراعية من الانجراف بفعل السيول والفيضانات . هذا العمل الهندسي الرائع الذي ظل يبعث الحياة الى الأرض في السهول والجبال الخصبة على مدى قرون طويلة في اليمن القديم ، ماالذي حل به وكيف تحول الى انقاض وأكوام من الحجارة ، وقد كان شريان الحياة في هذه الأرض الطيبة ؟ ألم يكن ممكنا أن يبقي ويمضي في العطاء ، وهو الذي دخل التاريخ كأحد المعالم الحضارية الخالدة التي تؤكد عظمة وشموخ الانسان العربي ، الذي كان له دور بارز واسهام كبير في تشييد الحضارة الانسانية القديمة ؟

خواطر ألحت على ونحن نسير فوق انقاض السد الذي كان ! واقف متأملا عند أطراف بوابة التاريخ ، وسط السهل القابع عند سفح الجبال الشاهقة ، التي زال من حولها كل أثر للحياة ، وبقيت هي، تتحدى الزمن وتحكي لنا صفحات من التاريخ .

الفأر هدم السد

وقلت لمرافقنا : « كيف تهدم السد ؟ »

وقال : « لن تجد مرجعا واحدا يقول لك كيف ، ولا متى انهار هذا البناء العظيم ، ولكنك سوف تجد حتما تلك الأسطورة التي تناقلتها الأجيال عبر القرون .. اسطورة الفأر الذي ظل يأكل في جدار السد والناس من حوله في عجب مما يحدث أمامهم ، دون أن يخطر على بال أحد منهم أن وراء هذا التخريب في جدران السد القوية فأرا صغيرا أو كبيرا . ولم يستطع أحد حتى الآن أن يكتشف سر هذه القدرة الهائلة التي استقرت في أسنانه ، التي كانت أقوى من أي معول من معاول الهدم والتدمير .

ـ وهل عثروا على الفأر ؟

ـ تقول الأسطورة انهم وجدوه غارقا بعد ذلك في مياه السد عندما راحت تتدفق بقوة ، لتجرف معها كل شيء قام في طريقها .. فقد أغرق الطوفان اليمن ..

في الطريق الى تعز

في اليوم التالي ، كنا على موعد مع مدينة تعز وهي أجمل مدن اليمن على الاطلاق .. المسافة بينها وبين صنعاء العاصمة حوالي أربعمائة كيلومتر ، تقطعها السيارة في ثمان ساعات ، الطريق اليها ممهد ، ولكن أي طريق ؟ انها أشبه بأفعى تتلوى في قلب الجبل .. انها سلسلة جبال سمارة التي تمتد من الشرق الى الغرب ، جبال شاهقة ترتفع عن سطح البحر بحوالي ألف وخمسمائة متر ، وأكثر من ذلك في بعض أجزائها .. وهكذا اليمن كلها .. الجبال المرتفعة تحتضن قراها ومدنها .. الجبل دائما هناك يطالعك في أي مكان وفي كل مكان تذهب اليه .. ولكنك عندما تقترب منه وتزحف بسيارتك التي تسير في الطريق الذي شق في بطنه ، لاتملك الا أن تقف حائرا مشدوها ، وقد تملكك شعور بالرهبة والخوف أحيانا ، اذا نزلت قليلا وتطلعت الى السفح .. أو اذا حاولت أن تجول بعينيك في هذا الفراغ الهائل الذي لايلبث أن يصطدم بالجبال ، قبل ان تعرف من أين بدأ . انك في هذا المكان الصغير الذي تجلس فيه داخل سيارتك لاتستطيع أن تمنع نفسك من الاحساس بتفاهة الانسان وعظمته .. فأين مكانه من هذه الطبيعة القوية القاسية ؟ انك بالكاد ترى الناس الذين يعملون ويفلحون الأرض من هذا الارتفاع الشاهق ، وكأنهم مخلوقات لاتزيد في حجمها عن دمى الأطفال .. ولكن الانسان نفسه هو الذي أتاح لك فرصة الوجود في هذا المكان الذي تطل منه ، وأنت ماض في طريقك تزحف بسيارتك .. فهو الذي تحدى الجبل ، وراح يضرب في صخوره ليشق لك الطريق الذي تقف فيه ، وتشرف منه على الطبيعة من حولك .



المرأة تقوم بكل أعمال الرجل ، لأنه غائب ، فهو يهاجر الى الخارج من أجل الرزق والعيش ، ويتركها وراءه لتعنى بالبيت والحقل

وقبل الثورة كانت الرحلة بالسيارة عبر الجبال الى أي مدينة من مدن اليمن ضربا من المغامرة .. فقد كانت الطرق ضيقة غير ممهدة ، قد تصلح لدابة تسير عليها في حذر ، ولكنها تضيق بالسيارة التي كثيرا ماكانت تسقط بركابها الى السفح ، حيث تنتهي رحلتهم مع الحياة هناك في القاع .. أما الآن فقد اتسعت الطرق الجبلية وأصبحت ممهدة من أجل وحدة أرض اليمن ووحدة شعبه ..

الطائرة هناك ... ولكن

لقد حملت مسيرة التحديث الطائرة الى اليمن ، وأصبحت رحلاتها الداخلية تربط بين كل أجزاء البلاد القريبة والبعيدة ، ولكن بقي بعد ذلك الطريق البري ، الذي لاغنى عنه من أجل دعم اقتصاد البلاد وربطها ، وسيلة أساسية للاتصال ، ويجد فيه السائح متعة لاتتاح له اذا ركب الجو ، وحبس نفسه داخل هذا الصندوق الضيق الذي لايتيح له أن يرى من وراء زجاج نوافذه الصغيرة أكثر من قمم الجبال العالية .

ونعود الى رحلتنا التي بدأناها في الصباح .. لقد كنا نتوقف عند كل شيء يمت الى مهمتنا بصلة .. ولكن ماهي هذه المهمة ؟ .. لماذا جئنا الى اليمن ؟ لقد كانت مهمتنا تنحصر في أن نكتب عن هذا القطر الشقيق ، من خلال النهضة التعليمية التي تشهدها البلاد ، وأثرها على التنمية الاقتصادية ، وعن سد مأرب الذي بدأت الحياة تعود اليه بعد هذا الرقاد الطويل ، وماسوف يترتب على قيام هذا السد من تطور في الزراعة والمشروعات الزراعية .

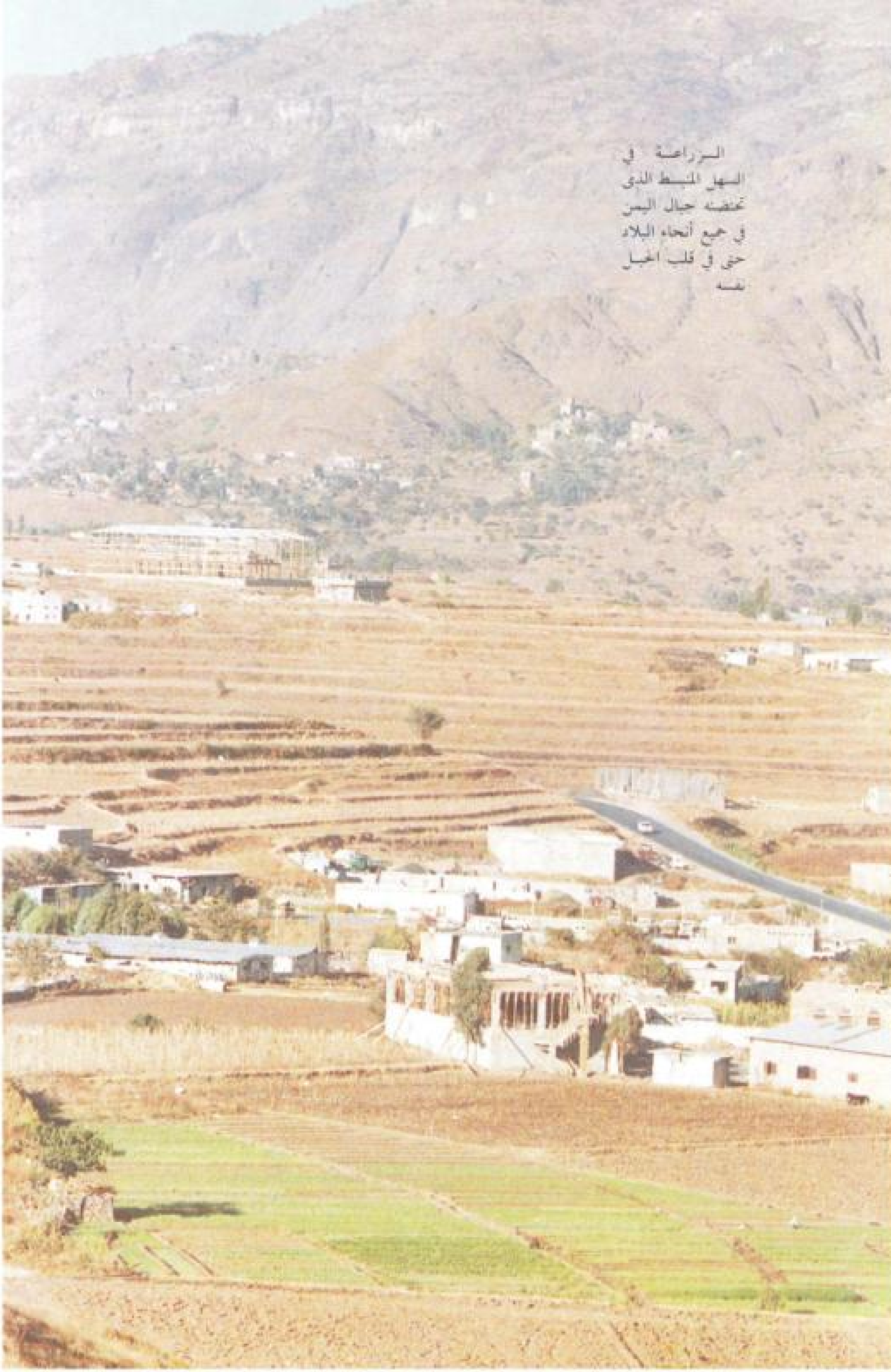
وكلها عناوين جانبية تقع تحت عنوان عريض ، هو التحديث في اليمن ، أو اليمن الجديد ..

ونمضي في رحلتنا في بطن الجبل .. ونجول بعيوننا من حولنا .. البيوت الصغيرة شيدت فوق الجبل ، المزارع الخضراء تكسو الأرض عند السفح ، وفي كثير من أنحاء الجبل نفسه .. فقد كانت المدرجات الخضراء ترتفع الواحدة فوق الأخرى ، وقد اكتست كلها باللون الأخضر .. لون الحياة .. فالتربة خصبة ، ومياه الأمطار في الصيف تروي الأرض التي انتشرت فيها الحبوب ، التي تساقطت من الثمار في الخريف .. حبوب المحاصيل التي جنوها وأكلوها .. ذرة وقمح وخضراوات ، وفواكه في البساتين ..

جئنا على غير موعد

قال لنا مرافقنا : أنتم لم تروا اليمن الأخضر ، كما يبدو في موسم الزراعة ، ان كل شبر من هذه الأرض الواسعة الشاسعة يكسوه الزرع .. ومع هذا فلا يخلو اليمن من الزراعة على مدار السنة ، لأن الطقس عندنا يختلف من منطقة الى أخرى ، طبقا لارتفاعها عن سطح البحر واعتدال جوها أو ارتفاع درجة الحرارة فيه .. لو أن موعد زيارتكم لنا قد تقدم بعض الشيء أو تأخر لرأيتم المزيد مما جئتم تبحثون عنه .

ومن بعيد ، عندما استوى الطريق أمامنا وهبطنا



الزراعة في السهل المنبسط الذي تحتضنه جبال اليمن في جميع أنحاء البلاد حتى في قلب الجبل نفسه



سد مأرب . أو ما تبقى منه .. أحد المعالم الحضارية القديمة التي تشهد بعظمة الانسان العربي ، الحياة تعود إليه من جديد



الآلة في موقع السد . والعمل يجرى على قدم وساق لإعادة بناء سد مأرب القديم



عمر هذه الشجرة من عمر اليوم الذي احتفل فيه شعب اليمن ببدء العمل في السد



الثروة الحيوانية وتنميتها تلقى عناية الدولة .. مجموعة من الأبقار الفريزيان في إحدى مزارع تربية الحيوانات .

من الجبل لاحت لنا صورة لم يكن ممكنا أن تمر أمامها دون أن تستوقفنا .. كانت مجموعة كبيرة من الأبقار ترعى في احدى المزارع النموذجية .. وذهبنا اليها .. إنها مزرعة رصابة ، سميت بهذا الاسم نسبة الى قرية رصابة التي دمرها زلزال اليمن منذ بضع سنوات خلت ، وهي أكبر قرى اليمن .

قامت المزرعة في عام ١٩٨٠ ، عندما استوردت اليمن مجموعة كبيرة من الأبقار الحلوب « الفريزيان » من انجلترا ، وقد كبرت المزرعة خلال السنوات الخمس الأخيرة ، وارتفع عدد الأبقار فيها ، وانتجت أعدادا كبيرة من العجول التي قاموا بتسمينها وبيعها للسوق المحلي ، ووزعت أعداد من الأبقار على المزارعين للتهجين ..

ونترك مزرعة الأبقار ونمضي .. ولكننا لانلبث أن نتوقف مرة أخرى عند مجموعة من الحظائر التي انتشرت في بقعة أخرى على الطريق المنبسط أمامنا ، قبل أن نصعد الى الجبل من جديد .. انها شركة سبأ للدواجن ، وهي شركة مساهمة يمنية انشئت برأسمال كويتي ـ مصري ـ يمني .

قامت الشركة عام ١٩٧٩ ، وكان الهدف منها انتاج دجاج اللحم ، وانتاج الأعلاف ، وأخيرا «الكتكوت» الذي يوزع في السوق المحلي على الفلاح الذي يتولى هو مهمة تربيته وتسمينه ، تحت اشراف المهندسين الزراعيين بالشركة ..

وقد بلغ الانتاج في العام الواحد أكثر من مليونين ونصف مليون دجاجة للاستهلاك المحلي ، عندما بدأت رحلة الشركة معها ،كانت « كتاكيت » صغيرة عمرها يوم واحد ، حملتها الطائرات الخاصة المعدة لنقل « كتاكيت » من أوروبا الى اليمن .. ويتكلف استيراد«الكتكوت»الواحد مايقرب من ثلاثة ريالات يمنية ، ويباع بعد تربيته وتسمينه بحوالي أربعة عشر ريالا ، وتبدأ عملية البيع بعد مرور ستة أسابيع على وصوله بالطائرة الى حظائر تربية الدواجن .

شركة سبأ واحدة من أربع شركات كبرى تقوم بانتاج الدواجن والبيض ، ومن المتوقع أن تحقق اليمن اكتفاء ذاتيا في الدواجن خلال خمس سنوات .

ونعود الى رحلتنا مع الجبل ... الطريق الى تعز يبدو كما لو كان بلا نهاية ، ولكن الرحلة ممتعة ، رغم

أنها طويلة محفوفة بالمخاطر ، أو هكذا خيل لنا ، ولكن ابتسامة سائق السيارة التي لم تفارق شفتيه أبدا ، نجحت في أن تبدد مخاوفنا بعض الشيء .

ووصلنا والشمس توشك على الغوص في الأفق البعيد ، لقد بدأ الظلام يكسو المدينة ، ومن شرفة الفندق الذي نزلنا فيه رأينا تعز بالليل . . مدينة جبلية عالية تسبح في الأضواء . . أفواج السائحين الذين ازدحمت بهم الفنادق كادت تهددنا بالمبيت في المقاعد التي لم نفترق عنها في السيارة طوال الرحلة ، لولا تدخل الاخوة الذين عثروا لنا على غرفة في فندق « الأخوة » . ففي تعز مطار دولي تهبط فيه الطائرات القادمة من كل انحاء العالم .

في ريف تعز

وفي الصباح كنا على موعد مع تعز الخضراء . . مع مياهها المخزونة التي تتدفق بحساب لتروي الأرض . . ومع المشاتل التي تنتشر في جميع أنحاء المدينة خارج المناطق السكنية . . ومع الريف وحياة أهله التي تتسم بالبساطة والقناعة والكفاح والصبر .

وفي وسط كل هذا ومعه ومن حوله ، كانت المرأة اليمنية هناك . . انها تقوم بدور اساسي لأن الرجل في أغلب الاحيان غائب عن البيت انه مهاجر وراء الحدود ، في بقية أقطار الوطن العربي ، وفي السعودية والكويت وبقية دول الخليج بصفة خاصة ، حيث يعمل من أجل رزقه وعيشه . وهو يذهب وحده ، تاركا امرأته وأطفاله وراءه . . فتراها في الحقل تزرع الأرض ، وتجني المحصول ، وتعني بتربية أبنائها ، وترعى حيواناتها . . انها مسؤولة عن تسيير دفة الحياة في غيبة رجلها .

ورأينا المرأة اليمنية في الشارع وفي المدرسة وفي الجامعة . . الجيل القديم منهن مازال يختفي وراء الحجاب الذي جاء به الأتراك أيام الحكم العثماني . . أما الجيل الحديث المتعلم ، فيكتفي بغطاء الرأس . .

الحقل هو المكان الوحيد الذي رأينا فيه المرأة اليمنية بلا حجاب . . فهو مملكتها في بلد يعمل ٨٥٪ من اجمالي القوى العاملة فيه بالزراعة . .

من أجل هذا اهتمت ثورة اليمن بهذا القطاع ، وأعطته الأولوية في التنمية ، تمشيا مع أهداف الثورة . .

ومن أجل هذا أيضا أولت الدولة اهتماما خاصا بالتعليم ، ايمانا منها بأن التربية وخطة التنمية الشاملة أمران متلازمان . . لايمكن لأحدهما أن يتحقق دون الآخر . .

لم يكن اليمن يقف وحده عندما ثار الشعب على التخلف وعلى حكم « الامامة » الذي عاش في ظله معزولا عن العالم الخارجي القريب والبعيد . . فقد وقفت معه الشعوب العربية تسانده وتؤيده بالرجال والمال . . وكانت التضحيات كبيرة والمال كثير ، وقام اليمن الجديد .

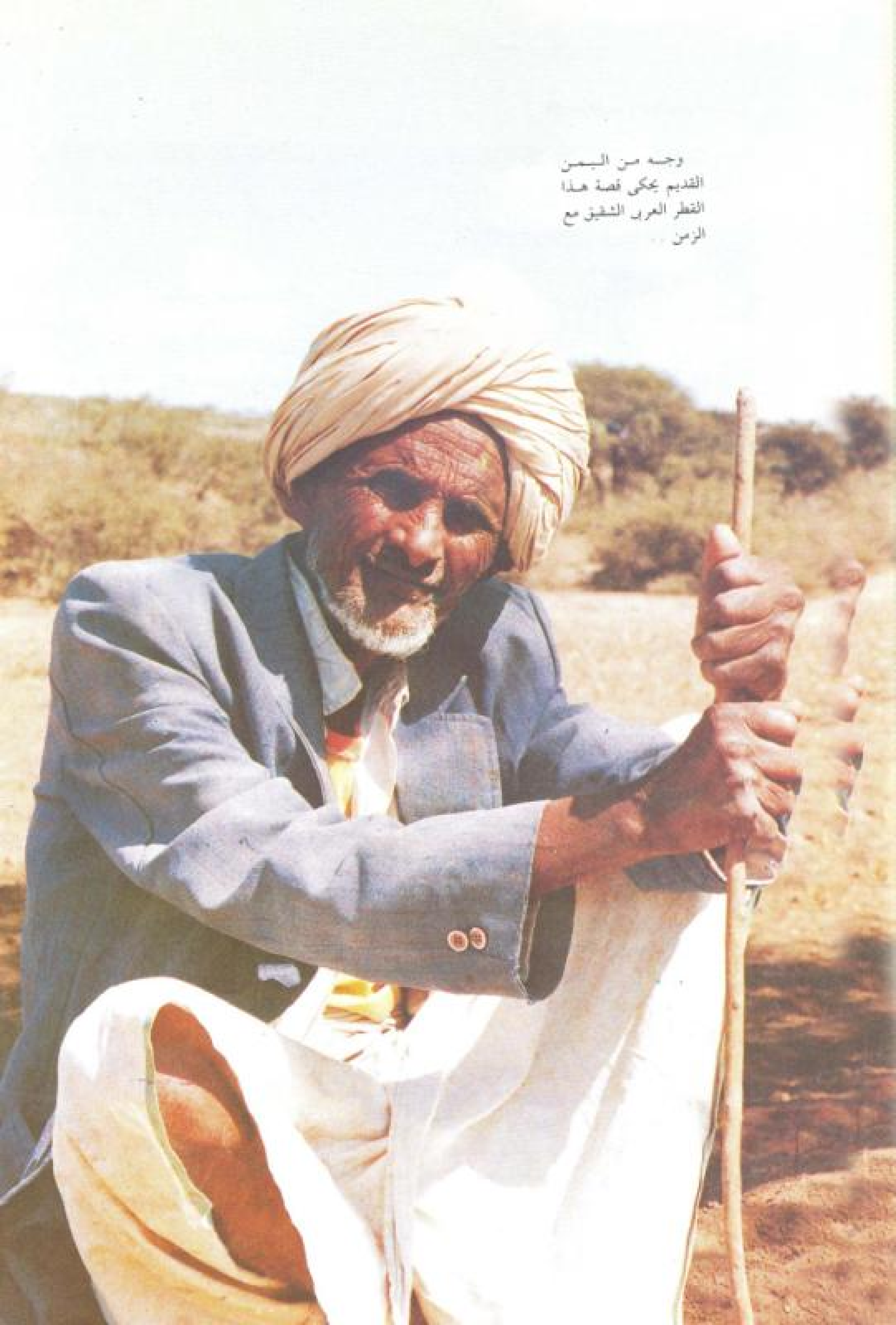
وعندما استقرت الأمور في اليمن وبدأ الشعب يخرج من حالة السبات التي كان يعيشها . . بدأت رحلة بناء اليمن الجديد . .

قال لنا مسؤول عربي كبير : « لقد كانت الكويت سباقة ، كعهدنا بها دائما ، فما كادت تنقضي بضعة أشهر على قيام ثورة اليمن ، حتى بدأ مكتب دولة

سد مأرب في العلم الوطني

علم الجمهورية العربية اليمنية يحكي قصة اليمن ، فهو يتكون من ثلاثة الوان ، اللون الاسود ويرمز الى عهد الظلام والحكم الرجعي ، والأبيض ويرمز الى مبادىء الثورة ونقائها ، يتوسطه نجم أخضر يرمز الى اليمن الخضراء ورخائها ، ثم اللون الأحمر يرمز الى الثورة .

أما شعار اليمن فهو النسر الذي يرمز الى قوة الشعب وانطلاقه الى أفق التحرر ، باسطا جناحيه على العلم الوطني ، كما نقش به رسم يمثل سد مأرب ثم شجرة البن باعتبارهما من أبرز معالم اليمن .



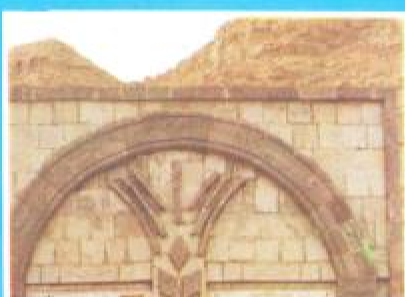
وجه من اليمن القديم يحكى قصة هذا القطر العربي الشقيق مع الزمن . .





قرية صغيرة بطابعها القديم وملابس أهلها التقليدية .

أشجار الفاكهة وحدها هي التي تتجدد مع الربيع .



اللوحة التذكارية التي تعلن عن قيام سد مأرب الجديد . أضخم مشروع في اليمن الجديد .



شعار الدولة يحكي قصة اليمن قبل وبعد الثورة مع شجرة البن الشهيرة وسد مأرب .

الكويت في صنعاء نشاطاته ، وكان ذلك في مطلع عام ١٩٦٣ .

كنت طبيبة في اليمن

كانت صورة الحياة في يمن « الامامة » قاتمة مخزية . . وكانت الحياة نفسها مهددة بالزوال ، نتيجة للأمراض والأوبئة التي كانت تفتك بأبناء اليمن . وفي كتابها « كنت طبيبة في اليمن » كتبت المؤلفة ، وهي فرنسية انها كانت تمارس الطب في قصر الامام ، ولمست بنفسها مدى الخطر الذي يتهدد أرواح أبناء هذا البلد ، نتيجة لانعدام الرعاية الصحية في كافة أنحاء اليمن . . كتبت تقول : « سوف ينقرض هذا الشعب بعد مائة سنة ، ان لم يتغير الوضع في اليمن »

وترجم الكتاب الدكتور محسن العيني رئيس وزراء اليمن الاسبق وسفيره الحالي في بون .

لقد صدر هذا الكتاب قبل نشوب ثورة اليمن بحوالي ثلاث سنوات ، وكأن المؤلفة كانت تتنبأ بحدوث التغير الذي اخرج البلد العربي الشقيق من تخلفه وعزلته .

دور الكويت

ونعود الى مكتب دولة الكويت في صنعاء . . ماكادت تنقضي بضعة أشهر على قيام الثورة حتى بدأ المكتب يعمل . . وكان حجم العمل كبيرا . . وكان لابد من البدء فورا . . وكانت البداية من حيث يجب أن تكون ، وعلى الفور بدأ العمل في بناء المدارس الابتدائية والاعدادية ، ثم بناء المستوصفات والمستشفيات في المدن الرئيسية . . التعليم والصحة كانا الحجرين الاساسيين في تطوير حياة هذا الشعب ، والخروج به من حياة أهل الكهف التي كان يعيشها .

ومضى المكتب في خطته التي استهدفت الارتفاع بمستوى التعليم ، فقام بتنفيذ بناء العديد من المدارس الثانوية للبنين والبنات على حد سواء . . فقد كانت المرأة محرومة من حقها في التعليم ، وكان الفتى بدوره محروما من التعليم الحديث أيام الامامة ، قانعا بالتعليم المحدود في الكتاتيب .

وتخرجت أعداد كبيرة في المدارس الثانوية من الجنسين . . ولم يكن ممكنا أن يتوقف طلب العلم عند هذه المرحلة المتوسطة . . وهنا جاء دور الهيئة العامة للجنوب والخليج العربي ، التي بادرت ببناء الكليات التي أصبحت فيما بعد نواة لجامعة صنعاء .

جامعة صنعاء هدية الكويت

لقد كانت الجامعة في مقدمة برنامجنا . . وذهبنا اليها وجلنا بين أقسامها وزرنا مبانيها القديمة والحديثة . . كان مولدها في شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠ ، وقامت الجامعة لتشارك في حمل راية التقدم العلمي ، ولتسد حاجة اليمن في مرحلة تطوره بالمتخصصين والفنيين والخبراء في شتى المجالات . . وكانت هذه الجامعة التي أصبحت اليوم بحق من الجامعات الهامة في الوطن العربي ، هي « هدية » دولة الكويت لشعب اليمن الشقيق .

وفي دليل الجامعة الذي قدم له مديرها بعنوان « جامعة صنعاء في عشر سنوات » اشادة بدور الكويت في قيام هذا الصرح العلمي ، فقد قال الكتيب الذي حوى معلومات وافية عن تطور الجامعة وعدد طلبتها في كل سنة دراسية من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٨٠ ، قال الكتيب : « ولقد كان للمساهمة الفعالة لدولة الكويت أثر كبير في انشاء هذه الجامعة »

ومازالت هذه المساهمة تلعب دورا أساسيا في نمو وتطوير جامعة صنعاء حتى اليوم » جامعة كاملة متكاملة بجميع كلياتها وأقسامها . . يشد الزائر اليها عدة اشياء ليس في حاجة لان يبحث عنها ، فهي ماثلة أمامه . . ومن بينها وفي مقدمتها النظام الذي يلمسه في مبانيها الحديثة ، وفي مكتبتها الحافلة بالكتب والمراجع ، ثم في هيئة التدريس التي تضم مجموعة من ابرز الأساتذة العرب . . وأخيرا في السكن الجامعي الذي خصص جانبا منه للطلبة وجانبا آخر للطالبات . والرعاية التي يلقاها هؤلاء وهؤلاء ابتداء من وجبات الغذاء التي تقدم لكل الطلبة بأسعار رمزية ، الى الرقابة الصحية التي يخضع لها الجميع من أجل اقامة مجتمع سليم خال من الأمراض داخل الحرم الجامعي وخارجه .



المشاتل تنتشر في جميع أنحاء اليمن لاستنبات نوعيات جديدة من المزروعات .

ولعل اخر مشروع تموله دولة الكويت لاستكمال كليات الجامعة ، هو مشروع بناء كلية الطب التي وقع عقد انشائها بمبلغ أحد عشر مليون دينار كويتي ، غير التجهيزات التي سيرصد لها مبلغ أضافي بعد اكتمال مباني الكلية .

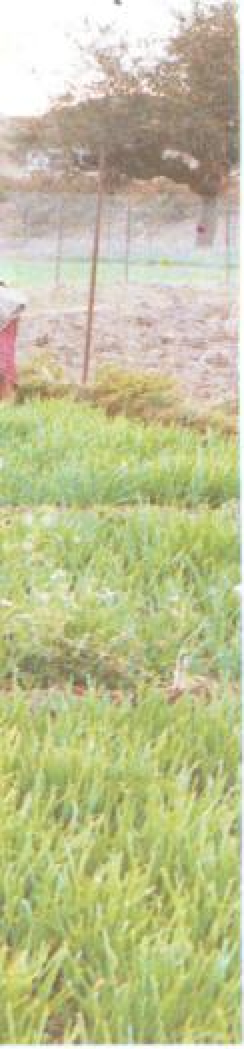
هكذا كان الارتباط بين التعليم وخطة التنمية في اليمن .. وربما نجد في عدد اساتذة الجامعة الذين يزيدون اليوم عن مائتي أستاذ ومساعد استاذ ومدرس ، وعدد المدرسين في مدارس اليمن في مختلف مراحل التعليم حتى الثانوية العامة الذين يزيدون على ستة وعشرين الف مدرس .. ربما نجد في هذه الاعداد مايغنينا عن البحث عن آخر احصائية لهؤلاء الذين يتلقون العلم اليوم الذين تخرجوا في جامعة صنعاء على مدى السنوات الخمس عشرة التي مضت على انشائها ، ويقدمون اليوم دراسات عليا أكملها الكثيرون منهم .

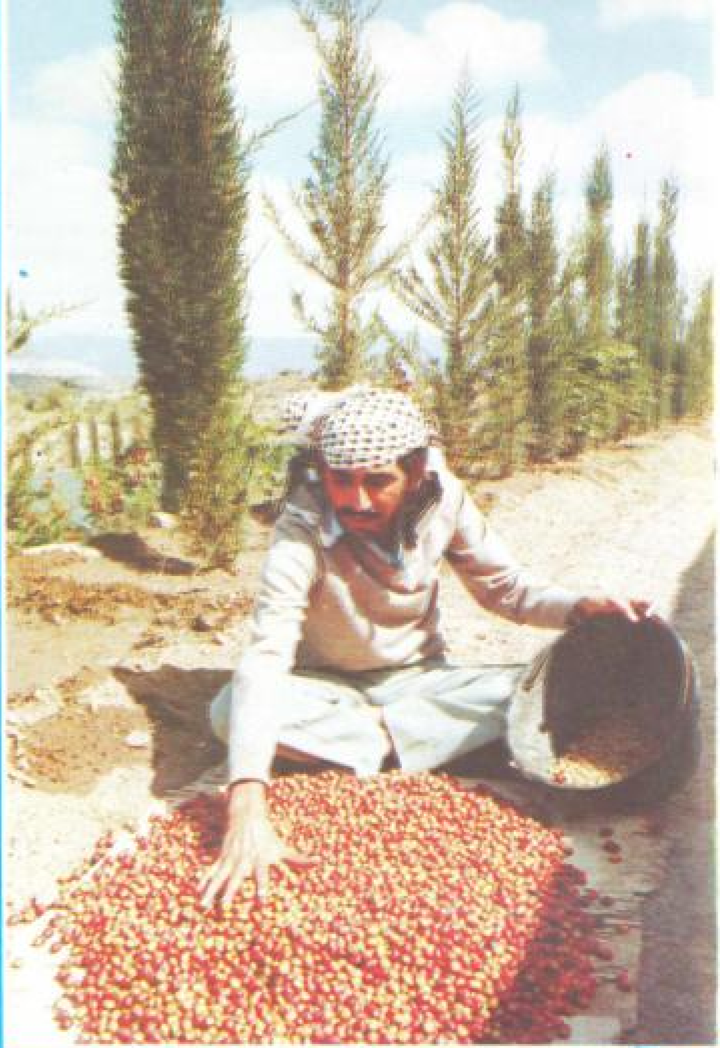
حجة .. معقل الثوار

ثم ماذا ؟ ..

في احدى المدارس الثانوية في صنعاء قرأنا في كتب التربية الوطنية عن مدينة اسمها « حجة » .. ومشينا سريعا مع السطور لنصل الى قصيدة كتبها شاعر عربي معروف بعد زيارته « لحجة » منذ سنوات بعيدة في اعقاب الثورة التي غيرت وجه اليمن .. واصبحت القصيدة اليوم مقررة على طلبة المدارس الثانوية .

ولكن لماذا « حجة » ؟ لانها كانت معقل الثوار ، وهي مدينة جميلة تبعد عن صنعاء بحوالي مائة وخمسين كيلومترا الى الشمال الغربي منها .. وقد كانت هذه المدينة الصغيرة معزولة تماما عن الكثير من المدن اليمنية ، لصعوبة الوصول اليها بسبب ارتفاعها الكبير فوق قمم سلسلة جبال شاهقة ، وخطورة الطريق المؤدي اليها ..





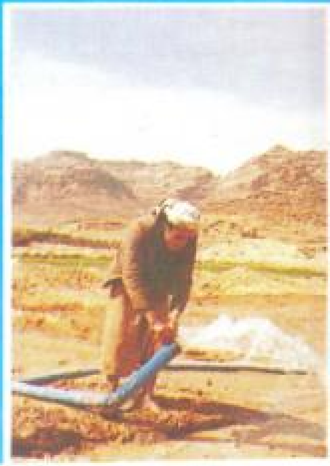
البن اليمني الشهير قبل تجفيفه وإعداده للاستهلاك والتصدير



شلالات صغيرة
من المياه المعدنية التي
اشتهرت بها المناطق
المحيطة بمدينة تعز
الحالمة



الأسرة كلها في الحقل .. فالزراعة تشكل أهم مورد للدخل القومي في البلاد





الفلاح مع الماء يروي به أرضه .
ومع أشجار البرتقال في بساتين مدينة تعز . أجمل مدن اليمن

ومنذ سنتين أو ثلاثة شقت الدولة طريقا جديدا الى حجة ، في قلب الجبال المخيفة التي لابد من اجتيازها للوصول اليها . . وزارها من كان يسمع عنها وعن جمالها ، وكان بين زوارها الشاعر صاحب القصيدة التي يحفظها طلبة المدارس في صنعاء . .

قال الشاعر فيها . .

ملئت مُهجتي سرورا وبهجة
حين أبصرت معقل « الحسن » حجّة
بلدة غير انها تسلب اللُّب
تسبى القلوبَ من غير ضجة
بيتٌ في السماء فالناس فيها
كل شخص يرعى حواليه بُرْجه
تتباهى بها الجبال ويعنو
تحتها مرع بداعب مرجه

أما الشاعر صاحب القصيدة فهو الاستاذ أحمد السقاف . واما نحن فقد تأخرنا وكان لابد لنا ان نختار بين زيارتنا لحجة وبين اللحاق بالطائرة . . وقلنا : نعود اليوم الى عملنا ونترك حجة لزيارة أخرى . الم يقولوا لنا ان المواطن العربي ليس في حاجة الى تأشيرة دخول الى اليمن . . ومن أراد ان يجلس فليجلس . . ويجلس هنا بمعنى الاقامة .

من يدري فقد نذهب الى حجة ونجلس فيها . □



اليمن الشمالي

مساحة الجمهورية العربية اليمنية د ١٩٥ الف كيلومتر مربع .

● تعداد السكان حوالي تسعة ملايين نسمة .

● المزروعات التقليدية في اليمن هي القطن والقمح والشعير والذرة والخضراوات والفواكه والبن اليمني المشهور ، ويعرف بين المخا لانه كان يصدر الى جميع انحاء العالم من ميناء المخا، على البحر الأحمر .

● أكبر ثلاث مدن في اليمن هي « صنعاء » العاصمة وتعداد سكانها حوالي ٢٨٠ الف نسمة ، يليها ميناء الحديدة على البحر الأحمر (١٢٧ الف نسمة) ، ثم تعز (١٢٠ الف نسمة) ، ويربط بين المدن الثلاث خطوط جوية منتظمة الى جانب الطرق البرية الممهدة .

● تنتشر تربية الحيوانات عند سفوح الجبال في جميع أنحاء اليمن .

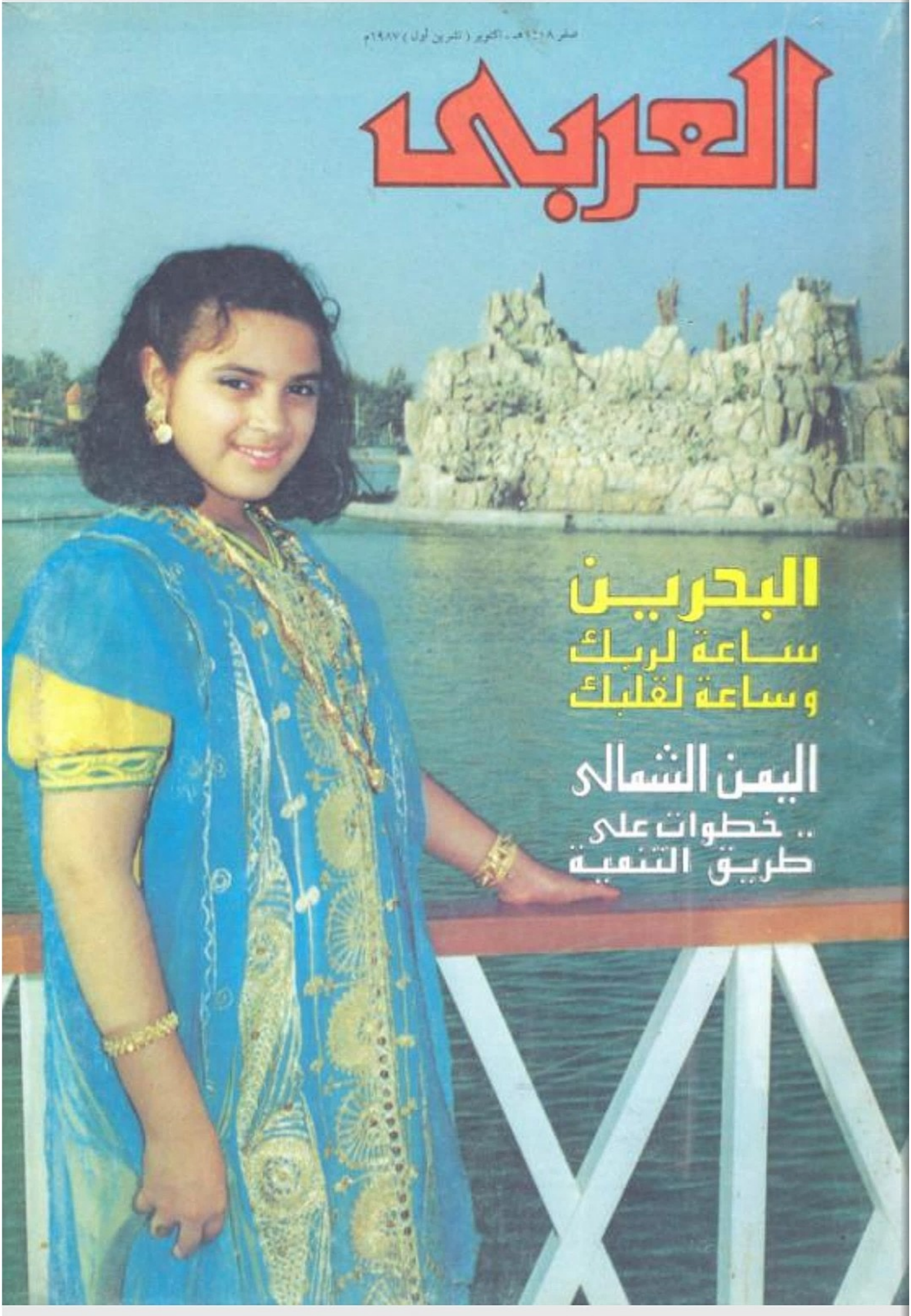
● تطورت صناعة صيد الأسماك ، وهي صناعة قديمة بعد انشاء مؤسسة خاصة تهتم باستثمار الثروة السمكية .

● هناك صناعات قامت بعد الثورة ومن بينها صناعة الغزل والنسيج ، وصناعة الأسمنت والطوب الحراري ، وتعبئة المشروبات الغازية ، والصناعات المعدنية ، والزيوت والصابون ، والبلاستيك وصناعة الالومنيوم ، والبسكويت وعصير الفواكه ، والسجائر .

● وفي اليمن ثروات معدنية اكتشف منها حتى الآن معدن الفضة الذي يصنعون منه حلى النساء ، وكذلك النحاس والحديد والرصاص والملح .

صفر ١٤٠٨ هـ - أكتوبر (تشرين أول) ١٩٨٧م

العربي



البحرين
ساعة لربك وساعة لقلبك

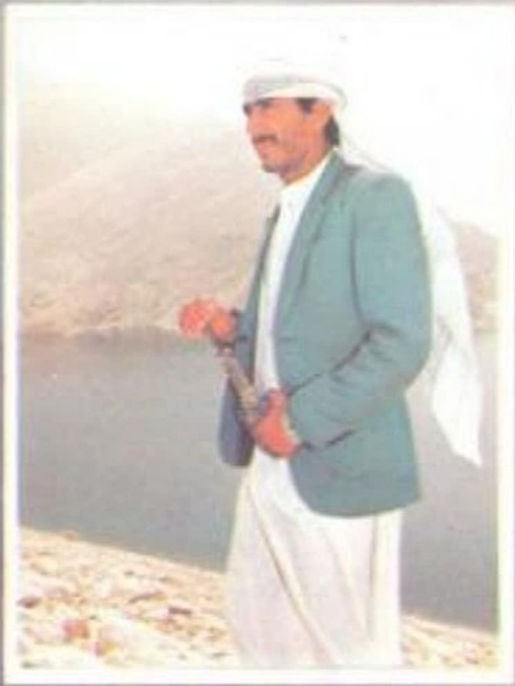
اليمن الشمالي
.. خطوات على طريق التنمية



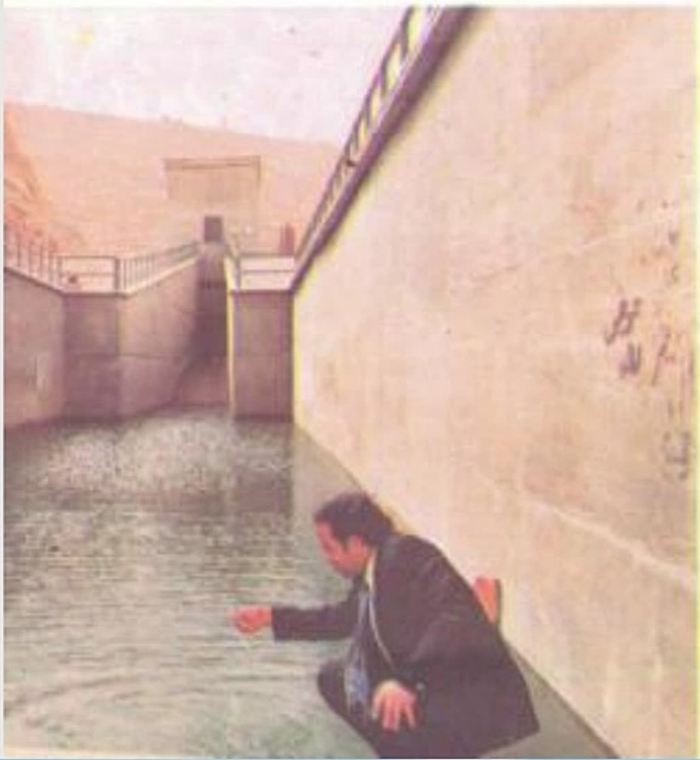
اليمن الشمالي

مشاريع على طريق التنمية

استطلاع : صادق يلي
تصوير : سليمان حيدر



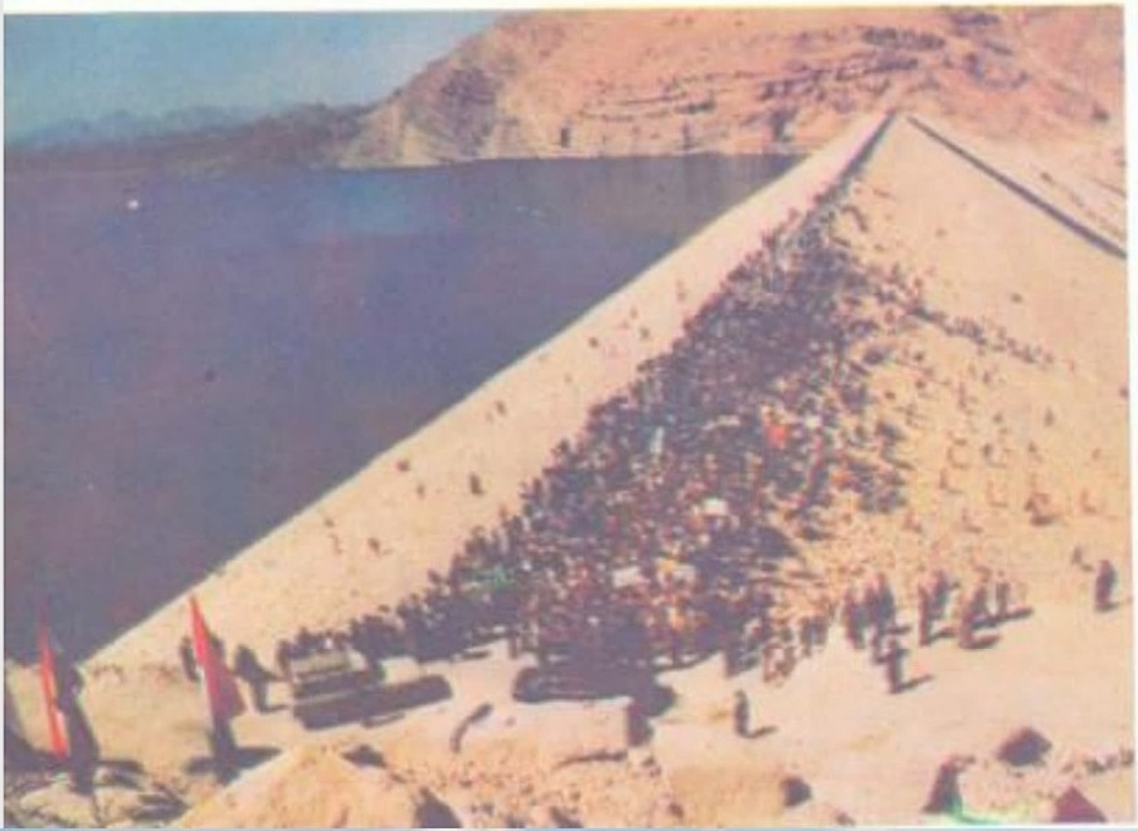
نشطت حركة التنمية في اليمن السعيد في العقدين الماضيين نشاطا عظيما ، وهذه الصور تبدي بعضا من جوانب هذا النشاط



قديما كان اليمن موطن أبي زيد الهلالي ، ومملكة بلقيس ، وبه سد مأرب القديم ، وكان إلى عهد قريب هو اليمن السعيد .

لكن التخلف - بفعل عوامل خارجية وداخلية - حط على ربوعه ، فأوقف مسيرة تطوره عند لحظة زمنية بعيدة ، والجيل الحالي من أبنائه يحاول بالتخطيط والعمل الجاد العبور إلى قلب العصر بمنجزاته .

فما هي الطموحات ، والانجازات ، والمشاكل لدى الانسان اليمني في القطاع الشمالي من اليمن السعيد ، في رحلته لتجديد الحياة - بالتنمية - على أرضه ؟


في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ونتيجة لتعاظم دور حركات التحرر الوطني في العالم حصلت معظم دول العالم الثالث ـ أو ما يطلق عليه اسم الدول النامية ـ على استقلالها ، وبرزت قيادات جديدة ، تتحمل مسئولية الحكم فيها ، وأصبحت القضية الرئيسية التي تشغل بال شعوب العالم الثالث ، هي البحث عن أسرع الوسائل وأنجحها وسبل رفع مستوى معيشتها . من هنا برزت قضية التنمية بوصفها الأداة ، أو الوسيلة التي تستطيع بها هذه الدول أن تواجه مظاهر التخلف وعوامله التي فرضت عليها قرونا عديدة ، مستلهمة تجارب الدول المتقدمة على اختلاف نماذجها . ولقد أصبح معيار نجاح هذه القيادات الجديدة أو فشلها هو قدرتها على رفع مستوى معيشة شعوبها ، في ظل ثورة من التطلعات ، والتوقعات ، لحياة أفضل ، بعد أن طال أمد حرمانها .

والتنمية لا تحتاج إلى شعارات ترفع لالهاب حماس الجماهير ، لكنها تحتاج إلى حد أدنى من الموارد ، وإلى دراسات علمية متأنية ، تحدد أفضل الوسائل والسبل لاستخدامها .

ولقد تعددت محاولات المفكرين لتحديد معنى التنمية ، فذهب بعض المفكرين الاقتصاديين إلى أن التنمية هي عملية الاستغلال السليم الرشيد للموارد المتاحة ، بهدف إقامة مجتمع حضاري ، متقدم ، تتوفر فيه الحاجات الأساسية للمعيشة ، والعدالة في التوزيع ، ويتوفر فيه الأمن ، واحترام الكرامة الانسانية لأبنائه ، وإمكانيات الارتقاء المادي والفكري للانسان ، من خلال خطة شاملة ، أو خطط جزئية ، قطاعية ، أو زمنية .

الدول النامية والتنمية :

يعرف الدكتور عمر محيي الدين مدير الدائرة الاقتصادية في بنك الكويت الصناعي التنمية قائلا : التنمية الاقتصادية هي الزيادة المستمرة في مقدرة المجتمع الانتاجية ، أي قدرته على إنتاج السلع ، والخدمات ، فكلما زادت مقدرة المجتمع الانتاجية بمعدل أعلى من معدل زيادة سكانه ، كلما ارتفع نصيب الفرد من السلع والخدمات ، وبالتالي ارتفع مستوى معيشته ، فالزيادة في المقدرة الانتاجية تؤدي إلى رفع مستوى المعيشة ،وزيادة المقدرة الانتاجية للمجتمع من ناحية الزيادة في قوى الانتاج المادية ، ورفع كفاءتها ، وحسن استغلالها ، وزيادة المقدرة الانتاجية لقوى الانتاج البشرية ، وذلك عن طريق زيادة مهاراتها ومعارفها وقدراتها من نواح أخرى .

ومع أن مشكلة الفقر والتخلف من أهم المشاكل التي تحاول التنمية الاقتصادية معالجتها والتغلب عليها ، إلا أن الاهتمام من جانب الدول المتقدمة الصناعية والمؤسسات الدولية ودور البحث العلمي لم يظهر إلا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ومرد هذا الاهتمام يرجع إلى عدة عوامل ، منها تداعي الهيكل الاستعماري القديم ، وحصول عديد من الدول على استقلالها ، وظهور مجموعة الدول المستقلة حديثا ، بالاضافة إلى زيادة حدة الصراع بين العملاقين الكبيرين ، الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية ، ومحاولة كل منهما التأثير في موقف الدول المستقلة حديثا تجاه هذا الصراع » .

أما الدكتورة مرفت بدوي الخبيرة الاقتصادية في الصندوق العربي للتنمية فتذهب إلى القول « بأن التنمية تستلزم تحولا جذريا في شتى جوانب البنيان الاقتصادي والاجتماعي القائم ، التي تشمل تغييرات في مجال الانتاج ، والاستهلاك ، وإجراء التحسينات على توزيع الدخل ، وعلى أوضاع العمالة ، وهذا التحول يستهدف العمل على بناء اقتصاد وطني ذي قاعدة إنتاجية متنوعة ، وترابطات قطاعية قادرة على توفير المستخدمات اللازمة للانتاج ، وتوسيع أسواق تصريفه » .

من هنا نلاحظ أن التنمية عملية صعبة ، شاملة ، تتناول كل جوانب الحياة المختلفة ، اقتصادية كانت أم اجتماعية ، أم ثقافية ، أم سياسية

والجمهورية العربية اليمنية هي احدى الدول النامية التي انتهجت أسلوب التنمية المتكاملة ، باعتباره أفضل الأساليب للنهوض باليمن ، ومواكبة الركب الحضاري الذي يشهده عالمنا اليوم ، لذلك كان من البديهي أن تخصص الحكومة اليمنية للتنمية وزيرا ، وجهازا مركزيا للتخطيط ، يقوم بمتابعة الخطط التنموية التي تطرحها الدولة وتعميمها .

في أول لقاء لنا مع الاستاذ فتحي سالم ، وكيل الجهاز المركزي للتخطيط ، سألناه أن يعطينا المامة عن مشاريع اليمن التنموية ، فقدم لنا تقريرا ، أو بالأحرى مجلدا ضخما ، يضم مئات المشاريع التنموية التى يقوم الجهاز المركزي للتخطيط بمتابعتها ، وتقييم الخطة الخمسية الثانية التي من المقرر أن ينتهي العمل بها هذا العام . وبنظرة سريعة لهذا التقرير نجد أن مشاريع اليمن الانمائية قد تناولت كافة القطاعات ، من زراعة وصناعة وتعدين ونقل ومواصلات .

ويتحدث إلينا قائلا : « لا تستغرب أخي من ضخامة هذا التقرير ، فإن الطموحات والآمال التي نتوخاها من خطط التنمية كبيرة ، وقد حرم شعبنا سنين طويلة من كافة المظاهر الايجابية لتطورات العصر الحديث التي جرت في البلدان المتقدمة ، إننا نريد أن نحقق معدلات نمو مرتفعة على مستوى الاقتصاد القومي بأجمله ، ونريد أن نرفع نصيب الفرد من الدخل القومي ، ونحسن مستوى معيشة المواطن اليمني ، ونريد أن نعمم التعليم على كافة أفراد المجتمع ، ونقضي على الأمية ، ونحسن المستوى الصحي ، ونكافح الأمراض ، ونشيد الطرق ، ونضيء المدن والقرى ، ونوفر مياه الشرب النقية لكل مواطن ، ونريد ونريد مع أن امكاناتنا ومواردنا المالية وقوانا المؤهلة محدودة ، إلى جانب المعوقات والمشاكل التي تواجه عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية في بلادنا ، لكن بلادنا قد خطت خلال فترة وجيزة خطوات موفقة ملموسة في دفع عجلة التنمية إلى الأمام . »



خريطة توضح أهم المدن في اليمن

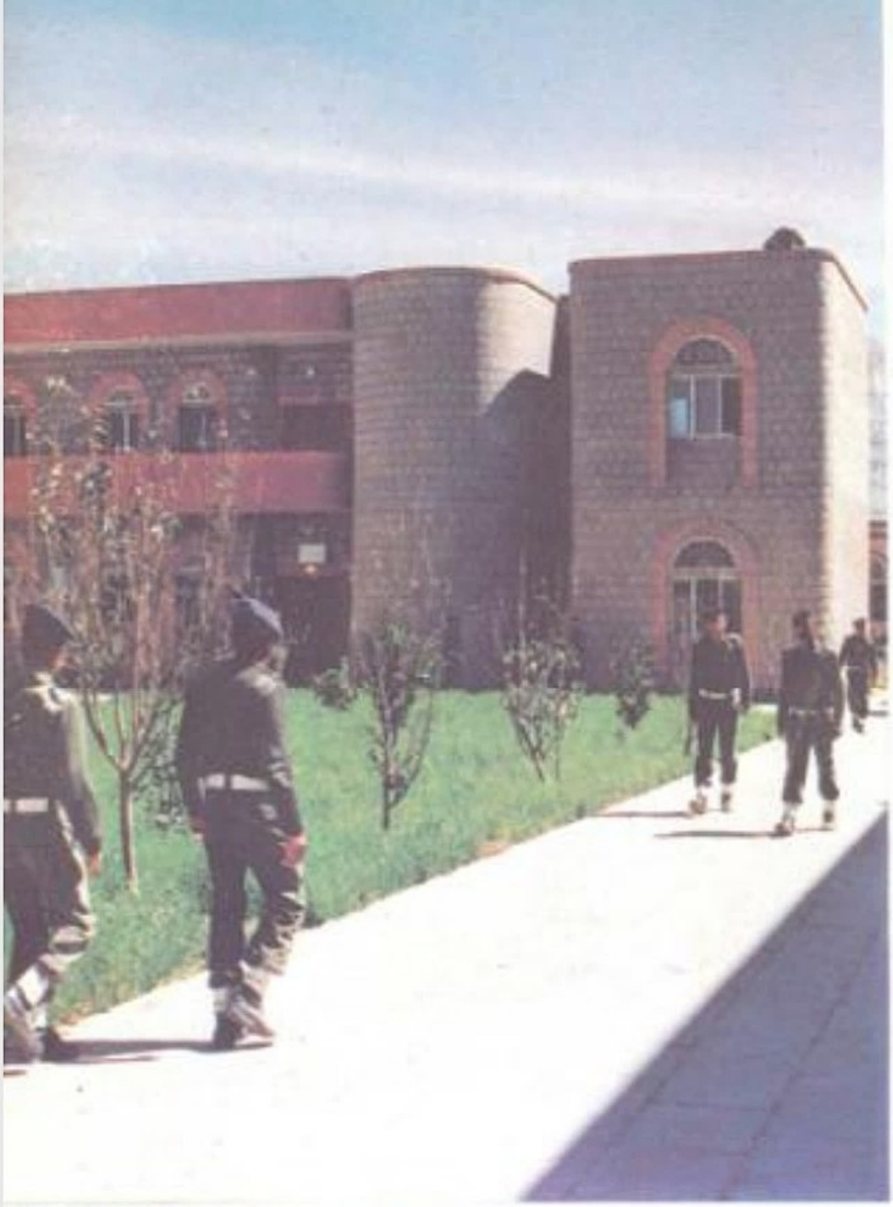
لما كان تدبير الموارد المالية لتمويل المشروعات الانمائية من اهم مقومات نجاحها ، فالتقرير الصادر عن الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي بعنوان « العمليات التمويلية ـ خلاصة تجميعية » يوضح لنا أن مؤسسات التنمية العربية القطرية والقومية قد قدمت للجمهورية العربية اليمنية حتى ٣١/ ١٢/ ١٩٨٥ مبلغ ١١٧٢,٧٥ مليون دولار ، لتمويل ٨٣ عملية تمويلية ، تمثل ٥,٣ بالمائة من إجمالي العمليات التمويلية لهذه المؤسسات مجتمعة ، وتعتبر هذه النسبة أعلى النسب التي قدمتها مؤسسات التنمية العربية للبلدان المستفيدة من هذه العمليات ، التي تغطي مائة بلد نام في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، كما أن هذه النسبة التي حصلت عليها اليمن لا تضاهيها إلا النسبة التي حصل عليها الأردن (٦,٤ بالمائة) ، والمغرب (٥,٥ بالمائة) ، هذا بالاضافة إلى القروض التي تقدمها الدول الأجنبية والبنك الدولي وغيرها من المؤسسات المالية الدولية ، أو التي تمول ذاتيا وحكوميا ، والتي لم تتوفر عنها إحصاءات دقيقة تمكننا من تحديدها .

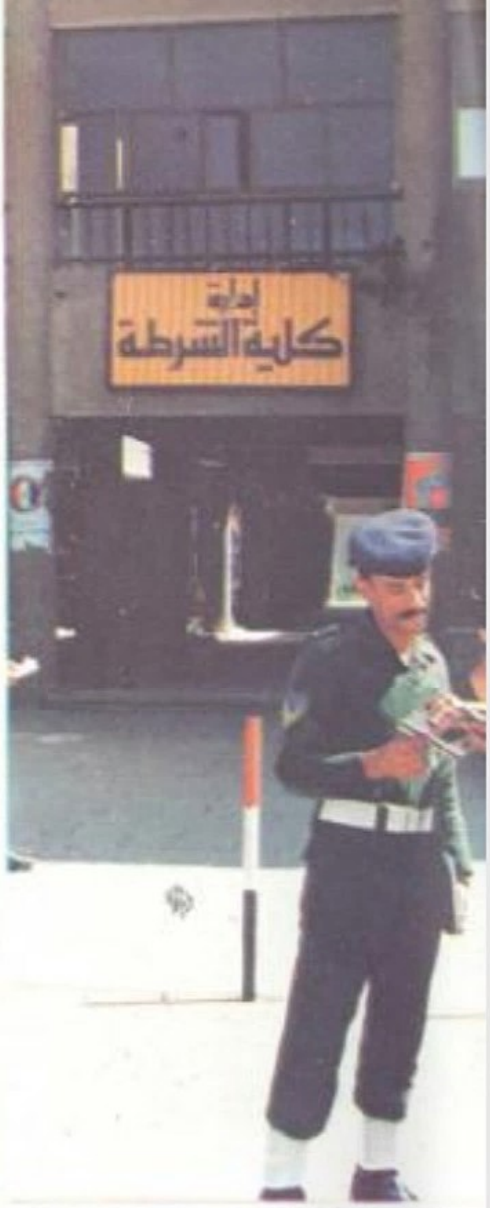


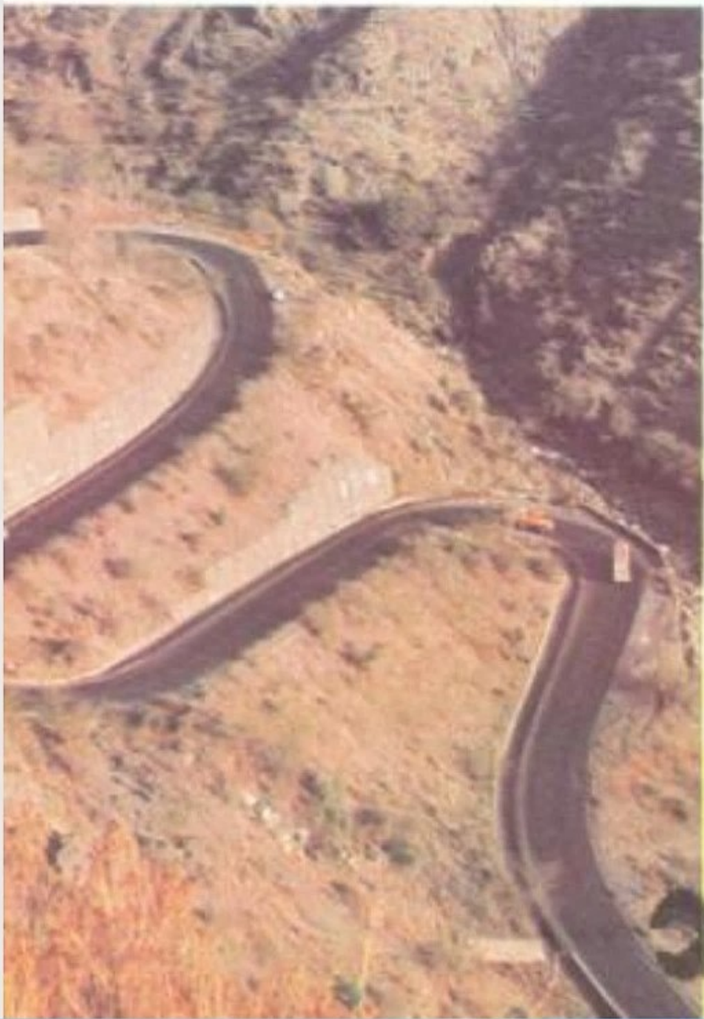


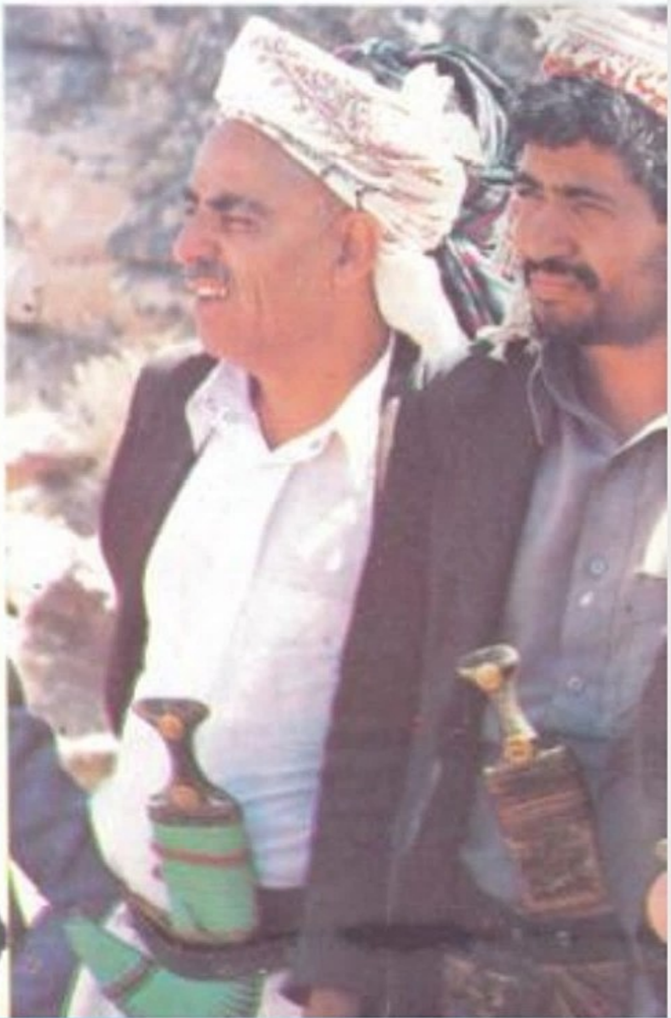


● مستشفى الكويت العام في مدينة صنعاء من المشاريع الصحية قامت الكويت بانجازه وادارته والاشراف عليه من جميع النواحي والى اليسار كلية الشرطة والعلوم العسكرية من المشاريع التنموية العديدة التي قامت الكويت بانجازها والى اسفل إحدى الطرق الحديثة التي تربط مدينة صنعاء (العاصمة) بمدينة تعز المدينة الثانية في اليمن .




كلية الشرطة





الأولوية للزراعة :

تعد الزراعة في اليمن أحد أهم القطاعات الاقتصادية التي تساهم مساهمة واضحة في الدخل القومي ، إذ يعمل في هذا القطاع حوالي ٧٠٪ من إجمالي القوى العاملة ، لذلك اهتم المسئولون بهذا القطاع ، وأعطوه الاهتمام الكافي في خطط التنمية وأولوياتها .

يقول الدكتور حسين عبدالله العمري وزير الزراعة والثروة السمكية في الجمهورية العربية اليمنية بهذا الصدد : « لقد اتجهت سياسة الوزارة وخططها منذ أن أدخل أسلوب التخطيط الاقتصادي في بلادنا الى العمل على تنشيط القطاع الزراعي ، من خلال تحريك جميع الفعاليات المتعلقة بالتنمية الزراعية على المستوى الوطني ، وتزويد هذا القطاع بالبنية الأساسية اللازمة ، لزيادة الانتاجية إلى أفضل مستوى ممكن في المجالات النباتية والحيوانية والسمكية ،إضافة إلى تنمية المجتمع الريفي الزراعي ، وزيادة دخول العاملين فيه ، كل ذلك من أجل تعزيز أمننا الغذائي الذي نعتبره جزءا لا يتجزأ من الأمن الغذائي العربي ، وتوفير المواد الخام اللازمة للصناعات الزراعية . »

وباستعراضنا للتقرير الصادر عن الجهاز المركزي للتخطيط في اليمن نجد أن مشاريع قطاع الزراعة تحتل مكان الصدارة في الخطط الخمسية المزمع تنفيذها في السنوات القادمة ، فهناك نحو ٤٠ مشروعا زراعيا مختلفا ، هي الآن قيد التنفيذ ، وهي مشاريع زراعية متنوعة ، تغطي أنحاء اليمن كافة .

يقول الدكتور العمري : « في ما يخص مشروعاتنا الزراعية فإن هناك مشروعات للقطاع الخاص والقطاع التعاوني والقطاع المختلط ، معظمها ذو جدوى اقتصادية عالية .

ويستدل على ذلك من استمرار دخول القطاع الخاص في إقامة مشروعات زراعية مختلفة ، أصبحت تغطي معظم مناطق البلاد ، أما مشاريعنا في القطاع العام فهي مشاريع خدمية يقوم بعضها بدور رائد في الانتاج ، مع التركيز على تقديم الخدمات الارشادية المختلفة ، وخدمات الاقراض الزراعي عبر « بنك التسليف » ، كما تعمل أيضا على توفير بعض المدخلات ، مثل توفير الشتلات المختلفة ، والبذور المحسنة ، وغير ذلك ، كما أننا في بعض مشروعاتنا نعمل على إيجاد البنية الأساسية التي لم تكن متوفرة في الماضي ، مثل إنشاء الطرق الريفية ، وإقامة مشاريع مياه الشرب ، وإنشاء الجمعيات الزراعية والمراكز الارشادية . »

وحول مشاريع الري والمياه التي تحتل قسما بارزا في الخطتين الخمسيتين الثانية والثالثة اللتين أقرهما المسؤولون في اليمن قال الدكتور العمري : إن اهتمامنا بمشاريع الري يتركز على زيادة الرقعة المروية ، مع التركيز على التوسع الرأسي ، وترشيد استخدام المياه ، وذلك بإقامة السدود ، وإدخال طرق الري الحديثة الملائمة ، ثم القيام بالدراسات اللازمة للموارد المائية في مناطق البلاد كافة ، والعمل على الحد من عمليات استنزاف الموارد المائية ، وبخاصة الحفر العشوائي الذي يسبب في كثير من الأحيان هدر ثروتنا المائية .

وقد جاء تدشين المرحلة الأولى لسد مأرب العظيم في أكتوبر الماضي ، تتويجا للجهود في هذا الاتجاه .

إن كثيرا من هذه المشاريع الزراعية قد أثبتت جدواها من خلال ما حققته من نجاح في تحقيق الاكتفاء من إنتاج الخضراوات والفواكه والدواجن كما أنه من المتوقع أن يزداد إنتاج الأسماك واللحوم والبيض وعدد من المحاصيل ذات الجدوى الاقتصادية خلال السنوات المقبلة ، كما أن هذه المشاريع قد وفرت بالاضافة إلى الانتاج الزراعي المباشر كثيرا من الخدمات الزراعية المختلفة ، مثل المنشآت الزراعية ، وخدمات التدريب ، فضلا عن دورها المهم في إدخال وسائل الانتاج وأساليب التقنية الزراعية الملائمة لظروف البلاد وواقعها » .

تعز ـ اب

كانت أولى مشاريع التنمية الزراعية التي أولتها اليمن عناية خاصة ضمن خططها التنموية هو مشروع (تعز ـ اب) الذي يقع في منطقة المرتفعات الجنوبية للبلاد ، وهذه المنطقة تمتاز بالكثافة السكانية العالية ، وتوفر الأيدي العاملة بالزراعة ، وتمتعها بمعدل عال من الأمطار .

بدأ المشروع بداية متواضعة عام ١٩٦٣ ، واقتصر نشاطه في الاشراف على مزارع الدولة في محافظتي تعز واب إلى جانب تقديم الخدمات الزراعية الأولية ، كتأجير الآليات الزراعية ، وتوزيع الأسمدة . ومع مرور الوقت اتسع نشاط هذا المشروع ، وتطور من تقديم الخدمات الزراعية والارشادية للمزارعين إلى إعداد الدراسات لتحسين إنتاجية المحاصيل ، وتدريب (الكوادر) المحلية .

وبعد ذلك بستتين تأسست محطة للبحوث الزراعية في المشروع ، بالاضافة إلى تقديمها لخدمات إرشادية في ١٤ منطقة ، وامتد نشاطها فشمل البيئات الزراعية المختلفة في البلاد ، من خلال محطات قطرية ، تكونت فيها جميعا هيئة للبحوث الزراعية ، تزود القطاع الزراعي في البلاد بالتوصيات الفنية التي تساهم في زيادة الانتاج الزراعي ، وخفض تكلفة الانتاج . وقد تم تأسيس مشروع (الميكنة) الزراعية ضمن الاتفاقات الثنائية بين حكومة اليمن والمملكة المتحدة ، حيث تم اختيار أنسب الآلات الزراعية الملائمة للبيئة اليمنية ، وتدريب (الكوادر) المحلية من فنيين ومرشدين زراعيين على أعمال صيانة هذه الآلات وإصلاحها ، بالاضافة إلى تدريب المزارعين من خلال جهاز الارشاد الزراعي على تشغيلها وصيانتها ، ثم أنشىء قسم لاكثار البذور المختلفة للمحاصيل الحقلية ، ملحقا بمحطة البحوث الزراعية ، بهدف توفير بذور المحاصيل الحقلية المحسنة ، كالقمح والشعير والذرة الشامية والرفيعة والدخن للمزارعين في الأقاليم الزراعية بأسعار رمزية ، كما أضيف لهذا القسم شعبة لمكافحة الآفات الحشرية والمرضية ، ومكافحة آفات الحبوب المخزونة ، لتقليل التالف منها ، إلى جانب المساهمة في تصميم ووسائل تخزين محسنة للمزارعين ، وتلى ذلك افتتاح معهد آب الزراعي بهدف إعداد (الكوادر) من الفنيين الزراعيين المؤهلين علميا للمساهمة في مسيرة التنمية الزراعية بمجالاتها المختلفة .

سد مأرب عروس المشاريع :

ويعد سد مأرب الجديد الذي تم تدشينه في أكتوبر الماضي عروس المشاريع التنموية في اليمن ، وهو يحمل اسم السد القديم الذي ما تزال آثاره التي تمتع بها شعب اليمن ماثلة في وجدان الأجيال المتتالية عبر العصور .

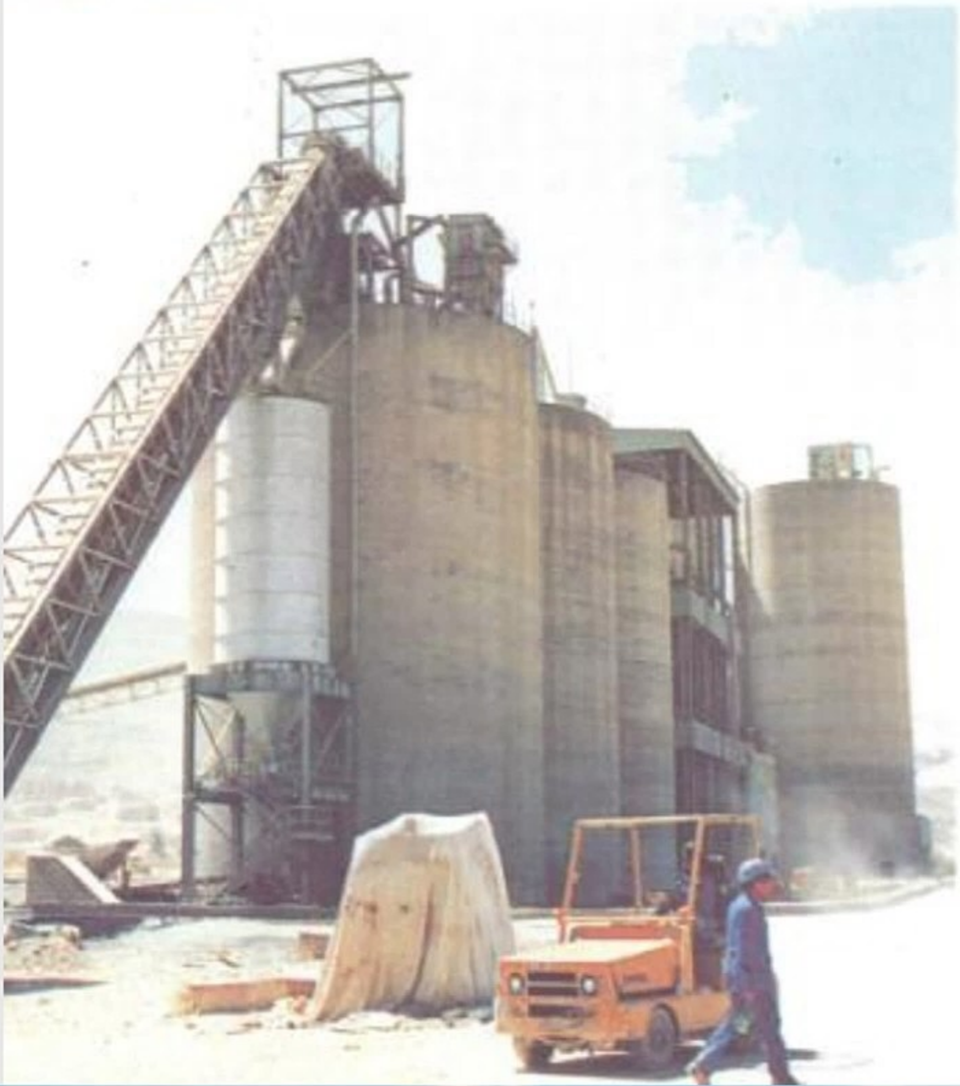
والسد الجديد يقع على بعد ١١ كيلومترا غرب مدينة مأرب ، كما يبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن موقع السد القديم ، حيث ما تزال أطلاله باقية على شكل كتل من الصخر ، وبعض الأعمدة ، ويتكون بناء السد الجديد من حائط طوله ٧٦٢ مترا ، وارتفاعه ٢٩ مترا ، ويلحق بالسد الرئيسي أربعة سدود تحويلية موزعة على طول الوادي ، تتفرع منها قنوات أخرى لسقي الأراضي الزراعية ، أما مجموع أطوال هذه القنوات فيبلغ ٦٠ كيلومترا ، إضافة إلى قنوات أخرى تستخدم في أعمال الصيانة ، كما تبلغ مساحة تساقط الامطار التي سيقوم السد بتخزينها نحو تسعة آلاف كيلو متر مربع ، وتصل طاقة تصريف المياه إلى الوادي الى ٤٠٠ مليون متر مكعب وتصل طاقة السد التخزينية إلى ٣٩٠ مليون متر مكعب ، أما مساحة البحيرة التي سيخلفها السد فتبلغ ٤٠٥ كيلو مترات .

المردود الاقتصادي :

أما عن المردود الاقتصادي والاجتماعي لمشروع سد مأرب فيقول الدكتور حسين العمري وزير



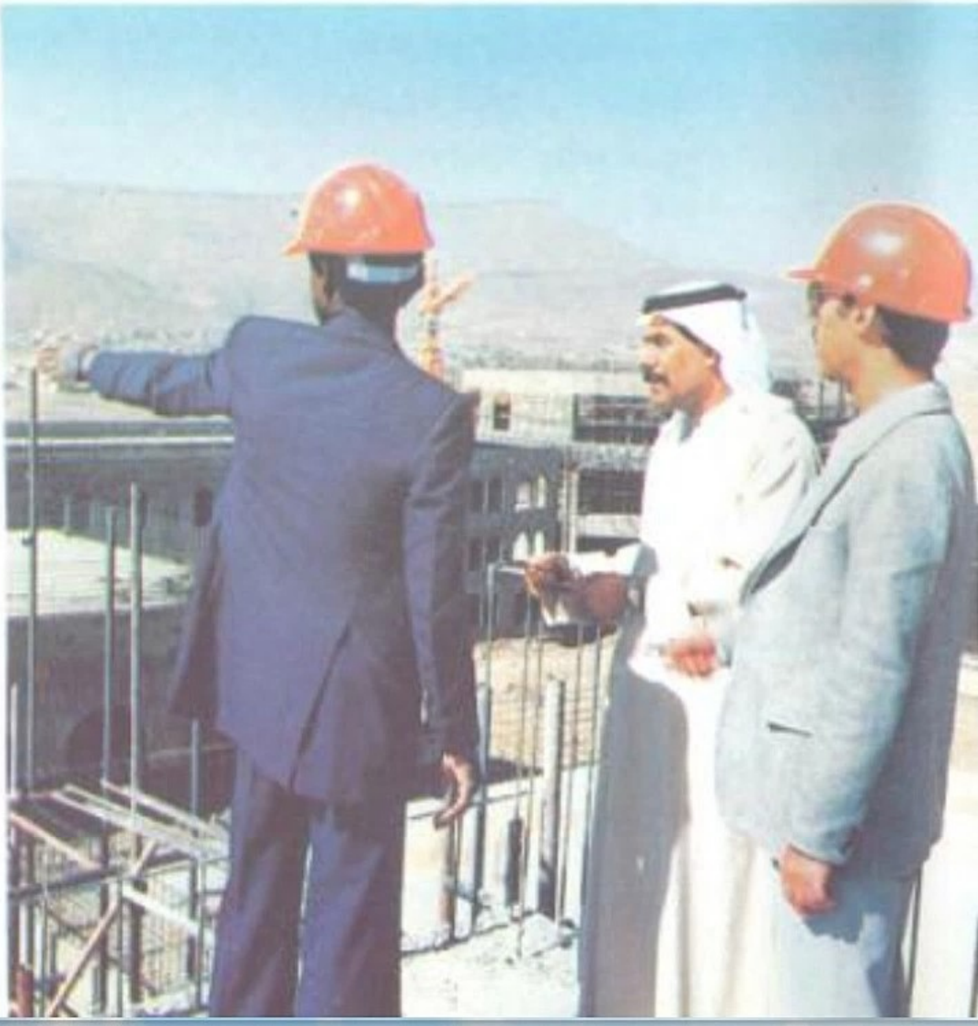
● محطة القوى الكهربائية في المخا قرب مدينة تعز تمد أجزاء كبيرة من الجمهورية العربية اليمنية بالطاقة الكهربائية والى اليسار مصنع اسمنت عمران احدى قنوات التنمية الصناعية في اليمن .







● يغطي انتاج مصنعي اسمنت عمران وباجل نحو ٧٠ بالمائة من احتياجات اليمن من مادة الاسمنت والى اليسار غرفة التحكم في محطة القوى الكهربائية في المخا والى اليمين كلية الطب والعلوم الصحية من المشاريع التنموية الرائدة في مجال الطب وصحة الانسان اليمني .



الزراعة والثروة السمكية : « الفوائد كثيرة ، أولا : سيروي السد ما يقرب من سبعة آلاف هكتار ريا منتظما ، وسوف تزيد المساحة إلى ١٠ آلاف هكتار أخرى بعد اكتمال المشروع ، بالاضافة إلى أنه سيزيد من المياه الجوفية ويغذيها ، كما ستنشأ منطقة سياحية رائعة في المنطقة الواقعة عند السد ، تضم بعض المطاعم والفنادق ومتحفا تاريخيا ، وحدائق للأطفال ، تمتد بطول المنطقة ، حتى تصل إلى منطقة السد القديم ، حيث سيتم إنشاء منطقة سياحية ثانية . ولا شك أن مدينة مأرب ستتسع ، وينشأ بها نمط جديد من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، كما أنها منطقة واعدة بما يمكن أن يغطي احتياجاتنا من الحبوب ، ويساعد في حل قضية الأمن الغذائي . »

ثم يضيف قائلا : « سد مأرب مشروع عظيم ، يشكل نقطة تحول في بلادنا ، فمن المعروف أن في اليمن من الأراضي الزراعية ما يصل إلى نحو ١٩,٥ مليون هكتار ، إلا أن المستغل منها لا يزيد عن ١,٥ مليون هكتار فقط ، وأن ما يعيق التنمية الزراعية بشكل واسع هو مشكلة المياه ، لأن بلادنا تعتمد بصورة أساسية على الأمطار .

إن لدينا آمالاً عريضة ، فنحن نسعى لتشجيع بعض الشركات الهولندية واليوغسلافية والألمانية على تبني مشاريع زراعة الحبوب في منطقة الهجرة الحمراء ، وفي مناطق أخرى ، ونأمل في الوقت القريب أن يحدث لدينا الاكتفاء من الحبوب ، وقد وصل إنتاجنا في هذا العام إلى ٣٥٠ ألف طن من الحبوب ، وهذا يشكل على الأقل ٥٠٪ من حجم الاستيراد من الخارج .

ومن المعروف أن تكلفة السد تبلغ ٩٠ مليون دولار ، قدمت كمنحة من الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة ، مؤكدا بها الحرص القومي في إرساء الدعامات الأساسية لتقدم الأمة العربية ، واستعادة مكانتها الحضارية .

مصنع الغزل والنسيج :

من المشاريع التي تعتز بها اليمن مصنع الغزل والنسيج في مدينة صنعاء ، وقد بدأ المشروع بداية متواضعة عام ١٩٦٧ ، بوردية عمل واحدة ، وبإنتاج الأقمشة الشعبية التي يستخدمها الانسان اليمني في حياته اليومية ، حيث وصل الانتاج إلى ستة آلاف ياردة يوميا ، وبعد إدخال الآلات الحديثة ، والتوسعات الجديدة للمصنع ارتفع الانتاج إلى ٤٠ ألف ياردة يوميا ، مقسمة على ثلاثة ورديات عمل ، وتستهلك هذه المنسوجات احتياجات الشعب من ملايات وستاير وفوط ، واحتياجات القوات المسلحة من ملابس عسكرية ، وكذلك ملابس طلبة المدارس ، واحتياجات وزارة الصحة ، وبعض مرافق الدولة الأخرى .

ومع زيادة الجهود لتطوير الانتاج والوصول به إلى مستوى عال من الجودة بدأ المصنع يتجاوب مع احتياجات المستهلك اليمني ، بظروفه البيئية المتباينة ، فأنتج منسوجات تناسب المستهلك الذي يقطن الجبال ببردها القارس ، أو ذلك الذي يسكن المناطق التي يشتد فيها القيظ ، وترتفع فيها درجة الحرارة . وفي شهر مارس الماضي تم تدشين المشروع الثالث لصناعة النسيج في اليمن ، ويتكون من ٥٥ ماكينة بدون مكوك ، من إنتاج شركة سوفيتية متخصصة بصناعة مكائن الغزل والنسيج ، وهي مكائن متطورة ، تواكب أحدث ما وصلت اليه التقنية الحديثة في عالم الغزل والنسيج ، ومما يجدر ذكره أن مصنع الغزل والنسيج كان أول باب فتح للمرأة اليمنية للعمل على قدم المساواة مع الرجل .

وفي لقاء لنا مع السيد أحمد الرحومي رئيس مؤسسة الغزل والنسيج حدثنا عن انتاج المصنع والجوانب الايجابية والسلبية ثم الخطط المستقبلية للانتاج ، فقال : « لقد افتتحنا منذ أيام خطا جديدا للانتاج ، وسوف يبلغ انتاجنا نحو ثلاثة ملايين و ٦٠٠ ألف ياردة سنويا ، من أنواع مختلفة من

المنسوجات ، ويمكننا أن نصل بانتاجنا إلى نحو مائة ألف باردة في الشهر إذا عدلنا بعض الأصناف ، لأن طبيعة النسيج تختلف عن طبيعة بعض الصناعات الأخرى ، فكلما زادت كثافة القماش كانت النسبة أقل ، وكلما خفت نسبة القماش كانت نسبة انتاج القماش أعلى ، ونحن الآن نصنع بعض الأقمشة المهمة لنا ، خاصة الكاكي للجيش ، بعض الملابس الثقيلة ، وهذه الأصناف تغطي الاحتياج المحلي .

ويضيف قائلا : « إن أهم ما أود أن أنوه عنه أن مؤسستنا تستطيع تصنيع نحو ٩٠ أو ٩٥ بالمائة من قطع غيار الآلات والمعدات ، ولا يخفي أن هذا الانجاز هو أحد الدعائم التي تؤدي إلى استمرارية العمل ، علما بأن مصنعنا وآلاتنا متنوعة الجنسية «إذا صح هذا التعبير ، فنحن نستورد آلاتنا من الصين ، ومن ألمانيا ، ومن الاتحاد السوفيتي ، وغيرها من دول اوروبا ، حتى لا تؤدي التقلبات السياسية إلى أي عطل أو خلل في الانتاج ، وهناك ١٤ معملا نطلق عليها معامل رديفة ، وهي معامل الخياطة ، بعضها يتبع مؤسستنا ، وبعضها نساهم فيه جزئيا ، ومنها ماهو تابع للقطاع الخاص ، وهي تسع معامل ، نقوم بتغطيتها بالأقمشة التي ينتجها مصنعنا بشكل دائم منتظم ، فنحن نحدد الأصناف التي تنتجها هذه المصانع للأسواق المحلية . أما عن خططنا المستقبلية فقد وقعنا اتفاقية مع إحدى الشركات الاوروبية المتخصصة بانتاج الخيام والجعب ، للبدء في تصنيع هذه المستلزمات التي تحتاجها قواتنا المسلحة ، وبعض ، مراكز الشباب ، كما أن هناك برنامجاً ندرسه الآن لانتاج قماش « الجينز » مع شركة ايطالية متخصصة في هذا النوع من الأقمشة .

اسمنت عمران :

ومن الركائز الهامة ذات الجدوى الاقتصادية الجيدة التي تصب في مجرى التنمية مصنع اسمنت عمران الذي تم افتتاحه عام ١٩٨٢ ، ضمن مشاريع الخطة الخمسية الثانية في اليمن ، بطاقة إنتاجية تبلغ حوالي ٥٠٠ ألف طن من الاسمنت « السائب » في السنة ، ويعمل في هذا المصنع أكثر من خمسمائة عمل فني ، ومهندس ، بالاضافة إلى الجهاز الادراي ، على ثلاث ورديات متناوبة . ويغطي مصنع عمران نحو ٤٠٪ من حاجة البلاد من الاسمنت ، وإنتاجه بالاضافة إلى ما ينتجه مصنع اسمنت باجل يغطي حوالي ٧٠٪ من حاجة البلاد من الاسمنت .

وهناك دراسات قائمة للتوسعة خلال السنوات القادمة ، حيث من المؤمل أن تصل انتاجية هذا المصنع ، الى مليون طن سنويا ، والمصنع يدار بعمالة أبناء اليمن وخبرتهم ، أما الخبرة الاجنبية الفنية فهي في أضيق الحدود .

مشاريع الكويت :

تعد الكويت بلا فخر من أولى البلدان التي ساهمت في عملية التنمية في اليمن ، انطلاقا من واجبها القومي في مد يد المساعدة لشقيقاتها العربيات . يقول الاستاذ عبدالقادر الحبيل مدير مكتب دولة الكويت في صنعاء : « لقد قامت الكويت ممثلة في الهيئة العامة لجنوب الجزيرة والخليج العربي التابع لوزارة الخارجية الكويتية منذ عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٨٦ ببناء ١٦ مدرسة ابتدائية للبنين ، و ٣٠ مدرسة ابتدائية إعدادية للبنين ، و ١٢ مدرسة إعدادية ثانوية ، غطت معظم مدن الجمهورية العربية اليمنية وقراها ، أما بالنسبة لجامعة صنعاء فقد قامت الكويت ببناء معظم كليات الجامعة والمباني الخاصة بإدارتها والخدمات الأخرى مثل مكتبة الجامعة ، وعمارات سكنية لأساتذة الكليات ، بالاضافة إلى قاعات للاحتفالات والمحاضرات العامة ، أما المشاريع التي تخص الخدمات الصحية فهي كثيرة متنوعة ، منها ١٢ مستوصفا موزعة على المدن والقرى المختلفة في البلاد ، وكذلك ثلاث مستشفيات ، وهي المستشفى العسكري في مدينة صنعاء ، وآخر في مدينة الحديدة ، ثم مستشفى الكويت العام في صنعاء الذي







● أعطت حكومة الجمهورية العربية اليمنية الاولوية للمشاريع الزراعية في خططها التنموية والزراعة أهم ركائز الدخل القومي لليمن (وفي الأعلى) مصنع الغزل والنسيج في مدينة صنعاء وإلى اليسار مشروع (تعز - اب) أولى مشاريع التنمية الزراعية في اليمن .

يتسع لمائتين وخمسين سريراً ، ويشتمل على أقسام للامراض الباطنية ، وأمراض النساء والولادة والأطفال ، والأنف والأذن والحنجرة ، وأقسام الأسنان ، والعيون ، والأمراض الجلدية ، والجراحة ، والتحاليل ، ثم التخدير ، والأشعة ، بالاضافة إلى هيئة طبية وتمريضية . وإدارته تتكون من ٤٨ طبيبا و ١٢٥ ممرضة ، إلى جانب الصيادلة والفنيين والاداريين ، وتقوم الهيئة العامة للجنوب والخليج العربي بالنهوض بأعبائه ، سواء من الجوانب الادارية أو المالية ، كما قامت الهيئة ببناء مشاريع متنوعة أخرى ، منها كلية للشرطة في مدينة صنعاء ، وقاعتان للمحاضرات والاحتفالات ، وكذلك مبنى لمصلحة الطيران المدني .

وهناك مشروع كلية الطب والعلوم الصحية الذي وعد صاحب السمو أمير الكويت بإنشائه عند زيارته لليمن ، ويعد من أكبر المشاريع التي تقوم الهيئة العامة بمتابعة إنشائه ، وتقدر المساحة الاجمالية لمباني الكلية بما يعادل ٣٦٢٠٥ أمتار مربعة ، ويحمل بعض سمات الطابع اليمني المميز في البناء ، وهو مقسم إلى سبعة أجزاء متشابكة متصلة ببعضها بعضا ، تم وضعها على ثلاثة مناسيب ، لتناسب طبيعة الموقع المتدرج ، وقد تم وصل الأقسام السبعة بسلالم عند تغير المناسيب ، لتربط كل جزء بالآخر ، أما التكلفة الاجمالية لهذا المشروع فتبلغ ٣٥،٧٧٠،٠٠٠ دولار أمريكي ، ومن المتوقع أن يتم إنجازه في ابريل عام ١٩٨٨ .

جامعة صنعاء :

ولما كانت اليمن قد انتهجت أسلوب التنمية الشاملة في خططها التنموية بمجالاتها المختلفة لذا كان الاهتمام بالجامعة ، كأحد القطاعات الهامة التي تغذي العملية التنموية بقطاعاتها المختلفة « بالكوادر » البشرية المؤهلة ، ويساهم خريجوها في كافة مجالات التنمية . إن جامعة صنعاء التي مر على افتتاحها خمسة عشر عاما ، والتي تتألف من تسع كليات هي : كلية الشريعة والقانون ، وكلية الآداب ، وكلية التربية ، وكلية التجارة والاقتصاد ، وكلية الطب والعلوم الصحية ، وكلية الهندسة ، وكلية الزراعة ، ومركز اللغات والدراسات العليا ، لا تخطط فقط لتطوير برامجها ومناهجها كما يقول الدكتور عبدالعزيز المقالح مدير الجامعة ، بل تحاول أن توجه هذه المناهج وهذا التخطيط ليساير برامج الدولة ، ويوفر احتياجاتها من « الكوادر » اليمنية المؤهلة ، لا سيما في قطاعات التعليم والصحة والهندسة والزراعة التي تمثل حجر الزاوية في نهضة اليمن الحديثة ، ومن هذا المنطلق فتحت كليات الطب والهندسة والزراعة استكمالا لكليات الجامعة النظرية ، كي تساهم في حل المشاكل المعقدة التي تواجه احتياجات التنمية » .

ويضيف الدكتور عبدالعزيز المقالح قائلا : « إذا كان تأهيل « الكوادر » اليمنية والعربية مسؤولية أساسية للجامعات العربية فإن جامعتنا تضع كافة إمكاناتها في خدمة المجتمع ، سواء كان ذلك في دراسات أو أبحاث ، تحاول الجامعة من خلالها التعرض لقضايا المجتمع ، والاسهام في إيجاد الحلول المناسبة لها . إنني أنادي بإنشاء مركز متخصص للعلوم والتقنية ، يقوم بربط الجامعة بكافة الجهات التي ترغب في الاستشارة ، أو تطوير برامج الادارة ، وتطويع التقنية .

ويوضح لنا التقرير الذي أصدرته الجامعة بمناسبة مرور ١٥ عاما على إنشائها التزايد الكبير في أعداد الطلبة والطالبات ، حيث وصل العدد الى نحو ١٥ ألف طالب وطالبة ، موزعين على كليات الجامعة المختلفة ، علما بأن أعدادالطلبة لم تتجاوز ثلاثة آلاف طالب منذ افتتاح الجامعة حتى عام ١٩٨٤ م .

تنمية الانسان :

وعن التنمية الثقافية يحدثنا الدكتور المقالح قائلا : « إن الحديث عن التنمية في جانبها الثقافي لا يقل أهمية عن التنمية في المجالات الأخرى ، بل هو من أهم

أنواعها ، لأنه يتعلق بتنمية الانسان ، صانع كل التنميات ، وفي تقديري أن بلادنا في السنوات الأخيرة قد قطعت مرحلة كبيرة في سبيل بناء الانسان ، وإعداد « الكوادر » القادرة على تطوير البلد والنهوض بالتنمية الشاملة ، ففي مجال التعليم العام قفزت الأعداد من مئات الألوف إلى مليون وثلاثمائة ألف طالب وطالبة ، وفي الجامعة قفز العدد في السنوات الاخيرة من ثلاثة آلاف طالب إلى خمسة عشر ألف طالب ، والقفزة ليست في الكم وإنما في الكيف أيضا ، وهناك ما يشبه التطور الشامل في مجال التعليم وفي بناء المؤسسات العلمية ، وهذا الأمر في حد ذاته يؤكد أن بلادنا تمضي في حركة تنموية جادة ، وأنها لا تقف عند المجال الاقتصادي والاجتماعي ، وإنما تمضي إلى المجال الثقافي ، وتسعى إلى خلق الانسان القادر على صنع التنمية الحقيقية وحمايتها أيضا .

ويضيف قائلا : « وإذا كانت تنمية الثقافة ماتزال تخطو خطواتها الأولى في البداية ، فإن الأثر الذي ستتركه في الأيام المقبلة يمكن أن تلمسه من الآن ، وهو في نفس الوقت يؤكد أن التنمية تسير جنبا إلى جنب في مختلف المرافق ، وتسعى إلى تجاوز كل المعوقات .

مشاريع ... مشاريع :

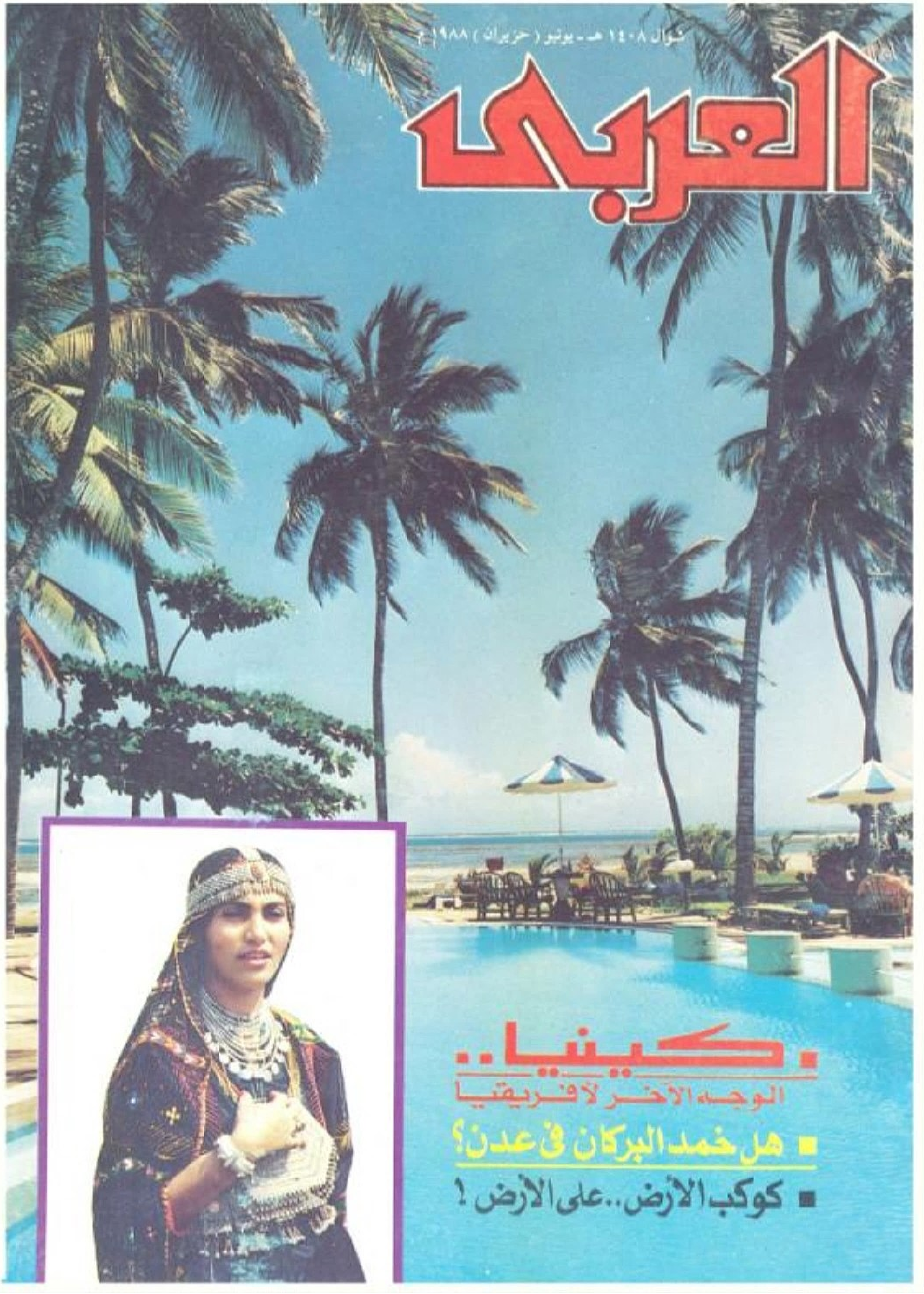
إننا لا نستطيع في هذا التحقيق المحدود أن نتناول جميع المشاريع التنموية في الجمهورية العربية اليمنية ، لأنها عديدة ، فهناك العشرات من المشاريع الجديرة بالتنويه عنها ، وهي مشاريع متنوعة ، تخدم قطاعات كبيرة ، منها مشاريع الطرق البرية التي تربط بين مدن الجمهورية ، ومحطات القوى الكهربائية العملاقة في منطقة المخا ، ومشاريع المواصلات والنقل ، وشبكات المواصلات السلكية واللاسلكية ، ثم مشاريع الاسكان المتعددة ، وغيرها من المشاريع .

معوقات التنمية :

إن التنمية بقطاعاتها المختلفة ، وخططها ، تواجه بالكثير من المعوقات والسلبيات أثناء تنفيذها ، ومنها ضعف البناء الاداري المؤسس ، وضعف الهياكل الأساسية . يحدثنا الاستاذ فتحي سالم وكيل الجهاز المركزي للتخطيط عن هذه المعوقات والسلبيات فيقول : « أولى هذه المشاكل هي مشكلة التمويل ، فقد كانت خطط التنمية تعتمد على المصادر الخارجية في التمويل حيث كنا معتمدين في خطتنا الأولى ، والثانية أن التمويل خارجي لأي مشروع من مشاريع التنمية بنحو ٦٠ بالمائة من اجمالي التكلفة ، ويتحمل التمويل المحلي ٤٠ بالمائة ، إلا أن ارتفاع الأسعار المحلية لكثير من المواد الأولية ، وكذلك معدلات التضخم العالمية والمحلية قد أدت الى زيادة الفترة المقررة لانجاز بعض مشاريعنا التنموية .

بالاضافة إلى المشاكل التي تواجه منطقتنا العربية مثل الحرب العراقية الايرانية ، واحتلال اسرائيل لأجزاء من وطننا العربي تشكل بصورة وأخرى إحدى العوائق للتنمية ، كما أن انخفاض سعر النفط ، وانخفاض إنتاجه قد أدى أيضا إلى إطالة أمد بعض مشاريعنا ، وبالاضافة إلى ذلك هناك أشياء لم نكن نتوقعها ، مثل الزلزال الذي حدث في ذمار عام ١٩٨٢ أثناء تنفيذها للخطة التنموية الثانية ، حيث كلف الدولة مبالغ طائلة لاعادة إعمار ذمار .

مما أدى بالمسؤولين إلى استقطاع جزء كبير من المبالغ المخصصة لمشاريع التنمية لاعادة الاعمار لهذه المنطقة ، كما أن هناك مشاكل ناجمة عن التأخير في إرسال التمويل واختلاف الممولين في شروطهم بالاضافة إلى العوامل الادارية الموجودة لدينا ، وهذا مما أدى إلى وجود بعض المعوقات في طريقة مشاريعنا التنموية ، ومع ذلك خطت بلادنا خلال فترة وجيزة خطوات موفقة وملموسة كان لها اكبر الاثر في دفع عجلة التنمية الى الامام . □

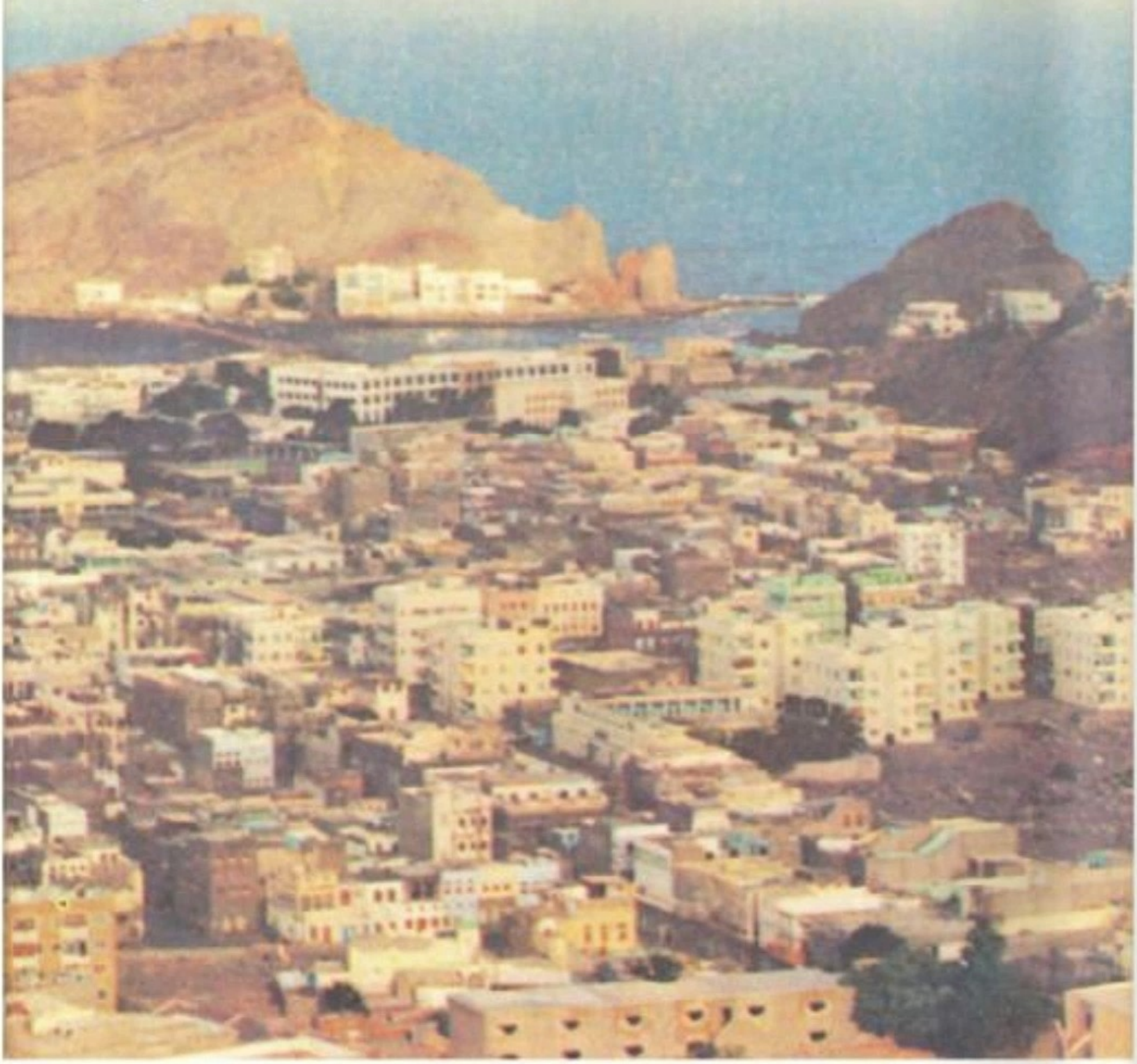

شوال ١٤٠٨ هـ - يونيو (حزيران) ١٩٨٨ م
العربي
كينيا..
الوجه الآخر لأفريقيا
هل خمد البركان في عدن؟
كوكب الأرض.. على الأرض ؟

هل خمد البركان في عدن؟

كريتر

من هنا دخل الإنجليز ومن هنا خرجوا!

استطلاع: سليمان الشيخ
تصوير: فهد الكوح

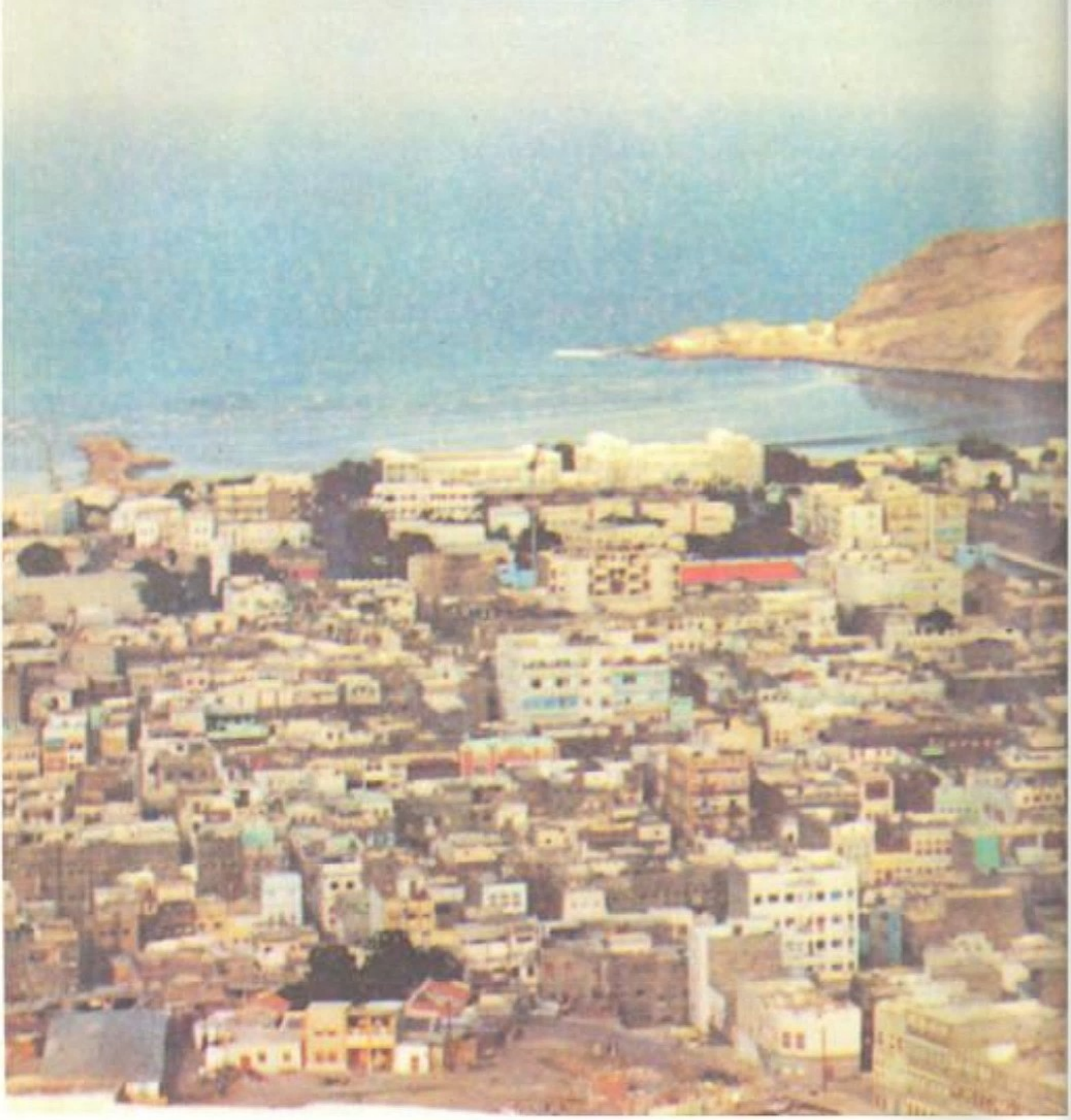


في عشرينيات هذا القرن زار الرحالة أمين الريحاني عدن ، ونقل صورة عن واقعها الاجتماعي والسياسي في ذلك الوقت .

وها نحن ننقل صورة أخرى عن نفس الواقع بعد حوالي ستين عاما من رحلة الريحاني ، وبعد عشرين عاما على الاستقلال .

ما هي ملامح الصورة ؟ وما هي مكوناتها ؟ وما هي آفاق المستقبل ؟ وما هو مستقبل التنمية ؟ وإسهامات النفط الذي بدأ يتدفق في اليمن ؟

.. الى عدن أرض التاريخ والحضارات كانت رحلتنا .



تعتبر عدن من أقدم الأماكن التي سكنها البشر منذ قديم الزمان ، وعدن المعروفة في التاريخ القديم حتى الثلث الأول من القرن الماضي كانت هي المساحة المحاطة بسلاسل جبال شمسان من الجنوب والغرب ، وجبال المنصوري من الشمال وجزء من الشرق ، ولم يكن غير البحر منفذا لها من هذا الحصار الجبلي المقيم مع بوابة صغيرة في الغرب . وعدن نفسها هذه المستوطنة القديمة كانت ومازالت مجرد فوهة بركان خمد ، وفوهة البركان تعني بالانكليزية « crater .. كريتر » ، ومنذ أن جاء الانكليز أصبح اسمها كريتر بدلا من عدن ، على أساس أنها خرجت من حصار الجبال والطوق المحكم المضروب حولها ، وتوسعت غربا وشمالا وجنوبا ، وأصبح لها أخوات حملن أسماءهن الخاصة (المعلا ، التواهي ، الشيخ عثمان ، خور مكسر ... الخ) .

ومع ذلك فإن بعض المصادر مازالت تطلق اسم عدن عندما تريد جمع الشقيقات ، مع أن الجغرافيا تغيرت منذ زمن طويل . عن « كريتر » ، أو على الأصح عن عدن القديمة يدور استطلاع « العربي » الجديد .

شكلها بيضاوي طولها حوالي ٨ كيلومترات وعدد سكانها تجاوز مائة ألف نسمة . توجد فيها أبرز المعالم التي خلدها التاريخ ، ففيها صهاريج أو سدود قديمة قدم الانسان فيها ، وفي مقدمتها من ناحية البحر شرقا تقع جزيرة صيرة المشهورة تاريخيا ، وفيها مسجد ابان بن عفان ، ومسجد العيدروس . وعلى بوابتها الغربية طريق « العقبة » الذي كان حتى أوائل ستينيات هذا القرن طريقا ضيقا فوقه جسر قديم ، وعلى تلالها من ناحية الجنوب بالقرب من الصهاريج معبد وبستان للفُرس ، نعم الفُرس !

وداخل المدينة يوجد المتحف الذي كان قصرا ، والمكتبة الوطنية التي بنتها دولة الكويت ، والمتحف العسكري الذي كان مدرسة قديمة ، وسوق البهرة . نعم البهرة ، ومنارة يقال إنها تعود الى زمن الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز .

إنها مدينة عامرة بالقديم والجديد ، فكيف حدث الجدل والتفاعل بين الانسان والمكان ؟ وكيف تحولت عدن الى كريتر ؟ وهل فوهة البركان التي كان اسمها عدن قد خمدت براكينها الآن ، ولم يعد لها في حياتها مكان ؟

الحرس البركاني القديم

لا شك أن الصدفة هي التي جعلتنا نتجه عصر يوم الثلاثاء ١٩/ ١/ ١٩٨٨ إلى الطريق المؤدي إلى قلعة صيرة ، وقلعة صيرة تقع في أعلى مكان من شبه جزيرة صيرة ، وكانت من قبل كما ذكر لنا مرافقنا السيد سعيد محمد ثابت الموظف بوزارة الاعلام ، جزيرة قائمة بذاتها ، مفصولة عن كريتر ، إلا أن قربها من اليابسة - حوالي كيلو متر واحد - حتم بناء طريق مرصوف ، لتسهيل التنقل ، وقد أصبحت هي وبعض المناطق القريبة منها مناطق مهمة للانكليز ، أقاموا عليها بعض المنشآت زمن استعمارهم للبلاد .

كانت نسمات ذلك العصر اللطيفة تغري بالتنزه (درجة الحرارة وصلت الى حوالي ٢٥ دون رطوبة) في الطريق المؤدي إلى شبه الجزيرة التي تشبه الهرم ، والصيادون على جانبي الطريق مدوا صنانيرهم في البحر وانتظروا غمزات السمك ، وبعض سفن الصيد توزعت على الشاطىء أو بالقرب منه داخل البحر ، والقاعدة التي تقول : حيث يوجد بحر فإنه يوجد صيادون وبحارة قاعدة صحيحة تماما .

لفت نظرنا شاب مفتول العضلات يحمل سمكة كبيرة .

فاستوقفناه ، فقال : إنها من نوع سمك الديرك ، طولها حوالي متر ، وقد اصطادها أخي بالقرب من الجزيرة ، وهي من أطيب السمك في بحرنا ، وهأنا أدلل عليها للبيع ، إنها طازجة ، صيد اليوم ، انظروا ، هل تشترون ؟

التقط له زميلي المصور بعض الصور ، فأدرك مهمتنا ، ومضى في طريقه . صادفتنا بعض البيوت جنوب الجزيرة ، وهي حديثة لا يصل عمر أقدمها إلى أكثر من ثلاثين سنة ، وتوغلنا أكثر ، صيادون يصلحون شباكهم ، ومرافقنا يقول بأن مصنعا للثلج

كان قائما في شمال الجزيرة . وبجانبه كان الطريق ممهدا للصعود إلى قمة المكان . إلا ان الطريق تآكلت وتفتتت بعض صخورها السوداء البركانية مدببة الرءوس . فأصبح الصعود اليها صعبا . لذلك فإن المتنزهين كانوا يحيطون بالجزيرة بدلا من الصعود إليها . ويختارون مساحات يمكن الجلوس عليها . لتنشق هواء البحر . والتواصل مع هديره . والابتعاد عن ضجيج المدينة ومشغولياتها .

أصررنا على الصعود، ومع توالي الهدير والموجات التي تلتطم بالصخور هلت على الذاكرة المعلومات : « الجزيرة بركان جانبي للبركان الرئيسي الواقع إلى الغرب من الجزيرة الذي تقع على فوهته مدينة كريتر . وفوهة بركان صيرة هي الرقعة التي تقف عليها القلعة . وهي أعلى نقطة في الجزيرة الهرمية » .

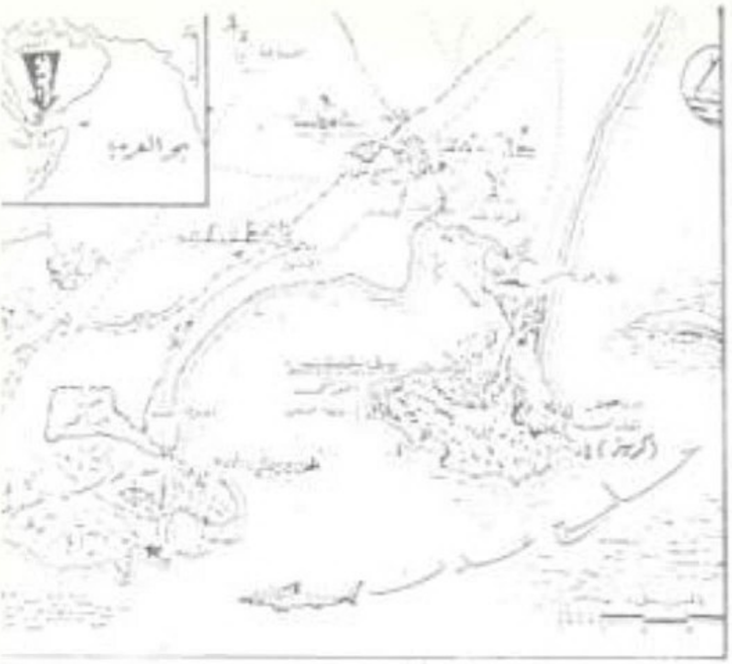
تنفسنا الصعداء بعد أن وصلنا إلى متاريس القلعة المتآكلة . وانكشفت لنا كريتر بالكثير من تفصيلاتها . بل وبانت لنا على البعد الشيخ عثمان إحدى شقيقات « كريتر » .

ورأينا مدفعا . أغلب بدنه مدفون في التراب . بالقرب من مساقط المياه التي أكلت ونحتت في طريقها الكثير من الصخور والتربة . وبالقرب من المتاريس كان هناك مدفعان قديمان .

كانت القلعة في الجهة الجنوبية الغربية . وقد تساقطت بعض حجارتها . لكن أجزاء منها كانت ما تزال في حالة جيدة . المتاريس كما تذكر المصادر التي كتبت عن الجزيرة (ترتفع ٢٠٠ متر) . وقد بنيت في القرن الماضي بعد احتلال الانكليز للجزيرة . في حين أن القلعة يعود تاريخها إلى زمن أقدم . ربما إلى القرن السادس عشر أو قبل ذلك . وقد أجريت عليها ترميمات عدة من قبل القوى التي سيطرت على عدن في فترات متعاقبة. ويبلغ ارتفاعها ٣٣٧ قدماً.

القيمة الاستراتيجية

ذكرنا أننا في ١٩ يناير من هذا العام كنا نتسلق شعاب جزيرة صيرة وصخورها وفي هذا اليوم منذ ١٤٩ سنة قامت معركة بين الانكليز وأهل المدينة وقوات سلطان لحج وعدن . وقد انتهت بسقوط المدينة سنة ١٨٣٩ . فاستمر فيها الاستعمار



- خريطة عدن

الانكليزي حتى سنة ١٩٦٧م .

فما هو دور صيرة في هذا الأمر ؟

كانت صيرة هي البوابة الاستراتيجية المهمة التي تمركزت في قلعتها وعلى جوانبها قوات سلطان لحج وعدن يومذاك (١٨٣٩) . لتواجه القوات الانكليزية التي بحثت عن ذريعة لاحتلال عدن . لتكون محطة لها للتموين بالوقود والاستراحة . لتتابع طريقاً آمنا إلى الهند .

إن الصراع الانكليزي الفرنسي . والهولندي . والدنماركي . في مياه البحار والمحيطات الدافئة . وتوفير محطة آمنة على طريق التجارة مع الهند والمستعمرات التي تحيط بها قد جعل الأنظار تتجه إلى عدن المدينة التي تقع بالقرب من باب المندب (آخر محطة في البحر الأحمر) . والتي تطل على مياه المحيط الهندي أو بحر العرب . لذلك فإن الانكليز قد جعلوا من حادثة السفينة « دوريا دولت » التي جنحت بالقرب من عدن سنة ١٨٣٧م ونهبها أعراب المنطقة سببا وفرصة لاحتلال المدينة . وأن تكون « المعركة » التي انتهت بعد ساعتين ونصف من صباح يوم ١٩/ ١/ ١٨٣٩ معركة حقيقية او مجرد تمثيلية بين سلطان لحج وعدن محسن العبدلي وبين الانكليز . فإن النتيجة كانت سقوط الجزيرة . ومن ثم الزحف على عدن . البلدة القديمة التي تذكر المصادر التاريخية أنها كانت قليلة العمران يومذاك بعد أن دمرتها الحروب والغزوات الداخلية والخارجية .

ولأن نظرية الحدود الآمنة لا تقف عند حد معين

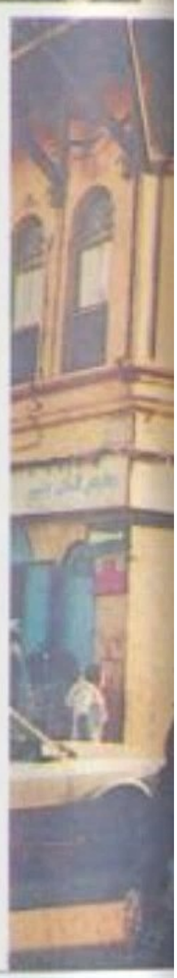












● ملامح من تاريخ اليمن يحتضنها هذا القصر الذي تحول الى متحف وطني ، وفتاة يمنية تعرض زيا يمنيا مميزا . - أقصى اليمين - ساحة السوق .. لاحظ الجبال .. كأنها تحاصر المكان - أعلى - بناء قديم .. له هويته وطابعه وتميزه العربي الاسلامي - أسفل يمين - لباس يمني تقليدي .. كان لباسا لعرائس زمن مضى - أسفل -

في الكثير من الأحيان لذلك فإن الانكليز أخذوا يتمددون من عدن إلى الشيخ عثمان ، ثم لحج ، ثم يافع إلى أن سيطروا على السلطنات والمشيخات والامارات التي كانت قائمة في الجنوب اليمني ، وبقوا فيها إلى أن قامت الثورة في ردفان سنة ١٩٦٣ وتبعتها المناطق الأخرى ، وصولاً إلى الثقل الأساسي في عدن العاصمة والقاعدة الأساسية .

الأيام التي تلت الهزيمة

كانت هزيمة عام ١٩٦٧ قاسية على كل عربي ، فقد كان حلم تحرير فلسطين ومازال أمنية لكل عربي ، إلا أن نتيجة الحرب أحبطت الجميع ، وساد مناخ الهزيمة ، وانتشر في كل الأقطار العربية . أن احتلال سيناء والبقية الباقية من فلسطين والجولان ليس أمرا هيناً ، وهو لا يعني احتلال الأراضي فقط ، بل كان شرخاً في الذات العربية .

هكذا وصف لنا تلك الأيام السيد ياسين محمد ابراهيم الذي يسكن بالقرب من صهاريج الطويلة في مدينة كريتر والموظف في وزارة الثقافة والاعلام ، وقد أضاف : في تلك الأيام السوداء أرادت الجبهة القومية في اليمن الديموقراطي (تنظيم سياسي عسكري لعب دوراً أساسياً في الثورة على الانكليز ومن ثم تحرير البلاد) أن تعيد الثقة للنفوس أو لنقل جزءاً منها .

كانت الثورة على أشدها في كل مناطق الجنوب اليمني ، وبتاريخ ٢٠/ ٦/ ١٩٦٧ ظهر الفدائيون في كريتر وهلوا عليها من جبال شمسان ، ومن جبال المنصوري ، بل وخرجوا من داخلها .

وقد سيطروا على المدينة مدة تزيد على ١٥ يوما ، على الرغم من استعمال المستعمر الانكليزي لكل أساليب البطش ، فقد استدعوا « الكوماندوز » أقوى فرقهم ، وبدءوا بقصف مناطق الثوار بالطيران ، بل إنهم قطعوا الماء عن المدينة ، وحاصروها حصارا محكما ، ومع ذلك فقد استبسل الثوار واستمروا في المقاومة مدة اسبوعين ، وعندما قلت الأقوات ، وشح الماء ، فإن الثوار اختفوا كما برزوا ، لكنهم كانوا قد لقنوا الانكليز درسا ، وأعادوا ما استطاعوا من ثقة مهزوزة إلى نفس كل عربي ، وبعد ذلك فإن المناطق أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى بأيدي الجبهة القومية وصولا إلى التحرير الكامل في نهاية سنة ١٩٦٧ .

صالح حسان رجل خمسيني ، التقيناه في قرية حيل جير في مديرية ردفان ، قال : لقد التحقت بجيش الجنوب منذ سنة ١٩٥٨ ، وعملت في بيحان ومكيراس وغيرهما ، وعندما قامت الجبهة القومية أصبحت أحد أعضائها السريين داخل الجيش ، وفي سنة ١٩٦٦ نقلت إلى عدن ، وأذكر أننا (جنوداً وضباطاً) قد انتفضنا بتاريخ ٢٠/ ٦/ ١٩٦٧ وتمردنا في معسكر « ليك لين » الذي كنا فيه بعدن .

فقد جاءتنا الأوامر من الجبهة القومية فانتفضنا ورفعنا علم الجبهة في المعسكر ، وأطلقنا المساجين وأحرقنا بعض الثكنات واستولينا على أسلحة كثيرة ، وإن انتفاضتنا كانت جزءا من الانتفاضة التي قامت في كريتر .

السكان خليط تغربل

يذكر أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب (الطبعة الثانية ١٩٢٩) أنه عندما جاء إلى عدن كان فيها ٤٠ ألف نسمة ، أو على الأصح كان في كريتر ذلك العدد ، ويقول :

« في فم البركان ، أو ما كان بركانا في قديم الزمان ، وفيها أربعون ألفا من السكان من كل شعوب الأرض والأديان ، فيها المسلم الذي يصلي إلى الله ، والفارسي الذي يصلي إلى الشمس ، والبنيا (البنياني) الذي يصلي إلى الأوثان ـ وقد ذكر الريحاني أن البنيا حسب اللغة الهندية معناها صاحب حانوت وكانوا من التجار والصيارفة ـ والمسيحي مكرم الصور والصلبان ، والاسماعيلي صاحب الزمان ـ أغلبهم من الهند ـ واليهودي مسبح الذهب الرنان ، وفيها من يغسلون ويكفنون أمواتهم ، ومن يحرقونهم ، ومن يحملونهم إلى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان » .

هذا عن السكان والأديان فيما مضى ، أما فيما يتعلق بطراز البناء فإن الريحاني يذكر « أما بيوتهم

فواحدة ، لا تعرف أعربية هي أم هندية أم أوروبية » .

وإذا كان السكان هذا الخليط المتكدس الذي جاء من جميع الدول التي كانت خاضعة لبريطانيا ، قد أصابتهم الغربلة ، واضطروا إلى الخروج مع أسيادهم الانكليز زمن الاستقلال ، وبقيت منهم أقلية ؛ فإن طراز البنيان في كريتر قد بقي على ما هو عليه ، أو أغلبه على الأصح قد بقي كذلك . وإنه الآن مزيج من العربي الاسلامي والهندي والأوروبي كما ذكر الريحاني . حتى المباني الحديثة التي قامت في غرب المدينة واحتلت مكان معسكرات الجيش الانكليزي مازالت تحمل الطابع المحير الموزع على عدة طرز .

أما ما تبقى من سكان فإن الأغلبية العظمى هم الآن من أبناء البلد ، وعلينا أن نذكر أن ملامح بعضهم تحمل السمات الهندية الواضحة ، وهذا يعود إما إلى تأثيرات الزيجات التي حصلت منذ عشرات السنين ، وإما إلى أن بعضهم ولد من أب وأم هنديين مسلمين تجنسا بالجنسية اليمنية ، وأصبحا مواطنين ، وخاصة أن بعضهم جاء واستوطن كريتر قبل الغزو الانكليزي .

ويعمل الكثير منهم الآن بالحرف الفنية وبعض التجارات الصغيرة في القطاع الخاص .

جاء في كتاب « سياسة بريطانيا في جنوب اليمن » للدكتور جاد طه الصادر سنة ١٩٦٩ عن السكان ما يلي :

« منذ الاحتلال البريطاني لعدن سنة ١٨٣٩م وسكانها آخذون في الزيادة بصفة مستمرة ، فعند بداية الاحتلال كان عدد السكان نحو ٦٠٠٠ نسمة (كريتر) ، وبعد ثلاث سنوات فقط ارتفع العدد إلى ١٥ ألف نسمة ، ثم وصل العدد إلى نحو ٢١ ألف نسمة (كريتر والتواهي وغيرها)سنة ١٨٥٦ . وبعد نحو قرن من الزمان أي في عام ١٩٥٥ أصبح مجموع السكان ـ في كل مناطق عدن ـ ١٣٨,٤٤١ نسمة ، منهم ١٠٦,٤٠٠ نسمة من العرب ، و ١٥,٨٠٠ من الهنود ، و ١٠,٦٠٠ من الصوماليين ، و ٤,٤٠٠ من الأوروبيين و ٨٠٠ من اليهود . وفي عام ١٩٦٣ ارتفع عدد السكان إلى ٢٢٠ ألف نسمة » . ويجب أن نشير إلى أن عدد اليهود كان حوالي ثمانية آلاف نسمة قبل سنة ١٩٥٠م ، إلا أنه نتيجة لاحتلال فلسطين من قبل الصهاينة سنة ١٩٤٨ ، فإن أعداداً من اليهود هاجروا إلى فلسطين ، إما من خلال مخططاتهم الخاصة واستجابتهم لنداء الحكومة « الاسرائيلية » بالهجرة ، أو نتيجة لغضب الشعب في عدن الذي أحرق بعض متاجرهم ومؤسساتهم ، وهاجم الحي الذي يسكنونه . وقد استمر حوالي ألف منهم يسكنون عدن حتى حرب سنة ١٩٦٧ والهزيمة التي لحقت بالأقطار العربية ، مما دفع الجمهور العربي إلى مهاجمة مصالحهم وبيوتهم ثانية فهاجرت البقية الباقية منهم وخاصة أن الانكليز قد جلوا في ذلك العام .

في شارع البُهرة

مازال الشارع في عدن اسمه شارع البهرة ، والبهرة منطقة هندية يقطنها مسلمون شيعة ، جاء بعض سكانها إلى عدن ، قبل الاحتلال الانكليزي وبعده ، فعملوا في التجارة وغيرها ، وقد اختلطوا بالعدنيين وناسبوهم ، فبقي بعضهم بعد الاستقلال في البلاد التي أصبحت بلادهم ، وحصلوا على الجنسية اليمنية ، وعوملوا معاملة المواطنين فيها .

يمتد شارع البهرة بمحاذاة مسجد ابان من ناحية الجنوب ، وهو ضيق كبقية الشوارع الداخلية في كريتر ، وتقع على جانبيه دكاكين العطارين الذين يتاجرون بالعطور والبخور وغير ذلك ، وبضاعتهم إما مصنعة في عدن أو مستوردة من الهند وبعض الدول الأوروبية مثل انكلترة وسويسرة وهولندة . هكذا ذكر لنا السيد أحمد داود العطار عندما سألناه عن نوعية العطور التي يبيعها وأماكن تصنيعها وقد أضاف : نحن أصلنا من البهرة ـ يتجاوز عمره ٦٠ سنة ـ وقد جئت إلى هنا سنة ١٩٢٩م في المحل المقابل « الجونة ياتافع » ، صاحبه عربي يمني ، يحتوي على مجامر للبخور متنوعة أماكن الصناعة والأحجام ، بعضها مصنوع في الشيخ عثمان ، ولحج ، وبعضها مصنوع من الفخار المحروق في اليمن الشمالي ،

وهناك نوع آخر صومالي مصنوع من الكلس ، ويوجد في المحل أكواز ماء صغيرة وكبيرة ، وسلال مصنوعة من الخوص ، ومشاجب مصنوعة من الخوص أيضا خاصة بالعرسان ، وأطباق من القش . . . الخ .

في شارع قريب دخلنا إلى مطبعة « الهلال » ، ملامح الرجل هندية واضحة . قال : أصلي من الهند ، وقد جاء آبائي واستوطنوا عدن ، ونحن مسلمون ، وقد حصلنا على المواطنة بعد خروج الانكليز .

إن آلاتنا متواضعة والمطبعة تأسست سنة ١٩٣٧ ، ونتضد الحروف يدوياً .

فرس وبيت نار !

لقد تكرر اسم « الفرس » كثيرا على لسان بعض من كنا نقابلهم في عدن : بستان الفرس ، معبد الفرس ، استراحة الفرس . . . الخ .

فمن هم هؤلاء الفرس في عدن ؟

دخلنا إلى صيدلية « النجم » التي تقع مقابل المتحف العسكري ، وقد فوجىء بنا الشاب الثلاثيني الذي لم نطلب منه دواء ، بل طلبنا منه معلومات ، فاعتذر بعربية فيها بعض التكسير ، وذكر أنه سيعرفنا على عمه الكبير وهو يملك المعلومات التي نحتاجها .

في نفس الشارع على بعد أمتار قليلة دخلنا محلا لبيع قطع غيار السيارات ، فوجدنا رجلا يلبس الملابس الأوروبية ، وكان كبيرا في السن ، قال : أنا من مواليد سنة ١٩٢٧ في عدن ، وجدي جاء إلى هنا سنة ١٨٧٦ ، ونحن من دولة كوجارات في الهند من مقاطعة سورات ، ومن قرية سيجنبور ، ومازلنا نحتفظ بالجنسية الهندية ، ولم نحصل على جنسية اليمن الديمقراطية لأننا غير مسلمين .

- سألته : أنتم ماذا إذن ؟

- نحن زرادشت وفرس أصليون ، وأصلنا من بندركوساه في ايران ، وعندما جاء الاسلام ووصل إلى ايران هاجرنا بديننا إلى الهند ، وهناك تكاثرنا .

- هل بسبب ذلك يطلقون عليكم فُرْساً ؟

- نعم إن أصلنا من بلاد فارس ، وإننا نقدس النار ، وكان لنا معبدنا الخاص الذي يقع بين مسجد العيدروس والبستان الذي يعرف ببستان الطويلة وتقيم فيه المليشيا العسكرية الآن ، إلا أن تناقص عددنا حتم نقله إلى الهند فأعدناه إلى هناك .

- كم وصل عددكم في عدن ؟

- لقد وصل عددنا إلى حوالي ألف نسمة زمن الانكليز . - والآن . . ؟

- لم يبق إلا سبعة أشخاص فقط في عدن . وأضاف : نحن أقلية في العالم ، أعني اتباع الزرادشتية وربما لا يصل عددنا إلى مائة ألف نسمة في كل أنحاء العالم ، ويوجد بعضنا في ايران والهند وأميركا الشمالية ، ومعظمنا يعمل في التجارة ، ولغتنا الحالية لغة كوجارتية وهي إحدى لغات الهند .

وانتا نقدس النار ونبقيها مشتعلة في معبدنا دائما .

- لقد زرت برجكم في التلال التي تشرف على كريتر من جهة الجنوب ، لم يبق منه إلا بقايا بناء ، ورأيت عظاما في البرج الدائري !

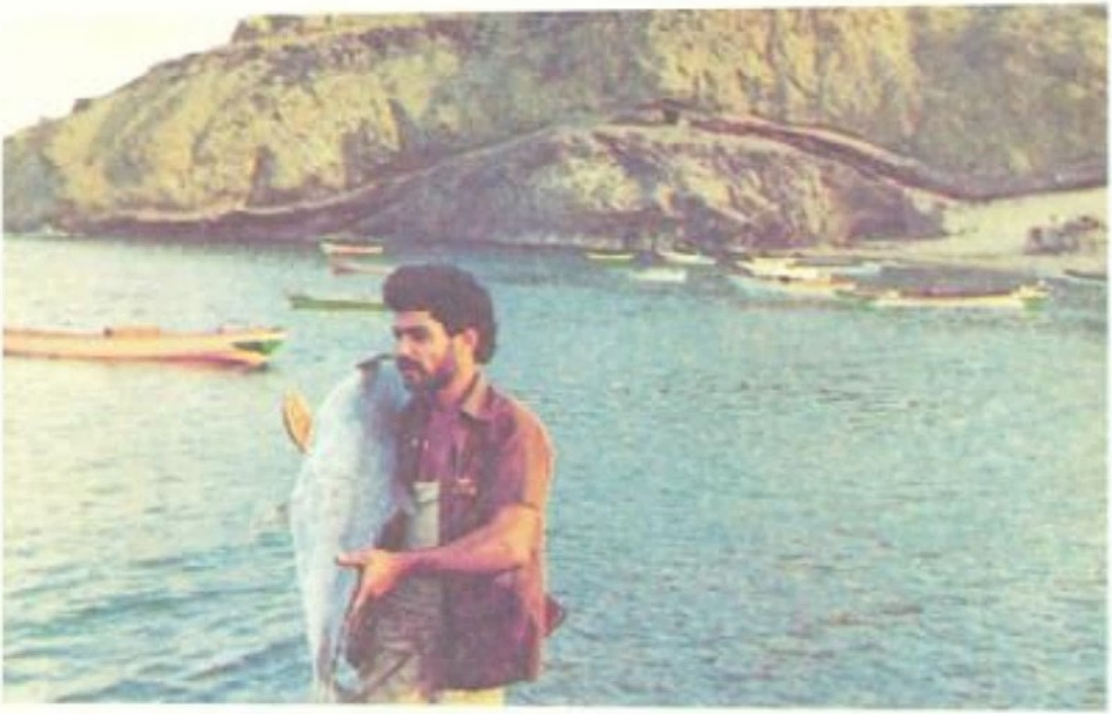
- إن هذا البرج بني سنة ١٨٦٦ ، ويسمى ببرج الموتى ، وهو غير برج الهدوء الذي كان معبدا لنا ، وقد أقمنا سورا حوله ، وكنا نصعد إليه بواسطة الحمير ، وكان مرصوفا وممهدا من قبل ، وليس كما هو الآن مملوءا بالحفائر ، وهناك في مكان الموتى كنا نترك موتانا في ذلك المكان الدائري عُراة كي تمتزج أشعة الشمس المقدسة بهم ، وتباركهم ، والغرفة التي تلي البرج كانت للاستراحة ، وكنا نضع الميت في البرج ثم نستريح حوالي نصف ساعة وبعد ذلك نغادر المكان . كل إلى أشغاله .

- تتركون الجثة للشمس كي تباركها ؟

- نعم إن خيوط الشمس مباركة عند الزرادشتية ، كما أن الجسد يترك عاريا كي تأكله الطيور ، والعظام التي وجدتها ربما هي بقايا من عظام أتباعنا ، إننا نؤمن بالتبرع ، حيث ان الجسد يمنح للشمس والطيور

- هل مازلتم تعرضون أجساد موتاكم الآن لنفس المصير السابق ؟

- لأننا أقلية ، ولأن معبدنا نقل من هنا ، فإننا كففنا عن الصعود إلى البرج ، وأصبحنا ندفن موتانا في القبور ، أو نرسلهم إلى الهند .



حيث يكـون بحر
يكون صياد وصيد



مدفع قديم في بستان
الـطويلة المحـاذي
لصهـاريج عـدن
- وسط -



صهريج (أبوقبة)..
احـد الصهـاريـج
المهمـة المتبقية من
إنجـازات الانسـان
اليمني عبر القرون


ـ الأستاذ عبدالله محيرز


ـ الأستاذ سعيد المدي

أســـواق ومهن

قبل أن ننتقل من الأسواق إلى أماكن أخرى يجدر بنا الاشارة إلى مجموعة من المعالم البارزة في الأحياء التي تحيط بالأسواق .

أسماء الشوارع مازالت تحمل أسماء شخصيات أو أماكن أو مدن معروفة ، أو أسماء بعض الشهداء الذين سقطوا بمواجهة المستعمر الانكليزي ، منها : شارع لقمان ، وجمال الدين ، ومكة ، وساحة الشهيد مدرم (أحد الشهداء) والخراج ، والسواحل الذي يحتوي على دكاكين الصاغة والمتعاملين بالذهب ، أو ساحة وسوق الزعفران ، وسوق الطويلة ، إلخ . ونظرا لأن بعض الشوارع ضيقة ، وخشية من الاصطدامات فان عدة مرايا كبيرة وضعت على تقاطعات الشوارع كي تنبه السائقين إلى حركة الشارع من الجهة الأخرى .

المقاهي والمطاعم عامرة والأسواق مقصودة خاصة بعد الظهر ، وباعة الأشرطة يطلقون أصوات المطربين والمطربات إلى أعلاها كي يلفتوا سمع الجمهور ، وسوق البلدية عامر والسوق القديم ضربه الانكليز ، فتحول الآن إلى سوق للقات . يسمح ببيع القات وتعاطيه في عدن في يومين فقط (الخميس والجمعة) .

وقد تم بناء سوق جديد من عدة طوابق تباع فيه الكثير من الأصناف والأنواع من خضراوات وفواكه وأقمشة وأدوات المطابخ وغيرها .

وهناك سوق خاص للبن وحب الهال والبهارات والحلويات ، والتنباك (يزرع في حضرموت) .

والمهن البسيطة الأخرى موجودة في أسواق وأماكن عديدة ، معاصر ومطاحن ، وحدادون ، ونجارون ، وبناءون ، قديم وجديد يتمازجان ، والمصنوع في البلد والمستورد تجدهما أحيانا في مكان واحد ، لكن يبدو أن حركة الاستيراد غير متروكة على عواهنها ، كما أن بهرجة الدعاية والاعلان عن محتويات المحلات محدودة وغير مُستفزة ، والناس يشترون حاجاتهم ويمضون . وجوه أجنبية يلحظها المراقب بين الوجوه العربية السمراء ، أغلبها روسية ، والبقية من جنسيات أخرى ، جاءوا للسياحة أو للعمل في مشروعات عدة ، والأسعار ليست رخيصة ، إنها تماثل أسعار الكويت تقريبا .

لفتت نظري اللافتة الخارجية « المخبز اليوناني » .

سألت الشاب الأسمر الذي يقف وراء صندوق الحساب : أمازال هذا المخبز يونانياً ؟

ابتسم ، وقال : لقد كان يونانيا ، وأصبح عربيا ، لقد جددنا آلاته ، لكننا أبقينا على الاسم فقط ، إن المحل مملوك لأحد أفراد عائلة العطاس ، وفيه يصنع الخبز والحلويات .

● كريتر .. من هنا دخل الانكليز ومن هنا خرجوا !!

- هل هو ملكية خاصة ؟

- نعم ، إنه يعتبر قطاعا خاصا ، والكثير من محلات الأسواق ، إن لم يكن معظمها مملوكة لأشخاص ، يدفع أصحابها الضرائب للدولة ، وينظم وجودها القانون الخاص بها .

معالم أخرى

قرب المساكن الجديدة ، وعلى بعد أمتار قليلة من مسجد أبان فإن بوابة قديمة مازالت متروكة كمعلم للتذكير ، إنها بوابة سجن عدن ، ومازالت الكتابة عليها واضحة بالانكليزية: سجن المنطقة ١٩١٢م . في الشارع المقابل مازالت كنيسة القديس جوزيف موجودة ، ولونها الأصفر مازال يلمع . قيل إن بعض المسيحيين العرب والهنود والأجانب الآخرين يؤمونها يوم الأحد ، وبجانبها تقع ثانوية الفقيد عبدالله باذيب الكاتب والصحافي اليمني المعروف ، وبجانبها تقع إحدى الروضات الحديثة .

عودة إلى المتحف العسكري الذي ورد ذكره من قبل ، وهو يضم صورا ومقتنيات من مراحل عديدة لاستعمال الأسلحة في اليمن الديمقراطية ، منذ قديم الزمان ، حتى الاحتلال الانكليزي ، ثم قيام الثورة ، والمراحل الحديثة التي مرت بها الثورة ، والشخصيات التي لعبت أدواراً مهمة في هذه المراحل . عن طراز البناء اللافت للنظر الذي يتكون من دورين ويتوزع على عدة جهات ، فإن السيد سعيد المدي المولود سنة ١٩٠٥م ، والذي عاصر الكثير من المراحل التي مرت بها اليمن الديمقراطية ، خاصة مراحل التعليم ، قد علق قائلا :

لقد كان المتحف مدرسة ، بناها الانكليز سنة ١٩٢١ بيد بنائين هنود ، لذلك فإن البناء أقرب إلى الطراز الهندي .

وذكر لنا دليل المتحف العسكري بأن المبنى تحول إلى متحف عسكري اعتبارا من ٢٣ يونيو ١٩٧١م .

وتقوم بجانب المتحف العسكري مكتبة وطنية ، تعتبر المكتبة المركزية في الجمهورية ، وذكر لنا السيد عبدالرزاق معتوق يحيى المشرف بالمكتبة أن المبنى المؤلف من ثلاثة أدوار والمزود بجميع المستلزمات بما فيها « الميكروفيلم » هدية قدمتها حكومة الكويت لحكومة اليمن الديمقراطية ، وقد افتتحت سنة ١٩٨٠ ، ويعمل فيها ٥٠ موظفا ، أغلبهم من الفتيات ، وبينهم حملة للماجستير في علم المكتبات ، وفيها حوالي ٣٥ ألف عنوان موزعين على أقسام عدة منها القسم العام ، والمراجع والدوريات ، والمراجع الأجنبية ، والمخطوطات ، وقسم التزويد والايداع ، وغير ذلك .

عندما سألت مريم قشلون مشرفة المراجع عن سبب كثرة الفتيات العاملات في المكتبة أجابت :

قراء كثيرون من مستويات ثقافية متعددة ، والمرأة أكثر صبرا واحتمالا ورقة في التعامل .

وقد ذكر السيد سعيد المدي أن المكان الذي تشغله المكتبة كان مدرسة لليهود ، تم إحراقها سنة ١٩٤٨ بسبب احتلالهم لفلسطين .

بيت الأحرار

ونحن نبحث عن بيت السيد سعيد المدي القريب من مسجد العيدروس ، وجدنا لوحة مثبتة على زاوية أحد البيوت كتب عليها النص التالي : « بيت الأحرار » .

« هنا عاش نخبة من الأساتذة الشعراء والأدباء والكتاب من الأحرار الذين أسهموا في النضال الوطني ضد الحكم الإمامي الكهنوتي والاستعمار البريطاني في سبيل الثورة والتقدم والوحدة ، في الفترة ما بين أواسط الاربعينيات إلى مطلع الستينيات وقيام ثورة ٢٦ سبتمبر المجيدة ، منهم : أحمد حسين المروني ، وأحمد حسن الحورش ، والشيخ مطيع دماج ، وأحمد مصلح البراق ، وزيد علي الموشكي ، وعلي عبدالعزيز نصر ، ومحيي الدين قاسم العنسي ، ومحمد محمود الزبيري ، ومحمد علي الأسودي ، ومحمد عبدالله الفسيل ، ومحمد علي الأكوع .

وقد كتبت في مقدمة اللوحة من شعر الشاعر الزبيري الابيات التالية :

إن الأنين الذي كنا نردده سراً

غدا صيحة تصغي لها الأمم





● كانت كنيسة زمن الاستعمار ، ثم أصبحت متحفا الآن - فوق -
بوابة السجن القديم .. أثر من آثار «الحضارة» الاستعمارية - أسفل يمين -
المكتبة الوطنية .. هدية من الشعب الكويتي الى الشعب اليمني .

● كريتر . . من هنا دخل الانكليز ومن هنا خرجوا !!



إن القيود التي كانت على قدمي
أضحت سهاماً من السجان تنتقم

وفي نهاية اللوحة تم تسجيل الآتي من شعر الشاعر محي الدين العنسي .

كم تعذبت في سبيل بلادي
ولقيت الحمام فيها مراراً
وأنا اليوم في سبيل بلادي
أبذل الروح راضياً مختاراً»

وعلى واجهة بيت آخر ، قريبة من البيت السابق وجدنا لوحة كتب عليها :

« هنا عاش عبدالله عبدالرزاق باذيب الذي قاد حركة النضال والثقافة ، وأغنى الصحافة اليمنية الحديثة » .

صهاريج أم سدود ؟

يذكر أمين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » النص التالي : « تدعى عدن الثانية المعسكر ، لأن فيها الثكنات وقسما من جيش الاحتلال ، وهي في حلقة من الجبال السمراء ، تكلل قنتها حصون قديمة مهجورة ، لأن الانكليز يستغنون عنها اليوم بالمراكب البحرية ، أما أشهر ما فيها من الآثار مما تبقى من ظل مجدها الغابر فهي أسداد الماء (تاريخ هذه الأسداد مجهول ، فمن المؤرخين من يقول إنها بنيت في القرن الخامس للمسيح ، ومنهم من يعود بها إلى ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح ، ومما لا يختلف في أمره أنها كانت مردومة عند الاحتلال الانكليزي ، فحفرت ورممت سنة ١٨٥٦ ، وأنها تسع ثمانين مليون جالون من الماء ، تلك الأسداد المبنية في مضيق منحدر بين جبلين ، بناء متينا محكما محفورا بعضها في الصخور بسد فوق سد ، يصب الواحد مياهه حين يمتلىء في السد الذي يليه ، حتى تفضي بعد امتلاء عدة أسداد إلى الخزان الأخير القائم عند سفح الجبلين . ولكن هذه الأسداد وهي من أجمل الأعمال الهندسية في العالم لا تمتلىء لقلة الأمطار إلا مرة أو مرتين في كل بضع سنين » هذا وقد ذكر الأستاذ عبدالله أحمد محيرز مدير المركز اليمني للأبحاث الثقافية والمتاحف في كتابه « صهاريج عدن » الذي



صدر حديثا : «أما نظام الطويلة - سلسلة المصارف التي تذكر بعض المصادر أن عددها ١٨ مصرفا أو سدا - فهي نظام ديناميكي وتقنية بارعة ووجه حضاري فريد، وهو وسيلة لتلقف الماء عبر جدران حاجزة إما منقورة بصفا الجبل أو مبنية بالحجارة والجص في عرضه، تقوم بثلاث مهمات: تلقف الماء، وحجز الحجارة والطمي الساقط مع الشلالات وتوجية الماء عبر سلسلة من هذه الجدران لتصريفه إلى حيث تكون الحاجة إليه: أي إلى صهاريج المدينة».

والمصارف في الجبل - شمسان وما يليه من تلال واقعة في جنوب المدينة - كانت حسب ما ذكره الاستاذ محيرز تتوالى في حجز الماء وتوجيهه وصولا إلى خزان كبير كان يقع وسط المدينة قرب مجمع البنوك الآن.

وقد زرنا الصهاريج الواقعة فوق بستان الطويلة، ووجدنا لوحة تم تثبيتها على إحدى الجدران بالقرب من صهريج أبي قبة، كتب عليها بالانكليزية «إن السيد لامبيرت اكتشف الصهاريج سنة ١٨٥٤، وتم ترميمها بعد ذلك. وتستوعب حوالي ٢٠ مليون غالون امبريالي»، وكاتب التقرير هو س. أ كاننغهام بريي دي ميرال في ٢٠ فبراير ١٨٩٩م. وصهريج أبي قبة هذا يشبه المسرح الروماني، وفيه شق طولي هو الذي ينزل منه المطر - إذا ما نزل - كالشلال. وقد بني مسجد بالقرب من المكان، وربما جاء اسم القبة للصهريج من أسم قبة المسجد. وهناك صهريج أبي سلسلة وآخر اسمه أبو عجلة، وغيره. وقد صعدنا الجبل كي نرى إلى أين تنتهي هذه السلسلة من السدود أو الصهاريج، فلم نستطع الوصول إلى أعلى من السد الخامس، لأن البقية موزعة في جبال شمسان التي تهيمن على المكان بصخورها السوداء المدبية ودروبها المتعرجة، وقد وجدنا في الجبل بعض المغارات والأعمدة التي نحتها الانسان، واستخرج منها «البومس» الذي كان يستعمل بدلا من الترابة (الاسمنت) في البناء، وهو أفضل من الترابة، ويحفظ تماسك الحجارة مدة زمنية طويلة.

كما وجدنا في بستان الطويلة متحفا للآثار، جمعت فيه أشياء تتعلق بالعادات والتقاليد اليمنية.

هذا ويشير الاستاذ محيرز في كتابه إلى أن سلسلة جبال المنصوري التي تشرف على المدينة من ناحية الشمال، وهي المقابلة لجبال شمسان، كانت تحتوي على سلسلة أخرى من الصهاريج والسدود، وكانت تلتقي عند خزان البنوك أيضا، إلا أنها اندرست وتهدمت كما يذكر.

متحف كبير

إن زائر بعض مناطق اليمن الديمقراطي سيكتشف بأن الكثير من الأماكن يحتوي على آثار قيمة تعود إلى مراحل مختلفة من حياة الشعب اليمني، ولأن الاهتمام بهذه الآثار يدخل في اطار المنافسة مع الأولويات التي يجب توفيرها لأغلبية الناس كالغذاء والكساء والتطبيب والتعليم، فإن البحث عن الآثار بشكل مكثف، وترميم الباقي منها والبارز والمكتشف لم يحن وقته الملح على ما يبدو في أولويات الجهات المعنية باليمن الديمقراطي. لأن قلعة صيرة وجزيرتها وصهاريج الطويلة وآثارا أخرى غيرها بحاجة إلى ترميم، وإلى شق طرق مناسبة لها، إلا أن الأولويات الاخرى تحول دون ذلك الآن على ما يبدو.

أخبرنا الاستاذ عبدالله محيرز عندما زرناه في المتحف اليمني بأن هناك بعثة فرنسية ويمنية تنقب عن الآثار في شبوة عاصمة حضرموت القديمة، وهناك بعثة سوفيتية يمنية تنقب في ريبون في وادي حضرموت.

سألناه: وعدن، ألم تنقبوا عن الآثار فيها بعد؟

فأجاب: لا شك أننا نفكر في التنقيب عن الآثار في عدن وفي غيرها من مدن ومناطق، ولا أخفي عليك بأن اليمن ما هي إلا مستودع كبير للآثار، لكن هناك أولويات، وسيأتي دور عدن وغيرها بطبيعة الحال.

ثم حدثنا عن المتحف الذي أقيم في قصر سلطان لحج السابق الذي بني في الفترة ما بين عامي ١٩١٨ - ١٩٢٤ على الطراز الهندي اليمني.

وقال: إن المتحف قد افتتح في القصر سنة

١٩٨٤ ، وهو يضم إلى جانب المتحف المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف ، ودور المركز يتوجه للتنقيب ، ودراسة النقوش ، وصيانة المواقع الأثرية ، ودراسة الوثائق الشعبية والرسمية والتراث الشعبي ، ١٣ متحفا في محافظات الجمهورية .

وذكر:أن المركز يرسم خطة سنوية للجمع والدراسة والتنقيب ، فمثلا إننا نخصص برنامجا لجمع الزينة والحلي من شتى محافظات الجمهورية في سنة معينة، ثم يلي ذلك خطة للاهتمام بالملابس أو الأغاني ، أو حتى الوصفات الشعبية .

والجدير بالذكر أن مؤتمر اليونسكو الذي عقد عام ١٩٨٢ قد أصدر استغاثة دولية للمحافظة على آثار مدينتي شبام وصنعاء في اليمن .

وقد التقينا بالسيد محمد سالم محمد مشرف المتحف الوطني للآثار الذي طاف بنا بين أرجائه وذكر لنا أن المتحف يحتوي على ثلاث قاعات :

الأولى : تحتوي على نماذج من القطع الأثرية التي تعود إلى العصر السبئي القديم ، مثل التماثيل والزخارف المعمارية والكتابات السبئية القديمة ، أما القاعة الثانية فإنها تحتوي على نماذج من قطع أثرية لممالك يمنية قديمة ، مثل ممالك قتبان ، وأوسان وحضرموت ، وغيرها .

أما القاعة الثالثة : فتحتوي على قطع فنية وأثرية لعصور الدويلات الاسلامية : مثل المسكوكات الذهبية والفضية والأختام وغيرها ، وتعود هذه إلى الدول اليعفرية والصليحية والرسولية والطاهرية ، وصولا إلى الحكم العثماني والمصري ، ثم السيطرة البريطانية .

وقد اغتنم زميلي المصور متابعتي لما تحتويه القاعات فخرج لالتقاط بعض صور الأزياء والملابس اليمنية في اهواء الطلق التي ارتدتها ياسمين عبدالملك الموظفة في قسم المخطوطات في المتحف والمتخرجة في جامعة عدن قسم التاريخ .

يقع المتحف الوطني في القسم الشمالي من كريتر ، بالقرب من خليج حقات . وهناك معلم آخر يقع بالقرب منه هو منارة عدن .

وهذه المنارة أثر تاريخي قديم ، اختلف المؤرخون في العصر الذي تنتمي إليه ، وهي مخروطية الشكل . وتذكر المصادر أنها كانت منارة لمسجد بناه الخليفة عمر بن عبد العزيز ، إلا أن المسجد تهدم مع الزمن ، وبقيت منه منارته التي تم تجديدها عدة مرات في عدة عصور .

للرياضة نصيب

يقع بالقرب من المنارة ميدان الحبيشي وملعبه ، والحبيشي هذا هو محمد عبدالله الحبيشي أحد أبرز لاعبي كرة القدم في الستينات بعدن ، كان عضوا مقاتلا في الجبهة القومية ، واستشهد في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٦٣ ، وقد أقيم له نصب تذكاري مع زميله منصور أحمد هادي الذي استشهد في ١٥ يونيو سنة ١٩٦٥ ، والنصبان يقعان قرب بوابة عدن من ناحية الغرب ، أي بالقرب من جسر العقبة القديم ، ويمكن اعتبارهما المعلم الأول في مدينة كريتر من ناحية الغرب . ويوجد عدة أنصبة للعديد من شهداء الجبهة القومية الذين سقطوا بمواجهة الانكليز في مناطق عديدة من عدن ، مثل نصب الشهيد علي سالم يافعي الذي استشهد سنة ١٩٦٧ الذي يقع قرب معسكر ٢٠ بالقرب من بوابة السجن القديم ، ونصب الشهيد خالد هندي ، وغيرها .

وقد أطلق اسم الشهيد الحبيشي على أكبر ملاعب عدن . وقد ذكر لنا السيد وجدان محمد عمر زيد أمين السر العام المساعد ـ سكرتير لجنة المسابقات العليا للاتحاد اليمني لكرة القدم ـ بأن الاستاد قد أنشيء سنة ١٩٢٤ زمن الانكليز ، وتمت توسعته عام ١٩٧٢ ليستوعب الآن حوالي ٢٠ ألف متفرج ، وبالقرب من استاد الحبيشي هناك نادي التلال الذي أدمجت فيه عدة نواد ، بعضها كان قائما منذ سنة ١٩٢٢ ، وقد تم دمج النوادي سنة ١٩٧٥ . ومفهوم النادي في اليمن الديمقراطي يقوم على أساس أنه رياضي ثقافي .

وهناك معلم آخر بارز في شمال كريتر ، يتمثل في البناء المخروطي الذي يحتل تلة بارزة ، تشرف على

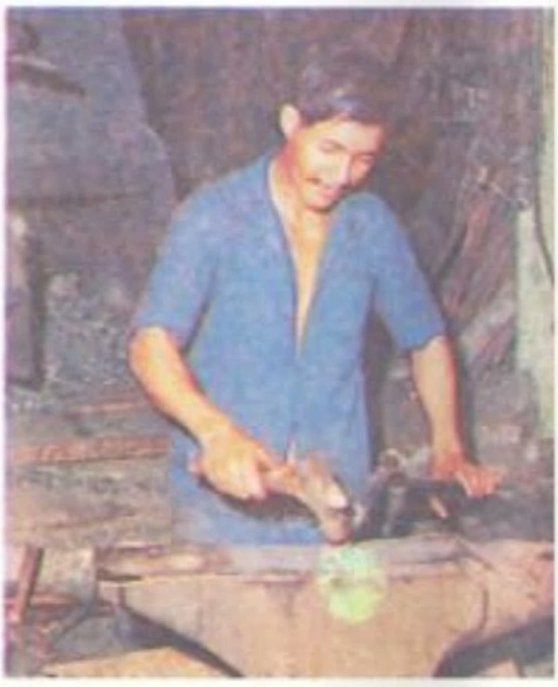






● زراعة وانتاج البن من أقدمُ المهن في اليمن . قديم يزول .. وحديث ينشأ .. هكذا هي الحياة . - أعلى - لحام الكهرباء .. إحدى مهن سوق كريتر - أسفل يسار - المرأة والذهب متلازمان دائما ..





ساحة البنوك ، والمبنى كما ذكر لنا السيدان المحيرز والمدي كان كنيسة بناها الانكليز في العشر سنوات التي تلت احتلالهم لعدن أي في سنة ١٨٤٩ ، حسب ما ذكر الاستاذ المدي ، في حين أن الاستاذ المحيرز ذكر أنها بنيت سنة ١٨٦٠ ، إلا أنهما يتفقان على أن هذه الكنيسة قد تحولت في بداية ستينيات هذا القرن إلى مركز للمجلس التشريعي الذي أقامته بريطانيا ليجمع ممثلي المشيخات والسلطنات والإمارات التي كانت قائمة في جنوب اليمن قبل الاستقلال ، ثم تحولت إلى ثكنة زمن الاستقلال ، وبعد ذلك تحولت إلى متحف للبوليس .

المســاجد

ذكر لنا السيد المدي بأنه يوجد في كريتر ما يزيد على ٣٠ مسجداً ، وهي تحمل أسماء شخصيات دينية ، لعبت أدواراً مهمة في حياة المسلمين ، كمسجد أبان ، والعيدروس ، والزعفران ، والعسقلاني ، والعراقي ، والأدهل ، والاحسان ، والهدى . . . الخ . .

أما عن فن العمارة المتعلق بالمساجد فإن مجلة نداء الوطن الصادرة في عدن يناير ١٩٨٨ قد ذكرت : « أما عن فن العمارة الذي يميز المساجد في عدن فمازال الكثير منها محافظا على نمط العمارة الإسلامية ، حيث نلاحظ النقوش والزخرفة الإسلامية في واجهات بعضها ، وفي منابرها وفي المآذن ، ويحتفظ مسجد ابان حتى الآن بزخرفة جميلة على بوابته الخارجية ، كما تشترك المآذن بفكرة المئذنة المستديرة التي تقطعها حلقات تشكل شرفات وسطية تنتهي بقبة مزودة بنوافذ تطل على عدة جهات » .

ومسجد ابان الذي ورد ذكره بُني في القرن الأول الهجري ، كما تذكر الكثير من المصادر ، وهو يقع في وسط كريتر تقريبا ، بناه أبان بن الحكم بن عثمان ، وتم تجديده عدة مرات ، في عصور مختلفة .

أما مسجد الشيخ العيدروس فهو كما تذكر بعض المصادر قد بُني في القرن العاشر الهجري ، وتذكر مجلة نداء الوطن عن الشيخ والمسجد : « تميز قبل ما يزيد على القرنين من الزمان الشيخ العيدروس الذي كان يُدَرِّس الفقه واللغة وأصول الدين والتفسير ، وقد بني له على نفس المسجد المقام حاليا ـ بعد توسعته ـ مكان للصلاة والخطبة ويرتفع المسجد جنوب كريتر . وقد استقدمت مواد بنائه من الهند ، ويمتاز هذا المسجد بفن العمارة فيه ، والزخرفة الخارجية ، والأشكال الهندسية التي تميز قبته والمئذنة ، مما يجعله تحفة تاريخية ، وتقترن بهذا المسجد ممارسات دينية عديدة ، أهمها الزيارة السنوية المعروفة التي تقام أواخر العام » .

وقد ذكر لنا حفيده عيدروس عندما قمنا بواجبات الزيارة للمسجد أن الشيخ العيدروس هو أبو بكر عبدالله عيدروس من تريم في اليمن الشمالي ، ولد سنة ٨٥١هـ ـ ١٤٤٧م ، وتوفي سنة ٩١٤هـ ـ ١٥٠٨م في عدن ، وهو شاذلي في طريقته الصوفية .

وقد ذكر لنا السيد عيدروس عدة خوارق أتى بها الشيخ العيدروس ، كما ذكر أن مياه البئر التابعة للمسجد مياه مباركة تشفي المرضى من أمراضهم !

وعندما سألت السيد المدي والسيد محيرز كل واحد منهما بمفرده حول كرامات الشيخ العيدروس وخوارقه ، فإنهما علقا على ذلك :

إن الشيخ العيدروس رجل دين حقيقي ، لكن الأتباع والمريدين هم الذين يهولون ويبالغون في الكرامات والخوارق التي نسبت إليه ، وأضافا : إن الرسول بشر ، ولم تنسب إليه معجزات وخوارق ، فكيف تنسب إلى غيره ؟ أما بالنسبة للمياه فإنها من نوع المبالغات التي لم تثبت صحتها بالعلم .

عادات الزواج

في حي الطويلة بكريتر ، وفي بناء يحاذي تلال الطويلة وصهاريجها استضافنا السيد ياسين محمد ابراهيم في بيته ، وهو متزوج من السيدة أسماء محمد عمر أغبري ، وله ثلاثة أولاد .

رأفت ١١ سنة ، ورامز ٨ سنوات ، ومحمد ٤ سنوات ، وقد تزوجا سنة ١٩٧٥ . والسيد ياسين من سكان المنطقة منذ أوائل السبعينيات ، وقد حدثنا السيد ياسين وزوجته عن تقاليد الزواج في السبعينيات ، فقالا :



ـ السيد ياسين محمد ابراهيم وعائلته

عند عقد القران فإن العريس يقدم شبكة من الذهب لعروسه . والاحتفال يكون بسيطا ، ويجتمع أهل العريس والعروس ، ويتم توزيع الحلويات وحبات المشموم والفل على المشاركين في الفرح ، وتقدم المرطبات . وعند الاتفاق على تحديد يوم الزواج يسبق ذلك يوم يسمى « يوم الغسل » للعروسة ، فهي تتغسل بالحنة وترافقها الزغاريد والأغاني ، وتساعدها أختها أو فتاة من عائلتها ، ثم تلبس لباسا أخضر طويلا ، والمنشفة تكون خضراء أيضا ، واللباس يقال له درع ، وهو يغطي جميع جسم الفتاة ، ثم تتبخر العروس ، وتجلس بين صديقاتها ، ويغنين لها ، ثم ترقص بعد أن تضع على وجهها المنديل ، ويتم الغسل في الصباح . ويمكن لصديقات العروس أن يهدينها بعض الهدايا المالية والعينية أثناء ذلك ، ثم يقيم أهل العريس حفل غداء ، يعزمون فيه أهل العروس ، ويتكون الغداء في معظم الأحيان من أرز ولحم « زربيان » يوضع عليه زبيب ، وتتابع الأغاني مع دق الطبول .

وفي نفس ليلة العرس فإن صديقات العروس ينقلن ملابسها إلى بيت العريس مصحوبات بالطبول والأغاني ، فيستقبلهن أخوات وأهل العريس .

وفي الساعة الثالثة عصرا من يوم العرس تذهب العروس إلى مصففة الشعر لترتيب شعرها وإجراء حمام خاص ، ثم يأتي العريس عند الساعة الثامنة مع أصدقائه فينقلون العروس بعد أن تضع « الطرحة » البيضاء على رأسها إلى مكان الاحتفال ، ثم ينزلها العريس على دق الطبول والزغاريد والأغاني ، ويرافقها إلى مكان مرتفع معد اعدادا مناسبا ، ويجلس بجانبها بعد أن يكون قد لبس أفضل ملابسه ، ثم يتناول المرطبات معها ، ويمكن أن يتبادلا الحديث ، ويلبس كل واحد منهما الآخر طوقا من الفل ، ويستمر الحفل حتى الساعة العاشرة والنصف تقريبا . وحضور هذا الحفل يقتصر على النساء فقط ، أما أصدقاء العريس فيكونون بانتظاره خارج المكان .

وقبل أن يتوجه العريس وعروسه إلى بيتهما الخاص فإنهما يتباركان بجولة حول مسجد العيدروس .

ومن الأغاني المتداولة أثناء نقل العروس هذه الأغنية :

قمري شل (أخذ) بنتنا   قمري شلها وراح
قمري عاشق المـــلاح

في صباح اليوم الذي يلي الزفاف يذهب العريس بمفرده إلى أهل العروس ، فيستقبل بالزغاريد والأغاني ، وتقدم له مأكولات شعبية .

بعد ذلك يدعو أهل العروس إلى حفل غداء ، فيلتقي الرجال في مكان مخصص لهم مفصول عن النساء، الرجال مع الرجال ، والنساء مع النساء .





● ضريح الشيخ العيدروس مع أبنائه في احدى الغرف الملحقة بالمسجد الذي حمل اسم الشيخ أيضا ـ أعلى ـ
مسجد ابان . . من أقدم المساجد في اليمن والجزيرة العربية ـ أسفل يمين ـ
لم يبق من مسجد قديم الا هذه المنارة . . تم تجديدها عدة مرات .

● كريتر . . من هنا دخل الانكليز ومن هنا خرجوا !!

وفي عصر ذلك اليوم يدعو العريس أصدقاءه إلى (المقيل) « فيخزنون » القات وهم يغنون ويهزجون ، في حين أن النساء يتابعن مراسم الفرح في مكان آخر ، وتستمر هذه المراسم حتى السابعة والنصف مساء .

وعندما يرزق الزوج والزوجة بمولودهما البكر فإنهما يعزمان أصدقاءهما على وجبة غداء ، وتكون الماعز أو الخرفان ضحاياها ، لأن ولادة البكر تحتم أن يتم الذبح فيها ، ربما اقتداء ، والذبح يحصل إن كان البكر ولدا أو بنتا ، وتترك تسمية الأولاد للزوج والزوجة .

بالنسبة للمهور فإن الأمر يترك تحديده لأهل العريس والعروس حسب اقتدار الزوج .

سألت السيد ياسين وزوجته هل تغيرت عادات الزواج منذ زواجكما ؟ أجابا : مازالت الأساسيات هي نفسها ، لكن من المؤكد أن بعض التفاصيل تغيرت .

خزان العرب

أثناء تجوالنا في المنطقة المحاذية لجزيرة صيرة التقينا بشاب عرّفنا عليه مرافقنا قائلا : إنه الشاعر لطف السماوي .

فبادرته متسائلا : هل هناك علاقة بين سماوة العراق وسماوة اليمن ؟

أجاب مبتسما : هناك علاقة أكيدة بين المنطقتين اسماً وسكاناً .

لقد ذكر هذا الأمر بعض المؤرخين وموثقي الأنساب ، والثابت أن بعض قبائل سماوة حمير في اليمن قد هاجرت إلى العراق ، واستوطنت المنطقة التي عرفت باسم السماوة ، ولقد أعطوا المنطقة الجديدة اسم المنطقة التي كانوا يسكنونها من قبل في اليمن .

ويذكر بعض أجدادنا أن جدودهم كانت لهم مراسلات وعلاقات مع جماعتهم في سماوة العراق .

ثم علق الشاعر : لا تنس أن اليمن كانت الخزان البشري للعرب . وربما مازالت كذلك حتى الآن ! □





العربي

ربيع الاول ١٤٠٩ هـ - نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٨ م



تايلند..
أحرار.. للبيع..!

ردفان..
ربع قرن على الثورة


بعد ربع قرن على الثورة
ردفان..
العودة
إلى
"الجهاد"
الأكبر
!

استطلاع :
سليمان الشيخ
تصوير :
فهـــد الكوح







معظم مساحة مديرية ردفان في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تتكون من جبال ، وجبالها مسننة وعرة ، نادرة الاشجار ، مع ذلك فإنها احتضنت المجموعات الاولى التي أعلنت الثورة على الانكليز ، بعد أن استعمروا البلاد منذ عام ١٨٣٩م وجعلوا ميناء عدن محطة مهمة تزودهم بالوقود والغذاء لمواصلة رحلتهم إلى مستعمراتهم في الهند أو العكس .

في مثل هذه الأيام منذ ربع قرن مضى ، انطلقت الرصاصات الاولى للثورة على الانكليز من قمم جبال ردفان ، فكيف هي حياة الناس الآن ، بعد مضي هذا الزمن ؟ وما هي ذكريات الرعيل الذى واجه غطرسة المستعمرين ودباباتهم ، وطيراتهم ، وأسلحتهم المتقدمة ، وهو لا يملك إلا اسلحة الايمان بقضيته . . والاصرار على تحرير بلاده . . وبضع بنادق قديمة ؟ !

قبل الدخول في تفصيلات عن الزمن الذي كان،ووقائع الحاضر ، فإنه يجدر بنا تسجيل مجموعة من الحقائق عن المنطقة .

- إن مديرية ردفان تتبع الآن محافظة لحج ، أي المحافظة الثانية كما كانت تسمى من قبل ، وهي تقع شمال مدينة عدن . وتبعد عنها حوالي مائة كيلومتر ، وعندماوصلناها فإننا اكتشفنا أنه لا يوجد قرية أو بلدة ، أو جبل محدد اسمه ردفان . . بل إنه اسم يطلق على منطقة بأكملها بما فيها من جبال ووديان وقرى وسهول ، وأعلى ارتفاع سُجل لإحدى قمم جبالها وصل الى ١٨٦٢ متراً .

- يبلغ عدد سكان المنطقة حوالى مائة ألف نسمة ، وكان يغلب عليهم الطابع القبلي وأهم القبائل التي تسكنها هي : القطيبي ، العبدلي ، البكري ، الحجيلي ، الضنبري ، وغيرها .

وقد كانت هذه القبائل تتنافس وتتنازع فيما بينها ، ونتج عن ذلك مع غيره من أسباب حرمان المنطقة من كثير من مظاهر التقدم .

مع ذلك فإن هذه المنطقة نفسها كانت مهد الثورة التي انطلقت في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٦٣ !

- إن منطقة ردفان لا تحاذي حدود الشطر الشمالى من القطر اليمني ، الذي قامت فيه ثورة ضد الملكية في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ وأصبح يمثل سنداً حقيقياً لأي عمل ثورى في الجنوب ، وتفصل ردفان عن حدود اليمن الشمالي مناطق وأراضي الضالع والعلوي والحواشب من ناحية الغرب ، كما ويفصلها الحالمين والشعيب والمفلحي شمالاً ، وكلها مناطق جبلية وعرة . مع ذلك فإن الثورة انطلقت من منطقة ردفان بالذات وليس من غيرها !

- عند قيام الثورة في اليمن الشمالى سنة ١٩٦٢ وتعرضها لبعض المؤامرات والمواجهات ، فإن آلاف الافراد انطلقوا من جنوب اليمن للمشاركة في حماية الثورة في الشمال والدفاع عنها ، وكان من بينهم المئات من ابناء ردفان الذين « تسللوا » سيرا على الاقدام وقطعوا مئات الكيلومترات من خلال الجبال الوعرة . وقد لعبت القوات المصرية دوراً مهماً في حماية ثورة الشمال . ومساعدة الثورة في الجنوب .

- لقد كان بين أفراد النواة الاولى التي أشعلت فتيل الثورة في منطقة ردفان مجموعة من الشبان الذين عملوا في الكويت ، وسكنوا في منطقة « عشيرج » التى تحول اسمها الى الدوحة الآن ، وشاركوا في رصف الطرق والعمل في شركات النفط ، ومارسوا بعض الاعمال الاخرى ، وقد عايشوا النهضة في الكويت وتشربوا الأجواء الثورية التى كانت تسود المنطقة العربية كلها ، وتأسيس نواة الدولة الوحدوية الحديثة بين مصر وسوريا ١٩٥٨ .

وقد انتظم الكثير منهم في حركة القوميين العرب وغيرها من تنظيمات وأخذ بعضهم يعود الى المنطقة ويسهم بجهوده في توفير الأرضية المناسبة لانطلاق الثورة .

هذه بعض الحقائق التي تتعلق بالمنطقة وأبنائها . . فكيف هي الان ؟ وما هي حكايتها مع « الجهاد » الأكبر ؟

أرض الجبال العالية

نغادر عدن ونتجه شمالا فنمر على ضواحي خور مكسر ، والمنصورة ، والشيخ عثمان .. نرى جمالاً تجر عربات .. فيستهوى المنظر زميلى المصور ويأخذ بالتقاط الصور المناسبة ! ثم نمر بدار سعد .. القرية التى تفصل بين محافظتي عدن ولحج ، ثم نصل الى الحوطة عاصمة محافظة لحج ، فنجد مزارع وبساتين حمضيات وموز ونخيل وخضراوات تحيط بالبلدة ، قيل لنا إن بعضها يسقى بواسطة الآبار ، وبعضها يسقى من وادي تبن الذي كان جافاً ويشكو الظمأ كغيره من الصحارى المحيطة به (في شهر يناير - كانون الثانى) ثم نمر بالقرب من قرية الشقعة يليها قرية العند ، وبعدها نصل الى مفرق الطريق الذى يتجه الى « كرش » حيث نقطة الحدود بين شطرى اليمن .

بدأ ارتفاع التلال يتزايد تدريجياً ، الطريق ممهدة ويمكن السير فيها على خطين .. بعض شجيرات الاثل ، والراك - تستعمل أعوادها كمساويك - والسومر وغيرها تظهر على حواف الطريق .. بدأ الطريق ينحصر بين التلال المتقابلة .

قال مرافقنا هذا المكان يسمى « سيلة بله » وهذه بعض الفجاج والمغارات التي كان الثوار يتحصنون فيها في بعض الأحيان . لقد كانت الطريق ضيقة من قبل وكان يمكن التحكم بها من خلال بعض المواقع في هذه التلال .

بدأت الجبال بقممها الشامخة تظهر وتسد أفق النظر ، هبات منعشة من الهواء بدأت تتسرب بين الفينة والأخرى ، بعض غيوم بيضاء وسوداء لاحت على وجه السماء ، وطبيعة الجبال الصخرية المدببة بدأت تبرز بين تلال كثيرة .

تخفف سرعة السيارة عند حاجز لرجال الشرطة ، ثم نمر بين مجموعة من الدكاكين ، ألمح مجموعة من الرجال يمضغون القات .. ثم يعلق مرافقنا :

إن زراعة القات وتعاطيه مسموح بها في هذه المناطق لأنها هى التي تزرعه ، لكن المناطق التي مررنا بها من قبل فإن تعاطي القات مقنن فيها ليومين في الأسبوع (الخميس والجمعة فقط) .

ثم استدرك : نسيت أن أذكر بأننا نمر الآن من قلب قرية الملاح ، وهى كما يقال عنها مشهورة بنسائها ورجالها الملاح .



- موقع مديرية ردفان في محافظة لحج بجمهورية اليمن الديموقراطية .

ثم مررنا بقرية الرويد ، وشعب الديوان .. ثم جدعة .. فالحمراء ، وكلها قرى صغيرة عدد بيوتها قليل ربما لا يصل الى خمسين بيتاً .

سألت : أين ردفان ؟

أجاب مرافقنا : هى كل هذه المنطقة التي نحن فيها .

علقت : ألا يوجد مكان معين يسمى بهذا الاسم ؟

أجاب : بل هى المنطقة كلها .

بيوت القرى موزعة على رؤوس الجبال والتلال ، هكذا دأب اليمني على بناء بيته ، إنه يبحث عن ما يمكنه أن يوفر له الحماية ، وكشف تحركات أعدائه وما يحيط به .

في الحبيلين

نصل الى مشارف بلدة .. أنصبة بيضاء تحتل جانباً من الطريق ثم ندخلها ، معظم بيوتها مبنية من طابق أو طابقين ، ولا يوجد ما هو ضخم أو كبير هنا ، الطريق الرئيسي « مسفلت » وما عداه ما زال على حاله من تراب .

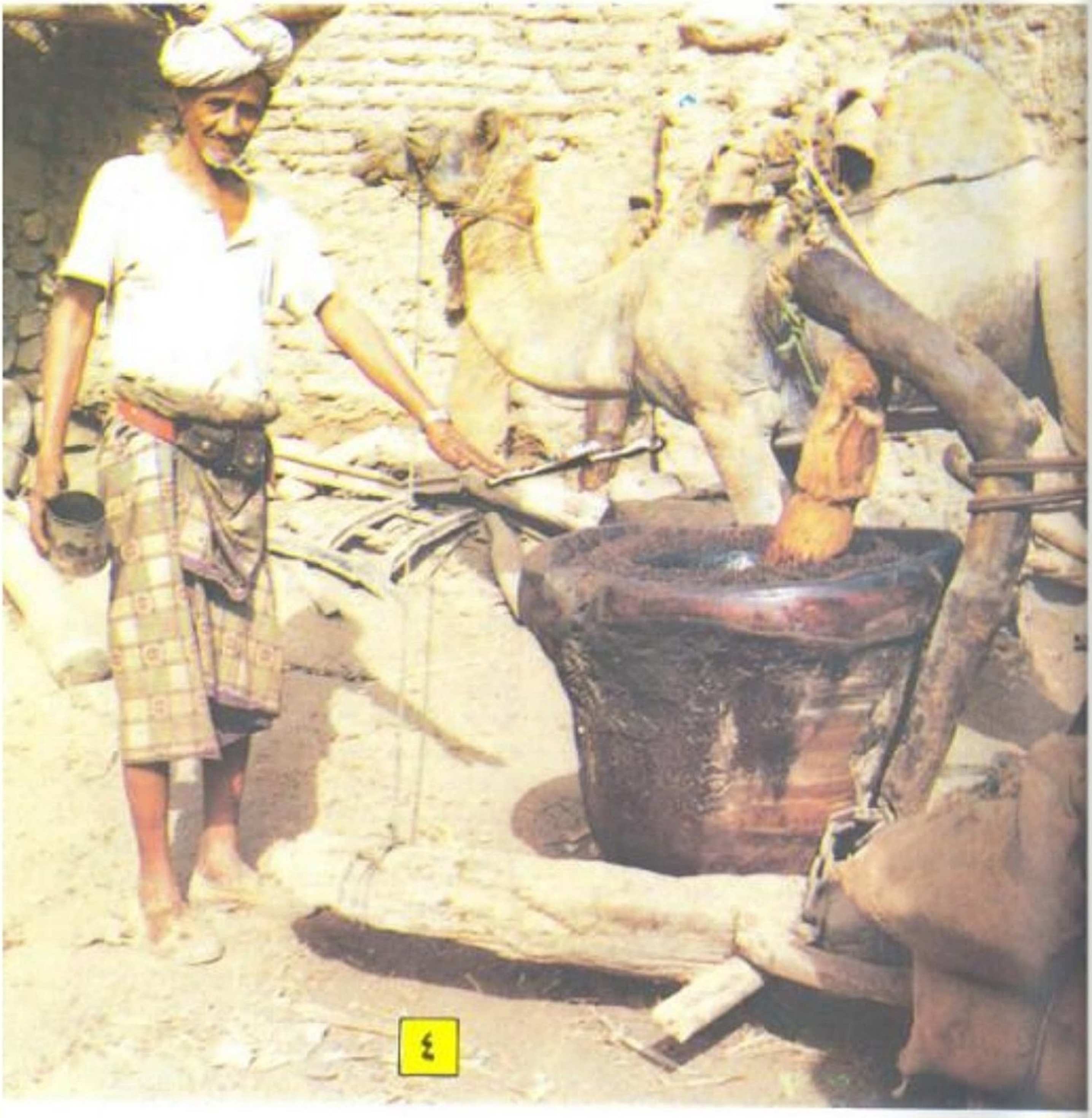
قال مرافقنا : إنها بلدة الحبيلين عاصمة المديرية ، ويصل عدد سكانها الى حوالى ١٨ الف نسمة ، والحبيل هو الأرض المنبسطة كما ترون ، والحبيلين هو




١


٢


٣



١ ـ متحف ردفان يحاكي الجبال التي تحيط به .
٢ ـ من أسلحة الثورة في متحف ردفان .
٣ ـ وأيضا سد سبأ في ردفان !
٤ ـ السمسم عندما يدرس في الحبيلين .
٥ ـ بدون تعليق .. انه المصرف أو « البنك » .



مثنى حبيل ، تقع البلدة في سهل تحيطه الوديان والتلال ، بعض الاشجار والزراعات القليلة تظهر بين الوديان ، محطة بنزين ومقاهي ومطاعم ودكاكين متواضعة تحاذي الطريق .

وصلنا الى بناء مكون من ثلاثة أدوار .. وربما هو اعلى بناء في البلدة ، استقبلنا مضيفونا على باب احدى شقق البناء التي تستعمل كمكتب ومضافة لاعضاء الحزب وزوار المنطقة .

ارتحنا قليلا واستأنفنا الحديث عن المنطقة وأوضاعها والمستجدات فيها ، والذكريات ، ذكريات من شاركوا في الثورة وخاضوا غمارها ..

وفد الى البيت قائد صالح حسين رئيس المكتب التنفيذي لمجلس الشعب المحلي في مديرية ردفان والسيد سلام أحمد علي مدير التربية والتعليم في المديرية والسيد قاسم ثابت سعيد سكرتير المكتب التنفيذي لمجلس الشعب المحلي ... ومسؤول الحزب في المديرية ، ونائبه وأفراد آخرون .

السيد/ قائد من مواليد سنة ١٩٣٩ ، شارك في الثورة منذ بدايتها وكان راعياً ثم انضم الى الرعيل الذي عمل في الكويت ، وتنظم هناك في حركة القوميين العرب ، والتقى بعلي عنتر أحد القادة التاريخيين للثورة .. وعاد واياه مع مجموعة من أبناء ردفان والضالع في نهاية الخمسينات ، وتزودوا بالسلاح من شمال الوطن .. وعادوا الى قراهم في الجنوب وبدأوا مع غيرهم بالعمل السري وعقد المصالحات بين القبائل المتنافرة والمتنازعة .

علق أحد الحاضرين دعنا نعرفك بالمكان .. ثم نصل الى الناس والتاريخ .

لقد تم ضم ردفان بالقوة الى إمارة الضالع في الخمسينات ولذلك فإن التمردات والثورات قامت لهذا السبب أو لأسباب عديدة أخرى أهمها وجود المستعمر الانكليزي ووجود مظالم كثيرة ، لذلك فإن المستعمر بنى معسكرا ومطاراً على هذه الأرض أي أرض هذا المبنى وما يحيط به ، كي يواجه التمردات .

لقد كان المعسكر يستوعب ١٣ ألفاً من جنود العدو ، أي إنه كان المعسكر الثاني بعد معسكرات عدن من حيث كبر المساحة وعدد أفراد جنوده .

إن منطقتنا كما ترى جبلية والمساحات السهلية أو القابلة للزراعة فيها قليلة ربما لا تزيد على ١٥٪ من مساحة المنطقة التي تصل الى حوالى ٢٥٠٠ كيلومتر مربع ، تحتوى على حوالى ١٣٥ قرية ، ربما لا يصل عدد أفراد بعض القرى الى ٢٠ أو ٣٠ فرداً ،

وبالرغم من ان المساحة القابلة للزراعة قليلة ، إلا أن فلاحينا استطاعوا استثمارها واثبات الحبوب والخضراوات فيها ، واستصلحوا بعض التلال والجبال من خلال المدرجات التي اقاموها عليها ، هكذا فإن حياتنا متقشفة تعتمد على بعض الزراعات التي تقيم أود الناس وأود الماشية التي يملكونها .

ولأننا قبائل .. ولأن بعض العنعنات والمشاكل كانت تقوم بيننا في بعض الأحيان ، لذلك فإن السلاح كان دائم الحضور بين أيدي الأفراد ، وكانت تتوجه هذه البنادق أحيانا الى غير العدو الحقيقي ، أي المستعمر ..

مجلس شعب محلي

● لقد ذكرتم أن السيد/ قائد صالح حسين هو رئيس المكتب التنفيذي في مجلس الشعب المحلي .. هل تعطوننا فكرة عن كيفية قيام هذا المجلس ؟

- لقد صدر قرار عن مجلس الشعب الأعلى في مارس سنة ١٩٨٧ بإنشاء مجلس محلي في ردفان وسيؤن .

وفعلا فإن ترتيبات اجراء انتخابات في المنطقة قد تم اتخاذها بين (٢٥ و ٢٧ نوفمبر ١٩٨٧) وتم ترشيح ٤٣ مرشحاً كان المطلوب انتخاب ٣٠ عضواً من بينهم ، وترك للمرشح حرية الاتصال بالناس والاعلان ، وطبع برنامجه وصوره ، ويمكن أن تشاهد بقايا ذلك على حيطان بعض الدكاكين في السوق (رأيت ذلك في اليوم التالي) .

● هل كان المرشحون جميعهم من الحزب (الحزب الاشتراكي اليمني هو الحزب الوحيد في اليمن الديمقراطية بعد أن اندمجت فيه ثلاثة تنظيمات)

- سمعت أكثر من صوت ينفي ذلك ثم جاء التوضيح لا ... إن الأمر ليس كذلك ، إن القانون (قانون قيام المجلس) فصّل في هذا الامر .. وجاء فيه ان عدد الحزبيين يجب أن يكون ١٣ نائبا في حين أن عدد غير الحزبيين يجب أن يكون ١٧ نائباً . وقد تم انتخاب مكتب تنفيذي من بين الثلاثين نائباً ، ورئيس المكتب يصبح عضواً في مجلس الشعب الأعلى في المحافظة .

● سألت : هل تم تعميم هذه التجربة في بقية المحافظات ؟

سمعت جواباً : إن الامر ما زال في طور التجربة ، وربما يلي ذلك خطوات أوسع في بقية المحافظات .

من يحضر السوق يتسوق

توجهنا الى سوق البلدة ، صور بعض المرشحين ما زالت معلقة على بعض الحيطان تحاذيها بعض الشعارات والتعاميم الحزبية ، طريق السوق ممهدة لكنها من تراب ، والحوانيت متواضعة البناء ، ومتواضعة في المواد التي تعرضها ، حوانيت الخضراوات تحاذي حوانيت اخرى تبيع القهوة والهيل والحبوب (قمح ، سمسم ، عدس ، برغل ، شعير ، ذرة ، الخ) ثم تليها حوانيت اخرى تبيع بعض الحلويات وغيرها .

وبعض الحوانيت كانت تتكون من جزأين ، جزء تتم الصناعة فيه ، وآخر للعرض والبيع ، منها الحلاوة المطبوخة ، أو حلاوة اللبن أو السمسمية والمضروب والكعك وغير ذلك .

لفت نظرنا مجموعة من الشبان كانوا يتراكضون ويتبعون احدى السيارات (وانيت) وصلت السيارة الى مكان كان قد تجمع حوله مجموعة من الرجال والشبان . بدأت اللفائف والحزم الخضراء تتناقل بين الأيدي . لحظات ولم يبق منها أية حزمة ، لقد تم كل شيء بسرعة غريبة . . . انه القات يقبلون عليه كأنه ترياق الحياة !

تابعنا جولتنا في السوق . . عجوز تشوي أكواز الذرة الشامية على حطب وتبيعها ، مكتبة صغيرة معروضها قليل من كتب وصحف كانت موجودة في قلب السوق . . طالبنا صاحبها بزيادة كمية اعداده العربي التي تصله وذكر أنها تباع في نفس ساعة وصولها .

نسمع هديراً فنقترب ، كان صوت آلات مطحنة تطحن القمح والذرة والدخن ثم تحاذيها معصرة خاصة بالسمسم . . السيد/ محسن صالح حسن ذكر لنا انه اقام المعصرة منذ بداية السبعينات ، وهو يعصر السمسم ويبيعه كطحينة للناس أو يأتي اليه الناس بمحصولهم ويدرسه لهم (يعتبر السمسم احد محاصيل مزارع البلدة والقرى المحيطة بها) .

وطريقة الدرس ما زالت بدائية يقوم بها جمل تربط رقبته بلجام يكون موصولاً بثقل خشبي ويوضع السمسم تحت الثقل ومن خلال دورات الجمل المتواصلة يندرس السمسم ويسيل زيته لينتقل الى الوعاء المطلوب .

● سألت السيد/ احمد جابر صالح صاحب احدى المطاحن القائمة منذ ١٣ سنة :

● هل تعرف القراءة والكتابة ؟

ـ أجاب : لم يكن في البلاد (يقصد ردفان) أية مدارس زمن الانكليز الا محاولات بعض الشيوخ (شيوخ الدين) ولذلك فإنني لم اتعلم في تلك الايام لكن بعد انتصار الثورة فإنني التحقت بمدارس محو الامية سنة ١٩٧٥ وحصلت على ما فاتني ، إنني أقرأ الصحيفة الان ، واكتب الرسائل وغير ذلك .

السيد/ محمد صلاح صاحب مطحنة قريبة من المطحنة السابقة ذكر لنا ان الحوانيت والمطاحن مملوكة للافراد ، ويدفعون ضرائب للدولة عليها .

لكل بضاعة سوق

على بُعد امتار قليلة من سوق الخضراوات والحبوب . . كان سوق آخر يتم فيه البيع والشراء ويغص بالناس والحيوانات ، إنه سوق بيع المواشي (بقر ، غنم ، ماعز) إنه يقام ايام الأحد والثلاثاء والاربعاء ولا يقتصر على المشاركين من أبناء البلدة أو أبناء المديرية بل يشارك فيه آخرون من مديريات اخرى ، وبعضهم يبيع ماشيته ويشتري بثمنها حبوباً أو غيرها .

ذكر لنا مأمور الضرائب السيد/ أحمد هيثم إنهم يتقاضون ٣٪ ضريبة من البائع و ٢٪ من المشتري ، وذكر إنهم أربعة موظفين يعملون في السوق مأموري ضرائب كما وذكر أن معدل سعر الخروف يصل الى حوالي ١٥ ديناراً فيما يتراوح سعر البقرة بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ دينار ، وذكر ان البقر الذي له سنام كالجمل هو من الفصائل المألوفة في ردفان ، كما وأكد انه لم يصادف احداً يتهرب من دفع الضريبة المقررة عليه .

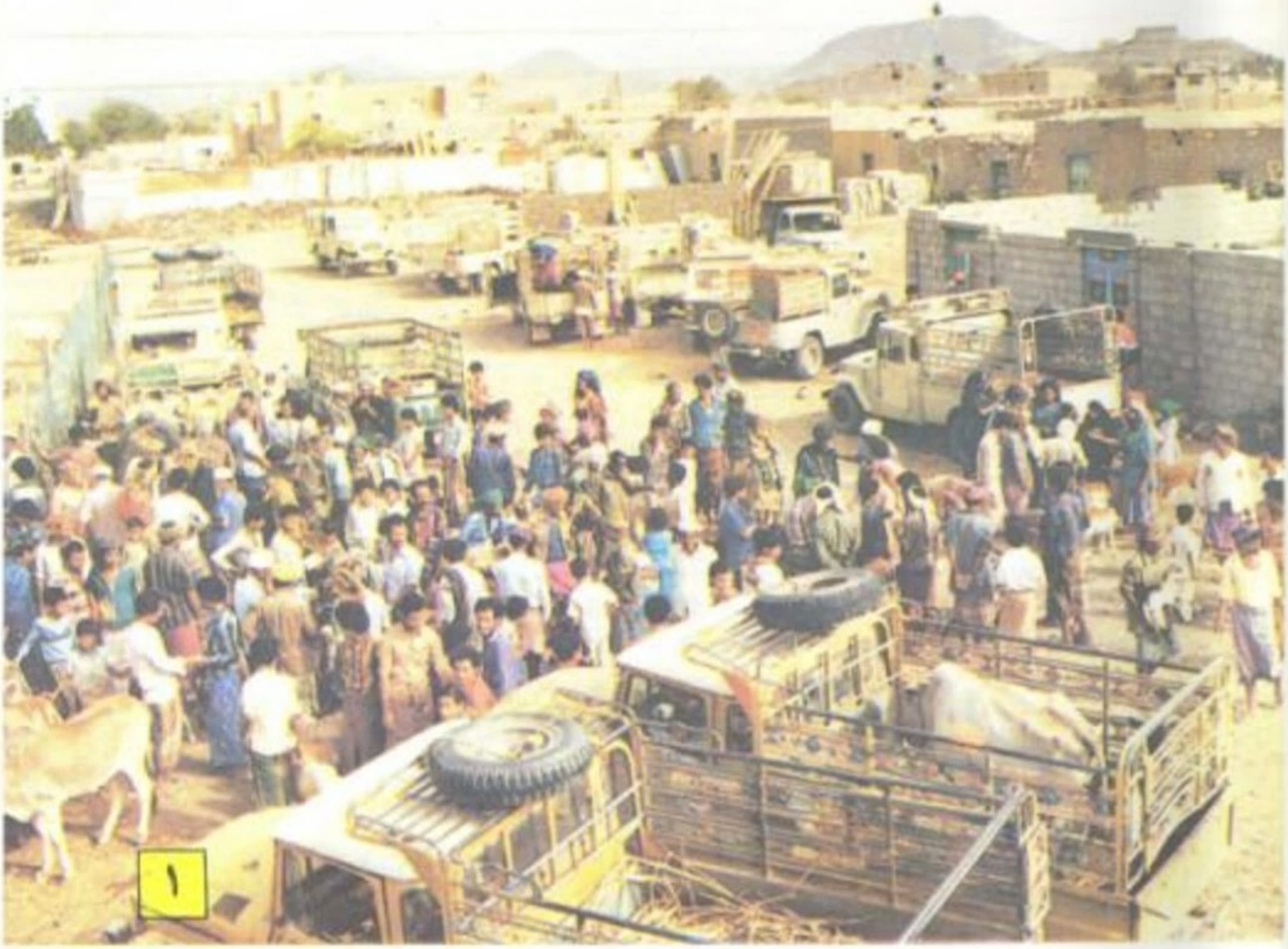
السيد/ ناصر احمد ثابت ، كان يتزنر بزنار ويعلق جنبيته (خنجر معقوف) فيه قال : أنا أعمل دلالاً في السوق ، وأعمل بنفس الوقت سكرتيراً لاتحاد الفلاحين في البلدة ، وذكر : نحن همزة وصل بين البائع والمشتري ، ونتقاضى ديناراً على كل رأس يباع .

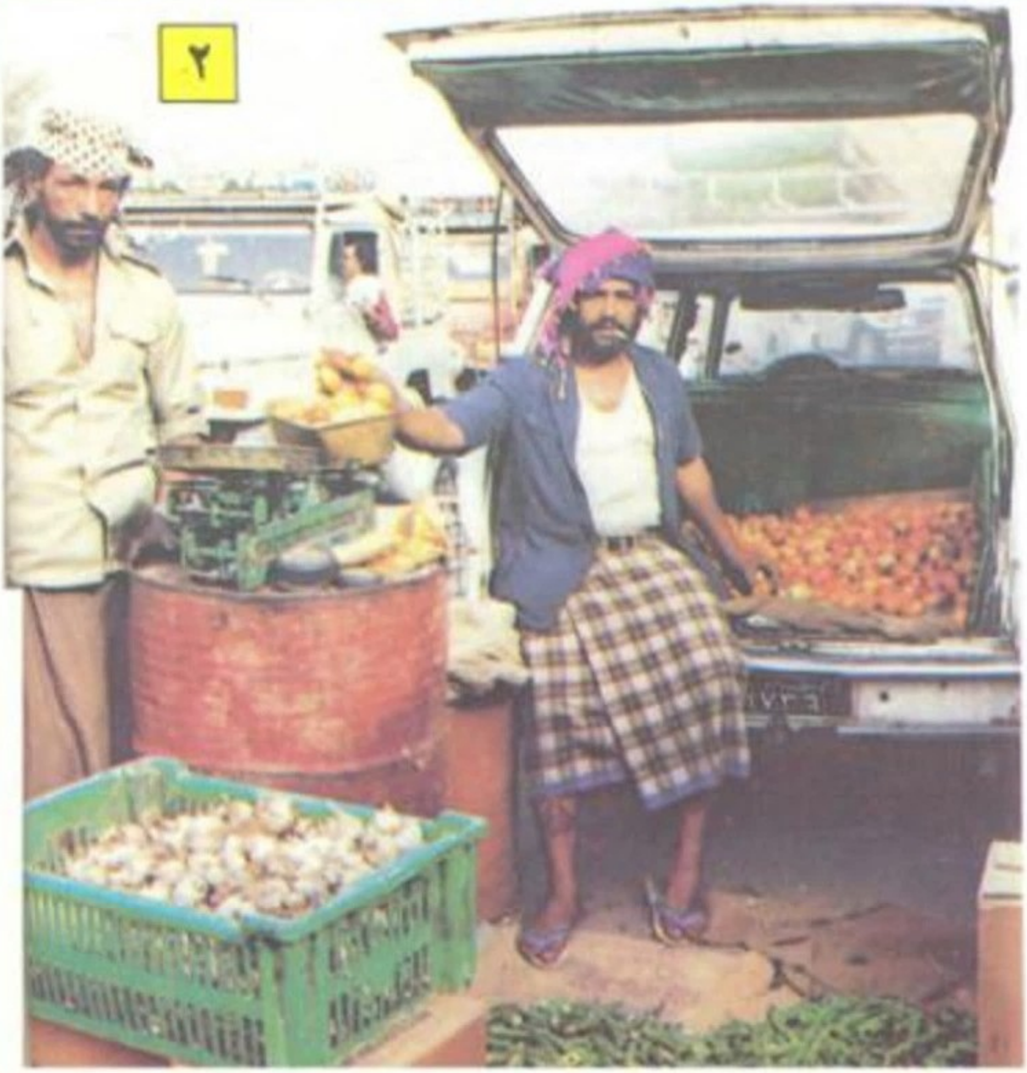
لفت نظره الى بعض العجائز اللواتي يشاركن في البيع والشراء . . . فذكر :

إن أغلب رعاة الماشية هن من النساء ، في حين ان الزوج يعمل في الأرض أو في أحد الاعمال الحكومية .

في طريقها للتطور والنمو

تابعنا جولتنا في البلدة . . صوت ماكينات « بوابير » المطاحن وآبار الماء تسمع بوضوح ، بيوت

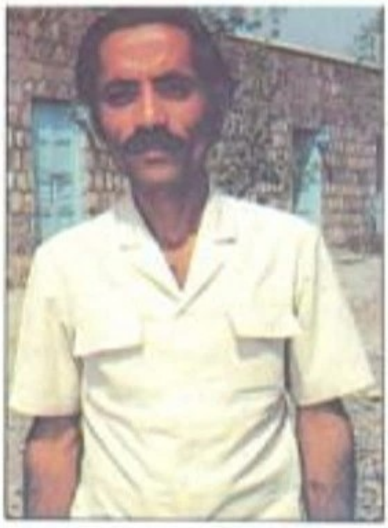


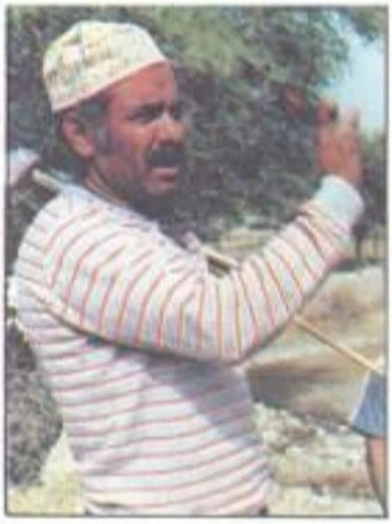


١ ـ سوق بيع المواشي له أيامه وقوانينه في الحبيلين .

٢ ـ بائع خضار على سيارة متنقلة . . لم ينس عادة مضغ القات .


السيد قائد صالح حسين


السيد سلام احمد علي


السيد مهدي علي مثنى

القرية موزعة على مساحات متباعدة متفرقة والتنقل بينها يتم بواسطة الحمير أو مشياً على الاقدام أو بالسيارات . لاحظت بعض البيوت المتشابهة تتألف من دور واحد ، ومدهونة باللون الاصفر تحاذى الطريق العام . . قال مرافقونا :

انها بيوت بنتها الحكومة وعددها ٢٤ بيتاً يدفع ساكنها مبلغاً شهرياً كقسط من ثمنها وبعد السداد تصبح ملكية خاصة (ربما بعد ١٥ أو ٢٠ سنة) .

● وبقية البيوت ؟

ـ انها ملكية خاصة بناها الناس وسكنوها .

● أرى بيتاً واسعاً على تلة . . انه يشبه « الفيلا » لمن هذا البيت ؟

ـ انه مقر الحزب ، فيه مكتبة وقاعة محاضرات تستعمل احياناً للعروض المسرحية .

● على ذكر العروض المسرحية . . هل هناك مبنى خاص للعروض المسرحية او دار للسينما ؟

ـ لا يوجد دار خاصة بالعروض المسرحية ، انما يمكن أن يتم ذلك في قاعات المدارس ، ولا يوجد دار خاصة للعروض السينمائية انما تعرض الوحدات السينمائية المتنقلة بعض الافلام الوثائقية ، وتزورنا أحيانا بعض الفرق المسرحية من الحوطة أو من عدن ، ويوجد في البلدة ناد رياضي واحد وهو في نفس الوقت ناد ثقافي .

● أرى مبنى واسعاً بالقرب من « الفيلا » وألاحظ تمثالا عليه فماذا يكون ؟

ـ انه متحف ردفان . . متحف الثورة ، وقد تم افتتاحه في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٧٨م . انتقلنا اليه .

المبنى واسع فيه خمسة اجنحة وصالة خارجية تعرض وثائق تتعلق بإنطلاق الثورة سنة ١٩٦٣ وما تلاها من احداث ، في اعلى المكان يتنصب نصب رجل يحمل بيده بندقية ويتمنطق بحزام رصاص ويلبس الملابس اليمنية التقليدية (المئزر أي الفوطة ، ومشدة ـ ربطة على الرأس تسمى « كشيدة » أيضاً) .

على يسار المكان كانت مروحة طائرة معروضة وموضوعة على الارض . علق مرافقنا : انها مروحة طائرة « بيرفلي » صغيرة كانت جاثمة مع غيرها في المطار الصغير الذى اقامه الانكليز على ارض البلدة ،

وهى طائرة قاذفة الا أن الثوار تسللوا الى المطار ، ووضعوا لغماً تحت الطائرة فتفجر فيها في احد ايام سنة ١٩٦٥ .

سلسلة من المعارك والشهداء

على الحوائط الخارجية للمبنى تم تسجيل اسماء الشهداء من ابناء المنطقة الذين شاركوا في الانتفاضات والمعارك ضد الانكليز وضد حكم الامام في الشمال الذي كان يضم بعض المناطق الجنوبية الى سلطانه في بعض الاحيان ، من بينها ردفان والضالع وغيرها ، وضد الاتراك قبل ذلك . يتوالى تنقلنا بين اللوحات التي تحتوي على اسماء الشهداء بينهم (١٣) شهيدا سقطوا في الدفاع عن ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ التي قامت في شمال اليمن ، ثم اسماء شهداء معركة الحمراء وشهداء معارك حرب التحرير .

قاعات المتحف كانت تحتوى على وثائق الثورات والأسلحة التى استعملت فيها ، والأسلحة الفردية لبعض القادة ، بينهم راجح بن غالب لبوزة اول شهيد لمعارك التحرير في ١٤ اكتوبر ١٩٦٣ ، ثم ملابسهم وبعض اللوحات الفنية التى رسمها فنانون تشكيليون واهدوها للمتحف .

● سألت : لقد تكرر اسم الحمراء كثيراً فهل تأخذوننا اليها ؟

ـ جاءت الاجابة . . إنها ليست بعيدة من هنا ، خمس دقائق بالسيارة ونكون فيها .

● هل هى قرية ؟

ـ لقد كانت وما زالت ، وفيها او بالقرب منها قامت معركة الحمراء .تراب الطريق الممهدة ابيض

خرجنا من بلدة الحبيلين ودخلنا في واد تحفه الاشجار واعواد القصب .. ثم وصلنا الى بضعة بيوت وبعدها واجهتنا عدة شواهد بيضاء قيل لنا : انها شواهد شهداء معركة الحمراء التي قامت سنة ١٩٤٠ جاء في كتاب « صفحات مشرقة من تاريخ المقاومة الوطنية في ردفان » الذي اشرف على كتابته سعيد صالح سالم احد قادة جبهة ردفان ، عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني ما يلي :

كان مركزا « الحمراء » و « سليك » هما اول مركزين اقامهما الاستعمار في منطقة ردفان وذلك في «اكتوبر» تشرين أول سنة ١٩٤٠، وعندما عرف ابناء ردفان بوجود المركزين ووجود قوة عسكرية فيهما دعوا جميع أبناء ردفان الى عقد لقاء موسع في سوق « الثلوث » في وادي مسك ، وقد حضر هذا الاجتماع الموسع مجاميع كبيرة من ابناء ردفان ممثلين لمختلف القبائل ، واتخذ قرار في هذا اللقاء الكبير يقضي بالقيام بهجوم على المركز الاستعماري . وفي ليلة ٢٢ اكتوبر ١٩٤٠ قام أبناء ردفان بشن هجوم كبير على الجنود المتمركزين في هذين الموقعين ، وكانت معركة حامية استخدمت فيها مختلف الاسلحة ، بما في ذلك السلاح الابيض ، وتم تصفية كافة الجنود المتمركزين حيث قتل وجرح منهم العديد من الجنود وهرب الباقون واستشهد العديد من ابناء ردفان (بلغوا ١٢ شهيدا) .

● سألت مرافقنا : ما هي حكاية مجموعة الشواهد القائمة على يسار الداخل الى البلدة ؟

- انهم شهداء الحركة الأخيرة ١٩٨٦ (الصراع الداخلي) من ابناء ردفان وقد بلغوا حوالي مائة وخمسين شهيداً . قرأنا الفاتحة على ارواح الشهداء جميعهم وتوجهنا الى بعض الأراضي المستصلحة التي تقع خلف قرية الحمراء . جاءنا عامل في مشروع استصلاح الاراضي فعرفونا عليه ، إنه احمد مقبل .

شاعر وثائر شارك في الثورة التي انطلقت سنة ١٩٦٣ قال : عمري ٦٧ سنة وشاركت في الثورة وانطلق يقول شعراً من تأليفه :

تعزم ونتوكل بساعة مرضية

ومن عزم فيها نجا من كل شر

الارض هذي كلها جمهورية

يا ساري الليلة على ضو القمر

ردفان ملصي (نار) مش نارها طافية

ونحن (نهاجم) عالدولة (الاستعمارية) كما ساد الصقر

تابع احمد مقبل القاء شعره الشعبي وانتقل من الشعر الوطني الى شعر الغزل ومما جاء في احدى غزلياته ..

عيونه مثل الصواريخ عابرة القارات

والانف مثل الألف وجنات مثل الجنيها .

الصدر بستان فيه فواكه الجنات

وكعوب مثل الليم ظاهر وأيضا بيا

سدود وجسور

جسور وسدود صغيرة تظهر في الطريق ، وبعض زراعات الذرة ، المياه تتدفق من أحد الآبار ، وصبية يغتسلون ويتقاذفون بالماء، تله عالية على يمين الطريق تبرز فجأة،قال مرافقونا إنها جبل جمل .. توجد فيها آثار قديمة ،وقلعة في أعلى المكان من الجبل .

● سألت : إن الوادي كما تقولون اسمه وادي سبأ .. فهل له علاقة بالآثار التي وجدت وتعود الى زمن مملكة سبأ ؟

- اجابوا .. ربما كان ذلك .

● سألت :هل جاءت بعثات أثرية للتنقيب عن الآثار في هذا الجبل ؟

- نظروا في وجوه بعضهم البعض واجابوا لا ندري !

● ومشروع وادي سبأ متى بدأ العمل به .. وماذا تحقق منه ؟

- اجابوا : لقد بدأ استصلاح الاراضي في هذه المنطقة اعتباراً من سنة ١٩٧٣ وهو مشروع سوفييتي يمني مشترك وتم استصلاح ٧٥٠ هكتارا وزعت على الفلاحين بواقع ٥ الى ٨ فدادين للاسرة الواحدة ، وبقيت مجموعة من الهكتارات تقوم باستغلالها التعاونية الزراعية وهي تخضع لاشراف الدولة وخطة وزارة الزراعة من ناحية نوعية ما يزرع فيها .

واشهر المزروعات التي تزرع في المنطقة الذرة الشامية ، الدخن ، الأعلاف ، البرسيم - والبطاطا والبصل والبطيخ والفلفل والبامية والبندورة والقطن وغيرها .

● هل يمكن اعتبار مساحة الارض من ٥ الى ٨ هكتار هي سقف الملكية الخاصة للأرض في هذه المنطقة ؟

- اجابوا : من المعروف أن الاراضي ليست متشابهة من حيث الخصوبة أو وفرة المياه فيها ، أو قربها من المراكز المهمة ، لذلك فإن حيازة الملكيات

الخاصة تختلف بين ارض وأخرى ، مع ذلك فإن سقف الملكية الخاصة في منطقتنا هو الرقم المذكور .

مسيرة التعليم

عدنا الى البلدة فألقيت نظرة الى جوار المبنى الذى نقيم فيه ، فوجدت مدرسة كبيرة مدهونة مبانيها باللون الاصفر ، يليها مبان اخرى كبيرة ايضا ، قال لنا السيد/ سلام احمد علي مدير التربية والتعليم في المديرية إن المباني القريبة من مكان اقامتنا ما هى الا المدرسة الثانوية الوحيدة في المديرية ودار المعلمين فيها . وأضاف إنها هدية من الشعب الكويتي الى شقيقه الشعب اليمنى ، وقد تم تشغيلها اعتبارا من السنة الدراسية ٧٩ ـ ٨٠ ، وهي تستوعب حوالى ٧٥٠ طالباً وطالبة ويدرس فيها الآن ٦١٦ وبينهم ١٦ طالبة ، في حين أن دار المعلمين الملحقة بها تم تشغيلها اعتباراً من السنة الدراسية ٨٢ ـ ٨٣م وتستوعب حوالي ٢٠٠ طالب يدرس فيها الآن ١٦١ بينهم ٣٢ طالبة والدراسة فيها لأربع سنوات تبدأ بعد الانتهاء من مرحلة التعليم المتوسط .

● هل التعليم مجاني كالتطبيب وغيره من خدمات اجتماعية ؟

ـ ان التعليم مجاني كغيره من الخدمات الاجتماعية ، وحتى الكتب والوسائل التعليمية فإنها تقدم بالمجان ، وما على الطالب إلا ان يحضر معه حقيبته والدفاتر والاقلام .

● هل يمكن اعطاءنا فكرة عن مسيرة التعليم في المديرية ؟

ـ لاشك أنه توجد بعض النواقص الان ، وهذا ربما يعود الى قلة الامكانات ، لكن وضعنا الان أفضل مئات المرات مما كنا عليه قبل انطلاق الثورة ، لقد كانت أمية المرأة ١٠٠٪ في الماضي ، وحظ الرجل لم يكن أفضل كثيراً ، فقد كانت نسبة اميته حوالى ٩٩٪ ، أما نسبة الامية فقد انخفضت الى حوالى ٣٠٪ في هذه المرحلة .

● الاحظ أن نسبة اقبال الفتيات على التعليم قليلة قياساً بالفتيان ؟

ـ إن ذلك يعود لأسباب اجتماعية واقتصادية . . بينها التقاليد ، وبينها اعتماد بعض العائلات على الفتيات في العمل بالحقول أو في البيت ، وبينها بُعد بعض القرى عن مراكز التعليم (التعليم الثانوى الزامي للفتاة في المدينة في حين أن الريف له خصوصيته) .

في وادى المصراح

في صباح اليوم التالي كان زملاؤنا في القيادة المحلية قد جهزوا « جيبا » خاصا لمهمتنا ، فانطلق بنا . . في قلب وادى المصراح ، أشجار العلب والدوم والزعرور تحيط بالطريق المملوءة حصى وورمالاً داخل الوادى ، بعض البيوت تلوح على جانبي الطريق وهوائيات اجهزة التلفاز تظهر فيها على أعلى مكان . بعض زراعات الذرة الصفراء تظهر في مكان قريب ، على بُعد يظهر راكب لحمار يطلق لصوت غنائه العنان ، فتاة تظهر بين الاشجار غطاء رأسها يغطى نصف شعرها صوت «مواتير» المياه يتردد بين فترة وأخرى ، حقل من شجر « البابای » يظهر على جانب الطريق . . عاملان يوجهان المياه نحو الحوض المطلوب .

برز بجانب الطريق عامل يضع « معوله » على كتفه . . سلمنا عليه وقدم لنا بعض حبات الزعرور التى كان يحملها ابنه . . قال :

أنا مهدي علي مثنى من منطقة بجير بجانب الحبيلين ومن مواليد سنة ١٩٤١ واعمل كأجير في الحقول .

● هل شاركت في حمل السلاح ضد المستعمر البريطاني ؟

ـ ستجد في طريقك العشرات من الاشخاص الذين شاركوا في الثورة ، انكم في البلاد التى انطلقت منها الثورة وانا كفرد شاركت في الثورة طبعاً .

نمر على حقل مليء بنبات القات ، عاملان كانا يغرسان ويسقيان بعض النباتات ، وامرأة من بعيد تنكش جانبا منه .

ذكر مرافقنا راشد مساعد امين عام الحزب في المنطقة أنهم « يأرسون » بعض النباتات ؟

سألت : ما معنى الكلمة ؟

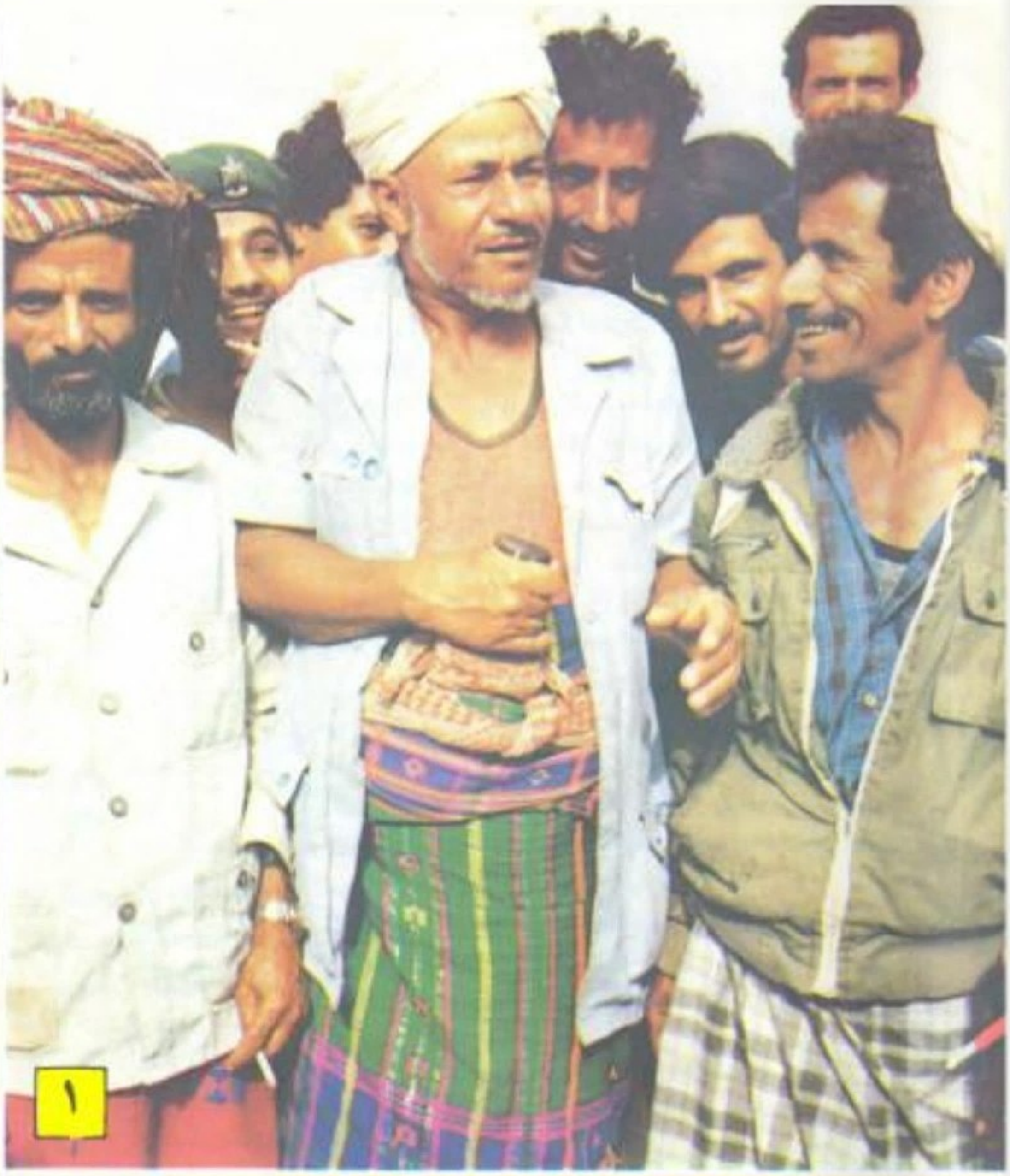
قال : إن لهجتنا في هذه المنطقة تحول الغين الى ألف . . فهم يغرسون ولكننا في لهجتنا نقولها « يأرسون » .

علقت : انها لهجة من لهجات العرب .

عسل وتجارة

بدأ الوادى يضيق وتكاثفت الاشجار فظهرت جرة ماء بالقرب من شجرة كثيفة من شجر الدوم ، لقد كانت كسبيل ماء عذب للعابرين ، ذكر مرافقنا إن شجر الدوم هو الانسب لتربية مناحل العسل عليه . ، وعسله نقي وطيب . طلبنا شراء عدة كيلوات منه ، إلا ان صاحب البيت كان غير موجود



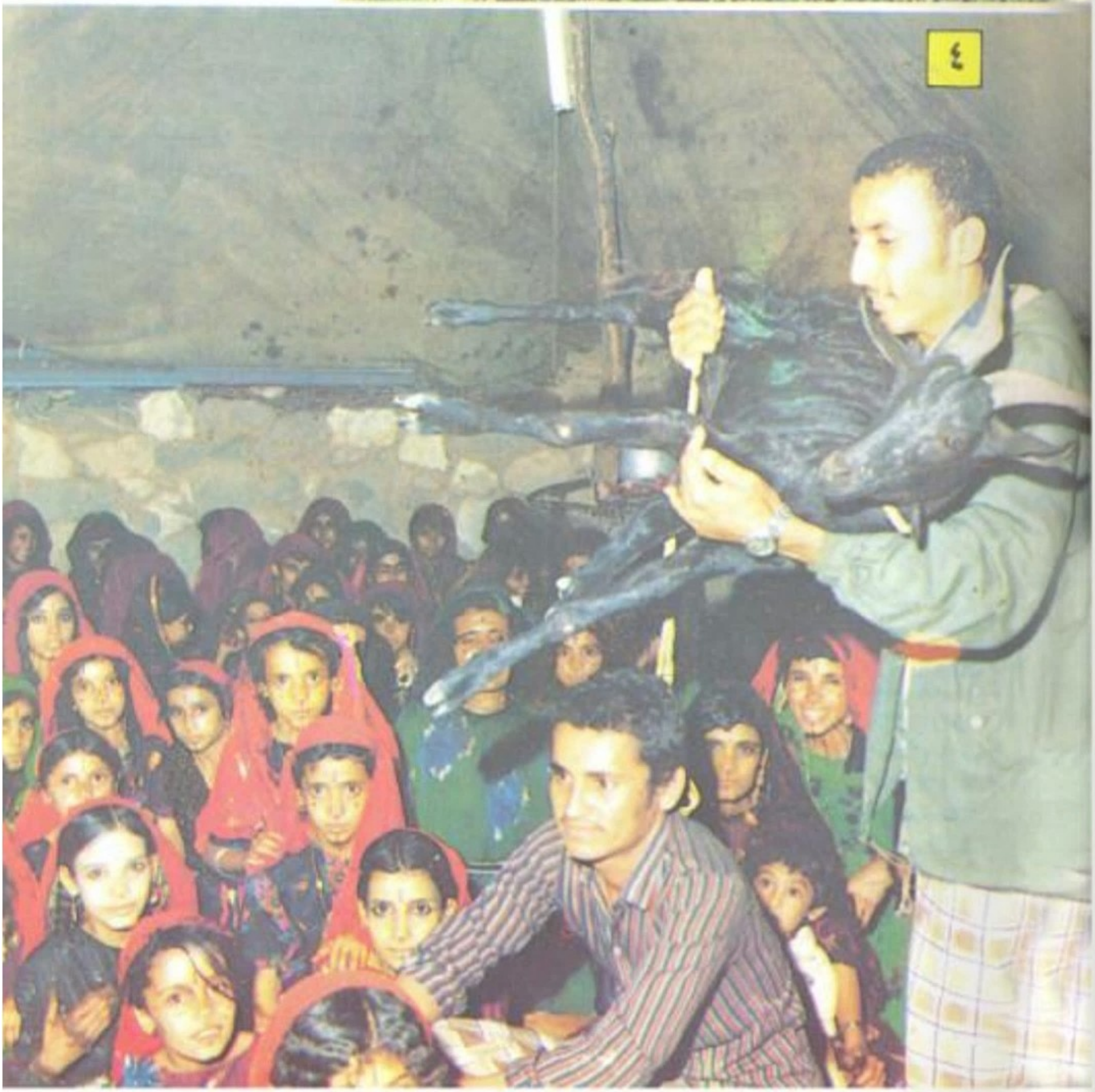

١




٢

١ ـ زي تقليدي . . وحوار لايخلو من طرافة في السوق .
٢ ـ رقص شعبي يمني مميز في عرس بحبيل جبر .
٣ ـ انه نبات القات في السهول النادرة التي تحاذي جبال ردفان .
٤ ـ افتداء العريس بكبش . . عادة من عادات القرى في جبال ردفان .


٣


٤

فضاعت علينا فرصة رؤية مناحل النحل وتصويرها .

وعلى ذكر العسل والنحل فإننا قبل مغادرتنا لبلدة الحبيلين ذهبنا الى السوق للتزود ببعض الكيلوات من العسل ، فدخلنا في مساومة مع أحد البائعين الذي اصر على أخذ مبلغ يزيد دينارين عما أعطانا إياه جاره ، الا ان نفاذ الكمية من عند جاره الجأنا الى الشراء منه .. ناقشه مرافقنا راشد ولفت نظره لغلاء السعر .. وأن جيرانه قد باعوه لنا بأقل مما يطلب ، مع ذلك فإنه أصر على ما يطلب .

علق راشد : لقد عدت لتوك من المسجد يارجل .. ومع ذلك تصر على رفع السعر اكثر مما يفعل جيرانك !

علق الرجل الستيني : إنها التجارة ، أنا حر في تحديد سعر ما أملك وانت حُر في أن تشترى أو لا تشترى !

صخرية ووعرة .. لكنها بلادنا !

تابعنا سيرنا في الوادى الذى اخذت بعض أحواض الماء تظهر فيه..مما يعنى أن علينا النزول من السيارة لنسير على أقدامنا .

سرنا عدة أمتار .. لنجد مجموعة من الرجال يبنون بيتاً على حافة الوادى استقبلونا بترحاب (هكذا كان دأب من قابلناهم في الطريق) وبدأ قاسم صالح مالك البيت يحدثنا عن نفسه ... فقال : أنا لست من مواليد الحبيلين أو المصراح ، بل أنا من عُقبية إحدى قرى جبال ردفان ، لكنني أملك هذه الارض ، وها أنا ابنى فيها هذه الدار ، ونحن من بلاد واحدة وقبيلة واحدة .

● لكن طبيعة الأرض صخرية ووعرة .

أجاب : ومتى كانت ارض ردفان غير ذلك .. مع ذلك فهى بلادنا .

ظهرت بعض البيوت على الجانب الآخر من الجبل فسألت مرافقنا عنها .

علق راشد : هل تصدق أن تلك البيوت العشرة هى لقريتين منفصلتين هما الصلب ، والفريع ، هكذا هي قرانا موزعة ومتباعدة وطبيعة الوصول اليها صعبة .

● هل وصلتها خدمات الكهرباء ؟

- لم تصلها بعد .. إن الكثير من قرانا تعاني من هذا الأمر ، وبعضها يعاني من عدم وصول مياه الشفة اليه ، فيلجأ الى الآبار للتزود بالمياه .

● سألت السيد قاسم صالح : هل شاركت في حمل السلاح ضد الانكليز ؟

- أجاب : بل حملته ضد الأمراء السابقين .. وضد الانكليز أيضاً ، وذهبت مع المجموعات التى انطلقت من هذه البلاد وغيرها للدفاع عن ثورة الشمال ، وهناك تدربنا وخضنا بعض المعارك ، وعندما عُدنا طلب شيخ المنطقة محمود حسن تسليم انفسنا واسلحتنا ، ودفع غرامة مالية ، فرفضنا ذلك .

جاء في كتاب « النجم الاحمر فوق اليمن » للدكتور احمد عطية المصرى ما يلى : « وكانت الأسباب الحقيقية لثورة ابناء ردفان في ١٤ اكتوبر ١٩٦٣ هي استمرار أوضاع الاستغلال والطغيان الاستعمارى السلاطيني ، أما السبب المباشر ، فهو ضغط الانجليز على أبناء المنطقة لتسليم سلاحهم عند عودتهم من الشمال ، وضم ردفان الى سلطة أمير الضالع المتعاون مع الاستعمار » .

ويضيف السيد قاسم .. لقد كان راجح بن غالب لبوزة مع المجموعات التى ذهبت الى شمال الوطن ، وشهدوا هناك قيام الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمنى (أعلنت في اغسطس سنة ١٩٦٣ من خلال اندماج سبعة تنظيمات) .

وعندما عُدنا من الشمال واجهنا الشيخ محمود حسن بمطالبه الجائرة ، فتجمعنا وحملنا السلاح وانطلقنا الى الجبال .

● هل كانت هناك تنظيمات تعمل داخل البلاد قبل وبعد عودتكم الى ردفان ؟

- أعتقد أن الأمر كان يتم بسرية ، وربما كانت حركة القوميين العرب قد نشطت في ذلك الوقت من خلال إنشاء بعض الخلايا السرية .

البدوى والمعركة الاولى

حضر شاب وبيده ماعون ملىء باللبن ويطفو على وجهه الفلفل الاحمر المطحون،عرفنا السيد قاسم على الشاب فقال : إنه ابنى ثابت .

عندما عرف الشاب اننا محررون من مجلة « العربى » فإنه زاد من ترحيبه لنا وذكر أنه يتابعها .. بل وعندما دقق في ملامحى فإنه ذكر إسمى .. وعلق : لقد قرأت مواجهتك مع شاعر الجبال العالية في داغستان رسول حمزاتوف إن جباله تشبه جبالنا وعندما يكتب عن جباله فإننى أجد ان اشياء كثيرة مشتركة بيننا .. وأضاف أننى جندي في الجيش ، وها أنا مازلت في هذا العمل منذ ٤ سنوات بعد أن تخرجت من الثانوية العامة .

تابع السيد قاسم رواية ذكرياته عن ايام الثورة .. فقال : إن هذا الجبل جبل البدوى ، شهد المعركة الاولى في مسيرة الثورة سنة ١٩٦٣ ولو ملكتم رؤية حادة فإنكم يمكن أن تروا النصب الذى أقيم للشهيد راجح بن غالب لبوزة أول شهيد للثورة ، ويمكن أن تروا القبه البيضاء ، قبة مزار الشيخ أحمد البدوى .

لم تظهر لنا الا نقاط بيضاء صغيرة على قمة الجبل .. فحاول زميلى توجيه « آلة التصوير » لالتقاط الصورة .. فلم يظهر امامه إلا الجبل .

قلت : لقد قررنا الصعود الى حيث نصب الشهيد الاول للثورة .

بان التعجب على وجوه مرافقينا ومُضيفينا .. وعلقوا : ان الصعود الى هناك والنزول سيستغرق منكم حوالى خمس ساعات ، والجبل كما ترون ليس هيناً ، فيه الصخور الحادة .. والشعاب الصعبة والاشواك ومفاجآت قد لا تقدرونها .

أجبنا أنا وزميلي المصور : لقد قر قرارنا بالصعود مهما كانت الصعاب .

سمعنا تعليقاً : إن الامر أصعب مما تتصورون ، انكم تخوضون مغامرة غير مأمونة العواقب ، ننصحكم بالاكتفاء بتصوير الجبل والوادي .. وهذا يكفى ، ان كثيراً من الصحافيين الذين جاءوا قبلكم أخذوا المعلومات في الحبيلين وعادوا ولم يتجاوزوها .

علقنا : ان عملنا في « العربي » يقوم على المساواة بين الكلمة والصورة .

تخلى عنا مرافقونا .. وتركونا للشاب ثابت الذى تبرع بمرافقتنا مع مرافقنا العدنى سعيد محمد راشد .

لم يحمل ثابت معه إلا ابريق ماء ، ثم كان وداع على أمل اللقاء مع مرافقينا الردفانيين في الوادى المقابل للجبل من الناحية الاخرى .. بعد خمس ساعات (كانت الساعة تشير الى الثانية عشرة صباحاً) .

رحلة الصعود

بدأنا بالسير نشطاء يدفعنا التحدى والتشوق للوصول الى المكان المطلوب . تكررت محاولاتنا للنفاذ من خلال الشعاب والصخور بين هبوط وصعود .. وجدنا آثار أقدام كثيرة تولت تمهيد شبه طريق .

ثغاء الماعز كان يرافقنا،وكان يظهر بعضها على الجوانب المائلة من الجبل .. ربما كان ثغاؤها احتجاجاً على الغرباء الذين اقتحموا « عرينها » ، بعض النباتات كانت تظهر في الشق الطولى الذى كان يمتد من رأس الجبل حتى اسفله ، ويبدو أن الماء هو الذى ساهم في شق المنحدر وكون طريقه الخاص .

بدأ العرق ينز من أجسامنا .. وبدأ التعب يظهر علينا خصوصاً نحن القادمين من الكويت . البلاد الصحراوية التى قلما يوجد بها جبال .

خفت على دفتر ملاحظاتي من بلل العرق ، فخلعت قميصى ووضعته فيه .. وتابعنا المسير بعد استراحة دقائق معدودة .

تابع نظرى شقوق الصخور .. والتواءات الشعاب علىّ أرى ما يزحف أو يقفز من حيات أو حيوانات غريبة ، فلم أر إلا الماعز ، ولم أسمع إلا صوت ثغاءها ، وصدى أصوات بشرية تأتى من بعيد بعيد .. أو صدى أصواتنا التى بدأنا نطلقها كنوع من التخفيف على مشاق ماأخذ يصادفنا ..

حاصرني مرافقنا العدنى سعيد بعد أن تدحرجت عدة مرات ، لكن بدون وقوع ، وأصبح يمسك بي ، ثم تبعه ثابت ، استكثرت ذلك ووجهتهم نحو زميلى المصور الذى كان يباريهم قفزاً وتخطياً للصخور الحادة .. أصر سعيد على ملازمتى تماماً فلعنت سُمنتى .. وتابعنا المسير .

غطى الغيم على اشعة الشمس الحارقة ، فأعطانا دفعاً لمواصلة رحلتنا بأقل ما يمكن من الجهد والعنت .

شقوق هنا .. صخر حاد هناك . هذا الصخر ابيض ، ذاك اسود وآخر برتقالى أو بني .. تذكرت المواويل والحداء .. وجبالاً واراض حلمت وأحلم فيها منذ الصغر .. تذكرت « الأوف » الممدودة بامتداد سنوات القهر الذى يتوزع هنا أو هناك في الجسد العربى .. خرجت « الأوف » كأنها ليست منى ، فتوزع صداها بين الشعاب والصخور ، وحسبت أنها كانت في أبهى صورها اللحنية .

سمعت إطراء ومطالبة بالمزيد ، فانتبهت لما أنا فيه فطلبت الماء الذى أصبح أكثر من ضروري للحال الذي نحن فيه .

ارتقينا صخرة عالية .. فبان الجبل المقابل فعلق مرافقنا : من رأس ذلك الجبل أطلقت دانات المدافع الانكليزية على الثوار .

تابعنا المسير بعد أن أخذ الجهد منا ما أخذ (اتكلم عن نفسى) تمعنت بثابت كان عرقه قليل ولم يظهر التعب عليه بشكل واضح .. التفت اليّ وعلق : اعرف ما تفكر به .. نحن أبناء جبال وقد سرت في



ـ سيل ماء .. في وادي المصراح بالقرب من الحبيلين

هذا الطريق آلاف المرات نهاراً وليلاً فلا تستغرب حالتي .
سألت : وأنت ياسعيد ؟ علق : وأنا أيضا!!انا ابن الجبال ، بانت حجارة مصفوفة فوق بعضها البعض على رأس منحدر من الصخور .. سمعت تعليقاً : ذلك هو المكان .
ضاعفنا جهدنا بالرغم من بوابات مسام العرق التى انفتحت وبللت ملابسنا . نظرنا في ساعاتنا لقد وصلنا المكان خلال ساعتين وربع وليس نصف .. ففرحنا لهذه النتيجة ..

طول النصب المكون من حجارة الجبل المصفوفة فوق بعضها البعض حوالى متر ونصف دهنت بلون أبيض وكُتب عليها بدهان أحمر نصب الشهيد راجح ابن غالب لبوزة . استشهد في ١٤/ ١٠/ ١٩٦٣ ، يلي النصب شق في الجبل يكون نصف مغارة ، لقد كان محمياً حماية طبيعية واضحة ، وقد اختاره الثوار ليكمنوا فيه ، ويبدو أن الثائر راجح خرج للاستكشاف أو لأى غرض آخر فرصدته المراصد الانكليزية على الجبل المقابل فتم قصفه .. وأصيب فعلا واستشهد،فاعتبر يوم استشهاده هو اليوم الأول لانطلاق الثورة الحديثة في اليمن الديمقراطية ، قرأنا الفاتحة على روح أول شهيد للثورة ، وتجولت انظارنا ترصد تفاصيل محتويات المكان .

ثم تابعنا المسير الى مزار البدوي .

البدوى .. من يكون ؟

وصلنا الى رأس الجبل ، لم نعد ندخل في تعاريج والتواءات الشعاب ، بل أصبحنا نسير في طريق مستوية الى حد ما .. بانت القبة واضحة بيضاء تلمع تحت خيوط الشمس .. حثثنا المسير اليها ، حقل خال من الزراعة محاط بعدة اشجار من الزعرور ، بعض الحبات كانت قد تساقطت بعد أن نضجت ، أسكتنا جانباً من جوعنا من بعض حبيباتها ، لاح بيت بجانب مقام البدوي .. دخلنا المقام فوجدنا جدثا كتب عليه الشيخ احمد بدوى .. وبقايا شمع ، ولا شيء غير ذلك ، كان يوجد في الخارج بقايا عظام وجلود وبركة ماء صغيرة ،سألت ثابت: ما هى حكاية الشيخ البدوى ؟
علق : ان المقام كما قرأت هو للشيخ أحمد البدوى ، وما اعرفه أن بعض الناس يأتون هنا للتبرك وقراءة القرآن ، ويجتمع بعضهم في أيام محددة فينحرون الذبائح ويقدمونها نذوراً ثم أضاف ربما كان شيخاً صوفياً .. وله اتباعه وأنصاره .
علقت : ما أعرفه أن هناك شيخاً آخر للصوفية اسمه البدوى أيضاً فى مصر .



ـ حوار البائع والمشتري .. فمن هو الغالب .. ومن هو المغلوب ؟!

قال : ربما كان لكل بلد شيخه ، او ربما كان هو نفسه وعاش هنا وهناك .

مررنا من جانب البيت ، خرجت امرأة منه وتمعتتنا ، ثم قالت بضع كلمات فهمت منها « فزعتمونا » كدليل على أن مرتادي المكان قلائل .. مررنا بالقرب من بيت مهدم ولاح على بعد عدة أمتار منه بيت آخر خرج منه رجل مُسن عندما رآنا ، رحب بنا وأصر على استقبالنا في بيته .. فاعتذرنا إلا انه كرر الطلب عدة مرات . سألناه عن اسمه وعمله .. وكيف يعيش في هذا الجبل الوعر ؟ ..

قال : انا طالب محمد الهدوى وعمرى حوالي ٦٥ سنة .. نعم لقد ساهمت بقسطي في الثورة .. ولذلك فإن الطيران البريطاني قصف بيتي الذى مررتم به قبل لحظات ، فابتنيت هذا البيت ، اننا نعيش على بعض الزراعات في الحقول محدودة المساحة كما ترون ، ونزرعها حبوبا ولنا ماشية نرعاها ونعيش على بعض خيراتها .

● سألت الشيخ : ماهى حكاية الشيخ البدوى ومقامه ؟

ـ لقد سُمى كل هذا الجبل باسم الشيخ .. وهو رجل دين له مريدوه الذين يأتون في اوقات معينة لقراءة القرآن والدعاء ، وإقامة طقوس معينة لا أعرفها .

على بعد عدة امتار من بيت السيد طالب برزت صخرة كبيرة فيها شق مستطيل الشكل .

● سألت : وما هى حكاية تلك الصخرة .. والشق الذى فيها ؟

ـ علق السيد طالب : يقال ان مُحدث هذا الشق في هذه الصخرة هو سيف الإمام على بن ابي طالب رضى الله عنه ... اذ انه عندما جاء الى هنا واعترضته هذه الصخرة فإنه شقها بسيفه .

علقت : لكن ياشيخنا ان المصادر التاريخية لا تذكر بأن الامام قد جاء الى اليمن والى ردفان بالذات ؟

علق : هكذا يقولون .. وهكذا سمعت ، جاء ابن ابنه باللبن الممزوج بالفلفل الاحمر المطحون ، فشربنا وشكرناه وحاول الرجل استضافتنا في بيته فاعتذرنا وبدأنا بالنزول .

النزول الأصعب !

اعتقدنا ان الصعود هو الأصعب في الرحلة ، لكننا اكتشفنا إن النزول ليس سهلاً أيضاً ، إن الصخور في هذا الجانب من الجبل كانت أكثر حدة وتعرجات ، ولا يوجد ممر إلا ان يتدلى الانسان ويستعمل يديه ورجليه حتى يمر والأهم هو استعمال عقله ، لأن اى خطأ غير محسوب أو سرعة أوقفزة غير

مخـوية فإنها تـودي بـالانسـان الى التحطم بين الصخور .

وصلنا بعد ساعتين ونصف من مسيرنا من رأس الجبل . . كان الانهاك قد اصابنا ، لكننا مع ذلك حققنا ما كنا نصبو اليه ، تعانقنا مع زملائنا الـذين كانوا بانتظارنـا ، لقد أحضـروا لنا غـداء جاء في سـاعـات المســاء من بعض البيوت القـريبـة من المكان . . وكان أشهى طعام لأنه جاء بعد جوع وتعب حقيقيين . .

عُرس في حبيل جبر

كان موعدنا في اليوم التالي هو زيارة قرية حبيل جبر وحضور عرس أحد شبابها والوقوف على مظاهر العادات والتقاليد في هذا المجال .

للوصــول الى حبيــل جبــر مضينــا في الـطريق المؤدي الى منطقة يافع ثم صادفتنا قرية الربوة على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من بلدة الحبيلين ، بعض المزارعين يعملون في حقولهم وبعض الصبية يتشاقون في احدى السـاحات ، ثم مررنـا بالقـرب من قرى الثقيفة وخيران ثم قـرية حبيل جبر عـلى مبعدة حوالي ١٥ كيلومتر من الحبيلين ، الطريق بينها ممهدة ومسفلتة بشكـل جيــد ، والتلال والجبـال تحف بالطريق من جانبيه .

نشاهد وحدة لتوفير الطاقة الكهربائية بـوساطة أشعة الشمس ، ثم ندخل الى يمين الطريق الرئيسي في طريق ترابية كثيرة المطبات ، تسير حوالي ربـع ساعة بـالسيارة ثم نصـل قرب خيمة كبيرة مليئة بـالرجال والشبان ومضاءة بالكهرباء عن طريق مولد .

يستقبلنا افراد من أهـل العريس ، ثم نـدخل الخيمة ، ونسلم على الجميع . فرشت الخيمة بالبسط والحصر والفرشات ، نجلس بين الرجال فنلاحظ أن أغلبية الرجال والشبان يخزنون القـات ، ويضعون حزمه الخضراء التي تشبه أوراقها أوراق نبتة الملوخية أمامهم أو بجانبهم مرفوقة بزجاجات المشـروبات الغازية او « ترامس » الشاي . زيارتنا كانت مساء يوم الخميس . القات كما أفهمنـا بعض الاخـوان « والسكاير » يأتي بها كل فرد يحضر للمشاركة ، في حين أن اهل العريس يوفرون الشاي والمشـروبات الغازية والأكل .

الخيمة كبيرة ومليئة بما يـزيد عـلى مائة رجل وشاب . . أصوات أغاني النساء وزغاريدهن تسمع من مكان قريب ، مفصول عن الرجال . استجابة لطلبنا فإن بعض الرجـال بدأوا بممارسة الـرقص الشعبي على صوت المزمار والطبل وغنوا أغنية :

مــرحــبــا بــك يــاعــريس
مرحباً بضيوف أجونـا « جاؤنـا »

بعضهم كان يحمل « جنبيات » وبعضهم بدونها ، عندما تحدثنا وجلسنا بين الرجال فإن بعض الشبان أفهمونا بأنهم غير راضين بأن يقتصر نصيب حبيل جبر من استطلاع ردفان في مجلة العربي على تسجيل وقائع العُرس فقط ، إذ ان حبيل جبر كما أفـادوا شاركت مشاركـة اساسيـة في الثورة ، علقت اننا بحاجة الى من يعطينا فكـرة عن العادات السـائدة بالنسبة للزواج في المنطقة ، وتفسير بعض العادات والتقاليد . . فتبرع مجموعـة منهم وجلسوا بجانبنا واخذوا بالـرد على استفسـاراتنا . . وقـد جاء فيما ذكروه :

- يتم وضع الحناء على كفي ورجلي وشعر العروس يوم الاربعاء من قبل صديقـاتها وقـريباتهـا وهي في بيتها .

- في حين أن قريبات العريس يتولين وضع الحناء على يدي ورجلي العريس يوم الخميس (اي الليلة التي كنا فيها في البلدة) .

● سألت : وهل العريس « يتحنى » أيضاً .

- أجابوا : نعم إن ذلـك يحصل وستشهـده بنفسك الليلة .

● وبعد ذلك ؟

- يـذهب العريس مـع أهله وأصحابه فيحضرون العروس مساء يوم الجمعة وتأتي معها بعض قريباتها ويتم هذا الامر بالسيارة في هذه الأيام ، في حين انه كان يتم من قبل بواسطة الجمال أو الخيول ، يرافق ذلك الأغاني والرقص والأهازيج ، ويبقى العريس مع عروسته وسط أهله وخلانـه لمدة زمنيـة وسط مظاهر الفرحة والغناء ، ثم ينفض سامـر العرس ويـدخل العـريس والعروس الى غـرفتهما الخـاصة أخيراً .

ويأتي أهل العروس في صباح اليوم التالي الى بيت أهـل العريس ومعهم الهدايا العينية ، فيتابعـون أفراحهم وأهازيجهم ورقصاتهم المشتركـة مع أهـل العريس ، ويبقون حتى المساء ثم يعودون الى بيوتهم بعد ذلك .

● هل من فكرة عن اجراءات الخطبة والأيام التي تسبق الزواج ؟

ـ كأي بلد اسلامي فإن كتب الكتاب أي العقد يتم عند القاضي ، ويشترط موافقة الفتاة على الزواج ، ويمكن أن يأخذ والد العروس مبلغاً من مهر العروس (يصل المهر احياناً الى مائة دينار).والبعض يصرفونه على تجهيز العروس ويقدم العريس أيضاً « شبكة » مكونة من ساعة وخاتم ، وكان المهر يُدفع من قبل بصورة عينية ، كأن يتم الاتفاق على تقاضي مجموعة من البقر أو الخراف او الماعز ، أما الآن فإن قانون الاسرة حدد ٢٠٠٠ درهم كحد أقصى للمهر . ويقوم العريس بكسوة عروسه ويمكن للمقتدر أن يزودها ببعض قطع الذهب ، وأحيانا يتولى ذلك والد العروس إن كان مقتدراً .

● ما هو حال الزواج بامرأة ثانية .. حسب قانون الاسرة الان ؟

ـ كان الامر متروكاً حسب رغبة الزوج من قبل ، اما الان فإن الامر يجب أن يتم بعد موافقة الزوجة الاولى ، ونعتقد أن كل أب أو أخ لا يحب لابنته أو اخته بأن تعيش مع « ضرة » .

● هل يتلقى العريس او العروس بعض المساعدات المالية من اصدقائهما ؟

ـ إن هذه العادة يقال لها « الرفد » في بلادنا ، وهي مازالت قائمة حتى الان .

● هل عادة « الخطف » مازالت قائمة في بلادكم ؟

ـ بعد انتصار الثورة وسن قانون الاسرة ، فإن المنطقة لم تشهد أية حالة خطف أبداً .

● لقد رأيت أن بعض الرجال يقبلون أيدي بعضهم البعض .. فماذا يعني ذلك ؟

ـ ان ذلك يتم في الأعياد والاعراس والمناسبات السعيدة أو حتى في الأيام العادية ولا يوجد اي دلالة إلا دلالة الاحترام والشوق ويمكن ان يتم ذلك بين رجل وامرأة أيضا .

● أرى بعض الاشخاص اذا ما قرفصوا للحديث مع اشخاص آخرين فإنهم يربطون ظهورهم الى ارجلهم برباط خاص فماذا يعني ذلك ؟

ـ ان هذه العادة تسمى عندنا « بالحبية » والقصد منها حماية الظهر وتوفير الحال المناسب والوضع المناسب لحديث ربما يطول .

● والقات كيف تنظرون اليه ودوره ؟

ـ ان تعاطي القات هو احد العادات الاجتماعية المنتشرة في البلاد ، صحيح إنه يمثل عبأ مادياً ، وأحياناً صحياً ، ومع ذلك فإن القوانين حدت من تعاطيه .

فداء للعريس

دعانا بعض الرجال الى حيث كان العريس بين شقيقاته وقريباته استعداداً لمراسم الحناء ويتم ذلك بعد منتصف الليل يترافق ذلك مع الاغاني والرقص والموسيقا .

اسم العريس عادل ، وهو طالب في كلية الطيران ، كان يجلس بين قريباته ومظاهر الخجل بادية عليه .. أصوات الزغاريد والموسيقا تطغى على الاصوات البشرية جاء شقيق العريس بتيس ماعز وأداره عدة مرات فوق رأس العريس ثم تم ذبحه مباشرة ،وعندما سألنا عن معنى ذلك ؟

ـ أجاب :إن ذلك هو من صلب العادات ، والقصد هو أن يكون التيس أو الكبش فداء للعريس . بعد ذلك تأخذ شقيقة او قريبة للعريس بتحنية يديه ورجليه ويبقى العريس بين قريباته فيما الرجال يبقون في الخيمة ويخزنون ـ القات ـ ويسمعون الموسيقا والغناء ، وبعضهم يرقص الرقص الشعبي المميز .

نبارك للعريس وأهله بعرسهم ، ونودع الرجال .. كان الليل يوشك ان ينتصف فتوجهنا الى الحيلين لنغادرها في الصباح .

أفقنا على اصوات الديوك وهي تبشر بصباح وليد اختلطت فيه أصوات الحيوانات بالديوك بأصوات ماكينات الطحن والماء ، بدأنا نعد انفسنا لمغادرة المكان بعد أن ودعنا وشكرنا جميع الذين وفروا لنا زيارة موفقة .

عندما نادى المنادي

عندما اقتربنا من مشارف البلدة تمعنت في المكان فوجدت يافطة كتب عليها هذين البيتين :

ردفان نادى أن اذود
وأن أحيل الصعب سهلاً
فحملت رأسي في يدي
كي لاتصير الكف رجلاً

كان الشعر هو من ابداع الشاعر اليمني عبد الله البردوني ، أعدت قراءة البيتين عدة مرات ، ومسحت نظرات عيناي المكان والبيوت والجبال والسهول والبشر ، وكل مااستطاعت الوصول اليه ثم تنهدت .. وقلت : وداعاً ردفان .. وداعاً أيتها البلاد التي اشعلت فتيل ثورة الاستقلال ، وها أنت في حمأة « الجهاد » الأكبر ، لصنع الحياة الأفضل ، والتغلب على صعوباتها . □

العربي

تشرين أول) ١٩٨٩م



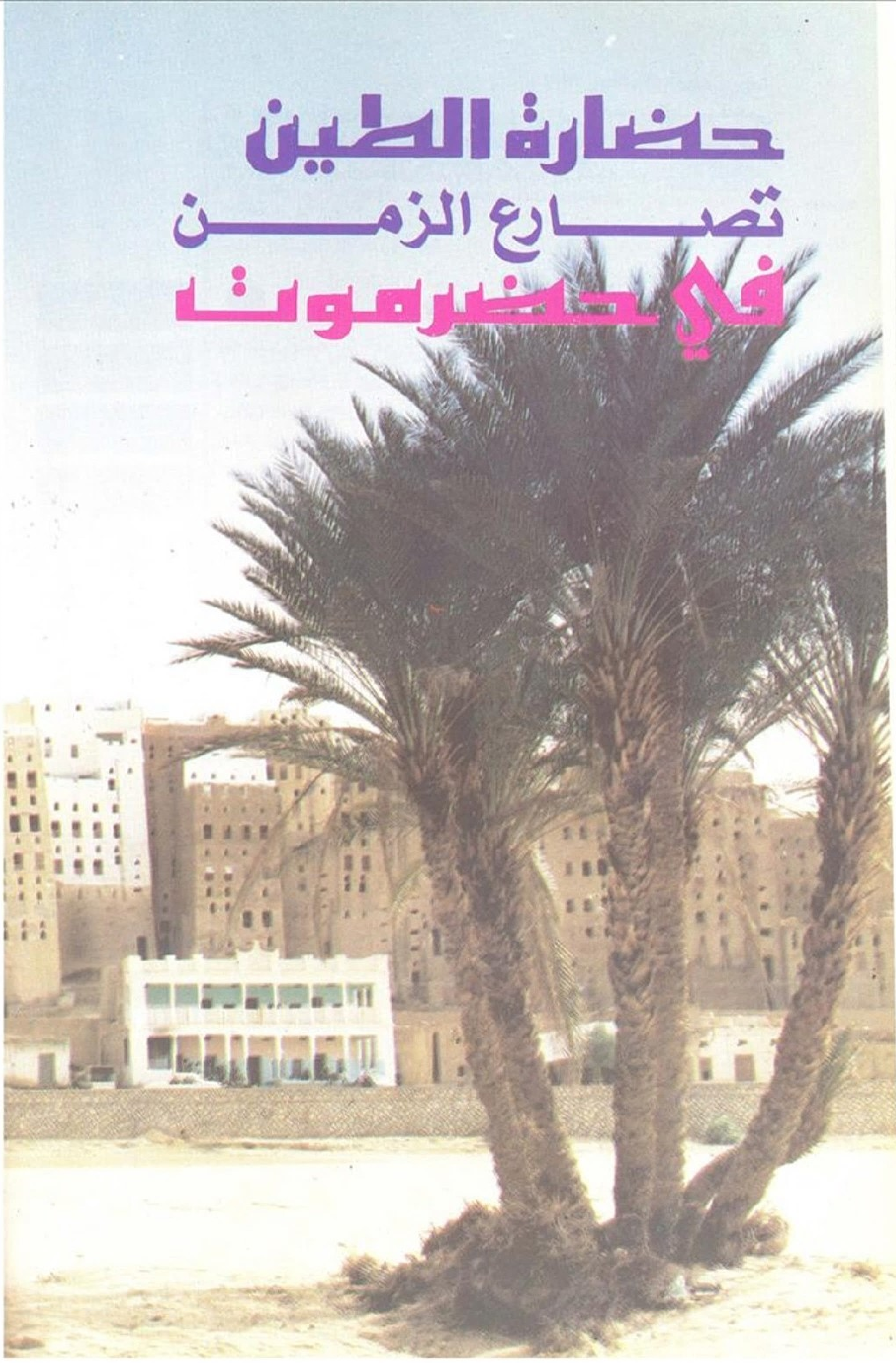
■ حضارة الطين تصارع الزمن في حضرموت



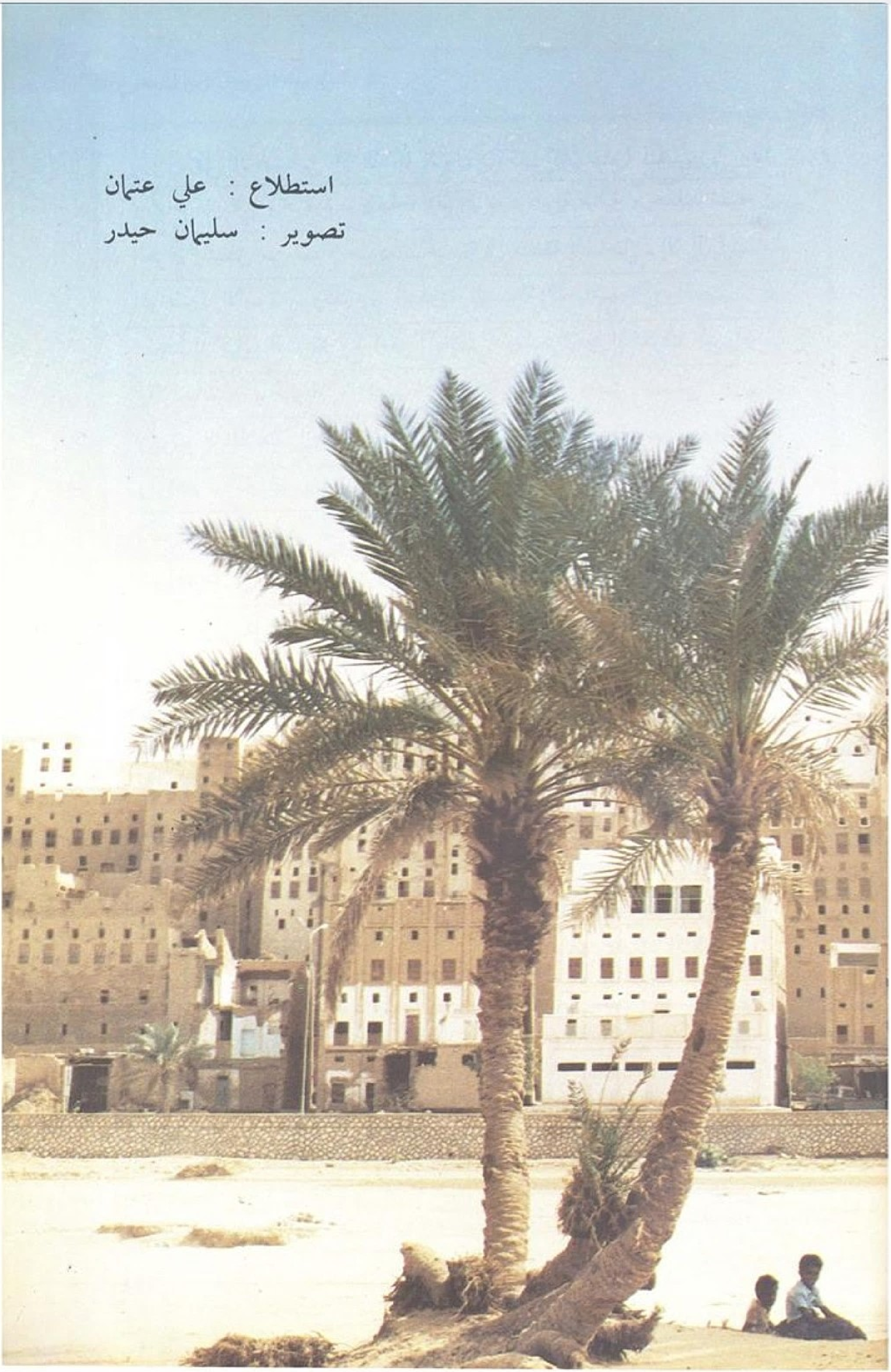
■ ألمانيا الديمقراطية .. الحياة والناس

■ تشريح الإنسان بين العلم والدين!

حضارة الطين تصارع الزمن في حضرموت



استطلاع : علي عثمان
تصوير : سليمان حيدر



على الرغم من أن لقاءنا الأول بالمكان كان مثيرا للضيق ، أمطار ورياح متربة ، وحرارة مرتفعة ، مصحوبة برطوبة عالية ، جعلتنا نسيح في العرق المتدفق من مسام جلودنا ـ خاصة في منطقة الساحل ـ إلا أن ابتسامة المواطنين الآسرة ، وكلماتهم الودودة البسيطة كحياتهم ، وواقعهم ، قد دفعتنا للتكيف السريع مع الجو المحيط . وسرعان ما استغرقنا غنى المكان والإنسان ، بالحيوية والخصوبة ، والإبداع . وتحت شمس حزيران (يونيو) اللاهبة انطلقوا بنا في سراديب وحارات قلوبهم ، ومدنهم ، وقراهم ، يكشفون لنا بصراحة مدهشة تفاصيل حياتهم ، وطموحاتهم الممزوجة بلمحات من تاريخ واديهم الطويل بحضارة الطين المنتصبة شواهدها في ربوعه .

وفي كل مكان ذهبنا إليه ذكرنا أهله باستطلاعات « العربي » لمدن واديهم : المكلا وشبام وسيئون وتريم التي نشرت على صفحاتها منذ ربع قرن من الزمان .

قبل أن نصل إلى مدخل مدينة « شبام » ، أقدم مدن وادي حضرموت ، طلبنا من مرافقنا أن نترجل من السيارة حتى نلم بتفاصيل المعالم المحيطة بالمدينة ذات الشهرة العالمية ، بنمط عمارتها الفريد .

اعتلى زميلي المصور سطح إحدى البنايات في الضاحية الجديدة للمدينة ، تحت سفح الجبل المقابل لها ، وهي مجال الامتداد العمراني « لشبام » ، بعدما ضاقت هذه بأهلها . ورحنا نجول في المكان بأبصارنا ، رأينا بيوتا منهارة في الضاحية الجديدة بفعل الأمطار والسيول الناجمة عنها التي لم يعاصر مثلها أحد من أبناء المنطقة الأحياء ، كما قال لنا شيخ تجاوز عمره الثمانين ، وامتد البصر إلى عمق الوادي غربا ، فصدته رياح عنيفة مفاجئة ، وهي تتلاعب بذرات الطين الناعمة التي خلفتها مياه السيول على سطح مجرى الوادي الجاف ، والتي تصنع منها ستائر كثيفة حجبت أشعة الشمس التي كانت تبهر أضواؤها العيون .

وقبل أن تقترب منا الرياح المتربة ، كانت أنظارنا قد حطت على المدينة ، ولم تحد عنها . فقد شدنا تداخل اللون الأبيض الناصع الذي طليت به بنايات بكاملها ، وجميع أسطح البنايات بطوابقها العلوية ، مع اللون الطيني الذي يسود معظم اللوحة المعمارية المجسمة بالبيوت ، بتكوينها المتناغم كقطعة موسيقية متكاملة الإيقاع والنغمات .

وعبرت استفساراتنا المتتابعة عن دهشتنا



موقع المحافظة الخامسة (حضرموت) في اليمن الجنوبي

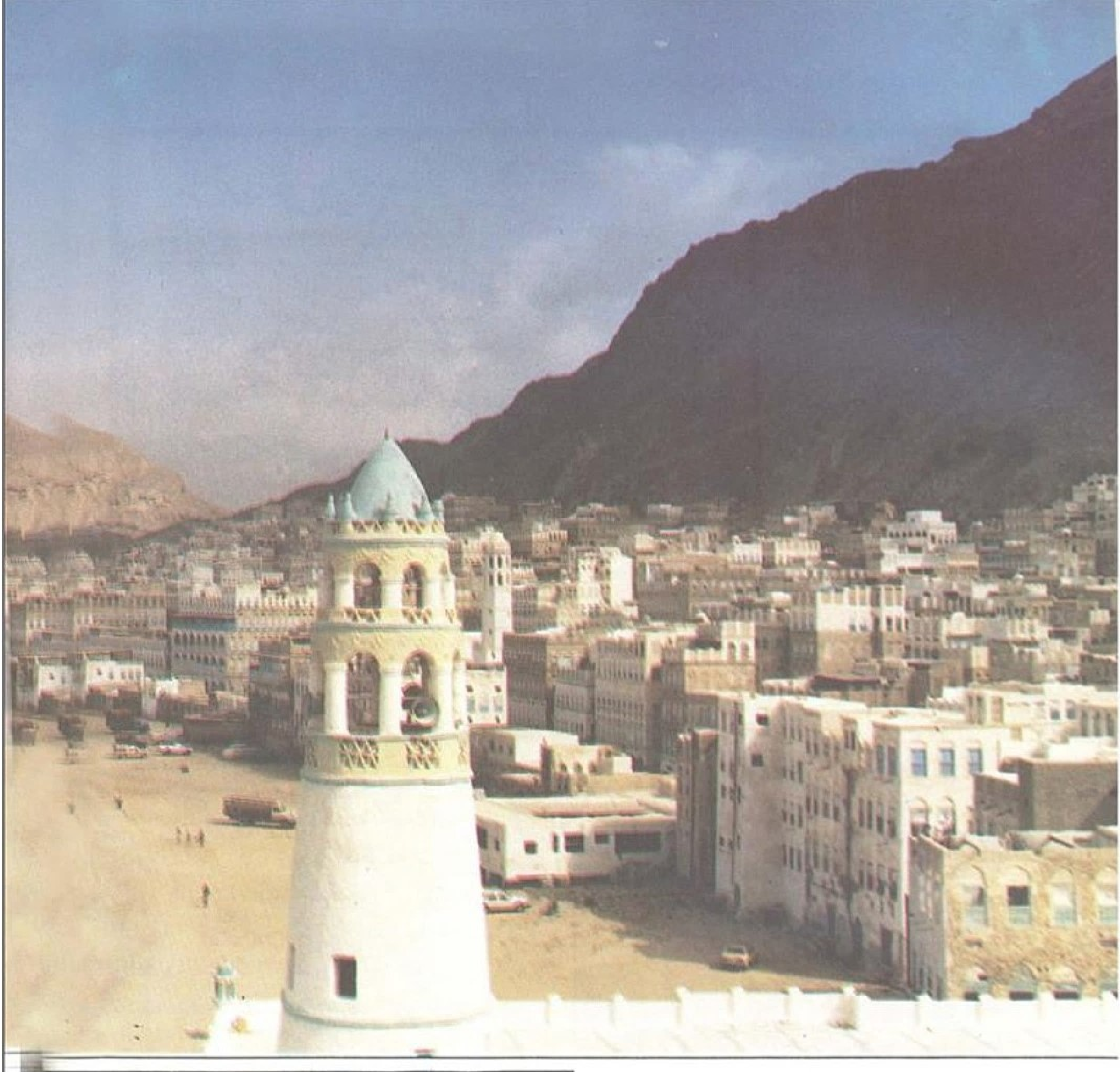
لوجود هذا الفن المعماري الرفيع الذوق ، في هذا المكان بظروفه المناخية والمعيشية الصعبة .

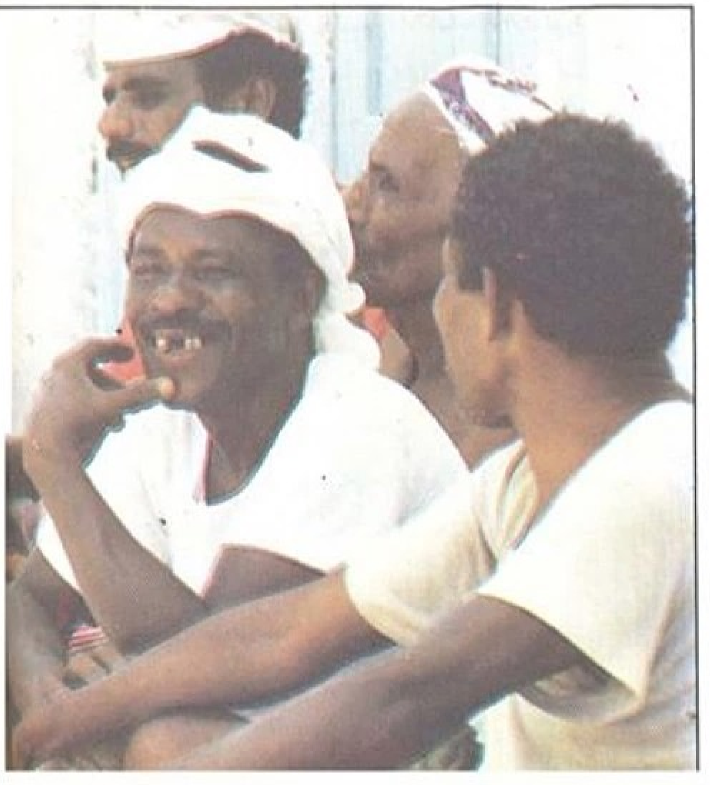
والتقط مرافقنا دهشتنا بالذكاء اليمني المعروف حين قال : « لا تعجبوا فهذا وجه من وجوه الملحمة التي يخوضها اليمني منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، إن صراعنا مع الزمن والطبيعة متعدد الأبعاد والاتجاهات ، سنترككم تكتشفون ذلك بملامستكم لواقعنا ، ثم نناقشكم فيما توصلتم إليه » .

وقبل ان ينهي حديثه ، لفتنا عاصفة ترابية ، فحجبت عنا المدينة ، وتعذر علينا استكمال تصويرها ، فقررنا التأجيل ليوم تال . وعند استعدادنا للعودة إلى مدينة « سيئون » جذب انتباه مرافقينا اليمنيين سحابة شديدة السواد ، قادمة من ناحية الشرق بسرعة ، فبدا الانزعاج على الوجوه ، وندّت عن أحدهم غمغمة مشحونة بالضيق ، فهمنا منها أنه يعني بأن هذه السحب هي سحب أمطار غزيرة . رد عليه آخر : « كفانا أمطارا ، وسيولا ، وخسائر ، فلقد حصلنا على كفايتنا لخمس سنوات كاملة قادمة » ، ثم استدرك : « عجيب أمر الطبيعة معنا ، إما جفاف يهلك الزرع والضرع

تقع محافظة حضرموت في المنطقة الشرقية ، ومساحتها الكلية ١٥٥٣٧٦ كيلومتراً مربعا . ويبلغ عدد سكانها ٦٨٥,٩٠٩ نسمة ، وفقا للتقديرات السكانية لعام ١٩٨٦ . يتوزعون إلى ٢٣٤ , ٢٤٠ حضريا ؛ ٣٥٥,٢٢٩ ريفياً ، ٤٤٦ , ٩٠ بدوياً . وعاصمتها الإدارية هي المكلا . كما تنقسم إلى ثماني مديريات ، هي : المكلا ، الشحر ، سيئون ، القطن ، دوعن ، العبر ، ثمود ، حجر .

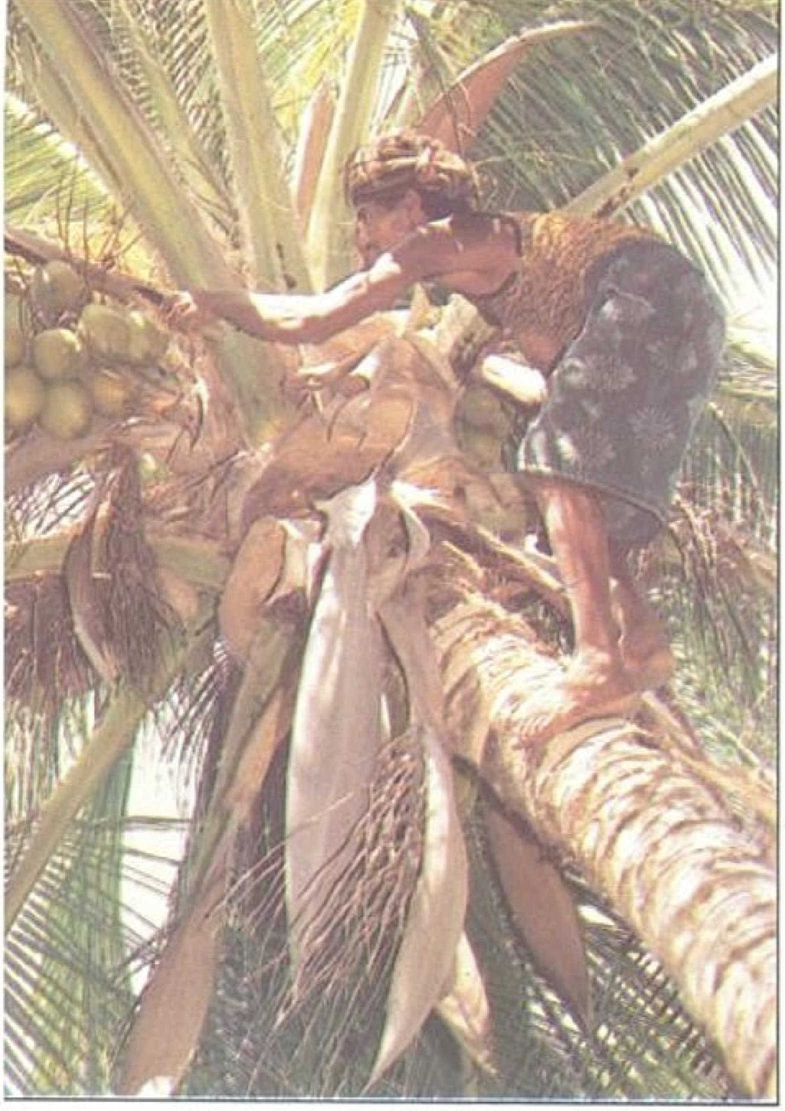
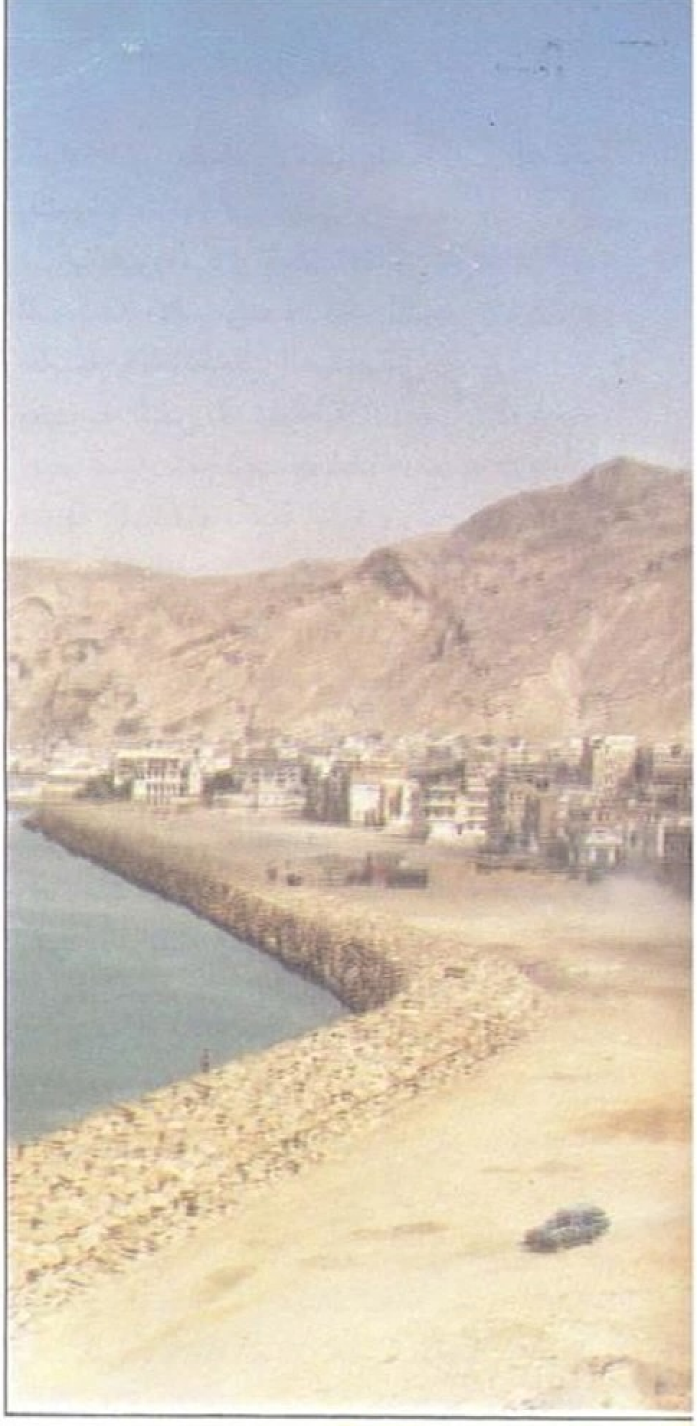
وبها مطاران يربطانها بعدن العاصمة ، وبعواصم المحافظات الأخرى ، وبالعالم ، وهما مطار الريان شرقي « المكلا » ، ومطار « الغرف » القريب من سيئون ، وفيها يقع أكبر أودية اليمن الصالحة للزراعة ، وهو غني بالنخيل والسكان .

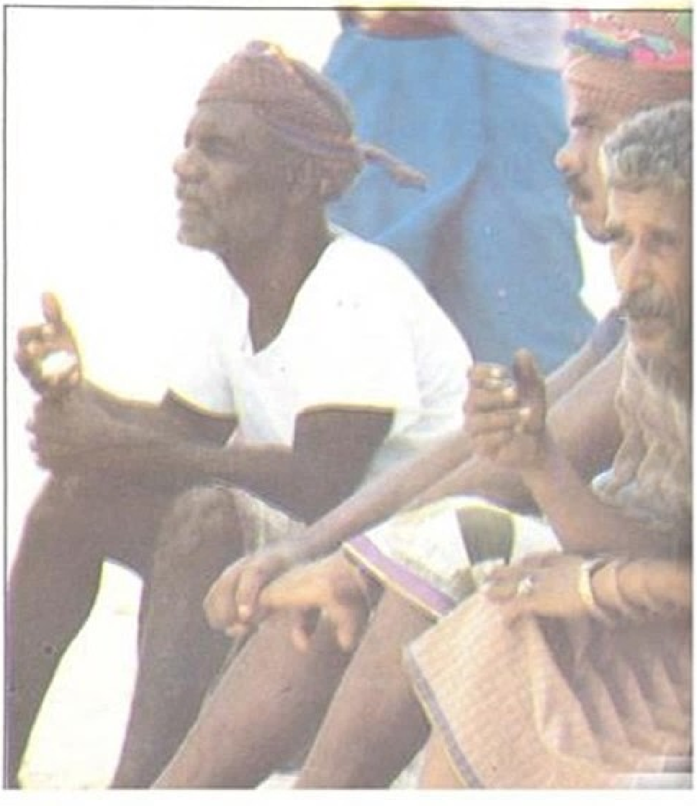




● مدينة المكلا ، وتبدو أحياؤها القديمة بنمطها المعماري المميز ، وألوانها الزاهية التي يسودها اللون الأبيض المتعانق بنعومة مع ألوان النوافذ المبهجة ، وارتفاعاتها المتدرجة من ساحل البحر إلى مدرجات الجبل .

العليا يسار : فلاح يمني يجني ثمار شجرة (البابای) .
(تحت) : صيادون في لحظة راحة ، وآخر سعيد بصيده من سمك التونة الذي يمثل ٦٠٪ من جملة إنتاج الأسماك .



سنوات ، أو أمطار ننتظرها بلهفة ثم تأتي بكميات تفوق المعدلات الطبيعية ، وتحدث خسائر كبيرة » . في أثناء ذلك فاجأتنا الأمطار الغزيرة ، فعدونا تجاه السيارة نحتمي بها ، ثم غادرنا المكان الذي حط عليه الحذر والخوف من تكرار ما حدث في نهاية آذار (مارس) ، وأوائل نيسان (ابريل) الماضيين ، عندما استمر هطول الأمطار مدة ثماني عشرة ساعة متواصلة في بعض الأيام .

لم تكن أمطارا ، بل صنابير مفتوحة من السماء ، كما صورها لنا أحد المواطنين .

وقد لخصت هذه اللحظات المكثفة طبيعة الحياة في حضرموت بوجوهها المختلفة ، حيث يتفاعل التاريخ بحضوره الأسر ، مع الطموح الإنساني المشروع في حياة أفضل ، ودور ملائم ، المحكوم بمحدودية الموارد . ومن هنا بدأت رحلة « بعثة العربي » في المحافظة الخامسة « حضرموت » .

ملامح أولية

كان من الطبيعي ونحن في البداية أن نستجيب لإلحاح الذاكرة علينا باستحضارها لصور الحياة المختلفة منذ ربع قرن مضى ، كما جسدتها عيون « العربي » في استطلاعاتها للوادي في ذلك الحين . وعلى أي حال فالمقارنة ضرورية ، وموحية عند التعرف على الحاضر ، هكذا! بادرنا أحمد عوض باوزير ، الصحفي القديم ، مشرف قسم التراث والتحقيق بالمركز اليمني للأبحاث الثقافية ، فرع « المكلا » : « في ذلك الزمان ، كانت حضرموت موزعة بين سلطنتين - القعيطية والكثيرية - تفصل بينهما جمارك وبوابات ، ويحكم العلاقة بينهما قتال ، وصراعات واتفاقات ، يفصل فيها مستشار انجليزي . وكان لهذا الواقع انعكاساته السلبية على حياة الإنسان الحضرمي ، حيث لم يكن أمامه إلا أحد خيارين ، إما الهجرة أو قبول الحياة على مضض ، مما يدفع إلى التمرد والثورة » .

أما اليوم - كما تقول حقائق الواقع - فقد أصبحت حضرموت ، منذ اكتوبر ١٩٦٧ ، خامسة المحافظات الست التي تتكون منها جمهورية اليمن الديمقراطية ، بعد أن توحدت جميع محميات الجنوب وسلطناته مع عدن بقيادة الجبهة القومية ، مكونة الشطر الجنوبي من اليمن في العام نفسه .

وتنقسم المحافظة إلى الساحل وحضرموت الداخل ، الساحل يطل على بحر العرب جنوبا ، ويقع في نطاقه مدينة « المكلا » ، « والشحر » - ميناء حضرموت القديم - « وغيل باوزير » المشهورة بزراعة « التمباك » والحناء . أما حضرموت الداخل فتشمل الجزء الأكبر من الوادي ومدنه المهمة .

وقد حكم هذا التقسيم بالإضافة إلى تكويناتها « الجيولوجية » - النشاط الاقتصادي للسكان الذي يكاد ينحصر في مجالات ثلاثة - عدا قطاع الخدمات - وهي صيد الأسماك في الساحل ، والزراعة في الوادي ، ثم تحويلات المغتربين لذويهم ، بالإضافة إلى دور هامشي غير محسوس تلعبه الصناعة ، فهناك عدد من المصانع الصغيرة ، أهمها مصنع تعليب الأسماك وتجفيفها في « المكلا » وآخر لتعليب التمور في مديرية « سيئون » ، وبعض الصناعات الحرفية التي انكمش سوقها ، كصناعة الخوص والفضة التي شكا أصحابها في الشحر عند لقائنا بهم من تحول أذواق المشترين - خاصة النساء - من الفضة إلى الذهب ، فاقتصر نشاطهم على ترويج إنتاجهم على السياح في عدن والمطارات والفنادق ، وتلبية الطلبات الرسمية من هذه السلعة .

وعلى الرغم من أن المحافظة تملك إمكانات الصناعة السياحية ، بمناخ دافيء شتاء ، وشواهد أثرية متنوعة كمدينة « شبام » ، وقبر النبي هود ، وغيرها ، بالإضافة إلى شواطيء رائعة ،

وآبار مياه معدنية ، ثبت طبيا أنها تعالج عددا من الأمراض كالسكري ، والروماتيزم ، والأمراض الجلدية المستعصية ، إلا أن الحركة السياحية غير متطورة التأثير ، لعدم توافر أساسيات صناعة السياحة كالفنادق ، والاستراحات ، والدعاية وغيرها .

وعندما استفسرنا من السيد : أحمد المجيدي ، سكرتير الحزب بالمحافظة ، عن أسباب عدم استغلال هذه الامكانات قال : « إن صناعة السياحة تحتاج إلى استثمارات ضخمة ، والانفاق من الميزانية يحكمه ـ كما تعرف ـ أولوية الوفاء بالاحتياجات الأساسية والضرورية للناس في القطاعات الاستهلاكية والخدمية والاستثمار ، ونحن مع ذلك نسعى لتنشيط السياحة ، ولكن أين التمويل ؟! قلنا لماذا لاتفتحون المجال أمام المغتربين من أبناء المحافظة الذين يملكون إمكانات الاستثمار في هذا القطاع ؟ قال : « لقد دعوناهم ، وأعطينا تسهيلات استثمارية منذ فترة ، ومازلنا ننتظرهم . »

وهناك حركة نشطة في البحث عن المعادن ، ولقد قرأنا في مجلة « نداء الوطن » اليمنية الأسبوعية « أن الأعمال المنجمية في مشروع وادي « مدن » للتنقيب عن الذهب تسير بوتائر عالية . وتهدف هذه الأعمال إلى معرفة مكامن خام الذهب واحتياطه ، وأفضل الطرق لاستخراجه ، ومن المتوقع الانتهاء من إنجازه خلال الأشهر القليلة القادمة .

أما عن النفط ، الحلم المقيم منذ نصف قرن مضى وأكثر ، فقد حملت أعمال البعثات الاستكشافية السوفيتية والفرنسية التي استمرت في بحثها بعد هروب الشركات الأخرى آمالا قوية لاحتمالات توافر النفط بكميات اقتصادية ويقال : إن بعض الآبار في شمال الوادي المتاخم للربع الخالي ـ محافظة شَبْوَة ـ قد تفجر فيها النفط . وحتى تتحقق الاحتمالات فإن الحلم في صنع المجتمع ينحت في صخور الجبال ، ورمل الصحراء ، وطين الوادي ، بحثا عن مسارب ، ليتجسد واقعا ملموسا من خلالها .

« المكلا والوجوه المتداخلة »

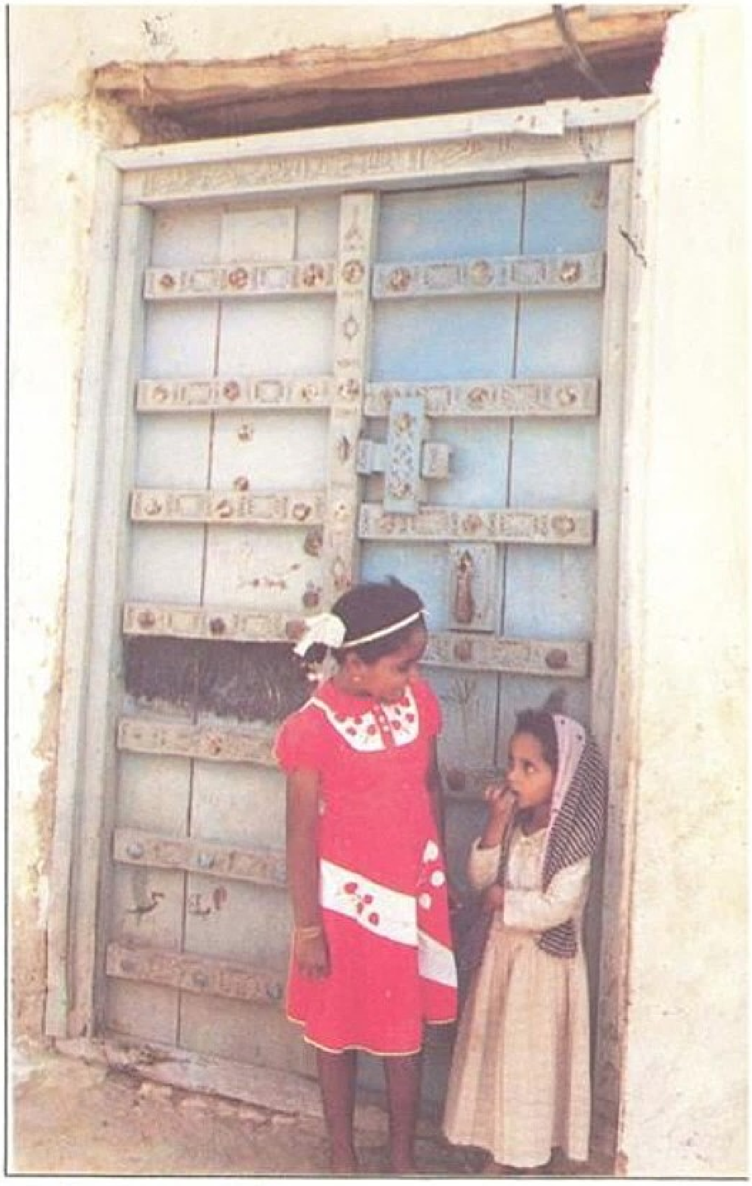
كانت البداية مدينة « المكلا » ، عاصمة حضرموت ، وثاني مدن اليمن الجنوبي ، عمرها يربو على تسعمائة عام ، فقد تأسست عام ١٠٣٥م . يلفت نظر زائرها موقعها الفريد ، المحصور بين بحر العرب والجبل المنتصب خلفها كحارس عملاق ، كان يصد عنها الطامعين فيما مضى ، لكنه يحول الآن بينها وبين الامتداد العرضي لارتفاع كلفة البناء على مدارجه المرغوبة لدى السكان ، فتمددت وتوسعت طوليا بموازاة البحر حيثما أتاح لها المكان الذي ضاق بسكانها فأقاموا منذ سنوات قليلة ، مدينة « المكلا » الجديدة على بعد خمسة عشر كيلو مترا غربا بمحاذاة الطريق الساحلي إلى عدن .

ولقد أدى تعرض المدينة إلى الغزو « الخرساني » في البناء إلى اختلال الوحدة والتناسق اللذين كانا يميزان طابعها المعماري ، ويكسبانها ملمحها الخاص .

عندما دخلناها كانت حرارة الجو المصحوبة بالرطوبة العالية التي تميز الساحل اليمني كله في أعلى درجاتها (٣٧°) ، ولم نفطن إلى وسيلة نتعامل بها مع العرق الغزير السيال من أجسامنا ، إلا عندما وجدنا معظم اليمنيين يستخدمون فوطة صغيرة لمسح العرق .

تشق بنا السيارة شوارع المدينة الحديثة المعبدة ونعبر جسراً حديثاً ، يربط بين أحيائها على جانبي مجرى السيول المتجه إلى البحر . يشير المرافق إلى مدخل أحد الأحياء القديمة ، بين حي « المكلا » والشرج « قائلا : » هنا







● نماذج من فن العمارة اليمنية مبنية بالطين .
(أعلى) :
- بوابة منزل قديم .
- منارة جامع المحضار بتريم ، ارتفاعها يزيد عن أربعين مترا .
- قصر الثورة (السلطان سابقا) بسيئون .
(أسفل) :
- قصر بمدينة تريم المشهورة بقصورها المتنوعة .
- جانب من مدينة سيئون .





كانت بوابة المدينة ، هدمت بعد الاستقلال لتوسيع الطريق .

ويجوب بنا المرافق أحياء المدينة التي تبدلت أسماؤها القديمة ، واتخذت أسماء حديثة ، فحي « الديس » أصبح حي « اكتوبر » ، و « المكلا » تحول إلى « السلام » ، والبلاد إلى « الشهيد خالد » ، وإن كنا لمسنا خلال تعاملنا اليومي مع الناس أن التغيير لم يتعد الاستعمال الرسمي حتى الآن .

شوارع المدينة القديمة الضيقة المتفرعة من الشارع الرئيس تغص بالمحلات التي تحصل على سلعها من مؤسسات القطاع العام المتنوعة النشاط ، بأسعار محددة لاتلاعب فيها . وبالمقاهي التي يغشاها اليمنيون مرتدين « المعوز » المختلف الألوان ، وهو قطعة من القماش المستورد من بعض الدول الآسيوية ، يلفون بها الجزء الأسفل من أجسامهم ويسمونها « الفوطة » .

حاولنا أن نجد « معوزين » متشابهين في النقشة والألوان فلم نوفق ، وتساءلنا : لماذا لا يصنع محليا طالما أن إنتاجه مضمون التوزيع ؟

توقعنا أن نرى « الجنبية » معلقة في أحزمة الرجال ـ خنجر اشتهر اليمنيون والعمانيون بتعليقه في الحزام لكن مرافقنا قال : لقد استغنى عنها يمنيو الجنوب بعد الاستقلال ، ولم يعد مسموحا بحملها بعدما انتفت الحاجة إليها .

في المساء دخلنا الأسواق القديمة الضيقة ، الشوارع والمحلات ، كمعظم أسواق المدن العربية القديمة ،يتم فيها تداول كل السلع المنزلية والنسائية ، المسموح باستيرادها . وفيما قبل كان ارتياد هذه الأسواق مقصورا على النساء وحدهن ، ولذلك كانت الحركة تموت فيها بعد المغرب . صادفنا بعض النساء بزيهن التقليدي الذي لم يتبدل ، عباءة سوداء تغطي المرأة من الرأس حتى القدمين ، وبها فتحة للعينين ، وهن يمارسن هوايتهن التقليدية في الفرجة والمساومة .

وإذا كان موقع « المكلا » أثر في نموها العمراني ، فإنه حكم نشاط سكانها الاقتصادي ، فبالإضافة إلى الأعمال الإدارية في قطاع الخدمات الحكومية والمؤسسات العامة ، تحظى الأنشطة المرتبطة بأعمال الميناء في منطقة « خَلَفْ » بحي « الشهيد خالد » الذي افتتحت مرحلته الأولى عام ١٩٨٥ ، بنسبة كبيرة من الأيدي العاملة ، وكذلك أعمال صيد الأسماك الذي يمثل مصدر دخل رئيس لمدن الساحل اليمني ، ومادة أساسية لوجبتهم اليومية الرئيسة ، وغالبا ما تكون وجبة الغداء .

مدينة الشهداء السبعة

وإذا كان صيد الأسماك واحداً من أنشطة سكان المكلا ، فهو أهم أنشطة سكان مدينة « الشحر » التي تبعد عن المكلا ٣٤ ميلا شرقا ، وقد كانت الميناء القديم لحضرموت قبل أن تأخذ منها « المكلا » أنشطة الميناء بعد نشأتها .

وبمديرية « الشحر » ثلاث تعاونيات لصيد الأسماك ، أكبرها وأقدمها المنشأة بالمدينة نفسها في فبراير ١٩٦٦ .

وصيادو الاسماك كما يقول السيد : عوض عبيد بلسود ، مسئول تعاونية « الشحر » ينقسمون إلى صياد [تعاوني] ، وهو الذي يعمل على وسيلة إنتاج (القوارب والمعدات) المملوكة للتعاونية ، وصياد [مالك] لوسيلة الانتاج . والتعاونية هي التي تتولى تصريف إنتاج جميع الصيادين وتسويقه ، ولكن تختلف الأساليب المحاسبية لكل نوع منه ، فالإنتاج اليومي للصياد التعاوني يتم تقسيم عائده بينه وبين التعاونية ، نظير استخدامه وسائل الإنتاج بنسبة ٣٨٪ للتعاونية ، و ٦٢٪ للصياد .

أما الصياد المالك وسيلة الإنتاج ، فينال ثمن إنتاجه الذي يسلمه للتعاونية نقدا ، ويدفع ١٨٪ ضريبة إنتاج وخدمة تعاونية .

وتشتهر « الشحر » كذلك بصناعة الفضيات « الخناجر والحلى المختلفة » ، ولكن انكمش نشاط هذه الصناعة الحرفية لأسباب كثيرة ، منها شيوع استخدام الذهب ، والتخلي عن اقتناء الخناجر ، كما أن الأنسجة الحديثة المستوردة أزاحت صناعة النسيج اليدوي .

ويعتز أبناء « الشحر » بعلمائها القدامى ، كالفقيه عبدالله بن عمر بامخرم الذي كان يلقب بالشافعي الصغير ، وصاحب دراسات في الفلك . والصيادون والمزارعون مازالوا يتبعون تقويما له حتى الآن . وسليمان المهري ، الملاح ، المولود في القرن العاشر الميلادي الذي ذكرته كتب التاريخ كمعاصر وصنو لابن ماجد البحار العربي الشهير .

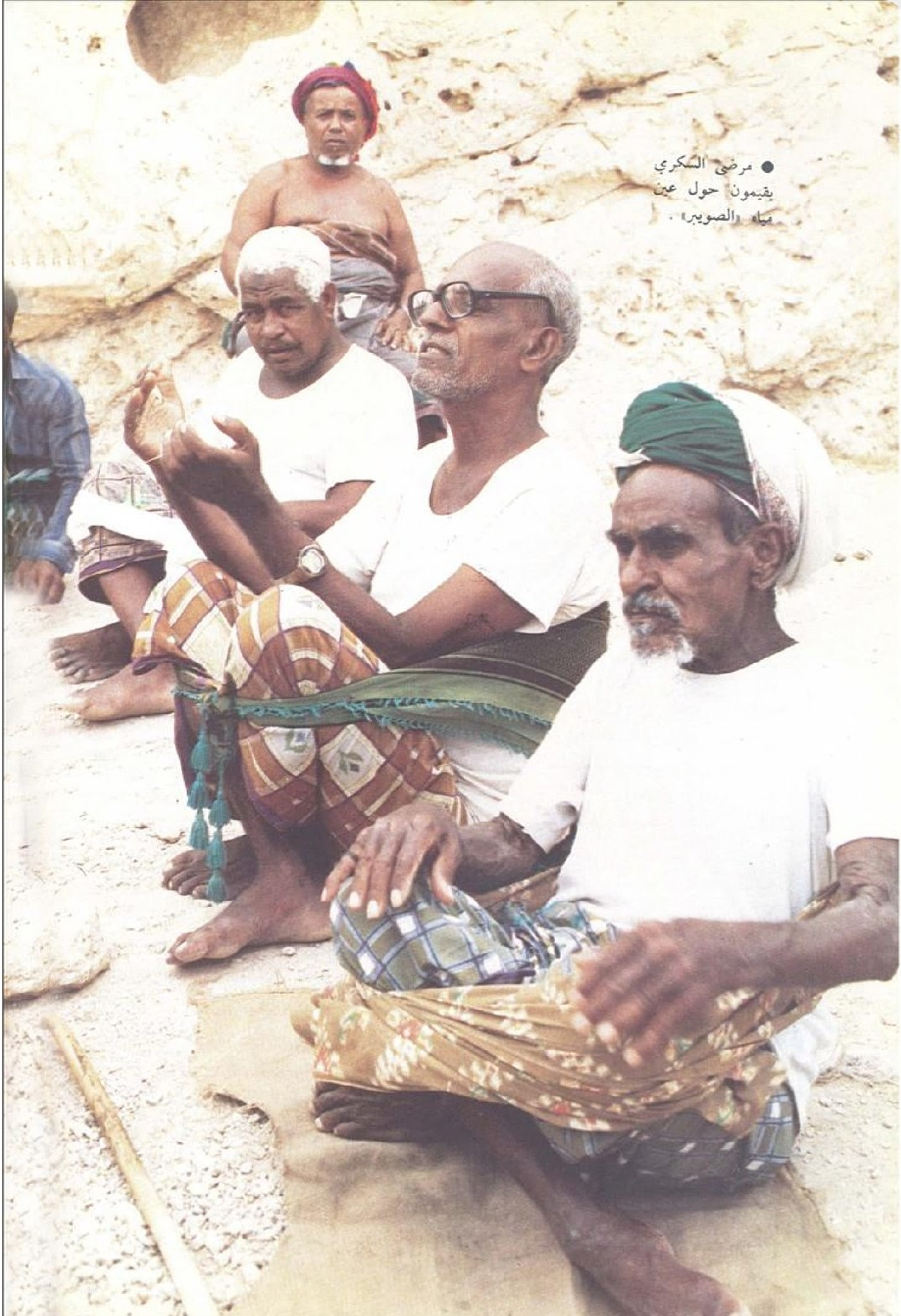
وعن المدينة وتاريخها يقول عبدالرحمن الملاحي ، ابن المدينة ، الباحث المتفرغ في مركز الأبحاث اليمني : (الشحر من المدن القديمة ، فقد سميت قديما « ميناء اللبان » ، لأنه كان يُصدَّر منها ، ونُسبَ الساحل الجنوبي إليها في كتب الرحالة القدماء ، حيث كانوا يطلقون عليه اسم « الساحل الشحري » ، وعندها ينتهي خليج عدن ويبدأ المحيط الهندي ، وكانت بذلك نقطة اتصال بين افريقيا وآسيا ، وكانت تتحكم في فترة رسو السفن ، خاصة في الخريف عندما تتحرك الكتل المائية إلى الشحر التي سماها ابن ماجد وسليمان المهري « زحون الشحر » . وموقعها قد جذب إليها الطامعين ، فقد غزاها البرتغاليون في عام ١٥٢٢ م ولكن أبناءها استبسلوا في الدفاع عنها ، وتمكنوا من صدهم عنها بعد أن استشهد سبعة منهم في معركة عنيفة . ونحن نحتفل بذكراهم كل عام . كما أن مدفنهم الجماعي أصبح مزارا سياحيا » .

علاج السكري بالمياه المعدنية

لم نصدق عندما قالوا لنا : إن هناك عين مياه معدنية ، تشفي من السكري في أربعين يوما ، ومن الأمراض الجلدية ، فذهبنا إلى هناك . « الصويبر » ، التابعة لمديرية « الشحر » التي تمتلىء بعيون المياه المعدنية . واحة من النخيل حول عين مياه ، في منطقة كانت تستخدم لإناخة الجمال ، ثم أدرك الناس قيمة مياهها العلاجية بالتجربة ، فأجرى تلفاز عدن استطلاعا مصورا عنها ، فتدافع إليها المرضى من أنحاء اليمن الجنوبي . تذوقنا المياه ، طعمها يشبه طعم المياه الغازية إلى حد ما ، نتيجة تشبعها بالكبريت - سألنا واحدا من المرضى ، طاعنا في السن ، وهو عبيد سالم من محافظة المهرة قال « أعاني من السكري منذ فترة ، وأثر ذلك على نظري بشدة ، وعندما شاهدت برنامج « جولة الكاميرا » حول هذا المنبع حضرت ومعي أشرطة اختبار السكر ، قبل استخدامي للمياه ، كان لون الشريط يصل إلى أقصى درجات ألوانه ، وبعد خمسة وعشرين يوما من إقامتي الكاملة ، تراجعت الدرجات إلى المستوى الثاني ، ومازال أمامي خمسة عشر يوما وينتهي السكري تماما .

ولقد قامت « أكاديمية » الطب في بلغاريا بتحليل مياه عيون المياه المعدنية المنتشرة في هذه المنطقة ، وأكدت نتائج التحليل قيمتها العلاجية العالية لكثير من الأمراض ، كالتهابات الكبد المزمنة ، وأمراض البنكرياس ، والروماتيزم ، والسمنة ، وأمراض الغدد الدهنية .

بقى أن نسأل ، لماذا لايقوم المستثمرون من المغتربين الحضارمة والعرب باستثمار هذه المنطقة سياحيا وعلاجيا ، إنها دعوة من المسئولين ، وهناك بانتظارهم الدراسة والتنفيذ .



● مرضى السكري يقيمون حول عين مياه «الصويبر».







● فلاحان من مزرعة الدولة ببور في قلب، حقل برسيم.
- إعداد الشاي على البخار، عدته كانت جزءا مهما من جهاز العروس في الوادي.
- المياه المعدنية في «الصويبر».

في جولتنا بالمدينة نشاهد بقايا السور الذي أقامه حولها القعيطيون بعد استيلائهم عليها عام ١٨٦٧ ، وقد بقي منه البوابة الشمالية « سدة العيدروس » ، وقد تم ترميمها بإشراف هيئة « اليونسكو » منذ سنوات قليلة ، وهي تجسد الفن المعماري اليمني القديم ،

كما شاهدنا التدمير الذي أحدثته سيول هذا العام ، حيث ارتفعت مياه الأمطار إلى ثلاثة أمتار في المناطق المستوية ، فانهار ٢١٧ منزلا انهيارا كاملا ، وتضرر ٢٠٧٥ منزلا مازال ترميم ما يصلح منها جاريا ، وعلى الرغم من اضرار السيول التي أدت إلى إشغال أبنية المدارس والأجهزة الحكومية بالسكان المتضررين فإن المدينة القديمة تواصل استمتاعها بالحياة ، ومصارعة أمواج البحر بحثا عن الرزق .

الوعي والمتعة

في أثناء جولتنا المسائية في شارع فرعي من شوارع حي « المكلا » ، جذب انتباهنا تدافع أعداد من الشباب باتجاه مكتبة عامة مجاورة لمسجد يغص برواده ، دفعنا الفضول لمتابعتهم ، فنحن في زمن ينحسر فيه الإقبال على الكتاب لصالح « التلفاز والفيديو » خاصة في دول العالم الثالث . وهنا يتدافع الشباب على مكتبة ، لماذا ؟

دخلناها ، روادها كثيرون ، منكبون على القراءة ، استطلعنا محتوياتها ، وهي كتب للتراث والفلسفة ، والآداب ، والأديان وغير ذلك من فروع المعرفة . حاورنا أمينها ، قال : تأسست المكتبة عام ١٩٤١ باسم « المكتبة السلطانية » ، تطورت بعد الاستقلال ، وتبدل اسمها إلى « المكتبة الشعبية » ، وهي الآن تعرف باسم مكتبة « الشهيد بامطرف » ، تخليدا لذكرى المؤرخ الحضرمي محمد عبدالقادر بامطرف ، المتوفى منذ عامين ، وصاحب المؤلفات والدراسات العديدة حول حضرموت وتاريخها .

وتحتوي المكتبة على ١١,٣٠٠ كتاب في مختلف فروع المعرفة ، عدا الدوريات ، والاستعارة عامة ، لكنها مقصورة على الذكور فقط ، لأن طبيعة المجتمع المحافظة لا تسمح للبنات ـ حتى الآن ـ بالاستعارة المباشرة منها .

إن إقبال الشباب على القراءة والثقافة الذي رصدنا مظاهر كثيرة له في مدن المحافظة ، يعكس رغبة دفينة لدى الانسان الحضرمي في ضرورة امتلاك الأدوات المعرفية التي تمكنه من تأكيد ذاته ، وتعويض آثار التجهيل المتعمد في مامضى ، ويتجلى ذلك في الاعتزاز بالتاريخ ، قديمه وحديثه ،والسعي لتدوينه . لكل مدينة مؤرخ من أبنائها يعرف دقائق تاريخها ومراحله في إطار تاريخ اليمن كله .

متاحف في المدن الرئيسية تضم آثارا مكتشفة من مختلف العصور ، مكتبات عامة وخاصة ، دوريات شهرية ومطبوعات متنوعة جادة ، تضم بين دفتيها إبداعات متدفقة في مجالات المعرفة ، فقيرة في الشكل والإخراج ، ولكن الرغبة المتشوقة للخروج من الشرنقة تبتكر وتبدع ، وتتغاضى عن متطلبات الشكل الأنيق كما يقول لنا أديب شاب . نشاط مكثف لفروع اتحاد الكتاب والأدباء اليمنيين الذي يوحد بين مبدعي اليمن بشطريه . في سيئون دُعينا لحضور الأمسية الأسبوعية لفرع الاتحاد في دار الأديب الراحل علي أحمد باكثير التي تحولت إلى متحف يضم مؤلفاته وآثاره ، كان الموضوع « من مفكرة الخامس من يونيو . النثرية والشعرية » ، وكان ذلك في بداية شهر حزيران « يونيو » . حضور كثيف ، متعدد الأجيال ، نجلس على الأرض بينهم ، نسمع مناقشات ومداخلات واعية تمخض العقل وتثيره .

في « المكلا » استمتعنا بإلقاء شعراء شباب من الجنسين لقصائدهم التى تحلق في الآفاق الإنسانية الرحبة ، وتتوغل في حنايا الذات بهمومها الممزوجة بهموم الوطن والأمة العربية . وأيا كان مستواها فإنها تعبر عن وجدان مترع بالحيوية والثراء .

ونلتقي في « سيئون » بالمؤرخ عبدالقادر أحمد الصبان الذي نال وسام المؤرخ العربي في فبراير ١٩٨٩ ، من اتحاد المؤرخين العرب ، ووسام الآداب والفنون اليمني الجنوبي عام ١٩٨٨ . تجاوز الخامسة والسبعين من العمر ، ومازال يعمل مسئولا عن المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار ، بمديرية « سيئون » ، وله ٢٨ كتابا ، وهو يمثل نموذجا حيا لروح هذه المنطقة يقول « بدأت الكتابة بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين من عمري في البداية كتبت « المقال » ، وكنا ننسخه بخط اليد لعدم وجود مطابع لدينا ، رأست تحرير مجلة « زهرة الشباب » في سيئون قبل الاستقلال بزمن . سجنت في هذا القصر الذي نجلس فيه ـ قصر السلطان السابق في سيئون ـ في سنة ١٩٦٠ ، بعد أن ألقيت قصيدة بمناسبة المولد النبوي ، تعرضت فيها لحالنا المتردي آنذاك ، والآن أعكف على الكتابات التاريخية . وقد أهدانا بعضها .

وفي مدينة « تريم » زرنا مكتبتها الشهيرة المعروفة بمكتبة الأحقاف للمخطوطات

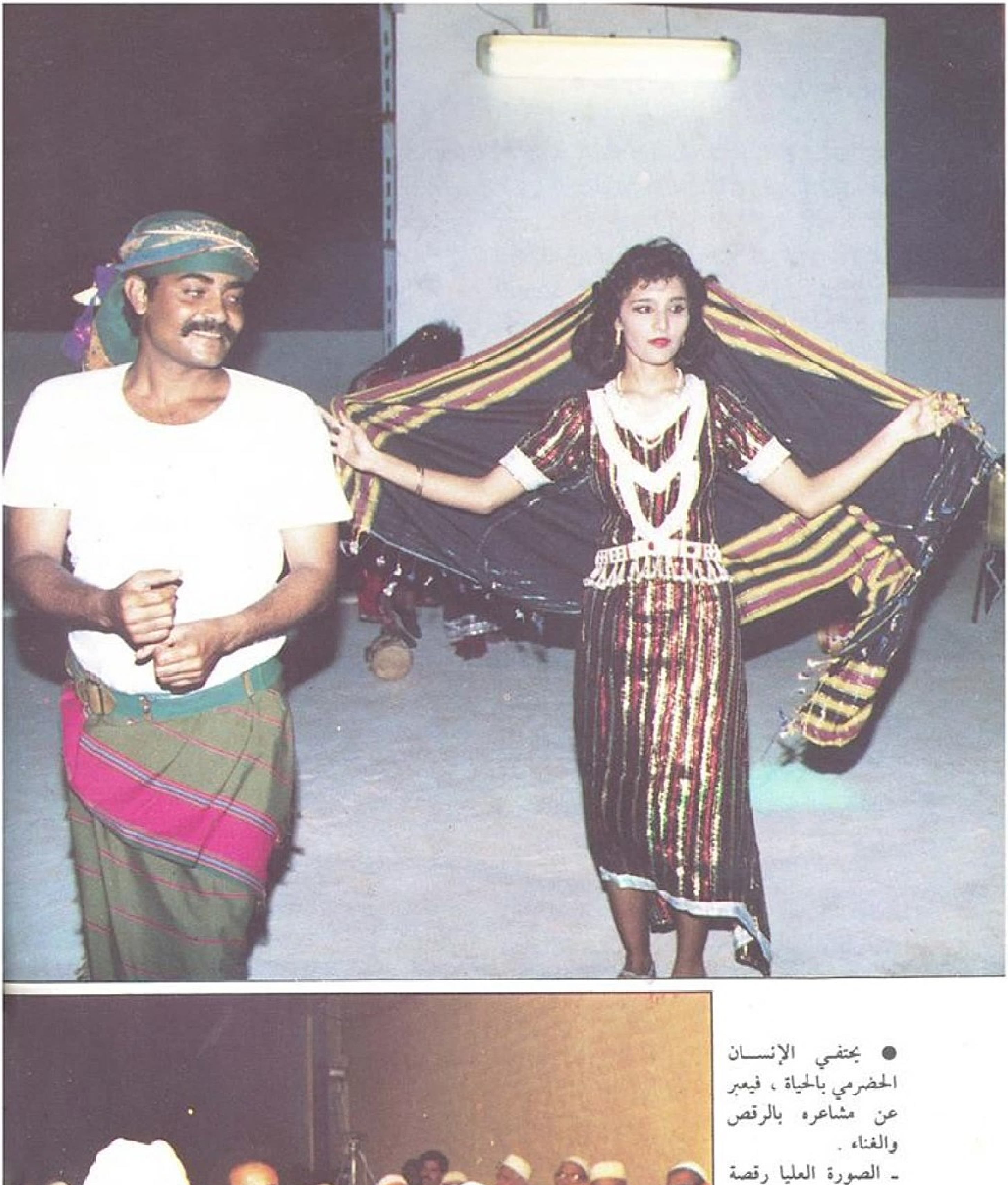
عمارة الطين

لايمكن لمن يزور وادي حضرموت ، ويتجول بين مدنه وقراه ، أن يمنع المتعة المصحوبة بالإعجاب من التسرب إلى نفسه ، وهو يشاهد نماذج العمارة المختلفة في المدن والقرى المتناثرة على جانبي الوادي التي تقام على منحدرات المرتفعات والجبال ، أو تلك الهاجعة في قلب مزارع النخيل وأشجار « العِلْب » ـ النبق ـ التي تنتشر بكثافة في الوادي وفروعه ، لأن النمط المعماري الذي تتميز به البيوت هو تجسيد لتفاعل الإنسان مع البيئة المحيطة عندما يستخدم إمكاناتها المتاحة ، وتوظيفها لتلبية احتياجاته ، وهي هنا الطين الذي يُخلط بأعواد القش (التبن) ، ويصنع منها الطوب (اللبن) الذي يطلى بالنورة ـ خلاصة الحجر الجيري ـ بعد بنائه ، وخشب أشجار « العِلْب » ـ ذات المكانة الأسطورية ، لقدمها واستخداماتها الاقتصادية المتنوعة-الذي يستخدم في السقوف والأعمدة والأبواب ، وليس كل طين يصلح للبناء ، لأن للطين الصالح أماكن محدّدة (كطين زِبْر) .

والاعجاب كذلك بابتكاره نظاما للتهوية والإضاءة ، يعتمد على توزيع الفتحات ـ نوافذ وفتحات تهوية ـ بكيفية تؤدي الى تخفيف حدة الحرارة في الصيف ، وترطيب الهواء .

والملفت للنظر تلك القيم الجمالية التي يخلقها التكوين المعماري الخارجي للبيوت ، الجامع بين تناغم ارتفاعاتها المتراوحة بين الطابقين والأربعة ، ورشاقة الخطوط وانطلاقها ، وتناسب مسطحات الفتحات للنوافذ والأبواب والتهوية مع المسطحات الكلية للحوائط . أو التنوع في ابتكار أشكال لنهايات حوائط السطوح . ويبرز هذا التكوين المعماري التشكيلات اللونية المبهجة ، المكونة من تناغم وتناسق في ألوان الطلاء المتنوعة للأسطح والحوائط والنوافذ التي يغلب عليها اللون الأبيض المتداخل مع اللون الطيني . ألوان ناصعة مبهجة ، تبدو بها البيوت كالصبايا المقبلات على أعراسهن .

وعلى الرغم من أن هذا النمط يشيع في الوادي كله ، فقد لاحظنا بعض التمايزات للمدن عن القرى ، وكل مدينة عن الأخرى ،





● يحتفي الإنسان الحضرمي بالحياة ، فيعبر عن مشاعره بالرقص والغناء .

- الصورة العليا رقصة شعبية تؤديها فرقة حضرموت للرقص .

- الحناء للشاب ليلة عرسه (في سيئون) .



● يقال عن المرأة في الوادي : إنها «رجل ونصف» ، لأنها تقوم بأعمال الرجل في الزراعة (الصورة العليا) ، وفي اليمين يصنعن نماذج خشبية للعمارة اليمنية في وحدة إنتاجية بالشحر .



فالمستوى الاقتصادي لسكان المدن انعكس على عماراتهم ، بحيث تعددت فيها القصور ، وارتفعت الطوابق ، وتلاصقت ، وبرزت تأثيرات ثقافات المهاجر وفنونها ، خاصة الاندونسية والماليزية في « تريم » « وسيئون » ، والهندية في « المكلا » ، وإن بدأت هذه الظاهرة تختفي نتيجة العودة الجماعية للمغتربين ، ولارتفاع المستوى الثقافي العام مع انتشار التعليم بقيمه الجديدة .

وعند اختراقنا للوادي في طريقنا من « سيئون » إلى « المكلا » ، جذب انتباهنا بعض الظواهر التي بدت نشازا في سياق تشكيلة الوادي المعماري ، كزحف « الخرسانة » المسلحة كمادة بناء ، بدلا من الطين

وعندما ناقشنا المسئولين بالمحافظة حولها قالوا : « إن هذه الظاهرة لن تستمر طويلا ، لأن المكتب التنفيذي للمحافظة أصدر توجيها بالحد من استخدام هذه المواد داخل الوادي ، إلا في أساسات البيوت فقط ، لأن تجربة السيول هذا العام فرضت استخدامه في الأساسات كي تحميها من الانهيار ، بالإضافة إلى أن المباني « الخرسانية » لا تلائم الجو الحار في الوادي ، إلا إذا استخدمت مكيفات الهواء ، وأسعار الطاقة الكهربائية العالية تحول دون انتشارها ، ثم إننا نريد الحفاظ على طابع الوادي على الرغم من أنه يسبب لنا المشاكل في حالة السيول . وعموما فنحن نستخدم « النورة » في الطلاء حتى نتلافى تأثير الأمطار على المباني الطينية . »

« شيبام » تنادي

وإذا كان الوادي يمتلىء بالشواهد الأثرية التي تكشف عن أنماط الحياة وأبعادها في مختلف العصور التاريخية ، كالقلاع المقامة على المرتفعات ، أو المدن المطمورة في جوانب الوادي التي اكتشف بعضها بعثات التنقيب السوفيتية اليمنية المشتركة أو الفرنسية ، أو اللوحات الجدارية التي تحمل حروف « الخط المسند » الذي يعده بعض المؤرخين أساس الكتابة العربية ، إلا أن مدينة « شيبام » تنتصب وحدها في قلب الوادي ، كشاهد على إبداعات « حضارة الطين » التي تصارع الأجيال الحالية ضد تعرضها لخطر الهدم ، أو الضياع في ثنايا الزمن .

و« شيبام » التي يقول عنها نداء هيئة اليونسكو للعالم في ديسمبر ١٩٨٤ : « بأنها من أكمل الشواهد على ما بلغه الفن والهندسة المعمارية ، فهي تبهر المسافر الذي يكتشفها فجأة ، بعد أن يكون قد عبر هضبة صحراوية ضخمة ، إذ تتراءى له منبثقة في أعماق واد أخضر ، وسط غابة من النخيل ، منطلقة برشاقة نحو السماء ، وتتكون المدينة من أبراج عالية من سبعة أدوار أو ثمانية ، متراصة ، متلاصقة » .

ولقد شهدت المدينة خلال العقود القليلة الماضية ، ظهور أنماط جديدة من المساكن الحديثة ، غير أنها نجحت في إقامة التوازن الدقيق بين مساحتها وعدد سكانها ، بين ماضيها وحاضرها . هذا التوازن الذي يحافظ على هويتها . على أن الوادي بكامله ، وعاصمته الرائعة ، قد أصبحا مهددين بالخطر ، نتيجة الأثر المشترك للسيول والفيضانات المدمرة ، وقد جرفت الفيضانات خلال السنوات الأخيرة جزءاً من سد « موزا » الذي يقع في الشمال ، على مقربة المدينة ، وأزالت فيضانات هذا العام « سد الموزع » الذي بني منذ القرن العاشر الميلادي » وعند زيارتنا للمدينة التي تتكون من خمسمائة بيت ، يسكنها الآن عشرة آلاف نسمة ، وبعض بيوتها عمره الآن ٥٠٠ عام ، شاهدنا التشققات في بعض البيوت من جراء الأمطار .

وقد تبنت اليونسكو عام ١٩٨٤ مشروع حماية « شيبام » من خلال حملة دولية ، تسعى إلى ترميم الآثار والمواقع ذات القيمة التاريخية والثقافية والطبيعية الموجودة في وادي حضرموت وصيانتها ، وبوجه خاص التراث المعماري لمدينة « شيبام » .

وعلى الرغم من نداء اليونسكو الموجه إلى العالم فإن المساهمة ماتزال محدودة ، والأعمال التي تتم تتحملها حكومة اليمن الديمقراطي ، والمطلوب لحماية المدينة ، وتحريك السياحة فيها ، كما قال الاستاذ عبدالله الحويزى ، مسئول تنسيق الحملة مع اليونسكو ، هو ١٣٠ مليون دولار فقط . قلنا ونحن نغادر « شيبام » : وهل عسير على أبناء الوطن العربي تدبير هذا المبلغ لحماية هذه المدينة الفريدة ؟

الزراعة هى الأصل

واصلنا رحلتنا في أنحاء الوادي نتابع وجوه الحياة المتعددة فيه ، ويستكمل مرافقنا معلوماته عن الوادي : « يصل عرض الوادي في أجزائه الشمالية الغربية من ١٥ - ٢٠ كيلو متراً ، وينتهي في الشرق عند سيحوت بكيلومتر واحد ، وبه عدد من الأودية الفرعية . ونشاط السكان الرئيس هو الزراعة ، ومحاصيله هي القمح والذرة العويجة والخضراوات و التمور .

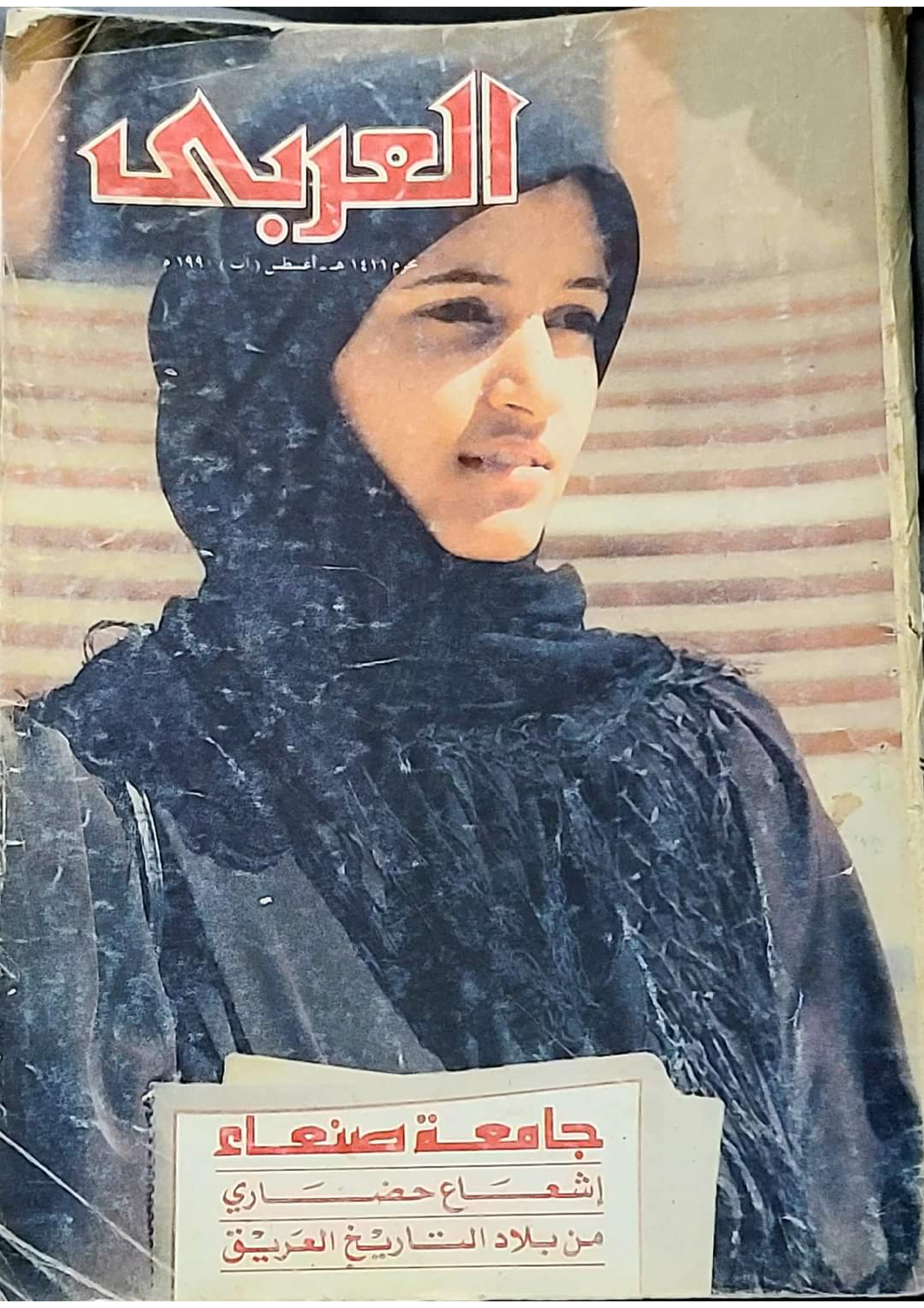
ويمسك خيط الحديث منه ، المهندس الزراعي ، صالح عوض ، فيقول : إن المساحة الصالحة في الوادي زادت من ٣٪ من المساحة الكلية لحضرموت عام ١٩٧٣ إلى ٥,٥٪ عام ١٩٨٦ ، وتطورت المساحة المزروعة فعلاً من ١,٪ عام ٧٣ إلى ٣,٣٪ عام ١٩٨٦ ، والزراعةفي الوادي تتم وفق أنماط ثلاثة: مزارع تعاونية ، دولة ، ملكية خاصة . وبالوادي ١١ مزرعة تعاونية ، وعشر مزارع دولة . وهناك مشروعات لتطوير الزراعة في الوادي : الأول مشروع وادي حضرموت الزراعي ، وقد اكتملت المرحلة الأولى والثانية منه ، بتكاليف ٤٢ مليون دولار ، واستهدفت المرحلة الأولى إعداد البنية التحتية (شق طرق وقنوات) ، وإنشاء وحدة لتعبئة التمور ، وتأسيس جهاز للإرشاد الزراعي ، ثم إنشاء ١٥٠ هكتاراً كمزارع نموذجية .

والمرحلة الثانية إعداد ٣٣٦٠ هكتاراً للزراعة ، وأنجز ذلك بالفعل عام ١٩٨٨ ، وإعداد ٥٦ بئراً ارتوازية ، ولقد استخدمت طرق جديدة للري في هذه المساحات ، للحد من مفقود المياه ، فيتم ري ٦٠ هكتاراً بالرش والتنقيط ، و٥٠ هكتاراً بالأنابيب بدلا من القنوات ، كما كان متبعا بالطريقة التقليدية . كما تم حماية الوادي الرئيسي بإقامة ١٣ مسقطاً مائياً (مضالع) لتهدئة سرعة مياه الأمطار ، وتدرجها ، خاصة في وادي « عِدِم » « والمسيلة » ، وتم تهذيب شبكة (الري من مياه السيول) في منطقة « تريم » ، كما أدخلت الآليات الزراعية في مراحل البذر والحرث والحصاد .

والمشروع الثاني يتم بالاشتراك مع الاتحاد السوفيتي ، حيث يتم استطلاح أراض جديدة ، على مساحة ٧٠٠٠ فدان ، تم توزيعها على ثماني مزارع دولة ، تتراوح مساحة المزرعة من ٦٠٠ - ١١٠٠ فدان .

وفي قرية « بور » التابعة لمديرية « سيئون » زرنا مزرعة الدولة التي تأسست عام ١٩٧٤ ، وتنتج القمح والذرة الرفيعة والخضراوات . مساحة المزرعة الكلية ٧٦٣ فدانا ، المزروع منها ٦٥٤ فدانا ، والباقي قنوات ومنافع عامة .

ونترك المزارعين يمهدون الأرض ، ويبعثون الحياة في قلب الوادي الذي قامت فيه حضارة متميزة ، شغلت حيزا مهما من مساحة الزمن العربي ، عساهم أن يعيدوا مجدها ، أو يحموا آثارها من الاندثار . □


العربي
رم ١٤١١ هـ - أغسطس (آب) ١٩٩٠ م
جامعة صنعاء
إشعاع حضاري
من بلاد التاريخ العريق

AL-ARABI

العربي

September 1997

ربيع الآخر ١٤١٨هـ - سبتمبر (أيلول) ١٩٩٧م

■ سراييفو.. استنفار الذاكرة

■ حركات الإسلام السياسي المعاصرة

■ افترقوا على الأرض والتقوا في الفضاء

■ مفاتيح اليمن



مفاتيح اليمن

بواسطة شوقي رافع | استطلاعات | العدد ٤٦٦

مفاتيح اليمن


مفاتيح اليمن

أسأل الدكتور عبدالكريم الإرياني نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية في اليمن عن القبيلة, فيقول: القبيلة واقع. من أجل تغيير هذا الواقع لابد أن تعترف به أولاً. الرئىس الصومالي السابق سياد بري صنع 21 تابوتاً, وأمر بحفر 21 قبراً, ثم جمع زعماء القبائل, وأمر بدفن التوابيت في القبور, وهلل الجميع, قالوا: اليوم دفنا القبيلة, ولكن ما يجري في الصومال اليوم هو أن القبيلة تدفن الجميع. يقول الإرياني أيضاً: القبلية لاتقتصر على اليمن وحدها, فمن المغرب العربي إلى الجزيرة العربية, مروراً بصعيد مصر والأردن والعراق تتواجد القبائل بقوة. ثم يضيف بغموض: إن قبيلة واحدة تحكم 3 دول عربية.


إحدى الساحات بالعصامة اليمنية صنعاء حيث تبدو بعض معالم العمارة اليمنية المميزة

وأسأل نائب رئيس الجمهورية في اليمن عبدربه منصور هادي عن القات, فيشير إلى أن حكومة محسن العيني في السبعينيات سقطت, ومنع القات كان من بين أسباب سقوطها, ويروي أن الحزب الاشتراكي عندما كان يحكم في جنوب اليمن منع دخول القات إلى عدن وبقية المدن خمسة أيام في الأسبوع وأباحه يومي الخميس والجمعة, ولكن عندما زار الأمين العام للحزب عبدالفتاح إسماعيل منطقة الضالع حيث يزرع القات, استقبله الفلاحون بهتاف واحد: يا إسماعيل يا كهنوت.. الغرسة تحيا وأنت تموت).

ويروي نائب الرئيس أيضا أن زراعة القات تساعد على تدوير الأموال بين الريف والمدينة, وتحفظ بالتالي بعض التوازن, فالمنازل في الأرياف من صنعاء وحتى عدن لاتكاد تختلف عن المنازل في العاصمة, لأن معظم الأموال التي يتم تداولها في سوق القات تعود إلى الفلاحين. ويقدر نائب الرئىس اليمني حجم التداول بأنه يصل إلى 400 مليون ريال يمني يومياً, بينما ترفع مصادر أخرى في الجنوب هذا الرقم ليصل إلى مليار ريال. (الدولار يساوي 120 ريالاً بالسعر والرسمي 127 ريالاً في السوق السوداء).

وفي اليمن (السلاح زينة الرجال) وكانت العبارة تنسب إلى الإمام موسى الصدر, أطلقها في بداية الحرب الأهلية في منتصف السبعينيات في لبنان ولكن العبارة يمنية, كما يؤكد شيخ مشايخ (حاشد) عبدالله ابن حسين الأحمر رئيس البرلمان اليمني. وفي الطريق إلى قصر الشيخ في بلدة (خمر) تعرف معنى العبارة ميدانياً, فالمدينة غابة من السلاح, يحمله ابن الثانية عشرة من دون مباهاة, وعندما أسأل الشاب مذحج ابن عبدالله الأحمر, مازحاً, إذا كان يعرف استخدام قاذفة (الأر. بي . جي) المعتادة للدروع, يرد بابتسامة: حتى الفتيات عندما يخرجن للرعي فإنهن يحملن الكلاشينكوف), وليس في العالم كله فندق من فئة خمس نجوم يضع على مدخل بوابته لافتة تقول: (ممنوع الدخول بالأسلحة النارية), ولكن فندق الشيراتون في صنعاء يفعل ذلك, وعندما أشير إلى رجل يكشف عن مسدسه الذي يجاور الخنجر اليماني (الجنبية) على وسطه, يقول مدير الفندق اللبناني مازحاً: (ولكنه مسدس فحسب).



سوق الملح في صنعاء, زحام وبضائع

أما بوابة اليمن فهي ديمقراطية عملية الواقع فيها أغنى من أي شعار, في اليوم الأول لوصول الوفود الإعلامية, دخل علينا في الفندق شاب طلب من مندوب وزارة الإعلام أن يلتقي بالإعلاميين. مندوب الوزارة اتصل بنا في الغرفة, فالتقينا الشاب في بهو الفندق, قال: إن المعارضة المقاطعة للانتخابات النيابية سوف تعقد مؤتمراً صحافياً في مقر رابطة أبناء اليمن في مساء ذلك اليوم. وفي المؤتمر سوف يتحدث مندوبون عن الأحزاب الخمسة المعارضة. وفي المساء جهزت لنا وزارة الإعلام السيارات, انتقلنا إلى مقر المعارضة, وسمعنا كلاماً من نوع: إن وحدة اليمن ليست شرعية. هل هي دعوة لفصل الشطرين مجددا? سأل أحدهم, وجاء الجواب: الانفصال أفضل من الهيمنة غير الشرعية. ولعل كلاماً من هذا النوع في أي بلد عربي يدخل في باب الخيانة والدعوة إلى تعليق المشانق, مع ذلك, خرج رجال الإعلام من مقر الرابطة إلى المركز الإعلامي الرسمي, أملوا رسائلهم كتابة وتسجيلاً, وقاموا بإرسالها إلى مؤسساتهم.. وبعد يومين كنا نشاهد على شاشة التلفزيون الرسمي مهرجاناً للمعارضة في حضرموت, يدعو إلى مقاطعة الانتخابات (المزورة مسبقاً).



صفوف الواقفين في انتظار دورهم للمشاركة في عملية الإدلاء بالأصوات



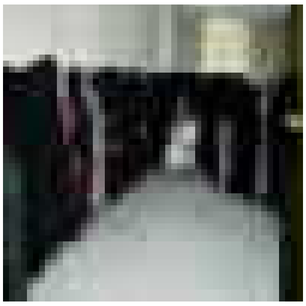
صناديق الانتخابات هي المحك الرئيسي للاختيار الشعبي

الانتخابات اليمنية كانت حرة ونزيهة, بهذه العبارة أنهت لجنة المراقبين الدوليين تقريرها.

وعلى خطوط التماس بين القبيلة والقات والسلاح كانت أرض اليمن تفتح بوابتها على اتساعها للديمقراطية. كيف?

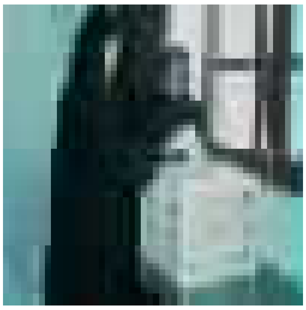
ثيران الهجر وقضاء الدولة

يضحك محدثي اليمني وهو يروي أن دبلوماسياً ألمانياً كان يقود سيارته خارج العاصمة صنعاء عندما صدم طفلاً كان يحاول عبور الطريق أمام السيارة, فحمله الدبلوماسي إلى المستشفى مع مرافقين من قبيلة بني مطر التي ينتمي إليها الطفل. وبعد أن اطمأن عليه تركه في المستشفى ليعود اليوم التالي إلى موطن القبيلة وخلفه شاحنة تحمل ثورين. وكان الدبلوماسي يسعى إلى المصالحة بينه وبين أهل الطفل على الطريقة القبلية, حيث يتم ذبح ثورين, أو ما يسمي (الهجر) كبطاقة اعتماد للمصالحة, يمكن أن تقبل أو ترفض.



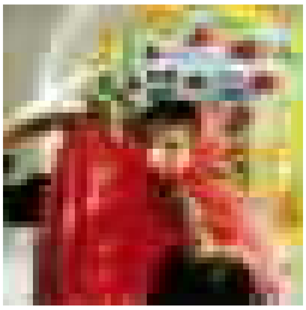
[المرأة سوف يصبح لها ثقل سياسي في الحياة اليمنية]

وهذه المصالحة بين الدبلوماسية والقبلية هي جزء من المصالحة بين الدولة والقبيلة. وتنسب إلى الدكتور عبدالكريم الإرياني عبارة تقول: (ذبحت الدولة يوم ذبحت الثيران), وقد أطلقها قبل 3 سنوات, عندما قامت الدولة اليمنية بكل أركانها, برعاية مصالحة تاريخية بين رئيس الوزراء السابق والسفير الحالي الدكتور حسن مكي وبين شيخ مشايخ قبائل (بكيل) ناجي عبدالعزيز الشايف, وكان الشايف أبرز المتهمين بمحاولة اغتيال الدكتور مكي التي ذهب ضحيتها ثلاثة من حراس الدكتور الشخصيين.



[المرأة سوف يصبح لها ثقل سياسي في الحياة اليمنية]

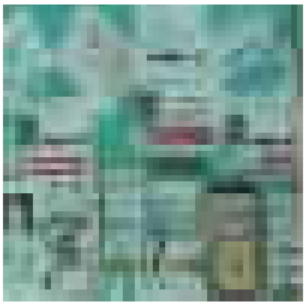
ولم ينف الدكتور الإرياني نسبة العبارة إليه, ومع أنه يوجز في الإجابة عن حكم القبائل سواء بالجزيرة العربية ودول الخليج مروراً بالعراق وصولاً إلى المغرب, إلا أن وزير التخطيط والتنمية عبد القادر باجمال يكشف في هذا السياق أن القبيلة يمكن أن تلعب دوراً في خدمة الديمقراطية, فيشير إلى أن التعددية بين القبائل تمنع الهيمنة وتحقق نوعاً من توازن القوى. كما أن اللعب بقيم القبيلة يمكن أن يرتد على صاحبه. ويروي النائب عن حضرموت الدكتور سعد الدين علي سالم بن طالب أنه تنافس مع سبعة مرشحين كلهم من قبيلته (الكثيري). وأن أربعة بينهم كانوا من الفخذ نفسه (ابن طالب). ولكن واحداً منهم حاول أن يستنفر قيم القبيلة إلى أقصاها وتحول إلى ما يسمى (القبيلي البشع) وكانت النتيجة أن القبيلة منحت أصواتها للدكتور سعد الدين باعتباره البديل العصري عن ذلك القبيلي البشع.



[فتاة يمنية على خلفية من الزجاج الملون وابتسامة أمل في الغد]

وفي مجلس الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر شيخ مشايخ (حاشد) يتشعب الحديث عن (أمهات) القبائل: حاشد وبكيل ومذحج. ويشير عائد صالح, وهو المقاول الذي بنى قصر الشيخ الأحمر في خمر, إلى جانب من النظام القبلي المعقد والمحكم, فيروي أن قبيلتي العصيمات وعذر كانتا وعلى مدى 15 عاماً تتقاتلان, وسقط بينهما ما يزيد على 200 قتيل. ولكن القبيلتين عندما تخرجان من (بلادهما) كانتا تقاتلان معاً ضد القبيلة الثالثة.

يقول صالح: (القبيلة هي نظام وليست فوضى كما يعتقد كثيرون).


ملصقات المرشحين كلها تحمل الوعود الفياضة

الشيخ عبدالله الأحمر الذي أمضى في أيام الإمام وأسرة حميد الدين ثلاث سنوات في السجن, يروي في كتاب (الوحدة اليمنية) أن القبائل في اليمن ثلاثة أقسام: الحميدية وهي أكبر القبائل اليمنية, ومذحج وقبائل همدان بن زيد وتضم حاشد وبكيل, وكل القبائل اليمنية تنتمي إلى الأقسام الثلاثة السابقة ما عدا قلة وهم الهاشميون المنتمون إلى علي بن أبي طالب وهم موزعون في اليمن ولهم منزلتهم). ويشير الأحمر إلى (أن القبائل في اليمن حضارية ولا تقاس بالعشائرية في البلاد الأخرى).

ويؤكد الشيخ الأحمر: (عندما قامت ثورة 1962 نزل ضباط الجيش ومشايخ القبائل بالدبابات جنباً إلى جنب يدكون قصور الإمام.. وكانت كل دبابة تحمل عدداً من الضباط وعدداً من المشايخ وكان كل يؤدي دوره).


القات..إلى متى يظل الإنسان اليمني معتمداً عليه؟

هذا التحالف بين القبيلة والجيش لعله مازال مستمراً منذ الثورة, ولعل قبول حزب المؤتمر الذي حقق أغلبية مريحة بالانتخابات الأخيرة أن (ينتخب) الشيخ عبدالله الأحمر, وهو رئيس حزب الإصلاح المعارض, رئيسا للبرلمان, يكشف عن جانب من تراث هذا التحالف, الشيخ الأحمر هو شيخ مشايخ حاشد هذا هو العنوان والباقي تفاصيل.

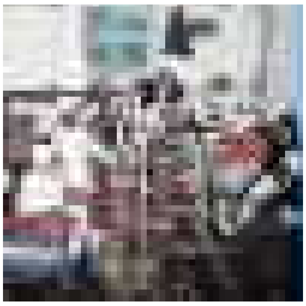
ولكن الحزب الاشتراكي في الجنوب نجح خلال فترة حكمه في ضرب النفوذ القبلي) أقولها للدكتور الإرياني, ويرد ساخراً: عندما رفع الغطاء فإن ما ظهر كان أشد النزاعات القبلية بشاعة وبؤساً. ويضيف الإرياني: الديمقراطية اليمنية هي حركة تغيير, الديمقراطية عندما تقترن بالواقع القبلي فإنها تسعى إلى تغييره).


حتى العجائز شاركن في الانتخابات

رئيس الدائرة السياسية في حزب (الإصلاح) أحمد محمد قحطان يؤكد هذه الحقيقة بدوره, يقول في مؤتمر صحافي شارك فيه الوزير السابق عبد الله الأكوع: (من المؤسف أن نكتشف في اليمن اليوم أنه ليس لدينا دولة ولا إدارة ولا قضاء وأن 80% من أصحاب القضايا يحاولون حل قضاياهم خارج القضاء التقليدي). أي عبر نيران الهجر.

قد يكون هذا صحيحاً, ولكن عندما أقول للشيخ عبد الله الأحمر: الأمين العام المساعد لحزب الإصلاح عبد الملك منصور ـ وزير الثقافة والسياحة حالياً ـ يتهمك وحزب الإصلاح بنهب المال العام والانتهازية والابتزاز) يرد الشيخ الأحمر بغضب مكتوم: إنه انتهازي وسوف أقاضيه)

وهذه العبارة (سوف أقاضيه) تنتمي إلى الدولة وليس إلى القبيلة.



مع القات تكون النرجيلة وشرب الشاي والماء البارد ويمتد مجلس القات إلى ساعات طويلة

القات.. قنبلة

تهبط يومياً في مطار جيبوتي طائرة يسميها أهالي جيبوتي (العروسة) وهي تحمل القات من أثيوبيا. حمولة العروسة تتوزع فوراً على عشرات الشاحنات. وتبدأ المدينة بعد الغداء قيلولتها العذبة.

وكانت اليمن تستورد القات من أثيوبيا بالطائرة ولكنها اليوم تحقق اكتفاء ذاتياً, بل وتقوم بالتصدير أحياناً, اليمن لاتحتاج إلى العروسة بعد اليوم.

يا أخي يحيى.. هل تخزن القات يومياً؟) أسأل السائق في الضيافة وهو عقيد سابق, فيرد: لا. في أيام العطلة أتوقف عن التخزين), ويعتقد يحيى أن تخزين القات يساعده على التركيز أثناء قيادة السيارة, وهو عندما يتوقف أمام شرطي السير في العاصمة يسارع إلى تناول أغصان من باقة القات إلى جانبه يدفعها إلى الشرطي تعبيراً عن التواصل في مهنة القيادة وتنظيم السير.

هل القات مخدر؟

الدكتور أبوبكر عبد الله القربي استاذ علم الأمراض بكلية الطب جامعة صنعاء, يرد: (من المؤسف أن يعمل بعض الناس على إثارة هذا الجانب بأسلوب غير علمي لأنه من المؤكد أن أكثر العناصر الموجودة في القات هي العناصر المنبهة والدلائل كثيرة على مدى اليقظة التي يحس بها ماضغ القات, فيقوم بالعديد من الأعمال المكتبية والفنية والإنشائية وغيرها وهو ماضغ للقات).

ومع ذلك, فإن الدكتور القربي, يستدرك في دراسته عن الآثار الصحية للقات, فيقول: (إن للقات آثاراً صحية سلبية تتطلب وقفة جادة أمامها. وتجدر الإشارة أن هناك فترة زمنية قد تطول أحياناً قبل ظهور هذه الآثار الخطرة, فمثلاً سرطان الرئة عند المدخنين يحتاج إلى ما يقارب عشرين سنة من التدخين قبل ظهور أعراضه).

وينتهي الدكتور القربي إلى التأكيد على (أننا يجب أن نولي القات أهمية خاصة وأن نعيد تفعيل مركز بحوث القات الذي كان لي شرف إنشائه عام 1982 والذي من خلاله تمت العديد من الدراسات العلمية ولكنه توقف عن أداء دوره نتيجة عدم توافر الدعم المادي له والأمل أن نعمل جميعاً على تكثيف الدراسات

حول القات لأنه يمثل قنبلة تهدد المجتمع ونحن في غفلة أو تغافل عنها).

الدكتور عبدالكريم الإرياني يقاطعني بحدة عندما أسأله عن أسباب غياب مشكلة القات عن برامج الأحزاب السياسية, بما فيها حزب المؤتمر الحاكم, وكأن القات ليس مشكلة, يقول:(القات مشكلة ولكنها لاتخضع لعنوان. إنها بحاجة لدراسة اقتصادية اجتماعية وطبية. هناك دراسات كثيرة تجمعت الآن من جامعة صنعاء, ومن منظمة الصحة العالمية ومن خلالها نستطيع أن نتعامل مع منظمات دولية لطرح حلول).

ويقول عن تقنين القات أيام حكم الحزب الاشتراكي في جنوب اليمن, حيث منع دخوله المدن باستثناء يومي الخميس والجمعة: صحيح كانوا يقننون تعاطي القات ولكنهم كانوا يخرجون عشرة كيلو مترات خارج عدن ويخزنون) وعندما أقول لنائب رئىس الوزراء ووزير الخارجية إن حقول القات تنتشر بكثرة خارج صنعاء, يرد: إن زراعة القات مربحة جداً اليوم ولكنها لم تمنع زراعة الخضار والفاكهة, لقد كنا في إحدى السنوات نستورد ما قيمته 300 مليون دولار من الفواكه والخضار, ولكننا اليوم لانستورد بل نصدر.

بل هو قوت الصالحين!

القات في اليمن ارتبط أساساً بالصوفيين الذين استعانوا به لقيام الليل والتعبدلما يحتويه من مواد منشطة, ويضيف الباحث التونسي عبد الله على الزلب في دراسة عن (ثقافة القات) فيقول: (وقد ساهم استهلاك القات من قبل النخب السياسية والدينية والاجتماعية في انتشاره وإضفاء دلالات دينية على استهلاكه, فيقال إنه (قوت الصالحين) فهو يساعد المخزن على التأمل والسهر والتعبد!).

صديقي من وزارة الإعلام في اليمن كان يدفعني دفعا للقاء مع السائق حسن عبدالله الحمامي. قال إن هذا السائق هو ظاهرة تستحق الكتابة عنها. سألته: لماذا? قال: (إنه لايخزن. هو تائب). الحمامي قال إنه مارس التخزين مدة 30 سنة, تزوج مرتين وأنجب 51 ولداً, ثم: (قررت أن أتوقف, القات ذبحني هنا وهنا) وأشار إلى معدته وإلى جيبه. قال: (كان راتبي 8 آلاف ريال, كنت أشتري الربطة من القات يومياً بعشرة ريالات, يعني 300 ريال في الشهر, ولكن منذ عام 75 بدأت الأسعار بالارتفاع صار ثمن الربطة الواحدة 300 ريال من النوع الرديءو 2000 من النوع الجيد. لم يعد الراتب يكفي لشراء القات, فكيف بالصرف على زوجتين و15 ولداً?].

ويضيف: (ثم جاءتني القرحة, فأقسمت ألا يدخل القات بيتي).

السائق الحمامي ربما يبدو ظاهرة, فالكثيرون يخزنون, وليس البلوغ شرطاً للتخزين بل هناك من هو في العاشرة من عمره ويدفع بكرة القات في أقصى فكه عدة سنتيمترات فيبدو أن أنفاً طويلاً نبت في خده, كما أن التخزين في المدن انتقل إلى مجالس النساء, وبات من الطقوس المتعارف عليها في حفلات الزواج, وهذه تستمر أسبوعين أحياناً, وفي زيارات التعازي بالأموات.

ـ هل تعتقد أن في اليمن مشكلة اسمها القات?

أسأل نائب رئيس الجمهورية عبدربه منصور هادي, فيجيب:(نحن نعتبرها من السلبيات لكننا لانستطيع أن نتعامل معها بحلول جاهزة, إنها تحتاج إلى بدائل. القات سلبي فعلاً ولكنه أخف ضرراً من المخدرات, ثم إنه منتج محلياً).

ويقدر نائب رئىس الجمهورية أن اليمنيين يتداولون يومياً مبلغ 400 مليون ريال في تجارة القات, وعما إذا كانت هناك حلول مطروحة للخلاص من هذه السلبية, يقول: (نحن الآن نعيش مرحلة الديمقراطية وحرية الصحافة والإعلام, وسنترك لها أن تطرح هذه السلبيات وأن تحاول علاجها عبر التوعية أولاً).

ويؤكد نائب الرئيس اليمني: (إن القات يبقى أقل سوءاً من التدخين, عندما يخرج اليمني من اليمن فهو لايشعر بأنه يحتاج إلى القات, وهذا يدل على أن القات ليس مخدراً) أي أنه لايؤدي إلى الإدمان.

في حديث المسئولين وأيضا في حديث الناس يبدو أن القات مازال مسألة ملتبسة في أحسن الأحوال, فهو (سلبية, ومشكلة تحتاج إلى دراسات وهو أقل ضرراً من التدخين ولا يعد مخدراً وهو قوت الصالحين). وهو في الوقت نفسه قنبلة. كيف? لعل بعض الأرقام توضح هذا الالتباس.

الدكتور علي علي صالح الزبيدي رئىس قسم الاقتصاد في كلية التجارة جامعة صنعاء يكشف في دراسة ميدانية موثقة وممتعة الأرقام التالية ـ وفق إحصاءات عام 1995 ـ تبلغ المساحة المزروعة من البن ـ وهو من المحاصيل النقدية ـ 24 ألفاً و 804 هكتارات, أما المساحة المزروعة من القات فهي تصل إلى 97 ألفاً و 20 هكتاراً, أي ثلاثة أضعاف البن تقريباً.

توضح الدراسة أن كل شجرة قات تنتج ربطة واحدة في السنة, وأن الهكتار الواحد ينتج 2322 ربطة سنوياً, وأن سعر الربطة هو 200 ريال, وأن قيمة الإنتاج الإجمالي من محصول القات بسعر المنتج تصل إلى 33 مليارا و 386 مليون ريال سنوياً.

وتستنتج الدراسة: أن الدخل المحلي من القات يشكل ثلث الناتج الزراعي تقريباً وواحداً إلى عشرة من مجموع الناتج المحلي كله. وأن اليمن يفقد بين 4 إلى 6 ساعات يومياً من ساعات الإنتاج في شراء وتخزين القات, وأن مجموع الفاقد من ساعات العمل يزيد على 14 مليون ساعة عمل يومياً.

وما بين القنبلة وقوت الصالحين بدأت جماعات ضغط جديدة (لوبي) تظهر في اليمن وهي تحمل أسماء مختلفة من نوع (جماعة مناهضة للقات), و (نعم للقوت ولا للقات).. ولعل الديمقراطية تنجح حيث فشل الحزب الواحد و.. الشمولية.

المدفعية سلاح فردي

يمنع القانون منعاً باتاً دخول المسلحين إلى قاعة الاقتراع) يقولها رئىس اللجنة الأمنية في أثناء الانتخابات اليمنية العقيد علي صلاح. وأساله: ماذا يفعلون بسلاحهم إذا أرادوا الدخول؟ (ويجيب: يسلمونه إلى رجال الأمن عند الباب, وبعد الاقتراع, يستعيدون سلاحهم من رجال الأمن).

السلاح في اليمن ليس زينة الرجال فحسب ولكنه حلي النساء وحليب الأطفال أيضاً.

في اليمن اليوم ـ ومن أكثر التقديرات اعتدالاً ـ مايزيد على 60 مليون قطعة سلاح تتوزع على 16 مليون مواطن, بمعدل 4 قطع للمواطن الواحد, وتقرأ في صحيفة (الحياة) ـ 22 مايو 97 الوصف التالي لاشتباك بين قبيلتين.. (توصلت قبيلتا السادة وآل الرقابي في منطقة بيجان في محافظة شبوة ـ054 كلم شرق عدن ـ! إلى وقف الاقتتال بينهما, بسبب قطعة أرض تدعي كل قبيلة ملكيتها لها, وقالت مصادر أمنية في المحافظة إن الاقتتال الذي استخدمت فيه الأسلحة الخفيفة والمتوسطة وقذائف هاون ومدفعية متوسطة المدى أدى إلى مقتل عشرة أشخاص).

المدفعية المتوسطة المدى في القاموس اليمني تدخل في باب (الأسلحة الفردية) ويتناقل اليمنيون فيما بينهم طرفة تقول: (إن دبابة اقتربت من أحد الحواجز العسكرية, قرب صنعاء, فأمر الضابط على الحاجز سائق الدبابة بالوقوف, وعندما توقف السائق سأله الضابط: هل تحمل أية أسلحة؟ فقال السائق: لا. ورد الضابط: تستطيع متابعة سيرك إذن).

وتقول دراسة اقتصادية إن زراعة القات أدت إلى طفرة اقتصادية لدى المزارعين انعكست في سلوك تفاخري ومظهري, ولم يعد اليمني يقبل بأن يمتلك أقل من خمس قطع من السلاح, على أن يكون بينها قطعة على الأقل من نوع (أبومقعد), أي رشاش ثقيل من النوع الذي يستند إلى مقعد.

ويقول الشيخ حسين بن عبدالله الأحمر, رئيس البرلمان: الشعب اليمني مسلح باستمرار ولم ينزع منه السلاح حتى في عصر الإمام, حيث كان الفقر موجوداً والسلاح معدوماً وممنوع دخوله. القبيلي كان يشتري البندقية من الدولة, كان الأمير الحسن بن يحيى حميد الدين يبيع السلاح بنفسه, يأتي به من الخارج, وكذلك الأمير علي بن يحيى حميد الدين كان يأتي بسلاح (حرمن) من ألمانيا, وكانوا يبيعون البندقية بألف ريال فرنسي في ذلك الوقت, فاشترت منه القبائل.. إن القبلي يعتبر السلاح جزءاً منه وإلى جانب ذلك فهو زينة.

الرئيس اليمني علي عبدالله صالح, سئل عشية الانتخابات, عن هذه الظاهرة فقال: إن السلاح الناري ظاهرة غير حضارية وغير مستحبة, خاصة أنها تأتي بنتائج سلبية داخل الأسرة على الأطفال والعائلة. ولكن الرئيس وجد أيضاً في هذه الظاهرة إيجابيات (فعندما جاءت حرب الانفصال دعونا المواطنين وحركنا ملايين مسلحة حسمت الموقف).

منذ ثورة 1962 و (الجيوش الشعبية) تلعب دوراً مؤثراً في خارطة اليمن السياسية, وهو دور كان يتجاوز أحياناً دور الجيش النظامي, كما يعتقد الشيخ الأحمر (وهو من أنقذ الثورة) على حد قوله.

وهذا الجيش الشعبي الذي كان يقتصر على القبائل, تمدد إلى داخل المدن, كما يروي الوزير عبد الملك منصور, الأمين العام المساعد في حزب المؤتمر, فهو يتهم حزب الإصلاح شريك المؤتمر في الحكم قبل الانتخابات الأخيرة (إن الإصلاح حول المعاهد العلمية ـ الدينية ـ إلى ثكنات عسكرية يتم تدريب التلاميذ فيها على الأعمال العسكرية واستخدام الأسلحة).

ومع ذلك, وربما بسبب ذلك الانتشار الواسع للسلاح, فإن نائب رئيس الجمهورية عبدربه منصور هادي صرح بعد تشكيل الحكومة الجديدة في اليمن أن من أولويات الحكومة تقليص عدد أفراد الجيش النظامي إلى النصف.

وفي مواجهة غابات القبلية والقات والسلاح فإن اليمن لاتختار تعزيز الجيش بل الديمقراطية, وهي ديمقراطية تقاتل على خطوط التماس.

شوقي رافع

العـدد ٥٠٠ ربيع الأول ١٤٢١هـ يوليو ٢٠٠٠م

العربي

JULY 2000



٥٠٠ شهر من عمر العربي

اليمن: النجوم تنام على الجبال

عرس الانتصار في جنوب لبنان

النجوم تنام على الجبال

بواسطة محمد المنسي قنديل | استطلاعات | العدد ٥٠٠

النجوم تنام على الجبال

اليمن : أرض الجدود والوعود (1)

عدسة : حسين لاري


اليمن أرض الجدود والوعود

أعود إلى اليمن محملاً بحنين وذكرى وأسى، أطل في عيون الأصدقاء القدامى فأرى ما فعله الدهر بي ويهم، يحدث هذا دوماً عندما يعود المرء إلى بيته القديم، فيصبح أسيراً لحالة من المقارنة المضنية يود أن يرى ما كان يراه حتى ولو لم يعد موجوداً، واليمن هي بيتنا العربي القديم، منها جاءت بذرة الميلاد بكل ما فيها من قوة ووهن، وبقيت فيه التذكارات القديمة التي حسبنا أنها قد ضاعت وسط زحام الأحداث وبقيت فيه حتى ملامحنا القديمة والأسماء التي ننتمي إليها القبائل التي خرجنا من صلبها، كل شيء أصابه القدم وتغطى بالرماد، ولكنه باق على حاله شأن كل البيوت القديمة.


الزي اليمني التقليدي لا بد أن يتوسطه الخنجر الذي يمثل نوعا من عزة النفس

عندما هبطنا إلى صنعاء في ذلك الصباح كان يحيط بها ضباب له لون الحجر، زبد هش، تبزغ من خلاله قمم المآذن البيضاء، أذرع تتوسل لفالق الإصباح، تبدأ المدينة في الكشف عن ملامحها، المباني الحجرية المزينة بخطوط من الجص، والنوافذ التي تعلوها دائما أكاليل من الزجاج الملون، تحيي بنا الملامح العربية الأليفة وهي تفتر عن ابتسامة بيضاء رائقة في الصباح، تتحول إلى ابتسامة خضراء - أجل خضراء وغريبة - عند وهج الظهيرة، خلف تلك الأقنعة تكمن وجوه بني قحطان الذين هاجروا وحكموا وعمروا ثم انتكسوا، ومنهم تعلمنا فضيلة الاستسلام والاستكانة بعد أن غارت الشهب بنا وبهم، فمن المؤكد أن العرب العاربة والفراعنة وبني تدمر وأحفاد بابل وآشور كانوا هجرة قحطانية وإلا لماذا آلنا جميعا إلى نفس المآل.

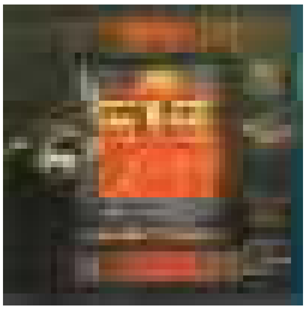
سوق الملح، قلب المدينة التاريخي مستعص عن التغيير، الأبنية الحجرية راسخة كالجبال التي تحيط بالمدينة، أما الأرض قد تم رصفها بأحجار بيضاء بدلا من الحصى القديم المدبب، والسيارات تزاحم الناس في الأزقة الضيقة، ولكن الوجوه اليمنية بملامحها التي

تبدو كما لو تم نحتها بإزميل دقيق بدت على حالها، العمامة على الرأس والخنجر حول الوسط والقات في زاوية الفم، تختلف الوجوه والأعمار والأحجام والمراكز الاجتماعية وتبقى هذه السمات الثلاث، في تلك الساعة من ظهيرة اليوم، السوق مازال يحمل السمة الأساسية لكل الأسواق الإسلامية القديمة، دوائر متصلة من الحوانيت والبيوت مركزها المسجد، أو الجامع الكبير وهو من أوائل المساجد التي بنيت في الإسلام، ثم يقسم السوق حسب البضائع المعروضة، كل جزء من السوق يختص ببيع سلعة معينة حتى يسهل للزبون المقارنة بين أنواع البضائع المختلفة.

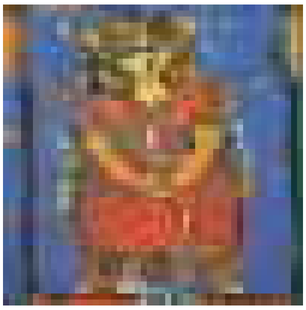


صنعاء متحف حي ومفتوح لنوع فريد من عمارة الحجر فاليمن قد استأنس الجبال وحولها إلى تلك العمائر

مازالت الدهشة تملك قلبي وأنا أقف أمام مجموعة العمارات النادرة التي تحيط بالسوق والتي يبدو الناس في ظلالها مثل مجموعات من النقوش الإضافية، متحف مفتوح يصور تلك العلاقة الحية التي نشأت بين البشر والحجر، كتل البيوت في تلاصقها تثير في داخلي نوعا من الرهبة والجمال، أحاول أن أفهم ذلك الأسر الغامض الذي تبعثه في داخلي، يبدأ كل بيت بكتل متراصة من الحجر يندر أن يكون فيها فتحات، اللهم إلا فتحة الباب الضيقة، أساس متراكم ومتين لكل بيت لا تضعفه الفجوات، يكون الجزء المعتم الذي يستخدم في تخزين الحوائج المنزلية، لا تبدأ الفتحات في الظهور إلا بعد دور أو أكثر، فتحات قليلة وصغيرة مكونة من جزأين، فتحة سفلى يمكن أن يطل منها سكان البيت وخاصة النساء على الطريق دون أن يراهن أحد، وجزء علوي يسمى "القمريات "، وهو بالفعل أشبه بنصف قمر مكون من الزجاج الملون، يوفر الضوء مصفى عند إغلاق الجزء السفلي، يرتفع البناء وتزداد الفتحات، تخفت وطأة الحجر ويحل الطوب الآجر بدلا منه، كأن البناء ينشد نوعا من الخفة ويجعل جدرانه مرتدة إلى الخلف قليلا خوفا عليها من الانهيار، هكذا بقليل من المهارة الفطرية يتحول البيت إلى برج سامق، خبرة معمارية فذة توظف نوعية المادة وكتلتها في آن واحد، لا تسعى خلف المتانة والصلادة فقط ولكنها تسعى للجمال أيضا، فهو يحيط كل الفتحات من نوافذ ومشربيات وأبواب بهالات متصلة من الجص الأبيض، جص ناعم رقيق يعطينا تلك المفارقة الحادة مع الحجر الداكن الصلد، كما أن هناك هوسا غريبا بالزخرفة.



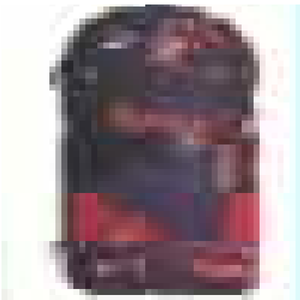
فتاة خلف النافذة



ملكة سبأ

كان زميلي المصور يرغب في اقتناء خنجر يمني تقليدي، وقادنا مرافقنا أمين الوارفي إلى واحد من أشهر صناع الخناجر في السوق، وكانت فرصة لنا أن ندخل هذا الحيز من السوق الذي كان يستأثر دوما باهتمام السياح الأجانب، كانت الأنصال اللامعة تضوي في عتمة الحوانيت، وتبادر إلى ذهني سؤال لم أعرف له إجابة محددة، كيف تم اختصار السيف العربي القديم إلى هذا الخنجر الرمزي، ولماذا بقي رمزاً للوجاهة والرجولة؟ إن اليمني مدين للجبال بالكثير من صفاته، فهي التي وهبته الفطرة والنبل، وهي التي أبقت في داخله إحساسا

دائما بالخطر يجعله دائم التحسس لمقبض خنجره، فهل أصبح اليمني مستعصياً على التغيير؟


رجل يتطلع إلى قمر بعيد

يسألني الأصدقاء هذا السؤال في كل مكان أقابلهم فيه، بعد كل هذه السنوات كيف ترى اليمن وما الذي تغير فيها ؟ إنه ذلك المناخ الآسر الجديد، مناخ من الحوار والجدل وطرح كل المحرمات، إنه سحر التعددية التي أخرجت كل ما تم كبته طوال السنوات الماضية وإعادة طرح كل القضايا من جديد، قضية الوحدة التي بلغت الآن من العمر عشر سنوات، وقضية القات التي بلغت مئات السنوات وقضية التخلف والتنمية التي سوف تظل إلى ما بقي من السنوات، فين أين نبدأ؟


تجليات من الفن اليمني المعاصر تبدو في أعمال الفنان فؤاد الفتيح من خلال معرضه الدائم وتظهر في الصورة لوحة سوق الملح

أتذكر الرحّالة الألماني هانز هولفريتر الذي فعل المستحيل لدخول اليمن في الثلاثينيات من القرن الماضي، في وقت كان الأئمة يحرمون دخول أي أجنبي، لقد فعل المستحيل، حتى أنه دخل اليمن من أقصى الجنوب عبر صحراء الربع الخالي، وخاض مغامرة نادرة ومثيرة في كتابه "اليمن من الباب الخلفي"، فلماذا لا أبدأ مثله، ولماذا لا أستفيد من مزايا الوحدة بعد أن أصبح في مقدوري أن أبدأ الرحلة من أي نقطة في اليمن؟

عدن .. جنة

تحت شمس حارة تتألق المياه في خليج عدن، تهب علينا ريح أسطورية مليئة بروائح البخور والمر، أمام عيني تتجسد الأسماء التي سمعتها في طفولتي دون أن أعرف موقعها على خريطة العرب المضطربة، يرتفع جبل شمسان ويمتد ساحل المعلا، وخور "مكسر" وندرك أن لحج على مرمى النظر وتلوح أمامنا جزيرة العمال ولا بد أن الموج من خلفها يحتضن "سقطرة"، أصوات النضال القديمة وهي ترتفع من "صوت العرب " لتحث سكان تلك المناطق على النضال ضد الوجود البريطاني، كنا أطفالاً صغاراً لا نعرف أين تقع هذه الأسماء، ولا هؤلاء الذين يقع عليهم عبء النضال، لقد نالت هذه المنطقة نصيبها كاملا من عبء الصراعات الدولية ودفعت ثمن انفتاحها وموقعها المؤثر في جنوب بحر العرب، فهي أشبه بفوهة البركان الذي تحتل موقعه الآن، تضطرم أعماقها بنيران من الأساطير القديمة وبرغبة حارة في إيجاد ثقب ما تنفذ منه إلى المستقبل، ولكن كيف يمكن أن تتخلص من آلامها الداخلية؟


يمنية في زيها الاسود، زي الخروج التقليدي في اليمن

تصعد بنا السيارة عاليا، فطرقات المدينة كلها منحدرات فوق مجموعة من التلال المتعاقبة، يبدو خليج "صيرة" الذي يحكم مدخل الميناء، يشير دليلنا إلى أحد مواقع هذا الألم، مجموعة من السفن الضخمة، شكلها رث وقديم، توشك العوامل الجوية وقلة الصيانة أن يقضيا عليها، يقول لنا الدليل: "لم تنته حرب الخليج بالنسبة لنا نحن أهالي عدن، هذه السفن جزء من مجموعة سفن عراقية موجودة منذ

حوالي تسعة أعوام، لا تستطيع الحركة بسبب قوانين الحصار المفروضة على العراق، ويبدو أن النظام في بغداد قد نسيها، لذلك لم يبال بها ولا ببحارتها ولم يرسل لهم أي نوع من المساعدة ولا حتى المرتبات، أتساءل مدهوشا : وكيف يعيش هؤلاء البحارة البؤساء إذن. يقول: " إنهم يفكون القطع الداخلية للسفن ويبيعونها، ماذا تظنهم يفعلون؟ إن السفن تتآكل من الداخل ومن الخارج وهناك مخاوف من أن تغرق وتسبب لنا كارثة بيئية كبيرة".


خليج عمان. خليج الاساطير والبخور واللبن والمر. شهدت مياهه الزرقاء طرفا من الاحداث الجسام التي مرت على عالمنا

أظل أتطلع إلى السفن في أسى، إلى ذكرى تلك الحرب التي لا تريد أن تنتهي، أناس أسرى في السجون وسفن أسيرة في البحر، وعالم عربي عاجز عن لم أشتاته وتضميد جراحه، قبل أن أفيق تزحف بنا السيارة إلى موقع آخر أشد إثارة للألم، يقودنا الطريق المؤدي إلى لحج إلى منطقة البساتين، وهي لا تحمل من الصفة إلا اسمها فقط، في وسط أزقة ضيقة وأكواخ من الطين والصفيح ومستنقعات من الماء الآسن وبقايا الفضلات، توجد مأساة إنسانية اسمها اللاجئون الصوماليون، أكثر من خمسين ألف لاجئ منهم يقيمون في هذه المنطقة وحدها، ويقال إن عددهم الإجمالي في بقية المناطق أكثر من مائة وخمسين ألفاً، ولا يبدو أن أعدادهم سوف تكف عن التزايد، فالحرب والمجاعة في القرن الأفريقي مازالتا مستمرتين، مصادفة تعسة أخرى، فاليمن تجد نفسها وهي تعاني من ظروف اقتصادية صعبة عليها أن تدفع فاتورة ذلك الصراع الدامي في القرن الأفريقي، خاصة بعد أن دخلت إريتريا وأثيوبيا في حرب عبثية أخرى.


مشروع المنطقة الحرة وميناء الحاويات عند جبل شمسان في خليج عدن

إنه قدر المدينة التي كانت دوما مفتوحة على البحر، أراد مؤسسوها من البحارة القدماء أن تكون محمية من البر بحيث تعجز القبائل عن الوصول إليها، لذلك اختاروا موقعها بين جبال لا تطولها إلا النسور، وكانت القوارب هي صلتها الوحيدة بالمدن الساحلية الأخرى، وقد عرفت عدن منذ أن بدأت السفن الفرعونية رحلاتها إلى بلاد "بونت" بحثا عن البضائع المقدسة، كالبخور واللبان والمر التي كانت تستخدم في المعابد، ويتحدث المؤرخون عن نوع من المقايضة الصامتة وغير المباشرة، فقد كان كل واحد من تجار عدن يضع بضاعته في أكوام محددة ويتركها في حراسة بعض العبيد، ثم يأتي التجار من مصر ومن اليونان فيما بعد فيأخذون كومة البضاعة ويضعون ثمنها ذهبا في نفس المكان، ثم يأتي الكاهن فيأخذ ثلث الثمن كنصيب للآلة التي لا تشبع، ويترك ما يتبقى لصاحب البضاعة.

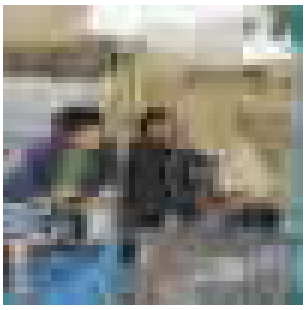

صهاريج المياه التي يقال ان الملكة بلقيس قد حفرتها.. انها فارغة الآن من مياهها بسبب اعمال الصيانة

السفن الفرعونية والإغريقية لم تعد تجيء الآن والصفقات لم تعد تتم بتلك البساطة، وعدن دفعت ثمن موقعها على يد كل الذين سادوا بحار العالم على فترات التاريخ المختلفة، ولكن أشهر وآخر محتليها كانوا هم الإنجليز الذين انتزعوها في عام 1839 م من أيدي البرتغاليين لتكون واحدة من أهم الموانئ في طريق مستعمرتهم في الهند، كانت ضحية التخلف والتنازع المستمر بين مجموعة مشايخ

المحميات، أشبه بنسخة مزيفة من ملوك الطوائف الذين أضاعوا الأندلس، وأضاعونا فيما بعد، كان الاستيلاء على عدن حدثا مهما في تاريخ الاستعمار البريطاني لأنها كانت أول قطعة من الأرض يستعمرها في عصر الملكة "فيكتوريا"، ومثلت منذ ذلك الحين واحدة من أربع نقاط كانت تتولى حماية الطريق البحري الرئيسي للأسطول البري الذي كان سيد البحار، هي جبل طارق ومالطة وقبرص وعدن، لذا فقد قاومت بريطانيا طويلا حتى قبلت التخلي عن عدن ومنحها استقلالها في عام 1968، وهي تعتبر بذلك آخر الدول العربية التي نالت هذا الاستقلال.


اشجار القات.. الشجرة الشيطانية التي تتحكم في مصائر ابناء اليمن

"ولكن الطريق إلى هذا الاستقلال لم يكن سهلا، وكذلك الطريق إلى الوحدة مع الشطر الشمالي، الطرق اليمنية دائما ما تكون وعرة وصعبة"، هكذا قال لي " يسلم مطر" مدير تلفزيون عدن في لقاء الغداء الذي دعانا إليه، كان يتحدث بصوته المرح الصاخب المليء بالحيوية، بدت هيئته نادرة بالنسبة للعديد من اليمنيين. فارع الطول، ضخم الحجم، وعندما أخبرني أنه لم يقرب من القات في أي فترة من حياته أدركت سبب كبر حجمه، فالقات على المدى البعيد هي مادة حارقة، تبدد طاقة الجسم وتضعف من بنيانه، يواصل القول: " لم يدخل الإنجليز إلى عدن إلا على جثث الذين قاوموهم من أهل اليمن، ومازالت قبورهم تطل على ساحل "صبرة" حتى الآن، لقد استخدم الإنجليز مدافع الأسطول من أجل الاحتلال، ثم استخدموا الطائرات بعد ذلك لدك قرى اليمن، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها أهل اليمن هذه الطيور القاتلة، لقد وضعوا أول خطوط التقسيم بين الشمال والجنوب، وجعلوا الشمال يغرق في ظلمة الأئمة، بينما ظللنا نحن في الجنوب نصارع دون جدوى أقوى إمبراطورية في العالم في ذلك الوقت ".


وقت الظهيرة والوجنات كلها منتفخة بسبب تخزين اوراق القات

كانت زيارتنا لمبنى التلفزيون والإذاعة فرصة نرى فيها واحداً من أقدم مباني التلفزيون في العالم العربي، فعدن هي البلد الثاني الذي دخله التلفزيون في أوائل الستينيات بعد العراق الذي عرفه منذ الخمسينيات، كان المبنى المتواضع يشهد تجديدات شاملة، أحيلت أخيراً أجهزة البث السوفييتية إلى التقاعد وحل بدلاً منها أجهزة يابانية حديثة، والجميع متفائلون بهذه الخطوة التي سوف تنقلهم من قناة محلية صغيرة، إلى فضائية تلتقطها الأقمار الحائمة في الفضاء.


جبل صبر في تعز. كان جنة من الخضرة الوارفة ولكنه يعاني الآن من متاعب الجفاف

روح المدينة

عدن حافلة، فيها بصمة العالمية التي تجدها في كل الموانئ، خليط من العرب والهنود والأحباش وأهالي جزر الملايو البعيدة، يتعايشون في نفس البقعة من الأرض الراقدة على فوهة البركان، الفندق القديم الذي هبطنا فيه نزلت ملكة بريطانيا في إحدى غرفه عندما كانت في طريقها للهند، ولكن في المقابل كان هناك فندق آخر في العراء وسط "كرتير" الحي التجاري في المدينة، مجموعة من الأسرة الحديدية

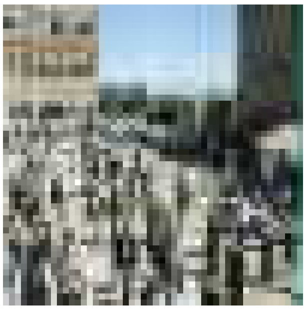


الحكمة يمانية.. شعار قاله الحكماء واتخذته الجامعة شعارا لها



د. عبدالعزيز المقالح.. الشاعر المعروف ومدير جامعة صنعاء

تحتل أحد شوارع المدينة وتنتظر روادها عندما يحل المساء، وفي جو المدينة الجاف لا يحتاج المرء إلى غطاء أو سقف يكفيهم أن سعرها زهيد لا يتجاوز النصف دولار لليلة الواحدة، وفي مكان آخر وعلى الرغم من السحر الذي تتمتع به شواطئ جولد مور، فإنه يوجد فوق تلالها واحد من أسوأ السجون في العالم هو "رأس مرباط " وهو السجن الذي قام الرئيس علي عبداللهصالح بنفسه بالمشاركة في هدمه بواسطة "البلدوزر"، وغير بعيد يمتد شاطئ "رامبو" الشاعر الفرنسي الذي كان عاشقا للشرق ورست سفينته في عدن وهو في طريقه إلى إفريقيا بحثا عن الثروة والموت. لم يكن هناك مجال للرومانسية، فأمام الشاطئ توجد بقايا سفينة غارقة، حطام قاس من أيام الصراع على السلطة بين أعضاء النظام الماركسي الذي كان يحكم الجنوب عام 1986، الأمر الذي أطلقت عليه وسائل الإعلام في وقتها "صراع القطط التي تأكل أبناءها" وفي وسط الجبال التي تحيط بالمدينة توجد معجزة عدن الحقيقية، المعجزة التي جعلتها تتغلب على الجدب وشح الأمطار وسنوات الجفاف الطويلة، صهاريج طويلة محفورة في أعماق الصخر، لا أحد يعرف من بناها على وجه التحديد، هل هي بلقيس ملكة سبأ التي ينسب إليها كل ما في اليمن من أساطير حية، أم أنهم ملوك الفرس، أم البحارة الأشداء الذين يعرفون قيمة كل قطرة من الماء العذب؟ فالصهاريج تنظم جمع كل قطرة من المطر تسقط فوق الجبال، وتحولها عبر مجموعة من المسارات والسدود إلى أن تتجمع كلها في خزانات ضخمة تقع أسفل هذه الجبال وتحفظها لوقت الحاجة إليها، وهي تسع حوالي 20 جالونا إمبراطوريا من المياه، فقد عرف الصهاريج كل الرحالة العرب، ولكن الإنجليز أعادوا اكتشافها في عام 1853 على يد سير لامبرت الذي أزال ما فيها من أوساخ ومخلفات وقام بترميمها وإعادة فتحها.



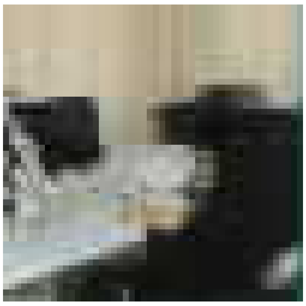
كلية التربية في منطقة ارحب.. التعليم يدخل مناطق القبائل لبغيرها

ولاتقف ميناء عدن طويلا عند حافة الماضي، فهي تحلم بإعادة أمجادها عندما كانت في الستينيات تستقبل 60% من الحركة التجارية في المنطقة، ثم تضاءل دورها عندما أغلقت قناة السويس بعد حرب يونيو 67 وانصرفت السفن العملاقة بعيدا عنها، وهي تطمح الآن في إعادة اجتذاب هذه السفن عن طريق المنطقة الحرة التي تقوم بإنشائها عند سفوح جبل "شمسان " وقد قامت بالتجهيزات الأولية بالفعل عن طريق إعداد رصيف للحاويات طاقته التشغيلية نصف مليون حاوية وأراض مزودة بمرافق تسع 300 مصنع.

الوحدة الصعبة

على الطريق بين عدن وتعز توقفنا، حولنا جبال رمادية وقرى حجرية وأطفال ذوو عيون براقة، على جانب الطريق الإسفلتي مجموعة من الأكواخ المغلقة وبقايا علامات وشارات رسمية، قال مرافقنا "هذه هي "الشريقة"، منطقة الحدود التي كانت تفصل بين الشطرين الشمالي والجنوبي "، حاولنا أن نتخيل نقاط الحراسة والتفتيش، والجنود

الذين يمتون لقبائل واحدة وربما لأسر واحدة وهم يقيمون الحواجز بين بعضهم البعض، وأحيانا تتحول هذه الحواجز إلى متاريس وتحصينات يتقاتل الجميع من خلفها، في عام 1973 زار الكاتب الإيطالي الشهير البرتو مورافيا اليمن بشطريه وقال : إنها الحدود الأشد إثارة للضحك في العالم، فكل شيء ينفذ من خلالها، وقد كان محقا في ذلك، فلم تكن الحدود قادرة على قطع أواصر الطبيعة أو وشائج البشر، ورغم ذلك فلم يكن الطريق إلى الوحدة سهلا كما قالوا لي جميعا.



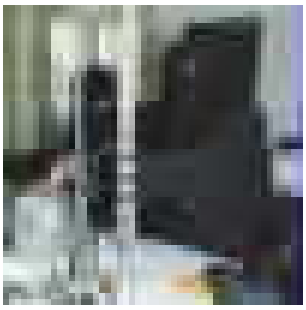
رغم الحجاب فالفتاة اليمنية تتعامل مع الكمبيوتر

لقد انتهز الإنجليز فرصة ضعف العثمانيين وتغلغلوا إلى الداخل ما بعد عدن، وعقدوا اتفاقيات للحماية مع شيوخ القبائل المرتعدين، وعلى إثر ذلك قاموا برسم الحدود التي فصلت بين الشمال والجنوب في عام 1873، ولم يوافق أحد على هذا التقسيم في ذلك الوقت على الأقل، وحاول الإمام يحيى أن يحرك قواته، فكشرت بريطانيا عن أنيابها وحركت طائراتها الحربية التي قامت بقصف القرى اليمنية، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها اليمنيون ذلك السلاح المرعب التي لا تطوله يد، واستسلم الإمام وأذعن في النهاية للأمر الواقع ووقع مع بريطانيا معاهدة للصداقة والتعاون مدتها أربعون عاما، ونلاحظ هنا أن الإمام المهزوم لم يستسلم كلية، لقد قام فقط بتأجيل المشكلة لعدد من السنوات، ولكن الأمور اختلفت في كلا الشطرين، فبينما غرق الشطر الشمالي في أسر سنوات طويلة من ظلام التخلف تحت حكم الأئمة، حفل الشطر الجنوبي بحركة سياسية صاخبة، فقد تكونت الجمعيات السياسية وصدرت الصحف الأهلية، ومن الغريب أن عدن كانت هي المتنفس الأول لكل حركات المعارضة ضد الحكم الجائر في الشمال.



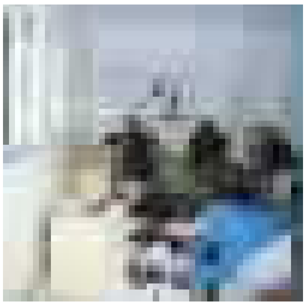
شباب القبائل يسعون االى العلم ويتطلعون للمستقبل

وقد كانت ثورة 26 سبتمبر عام 1962 تحولاً جذرياً في طريق الوحدة والمصير اليمني كله، ففي اللحظة التي نسف فيها الضباط الأحرار في الجيش اليمني قصر الإمام البدر بدار البشائر أضاءت طلقات المدافع أضواء فجر جديد طال انتظاره، ولكن تضاريس اليمن لا تدع طرقا سهلة، فالثورة ولدت ومعها تحدياتها، وجاء الجيش المصري للمساعدة فتورط هو أيضا في حرب طويلة الأمد، وهي حرب دفع هذا الجيش ثمنها غاليا عندما تلقى هزيمته النكراء في 67 على أرض سيناء، ولكن تأثير وجود هذا الجيش وقيام الجمهورية في الشطر الشمالي أحدث انقلابا في المنطقة كلها وجعلت ل الاستعمار البريطاني في عدن يبدأ في العد التنازلي لزوال نفوذه، فقد بدأ الكفاح المسلح ضده ولم يصل إلى نهايته إلا بعد أربع سنوات حصل بعدها اليمن الجنوبي على استقلاله يوم 35 نوفمبر 1967 وفق حدود دولية فرضتها إنجلترا وأرغمت الآخرين على الموافقة عليها.



المعامل متوفرة لتربط اليمن بالعصر الحديث

هل اقترب حلم الوحدة أم أن تناقضات الأنظمة قد حولت هذا الحلم إلى كابوس؟ ألم نقل من قبل أن اليمن هو المرآة التي تظهر فيها كل



الطلبة داخل الجامعة حيث تتوفر ادوات البحث العلمي

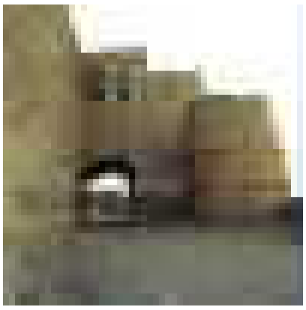
عيوبنا كعرب، وهو علة كل ما فينا من أمراض مزمنة؟ لقد مرت الوحدة التي هي أقرب ما تكون بين هذين الشطرين بكل الإرهاصات الغربية المدمرة، فقد دخل كل نظام منهما في نفق مظلم لم يستطع الخروج منه إلا بعد سنوات طويلة، من السلال قائد الثورة الذي رقى نفسه إلى رتبة المشير فحلت عليه لعنة الرتبة، إلى إبراهيم الحمدي الذي قام بانقلاب أبيض كان هدفه إقامة هذه الوحدة، ولكنه اغتيل قبل يوم واحد من توجهه إلى عدن لمناقشة هذا الأمر ولم يعرف من الذي قام بهذا الاغتيال، إلى أحمد الغاشمي الذي لم يستمر حكمه أكثر من ثمانية أشهر قتل بعدها بفعل انفجار طرد كان يحمله مبعوث الرئيس اليمني الجنوبي سالم ربيع حتى تولى السلطة الرئيس اليمني الحالي علي عبداللهصالح الذي تحققت الوحدة على يديه أخيرا.



حمل السلاح عادة اجتماعية وضرورة للنزول إلى الأسواق

تفاصيل وتفاصيل، جرى اختصارها هنا إلى إيقاع البرقيات، كانت في جوهرها متشابهة مع ما حدث في الشطر الجنوبي الذي كان يطبق نظاما مختلفا إلى حد مرير، تنازع وانشقاقات وتصفيات، وكلها باسم تحقيق حلم العدالة المطلقة. المهم أن الوحدة جاءت بعد سنوات من الانتظار، وأنها قد صمدت أمام عوامل الانفصال، اجتازت الامتحان الصعب الذي لم تفلح فيه الوحدة المصرية - السورية، وها هي قد احتفلت في 22 مايو الماضي بعيد وحدتها العاشر، وهي مناسبة تبعث الأمل في ظل فشل كل التجارب الوحدوية العربية.

<u>تعز- وسحرها القديم</u>

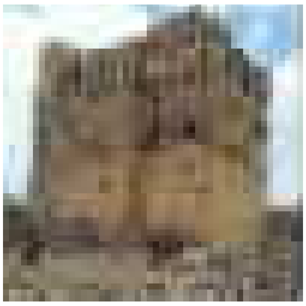


كوكبان مدينة حميرية قديمة فوق قمة الجبال الحمراء

دخلنا تعز ليلاً، أتوقف في مواجهة ذلك المشهد الذي سحر قلبي منذ أن رأيتها في المرة الأولى، البيوت مضاءة ومتناثرة فوق جبلها العالي، نجوم هبطت من السماوات البعيدة لتنام على جبل "صبر"، تحتوينا طرقها الضيقة الصاعدة دوما إلى أعلى، يرق الهواء ويصفو وينبعث صوت غناء يمني شجي، تعز نجمة يمنية تتألق وتخبو وتستفيق على تكبيرات الصحابي معاذ بن جبل عندما أقبل إليها حاملاً الإسلام واتخذ منها داراً لجنده، منذ ذلك التاريخ، وقد مرت بالمدينة تقلبات الدهر، فشهدت صعود الدول وهبوطها، وكل دولة تركت في دروبها المختلفة نقوشا من الحجر، ولم يدم سوى الجبل وتلك القلعة الرابضة على قمته.

نبدأ جولتنا الصباحية بصحبة واحد من شعرائها الشبان هو عبداللهحسن، نجتاز باب موسى أحد الأبواب القديمة التي مازالت باقية، نسير فوق أرض مرصوفة بالأحجار الضخمة، الدروب نفسها التي سلكها ملوك الدولة الرسولية والأشر فيه والإسماعيلية، مساجد قديمة وتكايا ومدارس، ندخل السوق القديم لنتذوق من جبن تعز الصلد اللذيذ، ومن فوق قمة الجبل تطل علينا قلعة "القاهرة"، تترصد خطانا، كأن فيها قوة جاذبه تدفعنا للصعود إلى ارتفاعها الشاهق، تبدو أمامنا بعض من خصائص الإنسان اليمني وعشقه لسكنى المرتفعات حتى ولو كانت متفردة وخطرة، بالقرب من القلعة يوجد قبر "الشيزي

" أحد الشعراء اليهود. كان يكتب أشعاره بالعبرية، إحدى علامات التسامح في المجتمع اليمني، نقترب أكثر من القلعة، يحل في قلبي رعب من مشهد أحجارها المتماسكة، أتذكر تلك الرواية الرائعة التي كتبها مطيع زيد دماج بعنوان "الرهينة"، إنه واحد من الحكائين اليمنيين العظام، كتب تاريخ بلاده بدم القلب، ولم يهزمه إلا صراعه القاسي مع المرض، ودع عالمنا وترك خلفه باقة من الحكايات والقصص اليمنية النادرة، في الرهينة يكشف عن صفحة مرعبة من التاريخ اليمني حين كان الإمام يأخذ أبناء مشايخ القبائل ويحبسهم في هذه القلعة حتى يضمن ولاء آبائهم، وفي المقابل عاش هؤلاء الرهائن الصغار حياة تعسة تعرضوا فيها للاغتصاب والخصي والموت، وتقدم الرهينة شهادة مرعبة عن هذه الفترة وهذا النظام الغريب، وقد عرفته اليمن من أيام الحكم العثماني، وفي هذه القلعة بالتحديد منذ حوالي 300 عام تقريبا قام الحاكم التركي أو السردار - على إثر القضاء على واحدة من الانتفاضات اليمنية ضد الحكم التركي - بجمع مشايخ القبائل داخل سور القلعة وفرض على كل واحد منهم أن يقدم رهائن يفدي بها حياته، وكما يقول مؤرخ تعز محمد المجاهد كانت الرهائن مثلثة، أي تحتوي على زوجة وبنت وولد، وقد نزل هذا القرار على شيوخ القبائل نزول الصاعقة ولم يملكوا له دفعا لأنهم كانوا في عداد المسجونين داخل القلعة.


على أعلى قمة الجبل يقف هذا المبنى بأحجاره شامخا شموخ اليمن وعزة أهلها

شهد الحصن بعد ذلك موجات من هؤلاء الرهائن مكونة من فتيات ناضرات وغلمان لم يبلغوا الحلم ونسوة ناضجات، وعلينا أن نتخيل كيف انتهت تلك المصائر التعسة بين أيدي جند الترك الشرسين، وحتى بعد أن رحلوا فقد توارثت أئمة اليمن تطبيق هذا النظام بعد أن قصروه على الغلمان فقط، ويمكن أن نطلق على تعز مدينة الرهائن فقد امتلأت شوارعنا وقلعتها بهم، ففي عام 1924 في عصر الإمام يحيى الذي كان من أشد العصور وطأة، بلغ عدد الرهائن حوالي 4 آلاف رهينة ما بين مقيد أو غير مقيد أو مطلق السراح، كل حسب أهمية قبيلته ودرجة خضوع قبيلته، لم يستطع العديد من هؤلاء الرهائن العودة أو مواجهة قبائلهم مرة أخرى، لذا فضلوا البقاء في المدينة والإقامة فيها، وعوضوا جروحهم الداخلية بالدرس والتحصيل، وكان من الطبيعي أن يكونوا من زعماء معارضة نظام الأئمة بعد ذلك.

دعوة على القات

في طريقنا للهبوط نرى جانبا من المأساة التي تعيشها تعز، فجبل صبر الذي كان دائما متوهجا بالخضرة والنضارة يبدو عطشا وجافا، فاليمن كلها ومدنها الكبرى بوجه خاص تعاني من استنزاف مخزون مياهها الجوفية، وقد وضعت الحكومة خطة طموحا للتوسع في الزراعة من أجل الاكتفاء الذاتي من الخضراوات والفواكه واللحوم، ولكن ذلك لم يتحقق لأن أشجار القات قد التهمت معظم هذه الزيادات وشربت

غالبية الماء، وفي الجانب الغربي من اليمن يتم استهلاك حوالي 8.1 مليار متر مكعب من الماء سنويا بينما لا تبلغ التغذية السنوية له إلا 1,1 مليار متر مكعب، والمتهم الأول في هذا الأمر هو شجرة القات.

لا أحد يعرف على وجه الدقة كيف سادت هذه الشجرة الشيطانية، ولكنها قديمة كالتاريخ، وقد كنا نتوهم ونحن صغار أن اليمن هي موطن أجود أشجار البن، ولكن القات استطاع أن يزيح من أمامه شجرة البن الرهيفة، وأن تأخذ الأرض منها، فهي تحتل أكثر من ربع الأراضي الخصبة المزروعة في اليمن، ويمثل جبل صبر الذي نهبط من عليه واحداً من أجود أنواع القات، وتستهلك هذه الشجرة أكثر من 485 مليون متر سنويا أي حوالي ربع الماء المتوفر للزراعة.

وللقات عمق غائر في الثقافة الاجتماعية اليمنية، وهو يشكل الحياة اليومية فيها، وقد قال لي مسئول كبير مؤكدا: "إنني أتناول القات منذ ثلاثين عاما ولم يصب جسدي بأي شيء وكذا قواي العقلية، إن القات قد حمى شبابنا من إدمان المواد الخطرة كالحشيش والهروين، كما أن دورة القات دورة داخلية فهو يزرع في اليمن ويوزع داخلها وبذلك لا يبدد ثروتها في الخارج، كما أن له آثاراً اجتماعية جيدة، فمجلسه يساوي بين الغني والفقير وهذا شيء لا تجده في أي مكان آخر" انتهى كلام المسئول الكبير، فهل الأمر كذلك حقا؟ كما قلت من قبل فاليمن تعيش الآن مرحلة من التفتح.

ولم يعد النقاش حول القات من المحرمات، وقد كان يعتبر إلى وقت قريب شيئا من مقدسات الحياة اليمنية ومفتاحا لفهمها، بل إن العديد من الدبلوماسيين لم يجدوا بدا من أن يحمل كل واحد منهم تحت إبطه تلك الحزمة الخضراء ويتوجه بها إلى مجالس الظهيرة، فالحياة منذورة لمجلس القات منذ الثانية ظهرا حتى الثامنة مساء أو نحو ذلك، ويتساوى في تناوله الجميع، يمضغه الأطفال، وتعقد النساء المجالس من أجله، وينتقده الجميع ولا يكفون عن التهامه، والنتيجة هي ضياع 14 مليون ساعة يوميا، وإنفاق ما يوازي 1، 5 مليار دولار أمريكي أي ما يوازي ربع هذا الناتج المحلي.

ولعل أول ثورة ضد تسلط هذه العادة هي المحاولة التي قام بها الإمام المتوكل في بداية القرن الماضي عندما أمر بإحراق كل أشجار القات الموجودة فوق جبل "صبر" حتى الجذور، وظل تناوله محرما حتى تراجعت سلطة الإمام وعادت براعم القات المختبئة للتفتح من جديد، وكان النظام الماركسي الحاكم في اليمن الجنوبية يحرم تناوله إلا مرة واحدة في الأسبوع، ولكن أبرز نتائج الوحدة كانت أن أصبح القات جزءا يوميا في الجزء الجنوبي أيضا، وزاد من تفاقم أضرار القات تلك المبيدات الحشرية والمخصبات التي أصبحت تضاف إليه حتى يبقى مزدهراً وجاهزا للقطاف أطول فترة ممكنة، وترتب على ذلك ظهور أمراض السرطان وخاصة سرطان الفم، وازدادت أعراض التسمم بنسب مرتفعة، كما أهمل الفلاح اليمني حيواناته التقليدية

ولم يعد يهتم بتربيتها بعد أن لا حظ أنها تنافس الإنسان في نهمها لأوراق القات.

حرب القات

وأخيراً بدأت السلطات حربها ضد القات، وأصدر الرئيس أوامره بمنع تعاطي القات بين جميع أفراد القوات المسلحة بمختلف الرتب، وقد تلقفت الصحف والجمعيات الأهلية هذه المبادرة وبدأت حملة واسعة هي الأولى من نوعها من أجل " يمن بلا قات "، ولكن الكثيرين يشككون في نجاح مثل هذه الحملات، فعلى مدى هذه السنوات أكتسب القات اقتصاديات موازية للاقتصاد العام، ويقدر أن الذين يعملون فيه ويستفيدون من زراعته ونقله و توزيعه حوالي 650 ألف شخص، أي حوالي 17% من مجموع العمالة في اليمن، كما أن هناك العديد من كبار تجاره من شيوخ القبائل الحريصين على مكاسبهم حتى آخر مدى.

وقد جربت أوراق القات بطعمها اللاذع، ولكنني لم أستطع أن أحس بتأثيره لأن الأمر كان يحتاج إلى تناول كمية كبيرة من هذه الأوراق، كما أنني فشلت في تخزينه في جانب الفم كما ينبغي أن يكون، فالمخزن المحترف يبقي الأوراق في فمه لأطول فترة ممكنة، ويستحلب عصارتها ببطء على مدى ساعات المجلس، لذا فقد أخذت أتأمل تأثيره على المخزنين المحترفين، فأوراق القات تحتوي على مزيج من المواد المنبهة والمخدرة في آن واحد، لذا فإن المجلس يبدأ بنوع من البهجة الحقيقية عندما يضع كل واحد أمامه الحزم الخضراء بأعوادها الطويلة ويبدأون في تذوقا الأنواع المختلفة للمفاضلة بينها، وبعد فترة من التخزين يكون إيقاع البهجة والانتشاء قد ارتفع، فيقترح أحدهم موضوعا معينا للنقاش، في السياسة في الثقافة في الاجتماع، وهكذا ترتفع الأصوات في النقاش بحماس حقيقي، وتتناثر الآراء منطقية ومتطرفة ومليئة بالسخرية، ثم يتناثر النقاش وتتداخل الموضوعات إلى أن يحل صوت مطبق يغوص فيه الجميع وهم يلوكون الأوراق ويبصقون المخلفات.

قبائل وسلاح

ربما كان الشاعر عبدالعزيز المقالح- في اعتقادي - هو اليمني الوحيد الذي لا يملك قطعة سلاح إضافية في بيته، اللهم إلا سكاكين المطبخ، فهذا الشاعر والأكاديمي الرقيق يسير في تواضع وبساطة ليسير أمر جامعة صنعاء التي يرأسها بكل ما فيها من تناقضات وصراعات، يعيش عالماً مفتوحة لا يحتاج فيه إلى من يحمى ظهره من طعنة غادرة. وفي بلد يبلغ تعداد سكانه 17 مليونا من البشر يملكون 55 مليون قطعة من مختلف الأسلحة، يبدو غريبا أن تكون أعزل لا تعتمد إلا على قوة الكلمة، والذي دفع بهذه الخواطر إلى ذهني هو رؤيتي للعديد من مشاهد المواكب المسلحة في اليمن، وتلك المباهاة التي

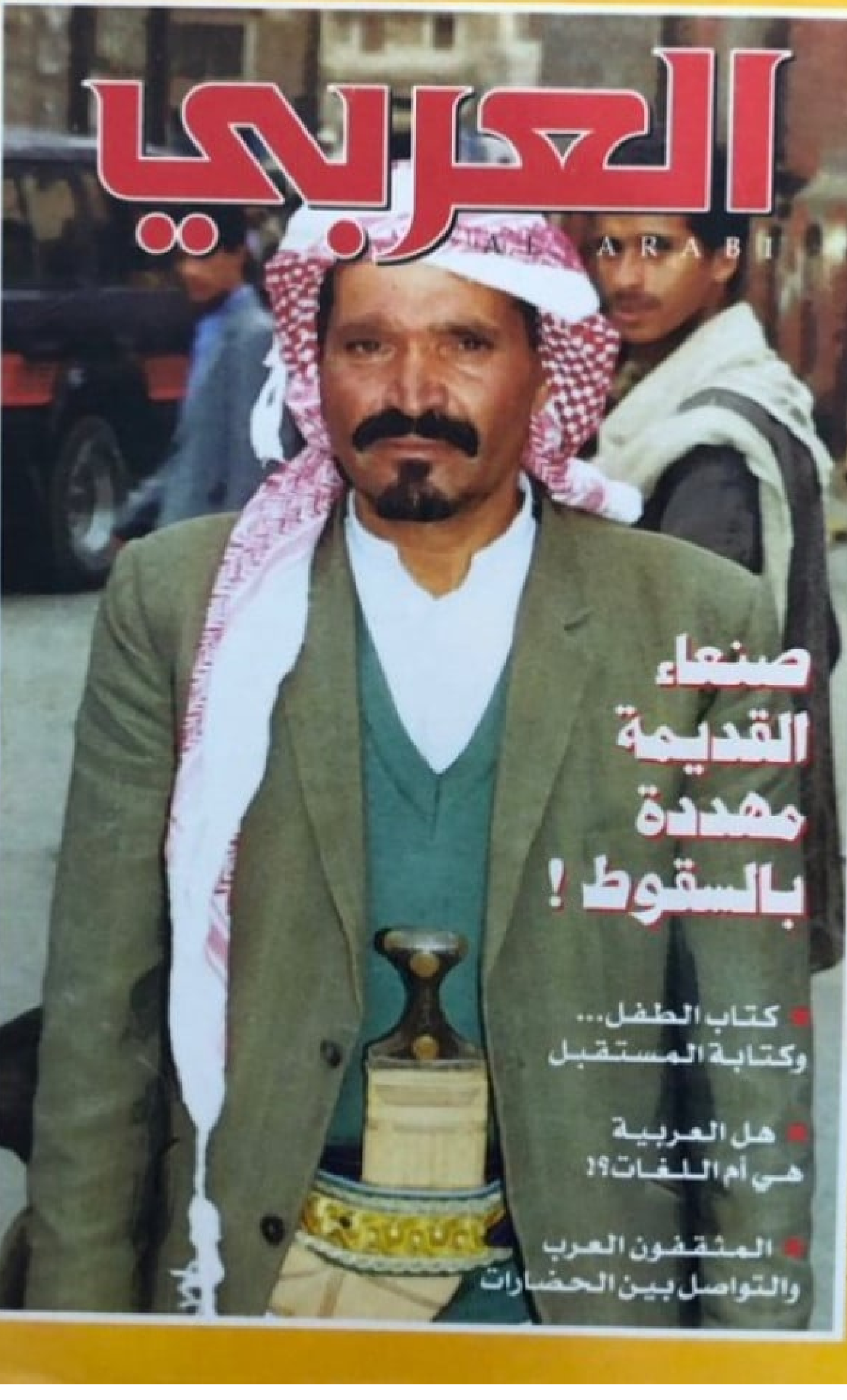
يبالغ فيها البعض فيحملون السلاح حتى في الزيارات العائلية، ولا يقتصر الأمر على شيوخ القبائل الذين يسيرون وحولهم حرّاس ضئال الحجم يحملون بنادق "الكلاشنكوف " أطول من قامتهم، ولكن يفعل ذلك أيضا العديد من الرسميين والأكاديمي

على العكس من ذلك كان المقالح، لم ينس أنه شاعر وأن روحه الطليقة فوق كل الرسميات وكل أصناف القيود، أقول له ونحن نجلس في جانب من مكتبة مركز الدراسات اليمنية: "كنت أريد أن أتحدث معك في الأدب والشعر، ولكن بعد هذه الجولة وما رأيته وسمعته عن سطوة القبائل أريد أن أعرف لماذا بقيت القبيلة في اليمن، لماذا عبرت كل هذه الأزمنة وبقيت ". يغلق جهاز التسجيل، وأدرك لماذا فعل ذلك بعد أن أسمع صوته هادئا وخافتا، لم يكن هناك أي جهاز تسجيل قادر على التقاط نبراته، يقول: بقيت لأنها نظام غائر الجذور وقد ساعدت طبيعة الجغرافيا الجبلية على وجوده، هذا الحضور التاريخي لم يكن يتناقض مع كيان الدولة القديمة، وقد بقيت في اليمن لدورها في التصدي لكل الغزوات، وفي اعتقادي أن القبيلة موجودة في كل البلاد العربية دون استثناء، وكما نرى فالقبيلة تطور نفسها عبر الزمن والدولة تطوع قوانينها لتتماشى مع الأعراف والتقاليد وهي تترك الفرصة للزمن ليغير من تلك التكوينات المتراكمة، إن للتعليم دوراً أساسيا في إزالة هذه الفوارق القبلية، فقد خرجت الجامعة أخيراً وأنشأت كليات متخصصة في أكثر من منطقة قبلية حتى تربطها مع العصر، وقد استقطبت هذه الكليات ليصر أبناء القبائل فقط ولكن بنات القبائل أيضا وهذا تطور لم نكن نحلم به في اليمن، إنني أدعوكم لمشاهدة كلية التربية على الطبيعة وسط قبيلة أرحب ".

وفي الصباح بدأنا رحلتنا إلى "أرحب" برفقة الدكتور فضل أبوغانم، مؤلف كتاب "الدولة والقبيلة" في اليمن ونائب رئيس الجامعة، كانت كلية التربية التي نقصدها مقامة على أرض قبيلته وكان هو نفسه ابنا لأحد شيوخ القبيلة، في هذا الموقع تطبيقا لإيمانه العميق بأهمية القبيلة ودورها بالنسبة للدولة، قلت له: "ولكن القبيلة نسق مغلق، قيم وأعراف وتقاليد منغلقة على مجموعة من الناس تجمعهم صلة الدم والنسب من الصعب أن تذوب في مفهوم الدولة العام، وبالتالي فهي تضع مصلحتها قبل مصلحة الدولة" رد علي في اقتناع بعبارة مأثورة مأخوذة من التراث الفرعوني : " الكل في واحد، هذا هو مفهوم التجمع القبلي في اليمن، إن مجموع القبائل يكوّن تركيبة الدولة ولا يتناقض معها، لقد خرج المجتمع القبلي من نظام العزلة التي كانت مفروضة عليه، وحدث نوع من التكامل بين العناصر والسمات القبلية والسمات الحديثة، إن رموز القبيلة الآن ووجهاءها يشغلون العديد من المناصب الحكومية ويتم استشارتهم في شئون البلاد وأصبح التواصل بين السلطة ورجال القبائل من ضرورات العمل الوطني ".

وعلي أن أعترف أن زيارتنا لكلية التربية في أرحب وحي واحدة من أكبر القبائل اليمنية كانت رائعة، فقد التف حولنا رجال القبائل والأساتذة والطلاب في مودة غامرة، كانوا مزهوين بالكلية وبخروج أبنائهم وبناتهم إلى سلم التعليم العالي ولكن... هل يتوافق السلوك القبلي في اليمن مع ما يقوله هذان الأستاذان المرموقان، أو مع محاولة هذه القبائل أن تمتلك أدوات الدولة فيكون لها سجونها وميلشياتها المسلحة وحتى مطاراتها الخاصة رغم أنه لا توجد لديها طائرات؟ هل يتفق هذا مع خطف الأجانب العزل ومحاولاتهم الدائمة لابتزاز الدولة؟ وهل يتفق هذا أيضا مع تحويلها تجربة التعددية السياسية إلى كيانات قبلية مغلقة بلغ عددها 46 حزبا صوريا، وأن زعماء القبائل الكبرى قد تركوا قبائلهم بما فيها من أنساق للأعراف والقيم حتى يخوضوا في العاصمة غمار معارك البيزنس والحصول على التوكيلات الأجنبية؟ أسئلة كثيرة وعديدة مازالت تواجهها اليمن وهي تجابه مشكلات التنمية التي تمثل معضلة لنا جميعا، ومازالت جولتنا مستمرة في ربوع اليمن، بيت العرب القديم.

محمد المنسي قنديل

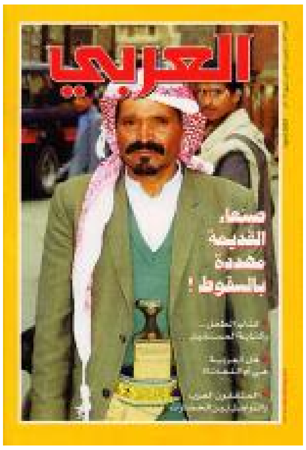


العدد ٥٣٣ - المحرم ١٤٢٤هـ - أبريل ٢٠٠٣م
April 2003
www.alarabimag.net

صنعاء القديمة مهددة بالسقوط من قائمة التراث العالمي..!!

بواسطة إبراهيم المليفي | استطلاعات | العدد ٥٣٣

صنعاء القديمة مهددة بالسقوط من قائمة التراث العالمي..!!


صورة الغلاف

عبرت الباب الكبير باب اليمن فلم أجد أمامي سوى التاريخ القديم الذي قرأت عنه وكأنه بث مباشر يأتي من الماضي, وهي حالة فريدة يصعب تكرارها بهذا الحجم والاتساع والواقعية فالمدينة التراثية التي هممت باختراق شوارعها الضيقة وأسواقها المكتظة بالباعة والمشترين, لم تكن سوى مدينة حقيقية يعيش بها أناس حقيقيون, كل فرد فيها يمثل حلقة في سلسلة تاريخية قد تصل إلى أيام سام بن نوح - عليه السلام - مؤسس مدينة صنعاء القديمة, وكل منزل يقع داخل أسوارها المنيعة بمنزلة متحف أثري يصعب إحصاء من قطنوا فيه منذ ذلك التاريخ السحيق وحتى الآن.


بيوت صنعاء القديمة التي تظهر في هذه الصورة محرم على أصحابها إدخال أي تعديلات عليها دون إذن من الجهات المعنية بالحفاظ على المدن التاريخية ومرد ذلك الحرص يعود إلى الخشية من تشويه النسق المعماري القديم

مدينة صنعاء القديمة التي ضمت مملكة سبأ وعرش بلقيس ترتفع عن سطح البحر أكثر من 2000 متر, ومرت عليها حضارات متعاقبة يونانية ورومانية وفينيقية وغيرها لا تزال بصماتها واضحة في تلك المدينة المتحفية, والجبال المحيطة بصنعاء تعتبر هي الأعلى في منطقة الجزيرة العربية مما يفسر ولع غزاتها ببناء حصونهم على قممها لدرء الأخطار عنهم, والقادم الجديد لصنعاء وغيرها من مدن اليمن لا بد أن يلاحظ أن الجميع لا يأبه بالصعود إلى الأعلى.. جبال.. مرتفعات.. سطوح المنازل ومرد تلك المعاناة المقصودة هو أن متعة مضغ القات وتخزينه لا تكتمل سوى بالجلوس في مقيل مرتفع بعد تجفيف الجسد صعودا وهبوطا من السوائل وحتى يمكن لرحيق القات أن يؤتي مفعوله... فالقات هو المفسر الوحيد لحركة المجتمع في اليمن.

جيبك.. جيبك

والموحد لهذه المدينة المتحفية.

بالرغم من أنى في بداية الطريق حاصرتني جميع أسواق صنعاء القديمة في مكان واحد, مهن رائجة كصناعة المشغولات الفضية والعقيق والجنابي ومهن صامدة كالعطارة ومهن اندثرت وغاب صيتها مثل الكوافي.



منظر عام لباب اليمن من الخارج وهو الآن المنفذ الوحيد لأهل صنعاء القديمة بعد أن كانت هناك ست بوابات بالحجم نفسه.

المكان الفسيح تعبق فيه روائح التوابل الحارة والحبوب والبخور وأصوات أصحاب البسطات تصدح كل يحمل في يده عينات من بضائعه الملونة وبجانب أولئك الباعة جلست مجموعة من المتأملين لا عمل لها أو هدف سوى التفرس بخلق الله, ويقال إن هذا المدخل المزدحم هو المكان المفضل للنشالين منذ الأزل لمزاولة أعمالهم خاصة مع من يضعون نقودهم في جيبهم الأعلى ويقف لهم بالمرصاد مجموعة من الحرس مهمتهم ترديد عبارة (جيبك.. جيبك) لتنبيه الناس أما من يتم القبض عليه متلبسا بالسرقة فسوف يتعرض إلى أسوأ موقف في حياته.

بكل لغات العالم

أصابتني الحيرة من أين أبدأ؟.... ومن أي اتجاه أسير؟ إن هذه المدينة الزاخرة بمئات الشوارع الضيقة والتفريعات اللامنتهية لا قبل لي بها, لقد تركت هذه المعضلة لمن سبقوني في التعرف على هذه المدينة وخبروها, ومن حسن حظي فقد تكفل الدبلوماسي الشاب خلف بوظهير من السفارة الكويتية باليمن ومرافق يمني بهذه المهمة الصعبة, خلف اختار لي يوم الجمعة لتنفيذ هذه الجولة الطويلة لأنه في غير يوم الجمعة فلن أستطيع التقاط صورة واحد من شدة الزحام, وبشرني أن الحيرة التي أعانيها ستزول قريب,ا لأن أسواق صنعاء القديمة كل منها متخصص في بضاعة معينة وما علينا سوى المرور عليها الواحد تلو الآخر, دخلنا بالسيارة الجيب باب اليمن وكان أصحاب البسطات عند البوابة التاريخية يتقدمون عمليات البيع والشراء واتجهنا ببطء شديد نحو اليسار إلى أن ركنا عند بقالة صغيرة, أصحاب البسطات تجدهم واقفين على اليمين واليسار كأنهم فرقة استقبال رسمية للداخلين وتنافسهم يزداد حدة عندما يدخل فوج من السياح الشقر المشغوفين بسحر الشرق, وربما لو كانت هنالك ست بوابات كما كانت عليه المدينة القديمة عند إنشائها لخفت الزحمة عند تلك البوابة اليتيمة, هؤلاء الباعة المصطفون يمينا ويسارا قد يظنهم البعض متأخرين ثقافيا إلا إنهم عكس ذلك فهم يتلونون لغويا حسب الزبون فمع الألماني هم ألمان أقحاح ومع الإنجليز يصبحون كجبال الجليد ومع الفرنسيين يتحدثون بلسان فولتير, بالمختصر فإن أغلب الباعة في صنعاء القديمة يجيدون العديد من اللغات الرئيسية لزوم لقمة العيش.

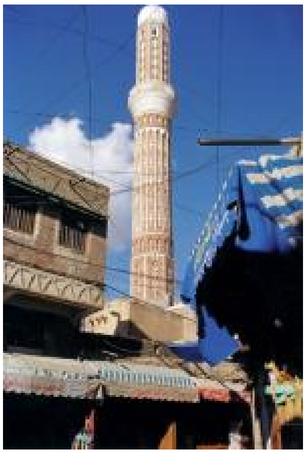


قد يبدو هذا المحل الصغير الذي يبيع المشغولات الفضية والعقيق والجنابي عاديا ولكنه في حقيقة الأمر يعد واحدا من أبرز المحلات في صنعاء القديمة التي تشارك في معارض عربية ودولية لتمثيل اليمن في الخارج.

نمط معماري موحد

تكاد تكون جميع المنازل في صنعاء القديمة متشابهة إلى حد كبير في مكوناتها الخارجية والداخلية كما علمت لا حقا, مساكن مبنية بصخور البازلت والطوب الطيني وخطوط عريضة من الجص

الأبيض مسحت على أطراف النوافذ والبيوت وكأنها وضعت لتحديد وإبراز معالم كل بيت, كل منزل لا يتجاوز ارتفاعه خمسة طوابق والتقسيم المتعارف لسكان تلك البيوت هو الأدوار العليا للرجال وبخاصة الدور الأخير والأدوار السفلية مخازن للحبوب وحوش لتربية بعض أنواع الحيوانات المفيدة لاحتياجات المنزل, أما الأدوار الوسطي فهي للنساء والمطبخ عادة ما يكون بجانبهم, وإزاء هذا التشابه المتكرر في البيوت سألت نفسي ماذا لو جاء شخص يسأل عن بيت من تلك البيوت هل يستعين بخريطة؟ أو يبحث عن دليل يرشده ؟



أثناء سيرنا في شوارع صنعاء القديمة برزت أمامنا مئذنة مسجد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

هذه البيوت التي تتشابه تماما محرم على أصحابها إدخال أي تعديلات أو ترميمات عليها دون إذن من الهيئة العامة للحفاظ على المدن التاريخية, فهي الجهة المخولة بالقيام بتلك المهمة خوفا من تشويه النسق العمراني القديم والموحد للمدينة, وبالرغم من ذلك الحرص تسببت بعض عمليات الترميم العشوائي لبعض البيوت في تدخل مجلس التراث العالمي التابع لمنظمة اليونسكو في منتصف العام الماضي 2002 الذي لوح بإسقاط مدينة صنعاء القديمة من قائمة التراث الإنساني إذا لم تتخذ إجراءات مشددة للإبقاء على الطابع المعماري للمدينة ووقف كل عمليات البناء والترميم فيها.



الجيل الجديد من أهل صنعاء القديمة يبشر بأن الحياة في المدينة القديمة ستستمر كما بدأت قبل مئات السنين. في هذه الصورة وجدنا في طريقنا هذه المجموعة من الشباب الصنعاني في لحظة مرح ممتزجة بطموحات المستقبل وتحديات الحاضر.

العطارة باقية

مررنا على سوق العطارين فوجدناه صامدا أمام تحولات الزمن, يقولون هناك إن أصول المهنة قد تم انتهاكها عدة مرات في السنوات الأخيرة, فقديما كان العطار يرث أسرار تلك المهنة من أبيه وجده أما اليوم فما أكثر الطارئين الذين يخلطون الملح مع السكر ويبيعونه على أنه دواء فيه شفاء للناس, كما انضمت لمحلات العطارة بضائع لا علاقة لها بمهنة العطارة ربما تم إقحامها لجذب الزبائن وتحريك السوق. في المقابل سحبت من تحت أقدام محلات العطارة بضائع أخرى كان العطارون هم الراعي الرسمي لها مثل العطور والتوابل التي أصبحت لها أسواق قائمة بذاتها, أما أكثر ما أجمع عليه العطارون الذين التقينا بهم فهو إزعاجهم من العطارين المتجولين ومحلات العطارة التي افتتحت خارج المدينة وحرمتهم من الزبائن الذين كانوا يأتون خصيصا من أجلهم.

الشباب هجر العمائم

وبالرغم من حديثنا السابق عن ثبات عقارب الساعة في مدينة صنعاء القديمة فإنني لاحظت بعض الاختلافات بين ملابس كبار السن وجيل الشباب فمع التزام الجميع بوضع الجنبية (الخنجر المعقوف) مثبتة بحزام على البطن, مع ارتداء الجاكيت على الثوب و أحيانا قميص مع إزار فإن عادة لبس العمامة تكاد تكون منعدمة عند الشباب الذين فضلوا ترك رءوسهم مكشوفة ووضع الغترة على الكتفين وفي أحيان كثيرة ربط تلك الغترة وتثبيتها على الرأس, وفي السابق كان من العيب على أي رجل الخروج من مسكنه دون عمامة,

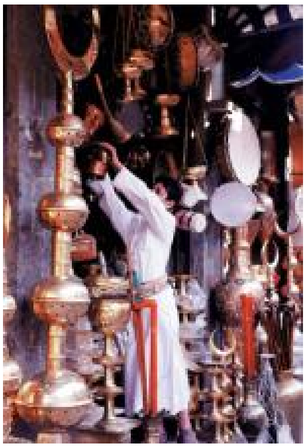
هذا التحول في جيل الشباب بهجرهم للبس العمائم والطاقية أسفلها ساهم في اندثار تلك الصناعة واختفائها, وطوال وجودنا داخل أسواق مدينة صنعاء القديمة لم نر محلا أو بائعا متجولا واحدا يبيع تلك الأشياء.



في منطقة السايلة الملاصقة لمدينة صنعاء القديمة يبرز في أسفل الصورة على اليسار الشارع ذو الاتجاهين. هذا الشارع يمتلئ عن آخره بالمياه بفعل موسم الأمطار.. ويلاحظ وجود جسر للمشاة لتمكين سكان المنطقة من التنقل بين الضفتين.

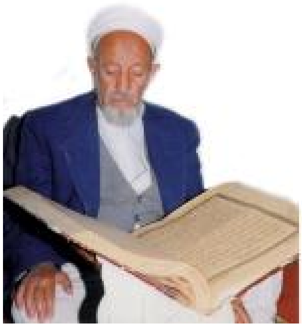
صنعاء القديمة من علبائها

وبينما كنا نقطع الطرق والأزقة الضيقة انحرف مرافقنا اليمني يمينا تجاه أحد المنازل القديمة الذي بدا انه يعرف جيدا صاحبه وأخذ بالطرق القوي على بابه الخشبي القديم الذي لم أشك بتاتا أن عمره تجاوز المائتي عام بصورة كاد أن ينخلع معها, أخذ المرافق ينادي يا عبد الله يا عبد الله أين أنت؟ مرافقي نظر إلي وابتسم ابتسامة ذات مغزى ثم قال (اليوم جمعة وصاحبنا بالتأكيد جالس مع زوجته يخزنان القات معا)..! لقد عرفنا معلومة جديدة وهي أن التخزين يوم الجمعة عائلي, وما هي إلا دقائق معدودات حتى هبط علينا عبد الله وفتح لنا الباب الضيق يتقدمه حشد من الأطفال بمختلف الأعمار, عبد الله شاب في منتصف الثلاثينيات حسن النظر والملبس, ألقى علينا التحية ثم صافحنا بحرارة وعندما جاء دوري لم أشاهد من وجهه سوى صدغه المنتفخ والمملوء بالقات وفمه المقفل بأحكام ما عدا فتحة صغيرة كان يتحدث منها بصعوبة برزت منها أسنان مخضرة بفعل القات لم أشاهد مثلها من قبل بهذه الدرجة من الاخضرار, خلف أفهم عبد الله (أنني) صحفي من (العربي) يريد التقاط بعض الصور لمدينة صنعاء القديمة من عل فهل بالإمكان السماح له بذلك?, كما شدد عليه بعدم القيام بأي واجب من واجبات الضيافة خاصة تجهيز (المقيل), الجواب عرفناه من استدارة عبد الله نحو الباب الداخلي وصياحه على أهل بيته (طريق للضيوف).



يقوم هذا الصبي بصف مصنوعات هذا المتجر المتعددة وتنظيفها أولا بأولا حتى تغري عيون المارة ببريقها اللامع وكثيرا ما يتوقف السياح الأجانب عند هذه المتاجر القديمة للتمعن وشراء بضائعها النادرة.

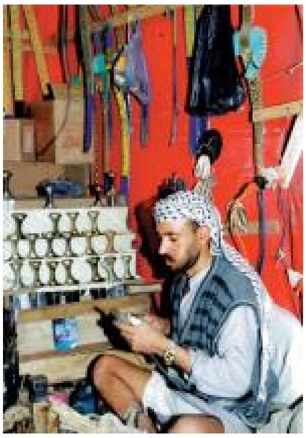
دلفنا إلى الداخل وأطفال البيت يحيطون من حولنا, ووجدت فرصة سريعة لأسأل خلف عن موضوع القات المخضر بفم عبد الله فرد علي (أنت لم تشاهد التخزين الأصلي حتى اللحظة من أهل صنعاء وما رأيته هو الوضع الطبيعي وما سواه هو إما تخزين خفيف أو في بدايته), تفكيري بالإجابة أنساني السلم المتعب الذي كنت أصعده وفجأة توقفت من شدة الإنهاك وتقطعت أنفاسي وحدث الشيء نفسه مع خلف الذي ذكرني بحكاية نسبة الأوكسجين القليلة المتوفرة في المناطق المرتفعة عن سطح البحر, عبد الله استغل الموقف ودفعنا نحو غرفة خضراء بألوانها وأثاثها مستطيلة الشكل تطل نوافذها (القمريات) على باقي بيوت صنعاء وقد اتخذت من إحداها منصة لعدستي وقلت لزملائي ممازحا والكلمات تخرج مني بصعوبة (المكان هنا جيد للتصوير.. لا داعي للذهاب أعلى), كلماتي وقعت على مسامعهم كالنكتة فانفجروا من الضحك, أثناء جلوسنا علمنا أن الغرفة الخضراء التي امتدحناها كثيرا كانت في مساء الأمس مسرحا لعرس صنعاني خسرت حضوره وإلا كنت قد فزت بكنز هائل من الصور النادرة.. ملابس.. جنبيات.. رقصات شعبية.. أغاني تقليدية, وغيرها من عادات وتقاليد أهالي هذه المنطقة, ولكن من



منظر عام للساحة الداخلية للجامع الكبير ويبدو على يمين الصورة مجموعة من رواد الجامع في لحظة استرخاء.

حسن حظي فقط علمت أن عادة استعارة البيوت الواسعة من قبل الجيران لإقامة الأفراح فيها أمر دارج في صنعاء القديمة, وعرس الأمس مثال حي على تلك العادة التكافلية التي لم تندثر حتى الآن.

مثلما شعرنا بالتعب والإرهاق فجأة شعرنا لاحقا بالراحة الكبيرة فجأة وكأن الغرفة الخضراء محطة للوقود تزودنا فيها بالبنزين لنواصل بعدها النصف الثاني من صعودنا نحو الأعلى, وبجهد أقل ووقت أقصر وصلت إلى غايتي وما أجمل ما رأيته, صنعاء الجميلة بأكملها تحت ناظري وجبال السراة الشاهقة تحيط بها, منظر ساحر أوهمني بأنني عبثت بآلة الزمن الخرافية لتعيدني إلى الوراء ألف سنة ولولا أطباق البث الفضائي المنتشرة على سطوح أغلب المنازل المجاورة لما صدقت أنني أعيش في القرن الواحد والعشرين, لحظات الانبهار التي فرضتها علي ظروف المشهد المرتفع بدأت بالتلاشي شيئا فشيئا وتمكنت من ملاحظة العشرات من المآذن ومن بينها مئذنة مسجد الإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه التي كانت قريبة من المنزل الذي اعتلينا سطحه, وبرزت أمامي (المناظر) التي سمعت عنها والتي تعني المكان المخصص لجلوس الرجال في الأدوار العلوية لتخزين القات وعقد جلسات الطرب والسمر المرافقة لها عادة, بقيت على هذه الحالة من التمعن والرصد إلى أن قررت مواصلة باقي جولتنا... الغريب أن نزولنا على درجات السلم كان مريحا ولم يستغرق سوى ثلاث دقائق فقط محسوب معها التحيات والقبلات.



صناعة الجنبيات لاتزال رائجة في أسواق صنعاء القديمة واليمن بأكملها, وفي أحد المحلات الكثيرة التي تبيع تلك الخناجر المعكوفة جلس هذا الرجل ليصنع جنبية جديدة لمشتر سيأتي عن قريب لا محالة.

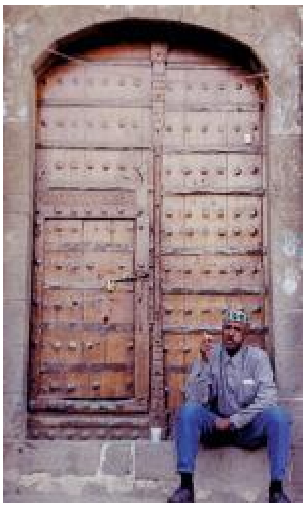
الجامع الكبير

اتجهنا مباشرة إلى الطريق الذي يقودنا نحو الجامع الكبير الذي يعد من أقدم المساجد في الإسلام حيث بني في السنة الثامنة للهجرة بأمر من الرسول عليه الصلاة والسلام على أنقاض كنيسة أبرهة الأشرم الذي سعى لهدم الكعبة المشرفة وتحويل الناس إلى كنيسته فخاب مسعاه بعد أن أرسل الله له طيرا أبابيل رمته وجنوده بحجارة من نار فأهلكهم جميعا, وقد اتخذ هذا الجامع الواسع نفس الطابع المعماري للحرم المكي وحين مررنا عليه رأينا المؤمنين بداخله ركعا وسجداً يبتغون فضلا من الله ورحمة.

كارثة بالطريق

هذه السعادة التي غمرتني برؤية بيت من أشهر بيوت الله لم يكتب لها الاستمرار طويلا, فخلو بعض المساكن المحيطة بالجامع الكبير من سكانها أثار عندي الفضول لمعرفة السبب... ويا ليتني لم أعرف فالناس هناك أخبروني بالكثير عن الخشية من سقوط تلك المنازل - وغيرها - على رءوس أصحابها بسبب الرطوبة التي تهدد أساسات غالبية بيوت حي الجامع الكبير والناتجة بالأساس من انسداد أنابيب المجاري منذ عدة سنوات ويقال أن عيوبا فنية رافقت عملية رصف شوارع المدينة هي التي تسببت بانسداد الأنابيب. بعض الأهالي يقولون إن الخطر لا يقتصر على انهيار منزلين أو عشرة بل

الخطر قد يصل إلى عدة انهيارات متلاحقة للمنازل الأخرى أشبه بقطع الدومينو تتسبب بحدوث كارثة إنسانية يذهب ضحيتها المئات من الناس, ولا تزال العرائض والمناشدات بخصوص هذه القضية تقدم إلى المسئولين دون جدوى.


عند بوابة المركز الوطني للفنون المغلقة يوم الجمعة جلس هذا الرجل الأسمر بلباسه غير المألوف على أهل صنعاء القديمة ليدخن سيجارته. لاحظ صغر باب المدخل.

العقيق الخارق

في طريق العودة أصر مرافقنا اليمني على ضرورة مشاهدة محلات بيع الخواتم التي بالفعل مررنا على الكثير منها, سألني ألم تسمع عن الخوارق والكرامات التي من الممكن أن تكتسبها من لبسك لخاتم من العقيق ? سألته بدوري: هل أنت جاد في كلامك? ابتسم وقال لي أنت من السياح القلائل الذين يأتون إلى اليمن ولا يسألون عن الحجر الكريم ويقصد العقيق, نحن في اليمن لم نكن نعرف مكانة العقيق سوى من خلال بعض العرب والمسلمين الذين قاموا بالتوافد علينا أخيرا والذين بسببهم انتعشت هذه الصناعة وراجت, خلف تدخل في هذا الموضوع وقال: لنذهب إلى هذه المحلات فهي في طريق عودتنا على كل الأحوال, في المحل الأول قالوا لنا إن العقيق الأحمر يبعد العقارب والعناكب, في المحل الثاني قالوا عن العقيق نفسه انه لا يخيب أمل الرجل في الفراش ويزيد من نسبة الذكاء ويجلب الرزق والبهجة لكل من اقتناه.. أوهام ما بعدها أوهام وخرافات ما بعدها خرافات.

وتكرر الكلام نفسه في المحلات التالية ما عدا محل واحد به رجل متخصص حدثنا عن العقيق دون أساطير, فهناك منه أنواع كثيرة من أشهرها الأحمر والمصور والمزهر والبني, وهو في اليمن غير نادر ومتوافر في كل مكان ولكن أنواعه وأحجامه المختلفة التي تم حقنها بالكثير من الخرافات هو الذي أعطاها هالة من التأثير على بعض الناس الذين تدفعهم ظروفهم اليائسة أو قلة إيمانهم إلى التردد بصورة متكررة على تلك المحلات للبحث عن العقيق الخارق الذي سيحل لهم جميع مشاكلهم.

آخر ما عرفناه في سوق العقيق أن له قراء متخصصين مثل قراء الكف والفنجان وظيفتهم قراءة فص العقيق وتحديد المنفعة التي يجلبها كل فص ولقاء ذلك يتقاضون مبالغ طائلة من الأموال.

بندقية صنعاء

محطتنا الأخيرة بعد أن خرجنا من باب اليمن كانت جولة في السيارة, اتجهنا يمينا بمحاذاة سور المدينة القديمة ثم انعطفنا مرة أخرى إلى اليمين ولكن هبوطا إلى الأسفل, في الحقيقة لم ألحظ ما هو غريب أول الأمر, شارعان مختلفا الاتجاه ونحن نسير على أحدهما, خلف فاجأني بقوله (إن هذا الشارع في موسم تساقط الأمطار الغزيرة يمتلئ بالماء عن آخره فنحن نسير في نفق مفتوح بعمق خمسة أمتار تقريبا تم تصميمه لهذا الأمر) ثم أشار بسبابته (انظر إلى حد الماء الذي رسم نفسه على الجدار إن كل ما أسفله

باللون الداكن نسبة إلى وجود الماء طوال ذلك الموسم), وعرفت أن هذا المكان يسمى السايلة لان المياه تسيل فيه بين مدينة صنعاء القديمة وما جاورها من مناطق كأننا في مدينة البندقية الإيطالية. إن العجائب في هذه المدينة المتحفية لا تريد أن تفارقني حتى بعد أن غادرتها وكأنها تدعوني لزيارتها مرة أخرى

إبراهيم المليفي

الصفحة الرئيسية | أعلى الصفحة

اعلانات

منصات التواصل الاجتماعي

الرئيسية

العربي الصغير

كُتَاب العربي

كُتَاب العربي الصغير

أرشيف العربي

أرشيف العربي الصغير

استطلاعات

ملتقيات العربي

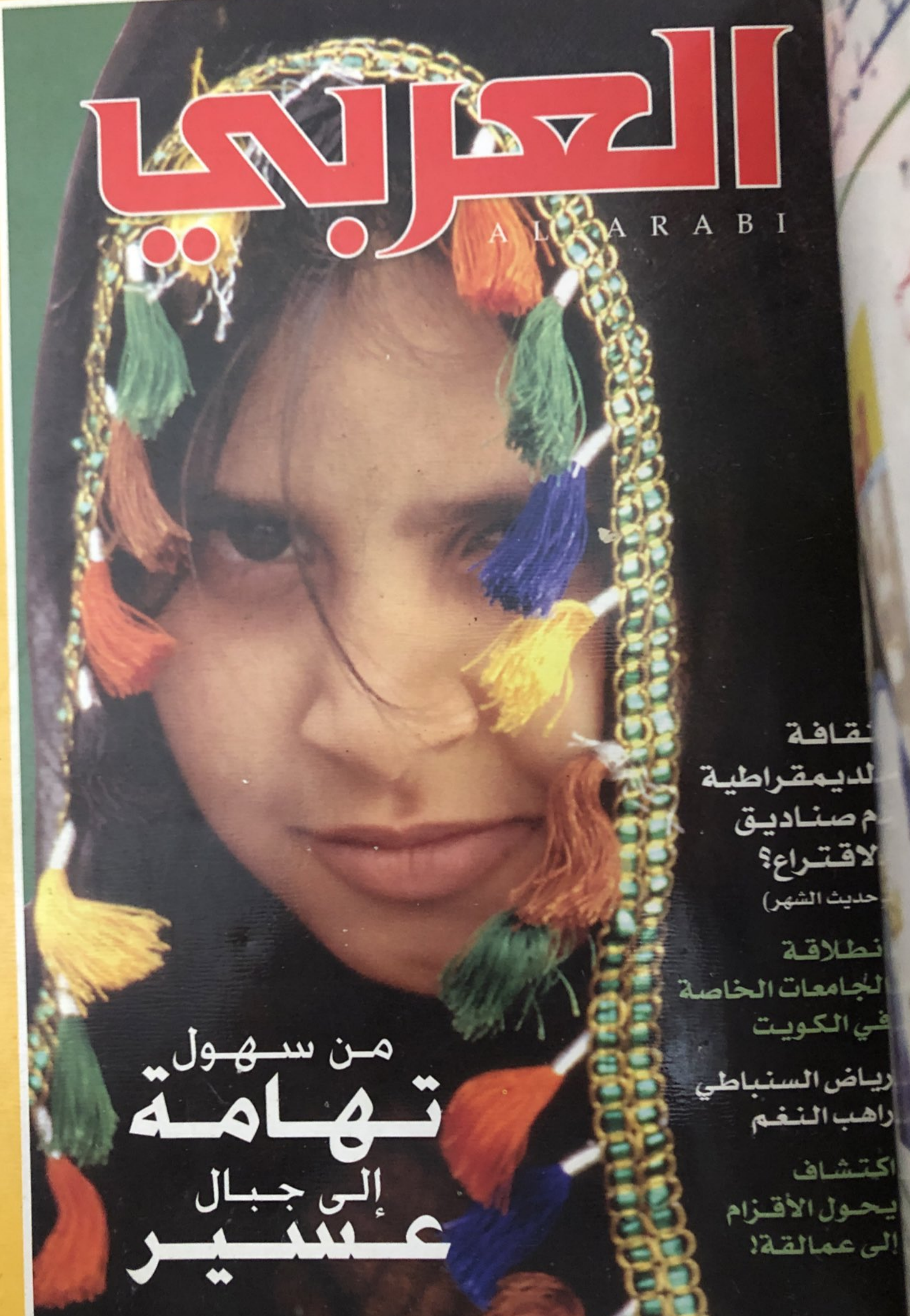
اتصل بنا

نبذة عن العربي

الاشتراكات

القصص الفائزة بالمسابقة

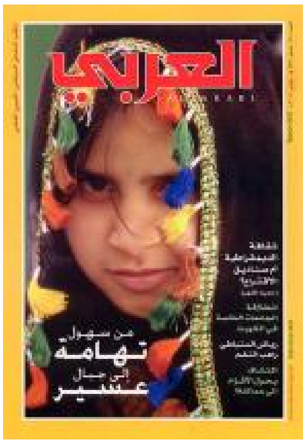
اطلب الملحق المجاني: العربي العلمي



من سهول تهامة إلى جبال عسير

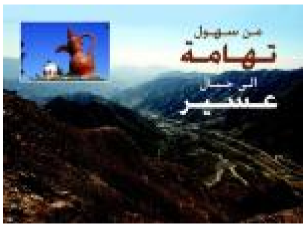
بواسطة أشرف أبواليزيد | استطلاعات | العدد ٥٨٠

من سهول تهامة إلى جبال عسير



صورة الغلاف

نَنطلقُ من شواطيء البحر الأحمر، حيث تبدأ سهول تهامة، نسير باتجاه سفوح نَجْدٍ في الشرق من منطقة عسير، بالجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية، وصولا إلى قمم جبال السروات، سنجد قصصًا للماضي، وأخرى للحاضر: هنا مرت فيلة أبرهة الحبشي الذي جاء لهدم الكعبة المشرَّفة واحتلال الحجاز، وهناك عاشت قبيلة ثمود وبقيت آثارها نقوشًا وكتابات، هنا شُقت طرق التجارة القديمة لرحلة الشتاء والصيف من مدن اليمن السعيد إلى أسواق مكة المكرمة، وهناك ـ أيضا ـ بيوت عسير التي عاشت تتحدى الزمن، فلما غلبها أو يكاد، أورثت نمط عمارتها وفنونها للأحفاد، فنسخوا شواهد معمارية عصرية تحمل جينات الأولين. وهنا يُكتبُ الحاضر في دفتر النهضة، حواضر للعلوم والثقافة. وما بين التاريخ والفن، وما بين الماضي والحاضر، وما بين سهول تهامة وجبال عسير، وثقت الكلمات حينا من الزمن، في لحظة فارقة تعيشها هذه المنطقة.



ما إن ألقى بنا الليلُ خارج المطار الإقليمي لمدينة أبها، حتى غرقنا في نهر من الأضواء الملونة، لم يكن يضيء الطريقَ القمرُ وحدَه؛ وقد كاد يكتمل بدرًا، بل تحولت أشجار النخيل إلى نافورة يتحرك تمرها نورًا على جانبي الطريق نحو قلب المدينة. وعلى الرُّغم من أن رحلتنا إلى منطقة عسير في الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية كان معدًا لها منذ شهور، فإن يوم وصولنا صادف احتفال أبنائها بحلول مليكهم خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود. لم تكن مدينة أبها وحدها المحتفية بهذه المناسبة، بل رأينا ما بين سهول تهامة، إلى جبال عسير، لافتات مرحِّبة، وعبارات متأنقة، وصورًا عملاقة، بها تألقت أبها ونحن نجتاز أسواقها، ونخطو فوق دروبها، ونجتاز عتبات بيوتها التقليدية، نحث الخطوات إلى تاريخ حمل في جنباته من الفن الكثير.


لافتات مرحِّبة، وصور عملاقة، هكذا ترحب أبها

الفنُّ ابنُ الجغرافيا

يقول نقادٌ وباحثون إن الفنون ابنة التاريخ، ولكن المساحات المعمارية، التي مررنا بها، تؤكد أن الفن هو ابن الجغرافيا حقًّا. إن منطقة واحدة كعسير تنبت أشكالا عدة من الفنون المعمارية والسبب يعود إلى الطبوغرافيا المتباينة بشكل حاد. لقد جعل التباين في الارتفاعات للمنطقة مناخات مختلفة. فمنطقة تهامة الساحلية حارة ورطبة وهي التي تؤثر عليها مناخات قارة إفريقيا القريبة منها. وتلي تهامة الساحلية موانع جبلية هي قمم جبال السروات، وقد رأينا قمتها الأعلى والتي تصل إلى 0033 متر، لتنعم بأمطار الشتاء لهبوب رياح الشمال، وأمطار الصيف لمرور رياح البحر الجنوبية. وبين هاتين المنطقتين المتناقضتين مناخيا تتتابع مناطق ذات ارتفاع متباين، حتى تبدأ قمم السراة في الانخفاض بشكل حاد لتصل إلى هضبة نجد الصحراوية.

هذا التنوع الجغرافي والبيئي والمناخي سيفسر لنا التنوع في الطرز المعمارية التي شاهدتها «العربي» في عسير، بما يجعلها مرآة للتنوع، تنوع في الخامات، تشعب في التصاميم، تفرع في الارتفاعات، واستجابة للوظائف الحية. وبعد أن أصبح على المعماري والمصمم والبناء والمزخرف أن ينشيء حوارًا مع البيئة حوله، ظهرت العشة الطينية؛ ذات السقف الخشبي، وبُنيَ بيتُ الحصى؛ المبني من الحجر وله طابق واحد، وأقيم البيت الشعبي الحجري؛ الذي قد يبلغ ارتفاعه الطابقين، وشُيِّدَ القصرُ ذو البرج الحجري؛ الذي يتألف من طوابق تصل إلى الخمسة، ومن صوره القصبة المبنية من الحجر الجاف والمزخرفة بحجر المرو، كما أُعْلِي الحصنُ؛ وهو برج طيني جدرانه تتألف من طبقات طينية تسمى المداميك، وأخيرًا كان القصرُ الذي سمي بطراز أبها، وهو عبارة عن جدران من الحجر لا يربط بينها شيء، تعلوها جدران من الطين، مغروس بين طبقاتها ألواح من الحجر (رقف) لحماية الطين من مياه الأمطار (وهي أيضا لتظليل الفتحات، وربما لاستراحة الطيور!).

هذه الرقف الحجرية، التي تشبه ألواحا من الفولاذ، وهي ذات أسنان حادة، استبدلت أولا في التصميمات العصرية بأفاريز بارزة من الطوب، ثم تطور الاستلهام بأن أصبحت مجرد خطوط مقلَّمة، أو خطوط سطحية سوداء، أو حفر بسيط خارجي ومتدرج، أو شرائط خطية من الزجاج الداكن. هذا التحول يعد سمة معمارية تسعى للتبسيط والإحلال دون إخلال. فبعد أن شيد البناء من الأسمنت، لم تعد رقف الحجر مطلوبة للتقوية، أو الحماية من المطر، وبعد أن دخلت المكيفات لم تعد الرقف ضرورية للظل والتهوية. (وبقيت البيئة الخضراء بأشجار النخيل والسرو والصفصاف وغيرها تقدم غصونها للطيور!).

عمارة وفن يتحديان الزمن

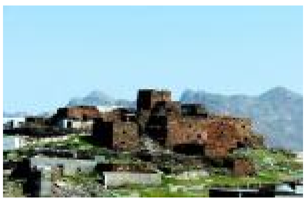
تنطلق بنا السيارة فوق شريط أسفلتي عملاق تمتد يده حول خاصرة الجبال. المشهد أسطوري، حيث تمتد السهول الخضراء بساطا في

بخادم الحرمين الشريفين



حين نتأمل عن قرب التكوين الجداري للبيوت التقليدية في عسير، أو تلك التي تبنى على نسقها، نجد مساحات لونية بلا حدود. وتتبنى عسير أشكالا عدة من الفنون المعمارية، تختلف في شكلها لكنها تأتلف في جماليات استخدام الحجر





تؤكد المساحات المعمارية، التي مررنا بها أن الفن هو ابن الجغرافيا حقًا. لقد جعل التباين في الارتفاعات للمنطقة مناخات مختلفة. وهذا التنوع الجغرافي والبيئي والمناخي يفسر لنا التنوع

سفح الجبال. كنا في الطريق نحو «رجال ألمع» التي أعيد ترميمها بالكامل، وظلت تحافظ على هويتها الحجرية، بل ويقام في سفحها مسرح للعروض التقليدية. في مضافة ملحقة بالقرية نتأمل المشهد الاستثنائي. في طريق أخرى إلى منتزه فرعاء الذي يقع بعد 28 كيلومترا من أبها. نصعد فنرى كيف تبدو السهول أسفل الوادي من عل: سجاد أخضر منقوش بخيوط الأسفلت التي تشير للطرق، وتوشيح الحب الأخضر بدرجاته الذي يدل على الغابات. تدهشنا مشاهد القردة التي توزعت على مجموعات تتقافز في حرية تامة بين الأشجار، وكثيرًا ما يتحلقون حول كبير لهم يعتلي صخرة، وما أضخم الحجر هُنا. إنه ينبت مثلما تنمو الغابات؛ ضخما وذا أشكال أسطورية، ألم تكن خامة الحجر سر العمارة الحجرية في عسير؟

تدينُ العمارة العسيرية التقليدية للمربع كشكل هندي بقدرته على احتواء كل مقومات الإبداع المعماري. فالمربع الذي يتقلص حجمه إلى مربعات أصغر، فأصغر، كلما ارتقينا للأعلى، يبرز دقة البناء، وتميزه البصري، من ثباته في الأرض، إلى دخوله إلى السماء بشكل متناغم، سواء كان ذلك بيتا من طابق واحد، أو برجًا شاهقا بأدواره، وقاعدته التي قد ترتفع آلاف الأمتار عن سطح البحر في بعض الأحيان.

كانت تلك الأبراج العالية، تعطي الفرصة لسكانها ـ وهي تنهض وسط طبيعة خضراء وجبلية متواترة ـ بتأمل الجمال فيما حولها. مثلما كانت تستخدم أيضا لمراقبة الأراضي الزراعية، أو لأغراض دفاعية كما هي الحال في عمارة القصبات، التي تدافع من أعلى، وتستخدم كمخازن في الأسفل.

وإذا تأملنا القاموس المعماري في عسير التراثية وجدناه يشرح نفسه، ويضيء معاني هذه الأشكال البديعة بصريًا. فاللهوج ـ ومفردها لهْج ـ هي الفتحات العلوية التي تستخدم نوافذ تهوية وإضاءة في الغرف والمجالس، والمضارب هي فتحات في البناء تضيء الأدوار السفلية فيه المستخدمة كمخازن أو حظائر وتسمى ريشا أو سبقا، والمدماك هو أساس حائط الطين الذي يبنى على درجات من المداميك، وتصنع من الطين المخلوط بالماء والقش، وبعد أن توضع يومين في الشمس تجف وتقسو لتصلح كاستخدامها في البناء، والمعدال هو الكمرة الرئيسية التي تتخذ من جذوع الأشجار وتحمل فوقها كمرات ثانوية تسمى سواري أو سهامًا لحمل السقف. والصوبا هو النحت الذي يزخرف به إفريز البناء وأسواره، والتشاريف هي الحليات البارزة من الطين وتبنى على كوابيل من الخشب بطول الجدران لتقويتها، والنوبة هي غرفة النوم، وغالبا ما يزنها اللونان الأصفر والأخضر، مع اللون الأبيض الأساسي.

حين نزور معالم أبها، يتكشف لنا كيف يتم ترويض العمارة الحديثة في منطقة لها مقومات تراثية غنية، وقرب سد أبها، وفي الليل، لا نستمتع بعروض الصوت والضوء وحدها، فهناك تنهض أيضا منشآت

في الطرز المعمارية سواء في الخامات، أو بالتصاميم، والإرتفاعات



يقوم في أعلى الحصن برج طيني جدرانه تتألف من طبقات طينية تسمى المداميك، تغرس بين طبقاتها ألواح من الحجر (رُقف) لحماية الطين من مياه الأمطار، وتظليل الفتحات. وقد استبدلت في التصميمات العصرية بأفاريز بارزة من الطوب





عصرية تخدم مستقبل المنطقة السياحي. فبالإضافة للفنادق الرئيسية بالمنطقة هناك كلية الأمير سلطان للسياحة والإدارة بأبها، التي تستفيد من بيئتها التراثية وتمنح درجتين علميتين هما دبلوم في السياحة والإدارة وبكالوريوس في إدارة السياحة والفندقة، لتأهيل كوادر تلبي حاجات قطاع السياحة المتنامي. إنها رؤية تحاول أن تتقدم خطوات نحو تنمية المجتمع المحلي بالاستفادة من مقوماته الطبيعية ومكوناته التراثية.

في منزل أبو ملحة



قرب إمارة أبها الجديدة، نقترب من منزل يُعبِّرُ عن عمارة عسير بصريا ومعماريا. وبالرغم من أن بناء المنزل تم على مراحل، فإنه يعد منزلا واحدًا ذا هوية موحدة. وكان جد عائلة أبو ملحة من أتباع الملك عبد العزيز آل سعود، وبنى الجد الجزء الأساسي من المنزل في 1942، وتميز ـ آنذاك ـ بأنه أكبر حجما في غرفه، وأطول بناء في برجه، من باقي منازل عسير. وحين ضاق المنزل على ضيوفه الكُثر، أضيف له جزء آخر سنة 1954، بواجهات خارجية تحتفظ بالتراث العسيري، أما التوسعة الثالثة (1958)، فجاء تخطيطها على النمط الحجازي، واستخدمت كمضيفة ومكاتب إدارة. كان هذا البيت غير بعيد عن قصر شدا، الذي بني قبل ثمانين سنة، ليكون قصرًا للمقاطعة بأمر من الملك عبد العزيز آل سعود. وقد أصبح اليوم بعد ترميمه مركزًا للمأثورات الشعبية، بعد أن لبى أبناء عسير النداء برفد القصر بمقتنيات تاريخية.



أنشأ المعماري والمصمم والبنَّاء والمزخرف حوارًا مع البيئة حوله، فظهرت العشة الطينية؛ ذات ا السقف الخشبي، وبُنيَ بيتُ الحصى؛ المبني من الحجر وله طابق واحد، وأقيم البيت الشعبي الحجري؛ الذي قد يبلغ ارتفاعه الطابقين، وشُيِّدَ القصرُ ذو البرج الحجري

نعود إلى منزل أبو ملحة الذي يكشف التوسع الذي تم به عن استجابة البناء للحاجات الإنسانية للامتداد الأفقي، فإنه يدعم أيضا فكرة النمو المتدرج، ويؤكد كذلك استخدام الخامات المحلية في البناء. ففي التصميم الداخلي للمنزل رأيت غلبة اللون الأخضر الذي كان البنَّاء يحصل عليه بخلط الأعشاب الخضراء مع الجبس حيث تطلى به الجدران، ويبقى محافظا على جودته فترة طويلة قد تصل إلى خمس سنوات.

يعكس منزل أبو ملحة طريقتين في البناء مستوحاتين من مدينتي أبها وخميس مشيط. فاستخدام حجارة الرقف يعود بطريقة البناء إلى أبها، واستخدام الطين المخلوط بالقش يرجع إلى خميس مشيط. كان بناء المنزل يبدأ بتخطيط الأرض غرفا، فإذا وافق صاحب المبنى على المخطط بدأ العمل. وتحفر الأرض حتى المستوى الصلب لها، ثم يملأ الحفر بالحجارة لارتفاع بين متر ونصف إلى مترين. ويقع المنزل بجوار جامع الملك عبد العزيز، ويشكل الجامع مع المنزل والإمارة مع الفضاء أمامها جملة كاملة في كتاب العمارة العسيرية، ما بقي منها قديمًا وما استلهم منها حديثا. وتجسد كتلة جامع الملك عبد العزيز بمنارتيه اللتين تجددان العهد مع التراث العسيري حضورا قويا.

إن العمل المبدع للعمارة يُلزم المصمم تبني الحداثة، وأن يعيد ابتكار شكل البناء وفقا لمتطلبات العصر، وأن يفعل ذلك كله دون أن يقع في

خطأين معمارين دارجين: أن يعمد إلى القص واللصق لا يفهم الحاضر وطبيعته المغايرة للماضي، فيتحول قاطنو البناء «المُجمَّع» وفق تركيبة مقلّدة إلى كائنات تراثية، وليس كائنات لها تراث. أما الخطأ الثاني فهو الإلغاء، بالتخلي عن التراث المعماري باعتباره لا يصلح.



أنشأ المعماري والمصمم والبنَّاء والمزخرف حوارًا مع البيئة حوله، فظهرت العشة الطينية؛ ذات ا السقف الخشبي، وبُنيَ بيتُ الحصى؛ المبني من الحجر وله طابق واحد، وأقيم البيت الشعبي الحجري؛ الذي قد يبلغ ارتفاعه الطابقين، وشُيِّدَ القصرُ ذو البرج الحجري

وهذان الخطآن ينجمان من عدم فهم للعمارة التقليدية وطرائق تجديدها واستلهامها.

ولذلك كله لا نجد الاستلهام الحداثي وقفا على جامع الملك عبد العزيز ومبنى الإمارة وحدهما، فهناك مبنى الاتصالات، ومبنى الخطوط السعودية، ومبنى التأمينات الاجتماعية، والمكتبة العامة، والفنادق والمجمعات السكنية الجديدة. والواضح فيها جميعا ضخامة الكتلة المعمارية، كما لو تم تكبير الفراغ الهندسي والمعماري بشكل تناسبي، ليفي بحاجات المجتمع الحديثة. كما نلاحظ أيضا دخول الزجاج كواجهات شافة وعاكسة في الوقت نفسه، لتعالج الواجهات الضخمة المصمتة. كما تم اختزال الشرائط المزينة إلى أقل حد، واحتفظ بحجم النوافذ صغيرًا، كما كان في الماضي. ونحن نعلم أن تلك الفتحات الصغيرة التي استخدمت لدخول الهواء والضوء، كانت تمثل حافظات لحُرمة المكان، فضلا عن وقايتها للسكان من الشمس اللاهبة.



أنشأ المعماري والمصمم والبنَّاء والمزخرف حوارًا مع البيئة حوله، فظهرت العشة الطينية؛ ذات ا السقف الخشبي، وبُنيَ بيتُ الحصى؛ المبني من الحجر وله طابق واحد، وأقيم البيت الشعبي الحجري؛ الذي قد يبلغ ارتفاعه الطابقين، وشُيِّدَ القصرُ ذو البرج الحجري

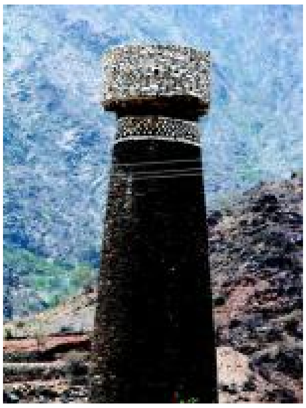
من بعيد يبدو مشهد برج قصر شدا قائمًا وسط المباني الجديدة، كأنه يدٌ من التاريخ تنادي أن حافظوا على تراثكم. حول البرج يقوم مبنى الإمارة، والجامع وبنايات أخرى تشكل زحامًا في سماء كانت ذات يوم خالصة للقصر وحده.

إذا كانت تلك المباني «الضخمة» تمثل تجديدًا معماريا متنوعًا، فإن من الأماكن التي احتفظت بالأحجام الأصلية للبيت العسيري كانت قرية المفتاحة التي تضم مركز الملك فهد الثقافي، والتي تحولت إلى استديوهات للفنانين التشكيليين، ومسرح جماهيري فضلا عن أدائها الإداري، حيث تضم هيئة تنشيط السياحة، والقرية تقع في مواجهة أحد أهم الأسواق الشعبية وأقدمها: سوق الثلاثاء. في القرية يعرض علينا أبو طه نسخة نادرة للقرآن الكريم عمرها سبعة قرون، وسيفا من القرن العاشر الهجري، وأغراضا أخرى للحياة اليومية في عسير على مدى عقود، حيث بدأ عاشقا للتاريخ، ليصبح متجره متحفا حيا.نخرج من عند «أبو طه» واليوم الثلاثاء، لنلقي نظرة توثيقية على السوق التي تغيرت عن حالها الأولى، وستستبدل وضعها الحالي في المخطط الجديد الذي وافق عليه خادم الحرمين، وهو المشروع الذي يوصف بوسط أبها، حيث تنشأ فنادق فاخرة ومدينة ألعاب وأسواق ضخمة، تستقطب الذين يعشقون طقس المنطقة المغاير بفضل نسيمه الدائم.

الموجز اليسير في ملابس عسير



يبدأ البحث في التاريخ عن التراث المادي عبر طريقين، سوق شعبية، ومتحف جامع. أمام قرية المفتاحة تصافح العيون لافتة بيضاء صغيرة تحمل باللون الأحمر اسم: «سوق الثلاثاء»، قيلَ لنا إنه المكان الذي يمكنك أن ترى فيه النساء أكثر من أي مكان آخر. صحيح أن السواد يجلل الثياب، لكن أنماطا من الزينة كانت فيما يبعنه ويشترينه. كثيرون يهبطون من الجبل بأغطية الرأس المميزة، وتيجان الورد والريحان تكلل الرءوس.



قرية "رجال ألمع" التي أعيد ترميمها بالكامل، فظلت تحافظ على هويتها الحجرية، بل ويقام في سفحها مسرح للعروض التقليدية. إنها نموذج لإعادة استخدام المناطق الأثرية في تنشيط السياحة الداخلية، وإحياء الطقوس التقليدية، وربط الأجيال الجديدة بتراث أجدادها

اكتشفنا أن ليست النساء وحدهن من يظهرن أو يختفين في هذه السوق الدائرية التي يسلم باب مدخلها لباب مخرجها، وكأنها خلخال في قدم، أو سوار في معصم، فالباعة من الجنسين، وكثيرون من «الشيَّاب» الذين يأتون بشمع عسل النحل المسمى بالسدر، فهذا موسمه. إن إناء متوسط الحجم يساوي 003 ريال سعودي. تدور مع المحلات لتكتشف ماذا تقول الثياب، وبماذا تهمس الفضة، وكيف يكشف المعروض من أدوات، عن المخبأ والمخفي من أساليب حياة. لعل أهم ما يجذبك في الصور الاحتفالية التقليدية أن الرجل العسيري ظلّ حاسر الرأس زمنًا، يطيل شعره، ويفرقه نصفين، ويثبته بعصابة مزينة بنباتات عطرية، كالريحان والكادي والبعيثران. كانت عصابة الرأس من الجلد المزين بالفضة، أو من الفضة الخالصة، أو القش، أو الأشرطة القطنية والصوفية. لكننا في السوق سنتعرف على أشكال أخرى من هذه العصابة، ومنها الرُّدف القطنية. كما أن هناك الكوفية التي تسمى الحدرية (الطاقية أو القبعة)، ومن غريبها المصنوع من قصب الخيزران، بل لعل الطفشة - قبعة من سعف النخيل - هي أطرف أشكال أغطية الرأس التقليدية في سوق الثلاثاء.

أما الدِّسمال (الغُترة)، فكانت تصنع قديمًا من قماش الخام «المبرم»، على شكل مثلث من طبقة قماشية واحدة، لكنها أصبحت - كما هي الآن - مربعًا يثنى على شكل مثلث من طبقتي قماش. أتذكر أصل الشماغ ونحن بإحدى الأسواق العصرية، ونستمع إلى البائع: «في السابق كان الشماغ الإنجليزي وحده هو الأصل، وتعددت أنواعه وأثمانه، لكن الشماغ الصيني دخل في السوق بخمسمائة اسم وشكل، وأصبح أغلى من الإنجليزي». علل البائع ذلك بقدرة الصينيين على ابتكار أشكال جاذبة للنقشات والزخارف الحمراء، وهي طلب الشباب والعصريين. قلت وأنا أتفحص الشماغ الصيني: وداعًا لندرة، وأهلا بكين!

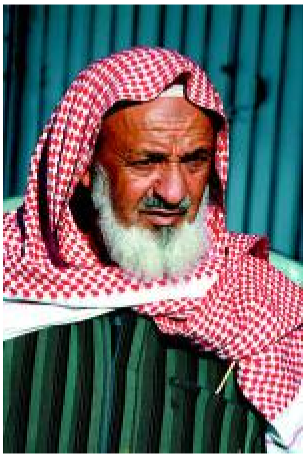


قرية "رجال ألمع" التي أعيد ترميمها بالكامل، فظلت تحافظ على هويتها الحجرية، بل ويقام في سفحها مسرح للعروض

ستتعرف على طقس المنطقة في فصولها الباردة حين ترى الثياب الخارجية للرجال والنساء. فستجد للرجال «الفروة»، وهي عباءة واسعة وطويلة تُصنع من جلود الخراف المدبوغة، يُحتفظ بفرائها من الداخل حتى تحقق أكبر مقدار من الدفء، وهناك أيضا الشَّمْلة أو «البيدي»، وهي عباءة ثقيلة من الصوف المغزول والمنسوج يدويا، تصنع محليا وتصبغ بأكثر من لون ليظهر التطريز.

المرأة العسيرية لها نصيب أكثر تنوعًا في الملابس، فأغطية الرأس تبدأ من المنديل، وهو قماش قطني خفيف ملون بالأحمر أو البرتقالي، والمِصْوَن، وهو غطاء مستطيل من القطن السميك له هدب على الأطراف، ومن أسمائه القناع والشيلة والمِسفع. ومن أنواع الشيلة «المريَّشة»؛ وهي قطنية خفيفة سوداء، تزخرف أطرافها بخيوط معدنية مضفرة في النسيج الأصلي، تضاف إليها كُتل ـ على هيئة وردات ـ من خيوط الحرير الملونة بالأحمر والأخضر والأصفر. وترتدي المرأة أيضا الطفشة، أو الهطفة، وهي قبعة تقليدية من سعف النخيل، حين تخرج للسوق أو المشاركة في الزراعة، وتُزخرف بالخيوط الملونة تمييزا لها عن الطفشة الرجالية، وقد رأينا طفشة مطرزة بالأصداف والخيوط السوداء وعرفنا أنها من تهامة، وتتميز أيضا بطول فراغها الداخلي وقصر دائرتها الخارجية. والثوب المجنب هو الزي التقليدي المميز للمرأة العسيرية، وهو يحمل هذا الاسم لوجود عدة قطع جانبية تتسع كلما اقتربت من ذيل الثوب، وهي في كل جانب نحو ست قطع أو أكثر. ويطرز الثوب العسيري على الصدر والأكمام وبطول خياطات الجنب، بغرزات يدوية، منها السلسلة والفستون والفرع، بحرير متعدد الألوان. بينما يُصنع من القطن الأسود والساتان والمخمل (القطيفة). ومثل عباءة الرجل، ترتدي النساء المِزر لغطاء الظهر، المصنوع من جلد وفراء الغنم المدبوغ، وتثبت أجزاؤه بالجلد فيما بينها. ومن العجيب أنك حين تتأمل زخارف الثياب النسوية ترى بينها وبين عمارة وزخرف المساكن تشابهًا كبيرًا. إنه أثر البيئة اللانهائي، الذي يمتد من الجدار للسجاد إلى الملابس، مثلما يحضر في الحجر، ويظهر في الصور، ويتبلور في الخشب، ويتجسد في الطين، وينطق في القماش. في السوق رأينا أكثر من حزام فضي منقوش بشكل ساحر، وعرفنا أن العسيرية تعتاد لبس الحزام، المصنوع من القماش أو الجلد، أو الفضة. ووحده الحزام الفضي يسمى حزامًا، أما الجلدي فيسمونه سَبتة، والجلدي المضفور : نَسعة، وهو ينتهي بشرابة (كتلة) من شرائح الجلد لتدخل في عروة الطرف الآخر، بعد أن يلف الوسط عدة مرات!

التقليدية. إنها نموذج لإعادة استخدام المناطق الأثرية في تنشيط السياحة الداخلية، وإحياء الطقوس التقليدية، وربط الأجيال الجديدة بتراث أجدادها





إن الحزام الذي تستخدمه المرأة للزينة يصبح عند الرجل ضرورة، فهو للزينة حينا، وحينا لحمل السلاح، الذي تحول من مهمة الدفاع عن النفس إلى الزينة. ولكن المرأة لا تتزين بالحزام وحده، أو نقش الثوب وتطريزه وحسب، بل إن لها مع الفضة بابا من الحكايات مفتوحًا على مصراعيه.

صندوق الحلي التقليدية

في قلب أبها، نعثر على فريج، أو حارة، أو زقاق - سمِّه ما شئت - لا تزال بيوته تحمل سمت العمارة القديمة. تمنينا أن تمتد يد الترميم إلى البيوت التراثية القليلة التي بقيت في حزام المدينة، وأن يتم تسويرها، وإعادة تدويرها إذا كانت غير مأهولة لتصبح مزارا ومتحفا، وربما ليعاد استخدامها كمرافق خدمية سياحية.



المسجد يتوسط مجموعة البيوت القديمة، ويربط بينها سكة تم تبليطها بالحجر الملون، تصعد بك الطريق وتهبط لتشي بجغرافية أبها الصاعدة الهابطة. وفي أحد المحلات الباقية لبيع الفضة نلتقي مع شيخ في الستين له قلب شاب في العشرين، يعرض علينا بعضا من كنوزه. كنا كمن عثر على صندوق للحلي التقليدية. يقول محمد العريفي: هذا العقد يُنظم في خيطه اللؤلؤ والخرز، وكانت القلائد الشعبية القديمة الثمينة تنظم من المرجان والفيروز والياقوت واللؤلؤ والعقيق والنفيسي والضفار، وكانت أيضا تنظم بالحشف من الذهب أو الفضة المطعمة بالفيروز. نتعرف على أسماء القلائد الشعبية في عسير، ومنها المعرّاء والمزنط والمرية والمعمَرَة والمرتهشة والقردالة والسبحة والفريدة والمورقة، والمنثورة والمشلشل والطوق، وهي تسميات تشي أسماؤها بأشكالها وبألوانها.



في «سوق الثلاثاء» تقوم النساء بنظم القلائد والعقود المصنوعة من الأحجار الكريمة كالعقيق اليمني والظفار، ومنها العقود المصنوعة من قطع الفضة القديمة أو الحديثة، وهن يتوارثن المهنة أما عن جدة. ويقمن بعد حبات العقود والقلائد حسب الطلب، وربما يبدأ سعر القلادة بخمسمائة ريال ويصل إلى ألف ريال، حيث تفضل النساء الحلي المصنوعة يدويا، وخصوصا المصوغة من الفضة.

التصميمات التي تزخر بها السوق لها أسماؤها؛ الحرز واللبات (جمع لبة)، والشعيريات ويسمى الحجم الكبير «لازم» والمرتعشة. ومن أنواع حزام الفضة النسوي المحوت والمفشت والمصفح ولبوس العافية، وهناك حلي أخرى كالمعضد والمصك والخلاخل والهلال والشبابيك والهياكل والشليشل والكردالة والبنجرة والشميلات والمنابر والخماخم والنخيلات والحجول.

أما العقود ذات الخرز الصغير فتسمى بالتوت. ومن الخواتم الخنصر والبنصر والحواجز والشاهد والفتخ وهو خاتم الإبهام. وبجانب الصناديق التي كانت تحمل مقتنيات العروس الثمينة، والتي تستخدم هذه الأيام على الأغلب في الزينة، فإن نسوة كثيرات يرتدن السوق لتكوين ركن بدوي، أو شرقي، في بيوتهن، قوامه قطع الأثاث والحلي القديمة مضافا إليها الوسائد والجداريات، وخاصة تلك التي تصور الصحراء والإبل.



نودّعُ العريفي بعد أن تأملناه وهو يحفر اسما على أحد الأختام المعدنية، فهو لا يبيع الحلي التقليدية والخناجر الفضية وحسب، بل يعمل ككاتب ختوم. في أبها لا تزال الإمضاء المختومة بالخاتم النحاسي مرفقة أحيانا ببصمة الإبهام، جزءا من الهوية الشخصية للإنسان، وهي تحيا جنبا إلى جنب مع الهوية الإلكترونية. وهذا يجسد صورة أبها، وعسير، التي تحرص على أن تحتفظ بتقاليدها، دون أن تفقد مكانها على درب الحداثة.

تراثية ابن حمسان

يبدأ البحث في التاريخ عن التراث المادي عبر طريقين، سوق شعبية، ومتحف جامع، وسواء في "سوق الثلاثاء"، أو في قرية

ننطلق إلى مدينة خميس مشيط، التي يقع مطار أبها في منتصف الطريق بينها وبين مدينة أبها، والمسافة بين المدينتين 52 كيلو مترًا. سيجمعنا النهار والمساء مع عاشق لتراث منطقته هو ظافر بن حمسان الذي أنشأ قرية «تراثية» وقسمها إلى قصر حجري يمثل عمارة المناطق الجبلية في عسير، ويتكون من أربعة طوابق، بين مجالس الضيوف والعائلة، وصولا إلى المطبخ في الدور العلوي «العليَّة». سألنا ظافر عن سر وجود المطبخ في المكان، فيشرح لنا متذكرًا طرفة نادرة. المطبخ في العلية يعني ألا يمتد التلوث والدخان لأهل البيت. وأذكر أن امرأة مرضت نفسيا احتجزت في غرفة علوية، أضرمت النار في مكانها، وانطلقت نساء عسير فيما يشبه قوة تدخل سريع للدفاع المدني يأتين بقرب المياه وينطلقن للأعلى حتى انطفأت النار. فتخيلوا لو أن النار في طابق سفلي؟ لذلك أيضا وجود المطبخ في العلية هو نوع من الحماية، وستجدون غرفة العريس والعروس بجوارها، فلا ينقطع الطهو ولا يتوقف الدعم. غير بعيد عن القصر الحجري نمر بالعريش، وهو مجلس يطل على الجرين «مساحة من الأرض كانت تستخدم لدرس المزروعات والاحتفالات الشعبية»، لنصل إلى المسرح الذي تقدم فيه ألوان من الرقصات الشعبية والمسابقات التراثية لمنطقة عسير، حتى نصل إلى المتحف، الذي يضم ألوانا من المقتنيات، وخاصة ما صنعته يد المرأة العسيرية وما تحب أن ترتديه.

حين تبهرنا الزخارف التي تزين المكان، نسأل ظافر عن سرِّها، فيقول: إنها فاطمة، السيدة التي تخطت ثمانين عامًا الآن، وكان هناك في كل بيت مثيلها، الآن ندر أن نجد من تخصص وقتها وتخلص للفنون التقليدية. خرجنا من المكان وكلمات ظافر تتردد في جنبات الليل، إنه يتحسر على الحرف اليدوية التي كادت تنقرض. صحيح أن هناك نوادر في كل مكان، ولكن ماذا عن الغد؟

البناء الذي يعلو اليوم، ويمتد شاهقا في الغد، يحتاج دون شك إلى تلك اللمسات الإنسانية، وربما يكون في المؤتمر الذي لحقنا افتتاحه في الرياض فاتحة خير. فذلك المؤتمر الدولي الأول للحرف التقليدية في العالم الإسلامي والذي ترعاه الهيئة العليا للسياحة في المملكة، يكرِّس لتنمية تلك الفنون اليدوية، والاستفادة من اقتصادياتها. وما ذلك على أهل عسير بعسير، فأهلها كما رأيناهم إما شاعر، أو ناثر، أو تشكيلي، أو حرفي، أو جامع للتحف أو محب للتراث.

أشرف أبو اليزيد

المفتاحة، داخل مدينة أبها سنجد كثيرين يهبطون من الجبل بأغطية الرأس المميزة، وتيجان الورد وأغصان الريحان تكلل الرءوس



في أرجاء قرية المفتاحة التي تضم مركز الملك فهد الثقافي، وقد تحولت إلى استدويوهات للفنانين التشكيليين، ومسرح جماهيري فضلا عن أدائها الإداري حيث تضم هيئة تنشيط السياحة، وفي أحد متاجر عاديات عسير العريقة، نرى نسخة نادرة للقرآن الكريم عمرها سبعة قرون





قرب إمارة أبها الجديدة، نقترب من منزل يُعبِّر عن عمارة عسير بصريا ومعماريا. إنه منزل أبو ملحة. وبالرغم من بناء المنزل تم على مراحل، فأنه يعد منزلا واحدًا ذا هوية موحدة. وقد أصبح اليوم بعد ترميمه مركزًا للمأثورات الشعبية



تقوم النساء بنظم القلائد والعقود المصنوعة من الأحجار الكريمة كالعقيق اليمني والظفار، ومنها العقود المصنوعة من قطع الفضة القديمة أو الحديثة، والتصميمات التي تزخر بها السوق لها أسماؤها: الحرز واللبات (جمع لبة)



تقوم النساء بنظم القلائد والعقود المصنوعة من الأحجار الكريمة كالعقيق اليمني والظفار، ومنها العقود المصنوعة من قطع الفضة القديمة أو الحديثة، والتصميمات التي تزخر بها السوق لها أسماؤها؛ الحرز واللبات (جمع لبة)



المرأة العسيرية لها نصيب أكثر تنوعًا في الملابس، فأغطية الرأس تبدأ من المنديل، وهو قماش قطني خفيف ملون بالأحمر أو البرتقالي، والمِصْوَن، وهو غطاء مستطيل من القطن السميك له هدب على الأطراف، ومن أسمائه القناع والشيلة والمِسفع



المرأة العسيرية لها
نصيب أكثر تنوعًا في
الملابس، فأغطية الرأس
تبدأ من المنديل، وهو
قماش قطني خفيف
ملون بالأحمر أو البرتقالي،
والمِصْوَن، وهو غطاء
مستطيل من القطن
السميك له هدب على
الأطراف، ومن أسمائه
القناع والشيلة والمِسفع



ليست النساء وحدهن
من يظهرن أو يختفين في
سوق الثلاثاء الدائرية،
حيث يسلم باب مدخلها
لباب مخرجها، وكأنها
خلخال في قدم، أو سوار
في معصم، فالباعة من
الجنسين، وكثيرون من
"الشيًّاب" الذين يأتون
بشمع عسل النحل

المسمى بالسدر، فهذا
موسمه

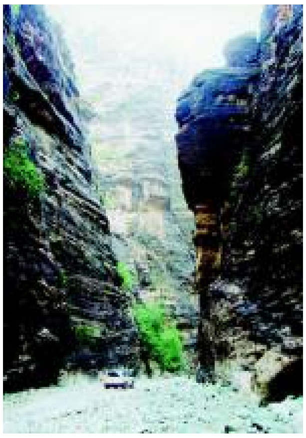


ليست النساء وحدهن من يظهرن أو يختفين في سوق الثلاثاء الدائرية، حيث يسلم باب مدخلها لباب مخرجها، وكأنها خلخال في قدم، أو سوار في معصم، فالباعة من الجنسين، وكثيرون من "الشيًاب" الذين يأتون بشمع عسل النحل المسمى بالسدر، فهذا موسمه









تلي تهامة الساحلية موانع جبلية هي قمم جبال السروات وقد رأينا قمتها الأعلى والتي تصل إلى ٣٣٠٠ متر، لذا تنعم بأمطار الشتاء لهبوب رياح الشمال، وأمطار الصيف لمرور رياح البحر الجنوبية. وبين هاتين المنطقتين المتناقضتين مناخيا تتتابع مناطق ذات ارتفاع متباين



رغم أن هدف العمارة الجديد المبني على تقليد ما هو تراثي يعني بالتحول كسمة معمارية تسعى للتبسيط والإحلال دون إخلال، وترويض العمارة الحديثة في منطقة لها مقومات تراثية غنية، لكن "العبث" الملوِّن دون هدف أو تناغم، قد يخلق ضوضاء بصرية، تبتعد عن الأصل كثيرًا



رغم أن هدف العمارة الجديد المبني على تقليد ما هو تراثي يعني بالتحول كسمة معمارية تسعى للتبسيط والإحلال دون إخلال، وترويض العمارة الحديثة في منطقة لها مقومات تراثية غنية، لكن "العبث" الملوِّن دون هدف أو تناغم، قد يخلق ضوضاء بصرية، تبتعد عن الأصل كثيرًا



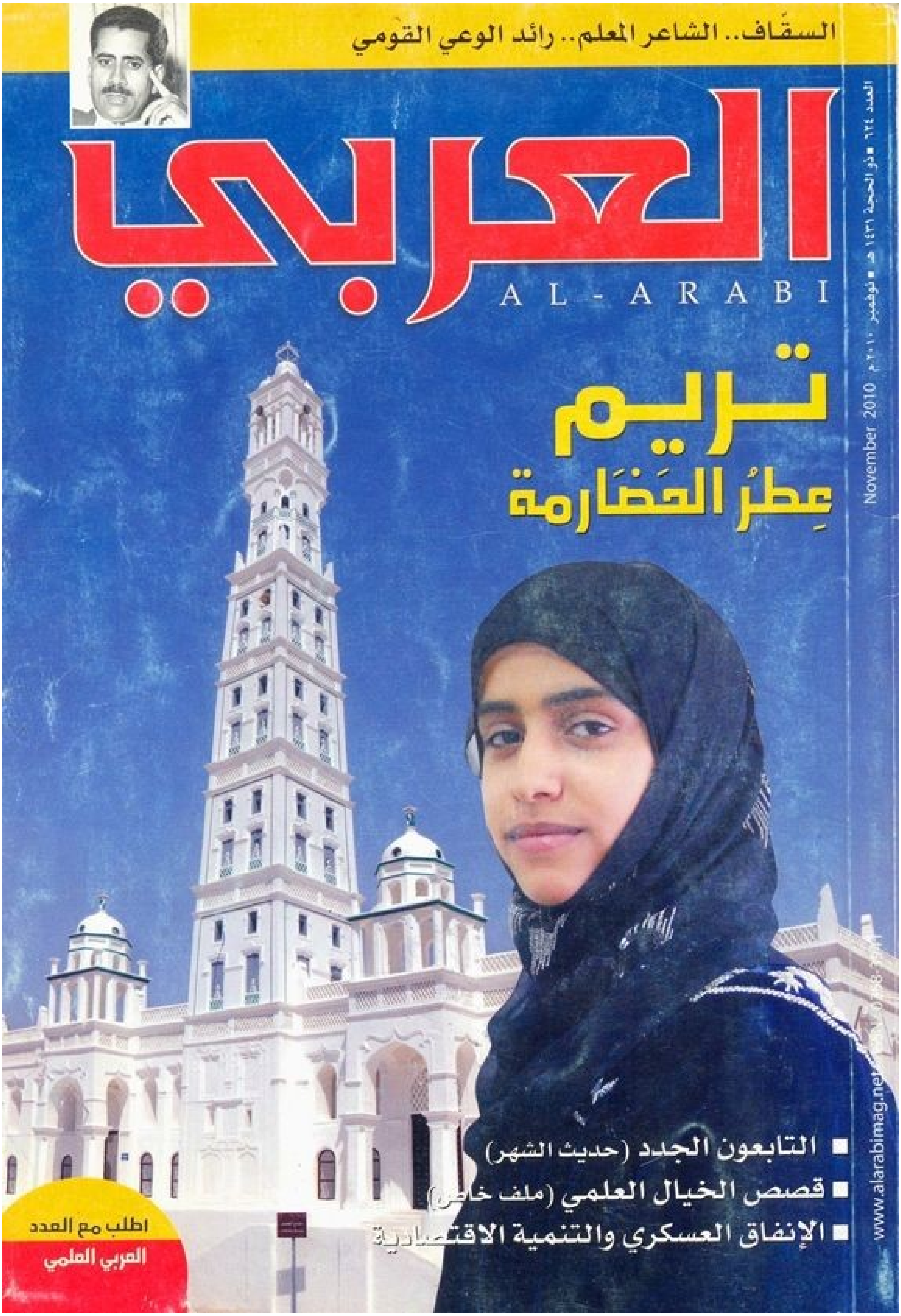
رغم أن هدف العمارة الجديد المبني على تقليد ما هو تراثي يعني بالتحول كسمة معمارية تسعى للتبسيط والإحلال دون إخلال، وترويض العمارة الحديثة في منطقة لها مقومات تراثية غنية، لكن "العبث" الملوِّن دون هدف أو تناغم، قد يخلق ضوضاء بصرية، تبتعد عن الأصل كثيرًا





تراثية ابن حمسان، القرية التي بناها ظافر عاشق التقاليد العسيرية، في المسافة بين أبها وخميس مشيط، تتكون

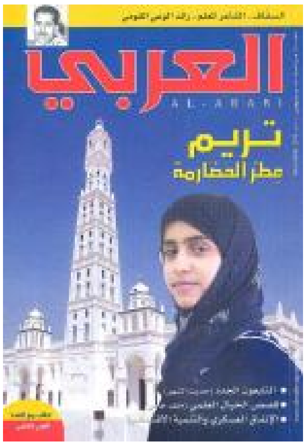
من قصر حجري يمثل
عمارة المناطق الجبلية
في عسير، وعريش، وهو
مجلس يطل على الجرين
"مساحة من الأرض كانت
تستخدم لدرس
المزروعات والاحتفالات
الشعبية"


السقّاف.. الشاعر المعلم.. رائد الوعي القومي
العربي
AL-ARABI
العدد ٦٢٤ ■ ذو الحجة ١٤٣١ هـ ■ نوفمبر ٢٠١٠م
November 2010
تريم
عِطرُ الحضَارمة
■ التابعون الجدد (حديث الشهر)
■ قصص الخيال العلمي (ملف خاص)
■ الإنفاق العسكري والتنمية الاقتصادية
اطلب مع العدد
العربي العلمي
www.alarabimag.net

تريم عطرُ الحَضَارمة.. قلم: أشرف أبو اليزيد

بواسطة أشرف أبواليزيد | استطلاعات | العدد ٦٢٤

تريم عطرُ الحَضَارمة.. قلم: أشرف أبو اليزيد



صورة الغلاف

نحن في سماء اليمن، وقد اقتربت الطائرة من مطار مدينة سيئون، بقلب وادي حضرموت، نستطيع من نافذة الطائرة الصغيرة أن نلمح المحيط الجغرافي الأسطوري في تشكيلاته. قد تشبه الطبوغرافيا ألف كعكة وكعكة من الرمال الحجرية. ربما تتماهى الصورة مع قاع محيط ملؤه الرمال. جغرافيا تبدو من السماء قاسية عسيرة على الاجتياز، لا نرى نهرًا، ولا نصادف بحيرة، ولا نبصر بساطًا أخضر. كنتُ أفكر أن تلك الأرض هي جغرافيا الزهّاد. هذه هي مفازة المنذورين للعلم. لا تشغلهم حياة مبهجة عن رسم الأحبار في أوراقهم، ولا تلهيهم زينة دنيوية عن قراءة الأوراد في لياليهم. تلك هي الآنية الجغرافية التي تغترف منها مدينة تريم محيطها، وهي المدينة اليمنية التي اختيرت عاصمة للثقافة الإسلامية للعام الهجري ألف وأربعمائة وثلاثين وعام، فكيف هي الحياة في قلب تلك البقعة الخضراء بإيمانها، المضيئة بنور علمائها المستكينة كما كانت منذ نشأتها؟


شيدت مدينة تريم على نظام الحارات، ويمكن أن تحدد مجموعة كل حارة حين تنظر إليها من عل. رغم تلاصق المنازل، ستجد في كل حارة مجموعة من المساجد، وأمام كل مسجد بستان، وأحيانا ترى بئرًا للسقاية أو آثارها الباقية

مؤشر الحرارة في الظل يعلن عن أربع وأربعين درجة مئوية، حسنا فعلنا أن اخترنا الطائرة من عدن إلى سيئون، فليست مسافة ٤٠٠ كيلومتر قصيرة حين تجتاز خلالها الصحراء تحت مظلة تلك الشمس اللاهبة.

لم تكن الحرارة عدونا الوحيد، كنا نريد أن نخصص وقتا تقتله المسافات لنحياه في خريطة أماكن حددناها سلفا، قد لا تقف عند تريم، وربما لا تكتفي بسيئون. استقبلنا في سيئون سعيد الشدادي المنسق العام لفعاليات تريم عاصمة الثقافة الإسلامية، تناقشنا في برنامج رحلتنا. سنقيم في سيئون، وتتخذها قاعدة انطلاق إلى تريم وسواها، قبل أن نبدأ رحلتنا الأولى إلى هناك. بعد ثلث الساعة من مغادرتنا مدينة سيئون، كان الطريق الذي يشبه سبورة أسفلت سمراء يشق الأفق أمامنا قد تحول بفعل متاهة السراب إلى لُجَّة سائلة. فوقه ظهرت لي قوافل ليس لها أول من آخر، تبينت فيهم التجار، والأحبار. عشتُ دقائق أستمع إلى نداء، وحداء، وغناء، مض

وقتٌ وأنا أنصت إلى ترتيل وابتهال وتبتل. كنت كمن عاد في الزمن إلى نقطة غير مرئية.

على يمين الطريق ويساره كانت هناك أطلال لبيوت طينية وشواهد لقبور طليت باللون الأبيض، منها ضريح أحمد بن عيسى، الذي يشبه وردة قرنفل على صدر الجبل، تصعد إليها على سلم مطلي كذلك باللون الأبيض يشبه غصن وردة. كان المشهد يشبه مدخلا لديكور فيلم سينمائي عن حياة خلت. لم أفق إلا على نفير السيارة التي تقلنا وهي تجتاز بوابة المدينة عند دوار مروري صغير، معلنة دخولنا أمام بعض المارة، ومحذرة قادة الدراجات النارية من اللهو في منتصف الطريق. كانت تلك صفارة العودة إلى العصر الحالي. الحالي بمعنييها، معنى الإشارة إلى زمن نعيشه الآن، ومعنى مشتق من الحلاوة، في اللسان اليمني المحلي. علامة الوصول إلى تريم كان شعارها المختار للتعبير عن هويتها تتصدره مئذنة المحضار، وهو شعار صممه الفنان الحضرمي سيلان جمعان العيجم. كأن تلك المئذنة علامة على المدينة، ليس فقط معماريا ولكنها علامة على روح المدينة الغارقة في نهر الدرس الديني.


علامة الوصول إلى تريم كان شعارها المختار للتعبير عن هويتها تتصدره مئذنة المحضار، وهو شعار صممه الفنان الحضرمي سيلان جمعان العيجم

أمام منارة المحضار

على صِغَر المدينة كان لنا فيها أكثر من دليل. أولهم محمد بن عبد اللّه الجنيد، الذي أخذنا إلى ساحة مسجد المحضار، لنبدأ من حيث اختزل الشعار مدينة تريم، خاصة وقد علمت أنه خصَّ باني تلك المئذنة بأحد كتبه؛ عوض سليم عفيف باني منارة المحضار. أمام المئذنة البيضاء الشاهقة بارتفاعها ونصوعها حدثنا الجنيد عن المعلم عفيف الذي ينتمي إلى قبيلة عربية من سكان مدينة الهجرين بحضرموت، من بيوتات كندة القديمة، وقد ولد بمدينة تريم في أسرة توارثت مهنة البناء، وكان أشهر أخوته حتى أن عدد عماله زاد عن السبعين بنَّاء! وقد توفي المعلم عوض بن سليمان بن سعيد عفيف في سنة ١٣٤٥ للهجرة.


تريم في قلب حضرموت، وسط جغرافيا الزهّاد، وفي مفازة المنذورين للعلم

بنى المسجد عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف في سنة ٨٢٣ للهجرة (١٤١٩ ميلادية)، أما مئذنته الأشهر في اليمن فتقوم على قاعدة مربعة الشكل، تتناقص هندسيا كلما ارتفعنا، حتى تصل إلى ارتفاع ٤٠ مترًا طولا. صحيح أن العمارة الطينية لها حضارتها المتوارثة في المنطقة، لكن هذا الارتفاع الاستثنائي كان جديدًا على حضرموت. النوافذ المستطيلة في بدن المنارة تؤكد هذا العلو، الذي استلهم البناء الهرمي، دون أن ينسى التقاليد المحلية في الإنشاء والزخرف، وهو ما رآه الجنيد علامة على النضج المعماري وفهم أسرار العمارة الطينية.


الطريق يشبه سبورة أسفلت سمراء، وقد تحول بفعل متاهة السراب إلى لجة سائلة

في الطريق من مسجد المحضار إلى قبلتنا التالية مررنا بمساجد أخرى بناها المعلم عفيف منها مسجد باهارون، ومسجد شهاب الدين، ومسجد الزهرة وكلها في النويدرة بمدينة تريم، ومما جمع بينها أن لها منارات أسطوانية الشكل، وهو ما يثبت أن منارة

المحضار لم تكن استثناء في الطول وحسب، بل كانت أيضا ابتكارًا في الشكل. حين عرف سائقنا أننا من مجلة «العربي» بحث في أسطواناته الموسيقية عن محضار آخر؛ الملحن الشاعر حسين أبو بكر المحضار، وأحضر للأسماع أغنية له يقول فيها:

«يا رايحة في الجو يا غادية، توجهي بي صوب ذي الناحية، لي قلب متشوق يريد الكويت، الكويت ديرتنا فيها ربعنا الكويت. ما عاد بقعة في اليمن خالية، من ذكرها في الحضر والبادية، ونورها قد شع في كل بيت، الكويت ديرتنا فيها ربعنا الكويت» والديرة هي البيت، والربع هم الصحاب، وفيما عدا ذلك من مفردات فهي صنو الفصحى، وهو ما يجعل الغناء اليمني قريبًا إلى الفهم بقاموسه، مثلما هو قريب إلى القلب بإيقاعه وناموسه. قبل أن نصل كنا على صدى الغناء نستمع إلى الجنيد وهو يوجز لنا سيرة تريم وهو الذي كتب عنها وعن أعلامها أكثر من مؤلف، باعتبارها العاصمة الدينية لوادي حضرموت، ومركز الإشعاع الديني منذ ظهور الإسلام.



من عل، تبدو هذه الهضبات الصخرية مثل كعكات حجرية، وهي تشكل مع الصحراء في وادي حضرموت جغرافيا الزهاد

يقول ياقوت الحموي في «معجم البلدان» إن بحضرموت مدينتين؛ شبام وتريم، وهما «قبيلتان سميت المدينتان باسميهما». وفي «تاج العروس» لمرتضى الزبيدي إن تريم سميت باسم بانيها تريم بن حضرموت. ويُرجع مؤرخون ذكر نشأتها إلى القرن الرابع قبل الميلاد، كما جاء في «معالم الجزيرة العربية» لسعيد عوض با وزير إنها تأسست إبان الحكم السبئي لحضرموت، ولذلك اشتق اسمها من اسم أحد أبناء سبأ، وجاء في كتاب «شرح الصدور» لعلي بن أحمد المشهور بأن حصن الرّناد - أحد أهم معالم المدينة - قد بني قبل البعثة المحمدية بأربعة قرون. اتسعت المدينة وهي اليوم تغطي مساحة تقدر بنحو ٣٥٠٠ كيلو متر مربع، وازداد ساكنوها فتجاوزوا المائة ألف نسمة.



على صغر المدينة كان لنا فيها أكثر من دليل. أولهم محمد بن عبد الله الجنيد، الذي أخذنا إلى ساحة مسجد المحضار، وهو الذي خصً باني تلك المئذنة عوض سليم عفيف بأحد كتبه

في حصن الرّناد

تجاوزنا العمال الذين يشتغلون بهمة تحت وهج الشمس، يسعون في ترميم ذلك الحصن التاريخي. عبرنا البوابة الضخمة المفتوحة على مصراعيها، وسرنا في الفناء حتى وصلنا إلى قلب البناء الذي يقع في وسط المدينة القديمة، قرب سوقها.

هو حصن، وقصرٌ في الوقت نفسه، حصن لمنعته، وقصر لروعته، ولذلك يسمى الرناد أيضا بقصر السلطان. كان الحصن شاهدًا على تاريخ المدينة، منذ نشأتها، فقد عُثر به على رأس حيوان من الرخام الأبيض يحمل كتاباتٍ بخط المسند، وكان الحصن معاصرًا لأول وال إسلامي وهو الصحابي زياد بن لبيد البياضي الذي أرسله النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) في السنة العاشرة للهجرة بعد أن قدم إليه وفدُ حضرموت لإعلان إسلام أهله.

أتحدثُ عن الحصن تاريخيا دون أن أغفل إعادة بنائه وتجديده وفق المراحل المتعاقبة، بالرغم من أن المصادر لا تذكر سوى تجديد -

السلطان العادل عبدالله بن راشد القحطاني (سنة ٦٠٠ للهجرة) وتجديد حاكم تريم محمد بن حسن الكثيري (سنة ١٣٥٢ للهجرة)، أي قبل ثمانية عقود، وكان ذلك على يد المهندس علوي الكاف، الذي أشرف على إعادة البناء وتصميم القصر وواجهته، وها نحن نشهد الترميم الأحدث له. تغيرت وظيفة الحصن، فكان قصراً للحكام، واتخذ أيضا مقراً حزبيا أيام الحكم الاشتراكي قبل الوحدة، وكان بالمثل سجنا، وضم أيضا إدارات حكومية (المحكمة، النيابة العامة، الشرطة، شئون الأحوال الشخصية، الميليشيا الشعبية، شئون التجنيد الإجباري)، وها هو بعد الوحدة يتخفف من عبء تلك الإدارات التي اتخذت مرافق خارجية لها، ليظهر في حلة جديدة بعد ترميمه، ويسمى قصر الثورة، بعد أن تقرر تحويله إلى متحف.



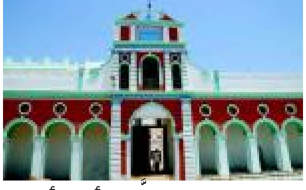
في النويدرة بمدينة تريم، منارات أسطوانية الشكل، وهو ما يثبت أن منارة المحضار لم تكن استثناء في الطول وحسب، بل كانت أيضا ابتكارًا في الشكل

لا شك أن هذا المتحف يدين بتصميمه البديع لرائد العمارة الطينية في حضرموت، المهندس علوي بن أبي بكر الكاف، وهو من أسرة كان منها من تولى قضاء تريم، مثلما أسسوا مجالس العلم وحلقاته ومكتباته، فكان لهم أول مجلس للفتوى الشرعية، وأول مدرسة حديثة في تريم، وأول مستشفى خيري في حضرموت - وأول ملجأ ضيافة في تريم (دار الغرباء والوافدين، وتقع شمال سوق الخضار القديم)، وشقوا أول طريق يربط بين ساحل ووادي حضرموت، عرف بطريق الكاف، أو طريق البنادر، وهي الطريق التي أنهت العزلة للوادي. كما تأسس أول ناد رياضي ثقافي - له فريق كرة قدم - في حضرموت - بمدينة تريم باسم (نادي الشبيبة المتحدة) سنة ١٩٢١ ميلادية برئاسة عمر بن شيخ الكاف.



العمال الذين يشتغلون بهمة تحت وهج الشمس لترميم حصن الرناد التاريخي

ساهم أبناء الكاف في الصحافة المبكرة فرأس محمد بن حسن الكاف تحرير صحيفة الإخاء سنة ١٩٣٨م، ودعم أبو بكر بن شيخ الكاف طباعة مجلة «عكاظ» الأدبية التي رأس تحريرها في العام ١٩٢٩م الشاعر الحضرمي على أحمد باكثير. وقد عرفت تريم الصحافة باكرًا، وكانت صحافتها المبكرة قلمية خطية، اعتمدت في مادتها على علماء المدينة وأدبائها، فظهرت «السيل» التي أصدرها في منطقة المسيلة بالمدينة محمد بن عقيل بن يحيى سنة ١٩١١م، وبعدها بست سنوات صدرت «حضرموت» التي أصدرها شيخ بن عبد الرحمن بن هاشم السقاف، وكذلك صحيفة «العكظة» للشاعر سقاف بن محمد طه السقاف، وهناك «الحلبة» التي صدر عددها الأول سنة ١٩٣٨. بل إن هناك صحيفتين في المهجر أسسهما أبناء تريم وهما «البشير» لمحمد بن هاشم، و«حضرموت» لعيدروس عمر المشهور، وصدرت الأخيرة في أندونيسيا سنة ١٩٢٠م.



بوابة حصن الرَّناد، أحد أهم معالم المدينة، الذي بني قبل البعثة المحمدية بأربعة قرون، تغيرت

يعيدني من حديث الصحافة ما عرفته عن المبادرات النهضوية في تريم والتي تنسب لهمة آل الكاف أيضا، ومنها تأسيس أول شبكة اتصالات هاتفية بالمدينة تربط بين ١٥ بيتا، وتعمل على البطاريات السائلة. ومن طريف ما عرفتُ أن هناك عملات محلية صكت في حضرموت، فكانت هناك عملة اسمها خماسي بن سهل، وحينما

قلت العملة صك شيخ بن عبد الرحمن الكاف الثري الشهير عملته سنة ١٣١٥ للهجرة (١٨٩٦ ميلادية)، على غرار العملة السابقة وضمنها وأسماها خماسي الكاف. وقد انتهى العمل بهذه العملات المحلية سنة ١٩٤٣ ميلادية بوصول الروبية الهندية، والشلنات الإفريقية سنة ١٩٥١ ميلادية.

وظيفة الحصن، فكان قصرًا للحكام، واتخذ أيضا مقرًا حزبيا أيام الحكم الاشتراكي قبل الوحدة، وكان بالمثل سجنا، وضم أيضا إدارات حكومية، ويسمى قصر الثورة

قبل أن أغادر القصر كان دليلنا الجنيد قد تركنا إلى مكتبته الخاصة وعاد لي بكتاب شارك في تأليفه مع حسين بن محمد الكاف عن ذلك المهندس علوي الذي نقف في رحاب بنائه. رأيته بين قوسين بعد اسم المهندس لقب «الخضيب» فسألته عن معناه، قال لي: الخضيب هو تسمية محلية لطائر الساج المقنع masked weaver وهو طائر جميل اللون والصورة، يكثر وجوده في نواحي وادي حضرموت، ومما يميز الطائر دقته في بناء عشه، وهو ما يجعل أحد الآراء في سر التسمية بأن هناك تشابها بين دقة الطائر في بناء عشه، ودقة المهندس علوي الكاف في مخططاته للأبنية المعمارية. كان سفر المهندس علوي إلى جنوب شرق آسيا يقف وراء استلهامه لملامح جمالية جديدة على المنطقة الحضرمية ومبتكرة أيضا.



تقوم مئذنة مسجد المحضار على قاعدة مربعة الشكل، تتناقص هندسيا كلما ارتفعنا، حتى تصل إلى ارتفاع ٤٠ مترًا طولا

فقد صمم مسجد عُمر ليكون أول مسجد يبنى بمنارتين، فالسائد في تريم، وحضرموت، مساجد المنارة الواحدة، كما أن هاتين المنارتين كانتا ذواتا أضلاع، وليست حسب ما كان سائدًا مستديرة اسطوانية، وأضيفت لهاتين المنارتين الأعمدة المستلهمة بالمثل من سفره، حتى أنه استوحى واجهة بيته من نوافذ أحد الفنادق الشهيرة بسنغافورة.

بلد القصور

حكايات قصر وحصن الرنّاد ومهندسه تختزل قصص قصور المدينة الأخرى، وهي القصور التي مررنا بها، ووقفنا أمامها، وتجولنا فيها، ومعظمها يؤدي وظائف سكنية وثقافية عديدة.

في حارة المحضار تأملنا كثيرًا قصر عشة الذي بني ما بين عامي ١٣٣٩ للهجرة و ١٣٤٩ للهجرة (رأيت المصادر كافة، وجُل الكتب، ومعظم الناس لا يذكرون التاريخ الميلادي إلا عرضا، لذلك أبقيت على تأريخهم لأنه جزء أصيل من كتابتهم وحديثهم).



على يمين ويسار الطريق إلى تريم شواهد لقبور طليت باللون الأبيض، منها ضريح أحمد بن عيسى، الذي يشبه وردة قرنفل على صدر الجبل، تصعد إليها على سلم مطلي كذلك باللون الأبيض يشبه غصن وردة، وكأنه مشهد لديكور

وربما تكون الأرض الزراعية بئر عشة التي أقيم عليها سر التسمية، يمزج معمار القصر بين ما هو حضرمي وما هو جنوب شرق آسيوي، التدوير المحلي للخامات يظهر في قصر عشة، فعدا بعض القطع الحديدية والخشبية والزجاجية للنوافذ والأبواب، استخدم الطين والتبل والنورة المحلية لصناعة معمار هذا القصر.

بعد وفاة صاحب قصر عشة، عمر بن شيخ الكاف، في القاهرة، سنة ١٩٦٩ ميلادية، جرى تأميم القصر، وحول إلى مسكن عام لأسر

أهملته، ولكن بعد ١٩٩٠ميلادية، وبعد القرار الجمهوري اليمني بإعادة الأملاك المؤممة لأصحابها، استعاد ورثة الكاف قصرهم. وكانت د. سلمى سمر دملوجي قد رأست بعثة أوفدتها اليونسكو لإنشاء مركز للعمارة الطينية، فاختير القصر موقعًا رئيسيا للمشروع، لكن ذلك توقف، وبقي القصر ضمن أهم مائة أثر معرض للخطر ضمن تصنيف اليونسكو، خاصة بعد أن تهدمت أجزاء منه بين عامي ١٩٩٥، و٢٠٠٢ ميلادية. ثم اختير القصر في العام ٢٠٠٣ ميلادية ضمن مشروع ترميم مشترك بين الهيئة العامة للآثار اليمنية، بإشراف د. سلمى راضي، وجامعة كولومبيا الأمريكية برئاسة د. باميلا جيروم، والجمعية اليمنية للتاريخ وحماية التراث بتريم، وهذا الجهد المشترك الموثق هو الذي بدأ الإسعافات الأولية واللاحقة لإنقاذ القصر بإعادة جميع السقوف المهدمة وصيانة باقي السقوف الأخرى.

فيلم سينمائي عن حياة خلت



أطلال لبيوت وقصور طينية، لم تستطع مقاومة الزمن والمطر

.. ومدينة المساجد

الحديث في تريم عن القصور قد لا ينتهي، ففي كل حارة بيت له ملامح القصر، يحكي لك طرفا من سيرة تريم، علامة الحياة للعمارة الطينية. في الطريق رأينا قصر المنيصورة (١٣٥١ للهجرة)، وقصر القبة (١٣٥٥ للهجرة)، وقصر دار السلام (١٣٧٥ للهجرة)، وقصر التواهي (١٣٥٦ للهجرة).



الشيخ الحبيب علي المشهور بن محمد بن سالم بن حفيظ رئيس الافتاء في تريم، ومدير دار المصطفى للدراسات الإسلامية

بنيت تلك القصور دورًا للسكنى، ولكنها كانت كذلك ساحة للاحتفال، وقد ذكرت صحيفة «الترجمان» في إندونيسيا التي كان يصدرها محمد بن عقيل تحت عنوان «حفل تكريم»، عن تكريم أبي بكر بن شيخ الكاف ومُنح وسامي CBE: دعت إليها جمهورًا غفيرًا من رجال الفضل والأدب، وحددت الحفلة الساعة التاسعة من مساء يوم الخميس ١٣٥٦/١١/٥هـ ١٩٣٨/١/٦م بقصر باعث روح النهضة في الشباب الحضرمي السيد عمر بن شيخ الكاف العلوي، الجديد الذي تم بناؤه حديثا.

لكن الحديث عن القصور لا يشغلنا عن أن تريم هي مدينة المساجد بلا منازع. ويكفي ما اشتهر عن أن بها ٣٦٠ مسجدا (على عدد يقرب من أيام العام). لكننا ونحن نمر بين الحارات كنا نتوقف أمام المساجد الطينية التي تتميز بها المدينة وجعلتها – مع عمائرها ومكتباتها وأعلامها – عاصمة للثقافة الإسلامية – ففي منطقة الخِليف مسجد الوعل المنسوب للتابعي أحمد بن عباد أنصاري الأوسي، وهو أقدم مساجد تريم، لأن بناءه كان سنة ٤٣ للهجرة. وفي السوق مسجد الجامع، الذي تجاوز عمره الألف عام (يقال إن عمارته الأولى كانت بين ٣٧٥ و ٤٠٢ للهجرة). وهناك مسجد الإمام العيدروس بالسوق (٥٥١ للهجرة)، وعند حافة السوق بحوطة تريم مسجد باعلوي. وقربه مسجد الإمام السقاف وتأسس في ٧٦٨ للهجرة.



بعد ترميم القصور الأثرية القديمة في تريم، تستخدم حاليا كمتاحف، ومكتبات. ومراكز ثقافية،

وإدارات حكومية، إنها إحدى سبل ربط المجتمع بعمارته

في السوق أيضا مسجد باجرش المتوفى سنة ٨٢٨ للهجرة، ومسجد الأوابين في حارة النويدرة. والطريف أن تأريخ المسجد عرف من خلال قصيدة صاحبه الإمام عبد الله بن علوي بن محمد الحداد: ونحن نرجو به رضاه، وبحساب أرقام الحروف فإنه يعود للعام ١٠٧٤ للهجرة. وهناك مسجد عاشق، الذي سمي قديما بمسجد آل أبي حاتم فهي قبيلة أنجبت الفقهاء حتى قيل إنه اجتمع في تريم بزمان واحد ثلاثمائة فقيه مفتي منهم أربعون من آل بني حاتم.



بعد ترميم القصور الأثرية القديمة في تريم، تستخدم حاليا كمتاحف، ومكتبات، ومراكز ثقافية، وإدارات حكومية، إنها إحدى سبل ربط المجتمع بعمارته

في حضرة مفتي تريم

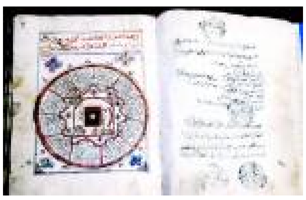
على ذكر الإفتاء، ضرب لنا موعدٌ للقاء الشيخ الحبيب علي المشهور بن محمد بن سالم بن حفيظ رئيس مجلس الافتاء في تريم، ومدير دار المصطفى للدراسات الإسلامية. رحب بنا في مجلسه، الذي سيأتيه بعد قليل من يستفتونه في شئون الدين والدنيا. عند محراب المسجد جلسنا، قلتُ إنها المرة الأولى التي أزور فيها تريم، لكنها المرة الثانية لزميلي سليمان حيدر الذي جاءها قبل ربع القرن. قال، أيام الحكم الشمولي! انتهزتها فرصة لأسأله عن تلك الأيام، فقال إنها أيام تطوى ولا تُروى، لأن ما جرى لا يتخيله العقلُ، خاصة بحق العلماء، ولا نستطيع سردها كلها.

قال شيخنا المفتي – لي – إنه لن يسرد ما حدث، لأن مثلنا الحضرمي يقول: «لا تشكِ ضيمك على من لا ينفعك»، فوالدنا «اختطفته الأيادي الشيوعية وأصبحنا مسئولين أمام السلطة في ذلك الوقت عما قيل بحق الوالد أنه دبر مؤامرة ضد الدولة، وأصبحنا متابعين من قبلهم حتى شاهدنا الموت مراتٍ كثيرة، لأنهم أرادوا إيهام الناس بأننا أخفيناه عن قصد! وكان أكبر أبنائه الخمسة – حين اختطف – في سن التاسعة. لكننا صمدنا وتحملنا وصبرنا، لأننا لو هربنا لضاعت أسرتنا. وكانت هناك أمانات لدى والدنا، لأنه كان محل ثقة، فأردنا أن نظل نؤدي الأمانات إلى أهلها. وحين نستعرض ما مر بنا نحمد الله على أن تلك الأمانات بقيت حتى ذهبت لأصحابها في الداخل والخارج. وقد عرفنا أن المقادير يصحبها لطف من الله، وهذه الألطاف هي التي تذهب المصائب».



الدراجات النارية تحل مشكلات الشوارع الضيقة، التي لا تستطيع السيارات الدخول إليها. وتقوم الدراجة النارية مكان سيارات الأجرة، وتنقل كل شيء!

سألته عن هجرة الحضرميين إلى العالم، خاصة جنوب شرق آسيا، فقال: «هم دعاة للعلم والدعوة الإسلامية، كما أنهم يجلبون المعارف عبر ما يحضرون من كتب، وفيمن هاجر كان من يظل خارج البلاد ٤٠ سنة، وحين يعود يكون الظن أنه لن يعودُ، تراه قادمًا من العراق بأربعين جملا محملة بالكُتب، وتضم مكتبة دار المصطفى هذه الكتب وسواها. وحين استفسرتُ عن سفرياته لنشر الدعوة قال إنها لا تقارن بسفريات أبيه الذي نشر الدعوة وسافر في آسيا وإفريقيا، وأضاف بتواضع «إن ما يفعله هو ليس إلا جهدًا يسيرًا إذا قورن بمن سبقوه». اغتنمت الفرصة – وأنا في حضرة رئيس مجلس الإفتاء بمدينة تريم – لأسأله عن دور الافتاء التلفزيونية التي تكاثرت وتناسلت على شاشات الفضائيات العربية،



مخطوط في إحدى مكتبات تريم، تبدو فيه

وأصبح كل من له شاشة مفتيا! قال إننا إذا استعرضنا التاريخ وجدنا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، إذا سئل أحدهم وهم العالمون أحال على الآخر، تفاديا للسهو أو الخطأ، فالفتوى لا تكون إلا للملم بالمسألة من جميع جوانبها، والملم بحال السائل، وما وراء السؤال، لأن الجواب لا يكون لقضية واحدة، ولذلك فمن علامات الساعة أن توجد مثل هذه الافتاءات في كل الأمور، ومن أفتى بحق وهو يدري بأنه حق فهذا مُثاب. ومن أفتى بحق وهو لا يدري بأنه حق فهذا مأثوم. ومن يفتي بغير الحق فهو آثم. غادرنا المفتي وهو يحملنا أمانتين: أن ننشر أمور تريم الطيبة، وأن نرسل له ما يُنشر.

صورة الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، من بين آلاف المخطوطات التي تتناقلها الأجيال، وتعمل على ترميمها والحفاظ عليها رقميا مؤسسات حكومية وأهلية

أمثال حضرمية

كان سائقنا الحضرمي اللماحُ لا يترك شاردة ولا واردة إلا ذكر لها قصة، أو حكى عنها طرفة، أو أعاد على أسماعنا موعظة. فقد أحب الاستماع إلى الكبار وهؤلاء يأتون بالموعظة عبر القصص.


وجه يمني لا يُنسى، نظارة شمسية، وعباءة حضرمية، وتجاعيد الزمن في سوق تريم

اغتاظ رجل من جاره الذي يستعير الأشياء فيفسدها أو لا يعيدها، وقرر ألا يعيره أي شيء يطلبه. ذات صباح جاء الرجل يطلب حمار صاحبنا، فأجابه صاحب البيت بأن حماره نفق! حينئذ نهق الحمار، فعاب السالف على ناكر الحمار، فأجاب صاحب البيت والحمار مغتاظا: هل جئت تطلب عذرًا أم حمارًا؟ وهكذا يعيد علينا محمود با وزير اللماح الأمثال وقصصها، تلطف حرارة الجو.

قررتُ أن أرد على صاحب الأمثال بالمثل، وكنت قد التقيت بالإعلامي رشاد ثابت الإذاعي في رادية سيئون، فأوصيته أن يحضر لي كتابا للأمثال من حضرموت أردُ بها على معجم الأمثال الذي يسير معنا، وبالفعل جاءني بكتاب جميل عنوانه (٢٠٠٠ مثل من حضرموت) جمعها وشرحها حسن أحمد بن طالب العامري، وقلت إن هذه الذخيرة ستكفيني حتى أغادر تريم في امتحان باوزير.


الدكتور محمد أبو بكر المفلحي وزير الثقافة اليمني، يرى أن الدور التنويري التاريخي للمدينة بدأ برفضها لدعاة الردة الذين ظهروا بعد وفاة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)

وأمثال حضرموت مصادرها كثيرة، فيقولون (الطارفة للذيب)، والطارفة هي القاصية، والذيب هو الذئب، ومصدر المثل قوله (صلى الله عليه وسلم)، «إن ما يأكل الذئب من الغنم القاصية). ويقولون «الطبيعة في البدن ما يندرها إلا الماء والكفن»، ويندرها أي يخرجها، والقصد كما يقول الشاعر عن تأصل الطباع المستحكمة:

حُبِّي لكم طبعٌ بغير تكلف
والطبع في الإنسان لا يتغير

ومنها ما هي أمثال لها مرادفاتها عن الشعوب العربية، بالرغم من اختلاف المفردات: الطول طول نخلة والعقل عقل رخْلة! والرخلة هي أنثى الضأن الصغيرة، وربما نذكر أيضا استعانتهم بمصادر الأمثال العربية الفصيحة، فيقولون لا اختلفوا السرِّقان قل ظهر المسروق، وواضح معناها (إذا اختلف اللصان ظهر المسروق).



التعليم بصورتيه التقليدية والمعاصرة، في صحن المسجد، أم في غرف الدراسة، يستقطب اليمنيين مثلما يحج إليه طلاب من دول كثيرة

ومن الأمثال الحضرمية ما يأتي من خبرة أهل تريم وحضرموت الزراعية فيقولون «لا تطرح ذريك في بطحاء»، لأن البذور لن تنمو في أرض غير صالحة للزراعة، وهم يقصدون عدم إهدار المال والجهد فيما لا جدوى منه. إن كثرة المصادر الدينية والأدبية والحياتية للأمثال الحضرمية لتؤكد عمق ثقافة الشفاهي الذي يستند إلى تاريخ كتابي مدون ثري.

كنوز خطية

كنا كلما نعودُ إلى الفندق نحسُّ بوحشة كبيرة، فربما نكون نحن أنا وزميلي المصور ساكنيه الوحيدين، تعجبتُ من خلو المرافق من زوار وسياح، حكوا لي في الماضي كيف كانت حضرموت محجًّا للسياح والباحثين!



ترميم المخطوطات في مركز النور، عقول وطنية تحافظ على هويتها

لكن الإعلام المدجج بالمبالغات سكب الكثير من الزيت على نار الشائعات، فيكاد من يسمع الأخبار – حين كنا هناك – يظن أننا لن نعودَ من اليمن! كانت البلاد آمنة لدرجة مذهلة، هادئة لدرجة قياسية، ولكن حرارة الجو لم تكن وحدها السبب في هجرة زوارها لها، وانصرافهم عنها. اتخذت الدولة الكثير من التدابير لذرع الأمان، حتى أنني حين ذهبت لشراء بطاقة خط هاتفي جوال، لم يكتف البائع بصورة جواز السفر، بل جعلني «أبصُم» على قسيمة الشراء بعد التوقيع عليها. إن هذا يعني أن تليفوني مربوط بي، ولو استخدم في غير الخير وصلوا إليَّ. لكن الأمن الحقيقي وجدته ليس في الإجراءات بل في احتضان الحضرميين للآخر الزائر الضيف العربي والأجنبي على حد سواء. عطرُ الحضارمة يكمن هنا، في التواصل الإنساني عبر الثقافة والمعرفة، عبر السفر والاتصال، كانوا ولايزالون رحالة، وكانوا وسيظلون رسلا لقيمهم، دون أن ينكروا على الآخرين عشقهم لثقافاتهم النوعية والمختلفة.



التعليم بصورتيه التقليدية والمعاصرة، في صحن المسجد، أم في غرف الدراسة، يستقطب اليمنيين مثلما يحج إليه طلاب من دول كثيرة

قال لنا المفتي إن الحضارمة اعتنوا بالمكتبات كما اعتنوا بالتدوين، وتلك العناية هي التي قادتنا إلى زيارة بعض آثارها، وأعني كنوزهم الخطية في مركز النور الذي ابتكر طرقا محلية للحفاظ عليها.

دعانا القائمون على مركز النور للدراسات والأبحاث إلى جولة في أقسامه. كان أفضل ما رأيت من ابتكارات محلية ذلك الجهاز الذي تم تصنيعه – والحاجة أمُّ الاختراع – بالتعاون مع إدارة دار المخطوطات اليمنية بصنعاء وبإشراف خبير المخطوطات أحمد مسعود المفلحي – لترميم المخطوطات والوثائق وصناعة الورق الذي جرى تسجيله لاحقا لدى حماية الملكية الفكرية، كأول جهاز من نوعه يصمم باليمن. ليس التوفير المادي وحده هو ما ضمنه المركز، بل تدريب الخبرات على الانتفاع بما هو محلي، وقد أدركت أن تلك صفة ملازمة لعمارة الحضارة الطينية التي تتميز بها تريم والمنطقة، وهي تستخدم الخامات المتاحة في محيط البيئة للبناء والأدوات الحياتية.

لم يكتفِ المركز، وهو جهدٌ أهلي كمعظم المؤسسات التي مررنا بها، بصيانة مخطوطاته، بل قام بفهرسة وتصنيف وترميم وتجليد وتصوير المخطوطات والكتب النادرة في أكثر من ٢٠ مكتبة من مكتبات الأربطة والمكتبات الخاصة، بعد مسح أولي لنحو ٥٠ مكتبة، وهو يقدم خدمة جليلة بإعادة نشر بعض المخطوطات بعد تحقيقها، فضلا عن الدورات المختلفة للشباب التي قد تمتد لتشمل التصوير الفوتوغرافي.



ترميم المخطوطات في مركز النور، عقول وطنية تحافظ على هويتها

حين عدنا ظهرًا إلى الفندق، سرني أن يكون هناك زوار ونزلاء. في البهو تعرفت على صديق لمجلة العربي اسمه خليل رجب حماد قال لي إنه التقى بفريق العربي الذي زار سيئون في العام ١٩٦٥م:

«العربي» كانت خير ضيف حل على بلدته، فقد عرَّف العالم على حضارة حضرموت». كرر لنا الرجلُ سعادته وأعاد على أسماعنا أغنية الفنان أبو بكر سالم بلفقيه:



تريم هي مدينة المساجد بلا منازع، و اشتهر أن بها ٣٦٠ مسجدا (على عدد يقرب من أيام العام)، وتتميز بالمساجد الطينية التي جعلتها - مع عمائرها ومكتباتها وأعلامها - عاصمة للثقافة الإسلامية

«مرحيب .. مرحيب بالطيب الأصلي ..
لي «الذي» شرف الدار بعد سنين مسهونة»

قال لنا رجب إن من بين ما نشرته «العربي» قبل أكثر من ٤٤ عامًا هو مشروع بناء مدرسة القرن، وهو ما دعا المهجريين الحضارمة – بعد رؤية «العربي» – إلى دعم بناء تلك المدرسة.

البحث عن فتاة غلاف

يكاد كل غلاف من أعداد «العربي» – أو لنقل النسبة الغالبة من أغلفة «العربي» – أن يحتفي بالمرأة، ليس فقط لأن النساء يقدمن مدنهن على النحو الأبهى بزينتهن وأزيائهن، وابتساماتهن، ولكن لأننا لا نستطيع أن نغفل نصف المجتمع. لكن البحث عن غلاف للمرأة في تريم أعيانا، ففي كل مرة تكاد الظروف تبتسم لعدسة زميلي سليمان حيدر تنغلق بعد أن تضيع الفرصة تلو الأخرى. في المدن العربية والغربية على حد سواء يمكن أن يحدث ذلك، لكن الصعوبة تكمن في مدينة محافظة يعتقد أبناؤها أن ظهور المرأة يمكن أن يسيء لها! وهو مستغرب في بلدٍ أعتقد أنه قطع أشواطا كثيرة في الاحتفاء بالمرأة، مبدعة وأديبة وفنانة، وأستاذة وأكاديمية وعالمة.



صبية تتأمل الكاميرا في إحدى حارات تريم

كانت طائرة حيدر إلى صنعاء تسبقني بيوم كامل. في الصباح التالي، جاءتني البشرى بأن الغلاف سيبتسم أخيرًا حين تزينه فتاة تريمية. نظرت إلى الساعة، وكنتُ في سيئون، قلت لصديقنا سعيد الشدادي الذي يسَّر لنا كلَّ اللقاءات في تريم وحولها: «الطائرة ستقلع في غضون الساعتين، فكيف سنذهب إلى تريم – على بعد نصف ساعة – ونعود بعد أن نصور، وألحق الطائرة؟ نظر إلي نظرة الواثق وهو يقول إن طائرة سيئون – صنعاء لن تطير من دوني هذا الصباح.

كنت قد خبرت الطريق الذي نمر به كل يوم، منذ سكنا سيئون، فما إن عبرنا شعار العاصمة الثقافية حتى تنفست الصعداء، لأننا قطعنا نصف المسافة. دخلنا إلى إحدى دور تعليم الفتيات. ويبدو أن مديرة الدار المنقبة لم تكن تدري عن مهمتنا!



النساء التريميات قد يختفين (أو تختفي وجوههن) من الطريق، لكنهن يعرفن الطريق إلى المساجد، وهناك مساجد مصليات مخصصة للنساء

أخذت أوزع النظر بين سعيد الشدادي والساعة، وجاءت المفاجأة بأنه لا يوجد تصوير، وأن مديرة الدار أبلغت رفضها بالأمس! حتى يعوضني الشدادي عما جرى، لم يدعني أركب طائرتي الأصلية، بل رتب تغيير الحجز لكي ألحق بالطائرة المباشرة التي تحلق قبلها! إنه اليمن السعيد!

النساء التريميات قد يختفين من الطريق، لكنهن يعرفن الطريق إلى المساجد، وقد رأيت وأنا أمر بحارة صغيرة تتسع لشخصين أو ثلاثة على الأكثر فتاة تجلس خلف عتبة البيت، وقد اعتمرت وشاحها تقرأ القرآن بصوتٍ جميل. لم يعد التدين في تريم تكلفًا، وليس التحفظ تأففا، بل هي الخطا التي ترسم التعفف في كل حين. دلني بعض من تحدثوا إلينا على مساجد مصليات للنساء، وهي تُنسبُ لنساء صالحات، قد يكون بعضها أسسه الرجال، ثم هجرت، قبل أن تعمر من جديد وتخصص للنساء (وأحيانا يحدث العكس). ومن أشهر مصليات نساء تريم: مصلى عيشة بنت الشيخ عمر المحضار، ومصلى خردة بالخليف، ومصلى شهابة بالنويدرة، ومصلى جنيدة بالسوق، ومسجد الحداد بالمحيضرة.



أطفال يلهون في حارات تريم

عطر الحضارمة

في إحدى الأمسيات اتجهت للقاء رئيس اللجنة الفنية لتريم عاصمة الثقافة الإسلامية، وهو الدكتور محمد أبو بكر المفلحي وزير الثقافة اليمني، الذي يحضر للإشراف على تنفيذ الخطة المقررة والمشاريع الثقافية الكثيرة التي تمت جدولتها منذ اختيرت تريم عاصمة للثقافة الإسلامية. الفعاليات كثيرة في تريم، وهي أيضا تقام في إطار الفعاليات خارج المدينة، سواء في شبام، أو سيئون، أو حضرموت الوادي والساحل. حدثني الدكتور المفلحي عن المشروعات التي أنجزت، وتلك التي في طور التحقق، فوزارة الثقافة تنفذ أكثر من ٤٦٠ نشاطا، نصفها أو يكاد مخصص لطباعة الكتب (٢٠٠ كتاب) وتكريم رواد اليمن، - من بين ٥٥٣ فعالية ثقافية أقرت في إطار الاحتفالية، بين مشاريع للبنية التحتية، ومؤتمرات وسواها.



منشدو تريم يحتفلون بـ «العربي» في ليلة ختامية

قال الدكتور المفلحي إن الدور التنويري التاريخي للمدينة بدأ برفضها لدعاة الردة الذين ظهروا بعد وفاة الرسول الكريم (صلى اللّه عليه وسلم)، فلم تناصر أو تؤوي المرتدين عن الإسلام، واستمر هذا الدور بإنجاب المدينة للعلماء والدعاة والمفكرين والمبدعين، الذين تخطى دورهم سور المدينة وحدود الوادي، الذين بدأت أسفارهم مع أشقائهم في حضرموت عبر الهجرات الشهيرة إلى الهند وإندونيسيا والملايو وسيلان قبل أكثر من خمسة قرون لتجلب العطور، وتأتي بالتوابل، وتستورد الحرير، وغيرها من

منتجات الشرق، ولتأخذ هذه البضائع طريقها برا وبحرًا لاحقا إلى مصر وفلسطين والشام، حتى أوربا.

استطرد المفلحي «كانت الهجرات الحضرمية إلى الشرق الآسيوي قد بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر. واستطاع ذلك المجتمع المهاجر أن ينشيء مجتمعًا يمنيا واعيا بأهمية الاندماج في فضائه الجديد، وهو اندماج لم يقطع صلة الأنساب للمهاجرين، ولم يفت في عضد الهوية الوطنية، وكانت سماحتهم رسالة سلام للدين الذي دعوا إليه، فانتشر الإسلام عبر الحضارمة بالحب، لا بالحرب».

كنتُ أستمعُ إلى الدكتور المفلحي وأنا أتأمل تاريخ تلك الهجرات الحضرمية. قلتُ لنفسي، صحيح أن الحضارمة أتوا بالعطور والحرير من الشرق، لكنهم ذهبوا إليه بعطرهم الخاص. عطر الحضارمة كان أخلاقهم، ورسالتهم، ونموذجهم. المشروع الذي وضعه علماء تريم – مقيمين ومهاجرين – كان ولا يزال، وسيظل إحياء علوم الدين، والتمسك باللغة العربية، وإشاعة السلام.

أعادني الدكتور المفلحي إلى تريم اليوم حين اختتم كلامه بأن أهالي تريم ضربوا مثلا في هجراتهم المسالمة، ففي الوقت الذي أصبحت الهجرة العربية والإسلامية تمثل هاجسا يحمل المشكلات للآخر الغربي في وطنه، فيصبحون متشددين في قبولهم للمسلم والعربي، تعد الهجرة التريمية – نموذجا للهجرة الحضرمية – مثالا للهجرة المسالمة، التي تفرض شريعة الإنسان، بقيمه الإسلامية الداعية للخير. كانت المدارس والأربطة التي أنجبت هؤلاء المهاجرين هي التي أهلتهم ليكونوا ذلك الضوء، ومن ثم فإن الحفاظ عليها، لمستقبل أجيالنا القادمة هو أمرٌ مهم من أجل مواصلة الدور المعرفي الذي مارسته المدينة منذ وقت مبكر وحتى اليوم.

عمارة الحضارة الطينية

كانت الحارات التي نتجول بها تسردُ علينا طرفا من أسرار عمارة الحضارة الطينية. الباب الكبير الذي يمثل درة في قلادة سور القصر يستدعي على ضلفتيه أماكن إسلامية مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة، أو عمارة شهيرة مثل منارة المحضار، أو خطوطا جميلة وزخرفة نباتية. وكأن الداخل كتاب، وهذا غلاف الكتاب الملون، أو عنوانه المرسوم بأناقة، وكأن مصمم الباب يقول لك: البيت يبان من عنوانه. وهناك بوّابات عليها آيات قرآنية، فدار عبد اللّه العيدروس المنشأة في القرن التاسع الهجري تحمل بوابتها سورة «يس» كاملة.

السور يمثل وظيفة أخرى هي إضفاء خصوصية على حرم البيت من الداخل. والأبواب والنوافذ مصنوعة من الحُمر، وهو خشب قوي.

زوايا سور البيت الخارجي، أو أركان جدرانه، لا تعرف القسوة، إنها مستديرة ناعمة، كأنها تؤهل السائر للمنحنى القادم والمدخل التالي، فلا يفاجأ بالقادمين في عكس الطريق. هي أيضا انحناءة مستقاة من أسطوانية المئذنة، وعزف على أحد مفاهيم العمارة الإسلامية. في البيوت الصغيرة التي لا تملك السور الحافظ من العيون الساتر من النظر، يحتال المعماري بأن يجعل الباب وراء جدار يشبه ساترًا أو جدارًا لا يغطي سوى الباب، وكثيرًا ما يكون الباب مثل منبر، تصعد إليه بدرجتين أو أكثر، وهي صفة معمارية إضافية مستلهمة من عمارة المسجد في الداخل. وهكذا لن تجرح عيون المشاة رؤية من تفتح الباب!

البيوت أغلبها من ثلاثة طوابق، على جدرانها نقوش وزخارف على هيئة دوائر وخطوط، وبعض الجدران تزدان بآيات من الذكر الحكيم، وربما بأبياتٍ من الشعر. في عمارة البيوت القديمة يلاحظ المتأمل وجود شمسة، وهي فتحة للتهوية من الداخل. بنيت المدينة على نظام الحارات، ويمكن أن تحدد مجموعة كل حارة حين تنظر إليها من عل. بالرغم من تلاصق المنازل، ستجد في كل حارة مجموعة من المساجد، وأمام كل مسجد بستان، وأحيانا ترى بئرًا للسقاية أو آثارها الباقية، وهناك - أحيانا - حوض لسقي الماشية، تذهب مياهه الزائدة لري أشجار نخيل ومحاصيل مما أوقف عادة للمسجد، يذهب ريعها إليه.

بعض البيوت الجديدة في تريم قد لا تلتزم بمادة البناء التي اشتهرت بها المدينة، الطين اللبن، المخلوط بالتبن، لكنها تحاول أن تأخذ سمت البيوت بتصميمها المعماري، وواجهاتها الملونة بلون الطين.

الدراجات النارية تحل مشكلات الشوارع الضيقة، التي لا تستطيع دخول السيارات إليها. فالدراجة النارية تقوم مكان سيارات الأجرة، التي لم أرها داخل المدينة. لم تعرف تريم السيارة إلا في العام ١٩٢٠، حين وصلت أول سيارة مفككة على ظهور الجمال من المكلا على بعد ٣٠٠ كيلومتر.

الليلة الكبيرة

تلك كانت ليلة الوداع، وقد أعد لنا الشدادي والجنيد وفرقة المسرة للإنشاد التابعة لدار المصطفى، ليلة وداعية استمتعنا فيها بهدوء الليل، وصفاء المناخ، وقوة الصوت، وجزالة الإيقاع. كانت رسالة الليلة الأخيرة .. الكبيرة، هي أن الترويح عن النفس لا يقل أهمية عن تعليمها وتهذيبها. وضع المنظمون لافتة يرحبون فيها بمجلة «العربي».

في الباحة نصب المنظمون السماعات المكبرة للصوت، وحين بدأ أداء النشيد - الذي ظهر في تريم منذ ألف عام ويزيد - تحولت الشرفات حول المكان إلى قاعات استماع. فالذين أمضوا نهارهم

في طاعة اللّه، والشباب الذين أحبوا إيقاعات الفرقة، اصطفوا ليشرفوا من عل وهم قابعون في الظلام حزمة النور والشدو.

قال منشد الفرقة إن أهم أهدافهم هو توجيه مسار الإنشاد الإسلامي الهادف والارتقاء به بما يناسب الجيل المعاصر. سافروا إلى مصر والإمارات، والسعودية للمشاركة بفنهم الذي كُرِّم أكثر من مرة باليمن. بعد أن اندمجنا طربين، أحسسنا أننا كساكني كوكب يسافر بغنائه في الليل. وكان بيننا نجوم في الغناء. وكان الشجن يرسم ساعاتنا الأخيرة في تريم. كانت «العربي» هنا قبل أكثر من ٤٤ عامًا، ثم عادت إلى تريم قبل ربع القرن، وها نحن نجدد في الألفية الثالثة الزيارة للمرة الثالثة. إنها مدينة تدعو للتأمل، وتزرع الأمل، وترسمُ صورة مدينة إسلامية تفخر بثقافتها، وتحتفي بها، وتحافظ عليها. وداعًا تريم، أو إلى اللقاء، يا عطر الحضارمة.

أشرف أبو اليزيد

الرئيسية

العربي الصغير

كُتَاب العربي

كُتَاب العربي الصغير

أرشيف العربي

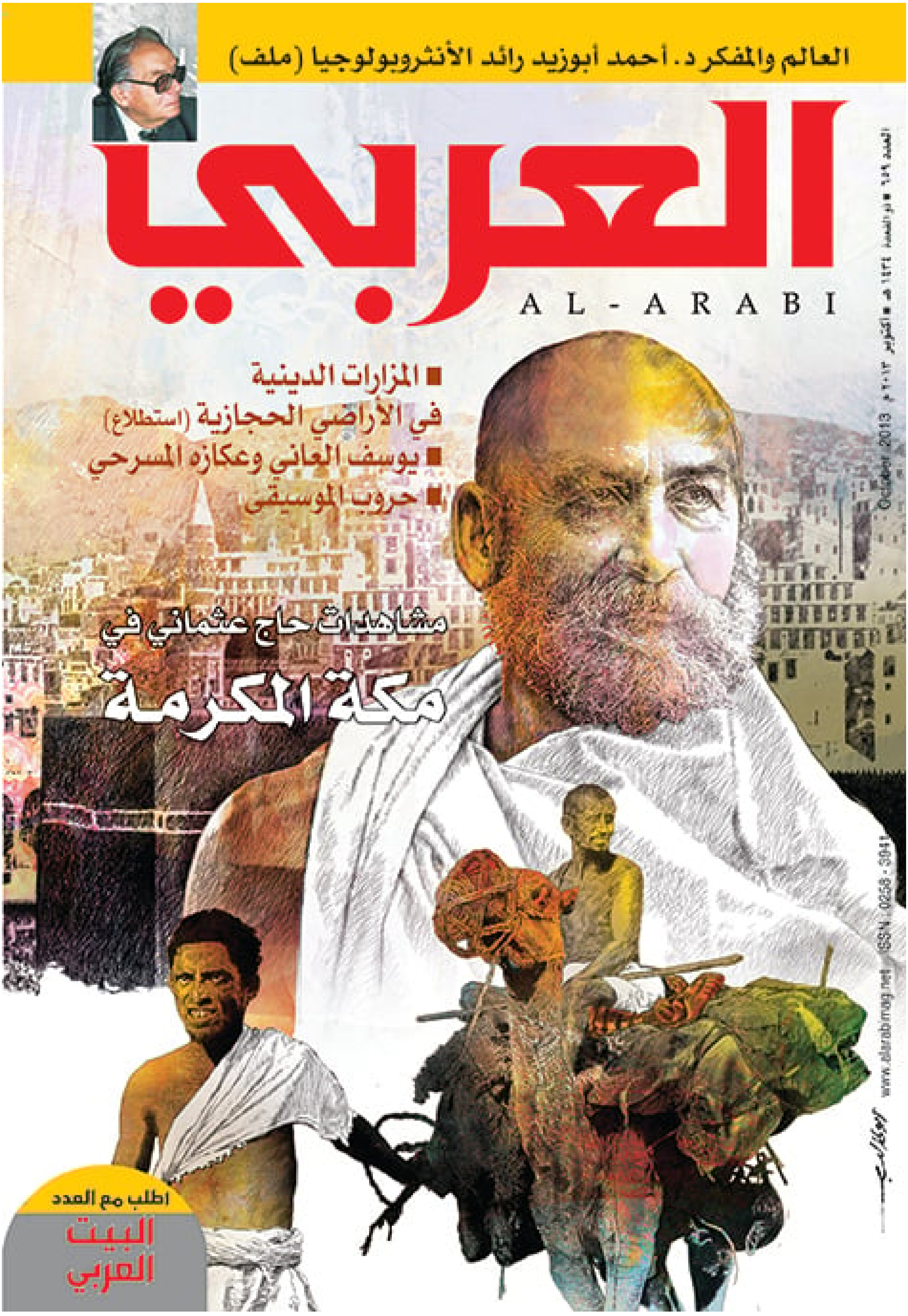
أرشيف العربي الصغير

استطلاعات

ملتقيات العربي

العالم والمفكر د. أحمد أبوزيد رائد الأنثروبولوجيا (ملف)

العربي
AL-ARABI



العدد ٦٥٩ ■ ذو القعدة ١٤٣٤ هـ ■ أكتوبر ٢٠١٣م October 2013 ■ ISSN 0258 - 3041 www.alarabimag.net

■ المزارات الدينية في الأراضي الحجازية (استطلاع)
■ يوسف العاني وعكازه المسرحي
■ حروب الموسيقى

مشاهدات حاج عثماني في
مكة المكرمة

حصن ثلاء.. قمم الجبال تحمي عروش الأئمة



بواسطة إبراهيم المليفي | استطلاعات | العدد ٦٥٩

تراءت لنا تحت السماء المفتوحة بقعة دائرية مفتوحة محاصرة بجيش من الجبال الشاهقة، وفي أوسطها جبل يعلوه حصن متهالك، هي من بعيد كأنها لوحة مائية رسمت بألوان طينية متفاوتة الدرجات كلما اقتربنا منها أفصحت أكثر عن تفاصيلها، بيوت حجرية تلتف على عنق الجبل وسور مهيب يطوق تلك المدينة القديمة في مشهد لحالة من الاستنفار والحذر من أخطار الغزاة، ذلك المشهد ملخصه «كن في الأعلى تكسب دائما» وطبق هذا الدرس أئمة اليمن لعقود طويلة احتلوا فيها قمم الجبال الشاهقة، إلى أن جاءهم زمن الطائرات الحربية التي طبقت نفس الدرس مقرونا بتكنولوجيا الزمن الحديث، فسقطت حصون الأئمة وانتصر أصحاب الطائرات.

ثلاء، مدينة عربية يمنية تبتسم لضيوفها على اختلاف مشاربهم، وتقطب حاجبيها لمن أراد بأهلها الشر، استقبلتنا خير استقبال وودعتنا بأمل العودة لها مجددا.

«المنحشرون»

تبعد مدينة ثلاء عن العاصمة صنعاء ٤٥ كلم شمالا وهي واحدة من خمس مدن يمنية ضمن مواقع ثقافية مؤقتة في قائمة التراث العالمي لمنظمة اليونسكو، كانت رحلتنا إليها رحلة جماعية مع إخوة من مختلف الأقطار العربية وبعض الزملاء الأجانب، بدأت منذ الصباح الباكر واستغرقت نصف يوم، وأغلب الوقت قضيناه في الحافلة بسبب الازدحام

المروري الخانق.
مازالت تعليمات مرافقنا ترن في أذانيً حتى اليوم «البسوا الأحذية الرياضية وأحضروا معكم بعض الملابس الثقيلة»، مثل ذلك الكلام لا نجده منسجما مع واقع حرارة الطقس في صنعاء وعندما انحشرنا في الحافلة وحافلتنا انحشرت في زحمة لم يتوقف «المنحشرون» عن التذمر لأن بعضهم ارتدى الملابس الثقيلة ومؤشر درجة الحرارة يصعد نحو الأربعين درجة، كان الرد حاسما: «في الجبل الحرارة غير وفي كوكبان ستعرفون السبب».
سائقنا أحضر معه لفافة من القات الطازج وبدأ في سحب أعواده وتقطيع أوراقه بيد واحدة والإمساك بمقود الحافلة باليد الأخرى، ومرافقنا الذي كان يجلس بجانبي شرع في قراءة صحيفته والسيجارة لا تفارق يده.
في الطريق والحافلة مازالت تقطع شوارع صنعاء شهدنا فورات متلاحقة عند أسواق على جانبي الطريق الكل كان يسأل ما الذي يحصل؟، «إنها ساعة شراء القات يا جماعة» الجواب أتانا هذه المرة من سائقنا العزيز، وهذا المنظر يتكرر يوميا قبل ساعة الغداء، الناس تترك أعمالها مؤقتا ويذهبون لشراء لفافة أو أكثر من «القات» الطازج الذي يلف بكيس بلاستيك خفيف والأسعار متفاوتة حسب الجودة، والأنواع تتجاوز الستين نوعا وكل مستهلك يشتري قدر ميزانيته، الطريف أن للموظفين علامة متفقا عليها للدلالة على أنهم سيرجعون لمقار أعمالهم وهي ترك «الكوفية» على الكرسي.
خرجنا من صنعاء ودخلنا في محافظة عمران حيث بدت لنا الطبيعة هناك أكثر جمالا والطقس يميل إلى الاعتدال والمساحات الخضراء مفروشة على مد النظر، ترتفع مدينة ثلاء ثلاثة آلاف متر تقريبا عن سطح البحر, وكلما ارتفعنا على ظهر جبل برزت أمامنا المئات من شجيرات القات القصيرة حيث تزرع في تلك الأماكن المرتفعة أغلى الأنواع وأجودها وهي تعد الاستثمار الأعلى ربحية والأقل كلفة لأن هذه الشجرة المخدرة تتحمل البرد القارص ولا تحتاج إلى الكثير من الماء، والجراد من «خبثها» لا يقترب منها وهي دائمة الخضرة غزيرة التوريق وعشاقها لا يتوقفون عن طلبها من الصغر حتى قبل الممات، هذه «الجدوى» الاقتصادية أو «العدوى» هي السبب الأول الذي جعل حقول القات تكتم أنفاس حقول البن والحمضيات.

بوابات ثلاء

تطل مدينة ثلاء على مدن حبابه ومحويت وعيال سريح وعمران ووتار، وتتبع جغرافيا محافظة عمران وإداريا لمديرية ثلاء ويبلغ عدد سكانها وفق آخر إحصاء أجري العام ٢٠٠٤ سبعة آلاف نسمة تقريبا، وقد بنيت منازل ثلاء من حجارة الجبل وهي محمية بسور يصل طوله إلى أكثر من ألفي متر تقريبا يتدرج ارتفاعه من مكان لآخر، والجدار الشمالي هو الأكثر ارتفاعا ويصل طوله إلى ٢٠ مترا، وتقام على ذلك السور أبراج المراقبة كما توجد ثماني بوابات منتشرة على طول ذلك السور، ومن أبرز معالم مدينة ثلاء حصنها الذي حمل اسم المدينة وبني على قمة الجبل.
حصن ثلاء الذي لم يعرف له تاريخ محدد لبنائه وقد ذكره المؤرخ الهمداني الذي عاش في القرن الرابع الهجري في كتابه «صفة جزيرة العرب» أي أنه بني قبل ذلك الزمن وقال الهمداني عن حصن ثلاء: «وثلاء حصن وقرية للمرايين من همدان، وتقع البلدة في السفح الشرقي للحصن», ويضيف مؤرخ آخر هو السياغي في كتابه «معالم الآثار اليمنية»: «إن حصن ثلاء يمتاز بحصانته ومنعته وبه العديد من الكهوف الواسعة ومدافن الحبوب وبرك الماء وفي شمال هذا الجبل – ومتصل به – حصن يسمى (الناصرة) وهو أعلى منه وفيه مآثر وبيوت خربة، وفي أعلاه القلعة المنيعة الأثرية، مما يعني أن قلعة أو حصن ثلاء هي من أهم القلاع والحصون الحربية، نظرا لوجودها على قمة أعلى مرتفع في منطقة ثلاء مما حصنها تحصينا طبيعيا جيدا، كما يتوافر بهذه القلعة معظم العناصر الحربية اللازمة لبناء القلعة».

وتضم مدينة ثلاء العديد من المعالم التي يمكن اكتشافها عبر التجوال بين شوارعها الضيقة، نذكر منها الجامع الكبير ويقع على تل مرتفع في وسط المدينة، وظلت الكثير من الكتابات بخط النسخ على جدران إيوان المسجد، أبرزها إعلان نهاية العمل في المسجد ونصها «وكان الفراغ من هذه العمارة المباركة في شهر ذي الحجة سنة سبع وتسعين وسبعمائة من الهجرة المباركة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم»، ويوجد في ثلاء مسجد آخر هو مسجد سعيد الكينعي ويقع جنوب المدينة والعديد من الأضرحة، كما توجد عين الماء الكبيرة، وأخيرا مدرسة الإمام شرف الدين وهي واحدة من سبع مدارس منتشرة في مختلف أنحاء اليمن أسسها يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن المهدي أحمد الذي ينتهي نسبه إلى الهادي بن الحسين.

ومدينة ثلاء مدينة علم تضم المدارس التي تعلم الفقه وتفسير القرآن وقواعد اللغة العربية ويوجد فيها الكثير من المساجد القديمة، ويقع على قمة الحصن قصر المطهر وهو اسم لشخصية اشتهرت بتصديها للوجود العثماني في اليمن، فقد واجه الإمام المطهر بن شرف الدين الأتراك مع والده في بداية الأمر ثم واصل القتال بعد وفاة أبيه في العام ٩٦٩ هجرية وفي المراحل الأخيرة من معاركه تحصن بحصن ثلاء المنيع وأجبر العثمانيين على الانسحاب بعد قذفهم وجنوده بالحجارة وتوفي المطهر في العام ٩٨٠ هجرية.

لم تتمكن الحافلة التي حملتنا رغم صغرها من اختراق شوارع مدينة ثلاء الضيقة سوى لمسافة محدودة، توقفنا بعدها في نقطة اعتبرت نقطة التلاقي التي يبدأ وينتهي منها زوار المدينة، نزلنا وأغلب الزوار يحملقون أول الأمر في الجبل العظيم مع عملية تمدد لاإرادية في الجسم بسبب طول مدة «الانحشار» في الحافلة.

في نقطة التلاقي حوصرنا بجمع من الصغار كأنهم فراشات فصل الربيع كل منهم يريد أن يكون دليلنا السياحي وبعضهم نجح في إقناع بعض الزبائن، توجهنا نحن كفريق دفعة واحدة نحو الجبل للصعود إلى الحصن وكان أكثر من مرافق لنا يتحفنا بأفضل ما لديه من معلومات.

السلم الحجري

كانت رحلة الصعود لقمة الجبل مهمة شاقة لي، والاعتراف بالحق فضيلة، ولعل ملاحظة قيمة سمعتها (طوق النجاة) وأنا في طريق الصعود هي أن بلوغ قمة الجبل الشاهق مضيعة للوقت مقارنة مع متعة اكتشاف معالم المدينة، لذلك قررت مع مجموعة من الزملاء «مسك العصا» من المنتصف.. نصعد قليلا ونستطلع المدينة بعدها.

سلم الصعود مصنوع من الأحجار غير المثبتة أي تتحرك كلما دسنا على حجر، تلك الأحجار أطرافها حادة كالموس والوضع يزداد صعوبة عندما يتعمد البعض من سكان المدينة تخطينا بسرعة وخفة وكل واحد منهم يسألنا عن الحساب.. أي حساب؟ لا أعلم.. ولاحقا عرفت أن هؤلاء المزعجين يريدون أجرة صعود الجبل!!، ويا للعجب كيف للجهات المعنية أن تترك للآخرين مهمة جباية أموال المواقع السياحية نيابة عنها؟!

عند هذا الحد توقفت أنا ومجموعة «العصا» بعد أن قطعنا نصف المسافة تقريبا ثم بحثت عن زميلي المصور اليمني عبدالرحمن الغابري وطلبت منه التقاط بعض الصور الجميلة لي عندما يصل إلى قمة الجبل ففعل مشكورا.

العين تدمع

السير في شوارع المدينة ورؤية منازلها الصغيرة له وقع في النفس أكثر من المشاهدة من الأعلى خاصة عندما يرتبط الأمر بالتصوير، كانت الساعة في يدي تشير إلى الثانية عشرة والنصف حينما بدأنا نشق طريقنا بين الأزقة.

لبرهة اعتقد زميل لنا أن حريقا شب في أحد البيوت ثم امتد للبيوت الأخرى ولكن دون العويل المعتاد في مثل هذه الحوادث لأن الأمر لا يعدو كونه ساعة إعداد الطعام بالطرق

التقليدية مثل استعمال الخشب، واصلنا السير ونحن نسأل عن عين الماء الكبيرة حتى وصلنا إليها، وهي تقع على أطراف مدينة ثلاء.

أخذنا ندور حول سور العين باتجاه أكثر مناطقها انخفاضًا حيث صنع سلم حجري تغوص درجاته في الماء، اقتربنا من سطح الماء كثيرا نتأمل فضاء المكان، كان لون الماء أزرق يميل إلى الخضرة وربما العكس، وفوق الماء تكونت طبقات طحلبية أعجز عن وصف بشاعتها أو الأثر السلبي الذي تتركه في النفس لو قيل لي اشرب من ماء العين، ما آلمني حقا هو تعمد بعض الناس من سكان المدينة جعل تلك العين الواسعة مكب نفايات لأكياسهم وقنانيهم، والغريب أن هذه البركة هي المصدر الرئيسي من المياه العذبة لسكان مدينة ثلاء! هذا الوضع يذكرني بمن يفقأ عينيه بإصبعه.

مع اقتراب ساعة المغادرة تعمدنا سلوك طريق مختلف نحو نقطة التلاقي، في أحد الأزقة رفع أحد الزملاء رأسه وأشار بسبابته قائلا: «انظروا هذا الجسر المعلق بين الجدارين يا ترى ما السبب؟»، رد عليه زميل آخر معنا مداعبا: «ربما كان صاحب المنزل متزوجا من امرأتين وأراد اختصار الطريق».

رجال مدينة ثلاء لم ألاحظ أن ملابسهم التقليدية تختلف كثيرا عن ملابس أهل صنعاء على الأقل أثناء جولتنا، ثوب وجاكيت وجنبية وغترة ملقاة على الكتف أو ملفوفة على الرأس، لكن الأمر اختلف مع النساء فملابسهن اختلفت عن ملابس نساء صنعاء التي يغلب عليها السواد، فهن يتدثرن بأغطية ملونة وزاهية، حمراء، وزرقاء، وصفراء، والأطفال غلب عليهم لبس البنطلون والجاكيت، وأخيرا كبار السن كانوا محافظين على لبس العمامة البيضاء والثوب التقليدي.

عند وصولنا إلى نقطة التلاقي، كان بانتظارنا استقبال مختلف تماما عن استقبال المرشدين الأطفال، هذه المرة حوصرنا من قبل باعة القطع الأثرية والتذكارات على أعضاء فريق الرحلة الذين أقبلوا على الشراء بشراهة وأنا معهم، أحد الزملاء الفرنسيين من الحافلة الأخرى استثمر ذهاب فتاة صغيرة إليه لطرح بعض الأسئلة عليها لكونه متخصصا في قضايا حقوق تعليم الأطفال وعدم تشغيلهم في سن مبكرة.

الفتاة كانت تبيع القلادات الفضية والحوار معها بدأ عن طريق مترجم، وبينما كانت تنظر بعيون بريئة وتستمع إلى السؤال الأول بالفرنسية عن عمرها، وقعت المفاجأة عندما ردت بكل ثقة باللغة الفرنسية.. عمري ثماني سنوات ثم أكملت الحوار والجميع مصاب بالذهول الممزوج بالفخر والاعتزاز. وعلمنا من المترجم – بطبيعة الحال – أن تلك الريحانة الصغيرة تتلقى تعليمها في الصباح وتعمل كبائعة للقلادات الفضية بعد نهاية وقت المدرسة وقد اكتسبت اللغات الأجنبية من المدرسة والاحتكاك اليومي مع السياح الأجانب.

أخيرا دارت محركات الحافلات معلنة عن نهاية رحلتنا لمدينة ثلاء وبداية رحلتنا إلى صنعاء مرورا بمنطقة كوكبان التي توقفنا فيها لأقل من ساعة وعرفنا جيدا سبب إلحاح مرافقنا على ضرورة إحضار بعض الملابس الثقيلة لأن سفوح كوكبان قطعة من سيبيريا.

منصات التواصل الاجتماعي